

تفسير
الكشاف

عن قتادة بن عوف عن التستري
وعيون الأفاويل في وجوه التأويل

وهو تفسير القرآن الكريم: لإمام جليله محمد بن عمر التستري
المعروف سنة ٥٧٨ هـ

المؤلف والناشر العربي
بيروت - لبنان

RT
130
A
1891
1897
A

CORNELL
UNIVERSITY
LIBRARY



BOUGHT WITH THE INCOME
OF THE SAGE ENDOWMENT
FUND GIVEN IN 1891 BY
HENRY WILLIAMS SAGE

الكشاف

عن حمت ابن غوا مصل التنزيل
وعيون الأفاويل في مجوه التأويل

وهو تفسير القرآن الكريم : للإمام جاد الله محمود بن عمر الزمخشري
المتوفى سنة ٥٢٨ هـ

وبذيله أربعة كتب :

الاول : الاتصاف : للإمام احمد بن المنير الاسكندري.
الثاني: الكافي الشاف في تخريج احاديث الكشاف: للحافظ ابن حجر العسقلاني.
الثالث : حاشية الشيخ محمد عليان المرزوق على تفسير الكشاف.
الرابع : مشاهد الانصاف على شواهد الكشاف للشيخ محمد عليان المذكور.

الجزء الرابع

الناشر دار الكتاب العربي
بغروت - لبنان

B796849
55
5
V.P.R.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة يس

مكية ، [إلا آية ٤٥ فمدنية]

وآياتها ٨٣ [نزلت بعد الجن]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ ١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ٣ عَلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ ٤ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ٥ لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ
فَهُمْ غَافِلُونَ ٦ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٧

قرئ : يس ، بالفتح (٣) ، كَأَيْنَ وكيف . أو بالنصب على اتل يس ، وبالكسر على الأصل
كبير ، وبالرفع على هذه يس . أو بالضم كحيث . ونحمت الالف وأميلت (٣) . وعن ابن عباس
رضي الله عنهما : معناه يا إنسان في لغة طي ، والله أعلم بصحته ، وإن صح فوجهه أن يكون
أصله يا أنيسين ، فكثرت النداء به على ألسنتهم حتى اقتصروا على شطره ، كما قالوا في القسم : م الله
في أيمن الله (الحكيم) ذي الحكمة . أولأنه دليل ناطق بالحكمة كالحى . أولأنه كلام حكيم فوصف
بصفة المتكلم به (على صراط مستقيم) خبر بعد خبر ، أو صلة للمرسلين . فإن قلت : أى حاجة
إليه خبرا كان أو صلة ، وقد علم أن المرسلين لا يكونون إلا على صراط مستقيم ؟ قلت : ليس الغرض

(١) قوله « قرئ » يس بالفتح ، يفيد أن السكون قراءة الجمهور ، والحركات قراءات لبعضهم ، فالفتح بناء أو
نصب ، والكسر بناء فقط ، فتدبر (ع)

(٢) قوله « وأخضت الالف وأميلت » يعنى : قرأ الجمهور بالتفخيم . وقرأ بعضهم بالامالة ، كما في النسخ . (ع)

بذكره ما ذهب إليه من تمييز من أرسل على صراط مستقيم عن غيره ممن ليس على صفته، وإنما الغرض وصفه ووصف ما جاء به من الشريعة، فجمع بين الوصفين في نظام واحد، كأنه قال: إنك لمن المرسلين الثابتين على طريق ثابت، وأيضاً فإن التشكير فيه دل على أنه أرسل من بين الصراط المستقيمة على صراط مستقيم لا يكتفه وصفه^(١)، وقرئ (تنزيل العزيز الرحيم) بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، وبالنصب على أعمى، وبالجزء على البدل من القرآن ﴿قوما ما أنذر آبائهم﴾ قوما غير منذر آبائهم على الوصف^(٢) ونحوه قوله تعالى (لتنذر قوما ما أنامهم من نذير من قبلك)، (وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير). وقد فسر (ما أنذر آبائهم) على إثبات الإنذار. ووجه ذلك أن تجعل ما مصدرية، لتنذر قوما إنذار آبائهم أو موصولة ومنصوبة على المفعول الثاني لتنذر^(٣) قوما ما أنذره آبائهم من العذاب، كقوله تعالى (إننا أنذرناكم عذاباً قريباً) فإن قلت: أى فرق بين تعلق قوله ﴿فهم غافلون﴾ على التفسيرين؟ قلت: هو على الأول متعلق بالنفي، أى: لم ينذروا فهم غافلون، على أن عدم إنذارهم هو سبب غفلتهم، وعلى الثاني بقوله (إنك لمن المرسلين) لتنذر، كما تقول: أرسلتك إلى فلان لتنذره، فإنه غافل. أو فهو غافل. فإن قلت: كيف يكونون منذرين غير منذرين لمناقضة هذا ما في الآي الآخر؟ قلت: لا مناقضة: لأن الآي في نفي إنذارهم لا في نفي إنذار آبائهم، وآبائهم القدماء من ولد إسماعيل وكانت النذارة فيهم^(٤) فإن قلت: ففي أحد التفسيرين أن آبائهم لم ينذروا وهو الظاهر، فما تصنع به؟ قلت:

(١) قال محمود: «إن قلت ماسر قوله على صراط مستقيم وقد علم بكونه من المرسلين أنه كذلك؟ وأجاب بأن الغرض وصفه ووصف ما جاء به، فجاء بالوصفين في نظام واحد، فكأنه قال: إنك لمن المرسلين على طريق ثابت. قال: وأيضاً ففي تشكير الصراط أنه مخصوص من بين الصراط المستقيمة بصراط لا يكتفه وصفه. انتهى كلامه» قال أحمد: قد تقدم في مواضع أن التشكير قد يفيد تفخيماً وتعليقاً وهذا منه.

(٢) قال محمود: إنه على الوصف كقوله (لتنذر قوما ما أنامهم من نذير) قال: وقد فسر (ما أنذر آبائهم) على إثبات الإنذار على أن ما مصدرية أو موصولة. قال: والفرق بين موقع الفاء على التفسيرين أنها على الأول متعلقة بالنفي معنى جواباً له، والمعنى أن نفي إنذارهم هو السبب في غفلتهم، وعلى الثاني بقوله (إنك لمن المرسلين) لتنذر، كما تقول: أرسلتك إلى فلان لتنذره، فإنه غافل أو فهو غافل انتهى. قال أحمد: يعنى أنها على التفسير الثاني تفهم أن غفلتهم سبب في إنذارهم.

(٣) قوله «على المفعول الثاني لتنذر» لعل بعده سقطاً تقديره: أى لتنذر. (ع)

(٤) قال محمود: فإن قلت كيف يكونون منذرين على هذا التفسير غير منذرين في قوله (ما أنامهم من نذير من قبلك) وأجاب بأن الآية لنفي إنذارهم لا لنفي إنذار آبائهم، وآبائهم القدماء من ولد إسماعيل، وقد كانت النذارة فيهم. قال: فما تصنع بأحد التفسيرين الذي مقتضاه أن آبائهم لم ينذروا وهو التفسير الأول في هذه الآية مع التفسير الثاني، ومقتضاه أنهم أنذروا، وأجاب بأن آبائهم الأباة هم المنذرون لا آبائهم الآدون. قال: ثم مثل تصميمهم على الكفر وأنهم لا يرجعون ولا يرجعون بأن جعلهم كالفلولين للمحقين في أنهم لا يلتفتون إلى الحق ولا يباطلون رؤسهم له، وكالحاصلين بين سدين لا يبصرون ما قدامهم ولا ما خلفهم قالوا غلال لأن طوق

أريد آباؤهم الآدون دون الأباعد (القول) قوله تعالى (لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) يعني تعلق بهم هذا القول وثبت عليهم ووجب؛ لأنهم ممن علم أنهم يموتون على الكفر.

إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾
وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَا فُؤَادَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾

ثم مثل تصميمهم على الكفر، وأنه لاسيل إلى ارعوائهم بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين؛ في أنهم لا يلتفتون إلى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه، ولا يبطأطون رموسهم له، وكالحاصلين بين سدين لا يبصرون ما قدامهم ولا ما خلفهم؛ في أن لا تأمل لهم ولا تبصر، وأنهم متعامون عن النظر في آيات الله. فإن قلت: ما معنى قوله (فهى إلى الأذقان)؟ قلت: معناه: فالأغلال واصله إلى الأذقان ملووزة إليها، وذلك أن طوق الغل الذى فى عنق المغلول، يكون ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقة فيها رأس العمود، نادراً^(١) من الحلقة إلى الذقن، فلا تخليه يبطأطع رأسه ويوطئ قذاله^(٢)، فلا يزال مقمحا. والمقمح: الذى يرفع رأسه ويفض بصره. يقال: قمح البعير فهو قماح: إذا روى فرفع رأسه. ومنه شهراً قماح^(٣): لأن الإبل ترفع رموسها عن الماء لبرده فيها، وهما الكانونان. ومنه: اقتحمت السوق. فإن قلت: فما قولك فيمن جعل الضمير للأيدى وزعم أن الغل لما كان جامعاً لليد والعنق - وبذلك يسمى جامعة - كان ذكر الأعناق دالا على ذكر الأيدى^(٤)؟ قلت: الوجه ما ذكرت لك، والدليل عليه قوله

== الغل يكون في ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقة فيها رأس العمود نادراً من الحلقة إلى الذقن، فلا تخليه يبطأطع رأسه، فلا يزال مقمحا. انتهى كلامه. قال أحمد: إذا فرقت هذا التشبيه كان تصميمهم على الكفر مشبها بالأغلال، وكان استكبارهم عن قبول الحق وعن الخضوع والتواضع لاستماعه، مشبها بالاقحاح: لأن المقمح لا يبطأطع رأسه. وقوله: (فهى إلى الأذقان) تنمة للزوم الاقحاح لهم، وكان عدم الفكر في القرون الحالية مشبهاً بسد من خلفهم، وعدم النظر في العواقب المستقلة مشبهاً بسد من قدامهم.

(١) قوله «رأس العمود نادراً» أى شاذاً، كما يفيد الصراح. (ع)

(٢) قوله «ويوطئ قذاله» فى الصراح «القذال»: جامع مؤخر الرأس، فتدبر. (ع)

(٣) قوله «ومنه شهراً قماح» بوزن كتاب وغراب، كما نقل عن القاموس. وفى الصراح: سمي بذلك؛ لأن الإبل إذا وردت فيها أذاها برد الماء بفاعت. (ع)

(٤) قال محمود: فإن قلت: فما قولك فيمن جعل الضمير للأيدى وزعم أن الغل لما كان جامعاً لليد والعنق وبذلك يسمى جامعة: كان ذكر الأعناق دالا على ذكر الأيدى. وأجاب بأن الوجه هو الأول، واستدل على هذا التفسير الثانى بقوله (فهم مقمحون) لأنه جعل الاقحاح نتيجة قوله (فهى إلى الأذقان) ولو كان الضمير للأيدى لم يكن معنى التسبب فى الاقحاح ظاهراً، وترك الحق الأبلغ للباطل اللجاج. انتهى كلامه. قال أحمد: ويحتمل أن تكون القاء للتعقيب كالقاء الأولى فى قوله (فهى إلى الأذقان) أو للتسبب، ولا شك أن مضط اليد مع العنق فى الغل يوجب الاقحاح؛ فإن اليد والياد بالله تعالى تبقى ممسكة بالغل تحت الذقن دافعة بها وممانعة من وطأتها، ويكون التشبيه ==

(فهم مغمضون) ألا ترى كيف جعل الإقحاح نتيجة قوله (فهى إلى الأذقان) ولو كان الضمير للأيدي لم يكن معنى التسبب في الإقحاح ظاهراً على أن هذا الإضممار فيه ضرب من التعسف وترك الظاهر الذى يدعو المعنى إلى نفسه إلى الباطن الذى يجفوه عنه وترك الحق الأبلغ إلى الباطل اللجلج^(١). فإن قلت : فقد قرأ ابن عباس رضى الله عنهما في أيديهم وابن مسعود في أيانهم ، فهل تجوز على هاتين القراءتين أن تجعل الضمير للأيدي أو للإيمان ؟ قلت : يأتى ذلك وإن ذهب الإضممار المتعسف ظهور كون الضمير للاغلال ، وسداد المعنى عليه كما ذكرت . وقرئ : سداً بالفتح والضم . وقيل : ما كان من عمل الناس فبالفتح ، وما كان من خلق الله فبالضم (فأغشيناهم) فأغشيناهم أبصارهم ، أى : غطيناها وجعلناها غشاوة عن أن تطمح إلى مرئى ، وعن مجاهد : فأغشيناهم : فألبسنا أبصارهم غشاوة . وقرئ بالعين من العشا . وقيل : نزلت في بنى مخزوم ، وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى محمداً يصلى ليرضخن رأسه ، فأتاه وهو يصلى ومعه حجر ليدمغه به ، فلما رفع يده أثبتت إلى عنقه ولزق الحجر بيده حتى فكوه عنها بجهد ، فرجع إلى قومه فأخبرهم ، فقال مخزومى آخر : أنا أقتله بهذا الحجر ، فذهب ، فأعشى الله عينه^(٢)

وَسَوَاءَ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنََ الْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾

فإن قلت : قد ذكر ما دل على انتفاء إيمانهم مع ثبوت الإنذار ، ثم فقاء بقوله (إنما تنذر) ^(٣) وإنما كانت تصح هذه التقفية لو كان الإنذار منفيًا . قلت : هو كما قلت ، ولكن لما كان ذلك نفياً للإيمان مع وجود الإنذار وكان معناه أن البغية المرومة بالإنذار غير حاصلة وهى الإيمان ، ففى بقوله (إنما تنذر) على معنى : إنما تحصل البغية بالإنذار من غير هؤلاء المنتذرين وهم المتبعون للذكر : وهو القرآن أو الوعظ ، الخاشون ربهم .

== أتم على هذا التفسير ، فإن اليد متى كانت مرسله مغللة كان للشلول بعض الفرج باطلاقها ، ولعله يتحلى بها على فكك الفل ، ولا كذلك إذا كانت مغلولة ، فيضاف إلى ما ذكرناه من التشبهات المفرقة أن يكون انسداد باب الحيل عليهم فى الهداية والاعتلاج من ربة الكفر المقدر عليهم مشبهاً بفل الأيدي ؛ فإن اليد آلة الحيلة إلى الخلاص .

(١) قوله (إلى الباطل اللجلج) أى الذى يردد من غير أن ينفذ . أفاده الصحاح . (ع)
(٢) أخرجه ابن إسحق فى السيرة فى كلام طويل . ورواه أبو نعيم فى الدلائل من طريق ابن إسحاق : حدثنى محمد بن محمد بن سعيد ، أو عكرمة ، عن ابن عباس : أن أبا جهل قال : إني أعاذه الله لأجل من غداً لمحمد بحجر ما أطيق حمله فإذا جهد فى صلاته فضخت به رأسه . فذكر نحوه إلى قوله قد يبست يده على حجره ، حتى قذف الحجر بين يديه : وأصله فى البخارى من طريق عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما

(٣) قال محمود : وإن قلت : قد ذكر ما دل على انتفاء إيمانهم مع ثبوت الإنذار ، ثم فقاء بقوله (إنما تنذر) وإنما كانت التقفية تصح لو كان الإنذار منفيًا ، وأحاب بأن الأمر كذلك ، ولكن لما بين أن البغية المرومة ==

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ

في إمام مُبِينٍ ١٢

(نحي الموتى) نبعثهم بعد مماتهم . وعن الحسن : إحيائهم : أن يخرجهم من الشرك إلى الإيمان (ونكتب ما) أسلفوا من الأعمال الصالحة وغيرها وماهلكوا عنه من أثر حسن ، كعلم علوه ، أو كتاب صفوه ، أو حيس حبسه ، أو بناء بنوه : من مسجد أو رباط أو قنطرة أو نحو ذلك . أو سي . كوظيفة وظفها بعض الظلام على المسلمين ، وسكة أحدث فيها تحسيرهم ، وشيء أحدث فيه صدعن ذكر الله : من ألحان وملاء ، وكذلك كل سنة حسنة أو سيئة يستن بها . ونحوه قوله تعالى (ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر) أى : قدم من أعماله ، وأخر من آثاره . وقيل : هى آثار المشائين إلى المساجد . وعن جابر : أردنا النقلة إلى المسجد والباق حوله (١) خالية ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتانا في ديارنا وقال : يا بني سلة ، بلغنى أنكم تريدون النقلة إلى المسجد ، فقلنا نعم ، بعد علينا المسجد والباق حوله خالية ، فقال : عليكم دياركم . فإنا تكتب آثاركم . قال : فإوددنا حضرة المسجد لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن عمر بن عبد العزيز : لو كان الله مغفلا شيئا لأغفل هذه الآثار التي تعفها الرياح . والإمام : اللوح . وقرئ : ويكتب ما قدموا وآثارهم على البناء للفعول . وكل شيء : بالرفع

وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ١٣ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ

اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَهُكُمْ مُرْسَلُونَ ١٤ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِن أَنْتُمْ إِلَّا

تَكْذِبُونَ ١٥

(واضرب لهم مثلاً) ومثل لهم مثلاً ، من قولهم : عندي من هذا الضرب كذا ، أى : من هذا المثال ، وهذه الأشياء على ضرب واحد ، أى على مثال واحد . والمعى . واضرب لهم مثلاً مثل أصحاب القرية ، أى : اذكر لهم قصة عجيبه قصة أصحاب القرية . والمثل الثاني بيان للاول . وانتصاب إذ بأنه بدل من أصحاب القرية . والقرية أنطاكية . و (المرسلون) رسل عيسى عليه

== بالانذار وهى الايمان منفية عنهم : ففاه بقوله (إنما تنذر) أو إنما تحصل بغية الانذار من اتباع الذكر . انتهى كلامه . قلت : فى السؤال سوء أدب ، وينبغى أن يقال : وما وجه ذكر الانذار الثاني فى معرض الخالفة للأول ، مع أن الأول إثبات ، والانذار الثاني كذلك .

(١) أخرجه ابن حبان فى الأول من الأول من طريق أبى نضرة عنه . وأصله فى سلم .

السلام إلى أهلها ، بعثهم دعاء إلى الحق وكانوا عبدة أوثان . أرسل إليهم اثنين ، فلما قربا من المدينة رأيا شيخا يرعى غنيات له وهو حبيب النجار صاحب يس ، فسألها فأخبراه ، فقال : أمعك آية ؟ فقالا : نشفى المريض وبرئ الأكمة والأبرص ، وكان له ولد مريض من سنتين فسحاه ، فقام ، فأمن حبيب وفشا الخبر . فشفى على أيديهما خلق كثير ، ورقى حديثهما إلى الملك وقال لهما : ألنا إله سوى آلهتنا ؟ قال : نعم من أوجدك وآلهتك ، فقال : حتى أنظر في أمركا ، فتبعهما الناس وضربوهما . وقيل : حبسا ، ثم بعث عيسى عليه السلام شمعون ، فدخل متكررا وعاشر حاشية الملك حتى استأنسوا به ، ورفعوا خبره إلى الملك فأأنس به ، فقال له ذات يوم : بلغني أنك حبست رجلين فهل سمعت ما يقولانه ؟ فقال : لا ، حال الغضب بيني وبين ذلك ، فدعاهما ، فقال شمعون : من أرسلكما ؟ قال : الله الذى خلق كل شيء وليس له شريك ، فقال : صفاه وأجزا . قال : يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد . قال : وما آيتكما ؟ قال : ما يتنى الملك ، فدعا بغلام مطموس العينين ، فدعوا الله حتى انشق له بصر ، وأخذنا بندقين فوضعهما في حدقتيه فكاتتا مقلتين ينظر بهما ، فقال له شمعون : رأيت لو سألت إلهك حتى يصنع مثل هذا فيسكون لك وله الشرف . قال : ليس لى عنك سر . إن إلهنا لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع ، وكان شمعون يدخل معهم على الصنم فيصلى ويتضرع ويحسبون أنه منهم ، ثم قال : إن قدر إلهكما على إحياء ميت آمنا به ، فدعوا بغلام مات من سبعة أيام فقام وقال : إني ادخلت في سبعة أودية من النار ، وأنا أحذركم ما أنتم فيه فأمنوا ، وقال : فتحت أبواب السماء فرأيت شابا حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة ، قال الملك : ومن هم ؟ قال شمعون ، وهذان ، فتعجب الملك . فلما رأى شمعون أن قوله قد أثر فيه نصحه فأمن وأمن معه قوم ، ومن لم يؤمن صاح عليهم جبريل عليه السلام صيحة فهلكوا ﴿ فعزونا ﴾ فقوتنا . يقال : المطر يعزى الأرض إذا لبدها وشدّها ، وتعزى لهم الناقة . وقرئ بالتخفيف من عزه يعزه : إذا غلبه ، أى : فغلبنا وقهرنا ﴿ بالث ﴾ وهو شمعون . فإن قلت : لم ترك ذكر المفعول به ؟ قلت : لأن الغرض ذكر المعز به وهو شمعون وما لطف فيه من التدبير حتى عز الحق وذل الباطل ، وإذا كان الكلام منصبا إلى غرض من الأغراض جعل سياقه له وتوجهه إليه ، كأن ما سواه مرفوض مطرح . ونظيره قولك : حكم السلطان اليوم بالحق ، الغرض المسوق إليه : قولك بالحق فلذلك رفضت ذكر المحكوم له والمحكوم عليه . إنما رفع بشر ونصب (١) في قوله ﴿ ما هذا بشرا ﴾ لأن إلا تنقض النفي ، فلا يبقى لما المشبهة بليس شبه ، فلا يبقى له عمل . فإن قلت : لم قيل : إنا إليكم

(١) قوله ﴿ إنما رفع بشر ونصب ﴾ عبارة للنفي : إنما رفع بشر منا ونصب ... الخ . (ع)

مرسلون أولاً^(١)، و﴿إنا إليكم لمرسلون﴾ آخرها؟ قلت: لأن الأول ابتداء إخبار، والثاني جواب عن إنكار.

قَالُوا رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾

وقوله (ربنا يعلم) جار مجرى القسم في التوكيد، وكذلك قولهم: شهد الله، وعلم الله. وإنما حسن منهم هذا الجواب الوارد على طريق التوكيد والتحقيق مع قولهم ﴿وما علينا إلا البلاغ المبين﴾ أى الظاهر المكشوف بالآيات الشاهدة لصحته؛ وإلا فلو قال المدعى: والله إنى لصادق فيما أدعى ولم يحضر البينة كان قبيحا.

قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾

﴿تطيرنا بكم﴾ تشاءمنا بكم، وذلك أنهم كرهوا دينهم ونفرت منه نفوسهم،^(٢) وعادة الجهال أن يتيمنوا بكل شئ. مالوا إليه واشتهوه وآثروه وقبلته طباعهم، ويتشاءموا بما نفروا عنه وكرهوه، فإن أصابهم نعمة أو بلاء قالوا ببركة هذا وبشؤم هذا، كما حكى الله عن القبط: وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه. وعن مشركى مكة: وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك. وقيل: حبس عنهم القطر فقالوا ذلك. وعن قتادة: إن أصابنا شئ كان من أجلكم ﴿طائرکم معکم﴾ وقرئ: طيرکم، أى سبب شؤمکم معکم وهو كفرهم. أو أسباب شؤمکم معکم وهى كفرهم ومعاصيهم. وقرأ الحسن: أطيرکم أى تطيرکم. وقرئ: أئن ذکرتم؟ بهمزة الاستفهام وحرف الشرط. وآئن بألف بينهما،^(٣) بمعنى: أتطيرون إن ذکرتم؟ وقرئ: أن ذکرتم بهمزة الاستفهام وأن الناصبة، يعنى: أتطيرتم لأن ذکرتم؟ وقرئ: أن، وإن، بغير استفهام لمعنى الإخبار، أى تطيرتم لأن ذکرتم، أو إن ذکرتم تطيرتم. وقرئ: أين ذکرتم: على التخفيف، أى شؤمکم معکم حيث جرى ذکركم. وإذا شتم المكان بذکركم كان محلولم فيه أشام ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ فى العصيان: ومن ثم أناکم الشؤم، لا من قبل رسل الله وتذکیرهم، أو بل أنتم قوم مسرفون فى ضلالکم متبادون فى غيکم، حيث تشاءمون بمن يجب التبرک به من رسل الله.

(١) قال محمود: «إن قلت: لم أسقط اللام هنا وأثبتها فى الثانية عند قوله (ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون) قلت: الأول ابتداء إخبار، والثاني جواب إنكار» قال أحد: أى فلاق توكيده.

(٢) قوله «ونفرت منهم» لعله: منه كبراءة النفس. (ع)

(٣) قوله «وآئن بألف بينهما» الذى فى النسب أن هذا وما قبله بياء مكسورة بدل الهمزة الثانية. (ع)

وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَبْقُومُ آتِيْعُوا الْمُرْسَلِينَ ۝٢٠
 آتِيْعُوا مَنْ لَا بَسْلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ۝٢١ وَمَالِي لَا أُعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي
 وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٢ مَا أَخْخِدُ مِنْ دُونِهِ إِلَهَةً إِنْ يُرْدُنِ الرَّحْمَنُ بُضْرًا لَأُنْثِنَ عَنِّي
 شَفَعْتُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِدُونَ ۝٢٣ إِنِّي إِذَا لَفَى ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝٢٤ إِنِّي آمَنْتُ
 بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونَ ۝٢٥

(رجل يسعى) هو حبيب بن إسرائيل النجار ، وكان ينحت الأصنام ، وهو من آمن
 برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وبينهما ستمائة سنة كما آمن به تبع الأكبر وورقة بن نوفل
 وغيرهما ، ولم يؤمن بنى أحد إلا بعد ظهوره . وقيل : كان في غار يعبد الله ، فلما بلغه خبر
 الرسل أباهم وأظهر دينه وقاويل الكفرة ، فقالوا : أو أنت تخالف ديننا ، فوثبوا عليه فقتلوه .
 وقيل : توطئوه بأرجلهم حتى خرج قصبه ^(١) من دبره . وقيل : رجوه وهو يقول : اللهم اهد
 قومي : وقبره في سوق أنطاكية ، فلما قتل غضب الله عليهم فأهلكوا بصيحة جبريل عليه السلام .
 وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : سباق الأمم ثلاثة : لم يكفروا بالله طرفة عين : على بن
 أبي طالب ، وصاحب يس ، ومؤمن آل فرعون ، ^(٢) (من لا يسئلكم أجراً وهم مهتدون) .
 كلمة جامعة في الترغيب فيهم ، أى : لا تخشرون معهم شيئاً من دنياكم ، وترجعون صحة دينكم
 فينتظم لكم خير الدنيا وخير الآخرة ، ثم أبرز الكلام في معرض المناصحة لنفسه وهو يريد
 مناعتهم ليتلطف بهم ويديارهم ، ولأنه أدخل في إحاض النصح حيث لا يريد لهم إلا ما يريد
 لروحه ، ولقد وضع قوله (وما لى لا أعبد الذى فطرني) مكان قوله : وما لكم لا تعبدون
 الذى فطركم . ألا ترى إلى قوله (وإليه ترجعون) ولولا أنه قصد ذلك لقال : الذى فطرني وإليه
 أرجع ، وقد ساقه ذلك المساق إلى أن قال (آمنت بربكم فاسمعون) يريد فاسمعوا قولى وأطيعوا ،
 فقد نهىكم على الصحيح الذى لا معدل عنه : أن العباداة لا تصح إلا لمن منه مبتدؤكم وإليه
 مرجعكم ، وما أدفع العقول وأنكرها لأن تستحبوا على عبادته عبادة أشياء إن أرادكم هو بضر
 وشفع لكم هؤلاء لم تنفع شفاعتهم ولم يمكنوا من أن يكونوا شفعاء عنده ؛ ولم يقدرُوا على

(١) قوله «حتى خرج قصبه» في الصحاح «القصبة» بالضم : المتقى . والمضى : واحد الأمعاء . (ع)

(٢) أخرجه الثعلبي من طريق عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبيه بهذا ، وفيه حرو بن جع وهو مقزوك . ورواه
 القليل والطبراني وابن مردويه ، من طريق حسين بن حسن الأشقر عن ابن هبيرة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن
 ابن عباس ، بلفظ «السباق ثلاثة» . فالسابق إلى عيسى صاحب يس ، والى محمد صلى الله عليه وسلم على بن أبي طالب

إنقاذكم منه بوجه من الوجوه ، إنكم في هذا الاستحباب لو أقعون في ضلال ظاهر بين لا يخفى على ذى عقل وتميز . وقيل : لما نصح قومه أخذوا يرجونه فأسرع نحو الرسل قبل أن يقتل ، فقال لهم ﴿إني آمنت بربكم فاسمعون﴾ أى اسمعوا إيماني تشهدوا لى به . وقرئ : إن يردنى الرحمن بضر ، بمعنى : أن يوردنى ضراً ، أى يجعلنى مورداً للضر .

فَإِذَا دَخَلَ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي

مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٣٧﴾

أى لما قتل ﴿قيل﴾ له ﴿ادخل الجنة﴾ وعن قتادة : أدخله الله الجنة وهو فيها حتى يرزق أراد قوله تعالى (بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين) وقيل : معناه البشرى بدخول الجنة ، وأنه من أهلها . فإن قلت : كيف مخرج هذا القول في علم البيان ؟ قلت : مخرجه مخرج الاستئناف ، لأن هذا من مظان المسألة عن حاله عند لقاء ربه ، كأن قاتلاً قال : كيف كان لقاء ربه بعد ذلك التصلب في نصرة دينه والتسخي لوجهه بروحه ؟ فقيل : قيل ادخل الجنة ولم يقل قيل له ، لأنصبا بـ الغرض إلى المقول وعظمه ، لا إلى المقول له مع كونه معلوماً ، وكذلك ﴿قال يا ليت قومي يعلمون﴾ مرتب على تقدير سؤال سائل عما وجد من قوله عند ذلك الفوز العظيم ، وإنما تمى علم قومه بحاله ، ليكون عليهم بها سبباً لا كتساب مثلها لأنفسهم ، بالتوبة عن الكفر والدخول في الإيمان والعمل الصالح المفضيين بأهلها إلى الجنة . وفي حديث مرفوع : نصح قومه حياً وميتاً .^(١) وفيه تنبيه عظيم على وجوب كظم الغيظ ، والحلم عن أهل الجهل ، والترؤف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار وأهل البغي ، والتشمر في تخليصه والتلطف في اقتدائه ، والاشتغال بذلك عن الشتمة به والدعاء عليه . ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته والباغين له الغوائل وهم كفرة عبدة أصنام . ويجوز أن يمتنى ذلك ليعلموا أنهم كانوا على خطأ عظيم في أمره ، وأنه كان على صواب ونصيحة وشفقة ، وأن عداوتهم لم تكسبه إلا فوزاً ولم تعقبه إلا سعادة ، لأن في ذلك زيادة غبطة له وتضاعف لذة وسرور . والأول أوجه . وقرئ : المكرمين . فإن قلت : ما في قوله تعالى ﴿بما غفر لي ربي﴾ أى المآآت هى ؟ قلت : المصدرية أو الموصولة ، أى : بالذى غفره لى من الذنوب . ويحتمل أن تكون استفهامية : يعنى بأى شيء غفر لى ربي : يريد به

(١) ورد هذا في قصة عروة بن مسعود أخرجه ابن مردويه من حديث المنيرة بن شعبة ، فذكر القصة وفي آخرها «فكان يقول وهو في النزع : يا معشر ثقيف اتقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطلبوا منه الأمان ، قبل أن يلفه موت فيفوزكم . فلم يزل كذلك حتى مات ، فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم . مقال : لقد نصح قومه حياً وميتاً ، وشبهه بمصاحب يس .

ما كان منه معهم من المصاهرة لإعزاز الدين حتى قتل. إلى أن قولك (بم غفر لي) بطرح الألف أجود وإن كان إثباتها جائزاً؛ يقال: قد علمت بما صنعت هذا، أى: بأى شيء صنعت وبم صنعت.

وَمَا أُنْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿٢٨﴾

إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَوْبَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾

المعنى: أن الله كفى أمرهم بصيحة ملك، ولم ينزل لإهلاكهم جنداً من جنود السماء، كما فعل يوم بدر والخنديق، فإن قلت: وما معنى قوله (وما كنا منزلين)؟ قلت: معناه: وما كان يصح في حكمتنا أن ننزل في إهلاك قوم حبيب جنداً من السماء، وذلك لأن الله تعالى أجرى هلاك كل قوم على بعض الوجوه دون البعض، وما ذلك إلا بناء على ما اقتضته الحكمة وأوجبه المصلحة. ألا ترى إلى قوله تعالى (فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا). فإن قلت: فلم أنزل الجنود من السماء يوم بدر والخنديق؟ قال تعالى (فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها)، (بألف من الملائكة مردفين)، (بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين)، (بخمسة آلاف من الملائكة مستومين)؟ قلت: إنما كان يكفي ملك واحد، فقد أهلكت مدائن قوم لوط بريشة من جناح جبريل، وبلاذ ثمود وقوم صالح بصيحة منه، ولكن الله فضل محمد صلى الله عليه وسلم بكل شيء على كبار الأنبياء وأولى العزم من الرسل، فضلاً عن حبيب التجار، وأولاده من أسباب الكرامة والإعزاز ما لم يوله أحداً؛ فمن ذلك: أنه أنزل له جنوداً من السماء، وكأنه أشار بقوله: (وما أنزلنا)، (وما كنا منزلين) إلى أن إزال الجنود من عظام الأمور التي لا يؤهل لها إلا ملك، وما كنا نفعله بغيرك (إن كانت إلا صيحة واحدة) إن كانت الأخذ أو العقوبة إلا صيحة واحدة. وقرأ أبو جعفر المدني بالرفع على كان التامة، أى: ما وقعت إلا صيحة، والقياس والاستعمال على تذكير الفعل؛ لأن المعنى: ما وقع شيء إلا صيحة، ولكنه نظر إلى ظاهر اللفظ وأن الصيحة في حكم فاعل الفعل، ومثلها قراءة الحسن: فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم، وبيت ذى الرمة:

• وَمَا بَقِيَتْ إِلَّا الضُّلُوعُ الْجَرَاشِعُ • (١)

(١) يرى لها سير الفياق وحرها وما بقيت إلا الضلوع الجراشع
اليد. يصف ناقته بأنها أذهب لها سير الأراشي القفرة، أى السير فيها وحرما الشديد، وما بقيت فيها إلا الضلوع.
وكان الأنصح حذف التاء؛ لأن المعنى: ما بقي فيها شيء إلا الضلوع، لكنه أنت نظراً للضلوع. والجراشع: جمع جرشع كقنفذ، وهو الغليظ المرتفع. ويرى: بدل الشطر الأول. طوى الحر والأجراز ما في عروضها =

وقرأ ابن مسعود: الأزقية : واحدة ، من زقا الطائر يزقو ويزقي ، إذا صاح . ومنه المثل :
أثقل من الزواقي (خامدون) خمدوا كما تخمد النار ، فتعود رماداً ، كما قال لبيد :

وَمَا الْمَرْءَ إِلَّا كَالشَّهَابِ وَضُوءِهِ يَحْجُورُ رَمَادًا بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعٌ ^(١)

يَحْشُرَةٌ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ^(٣٠)

(يا حشرة على العباد) نداء للحشرة عليهم ، كأنما قيل لها : تعالى يا حشرة فهذه من أحوالك التي حقك أن تحضري فيها ، وهي حال استهزائهم بالرسول . والمعنى أنهم أحقاء بأن يتحسر عليهم المتحسرون ، ويتلطف على حاكم المتلهفون . أو هم متحسر عليهم من جهة الملائكة والمؤمنين من الثقلين . ويجوز أن يكون من الله تعالى على سبيل الاستعارة في معنى تعظيم ما جنوه على أنفسهم ومخونها به ، وفرط إنكاره له وتعجيبه منه ، وقراءة من قرأ : يا حسرتا ، تعضد هذا الوجه لأن المعنى : يا حسرتي . وقرئ : يا حشرة العباد ، على الإضافة إليهم لاختصاصها بهم ؛ من حيث أنها موجهة إليهم . ويا حشرة على العباد : على إجراء الوصل مجرى الوقف .

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ^(٣١)

وَأِنْ كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ^(٣٢)

(ألم يروا) ألم يعلموا ، وهو معلق عن العمل في (كم) لأن كم لا يعمل فيها عامل قبلها ، كانت للاستفهام أو للخبر ؛ لأن أصلها الاستفهام ، إلا أن معناه نافذ في الجملة ، كما نفذ في قولك : ألم يروا إن زيداً لمنطلق ، وإن لم يعمل في لفظه . و(أنهم إليهم لا يرجعون) بدل من (كم أهلكنا) على المعنى ، لا على اللفظ ، تقديره : ألم يروا كثرة إهلاكنا القرون من قبلهم كونهم

== والأجزاء : جمع جزر ، وهي المفازة القمرية - والعروض : جمع عرض - بضم فسكون - : أي جنوبها . وروى : التحز ، بدل الحر ، وهو بنون فهمة فزاي : النخس والدفع . وروى «غروض» بفتح معجمة : جمع غرض ، كقفل : وهو حزام الرجل ، أراد به الصدر للعلاقة المجاورة . أو هو على حذف مضاف ، أي عمل غروضها . ويجوز أنه أراد بما في غروضها الصدر ذاته لالتصم واللحم . ومعنى الطي التضمير أو الإذابة على طريق المجاز .

(١) وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحجور رماداً بعد إذ هو ساطع

وما المال والأهلون إلا ودائع ولا بد يوماً أنت ترد الودائع

للبيد العامري ، أي : ليس حال المرء وحياته ومهنته ثم موته وفناؤه بعد ذلك إلا مثل حال شهاب النار وضوئه حال كونه يصير رماداً بعد إضاءته . ويمكن أن قوله «يحجور رماداً» استئناف مبين لوجه القبه ، وذلك تشبيه هيئة ولايصح تشبيه المرء بالشهاب وضوئه ، وشبه مال الشخص وأقاربه بالودائع تشبيهاً بليماً ، بما مع أنه لابد من أخذ كل ، وبين ذلك بقوله : ولا بد أن ترد الودائع في يوم من الأيام .

غير راجعين إليهم . وعن الحسن : كسر إن على الاستئناف . وفي قراءة ابن مسعود : ألم يروا من أهلكنا ، والبدل على هذه القراءة بدل اشتغال ، وهذا مما يرد قول أهل الرجعة . ويحكي عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قيل له : إن قوماً يزعمون أن عليا مبعوث قبل يوم القيامة ، فقال : بئس القوم نحن إذن نكفنا : نساءه وقسمنا ميراثه ^(١) . قرئ : لما ، بالتخفيف ، على أن (ما) صلة للتأكيد ، وإن : مخففة من الثقيلة ، وهى متعلقة باللام لا محالة . ولما بالتشديد ، بمعنى : إلا ، كالتى فى مسألة الكتاب . نشدتك بالله لما فعلت ، وإن نافية . والتثوين فى (كل) هو الذى يقع عوضا من المضاف إليه ، كقولك : مررت بكل قائما . والمعنى أن كلهم محشورون بموعود محضرون للحساب يوم القيامة . وقيل محضرون معذبون . فإن قلت : كيف أخبر عن كل بجمع ومعناها واحد ^(٢) ؟ قلت : ليس بواحد : لأن كلا يفيد معنى الإحاطة ، وأن لا ينفلت منهم أحد ، والجميع : معناه الاجتماع ، وأن المحشر يجمعهم . والجميع : فاعيل بمعنى مفعول ، يقال : حى جميع ، وجاؤا جميعاً

وَأَيُّ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ^(٣٣)
وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ^(٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ
ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ^(٣٥) سُبْحَنَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا
مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ^(٣٦)

القراءة بالميتة على الخفة أشيع ، أسلسها على اللسان . و (أحييناها) استئناف بيان لكون الأرض الميتة آية ، وكذلك نسلخ : ويجوز أن توصف الأرض والليل بالفعل ، لأنه أريد بهما الجنسان مطلقين لا أرض ^(٣) وليل بأعيانهما ، فعوملا معاملة النكرات فى وصفهما

(١) أخرجه الحاكم فى تفسير البقرة نحوه باختصار . وأخرجه ابن حديث الحسن فى فضائل الصحابة أهم منه . وليس فيه : بئس القوم نحن إذن

(٢) قال محمود : « إن قلت لم أخبر عن كل بجمع ومعناها واحد وأجاب بأن كلا يفيد الإحاطة لا ينفلت عنهم أحد وجميع تفيد الاجتماع وهو فاعيل بمعنى مفعول ويتهما فرق انتهى كلامه ، قال أحمد : ومن ثم وقع أجمع فى التوكيد تأيها لكل ؛ لأنه أخص منه وأزيد معنى

(٣) قال محمود : « يجوز أن يكون أحييناها صفة للأرض وصح ذلك لأن المراد بالأرض الجنس ولم يقصد بها أرض معينة وأن يكون بيانا لوجه الآية فيها » قال أحمد : وغيره من النعاة يمنع وقوع الجملة صفة للمعرف وإن كان جنسيا وليس الترض منه مبينا وبراعى هذا المانع المطابقة اللفظية فى الوصفية ومنه . ولقد أمر على التثنية .

بالأفعال، ونحوه :

• وَلَقَدْ أَمَرْتُ عَلَى النَّثِيمِ - يَسْفِينِ * (١)

وقوله (فنه يا كاون) بتقديم الظرف للدلالة على أن الحب هو الشيء الذي يتعلق به معظم العيش ويقوم بالارتزاق منه صلاح الإنس، وإذا قل جاء القحط ووقع الضرر، وإذا فقد جاء الهلاك ونزل البلاء. قرئ (وجرنا) بالتخفيف والثقل، والفجر والتفجير، كالفتح والتفتيح لفظاً ومعنى. وقرئ (ثمره) يفتحتين وضميتين وضمة وسكون، والضمير لله تعالى : والمعنى : ليأكلوا مما خلقه الله من الثمر (و) من (ما عملته أيديهم) من الفرس والسق والآبار، وغير ذلك من الأعمال إلى أن بلغ الثمر منتهاه وإبان أكله، يعنى أن الثمر في نفسه فعل الله وخلق، وفيه آثار من كد بني آدم، وأصله من ثمرنا كما قال : وجعلنا، وجرنا : فنقل الكلام من التكلم إلى النبية على طريقة الالتفات. ويجوز أن يرجع إلى النخيل، وترك الاعتناء غير مرجوع إليها، لأنه علم أنها في حكم النخيل فيما علق به من أكل ثمره. ويجوز أن يراد من ثمر المذكور وهو الجنات، كما قال رؤبة :

فِيهَا خُطُوطٌ مِنْ بَيَاضٍ وَبَلَقٌ كَأَنَّهٗ فِي الْجِلْدِ تَوَلَّيعُ الْبَهَقِ (٢)

ف قيل له، فقال : أردت كأن ذلك : ولك أن تجعل (ما) نافية على أن الثمر خلق الله ولم عمله أبدى الناس ولا يقدرين عليه. وقرئ على الوجه الأول، وما عملت من غير راجع، وهى في مصاحف أهل الكوفة كذلك، وفي مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشام مع الضمير (الأزواج) الأجناس والأصناف (وما لا يعلمون) ومن أزواج لم يطلعهم الله عليها ولا توصلوا إلى معرفتها بطريق من طرق العلم، ولا يبعد أن يخلق الله تعالى من الخلائق الحيوان والجماد ما لم يحمل للبشر طريقاً إلى العلم به، لأنه لا حاجة بهم في دينهم ودنياهم إلى ذلك العلم، ولو كانت بهم إليه حاجة لأعلمهم بما لا يعلمون، كما أعلمهم بوجود ما لا يعلمون. وعن ابن عباس رضى الله عنهما : لم يسمهم. وفي الحديث : ما لا عين رأت (٣) ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، بل ما أطلعهم عليه، فأعلمنا بوجوده وإعداداه ولم يعلمنا به ما هو، ونحوه (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) وفي الإعلام بكثرة ما خلق مما علموه وما جهلوه ما دل على عظم قدرته واتساع ملكه.

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ١٦ فراجع إن شئت اه مصححه .

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ١٤٩ فراجع إن شئت اه مصححه .

(٣) قوله «في الحديث ما لا عين رأت» أوله : «أعددت لعبادي الصالحين» كما مر في تفسير السجدة . (ح)

وَعَايَةَ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾

سَلَخَ جلد الشاة : إذا كَشَطَهُ عنها وأزاله . ومنه : سَلَخَ الحية لِحَرَشَاتِهَا ^(١) ، فاستعير لازالة الضوء وكشفه عن مكان الليل وملق ظله ﴿مُظْلِمُونَ﴾ داخلون في الظلام ، يقال : أَظْلَمْنَا ، كما تقول : أَعْتَمْنَا وَأَدَجَيْنَا ^(٢) ﴿لَمُسْتَقَرَّهَا﴾ لَحَدِّهَا مؤقت مقدر تنهى إليه من فلكها في آخر السنة ، شبه بمستقر المسافر إذا قطع مسيره ، أو لمنتهى لها من المشارق والمغارب ؛ لأنها تنقصها مشرقاً ومشرقاً ومغرباً حتى تبلغ أقصاها ، ثم ترجع فذلك حدها ومستقرها ؛ لأنها لا تعدوه أو لحدِّها من مسيرها كل يوم في مرأى عيوننا وهو المغرب . وقيل : مستقرها : أجلها الذي أقر الله عليه أمرها في جريها ، فاستقرت عليه وهو آخر السنة . وقيل : الوقت الذي تستقر فيه وينقطع جريها وهو يوم القيامة .

وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرًا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ

وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾

وقرى : تجرى إلى مستقر لها . وقرأ ابن مسعود : لامستقر لها ، أى : لانزال تجرى لامتستقر . وقرى : لامستقر لها ، على أن لا بمعنى ليس ﴿ذلك﴾ الجرى على ذلك التقدير والحساب الدقيق الذى تكل الفطن عن استخراجِه وتنجيزِ الأفهام في استنباطِه . ما هو لامستقره ، الغالب بقدرته على كل مقدور ، المحيط علماً بكل معلوم . قرى : والقمر رفعا على الابتداء ، أو عطفاً على الليل . يريد : من آياته القمر ، ونصبا بفعل يفسره قدرناه ، ولا بد في ﴿قدرناه منازل﴾ من تقدير مضاف ؛ لأنه لا معنى لتقدير نفس القمر منازل . والمعنى : قدرنا مسيره منازل وهى ثمانية وعشرون منزلاً ، ينزل القمر كل ليلة في واحد منها لا يتخطاه ولا يتقاصر عنه ، على تقدير مستو لا يتفاوت ، يسير فيها كل ليلة من المستهل إلى الثامنة والعشرين ، ثم يستمر ليلتين أو ليلة إذا نقص الشهر ، وهذه المنازل هى مواقع النجوم التى نسبت إليها العرب الأنواء المستمطرة ، وهى : الشرطان ، البطين ، الثريا ، الدبران ، الهقعة ، الهنعة ، الذراع ، النثرة ، الطرف ، الجبهة ، الزبرة ، الصرفة ، العوا ، السماك ، الغفر ، الزباني ، الإكليل ، القلب ، الشولة ، النائم ، البلدة ، سعد الذابح ، سعد بلع ، سعد السعود ، سعد الاخبية ، فرغ الدلو المقدم ،

(١) قوله «ومنه سَلَخَ الحية لِحَرَشَاتِهَا» فى الصحاح «الحرشاء» : مثل الحرياء : جلد الحية . (ع)

(٢) قوله «أَعْتَمْنَا وَأَدَجَيْنَا» : الدجى : وجع فى حافر الفرس أو خف البعير . أفاده الصحاح وغيره . (ع)

فرغ الدلو المؤخر، الرشا. فإذا كان في آخر منزله دق واستقوس، و(عاد كالمرجون القديم) وهو عود العذق، ما بين شماريخه إلى منبته من النخلة. وقال الزجاج: هو «فعلون» من الانعراج وهو الانعطاف. وقرئ: «المرجون، بوزن الفرجون»^(١)؛ وهما لغتان، كالزبون والزيون، والقديم الحول، وإذا قدم دق وانحنى واصفر، فشبه به من ثلاثة أوجه. وقيل: أقل مدة الموصوف بالقدم الحول، فلو أن رجلاً قال: كل مملوك لي قديم فهو حر. أو كتب ذلك في وصيته: عتق منهم من مضى له حول أو أكثر. وقرئ: «سابق النهار. على الأصل، والمعنى: أن الله تعالى قسم لكل واحد من الليل والنهار وآيتهما قسماً من الزمان، وضرب له حدا معلوماً، ودبر أمرهما على التعاقب، فلا ينبغي للشمس: أي لا يتسهل لها ولا يصح ولا يستقيم لوقوع التدبير على المعاقبة، وإن جعل لكل واحد من السيرين سلطان على حياله»^(٢) أن

(١) قوله «قرئ: المرجون بوزن الفرجون» في الصحاح «الفرجون»: الحمة، وقد فرجت الدابة إذا فرجتها. ومنه قول بعضهم: ادقوني في ثيابي ولا تحسوا عني تراباً، أي: لا تنفضوه. وفيه «الزيون»: السندس. (ع)

(٢) قال محمود: «معناه أن كل واحد منهما لا يدخل على الآخر في سلطانه فيطمس نوره بل هما متعاقبان بمقتضى تدبيره تعالى. قال: فإن قلت: لم جعلت الشمس غير مدركة والقمر غير سابق؟ قلت: لأن الشمس بطيئة السير تقطع فلحها في سنة والقمر يقطع فلحها في شهر، فكانت الشمس لبطئها جديرة بأن توصف بالادراك، والقمر لسرعته جديراً بأن يوصف بالسبق انتهى كلامه». قال أحد: يؤخذ من هذه الآية أن النهار تابع لليل وهو المذهب المعروف للفقهاء، وبيانه من الآية أنه جعل الشمس التي هي آية النهار غير مدركة للقمر الذي هو آية الليل، وإنما نفي الادراك لأنه هو الذي يمكن أن يقع، وذلك يستدعي تقدم القمر وتبعية الشمس، فانه لا يقال: أدرك السابق اللاحق، ولكن أدرك اللاحق السابق، وبحسب الامكان توقيع النفي، فالليل إذا متبوع والنهار تابع. فان قيل: هل يلزم على هذا أن يكون الليل سابق النهار؟ وقد صرحنا الآية بأنه ليس سابقاً، فالجواب: أن هذا مشترك الالزام، وبيانه أن الأقسام المحتملة ثلاثة: إما تبعية النهار لليل وهو مذهب الفقهاء. أو عكسه وهو المنقول عن طائفة من النحاة. أو اجتماعهما، فهذا القسم الثالث منفي باتفاق فلم يبق إلا تبعية النهار لليل وعكسه، وهذا السؤال وارد عليهما جميعاً؛ لأن من قال: إن النهار سابق الليل، لزمه أن يكون مقتضى البلاغة أن يقال: ولا الليل يدرك النهار، فان المتأخر إذا نفي إدراكه كان أبلغ من نفي سابقه، مع أنه يتناهى عن مقتضى قوله (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر) تنائياً لا يجمع شمل المعنى باللفظ، فان الله تعالى نفي أن تكون مدركة فضلاً عن أن تكون سابقة، فاذا أثبت ذلك فالجواب المحقق عنه أن المنفي السبقية الموجبة لتراخي النهار عن الليل وتخلل زمن آخر بينهما، وحينئذ يثبت التعاقب وهو مراد الآية. وأما سبق أول المتعاقبين للآخر منهما فانه غير معتبر. ألا ترى إلى جواب موسى بقوله: هم أولاء على أثره، فكيف لو كان متقدماً وهم في عقبه لا يتخلل بينهم وبينه مسافة؟ فذاك لو اتفق لكان سياق الآية يوجب أنه لا يعد عجلة ولا سيقاً، لحيث لا يكون القول بسبقية النهار لليل مخالفاً صدر الآية على وجه لا يقبل التأويل، فان بين عدم الادراك الدال على التأخير والتبعية وبين السابق برأياً بعيداً ومخالفاً أيضاً لبقية الآية، فانه لو كان الليل تابعاً ومتأخراً لكان أخرى أن يوصف بعدم الادراك ولا يبلغ به عدم السبق، ويكون القول بتقدم الليل على النهار مطابقاً لصدر الآية صريحاً، ولعجزها بوجه من التأويل مناسب لنظم القرآن وثبوت ضده أقرب إلى الحق من حبل وريده، والله الموفق للصواب من القول وتسيديده.

تدرك القمر) فجتمع معه في وقت واحد وتداخله في سلطانه فتطمس نوره ، ولا يسبق الليل النهار يعنى آية الليل آية النهار وهما الثيران ، ولا يزال الامر على هذا الترتيب إلى أن يبطل الله مآدبر من ذلك ، وينقض ما ألف فيجتمع بين الشمس والقمر ، ويطلع الشمس من مغربها . فإن قلت : لم جعلت الشمس غير مدركة ، والقمر غير سابق ؟ قلت : لأن الشمس لا تقطع فللكها إلا في سنة ، والقمر يقطع فللكه في شهر ، فكانت الشمس جديرة بأن توصف بالإدراك لتباطئ سيرها عن سير القمر خليقا بأن يوصف بالسبق لسرعة سيره (وكل) التوبن فيه عوض عن المضاف إليه ، والمعنى : وكلهم ، والضمير للشموس والأقار على ما سبق ذكره .

وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٤٤)

(ذريتهم) أولادهم ومن يهتمهم حمله . وقيل : اسم الذرية يقع على النساء ، لأنهن مزارعها وفي الحديث أنه نهى عن قتل الذراري يعنى النساء (من مثله) من مثل الفلك (ما يركبون) من الإبل ، وهى سفائن البر . وقيل (الفلك المشحون) سفينة نوح ، ومعنى حمل الله ذرياتهم فيها : أنه حمل فيها آباءهم الأقدمين ، وفى أصلابهم هم وذرياتهم ، وإنما ذكر ذرياتهم دونهم لأنه أبلغ فى الامتنان عليهم ، وأدخل فى التعجب من قدرته ، فى حمل أعقابهم إلى يوم القيامة فى سفينة نوح . و (من مثله) من مثل ذلك الفلك ما يركبون من السفن والزوارق (لا صريخ) لا مغيث . أولا إغاثة . يقال : أتاها الصريخ (ولاهم ينقذون) لا ينجون من الموت بالفرق (إلا الرحمة) إلا رحمة منا ولتنتج بالحياة (إلى حين) (١) إلى أجل يموتون فيه لا بد لهم منه بعد النجاة من موت الفرق . ولقد أحسن من قال :

وَلَمْ أَسْلَمْ لَكِي أَبْقَى وَلَكِنْ سَلَيْتُ مِنَ الْحِمَامِ إِلَى الْحِمَامِ (٢)
وقرأ الحسن رضى الله عنه : نغرقهم ،

(١) قال احمد : من هنا أخذ أبو الطيب :

ولم أسلم لكى أبقى ولكن سليت من الحمام إلى الحمام

لأنه تعالى أخبر أنهم إن سلوا من موت الفرق فذلك السلامة متاع إلى حين ، أى : إلى أجل يموتون فيه ، ولا بد .
(٢) للتبني يقول : ولم أسلم من حوادث الدهر ومكاره الحرب لأجل أن أخلد ، وإنما سليت من الحمام - ككتاب - : أى الموت ببعض الأسباب إلى أن أموت ببعضها الآخر . أو منقلب إلى الموت ببعضها الآخر ؛ لأنه لا خلود فى الدنيا .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾

وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾

(اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم) كقوله تعالى (أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض) وعن مجاهد: ما تقدم من ذنوبكم وما تأخر. وعن قتادة: ما بين أيديكم من الوقائع التي خلعت، يعني من مثل الوقائع التي ابتليت بها الأمم المكذبة بأنبيائها، وما خلفكم من أمر الساعة (لعلكم ترحمون) لتكونوا على رجاء رحمة الله. وجواب إذا محذوف مدلول عليه بقوله (إلا كانوا عنها معرضين) فكانه قال: وإذا قيل لهم اتقوا أعرضوا. ثم قال: ودأبهم الإعراض عند كل آية وموعظة.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا

أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٧﴾

كانت الزنادقة منهم يسمعون المؤمنين يعلقون أفعال الله تعالى بمشيئته فيقولون: لو شاء الله لا غنى فلانا، ولو شاء لأعزّه، ولو شاء لكان كذا؛ فأخرجوا هذا الجواب مخرج الاستهزاء بالمؤمنين وبما كانوا يقولونه من تعليق الأمور بمشيئة الله. ومعناه: أنطعم المقول فيه هذا القول بينكم، وذلك أنهم كانوا دافعين أن يكون الغنى والفقر من الله؛ لأنهم معطلة لا يؤمنون بالصانع؛ وعن ابن عباس رضى الله عنهما: كان بمكة زنادقة، فإذا أمروا بالصدقة على المساكين قالوا: لا والله، أيفقره الله ونطعمه نحن؟ وقيل: كانوا يوهمون أن الله تعالى لما كان قادراً على إطعامه ولا يشاء إطعامه فنحن أحق بذلك. نزلت في مشركي قريش حين قال فقراء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: أعطونا بما زعمتم من أموالكم أنها لله، يعنون قوله (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً)، فخرمهم وقالوا: لو شاء الله لأطعمكم.

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً

وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ

يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾

(إن أنتم إلا في ضلال مبين) قول الله لهم. أو حكاية قول المؤمنين لهم. أو هو من جملة جوابهم للمؤمنين. قرئ: وهم يخصمون بإدغام التاء في الصاد مع فتح الحاء وكسرها، وإتباع الياء الحاء في الكسر. ويخصمون على الأصل. ويخصمون، من خصمه. والمعنى: أنها تبغتهم

وهم في أمنهم وغفلتهم عنها ، لا يخطر ونها ببالهم مشغولين بخصوصياتهم في متاجرهم ومعاملاتهم وسائر ما يتخاصمون فيه ويتشاجرون . ومعنى خصمون : يخضم بعضهم بعضاً . وقيل : تأخذهم وهم عند أنفسهم يخضمون في الحجة في أنهم لا يبعثون (فلا يستطيعون) أن يوصوا في شيء من أمورهم (توصية) ولا يقدر على الرجوع إلى منازلهم وأهاليهم ، بل يموتون بحيث تفجؤهم الصيحة .

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٥١﴾

قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾

قرئ الصور ، بسكون الواو وهو القرن ، أو جمع صورة ، وحزرها بعضهم . و (الاجداث) القبور . وقرئ بالغاء (١) (ينسلون) يعدون بكسر السين وضمها ، وهي النفخة الثانية . قرئ : يا ويلتنا . وعن ابن مسعود رضى الله عنه : من أهبنا ، من هب من نومه إذا اتقه ، وأهبه غيره وقرئ : من هبنا بمعنى أهبنا : وعن بعضهم : أراد هب بنا ، فحذف الجار وأوصل الفعل : وقرئ : من بعثنا ، ومن هبنا ، على من الجارة والمصدر ، و (هذا) مبتدأ ، و (ما وعد) خبره ، وما مصدرية أو موصولة . ويجوز أن يكون هذا صفة للمرقد ، وما وعد : خبر مبتدأ محذوف ، أى : هذا وعد الرحمن ، أى : مبتدأ محذوف الخبر ، أى ما وعد (الرحمن وصدق المرسلون) حق . وعن مجاهد : للكفار هجمة يجردون فيها طعم النوم ، فإذا صيح بأهل القبور قالوا : من بعثنا ، وأما (هذا ما وعد الرحمن) فكلام الملائكة . عن ابن عباس . وعن الحسن : كلام المتقين . وقيل : كلام الكافرين يتذكرون ما سمعوه من الرسل فيجيئون به أنفسهم أو بعضهم بعضاً . فإن قلت : إذا جعلت (ما) مصدرية : كان المعنى : هذا وعد الرحمن وصدق المرسلين ، على تسمية الموعود والمصدق فيه بالوعد والصدق ، فما وجه قوله (وصدق المرسلون) إذا جعلتها موصولة ؟ قلت : تقديره : هذا الذى وعده الرحمن والذى صدقه المرسلون ، بمعنى : والذى صدق فيه المرسلون ، من قولهم : صدقوا الحديث والقتال . ومنه صدقنى سن بكره . فإن قلت : (من بعثنا من مرقدنا) ؟ سؤال عن الباعث ، فكيف طابقه ذلك جواباً ؟ قلت : معناه بعثكم الرحمن الذى وعدكم البعث وأنباكم به الرسل ؛ إلا أنه جرى به على طريقة : سيئت بها قلوبهم ، ونعيت إليهم أحوالهم ، وذكروا كفرهم وتكذيبهم ، وأخبروا بوقوع ما أنذروا به وكأنه قيل لهم : ليس بالبعث الذى عرفتموه وهو بعث النائم من مرقده ، حتى يهكم السؤال عن

(١) قوله «قرئ بالغاء» في الصحاح والجديد : القبر ، وهو إبدال الجذث . قال الفراء : العرب تعقب بين الغاء والثاء في اللفظ ، فيقولون : جدث وجدف ، وهى الاجداث والاجداف . (ع)

الباعث ، إن هذا هو البعث الأكبر ذو الأحوال والأفراح ، وهو الذى وعده الله فى كتبه المنزلة على ألسنة رسله الصادقين .

إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَمِيحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾
فَالْيَوْمَ لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَابَ
الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ
مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ

رَبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾

﴿إلا صيحة واحدة﴾ قرئت منصوبة ومرفوعة ﴿فاليوم لا تظلم نفس شيئا إن أصحاب الجنة اليوم في شغل﴾ (١) حكاية ما يمال لهم فى ذلك اليوم . وفى مثل هذه الحكاية زيادة تصوير للدعود ، وتمكين له فى النفوس ، وترغيب فى الحرص عليه وعلى ما يثمره (فى شغل) فى أى شغل وفى شغل لا يوصف ، وما ظنك بشغل من سعد بدخول الجنة التى هى دار المتقين ، ووصل إلى نيل تلك الخبطة وذلك الملك الكبير والنعيم المقيم ، ووقع فى تلك الملاذ التى أعدها الله للمرتضين من عباده ، ثوابا لهم على أعمالهم مع كرامة وتعظيم ، وذلك بعد الوله والصبابة ، والتفصى من مشاق التكليف ومضايق التقوى والحشية ، وتخطى الأحوال ، وتجاوز الأخطار وجواز الصراط . ومعاناة مالتى العصاة من العذاب ، وعن ابن عباس : فى اقتضاض الإبكار . وعنه : فى ضرب الأوتار . وعن ابن كيسان : فى التزاور . وقيل : فى ضيافة الله . وعن الحسن : شغلهم عما فيه أهل النار التمتع بما هم فيه . وعن الكلبي : هم فى شغل عن أهاليهم من أهل النار ، لا يهتمهم أمرهم ولا يذكرونهم : لئلا يدخل عليهم تنغيص فى نعيمهم . قرئ : فى شغل ، بضمين وضمة وسكون ، وفتحتين ، وفتحة وسكون . والفاكه والفكه : المتعم والمتلذذ : ومنه الفاكهة ؛ لأنها مما يتلذذ به . وكذلك الفكاهة ، وهى المراحة . وقرئ : فاكهون ، وفكهون ، بكسر الكاف وضمة ، كقولهم : رجل حدث وحدث (٢) ، ونطس ونطس . وقرئ : فاكهين وفكهين ،

(١) قال أحمد : هذا مما التنكير فيه للتفخيم ، كأنه قيل : فى شغل أى شغل ، وكذا قوله تعالى : سلام قولا

من رب رحيم .

(٢) قوله : كقولهم رجل حدث وحدث ، أى حسن الحديث ، والنطس البساح فى التطهن والمدقق فى العلم .

أفاده الصحاح . (ع)

على أنه حال والظرف مستقر ﴿هم﴾ يحتمل أن يكون مبتدأ وأن يكون تأكيذاً للضمير في (في شغل) وفي (فاكهون) على أن أزواجهم يشاركونهم في ذلك الشغل والتفكير والانتكاه على الأرائك تحت الظلال. وقرئ: في ظلل، والأريكة: السرير في الحجة^(١). وقيل: الفراش فيها. وقرأ ابن مسعود: متكئين ﴿يدعون﴾ يفعلون من الدعاء، أي: يدعون به لأنفسهم، كقولك: اشتوى واجتمل، إذا شوى^(٢) وجمل لنفسه. قال لبيد:

* فَاشْتَوَى لَيْلَةً رِيحٌ وَأَجْتَمَلَ * (٣)

ويحوز أن يكون بمعنى يتداعونه، كقولك: ارتموه، وتراموه. وقيل: يتمنون، من قولهم: ادع على ما شئت، بمعنى تمنه على، وفلان في خير ما ادعى، أي في خير ما تمنى. قال الزجاج: وهو من الدعاء، أي: ما يدعو به أهل الجنة بأنهم. و﴿سلام﴾ بدل عما يدعون، كأنه قال لهم: سلام يقال لهم ﴿قولا من﴾ جهة ﴿رب رحيم﴾ والمعنى: أن الله يسلم عليهم بواسطة الملائكة، أو بغير واسطة، مبالغة في تعظيمهم وذلك متمناهم، ولهم ذلك لا يمنونه. قال ابن عباس: فالملائكة يدخلون عليهم بالتحية من رب العالمين. وقيل: (ما يدعون)، مبتدأ وخبره سلام، بمعنى: ولهم ما يدعون سالم خالص لا شوب فيه. و﴿قولا﴾ مصدر مؤكد لقوله تعالى (ولهم ما يدعون سلام) أي: عدة من رب رحيم. والأوجه: أن ينتصب على الاختصاص، وهو من مجازه. وقرئ: سلم، وهو بمعنى السلام في المعنيين. وعن ابن مسعود: سلاما نصب على الحال، أي لهم مرادهم خالصا.

وَأَمَّا تَزُوا الْيَوْمَ أُيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩)

﴿وامتازوا﴾ وانفردوا عن المؤمنين، وكونوا على حدة، وذلك حين يحشر المؤمنون ويسارهم إلى الجنة. ونحوه قوله تعالى (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون، فأما الذين آمنوا

(١) قوله «السرير في الحجة» هي بيت العروس يزين بالثياب والتور، كذا في الصحاح. (ع)

(٢) قوله «اجتمل إذا شوى» في الصحاح: جمعت اللحم أجمله جلا، واجتملته: إذا أذنته. (ع)

(٣) وغلّام أرسلته أمه بالوك فبذلنا مأسال

أرسلته فأتاه رزقه فاشتوى ليلة ربح واحتمل

لبيد بن ربيعة. والالوك: الرسالة، أي: ورب غلام أرسلته أمه إلينا برسالة وهي هنا السؤال، فبذلنا مأساله من الطعام عقب سؤاله، وبين ذلك بقوله: أرسلته فأتاه رزقه، وفيه دلالة على أنه لم يكن عندهم طعام حين أتاهم الغلام، أي: فأتاه رزقه من الصيد، فاشتوى لنفسه من اللحم في ليلة ربح مظلة يقل فيها الجود، واحتمل: أي حمل كثيرا منه بنفسه لنفسه، ولامه التي أرسلته. ويروي: اجتمل، بالجيم: وفي الصحاح: جمعت اللحم واجتملته إذا أذنته، وهذه الرواية أنسب وأفيد.

وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون وأما الذين كفروا ... الآية) يقال : مازه فأنماز وأنماز . وعن قتادة : اعتزلوا عن كل خير . وعن الضحاك : لكل كافر بيت من النار يكون فيه ، لا يرى ولا يرى . ومعناه : أن بعضهم يمتاز من بعض .

أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾

وَأَن أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾

العهد : الوصية ، وعهد إليه : إذا وصاه . وعهد الله إليهم : ما ذكره فهم من أدلة العقل وأنزل عليهم من دلائل السمع . وعبادة الشيطان : طاعته فيما يوسوس به إليهم ويزينه لهم . وقرئ : إعهده ، بكسر الهمزة . وباب وفعل ، كله يجوز في حروف مضارعة الكسر ^(١) ، إلا في الياء . وأعده ، بكسر الهاء . وقد جوز الزجاج أن يكون من باب نعم ينعم وضرب يضرب . وأحده : بالحاء . وأحد : وهي لغة تميم . ومنه قولهم : دحا مح ^(٢) (هذا) إشارة إلى ما عهد إليهم من معصية الشيطان وطاعة الرحمن ، إذ لا صراط أقوم منه ، ونحو التنكير فيه ما في قول كثير :

لَيْتَن كَانَ يَهْدِي بَرْدُ أَنْيَابِهَا الْعَلَا لَأَفْقَرَ مِنِّي إِنِّي لَفَقِيرٌ ^(٣)

أراد : إني لفقير بليغ الفقر ، حقيق بأن أوصف به لكامل شرائطه في ، وإلا لم يستم معنى البيت ، وكذلك قوله (هذا صراط مستقيم) يريد : صراط بليغ في بابه ، بليغ في استقامته ، جامع لكل شرط يجب أن يكون عليه . ويجوز أن يراد : هذا بعض الصراط المستقيمة ،

(١) قوله في حروف مضارعة الكسر ، له مضارعه . (ع)

(٢) قوله « ومنه قولهم دحا مح » أي : دحا معها . (ع)

(٣) دعوت إلى دعوة ما جهلتها وربي بما تخفى الصدور يصير

لئن كان يهدي رد أنيابها العلا لأفقر مني إني لفقير

فاذكر الأخبار أن قد تزوجت فهل يأتيني بالطلاق بشير

لكثير عزة . وقيل : لمجنون ليل . وقوله « ما جهلتها » معناه : أنها عن قصد وحضور قلب . وقوله : لئن كان يهدي ، بيان للدعوة ، وما بينهما اعتراض للتأكيد وإفادة أن الدعوة كانت في السر ، أي : لئن كان يعطي برد أسنانها العليا ، خصها لأنها التي تبدو كثيرا . وقيل : العلا الشريفة ، لأحوج مني إني لبليغ في الفقر فأنما أحق بها من كل محتاج ، لأنني أحوج الناس إليها . ويجوز أن يرد أنيابها : كناية عن ذانها كلها ، وإني لفقير : خير بمعنى الانشاء مجازاً مرسلًا ؛ لأن إظهار شدة الاحتياج يلزمه الطلب . ويجوز أنه كناية عنه وهو جواب القسم المدلول عليه بالإلام ، وجواب الشرط محذوف وجوبا لدلالة المذكور عليه ، وما تمجيته ، وأكثر فصل تعجب ، والأخبار مفعوله ، وأن عطفة من الغفلة ، واسمها خير الشأن ، وهي على تقدير حرف الجر ، أي : أنسب من كثرة الأخبار المخبرة بزواجها ، وهل استفهام بمعنى التثني أو التعجب مجازاً مرسلًا لعلاقة مطلق الطلب ، أي : أنمي ذلك أو أتعجب من عدمه .

تويخا لهم على العدول عنه ، والتفادي عن سلوكه ، كما يتفادي الناس عن الطريق المموج الذي يؤدي إلى الضلالة والتهلكة ، كأنه قيل : أقل أحوال الطريق الذي هو أقوم الطرق : أن يعتقد فيه كما يعتقد في الطريق الذي لا يضل السالك ، كما يقول الرجل لولده وقد نصحه النصيح البالغ الذي ليس بعده : هذا فيما أظن قول نافع غير ضار ، تويخا له على الإعراض عن نصائحه .

وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ أَصَلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾
قرئ : جبلا ، بضمين ، وضمة وسكون ، وضمين وتشديدة ، وكسرتين ، وكسرة وسكون ، وكسرتين وتشديدة . وهذه اللغات في معنى الخلق . وقرئ : جبلا ، جمع جبلة ، كفطر وخلق . وفي قراءة على رضى الله عنه : جبلا واحدا ، لا أجيال .

الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾

يروى أنهم يحدون ويخاصمون ؛ فتشهد عليهم جيرانهم وأهاليهم وعشائرهم . فيحلفون ما كانوا مشركين ، حينئذ يختم على أفواههم وتكلم أيديهم وأرجلهم . وفي الحديث : (١) ويقول العبد يوم القيامة : إني لا أجزى على شاهد إلا من نفسي ، فيختم على فيه ، ويقال لأركانه : انطلق فتتلق بأعماله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول : بعداً لكن وسحقاً . فمنكن كنت أناضل ، (٢) وقرئ : يختم على أفواههم ، وتسكلم أيديهم . وقرئ : ولتكلما أيديهم وتشهد ، بلام كي والنصب على معنى : ولذلك تختم على أفواههم : وقرئ : ولتكلما أيديهم ولتشهد ، بلام الأمر والجزم على أن الله يأمر الأعضاء بالكلام والشهادة .

وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَبَقُوا مُصِيبًا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾
الطمس : تعفية شق العين حتى تعرد بمسوحة (فاستبقوا الصراط) لا يخلو من أن يكون على حذف الجار وإيصال الفعل . والأصل : فاستبقوا إلى الصراط . أو يضمن معنى ابتدروا .

(١) أخرجه مسلم والنسائي عن طريق الشعبي عن أنس ، وروى الحاكم فاستدركه ،

(٢) قوله « كنت أناضل » أى أجادل . (ع)

أو يجعل الصراط مسبوقة لا مسبوقاً إليه . أو ينتصب على الظرف . والمعنى : أنه لو شاء لمسح أعينهم ، فلو راموا أن يستبقوا إلى الطريق المهيح ^(١) الذي اعتادوا سلوكه إلى مساكنهم وإلى مقاصدهم المألوفة التي تردوا إليها كثيراً - كما كانوا يستبقون إليه ساعين في متصرفاتهم موضعين ^(٢) في أمور دنياهم - لم يقدروا ، وتعاني عليهم أن يهضروا ويعلموا جهة السلوك فضلاً عن غيره . أو لو شاء لأعماهم ، فلو أرادوا أن يمشوا مستبقين في الطريق المألوف - كما كان ذلك هجيراهم - لم يستطيعوا . أو لو شاء لأعماهم ، فلو طلبوا أن يخلفوا الصراط الذي اعتادوا المشي فيه لعجزوا ولم يعرفوا طريقاً ، بمعنى أنهم لا يقدرون إلا على سلوك الطريق المعتاد دون ما وراءه من سائر الطرق والمسالك ، كما ترى العميان يهتدون فيما ألقوا وضروا ^(٣) به من المقاصد دون غيرها (على مكائهم) وقرئ ، على مكائهم . والمكائة والمكان واحد ، كالمقامة والمقام . أى : لمسخناهم مسخاً يجمدهم مكانهم لا يقدرون أن يبرحوه بإقبال ولا إدبار ولا مضى ولا رجوع واختلاف في المسخ ، فعن ابن عباس : لمسخناهم قردة وخنازير . وقيل : حجارة . وعن قتادة : لا قعدناهم على أرجلهم وأزمانهم . وقرئ : مضياً بالحركات الثلاث ، فالمضى والمضى كالمضى واللقى . والمضى كالمضى .

وَمَنْ نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾

(ننكسه في الخلق) قلبه فيه فنخلقه على عكس ما خلقناه من قبل ، وذلك أنا خلقناه على ضعف في جسده ، وخلقنا من عقل وعلم ، ثم جعلناه يتزايد وينتقل من حال إلى حال ويرتقى من درجة إلى درجة ، إلى أن يبلغ أشده ويستكمل قوته ، ويعقل ويعلم ما له وما عليه ، فإذا انتهى نكسناه في الخلق فجعلناه يتناقص ، حتى يرجع في حال شبيهة بحال الصبي في ضعف جسده وقلة عقله وخلوه من العلم ، كما ينكس السهم فيجمل أعلاه أسفله . قال عز وجل ﴿ ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً ﴾ ، (ثم رددناه أسفل سافلين) وهذه دلالة على أن من ينقلهم من الشباب إلى الهرم ومن القوة إلى الضعف ومن راحة العقل إلى الخرف وقلة التمييز ومن العلم إلى الجهل بعد ما نقلهم خلاف هذا النقل وعكسه - قادر على أن يطمس على

(١) قوله « إلى الطريق المهيح » المهيح : الجنب ، والهيبة : الذوبان والسيلان وكل ما أفزعك من صوت ، كذا في الصحاح . ولعل المراد الذي سهله كثرة سلوكه . (ع)

(٢) قوله « موضعين » في الصحاح : وضع البعير وغيره : أسرع من سيره وأوضعه راكبه . (ع)

(٣) قوله « وضروا به » أى : مزنوا . (ع)

أعينهم ويمسحهم على مكاتبتهم ويفعل بهم ما شاء وأراد: وقرئ بكسر الكاف (١). وننكسه وننكسه، من التنكيس والإنكاس (أفلا يعقلون) بالياء والتاء.

وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِنُنْذِرَ

مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾

كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم: شاعر، وروى أن القائل: عقبة بن أبي معيط، فقيل (وما علمناه الشعر) أى: وما علمناه بتعليم القرآن الشعر، على معنى: أن القرآن ليس بشعر وما هو من الشعر فى شيء. وأين هو عن الشعر، والشعر إنما هو كلام موزون مقفى، يدل على معنى، فأين الوزن؟ وأين التقفية؟ وأين المعانى التى ينتجها الشعراء عن معانيه؟ وأين نظم كلامهم من نظمه وأساليبه؟ فإذا لا مناسبة بينه وبين الشعر إذا حققت، اللهم إلا أن هذا لفظه عربى، كما أن ذاك كذلك (وما ينبغى له) وما يصح له ولا يتطلب لو طلبه، أى: جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر لم يتأت له ولم يتسهل، كما جعلناه أمتياً لا يتهذى للخط ولا يحسنه، لتكون الحجة أثبت والشبهة أدهض. وعن الخليل: كان الشعر أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من كثير من الكلام، ولكن كان لا يتأتى له. فإن قلت: فقلوه:

أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبُ أَنَا آتَنُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ (٢)

وقوله: (٣)

هَلْ أَنْتَ إِلَّا أَصْبُعٌ دَمِيتَ وَفِي سَيْلِ اللَّهِ مَا لَقِيتَ (٤)

(١) قوله «وقرئ» بكسر الكاف، يفيد أن القراءة المشهورة بضم الكاف، وهما من التنكس. (ع)

(٢) متفق عليه من حديث البراء بن عازب فى حديث.

(٣) متفق عليه من حديث جندب بن سفيان فى حديث.

(٤) هَلْ أَنْتَ إِلَّا أَصْبُعٌ دَمِيتَ وَفِي سَيْلِ اللَّهِ مَا لَقِيتَ

يا نفس لا تقنطى بموتى هذى حياض الموت قد صليت

وما تميت فقد لقيت إن تفعل فعلهما حديث

لميداده بن ربيعة حين حل اللواء بعد قتل زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب فأصابت أصبعه فى الحرب فدميت وروى البخارى عن جندب أنه قال: بينا لى صلى الله عليه وسلم يمشى إذا أصابه حجر، فمتر، فدميت أصبعه فقال: «هل أنت إلا أصبع دميت وفى سبيل الله ما لقيت» فأفاد أنه صلى الله عليه وسلم يمثل بشعر غيره، وهو بكسر التاء على وفق القافية، وقال الكرماني: التاء فى الرجز مكسورة، وفى الحديث ساكنة. وقال هياض غفل بعض الناس فروى: دميت: ولقيت، بغير مد وخالف الرواية. وروى أحد الطيالسي أنه صلى الله عليه وسلم قاله حين كان غارجا إلى قنصاة، ودميت: صفة أصبع، والمعنى: لم يحصل لك شيء من الأذى إلا أنك دميت ولم يكن ذلك هدرًا بل كان فى سبيل الله ومرضاته لا غير، أى: الذى لقيت من الأذى فى سبيل الله، فلا تحزن، =

قلت : ما هو إلا كلام من جنس كلامه الذي كان يرمى به على السابقة ، من غير صنعة ولا تسكلف ، إلا أنه اتفق ذلك من غير قصد إلى ذلك ولا التفات منه إليه إن جاء موزوناً ، كما يتفق في كثير من إنشاءات الناس في خطبهم ورسائلهم ومحاوراتهم أشياء موزونة لا يسميها أحد شعراً ولا يخطر ببال المتكلم ولا السامع أنها شعر ، وإذا قنشت في كل كلام عن نحو ذلك وجدت الواقع في أوزان البحور غير عزيز ، على أن الخليل ما كان يعد المشطور من الرجز شعراً ، ولما نبي أن يكون القرآن من جنس الشعر قال ﴿ إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ﴾ يعنى : ما هو إلا ذكر من الله تعالى يوعظ به الإنسان والجن ، كما قال ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ وما هو إلا قرآن كتاب سماوى ، يقرأ في المحارب ، ويتلى في المتعبدات ، وينال بتلاوته والعمل بما فيه فوز الدارين ، فكم بينه وبين الشعر الذى هو من همزات الشياطين ؛ ﴿ لينذر ﴾ القرآن أو الرسول وقرى* : لتندر ، بالتاء . ولينذر : من نذر به إذا علمه ﴿ من كان حياً ﴾ أى عاقلاً متأملاً ، لأن الغافل كالميت . أو معلوماً منه أنه يؤمن فيحيا بالإيمان ﴿ ويحق القول ﴾ ونجب كلمة العذاب ﴿ على الكافرين ﴾ الذين لا يتأملون ولا يتوقع منهم الإيمان .

أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَمَهْمَا مَلِكُونَ ﴿٧١﴾
وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَارَ كَوْبُهمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ
أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

﴿ مما عملت أيدينا ﴾ مما تولينا نحن إحداثه ولم يقدر على توليه غيرنا ، وإنما قال ذلك لبعث الفطرة والحكمة فيها ، التى لا يصح أن يقدر عليها إلا هو . وعمل الأيدي : استعارة من عمل من يعملون بالأيدي ﴿ فمهما ملكون ﴾ أى خلقناها لأجلهم فملكناها إياهم ، فهم متصرفون فيها تصرف الملاك ، مختصون بالاتفاع فيها لا يزاحمون . أو فهم لها ضابطون قاهرون ، من قوله :

== ونزلها منزلة العاقل غاطها بذلك تصاية وثقيتها لها ، وهو في الحقيقة لنفسه ، ثم صرح بخطاب النفس شيئاً لها . بقوله إن لم تقتلى في الحرب فلا بد لك من الموت وهذه حياته فلا تفرى منها لأن الوقوع في البلاء أهون من انتظاره وشبه الموت بسبل على سبيل المكينة ، فأثبت لها الحياض تخيلاً ، وشبه بالنار كذلك ، فأثبت له الصل وهوا فتحام النار ، ولما منع من تدفيسه الشيء بأمرين مخففين مع الرمز لكل منهما بما يلائمه ، ويجوز استعارة الحياض للعرفة تصريحاً ، والذى تمنيته من الحرب المؤدى إلى الشهادة فقد لقيه ، إن تفعل كفعول زيد وجعفر ، هديت إلى طريق الخير .

أَصْبَحْتُ لَا أُحْمِلُ السَّلَاحَ وَلَا أَمْلِكُ رَأْسَ الْبَعِيرِ إِنْ نَقَرَا (١)

أى لا أضبطه ، وهو من جملة النعم الظاهرة . وإلا فمن كان يقدر عليها لولا تذييله وتسخيرها لها ، كما قال الفائل :

بُصِرْفَةُ الصَّبِيِّ بِكُلِّ وَجْهِ وَيَحْبِسُهُ عَلَى الْحَسْفِ الْجَرِيرُ
وَتَضْرِبُهُ الْوَلِيدَةُ بِالْهَرَاوَى فَلَا غَيْرَ لَدَيْهِ وَلَا نَكِيرُ (٢)

ولهذا ألزم الله سبحانه الراكب أن يشكر هذه النعمة ويسبح بقوله : سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . وقرئ : ركوبهم . وركوبتهم . وهما ما يركب . كالخلوب والحلوية . وقيل : الركوبة جمع . وقرئ : ركوبهم ، أى ذور ركوبهم . أو فن منافعها ركوبهم (منافع) من الجلود والأوبار والأصواف وغير ذلك (ومشارب) من اللبن ، ذكرها بجملة ، وقد فصلها في قوله تعالى (وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا ... الآية) والمشارب : جمع مشرب وهو موضع الشرب ، أو الشرب (وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا لَّهُمْ يُنْصَرُونَ ٧٤) لَا يَسْتَعْلِفُونَ نَصْرَهُمْ

(١) أصبح متى الغياب مبتكراً إن ينأ عنى فقد ثوى عصرا
فارقنا قبل أن تفارقه لما قضى من جماعتنا وطرا
أصبحت لا أملك السلاح ولا أملك رأس البعير إن نفرا
والذئب أخشاه إن مررت به وحدى وأخشى الرياح والمطر

للربيع بن منبج ، قاله حين بلغ مائة وأربعين عاما ، عاش بعده مائة وستين . والمبتكر : المسافر أول النهار ، فهو تشبيه بليغ ، ثم تسلى بقوله : إن ينأ ، أى بعد عنى فقد أقام عندى أزمنة طويلة فارقنا ، أى : ذهب عنا قبل أن نموت ، فقوله وفارقه ، مجاز عن ذلك ، أو كناية عنه ، أو مجاز عن البغض . والجماع : معناه الاجتماع والمصاحبة ، والوطر : الحاجة ، وهذا كله ترشيح للتشبيه أول الكلام ، ولا يخفى ما فى البيت من إيهام ما كان ينبغي الاحتراز منه ، فان قضاء الوطر من الجماع اشتهر استمهاله فى مقام الوطء ، ثم قال : صرت لأضبط السلاح بيدي ولا رأس البعير إن تدمنى ولا أقدر عليهما . ويروى : لأحمل السلاح ، أى : لأقدر على حمله ، وأخشاه : أى أخافه ، إن مررت به وحدى وأخاف الرياح والمطر ولومع غيرى ، وكل هذا كناية عن بلوغه غاية الضعف والمهرم .

(٢) لقد عظم البعير بغير لب فلم يستغن بالعظم البعير
بصرفه الصبي بكل وجه ويحبسه على الحسف الجزير
وتضربه الوليدة بالهراوى فلا غير لديه ولا نكير

لكثير مرة حين رآه عبد الملك بن مردوان قصيراً حقيراً ، فقال : تسمع بالمعدي غير من أن تراه . وقيل : للعباس ابن مرداس . وقيل : لمعاوية بن مالك الكلابي ، وعظم : ضخم وطال . واللب : العقل ، وأنى بالظاهر موضع المضمحل للتهويل فى الطول والجسامة ، بكل وجه : فى كل جهة . والحسف : الذل . والجرير : حبل غير الزمام يربط به . والهراوى : جمع هراوة وهى العصا ، وجمعها دلالة على كثرة الضرب . والغير - بالتحريك - الغيرة . والنكير : الانكار ، يعنى أن العبرة بالألأباب والعقول ، لا بالغلظ والطول .

وَمَنْ لَّهُمْ جُنْدٌ مُّحَضَّرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَزُكُّكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ

وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾

اتخذوا الآلهة طمعاً في أن يتقوا بهم ويعتضدوا بمكانهم ، والامر على عكس ما قدروا ، حيث هم جند لآلهتهم معدون (محضرون) يخدمونهم ويدبون عنهم ، ويغضبون لهم ؛ والآلهة لا استطاعة بهم ولا قدرة على النصر ، أو اتخذوهم لينصروهم عند الله ويشفعوا لهم ، والامر على خلاف ما توهموا ، حيث هم يوم القيامة جند معدون لهم محضرون لعذابهم ؛ لأنهم يجعلون وقوداً للنار . وقرئ : فلا يحزنك ، بفتح الياء وضمها ، من حزنه وأحزنه . والمعنى : فلا يهينك تكذيبهم وأذاهم وجفاؤهم ، فإنما عالمون بما يسرون لك من عداوتهم (وما يعلنون) وإنما مجازوهم عليه ، فحق مثلك أن يتلى بهذا الوعيد ويستحضر في نفسه صورة حاله وحالهم في الآخرة حتى ينقشع عنه الهم ولا يرهقه الحزن . فإن قلت : ما تقول فيمن يقول : إن قرأ قارى : أنا نعلم ، بالفتح : انتقضت صلاته ، وإن اعتقد ما يعطيه من المعنى : كفر ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن يكون على حذف لام التعليل ، وهو كثير في القرآن وفي الشعر ، وفي كل كلام وقياس معطرد ، وهذا معناه ومعنى الكسر سواء . وعليه تلبية رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الحمد والتعنة (١) لك ، كسر أبو حنيفة وفتح الشافعي ، وكلاهما تعليل . والثاني : أن يكون بدلاً من (قولهم) كأنه قيل : فلا يحزنك ، إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون . وهذا المعنى قائم مع المسكورة إذا جعلتها مفعولة للقول ، فقد تبين أن تعلق الحزن بكون الله عالماً وعدم تعلقه لا يدوران على كسر إن وفتحها ، وإنما يدوران على تقديرك ، فتفصل إن فتحت بأن تقدر معنى التعليل ولا تقدر البديل ، كما أنك تفصل بتقدير معنى التعليل إذا كسرت ولا تقدر معنى المفعولية ، ثم إن قدرته كسراً أو فاتحاً على ما عظم فيه الخطب ذلك القائل ، فافيه إلا أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحزن على كون الله عالماً بسرهم وعلايتهم ، وليس النهي عن ذلك مما يوجب شيئاً . ألا ترى إلى قوله تعالى (فلا تكونن ظهيراً للكافرين) . (ولا تكونن من المشركين) ، (ولا تدع مع الله إلهاً آخر)

أَوْ لَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾

وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُنجِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾

قُلْ يُنجِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ

مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾
إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسَبِّحْنَا الَّذِي بِيَدِهِ

مَلَكَوْتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

فبح الله عز وجل إنكارهم البعث تقييحا لا ترى أعجب منه وأبلغ ، وأدل على تمادي كفر
الإنسان وإفراطه في جحود النعم وعقوب الأيادي ، وتوغله في الحسة وتغلغله في القحة ^(١) ، حيث
قرره بأن عنصره الذي خلقه منه هو أخس شيء وأمهنة ، وهو النطفة المذرة الخارجة من
الإحليل الذي هو قناة النجاسة ، ثم عجب من حاله بأن يتصدى مثله على مهانة أصله ودناءة أوله
لخاصمة الجوار ، وشرز صفحته ^(٢) لمجادلته ، ويركب متن الباطل ويلج ، ويمحك ويقول : من يقدر
على إحياء الميت بعد ما رمت عظامه ، ثم يكون خصامه في ألزم وصف له وألصقه به ، وهو
كونه منشأ من موات ، وهو ينكر إنشاءه من موات ، وهي المسكبة التي لا مطمح وراءها ،
وروى أن جماعة من كفار قريش منهم أبي بن خلف الجمحي وأبو جهل والعاصي بن وائل والوليد
ابن المغيرة تكلموا في ذلك ، فقال لهم أبي : ألا ترون إلى ما يقول محمد ، إن الله يبعث الأموات ،
ثم قال : واللات والعزى لأصيرن إليه ولا خصمنه ، وأخذ عظاما بالياً فجعل يفته بيده وهو يقول :
يا محمد ، أترى الله يحيي هذا بعد ما قدرم ، قال صلى الله عليه وسلم : نعم ويبعثك ويدخلك جهنم ^(٣)
وقيل : معنى قوله ﴿ فاذا هو خصيم مبين ﴾ فاذا هو بعد ما كان ماء مهينا رجل عيز منطبق قادر
على الخصام ، مبين : معرب عما في نفسه فصيح ، كما قال تعالى (أو من ينشأ في الحلية وهو في
الخصام غير مبين) . فإن قلت : لم سمى قوله ﴿ من يحيي العظام وهي رميم ﴾ مثلاً ؟ قلت : لما دل
عليه من قصة عجيبة شبيهة بالمثل ، وهي إنكار قدرة الله تعالى على إحياء الموتي . أولما فيه من
التشبيه ، لأن ما أنكر من قبيل ما يوصف الله بالقدرة عليه ، بدليل النشأة الأولى ، فاذا قيل :

(١) قوله «وتغلغله في القحة» في الصحاح : وقع الرجل قحة ووقاحة ، إذا صار قليل الحياء . (ع)

(٢) قوله «وشرز صفحته ... الخ» في الصحاح «الشرز» الثبرس ، وهو النلظ . والمحك : اللجاج . (ع)

(٣) هكذا ذكره الحلبي عن قتادة بغير سند ، وأخرجه الحاكم من رواية أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن

عباس «أن العاص بن وائل أخذ عظاما من البطحاء ، ففتته بيده ، ثم قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أيجي الله
هذا بعد ما رم ؟ فقال : نعم ، يبعثك الله - الحديث » وروى البيهقي في الشعب من طريق حصين عن أبي مالك .

قال : جاء أبي بن خلف بعظم نحر - الحديث » وروى ابن مردويه من طريق الضحاك عن ابن عباس قال : «جاء

أبو جهل بعظم حائل » .

من يحيي العظام على طريق الإنكار لأن يكون ذلك مما يوصف الله تعالى بكونه قادراً عليه ، كان تعجيزاً لله وتشبيهاً له بخلقهم في أنهم غير موصوفين بالقدرة عليه . والريم : اسم لما بلى من العظام غير صفة ، كالرمة والرفات ، فلا يقال : لم لم يؤنث وقد وقع خبر المؤنث ؟ ولا هو فعيل بمعنى فاعل أو مفعول ، ولقد استشهد بهذه الآية من يثبت الحياة في العظام ويقول : إن عظام الميتة نجسة لأن الموت يؤثر فيها من قبل أن الحياة تتحلها . وأما أصحاب أبي حنيفة فهي عندهم طاهرة ، وكذلك الشعب والعصب ، ويؤمنون أن الحياة لا تتحلها فلا يؤثر فيها الموت ، ويقولون : المراد بإحياء العظام في الآية ردها إلى ما كانت عليه غضة رطبة في بدن حي حساس (وهو بكل خلق عليم) يعلم كيف يخلق ، لا يتعاطفه شيء من خلق المنشآت والمعادات ومن أجناسها وأنواعها وجلالها ودقائقها . ثم ذكر من بدائع خلقه انقذاح النار من الشجر الأخضر ، مع مضادة النار الماء وانطفائها به وهي الزناد التي توري بها الاعراض وأكثرها من المرخ والعفار ، وفي أمثالهم : في كل شجر نار . واستمجد المرخ والعفار ، يقطع الرجل منهما غصنين مثل السواكين وهما خضراوان ، يقطر منهما الماء فيسحق المرخ وهو ذكر ، على العفار وهي أنثى فتندح النار بإذن الله . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : ليس من شجرة إلا وفيها النار إلا العناب^(١) . قالوا : ولذلك تتخذ منه كذبيقات القصارين . قرئ : الأخضر ، على اللفظ . وقرئ : الخضراء ، على المعنى . ونحوه قوله تعالى (من شجر من زقوم فالتون منها البطون فشاربون عليه من الحميم) من قدر على خلق السموات والأرض مع عظم شأنهما فهو على خلق الأناسي أقدر ، وفي معناه قوله تعالى (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) وقرئ : يقدر ، وقوله (أن يخلق مثلهم) يحتمل معنيين : أن يخلق مثلهم في الصغر والقماء^(٢) . بالإضافة إلى السموات والأرض أو أن يعيدهم ؛ لأن المعاد مثل للبستاء وليس به (وهو الخلاق) الكثير المخلوقات (العليم) الكثير المعلومات . وقرئ : الخالق (إنما أمره) إنما شأنه (إذا أراد شيئاً) إذا دعاه داعي حكمة إلى تكوينه ولا صارف (أن يقول له كن) أن يكونه من غير توقف (فيكون) فيحدث ، أى : فهو كائن موجود لا محالة . فإن قلت : ما حقيقة قوله (أن يقول له كن فيكون) ؟ قلت : هو مجاز من الكلام وتمثيل ، لأنه لا يمتنع عليه شيء من المكونات ، وأنه بمنزلة المأمور المطيع إذا ورد عليه أمر الأمر المطاع . فإن قلت : فما وجه القراءة في فيكون ؟ قلت : أما الرفع فلأنها جملة من مبتدأ وخبر ؛ لأن تقديرها : فهو يكون ، معطوفة على مثلها ، وهي أمره أن يقول له كن . وأما النصب فللمعطف على يقول ، والمعنى : أنه لا يجوز عليه شيء مما يجوز على الأجسام

(١) لم أجده

(٢) قوله « والقماء » الصغر والذلة . أفاده الصحاح . (ع)

إذا فعلت شيئاً مما تقدر عليه ، من المباشرة بمحال القدرة ، واستعمال الآلات ، وما يتبع ذلك من المشقة والتعب والغروب إنما أمره وهو القادر العالم لذاته أن يخلص داعيه إلى الفعل ، فيتمكن من ذلك كيف يعجز عن مقدور حتى يعجز عن الإعادة ؟ ﴿ فسبحان ﴾ تنزيه له بما وصفه به المشركون ، وتعجيب من أن يقولوا فيه ما قالوا ﴿ بيده ملكوت كل شيء ﴾ هو مالك كل شيء والمتصرف فيه بمواجب مشيئته وقضايا حكيمته . وقرئ : ملكة كل شيء . وملك كل شيء . والمعنى واحد ﴿ ترجعون ﴾ بضم التاء وفتحها . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : كنت لا أعلم ما روى في فضائل يس وقراءتها كيف خصت ، بذلك ، فإذا أنه لهذه الآية .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لكل شيء قلباً ، وإن قلب القرآن يس ، من قرأ يس يريد بها وجه الله ، غفر الله تعالى له ، وأعطى من الأجر كما قرأ القرآن اثنتين وعشرين مرة ، وأما مسلم قرئ عنده إذا نزل به ملك الموت سورة يس نزل بكل حرف منها عشرة أملاك يقومون بين يديه صفوفًا يصلون عالياً ويستغفرون له ويشهدون غسله ويتبعون جنازته ويصلون عليه ويشهدون دفنه ، وأما مسلم قرأ يس وهو في سكرات الموت لم يقبض ملك الموت روحه حتى يحياه رضوان خازن الجنة بشربة من شراب الجنة يشربها وهو على فراشه ، فيقبض ملك الموت روحه وهو ريان ، ويمك في قبره وهو ريان . ولا يحتاج إلى حوض من حياض الأنبياء حتى يدخل الجنة وهو ريان ^(١) . وقال عليه الصلاة والسلام : « إن في القرآن سورة بشفع قارئها ويفر لمستمعها . ألا وهي سورة يس ، ^(٢) .

(١) أخرجه ابن مردويه والعللي من حديث أبي بن كعب ، وأوله في الترمذي من رواية هرون أبي محمد عن مقاتل بن حيان عن قتادة عن أنس . وقال : غريب . وهرون مجهول وفي الباب عن أبي بكر وأبي هريرة . فأما حديث أبي هريرة فأخرجه البزار وفيه حميد المكي مولى آل علقمة . وهو ضعيف . وحديث أبي بكر : أخرجه الحكيم الترمذي .

(٢) أخرجه الثعلبي من طريق محمد بن عمير عن هشام عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها .

سورة الصافات

مكية ، وهي مائة وإحدى وثمانون آية ، وقيل : واثنان وثمانون

[نزلت بعد الأنعام]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ① فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ② فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ③
إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ ④ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ⑤

أقسم الله سبحانه بطوائف الملائكة أو بنفوسهم الصافات أقدامها في الصلاة ، من قوله تعالى (وإننا لنحن الصافون) أو أجنحتها في الهواء واقفة منتظرة لأمر الله (فالزاجرات) السحاب سواق (فالتاليات) لكلام الله من الكتب المنزل وغيرها . وقيل (الصافات) : الطير ، من قوله تعالى (والطير صافات) والزاجرات : كل ما زجر عن معاصي الله . والتاليات : كل من تلا كتاب الله . ويجوز أن يقسم بنفوس العلماء العمال الصافات أقدامها في التهجّد وسائر الصلوات وصفوف الجماعات ، فالزاجرات بالمواعظ والنصائح ، فالتاليات آيات الله والدارسات شرائعه . أو بنفوس قواد الغزاة في سبيل الله التي تصف الصفوف وتزجر الخيل للجهاد ، وتتلو الذكر^(١) مع ذلك لا تشغلها

(١) قال محمود : «المقسم به طوائف الملائكة أو نفوسهم ، والمراد صفهم في الصلاة وزجرهم السحاب أي سوفهم وتلاوتهم ذكر الله أو العلماء والمراد تصافف أقدامهم في الصلاة وزجرهم بالمواعظ عن المعاصي وتلاوتهم الذكر إلى أن قال : ... «ويكون التفاضل بين الطوائف إما على أن الأول هو الأفضل أو على العكس» قال أحد : قد جوز أن يكون ترتيبها في التفاضل على أن الأول وهو الأفضل وعلى العكس ، ولم يبين وجه كل واحد منهما من حيث صنعة البديع ، ونحن نبينه فنقول : وجه البداية بالأفضل للاعتناء بالأهم . فقدم ؛ ووجه عكس هذا الترتيب من الأدنى إلى الأعلى ؛ ومنه قوله :

بها ليل منهم جعفر وابن أمه على ومنهم أحمد النخير
ولا يقال : إن هذا إنما ساغ لأن الواو لا تقتضي رتبة ، فإن هذا غاية أنه عذر ، وما ذكرناه بيان لما فيه من مقتضى البديع والبلاغة ؛ وفي هذه الآية دلالة على مذهب سيويه والخليل في مثل (والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلّى) فأنهما يقولان : الواو الثانية وما بعدها عواطف ، وغيرهما يذهب إلى أنها حروف قسم ؛ فوقع الفاء في هذه الآية موقع الواو والمعنى واحد ؛ إلا أن ما تزيده الفاء من ترتيبها دليل واضح على أن الواو الواقعة في مثل هذا السياق للعطف لا للقسم .

عنه تلك الشواغل ، كما يحكى عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه . فإن قلت : ما حكم الفاء إذا جاءت عاطفة في الصفات ؟ قلت : إما أن تدل على ترتب معانيها في الوجود ، كقوله :

يَا لَهْفَ رَبِّ يَا بَةَ الْحَرْثِ الصَّابِحِ فَالْعَائِمِ فَلَايِبِ ^(١)

كأنه قيل : الذى صبح فغم فآب . وإما على ترتبها في التفاوت من بعض الوجوه ، كقولك : خذ الأفضل فالأكمل ، واعمل الأحسن فالأجمل . وإما على ترتب موصوفاتها في ذلك ، كقوله : رحم الله المحلقين فالمقصرين ؛ فعلى هذه القوانين الثلاثة ينساق أمر الفاء العاطفة في الصفات . فإن قلت : فعلى أى هذه القوانين هى فيما أنت بصده ؟ قلت : إن وحدت الموصوف كانت للدلالة على ترتب الصفات في التفاضل ، وإن ثلثته ، فهى للدلالة على ترتب الموصوفات فيه ، بيان ذلك : أنك إذا أجريت هذه الأوصاف على الملائكة وجعلتهم جامعين لها ، فعطفها بالفاء يفيد ترتباً لها في الفضل : إما إن يكون الفضل للصف ثم للزجر ثم للتلاوة ، وإما على العكس ، وكذلك إن أردت العلماء وقواد الغزاة . وإن أجريت الصفة الأولى على طوائف والثانية والثالثة على آخر ، فقد أفادت ترتب الموصوفات في الفضل ، أعنى أن الطوائف الصفات ذوات فضل والزاجرات أفضل ، والتاليات أهر فضلاً ، أو على العكس ، وكذلك إذا أردت بالصفات : الطير ، وبالزاجرات : كل ما يزجر عن معصية . وبالتاليات : كل نفس تتلو الذكر ؛ فإن الموصوفات مختلفة . وقرئ : يادغام التاء في الصاد والزاي والذال ﴿ رب السموات ﴾ خبر بعد خبر . أو خبر مبتدأ محذوف . و﴿ المشارق ﴾ ثلثائة وستون مشرقاً ، وكذلك المغارب : تشرق الشمس كل يوم في مشرق منها وتغرب في مغرب ، ولا تطلع ولا تغرب في واحد يومين . فإن قلت : فإذا أراد بقوله (رب المشرقين ورب المغربين) ؟ قلت : أراد مشرق الصيف والشتاء ومغربيهما .

إِنَّا رَبُّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بَرِيْنَةُ الْكَوَاكِبِ ^(٦) وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَارِدٍ ^(٧)

﴿ الدنيا ﴾ القربى منكم . والزينة : مصدر كالنسبة ، واسم لما يزان به الشيء ، كالليقة اسم لما تلاق به الدواة ، ويحتملها قوله ﴿ بَرِيْنَةُ الْكَوَاكِبِ ﴾ فإن أردت المصدر ، فعلى إضافته إلى الفاعل ، أى : بأن زانها الكواكب ، وأصله : بَرِيْنَةُ الْكَوَاكِبِ : أو على إضافته إلى المفعول ، أى : بأن زان الله الكواكب وحسبها ، لأنها إنما زينت السماء لحسبها في أنفسها ، وأصله (بَرِيْنَةُ الْكَوَاكِبِ) وهى قراءة أبي بكر والاعمش وابن وثاب . وإن أردت الاسم فلا إضافة وجهان : أن تقع الكواكب بياناً للزينة ، لأن الزينة مهمة في الكواكب وغيرها مما يزان به ، وأن يراد

ما زينت به الكواكب . وجاء عن ابن عباس رضى الله عنهما : بزينة الكواكب : بضوء الكواكب : ويجوز أن يراد أشكالها المختلفة ، كشكل الثريا وبنات نعش والجوزاء ، وغير ذلك ، ومطالعها ومسارها . وقرئ على هذا المعنى : بزينة الكواكب ، بتنوين زينة وجر الكواكب على الإبدال . ويجوز في نصب الكواكب : أن يكون بدلاً من محل بزينة (وحفظاً) بما حمل على المعنى : لأن المعنى : إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء وحفظاً من الشياطين ، كما قال تعالى (ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين) ويجوز أن يقدر الفعل المعلن ، كأنه قيل : وحفظاً (من كل شيطان) زينها بالكواكب ، وقيل : وحفظناها حفظاً . والمارد : الخارج من الطاعة المتملس (١) منها .

لَا يَسْمَعُونَ إِلَى آلَمٍ إِلَّا مِّنْ خَطْفِ السَّيْطَانِ ۚ فَاتَّبِعْهُ شَيْبًا ثَاقِبًا ۚ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۚ (٩) إِلَّا مَن خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شَيْبًا ثَاقِبًا ۚ (١٠)

الضمير في (لا يسمعون) لكل شيطان ، لأنه في معنى الشياطين . وقرئ بالتخفيف والتشديد ، وأصله : يتسمعون . والتسمع : تطلب السماع . يقال : تسمع فسمع ، أو فلم يسمع . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : هم يتسمعون ولا يسمعون ، وبهذا ينصر التخفيف على التشديد . فإن قلت : لا يسمعون كيف اتصل بما قبله ؟ قلت : لا يخلو من أن يتصل بما قبله على أن يكون صفة لكل شيطان ، أو استثناءً فلا تصح الصفة : لأن الحفظ من شياطين لا يسمعون ولا يتسمعون لا معنى له ، وكذلك الاستثناء : لأن سائلاً لو سأل : لم تحفظ من الشياطين ؟ فأجيب بأنهم لا يسمعون : لم يستقم ، فبقى أن يكون كلاماً منقطعاً مبتدأً اقتصاصاً ، لما عليه حال المسترقة للسمع (١١) ، وأنهم لا يقدرُونَ أن يسمعوا إلى كلام الملائكة . أو يتسمعوا وهم

(١) قوله : من الطاعة المتملس منها ، في الصحاح : يقال : أغلس من الأمر ، إذا أغلته منه . (ع)
(٢) أبطال الزمخشري أن يكون (لا يسمعون) صفة لأن الحفظ من شيطان لا يسمع لا معنى له وأبطل أن يكون أصله ثلاثاً يسمعون ، لحذف اللام وحذفها كثير ، ثم حذف أن وأهدر عملها مثل :
ألا أيها ذا الزاجرى أحضر الوغي وأن أشهد اللذات هل أنت غلدى

واستبعد اجتماع هذين الحذفين ، وإن كان كل واحد منهما بانفراده سائلاً ، ولما أبطل هذين الوجهين تعين عنده أن يكون ابتداء كلام اقتصاصاً لما عليه أحوال المسترقة للسمع ، قال أحمد : كلا الوجهين مستقيم ، والجواب عن إشكاله الوارد على الوجه الأول : أن عدم سماع الشيطان سببه الحفظ منه ، فحال الشيطان حال كونه محفوفاً منه هي حاله حال كونه لا يسمع ، وإحدى الحالين لازمة للأخرى ، فلا مانع أن يجتمع الحفظ منه ، وكونه موصوفاً بعدم السماع في حالة واحدة لا على أن عدم السماع ثابت قبل الحفظ بل معه وقسيمه ، ونظير هذه الآية على هذا التقدير قوله تعالى (وسبح لعلكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) فقله تعالى (مسخرات) حال بما تقدمه العامل فيه الفعل الذي هو سحر . ومعناه مستقيم : لأن تسخيرها يستلزم كونها مسخرة ، فالحال التي =

مقدوفون بالشهب مدحورون عن ذلك ، إلا من أمهل حتى خطف خطفة واسترق استراقه ؛ فعندها تماجله الهلكة ياتباع الشهاب الثاقب . فإن قلت : هل يصح قول من زعم أن أصله : لتلا يسمعوا لحذفت اللام كما حذفت في قولك : جئتكم أن تكرمي ، فبقى أن لا يسمعوا لحذفت أن وأهدر عملها ، كما في قول القائل :

* أَلَا أَتَاهَاذَا الزَّاجِرِي أَخْضَرَ الْوُغَى * (١)

قلت : كل واحد من هذين الحذفين غير مردود على انفراده ، فأما اجتماعهما فنسكر من المنكرات ، على أن صون القرآن عن مثل هذا التعسف واجب . فإن قلت : أى فرق بين سمعت فلاناً يتحدث ، وسمعت إليه يتحدث ، وسمعت حديثه ، وإلى حديثه ؟ قلت : المعدى بنفسه يفيد الإدراك ، والمعدى بإلى يفيد الإصغاء مع الإدراك ، والملا الأعلى : الملائكة ؛ لأنهم يسكنون السموات . والإنس والجن : هم الملا الأسفل ؛ لأنهم سكان الأرض . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : هم الكتبة من الملائكة . وعنه : أشراف الملائكة (من كل جانب) من جميع جوانب السماء من أى جهة صعدوا للاستراق (دحوراً) مفعول له ، أى : ويقذفون للدحور وهو الطرد ، أو مدحورين على الحال . أو لأن القذف والطرد متقاربان في المعنى ، فكأنه قيل : يدحرون أو قذفاً . وقرأ أبو عبد الرحمن السلبى بفتح الدال على : قذفاً دحوراً طروداً . أو على أنه قد جاء بجى القبول والولوع . والواصب : الدائم ، وصب الامر وصوباً ، يعنى أنهم في الدنيا مرجومون بالشهب ، وقد أعد لهم في الآخرة نوع من العذاب دائم غير منقطع (من) في محل الرفع بدل من الواو في لا يسمعون ، أى : لا يسمع الشياطين إلا الشيطان الذى (خطف الخطفة) وقرئ : خطف بكسر الخاء والطاء وتشديدها ، وخطف بفتح الخاء وكسر الطاء وتشديدها ، وأصلهما : اختطف . وقرئ : فأتبعه ، وفاتبعه .

فَاسْتَفْتَيْمُ أَهْمُ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ (١١)

الهمزة وإن خرجت إلى معنى التقرير فهي بمعنى الاستفهام في أصلها ، فلذلك قيل

== سخرت فيها هي الحال التي كانت فيها مسخرة ، لاعلى معنى تسخيرها مع كونها مسخرة قبل ذلك ، وما أشار له العنقري في هذه الآية قريب من هذا التفسير : إلا أنه ذكر معه تأويلاً آخر كالمشكل لهذا الوجه ، لجعل مسخرات جمع مسخر مصدر كمرق ، وجعل المعنى : وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر أنواعاً من التسخير ، وفيها ذكرناه كفاية ، ومن هذا النمط (ثم أرسلنا رسلنا) وهم ما كانوا رسلاً إلا بالارسل ، وهؤلاء ما كانوا لا يسمعون إلا بالحفظ . وأما الجواب عن إشكاله الثاني فورود حذفين في مثل قوله تعالى (بين الله لكم أن تضلوا) وأصله لتلا تضلوا ، لحذف اللام ودلاء جميعاً من عملها .

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ١٥٩ فراجع إن شئت أم صححه .

﴿فاستفتهم﴾ أى استخبرهم ﴿أهم أشد خلقاً﴾ ولم يقل : فقرهم ، والضمير لمشركى مكة . قيل : نزلت فى أبى الأشد بن كعدة ، وكفى بذلك لشدة بطشه وقوته ﴿أم من خلقنا﴾ يريد : ما ذكر من خللاقه : من الملائكة ، والسموات والأرض ، والمشارق ، والكواكب ، والشهب الثواقب ، والشياطين المردة ، وغلب أولى العقل على غيرهم ، فقال : من خلقنا ، والدليل عليه قوله بعد عدت هذه الأشياء : فاستفتهم أهم أشد خلقاً أم من خلقنا ، بالفاء المعقبة . وقوله : أم من خلقنا ، مطلقاً من غير تقييد بالبيان ، اكتفاء ببيان ما تقدمه ، كأنه قال : خلقنا كذا وكذا من عجائب الخلق وبدائعه ، فاستفتهم أهم أشد خلقاً أم الذى خلقناه من ذلك ، ويقطع به قراءة من قرأ : أم من عددنا ، بالتخفيف والتشديد . وأشد خلقاً : يحتمل أقوى خلقاً من قولهم : شديد الخلق . وفى خلقه شدة ، وأصعب خلقاً وأشقه ، على معنى الرد لإنكارهم البعث والنشأة الأخرى ، وأن من هان عليه خلق هذه الخلائق العظيمة ولم يصعب عليه اختراعها كان خلق البشر عليه أهون . وخلقهم ﴿من طين لازب﴾ إما شهادة عليهم بالضعف والرخاوة لأن ما يصنع من الطين غير موصوف بالصلابة والقوة ، أو احتجاج عليهم بأن الطين اللازب الذى خلقوا منه تراب ، فمن أين استنكروا أن يخلقوا من تراب مثله حيث قالوا : أنذا كنا تراباً . وهذا المعنى يعضده ما يتلوهم من ذكر إنكارهم البعث . وقيل : من خلقنا من الأمم الماضية ، وليس هذا القول بلام . وقرئ : لازب ولاذب ، والمعنى واحد ، والثاقب : الشديد الإضاءة .

بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۖ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ۖ وَإِذَا رَأَوْا

آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ۖ

﴿بل عجبك﴾ من قدرة الله على هذه الخلائق العظيمة ﴿و﴾ هم ﴿يسخرون﴾ منك ومن تعجبك وما تريهم من آثار قدرة الله ، أو من إنكارهم البعث وهم يسخرون من أمر البعث . وقرئ بضم التاء ، أى : بلغ من عظم آيات وكثرة خلائقي أنى عجبك منها ، فكيف بعبادى وهؤلاء بجهلهم وعنادهم يسخرون من آياتي أو عجبك من أن ينكروا البعث ممن هذه أفعاله ، وهم يسخرون ممن يصف الله بالقدرة عليه . فإن قلت : كيف يجوز العجب على الله تعالى ، وإنما هو روعة تعزى الإنسان عند استعظامه الشيء ، والله تعالى لا يجوز عليه الروعة ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن مجرد العجب لمعنى الاستعظام : والثانى : أن يتخيل العجب ويفرض . وقد جاء فى الحديث : عجب ربكم من ألكم ^(١) وقنوطكم وسرعة إجابته إياكم ^(٢) . وكان شرح

(١) قوله من ألكم وقنوطكم ، الال : يأتي بمعنى السرعة والآنين والفساد . أناده الصحاح . (ع)

(٢) أخرجه أبو عبيد فى القريب عن محمد بن عمرو برفعه ، ثم قال : فقال : الال رفع الصوت بالدعاء . وقال بعضهم : يرويه الأول ، وهو الشدة .

يقرأ بالفتح ويقول : إن الله لا يعجب من شيء ، وإنما يعجب من لا يعلم ، فقال إبراهيم النخعي : إن شريحاً كان يعجبه علمه وعبد الله أعلم ، يريد عبد الله بن مسعود ، وكان يقرأ بالضم . وقيل معناه : قل يا محمد بل عجبت . ﴿ وإذا ذكروا ﴾ ودأبهم أنهم إذا وعظوا بشيء لا يتعظون به ﴿ وإذا رأوا آية ﴾ من آيات الله البينة كأنشقاق القمر ونحوه ﴿ يستسخرون ﴾ يبالغون في السخرية . أو يستدعي بعضهم من بعض أن يسخر منها .

وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ⑩
أَوَّابًا ⑪ وَأَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ⑫ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ⑬
فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ⑭

﴿ وأبأونا ﴾ معطوف على محل ﴿ إن ﴾ واسمها . أو على الضمير في مبعوثون ، والذي يجوز العطف عليه الفصل بهمة الاستفهام . والمعنى : أبيعث أيضاً آبأونا على زيادة الاستبعاد ، يعنون أنهم أقدم ، فبعثهم أبعد وأبطل . وقرئ أو آبأونا ﴿ قل نعم ﴾ وقرئ : نعم بكسر العين وهما لغتان . وقرئ : قال نعم ، أى الله تعالى أو الرسول صلى الله عليه وسلم . والمعنى : نعم تبعثون ﴿ وأنتم داخرون ﴾ صاغرون ﴿ فإنما ﴾ جواب شرط مقدّر تقديره : إذا كان ذلك فإنا ﴿ هي إلا زجرة واحدة ﴾ وهي لا ترجع إلى شيء ، إنما هي مهمة موضحها خبرها . ويجوز : فإنما البعثة زجرة واحدة وهي النفخة الثانية . والزجرة : الصيحة ، من قولك : زجر الراعى الإبل أو الغنم : إذا صاح عليها فريعت لصوته . ومنه قوله :

زَجَرَ أَبِي عُرْوَةَ السَّبَاعَ إِذَا أَشْفَقَ أَنْ يَخْتَلِطَنَّ بِالْقَسَمِ ⑮

يريد تصوينه بها ﴿ فإذا هم ﴾ أحياء بصراء ﴿ ينظرون ﴾ .

وَقَالُوا يَا بُولَلَتْنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ⑯ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ
تُكَذِّبُونَ ⑰

يحتمل أن يكون ﴿ هذا يوم الدين ﴾ إلى قوله (احشروا) من كلام الكفرة بعضهم مع بعض

(١) للناطقة الجعدى . وأبو عروة : كنية العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ، كانوا يزعمون أنه يصيح بالسباع فينفق مرارة الأسد في جوفه ، وروى أن غارة أتتهم يوم حنين فصاح : يا صباحاه فأسقطت الحوامل ، وكان يسمع صوته من مسافة ثمانية أميال . وزجره يزجره ، إذا صاح بمنه ، أى : كزجر أبي عروة السباع عن الغنم إذا خاف اختلاطهن بها في البادية .

وأن يكون من كلام الملائكة لهم ، وأن يكون (ياويلنا هذا يوم الدين) كلام الكفرة . و(هذا يوم الفصل) من كلام الملائكة جواباً لهم . ويوم الدين : اليوم الذي ندان فيه ، أى نجازى بأعمالنا . ويوم الفصل : يوم القضاء ، والفرق بين فرق الهدى والضلالة .

أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَمِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُتَسَلِّمُونَ ﴿٢٦﴾

(أحشروا) خطاب الله للملائكة ، أو خطاب بعضهم مع بعض (وأزواجهم) وضرابهم عن النبي صلى الله عليه وسلم : وهم نظرائهم وأشباهم من العصاة : أهل الزنا مع أهل الزنا ، وأهل السرقة مع أهل السرقة . وقيل : قرناؤهم من الشياطين . وقيل : نساؤهم اللاتي على دينهم (فاهدوهم) فعرّفوهم طريق النار حتى يسلكوها . هذا تهكم بهم وتوبيخ لهم بالعجز عن التناصر بعد ما كانوا على خلاف ذلك في الدنيا متعاضدين متناصرين (بل هم اليوم مستسلمون) قد أسلم بعضهم بعضاً وخذله عن عجز ، فكلهم مستسلم غير متنصر . وقرئ : لا تناصرون ولا تناصرون ، بالإدغام .

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْغَمِيمِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَافِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَأَنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾

اليمين لما كانت أشرف العضوين وأمتنهما وكانوا ييمينون بها ، فيها يصالحون ويمسحون ويناولون ويتناولون ، ويزاولون أكثر الأمور ، ويتشاءمون بالشمال ، ولذلك سموها : الشؤمى ،

كما سموا أختها البني، وتيمنوا بالساح،^(١) وتطيروا بالبارح، وكان الأعسر معيياً عندهم، وعصدت الشريعة ذلك، فأمرت مباشرة أفاضل الأمور باليمين، وأراذلها بالشمال. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب التيامن في كل شيء.^(٢) وجعلت اليمين لكاتب الحسنات، والشمال لكاتب السيئات؛ ووعد المحسن أن يؤتى كتابه يمينه، والمسيء أن يؤتاه بشماله: استعيرت لجهة الخير وجانبه، فقيل: أتاه عن اليمين، أى: من قبل الخير وناحيته، فصده عنه وأصله. وجاء في بعض التفاسير: من أتاه الشيطان من جهة اليمين: أتاه من قبل الدين قلبس عليه الحق. ومن أتاه من جهة الشمال: أتاه من قبل الشهوات. ومن أتاه من بين يديه: أتاه من قبل التكذيب بالقيامة والثواب والعقاب. ومن أتاه من خلفه: خوفه الفقر على نفسه وعلى من يخلف بعده؛ فلم يصل رحماً ولم يؤد زكاة. فإن قلت: قولهم: أتاه من جهة الخير وناحيته: مجاز في نفسه، فكيف جعلت اليمين مجازاً عن المجاز؟ قلت: من المجاز ما غلب في الاستعمال حتى لحق بالحقائق، وهذا من ذلك؛ ولك أن تجعلها مستعارة للقوة والقهر؛ لأن اليمين موصوفة بالقوة، وبها يقع البطش. والمعنى: أنكم كنتم تأتوننا عن القوة والقهر، وتقصدوننا عن السلطان والغلبة حتى تحملونا على الضلال وتقسرونا عليه. وهذا من خطاب الاتباع لرؤسائهم، والغواة لشياطينهم ﴿بل لم تكونوا مؤمنين﴾ بل أيتم أتم الإيمان وأعرضتم عنه، مع تمكنكم منه مختارين له على الكفر. غير ملجئين إليه ﴿وما كان لنا عليكم﴾ من تسلط نسلبكم به تمسكنكم واختياركم ﴿بل كنتم قوما﴾ مختارين الطغيان ﴿لحق علينا﴾ فلزنا ﴿قول ربنا إنا لذائقون﴾ يعنى: وعيد الله بأننا ذائقون لعذابه لا محالة، لعله بحالنا واستحقاقنا بها العقوبة، ولوحى الوعيد كما هو لقال: إنكم لذائقون، ولكنه عدل به إلى لفظ المتكلم؛ لأنهم متكلمون بذلك عن أنفسهم. ونحوه قول القائل:

• لَقَدْ زَعَمْتُ هَوَازِنُ قُلْ مَالِي • (٣)

(١) قوله: وتيمنوا بالساح، الساح: المار من اليسار إلى اليمين. والبارح عكسه. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها أتم من هذا.

(٣) ألا زعمت هوازِن قل مالى وهل لى غير ما أنفقت مال

أسره نعم ونعم قديماً على ما كان من مال وبال

ألا استفتاحية، وهوازن: أمراته، وضمن زعمت معنى قالت، فعداه إلى الجملة، ولو حكى قولها بلفظه لقال: قل مالك، ولكن جاء بياء المتكلم لجواز الحكاية بالمعنى، وهل: استفهام إنكارى، وغير: حال مقدمة، أى: ليس لى مال غير ما أنفقت فى المتكلم، وأسره به. مبنى للجهول صفة لمال، أى: لا يسرقى غير ما أنفقت، وبين جهة الاتفاق بقوله: نعم ونعم، أى: جوابى للسائلين بذلك من قديم الزمان: هو وبال ومضرة على ما كافى لى من مال، ويجوز أن أسره مبنى للفاعل. ونعم الأولى مفعوله، أى: هل لى مال أسره به من يجاب نعم، والحال أن نعم وبال على المال، وههلكه له قديماً، حيث أجب السائل بها.

ولو حكى قولها لقال : قل مالك . ومنه قول المحلف للحالف : احلف لأخرجن ، ولتخرجن : الهمزة لحكاية لفظ الحالف ، والتاء لإقبال المحلف على المحلف (فأغويناكم) فدعوناكم إلى الغي دعوة محصلة للبغيه ، لقبولكم لها واستجابتكم النقي على الرشد (إنا كنا غاوين) فأردنا لغواءكم لتكونوا أمثالنا (فإنهم) فإن الاتباع والمتبوعين جميعا (يومئذ) يوم القيامة مشتركون في العذاب كما كانوا مشتركين في الغواية (إنا) مثل ذلك الفعل (نفعل) بكل مجرم ، يعنى أن سبب العقوبة هو الإجرام ، فمن ارتكبه استوجبها (إنهم كانوا إذا) سمعوا بكلمة التوحيد نفروا أو استكبروا عنها وأبوا إلا الشرك .

وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتَنَارِكُوا إِلَهِتِنَا لَشَاعِرٍ مُّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَاتِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾

(لشاعر مجنون) يعنون محمداً صلى الله عليه وسلم (بل جاء بالحق) رد على المشركين (وصدق المرسلين) كقوله (مصداق لما بين يديه) وقرئ : لذاتقوا العذاب ، بالنصب على تقدير النون ، كقوله :

• وَلَا ذَاكِرَ اللَّهِ إِلَّا قَلِيلًا • (١)

بتقدير التنوين . وقرئ على الأصل : لذاتقون العذاب (إلا ما كنتم تعملون) لإمثلة ما علمتم جزاء سيئاً بعمل سيئ .

إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيَّضَاءُ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْغُرَفِ عَيْنٌ ﴿٤٨﴾ كَانَتْ بَيْضَ مَكْنُونٍ ﴿٤٩﴾

(إلا عباد الله) ولكن عباد الله ، على الاستثناء المنقطع . فسر الرزق المعلوم بالفواكه :
وهي كل ما يتلذذ به ولا يتقوت لحفظ الصحة ، يعنى أن رزقهم كله فواكه ، لأنهم مستغنون عن
حفظ الصحة بالآقوات ، بأنهم أجسام محكمة مخلوقة للأبد ، فكل ما يأكونه يأكلونه على سبيل
التلذذ . ويجوز أن يراد : رزق معلوم منوعات بخصائص خاق عليها : من طيب طعم ، ورائحة ،
ولذة ، وحسن منظر . وقيل : معلوم الوقت ، كقوله (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) وعن
قتادة : الرزق المعلوم الجنة . وقوله (في جنات) يأباه ، وقوله (وهم مكرمون) هو الذى يقوله
العلماء فى حد الثواب على سبيل المدح والتعظيم ، وهو من أعظم ما يجب أن تتوق إليه نفوس
ذوى الهمة ، كما أن من أعظم ما يجب أن تنفر عنه نفوسهم هو أن أهل النار وصغارهم .

التقابل : أتم للسور وآ نس . وقيل : لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض .

يقال للزجاجة فيها الخمر : كأس ، وتسمى الخمر نفسها كأساً ، قال :

وَكَأْسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ * (١)

وعن الاخفش : كل كأس فى القرآن فهى الخمر ، وكذا فى تفسير ابن عباس (من معين) من
شراب معين . أو من نهر معين ، وهو الجارى على وجه الارض ، الظاهر للعيون : وصف بما
يوصف به الماء ، لأنه يجرى فى الجنة فى أنهار كما يجرى الماء ، قال الله تعالى (وأنهار من خمر) .
(بيضاء) صفة للكأس (لذة) إما أن توصف باللذة كأنها نفس اللذة وعينها : أو هى تأنيث
اللذ ، يقال : لذ الشيء فهو لذ ولذيد . ووزنه : فعل ، كقولك : رجل طب ، قال :

وَلَذَّ كَطْعَمِ الصَّرْحَدِيِّ تَرَكَتُهُ بِأَرْضِ الْعِدَا مِنْ حَشْمَةِ الْخَدَّائِ (٢)

(١) وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

لكى يعلم الناس أنى أمرؤ أنيت المعيشة من بابها

للأعشى ، والكأس تطلق على الزجاجة فيها الخمر ، وعلى الخمر فيها : مجازاً مشهوراً ، وهى مؤنثة بدليل تأنيث صفتها
وضميرها . يقول : ورب كأس شربتها مع لذة ، أو لأجل لذة فضرتي ، فشربت كأساً أخرى تداويت من الأولى
بها ، ليعلم الناس أنى مجرب للأمر ، وكفى عن ذلك بقوله : أنيت المعيشة من بابها ، وشبه المعيشة مع أسبابها
المناسبة لها بدار لها باب على طريق الممكنة وإثبات الباب تخييل ، أى : كما داريت الداء من باب أدرك المعيشة
وأحصلها من الأسباب التى تناسبها . ويرى : بدل الشطر الثانى من البيت لأول . دهاق يرنح من ذاقها . ودعقه :
كسره وغمره غمراً شديداً ، وكأس دهاق : ممتلئة ، ودهاق : مملوءة . وترنح : تميل ، لكن هذا من قافية أخرى .

(٢) اللذ : وصف ، واللذة : مؤنثة ، وهى اسم للكيفية القائمة بالنفس ، واسم للشيء اللذيد . والصرخد :
موضع من الشام ينسب إليه الشراب . والحدثان : مصدر كالحدث ، إلا أنه يدل على التجدد والتكرار ، يقول :
ورب شئ لذيد يعنى النوم ، طعمه كطعم الشراب الطيب ، تركته بأرض الأعداء خوف نزول المكاره . ويرى
بدل الشطر الثانى : * عشية خمس القوم والعين عاشقة * وخست القوم أخسهم - بالضم - : أخذت
خمس أموالهم .

يريد النوم . الغول : لمن غاله يغوله غولا إذا أهلكه وأفسده . ومنه : الغول الذي في تكاذيب العرب . وفي أمثالهم : الغضب غول الحلم ، و (ينزفون) على البناء للمفعول ، من نزف الشارب ^(١) إذا ذهب عقله . ويقال للسكران : نزيف ومنزوف . ويقال للبطون : نزف فأت إذا خرج دمه كله . ونزحت الركية حتى نزقتها : إذا لم تترك فيها ماء . وفي أمثالهم : أجنب من المنزوف ضوطا . وقرئ : ينزفون ، من أنزف الشارب إذا ذهب عقله أو شربه . قال :

لَعَمْرِي لَسِنٌ أَنْزَفْتُمُو أَوْ مَحَّوْتُمُو لَيْسَ النَّدَايَ كُنْتُمُو آلَ أَبْجَرَ ^(٢)

ومعناه : صار ذا ترف . ونظيره : أقشع السحاب ، وقشعته الريح ، وأكب الرجل وكبته . وحقيقتها : دخلا في التشع والكب . وفي قراءة طلحة بن مصرف : وينزفون : بضم الزاي ، من نزف ينزف كقرب يقرب ، إذا سكر . والمعنى : لافها فساد قط من أنواع الفساد التي تكون في شرب الخمر من مغص أو صداع أو خمار ^(٣) أو عريضة أولغو أو تائب أو غير ذلك ، ولام يسكرون ^(٤) ، وهو أعظم مفسدها فأفرزه وأفرده بالذكر (قاصرات الطرف) قصرن أبصارهن على أزواجهن ، لا يمددن طرفا إلى غيرهم ، كقوله تعالى (عربا) ^(٥) والعين : النجل العيون ^(٦) شبههن ببيض النعام المكنون في الأداحي ، وبها تشبه العرب النساء وتسمين بيضات الخدور .

فَاقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَدَسَاءُ لَوْنَ ^(٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي

قَرِينٌ ^(٥١) يَقُولُ أَهْلَكَ لَمَنِ الْمَصْدَقِينَ ^(٥٢) أَعِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا

(١) قوله « من نزف الشارب في الصباح : نزفت ماء البئر نزفا ، إذا نزحت كله . ونزفت هي : يتعدى ولا يتعدى . . ونزفت أيضا على ما لم يسم فاعله . (ع)

(٢) للأيرو . ونزف دمه : خرج منه حتى ضعف وانقطعت حركته . ونزف الرجل في الخصومة : انقطعت حجته ، وأنزف : صار ذا نزف ، فنزف وأنزف لازمان . وقوله : لئن أنزفتم ، أي سكرتم وبطلت حركتكم . أو انقطع شرايكم ، وليس النداي : جواب القسم ، وجواب الشرط مثله غدوف ، وأتم : هو المخصوص بالذم . وآل أبجر : منادى ، وفيه نوع من التهكم والاستخفاف بهم .

(٣) قوله « في الصباح : الخمار : بقية السكر . (ع)

(٤) قوله « ولام يسكرون » لعله : ولام عنها يسكرون . (ع)

(٥) قوله « كقوله تعالى : عربا » أي متحيات إلى أزواجهن كما يأتي . (ع)

(٦) قوله « النجل العيون » في الصباح : النجل - بالتحريك : كفف العين . والرجل أنجل ، والعين نجلاء . والجمع نجل . وفيه : مدحى النعامة : موضع يعضها ، وأدحها موضعها ، وهو أفبول من دحوت : لأنها تدحوه برجلها ثم تبيض فيه أم والأداحي : جمه . (ع)

أَوْنًا كَلْدَيْنُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلَعُونَ ﴿٥٤﴾ فَأَطَّلَعَ فَرَّاءُهُ فِي سَوَاءِ
الْجَبِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي
لَكُنْتُ مِنَ الْمُنْخَضِرِينَ ﴿٥٧﴾

فإن قلت : علام عطف قوله ﴿فَأَقْبَل بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾؟ قلت : على يطاق عليهم. والمعنى :
يشربون فيتحادثون على الشراب كمادة الشرب ^(١) ؛ قال :

وَمَا بَقِيَتْ مِنَ الْأَذَاتِ إِلَّا أَحَادِيثُ الْكِرَامِ عَلَى الْمَدَامِ ^(٢)

فيقبل بعضهم على بعض ﴿يتساملون﴾ عما جرى لهم وعليهم في الدنيا، إلا أنه جرى به
ماضيًا على عادة الله في أخباره. قرئ : من المصدقين، من التصديق. ومن المصدقين مشدد
الصاد، من التصديق، وقيل : نزلت في رجل تصدق بماله لوجه الله، فاحتاج فاستجدي بعض
إخوانه ؛ فقال : وأين مالك ؟ قال : تصدقت به ليعوضني الله به في الآخرة خيرًا منه، فقال :
أنتك لمن المصدقين يوم الدين. أو من المتصدقين لطلب الثواب. والله لا أعطيك شيئًا
﴿لدينون﴾ لمجزيون، من الدين وهو الجزاء. أو لمسوسون مربوبون. يقال : دانه ساسه.
ومنه الحديث : «العاقل من دان نفسه» ^(٣). ﴿قال﴾ يعني ذلك القائل ﴿هل أنتم مطلعون﴾
إلى النار لأريكم ذلك القرين. قيل : إن في الجنة كوى ينظر أهلها منها إلى أهل النار. وقيل :
القائل هو الله عز وجل : وقيل بعض الملائكة يقول لأهل الجنة : هل تحبون أن تطلعوا
فتعلموا أين منزلتكم من منزلة أهل النار. وقرئ : مطلعون، فأطلع. وفأطلع بالتشديد، على
لفظ الماضي والمضارع المنصوب : ومطلعون فأطلع، وفأطلع بالتخفيف، على لفظ الماضي
والمضارع المنصوب. يقال : طلع علينا فلان، وأطلع، وأطلع بمعنى واحد، والمعنى : هل أنتم
مطلعون إلى القرين فأطلع أنا أيضًا. أو عرض عليهم الإطلاع فاعترضوه، فأطلع هو بعد ذلك.
وإن جعلت الإطلاع من أطلعه غيره، فالمعنى : أنه لما شرط في إطلاعه اطلاعهم، وهو من

(١) قوله «كمادة الشرب» جمع شارب، كالصحب جمع صاحب، كذا في الصحاح . (ع)

(٢) للفرزدق، يقول : وما بقيت لذة من اللذات إلا لذة أحاديث الكرام، أو ما بقيت شهوة من الشهوات
الذيذة إلا أحاديث الكرام على الخمر، وأتى بحرف الاستعلاء لأن الشراب يكون بين أيديهم والحديث من أفواههم
فوقه، وكان الظاهر : وما بقي من اللذات، لكن أنك الفعل لأنه مفرغ لما بعد إلا، أو للتأويل المتقدم .

(٣) أخرجه الترمذي وابن ماجه، والحاكم وأحمد والبرز وأبو يعلى والحرث والطبراني كلهم من رواية أبي بكر
ابن أبي مریم عن حمزة بن حبيب عن شداد بن أوس .

آداب المجالسة . أن لا يستبد بشيء دون جلسائه ، فكانهم مطلعوه . وقيل : الخطاب على هذا لللائكة . وقرئ : مطلعون بكسر النون ، أراد : مطلعون إياي ؛ فوضع المتصل موضع المنفصل ، كقوله :

• هُمُ الْفَاعِلُونَ الْخَيْرَ وَالْأَمْرُونَ • (١)

أو شبه اسم الفاعل في ذلك بالمضارع لتأخ بينهما ، كأنه قال : تطلعون ، وهو ضعيف لا يقع إلا في الشعر (في سواء الجحيم) في وسطها ، يقال : تعبت حتى انقطع سوائي ، وعن أبي عبيدة : قال لي عيسى بن عمر : كنت أكتب يا أبا عبيدة حتى ينقطع سوائي (إن) مخففة من الثقيلة ، وهي تدخل على كاد ، كما تدخل على كان ، ونحوه (إن كاد ليضلنا) واللام هي الفارقة بينها وبين النافية ، والإرداء : الإهلاك . وفي قراءة عبد الله : لتغوين (نعمة ربى) هي العصمة والتوفيق في الاستمسك بعروة الإسلام ، والبراءة من قرين السوء . أو إنعام الله بالشواب وكونه من أهل الجنة (من المحضرين) من الذين أحضروا العذاب كما أحضرت أنت وأمثالك .

أَمَّا نَحْنُ بِمَسْمُومِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩)

الذى عطف عليه الفاء محذوف ، معناه : نحن مخلدون منعمون ، فما نحن بمبتلين ولا معذبين . وقرئ : بمائتين . والمعنى أن هذه حال المؤمنين وصفتهم وما قضى الله به لهم للعلم بأعمالهم أن لا يدوقوا إلا الموتة الأولى ، بخلاف الكفار ، فإنهم فيما يتمنون فيه الموت كل ساعة ، وقيل لبعض الحكماء : ما شر من الموت ؟ قال : الذى يتمنى فيه الموت .

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمَنْ لِهَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَمِلُونَ (٦١)

يقوله المؤمن تحدثا بنعمة الله واعتباطا بحاله وبمسمع من قرينه ، ليكون توبيخا له يزيد به تعذبا ، وليحكيه الله فيكون لنا لطفا وزاجرا . ويجوز أن يكون قولهم جميعا ، وكذلك قوله (إن هذا هو الفوز العظيم) أى إن هذا الأمر الذى نحن فيه . وقيل : هو من قول الله عز وجل تقريراً لقولهم وتصديقا له . وقرئ : هو الرزق العظيم ، وهو ما رزقوه من السعادة .

أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقْوَمِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣)

(١) هم الفاعلون الخير والأمرون إذا ما خشوا من عادت الدهر مغلظا

الخير : نصب على المفعولية . ويقال : أمرتك الخير وأمرتك به ، فالأمرونه : أمر فاعل متعدد للمفعول الثانى بنفسه ، وكان حقه الفصل فوصل ، وربما كان في البيت أوقع منه في اسم الفاعل المجرد من اللام ، وما زائدة : أى إذا خافوا من حادث الدهر أمراً مغلظا . وبروى : مغلظاً ، أى : مخفياً لحقه في حرف العين .

إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ۖ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ۚ (٦٥)
فَأَنَّهُمْ لَا كُؤُونَ مِنْهَا فَسَالُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۚ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا
مِّنْ حَمِيمٍ ۚ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ إِلَى الْجَحِيمِ ۚ (٦٨) إِنَّهُمْ أَقْوَاءُ آبَاءَهُمْ
صَالِينَ ۚ (٦٩) فَمَنْ عَلَىٰ أَنَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ۚ (٧٠)

تمت قصة المؤمن وقرينه ، ثم رجع إلى ذكر الرزق المعلوم فقال ﴿أذلك﴾ الرزق (خير
نزلا) أى خير حاصل (أم شجرة الزقوم) وأصل النزول : الفضل والريع فى الطعام ، يقال :
طعام كثير النزول ، فاستعير للحاصل من الشيء ، وحاصل الرزق المعلوم : اللذة والسرور ،
وحاصل شجرة الزقوم : الألم والنعم ، وانتصاب نزلا على التمييز ، ولك أن تجعله حالا ، كما تقول :
أثمر النخلة خير بلحا أم رطباً ؟ يعنى أن الرزق المعلوم نزل أهل الجنة . وأهل النار نزلهم شجرة
الزقوم ، فأيهما خير فى كونه نزلا . والنزل : ما يقال (١) للنازل بالمكان من الرزق . ومنه إنزال
الجند لأرزاقهم ، كما يقال لما يقام لساكن الدار : السكن (٢) . ومعنى الأول : أن للرزق المعلوم
نزلا ، ولشجر الزقوم نزلا ، فأيهما خير نزلا . ومعلوم أنه لا خير فى شجرة الزقوم ، ولكن المؤمنين
لما اختاروا ما أدى إلى الرزق المعلوم ، واختار الكافرون ما أدى إلى شجرة الزقوم ، قيل لهم
ذلك توبيخا على سوء اختيارهم ﴿فتنة للظالمين﴾ محنة وعذابا لهم فى الآخرة . أو ابتلاء لهم فى
الدنيا ، وذلك أنهم قالوا : كيف يكون فى النار شجرة والنار تحرق الشجر ، فكذبوا . وقرئ :
نابتة ﴿فى أصل الجحيم﴾ قيل : منبتها فى قعر جهنم ، وأغصانها ترتفع إلى دركاتهما : والطلع للنخلة ،
فاستعير لما طلع من شجرة الزقوم من حملها : إما استعارة لفظية ، أو معنوية ، وشبه برؤوس
الشياطين دلالة على تنافيه فى الكراهة وقبح المنظر ؛ لأن الشيطان مكروه مستقبح فى طباع
الناس ، لا اعتقادهم أنه شر محض لا يخلطه خير ، فيقولون فى القبيح الصورة : كأنه وجه شيطان ،
كأنه رأس شيطان . وإذا صورته المصورون : جاؤا بصورته على أقبح ما يقدر وأهوله ؛ كما أنهم
اعتقدوا فى الملك أنه خير محض لا شر فيه ، فشبها به الصورة الحسنة . قال الله تعالى (ما هذا
بشرا إن هذا إلا ملك كريم) وهذا تشبيه تخيلى . وقيل : الشيطان حية عرفاء لها صورة قبيحة
المنظر هائلة جدا . وقيل : إن شجراً يقال له الأسن خشنا مثنتا مرا مشكرا الصورة ، يسمى ثمره :

(١) قوله « ما يقال للنازل بالمكان » لعله « ما يقام » كعبارة النسف . (ع)

(٢) قوله « لساكن الدار السكن » فى الصحاح « السكن » : كل ما سكنت إليه . (ع)

رؤوس الشياطين. وما سميت العرب هذا الثمر برؤوس الشياطين إلا قصدا إلى أحد التشبيهين، ولكنه بعد التسمية بذلك رجع أصلا ثالثا يشبه به ﴿منها﴾ من الشجرة، أى من ظلعها ﴿فالثون﴾ بطونهم، لما يغلبهم من الجوع الشديد، أو يقسرون على أكلها وإن كرهوها، ليكون بابا من العذاب؛ فإذا شبعوا غلبهم العطش فيسقون شرابا من غساق أو صديد، شوبه: أى مزاجه ﴿من حميم﴾ يشوى وجوههم ويقطع أمعائهم، كما قال في صفة شراب أهل الجنة (ومزاجه من تسنيم) وقرئ: لشوبا، بالضم، وهو اسم ما يشاب به، والاول تسمية بالمصدر. فإن قلت: ما معنى حرف التراخي في قوله (ثم إن لهم عليها لشوبا) وفي قوله ﴿ثم إن مرجعهم﴾؟ قلت: في الاول وجهان، أحدهما: أنهم يملئون البطون من شجر الزقوم، وهو حار يحرق بطونهم ويعطشهم، فلا يسقون إلا بعد ملئ تعذيبا بذلك العطش، ثم يسقون ما هو أحر وهو الشراب المشوب بالحميم. والثاني: أنه ذكر الطعام بتلك الكراهة والبشاعة، ثم ذكر الشراب بما هو أكره وأبشع، فجاء بتم للدلالة على تراخي حال الشراب عن حال الطعام ومباينة صفة لصفته في الزيادة عليه. ومعنى الثاني: أنهم يذهب بهم عن مقارنهم ومنازلهم في الجحيم، وهى الدركات التى أسكنوها إلى شجرة الزقوم، فياكلون إلى أن يمتلأوا، ويسقون بعد ذلك، ثم يرجعون إلى دركاتهم، ومعنى التراخي في ذلك بين: وقرئ: ثم إن منقلبهم، ثم إن مصيرهم، ثم إن منفذهم إلى الجحيم: علل استحقاقهم للوقوع في تلك الشدائد كلها بتقليد الآباء في الدين، واتباعهم إياهم على الضلال، وترك اتباع الدليل. والإهراع: الإسراع الشديد، كأنهم يحثون حثا. وقيل: إسرار فيه شبه بالردة.

وَلَقَدْ صَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ٧١ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ ٧٢

فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ ٧٣ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ٧٤

(ولقد صل قبلهم) قبل قومك قريش. (منذرين) أنبياء حذروهم العواقب. (المنذرين) الذين أئذروا وحذروا، أى أهلكوا جميعا (إلا عباد الله) الذين آمنوا منهم وأخلصوا دينهم لله، أو أخلصهم الله لدينه على القراءتين.

وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ٧٥ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ

الْعَظِيمِ ٧٦ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ٧٧ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ٧٨

سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ٧٩ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ٨٠ إِنَّهُ مِنْ

عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ٨١ ثُمَّ أَفْرَقْنَا الْآخَرِينَ ٨٢

لما ذكر إرسال المنذرين في الأمم الخالية وسوء عاقبة المنذرين ، أتبع ذلك ذكر نوح ودعائه إياه حين أيس من قومه ، واللام الداخلة على نعم جواب قسم محذوف ، والمخصوص بالمدح محذوف تقديره : فوالله لنعم المجيبون نحن ، والجمع دليل العظمة والكبرياء . والمعنى : إنا أجبناه أحسن الإجابة ، وأوصلها إلى مراده وبغيته من نصرته على أعدائه والانتقام منهم بأبلغ ما يكون ﴿ هم الباقين ﴾ هم الذين بقوا وحدهم وقد فنى غيرهم ، فقد روى أنه مات كل من كان معه في السفينة غير ولده . أو هم الذين بقوا متناسلين إلى يوم القيامة . قال قتادة : الناس كلهم من ذرية نوح . وكان لنوح عليه السلام ثلاثة أولاد : سام ، وحام ، ويافث . فسام أبو العرب ، وفارس ، والروم . وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب . ويافث أبو الترك وبأجوج ومأجوج ﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾ من الأمم هذه الكلمة . وهى : ﴿ سلام على نوح ﴾ يعنى يسلبون عليه تسليما ، ويدعون له ، وهو من الكلام المحكى ، كقولك : قرأت سورة أنزلناها . فإن قلت : فما معنى قوله ﴿ في العالمين ﴾ ؟ قلت : معناه الدعاء بثبوت هذه التحية فيهم جميعا ، وأن لا يخلو أحد منهم منها ، كأنه قيل : ثبت الله التسليم على نوح وأداه في الملائكة والثقلين يسلبون عليه عن آخرهم . علل مجازاة نوح عليه السلام بتلك التكرمة السنية من تبقية ذكره ، وتسليم العالمين عليه إلى آخر الدهر بأنه كان محسنا ، ثم علل كونه محسنا بأنه كان عبدا مؤمنا ، ليريك جلالة محل الإيمان ، وأنه القصارى من صفات المدح والتعظيم ، ويرغبك في تحصيله والازدياد منه .

وَإِنْ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ ۝٨٣ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٤ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ۝٨٥ أَتُنْفَكُوا هَلْهَآءَ دُورَ اللَّهِ تَرْيَدُونَ ۝٨٦ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٨٧

﴿ من شيعته ﴾ من شايعه على أصول الدين وإن اختلفت شرائعهما . أو شايعه على التصلب في دين الله ومصاهرة المكذبين . ويجوز أن يكون بين شريعتيهما اتفاق في أكثر الأشياء . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : من أهل دينه وعلى سنته ، وما كان بين نوح وإبراهيم إلا نبيان : هود ، وصالح . وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستائة وأربعون سنة . فإن قلت : بم تعلق الظرف ؟ قلت : بما في الشيعة من معنى المشايعة ، يعنى : وإن من شايعه على دينه وتقواه حين جاء ربه بقلب سليم لإبراهيم . أو بمحذوف وهو : اذكر ﴿ بقلب سليم ﴾ من جميع آفات القلوب . وقيل : من الشرك ، ولا معنى للتخصيص لأنه مطلق ، فليس بعض الآفات أولى من بعض فيتناولها كلها . فإن قلت : ما معنى المجيء بقلبه ربه ؟ قلت : معناه أنه أخلص لله قلبه ، وعرف ذلك منه فغضب

الجبىء. مثلاً لذلك (أإفصكا) مفعول له، تقديره: أتريدون آلهة من دون الله إفصكا، وإنما قدم المفعول على الفعل للعناية، وقدم المفعول له على المفعول به؛ لأنه كان الأهم عنده أن يكافهم بأنهم على إفك وباطل في شركهم. ويجوز أن يكون إفصكا مفعولاً، يعنى: أتريدون به إفصكا. ثم فسر الإفك بقوله (آلهة من دون الله) على أنها إفك في أنفسها. ويجوز أن يكون حالاً، بمعنى: أتريدون آلهة من دون الله آفكين ﴿فاظنكم﴾ بمن هو الحقيق بالعبادة، لأن من كان رباً للعالمين استحق عليهم أن يعبدوه، حتى تركتم عبادته إلى عبادة الأصنام: والمعنى: أنه لا يقدر في وهم ولا ظن ما يصد عن عبادته. أو فإظنكم به أى شيء هو من الأشياء، حتى جعلتم الأصنام له أنداداً. أو فإظنكم به ماذا يفعل بكم وكيف يعاقبكم وقد عبدتم غيره؟

فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾

(في النجوم) في علم النجوم أو في كتابها أو في أحكامها، وعن بعض الملوك أنه سئل عن مشتهاه فقال: حبيب أنظر إليه، واحتاج أنظر له، وكتاب أنظر فيه. كان القوم نجامين، فأوهمهم أنه استدل بأماره في علم النجوم على أنه يسقم ﴿فقال إني سقيم﴾ إني مشارف للسقم وهو الطاعون، وكان أغلب الأسقام عليهم، وكانوا يخافون العدوى ليتفرقوا عنه، فهربوا منه إلى عيدهم وتركوه في بيت الأصنام ليس معه أحد، ففعل بالأصنام ما فعل. فإن قلت: كيف جاز له أن يكذب؟ قلت: قد جوزه بعض الناس في المكيدة في الحرب والتقية، وإرضاء الزوج والصلح بين المتخاصمين والمتهاجرين. والصحيح: أن الكذب حرام إلا إذا عترض ووزى، والذي قاله إبراهيم عليه السلام: معراض من الكلام، ولقد نوى به أن من في عنقه الموت سقيم. ومنه المثل: كفى بالسلامة داء. وقول ليبيد:

فَدَعَوْتُ رَبِّي بِالسَّلَامَةِ جَاهِدًا لِيُصْحِنِي فَإِذَا السَّلَامَةُ دَاءُهُ ^(١)

وقد مات رجل لحاة فالتف عليه الناس وقالوا: مات وهو صحيح، فقال أعرابي: أصحيح من الموت في عنقه. وقيل: أراد: إني سقيم النفس لكفركم.

(١) كانت تثنى لا تلين لفنصر فالأنها الاصباح والامساء

فدهوت ربي بالسلامة جاهداً ليصحنى فاذا السلامة داء

ليبيد بن ربيعة العامري، والقناة: الريح، استعارها لاقامته أو قوته على طريق التصريح، والبيوة والغمر: ترشيع. والغمرى: الحب باليد. ويجوز أن الاستعارة تمثيلية في المركب، يصف قوته زمن الشباب، ثم ضعف حال المشيب بتتابع الأزمان عليه، وأنه تطلب فسحة الأجل، فكانت سبب اضمحلاله.

فَرَاغَ إِلَى الْمَسِيمِ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿٩٢﴾

فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾

(فراغ إلى آلهتهم) فذهب إليها في خفية، من روعة الثعلب، إلى آلهتهم، إلى أصنامهم التي هي في زعمهم آلهة، كقوله تعالى: أين شركائي؟ (ألا تأكلون! ما لكم لا تنطقون) استهزاء بها وبانحطاطها عن حال عبديتها (فراغ عليهم) فأقبل عليهم مستخفيا، كأنه قال: فضرهم (ضربا) لأن راغ عليهم بمعنى ضربهم. أو فراغ عليهم يضربهم ضربا. أو فراغ عليهم ضربا بمعنى ضاربا. وقرئ: صغقا وسغقا، ومعناها: الضرب. ومعنى ضربا (باليمن) ضربا شديدا قويا؛ لأن اليمن أقوى الجارحتين وأشدّها. وقيل: بالقوة والمثانة: وقيل: بسبب الحلف، وهو قوله (نالله لا كيدن أصنامكم).

فَأَقْبِلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ ﴿٩٤﴾

(يزفون) يسرعون، من زفيف النعام. ويزفون: من أزف، إذا دخل في الزفيف. أو من أزفه، إذا حمله على الزفيف، أي: يزف بعضهم بعضا. ويزفون، على البناء للفعول، أي: يحملون على الزفيف. ويزفون، من وزف يزف إذا أسرع. ويزفون: من زفاه إذا حداه^(١)، كأن بعضهم يزفو بعضا لتسارعهم إليه، فإن قلت: بين هذا وبين قوله تعالى (قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين)، قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم) كالنتاقض حيث ذكر ههنا أنهم أدبروا عنه خيفة العدوى، فلما أبصروه يكسروهم أقبلوا إليه متبادرين ليكفوه ويوقعوا به، وذكركم أنهم سألوا عن الكاسر، حتى قيل لهم: سمعنا إبراهيم يذمهم، فلعله هو الكاسر؛ ففي أحدهما أنهم شاهدوه يكسرها، وفي الآخر: أنهم استدلوا بذمه على أنه الكاسر. قلت: فيه وجهان، أحدهما: أن يكون الذين أبصروه وزفوا إليه نفر آمنهم دون جمهورهم وكبرائهم، فلما رجع الجمهور والعلية^(٢) من عيدهم إلى بيت الأصنام ليأكلوا الطعام الذي وضعوه عندها لتبرك عليه ورأوها مكسورة اشمازوا من ذلك، وسألوا: من فعل هذا بها؟ ثم لم ينم عليه أولئك النفر نومة صريحة، ولكن على سبيل التورية والتعريض بقولهم سمعنا فتى يذكرهم، لبعض الصوارف. والثاني: أن يكسرها ويذهب ولا يشعر بذلك أحد، ويكون إقبالهم إليه يزفون بعد رجوعهم من عيدهم وسؤالهم عن الكاسر. وقولهم: قالوا فأتوا به على أعين الناس.

(١) قوله «إذا حداه» أي سافه. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قوله «والعلية» أي العظماء. (ع)

قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

(والله خلقكم وما تعملون) يعنى خلقكم وخلق ما تعملونه من الأصنام ، كقوله (بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن) أى فطر الأصنام . فإن قلت : كيف يكون الشيء الواحد مخلوقا لله معمولا لهم ، حيث أوقع خلقه وعملهم عليها جميعا ؟ قلت : هذا كما يقال : عمل النجار الباب ^(١) والكرسى ، وعمل الصائغ السوار والخلخال ، والمراد عمل أشكال هذه الأشياء وصورها دون جواهرها ، والأصنام جواهر وأشكال ، فخلق جواهرها الله ، وعاملو أشكالها الذين يشكونها بنحتهم وحذفهم بعض أجزائها ، حتى يستوى التشكيل الذى يريدونه . فإن قلت : فما أنكرت ^(٢) أن تكون ما مصدرية لاموصولة ، ويكون المعنى : والله خلقكم وعملكم ، كما تقول المجبرة ^(٣) ؟ قلت : أقرب ما يبطل به هذا السؤال بعد بطلانه

(١) قال محمود : « يعنى خلقكم وما تعملون من الأصنام ، كقوله (بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن) فإن قلت : كيف يكون الشيء الواحد مخلوقا لله تعالى معمولا لهم ؟ وأجاب بأن هذا كما يقال : عمل النجار الباب ... إلى أن قال : ... وفى ذلك فك للنظم وتبتيه كما لو جعلتها مصدرية » اه كلامه . قال أحد : إذا جاء سيل الله ذهب سيل معقل ، فنقول : يتعين حملها على المصدرية ، وذلك أنهم لم يعبدوا هذه الأصنام من حيث كونها حجارة ليست مصورة ، فلو كان كذلك لم يتماوتوا فى تصورهما ، ولا اختصوا بعبادتهم حجرا دون حجر ، فدل أنهم إنما يعبدونها باعتبار أشكالها وصورها التى هى أثر عملهم ، فى الحقيقة أنهم عبدوا عملهم ، وصلحت الحجة عليهم بأنهم مثله ، مع أن المعبود كسب العابد وعمله ، فقد ظهر أن الحجة قائمة عليهم على تقدير أن تكون ما مصدرية أوضع قيام وأبلغه ، فإذا أثبت ذلك فليتبع كلامه بالابطال . أما قوله أنها موصولة ، وأن المراد بعملهم لها عمل أشكالها فخالف للظاهر ، فانه مفتقر إلى حذف مضاف فى موضع اليأس يكون تقديره : والله خلقكم وما تعملون شكله وصورته ، بخلاف توجيه أهل السنة فانه غير مفتقر إلى حذف الية ، ثم إذا جعل المعبود نفس الجوهر ، فكيف يطابق توجيههم ببيان أن المعبود من عمل العابد ، مع موافقته على أن جواهر الأصنام ليست من عملهم ؟ فما هو من عملهم وهو الشكل ليس معبوداً لهم على هذا التأويل ، وما هو معبودهم وهو جوهر الصنم ليس من عملهم ، فلم يستقر له قرار فى أن المعبود على تأويله من عمل العابد ، وعلى ما قررناه يتضح . وأما قوله : إن المطابقة تنفك على تأويل أهل السنة بين ما ينحتون وما يعملون فغير صحيح ، فإن لنا أن نحمل الأولى على أنها مصدرية وأنهم فى الحقيقة إنما عبدوا نحتهم ؛ لأن هذه الأصنام وهى حجارة قبل النحت لم يكونوا يعبدونها ، فلما عملوا فيها النحت عبدوها ، فى الحقيقة ما عبدوها سوى نحتهم الذى هو عملهم ، فالمطابقة إذاً حاصلة ، والالزام على هذا أبلغ وأمن ، ولو كان كما قال لقامت لهم الحجة ، ولقالوا كما يقول الزمخشري مكافئين لقوله (والله خلقكم وما تعملون) بأن يقولوا : لا ولا كرامة ، ولا يخلق الله ما نعمل نحن ، لأننا إنما عملنا التشكيل والتصور وهذا لم يخلق الله ، وكانوا يحدون الذريعة إلى انتحام الحجة ، ويأبى الله إلا أن تكون لنا الحجة البالغة ولمهم الأكاذيب الفارغة ، فهذا إلزام بل إلجام لمن خالف السنة ، وغل بعنفه ، وعقر بكنته ، وضرب على يده ، حتى يرجع إلى الحق آيها ، ويعترف بخطئه تابها .

(٢) قوله « فإن قلت فما أنكرت ؟ لعله : لم أنكرت . (ع)

(٣) قوله « كما تقول المجبرة » يريد أهل السنة حيث ذهبوا إلى أنه لا عائق إلا الله ، فهو الخالق لعمل العبد =

بحجج العقل والكتاب : أن معنى الآية يأباه إياه جلياً ، وينبو عنه نبوّاً ظاهراً ، وذلك أن الله عز وجل قد احتج عليهم بأن العابد والمعبود جميعاً خلق الله ، فكيف يعبد المخلوق المخلوق ، على أن العابد منهما هو الذي عمل صورة المعبود وشكله ، ولولاه لما قدر أن يصوّر نفسه ويشكلها ، ولو قلت : والله خلقكم وخلق عملكم ، ولم يكن محتجاً عليهم^(١) ولا كان لكلامك طباق . وشيء آخر : وهو أن قوله (ماتعملون) ترجمة عن قوله (ماتنحتون) و (ما) في (ماتنحتون) موصولة لامقال فيها فلا يعدل بها عن أخذها إلا متعسف متعصب لمذهبه ، من غير نظر في علم البيان ، ولا تبصر لنظم القرآن . فإن قلت : اجعلها موصولة حتى لا يلزمي ما ألزمت ، وأريد : وماتعملونه من أعمالكم . قلت : بل الإلزامان في عنقك لا يفكهما إلا الإذعان للحق ، وذلك أنك وإن جعلتها موصولة ، فإنك في إرادتك بها العمل غير محتج على المشركين ، كحالك وقد جعلتها مصدرية ، وأيضاً فإنك قاطع بذلك الصلة بين ماتعملون وما تنحتون ، حيث تخالف بين المرادين بهما ؛ فتريد بما تنحتون : الأعيان التي هي الأصنام ، وبما تعملون : المعاني التي هي الأعمال ؛ وفي ذلك فك النظم وتبديده ؛ كما إذا جعلتها مصدرية .

قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾

(الجهنم) النار الشديدة الوقود ، وقيل : كل نار على نار وجرم فوق جرم ، فهي جهنم . والمعنى : أن الله تعالى غلبه عليهم في المقامين جميعاً ، وأذلهم بين يديه : أرادوا أن يغلبوه بالحجة فلقنه الله وألهمه ما ألقمهم به الحجر ، وقهرهم فالوا إلى المكر ، فأبطل الله مكرم وجعلهم الأذلين الأسفلين لم يقدرُوا عليه .

وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَمِيعِينَ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشِّرْهُ بِبُحْلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾

أراد بذهابه إلى ربه : مهاجرته إلى حيث أمره بالمهاجرة إليه من أرض الشام ؛ كما قال :

== والمعترلة يقولون : إن العبد هو الخالق لعمل نفسه ، يجهلوا العبد شريكاً لله في الخالقية ، مع أنهم سموا أنفسهم أهل العدل والتوحيد ، قالوا : لو كان الله هو الخالق لفعل العبد لكان تغذيه للعبد على المعاصي ظلاً لا عدلاً ، قال أهل السنة : يعذبه عليها كما يشبه على الطاعة ، لما له فيهما من الكسب والاختيار ، فلا ظلم ، لكن المعترلة لم ينظروا في التوحيد تمام النظر ، ولم يتبصروا في أدلته تمام التبصر . (ع)

(١) قوله «لم يكن محتجاً عليهم» ، يكفى في الاحتجاج أن الله هو الخالق لم ولاعالم في الأصنام وغيرها ، والأصنام لا تخلق شيئاً ، بل الأفراد بالخالقية أدل على الأفراد بالالهية . (ع)

إني مهاجر إلى ربي: (سهيدين) سيرشدني إلى ما فيه صلاحى في ديني ويعصمني وبوقتي ، كما قال موسى عليه السلام (كلا إن معى ربي سيهدين) كأن الله وعده وقال له : سأهديك ، فأجزى كلامه على سنن موعد ربه . أو بناء على عادة الله تعالى معه في هدايته وإرشاده . أو أظهر بذلك توكله وتفويضه أمره إلى الله . ولو قصد الرجاء والطمع لقال ، كما قال موسى عليه السلام (عسى ربي أن يهدينى سواء السبيل) . (هب لى من الصالحين) هب لى بعض الصالحين ، يريد الولد ، لأن لفظ الهبة غلب فى الولد وإن كان قد جاء فى الآخ فى قوله تعالى (ووهبنا له من رحماتنا أخاه هرون نبيا) قال عز وجل (ووهبنا له إسحاق ويعقوب) (ووهبنا له يحيى) وقال على بن أبى طالب لابن عباس رضى الله عنهم - حين هنأه بولده على أبى الأملأك - : شكرت الواهب ، وبورك لك فى الموهوب . ولذلك وقعت التسمية بهبة الله ، وبموهوب ، ووهب ، وموهب . وقد انطوت البشارة على ثلاث : على أن الولد غلام ذكر ، وأنه يبلغ أوان الحلم ، وأنه يكون حليما ، وأى حلم أعظم من حلمه حين عرض عليه أبوه الذبح ، فقال : ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ، ثم استسلم لذلك . وقيل : ما نعت الله الأنبياء عليهم السلام بأقل مما نعتهم بالحلم ، وذلك لعزوة وجوده . ولقد نعت الله به إبراهيم فى قوله (إن إبراهيم لأواه حلیم) ، (إن إبراهيم لحليم أواه منيب) لأن الحادثة شهدت بحلمهما جميعا .

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَسَّىٰ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَاسَاطِ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾

فلما بلغ أن يسعى مع أبيه فى أشغاله وحوائجه . فإن قلت : (معه) بم يتعلق ؟ قلت : لا يخلو إما أن يتعلق يبلغ ، أو بالسعى . أو بمحذوف ، فلا يصح تعلفه يبلغ لاقتضائه بلوغهما معا حذ السعى ، ولا بالسعى لأن صلة المصدر لا تتقدم عليه ، فبقي أن يكون بيانا ، كأنه لما قال : فلما بلغ السعى أى الحذ الذى يقدر فيه على السعى قيل : مع من ؟ فقال مع أبيه . والمعنى فى اختصاص الآب أنه أرفق الناس به ، وأعطفهم عليه ، وغيره ربما عطف به فى الاستسعاء فلا يحتمله ، لأنه لم تستحكم قوته ولم يصلب عوده ، وكان إذ ذاك ابن ثلاث عشرة سنة . والمراد : أنه على غضاضة سنه وتقلبه فى حد الطفولة ، كان فيه من رصانة الحلم وفسحة الصدر ما جسره على احتمال تلك البلية العظيمة والإجابة بذلك الجواب الحكيم : أتى فى المنام فقيل له : اذبح ابنك ، ورؤيا الأنبياء وحى كالوحى فى اليقظة ، فلهذا قال (إني أرى فى المنام أنى أذبحك) فذكر تأويل الرؤيا ، كما يقول الممتحن وقد رأى أنه راكب فى سفينة : رأيت فى المنام أنى ناج من هذه المحنة ، وقيل : رأى ليلة التروية كأن قاتلا يقول له : إن الله يأمرك بذيح

ابنك هذا ، فلما أصبح روى في ذلك من الصباح إلى الرواح ، أمن الله هذا الحلم أو من الشيطان؟ فمن ثم سعى يوم التروية ، فلما أمسى رأى مثل ذلك ، فعرف أنه من الله ، فمن ثم سعى يوم عرفة ، ثم رأى مثله في الليلة الثالثة ، فهم بنحره فسمى اليوم يوم النحر . وقيل : إن الملائكة حين بشرته بغلام حلیم قال : هو إذن ذبيح الله . فلما ولد وبلغ حد السعى معه قيل له : أوف بنذكرك ﴿ فانظر ماذا ترى ﴾ من الرأى على وجه المشاورة . وقرئ : ماذا ترى ^(١) ، أى : ماذا تبصر من رأيك وتبديه . وماذا ترى ، على البناء للمفعول ، أى : ماذا تريك نفسك من الرأى ﴿ افعل ماتومر ﴾ أى ماتومر به ، لحذف الجار كما حذف من قوله :

• أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ فَأَفْعَلْ مَا أَمَرْتُ بِهِ • ^(٢)

أو أمرك على إضافة المصدر إلى المفعول ، وتسمية المأمور به أمراً . وقرئ : ماتومر به . فإن قلت : لم يشاورة في أمر هو حتم من الله ؟ قلت : لم يشاورة ليرجع إلى رأيه ومشورته ، ولكن ليعلم ماعنده فيما نزل به من بلاء الله ، فيثبت قدمه ويصبره إن جزع ، وبأمن عليه الزلل إن صبر وسلم ، وليعلمه حتى يراجع نفسه فيوطنها ويهون عليها ، ويلقى البلاء وهو كالمستأنس به ، ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله قبل نزوله : ولأن المغافسة ^(٣) بالذبح مما يستسبح ، وليكون سنة في المشاورة ، فقد قيل : لو شاور آدم الملائكة في أكله من الشجرة لما فرط منه ذلك . فإن قلت : لم كان ذلك بالمنام دون اليقظة ؟ قلت : كما أرى يوسف عليه السلام سجود أبويه وإخوته له في المنام من غير وحى إلى أبيه ، وكما وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم دخول المسجد الحرام في المنام ، وماسوى ذلك من منامات الانبياء ، وذلك لتقوية الدلالة على كونهم صادقين مصدوقين ؛ لأن الحال إما حال يقظة أو حال منام ، فإذا تظاهرت الحالتان على الصدق كان ذلك أقوى للدلالة من انفراد أحدهما .

فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ^(١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ^(١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ
الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ^(١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُعِينُ ^(١٠٦)
وَقَدْ يَنْبَغُ بِذَنْبِ عَظِيمٍ ^(١٠٧) وَرَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ^(١٠٨) سَلَامٌ عَلَى
إِبْرَاهِيمَ ^(١٠٩) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ^(١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ^(١١١)

(١) قوله « وقرئ ماذا ترى » له بعن التاء وكسر الراء ، من أراه يريه ، فليحذر . (ع)

(٢) تقدم شرح هذا القامد بالجزء الثاني صفحة ٥٩٠ فراجع إن شئت أم صححه

(٣) قوله « المغافسة » في الصحاح : غافست الرجل ، أى : أخذته على غرة . (ع)

يقال : سلم لأمر الله ، وأسلم ، واستسلم بمعنى واحد . وقد قرئ بهن جميعاً إذا انقاد له ، وخضع ، وأصلها من قولك : سلم هذا لفلان إذا خلس له . ومعناه : سلم من أن ينازع فيه ، وقولهم : سلم لأمر الله ، وأسلم له منقولان منه ، وحقيقة معناهما : أخلص نفسه لله وجعلها سائلة له خالصة ، وكذلك معنى : استسلم : استخلص نفسه لله . وعن قتادة في ﴿أسلم﴾ أسلم هذا ابنه وهذا نفسه ﴿وتله للجبين﴾ صرعه على شقه ، فوقع أحد جبينيّه على الأرض تواضعاً ^(١) على مباشرة الأمر بصبر وجلد ، ليرضيا الرحمن ويخزيا الشيطان . وروى أن ذلك كان عند الصخرة التي بنى ، وعن الحسن : في الموضع المشرف على مسجد منى . وعن الضحاك : في المنحر الذي ينحر فيه اليوم . فإن قلت : أين جواب لما ؟ قلت : هو محذوف تقديره : فلما أسلما وتله للجبين ﴿وناديتاه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا﴾ كان ما كان مما تنطق به الحال ولا يحيط به الوصف من استبشارهما واعتباطهما ، وحمدهما لله وشكرهما على ما أنعم به عليهما ، من دفع البلاء العظيم بعد حلوله ، وما اكتسبا في تضاعيفه بتوطين الأنفس عليه من الثواب والأعواض ورضوان الله الذي ليس وراءه مطلوب ، وقوله ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ تعليل لتخويل ماخولها من الفرج بعد الشدة ، والظفر بالبغية بعد اليأس ﴿البلاء المبين﴾ الاختبار البين الذي يميز فيه المخلصون من غيرهم . أو المحنة اللينة الصعوبة التي لا محنة أصعب منها . الذبح : اسم ما يذبح . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : هو الكبش الذي قرب به هابيل فقبل منه ، وكان يرعى في الجنة حتى فدى به إسماعيل . وعن الحسن : فدى بوعل ^(٢) أهبط عليه من ثبير . وعن ابن عباس : لو تمت تلك الذبيحة لكانت سنة وذبح الناس أبناءهم ^(٣) ﴿عظيم﴾ ضخم الجشة سمين ، وهى السنة فى الأضاحى . وقوله عليه السلام ، استشرفوا ضحايكم فإنها على الصراط مطاياكم ، وقيل : لأنه وقع فداء عن ولد إبراهيم . وروى أنه هرب من إبراهيم عليه السلام عند الحجرة فرماه بسبع حصيات حتى أخذه ، فبقيت سنة فى الرمي . وروى أنه رمى الشيطان حين تعرض له بالوسوسة عند ذبح ولده : وروى أنه لما ذبحه قال جبريل : الله أكبر الله أكبر ، فقال الذبيح : لا إله إلا الله والله أكبر ، فقال إبراهيم عليه السلام : الله أكبر والله الحمد ^(٤) ، فبقي سنة : وحكى فى قصة الذبيح أنه حين أراد ذبحه وقال : يابنى خذ الحبل والمديّة وانطلق بنا إلى الشعب نختطب ، فلما توسط شعب ثبير أخبره بما أمر ، فقال : أشدد رباطى لا أضطرب ، واكفف عن ثيابك

(١) قوله «تواضعاً على مباشرة الأمر» أى توفناً . (ع)

(٢) قوله «بوعل» فى الصحاح : الوعل : الأروى له ، ويقال : التيس الجبل . (ع)

(٣) لم أجده .

(٤) لم أجده .

لا ينتضح عليها شيء من دمي فينقص أجرى وتراه أمتعتن ، واشخذ شغرتك وأسرع إمرارها على حلقى حتى تجهز على ، ليكون أهون فإن الموت شديد ، وقرأ على أمى سلامى ، وإن رأيت أن ترد قيصى على أمى فافعل ، فإنه عسى أن يكون أسهل لها ، فقال إبراهيم عليه السلام : نعم العون أنت يا بنى على أمر الله ، ثم أقبل عليه يقبله وقد ربطه ، وهما يبكيان ، ثم وضع السكين على حلقه فلم تعمل . لأن الله ضرب صفيحة من نحاس على حلقه ، فقال له : كبتى على وجهى فإنك إذا نظرت وجهى رحمتى وأدركتك رقة تحول يمشك وبين أمر الله ، ففعل ، ثم وضع السكين على قفاه فانقلب السكين ، ونودى : يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ، فنظر فإذا جبريل عليه السلام معه كبش أقرن أملح ، فكبر جبريل والكبش ، وإبراهيم وابنه ، وأتى المنحر من منى فدبحه : وقيل : لما وصل موضع السجود منه إلى الأرض جاء الفرج . وقد استشهد أبو حنيفة رحمه الله بهذه الآية فيمن نذر ذبح ولده : أنه يلزمه ذبح شاة ، فإن قلت : من كان الذبيح من ولديه ؟ قلت : قد اختلف فيه : فعن ابن عباس وابن عمر ومحمد بن كعب القرظى وجماعة من التابعين : أنه إسماعيل . والحجة فيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أنا ابن الذبيحين ، وقال له أعرابي : يا ابن الذبيحين ، فتبسم ، فسئل عن ذلك فقال : إن عبد المطلب لما حفر بئر زمزم نذر لله : لئن سهل الله له أمرها ليدبحن أحد ولده ، فخرج السهم على عبد الله ففنع أخواله وقالوا له أفد ابنك بمائة من الإبل فقدها بمائة من الإبل والثانى إسماعيل^(١) وعن محمد بن كعب القرظى قال : كان مجتهد بنى إسرائيل يقول إذا دعا : اللهم إله إبراهيم وإسماعيل وإسرائيل ، فقال موسى عليه السلام : يارب ، المجتهد بنى إسرائيل إذا دعا قال : اللهم إله إبراهيم وإسماعيل وإسرائيل ، وأنا بين أظهرهم فقد أسمعنى كلامك واصطفيتنى برسالتك ؟ قال : يا موسى ، لم يحب أحد حب إبراهيم قط ، ولا خير بينى وبين شيء قط إلا اختارنى . وأما إسماعيل فإنه جاد بدم نفسه . وأما إسرائيل ، فإنه لم ييأس من روحى فى شدة نزلت به قط ، ويدل عليه أن الله تعالى لما آتم قصة الذبيح قال : (وبشرناه بإسحاق نبيا) وعن محمد بن كعب أنه قال لعمر بن عبد العزيز : هو إسماعيل ، فقال عمر : إن هذا شيء ما كنت أنظر فيه ، وإنى لأراه كما قلت ، ثم أرسل إلى يهودى قد أسلم فسأله ، فقال : إن اليهود لتعلم أنه إسماعيل ، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب ، ويدل عليه أن قرنى الكبش كانا منوطين فى الكعبة فى أيدي بنى إسماعيل إلى أن احترق البيت . وعن الأصمعى قال : سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح فقال : يا أصمعى أين عزب عنك عقلك . ومتى كان إسحاق بمكة ، وإنما كان إسماعيل بمكة ، وهو الذى بنى البيت مع أبيه ، والمنحر بمكة .

(١) أخرجه الحاكم والطبري من رواية الصنابحي عن معاوية رضى الله عنه وفيه قصة .

ومما يدل عليه أن الله تعالى وصفه بالصبر دون أخيه إسحاق في قوله (واسماعيل واليسع وذا الكفل كل من الصابرين) وهو صبره على الذبح ، ووصفه بصدق الوعد في قوله (إنه كان صادق الوعد) لأنه وعد أباه الصبر من نفسه على الذبح فوفى به ، ولأن الله بشره بإسحاق وولده يعقوب في قوله (فضحكتم بفبشرناها بإسحق ومن وراءه إسحق يعقوب) فلو كان الذبيح إسحق لكان خلفاً للوعد في يعقوب . وعن علي بن أبي طالب وابن مسعود والعباس وعطاء وعكرمة وجماعة من التابعين : أنه إسحق . والحجة فيه أن الله تعالى أخبر عن خليله إبراهيم حين هاجر إلى الشام بأنه استوهبه ولداً ، ثم أتبع ذلك البشارة بغلام حلیم ، ثم ذكر رؤياه بذبح ذلك الغلام المبشر به . ويدل عليه كتاب يعقوب إلى يوسف : من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله ^(١) . فإن قلت : قد أوحى إلى إبراهيم صلوات الله عليه في المنام بأن يذبح ولده ولم يذبح ، وقيل له : قد صدقت الرؤيا ، وإنما كان يصدقها لو صح منه الذبح ، ولم يصح ^(٢)

(١) أخرجه الترمذی في النوادر في الحادى والعشرين بعد المائتين : حدثنا عمر بن أبى عمر حدثنا عصام بن المنثى الحمصى عن أبيه عن وهب بن منبه قال «كتب يعقوب كتاباً فيه : بسم الله الرحمن الرحيم . من يعقوب نبى الله إلى آخره» وأخرج الدارقطنى في غرائب مالك من رواية إسحاق بن وهب الطوسى عن ابن وهب عن مالك عن نافع عن ابن عمر رفعه «أوحى إلى ملك الموت أن انت يعقوب فسلم عليه فذكر الحديث - وفيه فقال : اكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر أما بعد فانا أهل بيت فذكره مطولاً . قال الدارقطنى : هذا موضوع . وإسحاق كان يضع الحديث على ابن وهب . وقد تقدم في يوسف من وجه آخر .

(٢) قال محمود : «فإن قلت قد أوحى إلى إبراهيم في المنام أن يذبح ولده ولم يذبح ، وقيل له : قد صدقت الرؤيا وإنما كان يصدقها لو صح منه الذبح ، ولم يصح . فأجاب بأنه قد بذل وسعه وفعل ما يفعله الذابح من بطحه على شقه وإمرار الشفرة على حلقة ، ولكن الله سبحانه منع الشفرة أن تمضى فيه وهذا لا يقدر في فعل إبراهيم ، ألا ترى أنه لا يسمى عاصياً ولا مفرطاً بل يسمى مطيعاً ومجتهداً ، كما لو مضت فيه للشفرة وفرت الأوداج وأنهرت الدم ، وليس هذا من ورود النسخ على المسأور به قبل الفعل ولا قبل أو أن الفعل في شيء ، كما يسبق إلى بعض الأوهام حتى يشتغل بالكلام عليه . انتهى كلامه» قال أحمد : كل ما ذكره دذنة حول امتناع النسخ قبل التمكن من الفعل ، وتلك قاعدة المعتزلة . وأما أهل السنة فيثبتون جوازه ، لأن التكليف ثابت قبل التمكن من الفعل ، لحاز رفعه كالموت . وأيضاً فكل نسخ كذلك ؛ لأن القدرة على الفعل عندنا مقارنة لا متقدمة ، ثم يثبتون وقوعه بهذه الآية . ووجه الدليل منها أن إبراهيم عليه السلام أمر بالذبح بدليل (افعل ما تؤمر) ونسخ قبل التمكن بدليل العدول إلى الفداء ، فمن ثم تحوم الومضى على أنه فعل غاية وسعه من بطحه على شقه وإمرار الشفرة على حلقة ، وإنما امتنعت بأمر من الله تعالى ، وغرضه بذلك أحد أمرين : إما أن يكون الأمر إنما توجه عليه بمقدمات الذبح وقد حصلت لابنفس الذبح ، أو توجه الأمر بنفس الذبح وتعاطيه ، ولكن لم يتمكن . وكلا الأمرين لا يخلصه . أما قوله : أمر بمقدمات الذبح فباطل بقوله (إني أرى في المنام أنى أذبحك) وقوله (افعل ما تؤمر) وأما قوله : لم يتمكن لأن الشفرة منعت بأمر من الله تعالى بعد تسليم الأمر بالذبح ، لحاصله أنه لم يتمكن من الذبح المسأور به ، فكان النسخ إذاً قبل التمكن ، وهو عين ما أنكره المعتزلة ، ولما لم يكن في هذين الجوابين لم خلاص : لجأ بعضهم إلى تسليم أنه أمر بالذبح ، ودعوى أنه ذبح ولكنه كان يلتزم ، وهو باطل لا يثبت له . وسياق الآية يخل دعواهم ويفل ثبناه .

قلت . قد بذل وسعه وفعل ما يفعل الذابح : من بطحه على شقه وإمرار الشفرة على حلقة ، ولكن الله سبحانه جاء بما منع الشفرة أن تمضى فيه ، وهذا لا يقدح في فعل إبراهيم عليه السلام ، ألا ترى أنه لا يسمى عاصيا ولا مفرطا ، بل يسمى مطيعا ومجتهدا ، كما لو مضت فيه الشفرة وفرت الأوداج وأنهرت الدم ، وليس هذا من ورود النسخ على المأمور به قبل الفعل ، ولا قبل أو أن الفعل في شيء ، كما يسبق إلى بعض الأوهام ، حتى يشتغل بالكلام فيه . فإن قلت : الله تعالى هو المفتدى منه : لأنه الأمر بالذبح ، فكيف يكون فاديا حتى قال (وفديناه) ؟ قلت : الفادى هو إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، والله عز وجل وهب له الكعبش ليفدى به وإنما قال (وفديناه) إسنادا للفداء إلى السبب الذى هو الممكن من الفداء بهبه . فإن قلت : فإذا كان ما أتى به إبراهيم من البطح وإمرار الشفرة في حكم الذبح . فما معنى الفداء ، والفداء إنما هو التخليص من الذبح ببدل ؟ قلت : قد علم بمنع الله أن حقيقة الذبح لم تحصل من فرى الأوداج وإنهار الدم ، فوهب الله له الكعبش ليقم ذبحه مقام تلك الحقيقة حتى لا تحصل تلك الحقيقة في نفس إسماعيل ، ولكن في نفس الكعبش بدلا منه . فإن قلت : فأى فائدة في تحصيل تلك الحقيقة ، وقد استغنى عنها بقيام ما وجد من إبراهيم مقام الذبح من غير نقصان ؟ قلت : الفائدة في ذلك أن يوجد ما منع منه في بدله حتى يكمل منه الوفاء بالمتنذر وإيجاد المأمور به من كل وجه . فإن قلت : لم قيل ههنا (كذلك نجزي المحسنين) وفي غيرها من القصص : إنا كذلك ؟ قلت : قد سبقه في هذه القصة : إنا كذلك ، فكأنما استخف بطرحه اكتفاء بذكره مرة عن ذكره ثانية .

وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ
وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣)

(نبيا) حال مقدرة ، كقوله تعالى (فادخلوها خالدين) . فإن قلت : فرق بين هذا وبين قوله (فادخلوها خالدين) وذلك أن المدخول موجود مع وجود الدخول ، والخلود غير موجود معهما ، فقد رت مقدرين الخلود فكان مستقيا ، وليس كذلك المبشر به ، فإنه معدوم وقت وجود البشارة ، وعدم المبشر به أوجب عدم حاله لاحالة ؛ لأن الحال حلية ، والحلية لا تقوم إلا بالحلى ، وهذا المبشر به الذى هو إسحق حين وجد لم توجد النبوة أيضاً بوجوده ، بل تراخت عنه مدة متطاولة ، فكيف يجعل نبيا حالا مقدرة ، والحال صفة الفاعل أو المفعول عند وجود الفعل منه أوبه ؛ فالخلود وإن لم يكن صفتهم عند دخول الجنة ، فتقديرها (١) صفتهم ؛ لأن المعنى مقدرين

الخلود ، وليس كذلك النبوة ؛ فإنه لا سبيل إلى أن تكون موجودة أو مقدرة وقت وجود البشارة بإسحق لعدم إسحق . قلت : هذا سؤال دقيق السلك ضيق المسلك ، والذي يحل الإشكال : أنه لا بد من تقدير مضاف محذوف ، وذلك قولك : وبشرناه بوجود إسحق نبياً ، أى بأن يوجد مقدرة نبوته ؛ فالعامل في الحال الوجود لا فعل البشارة ، وبذلك يرجع ، نظير قوله تعالى (فادخلوها خالدين) . (من الصالحين) حال ثانية ، وورودها على سبيل التثاء والتعريض ؛ لأن كل نبي لا بد أن يكون من الصالحين . وعن قتادة : بشره الله بنبوة إسحق بعد ما امتحنه بذبحه ، وهذا جواب من يقول الذيح إسحق لصاحبه عن تعلقه بقوله (وبشرناه بإسحق) قالوا : ولا يجوز أن يبشره الله بمولده ونبوته معا ؛ لأن الامتحان بذبحه لا يصح مع علمه بأنه سيكون نبياً (وباركنا عليه وعلى إسحق) وقرئ : وبركنا ، أى : أفضنا عليهما بركات الدين والدنيا ، كقوله (وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين) وقيل : باركنا على إبراهيم في أولاده ، وعلى إسحق بأن أخرجنا أنبياء بني إسرائيل من صلبه . وقوله (وظالم لنفسه) نظيره : (قال ومن ذريتي ؟ قال : لا ينال عهدى الظالمين) وفيه تنبيه على أن الخبيث والطيب لا يجرى أمرهما على العرق والعنصر ، فقد ولد البر الفاجر ، والفاجر البر . وهذا عما يهدم أمر الطبايع والعناصر ، وعلى أن الظلم في أعقابهما لم يعد عليهما بيب ولا نقية ، وأن المرء إنما يعاب بسوء فعله ويعاتب على ما اجتاحت يده ، لا على ما وجد من أصله أو فرعه .

وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ۖ وَجَبَبْنَاهُمَا وَوَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ۝١١٥

وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ۝١١٦ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ۝١١٧

وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝١١٨ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ۝٣٧ سَلَامٌ عَلَىٰ

مُوسَىٰ وَهَارُونَ ۝١٢٠ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝١٢١ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا

الْمُؤْمِنِينَ ۝١٢٢

(من الكرب العظيم) من الفرق . أو من سلطان فرعون وقومه وغشهم^(١) (ونصرناهم) الضمير لهما ولقومهما في قوله (ونجيناهما وقومهما) . (الكتاب المستبين) البليغ في بيانه وهو التوراة ، كما قال (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور) وقال : من جوز أن تكون التوراة

عربية أن تشتق^(١) من وري الزند و فوعلة ، منه ، على أن التاء مبدلة من واو (الصراط المستقيم) صراط أهل الإسلام ، وهى صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ (١٢٣)
أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ۝ (١٢٤) اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ
الْأَوَّلِينَ ۝ (١٢٥) فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُم لَمُخْضَرُونَ ۝ (١٢٦) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝ (١٢٧)
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝ (١٢٨) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ۝ (١٢٩) إِنَّا كَذَلِكَ
نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ (١٣٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۝ (١٣١)

قرئ إلیاس ، بكسر الهمزة ، والیاس : على لفظ الوصل : وقيل : هو إدريس النبی . وقرأ ابن مسعود : وإن إدريس ، فى موضع إلیاس . وقرئ : إدراىس : وقيل : هو إلیاس بن یاسین ، من ولد هرون أخى موسى (أتدعون بعلا) أتعبدون بعلا ، وهو علم لصنم كان لهم كناة وهبل . وقيل : كان من ذهب ، وكان طوله عشرين ذراعا ، وله أربعة أوجه ، فتوا به وعظموه حتى أخذموه أربعمئة سادن ، وجعلوهم أنبياءه ، فكان الشيطان يدخل فى جوف - بعل - ويتكلم بشريعة الضلالة ، والسدنة يحفظونها ويعلمونها الناس ، وهم أهل بعليك من بلاد الشام ، وبه سميت مدينتهم بعليك . وقيل : البعل الرب ؛ بلغة الین ، يقال : من بعل هذه الدار ، أى : من ربها ؟ والمعنى : أتعبدون بعض البعول وتتركون عبادة الله (الله ربكم ورب آبائكم) قرئ بالرفع على الابتداء ، وبالنصب على البدل ، وكان حمزة إذا وصل نصب ، وإذا وقف رفع : وقرئ : على الیاسین . وإدريسین . وإدرا سین . وإدرا سین ، على أنها لغات فى إلیاس وإدريس . ولعل لزيادة الياء والنون فى السريانية معنى . وقرئ : على الیاسین بالوصل ، على أنه جمع يراد به إلیاس وقومه ، كقولهم : الخبيبون والمهلون . فإن قلت : فهلا حملت على هذا الیاسین على القطع وأخواته ؟ قلت : لو كان جمعا لعرف بالآلف واللام . وأما من قرأ : على آل یاسین ، فعلى أن یاسین اسم أبى الیاس ، أضيف إليه الآل .

وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ۝ (١٣٢) إِلَّا عَجُوزًا فِي

الْفَٰعِبِينَ ١٣٥ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ ١٣٦ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ١٣٧
وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ١٣٨

(مصبحين) داخلين في الصباح ، يعنى : تمرّون على منازلهم في متاجرهم إلى الشام ليلاً ونهاراً ، فافهم عقول تعبرون بها .

وَأَن يُّؤَنَسَ لِّمَنَ الْمُرْسَلِينَ ١٣٩ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ١٤٠ فَسَاحَمَ
فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ١٤١ فَالْتَقَمَهُ الْحَوْثُ وَهُوَ مُلِيمٌ ١٤٢ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ
مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَّيْتُ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ١٤٤ فَتَبَذْتَهُ بِالْعَرَاءِ
وَهُوَ سَقِيمٌ ١٤٥ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ١٤٦ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ
أَوْ يَزِيدُونَ ١٤٧ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ١٤٨

قرئ : يونس ، بضم النون وكسر ها . وسى هربه من قومه بغير إذن ربه : إباحا على طريقة
الحجاز . والمساهمة : المقارعة . ويقال : استهم القوم ، إذا اقترعوا . والمدحض : المغلوب المقروع .
وحقيقته : المزلق عن مقام الظفر والغلبة . روى أنه حين ركب في السفينة وقفت ، فقالوا : ههنا
عبد أبى من سيده ، وفيما يزعم البحارون أن السفينة إذا كان فيها أبى لم تجر ، فاقترعوا ، فخرجت
القرعة على يونس فقال : أنا الآبى ، وزجّ بنفسه في الماء . (فالتممه الحوت وهو ملهم) داخل
في الملامة . يقال : ربّ لا ثم ملهم ، أى يلوم غيره وهو أحق منه باللوم . وقرئ : ملهم ، بفتح
الميم ، من ليم فهو ملهم ، كما جاء : مشيب في مشوب ، مبنيا على شيب . ونحوه : مدعى ، بناء
على دعى (من المسبحين) من الدّاكرين الله كثيراً بالتسبيح والتقدّيس . وقيل : هو قواه في
بطن الحوت (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) وقيل : من المصلين . وعن ابن
عباس : كل تسبيح في القرآن فهو صلاة . (١) وعن قتادة : كان كثير الصلاة في الرعاء . قال :
وكان يقال : إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر ، وإذا صرع وجد متكأ . وهذا ترغيب من
الله عز وجل في إكثار المؤمن من ذكره بما هو أهله ، وإقباله على عبادته ، وجمع همه لتقييد

(١) أخرجه الطبري وابن مردويه من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما - قوله ورواه

عبد الرزاق عن معمر عن قتادة موقوفا

نعمته بالشكر في وقت المهلة والفسحة ، لينفعه ذلك عنده تعالى في المضايق والشدائد (اللبث في بطنه) الظاهر لبثه فيه حيا إلى يوم البعث . وعن قتادة : لكان بطن الحوت له قبرا إلى يوم القيامة . وروى أنه حين ابتلعه أوحى الله إلى الحوت : إني جعلت بطنك له سجنا ، ولم أجعله لك طعاما . واختلف في مقدار لبثه ، فعن الكلبي : أربعون يوما ، وعن الضحاك : عشرون يوما . وعن عطاء سبعة . وعن بعضهم : ثلاثة . وعن الحسن : لم يلبث إلا قليلا ، ثم أخرج من بطنه بعيد الوقت الذي التقم فيه . وروى أن الحوت سار مع السفينة رافعا رأسه يتنفس فيه يونس ويسبح ، ولم يفارقهم حتى انتهوا إلى البر ، فلفظه سالما لم يتغير منه شيء ، فأسلوا : وروى أن الحوت قدفه بساحل قرية من الموصل . والعراء : المكان الخالي لا شجر فيه ولا شيء ينظيه (وهو سقيم) اعتل بما حل به . وروى أنه عاد بدنه كبدن الصبي حين يولد . واليقطين : كل ما ينسحق على وجه الأرض ولا يقوم على ساق كشجر البطيخ والقنا . والخنظل ، وهو ديفيل ، من قطن بالمكان إذا أقام به . وقيل : هو الدباء . وفائدة الدباء أن الذباب لا يجتمع عنده . وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك لتحب القرع . قال : أجل ، هي شجرة أخى يونس ،^(١) وقيل : هي التين ، وقيل : شجرة الموز ، تغطي بورقها ، واستظل بأغصانها ، وأفطر على ثمارها . وقيل : كان يستظل بالشجرة وكانت وعلة^(٢) تختلف إليه ، فيشرب من لبنها . وروى أنه مر زمان على الشجرة فيبست ، فبكى جرعا ، فأوحى الله إليه : بكيت على شجرة ولا تبكي على مائة ألف في يد الكافر ، فإن قلت : ما معنى (وأنبتنا عليه شجرة) ؟ قلت : أنبتناها فوقه مظلة له ؛ كما يطلب البيت على الإنسان (وأرسلناه إلى مائة ألف) المراد به ما سبق من إرساله إلى قومه وهم أهل نينوى . وقيل : هو إرسال ثان بعد ما جرى عليه إلى الأولين . أو إلى غيرهم وقيل : أسلوا فسلوا أن يرجع إليهم فأبى ، لأن النبي إذا هاجر عن قومه لم يرجع إليهم مقيما فيهم ، وقال لهم : إن الله باع إليكم نيبا (أو يزيدون) في مرأى الناظر : أى . إذا رأها الرائي قال : هي مائة ألف أو أكثر والغرض : الوصف بالكثرة (إلى حين) إلى أجل مسمى وقرئ : ويزيدون ، بالواو . وحتى حين .

فَاسْتَفْتِهِمْ أَأَرَبَّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠) أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إَفْكِمْ لَقَائِلُونَ (١٥١) وَلَدَّ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ

(٢) لم أجده . وأخرجه ابن مردويه عن ابن مسعود في قصة يونس قال عبد الله : قال النبي صلى الله عليه وسلم ... واليقطين القرع .

(٣) قوله « وكانت وعلة » يقال : هي شاة جبلية . (ع)

لَكَذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَقَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾
أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَنٌ مُبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأَتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾

(فاستفتهم) معطوف على مثله في أول السورة، وإن تباعدت بينهما المسافة: أمر رسوله باستفتاء قريش عن وجه إنكار البعث أولاً، ثم ساق الكلام موصولاً ببعضه ببعض، ثم أمره باستفتائهم عن وجه القسمة الضيزى التى قسموها، حيث جعلوا لله الإناث ولا أنفسهم الذكور فى قولهم: الملائكة بنات الله، مع كراهتهم الشديدة لهن، ووأدهم، واستنكافهم من ذكرهن. ولقد ارتكبوا فى ذلك ثلاثة أنواع من الكفر، أحدها: التجسيم، لأن الولادة مختصة بالأجسام والثانى: تفضيل أنفسهم على ربهم حين جعلوا أوضاع الجنسين له وأرفعهما لهم، كما قال (وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم)، (أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين) والثالث: أنهم استهانوا بأكرم خلق الله عليه وأقربهم إليه، حيث أنثوهم ولو قيل لأقلهم وأدناهم: فيك أنوثة. أو شكلك شكل النساء، للبس لقائله جلد النمر، ولا تقلبت حاليقه^(١) وذلك فى أهاجهم بين مكشوف، فكرر الله سبحانه الأنواع كلها فى كتابه مرات، ودل على فظاعتها فى آيات: (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً. لقد جئتم شيئا إدا. تكاد السموات يتفطرن منه) (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون)، (وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل له مافى السموات والأرض)، (بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد)، (ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله)، (وجعلوا له من عباده جزءاً)، (ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون)، (أم له البنات ولسم البنون)، (ويجعلون لله ما يكرهون)، (أصطفى البنات على البنين)، (أم اتخذ بما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين)، (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً). (أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون). فإن قلت. لم قال (هم شاهدون) خص علم المشاهدة؟ قلت: ما هو إلا استهزاء بهم وتجهيل، وكذلك قوله (أشهدوا خلقهم) ونحوه قوله (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم) وذلك أنهم كما لم يعلموا ذلك بطريق المشاهدة، لم يعلموه بخلق الله عليه فى قلوبهم، ولا بإخبار صادق، ولا بطريق استدلال ونظر. ويجوز أن يكون المعنى: أنهم يقولون ذلك، كالقائل قولاً عن تلج صدر وطمأنينة نفس لإفراط جهلهم، كأنهم قد شاهدوا خلقهم. وقرئ: ولد الله، أى الملائكة ولده. والولد

(١) قوله: ولا تقلبت حاليقه، فى الصحاح: حلاق العين: باطن أجنحتها الذى يسوده الكحل اه. (ع)

د فعل ، بمعنى مفعول ، يقع على الواحد والجمع ، والمذكر والمؤنث . تقول : هذه ولدى ، وهؤلاء ولدى . فإن قلت : (أصطفى البنات) بفتح الهمزة : استفهام على طريق الإنكار والاستبعاد ، فكيف صحت قراءة أبي جعفر بكسر الهمزة على الإثبات ؟ قلت : جعله من كلام الكفرة بدلا عن قولهم (ولد الله) وقد قرأ بها حمزة والأعمش رضى الله عنهما . وهذه القراءة - وإن كان هذا محملا - فهي ضعيفة ، والذي أضعفها : أن الإنكار قد اكتنف هذه الجملة من جانبيها ، وذلك قوله (وإنهم لكاذبون) . (مالكم كيف تحكمون) ؟ فن جعلها للإثبات ، فقد أوقعها دخيلة بين نسييين . وقرئ تذكرون ، من ذكر (أم لكم سلطان) أى حجة نزلت عليكم من السماء وخبر بأن الملائكة بنات الله (فأتوا بكتابكم) الذى أنزل عليكم فى ذلك ، كقوله تعالى (أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون) وهذه الآيات صادرة عن محط عظيم ، وإنكار فظيع ، واستبعاد لا قارب لهم شديد ، وما الأساليب التى وردت عليها إلا ناطقة بتسفيه أحلام قريش ، وتجهيل نفوسها ، واستركاء عقولها ، مع استهزاء وتهكم وتعجيب ، من أن يخطر بخطر مثل ذلك على بال ويحدث به نفساً : فضلا أن يجعله معتقداً ويتظاهر به مذهباً .

وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾

سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾

(وجعلوا) بين الله وبين الجنة وأراد الملائكة (نسباً) وهوزعهم أنهم بناته ، والمعنى : وجعلوا بما قالوا نسبة بين الله وبينهم ، وأثبتوا له بذلك جنسية جامعة له وللملائكة . فإن قلت : لم سمي الملائكة جنة ؟ قلت : قالوا الجنس واحد ، ولكن من خبت من الجن ومرد وكان شراً كله فهو شيطان ، ومن طهر منهم ونسك وكان خيراً كله فهو ملك ؛ فذكرهم فى هذا الموضع باسم جنسهم ، وإنما ذكرهم بهذا الاسم وضعاً منهم وتقصيراً بهم . وإن كانوا معظمين فى أنفسهم أن يبلغوا منزلة المناسبة التى أضافوها لإلههم . وفيه إشارة إلى أن من صفته الاجتئان والاستتار ، وهو من صفات الأجرام لا يصلح أن يناسب من لا يجوز عليه ذلك . ومثاله : أن تسوى بين الملك وبين بعض خواصه ومقربيه ، فيقول لك : أنتسوى ببنى وبين عبدى . وإذا ذكره فى غير هذا المقام وقره وكناه . والضمير فى (إنهم لمحضرون) للكفرة . والمعنى : أنهم يقولون ما يقولون فى الملائكة ، وقد علم الملائكة أنهم فى ذلك كاذبون مفترون ، وأنهم محضرون النار معذبون بما يقولون ، والمراد المبالغة فى التكذيب . حيث أضيف إلى علم الذين ادعوا لهم تلك النسبة . وقيل : قالوا إن الله صاهر الجن فخرجت الملائكة . وقيل : قالوا . إن الله والشيطان أخوان .

وعن الحسن : أشركوا الجن في طاعة الله . ويجوز إذا فسر الجنة بالشياطين : أن يكون الضمير في (إنهم لمحضرون) لهم ، والمعنى أن الشياطين عالمون بأن الله يحضرهم النار ويعذبهم ، ولو كانوا مناسيين له أو شركاء في وجوب الطاعة لما عذبهم ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ استثناء منقطع من المحضرين : معناه ولكن المخلصين ناجون . وسبحان الله : اعتراض بين الاستثناء وبين ما وقع منه . ويجوز أن يقع الاستثناء من الواو في يصفون ، أى : يصفه هؤلاء بذلك ، ولكن المخلصون برآء من أن يصفوه به .

فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ

هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾

والضمير في ﴿عليه﴾ الله عز وجل ومعناه : فإنكم ومعبودكم ما أنتم وهم جميعاً بفاتنين على الله إلا أصحاب النار الذين سبق في علمه أنهم لسوء أعمالهم يستوجبون أن يصلوها . فإن قلت : كيف يفتنونهم على الله ؟ قلت : يفسدونهم عليه بغوائهم واستهزائهم ، من قولك : فتن فلان على فلان امرأته ، كما تقول : أفدتها عليه وخيها عليه . ويجوز أن يكون الواو في (وما تعبدون) بمعنى مع ، مثلاً في قولهم : كل رجل وضيعة ، فكما جاز السكوت على كل رجل وضيعة ، وأن كل رجل وضيعة : جاز أن يسكت على قوله (فإنكم وما تعبدون) لأن قوله (وما تعبدون) ساذ مسد الخبر ؛ لأن معناه : فإنكم مع ما تعبدون . والمعنى : فإنكم مع آلهتكم . أى : فإنكم قرناؤهم وأصحابهم لا تبرحون تعبدونها ، ثم قال : ما أنتم عليه ، أى على ما تعبدون ﴿بفاتنين﴾ يباغثين أو حاملين على طريق الفتنة والإضلال ﴿إلا من هو﴾ صال مثلكم . أو يكون في أسلوب قوله :

فَإِنَّكَ وَالْكِتَابُ إِلَى عَلِيٍّ كَذَابَةٌ وَقَدْ حَلِمَ الْأَدِيمُ (١)

وقرأ الحسن : صال الجحيم ، بضم اللام . وفيه ثلاثة أوجه ، أحدها : أن يكون جمعا وسقوط واوه لالتقاء الساكنين هي ولام التعريف (فإن قلت) كيف استقام الجمع مع قوله (من هو) ؟ قلت من موحد اللفظ بمجموع المعنى فحمل هو على لفظه والصالون على معناه كما حمل في مواضع من التنزيل

(١) لعمر بن العاص . وقيل للوليد بن عقبة بن أبي معيط ، يحرض معاوية على حرب علي بن أبي طالب ، وحلم الجلد حلأ ، كتب قعياً : إذا فسد ودود وتقب . وحلم بالضم ، حلأ بالكسر : عفى مع القدرة . وحلم بالفتح ، حلأ بالضم : رأى في منامه شيئاً . يقول : فإنك وكتابك الواصل إلى علي ترجوه استقامته ، كرجل كثير الدين للجد ، أو كأمراء دابة له والحال أنه قد فسد ولم ينفع فيه الدين . والمقصود : تشبيه حالة بأخرى . ويجوز أن الواو للبعية لا للمطف ، فالمعنى تشبيه معاوية بالدابة .

على لفظ من ومعناه في آية واحدة . والثاني أن يكون أصله صائل على القلب ، ثم يقال صال في صائل ، كقولهم شاك في شائك . والثالث أن تحذف لام صال تخفيفاً ويجرى الإعراب على عينه ، كما حذف من قولهم : ما باليت به بالة ، وأصلها بالية من بالي ، كعافية من عافى . ونظيره قراءة من قرأ : (وجنى الجنتين دان) (وله الجوار المنشآت) يا إجراء الإعراب على العين .

وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ

الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾

(وما منا) أحد (إلا له مقام معلوم) تحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه . كقوله :

* أَنَا آبَنُ جَلَا وَطَلَّاعُ الثَّنَائَا * (١)

* بِكَفِّي كَانَ مِنْ أَرْحَى الْبَشَرِ * (٢)

مقام معلوم في العبادة ، والانهاء إلى أمر الله مقصور عليه لا يتجاوزه ، كما روى : فهم راكع لا يقيم صلبه ، وساجد لا يرفع رأسه ﴿لنحن الصافون﴾ نصف أقدامنا في الصلاة ، أو أجنحتنا في الهواء . منتظرين ما نؤمر . وقيل : نصف أجنحتنا حول العرش داعين للمؤمنين . وقيل : إن المسلمين إنما اصطفوا في الصلاة منذ نزلت هذه الآية . وليس يصطف أحد من أهل الملل في صلاتهم غير المسلمين ﴿المسبحون﴾ المنزهون أو المصلون . والوجه أن يكون هذا وما قبله من قوله (سبحان الله عما يصفون) من كلام الملائكة حتى يتصل بذكرهم في قوله (ولقد علقت الجنة) كأنه قيل : ولقد علم الملائكة وشهدوا أن المشركين مفترون عليهم في مناسبة رب العزة وقالوا : سبحان الله ، فزهوه عن ذلك ، واستثنوا عباد الله المخلصين وبرؤهم منه ، وقالوا للكفرة فإذا صح ذلك فإنكم وآلهتم لا تقدرون أن تقتنوا على الله أحدا من خلقه وتصلوه ، إلا من كان مثلكم ممن علم الله - لكفرهم ، لا لتقديره وإرادته (٣) ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا - أنهم من أهل النار ، وكيف نكون مناسين لرب العزة وجمعنا وإياه جنسية واحدة ؟ وما نحن إلا عبيد أذلاء بين يديه ، لكل منا مقام من الطاعة لا يستطيع أن يزل عنه ظفرا ، خشوعا لعظمته

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة ٣٠٥ فراجع إن شئت اه مصححه .

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة ٦١٦ فراجع إن شئت اه مصححه .

(٣) قوله لا لتقديره وإرادته تعالى ، مبنى على مذهب المعتزلة أن الله لا يقدر الشر ولا يريد . وقال أهل

السنة : إن كل كان فهو بقاء الله وقدره كما بين في علم التوحيد . (ع)

وتواضعا لجلاله ، ونحن الصافون أقدامنا لعبادته وأجنحتنا ، مذعنين خاضعين مسبحين بمجدين ، وكما يجب على العباد^(١) لربهم . وقيل : هو من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعني : وما من المسلمين أحد إلا له مقام معلوم يوم القيامة على قدر عمله ، من قوله تعالى (عسى أن يبعثك ربك مقاما محموداً) ثم ذكر أعمالهم وأنهم هم الذين يصطفون في الصلاة يسبحون الله وينزهونه مما يضيف إليه من لا يعرفه مما لا يحوز عليه .

وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾

هم مشركو قريش كانوا يقولون ﴿لو أن عندنا ذكرا﴾ أى كتابا ﴿من﴾ كسب ﴿الأولين﴾ الذين نزل عليهم التوراة والإنجيل ، لآخلصنا العبادة لله ، ولما كذبنا كما كذبوا ، ولما خالفنا كما خالفوا ، فجاءهم الذكر الذى هو سيد الأذكار ، والكتاب الذى هو معجز من بين الكتب ، فكفروا به . ونحوه ﴿فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا﴾ فسوف يعلمون مغبة تكذيبهم وما يحل بهم من الانتقام . وإن : هى الخففة من الثقلية ، واللام هى الفارقة . وفى ذلك أنهم كانوا يقولونه مؤكدين للقول جاذين فيه ، فكم بين أول أمرهم وآخره .

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾

الكلمة : قوله : ﴿إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون﴾ وإنما سماها كلمة وهى كلمات عدة ، لأنها لما انتظمت فى معنى واحد كانت فى حكم كلمة مفردة . وقرئ : كلماتنا : والمراد الموعد بعلومهم على عدوهم فى مقاوم الحجاج وملاحم القتال فى الدنيا ، وعلومهم عليهم فى الآخرة ، كما قال (والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة) ولا يلزم انهزامهم^(٢) فى بعض المشاهد ، وما جرى عليهم من القتل فإن الغلبة كانت لهم ولن بعدهم فى العاقبة ، وكفى بمشاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين مثالا يحتذى عليها وعبرا يعتبر بها . وعن الحسن رحمه الله : ما غلب نبي فى حرب ولا قتل فيها ، ولأن قاعدة أمرهم وأساسه والغالب منه : الظفر والنصرة . وإن وقع فى تضاعيف ذلك شوب من الابتلاء والمحنة . والحكم للغالب . وعن ابن عباس رضى الله

(١) قوله «وكما يجب على العباد لربهم» لعله كما يجب . كمبارة النفس . (ع)

(٢) قوله «ولا يلزم انهزامهم» أى لا يرد نقصاً للغلبة والنصر . (ع)

عنهما : إن لم ينصروا في الدنيا نصروا في الآخرة . وفي قراءة ابن مسعود : على عبادنا ، على تضمنين سبقت معنى حقت .

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۖ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ۖ (١٧٥)

(فتول عنهم) فأعرض عنهم وأغض^(١) على أذاهم (حتى حين) إلى مدة يسيرة وهي مدة الكف عن القتال . وعن السدي : إلى يوم بدر . وقيل إلى الموت . وقيل : إلى يوم القيامة (وأبصرهم) وما يقضى عليهم من الأسر والقتل والعذاب في الآخرة ، فسوف يبصرونك وما يقضى لك من النصرة والتأييد والثواب في العاقبة . والمراد بالأمر بإبصارهم على الحال المنتظرة الموعودة : الدلالة على أنها كائنة واقعة لا محالة ، وأن يكونتها قريبة كأنها قدام ناظريك . وفي ذلك تسلية له وتنفيس عنه . وقوله (فسوف يبصرون) للوعيد كما سلف لا للتبديد .

أَفِيعِدَا إِنَّا بِنَا يَسْتَعِجِلُونَ ۖ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ۖ (١٧٧)

وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۖ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ۖ (١٧٩)

مثل العذاب النازل بهم بعد ما أنذروه فأنكروه بجيش أنذر بهجومه قومه بعض نصاحهم فلم يلتفتوا إلى إنذاره ، ولا أخذوا أهبتهم ، ولا دبروا أمرهم تديراً ينجيهم ، حتى أناخ بفنائهم بقتة ، فشن عليهم الغارة وقطع دابرهم ، وكانت عادة مغاويرهم أن يغيروا صباحا ، فسميت الغارة صباحا وإن وقعت في وقت آخر ، وما فصحت هذه الآية ولا كانت لها الروعة التي تحس بها ويروقك موردها على نفسك وطبعك ، إلا لمجيئها على طريقة التمثيل ، وقرأ ابن مسعود : فبئس صباح . وقرئ : نزل بساحتهم ، على إسناده إلى الجار والمجرور كقولك : ذهب بزيد ونزل ، على : ونزل العذاب . والمعنى : فسَاءَ صباح المنذرين صباحهم ، واللام في المنذرين مبهم في جنس من أنذروا ، لأن ساء وبئس يقتضيان ذلك . وقيل : هو نزول رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح بمكة . وعن أنس رضي الله عنه : لما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر - وكانوا خارجين إلى مزارعهم ومهمهم المساحي - قالوا : محمد والخبيث ، ورجعوا إلى حصنهم . فقال عليه الصلاة والسلام : «الله أكبر خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»^(٢) وإنما ثنى (وتول عنهم) ليكون تسلية على تسلية . وتأكيذا لوقوع الميعاد إلى تأكيد . وفيه فائدة زائدة وهي إطلاق الفعلين معاً عن التقييد بالمفعول ، وأنه يبصر وهم يبصرون ما لا يحيط به المذكر من صنوف

(١) قوله «أغضض على أذاهم» في الصحاح «الاضضاء» : إدناء الجفون . (ع)

(٢) متفق عليه

المسرة وأنواع المساءة . وقيل : أريد بأحدهما عذاب الدنيا ، وبالأخر عذاب الآخرة .

سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبَّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْمَلَائِكَةِ ﴿١٨٢﴾

أضيف الرب إلى العزة لاختصاصه بها كأنه قيل : ذو العزة ، كما تقول : صاحب صدق ، لاختصاصه بالصدق . ويجوز أن يراد أنه مامن عزة لأحد من الملوك وغيرهم إلا وهو ربها ومالكها ، كقوله تعالى (تعز من تشاء) : اشتملت السورة على ذكر ما قاله المشركون في الله ونسبوا إليه مما هو منزعه عنه ، وما عاناه المرسلون من جهتهم ، وما خولوه في العاقبة من النصرة عليهم : فغتمها بجوامع ذلك من تزيه ذاته عما وصفه به المشركون ، والتسليم على المرسلين ﴿ والحمد لله رب العالمين ﴾ على ما قبض لهم من حسن العواقب ، والغرض تعليم المؤمنين أن يقولوا ذلك ولا يتخلوا به ولا ينفلوا عن مضمنات كتابه الكريم ومودعات قرآنه المجيد . وعن علي رضي الله عنه : « من أحب أن يكتال بالمكيال الأولي من الأجر يوم القيامة ، فليكن آخر كلامه إذا قام من مجلسه : سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين »^(١)

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ الصافات أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد كل جني وشيطان وتباعدت عنه مردة الشياطين وبرئ من الشرك وشهد له حافظه يوم القيامة أنه كان مؤمنا بالمرسلين »^(٢) .

(١) أخرجه عبد الرزاق والطبري من رواية الأصمعي بن نباتة عن علي موقوفاً . ورواه ابن أبي حاتم من رواية الشعبي عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلًا .

(٢) أخرجه الطبري وابن مردويه والواحدى من طرف عن أبي بن كعب رضي الله عنه .

سورة ص

مكية ، وهي ست وثمانون آية ، وقيل ثمان وثمانون آية

[نزلت بعد القمر]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ٢

(ص) على الوقف وهي أكثر القراءة . وقرئ بالكسر والفتح لالتقاء الساكنين ، ويجوز أن ينتصب بحذف حرف القسم وإيصال فعله ، كقولهم : الله لأفعلن ، كذا بالنصب ، أو بإضمار حرف القسم ، والفتح في موضع الجز ، كقولهم : الله لأفعلن ، بالجز وامتناع الصرف للتعريف والتأنيث ، لأنها بمعنى السورة ، وقد صرفها من قرأ (ص) بالجز والتثنية على تأويل الكتاب والتنزيل : وقيل : فيمن كسر هو من المصاداة وهي المعارضة والمعادلة . ومنها الصدى وهو ما يعارض الصوت في الأماكن الخالية من الأجسام الصلبة ، ومعناه : ما عارض القرآن بعملك فاعمل بأوامره واته عن نواهيه . فإن قلت : قوله : ص ﴿والقرآن ذى الذكر﴾ ، بل الذين كفروا في عزة وشقاق ﴿كلام ظاهره متنافر غير منتظم ، فما وجه انتظامه ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن يكون قد ذكر اسم هذا الحرف من حروف المعجم على سبيل التحذير والتنبية على الإعجاز كما مر في أول الكتاب ، ثم أتبعه القسم محذوف الجواب لدلالة التحذير عليه ، كأنه قال (والقرآن ذى الذكر) إنه لسكلام معجز . والثاني : أن يكون (ص) خبر مبتدأ محذوف ، على أنها اسم للسورة ، كأنه قال : هذه ص ، يعنى : هذه السورة التي أعجزت العرب ، والقرآن ذى الذكر ، كما تقول : هذا حاتم والله ، تريد : هذا هو المشهور بالسخاء والله ؛ وكذلك إذا أقسم بها كأنه قال : أقسمت بص والقرآن ذى الذكر إنه لمعجز ، ثم قال : بل الذين كفروا في عزة واستكبار عن الإذعان لذلك والاعتراف بالحق وشقاق لله ورسوله ، وإذا جعلتها مقسما بها وعطفت عليها (والقرآن ذى الذكر) جاز لك أن تريد بالقرآن التنزيل كله ، وأن تريد السورة بعينها . ومعناه : أقسم بالسورة الشريفة والقرآن ذى الذكر ، كما تقول : مررت بالرجل الكريم وبالنسمة المباركة ، ولا تريد بالنسمة غير الرجل . والذكر : الشرف والشهرة ، من قولك : فلان مذكور ، وإنه

لذكر لك ولقومك . أو الذكري والموعظة ، أو ذكر ما يحتاج إليه في الدين من الشرائع وغيرها ، كأقاصيص الأنبياء والوعود والوعيد . والتشكير في (عزة وشقاق) للدلالة على شدتهما وتفاقمهما . وقرئ : في غرة ، أي : في غفلة عما يجب عليهم من النظر واتباع الحق .

كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَا تَحِينْ مَنَاصٍ (٣)

(كم أهلكننا) وعيد لذوى العزة والشقاق (فنادوا) فدعوا واستغاثوا ، وعن الحسن . فنادوا بالتوبة (ولات) هي لا المشبهة بليس ، زيدت عليها تاء التأنيث كما زيدت على رب ، وثم للتوكيد ، وتغير بذلك حكمها حيث لم تدخل إلا على الأحيان ولم يبرز إلا أحد مقتضيا : إما الاسم وإما الخبر ، وامتنع بروزهما جميعا ، وهذا مذهب الخليل وسيبويه . وعند الأخفش : أنها لا النافية للجنس زيدت عليها التاء ، وخصت بنى الأحيان . و (حين مناص) منصوب بها ، كأنك قلت : ولا حين مناص لهم . وعنه : أن ما ينتصب بعده بفعل مضمر ، أي : ولا أرى حين مناص ، ويرتفع بالابتداء : أي ولا حين مناص كائن لهم ، وعندهما أن النصب على : ولا تَحِينْ حين مناص أي وليس حين مناص ، والرفع على ولا تَحِينْ حين مناص حاصل لهم . وقرئ : حين مناص ، بالكسر ، ومثله قول أبي زيد الطائي :

طَلَبُوا صَلَاحَنَا وَلَا تَأْوَانٍ فَأَجَبْنَا أَنْ لَا تَحِينْ بَقَاءً (١)

فإن قلت : ما وجه الكسر في أو أن ؟ قلت : شبه يأذ في قوله : وأنت إذ صحيح ، في أنه زمان قطع منه المضاف إليه وعوض التنوين : لأن الأصل : ولا تَحِينْ أو أن صلح . فإن قلت : فما تقول في حين مناص والمضاف إليه قائم ؟ قلت : نزل قطع المضاف إليه من مناص ؛ لأن

(١) بشوا حربنا عليهم وكانوا في مقام لو أبصروا ورعاه
ثم لما تشذرت وأنافت وقصوا منها ككره الصلاة
طلبوا صلحتنا ولا تَأْوَانٍ فأجبتنا أن لا تَحِينْ بقاء

لأبي زيد الطائي ، استعار البعث للتسبب . وتنوين مقام ورعاه . والتشذير : التهيؤ للقتال ، والتشعر بأطراف الثوب ، والتطاول ، والوعيد ، والركوب من خلف المركوب . والائانة : الارتفاع ، وكل هذا ترشيح لاستعارة البعث . ويجوز أنه شبه الحرب بفارس على طريق المكنية . والبعث والتشذر والائانة : تخجيل . وشبهها بالنار أيضا فأثبت لها الاتصال وهو التدفؤ بالنار تخجيلا . أو استعار الاتصال لافتتاح المكاره تصرفية ، وطابوا : جواب لما ، أي : لما ذاقوا بأسنا طلبوا صلحتنا ، والحال أنه ليس بالأوان أو أن صلح ، فأجبتهم بأن هذا ليس وقت بقاء ، بل وقت فناء . وأوان : منى على الكسر لنية الإضافة . وقيل : إنه منى على الكسر أيضا لنية الإضافة ، ونون الضرورة . وشبهه بزال في الوزن . وقيل : مجرور على إضمار ومن ، الاستراقية الزائدة . وزعم الفراء أن لا تَحِينْ هنا حرف جر ، وعليها فتنون أو أن للتكمين . وزعم اليعقوبي أنه على البناء تنوين عوض ، ورد بأنه لو كان كذلك لأعرب ، وحين نصب على أنه خبر لات في بقاء ، ثم نزلها منزلة نيتها في حين ، لأن التقدير : أن لا تَحِينْ حين بقاءكم ، وهو بعيد عن المعنى الجول .

أصله حين مناصهم منزلة قطعه من حين ، لاتحاد المضاف والمضاف إليه ، وجعل تنوينه عوضاً من الضمير المحذوف ، ثم بنى الحين لكونه مضافاً إلى غير متمكن . وقرئ : ولات بكسر التاء على البناء ، كجبر . فإن قلت : كيف يوقف على لات ؟ قلت : يوقف عليها بالتاء ، كما يوقف على الفعل الذى يتصل به تاء التأنيث . وأما الكسائي فيقف عليها بالهاء كما يقف على الأسماء المؤنثة . وأما قول أبي عبيد : إن التاء داخلة على حين فلا وجه له . واستشهاده بأن التاء ملترقة بحين في الإمام لا متشبه به ، فكم وقعت في المصحف أشياء خارجة عن قياس الخط . والمناص : المنجا والفوت . يقال : ناصه ينوصه إذا فاته . واستناص : طلب المناص . قال حارثة بن بدر :

عَمَرُ الْجِرَاءِ إِذَا قَصَرْتُ عَنْهُ بِيَدِي أَسْتَنَاصَ وَرَأْمَ جَرِي الْمَسْجِلِ^(١)

وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ^(٢)

أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ^(٣)

(منذر منهم) رسول من أنفسهم (وقال الكافرون) ولم يقل : وقالوا ، إظهاراً للغضب عليهم ، ودلالة على أن هذا القول لا يحسر عليه إلا الكافرون المتوغلون في الكفر المنهمكون في الغي الذين قال فيهم (أولئك هم الكافرون حقاً) وهل ترى كفراً أعظم وجهلاً أبلغ من أن يسموا من صدقه الله بوحيه كاذباً ، ويتعجبوا من التوحيد ، وهو الحق الذى لا يصح غيره ، ولا يتعجبوا من الشرك وهو الباطل الذى لا وجه لصحته . روى أن إسلام عمر رضى الله تعالى عنه فرح به المؤمنون فرحاً شديداً ، وشق على قريش وبلغ منهم ، فاجتمع خمسة وعشرون نفساً من صناديدهم ومشوا إلى أبي طالب وقالوا : أنت شيخنا وكبيرنا^(١) ، وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء ، يريدون : الذين دخلوا في الإسلام ، وجنتاك لتقضى بيننا وبين ابن أخيك ، فاستحضر أبو طالب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا ابن أخى ، هؤلاء قومك يسألونك السؤال^(٢) فلا تمل كل الميل على قومك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماذا يسألوننى ؟ قالوا ارفضنا

(١) لحارثة بن بدر ، يصف فرساً بأنه كثير المجازاة لغيره من الأفراس ، إذا قصرت : أى جذبت عنانه ، استناص : أى طلب النص والحرب والنجاء من الأعداء . وشبه الفرس بمن تصح منه الإرادة على طريق المكتبة ، والروم تخيل ، أى : أراد جرياً يجرى السحل وهو حار الوحش ، سمي به لكثرة حاله ، أى شبيهه .

(٢) ذكره الثعلبي بغير سند . وروى الترمذى والنسائى وابن حبان وأحمد وإسحاق وأبو يعلى والطبري وابن أبي حاتم وغيرهم من طريق يحيى بن عمار عن سعيد بن جبير عن ابن عباس . قال «مرض أبو طالب فجاءه قريش وجاء النبي صلى الله عليه وسلم الحديث نحوه» وليس فيه أوله .

(٣) قوله «يسألونك السؤال فلا تمل» (لهل السواء ، كما في عبارة النسفي . (ع)

وارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك ، فقال عليه السلام : رأيتم إن أعطيتكم ما سألتهم أمعطى
أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم ؟ فقالوا : نعم وعشراً ، أى نعطيكمها
وعشر كلمات معها ، فقال : قولوا لا إله إلا الله فقاموا وقالوا ﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن
هذا لشيء عجيب ﴾ أى : بليغ في العجب . وقرئ : عجاب ، بالتشديد ، كقوله تعالى (مكرراً
كباراً) وهو أبلغ من الخفف . ونظيره : كريم وكرام وكرام : وقوله (أجعل الآلهة إلهاً واحداً)
مثل قوله (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إنثاءً) فى أن معنى الجعل التصيير فى القول
على سبيل الدعوى والزعم ، كأنه قال : أجعل الجماعة واحداً فى قوله ، لأن ذلك فى الفعل محال .

وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا

لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا صِغَفْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِن هَٰذَا إِلَّا أَخْتِلَاقٌ ﴿٧﴾

(الملاء) أشراف قريش ، يريد : وانطلقوا عن مجلس أى طالب بعد ما بكتهم رسول الله
صلى الله عليه وسلم بالجواب العتيد ، قائلين بعضهم لبعض ﴿ امشوا واصبروا ﴾ فلا حيلة لكم
فى دفع أمر محمد (إن هذا) الأمر (لشيء يراد) أى يريد الله تعالى ويحكم بامضائه ، وما أراد
الله كونه فلا مرد له ولا ينفع فيه إلا الصبر ، أو أن هذا الأمر لشيء من نوائب الدهر يراد بنا
فلا انفكاك لنا منه : أو أن دينكم لشيء يراد ، أى : يطلب ليؤخذ منكم وتغلبوا عليه . و (أن)
بمعنى أى : لأن المنطلقين عن مجلس التناول لابد لهم من أن يتكلموا ويتفاوضوا فيما جرى لهم ،
فكان انطلاقهم مضماً معنى القول . ويجوز أن يراد بالانطلاق : الاندفاع فى القول ، وأنهم
قالوا : امشوا ، أى أكثروا واجتمعوا ، من مشت المرأة إذا كثرت ولادتها . ومنه : الماشية ،
للتناول ، كما قيل لها : الفاشية : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) : « ضموا فواشيكم » ^(٢) ومعنى
(واصبروا على آلهتكم) : واصبروا على عبادتها واتمسك بها حتى لا تزالوا عنها ، وقرئ :
وانطلق الملاء منهم امشوا ، بغير (أن) على إضمار القول . وعن ابن مسعود : وانطلق الملاء
منهم يمشون أن اصبروا ﴿ فى الملة الآخرة ﴾ فى ملة عيسى التى هى آخر الملل : لأن النصارى
يدعونها وهم مثله غير موحدة . أو فى ملة قريش التى أدركنا عليها آباءنا . أو ما سمعنا بهذا كائناتاً فى
الملة الآخرة ، على أن يجعل فى الملة الآخرة حالاً من هذا ولا تعلقه بما سمعنا كما فى الوجهين .
والمعنى : أنا لم نسمع من أهل الكتاب ولا من الكهان أنه يحدث فى الملة الآخرة توحيد الله .
ما (هذا إلا اختلاق) أى : افتعال وكذب .

(١) أخرجه ابن حبان من حديث جابر رضى الله عنه بلفظ «كفوا» وأصله فى مسلم .

(٢) قوله «ضموا فواشيكم» بفتح فى الصحاح : «حتى تذهب لحمه العشاء» (ع)

أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ مُّمٍ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا
عَذَابِ ٨ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ٩ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ١٠ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ
مِنَ الْأَحْزَابِ ١١

أنكروا أن يختص بالشرف من بين أشرافهم ورؤسائهم وينزل عليه الكتاب من بينهم ،
كما قالوا : (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) وهذا الإنكار ترجمة عما كانت
تغلي به صدورهم من الحسد على ما أوتى من شرف النبوة من بينهم (بل هم في شك) من
القرآن ، يقولون في أنفسهم : إما وإما . وقولهم (إن هذا إلا اختلاق) كلام مخالف لاعتقادهم
فيه يقولونه على سبيل الحسد (بل لما يذوقوا عذاب) بعد فإذا ذاقوه زال عنهم ما بهم من الشك
والحسد^(١) حيثئذ ، يعني : أنهم لا يصدقون به إلا أن يسهم العذاب مضطرين إلى تصديقه (أم
عندهم خزائن رحمة ربك) يعني ما هم بمالكى خزائن الرحمة حتى يصيبوا بها من شاؤوا ويصرفوها
عن شاؤوا ، ويتخيروا للنبوة بعض صناديدهم ، ويرفعوها عن محمد عليه الصلاة والسلام .
وإنما الذى يملك الرحمة وخزائنها : العزيز القاهر على خلقه ، الوهاب الكثير المواهب المصيب
بها مواقعها ، الذى يقسمها على ما تقتضيه حكمته وعدله ، كما قال (أهم يقسمون رحمة ربك نحن
قسمنا) ثم رشح هذا المعنى فقال (أم لهم ملك السموات والأرض) حتى يتكلموا فى الأمور
الربانية والتدبير الإلهية التى يختص بها رب العزة والكبرياء ، ثم تهكم بهم غاية التهكم فقال :
وإن كانوا يصلحون لتدبير الخلائق والتصرف فى قسمة الرحمة ، وكانت عندهم الحكمة التى
يميزون بها بين من هو حقيق بإيتاء النبوة دون من لا تحق له (فليرتقوا فى الأسباب) فليصعدوا
فى المعارج والطرق التى يتوصل بها إلى العرش ، حتى يستووا عليه ويدبروا أمر العالم وملوكوت
الله ، وينزلوا الوحي إلى من يختارون ويستصوبون ، ثم خسأهم خسأة^(٢) عن ذلك بقوله

(١) قال محمود : « معناه لم يذوقوه بعد ، فإذا ذاقوه زال عنهم ما بهم ... الخ » قلت : ويؤخذ منه أن لما لا ثقة
بالمواهب ، وإنما ينق لها فعل يتوقع وجوده ، كما يقول سيويه ، و الفرق بينها وبين لم بأن لم نقي لفعل يتوقع وجوده
لم يقبل ميثته قد ، ولما نقي لما يتوقع وجوده أدخل على ميثته قد ، وإنما ذكرت ذلك لأنى حديث عهد بالبحث فى
قوله عليه الصلاة والسلام « الشفعة فيما لم يقسم » فأتى استدلال به على أن الشفعة خاصة بما يقبل القسمة ، فقبل لى :
إن غاية أنه أثبت الشفعة فيما نقي عنه القسمة ، فاما أنها لا تقبل قسمة ، وإما أنها تقبل ولم تقع القسمة ، فأبطلت ذلك
بأن آله التى المذكورة « ولم » ومقتضاها قول المحل الفهم المنق وتوقع وجوده . ألا تراك تقول : الحجر لا يتكلم ،
ولو قلت : الحجر لم يتكلم ، لكان ركبا من القول ، لافهامه بقوله للكلام ،
(٢) قوله « ثم خسأهم خسأة » فى الصغاح : خسأت الكلب خسأ : طرده . وخسأ بنفسه يتعدى ولا يتعدى . (ع)

(جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب) يريد ما هم إلا جيش من الكفار المتحزبين على رسل الله، مهزوم مكسور عما قريب^(١) فلا تبال بما يقولون، ولا تكثرت لما به يهدون. و(ما) مزيدة، وفيها معنى الاستعظام، كما في قول امرئ القيس:

* وَحَدِيثٌ مَا عَلَى قِصْرَةٍ * (٢)

إلا أنه على سبيل الهزء، و(هنالك) إشارة إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل ذلك القول العظيم، من قولهم لمن ينتدب لأمر ليس من أهله: لست هنالك.

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (١٢) وَنَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَخْضَبُ ثَمُوكَةَ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ (١٣) إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابُ (١٤) وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَأْهَلًا مِنْ فَوَاقٍ (١٥) (ذو الأوتاد) أصله من ثبات البيت المطنّب بأوتاده، قال:

وَالْبَيْتُ لَا يَبْنَى إِلَّا عَلَى عَمْدٍ وَلَا عِمَادَ إِذَا لَمْ تَرْمِ أَوْتَادُ (٣)

(١) قال محمود: «ثم نهك بهم غاية النهم فقال: إن كانوا يصلحون لتدبير الخلائق والتصرف في قسمة الرحمة فكانت عندهم المعرفة التي يميزون بها بين من هو حقيق بإيتاء النبوة دون من لا يستحق، فليترفوا في الممارج والطرق الموصلة إلى العرش حتى يستولوا عليه ويدبروا أمر العالم وملكوته الله تعالى، وينزلوا الوحي على من يختارونه. قال: ثم خسامهم بقوله (جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب) معناه: إن هؤلاء إلا جند متحزبون على النبي صلى الله عليه وسلم عما قليل يهزمون ويولون الأدبار» قال أحمد: الاستواء المنسوب لله: ليس بما يتوصل إليه بالصعود في الممارج والوصول إلى العرش والاستقرار عليه والتكبر فوقه، لأن الاستواء المنسوب إلى الله تعالى ليس استواء استقرار بحسب - تعالى الله عن ذلك - وإنما هو صفة فعل، أي فعل فيه فعلا سماه استواء، هذا تأويل القاضي أبي بكر. وليست عبارة الزمخشري في هذا الفصل مطابقة للفصل على جاری عاداته في تحرير العبارة على مراده.

(٢) جد بالوافق لمشتاق إلى سهره إن لم تجد حديث ما على قصره

المراد بالوافق: الوصال. وضمير «سهره» المشتاق أو للوافق. وحديث: مبتدأ خبره محذوف، أي: تجود به. وما زائدة للتعميم. ويجوز أنها للتعظيم. لكن الأول أوفق بالمقام. وعلى بمعنى مع، وضمير «قصره»: للحديث. والبيت لا يبنى إلا بأعمدة ولا عِمَادَ إِذَا لَمْ تَرْمِ أَوْتَادَ (٣)

فان تجمع أسباب وأعمدة وساكن بلغوا الأمر الذي كادوا

للمرافدة الأودى، يقول: لا تبال الأمر إلا بتوافر أسبابه، فالبيت من باب التثيل: شبه توقف الأمر على أسبابه وتوقف أسبابه على أسبابها، بتوقف ضرب الخيمة على انتصاب الأعمدة، وتوقف انتصابها على إثبات الأوتاد المهدودة بالحبال، ثم قال: فان اجتمعت الحبال المهدودة بالأوتاد الثابتة وانتصبت الأعمدة ووجد الساكن بلغ مراده، وهو بمعنى الجمع، فصح جمع ضميره، وكاد كبدأ عالجها علاجاً، أي: بلغوا الأمر الذي كادوه، أي عالجوه لتحصيله.

فاستعير لثبات العز والملك واستقامة الامر ، كما قال الاسود :

* فِي ظِلِّ مُلْكٍ ثَابِتِ الْأَوْتَادِ * (١)

وقيل : كان يشبه (٢) المعذب بين أربع سوار : كل طرف من أطرافه إلى سارية مضروب فيه وتد من حديد ، ويتركه حتى يموت . وقيل : كان يمدّه بين أربعة أوتاد في الأرض ويرسل عليه العقارب والحيات . وقيل : كانت له أوتاد وحبال يلعب بها بين يديه ﴿ أولئك الأحزاب ﴾ قصد بهذه الإشارة الإعلام بأن الأحزاب الذين جعل الجند المهزوم منهم : هم هم ، وأنهم هم الذين وجد منهم التكذيب (٣) . ولقد ذكر تكذيبهم أولاً في الجملة الخبرية على وجه الإبهام ، ثم جاء بالجملة الاستثنائية فأوضحه فيها : بأن كل واحد من الأحزاب كذب جميع الرسل ، لأنهم إذا كذبوا واحداً منهم فقد كذبوا جميعاً . وفي تكرير التكذيب وإيضاحه بعد إبهامه ، والتنويع في تكريره بالجملة الخبرية أولاً وبالاستثنائية ثانياً ، وما في الاستثنائية من الوضع على وجه التوكيد والتخصيص : أنواع من المبالغة المسجلة عليهم باستحقاق أشد العقاب وأبلغه ، ثم قال ﴿ لحق عقاب ﴾ أى فوجب لذلك أن أعاقبهم حق عقابهم ﴿ هؤلاء ﴾ أهل مكة . ويجوز أن يكون إشارة إلى جميع الأحزاب

(١) ماذا أوئل بعد آل عرق تركوا منازلهم وبعد إباد جرت الرياح على مقر ديارهم فكأنهم كانوا على ميعاد ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة في ظل ملك ثابت الأوتاد فإذا التعم وكل ما يلهي به يوما يصير إلى بلى ونفاد

للأسود بن يعفر . يقول : لا أثنى شيئاً يعدم من الدنيا . ومحرق : هو امرؤ القيس بن عمرو بن عدى اللخمي . والإياد - في الأصل - : تراب يجمع حول الحوض والبيت ، يحفظه عن المطر والسيول ، من الأيدي : وهو القوة . وإياد : علم على ابن نزار بن معد ، فهو أخو مضر وربيعة . والمراد به هنا القبيلة . وروى : وآل إباد ، عطفاً على آل عرق . وغنى بالمكان ، كرضى : أقام به . واللبى : الانحياز . والنفاذ : القضاء . يقول : تركوا منازلهم : جملة مستأنفة لبيان نفي التأميل ، واعتراضية بين المتعاطفين . وقوله « جرت الرياح » مستأنفة لبيان حال القبيلتين ، يقول : تفانوا لجرت الرياح على محل ديارهم ، وجريان الرياح على مقر الديار ، لاهدام الجدران التي كانت تمنع الرياح ، وذلك كناية عن موتهم ، وأفاد أن فناءهم كان سريعاً كأنه دفعة واحدة بقوله : فكأنهم كانوا على ميعاد واحد . ولقد أقاموا بأرغد عيشة ، وشبه الملك الذي به عزهم وصونهم بخيمة مضروبة عليهم ، والظلم : الترشيع ، والأوتاد تخييل . وإذا معناها المفاجأة . أى فظهور بفتنة أن كل نعيم لعمالة زائل ، أى : فأدركم المحاق والقضاء .

(٢) قوله « وقيل كان يشبه المعذب » أى يمدّه ، أماده الصحاح . (ع)

(٣) قال محمود : « قصد بهذه الإشارة الإعلام بأن الأحزاب الذين جعل الجند المهزوم منهم هم هم ، وأنهم الذين وجد التكذيب منهم » قال أحد : وفي تكرار تكذيبهم فائدة أخرى : وهى أن الكلام لما طال بتعديدها أحد المكذبين ، ثم أريد ذكر ما حاق بهم من العذاب جزاء لتكذيبهم ، كرر ذلك مصحوباً بالزيادة المذكورة ، لئلى قوله تعالى ﴿ لحق عقاب ﴾ على سبيل التطرية المتعادة عند طول الكلام وهو كما قدمته في قوله (وكذب موسى) حيث كرر الفعل ليعتبر بقوله (فأملت للكافرين) .

لاستحضارهم بالذكر . أولانهم كالحضور عند الله . والصيحة : النفخة (ما لها من فواق) وقرئ بالضم : ما لها من توقف مقدار فواق ، وهو ما بين طبعي الحالب ورضعتي الراضع . يعني : إذا جاء وقتها لم تستأخر هذا القدر من الزمان ، كقوله تعالى (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة) وعن ابن عباس : ما لها من رجوع ، وترداد ، من أفاق المريض إذا رجع إلى الصحة . وفواق الناقة : ساعة ترجع الدر إلى ضرعها ، يريد : أنها نفخة واحدة تحسب لانتفى ولا تردد .

وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾

القط : القسط من الشيء ؛ لأنه قطعة منه ، من قطعه إذا قطعه . ويقال لصحيفة الجائزة : قط ، لأنها قطعة من القراطيس ، وقد فسر بهما قوله تعالى (عجل لنا قطنا) أى نصيبنا من العذاب الذى وعدته ، كقوله تعالى (ويستعجلونك بالعذاب) وقيل : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعد الله المؤمنين الجنة ؛ فقالوا على سبيل الهزء : عجل لنا نصيبنا منها . أو عجل لنا صحيفة أعمالنا ننظر فيها .

أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَآذِكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾
إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَمِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطُّيُورَ مَحْمُودَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَضَّلْنَا الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾

فإن قلت : كيف تطابق قوله (أصبر على ما يقولون) وقوله (واذكر عبدنا داود) حتى عطف أحدهما على صاحبه ؟ قلت : كأنه قال لنبيه عليه الصلاة والسلام : أصبر على ما يقولون ، وعظم أمر معصية الله فى أعينهم بذكر قصة داود ، وهو أنه نبى من أنبياء الله تعالى قد أولاه ما أولاه من النبوة والملك ، لكرامته عليه وزلفته لديه ، ثم زل زلة فبعث إليه الملائكة ووبخه عليها . على طريق التمثيل والتعريض ، حتى فطن لما وقع فيه فاستغفر وأتاب ، ووجد منه ما يحكى من بكائه الدائم وغمه الواصب ^(١) ، ونقش جنايته فى بطن كفه حتى لا يزال يجدد النظر إليها والندم عليها فما الظن بكم مع كفركم ومعاصيكم ؟ أو قال له صلى الله عليه وسلم : أصبر على ما يقولون وصن نفسك وحافظ عليها أن تزل فيما كلفت من مصابرتهم وتحمل أذاهم ، واذكر أخاك داود وكرامته على الله كيف زل تلك الزلة اليسيرة فلقى من توبيخ الله وتظليمه ونسبته إلى البغى ما لقي (ذا الأبد) ذا القوة فى الدين المضطلع بمشاقه وتكاليفه ، كان على نهوضه بأعباء

النبوة والملك يصوم يوما ويفطر يوما وهو أشد الصوم ، ويقوم نصف الليل . يقال : فلان أيد ، وذو أيد ، وذو آد . وأباد كل شيء : ما يتقوى به (أزاب) تواب رجاء إلى مرضاة الله فإن قلت : مادلك على أن الأيد القوة في الدين ؟ قلت : قوله تعالى (إنه أزاب) لأنه تعليل لذى الأيد (والإشراق) وقت الإشراق ، وهو حين تشرق الشمس ، أى : تضىء ويصفو شعاعها وهو وقت الضحى . وأما شروقها فطلوعها ، يقال : شرقت الشمس ، ولما تشرق (١) . وعن أم هانئ : دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا بوضوء فتوضأ ثم صلى صلاة الضحى وقال : يا أم هانئ هذه صلاة الإشراق (٢) . وعن طاووس عن ابن عباس قال : هل تجدون ذكر صلاة الضحى في القرآن ؟ قالوا لا ، قرأ : إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق وقال : كانت صلاة يصلها داود عليه السلام . وعنه : ما عرفت صلاة الضحى إلا بهذه الآية . وعنه : لم يزل في نفسى من صلاة الضحى شيء حتى طلبتها فوجدتها بهذه الآية (يسبحن بالعشى والإشراق) وكان لا يصل صلاة الضحى ، ثم صلاها بعد . وعن كعب أنه قال لابن عباس : إني لأجد في كتب الله صلاة بعد طلوع الشمس ، فقال : أنا أوجدك ذلك في كتاب الله تعالى ، يعنى هذه الآية . ويحتمل أن يكون من أشرق القوم إذا دخلوا في الشروق ، ومنه قوله تعالى (فأخذتهم الصيحة مشرقين) وقول أهل الجاهلية : أشرق (٣) ثبير ، ويراد وقت صلاة الفجر لانتهاه بالشروق . ويسبحن : فى معنى ومسبحات على الحال . فإن قلت : هل من فرق بين يسبحن ومسبحات (٤) ؟ قلت : نعم ، وما اختير يسبحن على مسبحات لإلذالك ، وهو الدلالة

(١) قال محمود : «الإشراق حين تشرق الشمس ، أى يصفو نورها وهو وقت الضحى . وأما شروقها فطلوعها . يقال : شرقت الشمس ولما تشرق . ومنه أخذ ابن عباس صلاة الضحى . قال : ويحتمل أن يكون من أشرق القوم إذا دخلوا في وقت الشروق ، ويكون المراد وقت صلاة الفجر لانتهاه بشروق الشمس » قال أحمد : الوجه الثانى يفرق بين العشى والإشراق ، فإن العشى ظرف بلا إشكال ، فلو حل الإشراق على الدخول في وقت الشروق لكان «صدراً» مع أن المراد به الطرف ، لأنه فعل الشمس وصفتها التى تستعمل ظارفاً كالطلوع والغروب وشبههما .

(٢) أخرجه ابن مردويه والثعلبي والواحدي والبيهقي والطبراني كلهم من رواية أبى بكر الهذلى عن عطاء بن ابن عباس : حدثنى أم هانئ . ورواه الحاكم من وجه آخر عن عبد الله بن الحرث عن ابن عباس «كان لا يصل الضحى حتى أدخلناه على أم هانئ فقلت لها : أخبرنى ابن عباس قالت : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي فصل صلاة الضحى ثمان ركعات . قال : فخرج ابن عباس وهو يقول : هذه صلاة الإشراق » هذا موقوف وهو أصح .

(٣) قوله «أشرق ثبير» كانوا يقولون : أشرق ثبير كما تغير ، كما في الصحاح . (ع)

(٤) قال محمود : «إن قلت لم اختار يسبحن على مسبحات وأيهما وقع كان حالاً ، وأجاب بأن اختيارهما لمعنى وهو الدلالة على حدوث التسبيح شيئاً بعد شيء كان السامع محاضراً لما فيسمعها تسبح . ومنه قول الأعشى :

• إلى ضوء نار في يفاع تحرق •

ولو قال : محرقة لم يكن شيئاً . قال أحمد : وهذه النكتة فرق محض من أصحابنا بين : أنا محرم يوم أنهل كذا بصيغة =

على حدوث التسييح من الجبال شيئاً بعد شيء. وحالا بعد حال، وكأن السامع محاضر تلك الحال يسمعها تسيح. ومثله قول الأعشى :

• إِلَى صَوْنٍ نَارٍ فِي بَفَاعٍ تَحْرِقُ • (١)

ولو قال : محرقة ، لم يكن شيئاً . وقوله ﴿ محشورة ﴾ في مقابلة : يسبحن : إلا أنه لما لم يكن في الحشر ما كان في التسييح من إرادة الدلالة على الحدوث شيئاً بعد شيء ، جرى به اسماً لافعلاً . وذلك أنه لو قيل : وسحرننا الطير يحشرون - على أن الحشر يوجد من حاشرها شيئاً بعد شيء . والحشر هو الله عز وجل - لكان خلفاً ، لأن حشرها جملة واحدة أدل على القدرة . وعن ابن عباس رضي الله عنهما كان إذا سبج جاوبته الجبال بالتسييح ، واجتمعت إليه الطير فسيحت ، فذلك حشرها . وقرئ : والطير محشورة . بالرفع ﴿ كل له أواب ﴾ كل واحد من الجبال والطير لأجل داود ، أي : لأجل تسييحه مسيح ، لأنها كانت تسبح بتسييحه . ووضع الأواب موضع المسيح : إنما لأنها كانت ترجع التسييح ، والمرجع رجاء ؛ لأنه يرجع إلى فعله رجوعاً بعد رجوع وإما لأن الأواب - وهو التواب الكثير الرجوع إلى الله وطلب مرضاه - من عادته أن يكثر ذكر الله ويديم تسييحه وتقديسه . وقيل : الضمير لله ، أي : كل من داود والجبال والطير لله أواب ، أي مسيح مرجع للتسييح ﴿ وشددنا ملكه ﴾ قويناه ، قال تعالى (سنشد عضدك) وقرئ شددنا على المبالغة . قيل : كان يبيت حول محرابه أربعون ألف مستلثم^(٢) يحرسونه . وقيل : الذي شد الله به ملكه وقذف في قلوب قومه الهيبة : أن رجلاً ادعى عنده على آخر بقرعة ، وعجز عن إقامة البيعة ، فأوحى الله تعالى إليه في المنام : أن اقتل المدعى عليه ، فقال : هذا منام ، فأعيد الوحي في اليقظة ، فأعلم الرجل فقال : إن الله عز وجل لم يأخذني بهذا الذنب ، ولكن بأني قتلت أبا هذا غيلة ، فقتله . فقال الناس : إن أذنب أحد ذنباً أظهره الله عليه ، فقتله ،

== اسم الفاعل . وبين أحرم بصيغة المضارع . فرأى أن الملق بصيغة اسم الفاعل يكون محرمًا بوجود صيغة التعليق ، ولا كذلك الملق بصيغة الفعل المضارع ، فانه لا يكون محرمًا حتى يحرم ويقال له أحرم ، فكأنه رأى أن صيغة الفعل خصوصية في الدلالة على حدوثه ، ولا كذلك اسم الفاعل وإن كان متأخراً ، وأصحابنا اختلفوا في معنى قول سخنون في اسم الفاعل يكون محرمًا يوم يفعل ، فهم من قال : أراد الفور فيشئ . إحراماً ، ومنهم من قال : يكون محرمًا في الحال بالتعليق الأول ولا يجد شيئاً . ومذهب مالك : التسوية بين صيغتي اسم الفاعل والفعل في هذا المقام والله أعلم . وحقق الزمخشري هذا الفرق بين اسم الفاعل والفعل في قوله (والطير محشورة كل له أواب) فقال : لما كان الواقع حشر الطير دفعة واحدة ، وكان ذلك أدل على القدرة ، لم يكن لاستعمال الفعل الدال على الحدوث شيئاً فشيئاً معنى ، فاستعمل فيه اسم المفعول على خلاف استعمال الفعل في الأول .

(١) تقدم شرح هذا الشاهد ضمن آيات الجزء الثالث صفحة ٤٣ فراجع إن شئت اه مصححه .

(٢) قوله « مستلثم » أي : لابس اللامة ، وهي الدرع . أفاده الصحاح . (ع)

فهابوه (الحكمة) الزبور وعلم الشرائع. وقيل: كل كلام وافق الحق فهو حكمة. الفصل: التمييز بين الشئين. وقيل للكلام البين: فصل، بمعنى المفصول كضرب الأمير، لأنهم قالوا: كلام ملتبس، وفي كلامه لبس. والملتبس: المختلط، فقيل في نقيضه: فصل، أى مفصول بعضه من بعض، فعنى فصل الخطاب: البين من الكلام الملخص الذى يتبينه من يخاطب به لا يلتبس عليه، ومن فصل الخطاب وملخصه: أن لا يخطئ صاحبه مظان الفصل والوصل، فلا يقف في كلمة الشهادة على المستثنى منه، ولا يتلو قوله (فويل للصلين) إلا موصولاً بما بعده، ولا (والله يعلم وأتم) حتى يصله بقوله (لا تعلمون) ونحو ذلك، وكذلك مظان العطف وتركه، والإضمار والإظهار والحذف والتكرار، وإن شئت كان الفصل بمعنى الفاصل، كالصوم والزور، وأردت بفصل الخطاب: الفاصل من الخطاب الذى يفصل بين الصحيح والفاقد، والحق والباطل، والصواب والخطأ، وهو كلامه في القضايا والحكومات وتدابير الملك والمشورات. وعن علي بن أبي طالب رضى الله عنه. هو قوله: البينة على المدعى واليمين على المدعى عليه، وهو من الفصل بين الحق والباطل، ويدخل فيه قول بعضهم: هو قوله وأما بعد، لأنه يفتح إذا تكلم في الأمر الذى له شأن بذكر الله وتحميده، فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق إليه: فصل بينه وبين ذكر الله بقوله: أما بعد. ويجوز أن يراد الخطاب القصد الذى ليس فيه اختصار مخل ولا إشباع ممل. ومنه ما جاء في صفة كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم: فصل لا نذر ولا هذر. (١)

وَهَلْ أَتَاكَ نَبُؤُا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَاوُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَقِيَ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢)

كان أهل زمان داود عليه السلام يسأل بعضهم بعضاً أن يزل له عن امرأته، فيترجها إذا أعجبه وكانت لهم عادة في المواساة بذلك قد اعتادوها. وقد روينا أن الأنصار كانوا يواسون المهاجرين بمثل ذلك، فانفق أن عين داود وقعت على امرأة رجل يقال له أوربا، فأحبها، فسأله الزول له عنها، فاستحيا أن يرده، ففعل، فترجها وهى أتم سليمان، فقيل له: إنك مع عظم منزلتك وارتفاع مرتبتك وكبر شأنك وكثرة نسائك: لم يكن ينبغي لك أن تسأل رجلاً ليس له إلا امرأة واحدة الزول، بل كان الواجب عليك مغالبة هواك وقهر نفسك والصبر

(١) هو حديث أم معبد. وقد تقدم في سورة الأعراف: وفي الأدب لابن داود من حديث عائشة «كان كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلاً يفهمه من سمعه».

على ما امتنحت به . وقيل : خطبها أوريا ثم خطبها داود ، فأثره أهلها ، فكان ذنبه أن خطب على خطبة أخيه المؤمن ، مع كثرة نسائه . وأما ما يذكر أن داود عليه السلام تمنى منزلة آبائه إبراهيم وإسحق ويعقوب فقال : يا رب إن آبائي قد ذهبوا بالخير كله ، فأوحى إليه : إنهم ابتلوا بيلايا فصبروا عليها : قد ابتلى إبراهيم بنمروذ وذبح ولده ، وإسحق بذبحه وذهاب بصره ، ويعقوب بالحزن على يوسف . فسأل الابتلاء فأوحى الله إليه : إنك لمبتلى في يوم كذا وكذا ، فاحترس ، فلما حان ذلك اليوم دخل محرابه وأغلق بابه وجعل يصلى ويقرأ الزبور ، فجاء الشيطان في صورة حمامة من ذهب ، فذبه ليأخذها لابن له صغير ، فطارت ، فامتد إليها ، فطارت فوقت في كوة ، فتمعها ، فأبصر امرأة جميلة قد نقصت شعرها ففطنى بدنها ، وهى امرأة أوريا وهو من غزاة البلقاء ،^(١) فسكتب إلى أيوب بن صوريا وهو صاحب بعث البلقاء . أن ابعث أوريا وقدمه على التابوت ، وكان من يتقدم على التابوت لا يحل له أن يرجع حتى يفتح الله على يده أو يستشهد ، ففتح الله على يده وسلم ، فأمر برده مرة أخرى ، وثالثة ، حتى قتل ، فأتاه خبر قتله فلم يحزن كما كان يحزن على الشهداء ، وتزوج امرأته . فهذا ونحوه مما يقبح أن يحدث به عن بعض المتسمين بالصلاح من أفناء المسلمين ،^(٢) فضلا عن بعض أعلام الأنبياء . وعن سعيد ابن المسيب والحريث الأعور : أن علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال : من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلده مائة وستين وهو حد القرية على الأنبياء .^(٣) وروى أنه حدث بذلك عمر بن عبد العزيز وعنده رجل من أهل الحق ، فكذب المحدث به وقال : إن كانت القصة على ما في كتاب الله فما ينبغى أن يلتبس خلفها ، وأعظم بأن يقال غير ذلك . وإن كانت على ما ذكرت وكف الله عنها ستر على نبيه فما ينبغى إظهارها عليه . فقال عمر : لسماعى هذا الكلام أحب إلى مما طلعت عليه الشمس . والذي يدل عليه المثل الذى ضرب به الله لقصته عليه السلام ليس إلا طلبه إلى زوج المرأة أن ينزل له عنها فحسب . فإن قلت : لم جاءت على طريقة التمثيل والتعريض دون التصريح ؟ قلت : لسكونها أبلغ في التوبيخ ، من قبل أن التأمل إذا أذاه إلى الشعور بالمعرض به ، كان أوقع في نفسه ، وأشد تمسكنا من قلبه ، وأعظم أثرأ فيه ، وأجلب لاحتشامه وحياته ، وأدعى إلى التنبيه على الخطأ فيه من أن يبادره به صريحا ، مع مراعاة حسن الادب بترك المجاهرة . ألا ترى إلى الحكماء كيف أوصوا في سياسة الولد إذا

(١) قوله «من غزاة البلقاء» في الصحاح : مدينة بالشام . (ع)

(٢) قوله «من أفناء المسلمين» في الصحاح : يقال : هو من أفناء الناس إذا لم يعلم عن هو . وعبارة النسخ بدل

قوله : فهذا ونحوه ... الخ : فلا يليق من المتسمين ... الخ . (ع)

(٣) لم أجده

وجدت منه هنة منكورة أن يعرض له بإنكارها عليه ولا يصرح. وأن تحكى له حكاية ملاحظة لحاله إذا تأملها استمع حال صاحب الحكاية فاستمع حال نفسه، وذلك أزرجه لأنه ينصب ذلك مثالا لحاله ومقياسا لشأنه، فيتصور قبح ما وجد منه بصورة مكشوفة، مع أنه أصون لما بين الوالد والولد من حجاب الحشمة. فإن قلت: فلم كان ذلك على وجه التحاكم إليه؟ قلت: ليحكم بما حكم به من قوله (لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه) حتى يكون محجوجا بحكمه ومعترفا على نفسه بظلمه (وهل أتاك نبأ الخصم) ظاهره الاستفهام. ومعناه الدلالة على أنه من الأنبياء العجيبة التي حقها أن تشيع ولا تخفى على أحد، والتشويق إلى استماعه. والخصم: الخصماء، وهو يقع على الواحد والجمع كالضيف. قال الله تعالى (حديث ضيف إبراهيم المكرمين) لأنه مصدر في أصله، تقول: خصمه خصما: كما تقول: ضافه ضيفا. فإن قلت: هذا جمع. وقوله (خصمان) تنية فكيف استقام ذلك؟ قلت: معنى خصمان: فريقان خصمان، والدليل عليه قراءة من قرأ: خصمان بغى بعضهم على بعض: ونحوه قوله تعالى (هذا خصمان اختصموا في ربهم). فإن قلت: فما تصنع بقوله (إن هذا أخي) وهو دليل على اثنين؟ قلت: هذا قول البعض المراد بقوله بعضنا على بعض. فإن قلت: فقد جاء في الرواية أنه بعث إليه ملكان. قلت: معناه أن التحاكم كان بين ملكين، ولا يمنع ذلك أن يصبحهما آخرون. فإن قلت: فإذا كان التحاكم بين اثنين كيف سماهم جميعا خصما في قوله (نبأ الخصم) و (خصمان)؟ قلت: لما كان صاحب كل واحد من المتحاكمين في صورة الخصم صحت التسمية به. فإن قلت: هم انتصب (إذ)؟ قلت: لا يخلو إما أن ينتصب بأتاك، أو بالنبا، أو بمحذوف فلا يسوغ انتصابه بأتاك؛ لأن إتيان النبا رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقع إلا في عهده لافي عهد داود، ولا بالنبا؛ لأن النبا الواقع في عهد داود لا يصح إتيانه رسول الله صلى الله عليه وسلم. وإن أردت بالنبا: القصة في نفسها لم يكن ناصبا، فبقي أن ينتصب بمحذوف، وتقديره: وهل أتاك نبأ تحاكم الخصم. ويجوز أن ينتصب بالخصم لما فيه من معنى الفعل. وأما إذ الثانية فبذل من الأولى (تسوروا المحراب) تصعدوا سوره ونزلوا إليه. والسور: الحائط المرتفع ونظيره في الآية: تسنمه، إذ علا سنامه، ونذراه: إذ علا ذروته. روى أن الله تعالى بعث إليه ملكين في صورة إنسانين، فطلب أن يدخل عليه، فوجداه في يوم عبادته، فنهما الحرس فتسورا عليه المحراب، فلم يشعر إلا وهما بين يديه جالسان (ففرع منهم) قال ابن عباس: إن داود عليه السلام جزأ زمانه أربعة أجزاء: يوما للعبادة، ويوما للقضاء، ويوما للاشتغال بخواص أموره، ويوما يجمع بني إسرائيل فيعظهم ويبكيهم؛ فجاءوه في غير يوم القضاء ففرغ منهم، ولأنهم نزلوا عليه من فوق، وفي يوم الاحتجاب، والحرس حوله لا يتركون من يدخل عليه (خصمان)

خبر مبتدأ محذوف ، أى : نحن خصمان ﴿ولا تشطط﴾ ولا تجر . وقرئ : ولا تشطط ، أى : ولا تبعد عن الحق . وقرئ : ولا تشطط . ولا تشاطط ، وكلها من معنى الشطط : وهو مجاوزة الحد ونطحى الحق . و﴿سواء الصراط﴾ وسطه ومحجته : ضربه مثلا لعين الحق ومحضه .

إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا

وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾

﴿أخى﴾ بدل من هذا أو خبر لإن . والمراد أخوة الدين ، أو أخوة الصداقة والآلفة ، أو أخوة الشركة والخطبة ؛ لقوله تعالى (وإن كثيرا من الخطايا) كل واحدة من هذه الأخوات تدل بحق مانع من الاعتداء والظلم . وقرئ : تسع وتسعون ، بفتح التاء . ونعجة ، بكسر النون وهذا من اختلاف اللغات ، نحو نطع ونطع ، ولقوة ولقوة ^(١) ﴿أكفلنيها﴾ ملكنيها . وحقيقته : اجعلنى أكفلها كما أكفل ماتحت يدي ﴿وعزنى﴾ وغلبنى . يقال : عزه يعزه . قال :

قَطَاةٌ عَزَّهَا شَرَكُ فَبَاتَتْ تُجَادِبُهُ وَقَدْ عَلِقَ الْجَنَاحُ ^(٢)

يريد : جاءنى بحجاج لم أقدر أن أورد عليه ما أردته به . وأراد بالخطاب : مخاطبة الحاج المجادل : أو أراد : خطبت المرأة وخطبها هو مخاطبتي خطابا ، أى : غالبنى فى الخطبة فغلبنى ، حيث زوجهها دونى . وقرئ : وعازنى ، من المعازة وهى المغالبة . وقرأ أبو حيوه : وعزنى ، بتخفيف الزاى طلبا للنفقة ، وهو تخفيف غريب ، وكأنه قاسه على نحو : ظلت ، ومست . فإن قلت : مامعنى ذكر النعاج ؟ قلت : كأن تحاكهم فى نفسه تمثيلا وكلامهم تمثيلا ؛ لأن التمثيل أبلغ فى التوبيخ لما ذكرنا ، وللتنبية على أمر يستحيا من كشفه ، فيكنى عنه كما يكنى عما يستسمع الإفصاح به ، وللسر على داود عليه السلام والاحتفاظ بحرمته . ووجه التمثيل فيه أن مثلت قصة أوريا مع داود بقصة رجل له نعجة واحدة وخليطه تسع وتسعون ، فأراد صاحبه تنمة المائة فطمع فى نعجة خليطه وأراد على الخروج من ملكها إليه ، وحاجه فى ذلك محاجة حريص على بلوغ

(١) قوله «نحو نطع ونطع ، ولقوة ولقوة» فى الصحاح : «النطع» فيه أربع لغات . وفيه «القوة» : داء فى الوجه ، وثانقة السريعة الفلاح ، والعقاب : الأثى ، والقوة - بالكسر - : مثله . (ع)

(٢) كان القلب لية قبل يغدى بليلى العامرية أو يراج

قطاة عزما شرك فباتت تصالجه وقد علق الجناح

لقيس بن المرحوم مجنون لبلى العامرية ، وقطاة : خير كأن . وعزما : بهمة فمجمة ، بمعنى : غلبها وحبسها ، يقال : عز يمز بالكسر : تعظم ، وبالفصح : قوى . وعزه يعزه - بالضم - : غلبه ، وما هنا من الثالث : شبه قلبه حين يمع برحيلها بحماة أمسك الشرك جناحها فى كثرة الحفقات والاضطراب .

مراده ، والدليل عليه قوله (وإن كثيراً من الخطاء) وإنما خص هذه القصة لما فيها من الرمز إلى الغرض بذكر النعجة . فإن قلت : إنما تستقيم طريقة التمثيل إذا فسرت الخطاب بالجدال ، فإن فسرت بالمفاعلة من الخطبة لم يستقم . قلت : الوجه مع هذا التفسير أن أجعل النعجة استعارة عن المرأة ، كما استعاروا لها الشاة في نحو قوله :

• يَا شَاةُ مَا قَنَصْتُ لِمَنْ حَلَّتْ لَهُ ^(١) •

• فَرَمَيْتُ غَفْلَةً عَنْ شَاتِهِ ^(٢) •

وشبهها بالنعجة من قال :

• كَنِمَاجِ الْمَلَا تَعَسَّفَنَ رَمَلًا ^(٣) •

(١) يا شاة ما قنص لمن حلت له حرمت على ولبتها لم تحرم لعنقته من معلقته يتذكر محبوبته بعد وقوع الحرب بينه وبين قبيلتها ، فذلك حرمت عليه . وقيل : كان تزوجها أبوه لحرمت عليه ، شبهها بالشاة الوحشية في الحسن والجمال والنفرة عن الرجال ، وأن كلا يصطاد بالاحتياط على طريق الاستعارة التصريحية ، وذكر القنص ترشيح ، لأنه يلائم الشاة . وما زائدة ، أى يا شاة القنص تعالى ، فهذا وقت التفكير في شأنك . وقيل : المنادى محذوف ، أى : يا قوم أحضروا شاة قنص ، وتسجوا من حالها . والقنص : الصيد . والقنص - بالتحريك - والقنص : المصيد . ويرى : يا شاة من قنص ، فقيل : من زائدة ، بناء على مذهب الكوفيين ، من جواز زيادة الأسماء . وقيل : نكرة موصوفة . وقنص صفتها من باب الوصف بالمصدر ، أى : يا شاة إنسان قانص . ولمن حلت : متعلق بمحذوف صفة لها ، وحرمت على : التفتت على القول بنداها ، وهو صفة لها ، أو استئناف بين به شأنها ، ونمى عدم حرمتها : ندم على ما وقع من سبب الحرمة .

(٢) قد كنص رائدها وشاة محاذر حذر يقل بعينه إغفالها
فظلت أوعاها وظل يحوطها حتى دنوت إذا الظلام دنا لها
فرميت غفلة عنه عن شاته فأصبت حبة قلبها وطعناها

للأعشى . وقيل : لعمر بن أبي ربيعة . وضمر رائدها مرجعه في البيت قبله كأمراء أو مفازة ، ثم قال : ورب شاة رجل محاذر ، فاستعار الشاة للمرأة الجميلة على طريق التصريحية . والمحاذر : الذى يحاذر غيره ويخاف مكره . والمحذر : كثير الحذر مستمره . يقل : بعزم أوله ، من أقل الرابع . وإغفالها ، أى : إغفال عينه . فظلت أواقب الشاة وظل هو يحفظها ، حتى قربت لها حين قرب الظلام ودخل الليل ، فرميت شاته حين غفلة عينه عن شاته أى كان يحفظها وفيه توقع تهكم به . وأضاف الغفلة إلى العين دون الشخص لأنها المذكورة أولا ، وللدلالة على قصر الزمن وسرعة الظفر ، ولأن القلب لا ينقل عنها لعرتها عنده ، بل يذكرها في النوم . وأما العين فغفلة ، فأصبت حبة قلبها أى وسطه ، فأصبت طعناها ، والرعى ترشيح للاستعارة : لأنه من ملامات الشاة . ويصح أن يكون هذا البيت استعارة تمثيلية ، حيث شبه حالة ظفره بمراده على حين غفلة من الرقيب وإصابة المرأة بالحب ، بحال من ظفر يرى الشاة بالسهم على غفلة من الراعى ، بل يصح أن يكون قوله : وشاة محاذر ... إلى آخر الآيات : استعارة تمثيلية لتلك الحال ، ولا استعارة في الشاة وحدها على هذا .

(٣) قلت إذا أقبلت وزهر تهادى كنماج الفلا تعمسن رملا

وتتقبن بالحرير وأبدى عيوننا حور المداعج نجلا

لولا أن الخطاء تأباه ، إلا أن يضرب داود الخطاء ابتداء مثلاً لهم ولقصتهم ^(١) . فإن قلت . الملائكة عليهم السلام كيف صح منهم أن يخبروا عن أنفسهم بما لم يتلبسوا منه بقليل ولا كثير ولا هو من شأنهم ؟ قلت : هو تصوير للمسألة وفرض لها ، فصوروها في أنفسهم وكانوا في صورة الأناسي ، كما تقول في تصوير المسائل : زيد له أربعون شاة ، وعمر له أربعون ، وأنت تشير إليهما ، فخطاها وحال عليها الحول ، كم يجب فيها ؟ وما لزيد وعمر وسيد ولا لبد ^(٢) وتقول أيضاً في تصويرها : لى أربعون شاة وأربعون فخطاها . وما لك من الأربعين أربعة ولا ربعا فإن قلت : ما وجه قراءة ابن مسعود : ولي نعجة أثى ^(٣) ؟ قلت : يقال لك امرأة أثى للحسناء الجيلة . والمعنى : وصفها بالعراقة في لين الأنوثة وقتورها ، وذلك أملح لها وأزيد في تكسرها وتذنيها . ألا ترى إلى وصفهم لها بالكسول والمكسال . وقوله :

== لعمر بن أريمية . وزهر : عطف على ضمير الفاعل المتصل ، ويجيء بلا فصل قليل . ونهادى : أصله تنهادى ، حذف منه إحدى التامين ، وهو صفة زهر . وشبهن بالنماج الوحشية في حسن المشية وسعة العيون وسوادها . والزهر : جمع زهراء ، أى : بيضاء ، والفلأ : القفر الخالى . والتصف : الميل عن سواء السبيل ، وهو حال من النماج . ورملا : نصب على نزع الخافض ، أى : تمالين في رمل . وتنقبت المرأة : ليست النقاب . وحور : جمع حوراء ، أى : صافيات . والمداعج : الحدقات ، من الدعج وهو اتساع سواد العين . والتجل : جمع نجلاء ، أى : واسعات .

(١) قال محمود : «فإن قلت : طريقة التمثيل إنما تستعمل على جعل الخطاب من الخطابة ، فإن كان من الخطبة فما وجهه ؟ قال : الوجه حيثخذ أن تجعل النعجة استعارة للمرأة ، كما استعاروا لها الشاة في قوله : يا شاة ما نقص لمن حلت له .

إلا أن لفظ الخطاء يأباه : اللهم إلا أن يكون ابتداء مثل من داود عليه السلام . قال أحد : والفرق بين التمثيل والاستعارة : أنه على التمثيل ، يكون الذى سبق إلى فهم داود عليه السلام : أن التحاكم على ظاهره ، وهو التخاصم في النماج التى هى الهائم . ثم انتقل بواسطة التنبيه إلى فهم أنه تمثيل لحاله . وعلى الاستعارة يكون فهم عنهما : التحاكم في النساء المعبر عنهن بالنماج كناية ، ثم استشعر أنه هو المراد بذلك .

(٢) قوله «وما لزيد وعمر وسيد ولا لبد» في الصحاح : ما له سيد ولا لبد ، أى : لا قليل ولا كثير . والسيد : من الضمر ، والبد : من الصوف . (ع)

(٣) قال محمود : «فإن قلت : فما وجه قراءة ابن مسعود : ولي نعجة أثى . وأجاب بأنه يقال : امرأة أثى للحسناء الجيلة ، ومعناه : وصفها بالعراقة في لين الأنوثة وقتورها وذلك أملح لها وأزيد في تكسرها وتذنيها . ألا ترى إلى وصفهم إياها بالكسول والمكسال ، كقوله : فتور القيام قطع الكلام . قال أحد : ولكن قوله (ولي نعجة) إنما أورده على سبيل التقليل لما عنده والتحقير ، ليستجل على خصمه بالبنى لطلبه هذا التقليل الحقير وعنده الجم الغفير ، فكيف يليق وصف ما عنده والمراد بتقليله بصفة الحسن التى توجب إقامة عذر ما لخصمه ، ولذلك جاءت القراءة المشهورة على الاختصار على ذكر النعجة ، وتأكيد قلتها بقوله (واحدة) فهذا إشكال على قراءة ابن مسعود ، يمكن الجواب عنه بأن القصة الواقعة لما كانت امرأة أوربا الممثلة بالنعجة فيها مشهورة بالحسن ، وصف منالها في قصة الخصمين بالحسن زيادة في التطبيق ، لتأكيد التنبيه على أنه هو المراد بالتمثيل .

* فَتَوَرُّ الْقِيَامُ قَطِيعُ الْكَلَامِ * (١)

وقوله : * تَمَشَّى رُوَيْدًا تَكَادُ تَنْتَفِرُ * (٢)

قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ سُؤَالُ نَعَجَتِكَ إِلَى نَعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَقَعَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنْ لَهُ عِنْدَنَا لَزُنُبٌ وَخُسْنٌ مآبٍ (٢٥)

(لقد ظلمك) جواب قسم محذوف . وفي ذلك استنكار لفعل خيلطه وتهجين لطمعه . والسؤال : مصدر مضاف إلى المفعول ، كقوله تعالى (من دعاء الخير) وقد ضمن معنى الإضافة فعذى تعديتها ، كأنه قيل بإضافة (نعجتك إلى نعاجه) على وجه السؤال والطلب . فإن قلت : كيف سارع إلى تصديق أحد الخصمين حتى ظلم الآخر قبل استماع كلامه (٣) ؟ قلت : ما قال ذلك إلا بعد اعتراف صاحبه ، ولكنه لم يحك في القرآن لأنه معلوم . ويروى أنه قال : أنا أريد أن

(١) فتور القيام قطوع الكلام لعوب العشاء إذا لم تنم

تبدد النساء بحسن الحديث ودل زخيم وخلق عجم

الفترة : ضعف حركة الأعضاء في العمل ، فهي كثيرة الفترة في القيام . وقطوع الكلام : أى قليلته ، أو كأنها لا تقدر على إتمام الألفاظ لئبها واستحيائها ، فكأنها تقطعها تقطعياً ، كثيرة اللب في وقت العشاء مع زوجها ، وإذا لم تنم : إشارة إلى أنها قد تنام من أول الليل ، وهو وصف لها بالكسل الذى هو من توابع اللين والأنوثة . وبذ الرجل : إذا ساء خلقه ورث حاله وبذ الرجل : إذا غلبه ، أى تفلن بحسن الحديث ، والدل والدلال ، والنيه ، والتفنج ، والتشكل ، والتكسر ، والرخاوة ، والرخامة ، ورقة الصوت ولينه ، والتمنع مع الرخاء . واعتم الثبت : طال ، واعتم الشيء : تم ، وجسم عجم : تام ، والجمع عجم ، كسرير وسرر ، ورجل عجم - بالافراد - : أى تام ، فالمراد أن خلقها أى جسمها تام حسن .

(٢) ما أنس سلى غداة تنصرف تمشى رويداً تكاد تنفر

حذف ألف أنس للوزن ، أى : لا أنساها ، بل أتذكرها وقت انصرافها ، وشمى : بدل عما قبله . وعبر بالمضارع لاستحضار الصورة المستحسنة . ورويداً : نصب بشمى ، أى : مشياً بتؤدة وأناة ، تكاد تنفر : أى تنقطع وتنكسر . وغرفته فانفر ، قطعته فانقطع ، أو تكاد تؤخذ من الأرض ، كما يعرف الماء باليد ، فكأنها ماء لتتكلمها وتقطعها في تبخرها . وفرس غروف : كثير الأخذ من الأرض بقوائمه .

(٣) قال محمود : «فإن قلت كيف سارع بتصديق أحد الخصمين قبل سماع كلام الآخر ، وأجاب بأن ذلك كان بعد اعتراف خصمه ولكنه لم يحك في القرآن لأنه معلوم ، قال أحمد : ويحتمل أن يكون ذلك من دارد على سبيل الفرض والتقدير ، أى : إن صح ذلك فقد ظلمك .

أخذها منه وأكمل نعاजी مائة ، فقال داود : إن رمت ذلك ضربنا منك هذا وهذا ، وأشار إلى طرف الانف والجبهة ، فقال : يا داود أنت أحق أن يضرب منك هذا وهذا ، وأنت فعلت كيت وكيت ، ثم نظر داود فلم ير أحدا ، فعرف ما وقع فيه و﴿الخطاء﴾ الشركاء الذين خلطوا أموالهم ، الواحد : خليط ، وهى الخلطة ، وقد غلبت فى الماشية : والشافعى رحمه الله يعتبرها ، فإذا كان الرجلان خليطين فى ماشية بينهما غير مقسومة ، أو لكل واحد منهما ماشية على حدة إلا أن مراحمهما ومساقهما وموضع حلبهما والراعى والكلب واحد والفحولة مختلطة : فهما يزيان زكاة الواحد : فإن كان لهما أربعون شاة فعليهما شاة . وإن كانوا ثلاثة ولهم مائة وعشرون لكل واحد وأربعون ، فعليهم واحدة كما لو كانت لواحد . وعند أبى حنيفة : لا تعتبر الخلطة ، والخليط والمنفرد عنده واحد ، فى أربعين بين خليطين : لاشئ عنده ، وفى مائة وعشرين بين ثلاثة : ثلاث شياه . فإن قلت : فهذه الخلطة ما تقول فيها ؟ قلت : عليهما شاة واحدة ، فيجب على ذى النعجة أداء جزء من مائة جزء من الشاة عند الشافعى رحمه الله ، وعند أبى حنيفة لاشئ عليه ، فإن قلت : ماذا أراد بذكر حال الخطاء فى ذلك المقام ؟ قلت : قصد به الموغظ . الحسنة والترغيب فى إثارة عادة الخطاء الصالحاء الذين حكم لهم بالقلة ، وأن يكره إليهم الظلم والاعتداء الذى عليه أكثرهم ، مع التأسف على حالهم ، وأن يسلى المظلوم عما جرى عليه من خليطه ، وأن له فى أكثر الخطاء أسوة . وقرئ : ليبنى بفتح الياء على تقدير النون الحقيقية ، وحذفها كقوله :

﴿ أَضْرِبَ عَنْكَ الْمُمُومَ طَارِقَهَا ﴾ ^(١)

وهو جواب قسم محذوف . وليبغ : بحذف الياء ، اكتفاء منها بالكسرة ، و(ما) فى (وقليل ما هم) للإيهام . وفيه تعجب من قلتهم . وإن أردت أن تتحقق فائدتها وموقعها فاطرحها ، من قول امرئ القيس :

﴿ وَحَدِيثٌ مَا عَلَى قَصِيرَةٍ ﴾ ^(٢)

(١) اضرب عنك الموم طارقها ضربك بالسوط فونس الفرس لطفة بن العبد ، وقال أبو حاتم وابن برى : هو مصنوع عليه . واضرب فعل أمر بنى على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الحقيقية تقديراً ، وحذفها لغير وقف ولالتقاء الساكنين قليل . وقيل ضرورة كما هنا . والمعنى : ادفع عنك الموم ، فهو استعارة مضرحة . وضربك بالسوط ، أى : كضربك به ترشيح ، وطارقها : بدل من الموم ، أى الفاقى لك منها ، والسوط : معمول من جلد تساق به الفرس . وبروى : بالسيف ، لكنه غير ملائم للفرس ، بل للفارس . وقولها : أعلى رأسها . وقيل : شعر عنقها . ويجوز تهيه الموم بمحوان يصح ضربه على طريق المكنية ، والضرب تخييل ، والطروق ترشيح .

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بهذا الجزء صفحة ٧٥ فراجعه إن شئت اه مصححه .

وانظر هل بقي له معنى قط . لما كان الظن الغالب يداني العلم ، استعير له . ومعناه : وعلم داود وأيقن ﴿أنما فتناه﴾ أنا ابتليناه لاحالة بامرأة أوريا ، هل ثبت أو يزل ؟ وقرئ : فتناه ، بالتشديد للبالغة . وأفتناه ، من قوله :

﴿لَنْ فَتَنَّاكَ وَلِي بِالْأَمْسِ أَفَنَتَ﴾^(١)

وفتناه وفتناه ، على أن الألف ضمير الملوك . وعبر بالراكع عن الساجد ، لأنه ينحني ويخضع كالساجد . وبه استشهد أبو حنيفة وأصحابه في سجدة التلاوة ، على أن الركوع يقوم مقام السجود . وعن الحسن : لأنه لا يكون ساجداً حتى يركع ، ويجوز أن يكون قد استغفر الله لذنبه وأحرم يركع الاستغفار والإجابة . فيكون المعنى : وخز للسجود راكعاً أي مصلياً ؛ لأن الركوع يجعل عبارة عن الصلاة ﴿وأناب﴾ ورجع إلى الله تعالى بالتوبة والتنصل . وروى أنه بقي ساجداً أربعين يوماً ليلة لا يرفع رأسه إلا لصلاة مكتوبة أو مالا بد منه ولا يرقأ دمه حتى نبت العشب من دمه إلى رأسه ، ولم يشرب ماء إلا وثلاثاء دمع ، وجهده نفسه راغباً إلى الله تعالى في العفو عنه حتى كاد يهلك ، واشتغل بذلك عن الملك حتى وثب ابن له يقال له إيشا على ملكه ودعا إلى نفسه ، واجتمع إليه أهل الزينغ من بني إسرائيل ، فلما غفر له حاربه فهزمه . وروى أنه نقش خطيئته في كفه حتى لا ينساها . وقيل : إن الخصمين كانا من الإنس ، وكانت الخصومة على الحقيقة بينهما : إما كانا خليطين في الغنم ، وإما كان أحدهما موسراً وله نسوان كثيرة من المهازر والسراري ، والثاني معسراً ماله إلا امرأة واحدة ، فاستنزل عنها وإنما فزع لدخولها عليه في غير وقت الحكومة أن يكونا مغتالين ، وما كان ذنب داود إلا أنه صدق أحدهما على الآخر وظلمه قبل مسئلته^(٢)

(١) لن فتنتي لمي بالأمس أفنت سعيداً فأسمى قد قلى كل مسلم
والتي مصاييح القراءة واشترى وصال الغواني بالكتاب المنعم

للأعشى الحمداني . وفتنته المرأة - بالتخفيف والتشديد - وأفتنته : دلته وحيرته . وولي بالأمس أفنتت ، جواب القسم المدلول عليه بالإلام في قوله : لن فتنتي . وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم . والمعنى : إن فتنتي فلا أحزن ولا أتعجب ، فإن تلك عاداتها من قبل ، فالمراد بالأمس : الزمن الماضي . وسعيد : هو ابن جبير ، كان عالماً تقياً . وقلى كل مسلم ، أي : بنض كل مسلم سواها . وعبر بالمسلم : لأنه يبعد بغضه . والمصاييح : يجوز أنها حقيقة ، وأنها مجاز عن الكتب . والغواني : الجليات . والمنعم : المحسن بنقوش الكتاب .

(٢) قال محمود : «ونقل بعضهم أن هذه القصة لم تكن من الملائكة وليست تمثيلاً وإنما كانت من البشر إما خليطين في الغنم حقيقة ، وإما كان أحدهما موسراً وله نسوان كثيرة من المهازر والسراري والثاني معسراً وماله إلا امرأة واحدة ، فاستنزل عنها ، وفزع داود ، وخوفه أن يكونا مغتالين لأنهما دخلا عليه في غير وقت القضاء ، وما كان ذنب داود إلا أنه صدق أحدهما على الآخر ونسبه إلى الظلم قبل مسئلته ، قال أحمد : مقصود هذا القائل =

يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ
الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ
شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

(خليفة في الأرض) أى استخلفناك على الملك في الأرض ، كمن يستخلفه بعض السلاطين
على بعض البلاد ويملكه عليها . ومنه قوله : خلفاء الله في أرضه . وجعلناك خليفة عن كان قبلك
من الأنبياء القائمين بالحق . وفيه دليل على أن حاله بعد التوبة بقيت على ما كانت عليه لم تتغير
(فاحكم بين الناس بالحق) أى بحكم الله تعالى إذ كنت خليفة (ولا تتبع) هوى النفس في
قضائك وغيره مما تصرف فيه من أسباب الدين والدنيا (فيضلك) الهوى فيكون سبباً لضلالك
(عن سبيل الله) عن دلائله التى نصها في العقول ، وعن شرائعه التى شرعها وأوحى بها .
(يوم الحساب) متعلق بنسوا ، أى : بنسيانهم يوم الحساب ، أو بقوله لهم ، أى : لهم عذاب
يوم العيامة بسبب نسيانهم وهو ضلالهم عن سبيل الله . وعن بعض خلفاء بنى مروان أنه قال
لعمر بن عبد العزيز أولزهرى : هل سمعت ما بلغنا ؟ قال : وما هو ؟ قال : بلغنا أن الخليفة لا يجرى
عليه القلم ولا تكتب عليه معصية . فقال : يا أمير المؤمنين ، الخلفاء أفضل أم الأنبياء ؟ ثم تلا هذه الآية .
وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ

لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾

(باطلا) خلقاً باطلاً ، لا لغرض صحيح وحكمة بالغة . أو مبطلين عابثين ، كقوله تعالى
(وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين) ما خلقناهما إلا بالحق (وتقديره : ذوى باطل .
أو عبثاً ، فوضع باطلا موضعاً ، كما وضعوا ههنا موضع المدر ، وهو صفة ، أى ما خلقناهما
وما بينهما للعبث واللعب ، ولكن للحق المبين ، وهو أن خلقناها نفوساً^(١) أودعناها العقل

== تنزيه داود عن ذنب يبعث عليه شبهة النداء ، فأخذ الآية على ظاهرها وصرف الذنب إلى المجلة في نسبة الظلم إلى
المدعى عليه ، لأن الباعث على ذلك في الغالب إنما هو التهاب الغضب وكرهته أخف مما يكون الباعث عليه الشهوة
والهوى ، ولعل هذا القائل يؤكد رأيه في الآية بقوله تعالى عقبها وصية لداود عليه السلام : (يادادود إنا جعلناك
خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى) فاجرت العناية بتوصيته فيما يتعلق بالأحكام إلا والذى
صدر منه أولاً وبأن منه من قبيل ما وقع له في الحكم بين الناس ، وقد التزم المحققون من أئمتنا أن الأنبياء عليهم
الصلاة والسلام : داود وغيره - منزهون من الوقوع في صفات الذنوب مبرؤون من ذلك ، واتسوا المحامل الصحيحة
لأمثال هذه اللقطة ، وهذا هو الحق الأبلغ ، والسبيل الأبهج ، إن شاء الله تعالى .

(١) قوله «وهو أن خلقنا نفوساً» عبارة النسق : وهو أن خلقنا نفوساً . (ع)

والتمييز، ومنحناها التمكين، وأزحنا عليها ثم عرضناها للنافع العظيمة بالتكليف، وأعدنا لها عاقبة وجزاء على حسب أعمالهم. ﴿ذلك﴾ إشارة إلى خلقها باطلا، والظن: بمعنى المظنون، أى: خلقها للبعث لا للحكمة هو مظنون الذين كفروا. فإن قلت: إذا كانوا مقرين بأن الله خالق السموات والأرض وما بينهما بدليل قوله: (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) فم جعلوا ظانين أنه خلقها للبعث لا للحكمة. قلت: لما كان إنكارهم للبعث والحساب والثواب والعقاب، مؤديا إلى أن خلقها عبث وباطل، جعلوا كأنهم يظنون ذلك ويقولونه، لأن الجزاء هو الذى سبقت إليه الحكمة في خلق العالم من رأسها، فمن جحد فقد جحد الحكمة من أصلها، ومن جحد الحكمة في خلق العالم فقد سفه الخالق، وظهر بذلك أنه لا يعرفه ولا يقدره حق قدره، فكان إقراره بكونه خالقا كلاً إقرار.

أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ٢٨

﴿أم﴾ منقطعة. ومعنى الاستفهام فيها الإنكار، والمراد: أنه لو بطل الجزاء كما يقول الكافرون لاستوت عند الله أحوال من أصلح وأفسد، واتق وجتر، ومن سوى بينهم كان سفيها ولم يكن حكيما.

كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ٢٩

وقرئ: مباركا، وليتدبروا: على الأصل، ولتدبروا: على الخطاب. وتدبر الآيات: التفكير فيها، والتأمل الذى يؤدى إلى معرفة ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني الحسنة، لأن من اقتنع بظاهر المتلو، لم يحل منه بكثير طائل، ^(١) وكان مثله كمثل من له لقحة درور لا يحلها، ومهرة ثور لا يستولدها. وعن الحسن: قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله: حفظوا حروفه وضيعوا حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: والله لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفا، وقد والله أسقطه كله، ما يرى للقرآن عليه أثر في خلق ولا عمل، والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، والله ما هؤلاء بالحكماء ولا الوزعة، ^(٢) لا كثير

(١) قوله لم يحل منه بكثير طائل، في الصحاح: قوله لم يحل منه بطائل، أى: لم يستفد منه كبير فائدة. وفيه: اللقح - بالكسر - : الأبل بأعيانها، الواحدة: لقوح، وهى الحلوب، مثل: فلوص وقلاص: واللقحة: اللقوح، والجمع لقح مثل قرعة قرب، وفيه: باقة درور، أى: كثيرة اللبن. وفيه: الثور، أى: كثيرة الولد.

(٢) قوله: ولا الوزعة، جمع وازع، وهو الذى يكف عن الضرر، والذى يتقدم الصف فيصلحه بالتقديم والتأخير. أفاده الصحاح. (ع)

الله في الناس مثل هؤلاء . اللهم اجعلنا من العلماء المتدبرين ، وأعدنا من القراء المتكبرين .
 وَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ
 الصُّفُنُ الْجَبَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ
 بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣)

وقرى : نعم العبد ، على الأصل ، (١) والمخصوص بالمدح محذوف . وعلل كونه مدوحا
 بكونه أوابا رجلا إليه بالتوبة . أو مسحا مؤوبا للتسبيح مرجعا له ، لأن كل مؤوب أواب .
 والشافن : الذى فى قوله :

أَلِفَ الصُّفُونِ فَمَا يَزَالُ كَأَنَّهُ يَمَّا يَقُومُ عَلَى الثَّلَاثِ كَسِيرًا (٢)

وقيل : الذى يقوم على طرف سنبك يد أو رجل : هو المتخير . وأما الشافن : فالذى يجمع بين
 يديه . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : من سره أن يقوم الناس له صفونا فليتبوأ مقعده من
 النار ، (٣) أى : واقفين كما خدم الجبابرة . فإن قلت : ما معنى وصفها بالصفون ؟ قلت : الصفون
 لا يكاد يكون فى الهجن ، وإنما هو فى العراب الخالص . وقيل : وصفها بالصفون والجودة ،
 ليجمع لها بين الوصفين المحمودين : واقفة وجارية ، يعنى : إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة
 موافقها ، وإذا جرت كانت سراعا خفافا فى جريها . وروى أن سليمان عليه السلام غزا أهل
 دمشق ونصيبين ، فأصاب ألف فرس . وقيل : ورثها من أبيه وأصابها أبوه من العاقلة . وقيل :
 خرجت من البحر لها أجنحة ، فتعد يوما بعد ما صلى الأولى على كرسيه (٤) واستعرضها ، فلم

(١) قوله «وقرى» نعم العبد على الأصل، لعله بفتح النون وكسر العين، كما يفيد الصراح . (ع)

(٢) لا مرى القيس . وقيل : للعجاج يصف فرسا . والصفون - بالمهمله - : الوقوف على سنبك يد أو رجل .
 والسنبك : طرف حافر القرس . والصفون - بالمعجمة - : الجمع بين اليدين فى الوقوف ، وما يقوم : خبر كان ،
 أى : أحب الصفون ، كأنه من الجنس الذى يقوم على ثلاث قوائم . أو كأنه مخلوق من القيام على ثلاثة كلوك
 الانسان من رجل ، حال كونه مكسور القائمة الرابعة ، أو كأنها أى ثانيا ، فاصولة أو مصدرية . وكسيرا :
 حال ، والجملة : خبر يزال ، وهذا ما استقر عليه رأى ابن الحاجب فى الأمل بعد كلام طويل ، ولوجلت
 مامصدرية ، وكسيرا : خبر كان ، كان حقه الرفع ، ولوجلت خبر يزال كما اختاره ابن هشام ، لكان المعنى :
 فلا يزال كسيرا ، كأنه مما يقوم على الثلاث على مامر . ويجوز أن يكون المعنى : فلا يزال كسيرا من قيامه على
 الثلاث ، وكأنه اعتراض ، وخبره محذوف ، أى كأنه كسير . وفائدته الاحتراس .

(٣) لم أجده هكذا فى السنن حديث معاوية «من سره أن يمشى الناس له قياما» وفى الغريب لأبى عبيد من
 حديث البراء رضى الله عنه «كنا إذا صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فرفع رأسه قنا معه صفونا» .

(٤) قوله «بعد ما صلى الأولى على كرسيه» عبارة النسفى . صلى الظهر . (ع)

تزل تعرض عليه حتى غربت الشمس وغفل عن العصر أو عن ورد من الذكر كان له وقت العشي، وتنبؤة فلم يعلموه، فاعتم لما فاتته، فاستردها وعقرها مقرباً^(١) لله، وبقي مائة، فما بقي في أيدي الناس من الجياد فمن نسلها، وقيل: لما عقرها أبدله الله خيراً منها، وهي الريح تجري بأمره. فإن قلت: ما معنى (أحببت حب الخير عن ذكر ربي)؟ قلت: أحببت: مضمن معنى فعل يتعدى بمن، كأنه قيل: أنبت حب الخير عن ذكر ربي. أو جعلت حب الخير مجزياً أو مغنياً عن ذكر ربي. وذكر أبو الفتح الهمداني في كتاب التبيان: أن «أحببت» بمعنى: لومت، من قوله:

• مِثْلُ بَعِيرِ السُّوءِ إِذْ أَحْبَبَا •^(٢)

وليس بذاك. والخير: المال، كقوله (إن ترك خيراً) وقوله (وإنه لحب الخير لشديد) والمال: الخيل التي شغلته. أو سمي الخيل خيراً كأنها نفس الخير لتعاقب الخير بها. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة^(٣)، وقال في زيد الخيل حين وفد عليه وأسلم: «ما وُصف لي رجل فرأيتُهُ إلا كان دون ما بلغني إلا زيد الخيل»^(٤) وسماه زيد الخير. وسأل رجل بلالا رضي الله عنه عن قوم يستبقون: من السابق؟ فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال له الرجل: أردت الخيل. فقال: وأنا أردت الخير.^(٥)

(١) قوله «وعقرها مقرباً لله» عبارة النسبي: تقرباً. (ع)

(٢) كيف قربت عمك القرشياً حين أنك لاغياً محباً

حلت عليه بالقفيل ضرباً تبا لمن بالموت قد ألبا

مثل بغير السوء إذ أحبا

لأبي محمد القفسي. والقرشب - بكسر أوله وفتح ثالثة - : المن، واللاغب، من اللغوب، وهو التغب. والمحب من أحبه: إذا حله على الحب، وموئع من السير. أو من أحب: إذا لزم المكان كما قيل. وحلت: أي قمت ووثبت عليه. والقفيل: السوط. وضرباً: بمعنى ضارباً. أو تضربه ضرباً. والتب: الهلاك، وهو دعاء عليه، وفعله محذوف وجوبا. والمون - بالضم - : الهوان. وألب بالمكان: أقام به، ورواه الأصمعي هكذا:

كيف قربت شيخك الأذبا لما أنك يابساً قرشياً

قت عليه بالقفيل ضرباً مثل بغير السوء إذ أحبا

والذنب: كثرة الشعر وطوله. والأذب: البعير الذي نبت على حاجبيه شعيرات، فإذا ضربته الريح نفر وماج. وقال الجوهري: الاغباب: البروك. وهو في الأبل كالحران في الخيل.

(٣) متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما

(٤) ذكره ابن إسحاق في المغازي بغير سند، والبيهقي في الدلائل من طريقه. وذكره ابن سعد عن الواقدي

بأسانيد له مقطوعة

(٥) أخرجه إبراهيم الحربي من رواية مفيدة عن الشعبي قال «كان رهان. فقال رجل لبلال: من سبق؟ قال:

رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فمن صلى؟ قال: أبو بكر. قال: إنما أعني في الخيل. قال: وأنا أعني في الخير»

والتواري بالحجاب : مجاز في غروب الشمس عن توارى الملك . أو الخبأة بحجابها . والذي دل على أن الضمير للشمس مرور ذكر العشي ، ولا بد للضمير من جرى ذكر أو دليل ذكر . وقيل : الضمير للصافات ، أى : حتى توارت بحجاب الليل يعنى الظلام . ومن بدع التفاسير : أن الحجاب جبل دون قاف بمسيرة سنة تغرب الشمس من ورائه ﴿ فطفق مسحاً ﴾ جعل يمسح مسحاً ، أى يمسح بالسيف بسوقها وأعناقها ، يعنى : يقطعها . يقال : مسح علاوته ، إذا ضرب عنقه . ومسح المسفر الكتاب ^(١) إذا قطع أطرافه بسيفه . وعن الحسن : كسف عراقيها وضرب أعناقها ، أراد بالكسف : القطع ، ومنه : الكسف في ألقاب الزحاف في العروض . ومن قاله بالشين المعجمة فصحف . وقيل : مسحها بيده استحساناً لها وإعجاباً بها . فإن قلت : بم اتصل قوله (ردوها على) ؟ قلت : بمحذوف تقديره : قال ردوها على ، فأضمر وأضمر ما هو جواب له ، كأن قائله قال : فإذا قال سليمان ؟ لأنه موضع مقتضى للسؤال اقتضاء ظاهراً ، وهو اشتغال نبي من أنبياء الله بأمر الدنيا ، حتى تفوته الصلاة عن وقتها . وقرئ : بالسوق ، بهمز الواو لضميتها ، كما في أدور . ونظيره : الغور ، في مصدر غارت الشمس . وأما من قرأ بالسوق فقد جعل الضمة في السين كأنها في الواو للتلاصق ، كما قيل : مؤسى : ونظير ساق وسوق : أسد وأسد . وقرئ : بالساق ، اكتفاء بالواحد عن الجمع ، لأن الإلباس .

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ بِمَا مَلَكَ عَشْرِينَ سَنَةً . وَمَلَكَ بَعْدَ الْفِتْنَةِ عَشْرِينَ سَنَةً . وَكَانَ مِنْ فَتْنَتِهِ :

أنه ولد له ابن ، فقالت الشياطين : إن عاش لم تنفك من السخرة ، فسيئنا أن نقتله أو نخبله ، فلم ذلك ، فكان يفتنه في السحابة ^(١) فاراعه إلا أن ألقى على كرسيه ميتاً ، فتنبه على خطئه في أن لم يتوكل فيه على ربه ، فاستغفر ربه وتاب إليه . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم : قال سليمان : لا طوفن الليلة على سبعين امرأة ، كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله ، ولم يقل : إن شاء الله ، فطاف عليهن فلم يحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل ، والذي نفسى بيده ، لو قال : إن شاء الله ، لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون ^(٢) ، فذلك قوله تعالى ﴿ ولقد فتنا سليمان ﴾ . وهذا ونحوه مما لا بأس به . وأما ما يروى من حديث الحاتم والشياطين وعبادة

(١) قوله «مسح المسفر الكتاب» الذي في الصحاح : سمرت الكتاب أسفره سفاً . وسمرت المرأة : كشفت عن وجهها . وأسفر الصبح : أى أضاء . وأسفر وجهه حسناً ، أى : أشرق ، فليحمر . (ع)

(٢) قوله «فكان يفتنوه» في الصحاح : غذوت الصبي باللبن ، أى ربيته به فاغذى . (ع)

(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

الوثن في بيت سليمان ، فآله أعلم بصحته^(١) . حكوا أن سليمان بلغه خبر صيدون وهي مدينة في بعض الجزائر ، وأن بها ملكاً عظيم الشأن لا يقوى عليه لتحصنه بالبحر ، فخرج إليه تحمله الريح حتى أناخ بها بجنوده من الجن والإنس ، فقتل ملكها وأصاب بنتاً له اسمها جرادة من أحسن الناس وجهاً ، فاصطفاه لنفسه وأسلبت وأحبها ، وكانت لا يرقأ دمعها حزناً على أبيها ، فأمر الشياطين فقتلوا لها صورة أبيها ، فكسبتها مثل كسوته وكانت تغدو إليها وتروح مع ولائها يسجدن له كما ذهبن في ملكه ، فأخبر آصف سليمان بذلك فكسر الصورة وعاقب المرأة ، ثم خرج وحده إلى فلاة وفرش له الرماد ، فجلس عليه تائباً إلى الله متضرعاً ، وكانت له أُم ولد يقال لها أمينة ، إذا دخل للطهارة أو لإصابة امرأة وضع خاتمه عندها ، وكان ملكه في خاتمه ، فوضعه عندها يوماً وأتاها الشيطان صاحب البحر - وهو الذي دلّ سليمان على الماس حين أمر ببناء بيت المقدس واسمه صخر - على صورة سليمان فقال : يا أمينة خاتمي ، فتختم به وجلس على كرسي سليمان ، وعكفت عليه الطير والجن والإنس ، وغير سليمان عن هيئته فأتى أمينة لطلب الخاتم فأنكرته وطردته ، فعرف أن الخطيئة قد أدركته ، فكان يدور على البيوت يتكفف ، فإذا قال : أنا سليمان حثوا عليه التراب وسبوه ، ثم عمد إلى السماكين ينقل لهم السمك فيعطونه كل يوم سمكتين ، فكث على ذلك أربعين صباحاً عدد ما عيّد الوثن في بيته ، فأنكر آصف وعظا بنى إسرائيل حكم الشيطان ، وسأل آصف نساء سليمان فقلنا : ما يدع امرأة منا في دمها ولا يفتسل من جنابة . وقيل : بل نفذ حكمه في كل شيء إلا فيهن ، ثم طار الشيطان وقذف الخاتم في البحر ، فابتلعه سمكة ووقعت السمكة في يد سليمان ، فبقر بطنها فإذا هو بالخاتم ، فتختم به ووقع ساجداً ، ورجع إليه ملكه ، وجاب صخرة لصخر^(٢) فجعله فيها ، وسد عليه بأخرى ثم أوثقهما بالحديد والرصاص وقذفه في البحر . وقيل : لما اتفقت أن يسقط الخاتم من يده لا يتأسك فيها ، فقال له آصف : إنك لفتون بذنبك والخاتم لا يقتر في يدك ، فتب إلى الله عز وجل . ولقد أبى العلماء المتقنون قبوله وقالوا : هذا من أباطيل اليهود ، والشياطين لا يتمكنون من مثل هذه الأفاعيل . وتسليط الله إياهم على عباده حتى يقعوا في تغيير الأحكام ، وعلى نساء الأنبياء حتى يفجروا بهن : قبيح . وأما اتخاذ التماثيل فيجوز أن تختلف فيه الشرائع . ألا ترى إلى قوله (من محاريب وتماثيل) وأما السجود للصورة فلا يظن بنبي الله أن يأذن فيه ، وإذا كان بغير علمه فلا عليه . وقوله ﴿ وألقينا على كرسيه جسداً ﴾ ناب عن إفادة معنى إنابة الشيطان منابه نبوّاً ظاهراً .

(١) أخرجه الثنائي في التفسير من رواية المهال بن هرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس . وإسناده قوى وأخرجه ابن أبي حاتم من حديث ابن عباس قريباً عما أورده المصنف .

(٢) قوله « وجاب صخرة لصخر » أي : خرق أو قطع أفاده الصحاح . (ع)

قَالَ رَبِّ آفِئْزِلِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾

قدم الاستغفار على استيحاب الملك جرياً على عادة الأنبياء والصالحين في تقديمهم أمر دينهم على أمور دنيائهم (لا ينبغي) لا يتسهل ولا يكون. ومعنى (من بعدى) دوى. فإن قلت: أما يشبه الحسد والحرص على الاستبداد بالنعمة أن يستعطي الله ما لا يعطيه غيره؟ قلت: كان سليمان عليه السلام ناشئاً في بيت الملك والنبوة ووارثاً لها، فأراد أن يطلب من ربه معجزة، فطلب على حسب ألفه ملكاً زائداً على الممالك زيادة خارقة للعادة بالغة حد الإعجاز، ليكون ذلك دليلاً على نبوته قاهراً للبعوث إليهم، وأن يكون معجزة حتى يخرق العادات، فذلك معنى قوله (لا ينبغي لأحد من بعدى) وقيل: كان ملكاً عظيماً، يخاف أن يعطى مثله أحد فلا يحافظ على حدود الله فيه، كما قالت الملائكة (أنجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) وقيل: ملكاً لا أسليه ولا يقوم غيرى فيه مقامى، كما سلبته مرة وأقيم مقامى غيرى. ويجوز أن يقال: علم الله فيما اختصه به من ذلك الملك العظيم مصالح في الدين، وعلم أنه لا يضطلع بأعبائه غيره، وأوجبت الحكمة استيحابه، فأمره أن يستوجه إياه، فاستوجهه بأمر من الله على الصفة التي علم الله أنه لا يضبطه عليها إلا هو وحده دون سائر عباده. أو أراد أن يقول ملكاً عظيماً فقال (لا ينبغي لأحد من بعدى)، ولم يقصد بذلك إلا عظم الملك وسعته، كما تقول: فلان ما ليس لأحد من الفضل والمال، وربما كان للناس أمثال ذلك، ولكنك تريد تعظيم ماعنده. وعن الحجاج أنه قيل له: إنك حسود، فقال: أحسد منى من قال (هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدى) وهذا من جرأته على الله وشيئنته، كما حكى عنه: طاعتنا أوجب من طاعة الله، لأنه شرط في طاعته فقال (فاتقوا الله ما استطعتم) وأطلق طاعتنا فقال (وأولى الأمر منكم).

فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّمْطِيطِينَ كُلَّ بَنَاءٍ وَغَوَاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٠﴾

قرئ: الريح، والرياح (رخاء) لينه طيبة لا تزعزع. وقيل: طيبة له لا تمتنع عليه (حيث أصاب) حيث قصد وأراد. حكى الأصمعي عن العرب: أصاب الصواب فأخطأ الجواب. وعن

رؤية أن رجلين من أهل اللغة قصدها ليسألاه عن هذه الكلمة، فخرج إليهما فقال: أين تصيبان؟ فقالا: هذه طلبتنا ورجعنا، ويقال: أصاب الله بك خيراً (والشياطين) عطف على الريح (كل بناء) بدل من الشياطين (وآخرين) عطف على كل داخل في حكم البدل، وهو بدل الكل من الكل: كانوا يبنون له ماشاء من الابنية، ويفوضون له فيستخرجون اللؤلؤ، وهو أول من استخرج الدر من البحر، وكان يقزن مردة الشياطين بعضهم مع بعض في القيود والسلاسل للتأديب والكشف عن الفساد. وعن السدي: كان يجمع أيديهم إلى أعناقهم مغللين في الجوامع^(١). والصفد القيد، وسمى به العطاء لأنه ارتباط للنعم عليه. ومنه قول علي رضي الله عنه: من برك فقد أسرك، ومن جفاك فقد أطلقك. ومنه قول القائل: غل يدا مطلقها، وأرق رقبة معتقها. وقال حبيب: إن العطاء إيسار؛ وتبعه من قال:

• وَمَنْ وَجَدَ الْإِحْسَانَ قَوْلًا قَمِيدًا • (٢)

وفرقوا بين الفعلين فقالوا: صفده قيده، وأصفده أعطاه، كوعده وأوعده، أي (هذا) الذي أعطيتك من الملك والمال والبسطة (عطاؤنا) بغير حساب، يعني: جما كثيراً لا يكاد يقدر على حسبه وحصره (فامن) من المنّة وهي العطاء، أي: فأعط منه ماشئت (أو أمسك) مفوضاً إليك التصرف فيه. وفي قراءة ابن مسعود: هذا فامن أو أمسك عطاؤنا بغير حساب، أو هذا التسخير عطاؤنا، فامن على من شئت من الشياطين بالإطلاق، وأمسك من شئت منهم في الوثاق بغير حساب، أي لا حساب عليك في ذلك.

وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ۚ (٤١)
أَرْكُضْ بِرَجْلِكَ هَذَا مُمْغَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۚ (٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ

(١) قوله «في الجوامع» في الصحاح «الجامعة»: النزل، لأنها تجمع اليمين إلى النطق. (ع)

(٢) وقيدت نفس في ذراك عجة ومن وجد الاحسان قيدا تقيدا

للتنقي، يقول: تركت سير الليل وراء ظهري، أي: بالنفث تركه لمن قل ماله، لأنه لا زال يبتغيه، واكتفيت بنعمتك العظمى، وشبه الآمال التي امتدت إليه وبلغت منهاها، بأفراس منقلة بالذهب على طريق التصريح والانتقال ترشيح. ويجوز أن ذلك كناية عن عظم النعمة، واستعمار التقييد للبع عن التطلع لغير الممدوح وقصر المدح عليه. ويجوز أنه شبه نفسه ببحر، والتقييد: تخجيل. والذرا - بالفتح - كل ما ستر الشيء. يقال: أنا في ظل الجبل وفي ذراه، أو في ظل فلان وفي ذراه، أي: في كنفه وحماه، وحجة: مفعول لأجله، وشبه الاحسان بالقيد لأنه سبب استعلاك النفس.

مَعَهُم رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لَأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾

(أيوب) عطف بيان . و (إذ) بدل اشتغال منه (أنى مسنى) بأنى مسنى : حكاية لكلامه الذى ناداه بسببه ، ولو لم يحك لقال بأنه مسه : لانه غائب . وقرئ (بنصب) بضم النون وفتحها مع سكون الصاد ، وفتحتها ، وضمهما ، فالنصب والنصب : كالرشد والرشد ، والنصب : على أصل المصدر ، والنصب : تثقيل نصب ، والمعنى واحد ، وهو التعب والمشقة . والعذاب : الألم ، يريد مرضه وما كان يقامى فيه من أنواع الوصب ^(١) . وقيل : الضر فى البدن ، والعذاب فى ذهاب الأهل والمال فإن قلت : لم نسبة إلى الشيطان ، ولا يجوز أن يسلطه الله على أنبيائه ليقضى من أتعابهم وتعذيبهم وطره ، ولو قدر على ذلك لم يدع صالحا إلا وقد نكبه وأهلكه ، وقد تكرر فى القرآن أنه لا سلطان له إلا الوسوسة فحسب ؟ قلت : لما كانت وسوسته إليه وطاعته له فيما وسوس سلباً فيما مسه الله به من النصب والعذاب ، نسبة إليه ، وقد راعى الأدب فى ذلك حيث لم ينسبه إلى الله فى دعائه ، مع أنه فاعله ولا يقدر عليه إلا هو . وقيل : أراد ما كان يوسوس به إليه فى مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء ، ويغريه على الكراهة والجزع ، فالتجأ إلى الله تعالى فى أن يكفيه ذلك بكشف البلاء ، أو بالتوفيق فى دفعه وردده بالصبر الجميل . وروى أنه كان يعود ثلاثه من المؤمنين ، فارتد أحدهم ، فسأل عنه فقيل ألقى إليه الشيطان : إن الله لا يبتلى الأنبياء والصالحين ، وذكر فى سبب بلائه أن رجلا استغاثه على ظالم فلم يعثه . وقيل : كانت مواشيه فى ناحية ملك كافر ، فداهته ولم يغزه . وقيل : أعجب بكثرة ماله (أركض برجلك) حكاية ما أجيب به أيوب ، أى : اضرب برجلك الأرض . وعن قتادة : هى أرض الجماية ^(٢) فضربها ، فنبعت عين فقيل (هذا مغتسل بارد وشراب) أى هذا ماء تغتسل به وتشرب منه ، فيراً باطنك وظاهره ، وتقلب ما بك قلبه ^(٣) . وقيل : نبعت له عينان ، فاغتسل من إحداها وشرب من الأخرى ، فذهب الداء من ظاهره وباطنه بإذن الله ، وقيل : ضرب برجله البني فنبعت عين حارة فاغتسل منها ، ثم باليسرى فنبعت باردة فشرب منها (رحمة منا وذكرى) مفعول لها . والمعنى : أن الهبة كانت للرحمة له ولتذكير أولى الألباب ، لأنهم إذا سمعوا بما

(١) قوله «من أنواع الوصب» فى الصحاح «الوصب» : المرض . (ع)

(٢) قوله «هى أرض الجماية» مدينة بالشام كما فى الصحاح . (ع)

(٣) قوله «وتقلب ما بك قلبه» فى الصحاح «القلب» داء يأخذ البعير . وقولهم : ما به قلبه ، أى : ليست

به علة . (ع)

أنعمنا به عليه لصبره ، رغبتهم في الصبر على البلاء وعاقبة الصابرين وما يفعل الله بهم (وخذ) معطوف على اركض . والضعف : الحزمة الصغيرة من حشيش أو ربحان أو غير ذلك . وعن ابن عباس : قبضة من الشجر ، كان حاف في مرضه ليضربن امرأته مائة إذا برأ ، فخلل الله يمينه بأهون شيء عليه وعليها لحسن خدمتها إياه ورضاء عنها ، وهذه الرخصة باقية . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه أتى بمخدج ^(١) قد خبث بأمة ، فقال : «خذوا عسكالا فيه مائة شمراخ فاضربوه بها ضربة» ^(٢) ويجب أن يصيب المضروب كل واحد من المائة ، إما أطرافها قائمة ، وإما أعراضها مبسوطة مع وجود صورة الضرب ، وكان السبب في يمينه أنها أبطأت عليه ذاهبة في حاجة فخرج صدره ، وقيل : باعت ذؤابتها برغيفين وكانت متعلق أيوب إذا قام . وقيل : قال لها الشيطان اسجدي لي سجدة فأرد عليك مالكم وأولادكم ، فهمت بذلك فأدركتها العصمة ، فذكرت ذلك له ، فحلف . وقيل : أوهمها الشيطان أن أيوب إذا شرب الخمر برأ ، فعرضت له بذلك . وقيل : سألته أن يقرب للشيطان بعناق (وجدناه صابرا) علينا صابرا . فإن قلت : كيف وجده صابرا وقد شكأ إليه ما به واسترحمه ؟ قلت : الشكوى إلى الله عز و علا لا تسمى جزعا ، ولقد قال يعقوب عليه السلام : (إنما أشكوا بئى وحزنى إلى الله) وكذلك شكوى العليل إلى الطبيب ، وذلك أن أصبر الناس على البلاء لا يخلو من تمنى العافية وطلبها ، فإذا صحح أن يسمى صابرا مع تمنى العافية وطلب الشفاء ، فليس صابرا مع اللجأ إلى الله تعالى ، والدعاء بكشف ما به ومع التعامل ومشاورة الأطباء ، على أن أيوب عليه السلام كان يطلب الشفاء خيفة على قومه من الفتنة . حيث كان الشيطان يوسوس إليهم كما كان يوسوس إليه أنه لو كان نبيا لما ابتلى بمثل ما ابتلى به ، وإرادة القوة على الطاعة ، فقد بلغ أمره إلى أن لم يبق منه إلا القلب واللسان . ويروى أنه قال في مناجاته : إلهى قد علمت أنه لم يخالف لسانى قلبى ، ولم يتبع قلبى بصرى ، ولم يهينى ما ملكك يمينى ، ^(٣) ولم آكل إلا ومعى يتيم ، ولم أبت شعبان ولا كاسيا ومعى جائع أو عريان ؛ فكشف الله عنه .

(١) قوله «إنه أتى بمخدج» الخداج : النقصان ، وأخذت الناقة : إذا جاءت بولدها ناقص الخلق ، وإن كانت أيامه تامة فهي مخدج ، والولد مخدج ، كذا في الصحاح . (ع)

(٢) أخرجه النسائي وأحمد وإسحاق وابن أبي شيبة والبرار والطبراني من رواية أبي أمامة بن سهل عن سعيد بن عباد . قال «كان بين أبياتنا رجل ضعيف مخدج ، فلم يرع الهوى إلا وهو على أمة من إمامهم يخطف بها - الحديث » قال البرار : لم يرد إلا هذا ، واختلف في إسناده . فقيل هكذا . وقيل عن أبي الزناد عن أبي أمامة مرسل ورواه أبو داود من وجه آخر عن أبي أمامة أنه أخبره بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

(٣) قوله «ولم يهينى ما ملكك يمينى» أى لم ينشطنى ولم يهينى ، من هبت الريح : أى هاجت ، وهب البعير : أى نفط ، كما في الصحاح . (ع)

وَإِذْ كُنَّا بَنَاتًا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ٤٥
 إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ٤٦ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ

الْأَخْيَارِ ٤٧

(إبراهيم وإسحق ويعقوب) عطف بيان لعبادنا . ومن قرأ : عبدنا ، جعل إبراهيم وحده عطف بيان له ، ثم عطف ذريته على عبدنا ، وهى إسحق ويعقوب ، كقراءة ابن عباس : وإله أليك إبراهيم وإسماعيل وإسحق . لما كانت أكثر الأعمال تباشر بالأيدي غلبت ، فقبل فى كل عمل هذا بما عملت أيديهم ، وإن كان عملا لا يتأتى فيه المباشرة بالأيدي . أو كان العمل جذما لا أيدي لهم ، وعلى ذلك ورد قوله عز وعلا (أولى الأيدي والأبصار) يريد : أولى الأعمال والفكر ، كأن الذين لا يعملون أعمال الآخرة ، ولا يجاهدون فى الله ، ولا يفكرون أفكار ذوى الديانات ولا يستبصرون فى حكم الزمنى الذين لا يقدرّون على أعمال جوارحهم والمسلوبى العقول الذين لا استبصار بهم . وفيه تعريض بكل من لم يكن من عمال الله ، ولا من المستبصرين فى دين الله ، وتوبيخ على تركهم المجاهدة والتأمل مع كونهم متمكنين منها . وقرئ : أولى الأيادي ، على جمع الجمع . وفى قراءة ابن مسعود : أولى الأيدى ، على طرح الياء والاكتفاء بالكسرة . وتفسيره بالأيدي - من التأيد - قلق غير متمكن (أخلصناهم) جعلناهم خالصين (بخالصة) بخالصة خالصة لا شوب فيها ، ثم فسر ما بذكرى الدار ، شهادة لذكرى الدار بالخلوص والصفاء وانتفاء الكدورة عنها . وقرئ على الإضافة . والمعنى : بما خلص من ذكرى الدار ، على أنهم لا يشوبون ذكرى الدار بهم آخر ، إنما مهمم ذكرى الدار لا غير . ومعنى (ذكرى الدار) : ذكراهم الآخرة دائبا ، ونسيانهم إليها ذكر الدنيا . أو تذكيرهم الآخرة وترغيبهم فيها ، وتزهيدهم فى الدنيا ؛ كما هو شأن الانبياء وديدهم . وقيل . ذكرى الدار . الثناء الجميل فى الدنيا ولسان الصدق الذى ليس لغيرهم . فإن قلت : ما معنى (أخلصناهم بخالصة) ؟ قلت : معناه : أخلصناهم بسبب هذه الخصلة ، وبأنهم من أهلها . أو أخلصناهم بتفريقهم لها ، واللفظ بهم فى اختيارها . وتعتمد الأول قراءة من قرأ : بخالصتهم (المصطفين) المختارين من أبناء جنسهم . و(الآخيار) جمع خير ، أو خير ، على التخفيف ؛ كالأموات فى جمع ميت أو ميت .

وَإِذْ كُنَّا بِإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ٤٨

(واليسع) كان حرف التعريف دخل على يسع . وقرئ : واليسع ، كأن حرف التعريف

دخل على ليسع، فيعمل من السع. والتتوين في (وكل) عوض من المضاف اليه، معناه: وكلهم من الاختيار.

هَذَا ذِكْرُ وَإِنْ لِلْمُتَّقِينَ لِحُسْنِ مَآبٍ ٤٩ جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُمْتَعَةٍ لَّهُمْ
الْأَبْوَابُ ٥٠ مُتَكِيَيْنَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفِكَهٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ٥١
وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ اللَّطْفِ أَنْزَابٌ ٥٢

(هذا ذكر) أى: هذا نوع من الذكر وهو القرآن، لما أجرى ذكر الانبياء وأتته، وهو باب من أبواب التنزيل؛ ونوع من أنواعه، وأراد أن يذكر على عقبه بابا آخر، وهو ذكر الجنة وأهلها، (١) قال: هذا ذكر، ثم قال (وإن للمتقين) كما يقول الجاحظ في كتبه: فهذا باب، ثم يشرع في باب آخر، ويقول السكاكب إذا فرغ من فصل من كتابه وأراد الشروع في آخر: هذا وقد كان كيت وكيت؛ والدليل عليه: أنه لما أتم ذكر أهل الجنة وأراد أن يعقبه بذكر أهل النار. قال: هذا وإن للطاغين. وقيل: معناه هذا شرف وذكر جميل يذكرون به أبدا. وعن ابن عباس رضى الله عنه: هذا ذكر من مضى من الانبياء (جنات عدن) معرفة لقوله (جنات عدن التي وعد الرحمن) وانتصابها على أنها عطف بيان لحسن مآب. و(مفتحة) حال، والعامل فيها ما في (للمتقين) من معنى الفعل. وفي (مفتحة) ضمير الجنات. والأبواب بدل من الضمير، تقديره: مفتحة هي الأبواب، كقولهم: ضرب زيد اليد والرجل، وهو من بدل الاشتغال. وقرئ: جنات عدن مفتحة، بالرفع، على أن جنات عدن مبتدأ، ومفتحة خبره. أو كلاهما خبر مبتدئ محذوف، أى: هو جنات عدن هي مفتحة لهم؛ كأن اللغات سمين أنزابا، لأن التراب مسهن في وقت واحد، وإنما جعلن على سن واحدة، لأن التحاب بين الاقران أثبت. وقيل: هن أنزاب لازواجهن، أسنانهن كأسنانهم.

هَذَا مَا تُوَعَّدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ٥٣ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ٥٤
قرئ: يوعدون، بالتاء والياء (ليوم الحساب) لاجل يوم الحساب، كما تقول: هذا ما تدخرونه ليوم الحساب، أى: ليوم تجزى كل نفس ما عملت.

(١) قال محمود: وإنما قال: هذا ذكر ليذكر عقبه ذكرا آخر، وهو ذكر الجنة وأهلها، كما يقول الجاحظ في كتبه: فهذا باب، ثم يشرع في باب آخر. قال أحمد: وكما ما يقول الفقيه إذا ذكر أدلة المسئلة عند تمام الدليل الأول: هذا دليل ثان كذا وكذا إلى آخر ما في نفسه، ويدل عليه أنه عند انقضاء ذكر أهل الجنة قال: (هذا وإن للطاغين لشر مآب) فذكر أهل النار.

هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ⑤٥ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيُشْسِ الْمِهَادُ ⑤٦
 هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقُ ⑤٧ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجُ ⑤٨
 هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَأَمْرَجَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ⑤٩ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ
 لَأَمْرَجَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ أَثْمَوُوهُ لَنَا فَيُشْسِ الْقَرَارُ ⑥٠ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ
 لَنَا هَذَا قَرِذُهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ⑥١

(هذا) أى الأمر هذا : أو هذا كما ذكر (فَيُشْسِ الْمِهَادُ) كقوله (لم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش) شبه ما تحتهم من النار بالمهاد الذى يفرشه النائم ، أى : هذا حميم فليذوقوه . أو العذاب هذا فليذوقوه ، ثم ابتدأ فقال : هو (حميم وعساق) أو : هذا فليذوقوه بمنزلة (وإياى فارهبون) أى ليدوقوا هذا فليذوقوه ، والعساق - بالتخفيف والتشديد - : ما يفسق من صديد أهل النار ، يقال : غسقت العين ، إذا سال دمعها . وقيل : الحميم يحرق بحمزه ، والعساق يحرق برده . وقيل : لو قطرت منه قطرة فى المشرق لتنتت أهل المغرب ، ولو قطرت منه قطرة فى المغرب لتنتت أهل المشرق . وعن الحسن رضى الله عنه . العساق : عذاب لا يعلمه إلا الله تعالى . إن الناس أخفوا لله طاعة فأخفى لهم ثوابا فى قوله (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) وأخفوا معصية فأخفى لهم عقوبة (وآخر) ومذوقات آخر من شكل هذا المذوق من مثله فى الشدة والفظاعة (أزواج) أجناس . وقرئ : وآخر ، أى : وعذاب آخر . أو مذوق آخر . وأزواج : صفة لآخر ، لأنه يجوز أن يكون ضروبا . أو صفة للثلاثة وهى حميم وعساق وآخر من شكله . وقرئ : من شكله ، بالكسر ^(١) وهى لغة . وأما الغنج ^(٢) فبالكسر لا غير (هذا فوج مقتحم معكم) هذا جمع كثيف قد اقتحم معكم النار ، أى : دخل النار فى صحبتكم وقرانكم ، والاقترحام : ركوب الشدة والدخول فيها . والقحمة : الشدة . وهذه حكاية كلام الطاغين بعضهم مع بعض ، أى : يقولون هذا . والمراد بالفوج : أتباعهم الذين اقتحموا معهم الضلالة ، فيقتحمون معهم العذاب (لا مرجأ بهم) دعاء منهم على أتباعهم . تقول لمن تدعوله : مرجأ ، أى : أتيت رجأ من البلاد لا ضيقا : أو رجبت بلادك رجبا ، ثم تدخل عليه ، لا ، فى دعاء السوء .

(١) قوله وقرئ «من شكله بالكسر وهى لغة» أى فى الشكل بمعنى المثل . (ع)

(٢) «وأما الغنج فبالكسر لا غير» فى الصحاح : الغنج والغنج : الشكل ، وقد غنجت الجارية وتغنجت ، فهى غنجة . وفيه : الشكل - بالفتح . : المثل ، وبالكسر : الدل ، يقال : امرأة ذات شكل . (ع)

و (هم) بيان للدعوة عليهم (إنهم صالوا النار) تعليل لاستيجابهم للدعاء عليهم . ونحوه قوله تعالى (كلما دخلت أمة لعنت أختها) وقيل: هذا فوج مقتحم معكم: كلام الخزنة لرؤساء الكفرة في أتباعهم. و (لامرحباً بهم إنهم صالوا النار) كلام الرؤساء. وقيل: هذا كله كلام الخزنة (قالوا) أى الاتباع (بل أنتم لامرحباً بكم) يريدون الدعاء الذى دعوتهم به علينا أنتم أحق به، وعللوا ذلك بقولهم (أنتم قدمتموه لنا) والضمير للعذاب أو لصلبهم. فإن قلت: ما معنى تقديمهم العذاب لهم؟ قلت: المقدم هو عمل السوء. قال الله تعالى (ذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت أيديكم) ولكن الرؤساء لما كانوا السبب فيه ياغواهم وكان العذاب جزاءهم عليه: قيل أنتم قدمتموه لنا، فجعل الرؤساء هم المقدمين وجعل الجزاء هو المقدم، لجمع بين مجازين: لأن العالمين هم المقدمون فى الحقيقة لارؤساءهم، والعمل هو المقدم لاجزائه. فإن قلت: فالذى جعل قوله (لامرحباً بهم) من كلام الخزنة ما يصنع بقوله (بل أنتم لامرحباً بكم) والمخاطبون - أعنى رؤساءهم - لم يتكلموا بما يكون هذا جواباً لهم؟ قلت: كأنه قيل: هذا الذى دعا به علينا الخزنة أنتم يارؤساء أحق به منا لإغوائكم إيانا وتسبيكم فيما نحن فيه من العذاب، وهذا صحيح كما لو زين قوم لقوم بعض المساوى فارتكبوه ف قيل للزنيين: أخزى الله هؤلاء ما أسوأ فعلهم؟ فقال المزين لهم للزنيين: بل أنتم أولى بالخزى منا، فلو لا أنتم لم ترتكب ذلك (قالوا) هم الاتباع أيضاً (فزده عذاباً ضعفاً) أى مضاعفاً، ومعناه: ذا ضعف: ونحوه قوله تعالى (ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً) وهو أن يزيد على عذابه مثله فيصير ضعفين، كقوله عز وجل (ربنا آتهم ضعفين من العذاب) (١) وجاء فى التفسير (عذاباً ضعفاً): حيات وأفاعى. (٢)

وَقَالُوا مَا لَنَا لَنَرِي رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (٦٢) أَتُخَذُونَ سِخْرِيًا

أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ (٦٣)

(وقالوا) الضمير للطاغين (رجالاً) يعنون فقراء المسلمين الذين لا يؤبه لهم (من الأشرار) من الأراذل الذين لاخير فيهم ولا جدوى، ولأنهم كانوا على خلاف دينهم، فكانوا عندهم أشراراً (أتخذناهم سخرية) قرئ بلفظ الإخبار على أنه صفة لرجالاً، مثل قوله (كننا نعدهم من

(١) قوله تعالى (قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً) وقال فى موضع آخر (آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً) والقصة واحدة. قال أحمد: وفيه دليل على أن الضعفين اثنان من شيء واحد، خلافاً لمن قال غير ذلك؛ لأنه فى موضع قال (فزده عذاباً ضعفاً) والمراد: مثل عذابه، فيكونا عذابين. وقال فى موضعين (ضعفين) والمراد: ذا عذابين.

(٢) قوله «وجاء فى التفسير... الخ» عبارة الحازن: قال ابن عباس: حيات وأفاعى (ع)

الاشرار) وبهمزة الاستفهام على أنه إنكار على أنفسهم وتأنيب لها^(١) في الاستسغار منهم . وقوله (أم زاغت عنهم الأبصار) له وجهان من الاتصال ، أحدهما : أن يتصل بقوله (مالنا) أي : مالنا لانراهم في النار ؟ كأنهم ليسوا فيها بل أزاغت عنهم أبصارنا فلانراهم وهم فيها : قسموا أمرهم بين أن يكونوا من أهل الجنة ، وبين أن يكونوا من أهل النار . إلا أنه خفي عليهم مكانهم . والوجه الثاني : أن يتصل باتخذناهم سخرى ، إما أن تكون أم متصلة على معنى : أى الفعلين فعلا بهم الاستسغار منهم ، أم الازدراء بهم والتحقير ، وأن أبصارنا كانت تعلو عنهم وتقتحمهم ، على معنى إنكار الامرين جميعا على أنفسهم ، وعن الحسن : كل ذلك قد فعلوا ، اتخذوهم سخرى وزاغت عنهم أبصارهم محقرة لهم . وإما أن تكون منقطعة بعد مضى اتخذناهم سخرى على الخبر أو الاستفهام ، كقولك : إنها لابل أم شاء ، وأزيد عندك أم عندك عمرو : ولك أن تقدّر همزة الاستفهام محذوفة فيمن قرأ بغير همزته ، لأنّ أم تدل عليها ، فلا تفرق القراءتان : إثبات همزة الاستفهام وحذفها . وقيل : الضمير في (وقالوا) لصناديد قريش كأبي جهل والوليد وأضرابهما ، والرجال : عمار وصهيب وبلال وأشباههم . وقرئ : سخرى ، بالضم والكسر .

إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُّمُ أَهْلِ النَّارِ ٦٤

(إن ذلك) أى الذى حكينا عنهم (لحق) لا بد أن يتكلموا به ، ثم بين ما هو فقال هو (تخاصم أهل النار) وقرئ بالنصب على أنه صفة لذلك ، لأن أسماء الإشارة توصف بأسماء الأجناس . فإن قلت : لم سمي ذلك تخاصما ؟ قلت : شبه تفاولهم وما يجرى بينهم من السؤال والجواب بما يجرى بين المتخاصمين من نحو ذلك^(٢) ولأن قول الرؤساء : لا مرحبا بهم ، وقول أتباعهم : بل أنتم لا مرحبا بكم ، من باب الخصومة ، فسمى التناول كله تخاصما لأجل اشتباهه على ذلك .

قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنِّى إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ٦٥ رَبُّ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ٦٦

(١) قوله وتأنيب لها أى : تنبيه ولوم . أفاده الصحاح . (ع)
(٢) قال محمود : وإن قلت لم سمي ذلك تخاصما ؟ قلت : شبه تفاولهم وما يجرى بينهم من السؤال والجواب بما يجرى بين المتخاصمين من نحو ذلك ، ولأن قول الرؤساء : لا مرحبا بهم ، وقول أتباعهم : بل أنتم لا مرحبا بكم ، من باب الخصومة . قال أحمد : هذا يحقق أن ما تقدم من قوله (لا مرحبا بهم إنهم صالوا النار) من قول المشركين المكفار ، وقوله تعالى (بل أنتم لا مرحبا بكم) من قول الاتباع ، فالخصومة على هذا التأويل حصلت من الجهتين ، فيتحقق التخاصم ، خلافا لما قال : إن الأول من كلام خزنة جهنم ، والثاني : من كلام الاتباع ، فانه على هذا التقدير إنما تكون الخصومة من أحد الفريقين فالنفسير الأول أمكن وأثبت .

(قل) يا محمد لمشركي مكة : ما أنا إلا رسول (منذر) أنذركم عذاب الله للمشركين ، وأقول لكم : إن دين الحق توحيد الله ، وأن يعتقد أن لا إله إلا الله (الواحد) بلا ند ولا شريك (القهار) لكل شيء ، وأن الملك والربوبية له في العالم كله وهو (العزيز) الذي لا يغلب إذا عاقب العصاة ، وهو مع ذلك (الغفار) لذنوب من التبتأ إليه . أوقل لهم ما أنا إلا منذر لكم ما أعلم ، وأنا أنذركم عقوبة من هذه صفته ، فإن مثله حقيق بأن يخاف عقابه كما هو حقيق بأن يرجى ثوابه .

قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ٦٧ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ٦٨ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ٦٩ إِنِّي يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٧٠

(قل هو نبا عظيم) أى هذا الذى أنبأتكم به من كونى رسولا منذراً وأن الله واحد لا شريك له : نبا عظيم لا يعرض عن مثله إلا غافل شديد الغفلة . ثم احتج لصحة نبوته بأن ما نبئ به عن الملأ الأعلى واختصاصهم أمر ما كان له به من علم قط ، ثم عليه ولم يسلك الطريق الذى يسلكه الناس فى علم ما لم يعلموا ، وهو الأخذ من أهل العلم وقراءة الكتب ، فعلم أن ذلك لم يحصل إلا بالوحي من الله (إن يوحى إلى إلا أنما أنا نذير) أى لأنما أنا نذير . ومعناه : ما يوحى إلى إلا للإنذار ، لحذف اللام وانتصب بإفضاء الفعل إليه . ويجوز أن يرتفع على معنى : ما يوحى إلى إلا هذا ، وهو أن أنذر وأبلغ ولا أفرط فى ذلك ، أى ما أومر إلا بهذا الأمر وحده ، وليس إلى غير ذلك . وقرئ : إنما بالكسر على الحكاية ، أى : إلا هذا القول ، وهو أن أقول لكم : إنما أنا نذير مبين ولا أدعى شيئاً آخر . وقيل : النبأ العظيم : قصص آدم عليه السلام والإنباء به من غير سماع من أحد . وعن ابن عباس : القرآن . وعن الحسن : يوم القيامة . فإن قلت : هم يتعلق (إذ يختصمون) ؟ قلت : بمحذوف ؛ لأن المعنى : ما كان لى من علم بكلام الملأ الأعلى وقت اختصاصهم ، و (إذ قال) بدل من (إذ يختصمون) . فإن قلت : ما المراد بالملأ الأعلى ؟ قلت : أصحاب القصة الملائكة وآدم وإبليس ، لأنهم كانوا فى السماء وكان التقاول بينهم : فإن قلت : ما كان التقاول بينهم إنما كان بين الله تعالى وبينهم ؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى قال لهم وقالوا له ، فأنت بين أمرين : إما أن تقول الملأ الأعلى هؤلاء ، وكان التقاول بينهم ولم يكن التقاول بينهم وإما أن تقول : التقاول كان بين الله وبينهم ، فقد جعلته من الملأ الأعلى . قلت : كانت مقابلة الله سبحانه بواسطة ملك ، فكان الما قول فى الحقيقة هو الملك المتوسط ، فصح أن التقاول كان

بين الملائكة وآدم وإبليس ، وهم الملائكة الأعلى . والمراد بالاختصاص : التناول على ماسبق .

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾

فإن قلت : كيف صح أن يقول لهم ﴿إني خالق بشر﴾ وما عرفوا ما البشر ولا عهدوا به قبل ؟ قلت : وجهه أن يكون قد قال لهم : إني خالق خلقا من صفته كيت وكيت ، ولكنه حين حكاه اقتصر على الاسم ﴿فإذا سويته﴾ فإذا أتممت خلقه وعدلته ﴿ونفخت فيه من روحي﴾ وأحييته وجعلته حساساً متنفساً ﴿فقعوا﴾ غروا . كل للإحاطة . وأجمعون : للاجتماع ، فأفادا معاً أنهم سجدوا عن آخرهم ما بقي منهم ملك إلا سجد ، وأنهم سجدوا جميعاً في وقت واحد غير متفرقين في أوقات . فإن قلت : كيف ساغ السجود لغير الله ؟ قلت : الذي لا يسوغ هو السجود لغير الله على وجه العبادة ، فأما على وجه التكرمة والتبجيل فلا ياباه العقل ، إلا أن يعلم الله فيه مفسدة فينبى عنه . فإن قلت : كيف استثنى إبليس من الملائكة وهو من الجن ؟ قلت : قد أمر بالسجود معهم فغلبوا عليه في قوله (فسجد الملائكة) ثم استثنى كما يستثنى الواحد منهم استثناء متصلاً ﴿وكان من الكافرين﴾ أريد وجود كفره ذلك الوقت وإن لم يكن قبله كافراً ؛ لأن (كان) مطلق في جنس الأوقات الماضية ، فهو صالح لا يهاشئت . ويجوز أن يراد : وكان من الكافرين في الأزمنة الماضية في علم الله .

قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾

فإن قلت : ما وجه قوله ﴿خلقت بيدي﴾ : قلت : قد سبق لنا أن ذا اليمين يباشر أكثر أعماله يديه ، فغلب العمل باليمين على سائر الأعمال التي تباشر بغيرهما ، حتى قيل في عمل القلب : هو مما عملت يداك ، وحتى قيل بمن لا يدي له : يداك أوكنا^(١) وفوك نفخ ، وحتى لم يبق فرق بين قولك : هذا مما عملته ، وهذا مما عملته يداك . ومنه قوله تعالى (مما عملت

(١) قوله وبداك أوكنا ، في الصحاح : أوكى على ما في سقائه : إذا شده بالوكاء . (ع)

أيدينا) و (لما خلقت يديّ). فإن قلت : فما معنى قوله (مامنعك أن تسجد لما خلقت يديّ)؟ قلت : الوجه الذي استنكر له إبليس السجود لآدم ، واستنكف منه أنه سيجود لمخلوق ، فذهب بنفسه ، وتكبر أن يكون سجوده لغير الخالق . وانضم إلى ذلك أن آدم مخلوق من طين وهو مخلوق من نار . ورأى للنار فضلا على الطين فاستعظم أن يسجد لمخلوق مع فضله عليه في المنصب ، وزلّ عنه أن الله سبحانه حين أمر به أعزّ عباده عليه ^(١) وأقربهم منه زلني وهم الملائكة ، وهم أحق بأن يذهبوا بأنفسهم عن التواضع للبشر الضئيل ، ويستنكفوا من السجود له من غيرهم ، ثم لم يفعلوا وتبعوا أمر الله وجعلوه قدام أعينهم ، ولم يلتفتوا إلى التفاوت بين الساجد والمسجود له ، تعظيما لأمر ربهم وإجلالا لخطابه : كان هو مع انحطاطه عن مراتبهم حري بأن يقتدى بهم ويقتنى أثرهم ، ويعلم أنهم في السجود لمن هو دونهم بأمر الله ، أوغل في عبادته منهم في السجود له ، لما فيه من طرح الكبرياء وخفض الجناح ، فقيل له : مامنعك أن تسجد لما خلقت يديّ ، أي : مامنعك من السجود لشيء هو كما تقول مخلوق خلخته يديّ - لاشك في كونه مخلوقا - امثالاً لأمري وإعظاما لخطابي كما فعلت الملائكة ، فذكر له ما تركه من السجود مع ذكر العلة التي تشبث بها في تركه ، وقيل له : لم تركته مع وجود هذه العلة ، وقد أمرك الله به ، يعني : كان عليك أن تعتبر أمر الله ولا تعتبر هذه العلة ، ومثاله : أن يأمر الملك وزيره أن يزور بعض سقاط الحشم فيمتنع اعتباراً لسقوطه ، فيقول له : مامنعك أن تتواضع لمن لا يخفى على سقوطه ^(٢) ، يريد : هلا اعتبرت أمري وخطابي وتركت

(١) قوله وحين أمر به أعز عباده، مبنى على مذهب المعتزلة : أن الملك أفضل من البشر . وعند أهل السنة : البشر أفضل من الملك . (ع)

(٢) قال محمود : ولما كان ذو اليمين يباشر أكثر أعماله يديه : غلب العمل باليمين على سائر الأفعال التي تباشر بغير اليمين ، حتى قيل في عمل القلب : هذا مما عملت يداك . قال ومعه أن الوجه الذي استنكر له إبليس السجود لآدم واستنكف بسببه : أنه سجد لمخلوق ، مع أنه دون الساجد : لأن آدم من طين ، وإبليس من نار ، فرأى للنار فضلا على الطين ، وزلّ عنه أن الله سبحانه حين أمر أعز عباده عليه وأقربهم منه وهم الملائكة أن يسجدوا لهذا البشر : لم يمتنعوا ولم يذهبوا بأنفسهم إلى التكبر ، مع انحطاطه عن مراتبهم ، فقيل له : مامنعك أن تسجد لهذا الذي هو مخلوق يديّ كما وقع لك ، مع أنه لاشك أن في ذلك امثالاً لأمري وإعظاماً لخطابي كما فعلت الملائكة ، فذكر له العلة التي منعت من السجود ، وقيل له : ما حلك على اعتبار هذه العلة دون اعتبار أمري ، ومثاله : أن يأمر الملك وزيره أن يزور بعض سقاط الحشم ، فيمتنع اعتباراً لسقوطه . فيقول له : مامنعك أن تتواضع لمن لا يخفى على سقوطه ، يريد : هلا اعتبرت أمري وخطابي وتركت اعتبار سقوطه ، انتهى المقصود من الآية بعد تطويل وإطناب وإكثار وإسهاب . قال أحمد : إنما أطال القول هنا ليفر من معتقدين لأهل السنة تقتل عليهما هذه الآية : أحدهما : أن اليمين من صفات الذات أثبتهما السمع ، هذا مذهب أبي الحسن والقاضي . بعد إبطالهما حمل اليمين على القدرة ، فان قدرة الله تعالى واحدة ، واليدان المذكورتان بصيغة التثنية ، وإبطالاً لهما على النعمة بأن نعم الله ==

اعتبار سقوطه ، وفيه : أنى خلقت يدي ، فأنا أعلم بحاله ، ومع ذلك أمرت الملائكة بأن يسجدوا له لداعى حكمة دعائى إليه : من إنعام عليه بالترجمة السنية وابتلاء للملائكة ، فمن أنت حتى يصرفك عن السجود له ، مالم يصرفنى عن الأمر بالسجود له . وقيل : معنى (لما خلقت يدي) لما خلقت بغير واسطة . وقرئ : يدي ، كما قرئ : بمصرخى . وقرئ : يدي ، على التوحيد (من العالين) من علوت وفقت ، فأجاب بأنه من العالين حيث (قال أنا خير منه) وقيل : استكبرت الآن ، أم لم تزل منذ كنت من المستكبرين . ومعنى الهمة : التقرير . وقرئ : استكبرت بحذف حرف الاستفهام ؛ لأن أم تدل عليه . أو بمعنى الإخبار . هذا على سبيل الأولى ، أى : لو كان مخلوقا من نار لما سجدت له ، لأنه مخلوق مثل ، فكيف أسجد لمن هو دوني لأنه من طين والنار تغلب الطين وتأكله ، وقد جرت الجملة الثانية من الأولى وهى (خلقتى من نار) مجرى المعطوف عطف البيان من المعطوف عليه فى البيان والإيضاح .

قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۖ وَإِنْ عَلَيْنِكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ۖ (٧٨)

(منها) من الجنة ، وقيل : من السموات . وقيل : من الحلقة التى أنت فيها ؛ لأنه كان يفخر بخلقته فغير الله خلقة ، فأسود بعد ما كان أبيض وقبح بعد ما كان حسنا ، وأظلم بعد ما كان نورانيا . والرجيم : المرجوم . ومعناه : المطرود ، كما قيل له : المدحور والملعون ؛ لأن من طرد رمى بالحجارة على أثره . والرجم : الرمى بالحجارة . أولان الشياطين يرجمون بالشهب .

== لا تحصى ، فكيف تحصر بالثنية . وغيرهما من أهل السنة كامام الحرمين وغيره يجوز حملها على القدرة والنعمة ، ويجب عما ذكرناه بأن المراد نعمة الدنيا والآخرة ، وهذا بما يحقق تفضيله على إبليس ، إذ لم يخلق لإبليس نعمة الآخرة ، وعلى أن المراد القدرة ، فالثنية تعظيم ، ومثل ذلك يوجد فى اللغة كثيرا . المعتقد الثانى : أن الذى أفضل من الملك ، والرخشى شديد المعصية فى هذه المسئلة والانكار على من قال بذلك من أهل السنة . لاجرم أنه أجرم فى بسط كلامه على آدم عليه السلام ، فتل قصته فى انحطاط مرتبته على زعمه عن مرتبة الملائكة بقول الملك لوزيره . زر بعض سقاط الحشم ، لجل سقاط حشم الملك مثالا لآدم الذى هو عنصر الأنبياء عليهم السلام ، وأقام لإبليس عذره وصوب اعتقاده . أنه أفضل من آدم لكونه من نار وآدم من طين ، وإنما غلظه من جهة أخرى . وهو أنه لم يقس نفسه على الملائكة إذ سجدوا له ، على علمهم أنه بالنسبة إليهم معطوط الرتبة ساقط المزية ، وجعل قوله تعالى (لما خلقت يدي) إنما ذكر تقريراً لليلة التى منعت إبليس من السجود ، وهو كونه دونه ، وهذا - نأل الله العصمة - المراد منه ضد ما فهم العشرى ، وإنما ذكر ذلك تعظيماً لمعصية إبليس ، إذ امتنع من تعظيم من عظمه الله إذ خلقه بيده ، وذلك تعظيم لآدم لانهقى منه . ويدل عليه الحديث الوارد فى السقاعة ، إذ يقول له الناس عند ما يقصدونه فيها : أنت آدم أبو البشر خلقك الله بيده وأحمد لك ملائكتك وأسكنك جنتك ، فانما يذكرون ذلك فى سياق تمديد كراماته وخصائصه ، لا فى يحط منه ، معاذ الله وإياه نأل أن يعصنا من مهاوى الهوى ومهالكه ، وأن يرشدنا إلى سبيل الحق ومسالكه ، إنه ول التوفيق ، وبالإجابة حقيق .

فإن قلت : قوله ﴿ لعننى إلى يوم الدين ﴾ كأن لعنة إبليس غايتهما يوم الدين ثم تنقطع ؟ قلت : كيف تنقطع وقد قال الله تعالى (فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين) ولكن المعنى : أن عليه اللعنة في الدنيا ، فإذا كان يوم الدين اقترن له باللعة ما ينسى عنده اللعنة ، فكأنها انقطعت .
 قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾

إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾

فإن قلت : ما الوقت المعلوم الذى أضيف إليه اليوم ؟ قلت : الوقت الذى تقع فيه النفخة الأولى . ويومه : اليوم الذى وقت النفخة جزء من أجزائه . ومعنى المعلوم : أنه معلوم عند الله معين ، لا يستقدم ولا يسأخر .

قَالَ قَبِيرُكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾
 ﴿ فبعتك ﴾ إقسام بعزة الله تعالى وهى سلطانه وقهره .

قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَتَّبِعُكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾

قرئ : فالحق والحق ، منصوبين على أن الأول مقسم به كالله فى هـ إن عليك الله أن تباعا . وجوابه ﴿ لا ملأنا ﴾ والحق أقول : اعتراض بين المقسم به والمقسم عليه ، ومعناه : ولا أقول إلا الحق . والمراد بالحق : إما اسمه عز وجل الذى فى قوله (إن الله هو الحق المبين) أو الحق الذى هو نقيض الباطل : عظمه الله بإقسامه به . ومرفوعين على أن الأول مبتدأ محذوف الخبر ، كقوله (لعمرك) أى : فالحق قسمى لا ملأنا . والحق أقول ، أى : أقوله كقوله كله لم أصنع ، ومجروبن : على أن الأول مقسم به قد أضمر حرف قسمه ، كقولك : الله لأفعلن . والحق أقول ، أى : ولا أقول إلا الحق على حكاية لفظ المقسم به . ومعناه : التوكيد والتشديد . وهذا الوجه جائز فى المنصوب والمرفوع أيضاً . وهو وجه دقيق حسن . وقرئ : برفع الأول وجزءه مع نصب الثانى ، وتخريجه على ما ذكرنا ﴿ منك ﴾ من جنسك وهم الشياطين ﴿ ومن تبعك منهم ﴾ من ذرية آدم . فإن قلت : ﴿ أجمعين ﴾ تأكيد لماذا ؟ قلت : لا يخلو أن يؤكد به الضمير فى منهم ، أو الكاف فى منك منع من تبعك . ومعناه : لا ملأنا جهنم من المتبعين والتابعين أجمعين ، لا أترك منهم أحداً . أو لا ملأنا من الشياطين ومن تبعهم من جميع الناس ، لا تفاوت فى ذلك بين ناس وناس بعد وجود الاتباع منهم من أولاد الأنبياء وغيرهم .

قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنَّهُ هُوَ الْإِلَٰهَ

ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلِتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾

(عليه من أجر) الضمير للقرآن أو للوحي (وما أنا من المتكلفين) من الذين يتصنعون ويتحلون بما ليسوا من أهله ، وما عرفتموني قط متصنعاً ولا مدعياً ما ليس عندي ، حتى أتجل النبوة وأتقول القرآن (إن هو إلا ذكر) من الله (للعالمين) للتقلين . أوحى إلى فأنا أبلغه . وعن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « للتكلف ثلاث علامات : ينازع من فوقه ، ويتعاطى ما لا ينال ، ويقول ما لا يعلم »^(١) ، (ولتعلمن نبأه) أى ما يأتىكم عند الموت ، أو يوم القيامة ، أو عند ظهور الإسلام وفشوه ، من صحة خبره ، وأنه الحق والصدق . وفيه تهديد .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة ص كان له بوزن كل جبل سخره الله لداود عشر حسنات وعصمه أن يصرت على ذنب صغير أو كبير »^(٢) .

(١) أخرجه الثعلبي من طريق محمد بن عون حدثنا محمد بن المصل حدثنا حيوة بن شريح عن أرطاة بن المنذر عن ضمرة بن حبيب عن سلمة بن نجبل مرفوعاً به . ورواه البيهقي في الشعب في الثالث والثلاثين من رواية بجة عن أرطاة قوله ورواه أبو نعيم عن وهب بن منبه قوله .
(٢) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدى من حديث أبي رضى الله عنه .

سورة الزمر

مكية ، إلا قوله (قل يا عبادي الذين أسرفوا ... الآية) وتسمى سورة الغرف

وهي خمس وسبعون آية . وقيل ثنتان وسبعون آية

[نزلت بعد سورة سبا]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ① إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ
الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَأَعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ② أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ
وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ
يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَآئِمٍ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ③
لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ
الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ④

(تنزيل الكتاب) قرئ بالرفع على أنه مبتدأ أخبر عنه بالظرف . أو خبر مبتدأ
محذوف والجار صلة التنزيل ، كما تقول : نزل من عند الله . أو غير صلة ، كقولك : هذا
الكتاب من فلان إلى فلان ، فهو على هذا خبر بعد خبر . أو خبر مبتدأ محذوف ، تقديره :
هذا تنزيل الكتاب ، هذا من الله ، أو حال من التنزيل عمل فيها معنى الإشارة ، وبالنصب على
إضمار فعل ، نحو : اقرأ ، والزمر . فإن قلت : ما المراد بالكتاب ؟ قلت : الظاهر على الوجه
الأول أنه القرآن ، وعلى الثاني : أنه السورة (مخلصاً له الدين) محضاً له الدين من الشرك
والرياء بالتوحيد وتصفية السر . وقرئ : الدين ، بالرفع . وحق من رفعه أن يقرأ مخلصاً
- بفتح اللام - كقوله تعالى (وأخلصوا دينهم لله) حتى يطابق قوله (ألا لله الدين الخالص)
والخالص والمخلص : واحد ، إلا أن يصف الدين بصفة صاحبه على الإسناد المجازي ، كقولهم :

شعر شاعر . وأما من جعل (مخلصاً) حالاً من العابد ، و (له الدين) مبتدأ وخبراً ، فقد جاء بإعراب يرجع به الكلام إلى قولك : لله الدين (ألا لله الدين الخالص) أى : هو الذى وجب اختصاصه بأن يخلص له الطاعة من كل شائبة كدر ، لاطلاعه على الغيوب والاسرار ، ولأنه الحقيق بذلك ، لخلوص نعمته عن استجرار المنفعة بها . وعن قتادة : الدين الخالص شهادة أن لا إله إلا الله . وعن الحسن : الإسلام (والذين اتخذوا) يحتمل المتخذين وهم الكفرة ، والمتخذين وهم الملائكة وعيسى واللات والعزى : عن ابن عباس رضى الله عنهما ، فالضمير فى (اتخذوا) على الأول راجع إلى الذين ، وعلى الثانى إلى المشركين ، ولم يجر ذكرهم لكونه مفهوماً ، والراجع إلى الذين محذوف والمعنى : والذين اتخذهم المشركون أولياء ، (والذين اتخذوا) فى موضع الرفع على الابتداء . فإن قلت : فالخبر ما هو ؟ قلت : هو على الأول إما (إن الله يحكم بينهم) أو ما أضمر من القول قبل قوله (ما نعبدكم) . وعلى الثانى : أن الله يحكم بينهم . فإن قلت : فإذا كان (إن الله يحكم بينهم) الخبر ، فما موضع القول المضمر ؟ قلت : يجوز أن يكون فى موضع الحال ، أى : قائلين ذلك . ويجوز أن يكون بدلاً من الصلة فلا يكون له محل ، كما أن المبدل منه كذلك . وقرأ ابن مسعود بإظهار القول (قالوا ما نعبدكم) وفى قراءة أبى : ما نعبدكم إلا لتقربونا على الخطاب ، حكاية لما خاطبوا به آلهتهم . وقرئ : نعبدكم ، بضم النون اتباعاً للعين كما تتبعها الهمزة فى الأمر ، والتنوين فى (عذاب أركض) والضمير فى (بينهم) لهم ولأوليائهم . والمعنى : أن الله يحكم بينهم بأنه يدخل الملائكة وعيسى الجنة ، ويدخلهم النار مع الحجارة التى نحتوها وعبدوها من دون الله يعذبهم بها حيث يجعلهم وإياها حسب جهنم . واختلافهم : أن الذين يعبدون موحدون وهم مشركون ، وأولئك يعادونهم ويلعنونهم ، وهم يرجون شفاعتهم وتقريبهم إلى الله زلفى . وقيل : كان المسلمون إذا قالوا لهم : من خلق السموات والأرض ، أقروا وقالوا : الله ، فإذا قالوا لهم : فما لكم تعبدون الأصنام ؟ قالوا : ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ؛ فالضمير فى (بينهم) عائد إليهم وإلى المسلمين . والمعنى : أن الله يحكم يوم القيامة بين المتنازعين من الفريقين . والمراد بمنع الهداية : منع اللطف تسجيلاً عليهم بأن لا لطف لهم ، وأنهم فى علم الله من الهالكين^(١) . وقرئ : كذاب وكذوب . وكذبهم : قولهم فى بعض من اتخذوا من دون الله أولياء : بنات الله ، ولذلك عقبه محتجاً عليهم بقوله (لو أراد الله أن يتخذ ولدأ لاصطفى ما

(١) قال محمود : « المراد بمنع الهداية منع اللطف تسجيلاً عليهم بأن لا يُلطف بهم ، وأنه فى علمه من الهالكين » قال أحمد : مذهب أهل السنة حل هذه الآية وأمثالها على الظاهر ، فإن متقدم أن معنى هداية الله تعالى اللزوم خلق الهدى فيه ، وسعى إضلاله للكافر إزاحته عن الهدى وخلق الكفر له ، ومع ذلك فيجوز عند أهل السنة أن يخلق الله تعالى للكافر لطفاً يؤمن عنده طائفاً ، خلافاً للقدورية . وغرضنا التنبيه على مذهب أهل الحق لا غيره .

يخلق ما يشاء) يعني: لو أراد اتخاذ الولد لامتنع ولم يصح، لكونه محالا؛ ولم يتأت إلا أن يصطفى من خلقه بعضه ويختصهم ويقربهم، كما يختص الرجل ولده ويقربه. وقد فعل ذلك بالملائكة فافتتنم به وغرّم اختصاصه إياهم، فزعمتم أنهم أولاده، جهلا منكم به وبحقيقته المخالفة لحقائق الأجسام والأعراض، كأنه قال: لو أراد اتخاذ الولد لم يزد على ما فعل من اصطفاء ما يشاء من خلقه وهم الملائكة، إلا أنكم لجهلكم به حسبتم اصطفاءهم اتخاذهم أولادا، ثم تماديتم في جهلكم وسفهكم فجعلتموهم بنات، فكنتن كذا بين كفارين متبالغين في الافتراء^(١) على الله وملائكته، غاليين^(٢) في الكفر، ثم قال (سبحانه) فزه ذاته عن أن يكون له أحد مانسبوا إليه من الأولاد والأولياء. ودلّ على ذلك بما ينافية، وهو أنه واحد، فلا يجوز أن يكون له صاحبة؛ لأنه لو كانت له صاحبة لسكانت من جنسه ولاجنس له؛ وإذا لم يتأت أن يكون له صاحبة لم يتأت أن يكون له ولد، وهو معنى قوله (أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة). وقهار غلاب لكل شيء، ومن الأشياء آلهتهم، فهو يغلبهم، فكيف يكونون له أولياء وشركاء؟

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾

ثم دلّ بخلق السموات والأرض، وتكوير كل واحد من اللّوين على الآخر، وتسخير النيران، وجريهما لأجل مسمى، وبث الناس على كثرة عددهم من نفس واحدة، وخلق الأنعام على أنه واحد لا يشارك، قهار لا يغالب. والتكوير: اللف واللى، يقال: كار العمامة على رأسه وكورها. وفيه أوجه، منها: أن الليل والنهار خلفه يذهب هذا ويغشى مكانه هذا، وإذا غشى مكانه فسكانما ألبسه ولف عليه كما يلف اللباس على اللابس. ومنه قول ذي الرمة في وصف السراب:

تَلَوَّى الثَّنَائِيَا بِأَحْقَمِهَا حَوَاشِيَهُ لَى الْمَلَأَ بِأَبْوَابِ التَّفَارِيحِ^(٣)

(١) قوله «متبالغين في الافتراء» لعله: متبالغين. (ع)

(٢) قوله «غاليين في الكفر» لعله: غاليين. (ع)

(٣)

فواضب القوم بالمهيرة العوج	وراكد الشمس أجاج نصب له
أطراف مطره بالخز منسوج	إذا تنازع حالا مجهل قذف
لى الملا بأبواب التفاريح	تلوى الثنايا بحقوقها حواشيه
أعراف أزهرتحت الريح متوج	كانه والرهاة الموت يركفه

لدى الرمة يصف السراب. وراكد الشمس: ما يتساقط منها على الأرض. والأجاج: صفة مبالغة، أى: كثير الأجاج، يقال: أجت النار أجيحا: اشتعلت، والحز: اشتد. وأج الظلم أجا: أسرع وله حفيف. وأج الأمر: اختلط. والأج: طير أبيض سريع الطيران يشبه النعام. وبرى السراب عند شدة الحر أبيض كأنه يسير، فيجوز =

ومنها أن كل واحد منهما يغيب الآخر إذا طرأ عليه ، فشبه في تعييبه إياه بشيء ظاهر لف عايه ماغيه عن مطامح الابصار . ومنها : أن هذا يكر على هذا كرورا متتابعاً ، فشبه ذلك بتتابع أكوار العمامة بعضها على أثر بعض (ألا هو العزيز) الغالب القادر على عقاب المصرين (الغفار) لذنوب التائبين ^(١) . أو الغالب الذي يقدر على أن يعاجلهم بالعقوبة وهو يحلم عنهم ويؤخرهم إلى أجل مسمى ، فسمى الحلم عنهم : مغفرة .

حَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَانزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَائِمٌ تُصِرُّونَ ^(٦)

فإن قلت : ما وجه قوله (ثم جعل منها زوجها) وما يعطيه من معنى التراخي ؟ قلت : هما آيتان ^(٢) من جملة الآيات التي عددها دالاً على وحدانيته وقدرته : تشيعب هذا الخلق الفات

== أنه من الأولين . ويجوز أنه منسوب للأخير ، لأنه يشبهه ، واللام للتوقيت ، والقواضب : السيوف القواطع . والمهرية : الخيل المنسوبة لمهر بن حيدان أبي قبيلة من اليمن ، خيلها أنجب الحبل . والعوج : جمع عوجاء نوع جيد منها أيضاً . والحالان : ارتفاع الأرض وانخفاضها . والمجهل : الموضع الذي يجهل المسافر . والقذف - كسب - : الذي يقذف ما فيه فلا أحد فيه . والمطرود : السراب المستوى ، شبه بالخر المنسوج في الاستواء واليباض . والثنايا : العقبات . والحقو : الحصر والازار ، وشده عليه استعارة لجانب العقبة ، وحواشي السراب : جوانبه . والملاء بالضم والمد : اسم جمع ملادة وهي الجلباب . والتفراج : الباب الصغير والثوب من الديباج . والرهاة - جمع رهو - : المكان المرتفع ، ويطلق على المنخفض أيضاً . وقيل : اسم موضع . والموت : الفقر . والرکض : ضرب الدابة بالرجل والضرب مطلقاً ، وهو هنا مجاز على طريق التصريحية . والأعراف : جمع عرف . وعرف الديك والغرس : أعلى شعر العنق وأعرف البحر والسيل : إذا تراكم موجه وارتفع كالأعراف ، والأزهر : السحاب الأبيض والماء الأبيض ، وهو الأنسب بكونه تحت الريح ، لأن ظاهر الأول يخالف قوله تعالى (أفلك سحاباً) والمنسوج : الذي تنتجه الريح وتسوقه حتى يقطر ، يقول : ورب راكد من الشمس ، يعنى السراب شديد الحر أو السير ، نصبت مستقبلاً لوقته سيوف قوى مع الخيل الجهاد إذا تجاذب المنخفض والمرتفع من الأرض الغفرة أطراف الآل وهو السراب ، وشبه إحاطة جوانبه وتراكمه في جوانب العقبة بـ"الجلباب في أبواب التفاريج" ، وتلوى : يحتمل أنه جواب ذا وأنه صفة لمطرود وجوانبها ، دل عليه ما قبلها وأسند إلى الثنايا لأنها سبب الانسواء ، ولي الملا : مفعول مطلق ، وأعراف : خبر كأنه ، والرهاة : جملة حالية ، وفاعل يركض إما ضمير الآل ، أو ضمير الرعاة ، لأنهما كأنهما يتضاربان . وروى : تطرده ، وفاعله ضمير الرعاة جزماً ، لأن الآل هو المطرود ، وبيت الكشف : يلوى الثنايا بأحقها . والحقو : جمه . أحق ، وأصل وزنه : أفعل .

(١) قال محمود : وأى لذنوب التائبين قال أحمد : الحق أنه تعالى غفار للتائبين ولمن يشاء من المصرين على مادون الشرك وقنوطهم من رحمة الله تعالى . ولقد قيد الزمخشري الآية بما ترى .

(٢) قال محمود : «فإن قلت : ما وجه العطف بـ"ثم" في قوله (ثم جعل) وأجاب بأنهما آيتان ... الخ» قال أحد إنما منعه من حمل ثم على التراخي في الوجود أنها وقعت بين خلق الذرية من آدم ، وخلق حواء منه ، وهو متقدم ==

للحصر من نفس آدم ، وخلق حواء من قصيره ؛ إلا أن إحداها جعلها الله عادة مستمرة ، والأخرى لم تجربها العادة ، ولم تخلق أثى غير حواء من قصيرى رجل ، فكانت أدخل في كونها آية ، وأجلب لعجب السامع ، فعطفها بـ ثم على الآية الأولى ، للدلالة على مباينتها لها فضلا ومزية ، وتراخيا عنها فيما يرجع إلى زيادة كونها آية ، فهو من التراخي في الحال والمنزلة ، لا من التراخي في الوجود . وقيل : ثم متعلق بمعنى واحدة ، كأنه قيل : خلقكم من نفس وحدث ، ثم شفعا الله بزواج . وقيل : أخرج ذرية آدم من ظهره كالذر ، ثم خلق بعد ذلك حواء (وأنزل لكم) وقضى لكم وقسم : لأن قضاياه وقسمه موصوفة بالنزول (من السماء ، حيث كتب في اللوح : كل كائن يكون . وقيل : لا تعيش الأنعام إلا بالنبات ، والنبات لا يقوم إلا بالماء . وقد أنزل الماء ، فكانه أنزلها . وقيل : خلقها في الجنة ثم أنزلها . (ثمانية أزواج) ذكرأ وأثنى من الإبل والبقر والضأن والمعز . والزواج : اسم لواحد معه آخر ، فإذا انفرد فهو فرد ووتر . قال الله تعالى : (فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى) . (خلقا من بعد خلق) حيوانا سويا ، من بعد عظام مكسوة لحا ، من بعد عظام عارية ، من بعد مضغ ، من بعد علق ، من بعد نطف . والظلمات الثلاث : البطن والرحم والمشيمة . وقيل : الصلب والرحم والبطن (ذلكم) الذى هذه أفعاله هو (الله ربكم ... فأنى تصرفون) فكيف يعدل بكم عن عبادته إلى عبادة غيره ؟

إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٧

(فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ) عن إيمانكم وإيمانكم المحتاجون إليه ، لا سضراركم بالكفر واستنفاعكم بالإيمان (ولا يرضى لعباده الكفر) رحمة لهم ؛ لأنه يوقعهم في الهلكة (وإن تشكروا يرضه لكم) أى يرض الشكر لكم ، لأنه سبب فوزكم وفلاحكم ؛ فإذا ما كره كفركم ولا رضى شكركم

== على الذرية فضلا عن كونه متراخيا عن خلق الذرية ، فلم يستقم حملها على تراخي الوجود لما جعلها في الوجه الآخر متعلقة بمعنى واحدة ، على تقدير : خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها ، يعنى : شفعا بزوجها ، فكانت منها على بابها لتراخي الوجود ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

(١) قال محمود : وإنما جعلها منزلة لأن قضاياه تعالى وقسمه موصوفة بالنزول ... الخ . قال أحد : ومن هذا الخط بعينه قول الرازي : . أسمة الآبال في صحابة . .

إلا لكم ولصالحكم^(١)، لا لأن منفعة ترجع إليه ؛ لأنه الغنى الذى لا يجوز عليه الحاجة . ولقد تمحل بعض الغواة ليثبت لله تعالى^(٢) ما انفاه عن ذاته من الرضا لعباده الكافر فقال : هذان العام الذى أريد به الخاص ، وما أراد إلا عباده الذين عناهم فى قوله (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) يريد المعصومين ، كقوله تعالى (عينا يشرب بها عباد الله) ، تعالى الله عما يقول الظالمون وقرئ (برضه) بضم الهاء بوصل وبغير وصل ، وبسكونها (خوله) أعطاه . قال أبو النجم :

أعطى فلم يَبْخُلْ وَلَمْ يُبْخَلْ كَوْمَ الذَّرَى مِنْ خَوْلِ الْمُخَوَّلِ^(٣)

وفى حقيقته وجهان ، أحدهما : جعله خائل مال ، من قولهم : هو خائل مال ، وغال مال : إذا كان متعهداً له حسن القيام به . ومنه : ماروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه كان

(١) حمل الزمخشري الرضا على الإرادة ، والعباد على العموم ... الخ قال أحد : إن المصر على هذا المعتقد على قلبه زين ، أوفى ميزان عقله غين ، أليس يدعى أوبدعى له أنه الخريت فى مغائر العبارات ، وبديع الزمان فى صناعة البديع ، فكيف نبا عن جادة الاجادة فهما ، وأعار منادى الخذاقة أذنا صما ، اللهم إلا أن يكون الهوى إذا تمكن أرى الباطل حقاً ، وغطى سنى مكشوف العبارة فسحقاً بحق . أليس مقتضى العرية فضلاً عن القوانين العقلية أن المشروط مرتب على الشرط ، لا يتصور وجود المشروط قبل الشرط عقلاً ، ولما ضيه واستقبال الشرط لغة وعقلاً ، واستقر باتفاق الفريقين أهل السنة وشيعة البدعة : أن إرادة الله تعالى لشكر عباده مثلاً مقدمة على وجود الشكر منهم ، لحيث أن كيف ساغ حل الرضا على الإرادة ، وقد جعل فى الآية مشروطاً وجزاء ، وجعل وقوع الشكر شرطاً ومجزئاً ، واللازم من ذلك عقلاً : تقدم المراد وهو الشكر ، على الإرادة وهى الرضا ، ولغة : تقدم المشروط على الشرط . والزمخشري أخص من قال : إن المشروط متى كان ماضياً محضاً لزمته الفاعل ، كقولك : إن تشكرنى فقد أكرمتك قبل ، وقد عريت الآية عن الحرفين المذكورين ، على أنه لا بد من تأويل يصحح الشرطية مع ذلك فإذا ثبت بطلان حمل الرضا على الإرادة عقلاً ونقل ، تعين الخامس المحمل الصحيح له ، وهو المجازاة على الشكر بما عهد أن يجازى به المرضى عنه من الثواب والكرامة ، فيكون معنى الآية - والله أعلم - : وإن تشكروا يجازكم على شكركم جزاء المرضى عنه ، ولا شك أن المجازاة مستقبلية بالنسبة إلى الشكر ، تجرى الشرط والجزاء على مقتضاها لغة ، وانتظم ذلك بمقتضى الأدلة العقلية على بطلان تقدم المراد على الإرادة عقلاً ، ومثل هذا يقدر فى قوله (ولا يرضى لعباده الكفر) أى لا يجازى غير الكافر مجازاة المفضوب عليه من الثكال والمعقوبة .

(٢) قوله « لينبت لله تعالى ... الخ » إنما يتم لو كان الرضا بمعنى الإرادة ، وهو مذهب المعتزلة . وعند أهل السنة : هو غيرها ، فكفر الكافر مراد غير مرضى ، وعند المعتزلة : غير مراد ولا مرضى . (ع)

(٣) الحمد لله الوهب المجزل أعطى فلم يبخل ولم يبخل

كوم الذرى من خول المخول

الوهاب : الوهاب . والمجزل : المكثر العطاء ، وبينه بقوله : أعطى السائلين فلم يبخل عليهم ، ولم يبخل : مشدد مبنى للجبول ، أى : لم يتم بالبخل . وقيل : هو توكيد . ويروى بناؤه للفاعل ، أى لم يجعل من أعطاهم بخلاء ، بل جعلهم كراماً . وكوم الذرى : نصب بأعطى ، أى : نوقا عظيماً السنام . والكوم : جمع كوما . والذرى : جمع ذروة . والمخول بالتشديد المعطى ، وهو الله عز وجل .

يتخول أصحابه بالموعظة^(١) والثاني : جعله يخول من خال يخول إذا اختال واقتخر، وفي معناه قول العرب :

• إِنَّ الْغَنَى طَوِيلُ الذِّلِّ مَيَّامٌ •

وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ۝٨

(ما كان يدعوا إليه) أى نسى الضر الذى كان يدعو الله إلى كشفه . وقيل : نسى ربه الذى كان يتضرع إليه ويبتهل إليه ، وما معنى من ، كقوله تعالى (وما خلق الذكر والأنثى) وقرئ : ليضل ، بفتح الباء وضمها ، بمعنى أن نتيجة جعله لله أندادا ضلاله عن سبيل الله أو إضلاله . والنتيجة : قد تكون غرضا فى الفعل ، وقد تكون غير غرض . وقوله (تمتع بكفرك) من باب الخذلان والتخلية ، كأنه قليل له : إذ قد آييت قبول ما أمرت به من الإيمان والطاعة ، فمن حقه ألا تؤمر به بعد ذلك ، وتؤمر بتركه : مبالغة فى خذلانه وتخليته وشأنه . لأنه لا مبالغة فى الخذلان ؛ لأن أشد من أن يبعث على عكس ما أمر به . ونظيره فى المعنى قوله (متاع قليل ثم ما أوام جهنم) .

أَمِنْ هُوَ قَنِيتٌ ءَإِنَّا لِلَّهِ لَسَاجِدٌ وَقَائِمًا يَنْحَذِرُ الْآخِرَةَ وَرَجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ

أُولَؤِا الْأَلْبَابِ ۝٩

قرئ . آمن هو قانت بالتخفيف على إدخال همزة الاستفهام على من ، وبالتشديد على إدخال دأمة عليه . ومن مبتدأ خبره محذوف ، تقديره : آمن هو قانت كثيره ، وإنما حذف لدلالة الكلام عليه ، وهو جرى ذكر الكافر قبله . وقوله بعده (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وقيل : معناه آمن هو قانت أفضل آمن هو كافر . أو أهذا أفضل آمن هو قانت على الاستفهام المتصل . والقانت : القائم بما يجب عليه من الطاعة . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : أفضل الصلاة طول القنوت ،^(٢) وهو القيام فيها . ومنه القنوت فى الوتر ؛ لأنه دعاء المصلى

(١) متفق عليه من حديث ابن مسعود وأتم منه .

(٢) أخرجه مسلم من طريق أبى الزبير عن جابر . ورواه الطحاوى من هذا الوجه بلفظ : طول القيام . وكذا

هو فى حديث عبدالله بن جعفر بلفظ «سئل أى الصلاة أفضل؟ قال : طول القيام» .

قائماً (ساجداً) حال . وقرئ : ساجد وقائم ، على أنه خبر بعد خبر ، والواو للجمع بين الصفتين . وقرئ : ويحذر عذاب الآخرة . وأراد بالذين يعلون : العاملين من علماء الديانة ، كأنه جعل من لا يعمل غير عالم . وفيه ازدراء عظيم بالذين يقتنون العلوم ، ثم لا يقتنون ويفتنون ، ثم يفتنون بالدنيا ، فهم عند الله جهلة ، حيث جعل القانتين هم العلماء ، ويجوز أن يرد على سبيل التشبيه ، أى : كما لا يستوى العاملون والجاهلون ، كذلك لا يستوى القانتون والعاصون . وقيل : نزلت في عمار بن ياسر رضى الله عنه وأبى حذيفة بن المغيرة المخزومي . وعن الحسن أنه سئل عن رجل يتأذى في المعاصي ويرجو ^(١) ، فقال : هذا تمنّ ، وإنما الرجاء قوله : وتلا هذه الآية . وقرئ : إنما يذكر ، بالإدغام .

قُلْ بَعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ^(١٠)

(في هذه الدنيا) متعلق بأحسنوا لا بحسنة ، معناه : الذين أحسنوا في هذه الدنيا فلهم حسنة في الآخرة . وهى دخول الجنة ، أى : حسنة غير مكتنه بالوصف . وقد علقه السدى بحسنة ، ففسر الحسنة بالصفة والعافية . فإن قلت : إذا علق الطرف بأحسنوا فإعرابه ظاهر ، فما معنى تعليقه بحسنة ؟ ولا يصح أن يقع صفة لها لتقدمه . قلت : هو صفة لها إذا تأخر ، فإذا تقدم كان بياناً لمساكنها فلم يخل التقدم بالعلق ، وإن لم يكن التعلق وصفاً ومعنى (وأرض الله واسعة) أن لا عذر للمفرطين في الإحسان البتة ؛ حتى إن اعتلوا بأوطانهم وبلادهم ، وأنهم لا يتمكنون فيها من التوفر على الإحسان ، وصرف الهمم إليه قيل لهم : فإن أرض الله واسعة وبلاده كثيرة ، فلا تجتمعوا مع العجز ، وتحولوا إلى بلاد آخر ، واقتدوا بالأنبياء والصالحين في مهاجرتهم إلى غير بلادهم ليزدادوا إحساناً إلى إحسانهم وطاعة إلى طاعتهم . وقيل : هو الذين كانوا في بلد المشركين فأمروا بالمهاجرة عنه ، كقوله تعالى (ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) وقيل : هى أرض الجنة . (والصابرون) الذين صبروا على مفارقة

(١) قال محمود : «مثل الحسن عن يتأذى على المعاصي ويرجو ... الخ» قال أحد : كلام الحسن رضى الله عنه صحيح غير منزل على كلام الزمخشري بقريته حاله ، فإن الحسن أراد أن المتأذى على المعصية مصراً عليها غير تائب إذا غلب رجاءه خوفاً كان متمنياً ، لأن الالتئيم بهذا أن يغلب خوفه رجاءه ، ولم يرد الحسن إقنات هذا من رحمة الله تعالى وحاشاه ، وأما قريته حال الزمخشري فإنها تم على ما أضره من إيراد هذه المقالة ، فإن معتقده أن مثل هذا العاصي وإن كان موحداً يجب خلوده في نار جهنم ، ولا معنى لرجائه ، ولنتيمته صحة هذا المعتقد أورد مقالة الحسن كالترام إلى تتميم هذه النزعة ، ومما قليل يقرر سمعه ما في أنباء هذه السورة .

أوطانهم وعشائرهم ، وعلى غيرها . من تجزع الغصص واحتمال البلايا في طاعة الله وازدياد الخير ﴿بغير حساب﴾ لا يحاسبون عليه . وقيل : بغير مكيال وغير ميزان يغرف لهم غرقا ، وهو تمثيل للتكثير . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : لا يهتدى إليه حساب الحساب ولا يعرف . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : « ينصب الله الموازين يوم القيامة فيؤق بأهل الصلاة فيوفون أجورهم بالموازين ، ويؤق بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين . ويؤق بأهل الحج فيوفون أجورهم بالموازين ، ويؤق بأهل البلاء ، فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان ، ويصب عليهم الأجر صباً ، قال الله تعالى (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل ، (١) » .

قُلْ إِنِّي أَمَرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۖ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ

أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ۖ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۖ (١٣)

قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ۖ (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ

الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ۖ (١٥)

﴿ قل إنى أمرت ﴾ بإخلاص الدين ﴿ وأمرت ﴾ بذلك لاجل ﴿ أن أكون أول المسلمين ﴾ أى متقدمهم وسابقهم فى الدنيا والآخرة . ولمنى : أن الإخلاص له السبق فى الدين ، فمن أخلص كان سابقاً . فإن قلت : كيف عطف (أمرت) على (أمرت) وهما واحد (١٢) ؟ قلت : ليسا بواحد لاختلاف جهتهما ، وذلك أن الأمر بالإخلاص وتكليفه شئ ، والأمر به ليحرز القائم به قصب السبق فى الدين شئ ، وإذا اختلف وجه الشئ . وصفته ينزل بذلك منزلة شئين مختلفين

(١) أخرجه الثعلبى وابن مردويه ، من حديث أنس رضى الله عنه . وإسناده ضعيف جداً . وأورده أبو نعيم فى الحلية فى ترجمة جابر بن زيد عن الطبرانى . وهو فى معجمه بإسناده إلى قتادة عن جابر بن زيد عن ابن عباس رضى الله عنهما مختصراً .

(٢) قال محمود : « فإن قلت : كيف عطف أمرت على أمرت وهما واحد ، وأجاب بأنه ليس بشكرير ... الخ » قال أحمد : ولقد أحسن فى تقوية هذا المعنى فى هذه الآية بقوله (فاعبدوا ما شئتم من) دونه فإن مقابلته بعدم المحصر توجب كونه للحصر ، والله أعلم . وما أحسن ما بين وحوه المبالغة فى وصف الله تعالى لفظاً وخسارته فقال : استأنف الجلة وصدرها بحرف التنبيه ، ووسط الفصل بين المبتدأ والخبر ، وعرف الخسران ونمته بالمبين ، وبين فى تسمية الشيطان طاغوتا وجوها ثلاثة من المبالغة ، أحدها : تسميته بالمصدر كأنه نفس الطغيان . الثانى : بناؤه على فعلوت وهى صيغة مبالغة كالرحوت ، وهى الرحمة الواسعة والملكوت وشبهه . الثالث : تقديم لامة على هينه ليفيد اختصاص الشيطان بهذه التسمية .

ولك أن تجعل اللام مزيدة مثلها في أردت لأن أفعل ، ولا تزداد إلا مع أن خاصة دون الاسم الصريح ، كأنها زيدت عوضاً من ترك الأصل إلى ما يقوم مقامه ، كما عوض السين في اسطاع عوضاً من ترك الأصل الذي هو اطوع ، والدليل على هذا الوجه بحيثه بغير لام في قوله (وأمرت أن أكون من المسلمين) (وأمرت أن أكون من المؤمنين) ، (وأمرت أن أكون أول من أسلم) وفي معناه أوجه : أن أكون أول من أسلم في زمانى ومن قومي ، لأنه أول من خالف دين آبائه وخلع الاصنام وحطمها . وأن أكون أول الذين دعوتهم إلى الإسلام إسلاماً . وأن أكون أول من دعا نفسه إلى ما دعا إليه غيره ، لا كون مقتدياً في قولى وفعلى جميعاً ، ولا تكون صفى الملوكة الذين يأمرون بما لا يفعلون ، وأن أفعل ما أستحق به الأولية من أعمال السابقين دلالة على السبب بالمسبب يعنى : أن الله أمرنى أن أخلص له الدين من الشرك والرياء وكل شوب ، بدليل العقل والوحى . فإن عصيت ربي بمخالفة الدليلين ، استوجبت عذابه فلا أعصيه ولا أتابع أمركم ، وذلك حين دعوته إلى دين آبائه . فإن قلت : ما معنى التكرير في قوله (قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين) وقوله (قل الله أعبد مخلصاً له ديني) قلت : ليس بتكرير ؛ لأن الأول إخبار بأنه مأمور من جهة الله بإحداث العبادة والإخلاص . والثاني : إخبار بأنه يختص الله وحده دون غيره بعبادته مخلصاً له دينه ، ولدلالته على ذلك قدم المعبود على فعل العبادة وأخره في الأول فالسكلام أولاً واقع في الفعل نفسه وإيجاده ، وثانياً فيعمل الفعل لأجله ، ولذلك رتب عليه قوله (فاعبدوا ما شئتم من دونه) والمراد بهذا الأمر الوارد على وجه التخيير : المبالغة في الخذلان والتخلية ، على ما حققت فيه القول مرتين . قل إن الكاملين في الخسران الجامعين لوجوه وأسبابه : هم (الذين خسروا أنفسهم) لوقوعها فيهلكة لاهلكة بعدها (و) خسروا (أهلهم) لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم ، وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهاباً لا رجوع بعده إليهم . وقيل : وخسروهم ^(١) لأنهم لم يدخلوا مدخل المؤمنين الذين لهم أهل في الجنة ، يعنى : وخسروا أهلهم الذين كانوا يكونون لهم لو آمنوا ، ولقد وصف خسراهم بغاية الفظاظة في قوله (ألا ذلك هو الخسران المبين) حيث استأنف الجملة وصدرها بحرف التنبيه ، ووسط الفصل بين المبتدأ والخبر ، وعرف الخسران ونعته بالمبين .

لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ

يَعْبُدُونَ فَاتَّقُوا

(١) قوله « وخسروهم » لعله « خسروهم » بدون واو . (ع)

(ومن تحتهم) أطباق من النار هي (ظلل) (آخرين) (ذلك) العذاب هو الذي يتوعد الله (به عباده) ويخوفهم ، ليجنبوا ما يوقعهم فيه (بعباد فائقون) ولا تنزعوا لما يوجب سخطي ، وهذه عظة من الله تعالى ونصيحة بالغة . وقرئ : يا عبادي .

وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطُّغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادَ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ

وَأُولَئِكَ هُمُ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٨)

(الطاغوت) فعلوت من الطغيان كالملكوت والرحوت ، إلا أن فيها قلباً بتقديم اللام على العين ، أطلقت على الشيطان أو الشياطين ، لكونها مصدراً وفيها مبالغات ، وهي التسمية بالمصدر ، كأن عين الشيطان طغيان ، وأن البناء بناء مبالغة ، فإن الرحوت : الرحمة الواسعة ، والمملكوت : الملك المبسوط ، والقلب وهو للاختصاص ، إذ لا تطلق على غير الشيطان ، والمراد بها ههنا الجمع . وقرئ : الطواغيت (أن يعبدوها) بدل من الطاغوت بدل الاشتغال (لهم البشري) هي البشارة بالثواب ، كقوله تعالى (لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة) الله عز وجل يبشرهم بذلك في وحيه على السنة رسله ، وتلقاهم الملائكة عند حضور الموت مبشرين ، وحين يحشرون . قال الله تعالى (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات) وأراد بعباده (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) الذين اجتنبوا وأنابوا لاغيرهم ، وإنما أراد بهم أن يكونوا مع الاجتناب والإنابة على هذه الصفة ، فوضع الظاهر موضع الضمير ، وأراد أن يكونوا نقاداً في الدين يميزون بين الحسن والأحسن والفاضل والأفضل ، فإذا اعترضهم أمران : واجب وندب ، اختاروا الواجب ، وكذلك المباح والندب ، حراساً على ما هو أقرب عند الله وأكثر ثواباً ، ويدخل تحته المذاهب واختيار أثبتها على السبك وأقواها عند السبر^(١) ، وأبينها دليلاً أو أماراً ، وأن لا تكون في مذهبك ، كما قال القائل :

* وَلَا تَكُنْ مِثْلَ صَيْرٍ قِيدَ فَانْقَادَا * (٢)

(١) قال محمود : «يدخل تحت هذا المذاهب واختيار أثبتها على السبك وأقواها عند السبر ... الخ» قال أحمد : لقد كنت أطمع لعله رجع عما ضمن هذا الكتاب من المذاهب الرديئة والمعتقدات الفاسدة ، حتى حققت من كلامه هذا أن ذلك التصميم كان متمكناً من فؤاده الصميم ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

(٢) شعر وكن في أمور الدين مجتهداً ولا تكن مثل غير قيد فانقاداً

للزنجشري . تشهير الثياب عن الساعد : كناية عن ترك الكسل ، ثم قال : واجتهد في أحكام الدين ولا تقلد غيرك ، فتكون مثل حمار قاده الشخص فانقاد وطاوعه أينما يوجهه . ويحتمل أن المعنى : اجتهد في العمل ولا تطع الشيطان .

يريد المقلد ، وقيل : يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن ، وقيل : يستمعون أوامر الله فيتبعون أحسنها ، نحو القصاص والعفو ، والانتصار والإغضاء ، والإبداء والإخفاء لقوله تعالى (وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى) ، (وإن تحفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) وعن ابن عباس رضى الله عنهما : هو الرجل يجلس مع القوم فيسمع الحديث فيه محاسن ومساو ، فيحدث بأحسن ما سمع ويكف عما سواه . ومن الوقفة من يقف على : فبشر عبادى ، ويبتدى : الذين يستمعون ، يرفعه على الابتداء ، وخبره (أولئك) .

أَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ①٩

أصل الكلام : أمتن حق عليه كلبة العذاب فأنت تنقذه ، جملة شرطية دخل عليها همزة الإنكار والفاء فاء الجزاء ، ثم دخلت الفاء التي في أولها للعطف على محذوف يدل عليه الخطاب ، تقديره : أنت مالك أمرهم ، فمن حق عليه العذاب فأنت تنقذه ، والهمزة الثانية هي الأولى ، كثرت لتوكيد معنى الإنكار والاستبعاد ، ووضع (من في النار) موضع الضمير ، فالآية على هذا جملة واحدة . ووجه آخر : وهو أن تكون الآية جملتين : أمتن حق عليه العذاب فأنت تخلصه ؟ فأنت تنقذ من في النار ؟ وإنما جاز حذف : فأنت تخلصه ؛ لأن (أفأنت تنقذ) يدل عليه : نزل استحقاقهم العذاب وهم في الدنيا منزلة دخولهم النار ، حتى نزل اجتهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذه نفسه في دعائهم إلى الإيمان : منزلة إنقاذهم من النار . وقوله (أفأنت تنقذ) يفيد أن الله تعالى هو الذى يقدر على الإنقاذ من النار وحده ، لا يقدر على ذلك أحد غيره ، فكما لا تقدر أنت أن تنقذ الداخل في النار من النار ، لا تقدر أن تخلصه مما هو فيه من استحقاق العذاب بتحصيل الإيمان فيه .

لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبُّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَةٌ تَجْرَى مِنْ

تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ②٠

(غرف من فوقها غرف) علالي بعضها فوق بعض . فإن قلت : ما معنى قوله (مبنية) ؟ قلت : معناه - والله أعلم - : أنها بنيت بناء المنازل التي على الأرض وسويت تسويتها (تجرى من تحتها الأنهار) كما تجرى من تحت المنازل ، من غير تفاوت بين العلو والسفل (وعد الله) مصدر مؤكد ؛ لأن قوله لهم غرف في معنى ؛ وعدم الله ذلك .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهْبِجُ قَتَرَاهُ مُمْضِرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا

لِأُولِي الْأَلْبَابِ ②١

(أنزل من السماء ماء) هو المطر . وقيل : كل ماء في الأرض فهو من السماء ينزل منها إلى الصخرة ، ثم يقسمه الله (فلسلكه) فأدخله ونظمه (ينابيع في الأرض) عيوناً ومسالك ومجاري كالعروق في الأجساد (مختلفاً ألوانه) هيناته من خضرة وحمرة وصفرة وبياض وغير ذلك ، وأصنافه من بر وشعير وسمسم وغيرها (يهيج) يتم جفافه ، عن الأصمعي ؛ لأنه إذا تم جفافه حان له أن يثور عن منابته ويذهب (حطاماً) فتاتاً ودريناً^(١) (إن في ذلك لذكرى) لتذكيراً وتنبهاً ، على أنه لا بد من صانع حكيم ، وأن ذلك كائن عن تقدير وتدير ، لاعتن تطويل وإهمال . ويجوز أن يكون مثلاً للدنيا ، كقوله تعالى (إنما مثل الحياة الدنيا) ، (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا) . وقرئ : مصفاً .

أَقْنِ شَرَحَ اللَّهِ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ قَوْلٌ لِلْقِسْمَةِ
قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَوْ لِيُكَفِّرَ فِي صَلَالٍ مُبِينٍ (٢٢)

(أقن) عرف الله أنه من أهل اللطف فلطف به حتى انشرح صدره للإسلام ورغب فيه وقبله كمن لا لطف له فهو حرج الصدر قاسى القلب ، ونور الله : هو لطفه ، وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية فقبل يا رسول الله : كيف انشرح الصدر ؟ قال : إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح .^(٢) فقبل : يا رسول الله ، فما علامة ذلك ؟ قال : الإجابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والتأهب للوث قبل نزول الموت ، وهو نظير قوله : (أمن هو قانت) في حذف الخبر (من ذكر الله) من أجل ذكره ، أى : إذا ذكر الله عندهم أو آياته اشتهأوا وازدادت قلوبهم قساوة ، كقوله تعالى (فزادتهم رجساً إلى رجسهم) وقرئ : عن ذكر الله . فإن قلت : ما الفرق بين من وعن في هذا ؟ (قلت) : إذا قلت : قسا قلبه من ذكر الله : فالمعنى ما ذكرت ، من أن القسوة من أجل الذكر وبسببه ، وإذا قلت : عن ذكر الله ، فالمعنى : غلظ عن قبول الذكر وجفا عنه . ونظيره : سقاء من العيمة ، أى من أجل عطشه . وسقاء عن العيمة : إذا أرواه حتى أبعدته عن العطش .

اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ

(١) قوله «فتاتاً ودريناً» في الصحاح «الدرين» : خطام المرعى إذا قدم ، وهو مايل من الحميش . (ع)

(٢) أخرجه التلبي والحاكم والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود . وفيه أبو فروة الراوى فيه كلام . ورواه الترمذى المحكم في النوادر في الأصل السادس والثمانين . وفي إسناده إبراهيم بن (٥) وهو ضعيف .

يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ
مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾

عن ابن مسعود رضى الله عنه : أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ملوا ملة ، فقالوا
له : حدثنا فنزلت ، وإيقاع اسم الله مبتدأ وبناء (نزل) عليه : فيه تفخيم لاحسن الحديث ،
ورفع منه ، واستشهاد على حسنه ، وتأكيده لاستناده إلى الله وأنه من عنده ، وأن مثله لا يجوز
أن يصدر إلا عنه ، وتنبه على أنه وحى معجز مبين لسائر الأحاديث . و (كتابا) بدل من
أحسن الحديث . ويحتمل أن يكون حالا منه (ومتشابه) مطلق في مشابهة بعضه بعضا ، فكان
متناولا لتشابه معانيه في الصحة والإحكام ، والبناء على الحق والصدق ومنفعة الخلق ، وتناسب
ألفاظه وتناسفها في التخيير والإصابة ، وتجاوب نظمه وتأليفه في الإعجاز والتبكيك ، ويجوز
أن يكون (مثاني) بيانا لكونه متشابه : لأن القصص المكررة لا تكون إلا متشابهة . والمثاني
جمع مثنى بمعنى مرّد ومكرّر . ولما ثنى من قصصه وأنبأته ، وأحكامه ، وأوامره ونواهيه ، ووعده
ووعيده ، ومواعظه . وقيل : لأنه يثنى في التلاوة ، فلا يمل كما جاء في وصفه لا يتفه ولا يتشان ^(١)
ولا يخلق على كثرة الرد . ويجوز أن يكون جمع مثنى مفعول ، من التثنية بمعنى التكرير . والإعادة
كما كان قوله تعالى (ثم ارجع البصر كرتين) بمعنى كرتة بعد كرتة ، وكذلك : لبيك وسعديك ،
وحنائيك . فإن قلت : كيف وصف الواحد بالجمع ؟ قلت : إنما صح ذلك لأن الكتاب جملة
ذات تفاصيل ، وتفاصيل الشيء هي جملة لا غير . ألا تراك تقول : القرآن أسباع وأخماس ،
وسور وآيات ، وكذلك تقول : أفاصيل وأحكام ومواعظ ومكررات ، ونظيره قولك : الإنسان
عظام وعروق وأعصاب ، إلا أنك تركت الموصوف إلى الصفة : وأصله : كتابا متشابهة فصولا
مثاني . ويجوز أن يكون كقولك : برمة أعشار ، وثوب أخلاق . ويجوز أن لا يكون مثاني صفة ،
ويكون منتصبا على التمييز من متشابهها ، كما تقول : رأيت رجلا حسنا شمائل ، والمعنى : متشابهة
مثانيه . فإن قلت : ما فائدة التثنية والتكرير ؟ قلت : النفوس أنفوس عن حديث الوعد والنصيحة ، فلم
يكرر عليها عودا عن بدء لم يرسخ فيها ولم يعمل عمله ، ومن ثم كانت عادة رسول الله صلى الله
عليه وسلم أن يكرر عليهم ما كان يعظ به وينصح ثلاث مرات وسبعا ، ^(٢) ليركزه في قلوبهم

(١) قوله « لا يتفه ولا يتشان » في الصحاح « التافه » : الحفير اليسير : وفيه تشان القربة : أخلفت ، وتشان

الجلد : يبس وتشنج . (ع)

(٢) لم آخذه . وفي البخاري عن أنس رضى الله عنه « كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا - الحديث » وزاد أحمد
« وكان يستأذن ثلاثا » .

ويغرسه في صدورهم . أقشعر الجلد : إذا تقبض تقبضا شديدا ، وتركبه من حروف القشع وهو الأديم اليابس ، مضموما إليها حرف رابع وهو الراء ، ليكون رباعيا ودالا على معنى زائد . يقال : أقشعر جلده من الخوف وقف شعره ، ^(١) وهو مثل في شدة الخوف ، فيجوز أن يريد به الله سبحانه التمثيل ، تصويراً لإفراط خشيتهم ، وأن يريد التحقيق . والمعنى : أنهم إذا سمعوا بالقرآن وآيات وعيده : أصابته خشية تقشعر منها جلودهم ، ثم إذا ذكروا الله ورحمته وجوده بالمغفرة : لانت جلودهم وقلوبهم وزال عنها ما كان بها من الخشية والقشعريرة . فإن قلت : ما وجه تعدية دلان ، بإلى ؟ قلت : ضمن معنى فعل متعدداً بإلى ، كأنه قيل : سكنت . أو أطمأنت إلى ذكر الله لينة غير متقبضة ، راجية غير خاشية . فإن قلت : لم اقتصر على ذكر الله من غير ذكر الرحمة ؟ قلت : لأن أصل أمره الرحمة والرافة ، ورحمته هي سابقة غضبه ، فلا صلة رحمته إذا ذكر لم يخطر بالبال قبل كل شيء من صفاته إلا كونه رؤفاً رحيماً . فإن قلت : لم ذكرت الجلود وحدها أولاً ، ثم قرنت بها القلوب ثانياً ؟ قلت : إذا ذكرت الخشية التي محلها القلوب ، فقد ذكرت القلوب ، فكانه قيل : تقشعر جلودهم من آيات الوعيد ، وتخشى قلوبهم في أول وهلة ، فإذا ذكروا الله ومبني أمره على الرأفة والرحمة : استبدلوا بالخشية رجاء في قلوبهم ، وبالقشعريرة لبناً في جلودهم ^(٢) (ذلك) إشارة إلى الكتاب ، وهو (هدى الله يهدي به) يوفق به من يشاء ، يعني : عباده المتقين ، حتى يخشوا تلك الخشية ويرجوا ذلك الرجاء ، كما قال : هدى للستين ^(٣) (ومن يضل الله) ومن يخذله من الفساق ^(٤) والفجرة ^(٥) (فأله من هاد) أو ذلك السكائن من الخشية والرجاء هدى الله ، أى : أثر هدايه وهو لطفه ، فسأله هدى لانه حاصل بالهدى (يهدى به) بهذا الأثر من يشاء من عباده ، يعني : من صحب أولئك ورآهم خاشعين راجين ، فكان ذلك مرغبا لهم في الاقتداء بسيرتهم وسلوك طريقهم (ومن يضل الله) : ومن لم يؤثر فيه ألطافه لقسوة قلبه وإصراره على فجوره ، (فأله من هاد) من مؤثر فيه بشيء قط .

أَقْنُ بَتْنِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَاِذَا فَعَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِلْعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

(١) قوله «وقف شعره» أى : قام من الفزع ، كذا في الصحاح . (ع)

(٢) قوله «ومن يضل الله» تأويل الضلال بذلك مبنى على مذهب المعتزلة أن الله لا يخلق الشر . وعند

أهل السنة : أنه يخلقه كالخير ، فالاضلال : خلق الضلال في القلب . (ع)

يقال : اتقاء بدرقته : استقبله بها فوقها بنفسه إياه واتقاء يده . وتقديره : ﴿ أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب ﴾ كمن أمن العذاب ، لحذف الخبر كما حذف في نظائره : وسوء العذاب : شدته . ومعناه : أن الإنسان إذا لم يخف من المخاوف استقبله يده ، وطلب أن يقي بها وجهه ، لأنه أعز أعضائه عليه والذي يلقي في النار يلقي مغلوله يده إلى عنقه ، فلا يتبها له أن يتقى النار إلا بوجهه الذي كان يتقى المخاوف بغيره . وقاية له ومحاماة عليه . وقيل : المراد بالوجه الجملة ، وقيل : نزلت في أبي جهل . وقال لهم خزنة النار ﴿ ذوقوا ﴾ وبال ﴿ ما كنتم تكسبون من حيث لا يشعرون ﴾ من الجهة التي لا يحتسبون ، ولا يخطر ببالهم أن الشر يأتيهم منها ، بينما هم آمنون رافهون إذ فوجئوا من ما منهم . والحزى : الذل والصغار ، كالمسخ والخسف والقتل والجلاء ، وما أشبه ذلك من نكال الله .

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾

قُرْءَانَا عَرَبِيًّا غَيْرِ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾

﴿ قرأنا عربيا ﴾ حال مؤكدة كقولك : جاني زيد رجلا صالحا وإنسانا عاقلا . ويجوز أن ينتصب على المدح ﴿ غير ذي عوج ﴾ مستقيا برئاً من التناقض والاختلاف . فإن قلت : فهلا قيل : مستقيا : أو غير معوج ؟ قلت : فيه فائدتان ، إحداهما : نفي أن يكون فيه عوج قط ، كما قال : ﴿ ولم يجعل له عوجا ﴾ والثانية : أن لفظ العوج مختص بالمعاني دون الأعيان . وقيل : المراد بالعوج : الشك واللبس . وأنشد :

وَقَدْ أَتَاكَ يَقِينٌ غَيْرُ ذِي عِوَجٍ مِّنَ الْإِلَهِ وَقَوْلٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ^(١)

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ

يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾

واضرب لقومك مثلا ، وقل لهم : ما تقولون في رجل من المالك قد اشترك فيه شركاء بينهم

(١) قال محمود : « معناه كمن هو آمن ، لحذف الخبر أسوة أمثاله ... الخ » قال أحد : الملقى في النار والعباد بالله ، لم يقصد الاتقاء بوجهه ، ولكنه لم يجد ما يتقى به النار غير وجهه ، ولو وجد لفعل ، فلما لقيها بوجهه كانت حاله حال المتقى بوجهه ، فبعد عن ذلك بالاتقاء من باب المجاز التمثيل ، والله أعلم .

(٢) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمراد باليقين والقول : القرآن . أو اليقين : الأسرار ، والقول : القرآن . أو اليقين : القرآن ، والقول : ما عداه من الأوامر والنواهي ، و« من الإله » متعلق بأتاك . والمعنى : أن ذاك من الشك واللبس ، ومن الكذب ؛ فالعوج : استعارة تعريحية .

اختلاف وتنازع: كل واحد منهم يدعى أنه عبده، فهم يتجاذبون ويتعاورونه في مهن شتى ومشاده، وإذا عنت له حاجة تدافعوه، فهو متحير في أمره سادر، ^(١) قد تشعبت الهموم قلبه وتوزعت أفسكاره، لا يدري أيهم يرضى بخدمته؟ وعلى أيهم يعتمد في حاجاته. وفي آخر: قد سلم للمالك واحد وخلص له، فهو معشوق لما لزمه من خدمته، معتمد عليه فيما يصلحه، فهم واحد وقلبه مجتمع، أي هذين العبدین أحسن حالا وأجل شأنا؟ والمراد: تمثيل حال من ثبتت آلهة شتى، وما يلزمه على قضية مذهبه من أن يدعى كل واحد منهم عبوديته، ويتشاكسوا في ذلك ويتغالبا، كما قال تعالى (ولعلا بعضهم على بعض) ويبقى هو متحيراً ضائعاً لا يدري أيهم يعبد؟ وعلى ربوبية أيهم يعتمد؟ وعن يطلب رزقه؟ وعن يلتمس رفقه؟ فهمه شعاع، ^(٢) وقلبه أوزاع، وحال من لم يثبت إلا إلهاً واحداً، فهو قائم بما كلفه، عارف بما أرضاه وما أسخطه، متفضل عليه في عاجله، مؤمل للثواب في آجله. و(فيه) صلة شركاء. كما تقول: اشتركوا فيه. والتشاكس والتشاخص: الاختلاف، تقول: تشاكست أحواله، وتشاخست أسنانه (سالمًا لرجل) خالصا. وقرئ: سلما، بفتح الفاء والعين، وفتح الفاء وكسرها مع سكون العين، وهى مصادر سلم. والمعنى: ذا سلامة لرجل، أى: ذا خلوص له من الشركة، من قولهم: سلت له الضيعة. وقرئ بالرفع على الابتداء، أى: وهناك رجل سالم لرجل، وإنما جعله رجلاً ليكون أفطن لما شق به أو سعد، فإن المرأة والصبي قد يغفلان عن ذلك (هل يستويان مثلاً) هل يستويان: صفة على التمييز. والمعنى: هل يستوى صفتاهما وحالاهما، وإنما اقتصر في التمييز على الواحد لبيان الجنس. وقرئ: مثلين، كقوله تعالى (وأكثر أموالا وأولادا) مع قوله (أشد منهم قوة) ويجوز فيمن قرأ: مثلين، أن يكون الضمير في (يستويان) للمثلين، لأن التقدير: مثل رجل ومثل رجل. والمعنى: هل يستويان فيما يرجع إلى الوصفية، كما تقول: كفى بهما رجلين (الحمد لله) الواحد الذى لا شريك له دون كل معبود سواه، أى: يجب أن يكون الحمد متوجهاً إليه وحده والعبادة، فقد ثبت أنه لا إله إلا هو (بل أكثرهم لا يعلمون) فيشركون به غيره.

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ فَتَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾

(١) قوله «في أمره سادر» في الصحاح «السادر»: المتحير. (ع)

(٢) قوله «فهو شعاع... الخ» بالفتح أى متفرق. وقولهم: بها أوزاع من الناس، أى: جماعات كذا في الصحاح. (ع)

كانوا يتربعون برسول الله صلى الله عليه وسلم موته ، فأخبر أن الموت يعمهم ، فلا معنى للتربع ، وشماتة الباقي بالفاني . وعن قتادة : نعى إلى نبيه نفسه ، ونعى إليكم أنفسكم : (١) وقرئ : مائت ومائتون . (٢) والفرق بين المئيت والمائت : أن المئيت صفة لازمة كالسيد . وأما المائت ، فصفة حادثة . تقول : زيد مائت غدا ، كما تقول : سائد غدا ، أى سيموت وسيسود . وإذا قلت : زيد مئيت ، فكما تقول : حتى في تقيضه ، فيما يرجع إلى اللزوم والثبوت . والمعنى في قوله ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ : إنك وإياهم ، وإن كنتم أحياء فأنتم في عداد الموتى ؛ لأن ما هو كائن فكأن قد كان ﴿ ثم إنكم ﴾ ثم إنك وإياهم ، فغلب ضمير المخاطب على ضمير الغيب ﴿ تختصمون ﴾ فتحجج أنت عليهم بأنك بلغت فكذبوا ، فاجتهدت في الدعوة فلجوا في العناد ، ويعتذرون بما لا طائل تحته ، تقول الاتباع : أطعنا سادتنا وكبراءنا ، وتقول السادات : أغوتنا الشياطين وآباؤنا الأقدمون ؛ وقد حمل على اختصاص الجميع وأن الكفار يخاصم بعضهم بعضا ، حتى يقال لهم : لا تختصموا لدى : والمؤمنون الكافرين ييكتونهم بالحجج ، وأهل القبلة يكون بينهم الخصام . قال عبد الله بن عمر : لقد عشنا برهة من دهرنا ونحن نرى أن هذه الآية أنزلت فينا وفي أهل الكتاب ؟ قلنا : كيف تختصم ونينا واحد وديننا واحد وكتابنا واحد ؟ حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف ، ففرفت أنها نزلت فينا (٣) وقال أبو سعيد الخدري : كنا نقول : ربنا واحد ونينا واحد وديننا واحد ، فما هذه الخصومة ؟ فلما كان يوم صفين وشد بعضنا على بعض بالسيوف ، قلنا : نعم هو هذا (٤) . وعن إبراهيم النخعي قالت الصحابة : ما خصومتنا ونحن إخوان ؟ فلما قتل عثمان رضى الله عنه قالوا : هذه خصومتنا (٥) . وعن أبي العالية : نزلت في أهل القبلة . والوجه الذى يدل عليه كلام الله هو ما قدمت أولا . ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿ فمن أظلم ممن كذب على الله ﴾ وقوله تعالى ﴿ والذى جاء بالصدق وصدق به ﴾ وما هو إلا بيان وتفسير للذين يكون بينهم الخصومة ﴿ كذب على الله ﴾ اقترى عليه بإضافة

(١) قوله « ونعى إليكم أنفسكم » لعله : إليهم أنفسهم . (ع)

(٢) قال محمود : « قرئ : إنك ميت ومائت ... الخ » ، قال أحد : فاستعمال ميت مجاز ، إذ الخطاب مع الأحياء واستعمال مائت حقيقة إذ لا يعطى اسم الفاعل وجود الفعل حال الخطاب . وتفسيره قوله تعالى ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها ﴾ يعنى : توفى الموت (والتي لم تمت في منامها) أى يتوفى ما حين المنام ، أى : يبعث للزوم بالموت ، كقوله (وهو الذى يتوفاكم بالليل) فيمسك الأنفس التى قضى عليها الموت الحقيقى ، أى : لا يردمها فى وقتها حية (ويرسل الأخرى) أى النائمة إلى الأجل الذى ساء ، أى قدره لموتها الحقيقى . هذا أوضح ما قيل فى تفسير الآية ، والله أعلم .

(٣) أخرجه الحاكم من رواية القاسم بن عوف عن ابن عمر رضى الله عنهما

(٤) ذكره الثعلبي . قال : وروى خلف بن خليفة عن أبي هاشم عن الخدري .

(٥) أخرجه عبد الرزاق والطبري والثعلبي من رواية عبد الله بن عوف عن إبراهيم بهذا .

الولد والشريك إليه (وكذب بالصدق) بالامر الذي هو الصدق بعينه ، وهو ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم (إذ جاءه) فاجأه بالكذب لما سمع به من غير وقفة ، لإعمال روية واهتمام بتمييز بين حق وباطل ، كما يفعل أهل النصفة فيما يسمعون (مثنى للكافرين) أى هؤلاء الذين كذبوا على الله وكذبوا بالصدق ، واللام في (الكافرين) إشارة إليهم .

وَالَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهم أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾

(والذى جاء بالصدق وصدق به) هو رسول الله صلى الله عليه وسلم : جاء بالصدق وآمن به ، وأراد به إياه ومن تبعه ، كما أراد بموسى إياه وقومه في قوله (ولقد آتينا موسى الكتاب لعلمهم يهتدون) فلذلك قال (أولئك هم المتقون) إلا أن هذا في الصفة وذاك في الاسم . ويجوز أن يريد : والفوج أو الفريق الذى جاء بالصدق وصدق به ، وهم الرسول الذى جاء بالصدق ، وصحابته الذين صدقوا به . وفي قراءة ابن مسعود : والذين جاؤا بالصدق وصدقوا به . وقرئ : وصدق به . بالتخفيف ، أى : صدق به الناس ولم يكذبهم به ، يعنى : أداه إليهم كما نزل عليه من غير تحريف . وقيل : صار صادقا به ، أى : بسببه : لأن القرآن معجزة ، والمعجزة تصديق من الحكيم الذى لا يفعل القبيح لمن يجريها على يده ، ولا يجوز أن يصدق إلا الصادق ، فيصير لذلك صادقا بالمعجزة ، وقرئ : وصدق به . فإن قلت : مامعنى إضافة الاسماء والاحسن إلى الذى عملوا ، ومامعنى التفضيل فهما ؟ قلت : أما الإضافة فاهى من إضافة أفعل إلى الجملة التى يفضل عليها ، ولكن من إضافة الشيء إلى ما هو بعضه من غير تفضيل ، كقولك : الأشج أعدل بنى مروان . وأما التفضيل فليدان بأن السيئ الذى يفرط منهم من الصغائر والزلات المكفرة ، هو عندهم الأسوأ لاستعظامهم المعصية ، والحسن الذى يعملونه هو عند الله الاحسن ، لحسن إخلاصهم فيه ؛ فلذلك ذكر سيئهم بالأسوأ وحسنهم بالاحسن . وقرئ : أسوأ الذى عملوا جمع سوء .

أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴿٣٧﴾

(أليس الله بكاف عبده) أدخلت همزة الإنكار على كلمة النبي، فأفيد معنى إثبات الكفاية وتقريرها. وقرئ: بكاف عبده، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبكاف عباده وهم الأنبياء؛ وذلك أن قريشا قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إنا نخاف أن نخذلك آلهتنا، وإنا نخشى عليك معزتها^(١) لعبيك إياها. ويروى: أنه بعث خالدًا إلى العزى ليكسرها، فقال له سادنها: أحذركما يا خالد، إن لها لشدة لا يقوم لها شيء، فعمد خالد إليها فهشم أنفها. فقال الله عز وجل: أليس الله بكاف نبهه أن يعصمه من كل سوء ويدفع عنه كل بلاء في مواطن الخوف. وفي هذا تهكم بهم؛ لأنهم خوفوه ما لا يقدر على نفع ولا ضرر. أو أليس الله بكاف أنبياءه ولقد قالت أمهم نحو ذلك، فكفاهم الله وذلك قول قوم هود (إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) ويجوز أن يريد: العبد والعباد على الإطلاق، لأنه كافهم في الشدائد وكافل مصالحهم. وقرئ: بكافي عباده، على الإضافة. وبكافي عباده، ويكافي؛ يحتمل أن يكون غير مهموز مفاعلة من الكفاية، كقولك: يجازي في يجزي، وهو أبلغ من كفى، لبناؤه على لفظ المبالغة. والمباراة: أن يكون مهموزًا، من المكافأة وهي المجازاة، لما تقدم من قوله (ويجزيه أجرهم)، (بالذين من دونه) أراد: الأوثان التي اتخذوها آلهة من دونه (بعزير) بغالب منيع (ذى انتقام) ينتقم من أعدائه، وفيه وعيد لقريش ووعد للمؤمنين بأنه ينتقم لهم منهم، وينصرهم عليهم.

وَلَقَدْ سَأَلْتُهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨)

قرئ: كاشفات ضره، وممسكات رحمته بالتنوين على الأصل، وبالإضافة للتخفيف. فإن قلت: لم فرض المسئلة في نفسه دونهم؟ قلت: لأنهم خوفوه معزة الأوثان وتخيلها، فأمر بأن يقرروهم أولاً بأن خالق العالم هو الله وحده. ثم يقول لهم بعد التقرير: فإذا أرادني خالق العالم الذي أقررتكم به بضر أو فقر أو غير ذلك من النوازل. أو برحمة من صحة أو غنى أو نحوهما، هل هؤلاء اللاتي خوفتموني إياهن كاشفات غنى ضره أو ممسكات رحمته، حتى إذا ألقيهم الحجر وقطعهم حتى لا ينجسوا بيئت شقة قال (حسبي الله) كافيا لمعزة أوثانكم (عليه يتوكل المتوكلون) وفيه تهكم. ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم سألهم فسكتوا، فقل (قل

(١) قوله «معزتها» أي: إثمها. أفاده الصحاح. (ع)

حسبي الله) فإن قلت : كاشفات ، وممسكات ، على التانيث بعد قوله تعالى (ويخوفونك بالذين من دونه) ؟ قلت : أنهن وكن إنانا وهن اللات والعزى ومناة . قال الله تعالى (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى) ليضعفها ويعجزها زيادة تضعيف وتعجز عما طالبهم به من كشف الضر وإمساك الرحمة ؛ لأن الأنوثة من باب اللين والرخاوة ، كما أن الذكورة من باب الشدة والصلابة ، كأنه قال : الإناث اللاتي هن اللات والعزى ومناة أضعف مما تدعون لهن وأعجز . وفيه تهكم أيضا .

قُلْ يٰٓقَوْمِ اَعْمَلُوا عَلٰى مَكَاتَتِكُمْ اِنِّىْ عَمِلْتُ فَسُوْفَ تَعْلَمُوْنَ ﴿٣٩﴾
مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾

(على مكاتتكم) على حالكم التي أنتم عليها وجهتكم من العداوة التي تمسكتكم منها . والمكاته بمعنى المكان ، فاستعيرت عن العين للمعنى كما يستعار هنا . وحيث للزمان ، وهما للكان . فإن قلت : حق الكلام : فإنى عامل على مكاتتى . فلم حذف ؟ قلت : للاختصار ، ولما فيه من زيادة الوعيد ، والإيدان بأن حاله لا تقف ، وتزداد كل يوم قوة وشدة ، لأن الله ناصره ومعينه ومظهره على الدين كله . ألا ترى إلى قوله (فسوف تعلمون من يأتيه) كيف توعدهم بكونه منصورا عليهم غالبا عليهم في الدنيا والآخرة ، لأنهم إذا أتاهم الخزي والعذاب فذاك عزه وغلبته ، من حيث أن الغلبة تتم له بعز عزيز من أوليائه ، وبذل ذليل من أعدائه (يخزيه) مثل مقيم في وقوعه صفة للعذاب ، أى : عذاب يخزى له ، وهو يوم بدر ، وعذاب دائم وهو عذاب النار . وقرئ : مكاتاتكم .
إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ

فَأِنَّمَا يَفْضَلُ عَلَيْهِمَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾

(للناس) لأجلهم ولأجل حاجتهم إليه ؛ ليبشروا وينذروا ، فتقوى دواعيهم إلى اختيار الطاعة على المعصية . ولا حاجة لى إلى ذلك فأنا الغنى ، فمن اختار الهدى فقد نفع نفسه ، ومن اختار الضلالة فقد ضرها . وما وكلت عليهم لتجبرهم على الهدى ، فإن التكليف مبنى على الاختيار دون الإيجاب .

اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تُمُتْ فِي مَنَاسِكِ الْبَنِيِّ قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَبُرِّسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾

(الانفس) اجل كما هي . وتوفيا : إمامتها ، وهو أن يسلب ما هي به حية حساسة ذراكة : من حجة أجزائها وسلامتها ؛ لأنها عند سلب الصحة كأن ذاتها قد سلبت (والتي لم تمت في منامها) يريد ويتوفى الانفس التي لم تمت في منامها ، أى : يتوفاها حين تمام ، تشبيها للنائم بالموتى . ومنه قوله تعالى (وهو الذى يتوفاكم بالليل) حيث لا يميزون ولا يتصرفون ، كما أن الموتى كذلك (فيمسك) الانفس (التي قضى عليها الموت) الحقيق ، أى : لا يردّها في وقتها حية (ويرسل الأخرى) النائمة (إلى أجل مسمى) إلى وقت ضربه لموتها . وقيل : يتوفى الانفس يستوفيا ويقضيا ، وهى الانفس التي تكون معها الحياة والحركة ، ويتوفى الانفس التي لم تمت في منامها ، وهى أنفس التمييز . قالوا : فالتى تتوفى في النوم هى نفس التمييز لا نفس الحياة ؛ لأن نفس الحياة إذا زالت زال معها النفس ، والنائم يتنفس . ورووا عن ابن عباس رضى الله عنهما في ابن آدم : نفس وروح ، بينهما مثل شعاع الشمس ، فالنفس التي بها العقل والتمييز والروح التي بها النفس والتحريك ، فإذا نام العبد قبض الله نفسه ولم يقبض روحه ، (١) والصحيح ما ذكرت أولا ، لأن الله عز وعلا علق التوفى والموت والنام جميعا بالانفس ، وماعنوا بنفس الحياة والحركة ونفس العقل والتمييز غير متصف بالموت والنوم ، وإنما الجملة هى التي تموت وهى التي تنام (إن في ذلك) إن في توفى الانفس مائة وثمانية وإمساكها وإرسالها إلى أجل آيات على قدرة الله وعلمه . لقوم يحيلون فيه أفكارهم ويعتبرون . وقرئ : قضى عليها الموت ، على البناء للمفعول .

أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ

إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾

(أم اتخذوا) بل اتخذ قريش ، والهمزة للإنكار (من دون الله) من دون إذنه (شفعاء) حين قالوا : (هؤلاء شفعاؤنا عند الله) ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه . ألا ترى إلى قوله تعالى (قل لله الشفاعة جميعا) أى هو مالكها ، فلا يستطيع أحد شفاعة إلا بشرطين : أن يكون المشفوع له مرتضى ، وأن يكون الشفيع مأذونا له . وههنا الشرطان مفقودان جميعا (أولو كانوا) معناه : أيشفعون ولو كانوا (لا يملكون شيئا ولا يعقلون) أى : ولو كانوا على هذه الصفة لا يملكون شيئا قط ، حتى يملكوا الشفاعة ولا عقل لهم (له ملك السموات والأرض)

تقرير لقوله تعالى (الله الشفاعة جميعا) لأنه إذا كان له الملك كله والشفاعة من الملك، كان مالكا لها. فإن قلت: بهم يتصل قوله ﴿ثم إليه ترجعون﴾؟ قلت: بما يليه، معناه: له ملك السموات والأرض اليوم ثم إليه ترجعون يوم القيامة، فلا يكون الملك في ذلك اليوم إلا له. فله ملك الدنيا والآخرة.

وَإِذَا ذُكِّرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْتَأَزَتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِّرَ

الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾

مدار المعنى على قوله وحده، أى: إذا أفرد الله بالذكر ولم يذكر معه آلهتهم اشمازوا، أى: نفروا وانقبضوا (وإذا ذكر الذين من دونه) وهم آلهتهم ذكر الله معهم أو لم يذكر استبشروا، لافتتانهم بها ونسيانهم حق الله إلى هواهم فيها. وقيل: إذا قيل لا إله إلا الله وحده لا شريك له نفروا؛ لأن فيه نفياً لآلهتهم. وقيل: أراد استبشارهم بما سبق إليه لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذكر آلهتهم حين قرأ (والنجم) عند باب الكعبة، فسجدوا معه لفرحهم، ولقد تقابل الاستبشار والاشتمزاز؛ إذ كل واحد منهما غاية في بابه: لأن الاستبشار أن يمتلى قلبه سروراً حتى تنبسط له بشرة وجهه ويتهلل. والاشتمزاز: أن يمتلى غمّاً وغيظاً حتى يظهر الانقباض في أديم وجهه. فإن قلت: ما العامل في (إذا ذكر)؟ قلت: العامل في إذا المفاجأة، تقديره وقت ذكر الذين من دونه، فاجأوا وقت الاستبشار.

قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ

عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾

بعل^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم، وبشدة شكيمتهم في الكفر والعناد، فقيل له: ادع الله بأسمائه العظمى، وقل: أنت وحدك تقدر على الحكم بيني وبينهم، ولا حيلة لغيرك فيهم. وفيه وصف لحالم وإعذار لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتسليّة له ووعد لهم. وعن الربيع بن خثيم^(٢) وكان قليل الكلام. أنه أخبر بقتل الحسين - رضى الله عنه، وسخط على قاتله - وقالوا: الآن يتكلم، فإزاد على أن قال: آه أوقد فعلوا؟ وقرأ هذه الآية. وروى أنه قال على أثره: قتل من كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلسه في حجره ويضع فاه على فيه.

(١) قوله «بعل رسول الله» في الصحاح: «بعل الرجل» بالكسر، أى: دهرس. (ع)

(٢) قوله «وعن الربيع بن خثيم» في النسق: خثيم. (ع)

وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ
سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾
وَبَدَا لَهُمْ سَمَاتٌ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾

(وبداهم من الله) وعيد لهم لانه لفظاعته وشدة، وهو نظير قوله تعالى في الوعد (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم) والمعنى: وظهر لهم من سخط الله وعذابه ما لم يكن قط في حسابهم ولم يحدثوا به نفوسهم. وقيل: عملوا أعمالا حسبوها حسنات، فإذا هي سيئات. وعن سفيان الثوري أنه قرأها فقال: ويل لأهل الرياء، ويل لأهل الرياء. وجزع محمد بن المنكدر عند موته فقيل له، فقال: أخشى آية من كتاب الله، وتلاها، فأنا أخشى أن يبدو لي من الله ما لم أحتسبه (وبداهم سيئات ما كسبوا) أى سيئات أعمالهم التي كسبوها. أو سيئات كسبهم، حين تعرض صحائفهم، وكانت خافية عليهم، كقوله تعالى (أحصاه الله ونسوه) أو أراد بالسيئات: أنواع العذاب التي يجازون بها على ما كسبوا، فسيماها سيئات، كما قال (وجزاء سيئة سيئة مثلها). (وحاق بهم) ونزل بهم وأحاط جزاء هزئهم.

فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ

عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾

التخويل: يختص بالفضل. يقال: خولني، إذا أعطاك على غير جزاء (على علم) أى على علم مني أى سأعطاه، لما في من فضل واستحقاق. أو على علم من الله في وباستحقاق^(١) أو على علم مني بوجوه الكسب، كما قال قارون (على علم عندي). فإن قلت: لم ذكر الضمير في (أوتيته) وهو للنعمة؟ قلت: ذهبا بآية إلى المعنى: لأن قوله (نعمة منا) شيئا من النعم وقسما منها. ويحتمل أن تكون (ما) في إنما موصولة لا كافة، فيرجع إليها الضمير. على معنى: أن الذي أوتيته على علم (بل هي فتنة) إنكار لقوله كأنه قال: ما خولناك ما خولناك من النعمة لما تقول،

(١) قال محمود: «معناه على علم من الله في وباستحقاق... الخ» قال أحد: كذلك يقول على قدرى تمنى على الله أن يبيته في الآخرة: أن الفرق بين حمد الدنيا وحمد الآخرة أن حمد الدنيا واجب على العبد؛ لأنه على نعمة متفضل بها، وحمد الآخرة ليس بواجب عليه، لأنه على نعمة واجبة على الله عز وجل، ولقد صدق الله إذ يقول: وهي فتنة إنما أهل السنة؛ إذ يعتقدون أن الثواب بفضل الله وبرحمته لا باستحقاق، ويتبعون ذلك قول سيد البشر صلى الله عليه وسلم: لا يدخل أحد الجنة بعمله. قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتخمدني الله برحمته، فما أحق من مني نفسه وركب رأسه، وطمع أنه يستحق على الله الجنة.

بل هي فتنة . أى : ابتلاء وامتحان لك ، أتشكر أم تكفر ؟ فإن قلت : كيف ذكر الضمير ثم أنه ؟ قلت : حملا على المعنى أولا ، وعلى اللفظ آخرأ ؛ ولأن الخبر لما كان مؤثرا أعنى (فتنة) : ساغ تأنيث المبتدأ لاجله لانه فى معناه ، كقولهم : ما جاءت حاجتك . وقرئ : بل هو فتنة على وفق (إنما أوتيته) . فإن قلت : ما السبب فى عطف هذه الآية بالفاء وعطف مثلها فى أول السورة بالواو ؟ قلت : السبب فى ذلك أن هذه وقعت مسببة عن قوله (وإذا ذكر الله^(١) وحده اشتمازت) على معنى أنهم يشتمزون عن ذكر الله ويستبشرون بذكر الآلهة ، فإذا مس أحدهم ضر دعا من اشتماز من ذكره ، دون من استبشر بذكره ، وما بينهما من الإي اعتراض . فإن قلت : حق الاعتراض أن يؤكد المعترض بينه وبينه^(٢) . قلت : ما فى الاعتراض من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه بأمر منه وقوله (أنت تحكم بينهم) ثم ما عقبه من الوعيد العظيم : تأكيد لإنكار اشتمزازهم واستبشارهم ورجوعهم إلى الله فى الشدائد دون آلهتهم ، كأنه قيل : قل يارب لا يحكم بينى وبين هؤلاء الذين يجترئون عليك مثل هذه الجراءة ، ويرتكبون مثل هذا المنكر إلا أنت . وقوله (ولو أن للذين ظلموا) متناول لهم ولكل ظالم إن جعل مطلقا . أو إياهم خاصة إن عنيتهم به ، كأنه قيل : ولو أن هؤلاء الظالمين ما فى الأرض جميعا ومثله معه لاقتدوا به . حين أحكم عليهم بسوء العذاب ، وهذه الأسرار والنسكت لا يبرزها إلا علم النظم ، وإلا بقيت محتجة فى أحكامها . وأما الآية الأولى فلم تقع مسببة وماهى إلا جملة ناسبت جملة قبلها فعطفت عليها بالواو ، كقولك : قام زيد وقعد عمرو . فإن قلت : من أى وجه وقعت مسببة ؟ والاشتمزاز عن ذكر الله ليس بمقتضى لالتجأهم إليه ، بل هو مقتضى لصدوفهم^(٣) عنه . قلت : فى هذا التسبب لطف ، ويانه أنك تقول : زيد مؤمن بالله ، فإذا مسه ضر التجأ إليه ، فهذا تسبب ظاهر لا لبس فيه ، ثم تقول : زيد كافر بالله ، فإذا مسه ضر التجأ إليه ، فتجئى بالفاء بحيثك به ثمة ، كأن الكافر حين التجأ إلى الله التجأ المؤمن إليه ، مقيم كفره مقام الإيمان ، ومجرىه مجراه فى جعله سببا فى الالتجاء ، فأنت تحكى ما عكس فيه الكافر . ألا ترى أنك تقصد بهذا الكلام الإنكار والتعجب من فعله ؟

قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَالُوا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾
فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَوْصِبُيْهُمْ سَيِّئَاتُ

(١) قال مجاهد : «فان قلت : لم عطف هذه الآية على التي قبلها بالفاء ، والآية التي قبلها فى أول السورة بالواو ؟ وأجاب بأن هذه الآية مسببة عن قوله وإذا ذكر الله ... الخ» قال أحد : كلام جليل فافهمه ، فضلا عن شبه قليل .

(٢) قوله «المعترض بينه وبينه» لعل قوله «وبينه» مزيد من بعض الناصحين . (ع)

(٣) قوله «لصدوفهم عنه» أى : إغراهمهم . أفاده الصحاح . (ع)

مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ

وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

الضمير في ﴿قالها﴾ راجع إلى قوله (إنما أوتيته على علم) لأنها كلمة أو جملة من القول .
وقرئ : قد قاله على معنى القول والسكلام ، وذلك والذين من قبلهم : هم قارون وقومه ، حيث قال : إنما أوتيته على علم عندي وقومه راضون بها ، فكأنهم قالوها . ويجوز أن يكون في الأمم الحالية آخرون قائلون مثلها ﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ من متاع الدنيا ويجمعون منه ﴿من هؤلاء﴾ من مشركي قومك ﴿سيصيبهم﴾ مثل ما أصاب أولئك ، فقتل صناديدهم بيدرس ، وحبس عنهم الرزق ، فحطوا سبع سنين ، ثم بسط لهم فطروا سبع سنين ، فقيل لهم ﴿أولم يعلموا﴾ أنه لا قابض ولا باسط إلا الله عز وجل .

قُلْ يٰٓعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ

بَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾

﴿أسرفوا على أنفسهم﴾ جنوا عليها بالإسراف في المعاصي والعلو فيها ﴿لا تقنطوا﴾ قرئ بفتح التون وكسرهما وضمها ﴿إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾ يعني بشرط التوبة ، (١) وقد تكرّر ذكر هذا الشرط في القرآن ، فكان ذكره فيما ذكر فيه ذكر آله فيما لم يذكر فيه : لأن القرآن في حكم كلام واحد ، ولا يجوز فيه التناقض . وفي قراءة ابن عباس وابن مسعود : يغفر الذنوب جميعاً لمن يشاء ، والمراد بمن يشاء : من تاب ؛ لأن مشيئة الله تابعة لحكمته وعدله ، لا للملكه وجبروته . وقيل في قراءة النبي صلى الله عليه وسلم وفاطمة رضي الله عنها : يغفر الذنوب جميعاً ولا يبالي . ونظير نفي المبالاة نفي الخوف في قوله تعالى (ولا يخاف عقباها) وقيل : قال أهل مكة : يزعم محمد أن من عبد الأوثان وقتل النفس التي حرم الله لم يغفر له ، فكيف ولم نهاجر وقد عبدنا الأوثان وقتلنا النفس التي حرم الله فنزلت . وروى أنه أسلم عياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد ونفر معهما ، ثم فتنوا وعذبوا ، فافتنوا ، فكنا نقول : لا يقبل الله لهم صرفاً ولا عدلاً أبداً ، فنزلت . فكتب بها عمر رضي الله عنه إليهم ، فأسلموا وهاجروا . وقيل نزلت في وحشي قاتل حمزة رضي الله عنه . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أحب أن لي

(١) قوله «يعني بشرط التوبة» عند التوبة فالعموم شامل للشرك ، وعند عدمها فلا غفران للكبائر عند المعتزلة . ويجوز بالشفاة ويجرد الفضل عند أهل السنة (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) كما تقرر في علم التوحيد : فارجع إليه . (ع)

الدنيا وما فيها هذه الآية، فقال رجل: يا رسول الله، ومن أشرك؟ فسكت ساعة ثم قال: وألا ومن أشرك، ^(١) ثلاث مرات.

وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَحْضَرْنِي عَلَى مَا قَرَأْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَى قَدْ جَاءَ نَكَأً مَا يُبَيِّنُ فَاكْذَبْتَ بِهَا وَاسْتَكَبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٥٩﴾

﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾ وتوبوا إليه ﴿وَأَسْلُوا لَهُ﴾ وأخلصوا له العمل، وإنما ذكر الإنابة على أثر المغفرة لئلا يطمع طامع في حصولها بغير توبة، وللدلالة على أنها شرط فيها لازم لا تحصل بدونه ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ مثل قوله (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه). ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أى يفجوكم وأنتم غافلون، كأنكم لا تخشون شيئا لفرط غفلتكم وسهولكم ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ كَرَاهَةً أَنْ تَقُولَ﴾ فإن قلت: لم نكرت؟ قلت: لأن المراد بها بعض الأنفس، وهى نفس الكافر. ويجوز أن يراد: نفس متميزة من الأنفس: إما بلجاج في الكفر شديد، أو بعذاب عظيم. ويجوز أن يراد التكسير، كما قال الأعشى:

وَرَبُّ يَبْقِعُ لَوْ هَتَفْتُ بِحَوِّهِ أَتَانِي كَرِيمٌ يَنْفُضُ الرُّأْسَ مُنْضَبَاً ^(٢)

(١) أخرجه الطبري والطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب والساج والاربعين من حديث ثوبان. وفيه ابن لهيعة عن أبي قبيل وهما ضعيفان.

(٢) دعا قومه حول لجأوا لنصره وناديت قوما بالمسناة غيا
ورب يبقع لو هتفت بحوئه أتانى كريم ينفض الرأس منضبا

للأعشى وقيل: لأبي عمرو بن العلاء، يصف قومه بالجهن حتى كأنهم أموات مقبورون، صارت الأحجار مسناة فوقهم. وسنيت الشيء سهل، أى: متعة ملسة. أو بالية مفتة. ويجوز أن أصله مسناة، فقلت النون الثانية ألفا. وسنلت الحجر حدوته وملسته. وفي وصف القبور بذلك مبالغة في وصف قومه بالجهن، بل هم دون تلك =

وهو يريد : أفواجا من الكرام ينصرونه ، لا كريما واحداً . ونظيره : ربّ بلد قطعت ، ورب بطل قارعت . وقد اختلس الطعنة ولا يقصد إلا التفسير . وقرئ : يا حسرتي ، على الأصل . ويا حسرتاي ، على الجمع بين العوض والمعوّض منه . والجنب : الجانب ، يقال : أنا في جنب فلان وجانبه وناحيته ، وفلان ابن الجنب والجانب ، ثم قالوا : فزط في جنبه وفي جانبيه ، يريدون في حقه . قال سابق البربري :

أَمَا تَتَقِينَ اللَّهَ فِي جَنْبٍ وَامِقٍ لَهُ كَيْدٌ حَرَىٰ عَلَيْكَ تَقَطُّعٌ ^(١)
وهذا من باب الكناية ؛ لأنك إذا أثبت الأمر في مكان الرجل وحيزه ، فقد أثبت فيه . ألا ترى إلى قوله :

إِنَّ السَّمَاحَةَ وَالْمُرُوءَةَ وَالنَّدَىٰ فِي قُبَّةٍ ضَرَبَتْ عَلَىٰ ابْنِ الْحَشْرَجِ ^(٢)
ومنه قول الناس : لمكانك فعلت كذا ، يريدون : لاجلك . وفي الحديث : ومن الشرك الخفي أن يصلي الرجل لمكان الرجل ، ^(٣) وكذلك : فعلت هذا من جهتك . فمن حيث لم يبق فرق فيما يرجع إلى أداء الغرض بين ذكر المكان وتركه : قيل (فرطت في جنب الله) على معنى : فرطت في ذات الله . فإن قلت : فرجع كلامك إلى أن ذكر الجنب كلا ذكر سوى ما يعطى من حسن الكناية وبلاغتها ، فكأنه قيل : فرطت في الله . فما معنى فرطت في الله ؟ قلت : لا بد من تقدير مضاف محذوف ، سواء ذكر الجنب أو لم يذكر : والمعنى : فرطت في طاعة الله

== الأموات ، فرب يقبع : أى موضع فيه أروم الشجر من ضروب شتى ، والمراد مقبرة ، لا يقبع القرود بالنين وهو مقبرة المدينة بعينها ، لو هتفت بجوه ، أى : ناديت شجاعهم لجأني كريم ينفض رأسه من تراب القبر . أو من الغضب لما نالني من المكروه ، وليس المراد كريماً واحداً ، بل كرماء كثيرة بمعونة المقام . والجو - بالمهمله - : الفجاء ، وبالمهمله : العسل ، وبالجيم : ما غلظ وارتفع من الأرض .

(١) أَمَا تَتَقِينَ اللَّهَ فِي جَنْبٍ وَامِقٍ لَهُ كَيْدٌ حَرَىٰ عَلَيْكَ تَقَطُّعٌ
غريب مشوق مولع بأدراككم وكل غريب الدار بالفوق مولع

لجبل بن معمر يستعطف صاحبه بثينة ويتوجع إليها عما نابه فيها ، أى : أما تخافين الله في جنب وامق ، أى : في حقه الواجب عليك ، فالجنب : كناية عن ذلك . والوامق : الشديد المحبة ، يعنى نفسه . وحري : أى ذات حر واحتراق . وتقطع : أصله تنقطع ، والأدكار : أصله الاذتكار ، قلبت ناؤه دالا مهملة ، وأدغمت الدال المعجمة فيها ، وخطبها خطاب جمع المذكر تعظيها . وفي البيت رد العجز على الصدر ، وهو من بدیع الكلام .

(٢) لزيادة الأعمى يمدح عبد الله بن الحشرج أمير نيسابور ، وهو من باب الكناية التي قصد بها النسبة ، يعنى أنه مختص بهذه الصفات لا توجد في غيره ، ولا خيمة هناك ولا ضرب أصلاً .

(٣) أخرجه أحمد وإسحاق والبرار والحاكم والبيهقي . من رواية ربيع بن عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبيه عن جده قال ، خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً . ونحن نتذاكر الدجال . فقال غير الدجال أخوف عليكم : الشرك الخفي : أن يعمل الرجل لمكان الرجل ، لفظ الحاكم .

وعباد الله ، وما أشبه ذلك . وفي حرف عبد الله وحفصة : في ذكر الله . وما في ما فرطت مصدرية مثلها في (بما رجبت) ، (وإن كنت لمن الساعرين) قال قتادة : لم يكفه أن ضيع طاعة الله حتى سخر من أهلها ، ومحل (وإن كنت) النصب على الحال ، كأنه قال : فرطت وأنا ساهر ، أى : فرطت في حال سحري . وروى أنه كان في بني إسرائيل عالم ترك علمه وفسق . وأتاه إبليس وقال له : تتمتع من الدنيا ثم تب ، فأطاعه ، وكان له مال فأنفقه في الفجور ، فأتاه ملك الموت في ألد ما كان فقال : يا حمرنا على ما فرطت في جنب الله ، ذهب عمرى في طاعة الشيطان ، وأسخطت ربي فندم حين لم ينفعه الندم ، فأنزل الله خبره في القرآن (لو أن الله هداني) لا يخلو : إما أن يريد الهداية (١) بالإلحاء أو بالالطاف أو بالوحي ، فالإلحاء خارج عن الحكمة ، ولم يكن من أهل الالطاف فيلطف به . وأما الوحي فقد كان ، ولكنه عرض ولم يتبعه حتى يهتدى ، وإنما يقول هذا تحير أفي أمره وتعللا بما لا يجدى عليه ، كما حكى عنهم التعلل بإغواء الرؤساء والشياطين ونحو ذلك ونحوه (لو هدانا الله لهديناكم) وقوله (بلى قد جاءتك آياتي) رد من الله عليه ، معناه : بلى قد هديت بالوحي فكذبت به واستكبرت عن قبوله ، وآثرت الكفر على الإيمان ، والضلالة على الهدى . وقرئ بكسر التاء (٢) على مخاطبة النفس . فإن قلت : هلا قرن الجواب بما هو جواب له ، وهو قوله (لو أن الله هداني) ولم يفصل بينهما بآية ؟ قلت : لأنه لا يخلو : إما أن يقدم على أخرى القرائن الثلاث فيفرق بينهما . وإما أن تؤخر القرينة الوسطى ، فلم يحسن الأول لمسا فيه من تبشير النظم بالجمع بين القرائن . وأما الثاني فلما فيه من نقص الترتيب وهو التحسر على التفريط في الطاعة ، ثم التعلل بفقد الهداية ، ثم تمى الرجعة فكان الصواب ما جاء عليه ، وهو أنه حكى أقوال النفس على ترتيبها ونظمها . ثم أجاب من بينها عما اقتضى الجواب . فإن قلت : كيف صح أن تقع بلى جوابا لغير منق ؟ قلت : (لو أن الله هداني) فيه معنى : ما هُديت .

وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ

مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾

(كذبوا على الله) وصفوه بما لا يجوز عليه تعالى ، وهو متعال (٣) عنه ، فأضافوا إليه

(١) قوله « لا يخلو إما أن يريد به الهداية » تحمل لتطبيق الآية على مذهب المعتزلة ، ولكن خلق الهداية لا يصل إلى حد الإلحاء ؟ لأنه لا يسلب الاختيار عند أهل السنة ، كخلق القوى والطاعة وغيرها من الأفعال الاختيارية ، لما أثبتوه للعباد من الكسب فيها وإن كان فاعلها في الحقيقة هو الله تعالى ، كما تقرر في علم التوحيد . (ع)

(٢) قوله « وقرئ بكسر التاء » لعل من كسر ما كسر الكاف أيضا . (ع)

(٣) قال محمود : « يعنى الذين وصفوه تعالى بما لا يجوز عليه وهو متعال عنه ... الخ » قال أحد : قد عدا طور التفسير لمرض قلبه لا دواء له إلا التوفيق الذى حرمه ، ولا يعافيه منه إلا الذى قدر عليه هذا الضلال وحثمه ، =

الولد والشريك ، وقالوا : هؤلاء شفعائونا ، وقالوا : ﴿لوشاء الرحمن ما عبدناهم﴾ ، وقالوا (والله أمرنا بها) ولا يبعد عنهم قوم يسفهونه بفعل القبايح^(١) ، وتجوز أن يخلق خلقا لا لغرض ، ويؤلم

== وسنقيم عليه حد الرد ؛ لأنه قد أبدى صفحته ، ولولا شرط الكتاب لأخربنا عنه صفحا ولويناعن الالتفات إليه كسحا ، وبالله التوفيق فنقول : أما تعريضه بأن أهل السنة يعتقدون أن القبايح من فعل الله تعالى ، فيرجه باعتقادهم المخار إليه قوله تعالى بعد آيات من هذه السورة (الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل) أما الزعشري وإخوانه القدريه ، فيغيرون وجه هذه الآية ويقولون : ليس خالق كل شيء ؛ لأن القبايح أشياء وليست مخلوقة له . فاعتقدوا أنهم نزهوا ، وإنما أضرخوا . وأما تعريضه لهم في أنهم يجوزون أن يخلق خلقا لا لغرض ، فذلك لأن أفعاله تعالى لا تعلل ؛ لأنه الفاعل لما يشاء . وعند القدريه ليس فعلا لما يشاء ؛ لأن الفعل إما منطوق على حكمة ومصلحة ، فيجب عليه أن يفعله عندهم ؛ ولما عار عنها فيجب عليه أن لا يفعله فأين أثر المشيئة إذا . وأما اعتقاده أن في تكليف ما لا يطاق تظليما لله تعالى ، فاعتقاد باطل ؛ لأن ذلك إنما ثبت لازما لاعتقادهم أن الله تعالى خالق أفعال عباده ، فالتكليف بها تكليف بما ليس مخلوقا لهم ، والقاعدة الأولى حق ، ولأزم الحق حق ، ولا معنى للظلم إلا التصرف في ملك الغير بغير إذنه ، والعباد ملك الله تعالى ، فكيف يتصور حقيقة الظلم منه ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا . وأما تعريضه بأنهم يجوزون أن يؤلم لا لغرض ، فيقال له : ما قولك أيها الظنن في إيلام البهائم والأطفال ، ولا أعراض لها ، وليس مرتباً على استحقاق سابق خلافاً للقدريه إذ يقولون : لا بد في الألم من استحقاق سابق أو عوض . وأما اعتقاده أن تجوز رؤية الله تعالى يستلزم اعتقاد الجسمية ، فانه اغترار في اعتقاده بأدلة العقل المجوزة لذلك ، مع البراءة من اعتقاد الجسمية ، ولم يشعر أنه يقابل بهداية قول نبى الهدى عليه الصلاة والسلام : «إنكم سترون ربكم كالقمر ليلة البدر لاتضاءمون في رؤيته» فهذا النص الذى ينبو عن التأويل ولا يردع المتمسك به شيء من التحويل . وأما قوله إنهم يستترون باللبكفة ، فيعنى به قولهم «بلا كيف» أجل إنها لسترات لا تهتك يد الباطل البتراء ، ولا تبعد عن الهدى عين الضلال العوراء . وأما تعريضه بأنهم يجعلون لله أعدادا بأثباتهم معه قدما ، فنحن لأثباتهم صفات الكمال ، كلا والله ، إنما جعل لله أعداداً للقدريه إذ جعلوا أنفسهم يخلقون ما يريدون ويشتهون على خلاف مراد ربهم . حتى قالوا : إن ما شاءه كان وما شاء الله لا يكون . وأما أهل السنة فلم يزدوا على أن اعتقدوا أن الله تعالى علماً وقدره وإرادة وسمعا وبصراً وكلاماً وحياة ، حسبما دل عليه العقل وورد به الشرع وأى مخلص للقدريه إذا سمع قوله تعالى (وسع ربنا كل شيء علما) إلا اعتقاد أن الله تعالى علماً أو جحد آيات الله وإطفاء نوره ، وبأنى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . وأما قوله : إنهم يشبثون الله تعالى بدأ وقدما ووجها ، فذلك فرية ما فيها مرية ، ولم يقل بذلك أحد من أهل السنة . وإنما أثبت القاضي أبو بكر صفات سمعية وردت في القرآن : اليدان والعينان والوجه ، ولم يتجاوز في إثباتها ما وردت عليه في كتاب الله العزيز ، على أن غيره من أهل السنة حمل الدين على القدرة والذمة ، والوجه على الذات ؛ وقد مر ذلك في مواضع من الكتاب ، فقد اتصف في هذه المباحة بحال من بحث يظلمه على حفته ، وتعريضه معتقده القاسد لهتك ستره وكشفه ، وإنما حملنى على إغلاظ مخاطبته الغضب لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم وأهل سنته ، فانه قد أساء عليهم الأدب ، ونسبهم بكذبه إلى الكذب ، والله الموفق .

(١) قوله «قوم يسفهونه بفعل القبايح» يريد بهم أهل السنة ، حيث ذهبوا إلى أنه تعالى هو الخالق لأفعال العباد ولو معاصي ، وأن فعله لا لغرض بل لحكمة ، وإيلام الأطفال لا يستوجب عليه عوضا ، وتظليمه نسبته إلى الظلم بتجوير تكليف المحال كما في علم الأصول ، وجوزوا عليه الرؤية وهى غير مختصة بالأجسام عندهم ، وجوزوا السلف أن يكون له يد ونحوها ، لكن لا كالأيدى . وأراد بالقدما صفات المعاني : كالقدرة والارادة ، حيث قال أهل السنة : إنها موجودة بوجودات زائدة على وجود الذات ، وتحقيق ذلك في التوحيد والأصول ، فانظرو . والبلكفة : قولهم «بلا كيف» . (ع)

لا لعوض ، ويظلمونه بتكليف ما لا يطاق ، ويمسونه بكونه مرثيا معاينا مدركا بالحاسة ، ويثبتون له يدا وقدماء وجنبا متسرين بالبلكفة ، ويجعلون له أندادا ياثباتهم معه قدماء (وجوههم مسودة) جملة في موضع الحال إن كان ترى من رؤية البصر ، ومفعول ثان إن كان من رؤية القلب .

وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمِثَالِ تَعْمَلُ لَآيَمْسُهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾
 قرئ : ينجي وينجي (بمفازتهم) بفلاحهم . يقال : فاز بكذا إذا أفلح به وظفر بمراده منه . وتفسير المفازة قوله (لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون) كأنه قيل : ما مفازتهم ؟ فقيل : لا يمسهم السوء ، أى ينجيهم بنفى السوء والحزن عنهم . أو بسبب منجاتهم ، من قوله تعالى (فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب) أى بمنجاة منه ؛ لأن النجاة من أعظم الفلاح ، وسبب منجاتهم العمل الصالح ولهذا فسر ابن عباس رضى الله عنهما المفازة بالأعمال الحسنة ، ويجوز : بسبب فلاحهم ؛ لأن العمل الصالح سبب الفلاح وهو دخول الجنة . ويجوز أن يسمى العمل الصالح فى نفسه : مفازة ؛ لأنه سببها . وقرئ : بمفازاتهم ، على أن لكل متقى مفازة . فإن قلت : (لا يمسهم) ما محله من الإعراب على التفسيرين ؟ قلت : أما على التفسير الأول فلا محل له ؛ لأنه كلام مستأنف . وأما على الثانى فحلله النصب على الحال .

اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾

(له مقاليد السموات والأرض) أى هو مالك أمرها وحافظها ، وهو من باب الكناية ؛ لأن حافظ الخزان ومدير أمرها هو الذى يملك مقاليدها ، ومنه قولهم : فلان أقيت إليه مقاليد الملك وهى مفاتيح ، ولا واحد لها من لفظها . وقيل : مقليد . ويقال : إقليد ، وأقاليد ، والكلمة أصلها فارسية . فإن قلت : ما للكتاب العربى المبين وللفارسية ؟ قلت : التعريب أحالها عربية ، كما أخرج الاستعمال المهمل من كونه مهملا . فإن قلت : بما اتصل قوله (والذين كفروا) قلت : بقوله (وينجي الله الذين اتقوا) أى ينجي الله المتقين بمفازتهم ، والذين كفروا هم الخاسرون . واعترض بينهما بأنه خالق الأشياء كلها ، وهو مهيم عليها ، فلا يخفى عليه شيء من أعمال المكلفين فيها وما يستحقون عليها من الجزاء ، وقد جعل متصلا بما يليه على أن كل شيء فى السموات والأرض فآلة خالقه وفاتح بابه والذين كفروا وجحدوا أن يكون الأمر كذلك أولئك هم الخاسرون وقيل : سأل عثمان رضى الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير قوله تعالى (له مقاليد السموات والأرض) ، فقال : يا عثمان ، ما سألتى عنها أحد قبلك ، تفسيرها : لا إله إلا الله والله

أكبر، وسبحان الله وبحمده، وأستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، هو الأول والآخر والظاهر والباطن بيده الخير يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، (١) وتأويله على هذا: أن الله هذه الكلمات يوحد بها ويمجد، وهي مفاتيح خير السموات والأرض: من تكلم بها من المتقين أصابه، والذين كفروا بآيات الله وكلمات توحيده وتمجيده، أولئك هم الخاسرون.

قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾

(أفغير الله) منصوب بأعبد. و(تأمروني) اعتراض. ومعناه: أفغير الله أعبد بأمركم، وذلك حين قال له المشركون: استلم بعض آلهتنا ونؤمن بإهلك. أو ينصب بما يدل عليه جملة قوله (تأمروني أعبد) لأنه في معنى تعبدوني وتقولون لي: أعبد، والأصل: تأمروني أن أعبد، لحذف أن، ورفع الفعل، كما في قوله:

* أَلَا أَيُّهَاذَا الرَّاجِرِ أَحْضَرُ الْوَعَى * (١)

ألا تراك تقول: أفغير الله تقولون لي أعبد، وأفغير الله تقولون لي أعبد، فكذلك أفغير الله تأمروني أن أعبد. وأفغير الله تأمروني أن أعبد، والدليل على صحة هذا الوجه: قراءة من قرأ (أعبد) بالنصب. وقرئ: تأمروني، على الأصل. وتأمروني، على إدغام النون أو حذفها.

وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ يٰٓأَيُّهَا اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾

قرئ: ليحبطن عملك، وليحبطن: على البناء للفعول. ولتجبطن، بالنون والياء، أى: ليحبطن الله. أو الشرك. فإن قلت: الموحى إليهم جماعة، فكيف قال (لئن أشركت) على التوحيد؟ قلت: معناه أوحى إليك لئن أشركت ليحبطن عملك، وإلى الذين من قبلك مثله، أو أوحى إليك وإلى كل واحد منهم: لئن أشركت كما تقول كسانا حلة، أى: كل واحد منا: فإن قلت: ما الفرق بين اللامين؟ قلت: الأولى موطة للقسم المحذوف، والثانية لام الجواب. وهذا الجواب ساد مسد الجوابين، أعنى: جوابي القسم والشرط. فإن قلت: كيف صح هذا

(١) أخرجه أبو يعلى وابن أبي حاتم والعقيلي والبيهقي في الاسماء والطبراني في الدعاء كلهم من رواية أغلب بن تميم حدثنا محمد أبو الهذيل عن عبد الرحمن بن عبد الرحيم. وعبد الرحمن بن هدى عن عبد الله بن عمر به، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات من هذا الوجه. وله وجه آخر عند ابن مردويه. من طريق كلب بن وائل عن عمر ورواه ابن مردويه عن الطبراني بإسناد آخر إلى ابن عباس - أن عثمان - فذكره، وفيه سلام بن وهب الحمدي عن أبيه ولا أعرفهما. (٢) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ١٥٩ فراجع إن شئت اه مصححه.

السلام مع علم الله تعالى أن رسله لا يشركون ولا تحبط أعمالهم ؟ قلت : هو على سبيل الغرض ، والمحالات يصح فرضها لأغراض ، فكيف بما ليس بمحال . ألا ترى إلى قوله (ولو شاء ربك لآمن من الأرض كلهم جميعاً) يعنى على سبيل الإلجاء ، ولن يكون ذلك لامتناع الداعى إليه ووجود الصارف عنه . فإن قلت : ما معنى قوله (ولتكونن من الخاسرين) ؟ قلت : يحتمل ولتكونن من الخاسرين بسبب حبوط العمل . ويحتمل : ولتكونن في الآخرة من جملة الخاسرين الذين خسروا أنفسهم إن مت على الردة . ويجوز أن يكون غضب الله على الرسول أشد ، فلا يمهله بعد الردة : ألا ترى إلى قوله تعالى (إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات) ، (بل الله فاعبد) ردلما أمره به من استلام بعض آلهتهم ، كأنه قال : لا تعبد ما أمرك بعبادته ، بل إن كنت عاقلاً فاعبد الله ، لحذف الشرط وجعل تقديم المفعول عوضاً منه ^(١) (وكن من الشاكرين) على ما أنعم به عليك ، من أن جعلك سيد ولد آدم . وجوز الفراء نصبه بفعل مضمر هذا معطوف عليه ، تقديره : بل الله أعبد فاعبد .

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ

مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾

لما كان العظيم من الأشياء إذا عرفه الإنسان حق معرفته وقدره في نفسه حق تقديره عظمه حق تعظيمه قيل (وما قدروا الله حق قدره) وقرئ بالتشديد على معنى : وما عظموه كنهه تعظيمه ، ثم نبههم على عظمته وجلالة شأنه على طريقة التخييل فقال (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه) والغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو بحملته ومجموعه تصوير عظمته والتوقيف على كنهه جلالة لا غير ، من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين ^(٢)

(١) قال محمود : أصل الكلام : إن كنت عابداً فاعبد الله ، لحذف الشرط وجعل تقديم المفعول عوضاً منه . أم كلامه قال أحمد : مقتضى كلام سيربه في أمثال هذه الآية : أن الأصل فيه فاعبد الله . ثم حذفوا الفعل الأول اختصاراً ، فلما وقعت الفاء أولاً استنكروا الابتداء بها ، ومن شأنها التوسط بين المعطوف والمعطوف عليه ، فقدموا المفعول وصارت متوسطة لفظاً ودالة على أن ثم محذوفاً اقتضى وجودها ، ولتعطف عليه ما بعدها ويضاف إلى هذه الغاية في التقديم فائدة المحصر ، كما تقدم من إشعار التقديم بالاختصاص .

(٢) قال محمود : والغرض من هذا الكلام تصوير عظمته تعالى والتوقيف على كنهه جلالة من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز ، وكذلك حكم ما يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن حبراً جاء إليه فقال : يا أبا القاسم ، إن الله يسك السماوات يوم القيامة على أصبع والأرضين على أصبع والجبال على أصبع والصخر على أصبع وسائر الخلق على أصبع ، ثم يهزئ فيقول : أنا الملك ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وتجب بما قال الخبر ثم قرأ هذه الآية تصديقاً له ، فانما ضحك أنصح العرب لأنه لم يفهم منه إلا ما فهمه علماء البيان من غير تصوير إمساك ولا من ولا شيء من ذلك ، ولكن فهمه وقع أول شيء وآخره على الوبدة والخلاصة التي =

إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز ، وكذلك حكم ما يروى أن جبريل ^(١) جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا أبا القاسم ، إن الله يمسك السموات يوم القيامة على أصبع والارضين على أصبع والجبال على أصبع والشجر على أصبع وسائر الخلق على أصبع ، ثم يهزهن فيقول أنا الملك ^(٢) فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم تعجباً بما قال ثم قرأ تصديقاً له (وما قدروا الله حق قدره ... الآية) وإنما ضحك أفصح العرب صلى الله عليه وسلم وتعجب لأنه لم يفهم منه إلا ما يفهمه علماء البيان من غير تصور إمساك ولا أصبع ولا هز ولا شيء من ذلك ، ولكن فهمه وقع أول شيء وآخره على الزبدة والخلاصة التي هي الدلالة على القدرة الباهرة ، وأن الأفعال العظام التي تتحير فيها الأفهام والأذهان ولا تكتفيها الأوهام هينة عليه هو أن لا يوصل السامع إلى الوقوف عليه ، إلا إجراء العبارة في مثل هذه الطريقة من التخيل ، ولا ترى باباً في علم البيان أدق ولا أرق ولا أظف من هذا الباب ، ولا أنفع وأعون على تعاطي تأويل المشتبهات من كلام الله تعالى في القرآن وسائر الكتب السماوية وكلام الأنبياء ، فإن أكثره وعليه ^(٣) تخيلات قد زلت فيها الأقدام قديماً ، وما أتى الزالون ^(٤) إلا من قلة عنايتهم بالبحث والتفكير ، حتى يعلوا أن في عداد العلوم الدقيقة علماء لو قدروه حق قدره ، لما خفي عليهم أن العلوم كلها مفقورة إليه وعيال عليه ، إذ لا يحل عقدها الموربة ولا يفك قيودها المكربة إلا هو ، وكما آية من آيات التنزيل وحديث من أحاديث الرسول ، قد ضم وسمي الحسف بالتأويلات الغثة ^(٥) والوجوه الرثة ، لأن من تأول ليس من هذا العلم في غير ولا نفير ، ولا يعرف قبلاً منه من دبير ^(٦) والمراد بالارض : الارضون السبع ، يشهد لذلك شاهدان : قوله (جميعاً) وقوله

== هي الدلالة على القدرة الباهرة التي لا يوصل السامع إلى الوقوف عليها إلا إجراء العبارة على مثل هذه الطريقة من التخيل ، ثم قال : وأكثر كلام الأنبياء والكتب السماوية وعليها تخيل قد زلت فيه الأقدام قديماً . اه كلامه . قال أحد : إنما عني بما أجراه هنا من لفظ التخيل التثني ، وإنما العبارة موهمة منكورة في هذا المقام لالتيق به بوجه من الوجوه ، والله أعلم .

(١) قوله « أن جبريل جاء إلى رسول الله » قيل : الصواب أنه خبر من أحبار اليهود لا جبريل . ويدل عليه ما في البخاري ومسلم والترمذي ، كذا بهامش . ويؤيده أن « يا أبا القاسم » عادة اليهود في ندائه صلى الله عليه وسلم . (ع)
(٢) متفق عليه من حديث ابن مسعود . (تنبيه) وقع عنده أن جبريل وهو تصحيف . والذي في الصحيح « جاء خبر من اليهود » وفي رواية « أن يهودياً » وفي رواية « أن رجلاً من أهل الكتاب » .

(٣) قوله « وعليه » أي معظمه . (ع)

(٤) قوله « وما أتى الزالون » أي أجبيوا . (ع)

(٥) قوله « بالتأويلات الغثة » في الصحاح « الغث » نبت يختبر حبه ويؤكل في الجوع ، وتكون خبزه غليظة شبيهة بخبز الحلة . (ع)

(٦) قوله « قبلاً منه من دبير » في الصحاح « القليل » : ما تقبل به المرأة من غزلها حين تفتله . وفيه « الدبير » : ما تدبره به المرأة من غزلها حين تفتله . ومنه قيل : فلان ما يعرف قبلاً من دبير . (ع)

(والسّموات) ولأنّ الموضوع موضع تفخيم وتعظيم، فهو مقتضى للبالغة، ومع القصد إلى الجمع وتأكيده بالجميع أتبع الجميع مؤكده قبل مجيء الخبر، ليعلم أول الأمر أن الخبر الذي يرد لا يقع عن أرض واحدة، ولكن عن الأراضي كلّهن. والقبضة: المرة من القبض (فقبضت قبضة من أثر الرسول) والقبضة - بالضم - : المقدار المقبوض بالكف، ويقال أيضا: أعطى قبضة من كذا: تريد معنى القبضة تسمية بالمصدر، كما روى: ^(١) أنه نهى عن خطفة السبع، ^(٢) وكلا المعنيين محتمل. والمعنى: والأرضون جميعا قبضته، أى: ذوات قبضته يقبضهن قبضة واحدة، يعنى أنّ الأرضين مع عظمن وبسطهن لا يبلغن إلا قبضة واحدة من قبضاته، كأنه يقبضها قبضة بكف واحدة، كما تقول: الجزور أكلة لقمان، والقلة جرعة، أى: ذات أكلته وذات جرعته؛ تريد: أهما لا يفيان إلا بأكلة فذة من أكلاته، وجرعة فردة من جرعاته. وإذا أريد معنى القبضة فظاهر، لأن المعنى: أن الأرضين بحملتها مقدار ما يقبضه بكف واحدة. فإن قلت: ما وجه قراءة من قرأ (قبضته) بالنصب؟ قلت: جعلها ظرفا مشبها للوقت بالمهم: (مطويات) من الطي الذي هو ضد النشر، كما قال تعالى (يوم نطوى السماء كطي السجل للكتاب) وعادة طوى السجل أن يطويه يمينه، وقيل: قبضته: ملكة بلامدافع ولا منازع، ويمينه: بقدرته. وقيل: مطويات يمينه مفيئات بقسمه؛ لأنه أقسم أن يفنيها، ومن اشته رائحة من علنا هذا فليعرض عليه هذا التأويل ليتلهى بالتعجب منه ومن قائله، ثم يبكي حمية لكلام الله المعجز بفصاحته، وما منى ^(٣) به من أمثاله؛ وأثقل منه على الروح، وأصعد للكبد تدوين العلماء قوله، واستحسانهم له، وحكايته على فروع المنابر، واستجلاب الاهتزاز به من السامعين. وقرئ: مطويات على نظم السموات في حكم الأرض، ودخولها تحت القبضة، ونصب مطويات على الحال (سبحانه وتعالى) ما أبعد من هذه قدرته وعظمته، وما أعلاه عما يضاف إليه من الشركاء.

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ
ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٦٨﴾

(١) لم أجده هكذا. وروى أحد وإسحاق وأبو يعلى من رواية سهل عن عبد الله بن يزيد عن شيخ لقيه سعيد ابن المسيب أنه سمع أبا الدرداء يقول «نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل كل خطفة ونهية والجشمة وكل ذى ناب من السباع» ورواه أبو يعلى من رواية الإفريقي ورواه الدارمي والطبراني والنسائي في الكنى من رواية أبي أوس عن الزهري عن أبي إدريس عن أبي ثعلبة، بلفظ «نهى عن الخطفة والجشمة والنهية». وكل ذى ناب من السباع.

(٢) قوله «نهى عن خطفة السبع» أى: والمراد غطوفه. (ع)

(٣) قوله «وما منى به» أى ابتلى. (ع)

فإن قلت : (أخرى) ما محلها من الإعراب ؟ قلت : يحتمل الرفع والنصب : أما الرفع فعلى قوله (فإذا نفخ ^(١)) فى الصور نفخة واحدة) وأما النصب فعلى قراءة من قرأ (نفخة واحدة) والمعنى : ونفخ فى الصور نفخة واحدة ، ثم نفخ فيه أخرى . وإنما حذف لدلالة أخرى عليها ، ولكونها معلومة بذكرها فى غير مكان . وقرئ : قياما ينظرون : يلقبون أبصارهم فى الجهات نظر المبهوت إذا فاجأه خطب . وقيل : ينظرون ماذا يفعل بهم . ويجوز أن يكون القيام بمعنى الوقوف والجلود فى مكان لتجريمهم .

وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾

قد استعار الله عز وجل النور للحق والقرآن والبرهان فى مواضع من التنزيل ، وهذا من ذاك . والمعنى (وأشرقت الأرض) بما يقيمه فيها من الحق والعدل ، ويسطه من القسط فى الحساب ووزن الحسنات والسيئات ، وينادى عليه بأنه مستعار لإضافته إلى اسمه : لأنه هو الحق والعدل . وإضافة اسمه إلى الأرض : لأنه يزينها حيث ينشر فيها عدله ، وينصب فيها موازين قسطه ، ويحكم بالحق بين أهلها ، ولا ترى أذن للبقاع من العدل ، ولا أمر لها منه . وفى هذه الإضافة أن ربها وخالقها هو الذى يعدل فيها ، وإنما يجور فيها غير ربها ، ثم ماعطف على إشراق الأرض من وضع الكتاب والحجى . بالنبيين والشهداء والقضاء بالحق وهو النور المذكور . وترى الناس يقولون للملك العادل : أشرقت الآفاق بعدلك ، وأضاءت الدنيا بقسطك ، كما تقول : أظلمت البلاد بجور فلان . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الظلم ظلمات يوم القيامة ^(٢) ، وكما فتح الآية بإثبات العدل ، ختمها بنفى الظلم . وقرئ : وأشرقت على البناء المفعول ، من شرقت بالضوء تشرق : إذا امتلأت به واغضت . وأشرقها الله ، كما تقول : ملأ الأرض عدلا وطبقها عدلا . و (الكتاب) صحائف الأعمال ، ولكنه اكتفى باسم الجنس ، وقيل : اللوح المحفوظ (الشهداء) الذين يشهدون للأئمة وعليهم من الحفظة والأخبار . وقيل : المستشهدون فى سبيل الله

(١) قوله «أما الرفع فعلى قوله فإذا نفخ» أى فى الحافة . وقوله «من قرأ» أى : هناك . وقوله «حذفت»

أى هنا . (ج)

(٢) متفق عليه من حديث ابن عمر . ولمسلم عن جابر والنسائى وأبى داود من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص

وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَبَحَّتْ أِبْوَابُهَا
وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ
وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ ۖ هَٰذَا قَالُوا يَلَىٰ ۚ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى
الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى
الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾

الزمر : الافواج المتفرقة بعضها في أثر بعض ، وقد تزمروا ^(١) : قال :

* حَتَّىٰ أَحْزَأَلْتُ زُمْرًا بَعْدَ زُمْرَةٍ * ^(٢)

وقيل في زمر الذين اتقوا : هي الطبقات المختلفة : الشهداء ، والزهاد ، والعلماء ، والقراء وغيرهم
وقرى : نذر منكم . فإن قلت : لم أضيف إليهم اليوم ؟ قلت : أرادوا لقاء وقتكم هذا ، وهو
وقت دخولهم النار لا يوم القيامة . وقد جاء استعمال اليوم والأيام مستفيضاً في أوقات الشدة
(قالوا بلى) أتونا وتلوا علينا ، ولكن وجبت علينا كلمة الله لا ملأنا جهم ، لسوء أعمالنا ،
كما قالوا : غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين . فذكروا عملهم الموجب لكلمة العذاب وهو
الكفر والضلال . واللام في المتكبرين للجنس : لأن (مثنوى المتكبرين) فاعل بئس ، وبئس
فاعلها : اسم معرف بلام الجنس . أو مضاف إلى مثله ، والخصوص بالنم محذوف ، تقديره :
فبئس مثنوى المتكبرين جهم .

وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا
وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ
الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَأَوْزَانَا الْأَرْضَ ۚ نَبْتَوُا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ۖ فَنِعْمَ
أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾

(١) قوله «وقد تزمروا» وفي نسخة أخرى : تزامروا . وفي الصحاح : أحزأت الابل في السير : ارتفعت . (ع)

(٢) إن العفاة بالسبب قد غير حتى أحزأت زمر بعد زمر
«السبب» في الأصل : السيول ، استعيرت للعطايا الكثيرة على طريق التصريح . والغمر : ترشيح ، أى : أن
طلاب الرزق قد صممهم الممدوح بالعطايا . وأحزأت : ارتفعت سائرة من عنده ، زمر : أى أفواج بعد أفواج .
ويروى : زمراً ، على الحال ، أى : أحزأت العفاة حال كونها أفواجا متتابعة . وعلى الأول ففيه إظهار في موضع
الإظهار ، دلالة على التكثير .

(حتى) هي التي تحكى بعدها الجمل والجملة المحكية بعدها هي الشرطية، إلا أن جزاءها محذوف، وإنما حذف لأنه صفة ثواب أهل الجنة، فدل بحذفه على أنه شيء لا يحيط به الوصف، وحق موقعه ما بعد خالدين. وقيل: حتى إذا جاؤها، جاؤها وفتحت أبوابها، أى مع فتح أبوابها. وقيل: أبواب جهنم لا تفتح إلا عند دخول أهلها فيها. وأما أبواب الجنة فتقدم فتحها، بدليل قوله (جنات عدن مفتحة لهم الأبواب) فلذلك جرى بالواو، كأنه قيل: حتى إذا جاؤها وقد فتحت أبوابها. فإن قلت: كيف عبر عن الذهاب بالفريقين جميعاً بافظ السوق؟ قلت: المراد بسوق أهل النار: طردهم إليها بالهوان والعنف، كما يفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل، والمراد بسوق أهل الجنة: سوق مراكبهم، لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين، وحثها إسراراً بهم إلى دار الكرامة والرضوان، كما يفعل بمن يشرف ويكرّم من الوافدين على بعض الملوك، فشتان ما بين السوقين (طبتهم) من دنس المعاصي، وطهرتهم من خبث الخطايا (فادخلوها) جعل دخول الجنة مسيباً عن الطيب والطهارة، فما هي إلا دار الطيبين ومثوى الطاهرين؛ لأنها دار طهرها الله من كل دنس، وطيبها من كل قدر، فلا يدخلها إلا مناسب لها موصوف بصفتها، فما أبعد أحوالنا من تلك المناسبة، وما أضعف سعينا في اكتساب تلك الصفة، إلا أن يهب لنا الوهاب الكريم توبة نصوحاً، تنقي أنفسنا من درن الذنوب، وتميط ضر هذه القلوب (خالدين) مقدرين الخلود (الأرض) عبارة عن المسكان الذي أقاموا فيه واتخذوه مقراً ومتبواً، وقد أورثوها: أى ملكوها وجعلوا ملوكها، وأطلق تصرفهم فيها كما يشاؤون، تشبيهاً بحال الوارث وتصرفه فيما يرثه واتساعه فيه، وذهابه في إنفاقه طويلاً وعرضاً. فإن قلت: ما معنى قوله (حيث نشاء) وهل يتبوا أحدهم مكان غيره؟ قلت: يكون لكل واحد منهم جنة لا توصف سعة وزيادة على الحاجة، فيتبوا من جنته حيث يشاء ولا يحتاج إلى جنة غيره.

وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ

بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٧٥

(حافين) محققين من حوله (يسبحون بحمد ربهم) يقولون: سبحان الله والحمد لله، متلذذين لامتعدين. فإن قلت: إلام يرجع الضمير في قوله (بينهم)؟ قلت: يجوز أن يرجع إلى العباد كلهم، وأن إدخال بعضهم النار وبعضهم الجنة لا يكون إلا قضاء بينهم بالحق والعدل، وأن يرجع إلى الملائكة، على أن ثوابهم - وإن كانوا معصومين جميعاً - لا يكون على سنن واحد، ولكن يفاضل بين مراتبهم على حسب تفاضلهم في أعمالهم، فهو القضاء بينهم بالحق. فإن قلت:

قوله ﴿وقيل الحمد لله﴾ من القائل ذلك؟ قلت: المقضى بينهم إما جميع العباد وإما الملائكة، كأنه قيل: وقضى بينهم بالحق، وقالوا الحمد لله على قضائه بيننا بالحق، وإنزال كل منامزله التي هي حقه. عن عائشة رضى الله عنها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ كل ليلة بنى إسرائيل والزمر^(١)

سورة المؤمن

مكية. قال الحسن: إلا قوله وسبح بحمد ربك؛ لأن الصلوات نزلت بالمدينة وقد قيل في الحواميم كلها: أنها مكيات: عن ابن عباس وابن الحنفية وهي خمس وثمانون آية، وقيل ثنتان وثمانون [نزلت بعد الزمر]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّلُوعِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ (٣)

قرئ بإمالة ألف حم، وتفخيمها، وتسكين الميم وفتحها. ووجه الفتح: التحريك لالتقاء الساكنين، وإثارة أخف الحركات، نحو أين وكيف أو النصب بإضمار اقرأ ومنع الصرف للتأنيث والتعريف أو للتعريف وأنها على زنة أعجمي نحو قاييل وهاييل. التوب والثوب والأوب: أخوات في معنى الرجوع والطول والفضل والزيادة. يقال: فلان على فلان طول، والإفضال. يقال: طال عليه وتطول، إذا تفضل. فإن قلت: كيف اختلفت هذه الصفات تعريفاً وتنكيراً، والموصوف معرفة يقتضى أن يكون مثله معارف؟ قلت: أما غافر الذنب وقابل التوب ففرقتان؛ لأنه لم يرد بهما حدوث الفعلين، وأنه يغفر الذنب ويقبل التوب الآن. أو غداً حتى يكونا في

(١) أخرجه النسائي من رواية حماد بن زيد عن أبي أمامة عن عائشة في أثناء حديث، وأخرجه أحمد وإسحاق وأبو يعلى والترمذي والحاكم والبيهقي في الشعب في التاسع عشر من هذا الوجه.

تقدير الانفصال ، فتكون إضافتهما غير حقيقية ؛ وإنما أريد ثبوت ذلك ودوامه ، فكان حكمهما حكم إله الخلق ورب العرش . وأما شديد العقاب فأمره مشكل ، لأنه في تقدير : شديد عقابه لا يتفك من هذا التقدير ، وقد جعله الزجاج بدلا . وفي كونه بدلا وحده بين الصفات نبؤ ظاهر . والوجه أن يقال : لما صودف بين هؤلاء المعارف هذه النكرة الواحدة ، فقد آذنت بأن كلها أبدال غير أوصاف ، ومثال ذلك قصيدة جاءت تفاعيلها كلها على مستفعلن ، فهي محكوم عليها بأنها من بحر الرجز ، فإن وقع فيها جزء واحد على متفاعلين كانت من الكامل^(١) ولقائل أن يقول : هي صفات ، وإنما حذف الألف واللام من شديد العقاب ليزواج ما قبله وما بعده لفظاً ، فمدغروا كثيراً من كلامهم عن قوانينه لأجل الازدواج ، حتى قالوا : ما يعرف سمادليه من عنادليه ، فثنوا ما هو وتر لأجل ما هو شفع ؛ على أن التحليل قال في قولهم ما يحسن بالرجل مثلك أن يفعل ذلك ، وما يحسن بالرجل خير منك أن يفعل أنه على نية الألف واللام كما كان الجاء الغفير على نية طرح الألف واللام . وما سهل ذلك الأمن من اللبس وجهالة الموصوف . ويجوز أن يقال : قد تعتمد تشكيكه ، وإيهامه للدلالة على فرط الشدة وعلى ما لا شيء أدهى منه وأمر لزيادة الإنذار . ويجوز أن يقال : هذه النكته هي الداعية إلى اختيار البديل على الوصف إذا سلكت طريقة الإبدال . فإن قلت : ما بال الواو في قوله (وقابل التوب) ؟ قلت : فيها نكته جليلة ، وهي إفادة الجمع للذنب التائب بين رحمتين : بين أن يقبل توبته فيسكتها له طاعة من الطاعات . وأن يجعها محاة للذنوب ، كأن لم يذنب ، كأنه قال : جامع المغفرة والقبول . وروى أن عمر رضى الله عنه افتقد رجلاً ذا بأس شديد من أهل الشام ، فقيل له : تتابع في هذا الشراب ، فقال عمر لكاتبه : اكتب ، من عمر إلى فلان : سلام عليك ، وأنا أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو : بسم الله الرحمن الرحيم : حم إلى قوله إليه المصير . وختم الكتاب وقال لرسوله : لا تدفعه إليه حتى تجده صاحباً ، ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة . فلما أتته الصحيفة

(١) قال محمود : «فإن قلت لما اختلفت هذه الصفات تعريفاً وتشكيكاً والموصوف معرفة يقتضى أن يكون مثله معارف ؟ وأجاب بأن غافر الذنب وقابل التوب معرفان ؛ لأنهما صفتان لازمتان ، وليستا لحدوث الفعل حتى يكونا حالاً أو استقبالياً ، بل إضافتهما حقيقة . وأما شديد العقاب فلا شك في أن إضافته غير حقيقية ، يريد : لأنه من الصفات المشبهة ، ولا تكون إضافتها محضة أبداً . عاد كلامه قال : وجعله الزجاج بدلا وحده ، وانفراد البديل من بين الصفات فيه نبؤ ظاهر . والوجه أن يقال : إن جميعها أبدال غير أوصاف ، لوقوع هذه النكرة التي لا يصح أن تكون صفة كما لو جاءت قصيدة تفاعيلها كلها على مستفعلن ، قضى عليها بأنها من بحر الرجز ، فإن وقع فيها جزء واحد على متفاعلين : كانت من الكامل ، قال أحمد : وهذا لأن دخول مستفعلن في الكامل يمكن ، لأن متفاعلين يصير بالاختيار إلى مستفعلن ، وليس وقوع متفاعلين في الرجز ممكناً ؛ إذ لا يصير إليه مستفعلن البتة ، فما يقضى إلى الجمع بينهما فإنه يتمين ، وهذا كما يقضى الفقهاء بالخاص على العام لأنه الطريق في الجمع بين الدليلين .

جعل يقرؤها ويقول : قد وعدني الله أن يغفر لي ، وحذرنى عقابه ، فلم يبرح يرددها حتى بكى ، ثم نزع فأحسن الزرع وحسنت توبته ، فلما بلغ عمر أمره قال : هكذا فاصنعوا ، إذا رأيتم أخاكم قد زلّ زلة فسدوده ووقفوه ، وادعوا له الله أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أعواناً للشياطين عليه ^(١) .

مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ④

يجل على المجادلين في آيات الله بالكفر : والمراد : الجدل بالباطل ، من الطعن فيها ، والقصد إلى إدحاض الحق وإطفاء نور الله ، وقد دلّ على ذلك (وجدالوا بالباطل ليدحضوا به الحق) فأما الجدل فيها لإيضاح ملتبسها وحل مشكلها ، ومقابلة أهل العلم في استنباط معانيها ورد أهل الزيغ بها وعنها ، فأعظم جهاد في سبيل الله ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « إن جدالاً في القرآن كفر » ^(٢) وإيراده منكراً ، وإن لم يقل : إن الجدل ، تمييز منه بين جدال وجدال . فإن قلت : من أين تسبب لقوله « فلا يغرك » ما قبله ؟ قلت : من حيث إنهم لما كانوا مشهوداً عليهم من قبل الله بالكفر ، والكافر لا أحد أشقى منه عند الله : وجب على من تحقق ذلك أن لا ترجح أحوالهم في عينه ، ولا يغيره إقبالهم في دنياهم وتقلبهم في البلاد بالتجارات النافقة والمكاسب المربحة ، وكانت قريش كذلك يتقلبون في بلاد الشام واليمن ، ولهم الأموال يتجرون فيها ويتربحون ، فإن مصير ذلك وعاقبته إلى الزوال ، ووراءه شقاوة آبد . ثم ضرب لتكذيبهم وعداوتهم للرسول وجدالهم بالباطل وما أذخر لهم من سوء العاقبة مثلاً : ما كان من نحو ذلك من الأمم ، وما أخذهم به من عقابه وأحله بساحتهم من انتقامه . وقرئ : فلا يغرك .

كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ

كَانَ عِقَابِ ⑤

(الأحزاب) الذين تحزبوا على الرسل وناصروهم وهم عاد وثمود وفرعون وغيرهم (وهمت)

(١) أخرجه أبو نعيم في ترجمة يزيد الأصم من رواية كثير بن هشام عن جعفر بن برقان عن يزيد الأصم ، أن رجلاً كان ذا بأس - فذكره بتمامه ، ورواه عبد بن حميد في تفسيره عن كثير بن هشام باختصار . وكذا ابن أبي حاتم والشملي .

(٢) أخرجه الطيالسي . ومن طريقه البيهقي في الشعب في التاسع عشر من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما بلفظ : لا تجادلوا في القرآن فإن جدالاً فيه كفر ، وفي الباب عن أبي هريرة بلفظ : « مرا ، في القرآن كفر ، في الصحيح والسنن

كل أمة) من هذه الأمم التي هي قوم نوح والأحزاب (برسولهم) وقرى برسولها (ليأخذوه) ليتمكنوا منه ، ومن الإيقاع به وإصابته بما أرادوا من تعذيب أو قتل . ويقال للأسير : أخذ (فأخذتهم) يعني أنهم قصدوا أخذه ، فجعلت جزاءهم على إرادة أخذه أن أخذتهم (فكيف كان عقاب) فإنكم تمرون على بلادهم ومساكنهم فتعاينون أثر ذلك . وهذا تقرير فيه معنى التعجيب

وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ⑥

(نهم أصحاب النار) في محل الرفع بدل من (كلمة ربك) أى مثل ذلك الوجوب وجب على الكفرة كونهم من أصحاب النار . ومعناه : كما وجب إهلاكهم في الدنيا بالعذاب المستأصل ، كذلك وجب إهلاكهم بعذاب النار في الآخرة ، أوفى محل النصب بحذف لام التعليل وإيصال الفعل . والذين كفروا : قريش ، ومعناه . كما وجب إهلاك أولئك الأمم ، كذلك وجب إهلاك هؤلاء ؛ لأن علة واحدة تجمعهم أنهم من أصحاب النار . قرئ : كليات .

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ⑦ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ⑧ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ

الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ⑨

روى أن حملة العرش أرجاهم في الأرض السفلى ورؤسهم قد خرقت العرش وهم خشوع لا يرفعون طرفهم . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : لا تنفكوا في عظم ربكم ولكن تفكروا فيما خلق الله من الملائكة (١) فإن خلقا من الملائكة يقال له إسرافيل : زاوية من زوايا العرش على كاهله وقدماه في الأرض السفلى ، وقد مرق رأسه من سبع سموات ، وإنه ليتضاءل من عظمة الله حتى يصير كأنه الوصع (٢) . وفي الحديث : إن الله تعالى أمر جميع الملائكة أن يقدوا

(١) أخرجه الثعلبي . وروى شهر بن حوشب : أن ابن عباس رفعه بهذا تعليقا ، وهو في كتاب العظمة

لابن الفتح .

(٢) قوله : كأنه الوصع ، طائر أصفر من المصفور . (ع)

ويروحوا بالسلام على حملة العرش تفضيلاً لهم على سائر الملائكة^(١) . وقيل : خلق الله العرش من جوهرة خضراء ، وبين القائمتين من قوائمه خفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام . وقيل حول العرش سبعون ألف صنف من الملائكة ، يطوفون به مهللين مكبرين ، ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام ، قد وضعوا أيديهم على عواتقهم رافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير ، ومن ورائهم مائة ألف صف قد وضعوا الإيمان على الشاغل ، مامنهم أحد إلا وهو يسبح بما لا يسبح به الآخر . وقرأ ابن عباس : العرش بضم العين . فإن قلت : ما فائدة قوله ﴿ ويؤمنون به ﴾ ولا يخفى على أحد أن حملة العرش ومن حوله من الملائكة الذين يسبحون بحمدهم مؤمنون ؟^(٢) قلت : فائدته إظهار شرف الإيمان وفضله ، والترغيب فيه كما وصف الأنبياء في غير موضع من كتابه بالصلاح لذلك ، وكما عقب أعمال الخير بقوله تعالى ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ فأبان بذلك فضل الإيمان . وفائدة أخرى : وهي التنبيه على أن الأمر لو كان كما تقول المجسمة^(٣) ، لكان حملة العرش ومن حوله مشاهدين معانين ، ولما وصفوا بالإيمان ؛ لأنه إنما يوصف بالإيمان : الغائب ، فلما وصفوا به على سبيل الثناء عليهم ، علم أن إيمانهم وإيمان من في الأرض وكل من غاب عن ذلك المقام سواء ؛ في أن إيمان الجميع بطريق النظر والاستدلال لا غير ، إلا هذا ، وأنه لا طريق إلى معرفته إلا هذا ، وأنه منزّه عن صفات الأجرام . وقد روعي التناسب في قوله ﴿ ويؤمنون به ﴾ ﴿ ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ كأنه قيل : ويؤمنون ويستغفرون لمن في مثل حالهم وصفتهم . وفيه تنبيه على أن الاشتراك في الإيمان يجب أن يكون أدعى شيء إلى النصيحة ، وأبعثه على إحاض الشفقة وإن تفاوتت الأجناس وتباعدت الأماكن . فإنه

(١) لم أجد .

(٢) قال محمود : « إن قلت . ما فائدة قوله ﴿ ويؤمنون به ﴾ ولا يخفى على أحد أن حملة العرش ومن حوله من الملائكة مؤمنون بالله تعالى ... الخ » قال أحد : كلام حسن الاستدلال بقوله ﴿ ويؤمنون به ﴾ على أنهم ليسوا مشاهدين ، فهذا لا يدل ؛ لأن الإيمان هو التصديق غير مشروط فيه غيبة المصدق به ، بدليل صحة إطلاق الإيمان بالآيات مع أنها مفاهدة ، كالتفريق القمر وقلب العصا حية . وإنما نقب الزمخشري هذا التكلف عما في قلبه من مرض ، لكنه ظاهراً بعيداً عن الغرض ، فقرر أن حملة العرش غير مشاهدين ، بدليل قوله تعالى ﴿ ويؤمنون ﴾ لأن معنى الإيمان عنده التصديق بالغائب . ثم يأخذ من كونهم غير مشاهدين : أن الباري عز وجل لو صحت رؤيته لأراه ، بحيث لم يروهم لأن تكون رؤيته تعالى بما لا يصححه العقل ، وقد أبلغنا ما ادعاه من أن الإيمان مستلزم عدم الرؤية ، ولو سلمناه فلا نعلم أنه يلزم من كون حملة العرش غير مشاهدين له تعالى أن تكون رؤيته غير صحيحة ، وقوله : ولو كانت صحيحة لأراه : شرطية عقيمة الانتاج ؛ لأن الرؤية عبارة عن إدراك : يخلق الله تعالى هذا الإدراك لحلة العرش ، إلا أن يذهب بالزمخشري الوهم إلى أن مصححي الرؤية يعتقدون الجسمية والاستقرار على العرش . فيلزمهم رؤية حملة العرش له تعالى الله عن ذلك ، وحاشى أهل السنة ومصححي الرؤية من ذلك .

(٣) قوله « كما تقول المجسمة » يريد أهل السنة : لأنهم لما جوزوا رؤيته تعالى معاينة : لزمهم القول بأنه تعالى جسم ، ولكن الرؤية لا تستلزم الجسمية . خلافاً للمعتزلة ، كما بين في علم التوحيد . (ع)

لا تجانس بين ملك وإنسان ، ولا بين سماوى وأرضى قط ، ثم لما جاء جامع الإيمان جاء معه التجانس السكلى والتناسب الحقيقى ، حتى استغفر من حول العرش لمن فوق الأرض . قال الله تعالى (ويستغفرون لمن فى الأرض) . أى يقولون ﴿ ربنا ﴾ وهذا المضمر يحتمل أن يكون بيانا ليستغفرون مرفوع المحل مثله ، وأن يكون حالا . فإن قلت : تعالى الله عن المكان ، فكيف صح أن يقال : وسع كل شيء ؟ قلت : الرحمة والعلم هما اللذان وسعا كل شيء فى المعنى . والأصل : وسع كل شيء رحمتك وعلمك ، ولكن أزيل الكلام عن أصله بأن أسند الفعل إلى صاحب الرحمة والعلم ، وأخرجا منصوبين على التمييز للإغراق فى وصفه بالرحمة والعلم ، كأن ذاته رحمة وعلم واسعان كل شيء . فإن قلت : قد ذكر الرحمة والعلم فوجب أن يكون ما بعد الفاء مشتملا على حديثهما جميعا ، وما ذكر إلا الغفران وحده ؟ قلت : معناه فاغفر للذين علمت منهم التوبة واتباع سبيلك ^(١) . وسبيل الله : سبيل الحق الذى نهجها ^(٢) لعباده ودعا إليها ﴿ إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ أى الملك الذى لا يغلب : وأنت مع ملكك وعزتك لاتفعل شيئا إلا بداعى الحكمة وموجب حكمتك أن تنى بوعدك ﴿ وقهم السيآت ﴾ أى العقوبات . وأجزاء السيآت . خذف المضاف على أن السيآت هى الصغائر أو الكبائر المتوب عنها . والوقاية منها : التكفير أو قبول التوبة : فإن قلت : ما الفائدة فى استغفارهم لهم وهم تائبون صالحون موعودون المغفرة والله لا يخلف الميعاد ؟ قلت : هذا بمنزلة الشفاعة ، وفائدته زيادة الكرامة والثواب . وقرئ : جنة عدن . واصلح ، بضم اللام ، والفتح أفصح . يقال : صلح فهو صالح ، واصلح فهو صليح ، وذريتهم .

(١) قال محمود : « فإن قلت قد ذكر أولا الرحمة والعلم ، ثم ذكر ما توجه الرحمة وهو الغفران ، فإن موجب العلم ؟ وأجاب بأن معناه فاغفر للذين علمت منهم التوبة واتباع سبيلك ... الخ . قال أحد : كلامه هنا محض بأنواع الاعتزال : منها اعتقاد وجوب مراعاة المصلحة ودواعى الحكم على الله تعالى . ومنها اعتقاد أن اجتناب الكبائر يكفر الصغائر وجوبا وإن لم يكن توبة . ومنها اعتقاد امتناع غفران الله تعالى للكبائر التى لم يقب عنها . ومنها اعتقاد وجوب قبول التوبة على الله تعالى . ومنها جدد الشفاعة ، واعتقاد أهل السنة أن الله تعالى لا يجب عليه مراعاة المصلحة ، وأنه يجوز أن يعذب على الصغائر وإن اجتنب الكبائر ، وأنه يجوز أن يغفر الكبائر ماعدا الشرك وإن لم يقب منها ، وأن قبول التوبة بفضله ورحمته ، لا بالوجوب عليه ، وأنها تنال أهل الكبائر المصرين من الموحدين ، فهذه جواهر خمسة نسال الله تعالى أن يقلد عقائل عقائدنا بها إلى الخاتمة ، وأن لا يحرمانا أطرافه ومراحه آمين . وجميع ما يحتاج إلى تزييفه بما ذكره على قواعد الاعتزال فى هذا الموضع قد تقدم ، غير أنه جدد هنا قوله : إن فائدة الاستغفار كفائدة الشفاعة ، وذلك مزيد الكرامة لا غير ، يريد : أن المغفرة للتائب واجبة على الله فلا تسئل ، وهذا الذى قاله بما يجعل النفس فيه الفضيحة ، زادت على بطلانه هذه الآية بالألسن الفصيحة ، كيف يجعل المسئول مزيد الكرامة لا غير . ونص الآية : فاغفر للذين تابوا واتباعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ، فهى ناطقة بأنهم يسألون من الله تعالى المغفرة للتائب ووقاية عذاب الجحيم ، وهو الذى أنكر الزمخشري كونه مسئولا .

(٢) قوله « التى نهجها » أى : أبانها وأوضحها . أفاده الصحاح . (ع)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ
إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا آتَيْنَاكَ آتِنَتَيْنِ
فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ
وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾

أى ينادون يوم القيامة ، فيقال لهم : ﴿لمقت الله أكبر﴾ والتقدير : لمقت الله أنفسكم أكبر من مقتكم أنفسكم ، فاستغنى بذكرها مرة . و ﴿إذ تدعون﴾ منصوب بالملتق الأول . والمعنى : أنه يقال لهم يوم القيامة : كان الله يمقت أنفسكم الأمانة بالسوء والكفر ، حين كان الأنبياء يدعونكم إلى الإيمان ، فتأبون قبوله وتختارون عليه الكفر أشد مما تمقتونهن اليوم وأنتم في النار إذا أوقعتم فيها باتباعكم هواهم . وعن الحسن : لما رأوا أعمالهم الحبيثة مقتوا أنفسهم ، فنودوا لمقت الله . وقيل : معناه لمقت الله إياكم الآن أكبر من مقت بعضكم لبعض ، كقوله تعالى (يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضا) و (إذ تدعون) : تعليل . والمقت : أشد البغض ، فوضع في موضع أبلغ الإنكار وأشدّه (اثنتين) إمامتين وإحياءتين . أو موتتين وحياتيتين . وأراد بالإمامتين : خلقهم أمواتا أولا ، وإمامتهم عند انقضاء آجالهم ، وبالإحياء الإحياء الأولى وإحياء البعث . وناهيك تفسيراً لذلك قوله تعالى (وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم) وكذا عن ابن عباس رضى الله عنهما . فإن قلت : كيف صح أن يسمى خلقهم أمواتا : إماتة ؟ قلت : كما صح أن تقول : سبحان من صغر جسم البعوضة وكبر جسم الفيل ! وقولك للحفار : ضيق فم الركية ووسع أسفلها ، وليس ثم نقل من كبر إلى صغر ولا من صغر إلى كبر ، ولا من ضيق إلى سعة ، ولا من سعة إلى ضيق . وإنما أردت الإنشاء على تلك الصفات ، والسبب في صحته أن الكبر والصغر جائزان معاً على المصنوع الواحد ، من غير ترجيح لأحدهما ، وكذلك الضيق والسعة . فإذا اختار الصانع أحداً للجائزين وهو متمكن منهما^(١) على السواء فقد صرف المصنوع عن الجائز الآخر ، لجعل صرفه عنه كتحمله

(١) قال محمود : «إحدى الإمامتين خلقهم أمواتا أولا ، والأخرى إمامتهم عند انقضاء آجالهم ، ثم قال : فإن قلت كيف سمى خلقهم أمواتا إماتة ، وأجاب بأنه كما يقال : سبحان من صغر جسم البعوضة وكبر جسم الفيل ، وكما يقال للحفار : ضيق فم الركية ووسع أسفلها ، وليس ثم نقل من صغر إلى كبر ولا عكسه ، ولا من ضيق إلى سعة ولا عكسه . وإنما أردت الإنشاء على تلك الصفات . والسبب في صحته أن الكبر والصغر جائزان معاً على المصنوع الواحد ، وكذلك الضيق والسعة ، فإذا اختار الصانع أحداً للجائزين وهو متمكن من الآخر ، جعل صرفاً عن الآخر وهو متمكن منه» قال أحمد : ما أجد كلامه ههنا حيث صادق التمسك بأذيال نظر مالك رحمه الله في مسألة ما إذا باع إحدى وزتين معينتين على لزوم لاحدهما والخير فيهما ، فإنه منع من ذلك لأن المشتري لما كان =

منه ، ومن جعل الإيمانيات التي بعد حياة الدنيا والتي بعد حياة القبر لزومه إثبات ثلاث إحياءات ، وهو خلاف ما في القرآن ، إلا أن يتمحل فيجعل إحداها غير معتد بها . أو يزعم أن الله تعالى يحيمهم في القبور ، وتستمر بهم تلك الحياة فلا يموتون بعدها ، ويعذبهم في المستئين من الصعقة في قوله تعالى (إلا من شاء الله) . فإن قلت : كيف تسبب هذا لقوله تعالى (فاعترفنا بذنوبنا) ؟ قلت : قد أنكروا البعث فكفروا ، وتبع ذلك من الذنوب ما لا يحصى ؛ لأن من لم يخش العاقبة تخرق^(١) في المعاصي ، فلما رأوا الإماناة والإحياء قد تكرر عليهم ، علموا بأن الله قادر على الإعادة قدرته على الإنشاء ، فاعترفوا بذنوبهم التي اقترفوها من إنكار البعث وما تبعه من معاصيهم (فهل إلى خروج) أي إلى نوع من الخروج سريع أو بطيء (من سبيل) قط ، أم اليأس واقع دون ذلك ، فلا خروج ولا سبيل إليه . وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط . وإنما يقولون ذلك تعللا وتخيراً ؛ ولهذا جاء الجواب على حسب ذلك ، وهو قوله (ذلك) أي ذلكم الذي أنتم فيه ، وأن لا سبيل لكم إلى خروج قط بسبب كفركم بتوحيد الله وإيمانكم بالإشراك^(٢) به (فالحكم لله) حيث حكم عليكم بالعذاب السرم : وقوله (العل الكبير) دلالة على الكبرياء والعظمة ، وعلى أن عقاب مثله لا يكون إلا كذلك ، وهو الذي يطابق كبريائه ويناسب جبروته . وقيل : كأن الحورية^(٣) أخذوا قولهم : لا حكم إلا لله ، من هذا .

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ آيَاتِهِ وَيُنَزِّل لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ۝ ١٣ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝ ١٤

== متمكنا من تعيين كل واحدة منهما على سواء ، فاذا عين واحدة منهما بالاختيار نزل عدوله عن الأخرى ، وقد كان متمكنا منها منزلة اختيارها أولا ، ثم الانتقال عنها إلى هذه ، فاذا آل إلى بيع إحداها بالأخرى غير معلوم القائل ، وهو الذي لحصه أصحابنا في قولهم : إن من خير بين شيئين فاختر أحدهما ؛ عد متقلا ، وقد سبقت هذه القاعدة لغير هذا الغرض فيها تقدم .

(١) قوله «تخرق في المعاصي» في الصحاح : يقال : هو يتخرق في السخاء ، إذا توسع فيه . (ع)
(٢) قال محمود : «أي إلى نوع من الخروج سريع أو بطيء من سبيل قط ، أم اليأس واقع دون ذلك ، فلا خروج ولا سبيل إليه ، وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط ، وإنما يقولون ذلك تعللا وتخيراً ؛ ولهذا جاء الجواب على حسب ذلك ، وهو قوله (ذلكم) بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم) معناه : أن اعتياض السبيل إلى خروجكم من النار سببه كفركم بتوحيد الله تعالى ، وإيمانكم بالإشراك ، قال أحمد : وعلى هذا النمط بنى الصغراء مثل قولهم : هل إلى نجد وصول وعلى الخيف نزول وإنما قصدتم أن هذا أمر غالب فيه اليأس على الطمع .
(٣) قوله والحورية ، في الصحاح : أنها طائفة من الخوارج تنسب إلى «حرورة» اسم قرية ، وكأنه يريد أهل السنة ، فانهم الذين اشتهر عنهم هذا القول ، خلافا للمعتزلة في قولهم : إن الفعل قد يدرك الحكم قبل ورود الشرع ، كما بين في الأصول . (ع)

رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ
يَوْمَ التَّلَاقِ (١٥) يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ

الوَاحِدِ الْفَهَّارِ (١٦)

(يرىكم آياته) من الريح والسحاب والرعد والبرق والصواعق ونحوها. والرزق: المطر،
لأنه سببه (وما يتذكر إلا من ينيب) وما يتعظ وما يعتبر بآيات الله إلا من يتوب من الشرك
ويرجع إلى الله، فإن المعاند لا سبيل إلى تذكره واتعاظه، ثم قال للنيبين (فادعوا الله) أى
اعبدوه (مخلصين له الدين) من الشرك. وإن غاظ ذلك أعداءكم بمن ليس على دينكم. (رفيع
الدرجات ذو العرش يلقى الروح) ثلاثة أخبار، لقوله وهو، مترتبة على قوله (الذى يرىكم)
أو أخبار مبتدأ محذوف، وهى مختلفة تعريفا وتنكيراً. وقرئ: رفيع الدرجات بالنصب على
المدح. ورفيع الدرجات، كقوله تعالى (ذى المنارج) وهى مصاعد الملائكة إلى أن تبلغ العرش،
وهى دليل على عزته وملكوته. وعن ابن جبير: سماء فوق سماء. والعرش فوقهن. ويجوز أن يكون
عبارة عن رفعة شأنه وعلو سلطانه، كما أن ذا العرش عبارة عن ملكه. وقيل: هى درجات ثوابه
التي ينزلها أوليائه فى الجنة (الروح من أمره) الذى هو سبب الحياة من أمره، يريد: الوحي
الذى هو أمر بالخير وبعث عليه، فاستعار له الروح، كما قال تعالى (أو من كان ميتاً فأحييناه)
(لينذر) الله. أو الملقى عليه: وهو الرسول أو الروح. وقرئ: لتنذر، أى: لتنذر الروح
لأنها تؤنث، أو على خطاب الرسول. وقرئ: لينذر يوم التلاق، على البناء للفعول (ويوم
التلاق) يوم القيامة، لأن الخلائق تلتقى فيه. وقيل: يلتقى فيه أهل السماء وأهل الأرض. وقيل:
المعبود والعابد (يوم هم بارزون) ظاهرون لا يستترهم شيء من جبل أو أكمة أو بناء، لأن
الأرض بارزة قاع صافى، ولا عليهم ثياب، إنما هم عراة مكشوفون، كما جاء فى الحديث
ويحشرون عراة حفاة غرلاً، (١) (لا يخفى على الله منهم شيء) أى من أعمالهم وأحوالهم. وعن
ابن مسعود رضى الله عنه: لا يخفى عليه منهم شيء. فإن قلت: قوله (لا يخفى على الله منهم شيء):
بيان وتقرير لبروزهم، والله تعالى لا يخفى عليه منهم شيء. برزوا أو لم يبرزوا، فما معناه؟ قلت:
معناه أنهم كانوا يتوهمون فى الدنيا إذا استتروا بالحيطان والحجب: أن الله لا يراهم ويخفى عليه
أعمالهم، فهم اليوم صائرون من البروز والانكشاف إلى حال لا يتوهمون فيها مثل ما كانوا
يتوهمونه. قال الله تعالى: ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون. وقال تعالى: (يستخفون

(١) متفق عليه من حديث عائشة رضى الله عنها.

من الناس ولا يستخفون من الله) وذلك اعلمهم أن الناس يبصرونهم؛ وظنهم أن الله لا يبصرهم، وهو معنى قوله (وبرزوا لله الواحد القهار)، (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) حكاية لما يسئل عنه في ذلك اليوم ولما يجاب به. ومعناه: أنه ينادى مناد فيقول: لمن الملك اليوم؟ فيجيبه أهل المحشر: لله الواحد القهار. وقيل: يجمع الله الخلائق يوم القيامة في صعيد واحد بأرض يضاء كأنها سبيكة فضة لم يعص الله فيها قط، فأول ما يتكلم به أن ينادى مناد: (لمن الملك اليوم؟ لله الواحد القهار. اليوم تجزى كل نفس ... الآية) فهذا يقتضى أن يكون المنادى هو المحيب.

الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٧)

لما قرر أن الملك لله وحده في ذلك اليوم عدد نتائج ذلك، وهى أن كل نفس تجزى ما كسبت وأن الظلم مأمون، لأن الله ليس بظلام للعبيد، وأن الحساب لا يبطئ، لأن الله لا يشغله حساب عن حساب، فيحاسب الخلق كله في وقت واحد وهو أسرع الحاسبين. وعن ابن عباس رضى الله عنهما: إذا أخذ في حسابهم لم يقل (١) أهل الجنة إلا فيها ولا أهل النار إلا فيها.

وَأَنْذَرُكُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظُلُمٍ مَا لَِلْظُلُمِينَ مِنْ

حَسِيمٍ وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ (١٨)

الآزفة: القيامة، سميت بذلك لازوفها، أى: لقربها. ويجوز أن يريد بيوم الآزفة: وقت الخطئة الآزفة، وهى مشارقتهم دخول النار، فعند ذلك ترتفع قلوبهم عن مقامها فتلتصق بحناجرهم، فلا هى تخرج فيموتوا، ولا ترجع إلى مواضعها فيتنفسوا ويتروحو، ولكنها معترضة كالشجاء، كما قال تعالى (فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا). فإن قلت: (كاظمين) بم انتصب؟ قلت: هو حال عن أصحاب القلوب على المعنى، لأن المعنى: إذ قلوبهم لدى حناجرهم كاظمين عليها. ويجوز أن يكون حالا عن القلوب، وأن القلوب كاظمة على غم وكره فيها مع بلوغها الحاجر، وإنما جمع الكاظم جمع السلامة، لأنه وصفها بالكظم الذى هو من أفعال العقلاء، كما قال تعالى (رأيتم لى ساجدين) وقال (فظلت أعناقهم لها خاضعين) وتعنדה قراءة من قرأ: كاظمون. ويجوز أن يكون حالا عن قوله: وأنذرهم، أى: وأنذرهم مقدرين أو مشارفين الكظم، كقوله تعالى (فادخلوها خالدين) الحميم: الحب المشفق. والمطاع: مجاز فى المشفع، لأن حقيقة الطاعة نحو حقيقة الأمر فى أنها لا تكون إلا لمن فوقك. فن قلت: ما معنى قوله تعالى:

(١) قوله «لم يقل أهل الجنة إلا فيها» من قال يقبل قبولة. (ع)

(ولا شفيع يطاع) ؟ قلت : يحتمل أن يتناول النفي الشفاعة والطاعة معا ، وأن يتناول الطاعة دون الشفاعة ، ^(١) كما تقول : ما عندى كتاب يباع ، فهو محتمل نفي البيع وحده ، وأن عندك كتاباً إلا أنك لا تتبعه ، وفيهما جميعاً ، وأن لا كتاب عندك ، ولا كونه مبيعاً . ونحوه :

* وَلَا تَرَى الضُّبَّ بِهَا يَنْجَحِرُ * ^(٢)

يريد : نفي الضب وانجحاره . فإن قلت : فعلى أى الاحتمالين يجب حمله ؟ قلت : على نفي الأمرين جميعاً ، من قبل أن الشفعاء هم أولياء الله ، وأولياء الله لا يحبون ولا يرضون إلا من أحبه الله ورضيه ، وأن الله لا يحب الظالمين ، فلا يحبونهم ، وإذا لم يحبهم لم ينصروهم ولم يشفعوا لهم . قال الله تعالى (وما للظالمين من أنصار) وقال : (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) ولأن الشفاعة لا تكون إلا فى زيادة التفضل ، ^(٣) وأهل التفضل وزيادته إنما هم أهل الثواب ، بدليل قوله تعالى (ويزيدهم من فضله) وعن الحسن رضى الله عنه : والله ما يكون لهم شفيع البتة ، فإن قلت : الغرض حاصل بذكر الشفيع ونفيه ، فما الفائدة فى ذكر هذه الصفة ونفيها ؟ قلت : فى ذكرها فائدة جليلة ، وهى أنها ضمت إليه ، ليقام انتفاء الموصوف مقام الشاهد على انتفاء الصفة ، لأن الصفة لا تتأتى بدون موصوفها ، فيكون ذلك إزالة لتوهم وجود الموصوف ، بيانه : أنك إذا عوتبت على القعود عن الغزو فقلت : ما لى فرس أركبه ، ولا مئى سلاح أحارب به ، فقد جعلت عدم الفرس وفقد السلاح علة مانعة من الركوب والمحاربة ، كأنك تقول : كيف يتأتى منى الركوب والمحاربة ولا فرس لى ولا سلاح مئى ، فكذلك قوله (ولا شفيع يطاع) معناه : كيف يتأتى التشفيع ولا شفيع ، فكان ذكر التشفيع والاستشهاد على عدم تأتية بعدم الشفيع : وضعا لانتفاء الشفيع موضع الأمر المعروف ^(٤) غير المنكر الذى لا ينبغى أن يتوهم خلافه .

(١) قال محمود : « يحتمل أن يكون المنفى المفعول الذى هو الموصوف وصفته وهى الطاعة ، ويحتمل أن يكون المنفى الصفة وهى الطاعة والشفيع ثابت » قال أحمد : إنما جاء الاحتمال من حيث دخول النفي على مجموع الموصوف والصفة . ونفى المجموع ، كما يكون بنفى كل واحد من جزئيه ، وكذلك يكون بنفى أحدهما ، على أن المراد هنا - كما قال - : نفي الأمرين جميعاً . قال : وفائدة ذكر الموصوف أنه كالدليل على نفي الصفة : لأنه إذا اتقى الموصوف انتفت الصفة قطعاً ، قلت : فكأنه نفي الصفة مرتين من وجهين مختلفين .

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٤٧٦ فراجع إن شئت اه مصححه .

(٣) قوله « لا تكون إلا فى زيادة التفضل » هذا عند المعتزلة . أما عند أهل السنة فتكون فى الخروج من النار أيضاً ، كما تقرر فى التوحيد . وحديث الشفاعة مشهور ، نعم الكفار لا خروج لهم من النار . (ع)

(٤) قوله « موضع الأمر المعروف » أى الذى يعرفه السامع ويسلمه ، كما هو شأن الشاهد على الدعوى ، وإذا كان انتفاء الشفيع معروفاً فلا يفتنى أن يتوهم وجوده ، وبهذا يبين قوله فيما سبق ، فيكون ذلك إزالة لتوهم وجود الموصوف . (ع)

يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾

الخائنة : صفة للنظرة . أو مصدر بمعنى الخيانة ، كالعافية بمعنى المعافاة ، والمراد : استراق النظر إلى ما لا يحل ، كما يفعل أهل الريب ، ولا يحسن أن يراد الخائنة من الأعين ، لأن قوله (وما تخفي الصدور) لا يساعد عليه . ^(١) فإن قلت : بم اتصل قوله (يعلم خائنة الأعين) ؟ قلت : هو خبر من أخبار هو في قوله (هو الذي يريكم) مثل (يلقى الروح) ولكن (يلقى الروح) قد علل بقوله (لينذر يوم التلاق) ثم استطرذ ذكر أحوال يوم التلاق إلى قوله (ولا شفيع يطاع) فبعد لذلك عن أخواته .

وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْءًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ

السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾

(والله يقضى بالحق) يعنى : والذي هذه صفاته وأحواله لا يقضى إلا بالحق والعدل . لاستغناؤه عن الظلم . وألهمتكم لا يقضون شىء . وهذا تمكيم بهم ، لأن ما لا يوصف بالقدرة لا يقال فيه : يقضى ، أو لا يقضى (إن الله هو السميع البصير) تقرير لقوله (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور) ووعد لهم بأنه يسمع ما يقولون ويصبر ما يعملون ، وأنه يعاقبهم عليه وتمريض بما يدعون من دون الله ، وأنها لا تسمع ولا تبصر . وقرئ : يدعون ، بالتاء والياء .

أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَمَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ

بِأَبْيَنِتٍ فَكُذِّبُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾

(هم) في (كانوا هم أشد منهم) فصل . فإن قلت . من حق الفصل أن لا يقع إلا بين معرفتين ، فما باله واقعا بين معرفة وغير معرفة ؟ وهو أشد منهم . قلت : قد ضارح المعرفة في أنه لا ندخله الألف واللام ، فأجرى مجراها . وقرئ : منكم ، وهى في مصاحف أهل الشام (وآثارا)

(١) قال محمود : « الخائنة إما صفة للنظرة وإما مصدر كالعافية » قال : « ولا يحسن أن يراد الخائنة من الأعين » لأنه لا يساعد عليه قوله تعالى (وما تخفي الصدور) قال أحد : إنما لم يساعد عليه لأن خائنة الأعين على هذا التقدير معناه الأعين الخائنة ، وإنما يقابل الأعين الصدور ، لا ما تخفيه الصدور ، بخلاف التأويل الأول ، فإن المراد به نظرات الأعين فيطابق خفيات الصدور .

يريد حصونهم وقصورهم وعددهم، وما يوصف بالشدة من آثارهم. أو أرادوا: أكثر آثارا، كقوله: * مُتَقَلِّدًا سَيْفًا وَرُمْحًا * (١)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقُرُونَ فَقَالُوا مَسِحْرٌ كَذَابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢٥)

(وسلطان مبين) وحجة ظاهرة وهي المعجزات، فقالوا: هو ساحر كذاب، فسموا السلطان المبين سحرا وكذابا (فلما جاءهم بالحق): بالنبوة: فإن قلت: أما كان قتل الأبناء واستحياء النساء من قبل خيفة أن يولد المولود الذي أنذرتة الكهنة بظهوره وزوال ملكه على يده؟ قلت: قد كان ذلك القتل حينئذ، وهذا قتل آخر. وعن ابن عباس رضى الله عنهما في قوله (قالوا اقتلوا) أعيدها عليهم القتل كالذى كان أولا، يريد أن هذا قتل غير القتل الاول (في ضلال) في ضياع وذهاب، باطلا لم يجد عليهم، يعنى. أنهم باشروا قتلهم أولا فإغنى عنهم، ونفذ قضاء الله بإظهار من خافوه، فإغنى عنهم هذا القتل الثانى، وكانت فرعون قد كفت عن قتل الولدان، فلما بعث موسى وأحس بأنه قد وقع: أعاده عليهم غيظاً وحنقا، وظلنا منه أنه يصددهم بذلك عن مظاهرة موسى، وما علم أن كيدهم ضائع فى الكرتين جميعا.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦)

(ذرونى أقتل موسى) كانوا إذا هم بقتله كفوه بقولهم: ليس بالذى تخافه، وهو أقل من ذلك وأضعف، وما هو إلا بعض السحرة، ومثله لا يقاوم إلا ساحرا مثله، ويقولون: إذا قتلته أدخلت الشبهة على الناس، واعتقدوا أنك قد عجزت عن معارضته بالحجة، والظاهر أن فرعون لعنه الله كان قد استيقن أنه نبي، وأن ما جاء به آيات وما هو بسحر، ولكن الرجل كان فيه خب وجريزة، وكان قتالا سفاكا للدماء فى أهون شيء، فكيف لا يقتل من أحس منه بأنه هو الذى يثل عرشه ويهدم ملكه، ولكنه كان يخاف إن هم بقتله أن يعاجل بالهلاك. وقوله

(١) ورأيت زوجك فى الوغى متقلدا سيفاً ورمحا
الوغى: الحرب. ورمحا: نصب بمحذوف يتابعه، أى: متقلدا سيفاً وحاملا رمحا. وروى بدل الشطر الاول: ياليت زوجك قد غدا. أى ذهب إلى الحرب غدوة لابسا سلاحه.

(وليدع ربه) شاهد صدق على فرط خوفه منه ومن دعوته ربه ، وكان قوله (ذروني أقتل موسى) تمويهاً^(١) على قومه ، وإيهاماً أنهم هم الذين يكفونه ، وما كان يكفه إلا ما في نفسه من هول الفرع (أن يبدل دينكم) أن يغير ما أنتم عليه ، وكانوا يعبدونه ويعبدون الأصنام ، بدليل قوله (ويذكر وآلهتك) والفساد في الأرض : التفاتن والتهارج الذي يذهب معه الأمن وتتعتل المزارع والمكاسب والمعاش ، ويهلك الناس قتلاً وضياعاً ، كأنه قال : إني أخاف أن يفسد عليكم دينكم بدعوتكم إلى دينه . أو يفسد عليكم دنياكم بما يظهر من الفتن بسببه . وفي مصاحف أهل الحجاز وأن يظهر بالواو ، ومعناه . إني أخاف فساد دينكم ودنياكم معا . وقرئ : يظهر ، من أظهر^(٢) ، والفساد منصوب ، أي : يظهر موسى الفساد . وقرئ يظهر ، بتشديد الظاء والهاء ، من تظهر بمعنى تظاهر ، أي : تتابع وتعاون .

وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧)

لما سمع موسى عليه السلام بما أجراه فرعون من حديث قتله : قال لقومه (إني عذت) بالله الذي هو ربي وربكم ، وقوله (وربكم) فيه بعث لهم على أن يقتدوا به ، فيعوذوا بالله عياده ، ويعتصموا بالتوكل عليه اعتصامه ، وقال (من كل متكبر) لتشمل استعاذته فرعون وغيره من الجبابرة ، وليكون على طريقة التعريض ؛ فيكون أبلغ ، وأراد بالتكبر : الاستكبار عن الإذعان للحق ، وهو أقبح استكبار وأدله على دناءة صاحبه ومهانة نفسه ، وعلى فرط ظلمه وعسفه ، وقال (لا يؤمن بيوم الحساب) لأنه إذا اجتمع في الرجل التجبر والتكذيب بالجزاء وقلة المبالاة بالعاقبة ، فقد استكمل أسباب القسوة والجراءة على الله وعباده ، ولم يترك عظيمة إلا ارتكبتها : وعذت ولذت : أخوان . وقرئ : عت ، بالإدغام .

وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ

(١) قال محمود : « كانوا إذا هم بقتله كفوه عنه بقولهم : ليس هذا من يخاف ، وإنما هو ساحر لا يقاومه إلا مثله ، وقتله بوقع الشبهة عند الناس أنك إنما قتلت خذوا ، وكان فرعون لعنه الله في ظاهر أمره - والله أعلم - علماً أنه نبي خائفاً من قتله مع رغبته في ذلك لولا الجوع ، وأراد أن يكتم خوفه من قتله بأن يقول لهم : ذروني أقتله ، ليكفوه عنه فينسب الانكشاف من قتله إليهم ، لا إلى جوعه وخوفه . وبدل على خوفه منه لكونه نبياً قوله (وليدع ربه) وهذا من تمويحاته المعروفة . قال أحد : هو من جنس قوله (إن هؤلاء لشرذمة قليلون وإنهم لنا لغاظون وإننا لجميع حازنون) فقد تقدم أن مراده بذلك أن يظهر لقومه قلة احتفاله بهم ، ويوهمهم أن قتله لهم ليس خوفاً منهم ، ولكن غيظاً عليهم ، وكان من عادته الحذر والتحصن وحماية الذريعة في المحافظة على حوزة المملكة ، لا أن ذلك خوف واهل ، ولقد كذب ، إنما كان فؤاده مملوفاً رعباً .

(٢) قوله « وقرئ - يظهر من أظهر » يفيد أن القراءة المشهورة : يظهر من ظهر ، والفساد مرفوع . (ع)

رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ
وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ

مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾

(رجل مؤمن) وقرئ: رجل ، بسكون الجيم كما يقال : عضد ، في عضد وكان قبطيا ابن عم لفرعون :
آمن بموسى سرأ وقيل كان إسرائيليا و(من آل فرعون) صفة لرجل . أوصلة ليسكنتم ، أى :
يسكنتم لإيمانه من آل فرعون ، واسمه : سمعان أو حبيب . وقيل : خرييل ، أو حزيل . والظاهر :
أنه كان من آل فرعون ، فإن المؤمنين من بنى إسرائيل لم يقلوا ولم يعزوا . والدليل عليه قول
فرعون : (أبناء الذين آمنوا معه) . وقول المؤمن (فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا) دليل ظاهر
على أنه ينتصح لقومه (أن يقول) لأن يقول . وهذا إنكار منه عظيم وتبكيك شديد ، كأنه
قال : أترتكبون الفعل الشنعاء التي هي قتل نفس محرمة ، وما لكم علة قط في ارتكابها إلا كلمة
الحق التي نطق بها وهي قوله (ربى الله) مع أنه لم يحضر لتصحيح قوله بينة واحدة ، ولكن
بينات عدة من عند من نسب إليه الربوبية ، وهو ربكم لاربه وحده ، وهو استدراج لهم إلى
الاعتراف به ، وليلين بذلك جماعهم ويكسر من سورتهم ^(١) ، ولك أن تقدر مضافا محذوفا ،
أى : وقت أن تقول . والمعنى . أتقتلونه ساعة سمعتم منه هذا القول من غير روية ولا فكر في
أمره . وقوله (بالبينات) يريد بالبينات العظيمة التي عهدتموها وشهدتموها ، ثم أخذهم بالاحتجاج
على طريقة التقسيم فقال : لا يخلو من أن يكون كاذبا أو صادقا ، (فإن يك كاذبا فعليه كذبه)
أى يعود عليه كذبه ولا يتخطاه ضرره ، (وإن يك صادقا يصيبكم بعض) ما يعدكم إن تعرضتم
له . فإن قلت : لم قال : بعض (الذى يعدكم) وهو نبي صادق ، لابد لما يعدهم أن يصيبهم

(١) قال محمود : «الظاهر أن الرجل من آل فرعون ، وقيل : إنه من بنى إسرائيل . ومن آل فرعون : متعلق
ببكتهم ، تقديره : بكتهم لإيمانه من آل فرعون ، وهو بعيد : لأن بنى إسرائيل كان إيمانهم ظاهرا فأشياء ، ولقد استدرجهم
هذا المؤمن في الإيمان باستشهاد على صدق موسى بإحضاره عليه السلام من عند من نسب إليه الربوبية بينات عدة
لا بينة واحدة ، وأتى بها معرفة ، معناه : البينات العظيمة التي شهدتموها وعرفتموها على ذلك ، ليلين بذلك جماعهم
ويكسر من سورتهم ... الخ » قال أحمد : لقد أحسن الفهم والتفطن لأسرار هذا القول ، ويناسب تقديم الكاذب
على الصادق هنا قوله تعالى (وشهد شاهد من أهلها إن كان قيصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن
كان قيصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين) فقدم الشاهد أمانة صدقتها على أمانة صدق يوسف ، وإن كان
الصادق هو يوسف دونها ؛ لرفع التهمة وإبعاد الظن ؛ وإدلالا بأن الحق معه ، ولا يضره التأخير لهذه الفائدة .
وقريب من هذا التصرف لإبعاد التهمة ما في قصة يوسف مع أخيه ، إذ بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ، حتى قيل :
إنه لما انتهى إليه قال : اللهم ما سرق هذا ولا هو بوجه سارق ، فاطمأنت أنفسهم وانزاحت التهمة عن يوسف أن
يكون قصد ذلك ، فقالوا : والله لنفتشه ، فاستخرجها من وعائه .

كله لا بعضه؟ قلت: لآله احتاج في مقابلة خصوم موسى ومنا كربه إلى أن يلاوصهم^(١) ويدارهم، ويسلك معهم طريق الإنصاف في القول، ويأتيهم من وجهة المناصفة، فجاء بما علم أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله، وأدخل في تصديقهم له وقبولهم منه، فقال (وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم) وهو كلام المنصف في مقاله غير المشتط فيه، ليسمعوا منه ولا يردوا عليه، وذلك أنه حين فرضه صادقا فقد أثبت أنه صادق في جميع ما يعد، ولكنه أردفه (يصبكم بعض الذي يعدكم) ليهضمه بعض حقه في ظاهر الكلام، فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وافيًا، فضلا أن يتعصب له، أو يرى بالحصا من ورائه، وتقديم الكاذب على الصادق أيضاً من هذا القليل، وكذلك قوله (إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب). فإن قلت: فعن أبي عبيدة أنه فسر البعض بالكل، وأنشد بيت لبيد:

تَرَاكَ أَمْكِنَةً إِذَا لَمْ أَرْضَهَا - أَوْ يَرْبِطُ بَعْضُ النَّفُوسِ حَامَهَا^(٢)

قلت: إن صحت الرواية عنه، فقد حق فيه قول المازني في مسألة العلق: كان أجنبي من أن يفقه ما أقول له (إن الله لا يهدي من هو مسرف) يحتمل أنه كان مسرفا كذابا خذله الله وأهلكه ولم يستقم له أمر، فيتخلصون منه، وأنه لو كان مسرفا كذابا لما هداه الله للنبوة، ولما عضده بالبينات. وقيل: ماتولى أبو بكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أشد من ذلك طاف صلى الله عليه وسلم بالبيت، فلقوه حين فرغ، فأخذوا بمجامع رداثة فقالوا له: أنت الذي تنهانا عما كان يعبد آباؤنا، فقال: أنا ذاك، فقام أبو بكر الصديق رضى الله عنه فالتزمه من ورائه وقال: أقتلون رجلا أن يقول ربي الله، وقد جاءكم بالبينات من ربكم، رافعا صوته بذلك، وعيناه تسفحان، حتى أرسلوه^(٣). وعن جعفر الصادق: أن مؤمن آل فرعون قال ذلك سرا، وأبو بكر قاله ظاهرا.

يَقُومُ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ
إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ^(٢٩)
(ظاهرين في الأرض) في أرض مصر عالين فيها على بني إسرائيل، يعني: أن لكم ملك

(١) قوله «إلى أن يلاوصهم ويدارهم» في الصحاح: فلان يلاوص الشجر. أي: ينظر كيف يأتها

لقلمها. (ع)

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٦٤١ فراجع إن شئت اه مصححه.

(٣) أخرجه النسائي من طريق هشام عن عروة عن أبيه عن عمرو بن العاص. وابن حبان من طريق يحيى

ابن عروة عن عروة عن عبد الله بن عمرو بن العاص أمم منه. قلت: علقه البخاري نحوها.

لحصر وقد علوتم الناس وقهرتموهم ، فلا تفسدوا أمركم على أنفسكم ، ولا تتعرضوا لبأس الله وعذابه ، فإنه لا قبل لكم به إن جاءكم ، ولا يمنعكم منه أحد . وقال ﴿ ينصروننا ﴾ وجاءنا ؛ لأنه منهم في القرابة ، وليعلمهم بأن الذي ينصحهم به هو مساهم لهم فيه ﴿ ما أرىكم إلا ما أرى ﴾ أى : ما أشير عليكم برأى إلا بما أرى من قتله ، يعنى : لا أستصوب إلا قتله ، وهذا الذى تقولونه غير صواب ﴿ وما أهدىكم ﴾ بهذا الرأى ﴿ إلا سبيل الرشاد ﴾ يريد : سبيل الصواب والصلاح . أو ما أعلمكم إلا ما أعلم من الصواب ، ولا أدخر منه شيئاً ، ولا أسر عنكم خلاف ما أظهر يعنى أن لسانه وقلبه متواطئان على ما يقول ، وقد كذب : فقد كان مستشعراً للخوف الشديد من جهة موسى ، ولكنه كان يتجلد ، ولولا استشهاده لم يستشر أحداً ولم يقف الأمر على الإشارة . وقرئ : الرشاد ، فعال من رشد بالكسر ، كعلام . أو من رشد بالفتح ، كعباد . وقيل : هو من أرشد تجارب من أجبر ، وليس بذلك ؛ لأن فعلا من أفعل لم يجر إلا فى عدة أحرف ، نحو : ذاك وسار وقصار وحابر ، ولا يصح القياس على القليل . ويجوز أن يكون نسبة إلى الرشد ، كعواج وبئات^(١) ، غير منظور فيه إلى فعل .

وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ٣٠

مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ ٣١

﴿ مثل يوم الاحزاب ﴾ مثل أيامهم ، لأنه لما أضافه إلى الاحزاب وفسرهم بقوم نوح وعاد وثمود ، ولم يلبس أن كل حزب منهم كان له يوم دمار ، اقتصر على الواحد من الجمع ؛ لأن المضاف إليه أغنى عن ذلك كقوله :

* كَلُّوا فِي بَعْضٍ بَطْنَكُمْ تَعَفُّوا * (٢)

وقال الزجاج : مثل يوم حزب حزب ، ودأب هؤلاء : دؤبهم فى عملهم من الكفر والتكذيب وسائر المعاصى ، وكون ذلك دائماً دائماً منهم لا يفترون عنه ، ولا بد من حذف مضاف ، يريد : مثل جزاء دأبهم . فإن قلت : بم انتصب مثل الثانى ؟ قلت : بأنه عطف بيان لمثل الاول ؛ لأن

(١) قوله دكعواج وبئات ، أى : صاحب العاج ، والعاج : عظم الفيل . والبئات : الذى يبيع البتوت ، او يعملها . والبئت : الطيلسان من الخز ، كذا فى الصحاح . (ع)

(٢) كَلُّوا فِي بَعْضٍ بَطْنَكُمْ تَعَفُّوا فان زمانكم زمن خبيص

أى كلوا فى بعض بطونكم . وأورد البطن لآمن اللبس ، أى : لا تملؤوها ، فان أطلعتونى عفتهم من الطعام . وعف يعف - بكسر عين المضارع ، من باب غرب يضرب ، ثم قال : فان زمانكم ، أى أمرتكم بذلك لأن زمانكم مجدب . والخبيص : الضامر البطن ، فحبه الزمان المجدب بالرجل الجائع على طريق الكناية ، ووصفه بالخبيص تخييل لذلك .

آخر ما تناولته الإضافة قوم نوح ، ولو قلت أهلك الله الأحزاب : قوم نوح وعاد وثمود ، لم يكن إلا عطف بيان لإضافة قوم إلى أعلام . فسرى ذلك الحكم إلى أول ما تناولته الإضافة ﴿ وما الله يريد ظلماً للعباد ﴾ يعنى أن تدميرهم كان عدلاً وقسطاً ، لأنهم استوجبوه بأعمالهم ، وهو أبلغ من قوله تعالى ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ حيث جعل المنى إرادة الظلم ؛ لأن من كان عن إرادة الظلم بعيداً ، كان عن الظلم أبعد . وحيث نكر الظلم ، كأنه نفي أن يريد ظلماً لمعباده ^(١) . ويجوز أن يكون معناه كمنى قوله تعالى (ولا يرضى لعباده الكفر) أى لا يريد لهم أن يظلموا ؛ يعنى أنه دمرهم لأنهم كانوا ظالمين ^(٢) .

وَيَقَوْمٍ إِنَّيْ أَحَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُؤْثَرُونَ مَذْبِئِينَ مَا لَكُمْ

مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾

التنادى . ما حكى الله تعالى في سورة الأعراف من قوله (ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار) ، (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة) ويجوز أن يكون تصايحهم بالويل والثبور . وقرئ بالتشديد : وهو أن يند بعضهم من بعض ؛ كقوله تعالى (يوم يقر المرء من أخيه) وعن الضحاك : إذا سمعوا زفير النار ندوا هرباً ، فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجدوا ملائكة صفوفاً ، فيبئناهم بموج بعضهم في بعض : إذ سمعوا منادياً : أقبلوا إلى الحساب ﴿ تولون مذبزين ﴾ عن قتادة منصرفين عن موقف الحساب إلى النار . وعن مجاهد : فازين عن النار غير معجزين .

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ
حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ
مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَنَا لَهُمْ كَبِيرٌ

(١) قوله « كأنه نفي أن يريد ظلماً ما لعباده » هذا على مذهب المعتزلة من أنه تعالى لا يفعل الشر ولا يريده ، وأن الإرادة بمعنى الرضا . وعند أهل السنة أنه تعالى يخلق الشر ويريده كالخير ولا يرضى الشر ، فالرضا غير الإرادة عندكم ، كما تقرر في التوحيد . (ع)

(٢) قال محمود : « يجوز أن يكون معناه معنى : وما ربك بظلام للعبيد . وهذا أبلغ ؛ لأنه إذا لم يرد الظلم كان عن فعله الظلم أبعد ، وحيث نكر الظلم أيضاً ، كأنه نفي أن يريد ظلماً ما لعباده . قال : ويجوز أن يكون معناه كمنى قوله (ولا يرضى لعباده الكفر) فيكون المعنى : أن الله لا يريد لعباده أن يظلموا ؛ لأنه ذمهم على كونهم ظالمين . قال أحد : هذا من الطراز الأول ، وقد تقدم مذهب أهل السنة فيما يتعلق بإرادة الله تعالى خلافاً لهذا وأشباهه .

مَقْنَا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾

هو يوسف بن يعقوب عليهما السلام . وقيل : هو يوسف بن إبراهيم ^(١) بن يوسف بن يعقوب : أقام فيهم نبياً عشرين سنة . وقيل : إن فرعون موسى هو فرعون يوسف ، عمر إلى زمنه . وقيل : هو فرعون آخر . وبخبرهم بأن يوسف أتاكم بالمعجزات فشككتم فيها ولم تزالوا شاكين كافرين ﴿حتى إذا﴾ قبض ﴿قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا﴾ حكما من عند أنفسكم من غير برهان وتقدمة عزم منكم على تكذيب الرسل ، فإذا جاءكم رسول جحدتم وكذبتهم بناء على حكمكم الباطل الذي أسستموه ، وليس قولهم ﴿لن يبعث الله من بعده رسولا﴾ بتصديق لرسالة يوسف ، وكيف وقد شكوا فيها وكفروا بها ، وإنما هو تكذيب لرسالة من بعده مضموم إلى تكذيب رسالته . وقرئ : ألن يبعث الله ، على إدخال همزة الاستفهام على حرف النفي ، كأن بعضهم يقرر بعضاً بنفي البعث . ثم قال ﴿كذلك يضل الله﴾ أى مثل هذا الخذلان المبين ^(٢) يخذل الله كل مسرف في عصيانه مرتاب في دينه ﴿الذين يجادلون﴾ بدل من (من هو مسرف) فإن قلت : كيف جاز إبداله منه وهو جمع وذاك موحد ؟ قلت : لأنه لا يريد مسرفاً واحداً ، فكأنه قال : كل مسرف . فإن قلت : فما فاعل ﴿كبر﴾ ؟ قلت : ضمير من هو مسرف . فإن قلت : أما قلت هو جمع ، ولهذا أبدلت منه الذين يجادلون ؟ قلت : بلى هو جمع في المعنى . وأما اللفظ فوحد ، فحمل البدل على معناه ، والضمير الراجع إليه على لفظه ، وليس يبدع ^(٣) أن يحمل على

(١) قوله «وقيل هو يوسف بن إبراهيم» عبارة النسخ : أفرايم . (غ)

(٢) قوله «أى مثل هذا الخذلان المبين» المعنوية يؤولون الاضلال بالخذلان والترك ، بناء على مذهبه : أن الله لا يخلق الشر . وأهل السنة يفسرونه بخلق الضلال في القلب ، بناء على أنه تعالى يخلق الشر كالحير كما بين في التوحيد . (ع)

(٣) قال محمود : «الذين يجادلون بدل من من هو مسرف : لأن المراد كل مسرف . وجاز إبداله على معنى من ، لاعل لفظها . قال : فإن قلت ما فاعل كبر ؟ وأجاب بأنه ضمير من هو مسرف ، فحمل البدل على المعنى ، والضمير على اللفظ ، وليس يبدع» اه كلامه . قال أحمد : فيما ذكره معاملة لفظ من بعد معاملة معانها ، وهذا مما قدمت أن أهل العربية يستغربونه ، والأولى أن يجنب في إعراب القرآن ، فإن فيه إجماعاً بعد إيضاح ، والمعهود في قراءة البلاغة عكسه ، والصواب أن يحمل الضمير في قوله (كبر) راجعاً إلى مصدر الفعل المتقدم ، وهو قوله (يجادلون) تقديره : كبر جدالهم مقنا ، ويجعل (الذين) مبتدأ ، على تأويل حذف المضاف ، تقديره : جدال الذين يجادلون في آيات الله ، والضمير في قوله (كبر مقنا) عائد إلى الجدال المحذوف ، والجملة مبتدأ وخبر . ومثله في حذف المصدر المضاف وبناء الكلام عليه : قوله تعالى (أجعلتم سقاية الحاج وهجرة المسجد الحرام كن آمن يآله) على أحد تأويله ، ومثله كثير . وفيه سوى ذلك من الوجوه السالبة مما يطرق إلى الوجه المتقدم ، فالوجه المعدول عنه

اللفظ تارة وعلى المعنى أخرى ، وله نظائر ، ويجوز أن يرفع الذين يجادلون على الابتداء ، ولا بد في هذا الوجه من حذف مضاف يرجع إليه الضمير في كبر ، تقديره : جدال الذين يجادلون كبر مقتاً ، ويحتمل أن يكون (الذين يجادلون) مبتدأ ؛ و(بغير سلطان أتاهم) خبراً ، وفاعل كبر قوله ﴿ كذلك ﴾ أى كبر مقتاً مثل ذلك الجدال ، و(يطيع الله) كلام مستأنف ، ومن قال : كبر مقتاً عند الله جدالهم ، فقد حذف الفاعل ، والفاعل لا يصح حذفه . وفى (كبر مقتاً) : ضرب من التعجب والاستعظام لجدالهم ، والشهادة على خروجه من حدٍّ إشكاله من الكيثر . وقرئ : سلطان بضم اللام . وقرئ : قلب ، بالتثنية . ووصف القلب بالتكبر والتعجب ، لأنه مركزهما ومنبهما ، كما تقول : رأيت العين ، وسمعت الأذن . ونحوه قوله عز وجل (فإنه آثم قلبه) وإن كان الآثم هو الجملة . ويجوز أن يكون على حذف المضاف ، أى : على كل ذى قلب متكبر ، تجعل الصفة لصاحب القلب .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَبْهَمُنْ أَبْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾
أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنُ
لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾

قيل : الصرح : البناء الظاهر الذى لا يخفى على الناظر وإن بعد ، اشتقوه من صرح الشيء إذا ظهر ، و﴿ أسباب السموات ﴾ طرقها وأبوابها وما يؤدى إليها ، وكل ما أدرك إلى شيء فهو سبب إليه ، كالرشاء ونحوه ، فإن قلت : ما فائدة هذا التكرير ؟ ولو قيل : لعلى أبلغ أسباب السموات لأجزأ ؟ قلت : إذا أبهم الشيء ثم أوضح كان تفخيماً لشأنه ، فلما أراد تفخيماً ما أمل بلوغه من أسباب السموات أبهمها ثم أوضحها ، ولأنه لما كان بلوغها أمراً عجبياً أراد أن يورده على نفس متشوفة إليه ، ليعطيه السامع حقه من التعجب ، فأبهمه ليكشف إليه نفس هامان ، ثم أوضحه . وقرئ : فأطلع بالنصب^(١) على جواب الترجى ، تشبيهاً للرجى بالثقى . ومثل ذلك التزيين وذلك الصدّ ﴿ زين لفرعون سوء عمله وصدّ عن السبيل ﴾ والمزين : إما الشيطان بوسوسته ، كقوله تعالى (وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل) أو الله تعالى على وجه التسييب ، لأنه مكن^(٢) الشيطان وأمهله . ومثله زيننا لهم أعمالهم فهم يعمهون) وقرئ : وزين له سوء عمله^(٣) ،

(١) « وقرئ » فأطلع بالنصب » يفيد أن القراءة المشهورة بالرفع على الرفع . (ع)

(٢) قوله « على وجه التسييب » لأنه مكن ، أول هذا ؛ لأنه تعالى لا يخلق الشر عند المعتزلة . أما عند أهل السنة فيخلقه كالخير فلا حاجة إلى هذا التأويل ، ونرى الآية على ظاهرها . (ع)

(٣) قوله « وقرئ : وزين له سوء عمله » أى بدل قوله تعالى (وكذلك زين لفرعون سوء عمله) . (ع)

على البناء للفاعل والفعل لله عز وجل ، دل عليه قوله (إلى إله موسى) وصد ، بفتح الصاد وضمة وكسرها ، على نقل حركة العين إلى الفاء ، كما قيل : قيل . والتباب الحسران والهلاك . وصد : مصدر معطوف على سوء عمله . وصدوا هو وقومه .

وَقَالَ الَّذِي مَأْمَنَ بِقَوْمٍ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) بِقَوْمٍ إِنَّمَا هَؤُلَاءِ

الْحَمِيمَةُ الدُّنْيَا مَتَّعَ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩)

قال (أهدكم سبيل الرشاد) فأجل لهم ، ثم فسر فافتتح بدم لنديا وتصغير شأنها ؛ لأن الإخلاق إليها هو أصل الشر كله ، ومنه يتشعب جميع ما يؤدي إلى سخط الله ويجلب الشقاوة في العاقبة . وثنى بتعظيم الآخرة والاطلاع على حقيقةها ، وأنها هي الوطن والمستقر ، وذكر الأعمال سيئتها وحسنها وعاقبة كل منهما ، ليثبط عما يتلف وينشط لما يزلف ، ثم وازن بين الدعوتين : دعوة إلى دين الله الذي ثمرته النجاة ، ودعوتهم إلى اتخاذ الانداد الذي عاقبته النار ، وحذر ، وأندر ، واجتهد في ذلك واحتشد ، لا جرم أن الله استثناه من آل فرعون ، وجعله حجة عليهم وعبرة للعتبرين ، وهو قوله تعالى (فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب) وفي هذا أيضاً دليل بين على أن الرجل كان من آل فرعون . والرشاد نقيض الغي . وفيه تعريض شبيه بالتصريح أن ماعليه فرعون وقومه هو سبيل الغي .

مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَثْنَىٰ وَهُوَ

مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠)

(فلا يجزى إلا مثلها) لأن الزيادة على مقدار جزاء السيئة قبيحة ، لأنها ظلم . وأما الزيادة على مقدار جزاء الحسنة فحسنة ؛ لأنها فضل . قرئ : يدخلون ويدخلون (بغير حساب) واقع في مقابلة إلا مثلها ، يعني : أن جزاء السيئة لها حساب وتقدير ، لئلا يزيد على الاستحقاق ، فأما جزاء العمل الصالح فبغير تقدير وحساب ، بل ماضت من الزيادة على الحق والكثرة والسعة وبقوم مالي أدعوكم إلى النجوة وتدعوني إلى النار (٤١) تدعوني لا ككفر

بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفور (٤٢)

فإن قلت : لم كرر نداء قومه ؟ ولم جاء بالواو في النداء الثالث دون الثاني ؟ قلت : أما تكرير النداء ففيه زيادة تنبيه لهم وإيقاظ عن سنة الغفلة . وفيه : أنهم قومه وعشيرته وهم فيها يوقههم ،

وهو يعلم وجه خلاصهم، ونصيحتهم عليه واجبة، فهو يتحزن لهم ويتلطف بهم، ويستدعي بذلك أن لا يهتموه، فإن سرورهم سروره، وغمهم غمه، وينزلوا على تنصيحهم لهم، كما كرر إبراهيم عليه السلام في نصيحة أبيه: يا أبت. وأما المحيى بالواو العاطفة، فلأن الثاني داخل على كلام هو بيان للجمل وتفسير له، فأعطى الداخل عليه حكمه في امتناع دخول الواو، وأما الثالث فداخل على كلام ليس بتلك المثابة. يقال: دعاه إلى كذا ودعاه له، كما تقول: هداه إلى الطريق وهداه له (ماليس لي به علم) أى برؤيته، والمراد بنى العلم: نفى المعلوم، كأنه قال: وأشرك به ماليس ياله، وما ليس ياله كيف يصح أن يعلم إلهاً (١)

لَا جَرَمَ أَنَّكُمْ تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ
مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (١٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ
وَأُقَوِّضُ أُمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٤)

(لاجرم) سياقه على مذهب البصريين: أن يجعل (لا) ردًا لما دعاه إليه قومه. وجرم: فعل بمعنى حق، وأن مع مافى حيزه فاعله، أى: حق ووجب بطلان دعوته. أو بمعنى: كسب، من قوله تعالى (ولا يجرمكم شأن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا) أى: كسب ذلك الدعاء إليه بطلان دعوته، على معنى أنه ما حصل من ذلك إلا ظهور بطلان دعوته. ويجوز أن يقال: أن لاجرم، نظير: لا بد، فعل من الجرم، وهو القطع، كما أن بدأ فعل من التبييد وهو التفريق، فكأن معنى: لا بد أنك تفعل كذا، بمعنى: لا بعد لك من فعله، فكذلك لاجرم أن لهم النار، أى: لا قطع لذلك، بمعنى أنهم أبدأ يستحقون النار لا انقطاع لاستحقاقهم ولا قطع، لبطلان دعوة الأصنام، أى لا تزال باطلة لا ينقطع ذلك فينقلب حقاً. وروى عن العرب: لاجرم أنه يفعل بضم الجيم وسكون الراء، بزنة بد، وفعل وفعل: أخوان. كرشد وارشد، وعدم وعدم (ليس له دعوة) معناه: أن ما تدعوننى إليه ليس له دعوة إلى نفسه قط، أى: من حق المعبود بالحق أن يدعو العباد إلى طاعته، ثم يدعو العباد إليها إظهاراً لدعوة ربهم وما تدعون إليه وإلى عبادته، لا يدعو هو إلى ذلك ولا يدعى الربوبية، ولو كان حيواناً ناطقاً لضع من دعائكم. وقوله (فى الدنيا ولا فى الآخرة) يعنى أنه فى الدنيا جماد لا يستطيع شيئاً

(١) قال محمود: المراد بنى العلم نفى المعلوم، كأنه قال: وأشرك به ماليس ياله، وماليس ياله كيف يصح أن يعلم إلهاً، قال أحد: وهذا من قبيل: على لاجب لا يهتدى بمناره. أى: لا منار له يهتدى به، وكلام الزمخشري ههنا أشد من كلامه على قوله تعالى حكاية عن فرعون (ما علمت لكم من إله غيرى).

من دعاء وغيره ، وفي الآخرة : إذا أنشأ الله حيوانا ، تبرأ من الدعاة إليه ومن عبده . وقيل معناه ليس له استجابة دعوة تنفع في الدنيا ولا في الآخرة . أو دعوة مستجابة ، جعلت الدعوة التي لاستجابة لها ولا منفعة فيها كلا دعوة . أو سميت الاستجابة باسم الدعوة ، كما سمي الفعل المجازي عليه باسم الجزاء في قولهم : كما تدين تدان . قال الله تعالى (له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء) . (المسرفين) عن قتادة : المشركين . وعن مجاهد : السفاكين للدماء بغير حلها . وقيل : الذين غلب شرهم خيرهم هم المسرفون . وقرئ : فستذكرون ، أي : فسيدكر بعضهم بعضاً (وأفوض أمري إلى الله) لأنهم توعده .

فَوَقَّهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ

عَلَيْهَا غَدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾

(فوَقَّه الله سيئات ما مَكَرُوا) شدائد مكرهم وما هموا به من إلحاق أنواع العذاب بمن خالفهم . وقيل : نجما مع موسى (وحاق بآل فرعون) ما هموا به من تعذيب المسلمين ، ورجع عليهم كيدهم (النار) بدل من سوء العذاب . أو خبر مبتدأ محذوف ، كأن قائلنا قال : ما سوء العذاب ؟ فقيل : هو النار . أو مبتدأ خبره (يعرضون عليها) وفي هذا الوجه تعظيم للنار وتحويل من عذابها ، وعرضهم عليها : إحراقهم بها . يقال : عرض الإمام الأسارى على السيف إذا قتلهم به ، وقرئ : النار ، بالنصب ، وهي تعضد الوجه الأخير . وتقديره : يدخلون النار يعرضون عليها . ويجوز أن ينتصب على الاختصاص (غدواً وعشيا) في هذين الوقتين يعذبون بالنار ، وفيما بين ذلك الله أعلم بحالهم ، فإما أن يعذبوا بجنس آخر من العذاب ، أو بنفس عنهم . ويجوز أن يكون (غدواً وعشيا) : عبارة عن الدوام ، هذا مادامت الدنيا ، فإذا قامت الساعة قيل لهم (ادخلوا) يا (آل فرعون أشد) عذاب جهنم . وقرئ : أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ ، أي : يقال لحزنة جهنم : أَدْخِلُوهُمْ . فإن قلت : قوله (وحاق بآل فرعون سوء العذاب) معناه : أنه رجع عليهم ما هموا به من المكر بالمسلمين ، كقول العرب : من حفر لأخيه جباً وقع فيه منكباً ، فإذا فسر سوء العذاب بنار جهنم : لم يكن مكرهم راجعاً عليهم ، لأنهم لا يعذبون بجهنم . قلت : يجوز أن يهيم الإنسان بأن يغرق قوماً فيحرق بالنار ، ويسمى ذلك حيقاً : لأنه تم بسوء فأصابه ما يقع عليه اسم السوء . ولا يشترط في الحيق أن يكون الحاقق ذلك السوء بعينه ، ويجوز أن يهيم فرعون - لما سمع إنذار المسلمين بالنار ، وقول المؤمن (وأن المسرفين هم أصحاب النار) - فيفعل نحو ما فعل نمرود ويعذبهم بالنار ، لحاق به مثل ما أضمره وهم بفعله . ويستدل بهذه الآية على إثبات عذاب القبر .

وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ قِيَمُولُ الضُّعْبِ أُولَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا
فَقُلْ أَنْتُمْ مُنْعُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾

واذكر وقت يتحاجون (تبعاً) تبعاً، كخدم في جمع خادم . أو ذوى تبع ، أى : أتباع ، أو وصفاً بالمصدر .

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾

وقرئ . كلا ، على التأكيد لاسم إن ، وهو معرفة ، والتثنية عوض من المضاف إليه ، يريد : إنا كلنا . أو كلنا فيها . فإن قلت : هل يجوز أن يكون ، كلا ، حالاً قد عمل (فيها) فيها ؟ قلت : لا لأن الظرف لا يعمل في الحال متقدمة كما يعمل في الظرف متقدماً تقول كل يوم لك ثوب ولا تقول قائماً في الدار زيد (قد حكم بين العباد) قضى بينهم وفصل بأن أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار .

وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْهُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾
قَالُوا أَوْ لَمْ تُكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا قَادِعُوا وَمَا دُعَاؤُا
الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾

(لخزنة جهنم) للقوام بتعذيب أهلها . فإن قلت : هلا قيل : الذين في النار لخزنتها ؟ قلت : لأن في ذكر جهنم تهويلاً وتفظيلاً ويحتمل أن جهنم هي أبعد النار قرأ ، من قولهم : بئر جهنم بعيدة القمر ^(١) ، وقولهم في النابغة : جهنم ، تسمية بها ، لزعيمهم أنه يلقي الشعر على لسان المنتسب إليه ، فهو بعيد الغور في علمه بالشعر ^(٢) ، كما قال أبو نواس في خلف الأحمر :
* قُلِّدْتُمْ مِّنَ الْعِيَالِ لِمِ الْخُسُفِ * ^(٣)

(١) قوله « بئر جهنم بعيدة القمر ... الخ » في الصحاح : بكسر الجيم والماء . (ع)

(٢) قال محمود : « فإن قلت : فهلا قيل لخزنتها ، وأجاب أن في ذكر جهنم تهويلاً وتفظيلاً ، ويحتمل أن جهنم هي أبعد النار قرأ من قولهم : بئر جهنم ، أى : بعيدة القمر ، وكان النابغة يسمي الجهنم لبعد غوره في القمر » قال أحمد : الأول أظهر ، والتفخيم فيه من وجهين ، أحدهما : وضع الظاهر موضع المضمرة ، وهو الذي أشار إليه والثاني : ذكره وهو شيء واحد بظاهر غير الأول أفضح منه : لأن جهنم أفضح من النار ، إذ النار مطلقة و جهنم أشدها .

(٣) أودى جميع العلم مذ أودى خالف من لا يمد العلم إلا ما عرف

راوية لا يجتنى من الصحف قلبيتم من العياليتم الخسف

وفيهما أعتى الكفار وأطغاهم ، ففعل الملائكة الموكلين بعذاب أولئك أجوب دعوة لزيادة قريبهم من الله تعالى ، فلهذا تعمدهم أهل النار بطلب الدعوة منهم ﴿ أو لم تلك تأتيكم ﴾ لإلزام للحجة وتوبيخ ، وأنهم خلفوا وراءهم أوقات الدعاء والتضرع ، وعطلوا الأسباب التي يستجيب الله لها الدعوات ﴿ قالوا فادعوا ﴾ أنتم ، فإننا لا نجترئ على ذلك ولا نشفع إلا بشرطين : كون المشفوع له غير ظالم ، والإذن في الشفاعة مع مراعاة وقتها ، وذلك قبل الحكم الفاصل بين الفريقين ، وليس قولهم ﴿ فادعوا ﴾ لرجاء المنفعة ، ولكن للدلالة على الخيبة : فإن الملك المقرب إذالم يسمع دعاؤه ، فكيف يسمع دعاء الكافر .

إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴿٥١﴾

يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾

﴿ في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ أى في الدنيا والآخرة ، يعنى أنه يغلبهم في الدارين جميعا بالحجة والظفر على مخالفهم ، وإن غلبوا في الدنيا في بعض الأحيان امتحانا من الله ، فالعاقبة لهم ، ويتيح الله من يقتص ^(١) من أعدائهم ولو بعد حين : والأشهاد . جمع شاهد ، كصاحب وأصحاب ، يريد : الحفظة من الملائكة والأنبياء والمؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم (لتكونوا شهداء على الناس) . واليوم الثاني بدل من الأول ، يحتمل أنهم يعتذرون بمعذرة ولكنها لا تنفع لأنها باطلة ، وأنهم لو جاؤا بمعذرة لم تكن مقبولة ^(٢) لقوله تعالى (ولا يؤذن لهم فيعتذرون) ، ﴿ ولهم اللعنة ﴾ البعد من رحمة الله ﴿ ولهم سوء الدار ﴾ أى سوء دار الآخرة وهو عذابها . وقرئ : تقوم . ولا تنفع ، بالناء والياء .

== لا بنو اس يرى خلف الأحمر بن أحمد . وأوردى ذلك من لا يعد العلم صفة خلف ، أى : لا يعتبر من العلم إلا بما عرفه حق اليقين وتلقاه بالتلقين . أو عرفه بالاستنباط من قواعد السابقين ، فهو رواية ، أى : كثير الرواية لا يأخذ من الكتب ، شهبا بالروضة المثمرة على طريق المكتبة ، والاحتياط تخيل . والليدزم : البئر الغزيرة الماء . والعلم : الحفرة الكثيرة الماء . والخسف : البعيدة الغور العميقة ، شبه بذلك تشبيها بليغا . لكثرة علمه ومعرفته للبعان البعيدة الخفية .

(١) قوله « من يقتص » أى : يقدر . (ع)

(٢) قال محمود : « يحتمل أنهم يعتذرون بمعذرة لكنها لا تنفعهم ، لأنها باطلة . ويحتمل أنهم لا يعتذرون ، ولو جاؤا بمعذرة لم تكن مقبولة » قال أحد : « وما الاحتمالان في قوله تعالى (ولا شفيع يطاع) ولكن بين الموضعين فرقا يصير أحدهما معه عكس الآخر ، وذلك أنه هنا على تقدير أن يكون المراد أنهم لا معذرة لهم البتة ، يكون قد نفى صفة المعذرة وهي المنفعة التي لها تراد المعذرة ، قطعا لرجائهم كي لا يعتذروا البتة ، كأنه قيل إذا لم يحصل ثمرة المعذرة فكيف يقع مالا ثمرة له وفي الآية المقدمة جعل نفى الموصوف بتا لنفى الصفة ولهذا أولى النفي في هذه الآية الفعل ، وفي المقدمة أولى النفي الذات المنسوب إليها الفعل .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ ۖ هُدًى
وَذِكْرًا لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۖ

يريد بالهدى : جميع ما آتاه في باب الدين من المعجزات والتوراة والشرائع (وأورثنا) وتركنا على بني إسرائيل من بعده (الكتاب) أى التوراة (هدى وذكرى) إرشادا وتذكرة ، وانتصابهما على المفعول له أو على الحال . وأولو الالباب : المؤمنون به العاملون بما فيه .

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعُشِيِّ
وَالْإِبْكَارِ ۖ

(فاصبر إن وعد الله حق) يعنى أن نصره الرسل فى ضمان الله ؛ وضمان الله لا يخلف ، واستشهد بموسى وما آتاه من أسباب الهدى والنصرة على فرعون وجنوده ، وإبقاء آثار هدايه فى بني إسرائيل ، والله ناصرك كما نصرهم ، ومظهرك على الدين كله ، ومبلغ ملك أمتك مشارق الأرض ومغاربها ، فاصبر على ما يجزئك قومك من النقص ، فإن العاقبة لك وما سبق به وعدى من نصرتك وإعلاء كلمتك حق ، وأقبل على التقوى واستدرك الفرط بالاستغفار ؛ ودم على عبادة ربك والثناء عليه (بالعشى والإبكار) وقيل : هما صلاتا العصر والفجر .

إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ يَغْيِرُ سُلْطَنَ أَتَائِهِمْ إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ

إِلَّا كِبْرًا مَا هُمْ بِبِلَافِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۖ

(إن فى صدورهم إلا كبر) إلا تكبر وتعظم ، وهو إرادة التقدم والرياسة ، وأن لا يكون أحد فوقهم ، ولذلك عادوك ودفعوا آياتك خيفة أن تتقدمهم ويكونوا تحت يدك وأمرك ونهيك ، لأن النبوة تحتها كل ملك ورياسة . أو إرادة أن تكون لهم النبوة دونك حسدا وبغيا . ويدل عليه قوله تعالى (لو كان خيرا ما سبقونا إليه) أو إرادة دفع الآيات بالجدال (ما هم ببالفية) أى ببالغى موجب الكبر ومقتضيه ، وهو متعلق إرادتهم من الرياسة أو النبوة أو دفع الآيات . وقيل : المجادلون هم اليهود ، وكانوا يقولون : يخرج صاحبنا المسيح بن داود ، يريدون الدجال ، ويبلغ سلطانه البر والبحر ، وتسير معه الأنهار ، وهو آية من آيات الله فيرجع إلينا الملك ، فسمى الله تمنيهم ذلك كبرا ، ونفى أن يبلغوا متمنهم (فاستعذ بالله) فالتجئ إليه من كيد من

يُحَدِّثُكَ وَيُبْنِي عَلَيْكَ (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ) لَمَّا تَقُولُ وَيَقُولُونَ (البصير) بِمَا تَعْمَلُ وَيَعْمَلُونَ ،
فَهُوَ نَاصِرُكَ عَلَيْهِمْ وَعَاصِمُكَ مِنْ شَرِّهِمْ .

لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾

فَإِنْ قُلْتُ . كَيْفَ اتَّصَلَ قَوْلُهُ (لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) بِمَا قَبْلَهُ ؟ قُلْتُ : إِنْ مَجَادَلْتَهُمْ فِي
آيَاتِ اللَّهِ كَانَتْ مُشْتَمِلَةً عَلَى إِنْكَارِ الْبَعْثِ ، وَهُوَ أَصْلُ الْمَجَادَلَةِ وَمَدَارُهَا ، فَحُجَّجُوا بِخَلْقِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا مُقَرِّينَ أَنَّ اللَّهَ خَالِقُهَا وَبَأَنَّهَا خَلَقَ عَظِيمٌ لَا يَقَادِرُ قَدْرُهُ ، وَخَلَقَ النَّاسَ
بِالْقِيَاسِ إِلَيْهِ شَيْءٌ قَلِيلٌ مِهِينٌ ، فَمَنْ قَدَّرَ عَلَى خَلْقِهَا مَعَ عَظَمَتِهَا كَانَ عَلَى خَلْقِ الْإِنْسَانِ مَعَ مِهَانَتِهِ
أَقْدَرُ ، وَهُوَ أَبْلَغُ مِنَ الْإِسْتِشْهَادِ بِخَلْقِ مِثْلِهِ ^(١) (لَا يَعْلَمُونَ) لِأَنَّهُمْ لَا يَنْظُرُونَ وَلَا يَتَأَمَّلُونَ
لِغَلْبَةِ الْغَفْلَةِ عَلَيْهِمْ وَاتِّبَاعِهِمْ أَهْوَاءَهُمْ .

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمَسِيءُ
قَلِيلًا مِمَّا تَنْذَرُونَ ﴿٥٨﴾

ضَرْبُ الْأَعْمَى وَالْبَصِيرِ مِثْلًا لِلْحَسَنِ وَالْمَسِيءِ . وَقُرِئَ : يَنْذَرُونَ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ ، وَالتَّاءُ أَعْمٌ .

إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَارِيبَ فِيهَا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾
(لَارِيبَ فِيهَا) لَا بَدَّ مِنْ حُجَّتِهَا وَلَا مَحَالَةٍ ، وَلَيْسَ بِمِرْيَابٍ فِيهَا ، لِأَنَّهُ لَا بَدَّ مِنْ جَزَاءِ
(لَا يُؤْمِنُونَ) لَا يَصْدُقُونَ بِهَا .

(١) قَالَ مُحَمَّدٌ : دَفَانٌ قُلْتُ : كَيْفَ اتَّصَلَ قَوْلُهُ (لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) بِمَا قَبْلَهُ ؟ وَاجَابَ أَنَّ مَجَادَلَتَهُمْ فِي
آيَاتِ اللَّهِ كَانَتْ مُشْتَمِلَةً عَلَى إِنْكَارِ الْبَعْثِ ، وَهُوَ أَصْلُ الْمَجَادَلَةِ وَمَدَارُهَا ، فَحُجَّجُوا بِخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا
مُقَرِّينَ أَنَّ اللَّهَ خَالِقُهَا ، وَبَأَنَّهَا خَلَقَ عَظِيمٌ ، فَخَلَقَ النَّاسَ بِالْقِيَاسِ إِلَيْهِ شَيْءٌ قَلِيلٌ مِهِينٌ ، فَمَنْ قَدَّرَ عَلَى خَلْقِهَا مَعَ
عَظَمَتِهَا كَانَ عَلَى الْإِنْسَانِ الضَّعِيفِ أَقْدَرُ ، وَهُوَ أَبْلَغُ مِنَ الْإِسْتِشْهَادِ بِخَلْقِ مِثْلِهِ . قَالَ أَحَدُ : الْأَوَّلِيَّةُ فِي هَذَا الْإِسْتِشْهَادِ
ثَابِتَةٌ بِدَرَجَتَيْنِ ، أَحَدُهُمَا مَا ذَكَرَهُ مِنْ أَنَّ الْقَادِرَ عَلَى الْعَظِيمِ هُوَ عَلَى الْحَقِيرِ أَقْدَرُ . الثَّانِيَّةُ : أَنَّ مَجَادَلَتَهُمْ كَانَتْ فِي الْبَعْثِ وَهُوَ
الْإِعَادَةُ وَلَا شَكَّ أَنَّ الْإِبْتِدَاءَ أَعْظَمُ وَأَبْهَرُ مِنَ الْإِعَادَةِ ، فَإِذَا كَانَ إِبْتِدَاءُ خَلْقِ الْعَظِيمِ يَعْنِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ دَاخِلًا تَحْتَ
الْقُدْرَةِ فَاتِّبَاعُ خَلْقِ الْحَقِيرِ : يَعْنِي النَّاسَ دَاخِلٌ تَحْتَهَا ، وَإِعَادَتُهُ أَدْخَلَ مِنْ إِبْتِدَائِهِ ، فَهُوَ أَوْلَى بِأَنْ يَكُونَ مُقَدَّرًا عَلَيْهِ بِمَا
اعْتَرَفُوا بِهِ مِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِدَرَجَتَيْنِ ، وَإِلَى هَذَا التَّرْتِيبِ وَقَعَتِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي (الْمُغْلِبَةِ الرُّومِ) :
(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ) فَيَقَرُّ أَنَّ قِيَامَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
هُوَ بِأَمْرِهِ ، أَيْ : خَلْقُهَا مِنْ آيَاتِهِ ، فَكَيْفَ بِمَا هُوَ أَحْطَى مِنْ قِيَامِهَا بِدَرَجَتَيْنِ وَهُوَ إِِعَادَةُ الْبَشَرِ أَهْوَنُ عَلَيْهِ مِنَ الْإِبْتِدَاءِ
لِيُتَحَقَّقَ الدَّرَجَتَانِ الْمَذْكُورَتَانِ ، فَقَالَ تَعَالَى (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) وَإِذَا تَأَمَّلْتَ الَّذِي
ذَكَرْتَهُ مُتَسَوِّبًا لِمَا ذَكَرَهُ الرَّعْشَرِيُّ : عَلِمْتَ أَنَّ مَا ذَكَرَهُ هُوَ لِبَابِ الْمَرَادِ لِحُدُودِ عَهْدٍ بِهِ إِنْ لَمْ تَعْلَمْ ذَلِكَ .

وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي
سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾

(ادعوني) اعبدوني، والدعاء بمعنى العبادة كثير في القرآن، ويدل عليه قوله تعالى (إن الذين يستكبرون عن عبادتي) والاستجابة: الإجابة؛ وفي تفسير مجاهد: اعبدوني أطيعكم. وعن الحسن - وقد سئل عنها -: اعملوا وأبشروا، فإنه حق على الله أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله. وعن الثوري أنه قيل له: ادع الله، فقال: إن ترك الذنوب هو الدعاء. وفي الحديث: إذا شغل عبدي طاعني عن الدعاء. أعطيته أفضل ما أعطى السائلين، ^(١) وروى النعمان بن بشير رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: والدعاء هو العبادة، ^(٢) وقرأ هذه الآية. ويجوز أن يريد الدعاء والاستجابة على ظاهرهما، ويريد بعبادتي: دعائي، لأن الدعاء باب من العبادة ومن أفضل أبوابها، يصدقه قول ابن عباس رضى الله عنهما: أفضل العبادة الدعاء. ^(٣) وعن كعب: أعطى الله هذه الأمة ثلاث خلال لم يعطهن إلا نبياً. رسلاً: كان يقول لكل نبي أنت شاهد على خلقى، وقال لهذه الأمة (لتكونوا شهداء على الناس)؛ وكان يقول: ما عليك من حرج، وقال لنا (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج) وكان يقول: ادعنى أستجب لك؛ وقال لنا (ادعوني أستجب لكم). وعن ابن عباس: وحدوني أغفر لكم، وهذا تفسير للدعاء بالعبادة، ثم للعبادة بالتوحيد (داخِرِينَ) صاغرين.

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ

عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾

(مبصراً) من الإسناد المجازى، لأن الإبصار في الحقيقة لأهل النهار. فإن قلت: لم قرن الليل بالمفعول له، والنهار بالحال؟ وهلا كانا حالين أو مفعولاً لهما في راعى حق المقابلة؟ قلت: هما متقابلان من حيث المعنى، لأن كل واحد منهما يؤدي مؤدى الآخر، ولأنه لو قيل:

(١) أخرجه عبد الرزاق عن سفيان عن منصور عن مالك بن الحارث قال «يقول الله: إذا اشتغل عبدي بشأنه عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين، وهذا مرسل، وفي الترمذى عن أبي سعيد «من شغله قراءة القرآن عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين».

(٢) أخرجه أصحاب السنن، وتقدم في مرهم.

(٣) أخرجه الحاكم في الدعاء من وجهين عنه.

لتبصروا فيه ، فانت الفصاحة التي في الإسناد المجازي ، ولو قيل : ساكنا - والليل يجوز أن يوصف بالسكون على الحقيقة ، ألا ترى إلى قولهم : ليل ساج ، وساكن لا ريح فيه - لم تتميز الحقيقة من المجاز . فإن قلت : فهلا قيل : لمفضل ، أو لمفضل ؟ قلت : لأن الغرض تكبير الفضل ، وأن يجعل فضلا لا يوازيه فضل ، وذلك إنما يستوى بالإضافة . فإن قلت : فلو قيل : ولكن أكثرهم ، فلا يتكرر ذكر الناس ؟ قلت : في هذا التكرير تخصيص لكفران النعمة بهم ، وأنهم هم الذين يكفرون فضل الله ولا يشكرونه ، كقوله : (إن الإنسان لكفور) ، (إن الإنسان لربه لكنود) ، (إن الإنسان لظلوم كفار) .

ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾

كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾

(ذلكم) المعلوم المتميز بالأفعال الخاصة التي لا يشاركه فيها أحد هو (الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو) أخبار مترادفة ، أي : هو الجامع لهذه الأوصاف من الإلهية والربوبية وخلق كل شيء وإنشائه لا يمتنع عليه شيء ، والوحدانية : لا ثاني له (فأنى تؤفكون) فكيف ومن أى وجه تصرفون عن عبادته إلى عبادة الأوثان . ثم ذكر أن كل من جحد بآيات الله ولم يتأملها ولم يكن فيه همة طلب الحق وخشية العاقبة : أفك كما أفكوا . وقرئ : خالق كل شيء ، نصبا على الاختصاص . وتؤفكون : بالتاء والياء .

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ

صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾

هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾

هذه أيضا دلالة أخرى على تمييزه بأفعال خاصة ، وهي أنه جعل الأرض مستقرا (والسما) ببناء) أى قبة . ومنه : أبنية العرب لمضاربهم ؛ لأن السماء في منظر العين كقبة مضروبة على وجه الأرض (فأحسن صوركم) وقرئ بكسر الصاد والمعنى واحد . قيل : لم يخلق حيوانا أحسن صورة من الإنسان : وقيل لم يخلقهم منكوسين كالبهايم ، كقوله تعالى (في أحسن تقويم) (فادعوه) فاعبدوه (مخلصين له الدين) أى الطاعة من الشرك والرياء ، قائلين (الحمد لله رب العالمين) وعن ابن عباس رضى الله عنهما : من قال لا إله إلا الله . فليقل على أثرها : الحمد لله رب العالمين (١) .

(١) أخرجه الطبري ، والحاكم أيضا ، والبيهقي في الاسماء والصفات ، وابن مردويه من رواية الأعمش عن مجاهد عنه .

قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أُعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ رَبِّ الصَّالِحِينَ ﴿٦٦﴾

فإن قلت : أما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عبادة الأوثان بأدلة العقل حتى جاءت البيّنات من ربه ؟ قلت : بلى ولكن البيّنات لما كانت مقوية لأدلة العقل ومؤكدة لها ومضمنة ذكرها نحو قوله تعالى (أتعبدون ما تحتون والله خلقكم وما تعملون) وأشياء ذلك من التنبيه على أدلة العقل - كان ذكر البيّنات ذكرا لأدلة العقل والسمع جميعا ، وإنما ذكر ما يدل على الأمرين جميعا ؛ لأن ذكر تناصر الأدلة أدلة العقل وأدلة السمع أقوى في إبطال مذهبهم ، وإن كانت أدلة العقل وحدها كافية . (١)

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

(لتبلغوا أشدكم) متعلق بفصل محذوف تقديره : ثم يقيقكم لتبلغوا . وكذلك لتكونوا . وأما (ولتبلغوا أجلا مسمى) فعناه : ونفعل ذلك لتبلغوا أجلا مسمى ، وهو وقت الموت . وقيل : يوم القيامة . وقرئ : شيوخا ، بكسر الشين . وشيخا ، على التوحيد ، كقوله (طفلا) والمعنى : كل واحد منكم . أو اقتصر على الواحد ؛ لأن الغرض بيان الجنس (من قبل) من قبل الشيخوخة أو من قبل هذه الأحوال إذا خرج سقطا (ولعلكم تعقلون) ما في ذلك من العبر والحجج .

(١) قال محمود : «فإن قلت : التي عليه الصلاة والسلام قد اتفحت له أدلة العقل على التوحيد قبل مجي الوحي ، فعلام تحمل الآية ؟ وأجاب بأن الأمر كذلك ولكن البيّنات مقوية لأدلة العقل ومؤكدة لها ومضمنة ذكرها ، نحو قوله (أتعبدون ما تحتون والله خلقكم وما تعملون) وأشياء ذلك من التنبيه على أدلة العقل والسمع جميعا ، وإنما ذكر ما يدل على الأمرين جميعا لأن ذكر الأمرين أقوى في إبطال مذهبهم ، وإن كانت أدلة العقل وحدها كافية» قال أحد : اللائق بقواعد السنة أن يقال : أما معرفة الله تعالى ومعرفة وحدانيته واستحالة كون الأصنام آلهة ، فستفاد من أدلة العقول ، وقد ترد الأدلة العقلية في مضامين السمعات . وأما وجوب عبادة الله تعالى وتحريم عبادة الأصنام ، لحكم شرعي لا يستفاد إلا من السمع ؛ فعل هذا يترك الجواب عن هذا السؤال . وقوله تعالى (لئن نهيته أن أعبد الذين تدعون من دون الله) إنما أريد به - والله أعلم - : تحريم عبادة غير الله ، فهذا لا يستفاد إلا من نهى الله تعالى عن ذلك ، لا من العقل ، لكن قاعدة الرغشرى تقتضى أن تحريم عبادة غير الله تعالى تلقى من العقل قبل ورود الشرع ، إذ العقل عنده حاكم بمقتضى التحسين والتجبيح ، ولهذا أورد الاشكال عليه ، واحتاج إلى الجواب عنه ، ثم قوله في الجواب أن أدلة الشرع مقوية لأدلة العقل ضعيف ، مع اعتقاده أن العقل يدل على الحكم قطعا ، ومادل قطعا كيف يحتمل الريادة والتأكيد ، والقطعيات لا تقاوت في ثبوتها .

هُوَ الَّذِي يُنْجِي وَيُهْلِكُ فَأِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾
 ﴿فإذا قضى أمراً فإنما﴾ يكوّنه من غير كلفة ولا معاناة . جعل هذا نتيجة من قدرته على الإحياء والإماتة ، وسائر ما ذكر من أفعاله الدالة على أنّ مقدوراً لا يمتنع عليه ، كأنه قال : فلذلك من الاقتدار إذا قضى أمراً كان أهون شيء وأسرع .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنِّي يُضْرَقُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا
 بِالْكِتَابِ وَمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ
 وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْعَجِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ
 لَهُمْ آيَنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ
 نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَلِكَكُمْ بِمَا
 كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾
 ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾

﴿بالكتاب﴾ بالقرآن ﴿وبما أرسلنا به رسلنا﴾ من الكتاب . فإن قلت : وهل قوله
 ﴿فسوف يعلمون﴾ إذا الأغلال في أعناقهم ﴿إلى مثل قولك : سوف أصوم أمس ؟ قلت :
 المعنى على إذا : إلّا أن الأمور المستقبلية لما كانت في أخبار الله تعالى متيقنة مقطوعاً بها : عبر
 عنها بلفظ ما كان ووجد ، والمعنى على الاستقبال . وعن ابن عباس : والسلاسل يسحبون بالنصب
 وفتح الياء ، على عطف الجملة الفعلية على الإسمية . وعنه : والسلاسل يسحبون بجر السلاسل .
 ووجهه أنه لو قيل : إذ أعناقهم في الأغلال مكان قوله ﴿إذ الأغلال في أعناقهم﴾ لكان صحيحاً
 مستقيماً ، فلما كانتا عبارتين معتقتين : حمل قوله (والسلاسل) على العبارة الأخرى . ونظيره :

مَشَاهِيمٌ لَيْسُوا مُصْلِحِينَ خَشِيرَةٌ وَلَا نَاعِبٍ إِلَّا بَيْنَ عُرَاهُمَا ^(١)

كأنه قيل : بمصلحين . وقرئ : وبالسلاسل يسحبون ﴿في النار يسجرون﴾ من سجر التنور إذا

ملأه بالوقود. ومنه: السجير^(١)، كأنه سيجر بالحب، أى: ملئ. ومعناه: أنهم فى النار فهمى محيطه بهم، وهم مسجورون بالنار مملوءة بها أجوافهم. ومنه قوله تعالى (نار الله الموقدة التى تطلع على الافئدة) اللهم أجرنا من نارك فإننا عائدون بجوارك (صلوا عتانا) غابوا عن عيوننا، فلا نراهم ولا ننفع بهم. فإن قلت: أما ذكرت فى تفسير قوله تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم): أنهم مقرونون بألهتهم، فكيف يكونون معهم وقد ضلوا عنهم؟ قلت: يجوز أن يضلوا عنهم إذا وبخوا وقيل لهم: أينما كنتم تشركون من دون الله فيغيثوكم ويشفعوا لكم، وأن يكونوا معهم فى سائر الأوقات^(٢)، وأن يكونوا معهم فى جميع أوقاتهم: إلا أنهم لما لم ينفعوهم فكأنهم ضالون عنهم (بل لم نكن ندعو من قبل شيئا) أى تبين لنا أنهم لم يكونوا شيئا، وما كنا نعبد لعبادتهم شيئا كما تقول: حسبت أن فلانا شئ. فإذا هو ليس بشئ. إذا خبرته فلم تر عنده خيرا (كذلك يضل الله الكافرين) مثل ضلال آلهتهم عنهم يضلهم عن آلهتهم، حتى لو طلبوا الآلهة أو طلبتهم الآلهة لم يتصادفوا (ذلكم) الإضلال بسبب ما كان لكم من الفرح والمرح (بغير الحق) وهو الشرك وعبادة الأوثان (ادخلوا أبواب جهنم) السبعة المتسومة لكم. قال الله تعالى (لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم). (خالد بن) مقدرين الخلود (فبئس مثوى المتكبرين) عن الحق المستخفين به مثواكم أو جهنم. فإن قلت: أليس قياس النظم أن يقال: فبئس مدخل المتكبرين، كما تقول: ذر بيت الله فنعم المزار، وصل فى المسجد الحرام فنعم المصلى؟ قلت: الدخول المأوقت بالخلود فى معنى الثواء.

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرَبِّيكَ بِعُصَى الْإِذَى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ

فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾

(فإمّا نربّيك) أصله: فإن نرك. و(ما) مزيدة لتأكيد معنى الشرط، ولذلك ألحقت التّون بالفعل^(٣). ألا تراك لا تقول. إن تكرمنى أكرمك، ولكن: إما تكرمنى أكرمك. فإن قلت: لا يخلو إما أن تعطف (أو نتوفّيك) على نربّيك وتشرّكهما فى جزاء واحد وهو قوله تعالى (فإلينا يرجعون) فقولك: إمّا نربّيك بعض الذى نعدهم فإننا يرجعون: غير صحيح، وإن

(١) قوله «ومن السجير» فى الصحاح: «سجير الرجل»: صفيه وخليله، والجمع السجرا. (ع)

(٢) قوله «فى سائر الأوقات» أى باقى الأوقات بعد وقت التّويخ. (ع)

(٣) قال محمود: «المصحح للحاق التّون المؤكدة دخول ما المؤكدة للشرط، ولولا (ما) لم يجر دخولها». قال أحد: وإنما كان كذلك لأن التّون المؤكدة حقها أن تدخل فى غير الواجب، والشرط من قبيل الواجب، إلا أنه إذا أكد قوى إلهامه فقرّبه قوة الإلهام من غير الواجب، فيساغ دخول التّون فيه.

جعلت (فإلينا يرجعون) مختصاً بالمعطوف الذي هو توفيتك ، في المعطوف عليه بغير جزاء . قلت : (فإلينا يرجعون) متعلق بتوفيتك ، وجزاء (تريتك) محذوف ، تقديره : فإما تريتك بعض الذي نعدهم من العذاب وهو القتل والأسر يوم بدر فذاك . أو إن توفيتك قبل يوم بدر فإننا يرجعون يوم القيامة فننتقم ^(١) منهم أشد الانتقام ونجره قوله تعالى (فإما نذهبن بك فإننا منهم منتقمون أو تريتك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾

(ومنهم من لم نقصص عليك) قيل : بعث الله ثمانية آلاف نبي : أربعة آلاف من بني إسرائيل ، وأربعة آلاف من سائر الناس . وعن علي رضي الله عنه : أن الله تعالى بعث نبياً أسود ^(٢) ، فهو من لم يقصص عليه . وهذا في اقتراحهم الآيات على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عناداً ، يعني : إنا قد أرسلنا كثيراً من الرسل وما كان لواحد منهم (أن يأتي بآية إلا بإذن الله) فمن لي بأن آتى بآية مما تقترحونه إلا أن يشاء الله ويأذن في الإتيان بها (فإذا جاء أمر الله) وعيد ورذ عقيب اقتراح الآيات . وأمر الله : القيامة (المبطلون) هم المعاندون الذين اقترحوا الآيات وقد أنهتهم الآيات فأنكروها وسموها سحراً .

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا

(١) قال محمود : إما أن يشرك مع الأول في الشرط ويكون قوله (فإلينا يرجعون) جزاء مشركاً بينهما فلا يستقيم المعنى ، على : فإما تريتك بعض الذي نعدهم . . فإننا يرجعون وإن جعل الجزاء مختصاً بالثاني بقي الأول بغير جزاء . وأجاب بأنه مختص بالثاني ، وجزاء الأول محذوف ، تقديره : فإما تريتك بعض الذي نعدهم وهو ما حل بهم يوم بدر ، فذاك . أو توفيتك ، فإننا يرجعون فننتقم منهم ، قال أحمد : وإنما حذف جواب الأول دون الثاني لأن الأول إن وقع فذاك غاية الأمل في إنكأهم ، فالثابت على تقدير وقوعه معلوم ، وهو حصول المراء على التمام . وأما إن لم يقع ووقع الثاني وهو توفيه قبل حلول المجازاة بهم ، فهذا هو الذي يحتاج إلى ذكره للتسليط وتقطيع النفس ، على أنه وإن تأخر جزاؤهم عن الدنيا فهو حتم في الآخرة ولا بد منه . قال : ومثله قوله تعالى (فإما نذهبن بك فإننا منهم منتقمون ، أو تريتك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون) : كأنه يستشهد على أن جزاء الأول محذوف بذكر هذه الآية

(٢) أخرجه الطبري والطبراني في الأوسط وابن مردويه من رواية جابر الجعفي عن عبد الله بن يحيى عن علي رضي الله عنه في قوله (ومنهم من لم نقصص عليك) قال أرسل الله عبدا حبشياً ، فهو الذي لم نقصص عليك ، وروى الطبري من وجه آخر عن جابر عن أبي الطفيل عن علي وكان أصحاب الأجدود نبيهم حبشياً . بعث نبي من الحبشة إلى قومه . ثم قرأ (ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك - الآية) .

مَنْفَعٌ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفَلَكَ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾

وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾

الأنعام : الإبل خاصة . فإن قلت : لم قال ﴿لتركبوا منها﴾ وتبلغوا عليها ، ولم يقل ، لتأكلوا منها وتصلوا إلى منافع ؟ أو هلا قال : منها تركبون ومنها تأكلون وتبلغون ^(١) عليها حاجة في صدوركم ؟ قلت : في الركوب : الركوب في الحج والغزو ، وفي بلوغ الحاجة : الهجرة من بلد إلى بلد لإقامة دين أو طلب علم ، وهذه أغراض دينية إما واجبة أو مندوبة إليها مما يتعلق به إرادة الحكيم . وأما الأكل وإصابة المنافع : فمن جنس المباح الذي لا يتعلق ^(٢) به إرادته : ومعنى قوله ﴿وعليها وعلى الفلك تحملون﴾ وعلى الأنعام وحدها لا تحملون ، ولكن عليها وعلى الفلك في البر والبحر . فإن قلت : هلا قيل : وفي الفلك ، كما قال ﴿قلنا حمل فيها من كل زوجين اثنين﴾ ؟ قلت : معنى الإيلاء ^(٣) ومعنى الاستعلاء : كلاهما مستقيم : لأن الفلك وعاء لمن يكون فيها حمولة له يستعملها ، فلما صح المعنيان صححت العبارتان . وأيضا فليطابق قوله ﴿وعليها﴾ ويواجه ﴿فأى آيات الله﴾ جاءت على اللغة المستفيضة . وقولك : فأية آيات الله قليل ، لأن التفرقة بين المذكور والمؤث في السماء غير الصفات نحو حمار وحمار غريب ، وهي في (أى) أغرب لإيهامه .

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

(١) قال محمد : وفان قلت : هلا قيل لتركبوا منها ولتأكلوا منها وتبلغوا ، ومنها تركبون ومنها تأكلون ، وعليها تبلغون ؟ وأجاب بأن في الركوب الركوب في الغزو والحج ، وفي بلوغ الحاجة الهجرة من بلد إلى بلد لإقامة دين أو علم ، وهذه أغراض دينية : إما واجبة أو مندوبة مما يتعلق به إرادة الحكيم . وأما الأكل وإصابة المنافع فمن جنس المباح الذي لا يتعلق به الإرادة ، قال أحد : جواب متداع للسقوط مؤسس على قاعدة واهية ، وهي أن الأمر راجع إلى الإرادة ، فالواجب والمندوب مرادان ؛ لأنهما مندرجان في الأمر ، والمباح غير مراد ، لأنه غير مأمور به ، وهذا من هيات المعتزلة في إنكار كلام النفس ، فلا تغيل فيه النفس . وقاعدة أهل الحق أنه لا ربط بين الأمر والإرادة ، فقد يأمر بخلاف ما يريد ، ويريد خلاف ما يأمر به ، فالجواب الصحيح إذا أن المقصود الموم من الأنعام والمنفعة المشهورة فيها إنما هي الركوب وبلوغ الحوائج عليها بواسطة الأسفار والانتقال في ابتغاء الأوطار ، فذلك ذكرها هنا مقروئين باللام الدالة على التعليل والفرض . وأما الأكل وبقية المنافع كالأصواف والأوبار والألبان وما يجري مجراها فهي وإن كانت حاصلة منها فغير خاصة بها خصوص الركوب والحل وتوابع ذلك ، بل الأكل بالغم خصوصاً الضأن أشهر ، فذلك اختيرت الضحايا منها على الغنم ، فذلك جردت هذه المنافع بالاختيار عن وجودها فيها غير مقرونة بما يدل على أنها المقصود .

(٢) قوله : المباح الذي لا يتعلق به ، مبنى على مذهب المعتزلة : أن الإرادة بمعنى الأمر فلا تتعلق إلا بالمطلوب . وعند أهل السنة : هي صفة تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه ، فتتعلق بجميع الممكنات ، كما تقرر في علم

التوحيد . (ع)

(٣) قوله : معنى الإيلاء ، في الصحاح : أوعيت الراد والمتاع : إذا جعلته في الوعاء . (ع)

كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ قَمَا اغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ
بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾

(وآثاراً) قصورهم ومصانعهم . وقيل : مشيهم بأرجلهم لعظم أجرامهم (فما أغنى عنهم) مانافية
أو مضمنة معنى الاستفهام ، ومحلها النصب ، والثانية موصولة أو مصدرية ومحلها الرفع ، يعنى
أى شئ . أغنى عنهم مكسوبهم أو كسبهم (فرحوا بما عندهم من العلم) فيه وجوه : منها أنه أراد
العلم الوارد على طريق التهكم في قوله تعالى (بل أذكركم علمهم في الآخرة) : وعلمهم في الآخرة أنهم
كانوا يقولون لا نبعث ولا نعذب ، (وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إنى عنده للحسنى) ،
(وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً) وكانوا يفرحون بذلك ويدفعون
به البينات وعلم الانبياء ، كما قال عز وجل (كل حزب بما لديهم فرحون) ومنها : أن يريد
علم الفلاسفة والديريين من بنى يونان ، وكانوا إذا سمعوا بوحى الله : دفعوه وصغروا علم
الانبياء . إلى علمهم . وعن سقراط : أنه سمع بموسى صلوات الله عليه وسلامه ، وقيل له .
لوما جرت إليه فقال : نحن قوم مهذبون فلا حاجة بنا إلى من يهذبنا . ومنها : أن يوضع قوله
(فرحوا بما عندهم من العلم) ولا علم عندهم البتة ، موضع قوله : يفرحوا بما جاءهم من العلم ،
مبالغة في نفي فرحهم بالوحى الموجب لأقصى الفرح والمسرّة ، مع تهكم بفرط جهلهم وخلوهم
من العلماء . ومنها أن يراد : فرحوا بما عند الرسل من العلم فرح ضحك منه واستهزاء به ، كأنه
قال : استهزؤا بالبينات وبما جاؤا به من علم الوحى فرحين مرحبين . ويدل عليه قوله تعالى (وحاق
بهم ما كانوا به يستهزئون) ومنها : أن يجعل الفرح للرسل . ومعناه : أن الرسل لما رأوا جهلهم
المتماذى واستهزائهم بالحق وعلووا سوء عاقبتهم وما يلحقهم من العقوبة على جهلهم واستهزائهم :
فرحوا بما أوتوا من العلم وشكروا الله عليه ، وحاق بالكافرين جزاء جهلهم واستهزائهم .
ويجوز أن يريد بما فرحوا به من العلم : علمهم بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها ، كما قال تعالى
(يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) ، (ذلك مبلغهم من العلم) فلما جاءهم
الرسل بعلوم الديانات - وهى أبعد شئ من علمهم لبعثها على رفض الدنيا والظلف^(١) عن
الملاذ والشهوات - لم يلتفتوا إليها وصغروها واستهزؤا بها ، واعتقدوا أنه لا علم أنفع وأجلب
للقوائد من علمهم ، ففرحوا به .

(١) قوله « والظلف » فى الصحاح : ظلفت نفسى عن كذا - بالكسر - تظلف ظلفاً ، أى : كفت . (ع)

فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾
 فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ
 وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

البأس : شدة العذاب . ومنه قوله تعالى (بعداب بئس) . فإن قلت : أى فرق بين قوله تعالى
 ﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم ﴾ وبينه لو قيل : فلم ينفعهم إيمانهم ؟ قلت : هو من كان في نحو قوله
 (ما كان لله أن يتخذ من ولد) والمعنى : فلم يصح ولم يستقم أن ينفعهم إيمانهم ^(١) . فإن قلت :
 كيف ترادفت هذه الفاآت ؟ قلت : أما قوله تعالى (فما أغنى عنهم) فهو نتيجة قوله (كانوا
 أكثر منهم) وأما قوله (فلما جاءتهم رسلهم بالبينات) فجار مجرى البيان والتفسير ، لقوله تعالى
 (فما أغنى عنهم) كقولك : رزق زيد المال فنع المعروف فلم يحسن إلى الفقراء . وقوله ﴿ فلما
 رأوا بأسنا ﴾ تابع لقوله ﴿ فلما جاءتهم ﴾ كأنه قال : فكفروا فلما رأوا بأسنا آمنوا ، وكذلك :
 ﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم ﴾ تابع لإيمانهم لما رأوا بأس الله ﴿ سنت الله ﴾ بمنزلة (وعد الله) وما أشبهه
 من المصادر المؤكدة . و﴿ هنالك ﴾ مكان مستعار للزمان ، أى : وخسروا وقت رؤية البأس ،
 وكذلك قوله (وخسر هنالك المبطلون) بعد قوله (فإذا جاء أمر الله قضى بالحق) أى : وخسروا
 وقت مجيء أمر الله ، أو وقت القضاء بالحق .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة المؤمن لم يبق روح نبي ولا صديق
 ولا شهيد ولا مؤمن إلا صلى عليه واستغفر له » ^(٢)

(١) قال محمود : « فإن قلت : أى فرق بين قوله : فلم يك ينفعهم إيمانهم . وبينه لو قيل : فلم ينفعهم ، وأجاب بأن
 معنى (كان) هنا معناها في قوله (ما كان لله أن يتخذ من ولد) بمعنى : فلم يستقم ولم يصح أن ينفعهم إيمانهم .
 قال أحد : كان الذى ثبت التصرف فيها بإجراء نونها مجرى حروف الالة حتى حذفت للجازم مى (كان) الكثير
 استعمالها ، المكرر دوراتها في الكلام . وأما (كان) هذه فليست كثيرة التصرف حتى ينسج فيها بالحذف ، بل هى
 مثل : صان ، وحان ، في القلة ، فالأولى بقاؤها على بابها المعروف ، وفائدة دخولها في هذه الآية وأشالها : المبالغة
 في نفي الفعل الداخلة عليه بتعدد جهتي نفيه عموماً باعتبار الكون ، وخصوصاً باعتباره في هذه الآية مثلاً ، فكأنه نفي
 مرتين ، والله أعلم .

(٢) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدى من حديث أبي بن كعب رضى الله عنه .

سورة [فصلت ، وتسمى] السجدة

مكية ، وآياتها ٥٤ وقيل ٥٣ آية [نزلت بعد غافر]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ ① تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ② كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا
عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ③ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ
لَا يَسْمَعُونَ ④

إن جعلت (حم) اسما للسورة كانت في موضع المبتدأ . و (تنزيل) خبره . وإن جعلتها
تعديدا للحروف كان (تنزيل) خبراً لمبتدأ محذوف و (كتاب) بدل من تنزيل . أو خبر بعد
خبر . أو خبر مبتدأ محذوف . وجوز الزجاج أن يكون (تنزيل) مبتدأ ، و (كتاب) خبره .
ووجهه أن تنزيلا تخصص بالصفة فساغ وقوعه مبتدأ (فصلت آياته) ميزت وجعلت تفاصيل
في معان مختلفة : من أحكام وأمثال ومواعظ ، ووعد ووعيد ، وغير ذلك . وقرئ : فصلت ،
أى : فرقت بين الحق والباطل . أو فصل بعضها من بعض باختلاف معانيها ، من قولك : فصل
من البلد (قرأنا عربيا) نصب على الاختصاص والمدح ، أى : أريد بهذا الكتاب المفصل
قرأنا من صفته كيت وكيت . وقيل : هو نصب على الحال ، أى : فصلت آياته في حال كونه
قرأنا عربيا (لقوم يعلمون) أى لقوم عرب يعلمون ما نزل عليهم من الآيات المفصلة المبينة
بلسانهم العربى المبين ، لا يلتبس عليهم شيء منه . فإن قلت : هم يتعلق قوله (لقوم يعلمون) ؟
قلت : يجوز أن يتعلق بتنزيل أو بفصلت ، أى : تنزيل من الله لأجلهم . أو فصلت آياته لهم .
والأجود أن يكون صفة مثل ما قبله وما بعده ، أى قرأنا عربيا كأثنا لقوم عرب ، لئلا يفرق
بين الصلات والصفات . وقرئ : بشير ونذير ، صفة للكتاب . أو خبر مبتدأ محذوف (فهم
لا يسمعون) لا يقبلون ولا يطيعون ، من قولك : تشفعت إلى فلان فلم يسمع قولى ، ولقد سمعته
ولكنه لما لم يقبله ولم يعمل بمقتضاه ، فكانه لم يسمعه .

وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا
وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَاصِمُونَ ﴿٥﴾

والأكنة : جمع كنان ، وهو الغطاء . والوقر - بالفتح - الثقل . وقرى بالكسر . وهذه تمثيلات لنحو قلوبهم عن تقبل الحق واعتقاده ، كأنها في غلف وأغطية تمنع من نفوذه فيها ، كقوله تعالى (وقالوا قلوبنا غلف) وج أسمعهم له كأن بها صمما عنه ، ولتباعد المذهبيين والدينين كأن بينهم وماهم عليه ، وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وما هو عليه : حجابا ساترا وحاجزا منيعا من جبل أو نحوه ، فلا تلاقى ولا ترائى (فاعمل) على دينك (إننا عاملون) على ديننا . أو فاعمل في إبطال أمرنا ، إننا عاملون في إبطال أمرك . وقرى : إنا عاملون . فإن قلت : هل لزيادة (من) في قوله (ومن بيننا وبينك حجاب) فائدة ؟ قلت : نعم ، لأنه لو قيل : وبيننا وبينك حجاب : لكان المعنى : أن حجابا حاصل وسط الجهتين ، وأما زيادة (من) فالمعنى : أن حجابا ابتدأ منا وابتدأ منك ، فالمسافة المتوسطة لجهتها وجهتك مستوعبة بالحجاب لا فراغ (١)

(١) قال محمود : « فان قلت : ما فائدة (من) في قوله (ومن بيننا وبينك حجاب) وأجاب بأن فائدتها الدلالة على أن من جهتهم ابتدأ الحجاب ، ومن جهته أيضاً ابتدأ حجاب ، فيلزم أن المسافة المتوسطة بينهما مملوءة بالحجاب لا فراغ فيها ، ولو لا ذكر من فيها لكان المعنى : على أن في المسافة بينهما حجاباً فقط ، قال أحمد : ولا ينفك المعنى يدخول (من) مما كان عليه قيل ، ولو كان الأمر كما ذكر لكانت من مقدرة مع بين الثانية ، لأنه جعلها مفيدة للابتداء في الثانية كما هي مفيدة للابتداء في الأولى ، فيكون التقدير إذاً : ومن بيننا وبينك حجاب ، وهذا يحل بمعنى (بين) إخلالاً بيننا ، فإنها تأتي تكرار العامل معها ، حتى لو قال القائل : جلست بين زيد ، وجلست بين عمرو : لم يكن مستغنياً ؛ لأن تكرار العامل يصيرها داخلة على مفرد فقط ، ويقطعه عن قرينه المتقدم . ومن شأنها الدخول على متعدد ، لأن في ضمن معناها التوسط . وزاد الزحشرى على هذا لجعل (بين) الثانية غير الأولى لأنه جعل الأولى بجهتهم والثانية بجهته ، وليس الأمر كما ظنه ، بل (بين) الأولى هي الثانية بعينها ، وهي عبارة عن الجهة المتوسطة بين المضافين ، وتكرارها إنما كان لأن المعطوف مضمر محفوف ، فوجب تكرار حافظه وهو بين ، والدليل على هذا : أنه لا تفاوت باتفاق بين أن تقول : جلست بين زيد وعمرو ؛ وبين أن تقول : جلست بين زيد وبين عمرو . وإنما كان ذكرها مع الظاهر جوازاً ومع انضمام وجوباً لما بيناه ؛ فإذا وضع ذلك فالظاهر - والله أعلم - أن موقع من هاهنا كوقعها في قوله تعالى (وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً) وذلك للاشعار بأن الجهة المتوسطة مثلاً بينهم وبين النبي عليه الصلاة والسلام مبدأ الحجاب لا غير ، ووجود من قريب من عدنها ، ألا ترى إلى آخر هذه الآية كيف لم يستعمل فيها من ، وهي قوله تعالى (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستورا . وجعلنا على قلوبهم أكنة أت يفقهوه وفي آذانهم وقرا) وكلام الزحشرى هذا إذا امتحنته بالتحقيق الذي ذكرناه : تبين ضعفه ، والله الموفق . وفي هذه الآية وأنها من المبالغة والبلاغة ما لا يليق أن ينظم إلا في درر الكتاب العزيز ، فإنها اشتملت على ذكر حجب ثلاثة متوالية : كل واحد منها كاف في فته ، فأولها الحجاب الحائل الخارج ، ويليه حجاب الصمم . وأقصاها الحجاب الذي أكن القلب والعياذ بالله ، فلم تدع هذه الآية حجاباً مرتجياً إلا أسبلته ولم تبق لهؤلاء الأشقياء مطعماً ولا صريحاً إلا استلبته ، فسأل الله كفايته .

فيها . فإن قلت : هلا قيل : على قلوبنا أكنة ، كما قيل : وفي آذاننا وقر ؛ ليكون الكلام على نمط واحد ؟ قلت : هو على نمط واحد ؛ لأنه لا فرق في المعنى بين قولك : قلوبنا في أكنة . وعلى قلوبنا أكنة . والدليل عليه قوله تعالى (إنا جعلنا على قلوبهم أكنة) ولو قيل : إنا جعلنا قلوبهم في أكنة : لم يختلف المعنى ، وترى المطاييع منهم لا يراعون الطبايع والملاحظة^(١) إلا في المعاني .

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا
إِلَهُكُمْ وَاسْتَغْفِرُوا ذُنُوبَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ
بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾

فإن قلت : من أين كان قوله (إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي) جواباً لقولهم (قلوبنا في أكنة)^(٢) ؟ قلت : من حيث أنه قال لهم : إني لست بملك ، وإنما أنا بشر مثلكم ، وقد أوحى إليّ دونكم فصحت - بالوحى إليّ وأنا بشر - نبؤي ، وإذا صحت نبؤي : وجب عليكم اتباعي ، وفيما يوحى إليّ : أن إلهم إله واحد (فاستقيموا إليه) فاستووا إليه بالتوحيد وإخلاص العبادة غير ذاهبين يميناً ولا شمالاً ، ولا ملتفتين إلى ما يسؤل لكم الشيطان من اتخاذ الأولياء والشفعاء ، وتوبوا إليه عما سبق لكم من الشرك (واستغفروا) . وقرى : قال إنما أنا بشر . فإن قلت : لم خص من بين أوصاف المشركين منع الزكاة مقروناً بالكفر بالآخرة ؟ قلت : لأن أحب شيء إلى الإنسان ماله وهو شقيق روحه ، فإذا بذله في سبيل الله فذلك أقوى دليل على ثباته واستقامته وصدق نيته ونصوع طويته . ألا ترى إلى قوله عز وجل (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم) أى : يثبتون أنفسهم ويدلون على ثباتها بإففاق الأموال ، وما خدع المؤافعة قلوبهم إلا بلبطة^(٣) من الدنيا فقزت عصيتهم ولانت شكيمتهم وأهل الردة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تظاهروا إلا بمنع الزكاة ، فنصبت لهم الحرب ،

(١) قوله «والملاحظة» له : والملاحظة . (ع)

(٢) قال محمود : «فإن قلت : كيف كان هذا جواباً لما تقدمه ، قال أحد : وأجاب بنا تلخيصه فنقول : لما أورا القبول منه عليه الصلاة والسلام كل الآباء ، بذام باقاة الحجية على وجوب القبول منه ، فإنه بشر مثلهم لا قدرة له على إظهار المعجزات التي ظهرت . وإنما القادر على إظهارها هو الله تعالى تصديقاً له عليه الصلاة والسلام ، ثم بين لهم بعد قيام الحجية عليهم أهم ما يهتد به وهو التوحيد ، واندرج تحت الاستقامة جميع تفاصيل الشرع وتم ذلك بانذارهم على ترك القبول بالويل الطويل .

(٣) قوله «إلا بلبطة من الدنيا» في الصحاح «لبط» إذا تنبع بلسانه بقية الطعام في فيه اه فلظة : بمعنى ملووظ كضمة بمعنى مضوغ . (ع)

وجوهودوا^(١) . وفيه بعث للمؤمنين على أداء الزكاة ، وتخويف شديد من منعها ، حيث جعل المنع من أوصاف المشركين ، وقرن بالكفر بالآخرة . وقيل : كانت قریش يطعمون الحاج ، ويحرمون من آمن منهم برسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : لا يفعلون ما يكونون به أزياء ، وهو الإيمان .

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾

الممنون : المقطوع . وقيل : لا يمين عليهم لأنه إنما يمين التفضل . فأما الاجر فحق أداؤه . وقيل : نزلت في المرضى والزمنى والمهرمى : إذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الاجر ، كأصح ما كانوا يعملون .

قُلْ أَنتُمْ كُفَرُوتُمْ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ ثَلَاثِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ آتَيْنَاهُمُ الْيَمِينَ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ آتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَفَقَّصْنَهُنَّ سَبْعَ مَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ صَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَاصِيحَ وَحَفَظْنَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾

(أنتكم) بهمزتين^(٢) : الثانية بين بين . وءاتسكم ، بألف بين همزتين (ذلك) الذي قدر على خلق الأرض في مدة يومين . هو (رب العالمين ... رواسي) جبلا لا ثوابت . فإن قلت : مامعنى قوله (من فوقها) وهل اختصر على قوله (وجعل فيها رواسي) كقوله تعالى (وجعلنا فيها رواسي شامخات) ، (وجعلنا في الأرض رواسي) ، (وجعل لها رواسي) ؟ قلت : لو كانت تحتها كالأساطين لها تستقر عليها ، أو مركوزة فيها كالمسامير : لمنعت من الميدان أيضا ، وإنما اختار إرساء ما فوق الأرض ،

(١) قال محمود : «فان قلت : لم خص الزكاة وأجاب بأن أحب الأشياء إلى الإنسان ماله وهو شقيق روحه ، فبئله مصداق لاستقامته ونصوع طوبته ، وما خدع المولفة قلوبهم إلا بلطمة من الدنيا ، وأهل الردة ما نظاهروا إلا بمنع الزكاة فنصبت لهم الحرب وجوهودوا» قال أحمد : كلام حسن بعد تبديل قوله : وما خدع المولفة ، فان استعماله الخداع غير لائق ، لأنهم إنما تألفهم عليه الصلاة والسلام على الإيمان من قبيل الملاطفة ودفع السيئة بالحسنة وما نحا هذا النحو .

(٢) قوله «أنتكم بهمزتين» لعله : قرئ بهمزتين ... الخ . (ع)

لتكون المنافع في الجبال معرضة لطالبها، حاضرة محصلها، وليبصر أن الأرض والجبال أثقال على أُنْقَال، كلها مفتقرة إلى عَمْسِكَ لا بد لها منه، وهو عَمْسُهَا عز وعلا بقدرته ﴿وبارك فيها﴾ وأكثر خيرها وأمناء ﴿وقدر فيها أقواتها﴾ أرزاق أهلها ومعايشهم وما يصلحهم. وفي قراءة ابن مسعود: وقسم فيها أقواتها ﴿في أربعة أيام سواء﴾ فذلك لمدة خلق الله الأرض وما فيها، كأنه قال: كل ذلك في أربعة أيام كاملة مستوية بلا زيادة ولا نقصان. قيل: خلق الله الأرض في يوم الأحد ويوم الاثنين، وما فيها يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء. وقال الزجاج: في أربعة أيام في تمة أربعة أيام، يريد بالتمة اليومين. وقرئ: سواء، بالحركات الثلاث: الجر على الوصف والنصب على: استوت سواء، أى: استواء: والرفع على: هى سواء. فإن قلت: بهم تعلق قوله ﴿للسائلين﴾؟ قلت: بمحذوف، كأنه قيل: هذا المحصر لأجل من سأل: في كم خلقت الأرض وما فيها؟ أو يقدر: أى: قدر فيها الأقوات لأجل الطالبين لها المحتاجين إليها من المقتاتين. وهذا الوجه الأخير لا يستقيم إلا على تفسير الزجاج. ^(١) فإن قلت: هلا قيل في يومين؟ وأى فائدة في هذه الفذلكة؟ قلت: إذا قال في أربعة أيام وقد ذكر أن الأرض خلقت في يومين، علم أن ما فيها خلق في يومين، فبقيت المخaire بين أن تقول في يومين وأن تقول في أربعة أيام سواء، فكانت في أربعة أيام سواء فائدة ليست في يومين، وهى الدلالة على أنها كانت أياما كاملة بغير زيادة ولا نقصان. ولو قال: في يومين - وقد يطلق اليومان على أكثرهما - لكان يجوز أن يريد باليومين الأولين والآخرين أكثرهما ﴿ثم استوى إلى السماء﴾ من قولك:

(١) قال محمود: وإن قوله ﴿في أربعة أيام﴾ فذلك لمدة خلق الله الأرض وما فيها، كأنه قال: وقدر فيها أقواتها في يومين آخرين، فذلك أربعة أيام سواء. وقال: ومعنى سواء: كاملة مستوية بلا زيادة ولا نقصان. ونقل عن الزجاج أن معنى الآية في تمة أربعة أيام، يريد بالتمة: اليومين، ثم قال: فإن قلت بهم تعلق قوله ﴿للسائلين﴾؟ وأجاب بأنه متعلق بمحذوف، كأنه قيل: هذا المحصر لأجل من سأل: في كم خلقت الأرض وما فيها؟ أو يقدر، أى: قدر فيها الأقوات لأجل السائلين المحتاجين إليها من المقتاتين، ثم قال: وهذا الوجه الأخير لا يستقيم إلا على تفسير الزجاج. قال أحمد: لم يبين استناؤه على التفسير الأول ونحن نبينه فنقول: مقتضى التفسير الأول أن قوله في أربعة أيام فذلك، ومن شأنها الوقوع في طرف الكلام بعد تمامه، فلوجعل قوله ﴿للسائلين﴾ متعلقاً بمقدر: لزم وقوع الفذلكة في حشو الكلام، ولا كذلك على تفسير الزجاج: فإن الأربعة على قوله من تمة الأول، وهى متعلقة بمقدر على تأويل حذف التمة تعلق الطرف بالمظروف، ليلازم ذلك إتمام الكلام ببيان المقصود من خلق الأقوات بعد بيان من خلقها. وتفسير الزجاج - والله أعلم - أرجح: فإنه يشتمل على ذكر مدة خلق الأقوات بالتأويل القريب الذى قدره، ومضمن لما يقوم مقام الفذلكة، إذ ذكر جملة العدد الذى هو ظرف لخلقها وخلق أقواتها، وعلى تفسير الزمخشري تكون الفذلكة مذكورة من غير تقدم تصريح بجملة تفاصيلها، فانه لم يذكر منها سوى يومين خاصة، ومن شأن الفذلكة أن يتقدم النص على جميع أعدادها مفصلة، ثم تأتى هى على الجملة كقوله ﴿فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة﴾.

استوى إلى مكان كذا ، إذا توجه إليه توجهها لا يلوى على شيء ، وهو من الاستواء الذى هو ضد الاعوجاج ، ونحوه قولهم : استقام إليه وامتد إليه . ومنه قوله تعالى (فاستقيموا إليه) والمعنى : ثم دعاه داعى الحكمة إلى خلق السماء بعد خلق الأرض وما فيها من غير صارف يصرفه عن ذلك . قيل : كان عرشه قبل خلق السموات والأرض على الماء ، فأخرج من الماء دخانا ، فارتفع فوق الماء وعلا عليه ، فأببس الماء لجعله أرضا واحدة ، ثم فثقتها لجعلها أرضين ، ثم خلق السماء من الدخان المرتفع . ومعنى أمر السماء والأرض بالإتيان وامتثالها : أنه أراد تكوينهما فلم يمتنعا عليه ، ووجدتا كما أرادهما ، وكانتا فى ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه فعل الأمر المطاع ، ^(١) وهو من المجاز الذى يسمى التمثيل . ويجوز أن يكون تخيلا وبينى الأمر فيه على أن الله تعالى كلم السماء والأرض وقال لهما : اتيا شئتما ذلك أو آيتنا ، فقلنا : آيتنا على الطوع لا على الكره . والغرض تصوير ^(٢) أثر قدرته فى المقدورات لا غير : من غير أن يحقق شيء من الخطاب والجواب . ونحوه قول القائل : قال الجدار للوند : لم تشقى ؟ قال الوند : أسأل من يدقنى ، فلم يركنى ، ورأى الحجر الذى ورأى . ^(٣) فإن قلت : لم ذكر الأرض مع السماء وانتظمها فى الأمر بالإتيان ، والأرض مخلوقة قبل السماء يومين ؟ قلت : قد خلق جرم الأرض أولا غير مدحوة ، ثم دحاها بعد خلق السماء ، كما قال تعالى (والأرض بعد ذلك دحاها) فالمعنى . اتيا على ما ينبغى أن تأتيا عليه من الشكل والوصف : اتنى يا أرض مدحوة قرارا ومهادا لأهلك ، واتنى يا سماء مقببة سقفا لهم . ومعنى الإتيان : الحصول والوقوع ، كما نقول : أتى عمله مرضيا ، وجاء مقبولا . ويجوز أن يكون المعنى : لتأت كل واحدة منك صاحبتها الإتيان الذى أريده وتقتضيه الحكمة والتدبير : من كون الأرض قرارا للسماء ، وكون السماء سقفا للأرض . وتنصره قراءة من قرأ : آتيا ، وآيتنا : من المؤاتاة وهى الموافقة : أى : لتوات كل واحدة أخنها ولتوافقها . قلنا : وافقتنا وساعدنا . ويحتمل وافقا أمرى ومشيتى ولا تمتنعا . فإن قلت : ما معنى طوعا أو كرها ؟ قلت : هو مثل اللزوم تأثير قدرته فيهما ، وأن امتناعهما

(١) قوله «فعل الأمر المطاع» لعله : أمر الأمر . (ع)

(٢) قوله «تصوير أثر قدرته» لعله : تأثير . (ع)

(٣) قال محمود : «إما أن يكون هذا من مجاز التمثيل كأن عدم امتناعها على قدرته امتثال المأمور المطيع إذا ورد عليه الأمر المطاع ، فهذا وجه . وأما أن يكون تخيلا فينبى الأمر فيه على أن الله تعالى كلم السموات والأرض فأجابته ، والغرض منه تصوير أثر القدرة فى المندور من غير أن يحقق شيئا من الخطاب والجواب ، ومثله قول القائل : قال الحائط للوند لم تشقى ؟ فقال الوند : أسأل من يدقنى لم يركنى ورأى الحجر الذى ورأى ، قال أحمد : قد تقدم إنكارى عليه إطلاق التخييل على كلام الله تعالى . فان معنى هذا الأحلاق لو كان صحيحا والمراد منه التصوير لوجب اجتناب التعبير عنه بهذه العبارة ، لما فيها من إيهام وسوء أدب ، والله أعلم .

من تأثير قدرته محال؛ كما يقول الجبار لمن تحت يده: لتفعلن هذا شئت أو أبيت، وتضعلنه طوعاً أو كرها. واتصباهما على الحال، بمعنى: طائعتين أو مكرهتين. فإن قلت: هلا قيل: طائعتين على اللفظ؟ أو طائعات على المعنى؟ لأنها سموات وأرضون. قلت: لما جعلنا مخاطبات ومجيبات، ووصفنا بالطوع والكراهة قيل: طائعتين، في موضع: طائعات، نحو قوله (ساجدين).^(١) (فقصاها) يجوز أن يرجع الضمير فيه إلى السماء على المعنى كما قال (طائعتين) ونحوه (عجائز نخل خاوية) ويجوز أن يكون ضميراً مبهماً مفسراً بسميع سموات، والفرق بين النصيين أن أحدهما على الحال، والثاني على التمييز، قيل خلق الله السموات وما فيها في يومين: في يوم الخميس والجمعة، وفرغ في آخر ساعة من يوم الجمعة. فخلق فيها آدم وهي الساعة التي تقوم فيها القيامة. وفي هذا دليل على ما ذكرت، من أنه لو قيل: في يومين في موضع أربعة أيام سواء، لم يعلم أنهما يومان كاملان أو ناقصان^(٢). فإن قلت: فلو قيل: خلق الأرض في يومين كاملين وقدر فيها أقواتها

(١) قال محمود: فإن قلت لم ذكر الأرض مع السماء وانتظما في الأمر بالأتين معها والأرض مخلوقة قبل السماء يومين؛ وأجاب بأنه قد خلق جرم الأرض أولاً غير مدحوة، ثم دحاها بعد خلق السماء كما قال (والأرض بعد ذلك دحاها) فالمعنى: اتبنا على ما ينبغي من الشكل: اتبنا بأرض مدحوة وفرارا ومهادا، واتبنا باسماء سقفا هقية. ثم قال: فإن قلت مامعنى طوعاً أو كرها، وأجاب بأنه تمثيل للزوم تأثير القدرة فيهما، كما يقول الجبار لمن تحت يده: افعل هذا شئت أو أبيت. ثم قال: فإن قلت: هلا قيل طائعتين، على اللفظ. وطائعات، على المعنى؛ لأنها سموات وأرضون. وأجاب بأنه لما جعلنا مخاطبات ومجيبات وموصفات بالطوع والكراهة. قيل: طائعتين في موضع طائعات، نحو قوله ساجدين قال أحمد: لم يحقق الجواب عن السؤال الآخر، وذلك أن في ضمن الآية سؤالين: أحدهما لم ذكرها وهي مؤنثة، وهذا هو السؤال الذي أوردته. الثاني أتى بها على جمع العقلاء وهي لاتعقل، وهذا لم يذكره، فالجواب الذي ذكره يختص بالسؤال الذي لم يذكره، ولهذا نظره بقوله (ساجدين) فإن تلك الآية ليس فيها سوى السؤال عن كونها جمعت جمع العقلاء. فأما السؤال الآخر فلا؛ لأن الكلام راجع إلى الكواكب وهي مذكرة، والشمس وإن كانت مؤنثة إلا أنه غلب في الكلام المذكر على المؤنث على المنهاج المعروف؛ فأما هذه الآية فتريد على تلك بهذا السؤال الآخر: وهو أن جميع ما تقدم ذكره من السموات والأرض مؤنثة، فيقال أولاً: لم ذكرها، وثانياً: لم أتى جمعها المذكر على جمع نعت جمع العقلاء، ليتحقق نسبة السؤال والجواب، والطوع اللاتي تختص بالعقلاء لاها، ولم يوجد في جمع المؤنث عدول إلى جمع المذكر لوجود الصيغة المرشدة إلى العقل فيه، فتنت الفاعلة بذلك على تأويل السموات والأرض بالأنفلاك مثلاً وما في معناه من المذكر، ثم يفتل المذكر على المؤنث ولا يعدم مثل هذا التأويل في الأرضين أيضاً.

(٢) قال محمود: «قيل: إن الله تعالى خلق السموات وما فيها في يوم الخميس ويوم الجمعة، وفرغ آخر ساعة من يوم الجمعة، وخلق آدم في تمة اليوم، وفيه تقوم القيامة ثم استدل بذلك على ما ذكره من أنه لو قال: في يومين، في موضع أربعة أيام سواء، لم يعلم أنهما يومان كاملان أو ناقصان» قال أحمد: كأنه يستدل بأعمال اليومين عن التأكيد، حيث لم يكن خلق السموات بما فيها في جملة اليومين، على أنه إنما فذلك أيام خلق الأرض بما فيها؛ لأنه لو فصلها لم يكن فيها دليل على استيعاب الخلق لكل يومين منها، بل كان يجوز أن يكون الخلق في أحد اليومين وبعض الآخر، كما كان في هذه الآية على النقل الذي ذكر، وهذا لا يتم له منه غرض، فإن لقائل أن يقول: إنما كان خلق السموات بما فيها في يومين كاملين؛ لأن آدم لم يكن في السموات حينئذ وبخلقه كل اليومان على مقتضى ما نقله، فتأمل.

في يومين كاملين . أو قيل بعد ذكر اليومين : تلك أربعة سواء ؟ قلت : الذي أورده سبحانه أخصر وأفصح وأحسن طلباً لما عليه التنزيل من مناصاة القرائح ومصاك الركب ، ^(١) ليشير الفاضل من الناقص ، والمتقدم من الناكس ، وترتفع الدرجات ، ويتضاعف الثواب (أمرها) ما أمر به فيها ودبره من خلق الملائكة والنيرات وغير ذلك . أو شأنها وما يصلحها (وحفظاً) وحفظناها حفظاً ، يعنى من المسترقة بالثواب . ويجوز أن يكون مفعولاً له على المعنى ، كأنه قال : وخلقنا المصاييح زينة وحفظاً .

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُودٍ ^(١٣) إِذْ جَاءَهُمْ
الرَّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا
لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ^(١٤)

(فإن أعرضوا) بعد ما تتلو عليهم من هذه الحجج على وحدانيته وقدرته ، فحذرهم أن تصيبهم صاعقة : أى عذاب شديد الوقع كأنه صاعقة . وقرئ : صعقة (مثل) صعقة عاد وثمود : وهى المرة من الصعق أو الصعق . يقال : صعقته الصاعقة صعقاً فصعق صعقاً ، وهو من باب : فعلته ففعل (من بين أيديهم ومن خلفهم) أى أتوهم من كل جانب ، واجتهدوا بهم ، وأعملوا فيهم كل حيلة ، فلم يروا منهم إلا العتو والإعراض ، كما حكى الله تعالى عن الشيطان (لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم) يعنى لآتينهم من كل جهة ، ولأعلن فيهم كل حيلة ، وتقول : استدرت بفلان من كل جانب ، فلم يكن لى فيه حيلة . وعن الحسن أنذرهم من وقائع الله فيمن قبلهم من الأمم وعذاب الآخرة : لأنهم إذا حذروهم ذلك فقد جأؤهم بالوعظ من جهة الزمن الماضى وما جرى فيه على الكفار ، ومن جهة المستقبل وما سيجرى عليهم . وقيل : معناه إذ جاءتهم الرسل من قبلهم ومن بعدهم . فإن قلت : الرسل الذين من قبلهم ومن بعدهم كيف يوصفون بأنهم جأؤهم ، وكيف يخاطبونهم بقولهم (إنا بما أرسلتكم به كافرون) ؟ قلت : قد جاءهم هود وصالح داعيين إلى الإيمان بهما وبجميع الرسل من جاء من بين أيديهم ، أى من قبلهم ومن يحى . من خلفهم ، أى من بعدهم ؛ فكان الرسل جميعاً قد جأؤهم . وقولهم (إنا بما أرسلتكم به كافرون) خطاب منهم لهود وصالح ولسائر الانبياء الذين دعوا إلى الإيمان بهم . أن فى (أن لا تعبدوا) بمعنى أى ، أو مخففة من الثقيلة ، أصله : بأنه لا تعبدوا ، أى : بأن الشأن والحديث قولنا لكم لا تعبدوا ، ومفعول شاء محذوف أى (لو شاء

(١) قوله من مناصاة القرائح ومصاك الركب ، أى أمكنة الغوص على اللؤلؤ ، وأمكنة اصطكاك الركب . (ع)

ربنا) إرسال الرسل (لأنزل ملائكة فإنما أرسلتم به كافرون) معناه: فإذا تم بشر ولستم بملائكة، فإنما لا تؤمن بكم وبما جئتم به، وقولهم (أرسلتم به) ليس بإقرار بالإرسال، وإنما هو على كلام الرسل، وفيه تهكم، كما قال فرعون (إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون). روى أن أبا جهل قال فى ملا من قريش: قد التبس علينا أمر محمد، فلو التستم لنا رجلا عالما بالشعر والكهانة والسحر فكلمه ثم أتانا ببيان عن أمره^(١)، فقال عتبة بن ربيعة: والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر وعلمت من ذلك علما، وما يخفى على، فأتاه فقال: أنت يا محمد خير أم هاشم؟ أنت خير أم عبد المطلب؟ أنت خير أم عبد الله؟ فبم تشتم آلهتنا وتضللنا، فإن كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء فكنت رئيسنا، وإن تك بك الباء زوجناك عشر نسوة تختار من أى بنات قريش شئت، وإن كان بك المال جمعنا لك من أموالنا ما تستغنى به، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ساكت؛ فلما فرغ قال: (بسم الله الرحمن الرحيم حم... إلى قوله... صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) فأمسك عتبة على فيه وناشده بالرحم، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش، فلما احتبس عنهم قالوا: ما نرى عتبة إلا قد صبا، فانطلقوا إليه وقالوا: يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك قد صبات، فنضب وأقسم لا يكلم محمدا أبدا، ثم قال: والله لقد كلبته فأجانبى بشئ. والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر، ولما بلغ صاعقة عاد وثمود: أمسكت فيه وناشدته بالرحم أن يكف، وقد علمت أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب، فغفت أن ينزل بكم العذاب.

فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ قُوَّةَ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَمْجُدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدِيَقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾

(فاستكبروا فى الارض) أى تعظموا فيها على أهلها بما لا يستحقون به التعظم وهو القوة وعظم الاجرام. أو استعلوا فى الارض واستولوا على أهلها بغير استحقاق للولاية (من أشد منا قوة) كانوا ذوى أجسام طوال وخلق عظيم، وبلغ من قوتهم أن الرجل كان ينزع الصخرة

(١) أخرجه ابن إسحاق فى السيرة: حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب بهذا نحوه مرسلًا، ورواه ابن أبى شيبة. وعنه أبو يعلى وعبد بن حميد وأبو نعمان والبيهقي كلاهما فى الدلائل، كلهم من رواية الأجلح السكندى عن الزبال ابن حرملة عن جابر مطولا.

من الجبل فيقتلعها بيده . فإن قلت : القوة هي الشدة والصلابة في البنية ، وهي تقيضة الضعف . وأما القدرة فما لأجله يصح الفعل من الفاعل من تميز بذات أو بصفة بنية^(١) وهي تقيضة العجز والله سبحانه وتعالى لا يوصف بالقوة إلا على معنى القدرة ، فكيف صح قوله ﴿ هو أشد منهم قوة ﴾ وإنما يصح إذا أريد بالقوة في الموضوعين شيء واحد ؟ قلت : القدرة في الإنسان هي صحة البنية والاعتدال والقوة والشدة والصلابة في البنية ، وحقيقتها : زيادة القدرة^(٢) ، فكما صح أن يقال : الله أقدر منهم ، جاز أن يقال : أقوى منهم ، على معنى : أنه يقدر لذاته على ما لا يقدرون عليه بازدياد قدرهم ﴿ بمجدون ﴾ كانوا يعرفون أنها حق ، ولكنهم جحدوها كما يجحد المودع الوديعه ، وهو معطوف^(٣) على فاستكبروا ، أى كانوا كفرة فسقة . الصرصر : العاصفة التي تصرصر ، أى : تصوت في هبوبها . وقيل : الباردة التي تحرق بشدة بردها ، تكرير لبناء الصر وهو البرد الذي يصير أى يجمع ويقبض ﴿ نحسات ﴾ قرى بكسر الحاء وسكونها . ونحس نحساً : تقيض سعد سعداً ، وهو نحس . وأما نحس ، فأما تخفف نحس ، أو صفة على فعل ، كالضخم وشبهه . أو وصف بمصدر . وقرى : لنذيقهم ، على أن الإذاقه للريح أو للأيام النحسات . وأضاف العذاب إلى الخزي وهو الذل والاستكانة على أنه وصف للعذاب ، كأنه قال : عذاب خزي ، كما تقول : فعل السوء ، تريد : الفعل السيئ ، والدليل عليه قوله تعالى ﴿ وللعذاب الآخرة أخزى ﴾ وهو من الإسناد المجازى ، ووصف العذاب بالخزي : أبلغ من وصفهم به .

(١) قوله « من تميز بذات أو لصفة بنية » هذا كقوله الآتي : إنه يقدر لذاته ، تحمل لتطبيق الآية على مذهب المعتزلة على أنه تعالى قادر بذاته ؛ لكن مذهب أهل السنة أنه تعالى قادر بقدرة قائمة بذاته ، وكذا بقية الصفات كما في التوحيد . (ع)

(٢) قال محمود : « القوة : الشدة في البنية وتقيضها الضعف ، والقدرة ما لأجله يصح الفعل من الفاعل ، وهي تقيضة العجز ، فإن وصف الله تعالى بالقوة فذاك بمعنى القدرة وليست القوة على حقيقتها ، فكيف صح قوله (هو أشد منهم قوة) ولا بد أن يراد بالقوة في الموضوعين شيء واحد ، وأجاب عنه بأن القدرة في الإنسان صحة البنية والاعتدال والشدة ، والقوة زيادة في القدرة ، فكما صح أن يقال : أقدر منهم ، صح أن يقال : أقوى منهم ، على معنى أنه يقدر لذاته على ما لا يقدرون عليه بازدياد قدرتهم » قال أحمد : فسر القدرة على خلاف ما هي في اعتقاد المتكلمين ، فإن سلم له من حيث اللفظ فقد تكسر عنه إلى حل القدرة في الآية على مقتضاها في فن الكلام ، وجعل التفضيل من حيث أن الله تعالى قادر لذاته ، أى : بلا قدرة ، والخلق قادر بقدرة على القاعدة الفاسدة للقدرة ، ونظير هذا التفسير في الفساد تفسير قول القائل : زيد أعلم من عمرو ، بإثبات صفة العلم للبعضول ، وسلبها بالكلية عن الأفضل ، وهل هذا إلا عته وعي في اتباع الهوى وهم ؟ فالحق أن التفضيل إنما جاء من جهة أن القدرة الثابتة للعبد قدرة مقارنة لفعله ، معلومة قبله وبعده ، مفقودة غير مؤثرة في العقل الراجح في محلها ، فضلاً عن تجاوزها إلى غيره ، وقدرة الله جلّت قدرته مؤثرة في المقدورات ، موجودة أزلاً وأبداً ، عامة تتعلق بجميع الكائنات من الممكنات ، فهذا هو النور الذي لا يلوح إلا لمن إثبات عقائد السنة لمن سبق له من الله المنة .

(٣) قوله « وهو معطوف على فاستكبروا » أى : قوله تعالى (وكانوا ١٠٠٠ الخ) . (ع)

ألا ترى إلى البون بين قوليك : هو شاعر ، وله شعر شاعر .

وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾

وقرى : ثمود ، بالرفع والنصب متوناً وغير متون ، والرفع أفصح لوقوعه بعد حرف الابتداء .
وقرى : بضم الناء (فهديناهم) فدللتناهم على طريق الضلالة والرشد ، كقوله تعالى (وهديناه النجدين) . (فاستحبوا العمى على الهدى) فاختراروا الدخول في الضلالة على الدخول في الرشd .
فإن قلت : أليس معنى هديته : حصلت فيه الهدى ، والدليل عليه قولك : هديته فاهتدى ، بمعنى : تحصيل البغية وحصولها ، كما تقول : ردعته فارتدع ، فكيف ساغ استعماله في الدلالة المجردة ؟ قلت : للدلالة على أنه مكسبهم وأزاح عنهم ولم يبق له عذراً ولا علة ، فكأنه حصل البغية فيهم بتحصيل ما يوجبها ويقتضيها (صاعقة العذاب) داهية العذاب وقارعة العذاب .
و (الهون) الهوان ، وصف به العذاب مبالغة . أو أبدله منه ، ولولم يكن في القرآن حجة على القدرة الذين هم مجوس هذه الأمة (١) بشهادة نبيها صلى الله عليه وسلم . وكفى به شاهداً .
إلا هذه الآية ، لكفى بها حجة (٢) .

(١) قوله «حجة على القدرة الذين هم مجوس هذه الأمة» يريد أهل السنة ، سمام المعتزلة بذلك لقولهم : جميع الحوادث - خيراً كانت أو شراً من أعمال العباد الاختيارية أو غيرها - فهي بقضاء الله تعالى وقدره ، خلافاً للمعتزلة : حيث ذهبوا إلى أن جميع الأفعال الاختيارية ليست بقضائه تعالى وقدره ، ولاتأثير له فيها أصلاً . وهذا أحق بالتنقيص الذي يفيد الحديث . وفسروا الاضلال والهدى في قوله تعالى (يضل من يشاء ويهدي من يشاء) بخلق الضلال وخلق الاعتداء ، خلافاً للمعتزلة : حيث فسروا الاضلال بالخذلان وترك العبد وشأنه ، والهدى بالبيان ونقل النفس عن أي منصور المتاردي : أن الهدى المضاف للخالق يكون تارة بمعنى البيان كما في هذه الآية وتارة بمعنى خلق الاعتداء كما في قوله تعالى (يضل من يشاء ويهدي من يشاء) والمضاف للخلق بمعنى البيان فقط ، وبمحتمل أن يكون هدى ثمود بمعنى خلق الاعتداء فيهم . وأنهم آمنوا قبل عقر الناقة ، ثم كفروا وعقروها أم (ع)

(٢) قال محمود : «فدللتناهم على طريق الضلالة والرشد» ، ثم قال : فإن قلت : أليس معنى هديته حصلت له الهدى والدليل عليه قولك : هديته فاهتدى ، فكيف ساغ استعماله في الدلالة المجردة ؟ وأجاب بأنه مكسبهم وأزاح عنهم ، ولم يبق لهم عذراً ولا علة ، فكأنه حصل البغية فيهم بمحصل موجبها ، ثم قال : ولولم يكن في القرآن حجة على القدرة الذين هم مجوس هذه الأمة بشهادة نبيها عليه الصلاة والسلام . وكفى به شهيداً - إلا هذه الآية ، لكفى بها حجة »
قال أحمد : قد أنطقه الله الذي أنطق كل شيء ، فإن القدرة مجوس هذه الأمة بشهادة النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد شهد صحبه الأكرمون أن الطائفة الذين قفا الرعش أثرهم القدرة المتمنجة ، الذين أديانهم بأدناس الفساد متمنجة فهم أول متخرط في هذا السلك ، ومنهبط في مهواة هذا الهلك ، ولتراجع إلى أصل الكلام فنقول : الهدى من الله تعالى عند أهل السنة حقيقة : هو خلق الهدى في قلوب المؤمنين ، والاضلال : خلق الضلال في قلوب الكافرين ، ثم ورد الهدى على غير ذلك من الوجوه مجازاً واتساعاً ، نحو هذه الآية ، فإن المراد فيها بالهدى الدلالة على طريقه كما ==

وَيَوْمَ يُنْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَآجَاهُمَا
شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِمَ
لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ
مَرَّةٍ وَإِنَّمَا تَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾

قرئ يحشر على البناء للفعول. ويحشر بالنون وضم الشين وكسرها، ويحشر: على البناء
للفاعل، أى: يحشر الله عز وجل (أعداء الله) الكفار من الأولين والآخرين (يوزعون)
أى يحبس أولهم على آخرهم، أى: يستوقف سوابقهم حتى يلحق بهم تواليهم، وهى عبارة عن
كثرة أهل النار، نسأل الله أن ينجينا منها بسعة رحمته: فإن قلت: (ما) فى قوله (حتى إذا
ماجلوها) ماهى؟ قلت: مزيدة للتأكيد، ومعنى التأكيد فيها: أن وقت مجيئهم النار لا محالة أن
يكون وقت الشهادة عليهم، ولا وجه لأن يخلو منها. ومثله قوله تعالى (أنتم إذا ما وقع آمنتم به)
أى لا بد لوقت وقوعه من أن يكون وقت إيمانهم به شهادة الجلود بالملامسة للحرام، وما أشبه
ذلك مما يفضى إليها من المحرمات. فإن قلت: كيف تشهد عليهم أعضاءؤهم وكيف تنطق؟ قلت:
الله عز وجل ينطقها كما أنطق الشجرة^(١) بأن يخلق فيها كلاما. وقيل: المراد بالجلود: الجوارح.
وقيل: هى كناية عن الفروج، أراد بكل شىء: كل شىء من الحيوان، كما أراد به فى قوله تعالى
(والله على كل شىء قدير) كل شىء من المقدورات، والمعنى: أن نطقنا ليس بعجب من قدرة
الله الذى قدر على إنطاق كل حيوان، وعلى خلقكم وإنشائكم أول مرة، وعلى إعادتكم ورجعتكم
إلى جزائه - وإنما قالوا لهم: (لم شهدتم علينا) لما تعاضمهم من شهادتها وكبر عليهم من الاقتضاح
على السنة جوارحهم.

وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ
وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ
الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾

== فسر الزمخشري . وقد انفق القرطبان : أهل السنة وأهل البدعة على أن استعمال الهدى ههنا مجاز ، ثم إن أهل السنة
يحملونه على المجاز فى جميع موارد فى الشرع ، فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعملون ، وأى دليل فى هذه الآية
على أهل السنة لأهل البدعة ، حتى يرميهم بما ينكس إلى نحره ، ويذيقه وبال أمره .

(١) قوله « كما أنطق الشجرة » على زعم المنزلة أن تكليمه مع موسى عليه السلام هو خلقه الكلام فى الشجرة
التي كانت عند الطور . وعند أهل السنة : هو بأن كشف له عن كلامه القديم وأسمعه إياه كما بين فى محله . (ع)

والمعنى : أنكم كنتم تستترون بالحيطان والحجب عند ارتكاب الفواحش، وما كان استتاركم ذلك خيفة أن يشهد عليكم جوارحكم ؛ لأنكم كنتم غير عاملين بشهادتها عليكم ، بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء أصلاً ، ولكنكم إنما استترتم لظنكم ﴿ أن الله لا يعلم كثيراً مما ﴾ كنتم ﴿ تعملون ﴾ وهو الخفيات من أعمالكم ، وذلك ^(١) الظن هو الذى أهلككم . وفى هذا تنبيه على أن من حق المؤمن أن لا يذهب عنه ، ولا يزل عن ذهنه أن عليه من الله عينا كالثوب ورقياً مهيئاً ، حتى يكون فى أوقات خلواته من ربه أهيب وأحسن احتشاماً وأوفر تحفظاً وتصوناً منه مع الملاء ، ولا يتبسط فى سره مراقبة ^(٢) من التشبه بهؤلاء الظانين . وقرئ : ولكن زعمتم ﴿ وذلكم ﴾ رفع بالابتداء ، و﴿ ظنكم ﴾ و﴿ أرداكم ﴾ خبران ، ويجوز أن يكون ﴿ ظنكم ﴾ بدلاً من ﴿ ذلكم ﴾ و ﴿ أرداكم ﴾ الخبر .

فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا لَهُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ٢٤
وَقِيضْنَا لَهُمْ قُرْآنَهُمْ فَزَيُّنَا لَهُمْ مَا يَتْلُونَ وَهُمْ لَمْ يَعْلَمُوا مَا كُفِّرُوا وَنَجَّيْنَا لَهُمْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ٢٥

﴿ فإن يصبروا ﴾ لم ينفعهم الصبر ولم ينفكوا به من الثواء فى النار ، (وإن يستعتبوا) وإن يسألوا العتي وهى الرجوع لهم إلى ما يحبون جزعاً عما هم فيه : لم يعتبوا : لم يعطوا العتي ولم يجابوا إليها ، ونحوه قوله عز وعلا (أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص) وقرئ : وإن يستعتبوا فاهم من المعتبين ، أى : إن سئلوا أن يرضوا ربهم فاهم فاعلون ، أى : لاسيل لهم إلى ذلك ﴿ وقيضنا لهم ﴾ وقدرنا لهم ، يعنى لمشركى مكة : يقال : هذان ثوبان قيطان : إذا كانا متكافئين . والمقايضة : المعاوضة ﴿ قرآنهم ﴾ أخذنا ^(٣) من الشياطين جمع قرين ، كقوله تعالى (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين) فإن قلت : كيف جاز أن يقيض لهم القرآن من الشياطين وهو ينههم عن اتباع خطواتهم ؟ قلت : معناه أنه خذلهم ^(٤) ومنعهم التوفيق لتصميمهم على الكفر ، فلم يبق لهم قرآن سوى الشياطين ^(٥) . والدليل عليه (ومن يعش) نقيض ﴿ ما بين

(١) قوله « وذلك الظن هو الذى أهلككم » لعله . وذلكم . (ع)

(٢) قوله « فى سره مراقبة من التشبه » أى غافة ، كما أفاده الصحاح . (ع)

(٣) قوله « قرآنهم أخذنا » أى أصدقا . أفاده الصحاح . (ع)

(٤) قوله « قلت معناه أنه خذلهم » هذا على مذهب المعتزلة أنه تعالى لا يقدر الشر . أما على مذهب أهل السنة أنه تعالى يقدره كالخير ، فلا داعى إلى هذا التكلف . قال تعالى (ألم تر أننا أرسلنا الهمياطين على الكافرين) الخ . (ع)

(٥) قال محمود : « كيف جاز أن يقيض لهم قرآن من الشياطين وهو ينههم عن اتباع خطواتهم ؟ وأجاب بأن =

أيديهم وما خلفهم) ما تقدم من أعمالهم ومآلهم عازمون عليها . أو بين أيديهم من أمر الدنيا واتباع الشهوات ، وما خلفهم : من أمر العاقبة ، وأن لا يبعث ولا حساب (وحق عليهم القول) يعني كلبة العذاب (في أمم) في جملة أمم . ومثل في هذه مافى قوله :

إِنْ تَكُ عَنْ أَحْسَنِ الصَّيِّمَةِ مَأْفُوكًا فَفِي آخِرِينَ قَدْ أَفْسَكُوا ^(١)

يريد : فأنت في جملة آخرين ، وأنت في عداد آخرين لست في ذلك بأوحد . فإن قلت : (في أمم) مأخوذة ؟ قلت : محله النصب على الحال من الضمير في عليهم القول كائنين في جملة أمم (إنهم كانوا خاسرين) تعليل لاستحقاقهم العذاب . والضمير لهم وللأمم .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ^(٢٦)

فَلَنُذِيقَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ^(٢٧) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا

كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ^(٢٨)

قرئ : والغوا فيه ، بفتح الغين وضمها . يقال : لغى يلغى ، ولغوا يلغوا . واللغو : الساقط من الكلام الذى لا طائل تحته . قال : من اللغا ورفث التكلم . والمعنى : لا تسمعوا له إذا قرئ ، وتشاغلوا عند قراءته برفع الأصوات بالخرافات والبهذيان والزمل ^(٣) وما أشبه ذلك ، حتى تخطوا على القارئ وتشوشوا عليه وتغلبوه على قراءته . كانت قریش يوصى بذلك بعضهم

== معناه أنه خذلهم ومنعهم التوفيق لتصميمهم على الكفر ، فلم يبق لهم قرناء سوى الشياطين . والدليل عليه قوله تعالى (ومن يش عن ذكر الرحمن ... الآية) قال أحد : جواب هذا السؤال على مذهب أهل السنة : أن الأمر على ظاهره ، فإن قاعدة عقيدتهم أن الله تعالى قد ينهى عما يريد وقوعه ، وبأسر بما لا يريد حصوله ، وبذلك نطق هذه الآية وأخواتها ، وإنما تأولوا الزعشرى ليقبحها هواء الفاسد في اعتقاده أن الله تعالى لا ينهى عما يريد . وإن وقع النهى عنه فعل خلاف الإرادة - تعالى الله عن ذلك وبه نستعين من جعل القرآن نبياً للهوى ، وحينئذ فنقول : لو لم يكن في القرآن حجة على القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة بشهادة نبيها عليه الصلاة والسلام سوى هذه الآية ، لكتفى بها ! فهذا موضع هذه المقالة التى أنطقه الله بها الذى أنطق كل شئ . فى الآية التى قبل هذه .

(١) لعروة بن أذينة ، يقول : إن تك مأفوكا - أى : مصروفاً ومنقلباً عن أحسن العطاء - فلا يجب ، فأنت فى جملة ناس آخرين قد أفسكوا وصرفوا عن الاحسان . ومنه : المؤنفسات ، وهى المدن المنقلبة على قوم لوط وتقول العرب : إذا كثرت المؤنفسات زكت الأرض ، يعنون : الرياح المختلفة المهاب .

(٢) قوله «والزمل» الذى فى الصحاح «الزمل» الصوت : والأزملة - بالضم - : البصوت من الوهول

وغيرها . (ع)

بعضاً ﴿فلنذيقن الذين كفروا﴾ يجوز أن يريد بالذين كفروا: هؤلاء اللاعنين والآخرين لهم باللغو خاصة، وأن يذكر الذين كفروا عامة لينطوا تحت ذكرهم. قد ذكرنا إضافة أسوأ بما أغنى عن إعادته. وعن ابن عباس ﴿عذاباً شديداً﴾ يوم بدر. و﴿أسوأ الذي كانوا يعملون﴾ في الآخرة ﴿ذلك﴾ إشارة إلى الأسوأ، ويجب أن يكون التقدير: أسوأ جزاء الذين كانوا يعملون، حتى تستقيم هذه الإشارة. و﴿النار﴾ عطف بيان للجزاء. أو خبر مبتدأ محذوف. فإن قلت: ما معنى قوله تعالى ﴿لهم فيها دار الخلد﴾؟ قلت: معناه أن النار في نفسها دار الخلد، كقوله تعالى ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾ والمعنى: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة، وتقول: لك في هذه الدار دار السرور. وأنت تعني الدار بعينها ﴿جزاء بما كانوا بآياتنا يمحذون﴾ أى جزاء بما كانوا يلغون فيها، فذكر الجحود الذى هو سبب اللغو.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضْلَلْنَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلَهُمَا

تَعْتَ أَفْدَامِنَا لِيَكُونُوا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾

﴿الذين أضلنا﴾ أى الشيطانين الذين أضلنا ﴿من الجن والإنس﴾ لأن الشيطان على ضربين: جنى وإنسى. قال الله تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن) وقال تعالى (الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس) وقيل: هما إبليس وقابيل؛ لأنهما سنا الكفر والقتل بغير حق. وقرئ: أرنا، بسكون الراء لثقل الكسرة، كما قالوا فى غنذ: غنذ. وقيل: معناه أعطينا الذين أضلنا. وحكوا عن الخليل: أنك إذا قلت: أرني ثوبك بالكسر، فالمنى: بصريه. وإذا قلته بالسكون، فهو استعطاء. معناه: أعطنى ثوبك: ونظيره: اشتها الإيتاء فى معنى الإعطاء. وأصله: الإحضار

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا
وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا

مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِنْ غَمُودٍ رَجِيمٍ ﴿٣٢﴾

﴿ثم﴾ لتراخى الاستقامة عن الإقرار فى المرتبة. وفضلها عليه: لأن الاستقامة لها الشأن كله. ونحوه قوله تعالى (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا) والمعنى: ثم ثبتوا على الإقرار ومقتضياته. وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه: استقاموا فعلاً كما استقاموا قولاً.

وعنه : أنه تلاها ثم قال : ماتقولون فيها ؟ قالوا : لم يذنبوا . قال حملتم الامر على اشدّه . قالوا :
فما تقول ؟ قال : لم يرجعوا إلى عبادة الاوثان . وعن عمر رضى الله عنه : استقاموا على الطريقة
لم يروغوا روغان الثعالب . وعن عثمان رضى الله عنه : أخلصوا العمل . وعن علي رضى الله عنه :
أدوا الفرائض . وقال سفيان بن عبد الله الثقفي رضى الله عنه : قلت يا رسول الله ، أخبرني بأمر
أعظم به . قال : « قل ربّي الله ، ثم استقم » قال فقلت : ما أخوف ما تخاف عليّ ؟ فأخذ رسول الله
صلى الله عليه وسلم بلسان نفسه فقال « هذا » ^(١) ﴿ تنزل عليهم الملائكة ﴾ عند الموت بالبشرى .
وقيل البشرى في ثلاثة مواطن : عند الموت ، وفي القبر ، وإذا قاموا من قبورهم ﴿ ألا تخافوا ﴾
أن بمعنى أى . أو مخففة من الثقيلة . وأصله : بأنه لا تخافوا ، والهاء ضمير الشأن . وفي قراءة
ابن مسعود رضى الله عنه : لا تخافوا ، أى : يقولون لا تخافوا ؛ والخوف : غم يلحق لتوقع
المكروه ، والحزن : غم يلحق لوقوعه من فوات نافع أو حصول ضار . والمعنى : أن الله كتب
لكم الأمن من كل غم ، فلن تدوقوه أبداً . وقيل لا تخافوا ما تقدمون عليه ، ولا تحزنوا على
ما خلفتم . كما أن الشياطين قرناء العصاة وإخوانهم ، فكذلك الملائكة أولياء المتقين وأحباؤهم
في الدارين ﴿ تدعون ﴾ تتمنون : والنزل : رزق النزيل وهو الضيف ، وانتصابه على الحال .

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ^(٢٣)
﴿ من دعا إلى الله ﴾ عن ابن عباس رضى الله عنهما : هو رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا
إلى الإسلام ﴿ وعمل صالحاً ﴾ فيما بينه وبين ربه ، وجعل الإسلام نحلة له . وعنه : أنهم أصحاب
رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن عائشة رضى الله عنها : ما كنا نشك أن هذه الآية نزلت في
المؤمنين ، وهي عامة في كل من جمع بين هذه الثلاث : أن يكون موحداً معتقداً لدين الإسلام ،
عاملاً بالخير داعياً إليه ؛ وما هم إلا طبقة العالمين العاملين من أهل العدل والتوحيد ، الدعاة إلى
دين الله ^(٣) وقوله ﴿ وقال إني من المسلمين ﴾ ليس الغرض أنه تكلم بهذا الكلام ، ولكن جعل دين
الإسلام مذهبه ومعتقده ، كما تقول : هذا قول أبي حنيفة ، تريد مذهبه .

وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ
وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ^(٢٤) وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا
إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ^(٢٥)

(١) أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد وابن حبان بنماه ؛ وأصله في مسلم .

(٢) قوله « والعاملين من أهل العدل والتوحيد الدعاة » إن أراد بهم المعزلة سمو أنفسهم بذلك ، فلا وجه

للتخصيص . (ع)

يعنى أن الحسنة والسيئة متفاوتتان في أنفسهما فخذ بالحسنة التى هى أحسن من أختها - إذا اعترضتك حسنة - فادفع بها السيئة التى ترد عليك من بعض أعدائك . ومثال ذلك : رجل أساء إليك إساءة ، فالحسنة : أن تغفو عنه ، والتى هى أحسن : أن تحسن إليه مكان إساءته إليك ، مثل أن يذمك فتمدحه ويقتل ولدك فتقتدى ولده من يد عدوه ، فإنك إذا فعلت ذلك انقلب عدوك المشاق مثل الولي الحميم مضافة لك . ثم قال : وما يلقى هذه الخليفة أو السجية التى هى مقابلة الإساءة بالإحسان إلا أهل الصبر ، وإلا رجل خير وفق لحظ عظيم من الخير . فإن قلت : فهلا قيل : فادفع بالتى هى أحسن ؟ قلت : هو على تقدير قائل قال : فكيف أصنع ؟ فقيل : ادفع بالتى هى أحسن . وقيل (لا) مزيدة . والمعنى : ولا تستوى الحسنة والسيئة ، فإن قلت : فكان القياس على هذا التفسير أن يقال : ادفع بالتى هى حسنة : قلت : أجل ، ولكن وضع التى هى أحسن موضع الحسنة ، ليكون أبلغ في الدفع بالحسنة : لأن من دفع بالحسنى هان عليه الدفع بما هو دونها . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : (بالتى هى أحسن) الصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل ، والغفو عند الإساءة ، وفسر الحظ بالثواب . وعن الحسن رحمه الله : والله ما عظم حظ دون الجنة ، وقيل : نزلت في أبي سفيان بن حرب وكان عدواً مؤذياً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصار ولياً مضافاً .

وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾
النزغ والنسغ بمعنى ، وهو شبه النخس . والشيطان ينزغ الإنسان كأنه ينخسه بيعته على مالا ينبغي . وجعل النزغ نازغاً ، كما قيل : جد جدّه . أو أريد : وإما ينزغك نازغ وصفاً للشيطان بالمصدر . أو لتسويله . والمعنى : وإن صرفك الشيطان عما وصيت به من الدفع بالتى هى أحسن (فاستعذ بالله) من شره ، وامض على شأنك ولا تطعه .

وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٣٨﴾

الضمير في (خلقهن) لليل والنهار والشمس والقمر ؛ لأن حكم جماعة مالا يعقل حكم الآتى أو الإناث . يقال : الأقلام بريتها وبريتها : أو لما قال (ومن آياته) كن في معنى الآيات ، فقيل : خلقهن . فإن قلت : أين موضع السجدة ؟ قلت : عند الشافعى رحمه الله تعالى (تعبدون) وهى رواية مسروقة عن عبد الله لذكر لفظ السجدة قبلها . وعند أبي حنيفة رحمه الله : يسأمون ؛

لأنها تمام المعنى ، وهى عن ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب : لعل ناساً منهم كانوا يسجدون للشمس والقمر كالصابئين فى عبادتهم الكواكب ، ويزعمون أنهم يقصدون بالسجود لها السجود لله ، فنهوا عن هذه الوساطة ، وأمروا أن يقصدوا بسجودهم وجه الله تعالى خالصاً ، إن كانوا إياه يعبدون وكانوا موحدين غير مشركين (فان استكبروا) ولم يمثلوا ما أمروا به وأبوا إلا الوساطة ، فدعهم وشأنهم فإن الله عز سلطانه لا يعدم عبداً ولا ساجداً بالإخلاص ، وله العباد المقربون الذين ينزهونه بالليل والنهار عن الانداد ، وقوله (عند ربك) عبارة عن الزلنى والمكانة والكرامة . وقرئ : لا يسأمون ، بكسر الياء .

وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

الخشوع : التذلل والتقاصر ، فاستعير لحال الأرض إذا كانت قحطة لا نبات فيها ، كما وصفها بالهمود فى قوله تعالى (وترى الأرض هامدة) وهو خلاف وصفها بالاهتزاز والربو وهو الانتفاخ : إذا أخضبت وتزخرفت بالنبات كأنها بمنزلة المختال فى زيه ، وهى قبل ذلك كالذليل الكاسف البال فى الأطوار الرثة (١) . وقرئ : وربأت ، أى ارتفعت لأن النبات إذا هم أن يظهر : ارتفعت له الأرض .

إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي ءَايَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَنُبَلِّغُ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ آمَعَمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾

يقال : ألحد الحافر ولحد ، إذا مال عن الاستقامة ، فحفر فى شق ، فاستعير للانحراف فى تأويل آيات القرآن عن جهة الصحة والاستقامة . وقرئ : يلحدون ويلحدون ، على اللتين . وقوله (لا يخفون علينا) وعيد لهم على التحريف .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾

لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾

فإن قلت : هم اتصل قوله (إن الذين كفروا بالذكر) ؟ قلت : هو بدل من قوله (إن) الذين يلحدون فى آياتنا) والذكر : القرآن ، لأنهم لكفروهم به طعنوا فيه وحزفوا تأويله (وإنه لكتاب عزيز) أى منيع محمى بحماية الله تعالى (لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من

خلفه) مثل كأن الباطل لا يتطرق إليه ولا يجد إليه سبيلا من جهة من الجهات حتى يصل إليه ويتعلق به . فإن قلت : أما طعن فيه الطاعنون ، وتأوله المبطلون ؟ قلت : بلى ، ولكن الله قد تقدم في حمايته عن تعلق الباطل به : بأن قيض قوما عارضوهم بإبطال تأويلهم وإفساد أقاويلهم ، فلم يخلوا طعن طاعن إلا بمحوقاً ، ولا قول مبطل إلا مضمحلاً . ونحوه قوله تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو

عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣)

ما يقال لك أى : ما يقول لك كفار قومك إلا مثل ما قال للرسول كفار قومهم من الكلمات المؤذية والمطاعن في الكتب المنزلة (إن ربك لذو مغفرة) ورحمة لأنبيائه (وذو عقاب) لأعدائهم . ويجوز أن يكون : ما يقول لك الله إلا مثل ما قال للرسول من قبلك ، والمقول : هو قوله تعالى (إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم) فن حقه أن يرجوه أهل طاعته ويخافه أهل معصيته ، والغرض : تخويف العصاة .

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَبِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ؕ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ؕ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً ؕ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ

عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤)

كانوا لتعنتهم يقولون : هلا نزل القرآن بلغة العجم ، فقيل : لو كان كما يقترحون لم يتركوا الاعتراض والتعنت وقالوا (لولا فصلت آياته) أى بينت ولخصت بلسان نفقهه (أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ) الهمزة همزة الإنكار ، يعنى : لأنكروا وقالوا : أقرآن أعجمي ورسول عربي ، أو مرسل إليه عربي ، وقرئ : أعجمي ، والأعجمي : الذى لا يفصح ولا يفهم كلامه من أى جنس كان ، والعجمي : منسوب إلى أمة العجم . وفي قراءة الحسن : أعجمي بغير همزة الاستفهام على الإخبار بأن القرآن أعجمي ، والمرسل أو المرسل إليه عربي . والمعنى : أن آيات الله على أى طريقة جاءتهم وجدوا فيها منعناً ؛ لأن القوم غير طالبيين للحق وإنما يتبعون أهواءهم . ويجوز في قراءة الحسن : هلا فصلت آياته تفصيلاً ، فجعل بعضها بياناً للعجم ، وبعضها بياناً للعرب . فإن قلت : كيف يصح أن يراد بالعربي المرسل إليهم وهم أمة العرب ؟ قلت : هو على ما يجب أن يقع في إنكار المنكر لو رأى كتاباً أعجمياً كتب إلى قوم من العرب يقول : كتاب أعجمي ومكتوب

إليه عربي ، وذلك لأن مبنى الإنكار على تنافر حالى الكتاب والمكتوب إليه ، لا على أن المكتوب إليه واحد أو جماعة ، فوجب أن يجزأ لما سبق إليه من الغرض ، ولا يوصل به ما يخل غرضاً آخر . ألا تراك تقول - وقد رأيت لباساً طويلاً على امرأة قصيرة : - اللباس طويل واللباس قصير . ولو قلت : واللابسة قصيرة ، جئت بما هو لكثرة وفضول قول ، لأن الكلام لم يقع فى ذكورة اللباس وأنوثته ، إنما وقع فى غرض وراءهما (هو) أى القرآن (هدى وشفاء) إرشاد إلى الحق وشفاء (لما فى الصدور) من الظن والشك . فإن قلت : (والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر) منقطع عن ذكر القرآن ، فما وجه اتصاله به ؟ قلت : لا يخلو إما أن يكون (الذين لا يؤمنون) فى موضع الجر معطوفاً على قوله تعالى (للذين آمنوا) على معنى قولك : هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، وهو للذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر ؛ إلا أن فيه عطفًا على عاملين وإن كان الأخفش يجيزه . وإما أن يكون مرفوعاً على تقدير : والذين لا يؤمنون هو فى آذانهم وقر ^(١) على حذف المبتدأ . أو فى آذانهم منه وقر . وقرئ : وهو عليهم عم . وعمى ، كقوله تعالى (فعميت عليكم) . (ينادون من مكان بعيد) يعنى : أنهم لا يقبلونه ولا يرفعونه أسماعهم ، فثلهم فى ذلك مثل من يصيح به من مسافة شاططة لا يسمع من مثلها الصوت فلا يسمع النداء .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ

لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ^(٤٥)

(فاختلف فيه) فقال بعضهم : هو حق ، وقال بعضهم : هو باطل . والكلمة السابقة : هى العدة بالقيامة ، وأن الخصومات تفصل فى ذلك اليوم ، ولولا ذلك لقضى بينهم فى الدنيا . قال الله تعالى (بل الساعة موعدهم) ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى .

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَمِيدِ ^(٤٦)

(فلنفسه) فنفسه نفع (فعلها) فنفسه ضرر (وما ربك بظلام) فيعذب غير المسىء .

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامٍهَا وَمَا تُحْمِلُ مِنْ

(١) أجاز الزعزعى فى الوار فى هذه الآية وجهين ، أحدهما : أن تكون الواو لعطف الذين على الذين ، وورق على هدى وشفاء ، ويكون من العطف على عاملين . قال : وإما أن يكون (والذين) مرفوعاً على تقدير : والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر ، على حذف المبتدأ . أو فى آذانهم منه وقر اه قال أحمد : أى وبقدير الرابط يستقى عن تقدير المبتدأ .

أَنْتَى وَلَا تَصْعُ إِلَّا بِعِلْمٍ وَيَوْمَ يُتَادِيْعُ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا ءَاذُنَاكَ مَا مِمَّا
مِنْ شَهِيدٍ (٤٧) وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمَّ

مِنْ مَحِيصٍ (٤٨)

(إليه برز علم الساعة) أى إذا سئل عنها قيل : الله يعلم . أو لا يعلمها إلا الله . وقرئ : من ثمرات من أكامهن (١) . والكم - بكسر الكاف - وعاء الثمرة ، كجف الطلعة ، أى : وما يحدث شىء من خروج ثمرة ولا حمل حامل ولا وضع واضع إلا وهو عالم به . يعلم عدد أيام الحمل وساعاته وأحواله : من الخداج (٢) والتمام ، والذكورة والأنوثة ، والحسن والقبح وغير ذلك (أين شركائى) أضافهم إليه تعالى على زعمهم ، وبيانه فى قوله تعالى (أين شركائى الذين كنتم تزعمون) وفيه تهكم وتفريع (آذناك) أعلنناك (مامنا من شهيد) أى مامنا أحد اليوم - وقد أبصرنا وسمعنا - يشهد بأنهم شركاؤك ، أى : مامنا إلا من هو موحدك : أو مامنا من أحد يشاهدهم ، لأنهم ضلوا عنهم وحلت عنهم آلتهم ، لا يبصرونها فى ساعة التوبيخ وقيل : هو كلام الشركاء ، أى : مامنا من شهيد يشهد بما أضافوا إلى ما من الشركة . ومعنى ضلأهم عنهم على هذا التفسير : أنهم لا ينفعونهم ، فكانهم ضلوا عنهم (وظنوا) وأيقنوا . والمحيص : المهرب . فإن قلت : (آذناك) إخبار بإيدان كان منهم ، فإذا قد آذنوا فلم سئلوا ؟ قلت : يجوز أن يعاد عليهم (أين شركائى) ؟ إعادة للتوبيخ ، وإعادته فى القرآن على سبيل الحكاية : دليل على إعادة المحكى . ويجوز أن يكون المعنى : أنك علمت من قلوبنا وعقائدنا الآن أنا لا نشهد تلك الشهادة الباطلة ، لأنه إذا علمه من نفوسهم فكانهم أعلموه . ويجوز أن يكون إنشاء للإيدان ولا يكون إخبارا بإيدان قد كان ، كما تقول : أعلم الملك أنه كان من الأمر كيت وكيت .

لَا يَسْأَمُ الْإِلَٰهُ لِنَاسٍ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَمْوِمٌ فَقُوْطٌ (٤٩)
وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِى وَمَا أَطْنُ السَّاعَةِ
قَائِمَةٌ وَلَتُنْجِفُ إِلَى رَبِّى إِنَّ لى عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا
عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٠)

(١) قوله « وقرئ من ثمرات من أكامهن » يفيد أن القراءة المشهورة : من ثمرة من أكامها . والذي فى النسخ : من ثمرات من أكامها . ومن ثمرة من أكامها . وأما : من ثمرات من أكامهن . فهى المزدوجة هنا ، لحد . (ع)

(٢) قوله « من الخداج » أى النقصان ، كما فى الصحاح . (ع)

(من دعاء الخير) من طلب السعة في المال والنعمة . وقرأ ابن مسعود : من دعاء بالخير (وإن مسه الشر) أى الضيقة والفقر (فيثوس قنوط) بولغ فيه من طريقين : من طريق بناء فعول ، ومن طريق التكرير والقنوط أن يظهر عليه أثر اليأس فيتضائل وينكسر ، أى : يقطع الرجاء من فضل الله وروحه ، وهذه صفة الكافر بدليل قوله تعالى (إنه لا يئأس من روح الله إلا القوم الكافرون) وإذا فرجنا عنه بصحة بعد مرض أوسعة بعد ضيق قال (هذالى) أى هذا حتى وصل إلى ؛ لأنى استوجبت بما عندى من خير وفضل وأعمال بر . أو هذا لى لا يزال عنى ، ونحوه قوله تعالى (فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه) ونحوه قوله تعالى (وما أظن الساعة قائمة) (إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين) يريد : وما أظنها تكون ، فإن كانت على طريق التوهم (إن لى) عند الله الحالة الحسنى من الكرامة والنعمة ، قائسا أمر الآخرة على أمر الدنيا . وعن بعضهم : للكافر أمتيتان ، يقول فى الدنيا : ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى . ويقول فى الآخرة : يا ليتنى كنت ترابا . وقيل : نزلت فى الوليد بن المغيرة . فلنخبرهم بحقيقة ما عملوا من الأعمال الموجبة للعذاب . ولنبصرهم عكس ما اعتقدوا فيها أنهم يستوجبون عليها كرامة وقربة عند الله (وقدمننا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءا منثورا) وذلك أنهم كانوا ينفقون أموالهم رثاء الناس وطلبا للافتخار والاستكبار لا غير ، وكانوا يحسبون أن ما هم عليه سبب الغنى والصحة ، وأنهم يحقون بذلك .

وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو

دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾

هذا أيضا ضرب آخر من طغيان الإنسان إذا أصابه الله بنعمة أبطرته النعمة ، وكأنه لم يلق بؤسا قط فنسى المنعم وأعرض عن شكره (ونأى بجانبه) أى ذهب بنفسه وتكبر وتعظم . وإن مسه الضر والفقر : أقبل على دوام الدعاء وأخذ فى الابتهاال والتضرع . وقد استعير العرض لكثرة الدعاء ودوامه وهو من صفة الأجرام ، ويستعار له الطول أيضا كما استعير الغلظ بشدة العذاب . وقرئ : ونأى بجانبه ، بإمالة الألف وكسر النون للإبتاع . وناء على القلب ، كما قالوا : راء فى رأى . فإن قلت : معنى قوله تعالى (ونأى بجانبه) قلت : فيه وجهان : أن يوضع جانبه موضع نفسه كما ذكرنا فى قوله تعالى (على ما فرطت فى جنب الله) أن مكان الشيء وجهته ينزل منزلة الشيء نفسه ، ومنه قوله :

... وَتَقَيَّتْ عَنْهُ مَقَامَ الذَّنْبِ ... (١)

عليه الطير كالورق اللجين
مقام الذيب كالرجل اللجين

وماء قد وردت لأجل أروى
ذعرت به القفا ونفقت عنه

(١)

يريد: ونفيت عنه الذئب . ومنه : ولمن خاف مقام ربه . ومنه قول الكتاب : حضرت فلان ومجلسه ، وكتبت إلى جهته وإلى جانبه العزيز ، يريدون نفسه وذاته ، فكانه قال : ونأى بنفسه ، كقولهم في المتكبر : ذهب بنفسه ، وذهبت به الخلاء كل مذهب ، وعصفت به الخلاء ، وأن يراد بجانبه : عطفه ، ويكون عبارة عن الانحراف والازورار : كما قالوا : تني عطفه ، وتولي بركنه .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَصْلٌ مِمَّنْ هُوَ

٥٢ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ

(أرأيتم) أخبروني (إن كان) القرآن (من عند الله) يعني أن ما أنتم عليه من إنكار القرآن وتكذيبه ليس بأمر صادر عن حجة قاطعة حصلت منها على اليقين وثلج الصدور ، وإنما هو قبل النظر واتباع الدليل أمر محتمل ، يجوز أن يكون من عند الله وأن لا يكون من عنده ، وأنتم لم تنظروا ولم تفحصوا ، فما أنكرتم أن يكون حقاً وقد كفرتم به ، فأخبروني من أضل منكم وأنتم أبعدتم الشوط في مشاقته ومناصبته ولعله حق فأهلكتم أنفسكم ؟ وقوله تعالى (ومن في شقاقٍ بعيدٍ) موضوع موضع منكم ، بيانا لحالهم وصفتهم .

سَرِيرِمۡ ؕ أَبْتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِنَا حَتَّىٰ يَبْتَيِّنَ لَكُمۡ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّنۡ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ؕ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ۝٥٤

(سريهم) آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم) يعني ما يسر الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم وللخلفاء من بعده وأصار دينه في آفاق الدنيا وبلاد المشرق والمغرب عموماً وفي باحة العرب (٥٣)

== للشيخ : وأروى ، اسم محبوبته . واللجين - بفتح اللام وكسر الجيم - : ما ينساقط من الورق من اللجن وهو الدق ، لأنه يضربه الهوى أو الراعى ، فيسقط من الشجر . وذعرت - بفتح الحين ، أى : أخفت فيه القطا ، وخصها لأنها أسبق الطير إلى الماء . ومقام الذئب : إقامته أو محلها ، وعبر به كناية عن ذاته ، وخصه لأن غالب وروده الماء ليلاً . والرجل اللعين : هو الصورة التي تنصب وسط الزرع على شكل الرجل تطرد عنه الهوام ، يقول : ورب ماء قد وردته لأجل محبوبتي ، حسى أن تجي عنده فأراها . ويروى : لوصل أروى ، فلعله كان موعداً بينهما . وشبه الطير حول الماء بورق الشجر المنساقط في الكدرة والكلدة والانتشار ، وهذا يدل على أنه لا يكثر وروده ، فيصلح موعداً للوصل . وذعرت - إلى آخره : كناية عن وروده ليلاً ، كالرجل اللعين : حال من ضمير الشاعر ، فيفيد أنه سبق القطا والذئب وقعد هناك ، أو حال من الذئب ، أى : على هيئة مفزعة . وفيه دليل على شجاعة الشاعر وجراسته (١) قوله «وفي باحة العرب» أى ساحتهم . أفاده الصحاح . (خ)

خصوصا : من الفتح التي لم يتيسر أمثالها لاحد من خلفاء الارض قبلهم ، ومن الإظهار على الجبارة والأكسرة ، وتغليب قليلهم على كثيرهم ، وتسليط ضعافهم على أقويائهم ، وإجرائه على أيديهم أمورا خارجة من المعهود غارقة للعادات ، ؛ ونشر دعوة الإسلام في أقطار المعمورة ، وبسط دولته في أقاليمها ، والاستقراء يطلعك في التواريخ والكتب المدونة في مشاهد أهله وأيامهم : على عجائب لا ترى وقعة من وقائعهم إلا علما من أعلام الله وآية من آياته ، يقوى معها اليقين ، ويزداد بها الإيمان ، ويتبين أن دين الإسلام هو دين الحق الذي لا يحمده عنه إلا مكابر حسه مغالط نفسه ؛ وما الثبات والاستقامة إلا صفة الحق والصدق ، كما أن الاضطراب والتزلزل صفة الغربة والزور ؛ وأن للباطل ريحا تخفق ثم تسكن ، ودولة تظهر ثم تضمحل (ربك) في موضع الرفع على أنه فاعل كفى . و (أنه على كل شيء شهيد) بدل منه ، تقديره . أو لم يكفهم أن ربك على كل شيء شهيد . ومعناه : أن هذا الموعود من إظهار آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم سيرونه ويشاهدونه ، فيتبينون عند ذلك أن القرآن تنزيل عالم الغيب الذي هو على كل شيء شهيد ، أي : مطلع مهيم يستوى عنده غيبه وشهادته ، فيكفهم ذلك دليلا على أنه حق وأنه من عنده . ولو لم يكن كذلك لما قوى هذه القوة ولما نصر حاملوه هذه النصر . وقرئ : في مرية ، بالضم وهي الشك (محيط) عالم بجمل الأشياء وتفاصيلها وظواهرها وبواطنها ، فلا تخفى عليه خافية منهم ، وهو مجازيهم على كفرهم ومربتهم في لقاء ربهم .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة السجدة أعطاه الله بكل حرف عشر

حسنات » . (١)

سورة الشورى

مكية [إلا الآيات ٢٣ و ٢٤ و ٢٥ و ٢٧ فمدنية]

وآياتها ٥٣ [نزلت بعد سورة فصلت]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم ١ عسق ٢ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ
 الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٣ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ٤
 تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقَيْنِ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ
 وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِنْ اللَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ٥

قرأ ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهما : حم سق ﴿كذلك يوحى إليك﴾ أى مثل ذلك الوحي . أو مثل ذلك الكتاب يوحى إليك وإلى الرسل ﴿من قبلك الله﴾ يعنى أن ما تضمنته هذه السورة من المعاني قد أوحى الله إليك مثله فى غيرها من السور ، وأوحاه من قبلك إلى رسله ، على معنى : أن الله تعالى كرر هذه المعاني فى القرآن فى جميع الكتب السماوية ، لما فيها من التنبيه البليغ واللفظ العظيم لعباده من الأولين والآخرين ، ولم يقل : أوحى إليك ؛ ولكن على لفظ المضارع ، ليدل على أن إحياء مثله عادته . وقرئ : يوحى إليك ، على البناء للفعول . فإن قلت : فما رافع اسم الله على هذه القراءة ؟ قلت : ما دل عليه يوحى ، كأن قائلا قال : من الموحى ؟ فقلت : الله ، كقراءة السلى : وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم على البناء للفعول ورفع شركائهم ، على معنى : زينه لهم شركاؤهم . فإن قلت : فما رافعه فيمن قرأ نوحى بالنون ؟ قلت : يرتفع بالابتداء . والعزير وما بعده : أخبار ، أو العزيز الحكيم : صفتان ؛ والظرف خبر . قرئ : تكاد ، بالتاء والياء . ويتفطرن ، ويتفطرن . وروى يونس عن أبى عمرو قراءة غريبة : تفطرن بتاءين مع النون ، ونظيرها حرف نادر ، روى فى نوادر ابن الأعرابي : الإبل تشمن . ومعناه : يكدن تفطرن من علو شأن الله وعظمته ، يدل عليه مجيئه بعد العلى العظيم . وقيل : من دعائهم له ولدا ، كقوله تعالى (تكاد السموات يتفطرن منه) .

فإن قلت : لم قال (من فوقهن) ؟ قلت : لأن أعظم الآيات وأدناها على الجلال والعظمة : فوق السموات ، وهى : العرش ، والكبرى ، وصفوف الملائكة المرتجة بالتسبيح والتقديس حول العرش ، وما لا يعلم كنهه إلا الله تعالى من آثار ملكوته العظمى ، فلذلك قال ﴿ ينفطرن من فوقهن ﴾ أى ابتدئ الانفطار من جهتهن الفوقانية . أو : لأن كلمة الكفر جاءت من الذين تحت السموات ، فكان القياس أن يقال : ينفطرن من تحتهن من الجهة التى جاءت منها الكلمة ، ولكنه بولغ فى ذلك ، فجعلت مؤثرة فى جهة الفوق ، كأنه قيل : يكدن ينفطرن من الجهة التى فوقهن دع الجهة التى تحتهن ، ونظيره فى المبالغة قوله عزّ وعلا (يصب من فوق رؤوسهم الحميم ، يصهر به ما فى بطونهم) فجعل الحميم مؤثرا فى أجزائهم الباطنة . وقيل : من فوقهن : من فوق الأرضين .

فإن قلت : كيف صح أن يستغفروا لمن فى الأرض وفيهم الكفار أعداء الله ؟ وقد قال الله تعالى (أولئك عليهم لعنة الله والملائكة) فكيف يكونون لاعنين مستغفرين لهم ؟ قلت : قوله (لمن فى الأرض) يدل على جنس أهل الأرض ، وهذه الجنسية قائمة فى كلهم وفى بعضهم ؛ فيجوز أن يراد به هذا وهذا . وقد دل الدليل على أن الملائكة لا يستغفرون إلا لأولياء الله وهم المؤمنون ، فما أراد الله إلا إياهم . ألا ترى إلى قوله تعالى فى سورة المؤمن (ويستغفرون للذين آمنوا) وحكايتهم عنهم (فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك) كيف وصفوا المستغفر لهم بما يستوجب به الاستغفار فتركوا للذين لم يتوبوا من المصدقين طمعا فى استغفارهم ، فكيف للكفرة . ويحتمل أن يقصدوا بالاستغفار : طلب الحلم والغفران فى قوله تعالى (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا) إلى أن قال (إنه كان حليما غفورا) وقوله تعالى (إن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) والمراد : الحلم عنهم وأن لا يعاجلهم بالانتقام فيسكون عاما . فإن قلت : قد فسرت قوله تعالى (تكاد السموات ينفطرن) بتفسيرين ، فما وجه طباق ما بعده لها ؟ قلت : أما على أحدهما فكأنه قيل : تكاد السموات ينفطرن هيبة من جلاله واحتشاما من كبريائه ، والملائكة الذين هم ملء السبع الطباق وحافون حول العرش صفوفا بعد صفوف يداومون - خضوعا لعظمته - على عبادته وتسبيحه وتحميده ، ويستغفرون لمن فى الأرض خوفا عليهم من سطواته . وأما على الثانى فكأنه قيل : يكدن ينفطرن من إقدام أهل الشرك على تلك الكلمة الشنعاء ، والملائكة يوحدون الله وينزهونه عما لا يجوز عليه من الصفات التى يضيفها إليه الجاهلون به ، حامدين له على ما أولاهم من أطفافه التى علم أنهم عندها يستعصمون ، مختارين غير ملجئين ، ويستغفرون لمؤمنى أهل الأرض الذين تبرؤا من تلك الكلمة ومن أهلها . أو يطلبون إلى ربهم أن يحلم عن أهل الأرض ولا يعاجلهم بالعقاب مع وجود ذلك فيهم ، لما عرفوا فى ذلك من المصالح ، وحرصا على نجاة الخلق ، وطمعا فى توبة الكفار والنساق منهم .

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾
 (والذين اتخذوا من دونه أولياء) جعلوا له شركاء وأن دادا (الله حفيظ عليهم) رقيب
 على أحوالهم وأعمالهم لا يفوته منها شيء، وهو محاسبهم عليها ومعاقبهم، لا رقيب عليهم إلا هو
 وحده (وما أنت) يا محمد بموكل بهم ولا مفوض إليك أمرهم ولا قسرم على الإيمان، إنما
 أنت منذر لحسب.

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا
 وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لِأَرْبَبٍ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾

ومثل ذلك (أوحينا إليك) وذلك إشارة إلى معنى الآية قبلها: من أن الله تعالى هو الرقيب
 عليهم، وما أنت برقيب عليهم، ولكن نذير لهم: لأن هذا المعنى كرهه الله في كتابه في مواضع
 جمّة، والكاف مفعول به لا وحيناً. و(قرأنا عربياً) حال من المفعول به، أى أوحيناه إليك
 وهو قرآن عربي بين، لا لبس فيه عليك، لفهم ما يقال لك، ولا تتجاوز حد الإنذار. ويجوز
 أن يكون ذلك إشارة إلى مصدر أوحينا، أى: ومثل ذلك الإيحاء البين المفهم أوحينا إليك
 قرآنا عربياً بلسانك (لننذر) يقال أنذرته كذا وأنذرته بكذا. وقد عدى الأول، أعنى:
 لننذر أُمّ القرى إلى المفعول الأول والثاني، وهو قوله وتنذر يوم الجمع إلى المفعول الثاني
 (أُمّ القرى) أهل أُمّ القرى، كقوله تعالى (واسأل القرية). (ومن حولها) من العرب.
 وقرئ: لينذر بالياء والفعل للقرآن (يوم الجمع) يوم القيامة، لأن الخلائق تجمع فيه. قال
 الله تعالى (يوم يجمعكم ليوم الجمع) وقيل: يجمع بين الأرواح والأجساد. وقيل: يجمع بين
 كل عامل وعمله. و(لأربب فيه) اعتراض لا محل له^(١). قرئ: فريق وفريق؛ بالرفع والنصب،
 فالرفع على: منهم فريق، ومنهم فريق. والضمير للمجموعين؛ لأن المعنى: يوم جمع الخلائق.
 والنصب على الحال منهم، أى: متفرقين، كقوله تعالى (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون).
 فإن قلت: كيف يكونون متفرقين في حالة واحدة؟ قلت: هم مجموعون في ذلك اليوم،
 مع اقترانهم في دارى البؤس والنعيم، كما يجتمع الناس يوم الجمعة متفرقين في مسجدين. وإن
 أريد بالجمع: جمعهم في الموقف، فالتفرق على معنى مشارقتهم للتفرق.

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ
 وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾

(١) قوله «لا محل له» لعله لا محل له من الأعراب. (ع)

(لجميعهم أمة واحدة) أى مؤمنين كلهم على القسر والإكراه ، كقوله تعالى (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) وقوله تعالى (ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا) والدليل على أن المعنى هو الإلجاء إلى الإيمان : قوله (أفأنت تسكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) وقوله تعالى (أفأنت تسكره) بإدخال همزة الإنكار على المسكره دون فعله . دليل على أن الله وحده هو القادر على هذا الإكراه دون غيره . والمعنى : ولو شاء ربك مشيئة قدرة لقصرهم جميعا على الإيمان ^(١) ، ولكنه شاء مشيئة حكمة ، فكلفهم وبني أمرهم على ما يختارون ، ليدخل المؤمنون فى رحمته وهم المرادون بمن يشاء . ألا ترى إلى وضعهم فى مقابلة الظالمين ويترك الظالمين بغير ولى ولا نصير فى عذابه .

أَمْ آتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ①

معنى الهمزة فى ﴿أَمْ﴾ الإنكار ﴿فإنه هو الولي﴾ هو الذى يجب أن يتولى وحده ويعتقد أنه المولى والسيد ، فالفاء فى قوله ﴿فإنه هو الولي﴾ جواب شرط مقدر ، كأنه قيل بعد إنكار كل ولى سواه : إن أرادوا وليا بحق ، فإنه هو الولي بالحق ، لا ولى سواه ﴿وهو يحيى﴾ أى : ومن شأن هذا الولي أنه يحيى ﴿الموتى وهو على كل شئ قدير﴾ فهو الحقيق بأن يتخذ وليا دون من لا يقدر على شئ .

وَمَا آخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكِّمُوهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ

وَالِئِنَّهُ أَنِيبٌ ②

﴿وما اختلفتم فيه من شئ﴾ حكاية قول رسول الله صلى الله عليه وسلم للمؤمنين . أى : ما اختلفتم فيه الكفار من أهل الكتاب والمشركون ، فاختلفتم أنتم وهم فيه من أمر من أمور الدين ، فحكم ذلك المختلف فيه مفوض إلى الله تعالى ، وهو إثابة المحققين فيه من المؤمنين ومعاقبة المبطلين ﴿ذلکم﴾ الحاكم بينكم هو ﴿الله ربى عليه توكلت﴾ فى رد كيد أعداء الدين ﴿وإليه﴾

(١) قوله «لقصرهم جميعاً على الإيمان» هذا عند المعتزلة : أما عند أهل السنة ، فالارادة تسليزم وجود المراد ، لكن لا تسليزم القسر والجبر للعباد ؛ لأنها لا تنافى الاختيار ، لما لهم فى أعمالهم من الكسب . وإن كانت مخلوقة له تعالى . وأما التى لا تسليزم المراد وهى التى سماها مهيئة الحكمة ، فهى التى بمعنى الأمر عند المعتزلة ، ولا يثبتها أهل السنة ، كما نقرر فى التوحيد ؛ فعنى الآية : ولو شاء ربك إيمان الكل لآمن الكل ، ولكن شاء إيمان البعض ، فأمن من شاء إيمانه . (ع)

أرجع في كفاية شرم . وقيل : وما اختلفتم فيه وتنازعتم من شيء من الخصومات فتحاكموا فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا تؤثروا على حكمته حكومة غيره ، كقوله تعالى (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول) وقيل : وما اختلفتم فيه من تأويل آية واشتبه عليكم ، فارجعوا في بيانه إلى المحكم من كتاب الله والظاهر من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : وما وقع بينكم الخلاف فيه من العلوم التي لاتصل بتكليفكم ولا طريق لكم إلى علمه ، فقولوا : الله أعلم ، كمعرفة الروح . قال الله تعالى (ويسألو نك عن الروح قل الروح من أمر ربي) : فإن قلت : هل يجوز حمله على اختلاف المجتهدين في أحكام الشريعة ؟ قلت : لا ، لأن الاجتهاد لا يجوز بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١)

(فاطر السموات) قرئ بالرفع والجر ، فالرفع على أنه أحد أخبار ذلكم . أو خبر مبتدأ محذوف ، والجر على : حكمه إلى الله فاطر السموات ، و (ذلكم) إلى (أنيب) اعتراض بين الصفة والموصوف (جعل لكم) خلق لكم (من أنفسكم) من جنسكم من الناس (أزواجا) ومن الأنعام أزواجا) أى : خلق من الأنعام أزواجا . ومعناه : وخلق للأنعام أيضاً من أنفسها أزواجا (يذروكم) يكثركم ، يقال : ذرأ الله الخلق : بثهم وكثرهم . والذر ، والذرو ، والذرة : أخوات (فيه) في هذا التدبير ، وهو أن جعل للناس والأنعام أزواجا ، حتى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالد والتناسل . والضمير في (يذروكم) يرجع إلى المخاطبين والأنعام ، مغلباً فيه المخاطبون العقلاء على الغيب بما لا يعقل ، وهى من الأحكام ذات العلتين (١) ، فإن قلت : ما معنى يذروكم في هذا التدبير ؟ وهلا قيل : يذروكم به ؟ قلت : جعل هذا التدبير كالمنبع والمعدن للبث والتكثير ، ألا تراك تقول . للحيوان في خلق الأزواج تكثير ، كما قال تعالى (ولكم في الفصا حياء) قالوا : مثلك لا يبخل ، فنفوا البخل عن مثله ، وهم يريدون نفه عن ذاته ، قصدوا المبالغة في ذلك فسلوكوا به طريق الكناية ، لأنهم إذا نفوه عن يسد مسدده وعن هو على أخص أوصافه ، فقد نفوه عنه . ونظيره قولك للعربي : العرب لا تخفى الذم : كان أبلغ (٢) من قولك :

(١) قال محمود : «إن الضمير المنصل يذرو عائد على الأنفس وعلى الأنعام مغلباً فيه المخاطبون العقلاء على الغيب بما لا يعقل ، وهى من الأحكام ذات العلتين» قال أحد : الصحيح أنهما حكمان متباينان غير متداخلين ، أحدهما : مجبه على نعمت خير العقلاء أعم من كونه مخاطباً أوعائباً . والثاني : مجبه بمد ذلك على نعمت الخطاب ، فالأول لتغليب العقل . والثاني لتغليب الخطاب .

(٢) قوله «لا تخفى الذم كان أبلغ» في الصحاح : أخفرت ، إذا نقضت عهده وغدرت به . وفيه : «أبلغ» =

أنت لا تخفر . ومنه قولهم : قد أيفعت لداته وبلغت أثرابه ، يريدون : إيفاعه وبلوغه . وفي حديث رقيقة بنت صبي في سقيا عبد المطلب : « ألا وفيهم الطيب الطاهر^(١) لداته » والقصد إلى طهارته وطيبه ، فإذا علم أنه من باب الكناية لم يقع فرق بين قوله : ليس كالله شيء ، وبين قوله (ليس كالله شيء) إلا ما تعطيه الكناية من فائدتها ، وكأنهما عبارتان معتبتان على معنى واحد : وهو نفي المائلة عن ذاته ، ونحوه قوله عز وجل (بل يدها مبسوطتان) فإن معناه : بل هو جواد من غير تصور يد ولا بسط لها : لأنها وقعت عبارة عن الجود لا يقصدون شيئاً آخر ، حتى أنهم استعملوا فيمن لا يد له ، فكذلك استعمل هذا فيمن له مثل ومن لا مثل^(٢) له ، ولك أن تزعم أن كلمة التشبيه كثرت للتأكيد ، كما كثرت من قال :

• وَصَالِيَاتٍ كَكَمَا يُؤْتَفِنُ •^(٣)

== الغلام أي : ارتفع ، وهو يافع ، ولا تقول : موفع . وقوله « كان أبلغ » لعل تقديره : فإن قلت له ذلك كان أبلغ . (ع)

(١) قال محمود : « تقول العرب : مثلك لا يبخل ، فينفون البخل عن مثله ، والمراد نفسه . ونظيره قولك للعربي : العرب لا تخفر الذم . ومنه قولهم : قد أيفعت لداته وبلغت أثرابه . وفي حديث رقيقة بنت صبي في سقيا عبد المطلب : ألا وفيهم الطيب الطاهر لداته ، تريد طهارته وطيبه ، فإذا علم أنه من باب الكناية : لم يكن فرق بين قولك ليس كالله شيء . وبين قوله ليس كالله شيء . إلا ما تعطيه الكناية من فائدتها . ونحوه قوله تعالى (بل يدها مبسوطتان) فإن معناه بل هو جواد من غير تصور يد ولا بسط ؛ لأنها وقعت عبارة عن الجود لا يقصدون بها شيئاً آخر ، حتى أنهم استعملوها فيمن لا يد له ؛ فكذلك استعمل هذا فيمن له مثل ، وفيمن لا مثل له ، ثم قال : ولك أن تزعم أن كلمة التشبيه كثرت للتأكيد كما كثرت في قول من قال : • وصاليات ككما يؤتفين • ومن قال : • فأصبحت مثل كعصف ما كول • انتهى كلامه . قال أحمد : هذا الوجه الثاني مردود على ما فيه من الاخلال بالمعنى ، وذلك أن الذي يليق هنا تأكيد نفي المائلة ، والكاف على هذا الوجه إنما تؤكد المائلة وفرق بين تأكيد المائلة المنفية ، وبين تأكيد نفي المائلة ، فإن نفي المائلة المهمة عن التأكيد أبلغ وأكد في المعنى من نفي المائلة المقترنة بالتأكيد : إذ يلزم من نفي المائلة الغير المؤكدة نفي كل مائلة . ولا يلزم من نفي مائلة محقة متأكدة بالغة نفي مائلة دونها في التحقيق والتأكيد . وحيث وردت الكاف مؤكدة للمائلة وردت في الإثبات فأكدته . فليس النظر في الآية بهذين النظريتين مستقيماً والله أعلم . وما يرشد إلى صحة ما ذكرته أن لا نقائل أن يقول : ليس زيد شيئاً بجمرو ؛ لكن مشعراً له ، ولو عكس هذا لم يكن صحيحاً ، وما ذاك إلا أنه يلزم من نفي أدنى المشابهة نفي أعلاها ، ولا يلزم من نفي أعلاها نفي أدناها ، فحق أكد التشبيه قصر عن المبالغة . والوجه الأول الذي ذكره هو الوجه في الآية عنده ، وأتى بعبارة الضعف في هذا الوجه الثاني بقوله : ولك أن تزعم ، فافهم .

(٢) روى ابن عبد الرحمن بن موهب حليف بني زهرة عن أبيه : حدثني عذرة بن نوفل بحديث سقيا عبد المطلب لكن ليس فيه الطيب الطاهر لداته ورواه الطبراني وأبو نعيم في الدلائل من حديث عروة بن مصرف عن عذرة ابن نوفل عن أمه رقيقة بنت أبي صبي بن هاشم ، وكانت لدة عبد المطلب . قالت « تابعت على قریش سنوب - الحديث بطوله » ورويناه في جزء أبي السكين . (تنبيه) وقع رقيقة بنت صبي والصواب بنت أبي صبي .

(٣) لم يبق من آي ههنا يحلن غير رماد وعظام ككثفين
وغير ود جازل أو ودين وصاليات ككما يؤتفين =

ومن قال : * فَأَصْبَحَتْ مِثْلَ كَعْفٍ مَأْكُولٍ * (١)

== لخطام الجاشعي . والآي : واحدة آية ، أي : علامة . ويحلى : مضارع مبنى للمجهول ، من حليته تحلية : إذا وصفت حليته وصفته . يقول : لم يبق من آثار هذه الديار علامات فيها تذكر صفتها غير رماد وعظام متكاثفين متراكين . والكثف - بالتحريك - : كسب : المجتمع ، فلهذه سكنه الوزن . وروى : غير رماد وخطام كثفين . والخطام : الزمام . وروى بالمهمة ، وهو ما تحطم وتكسر من الحطب اليابس . والكثف - كعمل - : وعاء الرعي فكثفين على حذف للعاطف . وقبل بدل عما قبله . والأوجه روايته وخطام كثفين بالإضافة ، لأجل موافقة القوافي أي : ورباط وعامين ، وكرر أداة الاستثناء للتوكيد . والود : أصله وتد ، فقلبت التاء دالا وأدغمت في الأخرى عند تميم شذوذا . والجادل : المنتصب والقليل ، أي : لم يبق غير وتد منتصب بها أو وتدين لا غير ، حيث لم يشك إلا في ذلك . والصاليات صفة للآثاني . وقيل : صفة للنساء الموقدات للنار : وقيل : صفة للخيل الصاليات للحرب كالآثاني الصاليات للنار ، لكنهما لا يناسبان وصف الدار بالخلو . والآثاني : حجر الكانون ، وزنها : أفمولة في الأصل ، وجعلها آثاني . وأنقبت للقدر : وضعت الآثاني لها . ونقبتها تنمية : وضعتها على الآثاني . وقوله : يؤثفين مضارع مبنى للمجهول ، جاء على الأصل مهموزا ، كيؤكد من بالهمزة ، وهذا يدل على أن الصاليات صفة للأحجار الملازمات للدار المحترقات بها : فلهذه شبه النساء بالآثاني لدمايتهن وسوادن . بكثرة الدخان وملازمتهن النار . وعليه فالمعنى : ونساء صاليات كالأحجار تنفي وتوضع للقدر : فبما وصولة واقعة على الأحجار لا مصدرية ولا كافة : وكرر كاف التثنية للتوكيد ، لكن الثانية اسم بمعنى مثل : لأن حرف الجر لا يدخل على مثله . ويمكن أنه كرر الحرف من غير إعادة الجرور شذوذاً . وروى بعد قوله وصاليات ... الخ

لا يشتكين عملا ما أنقبت ما دام مخ في سلامي أو عين

وهو يناسب القول بأنها صفة للنساء أو الخيل على التنبيه السابق . والانقواء : كثرة التقي بالكسر وهو المخ . يقال : أنقت الابل إذا سمعت وكثر غنما ، أي : لا يشتكين عملا مدة إنقائهن وسمتهن ، وفسر ذلك بقوله : مادام مخ ... الخ والسلاميات : عظام الأصابع وهي والعين آخر ما يبق في المخ . وروى أيضاً هكذا :

أهل عرف الدار بالقرين وصاليات كما يؤثفين

والقرين : بناء طويلاً ، يقال : هما قرنا مالك وعقيل : نديمي جذبة الأبرش ؛ سمي بذلك لأن النعمان كان يفرهما من يريده قتله إذا خرج يوم يوسه . والأشبه أن ذلك من تخطيط الراوي ، وأن الصاليات : الأحجار . وقوله « لا يشتكين ... الخ » ليس من هذا الرجز ، فلا ينبغي روايته معه ، وهو الذي من صفة الخيل ، أو أصل النساء لا الصاليات . ويجوز أن الرجز هكذا :

أهل عرف الدار بالقرين لم يبق من آي بها يحلى

وأن قوله « لا يشتكين ... الخ » من موضع آخر من ذلك الرجز في صفة الخيل ، كما رواه صاحب الكافي شاهداً على الأكفاء في القافية هكذا :

بنات وطاء على خد الليل لا يشتكين عملا ما أنقبت

لاختلاف حرفي الروي . والوطاء - بالضم والتشديد - : من الوطاء على الأرض . وخد الليل : طريقه الذي لا يسلك إلا فيه . وقال بعضهم : إن هذا في صفة الخيل ، وأنه من مشطور المنسرح الموقوف . وعلى أنه في صفة أجل ، أي : ذلك المطايا بنات نوق أو لحول ، وطاء : جمع واطيء أو واطئة ، على خد الليل : كناية عن قوتهن في السير ، حتى كأنهن يغلبن الليل ، فيصرعنه ويطن على خده ، فهن لا يبالين به .

(١) بالأمس كانت في رغاء مأمول فأصبحت مثل كعصف مأكول

يروى لرؤبة بدله :

لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ

شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾

وقرئ: ويقدر. (إنه بكل شيء عليم) فإذا علم أن الغنى خير للعبد أغناه، وإلا أفقره. شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعواهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب ﴿١٣﴾

(شرع لكم من الدين) دين نوح ومحمد ومن بينهما من الأنبياء، ثم فسر المشروع الذي اشترك هؤلاء الأعلام من رسله فيه بقوله (أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) والمراد: إقامة دين الإسلام الذي هو توحيد الله وطاعته، والإيمان برسله وكتبه، ويوم الجزاء، وسائر ما يكون الرجل بإقامته مسلماً، ولم يرد الشرائع التي هي مصالح الأمم على حسب أحوالها، فإنها مختلفة متفاوتة. قال الله تعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً) وعمل (أن أقيموا) إما نصب بدل من مفعول شرع والمعطوفين عليه، وإما رفع على الاستئناف، كأنه قيل: وما ذلك المشروع؟ فقيل: هو إقامة الدين، ونحوه قوله تعالى (إن هذه أمتكم أمة واحدة). (كبر على المشركين) عظم عليهم وشق عليهم (ما تدعواهم إليه) من إقامة دين الله والتوحيد (يجتبي إليه) يجتلب إليه ويجمع. والضمير للدين بالتوفيق والتسديد (من يشاء) من ينفع فيهم توفيقه ويجرى عليهم لطفاً.

وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا يَنْبَغُ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِيَ يَنْبَغُ وَإِنَّ الَّذِينَ أَوْرَثُوا السِّكِّتَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي

شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ ﴿١٤﴾

ولعبت طير بهم أبابيل فصيروا مثل كعصف مأكول يقول: بالأمس، أي: في الزمن الماضي القريب، كانت تلك الديار مثلاً في رخاء، أي: خصب وسعة من الثروة والغنى، مأمول ذلك، أي: متمنى للناس، وكرر كلمة التنبيه للتوكيد، والعصف: ما على الحب وعلى ساق الزرع من الثبن والورق اليابس، مأكول: أي أصابه الأكل، وهو الدود. وأكلته الدواب ثم رائته. وأبابيل، بمعنى جماعات متفرقة، صفة طير، وهو اسم جمع لا واحده من لفظه. وقيل: واحده أبول كمجول. وقيل: إبال كفتاح. وقيل إبيل كسكين. وقول رؤبة «صبروا» بالتشديد والبناء المجهول، ولعل هذا رجز غير ذلك.

(وما تفرقوا) يعنى أهل الكتاب بعد أنبيائهم (إلا من بعد) أن علموا أن الفرقه ضلال وفساد ، وأمر متوعد عليه على السنة الانبياء (ولولا كلة سبقت من ربك) وهى عدة التأخير إلى يوم القيامة (لنقض بينهم) حين افرقوا لعظم ما افرقوا (وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم) وهم أهل الكتاب الذين كانوا فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم (لنى شك) من كتابهم لا يؤمنون به حق الإيمان . وقيل : كان الناس أمة واحدة مؤمنين بعد أن أهلك الله أهل الأرض أجمعين بالطوفان ، فلما مات الآباء اختلف الأبناء فيما بينهم ، وذلك حين بعث الله إليهم النبيين مبشرين ومنذرين وجاءهم العلم . وإنما اختلفوا للبعى بينهم . وقيل : وما تفرق أهل الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بمبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كقوله تعالى (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة) وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم هم المشركون : أورثوا القرآن من بعد ما أورث أهل الكتاب التوراة والإنجيل . وقرئ : ورثوا ، وورثوا .

فَلِذَلِكَ فَادُعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَمَنْتُ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلُنَا وَالكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَأُحْجَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَهُهُ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

(فلذلك) فلأجل التفرق ولما حدث بسببه من تشعب الكفر شعباً (فادع) إلى الاتفاق والاتلاف على الملة الحنيفية القديمة (واستم) عليها وعلى الدعوة إليها كما أمرك الله (ولا تتبع أهواءهم) المختلفة الباطلة بما أنزل الله من كتاب ، أى كتاب صح أن الله أنزله ، يعنى الإيمان بجميع الكتب المنزلّة : لأن المتفرقين آمنوا ببعض وكفروا ببعض ، كقوله تعالى (ويقولون تؤمن ببعض ونكفر ببعض) إلى قوله (أولئك هم الكافرون حقاً) (لأعدل بينكم) فى الحكم إذا تخاضعت فتحاكمتم إلى (لأحجة بيننا وبينكم) أى لاختصومة : لأن الحق قد ظهر وصرتم محجوجين به فلا حاجة إلى المحاجة . ومعناه : لا إيراد حجة بيننا : لأن المتحاجين : يورد هذا حجته وهذا حجته (الله يجمع بيننا) يوم القيامة فيفصل بيننا وينتقم لنا منكم ؛ وهذه محاجزة ومتاركة بعد ظهور الحق وقيام الحجة والالزام . فإن قلت : كيف حو جزوا وقد فعل بهم بعد ذلك ما فعل من القتل وتخريب البيوت وقطع النخيل والإجلاء ؟ قلت : المراد محاجزتهم فى مواقف المقاتلة لا المقاتلة .

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَّمَهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾

(يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ) يُحَاصِمُونَ فِي دِينِهِ (من بعد) ما استجاب له الناس ودخلوا في الإسلام، ليردوهم إلى دين الجاهلية، كقوله تعالى (وذكر كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً) كان اليهود والنصارى يقولون للمؤمنين: كتابنا قبل كتابكم، ونبينا قبل نبيكم، ونحن خير منكم^(١) وأولى بالحق. وقيل: من بعد ما استجاب الله لرسوله ونصره يوم بدر وأظهر دين الإسلام (داحضة) باطلة زالة.

اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾

(أنزل الكتاب) أى جنس الكتاب (والميزان) والعدل والتسوية. ومعنى إنزال العدل: أنه أنزله في كتبه المنزلة. وقيل: الذى يوزن به. بالحق: ملتبسا بالحق، مقترنا به، بعيداً من الباطل أو بالغرض الصحيح كما اقتضته الحكمة. أو بالواجب من التحليل والتحريم وغير ذلك (الساعة) فى تأويل البعث، فلذلك قيل (قريب) أو لعل يحىء الساعة قريب. فإن قلت: كيف يوفق ذكر اقتراب الساعة مع إنزال الكتاب والميزان؟ قلت: لأن الساعة يوم الحساب ووضع الموازين للقسط، فكأنه قيل: أمركم الله بالعدل والتسوية والعمل بالشرائع قبل أن يفاجئكم اليوم الذى يحاسبكم فيه ويزن أعمالكم، ويوفى لمن أوفى ويظف لمن ظف. الماراة: الملاجة^(٢) لأن كل واحد منهما يمرى ماعند صاحبه (لنى ضلال بعيد) من الحق: لأن قيام الساعة غير مستبعد من قدرة الله، ولدلالة الكتاب المعجز على أنها آتية لا ريب فيها، ولشهادة العقول على أنه لا بد من دار الجزاء.

اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ (لطيف بعباده) يزبليغ البرية بهم، قد توصل بزه إلى جميعهم، وتوصل من كل واحد منهم إلى حيث لا يبلغه، وهم أحد من كلياته وجزئياته. فإن قلت: فما معنى قوله (يرزق من يشاء)؟

(١) قوله «ونحن خير منكم» لعله: «فنحن» كعبارة للنسب. (ع)
(٢) قوله «الملاجة» بالجم: القادى فى الخصومة، ويمرئ: أى يستخرج، كذا فى الصحاح. (ع)

بعد توصل برّه إلى جميعهم؟ قلت: كلهم مبرورون لا يخلو أحد من برّه، إلا أن البرّ أصناف، وله أوصاف. والقسم بين العباد تنفاوت على حسب تفاوت قضايا الحكمة والتدبير، فيطير لبعض العباد صنف من البر لم يطر مثله لآخر، ويصيب هذا حظ له وصف ليس ذلك الوصف لحظ صاحبه؛ فمن قسم له منهم ما لا يقسم للآخر فقد رزقه، وهو الذي أراد بقوله تعالى (يرزق من يشاء) كما يرزق أحد الاخوين ولدًا دون الآخر، على أنه أصابه بنعمة أخرى لم يرزقها صاحب الولد (وهو القوى) الباهر القدرة، الغالب على كل شيء (العزیز) المنيع الذي لا يغلب.

مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا
نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (٢٠)

سمى ما يعمله العامل مما يبغي به الفائدة والزكاء حرثاً على المجاز. وفرق بين عملي العالمين: بأن من عمل للآخرة وفق في عمله وضوعفت حسناته، ومن كان عمله للدنيا أعطى شيئاً منها لا ما يريد ويبتغيه. وهو رزقه الذي قسم له وفرغ منه وماله نصيب قط في الآخرة، ولم يذكر في معنى عامل الآخرة وله في الدنيا نصيب، على أن رزقه المقسوم له واصل إليه لا محالة، للاستئانة بذلك إلى جنب ما هو بصدده من زكاء عمله وفوزه في المسآب.

أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ
الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١)

معنى الهمزة في (أم) التقرير والتفريع. وشركاؤهم: شياطينهم الذين زينوا لهم الشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا؛ لأنهم لا يعلمون غيرها وهو الدين الذي شرعت لهم الشياطين، وتعالى الله عن الإذن فيه والامر به وقيل شركاؤهم: أوثانهم. وإنما أضيف إليهم لأنهم متخذوها شركاء لله، فتارة تضاف إليهم لهذه الملازمة. وتارة إلى الله؛ ولما كانت سبباً لفضلاتهم وافتنانهم: جعلت شارعة لدين الكفر، كما قال إبراهيم صلوات الله عليه (إنهن أضللن كثيراً من الناس). (ولولا كلمة الفصل) أي القضاء السابق بتأجيل الجزاء. أي: ولولا العدة بأن الفصل يكون يوم القيامة (لفضى بينهم) أي بين الكافرين والمؤمنين. أو بين المشركين وشركائهم. وقرأ مسلم بن جندب: وأن الظالمين، بالفتح عطفاً له على كلمة الفصل، يعني: ولولا كلمة الفصل وتقدير تعذيب الظالمين في الآخرة، لفضى بينهم في الدنيا.

تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْحَاتٍ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدَ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾

(تري الظالمين) في الآخرة (مشفقين) خائفين خوفا شديدا أرق قلوبهم (مما كسبوا) من السيئات (وهو واقع بهم) يريد: ووباله واقع بهم وواصل إليهم لا بد لهم منه، أشفقوا أو لم يشفقوا. كأن روضة جنة المؤمن أطيب بقعة فيها وأنزهها (عند ربهم) منصوب بالظرف لا يشاؤون قرئ: يبشر، من بشره. ويبشر من أبشره. ويبشر، من بشره. والاصل: ذلك الثواب الذي يبشر الله به عباده، لحذف الجار، كقوله تعالى (واختار موسى قومه) ثم حذف الراجع إلى الموصول، كقوله تعالى (أهذا الذي بعث الله رسولا) أو ذلك التبشير الذي يبشره الله عباده. روى أنه اجتمع المشركون في جمع لم فقال بعضهم لبعض: أترون محمدا يسأل على ما يتعاطاه أجرا؟ فنزلت الآية (إلا المودة في القربى) يجوز أن يكون استثناء متصلا، أى: لا أسألكم أجرا إلا هذا، وهو أن تودوا أهل قرابتي؛ ولم يكن هذا أجرا في الحقيقة؛ لأن قرابته قرابتهم، فكانت صلتهم لازمة لهم في المروءة. ويجوز أن يكون منقطعا، أى: لا أسألكم أجرا قط ولكنني أسألكم أن تودوا قرابتي الذين هم قرابتكم ولا تؤذوهم. فإن قلت: هلا قيل: إلا مودة القربى: أو إلا المودة للقربى. وما معنى قوله (إلا المودة في القربى)؟ قلت: جعلوا مكانا للمودة ومقرأ لها، كقولك: لى فى آل فلان مودة. ولى فيهم هوى وحب شديد، تريد: أحبهم وهم مكان حبي ومحله، وليست (فى) بصلة للمودة، كاللام إذا قلت: إلا المودة للقربى، إنما هى متعلقة بمحذوف تعلق الظرف به فى قولك: المال فى الكيس. وتقديره: إلا المودة ثابتة فى القربى ومتكئة^(١) فيها. والقربى: مصدر كالزولنى والبشرى، بمعنى: قرابة. والمراد فى أهل القربى. وروى أنها لما نزلت قيل: يا رسول الله، من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا

(١) قال محمود: «إن قلت هلا قيل: إلا مودة القربى. أو: إلا المودة للقربى. وأجاب بأنهم جعلوا مكانا للمودة ومقرأ لها، كقولك: لى فى آل فلان هوى وحب شديد، وليس (فى) صلة للمودة، كاللام إذا قلت: إلا المودة للقربى؛ وإنما هى متعلقة بمحذوف تقديره: إلا المودة ثابتة فى القربى ومتكئة فيها، قال أحد: وهذا المعنى هو الذى قصد بقوله فى الآية التى تقدمت: إن قوله بذروكم فيه، إنما جاء عوضا من قوله: بذروكم به، فافهمه.

مودتهم؟ قال: «على وفاطمة وابناهما»^(١)، ويدل عليه ما روى عن علي رضي الله عنه: شكوت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حسد الناس لي. فقال: «أما ترضى أن تكون رابع أربعة: أول من يدخل الجنة أنا وأنت والحسن والحسين، وأزواجنا عن أيماننا وشمائنا، وذريتنا خلف أزواجنا»^(٢)، وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «حرمت الجنة على من ظلم أهل بيته وأذاني في عترتي». ومن اصطنع صنعة إلى أحد من ولد عبد المطلب ولم يجازه عليها فأنا أجازيه عليها غدا إذا لقيني يوم القيامة»^(٣)، وروى: «أن الأنصار قالوا: فعلنا وفعلنا، كأنهم افتخروا، فقال عباس أو ابن عباس رضي الله عنهما: لنا الفضل عليكم، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتاهم في مجالسهم فقال: «يا معشر الأنصار، ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله بي؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «ألم تكونوا أضللاً فأهداكم الله بي؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «ألم تقولون: ألم يخرجك قومك فآويناك، أو لم يكذبوك فصدقناك، أو لم نخذلك فنصرناك؟ قال: «فإزال يقول حتى جثوا على الركب وقالوا: أموالنا وما في أيدينا لله ولرسوله. فنزلت الآية. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من مات على حب آل محمد مات شهيداً»^(٤)، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مغفوراً له، ألا ومن مات على حب آل محمد مات تائباً، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان، ألا ومن مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة، ثم منكر ونكير، ألا ومن مات على حب آل محمد يزف إلى الجنة كما يزف العروس إلى بيت زوجها، ألا ومن مات على حب آل محمد فتح له في قبره بابان إلى الجنة، ألا ومن مات على حب آل محمد جعل الله

(١) أخرجه الطبراني وابن أبي حاتم والحاكم في مناقب الشافعي من رواية حسين الأشقر عن قيس بن الربيع عن الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. وحسين ضعيف ساقط. وقد عارضه ما هو أولى منه. ففي البخاري من رواية طاووس عن ابن عباس أنه سئل عن هذه الآية. فقال سعيد بن جبير قرئ آل محمد صلى الله عليه وسلم؟ فقال ابن عباس: عجبت. إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيه قرابة. الحديث. قلت وأخرج سعيد بن منصور عن طريق الشعبي قال: «أكثرنا علينا في هذه الآية». فكتبتنا إلى ابن عباس فكتب: فذكر نحوه. وابن طاووس أتم منه.

(٢) أخرجه الكرمي عن ابن عائشة بسنده عن علي رضي الله عنه ورواه الطبراني من حديث أبي رافع. وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي: «إن أول أربعة يدخلون الجنة». فذكره. وسنده واه.

(٣) أخرجه الثعلبي من حديث علي رضي الله عنه. وفيه عبدالله بن أحمد بن عامر الطائي عن أبيه. وهو كذاب.

(٤) أخرجه الطبراني وابن أبي حاتم وابن مردويه والطبراني في الأوسط، كلهم من حديث ابن عباس. وفيه

يزيد بن زياد وهو ضعيف

(٥) أخرجه الثعلبي: أخبرنا عبدالله بن محمد بن علي البلخي حدثنا يعقوب بن يوسف بن إسحاق حدثنا محمد بن أسلم حدثنا يعلى بن عبيد عن إسماعيل بن قيس عن جرير - بطوله. وأما الوضع عليه لائحة. ومحمد ومن فوقه أثبات. والآفة فيه ما بين الثعلبي ومحمد.

قبره مزار ملائكة الرحمة ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة ، ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوباً^(١) بين عينيه : آيس من رحمة الله ، ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافراً ، ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة ، وقيل : لم يكن بطن من بطون قريش إلا وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبينهم قربي ، فلما كذبوه وأبوا أن يبايعوه نزلت . والمعنى : إلا أن تودوني في القربي ، أى : في حق القربي ومن أجلها ، كما تقول : الحب في الله والبغض في الله ، بمعنى : في حقه ومن أجله ، يعنى : أنكم قومي وأحق من أجنبي وأطاعني ، فإذا قد أيتّم ذلك فاحفظوا حق القربي ولا تؤذوني ولا تهيجوا عليّ . وقيل : أتت الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم بمال جمعه وقالوا : يا رسول الله ، قد هدانا الله بك وأنت ابن أختنا وتعروك نواب وحقوق ومالك سعة ، فاستعن بهذا على ما ينوبك^(٢) ، فنزلت ورده . وقيل (القربي) : التقرب إلى الله تعالى ، أى : إلا أن تحبوا الله ورسوله في تقربكم إليه بالطاعة والعمل الصالح . وقرئ : إلا مودة في القربي (من يقترف حسنة) عن السدي أنها المودة في آل رسول الله صلى الله عليه وسلم : نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه ومودته فيهم . والظاهر : العموم في أى حسنة كانت : إلا أنها لما ذكرت عقيب ذكر المودة في القربي : دل ذلك على أنها تناولت المودة تناولاً أولياً ، كأن سائر الحسنات لها توابع . وقرئ : يزد ، أى : يزد الله . وزيادة حسناتها من جهة الله مضاعفتها ، كقوله تعالى (من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة) وقرئ : حسنى ، وهى مصدر كالبرى ، الشكور فى صفة الله : مجاز للاعتداد بالطاعة ، وتوفية ثوابها ، والتفضل على المثاب .

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾

(أم) منقطعة . ومعنى الهمة فيه التوبيخ^(٣) ، كأنه قيل : أيتاكون أن ينسبوا مثله إلى الافتراء ، ثم إلى الافتراء على الله الذى هو أعظم القرى وأخشها (فإن يشأ الله يختم على قلبك) فإن يشأ الله يجعلك من المختوم على قلوبهم ، حتى تفترى عليه الكذب فإنه لا يجترى على افتراء الكذب على الله إلا من كان فى مثل حالهم ، وهذا الأسلوب مؤداه استبعاد الافتراء من مثله ،

(١) قوله مكتوب بين عينيه ، لعله : مكتوباً . (ع)

(٢) ذكره الثعلبي والواحدي فى الأسباب عن ابن عباس بغير سند . ويصح أن يكون عن الكلبي عن أبي صالح عنه . وروى الطبراني من طريق عثمان بن عفان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس . وأخرجه ابن مردويه عنه .

(٣) قوله «ومعنى الهمة فيه التوبيخ» لعله : فيها . (ع)

وأنه في البعد مثل الشرك بالله والدخول في جملة المختوم على قلوبهم . ومثال هذا : أن يخون بعض الأمناء فيقول لعل الله خذني ، لعل الله أعمى قلبي ، وهو لا يريد إثبات الخذلان وعي القلب . وإنما يريد استبعاد أن يخون مثله ، والتنبيه على أنه ركب من تخوينه أمر عظيم ، ثم قال : ومن عادة الله أن يمحو الباطل ويثبت الحق ﴿ بكلماته ﴾ بوحيه أو بقضائه كقوله تعالى (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه) يعني : لو كان مفترياً كما تزعمون لكشف الله افتراءه وحقه وقذف بالحق على باطله فدمغه . ويجوز أن يكون عدة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه يمحو الباطل الذي هم عليه من البهت ^(١) والتكذيب ، ويثبت الحق الذي أنت عليه بالقرآن وبقضائه الذي لا مرد له من نصرتك عليهم ، إن الله عليم بما في صدوركم وصدورهم ، فيجري الأمر على حسب ذلك . وعن قتادة (يحتم على قلبك) : ينسك القرآن ويقطع عنك الوحي ، يعني : لو افترى على الله الكذب لفعل به ذلك ، وقيل (يحتم على قلبك) : يربط عليه بالصبر ، حتى لا يشق عليك أذاهم . فإن قلت : إن كان قوله (ويمح الله الباطل) كلاماً مبتدأً غير معطوف على يحتم ، فما بال الواو ساقطة في الخط ؟ قلت : كما سقطت في قوله تعالى (ويدع الإنسان بالشر) وقوله تعالى (سندع الزبانية) على أنها مثبتة في بعض المصاحف .

وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾

يقال : قبلت منه الشيء ، وقبلته عنه . فعني قبلته منه : أخذته منه وجعلته مبدأً لقبولي ومنشأً . ومعنى : قبلته عنه : عزلته عنه وأبنته عنه . والتوبة : أن يرجع عن القبيح والإخلال بالواجب بالندم عليهما والعزم على أن لا يعاود ؛ لأن المرجوع عنه قبيح وإخلال بالواجب . وإن كان فيه لعبد حق : لم يكن بد من التفضي على طريقه ، وروى جابر أن أعرابياً دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك ، وكبر ، فلما فرغ من صلاته قال له على رضى الله عنه : يا هذا ، إن سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين ، وتوبتك تحتاج إلى التوبة . فقال : يا أمير المؤمنين ، وما التوبة ؟ قال : اسم يقع على ستة معان : على الماضي من الذنوب الندامة ، ولتضييع الفرائض الإعادة ، ورد المظالم ، وإذابة النفس في الطاعة كما ربيتها في المعصية ، وإذابة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية ، والبكاء بدل كل ضحك ضحكته (ويعفو عن السيئات) عن الكبائر إذا تيب عنها ، وعن الصغائر إذا اجتنبت الكبائر (ويعلم ما تفعلون) . قرئ بالتاء والياء : أى : يعلمه فيثيب على حسناته ، ويعاقب على سيئاته .

(١) قوله من البهت ، أى : اتهام الإنسان بما ليس فيه ، (ع)

وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ

لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾

(ويستجيب الذين آمنوا) أى يستجيب لهم ، غذف اللام كما حذف في قوله تعالى (وإذا كالوهم) أى يثيبهم على طاعتهم ويزيدهم على الثواب تفضلا ، أو إذا دعوه استجاب دعاءهم وأعطاهم ما طلبوا وزادهم على مطلوبهم . وقيل : الاستجابة : فعلهم ، أى يستجيبون له بالطاعة إذا دعاهم إليها (ويزيدهم) هو (من فضله) على ثوابهم . وعن سعيد بن جبير : هذا من فعلهم : يحييونه إذا دعاهم . وعن إبراهيم بن آدم أنه قيل له : ما بالنا ندعو فلا يجاب ؟ قال : لأنه دعاكم فلم يجيبوه ، ثم قرأ (والله يدعو إلى دار السلام) ، (ويستجيب الذين آمنوا) .

وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ

إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾

(لبغوا) من البغى وهو الظلم ، أى : لبغى هذا على ذاك ، وذاك على هذا ، لأن الغنى مبطرة مأسرة ^(١) ، وكفى بحال قارون عبدة . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : وأخوف ما أخاف على أمتي زهرة الدنيا وكثرتهاء ^(٢) ولبعض العرب :

وَقَدْ جَعَلَ الْوَسْمِيُّ يَنْبُتُ بَيْنَنَا وَيَيْنَ بَنِي رُومَانَ نَبْعًا وَشَوْحَطًا ^(٣)

يعنى : أنهم أحيوا أخذتوا أنفسهم بالبغى والتفان . أو من البغى وهو البذخ والكبر ، أى : لتكبروا في الأرض ، وفعلوا ما يتبع الكبر من الغلو فيها والفساد . وقيل : نزلت في قوم من أهل الصفة تمنوا سعة الرزق والغنى . قال خباب ابن الارت : فينا نزلت ، وذلك أنا نظرنا إلى أموال بني قريظة والنضير وبني قينقاع فتمنينناها (بقدر) بتقدير . يقال قدره قدرأ

(١) قوله ومبطرة مأسرة ، في الصحاح : الأشر : البطر . (ع)

(٢) أخرجه الطبرى من رواية سعيد عن قتادة قال . ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم .. بهذا . وزاد وكان يقال خير الرزق ما لا يظفك ولا يلهيك ، وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدرى . بلفظ «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا» .

(٣) يروى : وقد جعل الوسمى أول مطر السنة ، لأنه يسم الأرض بالنبات . والنبع : شجر تنفذ منه القسي . والشوخط مثله . أى : قد يشرع المطر في إنبات الأشجار بيننا وبينهم . والمعنى : أنهم يطلبون الإقامة حتى تعظم الأشجار بينهم لأنهم أغنياء لا يكثرون الارتحال كغيرهم . أو المعنى : أنهم كانوا إذا جاء الربيع وبلغت لك الأشجار ينتخون منها الرماح والقسي . ويتحاربون . فالكلام كناية عن انتشاب الحرب بين القبيلتين ، وهذا هو الذى يعطيه السياق ، وذكر البنية ، وتخصيص ذلك الشجر .

وقدرا . (خبر بصير) يعرف ما يؤول إليه أحوالهم ، فيقدر لهم ما هو أصالح لهم وأقرب إلى جمع شملهم ، فيفقر ويغنى ، ويمنع ويعطى ، ويقبض ويبسط كما توجه الحكمة الربانية . ولو أغناهم جميعا لبغوا ، ولو أفقرهم لهلكوا . فإن قلت : قد نرى الناس يبغى بعضهم على بعض ، ومنهم مبسوط لهم ، ومنهم مقبوض عنهم ؛ فإن كان المبسوط لهم يبغون ، فلم يبسط لهم : وإن كان المقبوض عنهم يبغون فقد يكون البغى بدون البسط ، فلم شرطه ؟ قلت : لا شبهة في أن البغى مع الفقر أقل ومع البسط أكثر وأغلب ، وكلاهما سبب ظاهر للإقدام على البغى والإحجام عنه ، فلو عم البسط لغلب البغى حتى ينقلب الأمر إلى عكس ما عليه ^(١) الآن .

وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ

الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ٢٨

قرئ : قنطوا بفتح النون وكسرها (وينشر رحمته) أى : بركات الغيث ومنافعه وما يحصل به من الخصب . وعن عمر رضى الله عنه أنه قيل له : اشتد القحط وقط الناس ^(٢) فقال : مطروا إذا : أراد هذه الآية . ويجوز أن يريد رحمته في كل شيء ، كأنه قال : ينزل الرحمة التي هي الغيث ، وينشر غيرها من رحمته الواسعة (الولي) الذي يتولى عباده بإحسانه (الحميد) المحمود على ذلك يحمداه أهل طاعته .

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى

جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ٢٩

(وما بث) يجوز أن يكون مرفوعا ومجرورا يحمل على المضاف إليه أو المضاف . فإن قلت : لم جاز (فيهما من دابة) والدواب في الأرض وحدها ؟ قلت : يجوز أن ينسب الشيء إلى جميع المذكور وإن كان ملتبسا ببعضه ، كما يقال : بنو تميم فيهم شاعر مجيد أو شجاع بطل ، وإنما هو في نخذ ^(٣) من أنخاذهم أو فصيلة من فصائلهم ، وبنو فلان فعلوا كذا ، وإنما فعله نويس

(١) قوله «عكس ما عليه الآن» لعله : ما هو عليه . (ع)

(٢) أخرجه الثعلبي من طريق قتادة قال «ذكر لنا» فذكره بتمامه . ورواه باختصار هبة الرزاق عن معمر بن قتادة قال «ذكر لنا أن رجلا أتى عمر بن الخطاب فقال : يا أمير المؤمنين . قحط المطر وقط الناس . فقال : مطروا إذن» .

(٣) قوله «نخذ» العشار أقلها النخذ ، وفوقه البطان ، ثم الهارة ، ثم الفصيلة ، ثم القبيلة ، ثم الشعب . فهو

أكثرها . أفاده الصحاح . (ع)

منهم . ومنه قوله تعالى (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) وإنما يخرج من الملح . (١) ويجوز أن يكون للملائكة عليهم السلام مشى مع الطيران ، فيوصفوا بالديب كما يوصف به الأناسي . ولا يبعد أن يخلق في السموات حيوانا يمشى فيها مشى الأناسي على الأرض ، سبحانه الذي خلق ما نعلم وما لا نعلم من أصناف الخلق . (إذا) يدخل على المضارع كما يدخل على الماضي . قال الله تعالى (والليل إذا يغشى) ومنه (إذا يشاء) وقال الشاعر :

وَإِذَا مَا أَسَاءَ أُنْبِثُ مِنْهَا آخِرَ اللَّيْلِ نَاشِطًا مَذْعُورًا (٢)

وَمَا أَصْبَحُ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ (٣٠)

وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٣١)

في مصاحف أهل العراق (فبا كسبت) بإثبات الفاء على تضمين دما ، معنى الشرط . وفي مصاحف أهل المدينة (بما كسبت) بغير فاء ، على أن (ما) مبتدأة ، وبما كسبت : خبرها من غير تضمين معنى الشرط . والآية مخصوصة بالمجرمين ، (٣) ولا يمتنع أن يستوفى الله بعض عقاب المجرم ويعفو

(١) قال محمد : وفان قلت : لم جاز فيهما من دابة والدواب في الأرض وحدها ؟ وأجاب بأنه يجوز أن ينسب الشيء إلى جميع المذكور وإن كان لبعضه ، كقوله تعالى (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) وإنما يخرج من الملح ... الخ ، قال أحمد : إطلاق الدواب على الأناسي بعيد من عرف اللغة ، فكيف في إطلاقه على الملائكة . والصواب - والله أعلم - : هو الوجه الأول ، وقد جاء مفسرا في غير ما آية ، كقوله (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار) ثم قال (وما أزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة) نفس هذا الأمر بالأرض ، والله أعلم .

(٢) إذا : ظرف للمستقبل ، فإذا دخل عليه الماضي كان مستقبلا ؛ أو المضارع كان ناصا في الاستقبال ، وجرده من التثنية أمراً آخر لشدة سيرها ، فلذلك قال : منها . وأصل الماضي : أبعثها في آخر الليل كالناشط ، وهو الثور الوحشي يخرج من أرض إلى أخرى ، والمذعور : الخائف وهو كناية عن سريع السير جداً .

(٣) قال محمود : والآية مخصوصة بالمجرمين ... الخ ، قال أحمد : هذه الآية تنكسر عندها القدورية ولا يمكنهم ترويح حيلة في صرفها عن مقتضى نصها ، فانهم حاولوا قوله تعالى (وينظر مادون ذلك لمن يشاء) على التائب ، وهو غير ممكن لهم ؛ فانه قد أثبت التبعيض في العفو ، ومحال عندهم أن يكون العفو هنا مقرونا بالتوبة ، فانه يلزم تبعيض التوبة أيضا . وهي عندهم لا تبعيض . وكذلك نقل الامام عن أبي هاشم وهو رأس الاعتزال والذي تولى كبره منهم . فلا يحمل لها إلا الحق الذي لا مرية فيه ، وهو مرد العفو إلى مشيئة الله تعالى غير موقوف على التوبة . وقول الزمخشري إن الآلام التي تصيب الأطفال والمجانين لها أعراض ، إنما يريد به وجوب العوض على الله تعالى على سياق معتقده ، وقد أخطأ على الأصل والفرع ؛ لأن المعتزلة وإن أخطأت في إيجاب العوض ، فلم تقل بإيجابه في الأطفال والمجانين . الا ترى أن القاضى أبا بكر ألزمهم قبح إيلام البهائم والأطفال والمجانين فقال : لا أعراض لها ، وليس مترتبة على استحقاق سابق فيحسن ، فانما يتم إلزامه بموافقتهم له على أن لا أعراض لها .

عن بعض . فأما من لا جرم له كالأنبياء والأطفال والمجانين ، فهؤلاء إذا أصابهم شيء من ألم أو غيره فلهعوض الموفى والمصلحة . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : ما من اختلاج عرق ولا خدش عود ولا نسكة حجر إلا بذنب ، ولما يعفو الله عنه أكثر ^(١) وعن بعضهم : من لم يعلم أن ما وصل إليه من الفتن والمصائب باكتسابه ، وأن ما عفا عنه مولاة أكثر : كان قليل النظر في إحسان ربه إليه . وعن آخر : العبد ملازم للجنايات في كل أوان ؛ وجنایاته في طاعاته أكثر من جنایاته في معاصيه ، لأن جنایة المعصية من وجه وجنایة الطاعة من وجوه ، والله يظهر عبده من جنایاته بأنواع من المصائب ليخفف عنه أثقاله في القيامة ، ولولا عفوه ورحمته لهلك في أول خطوة : وعن علي رضي الله عنه وقد رفعه : من عفى عنه في الدنيا عفى عنه في الآخرة ^(٢) ومن عوقب في الدنيا لم يثن عليه العقوبة في الآخرة ، وعنه رضي الله عنه : هذه أرجى آية للمؤمنين في القرآن ﴿ بمعجزين ﴾ بفاتين ما قضى عليكم من المصائب ﴿ من ولي ﴾ من متول بالرحمة .

وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾
 قَيْظُ اللَّيْلِ دَوَائِدُ عَلَى ظُهُورِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾
 أَوْ يُوقِنُ أَنَّ مَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾
 ﴿الجواري﴾ : السفن . وقرئ : الجوار ﴿كالأعلام﴾ كالجبال . قالت الحسناء :
 * كَأَنَّهُ عِلْمٌ فِي رَأْسِهِ نَارٌ * ^(٣)

(١) أخرجه عبدالرزاق وابن أبي حاتم من طريق إسماعيل بن سليم عن الحسن والطبري والبيهقي في أواخر الشعب . عن قتادة كلاهما مرسل . ورواه عبدالرزاق من رواية الصلت بن بهرام عن أبي وائل عن البراء رضي الله عنه

(٢) أخرجه ابن ماجه من رواية أبي جحيفة عن علي رفعه . بلفظ : من أصاب ذنبا في الدنيا فعوقب به ، فافه أعدل من أن يثنى على عبد عقوقه . ومن أذن ذنبا فستر الله عليه وعفا عنه فافه أكرم من أن يعود في شيء عفا عنه ، ورواه أحمد والبخاري والدارقطني والبيهقي في الشعب في السابع والأربعين . وقال إسحاق في مسنده : أخبرنا عيسى بن يونس عن إسماعيل بن عبد الملك بن أبي الصفر عن يونس بن حبان عن هارث بن عمرو وفيه انقطاع
 (٣) وإن صخرنا لمولانا وسيدنا وإن صخرنا إذا يشتر لنحار
 أغر أبلغ تأتم الهداة به كَأَنَّهُ عِلْمٌ فِي رَأْسِهِ نَارٌ

للحسنا ترقى أحاما . ويغتو . أي يدخل في الفتاة ، وهو حكاية حال ماضية . ونحو : كثير نحر الأبل للضيغان كناية عن كثرة كرمه . والأغر : الأبيض . والأبلغ : الطلق الوجه المعروف . والهداة : جمع هاد : من يتقدم غيره ليدله . والعلم : الجبل . وفي رأسه نار : صفة علم جاءت لترشيع التمهيد وتقريره ، والمبالغة في توضيح المشبه =

وقرى: الرياح فيظللان بفتح اللام وكسرها؛ من ظل يظل ويظل، نحو: ضل يضل ويضل
 ﴿رواكذ﴾ ثوابت لا تجرى ﴿على ظهره﴾ على ظهر البحر ^(١) ﴿لكل صبار﴾ على بلاء الله
 ﴿شكور﴾ لنعائته، وهما صفتا المؤمن المخلص، فجعلهما كناية عنه، وهو الذى وكل همته
 بالنظر فى آيات الله، فهو يستعمل منها العبر ﴿يوقهن﴾ يهلكهن. والمعنى: أنه إن يشأ يبتلى
 المسافرين فى البحر بإحدى بلتين: إما أن يسكن الريح فيركد الجوارى على متن البحر ويمنعن
 من الجرى، وإما أن يرسل الريح عاصفة فيهلكهن إغراقا بسبب ما كسبوا من الذنوب ﴿يعف
 عن كثير﴾ منها، فإن قلت: علام عطف يوقهن؟ قلت: على يسكن، لأن المعنى: إن يشأ
 يسكن الريح فيركدن. أو يعصفها فيغرقن بعصفها. فإن قلت: فما معنى إدخال العفو فى حكم
 الإيقاق حيث جزم جزمه؟ قلت: معناه: أو إن يشأ يهلك ناسا وينج ناسا على طريق العفو
 عنهم. فإن قلت: فن قرأ (ويعفو)؟ قلت: قد استأنف الكلام.

وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّخِصٍ ۝٣٥

فإن قلت: فما وجوه القراءات الثلاث فى ﴿ويعلم﴾؟ قلت: أما الجزم فعلى ظاهر العطف
 وأما الرفع فعلى الاستئناف. وأما النصب فللعطف على تعليل محذوف تقديره: لينتقم منهم ويعلم
 الذين يجادلون ونحوه فى العطف على التعليل المحذوف غير عزيز فى القرآن، منه قوله تعالى (ولنجمله
 آية للناس) وقوله تعالى (وخلق الله السموات والأرض بالحق ولنجزى كل نفس بما كسبت)
 وأما قول الزجاج: النصب على إضمار أن، لأن قبلها جزاء، تقول: ما تصنع أصنع مثله وأكرمك.
 وإن شئت وأكرمك، على: وأنا أكرمك. وإن شئت وأكرمك جزما، ففيه نظر لما أورده
 سيبويه فى كتابه. قال: واعلم أن النصب بالفاء والواو فى قوله: إن تأتى آتاك وأعطيك:
 ضعيف، وهو نحو من قوله:

* وَالْحَقُّ بِالْحِجَازِ قَأْسَرِيحًا * ^(٢)

فهذا يجوز، وليس بحذ الكلام ولا وجهه، إلا أنه فى الجزاء صار أقوى قليلا؛ لأنه ليس بواجب

وتشبيهه، وعادة دليل الركب: الانتهاء إلى الطريق بالجبال الشائعة، فإذا كان فوقها نار: علم أن أهلها كرام.
 وبررى: وإن صغرا لتأتم الهداة به.

(١) قال محمود: ومعناه ثوابت لا تجرى على ظهر البحر، قال أحد: وهم يقولون: إن الريح لم ترد فى القرآن
 إلا عذابا، بخلاف الرياح. وهذه الآية تحرم الإطلاق، فإن الريح المذكورة هنا نعمة ورحمة. إذ بواسطتها يسير
 الله السفن فى البحر حتى لو سكنت لركدت السفن، ولا ينكر أن الغالب من ورودها مفردة مذكروه. وأما اطراده
 فلا. وماورد فى الحديث: اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا؛ فلاجل الغالب فى الإطلاق، والله أعلم.

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٥٥٧ فراجع إن شئت أمه مصحفه.

أنه يفعل . إلا أن يكون من الأول فعل ، فلما ضارع الذى لا يوجب كالاستفهام ونحوه : أجازوا فيه هذا على ضعفه اهـ . ولا يجوز أن تحمل القراءة المستفيضة على وجه ضعيف ليس بحذ الكلام ولا وجهه ، ولو كانت من هذا الباب لما أدخل سيويه منها كتابه ، وقد ذكر نظائرها من الآيات المشككة . فإن قلت : فكيف يصح المعنى على جزم (ويعلم) ؟ قلت : كأنه قال : أو إن يشأ يجمع بين ثلاثة أمور : هلاك قوم ونجاة قوم وتحذير آخرين (من محيص) من عييد عن عقابه .

فَأُوتِينُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ
آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾

(ما) الأولى ضمنت معنى الشرط ، فجاءت الفاء في جوابها بخلاف الثانية . عن على رضى الله عنه : اجتمع لآبي بكر رضى الله عنه مال فتصدق به كله في سبيل الله والخير ، فلامه المسلمون وخطأه الكافرون ، فزلت .

وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾
(والذين يجتنبون) عطف على الذين آمنوا ، وكذلك ما بعده . ومعنى (كبائر الإثم) الكبائر من هذا الجنس . وقرئ : كبير الإثم . وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنه : كبير الإثم هو الشرك (هم يغفرون) أى هم الإحصاء بالغفران في حال الغضب ، لا يقول الغضب أحلامهم كما يقول حلوم الناس ، والحجى بهم وإيقاعه مبتدأ ، وإسناد (يغفرون) إليه لهذه الفائدة ، ومثله : (هم ينتصرون) .

وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا
رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣٨﴾

(والذين استجابوا لربهم) نزلت في الأنصار : دعاهم الله عز وجل للإيمان به وطاعته ، فاستجابوا له بأن آمنوا به وأطاعوه (وأقاموا الصلوة) وأتموا الصلوات الخمس . وكانوا قبل الاسلام وقبل مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة : إذا كان بهم أمر اجتمعوا وتشاوروا ، فأثنى الله عليهم ، أى : لا ينفردون برأى حتى يجتمعوا عليه . وعن الحسن : ما تشاور قوم إلا هودوا لأرشد أمرهم ، (١) والشورى : مصدر كالفتيا ، بمعنى التشاور . ومعنى

(١) أخرجه ابن أبي شيبة والبخارى في الأدب وعبد الله بن أحمد في زيادات الزهد . وقد ذكره المصنف مرفوعا في آل عمران .

قوله ﴿وَأمرهم شورى بينهم﴾ أى ذو شورى، وكذلك قولهم : ترك رسول الله صلى عليه وسلم وعمر بن الخطاب رضى الله عنه الخلافة شورى .

وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾

هو أن يقتصروا فى الانتصار على ما جعله الله لهم ولا يعتدوا . وعن النخعى أنه كان إذا قرأها قال : كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجترئ عليهم الفساق . فإن قلت : أم محمودون على الانتصار ؟ قلت : نعم ؛ لأن من أخذ حقه غير متعد حد الله وما أمر به فلم يسرف فى القتل إن كان ولى دم أورد على سفيه ، محاماة على عرضه وردعاه ، فهو مطيع . وكل مطيع محمود .

وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ

الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾

كلنا الفعلتين الاولى وجزاؤها سيئة ، لأنها تسوء من تنزل به . قال الله تعالى : (وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك) : يريد ما يسوءهم من المصائب والبلايا . والمعنى : أنه يجب إذا قوبلت الإساءة أن تقابل بمثلها من غير زيادة ، فإذا قال أخراك الله قال : أخراك الله (فن عفا وأصلح) بينه وبين خصمه بالعفو والإغضاء ، كما قال تعالى (فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) ، (فأجره على الله) عدة مبهمه لا يقاس أمرها فى العظم . وقوله (إنه لا يحب الظالمين) دلالة على أن الانتصار لا يكاد يؤمن فيه تجاوز السيئة ^(١) والاعتداء خصوصا فى حال الحرد ^(٢) والتهاب الحمية فربما كان المجازى من الظالمين وهو لا يشعر . وعن الثبى صلى الله عليه وسلم : إذا كان يوم القيامة نادى مناد : من كان له على الله أجر فليقم . قال : فيقوم خلق ، فيقال لهم : ما أجركم على الله ؟ فيقولون : نحن الذين عفونا عن ظلمنا ، فيقال لهم : ادخلوا الجنة بإذن الله . ^(٣)

(١) قال محمود : « فيه دلالة على أن الانتصار لا يكاد يؤمن فيه ... الخ » قال أحمد : معنى حسن يجب به عن قول القائل : لم ذكر هذا عقب العفو مع أن الانتصار ليس بظلم ؛ فيشقى غلب السائل ويحصل منه على كل طائل . ومن هذا النقط والله الموفق : قوله تعالى : (وإذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن نصبه سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور) .

(٢) قوله « الحرد » فى الصحاح : « الحرد » بالتحريك : الغضب . (ع)

(٣) أخرجه العقيلي والطبراني فى مكارم الأخلاق وأبو نعيم فى الحلية ، والبيهقي فى الشعب فى السابع والخمسين كاهم من طريق الفضل بن يسار عن غالب العطار عن الحسن بن أنس رفعه . قال : وإذا وقف العبد للحساب يتأدى مناد : من كان أجره على الله فليدخل الجنة . الحديث . وله طريق أخرى عند الثعلبي من رواية زهير بن عباد عن =

وَلَمَنْ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَاعْلَمُهم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ
عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾

(بعد ظلمه) من إضافة المصدر إلى المفعول، وتفسره قراءة من قرأ: بعد ما ظلم (فأولئك) إشارة إلى معنى (من) دون لفظه (مأعلهم من سبيل) للعاقب ولا للعائب والعاب (إنما السبيل على الذين يظلمون الناس) يبتدئونهم بالظلم (ويبغون في الأرض) يتكبرون فيها ويعلون ويفسدون .

وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾
(ولمن صبر) على الظلم والأذى (وغفر) ولم ينتصر وفوض أمره إلى الله (إن ذلك) منه (لمن عزم الأمور) وحذف الراجع لأنه مفهوم ، كما حذف من قولهم : السمن منوان يدرهم . ويحكى أن رجلا سب رجلا في مجلس الحسن رحمه الله ، فكان المسبوب يكظم ، ويعرق فيمسح العرق ، ثم قام فتلا هذه الآية ، فقال الحسن : عقلها والله وفهمها إذ ضيعها الجاهلون . وقالوا : العفو مندوب إليه ، ثم الأمر قد يتعكس في بعض الأحوال ، فيرجع ترك العفو مندوبا إليه ، وذلك إذا احتيج إلى كف زيادة البغى ، وقطع مادة الأذى . وعن النبي صلى الله عليه وسلم ما يدل عليه : وهو أن زينب أسمعت عائشة بحضرته ، وكان ينهاها فلا تنهى ، فقال لعائشة : «دوني فانتصرى» .^(١)

وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِّنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا
الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾

== ابن عينة عن عمرو بن عباس . وأخرى عن البيهقي من رواية الثوري عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنم منه - قال البيهقي : المتن غريب - والاسناد ضعيف .

(١) أخرجه النسائي من رواية خالد بن مسلمة عن عروة عن عائشة قالت : ما علمت حتى دخلت على زينب بنت أبي بكر (٥) فذكر نحوه . ولم يذكر فيه النهي . ولفظه ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندنا زينب بنت جحش - إلى أن قال : فأقبلت زينب فجم لعائشة فنهاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبى أن تنهى . قال : لعائشة سبها فسبها فغلبتها .

(ومن يضل الله) ومن يخذل الله ^(١) (فقاله من ولي من بعده) فليس له من ناصر يتولاه من بعد خذلانه .

وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ^(٤٥) وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُهُمْ وَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ^(٤٦)

(خاشعين) متضائلين متقاصرين مما يلحقهم (من الذل) وقد يعلق من الذل ينظرون ، ويوقف على خاشعين (ينظرون من طرف خفي) أى يتدبى نظرم من تحريك لاجفانهم ضعيف خفي بمسارقة ، كما ترى المصبور ينظر إلى السيف ^(٢) . وهكذا نظر الناظر إلى المكاره : لا يقدر أن يفتح أجفانه عليها ويملا عينيه منها ، كما يفعل في نظره إلى الحجاب . وقيل : يحشرون عميا فلا ينظرون إلا بقلوبهم . وذلك نظر من طرف خفي . وفيه تعسف (يوم القيامة) إما أن يتعلق بحسروا ، ويكون قول المؤمنين واقعا في الدنيا ، وإما أن يتعلق بقال ، أى : يقولون يوم القيامة إذا رأوهم على تلك الصفة .

اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ بَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ^(٤٧)

(من الله) من صلة لامرد ، أى : لا يردده الله بعدما حكم به . أو من صلة يأتى ، أى : من قبل أن يأتى من الله يوم لا يقدر أحد على رده . والنكير : الإنكار ، أى : ما لكم من مخلص من العذاب ولا تقدرون أن تنكروا شيئا مما اقترفتموه ودون في صحائف أعمالكم .

فَإِنْ أَعْرَضُوا قَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنَّ عَذَابَكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَوَرِحَ بِهَا وَإِنْ نُصِيبُكُمْ سَيِّئَةً يَمَا قَدَمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ

الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ^(٤٨)

(١) قوله «ومن يخذل الله فإله من ولي» تأويل على مذهب المعتزلة : أنه تعالى لا يخلف الشر . وعند أهل

السنة : بخلافه كالخير ، فالإخلال خلق الضلال . ومن بعده : أى من بعد إخلاله . (ع)

(٢) قوله «كما ترى المصبور ينظر إلى السيف» أى : المحبوس للقتل . أفاده الصحاح . (ع)

أراد بالإنسان الجمع لا الواحد ، لقوله (وإن تصبهم سيئة) ولم يرد إلا المجرمين ؛ لأن إصابة السيئة بما قدمت أيديهم إنما تستقيم فيهم . والرحمة : النعمة من الصحة والغنى والأمن . والسيئة : البلاء من المرض والفقر والخاوف . والكفور : البليغ الكفران ، ولم يقل : فإنه كفور ؛ ليسجل على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعم ^(١) ، كما قال (إن الإنسان لظالم كفار) ، (إن الإنسان لربه لكنود) والمعنى أنه يذكر البلاء وينسى النعم ويغفلها ^(٢) .

لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَّا لَهُ هَبُّ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ۝٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَّا لَهُ يَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ

عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝٥٠

لماذكر إذاقة الإنسان الرحمة وإصابته بضدها : أنبع ذلك أن له الملك وأنه يقسم النعمة والبلاء كيف أراد ، وهب لعباده من الأولاد ما تقتضيه مشيئته ، فيخص بعضا بالإناث وبعضا بالذكر ، وبعضا بالصنفين جميعا ، ويعقم آخرين فلا يهب لهم ولدا قط . فإن قلت : لم قدم الإناث أولا على الذكور مع تقدمهم عليهم . ثم رجع فقدّمهم . ولم عرف الذكور بعد ما نكر الإناث ؟ قلت : لأنه ذكر البلاء في آخر الآية الأولى وكفران الإنسان بنسيانه الرحمة السابقة عنده ، ثم عقبه بذكر ملكه ومشيتته وذكر قسمة الأولاد ، فقدم الإناث لأن سياق الكلام أنه فاعل ما يشاؤه لا ما يشاؤه الإنسان ، فكان ذكر الإناث اللاتي من جملة ما لا يشاؤه الإنسان أهم ، والأهم واجب التقديم ، وليلي الجنس الذي كانت العرب تعدّه بلاء ذكر البلاء ، وآخر الذكور فلما أخرهم لذلك تدارك تأخيرهم . وهم أحقّاء بالتقديم بتعريفهم ؛ لأن التعريف تنويه وتشهير . كأنه قال : وهب لمن يشاء الفرسان الاعلام المذكورين الذين لا يخفون عليكم ، ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسين حقه من التقديم والتأخير ، وعرف أن تقديمهم لم يكن لتقدمهم ، ولكن لمقتض آخر فقال (ذكرنا وإنا أناء) كما قال (إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) ، (لجعل منه الزوجين الذكر والانثى) وقيل : نزلت في الانبياء صلوات الله عليهم وسلامه ، حيث وهب لشعيب ولوط إناثا ، وإبراهيم ذكورا ، ولحمد ذكورا وإناثا ، وجعل يحيى وعيسى عقيمين (إنه عليم) بمصالح العباد (قدیر) على تكوين ما يصلحهم .

(١) قال محمود : «لم يقل : فإنه كفور ؛ ليسجل على هذا الجنس أنه موسوم بكفران النعم ... الخ» قال أحمد : وقد أغفل هذه التكلفة بعينها في الآية التي قبل هذه ، وهي قوله تعالى (وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأولادهم يوم القيامة ، ألا إن الظالمين في عذاب مقيم) فوضع الظالمين موضع الضمير الذي كان من حقه أن يعود على اسم إن ، فيقال : ألا إنهم في عذاب مقيم ، فأتى هذا الظاهر تسجيلا عليهم بلسان ظلمهم

(٢) قوله «وينسى النعم ويغفلها» يطرأ ويغفلها . أفاده الصحاح . (ع)

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ٥١

(وما كان لبشر) وماصح لاحد من البشر (أن يكلمه الله إلا) على ثلاثة أوجه : إما على طريق الوحي وهو الإلهام والقذف في القلب أو المنام ، كما أوحى إلى أم موسى وإلى إبراهيم عليه السلام في ذبح ولده . وعن مجاهد : أوحى الله الزبور إلى داود عليه السلام في صدره . قال عبيد بن الأبرص :

وَأَوْحَىٰ إِلَى اللَّهِ أَنْ قَدْ تَأَمَّرُوا بِأَيْلِ أَبِي أَوْفَىٰ فَقُمْتُ عَلَى رَجُلٍ ^(١)

أى : ألهمنى وقذف فى قلبى . وإما على أن يسمعه كلامه الذى يخلقه فى بعض الأجرام ، من غير أن يبصر السامع من يكلمه ، لأنه فى ذاته غير مرئى ^(٢) . وقوله (من وراء حجاب) مثل أى ، كما يكلم الملك المحتجب بعض خواصه وهو من وراء الحجاب ، فيسمع صوته ولا يرى شخصه ، وذلك كما كلم موسى ويكلم الملائكة . وإما على أن يرسل إليه رسولا من الملائكة فيوحى الملك إليه كما كلم الأنبياء غير موسى . وقيل : وحيا كما أوحى إلى الرسل بواسطة الملائكة (أو يرسل رسولا) أى نبياً كما كلم أمم الأنبياء على ألسنتهم . ووحيا ، وأن يرسل : مصدران واقعان موقع الحال : لأن : أن يرسل ، فى معنى إرساله . ومن وراء حجاب : ظرف واقع موقع الحال أيضاً ، كقوله تعالى (وعلى جنوبهم) والتقدير : وماصح أن يكلم أحداً إلا موحيا ، أو مسمعا من وراء حجاب ، أو مرسلا . ويجوز أن يكون : وحيا ، موضوعاً موضع : كلاماً ؛ لأن الوحي كلام خفى فى سرعة ، كما تقول : لا أكله إلا جهراً وإلا خفاناً ؛ لأن الجهر والخفات ضربان من الكلام ، وكذلك إرساله : جعل الكلام على لسان الرسول بمنزلة الكلام بغير واسطة . تقول : قلت لفلان كذا ، وإنما قاله وكيلك أو رسولك . وقوله (أو من وراء حجاب) معناه : أو إسماعاً من وراء حجاب ؛ ومن جعل (وحيا) فى معنى : أن يوحى ، وعطف يرسل عليه ، على معنى (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا) أى : إلا بأن يوحى . أو بأن يرسل ،

(١) أى الهمنى الله وألقى فى قلبى : أنهم تأمروا . وأن مخففة من الثقيلة ، واسمها : ضمير القوم أو الحال والشأن . واختار أبو حيان أنها لا اسم لها إذا خففت ؛ لأنها مهمله . وإن ضمن «أوحى» معنى : قال ، فإن تفسيرية ، أى ، قد تأمروا بوزن تفاعلوا ، أى : تشاوروا فى الأمر ، أو أجمعوا أمرهم . ومنه (ياتمرون بك ليقتلوك) بابل أبى أوفى لينصبوها ، فقامت فى طلبهم لآردها على رجل ، أى : لم أصبر حتى أركب . أو على رجل واحدة ، أى : بسرعة ، فلا أضع رجلى معاً فى الأرض .

(٢) قوله «لأنه فى ذاته غير مرئى» أى : لا تجوز رؤيته . وهذا عند المعتزلة . أما عند أهل السنة فتجوز

فعله أن يقدر قوله (أو من وراء حجاب) تقديراً يطابقهما عليه، نحو: أو أن يسمع^(١) من وراء حجاب. وقرئ: أو يرسل رسولا فيوحى بالرفع، على: أو هو يرسل. أو بمعنى مرسل عطفاً على وحي في معنى موحياً. وروى أن اليهود قالت للنبي صلى الله عليه وسلم: ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبياً كما كلبه موسى ونظر إليه، فإننا لن نؤمن لك حتى تفعل ذلك، فقال: لم ينظر موسى إلى الله^(٢)، فنزلت. وعن عائشة رضى الله عنها: من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية^(٣)، ثم قالت: أولم تسمعوا ربكم يقول: فلتك هذه الآية. (إنه على) عن صفات المخلوقين (حكيم) يجرى أفعاله على موجب الحكمة، فيكلم تارة بواسطة، وأخرى بغير واسطة: إما إلهاماً، وإما خطاباً.

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا
الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي
إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥٢ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ٥٣

(روحاً من أمرنا) يريد: ما أوحى إليه، لأن الخلق يحيون به في دينهم كما يحيى الجسد بالروح. فإن قلت: قد علم أن رسول الله^(٤) صلى الله عليه وسلم: ما كان يدري ما القرآن قبل

(١) قوله «أو أن يسمع من وراء حجاب» لعله: أو بأن. (ع)

(٢) لم أجده.

(٣) متفق عليه، وقد تقدم طرف منه في الأنعام.

(٤) قال محمود: «فإن قلت: قد علم أن النبي عليه الصلاة والسلام ما كان يدري الكتاب قبل الوحي... الخ. قال أحد: لما كان معتقداً الوحي أن الإيمان اسم التصديق مضافاً إليه كثير من الطاعات فعلاً وتركاً حتى لا يتناول الموحد العاصي ولو بكبيرة واحدة اسم الإيمان ولا يباله وعد المؤمنين، وتفتن لامكان الاستدلال على صحة معتقده بهذه الآية: عدها فرصة ليتبرها وغنيمة، ليحرزها، وأبعد الظن بإبراده مذنب أهل السنة على صورة السؤال ليجب عنه بمقتضى معتقده، فكأنه يقول: لو كان الإيمان وهو مجرد التوحيد والتصديق كما نقول أهل السنة، لزم أن ينفي عن النبي عليه الصلاة والسلام قبل المحدث هذه الآية كونه مصدقا، ولما كان التصديق ثابتاً للنبي عليه الصلاة والسلام قبل البعث باتفاق افرقيين: لزم أن لا يكون الإيمان المنفي في الآية عبارة عما اتفق على ثبوته، وحيث يتعين صرفه إلى مجموع أشياء: من جعلها التصديق، ومن جعلها كثير من الطاعات التي لم تعلم إلا بالوحي، وحيث يستقيم نفيه قبل البعث، وهذا الذي طمع فيه: يخرط القناد، ولا يبلغ منه ما أراد. وذلك أن أهل السنة وإن قالوا: إن الإيمان هو التصديق خاصة حتى يتصف به كل موحد وإن كان فاسقاً - يحضون التصديق بالله وبرسوله، فالنبي عليه الصلاة والسلام مخاطب في الإيمان بالتصديق برسالة نفسه، كما أن أمته مخاطبون بتصديقه، ولا شك أنه =

نزوله عليه : فإمعن قوله ﴿ولا الإيمان﴾ والانباء لا يجوز عليهم إذا عقلوا وتمسكوا من النظر والاستدلال أن يخطئهم الإيمان بالله وتوحيده ، ويجب أن يكونوا معصومين من ارتكاب الكبائر ومن الصغائر التي فيها تنفير قبل المبعث وبعده ، فكيف لا يعصمون من الكفر ؟ قلت : الإيمان اسم يتناول أشياء : بعضها الطريق إليه العقل ، وبعضها الطريق إليه السمع ، فغنى به ما الطريق إليه السمع دون العقل ؛ وذلك ما كان له فيه علم حتى كسبه بالوحي . ألا ترى أنه قد فسر الإيمان في قوله تعالى (وما كان الله ليضيع إيمانكم) بالصلاة ؛ لأنها بعض ما يتناوله الإيمان (من نشاء من عبادنا) من له لطف ومن لا لطف له ، فلا هداية تجدى عليه (صراط الله) بدل . وقرئ : تهدي ، أى : يهديك الله . وقرئ : لتدعو .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرأ حم عسق كان بمن تصلى عليه الملائكة ويستغفرون له ويسترحمون له . (١)

سورة الزخرف

مكية . وقال مقاتل : إلا قوله (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا)

وهي تسع وثمانون آية [نزلت بعد الشورى]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْ ١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ

تَعْلَمُونَ ٣ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ ٤

أقسم بالكتاب المبين وهو القرآن وجعل قوله (إنا جعلناه قرآنا عربيا) جوابا للقسمة (١)

== قبل الوحي لم يكن يعلم أنه رسول الله ، وما علم ذلك إلا بالوحي ، وإذا كان الإيمان عند أهل السنة هو التصديق بالله ورسوله ، ولم يكن هذا المجموع ثابتاً قبل الوحي ، بل كان الثابت هو التصديق بالله تعالى خاصة : استقامت في الإيمان قبل الوحي على هذه الطريقة الواحدة ، والله أعلم .

(١) أخرجه الثعلبي وابن مردويه باسنادهما إلى أبي بن كعب .

(٢) قال محمود : « أقسم بالكتاب المبين وجعل قوله (إنا جعلناه قرآنا عربيا) جوابا للقسمة ... الخ » قال أحد : تنبيه حسن جداً . ووجه التناسب فيه أنه أقسم بالقرآن ، وإنما يقسم بمعظم ، ثم جعل القسم عليه تعظيم القرآن بأنه قرآن عربي ==

وهو من الإيمان الحسنة البديعة ، لتناسب القسم والمقسم عليه ، وكونهما من واحد واحد . ونظيره قول أبي تمام :

* وَتَنَابَاكَ إِنِّهَا إِغْرِيبُ * (١)

(المبين) البين للذين أنزل عليهم : لأنه بلغتهم وأساليهم . وقيل : الواضح للتدبرين . وقيل (المبين) الذي أبان طرق الهدى من طرق الضلالة ، وأبان ما تحتاج إليه الأمة في أبواب الديانة (جعلناه) بمعنى صيرناه معدي إلى مفعولين . أو بمعنى خلقناه معدي إلى واحد ، كقوله تعالى (وجعل الظلمات والنور) . و (قرأنا عربياً) حال . ولعل : مستعار لمعنى الإرادة (٢) ؛ لتلا حظ (٣) معناها ومعنى الترجي (٤) ، أى : خلقناه عربياً غير عجمي : إرادة أن تعقله العرب ، ولئلا يقولوا لولا فصلت آياته ، وقرئ : أم الكتاب بالكسر وهو اللوح ، كقوله تعالى (بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ) سمي بأم الكتاب : لأنه الأصل الذى أثبتت فيه الكتب منه تنقل وتستنسخ . على رفيع الشأن في الكتب ؛ لكونه معجزاً من بينها (حكيم) ذو حكمة بالغة ، أى : منزلته عندنا منزلة كتابهما صفاته ، وهو مثبت في أم الكتاب هكذا .

أَفْتَضِرْبُ عَنْكُمْ الذِّكْرُ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ٥

== مرجو به أن يعقل به العالمون ، أى : يتفعلوا آيات الله تعالى فكان جواب القسم مصححاً للقسم ، وكذلك أقسم أبو تمام بالثنايا ، وإنما قسم الشعراء بمثل هذا الاشعار بأنه في غاية الحسن ، ثم جعل المقسم عليه كونها في نهاية الحسن ، لا أنها هي أغريض ، وهو من أحسن تشبيهات الثنايا ، لجعل المقسم عليه مصححاً للقسم والله أعلم .

(١) وتناياك إنها إغريض ولال نوار أرض وميض

وأفاح منور في بطاح هزه في الصباح روض أرض

لأبي تمام . والاغريض : البرد . والطلع والنوار : كزمان نور الشجر ، واحدة نواة . والوميض : شديد البريق واللمعان . والأفاح : نور أبيض طيب الرائحة . والأريض : طيب الأرض ، فيكون نضراً جميلاً : أقسم بثناياها أى : مقدم أسنانها ، إنها أى ثناياها إغريض . فالقسم وجوابه متعلقان بشئ واحد ، وشبههما بالبرد وبنوار الأرض الشبيه باللائي . فاضافتها إليه للتشبيه . ووميض : نعت مقطوع للنوار . أو تابع للأغريض ؛ لكن الأول أجزل ، وشبهه بالأفاح الذى نور في البطاح ؛ لأنه أنض وأزهى . وهزه في الصباح من صفه الأفاح ؛ وخصر الصباح ليكون على الزهر بقية من الندى ، فيكون في غاية النضرة والزهو . وفيه إجماع للتشبيه قوام بحبونه بأخصان الروض في المقابل وظهور الزهور في أعلى كل منهما ، ولك أن تجعل «وميض» صفة للآلى . وإن كانت جمعا ، لأن فاعيل بمعنى فاعل قد يامل معاملته فاعيل بمعنى مفعول ، فيطلق على الواحد والمتعدد مذكراً ومؤنثاً . ويروى بدل القطر الثاني : ولال نوم ورق وميض . والنوم : واحدة نومة . وهى حبة تعمل من الفضة كالدرة ، ولا إشكال في إعرابه .

(٢) قال محمود : «ولعل مستعار لمعنى الإرادة» (فسره بالارادة) قال أحمد : قد بينا فساد ذلك غير مأمرة .

(٣) قوله «لتلا حظ معناها» لعله : ليلاحظ . (ع)

(٤) قوله «ومعنى الترجي» لعله : أرمعنى . (ع)

(أفَضْرِبَ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا) بمعنى: أفنتحى عنكم الذكر ونذوده عنكم على سبيل المجاز، من قولهم: ضرب الغرائب عن الحوض. ومنه قول الحجاج: ولاضربنكم ضرب غرائب الإبل. وقال طرفة:

أَضْرِبَ عَنْكَ الْمُؤَمَّ طَارِقَهَا ضَرْبَكَ بِالسَّيْفِ قَوْسَ الْقَمَرِ (١)

والفاء للعطف على محذوف، تقديره: أنهم لكم فنضرب عنكم الذكر، إنكاراً لأن يكون الأمر على خلاف ما قدم من إنزاله الكتاب. وخلق قرآناً عربياً؛ ليعقلوه ويعملوا بمواجهه. وصفحاً على وجهين. إما مصدر من صفح عنه: إذا أعرض، منتصب على أنه مفعول له، على معنى: أفنزع عنكم إنزال القرآن وإلزام الحجة به إعرافاً عنكم. وإما بمعنى الجانب من قولهم: نظر إليه بصفح وجهه وصفح وجهه، على معنى: أفنتحى عنكم جانباً، فينتصب على الظرف كما تقول: ضعه جانباً، وامش جانباً. وتعضده قراءة من قرأ: صفحاً بالضم. وفي هذه القراءة وجه آخر: وهو أن يكون تخفيف صفح جمع صفوح، وينتصب على الحال، أى: صالحين معرضين (أن كنتم) أى: لأن كنتم. وقرئ: إن كنتم، وإذا كنتم. فإن قلت: كيف استقام معنى إن الشرطية، وقد كانوا مسرفين على البت؟ قلت: هو من الشرط الذى ذكرت أنه يصدر عن المدل (٢) بصحة الأمر، المتحقق لثبوته، كما يقول الأجير: إن كنت عملت لك فوقى حقى، وهو عالم بذلك؛ ولكنه يخيل فى كلامه أن تفريطك فى الخروج عن الحق: فعمل من له شك فى الاستحقاق، مع وضوحه استجهالاً له.

وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (٦) وَمَا بِأَتْيَعٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ

يَسْتَهْزِءُونَ (٧) فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَنْصًّى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (٨)

(وما يأتهم) حكاية حال ماضية مستمرة، أى: كانوا على ذلك. وهذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن استهزاء قومه. الضمير فى (أشد منهم) للقوم المسرفين، لأنه صرف الخطاب عنهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره عنهم (ومضى مثل الأولين) أى سلف فى القرآن فى غير موضع منه ذكر قصتهم وحالهم العجيبة التى حققها أن تسير مسير المثل، وهذا وعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ووعد لهم.

وَلَا يَنْ سَأَلْتُهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩)

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بهذا الجزء صفحة ٨٧ فراجع إن شئت أم صححه.

(٢) قوله «عن المدل» أى: الموائق. أفاده الصحاح. (ع)

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾

وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾

فإن قلت : قوله ﴿ليقولن خلقهن العزيز العليم﴾ وما سرد من الأوصاف عقيبها إن كان من قولهم ^(١) ، فاستصنع بقوله ﴿فأنشرننا به بلدة ميتا كذلك تخرجون﴾ وإن كان من قول الله ، فوجهه ؟ قلت : هو من قول الله لا من قولهم . ومعنى قوله ﴿ليقولن خلقهن العزيز العليم﴾ الذى من صفته كيت وكيت ، لينسب خلقها إلى الذى هذه أوصافه وليسندنه إليه . ﴿بقدر﴾ بمقدار يسلم معه البلاد والعباد ، ولم يكن طوفانا .

وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمُ مِنَ الْفَلَكَ وَالْإِنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾

لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا

سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا

لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾

و﴿الازواج﴾ الأصناف ﴿ما تركبون﴾ أى تركبونه . فإن قلت : يقال : ركبوا الانعام وركبوا فى الفلك ^(٢) . وقد ذكر الجنسین فكيف قال ما تركبونه ؟ قلت : غلب المتعدى بغير

(١) قال محمود : «فإن قلت : قوله ﴿ليقولن خلقهن العزيز العليم﴾ وما سرد من الأوصاف عقيبها إن كان من قولهم ... الخ » قال أحمد : الذى يظهر أن الكلام مجزأ ، فبعضه من قولهم ، وبعضه من قول الله تعالى ، فالذى هو من قولهم (خلقهن) ، وما بعده من قول الله عز وجل ، وأصل الكلام أهم قالوا : خلقهن الله : ويدل عليه قوله فى الآية الأخرى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) ثم لما قالوا : خلقهن الله وصف الله تعالى ذاته بهذه الصفات ، ولما سبق الكلام كله سياقه وأخذه ، حذف الموصوف من كلامهم ، وأقيمت الصفات المذكورة فى كلام الله تعالى مقامه كأنه كلام واحد . ونظير هذا أن تقول للرجل : من أكرمك من القوم ؟ فيقول أكرمنى زيد ، فتقول أنت واصفا للذكور : التكريم الجواد الذى من صفته كذا وكذا ، ثم لما وقع الانتقال من كلامهم إلى كلام الله عز وجل ، جرى كلامه عز وجل على ما عرف من الاقتنان فى البلاغة ، فجاء أوله على لفظ الغيبة وآخره على الانتقال منها ، إلى التكلم فى قوله ﴿فأنشرننا﴾ كل ذلك اقتنان فى أفنان البلاغة . ومن هذا النظم قوله تعالى حكاية عن موسى ﴿قال عليها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى﴾ فجاء أول الكلام حكاية عن موسى ، إلى قوله ﴿ولا ينسى﴾ ثم وقع الانتقال من كلام موسى إلى كلام الله تعالى ، فوصف ذاته أوصافا متصلة بكلام موسى ، حتى كأنه كلام واحد . وابتداء فى ذكر صفاته على لفظ الغيبة إلى قوله ﴿فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى﴾ فانظر إلى تحقيق التطبيق بين الآيتين تر العجب ، والله الموفق .

(٢) قال محمود : «يقال ركبت الدابة وركبت فى الفلك ... الخ » قال أحمد : لم يحمر العبارة فى هذا الموضع فإن قوله «غلب المتعدى بغير واسطة على المتعدى بنفسه» يوم أنت بين الفعلين تباينا وليس =

واسطة ، لقوته على المتعدى بواسطة ، قليل : تركبونه (على ظهوره) على ظهور ما تركبون وهو الفلك والأنعام . ومعنى ذكر نعمة الله عليهم : أن يذكروها في قلوبهم معترفين بها مستعظمين لها ، ثم يحمّدوا عليها بالسنتهم ، وهو ما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه كان إذا وضع رجله في الركاب قال : بسم الله ، فإذا استوى على الدابة قال : والحمد لله على كل حال ، سبحان الذى سخر لنا هذا ... إلى قوله ... لمقلبون ، وكبر ثلاثا وهلل ثلاثا^(١) . وقالوا : إذا ركب^(٢) في السفينة قال : (بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم) وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه رأى رجلا يركب دابة فقال : سبحان الذى سخر لنا هذا . فقال : أبهذا أمرتم؟ فقال : وبم أمرنا؟ قال : أن تذكروا نعمة^(٣) ربكم . كان قد أغفل التحميد فنبه عليه . وهذا من حسن مراعاتهم لأداب الله ومخافتهم على دقيقتها وجليها . جعلنا الله من المقتدين بهم ، والسائرين بسيرتهم ، فما أحسن بالعاقل النظر في اطائف الصناعات ، فكيف بالنظر في لطائف الديانات ؟ (مقرنين) مطيقين . يقال : أقرن الشيء ، إذا أطاقه . قال ابن هرمة :

== كذلك ، فإن المتعدى إلى الأنعام هو عين الفعل المتعدى إلى السفن غاية ما ، ثم إن العرب خصته باعتبار بعض مقابله بالواسطة ، وباعتبار بعضها بالمتعدى بنفسه ، والاختلاف بالتعدى والقصور . أو باختلاف آلات التعدى . وباختلاف أعداد المقابيل لا يوجب الاختلاف في المعنى ، فن ثم يعدون الفعل الواحد مرة بنفسه ومرة بواسطة ، مثل : سكرت وأخواته ، ويعدون الأفعال المترادفة بآلات مختلفة ، مثل دعوت وعليت ، فانك تقول : صلى النبي على آل أبي أوفى ، ولو قلت : دعا على آل أبي أوفى : لأنهم عكس المقصود ، ولكن دعا لآل أبي أوفى ، ويعدون بعضها إلى مفعولين ، ومرادفه إلى مفعول واحد ، كعلم وعرف ، فلا يترتب على الاختلاف بالتعدى . والقصور : الاختلاف في المعنى ، فالذى يحرر من هذا : أن ركب باعتبار القيلين معناه واحد ، وإن خص أحدهما باقتران الواسطة والآخر بسقوطها ، فالصواب أحد الأمرين : إما تقدير المتعلقين على ما هما عليه لو انفردا ، فيكون التقدير ما تركبونه وتركبون فيه ، والأقرب تعليله باعتبار التعدى بنفسه ، ويكون هذا من قلب أحد اعتباري للفعل على الآخر ، وهو أسهل من التقلب في قوله تعالى (فأجمعوا أمركم وشركاءكم) على أحد التأويلين فيه : فإن التباين ثم ثابت بين الفعلين من حيث المعنى ، أعني : أجمع على الأمر وجمع الشركاء ، ولكن لما تقاربا : قلب أحدهما على الآخر ، ثم جعل القلب هو المتعدى بنفسه ، والله أعلم .

(١) أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم من حديث علي . وأسندوه التعليق باللفظ المذكور هنا . وسلم من طريق علي الأرزى عن ابن عمر « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا استوى على بصره خارجا إلى سفر كبر ثلاثا ثم قال : سبحان الذى سخر لنا هذا الآية) .

(٢) لم أجد من فعله صلى الله عليه وسلم . وفي الطبراني من حديث الضحاك عن ابن عباس رفعه « أمان لأمتي من الفرق إذا ركبوا في الفلك أن يقولوا : بسم الله ، وما قدروا الله حق قدره . الآية بسم الله مجريها ومرساها » ورواه في الدعاء من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما .

(٣) أخرجه الطبري والطبراني في الدعاء من طريق مجلس عن حسين بن علي فذكره .

وَأَقْرَنْتُ مَا حَمَلْتَنِي وَلَقَلَّمَا بَطَاقُ أَحْرِمَالٍ الصَّدَّ يَدْعُدُ وَالْهَجْرُ^(١)

وحقيقة «أقرنته» : وجده قرينته وما يقرن به ؛ لأن الصعب لا يكون قرينة للضعيف . ألا ترى إلى قولهم في الضعيف : لا يقرن به الصعبة . وقرئ : مقرنين ، والمعنى واحد . فإن قلت : كيف اتصل بذلك قوله (وإنما إلى ربنا لمنقلبون) ؟ قلت : كم من راكب دابة عثرت به أو شمس أو تقحمت^(٢) أو طاح من ظهرها فهلك ، وكم من راكبين في سفينة انكسرت بهم ففرقوا ؛ فلما كان الركوب مباشرة أمر مخطر ، واتصالا بسبب من أسباب التلف : كان من حق الراكب وقد اتصل بسبب من أسباب التلف أن لا ينسى عند اتصاله به يومه ، وأنه هالك لاحالة فنقلب إلى الله غير منفلت من قضائه ، ولا يدع ذكر ذلك بقلبه ولسانه حتى يكون مستعدا للقاء الله بإصلاحه من نفسه ، والحذر من أن يكون ركوبه ذلك من أسباب موته في علم الله وهو غافل عنه ، ويستعبد بالله من مقام من يقول لقرنائه : تعالوا تنزهه على الخيل أو في بعض الزوارق ؛ فيركبون حاملين مع أنفسهم أواني الخمر والمعازف ، فلا يزالون يسقون حتى تميل طلام^(٣) وهم على ظهور الدواب ، أو في بطون السفن وهي تجري بهم ، لا يذكرون إلا الشيطان ، ولا يمثلون إلا أوامره . وقد بلغني أن بعض السلاطين ركب وهو يشرب من بلد إلى بلد بينهما مسيرة شهر ، فلم يصح إلا بعدما اطمانت به الدار ، فلم يشعر بمسيره ولا أحس به ، فكم بين فعل أولئك الراكبين وبين ما أمره الله به في هذه الآية . وقيل : يذكرون عند الركوب ركوب الجنابة .

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ^(١٥) أَمْ آتَخَذَ مِمَّا

يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَكُمْ بِالْبَنِينَ^(١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا صَرَبَ لِلرَّحْمَنِ

مَنًّا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ^(١٧) أَوْ مِنْ يُنْشَأُ فِي الْحِلْمَةِ وَهُوَ فِي

الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ^(١٨)

(١) لابن هرمة . وأقرنت الشيء : إذا وجدته قرينا لك لا يزيد عنك ، ثم استعمل في الإطافة توسعا . ولقلبا اللام للقم . وقيل : فعل . وما : كافة ، ركبت معه فصار المراد منه التي ولا فاعل له ، وشبه المفعول من الصد والهجر بالمحسوس على طريق الكناية والحمل تخييل . يقول : أطلقت ما حملتني إياه من صدك عني وهرك لي ، والحال أنه لا يطاق احتالها . وفي الاعتراض بتدائها : نوع استعفاف .

(٢) قوله «أو شمس أو تقحمت أو طاح» في الصحاح : شمس الفرس شمسا وشماسا : منع ظهوره . وفيه «القحمة» بالضم : المهلكة . وقهم الطريق : مصاعبه اه ، فتقهم الدابة براكبتها : غوصها به في قحمتها . (ج)

(٣) قوله «حتى تميل طلام» في الصحاح «الطلى» الأعناق . قال الأصمعي : واحدها طلية . وقال أبو عمرو والفراء : واحدها طلاة . (ع)

(وجعلوا له من عباده جزءا) متصل بقوله (ولئن سألتهم) أى : ولئن سألتهم عن خالق السموات والأرض ليعترفن به ، وقد جعلوا له مع ذلك الاعتراف من عباده جزءا فوصفوه بصفات المخلوقين . ومعنى (من عباده جزءا) أن قالوا الملائكة بنات الله ، فجعلوهم جزءا له وبعضا منه ، كما يكون الولد بضعة من والده وجزءا له . ومن بدع التفاسير : تفسير الجزء بالإناث ، وادعاء أن الجزء في لغة العرب : اسم الإناث ، وما هو إلا كذب على العرب ، ووضع مستحدث منحول ، ولم يفتهم ذلك حتى اشتقوا منه : أجزاء المرأة ، ثم صنعوا بيتا وبيتا :

• إِنَّ أَجْزَأَ حُرَّةٌ يَوْمًا فَلَا عَجَبٌ • (١)

• زَوْجَتُهَا مِنْ بَنَاتِ الْأَوْسِ مُجَزَّةٌ • (٢)

وقرى : جزوا ، بضمين (لكفور مبين) لجحود للنعمة ظاهر جحوده : لأن نسبة الولد إليه كفر ، والكفر أصل الكفران كله (أم اتخذ) بل اتخذ ، والهمزة للإنكار : تجهيلا لهم وتعجيبا من شأنهم ، حيث لم يرضوا بأن جعلوا لله من عباده جزءا ، حتى جعلوا ذلك الجزء شر الجزأين : وهو الإناث دون الذكور ، على أنهم أنفرد خلق الله عن الإناث وأمقتهم لهن ، ولقد بلغ بهم المقت إلى أن وأدوهن ، كأنه قيل : هبوا أن إضافة اتخاذ الولد إليه جائزة فرضا وتميلا ، أما تستحيون من الشطط في القسمة ؟ ومن ادعائكم (٣) أنه أثركم على نفسه بخير الجزأين

(١) إن أجزاء حرة يوما فلا عجب قد تجزى الحرة المذكر أحيانا

قيل : «الجزء» اسم للأنثى ، واشتقوا منه : أجزاء المرأة ، إذا ولدت جزءا : أى أنثى . وأنكره اليماني وقال إنه اصطناع لالنة . والمعنى : إن ولدت امرأة حرة أنثى في بعض الأحيان فلا عجب : فإن الحرة التي تلد الذكور كثيرا قد تلد أنثى في بعض الأوقات . وقيل : حرة الأولى اسم امرأة ، والثانية صفة .

(٢) زوجتها من بنات الأوس مجزئة للعوسج اللدن في أبياتها زجل

قيل : «المجزئة» التي تلد البنات . والجزء : البنت . وأنكره اليماني وقال : إنه مصنوع لالنة . والعوسج : ضرب من الشوك . والمراد به : عود المغزل المنحني منه . واللدن : اللين . والزجل : صوت دوران المغزل . ونحوه : وزوجتها ، مبنى للمجهول . وروى : «نسكتها من بنات الأوس» هو أبو قبيلة سميت باسمه ، تلد تلك المرأة البنات . وجعل العوسج لدنا : لأنه أكثر دوبا ورنينا في دورانه .

(٣) قال محمود : «كأنه قيل : هبوا أن إضافة الولد إليه جائزة فرضا وتميلا ، أما تستحيون من الشطط في القسمة ؟ ومن ادعاء أنه أثركم على نفسه ... الخ» قال أحمد : نحن معاذر أهل السنة نقول : إن كل شيء بمشيئة الله تعالى ، حتى الضلالة والهدى : اتباعا لدليل العقل ، وتصديقا لنص النقل في أمثال قوله تعالى (يضل من يشاء ويهدي من يشاء) وآية الزخرف هذه لا تزيد هذا المعتقد الصحيح إلا تهيدا ، ولا تضيقه إلا تصويبا وتديدا ، فنقول : إذا قال الكافر : لو شاء الله ما كفرت ، فنهذه كلمة حتى أراد بها باطلا . أما كونها كلمة حق فلا مهادنة . وأما كونه أراد بها باطلا ، فراد الكافر بذلك أن يكون له الحجة على الله ، توهمها أنه يلزم من مشيئة الله تعالى لضلالة من ضل : أن

وأعلامها وترك له شرهما وأدناهما ؟ وتنكير (بنات) وتعريف (البنين) وتقديمهن في الذكر عليهم لما ذكرت في قوله تعالى (يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور) (١) بمسا ضرب للرحمن مثلاً بالجنس الذي جعله له مثلاً ، أى : شياً لأنه إذا جعل الملائكة جزءاً لله وبعضاً منه ، فقد جعله من جنسه ومماثلاً له : لأن الولد لا يكون إلا من جنس الوالد ، يعنى : أنهم نسبوا إليه هذا الجنس . ومن حالهم أن أحدهم إذا قيل له : قد ولدت لك بنت اغتم واربد وجهه (٢) غيظاً وتأسفاً وهو مملوء من الكرب . وعن بعض العرب : أن امرأته وضعت أنثى ، فهجر البيت الذى فيه المرأة ، فقالت :

== لا يعاقبه على ذلك ، لأنه إنما فعل مقتضى مشيئته كما توهم القدرة إخراج الوثنية ذلك ، فأشركوا بربههم ، واعتقدوا أن الضلالة وقعت بمشيئة الخلق على خلاف مشيئة الخالق ، فالذين أشركوا بالملائكة أرفع منهم درجة ؛ لأن هؤلاء أشركوا أنفسهم الدينية في ملك ربهم المتوحد بالربانية جل وعلا ، فإذا وضع ما قلناه فأنما رد الله عليهم مقاتلهم هذه ، لأنهم توهموا أنها حجة على الله ، فدحض الله حجتهم ، وأكذب أمانيهم ، وبين أن مقاتلهم صادرة عن ظن كاذب وتخرص محض ، فقال : (ما لم يبدلك من علم إنهم لا يخبرون) ، (وإن هم إلا يظنون) وقد أفصحنا أخت هذه الآية مع هذه الآية عن هذا التقدير ، وذلك قوله تعالى في سورة الأنعام (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء) كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا خروصون) فبين تعالى أن الحامل هؤلاء على التكذيب بالرسول والأشراك بالله : اغترارهم بأن لم الحجة على الله بقولهم (لو شاء الله ما أشركنا) فشب تعالى حالهم في الاعتماد على هذا الخيال بحال أوائلهم ، ثم بين أنه معتقد نفاً عن ظن خلب وخيال مكذب ، فقال (إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا خروصون) ثم لما أبطل أن يكون لهم في مقاتلهم حجة على الله : أثبت تعالى الحجة له عليهم بقوله (فقه الحجة البالغة) ثم أوضح أن الرد عليهم ليس إلا في احتجاجهم على الله بذلك ، لا لأن المقالة في نفسها كذب فقال (فلو شاء لهداكم أجمعين) وهو معنى قولهم (لو شاء الله ما أشركنا) من حيث أن لوم متضاها امتناع الهداية لامتناع المشيئة ، فدلت الآية الأخيرة على أن الله تعالى لم يشأ هدايتهم ، بل شاء ضلالتهم . ولو شاء هدايتهم لما ضلوا ؛ فهذا هو الدين القويم والصراط المستقيم ، والنور اللانخ والمهيج الواضح . والذي يدحض به حجة هؤلاء مع اعتقاد أن الله تعالى شاء وقوع الضلالة منهم : هو أنه تعالى جعل للعبد تأتياً وتيسراً للهداية وغيرها من الأفعال الكمبية . حتى صارت الأفعال الصادرة منه مناط التكليف ؛ لأنها اختيارية يفرق بالضرورة بينهما وبين العوارض القسرية ؛ فهذه الآية أقامت الحجة ، ووضحت لمن أسعفه الله للبعثات الصحيحة المحجة ؛ ولما كانت تفرقة دقيقة . لم تنظم في ذلك الأفهام الكثيفة ؛ فلا جرم أن أفهامهم تبددت ، وأفكارهم تبدلت ؛ فغلت طائفة القدرة واعتقدت أن العبد فعال لما يريد على خلاف مشيئة ربه ، وجارت الجبرية فاعتقدت أن لا قدرة للعبد البتة ولا اختيار ، وأن جميع الأفعال صادرة منه على سبيل الاضطرار . أما أهل الحق فنحهم الله من هدايته قسطاً ، وأرشدهم إلى الطريق الوسطى ؛ فاتبعوا سبل السلام ، وساروا ورائد التوفيق لم إمام ، مستعينين بأنوار العقول المرشدة إلى أن جميع الكائنات بقدرة الله تعالى ومشيئته ، ولم ينب عن أفهامهم أن يكون بعض الأفعال للعبد مقدورة ، لما وجدوه من التفرقة بين الاختيارية والقسرية بالضرورة ، لكنها قدرة تقارن بلا تأخير ، وتميز بين الضرورى والاختيارى في التصوير ، فهذا هو التحقيق ، والله ولى التوفيق .

(١) قوله «واربد وجهه غيظاً» تغير إلى الغبرة من التضب . أفاده الصحاح . (ع)

مَا لَآئِي حَمْرَةٍ لَا يَأْتِينَا يَظَلُّ فِي الْبَيْتِ الَّذِي يَلِينَا
غَضَبَانُ أَنْ لَا نَلِدَ الْبَيْنِنَا لَيْسَ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا مَاشِينَا
* وَإِنَّمَا تَأْخُذُ مَا أُعْطِينَا * (١)

والظلول بمعنى الصيرورة ، كما يستعمل أكثر الأفعال الناقصة بمعناها . وقرئ : مسود ومسواد ، على أن في (ظل) ضمير المبشر ، و (وجهه مسودا) جملة واقعة موقع الخبر ، ثم قال : أو يجعل للرحمن من الولد من هذه الصفة المذمومة صفته . وهو أنه (ينشأ في الحلية) أى يترتب في الزينة والنعمة ، وهو إذا احتاج إلى مجئاة الخصوم ^(١) ومجاراة الرجال : كان غير مبين ، ليس عنده بيان ، ولا يأتي ببرهان يحتاج به من يخاصمه ، ^(٢) وذلك لضعف عقول النساء ونقصانهن عن فطرة الرجال ، يقال : قلنا تسكمت امرأة فأرادت أن تسكلم بحجتها إلا تسكمت بالحجة عليها . وفيه . أنه جعل للنساء في الزينة والنعمومة من المعاييب والمذام ، وأنه من صفة ربات الحجال ، فعلى الرجل أن يحتجب ذلك ويأفف منه ، ويربأ بنفسه عنه ، ويعيش كما قال عمر رضى الله عنه : اخشوشنوا واخشوشبوا وتمعدوا . ^(٣) وإن أراد أن يزين نفسه زينها من باطن بلباس التقوى . وقرئ : ينشأ ؛ وينشأ ، وينشأ . ونظير المناشأة بمعنى الإنشاء : المغلاة بمعنى الإغلاء .

وَجَعَلُوا الْعَالَمَ لِسَكَّةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَّا نَأْتِيهِمْ شُهُودًا خَلَقْنَاهُمْ سَتَكْتُبُ
شَهَادَتَهُمْ وَيَسْأَلُونَ (١٩)

قد جمعوا في كفرة ثلاث كفرات ، وذلك أنهم نسبوا إلى الله الولد ، ونسبوا إليه أحسن

(١) ما لآي حمرة لا يأتينا يظل في البيت الذي يلينا
غضبان أن لا نلد البيننا ليس لنا من أمرنا ما شينا
وإنما تأخذ ما أعطينا حكمة ربى ذى الجلال فينا

لأمرأة ولدت أتي ، فحز زوجها بيننا والاستفهام إنكارى . ويظل : استنفا ، أى يصير دائماً في البيت الذى يقرب منا ، ولا يأوى إلى بيتنا . وغضبان : أى هو غضبان ، فهو على تقدير الاستفهام . ويحتمل أنه إخبار ، أى : هو غضبان من عدم ولادتنا البين ، ثم ترجمته واستعطفته بقولها : ليس لنا من أمرنا ما نشاء ، تخفف حمزة شتاً للقافية ، ولا تأخذ إلا ما أعطانا الله إياه ؛ لأن الأمر كله لله ، تلك حكمتنا فينا معاشر الخلق .

(٢) قوله « إلى مجئاة الخصوم » مقابلة من « جئنا بجئ » إذا برك على ركبته . أفاده الصحاح . (ع)
(٣) قوله « يحتاج به من يخاصمه » لعله : على من يخاصمه . أو لعله : يحتاج به من يخاصمه ، أى : يغلبه في الحجاج (ع)
(٤) أخرجه أبو عبيد في الثريب : حدثنا أبو بكر بن عياش عن عاصم بن أبى الدرداس الأسدى عن عمر رضى الله عنه أنه قال . ذكر هذا وزاد : واجعلوا الرأس رأسين - الحديث - موقوفاً . ورواه ابن حبان عن طريق أبى عثمان . قال : أنا كتاب عمر فذكر قصة فيها هذا .

النوعين : وجعلوه من الملائكة الذين هم أكرم عباد الله على الله ، ^(١) فاستخفوا بهم واحقرهم .
 وقرئ : عباد الرحمن ، وعبيد الرحمن ، وعبد الرحمن ، وهو مثل لولفاهم واختصاصهم . وإنانا ،
 وأنا : جمع الجمع . ومعنى جعلوا : سمو وقالوا إنهم إناث . وقرئ : أشهدوا وأشهدوا ، بهزتين
 مفتوحة ومضمومة . وآشهدوا بألف بينهما ، وهذا تهكم بهم . بمعنى أنهم يقولون ذلك من غير
 أن يستند قولهم إلى علم ، فإن الله لم يضطرهم إلى علم ذلك ، ولا تطرقوا إليه باستدلال ،
 ولا أحاطوا به عن خبر يوجب العلم ، فلم يبق إلا أن يشاهدوا خلقهم ، فأخبروا عن هذه المشاهدة
 (ستكتب شهادتهم) التي شهدوا بها على الملائكة من أنوثتهم (ويستلون) وهذا وعيد .
 وقرئ : سيكتب ، وسنكتب : بالياء والنون . وشهادتهم ، وشهاداتهم . ويسألون . على : يفاعلون .

وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَّا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾

(وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم) هما كفرتان أيضا مضمومتان إلى الكفرات الثلاث ،
 وهما : عبادتهم الملائكة من دون الله ، وزعمهم أن عبادتهم بمشيئة الله ، كما يقول إخوانهم
 المجرة . ^(٢) فإن قلت : ما أنكرت على من يقول : قالوا ذلك على وجه الاستهزاء ، ولو قالوه
 جادين لكانوا مؤمنين ؟ قلت : لا دليل على أنهم قالوه مستهزئين ، وادعاء ما لا دليل عليه باطل ،
 على أن الله تعالى قد حكى عنه ذلك على سبيل الذم والشهادة بالكفر : أنهم جعلوا له من عباده
 جزءا ، وأنه اتخذ بنات وأصفاهم بالبني ، وأنهم جعلوا الملائكة المكرمين إنانا ، وأنهم عبدوه
 وقالوا : لو شاء الرحمن ما عبدناهم ، فلو كانوا ناطقين بها على طريق الهزء : لكان النطق
 بالمحكيات ^(٣) - قبل هذا المحكى الذى هو إيمان عنده لوجدوا فى النطق به - مدحا لهم ، من قبل
 أنها كلمات كفر نطقوا بها على طريق الهزء : فبقى أن يكونوا جادين ، وتشترك كلها فى أنها كلمات
 كفر ، فإن قالوا : نجعل هذا الأخير وحده مقولا على وجه الهزء دون ما قبله ، فما بهم إلا تعويج

(١) قوله «هم أكرم عباد الله على الله» هذا عند المعتزلة . أما أهل السنة فبعض البشر أكرم عندهم من الملائكة . (ع)

(٢) قوله «المجرة» يريد أهل السنة ، حيث قالوا : إنه تعالى يريد الشر كالخير ، لأنه لا يقع فى ملكة إلا ما يريد ، لكن هذا لا يستلزم الجبر ولا ينافى اختيار العبد ، لما له فى أفعاله من الكسب وإن كانت مخلوقة له تعالى فى الحقيقة ، بل الجبر إنما يكون لو كان العبد لا دخل له فى أفعاله أصلا ، كالريشة فى الهواء ، كما قالت المجرة الحقيقية . وإنما ذم الله تلك المقالة من الكفار لأنهم قالوها استهزاء وعنادا ، لا إقرارا واعتقادا . والدليل على ذلك إجماع سلف الأمة على أنه ما شاء الله كان وما لم يبق لم يكن . (ع)

(٣) قوله : «لكان النطق بالمحكيات... الخ» ممنوع ، وكذا ما بعده ، والمعتزلة قالوا : لا يريد الشر بناء على أن الإرادة هى الأمر ، وهو ممنوع ، وعفا الله عن صاحب الكتاب فى بذاء لسانه هل أمل السنة ، وجعلهم إخوان الكفار . (ع)

كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لتسوية مذهبهم الباطل . ولو كانت هذه كلمة حق نطقوا بها هزأ لم يكن لقوله تعالى ﴿ ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون ﴾ معنى ، لأن من قال لا إله إلا الله على طريق الهزء : كان الواجب أن ينكر عليه استهزأؤه ولا يكذب ، لأنه لا يجوز تكذيب الناطق بالحق جازاً كان أو هازئاً . فإن قلت : ما قولك فيمن يفسر ما لهم - بقولهم : ^(١) إن الملائكة بنات الله - من علم إن هم إلا يخرصون في ذلك القول لا في تعليق عبادتهم بمشيئة الله ؟ قلت : تمحل مبطل وتحريف مكابر . ونحوه قوله تعالى (سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء) كذلك كذب الذين من قبلهم .
 أَمْ ءَاتَيْنَهُم كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ قَعْمَ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا

وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى ءَأْتِرِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾

الضمير في ﴿ من قبله ﴾ للقرآن أو الرسول . والمعنى : أنهم ألصقوا عبادة غير الله بمشيئة الله : قولاً قالوه غير مستند إلى علم ، ثم قال : أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا قَبْلَ هَذَا السَّكْتَابِ نَسْبِنَا فِيهِ الْكُفْرَ وَالْقُبَاحَ إِلَيْنَا ، فحصل لهم علم بذلك من جهة الوحي ، فاستمسكوا بذلك الكتاب واحتجوا به . بل لا حجة لهم يستمسكون بها إلا قولهم ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ﴾ على دين . وقرئ : على إمة ، بالكسر ، وكلتاها من الآم وهو النصد ، فالأمة : الطريقة التي تؤم ، أى : تقصد ، كالرحلة للرحول إليه . والأمة : الحالة التي يكون عليها الآم وهو القاصد . وقيل : على نعمة وحالة حسنة ﴿ على آثارهم مهتدون ﴾ خبر إن . أو الظرف صلة لمهتدون .

وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا

ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى ءَأْتِرِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾

﴿ مترفوها ﴾ الذين أترقهم النعمة ، أى أبطرتهم فلا يحجبون إلا الشهوات والملاهي ، ويعافون مشاق الدين وتكاليفه .

قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ

كُفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَاتَّبَعْنَاهُمْ مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٢٥﴾

قرئ : قل . وقال . وجتكم . وجئناكم ، يعنى ، أتبعون آباءكم ولو جئتكم بدين أهدى من

(١) قوله « ما قولك فيمن يفسر ما لهم بقولهم » لعله : « يفسر ما لهم بذلك بقوله ما لهم بقولهم . الخ » (ع)

دين آبائكم؟ قالوا: إنا نأبئون على دين آبائنا لا نتفك عنه، وإن جئنا بما هو أهدى وأهدى.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي

فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّكُمْ تَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾

قرئ: براء، بفتح الباء وضمها. وبرى، فبرى. وبراء، نحو كريم وكرام: (١) وبراء: مصدر كظاء، ولذلك استوى فيه الواحد والاثنان والجماعة، والمذكر والمؤنث. يقال: نحن البراء منك، والخلاء منك (الذى فطرنى) فيه غير وجه: أن يكون منصوبا على أنه استثناء منقطع، كأنه قال: لكن الذى فطرنى فإنه سيهدين، وأن يكون مجرورا بدلا من المجرور بمن: كأنه قال: إبنى براء مما تعبدون إلا من الذى فطرنى. فإن قلت: كيف تجعله بدلا وليس من جنس ما يعبدون من وجهين، أحدهما: أن ذات الله مخالفة لجميع الذوات، فكانت مخالفة لذوات ما يعبدون. والثانى: أن الله تعالى غير معبود بينهم والأوثان معبودة؟ قلت: قالوا: كانوا يعبدون الله مع أوثانهم، وأن تكون (إلا) صفة بمعنى غير، على أن (ما) فى ما تعبدون موصوفة. تقديره: إبنى براء من آلهة تعبدونها غير الذى فطرنى، فهو نظير قوله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا). فإن قلت: ما معنى قوله (سيهدين) على التسوية؟ قلت: قال مرة (فهو يهدين) ومرة (فإنه سيهدين) فاجمع بينهما وقدر، كأنه قال: فهو يهدين وسيهدين، فيدلان على استمرار الهداية فى الحال والاستقبال (وجعلها) وجعل إبراهيم صلوات الله عليه كلمة التوحيد التى تكلم بها وهى قوله (إبنى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى) (كلمة باقية فى عقبه) فى ذريته، فلا يزال فيهم من يوجد الله ويدعو إلى توحيدِهِ، لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحد منهم. ونحوه (ووصى بها إبراهيم بنيه) وقيل: وجعلها الله. وقرئ: كلمة على التخفيف وفى عقبه كذلك، وفى عاقبه، أى: فىمن عقبه، أى: خلفه.

بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾

(بل متعت هؤلاء) معنى: أهل مكة. وهم من عقب إبراهيم بالمد فى العمر والنعمة، فاعتزوا بالمهلة، وشغلوا بالتنعم واتباع الشهوات وطاعة الشيطان عن كلمة التوحيد (حتى جاءهم الحق) وهو القرآن (ورَسُولٌ مُّبِينٌ) الرسالة واضحا بما معه من الآيات البينة، فكذبوا به وسموه ساحرا وما جاء به سحرا ولم يوجد منهم مارجاه إبراهيم. وقرئ: بل متعنا. فإن قلت: فما وجه قراءة من قرأ (متعت) بفتح التاء؟ قلت: كأن الله تعالى اعترض على ذاته فى قوله (وجعلها كلمة

باقية في عقبه لعلهم يرجعون) فقال : بل متعتهم بما متعتهم به من طول العمر والسعة في الرزق ، حتى شغلهم ذلك عن كلمة التوحيد . وأراد بذلك الإطناب في تعييرهم ؛ لأنه إذا متعتهم بزيادة النعم وجب عليهم أن يجعلوا ذلك سبباً في زيادة الشكر والثبات على التوحيد والإيمان ، لا أن يشركوا به ويجعلوا له أنداداً ، فثاله أن يشكو الرجل إساءة من أحسن إليه ، ثم يقبل على نفسه فيقول . أنت السبب في ذلك بمعروفك وإحسانك ، وغرضه بهذا الكلام توبيخ المسيء لا تقييح فعله .

وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ

هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرَبَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾

فإن قلت : قد جعل مجيء الحق والرسول غاية التمتع ، ثم أرفده ^(١) قوله ﴿ ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر ﴾ فما طريقة هذا النظم ومؤداه ؟ قلت : المراد بالتمتع ما هو سبب له ، وهو اشتغالهم بالاستمتاع عن التوحيد ومقتضياته ، فقال : بل اشتغلوا عن التوحيد حتى جاءهم الحق ورسول مبين ، فغفل هذه الغاية أنهم تنهوا عندها عن غفلتهم لاقتضاها التنبيه ، ثم ابتدأ قصتهم عند مجيء الحق فقال : ولما جاءهم الحق جاؤا بما هو شر من غفلتهم التي كانوا عليها : وهو أن ضلوا إلى شركهم معاندة الحق ، ومكابرة الرسول ، ومعاداته ، والاستخفاف بكتاب الله وشرائعه ، والإصرار على أفعال الكفرة والاحتكام على حكمة الله في تخيير محمد من أهل زمانه بقولهم ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ وهي الغاية في تشويه صورة أمرهم . قرئ على رجل ، بسكون الجيم من القريتين : من إحدى القريتين ، كقوله تعالى (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) أي من أحدهما . والقريتان : مكة والطائف . وقيل : من رجلي القريتين ، وهما : الوليد بن المغيرة المخزومي وحبيب بن عمرو بن عمير الثقفي ، عن ابن عباس . وعن مجاهد : عتبة بن ربيعة وكنانة بن عبد ياليل . وعن قتادة : الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود

(١) قال محمود : « فإن قلت : قد جعل مجيء الحق والرسول غاية التمتع ، ثم أرفده ... الخ » قال أحمد : كلام نفيس لا مزيد عليه ، إلا أن قوله : « فغفل هذه الغاية أنهم تنهوا عندها » إطلاق ينبغي اجتنابه ، والله أعلم وما أحسن مجيء الغاية على هذا النحو مجيء الاضراب في بعض التارات ، فكما جاءت الغاية هنا - وليس المراد بها أن القول المذكور قبلها منقطع عندها على ما هو المفهوم منها ، بل المراد استمراره وزيادته ، فكأن تلك الحالة النافعة انتهت بوجود ما هو أكمل منها - كذلك الاضراب في مثل قوله تعالى (بل أدرك عليهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها حون) وهذه الاضرابات ليست على معنى أن الثاني منها رد للأول ، بل ثانيها أكد من أولها . وجاء الاضراب مع التوافق والزيادة للاشعار بأن الثاني لما زاد على الأول صار باعتبار زيادته نقصان الأول كأنهما شيان متنافيان يضرب عن أولهما ويثبت آخرهما ، ومثله كثير وبالله التوفيق .

الثقفي ، وكان الوليد يقول : لو كان حقاً ما يقول محمد لنزل هذا القرآن على أوعلى أبي مسعود الثقفي ، وأبومسعود : كنية عروة بن مسعود ما زالوا ينكرون أن يبعث الله بشراً رسولا ، فلما علموا بتكرير الله الحجة أن الرسل لم يكونوا إلا رجالا من أهل القرى ، جاؤا بالإنكار من وجه آخر ، وهو تحكهم أن يكون أحد هذين ، وقولهم : هذا القرآن ذكر له على وجه الاستهانة به ، وأرادوا بعظم الرجل : رياسته وتقدمه في الدنيا ، وعزب عن عقولهم أن العظيم من كان عند الله عظيماً .

أَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحِمَتْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾

(أَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ) هذه الحمزة للإنكار المستقل بالتجهيل والتعجب من اعتراضهم وتحكهم ، وأن يكونوا هم المدبرين لأمر النبوة والتخير لها من يصلح لها ويقوم بها ، والمتولين لقسمة رحمة الله التي لا يتولاها إلا هو بياهر قدرته وبالغ حكمته ، ثم ضرب لهم مثلا فأعلم أنهم عاجزون عن تدبير خويصة أمرهم وما يصاحبهم في دنياهم ، وأن الله عزّ وعلا هو الذي قسم بينهم معيشتهم وقدرها ودبر أحوالهم تدبير العالم بها ، فلم يسوّ بينهم ولكن فاوت بينهم في أسباب العيش ، وغاير بين منازلهم فجعل منهم أقبياء وضعفاء وأغنياء ومحارب وموالي وخداما ، ليصرف بعضهم بعضاً في حوائجهم ويستخدموهم في مهنتهم ويتسخروهم في أشغالهم ، حتى يتعاشوا ويترافدوا ويصلوا إلى منافعهم ويحصلوا على مرافقهم : ولولوكهم إلى أنفسهم وولاهم تدبير أمرهم ، لضاعوا وهلكوا . وإذا كانوا في تدبير المعيشة الدنية في الحياة الدنيا على هذه الصفة ، فما ظنك بهم في تدبير أمور الدين الذي هو رحمة الله الكبرى ورأفته العظمى ؟ وهو الطريق إلى حياة حظوظ الآخرة والسلام إلى حلول دار السلام ؟ ثم قال ﴿ وَرَحِمَتْ رَبِّكَ ﴾ يريد : وهذه الرحمة هي دين الله وما يتبعه من الفوز في المآب : خير مما يجمع هؤلاء من حطام الدنيا . فان قلت : معيشتهم ما يعيشون به من المنافع ^(١) ، ومنهم من يعيش بالحلال ، ومنهم من يعيش بالحرام : فإذاً قد قسم الله تعالى الحرام كما قسم الحلال . قلت : الله تعالى قسم لكل عبد معيشته وهي مطاعمه ومشاربه وما يصلحه من المنافع وأذن له في تناولها ، ولكن شرط عليه

(١) قال محمود : « فان قلت : معيشتهم ما يعيشون به من المنافع ... الخ » قال أحد : قد تقدم أن الرزق عند أهل السنة يطلق على ما يقوم الله به حال العبد حلالا كان أو حراما ، وهذه الآية معضدة ، والزخرفى بنى على أصله وقد تقدم .

وكلفه أن يسلك في تناولها الطريق التي شرعها ؛ فإذا سلكها فقد تناول قسمته من المعيشة حلالا ، وسماها رزق الله ؛ وإذا لم يسلكها تناولها حراما ، وليس له أن يسميها رزق الله ^(١) ؛ قاله تعالى قاسم المعاش والمنافع ، ولكن العباد هم الذين يكسبونها صفة الحرمة بسوء تناولهم ، وهو عدولهم فيه عما شرعه الله إلى ما لم يشرعه .

وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ
سُقْفًا مِنْ فِصَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا
يَتَكَبَّرُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ

عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾

{ لبيوتهم } بدل اشتغال من قوله { لمن يكفر } ويجوز أن يكونا بمنزلة اللامين في قولك : وهبت له ثوبا لقميصه . وقرئ : سقفاً ، بفتح السين وسكون القاف . وبضمها وسكون القاف وبضمها : جمع سقف ، كرهن ورهن ورهن . وعن الفراء : جمع سقيفة وسقفا بفتحتين ، كأنه لغة في سقف وسقوفا ، ومعارج ومعارج . والمعارج : جمع معرج ، أو اسم جمع لمعراج : وهي المصاعد إلى العلالى { عليها يظهرون } أى على المعارج ، يظهرون السطوح يعلونها ، فما استطاعوا أن يظهروه . وسرراً ، بفتح الراء لاستئصال الضمتين مع حرفي التضعيف { لما متاع الحياة } اللام هي الفارقة بين إن المخففة والنافية . وقرئ بكسر اللام ، أى : الذى هو متاع الحياة ، كقوله تعالى { مثلاً ما بوضه } ولما بالتشديد بمعنى إلا ، وإن نافية . وقرئ : إلا . وقرئ : وما كل ذلك إلا . لما قال { خير مما يجمعون } فقلل أمر الدنيا وصغرها : أردفه ما يقرر قلة الدنيا عنده من قوله { ولولا أن يكون الناس أمة واحدة } أى : ولولا كراهة أن يجتمعوا على الكفر يطبقوا عليه ، لجعلنا لحقارة زهرة الحياة الدنيا ^(٢) عندنا للكفار سقوفا ومصاعد وأبوابا وسرراً كلها

(١) قوله « وليس له أن يسميها رزق الله » هذا على مذهب المعتزلة . وأما عند أهل السنة فالرزق ما ينتفع به ولو حراما . والمصنف يريد أن الله لا ييسر الحرام ؛ لأنه لا يفعل القبيح عند المعتزلة . ومذهب أهل السنة أن فاعل الكائنات كلها هو الله تعالى . (ع)

(٢) قال محمود : « ومعناه لولا كراهية أن يجتمعوا على الكفر لجعلنا للكفرة سقوفا من فضة أى لو سمنا عليهم الدنيا لحقارتها عندنا » قال أحد : « ولولا » معناها أخت « ولولا » في قوله { ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدموا أيديهم... الآية } تلك أن تصحح الكلام بتقدير كراهة ذلك بأن لا تقدر محذوفا كما قدمته ، فيكون وجه الكلام ههنا أن إجماعهم على الكفر مانع من بسط الدنيا . وهذا هو معنى لولا المطرد أنما بعدها أبداً مانع من جوابها ، ولكن قد يكون المانع موجوداً تحقيقاً فيمتنع الجواب بلا إشكال ، كقوله تعالى { ولولا فضل الله عليكم ورحمته لنكنتم من }

من فضة وزخرف ، وجعلنا لهم زخرفاً ، أى : زينة من كل شيء . والزخرف : الزينة والذهب . ويجوز أن يكون الأصل : سقفاً من فضة وزخرف ، يعنى : بعضها من فضة وبعضها من ذهب ، فنصب عطفاً على محل (من فضة) وفي معناه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ولو وزنت الدنيا عند الله جناح بعوضة ماسق الكافر منها شربة ماء .^(١) فإن قلت : فحين لم يوسع على الكافرين للفتنة التي كان يؤدي إليها التوسعة عليهم من إطباق الناس على الكفر لحبهم الدنيا وتهالكهم عليها ، فهلا وسع على المسلمين ليطبق الناس على الإسلام ؟ قلت : التوسعة عليهم مفسدة أيضاً لما تؤدي إليه من الدخول في الإسلام لأجل الدنيا ، والدخول في الدين لأجل الدنيا من دين المنافقين^(٢) ، فكانت الحكمة فيأدبر : حيث جعل في الفريقين أغنياء وفقراء ، وغلب الفقر على الغنى .

وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾
وَأَنَّهُمْ كَيْفَ تُحَدِّثُهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا
قَالَ بَلِّغْتِ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ
الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾

قرئ : ومن يعش ، بضم الشين وفتحها . والفرق بينهما أنه إذا حصلت الآفة في بصره قبل : عشى . وإذا نظر نظر العشى ولا آفة به قيل عشا . ونظيره : عرج ، لمن به الآفة^(٣) .

== الخاسرين) وهو الأكثر . وقد يكون وجوده تفديراً معه على ذلك الآية ، أى : لو وجد بسط الدنيا للكافر مقدراً ، لو وجد مانعه عندنا وهو الاجتماع على الكفر مقدراً معه ، وكل ما أدى وجوده إلى وجود مانعه لا يوجد . (١) فيه عبد الحميد بن سليمان وتابعه زكريا بن منظور . وقال الترمذي : وفي الباب عن أبي هريرة . وحديثه عند البرار من حديث صالح مولى التوأمة عنه . ولفظه « ما أعطي كافرأ منها شيئاً » ورواه البيهقي في الشعب في الحادى والسبعين من رواية أبي معشر عن المقبرى عنه وفي الباب عن ابن عباس . أخرجه أبو نعيم في الحلية . وفيه الحسن ابن عمار وهو ضعيف جداً . وأخرجه القضاعى في مسند الشهاب من رواية مالك عن نافع عن ابن عمر ، بلفظ المصنف قال ابن طاهر : فيه على بن محمد بن أحمد بن أبي هوف عن أبي مصعب عنه ، لأصل له من حديث مالك

(٢) قال محمود : ولحين لم يوسع على الكافرين للفتنة التي كان يؤدي إليها التوسعة من الإطباق على الكفر ، فهلا وسع على المسلمين ليطبق الناس على الإيمان ؟ وأجاب بأن التوسعة عليهم مفسدة أيضاً لما تؤدي إليه من الدخول في الإسلام لأجل الدنيا ، وذلك من دين المنافقين . قال أحمد : سؤال وجواب مبنيان على قاعدتين فاسدتين ، إحداهما : تعليل أفعال الله تعالى ، والأخرى : أن الله تعالى أراد الإسلام من الخلق أجمعين . أما الأولى فقد أخرس الله السائل عنه بقوله (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) وأما الثانية فقد كفى الله المؤمنين الجواب عنه فيه بقوله (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً) .

(٣) قال محمود : « يقال عشى بصره بكسر الشين إذا أصابته الآفة ... » قال أحمد : في هذه الآية نكتتان بدعيتان ، إحداهما : الدلالة على أن الذكر الواقعة في سياق الشرط تفيد العموم ، وهى مسألة اضطرب فيها الأصوليون ==

وعرج ، لمن مشى مشية العرجان من غير عرج . قال الخطيبه :

* مَنَى تَأْتِيهِ تَعْشُو إِلَى صَوِّ نَارِهِ * (١)

أى : تنظر إليها نظر العشى لما يضعف بصره من عظم الوقود واتساع الضوء . وهو بين في قول حاتم :

أَعْشُو إِذَا مَا جَارِقِي بَرَزَتْ حَتَّى يُوَارِي جَارِقِي الْخِدْرُ (٢)

== وإمام الحرمين من القائلين بإفادتها العموم ، حتى استدرك على الأئمة إطلاقهم القول بأن النكرة في سياق الإثبات تخص ، وقال : إن الشرط يعم ، والنكرة في سياقها تميم . وقد رد عليه الفقيه أبو الحسن على الأنباري شارح كتابه ردا عنيقا . وفي هذه الآية للإمام ومن قال بقوله كفاية ؛ وذلك أن الشيطان ذكر فيها منكرا في سياق شرط ، ونحن نعلم أنه إنما أراد عموم الشياطين لا واحدا لوجهين ، أحدهما : أنه قد ثبت أن لكل أحد شيطانا ، فكيف بالعاشي من ذكر الله . والآخر : يؤخذ من الآية : وهو أنه أعاد عليه الضمير مجوعا في قوله (وإنهم) فإنه عائد إلى الشيطان قولاً واحداً ، ولولا إفادته عموم الشمول لما جاز عود ضمير الجمع عليه بلا إشكال ، فهذه نكتة تجدد عند إسماعيل الخالفي هذا الرأي سكتة . للنكتة الثانية : أن في هذه الآية رداً على من زعم أن العود على معنى من يمنع من العود على لفظها بعد ذلك . واحتج المانع لذلك بأنه إجمال بعد تفسير ، وهو خلاف المعهود من الفصاحة . وقد نقض للكندى هذا بقوله تعالى (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقا) ونقض غيره بقوله (ومن الناس من يفتري لموا الحديث ليضل عن سبيل الله بفهم علم ويتخذها هزوا أولئك لم عذاب مهين وإذا تتلى عليه ... الآية) وكان جدى رحمه الله قد استخرج من هذه الآية بعض ذلك ، لأنه أعاد على اللفظ في قوله : (يعش) و (له) مرتين ، ثم على المعنى في قوله (ليصدونهم) ثم على اللفظ بقوله (حتى إذا جاءنا) وقد قدمت أن الذى منع ذلك قد يكون اقتصر بمنع على مجيء ذلك في جملة واحدة وأما إذا تعددت الجمل واستقلت كل بنفسها فقد لا يمنع ذلك حتى رددت على الزخرفى في قوله تعالى (لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً) فإن الجملة واحدة ، فانظره في موضعه .

(١) كسوب ومتلاف إذا ما سأله تهلل وامتزح امتزاز المهند

وذاك امرؤ إن يعطك اليوم نائلا بكفيه لم يمنعك من نائل الغد

مَنَى تَأْتِيهِ تَعْشُو إِلَى صَوِّ نَارِهِ تجدد خير ناره عندها خير موقد

للخطيبه ، يقول : هو كثير الكسب وكثير الانلاف . وبينهما طباق التضاد : إذا سأله أجبك بسرعة وطلاقة وجه وهو المراد بقوله : تهلل وامتزح امتزاز السيف المطاق من حديد الهند ، إذا أعطاك اليوم عطاء بكفيه معاً كناية عن كثرة العطاء ، وسأله في غد أعطاك أيضا . وعشى يعشى كرمى يرمى : إذا كان يبصره آفة . وعشى يعشى : إذا تعاشى بغير آفة . والمعنى : من تأتته على هيئة الأعشى - مجاز عن إظهار الفاقة - تجده أكرم الناس ، عبر عنه بذلك على طريق الكناية .

(٢) نارى ونار الجار واحدة وإليه قبلى تنزل القدر

ماضرنى جار أجاوره ألا يكون لبابه ستر

أعشو إذا ما جارقى برزت حتى يوارى جارقى الجدر

الحاتم الطائي : وعشى يعشى كرمى يرمى : صار لا يبصر ليلا . وعشا يعشو كدعا يدعو : إذا نظر كمنظر الأعشى .

وقرئ: يعشوا، على أن من موصولة غير مضمنة معنى الشرط. وحق هذا القارئ أن يرفع نقيض. ومعنى القراءة بالفتح: ومن يعم (عن ذكر الرحمن) وهو القرآن، كقوله تعالى (صم بكم عني) وأما القراءة بالضم فعناها: ومن يتعام عن ذكره، أي: يعرف أنه الحق وهو يتجاهل ويتغابي، كقوله تعالى (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم). (نقيض له شيطانا) نخذه^(١) ونخل بينه وبين الشياطين، كقوله تعالى (وقيضنا لهم قرانا)، (ألم تر أننا أرسلنا الشياطين على الكافرين) وقرئ: يقيض، أي: يقيض له الرحمن و يقيض له الشيطان. فإن قلت: لم جمع ضمير من وصير الشيطان في قوله (ولهم ليصدونهم)؟ قلت: لأن (من) مبهم في جنس العاشي، وقد قيض له شيطان مبهم في جنسه، فلما جاز أن يتناولوا لإيهامهما غير واحد: جاز أن يرجع الضمير إليهما مجموعا (حتى إذا جاءنا) العاشي. وقرئ: جا آنا، على أن الفعل لهول شيطانه. (قال) لشيطانه (يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين) يريد المشرق والمغرب، فغلب. كما قيل: العمران والفرمان. فإن قلت: فما بعد المشرقين؟ قلت: تباعدهما، والأصل: بعد المشرق من المغرب، والمغرب من المشرق. فلما غلب وجمع المشرقين بالتثنية: أضاف البعد إليهما (إنكم) في محل الرفع على الفاعلية، يعني: ولن ينفعكم كونكم مشتركين في العذاب كما ينفع الواقعين في الأمر الصعب اشتراكهم فيه، لتعاونهم في تحمل أعبائه وتقسيمهم لشدة وعنايه، وذلك أن كل واحد منكم به من العذاب ما لا تبلغه طاقته، ولك أن تجعل الفعل للتمني في قوله (يا ليت بيني وبينك) على معنى: ولن ينفعكم اليوم ما أنتم فيه من تمني مباعدة القرين. وقوله (إنكم في العذاب مشتركون) لتعليل، أي: لن ينفعكم تمنيتكم؛ لأن حقم أن تشركوا أنتم وقرناؤكم في العذاب كما كنتم مشتركين في سببه وهو الكفر. وتقويه قراءة من قرأ: إنكم بالكسر. وقيل: إذا رأى الممنوء بشدة^(٢) من مني بمثلها: روحه ذلك ونفس بعض كربه، وهو التأسى الذي ذكرته الخنساء:

== يقول: إن نارهم نار جاري، وتزل قدرى إليه لياكل منها قبلى أرنارى ونار جارى واحدة في الزمن والقوة ومع ذلك تزل قدره إليه قبلى لياكلها سرهما خوف اطلاع أحد عليهما. لكن يبعد هذا أن المقام ليس لثم الجار بل للدح. ثم هذا كناية عن شدة كرمه على غيره، ثم وصف نفسه بالغة بقوله: ماضى جار من جيرانى بمسبة ولا غيرها من أن لا يكون لياه حجاب يستر أهله، فاني أنفاقل وأغض بصرى إذا خرجت جارقى، حتى يسترها بيننا. وأتى بالظاهر موضع المضمر ليفيد أنه ينبغي مراعاة حق الجوار. والاحتفال الأول أفقد؛ لأن معناه أنه يره ويهف عن محارمه. وأما الثاني ففيه ذم جاره، وهو لا يلائم بعده.

(١) قوله «نقيض له شيطانا» نخذه، تأويله بذلك مبنى على أنه تعالى لا يفعل القبيح، وهو مذهب المعتزلة. وعند أهل السنة أنه فاعل الكائنات كلها، فالآيات على ظاهرها (ع)

(٢) قوله «إذا رأى الممنوء بعدة» أى المبتلى. ومنى: أى ابتلى، أفاده الصحاح (ع)

• أَهْرَى النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّامِّي • (١)

فهؤلاء لا يؤسهم اشتراكهم ولا يروحهم ؛ لعظم ما هم فيه . فإن قلت : ما معنى قوله تعالى (إذ ظلمتم) ؟ قلت : معناه : إذ صبح ظلمكم وتبين ولم يبق لكم ولا لأحد شبهة في أنكم كنتم ظالمين ، وذلك يوم القيامة . وإذا بدل من اليوم . ونظيره :

• إِذَا مَا تَسَبَّنَا لَمْ تَلِدْنِي لَيْمَةً • (٢)

أى : تبين أنى ولد كريمة .

أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمَّ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٤٠)

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحد ويحمد ويكذ روحه في دعاء قومه ، وهم لا يزيدون على دعائه إلا تصميماً على الكفر وتماذياً في العنـى ، فأنكر عليه بقوله (أفأنت تسمع الصم) إنكار تعجب من أن يكون هو الذى يقدر على هدايتهم ، وأراد أنه لا يقدر على ذلك منهم إلا هو وحده على سبيل الإلجاء والقسر ، كقوله تعالى (إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور)

فَأَمَّا نَذَهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (٤١) أَوْ تُرِينَكَ الَّذِي وَعَدْنَاكُمْ
فَأِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ (٤٢) فَاسْتَسْكِنِ بِالَّذِي أَوْحَى إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٣)

(١) بذكرنى طلوع الشمس صخرا وأذكره بكل غروب شمس
ولولا كثرة الباكين حولى على إخوانهم لقتلت نفسى
وما يكون مثل أخى ولكن أعزى النفس عنه بالتأمي

للخنساء ترى أخاها . وإسناد التذكير للطلوع : مجاز عقل ؛ لأنه سبب في تذكيرها إياه ، وكذلك الغروب حيث كان ذهابه عند الأول وإيابه عند الثانى عادة . أولانه يذهب فى الأول للغارات ، ويجلس فى الثانى مع الضيفان . أولان طلوعها يشبه طلوعه ، وغروبها يشبه موته . وفيه نوع من البديع يسمى التنكيـت : وهو الاتيان بلفظ يسد غيره مسدود ، لولا نكتة فيه ترجع اختصاصه بالذكر : لكان اختصاصه خطأ ، كما في اختصاص الوقتين هنا . أفاده السيوطى فى شرح عقود الجمان . وفيه أيضاً نوع آخر يسمى الادماج : وهو أن يضمن كلام سبق لمعنى معنى آخر ، كما ضمن الكلام المسوق هنا لمعنى الرثاء معنى المدح بالشجاعة والكرم . أو بحسن الطلعة . والباء فى «بكل» سببية . ويحتمل أن الإسناد للأول من باب الإسناد للزمان ، فتكون الباء فى الثانى بمعنى «فى» أو «مع» وذكر الشمس ثانياً فى آخر المصراع الثانى من باب رد العجز على الصدر . وأعزى النفس : أسلها وأصبرها عنه بالتأمي ، أى : الاقتداء بغيرى من أهل المصائب وفى اقتدائها بالباكين من الرجال : إشعار بتجلدها وعظم شأنها مثلهم . وروى «على أمواتهم» بدل : «على إخوانهم» ، و«أسلى» بدل «أعزى» .

(٢) مر شرح هذا الشاهد بالجزء الثالث صفحة ٤٠٠ فراجع إن شئت اه مصححه .

(ما) في قوله ﴿فإِذَا مَذْهَبَ الْكَلْبُ﴾ بمنزلة لام القسم: في أنها إذا دخلت دخلت معها النون المؤكدة، والمعنى: فإن قبضناك قبل أن تنصرك عليهم ونشفي صدور المؤمنين منهم ﴿فإننا منهم منتقمون﴾ أشد الانتقام في الآخرة، كقوله تعالى: (أو تتوفينك فألينا يرجعون) وإن أردنا أن نتجزي حياتك ما وعدناهم من العذاب النازل بهم وهو يوم بدر، فهم تحت ملكتنا وقد رتنا لا يفوتونا: وصفهم بشدة الشكيمة في الكفر والضلال ثم أتبعه شدة الوعيد بعذاب الدنيا والآخرة. وقرئ: نرينك، بالنون الخفيفة. وقرئ: بالذى أوحى إليك، على البناء للفاعل، وهو الله عز وجل والمعنى: وسواء عجلنا لك الظفر والغلبة أو أخرنا إلى اليوم الآخر. فكن مستمسكاً بما أوحينا إليك وبالعامل به فإنه الصراط المستقيم الذى لا يبعد عنه إلا ضلال شق، وزد كل يوم صلابة في المحاماة على دين الله، ولا يخرجك الضجر بأمرهم إلى شئ من اللين والرخاوة في أمرك، ولكن كما يفعل الثابت^(١) الذى لا ينشطه تمجيل ظفر، ولا يثبطه تأخير.

وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ

قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾

(وإنه) وإن الذى أوحى إليك ﴿لذكر﴾ لشرف ﴿لك ولقومك، و﴾ لسوف ﴿تسألون﴾ عنه يوم القيامة، وعن قيامكم بحقه، وعن تعظيمكم له، وشكركم على أن رزقتموه وخصصتم به من بين العالمين، ليس المراد بسؤال الرسل حقيقة السؤال لإحالتها، ولكنه مجاز عن النظر في أديانهم والفحص عن ملهمهم، هل جاءت عبادة الاوثان قط في ملة من ملل الأنبياء؟ وكفاه نظراً ولخصاً^(٢): نظره في كتاب الله المعجز المصدق لمسا بين يديه، وإخبار الله فيه بأنهم يعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً. وهذه الآية في نفسها كافية لإحالة إلى غيرها، والسؤال الواقع مجازاً عن النظر، حيث لا يصح السؤال على الحقيقة: كثير منه مساءلة الشعراء الديار والرسوم والأطلال. وقول من قال: سل الأرض من شق أنهارك وغرس أشجارك وجنى ثمارك؟ فإنها إن لم تجبك حواراً^(٣) أجابتك اعتباراً. وقيل: إن النبي صلى الله عليه وسلم جمع له الأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس فأتهمهم. وقيل له: سلهم، فلم يشكك ولم يسأل. وقيل: معناه سل أمم من أرسلنا وهم أهل الكتابين: التوراة والإنجيل. وعن

(١) قوله «ولكن كما يفعل الثابت» لعله: وكن. أو لعله: ولكن كن. (ع)

(٢) قال محمود: «سؤال الرسل مجاز عن الفحص في شرائعهم والنظر في ملهمهم... الخ» قال أحمد: ويشهد لارادة سؤال الأمم (فاستل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك) والله أعلم.

(٣) قوله «تجيبك حواراً» أى مخاطبة بالنطق. في الصحاح: استحاره، أى: استنطقه. (ع)

الفرأ : هم إنما يخبرونه عن كتب الرسل ، فإذا سألم فكأنه سأل الانبياء .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ

الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾

ما أجاوبه به عند قوله : ((إني رسول رب العالمين)) محذوف ، دل عليه قوله : ((فلما جاءهم بآياتنا)) وهو مطالبهم لإياه بإحضار البيئة على دعواه وإبراز الآية ((إذا هم منها يضحكون)) أى يسخرون منها ويهزون بها ويسمونها سحراً ، وإذا للمفاجأة . فإن قلت : كيف جاز أن يجاب لما إذا المفاجأة ؟ قلت : لأن فعل المفاجأة معها مقدر ، وهو عامل النصب^(١) في عملها ، كأنه قيل : فلما جاءهم بآياتنا فاجؤا وقت ضحكهم .

وَمَا نُزِيعُ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾

فإن قلت : إذا جاءتهم آية واحدة من جملة التسع فما أختها التي فضلت عليها في الكبر من بقية الآيات ؟ قلت : أختها التي هي آية مثلها . وهذه صفة كل واحدة منها فكان المعنى على أنها أكبر من بقية الآيات على سبيل التفصيل والاستقراء واحدة بعد واحدة ، كما تقول : هو أفضل رجل رأيت ، تريد : تفضيله على أمة الرجال الذين رأيتهم إذا قروتهم رجلاً رجلاً^(٢) ، فإن قلت : هو كلام متناقض ، لأن معناه : ما من آية من التسع إلا هي أكبر من كل واحدة منها ، فتكون واحدة منها فاضلة ومفضولة في حالة واحدة . قلت : الغرض بهذا الكلام أنهن موصوفات بالكبر ، لا يكدن يتفارتن فيه ، وكذلك العادة في الأشياء التي تتلاقى في الفضل وتتفاوت منازلها فيه التفاوت اليسير أن تختلف آراء الناس في تفضيلها ، فيفضل بعضهم هذا وبعضهم ذاك ، فعلى ذلك نبى الناس كلامهم فقالوا : رأيت رجلاً بعضهم أفضل من بعض ، وربما اختلفت آراء الرجل

(١) قال محمود : «جازت فيه إجابة لما إذا التي المفاجأة لأن فعل المفاجأة مقدر معها وهو العامل فيها النصب ... الخ» قال أحمد : الظاهر في تسوية هذا الاخلاق - والله أعلم : أن كل واحدة من هذه الآي إذا أفردها بالفكر استغرقت عظمها الفكر وجرته ، حتى يحزم أنها النهاية ، وأن كل آية دونها . فإذا نقل الفكرة إلى أختها استوعبت أيضاً فكره بعظمها ، ودخل عن الأولى لحزم بأن هذه النهاية ، وأن كل آية دونها . والحاصل أنه لا يقدر الفكر على أن يجمع بين آيتين منهما ؛ ليحقق عنده الفاضلة من المفضولة ، بل مهما أفرده بالكفر جزم بأنه النهاية . وعلى هذا التقدير يجري جميع ما يرد من أمثاله ، والله أعلم .

(٢) قوله ، إذا قروتهم رجلاً رجلاً ، أى تتبعهم . (ع)

الواحد فيها، فتارة يفضل هذا وتارة يفضل ذاك . ومنه بيت الحامسة :

مَنْ تَلَقَّ مِنْهُمْ تَقَلَّ لَاقَيْتُ سَيِّدَهُمْ مِثْلَ النُّجُومِ الَّتِي يَسِيرُ بِهَا السَّارِي ^(١)

وقد افاضلت الأنمارية بين الكلمة من بينها ، ثم قالت : لما أبصرت مراتبهم متدانية قليلة التفاوت . نكلتهم ^(٢) إن كنت أعلم أنهم أفضل ، هم كالحلقة المفترقة لا يدرى أين طرفاها (لعلهم يرجعون) إرادة أن يرجعوا عن الكفر إلى الإيمان ^(٣) . فإن قلت لو أراد رجوعهم لكان . قلت : إرادته فعل غيره ليس إلا أن يأمره به ^(٤) ويطلب منه إيجاده ، فإن كان ذلك على سبيل التوسل وجد ،

(١) هينون لينون أي صار ذور كرم سواس مكربة أبناء أي صار
إن يسئلوا الخير يعطوه وإن جهدوا فالجهد يخرج منهم طيب أخبار
وإن توددتهم لأنوا وإن شهموا كشفت أذمار شر غير أشرار
لا ينطقون عن الفحشا وإن نطقوا ولا يمارون من ماري باكثار
من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم مثل النجوم التي يسرى بها الساري

لعبد بن الأبرص . وقيل للبرندس . وهينون لينون : جمع هين ولين : تخفيف هين ولين بالتشديد ، على فيعل . وأيسار : جمع يسر ، كغلب وأقطاب ، وهو في الأصل ضد العسر ، سعى به الرجل مبالغة . أو جمع يسرة كقصبة ، وهي في الأصل : الخط في باطن الكف ، أطلقت على الرجل إشعاراً بالكرم . وسواس : جمع سائس ، بمعنى مالك متصرف بالمصلحة ، وبمعنى الولي المصلح ؛ وجهده الطعام : إذا اشتاق إليه واشتهاه . وجهد الرجل فهو مجهود : أصابه الفحوط والمشقة . وقوله ، فالجهد يخرج منهم ، جواب الشرط . ويحتمل أنه استئناف مفرغ على ما قبله . وإن جهدوا : جوابه دل عليه ما قبله . والشهامة : الخشونة ، وشهمت الفرس حركته يسرع . وأذمار شر : أي شيطان حرب : جمع ذمر ككيد ، من ذمر الرجل : عيب و غضب . وذمر الأسد زار بصوته ، أي : إن حملتم على الحرب أظهرت منهم شيطان حرب غير أشرار . وضم النطق معنى الاخبار ، فعداه بمن . ويجوز أنها بمعنى الباء . والمأراة : الجدال . وباكثر : متعلق بماري ، أو يمارون . من تلقه منهم تقل فيه : لاقيت أشرهم لتساوهم في الشرف ، فهم مثل النجوم في التساوي في الشرف والاهتداء والاستضاءة بكل . فكأن النجم يتدى به المسافر ، كذلك هم يتدى بهم المختبئ الطالب للمعروف أو المتحير في أمر معضل . ويروي بدل وإن جهدوا ... الخ ، : ... وإن خبروا . في الجهد أدرك منهم طيب أخبار . أي : إن اختبروا علم كرمهم وحسن سيرتهم .

(٢) قوله ، نكلتهم ، التكل : فقدان المرأة ولدها . (ع)

(٣) قال محمود : د معناه إرادة أن يرجعوا عن الكفر إلى الإيمان ... الخ ، قال أحمد : تقدم في غير موضع أن د لعل ، حيثما وردت في سياق كلام الله تعالى فالمراد صرف الرجاء إلى المخلوقين ، أي : ليكونوا بحيث يرجي منهم ذلك ، هذا هو الحق . وعليه تأول سيويه ما ورد . وأما الإغشوى فيحمل د لعل ، على الإرادة ؛ لأنه لا يتعاضى مع اعتقاد أن الله يريد شيئاً ويريد العبد خلافة ، فيقع مراد العبد ولا يقع مراد الرب . تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً . فأشنعها زلة وأبشعها خلة . ولقد أساء الأدب في هذا الموضع ، حتى إنه لولا تعين الرد عليه لما جرى القلم بنقل ما هذى به وما اعتدى . وقد جرى على سنن أوائله في جعل حقيقة الأمر هو الإرادة وأضاف إلى ذلك اعتقاد أن العبد يوجد فعله ويخلق ، وأن مراد العبد يقع ، ومراد الرب لا يقع ؛ فهذه ظلمات ثلاث بعضها فوق بعض ؛ نفوذ بالله من هذه القواية : (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا) .

(٤) قوله ، ليس إلا أن يأمره به ، هذا مذهب المعتزلة . أما مذهب أهل السنة : فأرادته غير الأمر ، سواء ==

والأدار بين أن يوجد وبين أن لا يوجد على حسب اختيار المكلف، وإنما لم يكن الرجوع لأن الإرادة لم تكن قسرا ولم يختاروه. والمراد بالعذاب: السنون، والطوفان، والجراد، وغير ذلك.

وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرِ آذِغْ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٥٠﴾

وقرئ: يا أيه الساحر، بضم الهاء، وقد سبق وجهه. فإن قلت: كيف سموه بالساحر مع قولهم ﴿إننا لمهتدون﴾؟ قلت: قولهم ﴿إننا لمهتدون﴾: وعد منوى إخلافه، وعهد معزوم على نكثه، معلق بشرط أن يدعو لهم وينكشف عنهم العذاب. ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون﴾ فإذ كانت تسميتهم إياه بالساحر بمنافية لقولهم: ﴿إننا لمهتدون﴾ وقيل: كانوا يقولون للعالم الماهر ساحر لاستعظامهم علم السحر: ﴿بما عهد عندك﴾ بعهد عندك: من أن دعوتك مستجابة. أو بعهد عندك وهو التوبة. أو بما عهد عندك فوفيت به وهو الإيمان والطاعة. أو بما عهد عندك من كشف العذاب عن اهتدى.

وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَبْقَوْمِ آلَيْسَ لِي مَلِكٌ وَمَهْذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ

الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾

﴿ونادى فرعون في قومه﴾ جعلهم محلا لندائه وموقعا له. والمعنى: أنه أمر بالنداء في مجامعهم وأما كنهم من نادى فيها بذلك، فأسند النداء إليه، كقولك: قطع الأمير اللص، إذا أمر بقطعه. ويجوز أن يكون عنده عظام القبط، فيرفع صوته بذلك فيما بينهم، ثم ينشر عنه في جموع القبط، فكانه نودى به بينهم فقال ﴿آليس لي ملك مصر وهذه الأنهار﴾ يعني أنهار النيل ومعظمها أربعة: نهر الملك، ونهر طولون، ونهر دمياط، ونهر تيس: قيل: كانت تجرى تحت قصره. وقيل: تحت سريره لارتفاعه. وقيل: بين يدي في جناني وبساتيني. ويجوز أن تكون الواو عاطفة للأنهار على ملك مصر. وتجري: نصب على الحال منها، وأن تكون الواو

== كانت لفعل نفسه أو لفعل غيره، ولا يلزم تأويل الآية بالإرادة؛ لجواز أن يكون معناها: ليكون عالم عند الأخذ بالعذاب حال من يرجي رجوعهم. (ع)

للحال، واسم الإشارة مبتدأ، والآنهار صفة لاسم الإشارة، وتجري خبر للبتدأ وليت شعري كيف ارتقت إلى دعوة الربوبية همة من تعظم بملك مصر، وعجب الناس من مدى عظمتها، وأمر فتودى بها في أسواق مصر وأزقتها؛ لتلا تخفى تلك الآهة^(١) والجلالة على صغير ولا كبير وحتى يتربع في صدور الدهماء مقدار عزته وملكوته. وعن الرشيد: أنه لما قرأها قال: لاولينها أخس عبيدي، فولاما الحصيب، وكان على وضوئه. وعن عبدالله بن طاهر أنه وليها، فخرج إليها فلما شارفها ووقع عليها بصره قال: أهي القرية التي افتخر بها فرعون حتى قال: أليس لي ملك مصر، والله لهي أقل عندي من أن أدخلها، فثنى عنانه ﴿أم أنا خير﴾ أم هذه متصلة، لأن المعنى: أفلا تبصرون أم تبصرون، إلا أنه وضع قوله (أنا خير) موضع: تبصرون؛ لأنهم إذا قالوا له: أنت خير، فهم عنده بصراء. وهذا من إزال السبب منزلة المسبب. ويجوز أن تكون منقطعة على: بل أنا خير، والهمزة للتقرير، وذلك أنه قدم تعديد أسباب الفضل والتقدم عليهم من ملك مصر وجري الأنهار تحته، ونادى بذلك وملأ به مسامعهم، ثم قال: أنا خير كأنه يقول: أثبت عندكم واستقر أني أنا خير وهذه حالي (من هذا الذي هو مهين) أي ضعيف حقير. وقرئ: أما أنا خير ﴿ولا يكاد يبين﴾ الكلام لما به من الرتبة^(٢)، يريد: أنه ليس نفعه من العدد وآلات الملك والسياسة ما يعتضد به، وهو في نفسه مخل بما ينعت به الرجال من اللسن والفصاحة، وكانت الأنبياء كلهم أئنياء^(٣) بلغاء. وأراد بإلقاء الأسورة عليه: إلقاء مقاليد الملك إليه، لأنهم كانوا إذا أرادوا تسويد الرجل سوره بسوار وطقوه بطوق من ذهب ﴿مقترنين﴾ إما مقترنين به من قولك: قرنته فاقترن^(٤) به، وإما من: اقترنوا، بمعنى تقارنوا؛ لما وصف نفسه بالملك والعزة ووازن بينه وبين موسى صلوات الله عليه، فوصفه بالضعف وقلة الأعضاء اعترض فقال: هلا إن كان صادقا لمكدر به وسوده وسوره، وجعل الملائكة أعضاده وأنصاره. وقرئ: أساور جمع أسورة، وأساور جمع أسوار وهو السوار، وأسورة على تعويض التاء من ياء أساور. وقرئ: ألقى عليه أسورة وأساور، على البناء للفاعل، وهو الله عز وجل.

فَاسْتَحَفَّ قَوْمُهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِقِينَ ﴿٥٤﴾

(١) قوله: تلك الآهة، كسرة، كذا بهامش الصحاح. وفي الصحاح: دهماء الناس: جماعتهم. (ع)

(٢) قوله: لما به من الرتبة، بالضم: العجمة في الكلام، كذا في الصحاح. (غ)

(٣) قوله: وكانت الأنبياء كلهم أئنياء، في الصحاح: بان الشؤ. بيان: اتضح، فهو بين، والجمع أئنياء، مثل

هين وأهيناء. (ع)

(٤) قوله: «قرنته فاقترن به» لعله قرنته به فاقترن. (ع)

(فاستخف قومه) فاستفزه. وحقيقته: حملهم على أن يخفوا له ولما أراد منهم، وكذلك: استفز، من قولهم للخفيف: فز.

فَلَمَّا ءَاسَفُونَا أَتَتْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾

(آسفونا) منقول من أسف أسفا إذا اشتد غضبه. ومنه الحديث في موت الفجأة: رحمة للؤمن وأخذة أسف للكافر^(١). ومعناه: أنهم أفرطوا في المعاصي وعدوا طورهم، فاستوجبوا أن نجعل لهم عذابنا وانتقامنا، وأن لا نحلم عنهم. وقرئ: سلفا جمع سالف، تكادم وخدم. وسلفا - بضمين - جمع سليف، أى: فريق قد سلف. وسلفا: جمع سلفة، أى: ثلة قد سلفت. ومعناه: فجعلناهم قدوة للآخرين من الكفار، يقتدون بهم في استحقاق مثل عقابهم ونزوله بهم، لإتيانهم بمثل أفعالهم. وحديثاً عجيب الشأن سائراً مسير المثل، يحدثون به ويقال لهم: مثلكم مثل قوم فرعون.

وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا ءَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾

لما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على قريش (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) امتعضوا^(٢) من ذلك امتعاضاً شديداً، فقال عبد الله بن الزبيري: يا محمد، أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم؟ فقال عليه السلام: هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم، فقال: خصمتك ورب الكعبة، ألسنت تزعم أن عيسى ابن مريم نبي وتثنى عليه خيراً وعلى أمه، وقد علمت أن النصراني يعبدونهما. وعزير يعبد. والملائكة يعبدون، فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم، ففرحوا وضحكوا. وسكت النبي صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله تعالى (إن الذين سبقك لهم منا الحسنی) ونزلت هذه الآية. والمعنى: ولما ضرب عبد الله بن الزبيري عيسى ابن مريم مثلاً، وجادل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعبادة النصراني إياه (إذا قومك)

(١) تقدم في طه.

(٢) قوله «امتعضوا من ذلك» غضبوا منه وشق عليهم، كذا في الصحاح. (ع)

(٣) تقدم في أواخر الأنبياء.

قريش من هذا المثل (يصدون) ترتفع لهم جلبة وضجيج^(١) فرحاً وجزلاً وضحكاً بما سمعوا منه من إسكات رسول الله صلى الله عليه وسلم بجده ، كما يرتفع لفظ القوم ولجهم إذا تعيوا بحجة ثم قمت عليهم . وأما من قرأ : يصدون - بالضم - فن الصدود ، أى : من أجل هذا المثل يصدون عن الحق ويعرضون عنه . وقيل : من الصديد وهو الجلبة ، وأنهما لغتان نحو : يعكف ويعكف ونظائرهما (وقالوا آلهتنا خير أم هو) يعنون أن آلهتنا عندك ليست بخير من عيسى ، وإذا كان عيسى من حسب النار كان أمر آلهتنا هيناً (ماضربوه) أى ماضربوا هذا المثل (لك إلا جدلاً) إلا لأجل الجدل والغلبة فى القول ، لا لطلب الميزين الحق والباطل (بل هم قوم خصمون) لشداد الخصومة دأبهم اللجاج ، كقوله تعالى (قوما لدا) وذلك أن قوله تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله) ما أريد به إلا الأصنام ، وكذلك قوله عليه السلام : هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم ، إنما قصد به الأصنام ، ومحال أن يقصد به الأنبياء والملائكة ، إلا أن ابن الزبعرى بحبه وخداعه وخبت دخلته^(٢) ، لما رأى كلام الله ورسوله محتملاً لفظه وجه العموم ، مع علمه بأن المراد به أصنامهم لا غير ، وجد للحيلة مساعداً ، فصرف معناه إلى الشمول والإحاطة بكل معبود غير الله ، على طريقة المحك والجدال^(٣) وحب المغالبة والمكابرة ، وتوقع فى ذلك فتور رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أجاب عنه ربه : (إن الذين سبقتم مننا الحسن) فدل به على أن الآية خاصة فى الأصنام ، على أن الظاهر قوله (وما تعبدون) لغير العقلاء . وقيل : لما سمعوا قوله تعالى (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم) قالوا : نحن أهدى من النصارى ؛ لأنهم عبدوا آدمياً ونحن نعبد الملائكة ، فزلت . وقوله (آلهتنا خير أم هو) على هذا القول : تفضيل لآلهتهم على عيسى ؛ لأن المراد بهم الملائكة وما ضربوه لك إلا جدلاً . معناه : وما قالوا هذا القول ، يعنى : آلهتنا خير أم هو . إلا للجدال ، وقرئ : آلهتنا خير ، بإثبات همزة الاستفهام وإسقاطها ، لدلالة أم العديلة عليها . وفى حرف ابن مسعود : خير أم هذا . ويجوز أن يكون جدلاً حالاً ، أى : جدلين . وقيل : لما نزل (إن مثل عيسى عند الله) قالوا : ما يريد محمد بهذا إلا أن نعبده وأنه يستأهل أن يعبد وإن كان بشراً ، كما عبدت النصارى المسيح وهو بشر . ومعنى (يصدون) يضجون ويضجرون . والضجير فى (أم هو) لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وغرضهم بالموازنة بينه وبين آلهتهم : السخرية به والاستهزاء . ويجوز أن يقولوا - لما أنكر عليهم قولهم : الملائكة بنات الله وعبدوهم - ما قلنا بدعاً من القول ،

(١) قوله «ترتفع لهم جلبة وضجيج» أى صياح وكذا اللجب . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) قوله «وخبت دخلته» بالضم : باطن أمره . أفاده الصحاح ، (ع)

(٣) قوله «على طريقة المحك» أى : اللجاج ، كما فى الصحاح . (ع)

ولا فعلنا نكراً من الفعل ؛ فإن النصارى جعلوا المسيح ابن الله وعبدوه ، ونحن أشف^(١) منهم قولاً وفعلًا ، فإننا نسبنا إليه الملائكة وهم نسبوا إليه الاناسى ، ففيل لهم : مذهب النصارى شرك بالله ، ومذهبكم شرك مثله ، وما تنصلكم بما أنتم عليه بما أوردتموه إلا قياس باطل بباطل ، وما عيسى (إلا عبد) كسائر العبيد (أنعمنا عليه) حيث جعلناه آية : بأن خلقناه من غير سبب ، كما خلقنا آدم وشرفناه بالنبوة وصيرناه عبرة لعجبة كمثل السائر لبنى إسرائيل .

وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾

(ولو نشاء) لقدرتنا على عجائب الأمور وبدائع الفطر (لجعلنا منكم) لولدنا منكم يارجال (ملائكة) يخلفونكم في الأرض كما يخلفكم أولادكم ، كما ولدنا عيسى من أنثى من غير خل ، لتعرفوا تميزنا بالقدرة الباهرة ، ولتعلموا أن الملائكة أجسام لا تتولد إلا من أجسام ، وذات القديم متعالية عن ذلك .

وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنْ بِهَا وَاتَّبِعُونْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾

(وإنه) وإن عيسى عليه السلام (علم للساعة) أى شرط من أشرطها تعلم به ، فسمى الشرط علماً لحصول العلم به . وقرأ ابن عباس : لعلم ، وهو العلامة . وقرئ : العلم . وقرأ : أى : لذكر ، على تسمية ما يذكر به ذكراً ، كما سمي ما يعلم به علماً . وفى الحديث : أن عيسى عليه الصلاة والسلام ينزل على ثنية بالأرض المقدسة : يقال لها أفيق وعليه مصرتان ، وشعر رأسه ذهين ، ويده حربة ، وبها يقتل الدجال ، فيأتى بيت المقدس والناس فى صلاة الصبح والإمام يؤم بهم ، فيتأخر الإمام فيقدمه عيسى ويصلى خلفه على شريعة محمد عليه الصلاة والسلام ، ثم يقتل الخنازير ويكسر الصليب ، ويحرب البيعة والكنائس ، ويقتل النصارى إلا من آمن^(٢) به . وعن الحسن : أن الضمير للقرآن ، وأن القرآن به تعلم الساعة ، لأن فيه الإعلان بها (فلا تمترن بها) من المرية وهى الشك (واتبعون) واتبعوا هداى وشريعى . أو رسولى . وقيل : هذا أمر لرسول الله أن يقوله (هذا صراط مستقيم) أى هذا الذى أدعوكم إليه . أو هذا القرآن إن جعل الضمير فى (وإنه) للقرآن .

(١) قوله « ونحن أشف منهم » أى : أرق . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) أخرجه الثعلبى بغير سند . وهو موجود فى أحاديث متفرقة . فقوله « ثنية أفيق » عند الحاكم من حديث عثمان بن أبى العاص . وقوله « وعليه مصرتان » عند أحمد والحاكم من حديث أبى هريرة . وقوله « والناس فى صلاة الصبح » عند ابن ماجه من حديث أبى أسامة . وقوله « فيقتل الخنزير ويكسر الصليب » فى الصحيح من حديث أبى هريرة .

وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٢﴾

(عدو مبين) قد بان عداوته لكم^(١) : إذ أخرج أباكم من الجنة ونزع عنه لباس النور .
وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ
الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا^(٦٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ
هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا
مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ الْإِلْمِ ﴿٦٥﴾

(البينات) المعجزات . أو آيات الإنجيل والشرائع البينات الواضحات (بالحكمة) يعنى
الإنجيل والشرائع . فإن قلت : هلا بين لهم كل الذى يختلفون فيه ولكن بعضه ؟ قلت : كانوا
يختلفون فى الديانات وما يتعلق بالتكليف وفيما سوى ذلك مما لم يتعبدوا بمعرفته والسؤال عنه ،
وإنما بعث ليبين لهم ما اختلفوا فيه مما يعنيه من أمر دينهم (الأحزاب) الفرق المتحزبة بعد
عيسى وقيل : اليهود والنصارى (فويل للذين ظلموا) وعيد للأحزاب . فإن قلت : (من بينهم)
إلى من يرجع الضمير فيه ؟ قلت : إلى الذين خاطبهم عيسى فى قوله (قد جئتكم بالحكمة) وهم
قومه المبعوث إليهم .

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ الْأَخِلَّاءُ
يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ لِعِبَادٍ لَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ يُيَوْمُ وَلَا
أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا
الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ
وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَأْتَشْتَهُمُ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾
وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ
كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾

(١) قوله وقد بان عداوته لكم ، فى الصحاح «بان الشيء بياناه» : افضح فهو بين ، كذلك إبان فهو مبين . (ع)

(أَنْ تَأْتِيَهُمْ) بدل من الساعة . والمعنى : هل ينظرون إلا إتيان الساعة . فإن قلت : أما أدى قوله (بِقَتَّة) مؤذى قوله (وهم لا يشعرون) فيستغنى عنه ؟ قلت : لا ، لأن معنى قوله تعالى (وهم لا يشعرون) : وهم غافلون لا اشتغالهم بأمور دنياهم ، كقوله تعالى (تأخذهم وهم يخصمون) ويجوز أن تأتيمهم بفتة وهم فطنون (يومئذ) منصوب بعدق ، أى : تنقطع في ذلك اليوم كل خلة بين المتخالفين في غير ذات الله ، وتنقلب عداوة ومقتا ، إلا خلة المتصادقين في الله ، فإنها الخلة الباقية المزدادة قوة إذا رأوا ثواب التحاب في الله تعالى والتباغض في الله . وقيل (إلا المتقين) إلا المجتنبين أخلاء السوء . وقيل : نزلت في أبي بن خلف وعقبة ابن أبي معيط (يا عبادى) حكاية لما ينادى به المتقون المتحابون في الله يومئذ ، و (الذين آمنوا) منصوب المحل صفة لعبادى ، لأنه منادى مضاف ، أى : الذين صدقوا (بآياتنا وكانوا مسلمين) مخلصين وجوههم لنا ، جاعلين أنفسهم سالمة لطاعتنا . وقيل : إذا بعث الله الناس فزع كل أحد ، فينادى مناد : يا عبادى فيرجوها الناس كلهم ، ثم يتبعها الذين آمنوا فيبأس الناس منها غير المسلمين . وقرئ : يا عباد (تجبرون) تسرون سروراً يظهر حباره - أى : أثره - على وجوهكم ، كقوله تعالى (تعرف في وجوههم نضرة النعيم) وقال الزجاج : تكرمون إكراما يبالغ فيه . والخبرة : المبالغة فيما وصف بحميل . والكوب : السكوز لا عروة له (وفيها) الضمير للجنة . وقرئ : تشتهى وتشتهي . وهذا حصر لأنواع النعم ، لأنها إما مشتهاة في القلوب ، وإما مستلذة في العيون . (وتلك) إشارة إلى الجنة المذكورة . وهى مبتدأ ، و (الجنة) خبر . و (التي أورتتموها) صفة الجنة . أو الجنة صفة للببتدأ الذى هو اسم الإشارة . والتي أورتتموها : خبر المبتدأ . أو التي أورتتموها : صفة ، و (بما كنتم تعملون) الخبر ، والباء تتعلق بمحذوف كما في الظروف التي تقع أخبار . وفي الوجه الأول تتعلق بأورتتموها . وشبهت في بقائها على أهلها بالميراث الباقي على الورثة . وقرئ : ورتتموها (منها تأكلون) من التبويض ، أى : لا تأكلون إلا بعضها ، وأعقابها باقية في شجرها ، فهى مزينة بالثمار أبداً موقرة بها ، لا ترى شجرة عريانة من ثمرها كما في الدنيا . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : لا ينزع رجل في الجنة من ثمرها ^(١) إلا نبت مكانها مثلاًها . ^(٢)

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ

(١) قوله ومن ثمرها إلا نبت مكانها ، في الخازن : ورد في الحديث : أنه لا ينزع أحد في الجنة من ثمرها ثمرة

إلا نبت مكانها مثلاًها . (ع)

(٢) أخرجه البزار عن ثوبان . وقد تقدم في البقرة .

مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا بِمَلَائِكَةٍ
لِيَقْضِيَ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكْثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ
أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾

(لا يفتر عنهم) لا يخفف ولا ينقص، من قولهم: فترت عنه الحمى إذا سكنت عنه قليلا ونقص حرها. والمبلس: اليأس الساكت سكوت يأس من فرج. وعن الضحاك: يجعل المحرم في نابوت من نار ثم يردم عليه فيبقى فيه خالداً: لا يرى ولا يرى (هم) فصل عند البصريين، عماد عند الكوفيين. وقرئ: وهم فيها، أى: في النار (١) وقرأ على وابن مسعود رضي الله عنهما: يا مال، بحذف الكاف للترخيم، كقول القائل:

• وَالْحَقُّ يَا مَالٍ غَيْرَ مَا تَصِفُ • (٢)

وقيل لابن عباس: إن ابن مسعود قرأ: ونادوا يا مال، فقال: ما أشغل أهل النار عن الترخيم. (٣)
وعن بعضهم: حسن الترخيم أنهم يقتطعون بعض الاسم لضعفهم وعظم ما هم فيه. وقرأ أبو السرار الغنوي: يا مال، بالرفع كما يقال: يا حار (٤) (ليقض علينا ربك) من قضى عليه إذا أمانه (فوكزه موسى فقضى عليه) والمعنى: سل ربك أن يقضى علينا. فإن قلت: كيف قال (ونادوا يا مالك) بعد ما وصفهم بالإبلاس؟ قلت: تلك أزمنة متطاولة وأحقاب ممتدة، فتختلف بهم الأحوال فيسكتون أوقاتاً لغلبة اليأس عليهم، وعلمهم أنه لا فرج لهم، ويفوتون (٥)
أوقاتاً لشدة ما بهم (ما كثون) لا بثون. وفيه استهزاء. والمراد: خالدون. عن ابن عباس رضي الله عنهما: إنما يجيبهم بعد ألف سنة. (٦) وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «يلقى على أهل

(١) قوله «وقرئ» (وهم فيها) أى في النار» لعل تأخير الكلام على هذه القراءة عن الكلام على الضمير السابق من تصرف الناسخ. لأنه مخالف لترتيب التلاوة. (ع)

(٢) يحبي رفات العظام بالية والحق يا مال غير ما تصف
أى: يحبي الله المنتفت من العظام حال كونها بالية، يقال: رفته رفقا، إذا فتنه. والرفات: اسم منه كالفتات، قال: والحق غير ما تذكره يا مالك، فرخه بحذف الكاف، كأنه كان أخبره بموت أحد ثم ظهرت حياته.

(٣) لم أجده باسناد. وفي البخاري عن يعلى بن أمية «أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأها كذلك».

(٤) قوله «كما يقال يا حار» في نداء حارث. (ع)

(٥) قوله «يفوتون»، في الصحاح «غوث الرجل»: قال واغوثاه. (ع)

(٦) أخرجه الحاكم من رواية سفيان عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله (ونادوا يا مالك) قال: مكث عنهم ألف سنة ثم يقول: إنكم ما كثون، وروى الترمذي من رواية قطبة بن عبد العزيز عن

النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب ، فيقولون : ادعوا مالكا ، فيدعون يا مالكا ليقض علينا ربك ^(١) . ﴿لقد جئناكم بالحق﴾ كلام الله عز وجل : بدليل قراءة من قرأ : لقد جئكم . ويجب أن يكون في قال ضمير الله عز وجل . لما سألوها مالكا أن يسأل الله تعالى القضاء عليهم : أجابهم الله بذلك ﴿كارهون﴾ لا تقبلونه وتنفرون منه وتشمئزون منه ؛ لأن مع الباطل الدعة ، ومع الحق التعب .

أَمْ أَرْمُوا أُمَّرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾

﴿أم﴾ أرموا مشركو مكة ﴿أمرًا﴾ من كيدهم ومكرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿فإننا مبرمون﴾ كيدنا كما أرموا كيدهم ؛ كقوله تعالى ﴿أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون﴾ ؛ وكانوا يتنادون فيتناجون في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإن قلت : ما المراد بالسر والنجوى ؟ قلت : السر ما حدث به الرجل نفسه أو غيره في مكان خال . والنجوى : ما تكلموا به فيما بينهم ﴿بلى﴾ نسمعهما ونطلع عليهما ﴿ورسلنا﴾ يريد الحفظة عندهم ﴿يكتبون﴾ ذلك . وعن يحيى بن معاذ الرازي : من ستر من الناس ذنوبه وأبداها للذي لا يخفى عليه شيء في السموات فقد جعله أهون الناظرين إليه ، وهو من علامات النفاق .

قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَسِيدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾

﴿قل إن كان للرحمن ولد﴾ وصح ذلك وثبت برهان صحيح تورودونه وحجة واضحة تدلون بها ﴿فإننا أول﴾ من يعظم ذلك الولد وأسبقكم إلى طاعته والالتقياد له ^(٢) . كما يعظم الرجل

== الأعمش عن سمرة بن عطية عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يلقي على أهل النار الجوع فيعدل ما هم فيه من العذاب فيستغيثون . فيناثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يفتنى من جوع . الحديث : وفيه قال الأعمش بين أن يقول عليهم وإجابة مالكا ألف عام . وقال الترمذي : قطبة حمدة . وبعض أهل الحديث كان يرفع هذا . وهذا أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب ورواه الطبري من رواية شريك عن الأعمش موقوف ولم يفصل الكلام الأخير . ثم رواه من طريق قطبة مرفوعا ؛ ولم يفعل أيضا (١) هو في الحديث الذي قبله .

(٢) قال محمود : د معناه إن صح وثبت برهان قاطع ، فإننا أول من يعظم ذلك الولد وأسبقكم إلى طاعته والالتقياد له ... الخ . قال أحمد : لقد اجترأ عظميا وافتحم مهلكة في تمثيله ذلك بقول من سماه عدليا : إن كان الله خالفا للكفر في القلوب ومعذبا عليه فإننا أول القائلين إنه شيطان وليس باله ، فليقم عليه ذلك بقول القائل : قد ==

ولد الملك لتعظيم أبيه ، وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل لغرض ، وهو المبالغة في نفي الولد والإطتاب فيه ، وأن لا يترك الناطق به شبهة إلا مضمحلة مع الترجمة عن نفسه بثبات القدم في باب التوحيد ، وذلك أنه علق العبادة بكيثونة الولد وهي محال في نفسها ، فكان المعلق بها محالاً مثلها ، فهو في صورة إثبات الكيثونة والعبادة ، وفي معنى نفهما على أبلغ الوجوه وأقواها . ونظيره أن يقول العدلي للجبر^(١) . إن كان الله تعالى خالقاً للكفر في القلوب ومعذبا عليه عذاباً سرمداً ، فأنا أول من يقول : هو شيطان وليس بإله ؛ فنعني هذا الكلام وما وضع له أسلوبه ونظمه نفي أن يكون الله تعالى خالقاً للكفر ، وتنزيهه عن ذلك وتقديسه ، ولكن على طريق المبالغة فيه من الوجه الذي ذكرنا ، مع الدلالة على سماجة المذهب وضلالة الذاهب إليه ، والشهادة القاطعة بإحاطته والإفصاح عن نفسه بالبراءة منه ، وغاية النفاذ والاشتمزاز من ارتكابه . ونحو هذه الطريقة قول سعيد بن جبير رحمه الله للحجاج حين قال له : أما والله^(٢) لا بد لك بالدنيا ناراً تظي - لو عرفت أن ذلك إليك ما عبدت إلهاً غيرك . وقد تحمل الناس بما أخرجوه به من هذا الأسلوب الشريف المليء بالتهكيت والفوائد المستقلة بإثبات التوحيد على أبلغ وجوهه ، فقيل : إن كان للرحمن ولد في زعمكم ، فأنا أول العابدين الموحدين لله ، المكذبين قولكم بإضافة الولد إليه . وقيل : إن كان للرحمن ولد في زعمكم فأنا أول الآتفين من أن يكون له ولد من عبد يعبد : إذا اشتد أنفه فهو عبد وعابد . وقرأ بعضهم : العبدن . وقيل : هي إن النافية ، أي : ما كان للرحمن ولد ، فأنا أول من قال بذلك وعبد ووجد . وروى أن النضر بن عبد الدار بن قصي قال : إن الملائكة بنات الله فنزلت ، فقال النضر : ألا ترون أنه قد صدقني . فقال له الوليد بن المغيرة : ما صدقك ولكن قال : ما كان للرحمن ولد فأنا أول الموحدين من أهل مكة : أن لا ولد له . وقرئ : ولد ، بضم الواو . ثم زه ذاته موصوفة بربوبية السموات والأرض والعرش عن اتخاذ الولد ، ليدل على أنه من صفة الأجسام .

== ثبت قطعاً عقلاً وشرعاً أنه تعالى خالق لذلك في القلوب كما خلق الإيمان ، وفاء بمقتضى دليل العقل الدال على أن لا خالق إلا الله ، وتصديقاً بمضمون قوله تعالى (هل من خالق غير الله) وقوله (الله خالق كل شيء) وإذا ثبتت هذه المقدمة عقلاً ونقلاً : لزومه فرك أذنه وغل عنقه ، إذ يلحد في الله إلحاداً لم يسبقه إليه أحد من عباده الكفرة ، ولا تنجراً عليه مارد من مردة الفجرة . ومن خالف في كفر القدريه فقد وافق على كفر من تنجراً فقال هذه المقالة واتهم هذه الضلالة بلا عالة ، فانه قد صرح بكلمة الكفر على أفبح وجوهها وأشنع أمثالها : والله المسئول أن يعصنا وهو حسبنا ونعم الوكيل .

(١) قوله ونظيره أن يقول العدلي للجبر . يريد : أحد المعتزلة لأحد أهل السنة ، وفي هذا التنظير من سوء الأدب في حق تعالى ما لا يخفى . (ع)

(٢) قوله وقال له : أما والله في الصراح : وأما غنغف تحقيق الكلام الذي يتلوه . ولعل حذف الألف لئلا ، فليحذر . (ع)

ولو كان جسما لم يقدر على خلق هذا العالم وتدير أمره .

فَذَرُّهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴿٨٣﴾

(فذرهم يخوضوا) في باطلهم (ويلعبوا) في دنياهم (حتى يلاقوا يومهم) وهذا دليل على أن ما يقولونه من باب الجهل والخوض واللعب ، وإعلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم من المطبوع على قلوبهم الذين لا يرجعون البتة ، وإن ركب في دعوتهم كل صعب وذلول ، وخذلان لهم وتحلية بينهم وبين الشيطان ، كقوله تبارك تعالى (اعملوا ما شئتم) وإبعاد بالشقاء في العاقبة ،

وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾
وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ
وَالِيهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾

ضمن اسمه تعالى معنى وصف ، فلذلك علق به الظرف في قوله (في السماء) (وفي الأرض) (٨٣) كما تقول ، هو حاتم في طي حاتم في تغلب ، على تضمين معنى الجواد الذي شهر به ، كأنك قلت : هو جواد في طي جواد في تغلب . وقرئ : وهو الذي في السماء الله وفي الأرض الله . ومثله قوله تعالى (وهو الله في السموات وفي الأرض) كأنه ضمن معنى المعبود أو المالك أو نحو ذلك . والراجع إلى الموصول محذوف لطول الكلام ، كقولهم : ما أنا بالذي قاتل لك شيئا ، وزاده طولا أن المعطوف داخل في حيز الصلة . ويحتمل أن يكون (في السماء) صلة الذي وإله خبر مبتدأ محذوف ، على أن الجملة بيان للصلة . وأن كونه في السماء على سبيل الإلهية والربوبية ، لأعلى معنى الاستقرار . وفيه نبي الآلهة التي كانت تعبد في الأرض (ترجعون) قرئ : بضم التاء وفتحها . ويرجعون ، بياء مضمومة . وقرئ : تحشرون ، بالثاء .

وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنْ شِئِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾

(١) قال مجاهد : «ضمن اسمه عز وجل معنى وصف ، فعلق به الظرف ، وهو قوله (في السماء) ... الخ» قال أحد : «وما سهل حذف الراجع مضافا إلى الطول الذي ذكره : وقوع الموصول خبرا عن مضمحل لو ظهر الراجع لكان كالتكرار المستكره ، إذ كان أصل الكلام : وهو الذي هو في السماء إله . ولا ينكر أن الكلام مع المحذوف الراجع أخف وأسهل ، وأن الراجع إنما حذف على فلة حذف مثله لأمر متأكد ، فإنه لم يرد في الكتاب العزيز إلا في قوله (تماما على الذي أحسن) ومع أي في موضعين على رأى .

ولا يملك آلهتهم الذين يدعون من دون الله الشفاعة، كما زعموا أنهم شفعاءهم عند الله، ولكن من ﴿شهد بالحق﴾ وهو توحيد الله، وهو يعلم ما يشهد به عن بصيرة وإيقان وإخلاص: هو الذى يملك الشفاعة، وهو استثناء منقطع. ويجوز أن يكون متصلاً؛ لأنّ في جملة الذين يدعون من دون الله: الملائكة، وقرئ: تدعون بالثناء. وتدعون، بالثناء وتشديد الدال.

وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ

فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

﴿وقيله﴾ قرئ بالحرركات الثلاث، وذكر في النصب عن الاختفاء أنه حملة على: أم يحسبون أم لا نسمع سرهم ونجواهم وقيله: وعنه: وقال قيله. وعطفه الزجاج على محل الساعة، كما تقول: عجب من ضرب زيد وعمراً، وحمل الجز على لفظ الساعة، والرفع على الابتداء، والخبر ما بعده: وجوز عطفه على علم الساعة على تقدير حذف المضاف. معناه: عنده علم الساعة وعلم قيله. والذي قالوه ليس بقوى في المعنى مع وقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه مما لا يحسن اعتراضاً، ومع تنافر النظم. وأقوى من ذلك وأوجه: أن يكون الجز والنصب على إضمار حرف القسم وحذفه، والرفع على قولهم: آمين الله، وأمانة الله، ويمين الله، ولعمرك: ويكون قوله ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ جواب القسم، كأنه قيل: وأقسم بقيله يارب. أو وقيله يارب قسمي إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿فأصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ فأعرض عن دعوتهم يائساً عن إيمانهم، وودعهم وتاركهم، ﴿وقل﴾ لهم ﴿سَلَامٌ﴾ أى تسلم منكم ومتاركك ﴿فسوف يعلمون﴾ وعيد من الله لهم وتسلياً لرسوله صلى الله عليه وسلم. والضمير في ﴿وقيله﴾ لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وإقسام الله بقيله رفع منه وتعظيم لدعائه والتجائه إليه.

عن النبي صلى الله عليه وسلم ومن قرأ سورة الزخرف كان من يقال له يوم القيامة يا عبادى لاخوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون. ادخلوا الجنة بغير حساب،^(١)

(١) أخرجه الطبري وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب رضى الله عنه.

سورة الدخان

مكية ، إلا قوله (إنا كاشفوا العذاب قليلا ... الآية)

وهي سبع وخمسون آية . وقيل تسع وخمسون [نزلت بعد سورة الزخرف]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم ١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ إنا أنزلناه في ليلة مُبَرَكَةٍ إنا كنا مُنْذِرِينَ ٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ٤ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إنا كنا مُرْسِلِينَ ٥ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٦ رَبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ٧ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ٨

الواو في (والكتاب) واو القسم ، إن جعلت حم تعدداً للحروف أو اسما للسورة ، مرفوعا على خبر الابتداء المحذوف وواو العطف إن كانت حم مقسما بها . وقوله (إنا أنزلناه) جواب القسم ، والكتاب المبين القرآن . والليلة المباركة : ليلة القدر . وقيل : ليلة النصف من شعبان ، ولها أربعة أسماء : الليلة المباركة ، وليلة البراءة ، وليلة الصك ، وليلة الرحمة . وقيل : بينها وبين ليلة القدر أربعون ليلة . وقيل في تسميتها : ليلة البراءة . والصك : أن البندار إذا استوفى الخراج من أهله كتب لهم البراءة ، كذلك الله عز وجل يكتب لعباده المؤمنين البراءة في هذه الليلة . وقيل : هي مختصة بخمس خصال : تفريق كل أمر حكيم وفضيلة العبادة فيها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صلى في هذه الليلة مائة ركعة أرسل الله إليه مائة ملك : ثلاثون يبشرونه بالجنة ، وثلاثون يؤمنونه من عذاب النار ، وثلاثون يدفعون عنه آفات الدنيا . وعشرة يدفعون عنه مكاييد الشيطان » . ونزول الرحمة : قال عليه الصلاة والسلام : « إن الله يرحم أمي »^(١) في هذه

(١) ذكره صاحب الفردوس من حديث ابن عمر مكذا وأخرجه أبو الفتح - لم يبن أيوب في التزغيب له من رواية جعفر بن محمد عن أبيه عن علي موقوفا . وأخرجه ابن الأختار من رواية جعفر المدائني عن أبي يحيى العتابي حدثني بضعة وثلاثون من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال - فذكره

(٢) قوله « يرحم أمي في هذه الليلة » لعله : من أمي . (ع)

الليلة بعدد شعر أغنام بني كلب^(١)، وحصول المغفرة: قال عليه الصلاة والسلام: «إن الله تعالى يغفر لجميع المسلمين في تلك الليلة إلا لساكن أو ساحر أو مشاحن أو مدمن خمر أو عاق للوالدين، أو مصرّ على الزنا»^(٢) وما أعطى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم من تمام الشفاعة، وذلك أنه سأل ليلة الثالث عشر من شعبان في أمته، فأعطى الثلث منها، ثم سأل ليلة الرابع عشر فأعطى الثلثين، ثم سأل ليلة الخامس عشر فأعطى الجميع، إلا من شرد عن الله شراد البعير. ومن عادة الله في هذه الليلة: أن يزيد فيها ماء زمزم زيادة ظاهرة، والقول الأكثر: أن المراد بالليلة المباركة: ليلة القدر، لقوله تعالى (إنا أنزلناه في ليلة القدر) ولمطابقة قوله: (فيها يفرق كل أمر حكيم) لقوله: (تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر) وقوله تعالى (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن) وليلة القدر في أكثر الأقاويل في شهر رمضان. فإن قلت: ما معنى إنزال القرآن في هذه الليلة؟ قلت: قالوا أنزل جملة واحدة من السماء السابعة إلى السماء الدنيا، وأمر السفرة الكرام بانتساخه في ليلة القدر. وكان جبريل عليه السلام ينزله على رسول الله صلى الله عليه وسلم نجوماً نجوماً. فإن قلت: (إنا كنّا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم) ماموقع هاتين الجملتين؟ قلت: هما جملتان مستأنفتان ملفوفتان^(٣). فسر بهما جواب القسم الذي هو قوله تعالى (إنا أنزلناه في ليلة مباركة) كأنه قيل: أنزلناه، لأن من شأننا الإنذار والتحذير من العقاب، وكان إنزالنا إياه في هذه الليلة خصوصاً؛ لأن إنزال القرآن من الأمور الحكيمة، وهذه الليلة مفرق كل أمر حكيم. والمباركة: الكثيرة الخير لما يتيسر^(٤) الله فيها من الأمور التي يتعلق بها منافع العباد في دينهم ودنياهم، ولولم يوجد فيها إلا إنزال القرآن وحده لكفى به بركة. ومعنى (يفرق) يفصل ويكتب كل أمر حكيم من أرزاق العباد وآجالهم، وجميع أمورهم منها إلى

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث عائشة مرفوعاً وإن الله ينزل ليلة النصف من شعبان إلى سماء الدنيا. فيغفر لأكثر من عدد شعر غنم كلب. قال الترمذي: لا نعرفه إلا من حديث الحجاج؟ وسمعت محمداً يضعفه. وقال: ابن يحيى لم يسمع من عروة، والحجاج لم يسمع من يحيى، وفي الباب عن أنس عن عائشة في الدعوات للبيهقي. وفي روايته بمجاهيل. ومن وجه آخر عن عائشة في الأفراد للدارقطني. وفيه عطاء بن عجلان. وهو متروك.

(٢) لم أجده هكذا. وفي ابن حبان من حديث معاذ بن جبل وقال يطلع إلى خلقه ليلة النصف من شعبان فيغفر لجميع خلقه إلا لمشرك أو مشاحن. وفي ابن ماجه من حديث أبي موسى كذلك. والبراز من حديث أبي بكر وفي إسناده ضعف والبراز أيضاً من حديث عوف بن مالك. وفيه ابن لمبة. ومن حديث أبي هريرة وفيه من لا يعرف. ورواه البيهقي في الشعب من حديث أبي سعيد عن عائشة. وفيها لا ينظر الله فيها إلى مشرك ولا إلى مشاحن ولا إلى قاطع رحم ولا إلى عاق ولا إلى مدمن خمر وفي رواية أنس عن عائشة التي ذكرناها في التي قبلها والمدمن والماع والمصر على الزنا وزادوا: ولا مصور ولا قنار.

(٣) قوله «ملفوفتان» لعله من اللف والنشر المقرر في البيان، وبيانه ما بعده. (ع)

(٤) قوله «لما يتيسر» أي يقدر. (ع)

الأخرى القابلة . وقيل : يبدأ في استنساخ ذلك من اللوح المحفوظ في ليلة البراءة ، ويقع الفراغ في ليلة القدر ، فتدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل ، ونسخة الحروب إلى جبريل ، وكذلك الزلازل والصواعق والخسف ، ونسخة الأعمال إلى إسماعيل صاحب سماء الدنيا وهو ملك عظيم ونسخة المصائب إلى ملك الموت . وعن بعضهم : يعطى كل عامل بركات أعماله ، فيلقى على السنة الخلق مدحه ، وعلى قلوبهم هيئته . وقرئ : (يفرق) بالتشديد . و (يفرق) كل على بنائه للفاعل ونصب كل ، والفارق : الله عز وجل ، وقرأ زيد بن علي رضي الله عنه : نفرق ، بالنون ، كل أمر حكيم : كل شأن ذي حكمة ، أى : مفعول على ما تقتضيه الحكمة ، وهو من الإسناد المجازى ؛ لأن الحكيم صفة صاحب الأمر على الحقيقة ، ووصف الأمر به مجاز (أمراً من عندنا) نصب على الاختصاص . جعل كل أمر جزلاً لئلا يأن وصفه بالحكيم ، ثم زاده جزالة وكتبه غمامة بأن قال : أعنى هذا الأمر أمراً حاصلًا من عندنا ، كائناً من لدا ، وكما اقتضاه علمنا وتديرنا . ويجوز أن يراد به الأمر الذى هو ضد النهى ، ثم إما أن يوضع موضع فرقانا الذى هو مصدر يفرق ، لأن معنى الأمر والفرقان واحد ، من حيث أنه إذا حكم بالشئ وكتبه فقد أمر به وأوجبه . أو يكون حالاً من أحد الضميرين في أنزلناه : إما من ضمير الفاعل ، أى : أنزلناه أمرين أمراً . أو من ضمير المفعول أى أنزلناه في حال كونه أمراً من عندنا بما يجب أن يفعل فإن قلت : (إنا كنا مرسلين رحمة من ربك) بهم يتعلق ؟ قلت : يجوز أن يكون بدلاً من قوله (إنا كنا منذرين) و (رحمة من ربك) مفعولاً له ، على معنى : إنا أنزلنا القرآن ؛ لأن من شأننا إرسال الرسل بالسكتب إلى عبادنا لأجل الرحمة عليهم ، وأن يكون تعليلاً ليفرق . أو لقوله (أمراً من عندنا) ورحمة : مفعولاً به ، وقد وصف الرحمة بالإرسال كما وصفها به في قوله تعالى (وما يمسك فلا يرسل له من بعده) أى يفصل في هذه الليلة كل أمر . أو تصدر الأوامر من عندنا ؛ لأن من عادتنا أن نرسل رحمتنا . وفصل كل أمر من قسمة الأرزاق وغيره من باب الرحمة ؛ وكذلك الأوامر الصادرة من جهته عز وعلا ؛ لأن الغرض في تكليف العباد تعريضهم للنافع . والأصل : إنا كنا مرسلين رحمة منا ، فوضع الظاهر موضع الضمير إيذاناً بأن الربوبية تقتضى الرحمة على المربوبين ، وفي قراءة زيد بن علي : أمر من عندنا ، على : هو أمر ، وهى تنصر انتصابه على الاختصاص . وقرأ الحسن : رحمة من ربك ، على : تلك رحمة ، وهى تنصرت انتصابها بأنها مفعول له (إنه هو السميع العليم) وما بعده تحقيق لربوبيته ، وأنها لا تنحى إلا لمن هذه أوصافه . وقرئ : رب السموات ... ربكم ورب آبائكم ، بالجر بدلاً من ربك . فإن قلت : ما معنى الشرط الذى هو قوله (إن كنتم موقنين) ؟ قلت : كانوا يقولون بأن للسموات والأرض رباً وغالفاً ، فقبل لهم : إن إرسال الرسل وإنزال الكتب رحمة من الرب ، ثم قيل : إن هذا

الرب هو السميع العليم الذى أتم مقرون به ومعترفون بأنه رب السموات والأرض وما بينهما إن كان إقراركم عن علم وإيقان، كما تقول : إن هذا الإنعام زيد الذى تسمع الناس بكرمه واشتهر وإحفاؤه إن بلفك حديثه وحدثت بقصته .

بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ٩ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ١٠
يُغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ١١ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ١٢

ثم رد أن يكونوا موقنين بقوله ﴿ بل هم في شك يلعبون ﴾ وأن إقرارهم غير صادر عن علم ويقين، ولا عن جد وحقيقة : بل قول مخلوط بهز ولعب ﴿ يوم تأتي السماء ﴾ مفعول به مرتقب . يقال : رقبته وارقبته . نحو : نظرتُه وانتظرتُه . واختلف في الدخان : فعن علي بن أبي طالب رضى الله عنه وبه أخذ الحسن : أنه دخان يأتي من السماء قبل يوم القيامة يدخل في أسماع الكفرة، حتى يكون رأس الواحد منهم كالرأس الحنيد ^(١)، ويعترى المؤمن منه كهينة الزكام، وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه ليس فيه خصاص ^(٢). وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أول الآيات : الدخان، ونزول عيسى ابن مريم، ونار تخرج من قعر عدن أبين ^(٣) تسوق الناس إلى المحشر ^(٤) . وقال حذيفة : يا رسول الله، وما الدخان ؟ فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية وقال : ديملا ما بين المشرق والمغرب بمكث أربعين يوما وليلة . أما المؤمن فيصيبه كهينة الزكمة، وأما الكافر فهو كاسكران يخرج من منخرية وأذنيه ودبره، وعن ابن مسعود رضى الله عنه : خمس قد مضت : الروم، والدخان، والقمر، والبطشة . والزام . ويروى أنه قيل لابن مسعود : إن قاصا عند أبواب كندة يقول : إنه دخان يأتي يوم القيامة فيأخذ بأنفاس الحاق، فقال : من علم علما فليقل به، ومن لم يعلم فليقل : الله أعلم، فإن من علم الرجل أن يقول لشيء لا يعلمه : الله أعلم، ثم قال : ألا وسأحدثكم أن قريشا لما استعصت على رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا عليهم فقال : اللهم اشد وطأتك على مضر، ^(٥)

(١) قوله «كالرأس الحنيد» أى المخوى، كما في الصحاح . (ع)

(٢) قوله «ليس فيه خصاص» أى : فرج . أفاده الصحاح . (ع)

(٣) قوله «أبين» في الصحاح : «أبين» : اسم رجل نسب إليه عدن . (ع)

(٤) هذا أولى . وفي إسناده رواه ابن الجراح وهو متروك . وقد اعترف بأنه لم يسمع هذا الحديث .

(٥) متفق عليه دون قوله «حتى أكلوا الجيف والعلهز» وقد رواه النسائي والحاكم والطبراني من حديث ابن عباس قال «جاء أبوسفیان إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أنشدك الله والرحم لقد أكلنا العلهز يعنى الوبر والهم فأنزله الله (ولقد أخذناهم بالعذاب - الآية) .

واجعلها عليهم سنين كسني يوسف ، فأصابهم الجهد حتى أكلوا الجيف ^(١) والعلهز ، وكان الرجل يرى بين السماء والأرض الدخان ، وكان يحدث الرجل ^(٢) فيسمع كلامه ولا يراه من الدخان ، فشى إليه أبو سفيان ونفر معه وناشدوه الله والرحم وواعدوه إن دعا لهم وكشف عنهم أن يؤمنوا ، فلما كشف عنهم رجعوا إلى شركهم ^(٣) (بدخان مبین) ظاهر حاله لا يشك أحد في أنه دخان ^(٤) (يفشى الناس) يشملهم ويلبسهم ، وهو في محل الجر صفة لدخان . و ^(٥) (هذا عذاب) إلى قوله (مؤمنون) منصوب المحل بفعل مضمر ، وهو : يقولون . ويقولون : منصوب على الحال ، أى : قائلين ذلك . (إنما مؤمنون) موعدة بالإيمان إن كشف عنهم العذاب .

أَنِّي لَأَكْرِي وَفَدَّ جَاهَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ^(١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ
مُتَجَنِّفٌ ^(١٤) إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ^(١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ
الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ^(١٦)

(أنى لهم الذكرى) كيف يذكرون ويتعظون ويفنون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب (وقد جاءهم) ما هو أعظم وأدخل في وجوب الذاكرة من كشف الدخان ، وهو ما ظهر على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الآيات اليبينات من الكتاب المعجز وغيره من المعجزات ، فلم يذكروا وتولوا عنه ، وبهتوه ^(١) بأن عداسا غلاما أعجميا لبعض ثقيف هو الذى عليه ، ونسبوه إلى الجنون ، ثم قال ^(٢) (إننا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون) أى ريثما نكشف عنكم العذاب تعودون إلى شرككم لا تلبثون غيب الكشف على ما أنتم عليه من التضرع والابتهال . فإن قلت : كيف يستقيم على قول من جعل الدخان قبل يوم القيامة قوله (إننا كاشفوا العذاب قليلا) ؟ قلت : إذا أتت السماء بالدخان تنصور ^(٣) المعذبون به من الكفار والمنافقين وغوثوا وقالوا (ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون) منيبون ، فيكشفه الله عنهم بعد أربعين يوما ، فريثما يكشفه عنهم يرتدون لا يتمهلون ، ثم قال : ^(٤) (يوم نبطش البطشة الكبرى) يريد

(١) قوله «حتى أكلوا الجيف والعلهز» في الصحاح «العلهز» - بالكسر - : طعام كانوا يتخذونه من الدم ووبر البعير في زمن الجحاجة . (ع)

(٢) قوله «وكان يحدث الرجل فيسمع» لعله : يحدث الرجل الرجل ، ويمكن أن يجعل الفاعل ضميراً يعود

على الرجل السابق . (ع)

(٣) قوله «تولوا عنه وبهتوه» رموه بما ليس فيه والتفويت قولها : وأغوثاه ، كما في الصحاح أيضاً . (ع)

(٤) قوله «تنصور المعذبون به» التنصور : الصياح والتلوى عند الألم . أفاده الصحاح . (ع)

(١٨ - كشف ٤)

يوم القيامة ، كقوله تعالى (فإذا جاءت الطامة الكبرى) . (إنا منتقمون) أى ننتقم منهم فى ذلك اليوم . فإن قلت : هم اتصّب يوم نبطش ؟ قلت : بما دل عليه (إنا منتقمون) وهو ننتقم . ولا يصح أن ينتصّب منتقمون ، لأن ، إن ، تجب عن ذلك . وقرئ : نبطش ، بضم الطاء . وقرأ الحسن : نبطش بضم النون ، كأنه يحمل الملازمة على أن يبطشوا بهم البطشة الكبرى . أو يجعل البطشة الكبرى باطشة بهم . وقيل (البطشة الكبرى) : يوم بدر .

وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَذُوا إِلَىٰ
عِبَادِ اللَّهِ إِنَّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنى ءَاتِيكُمْ
بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنى عُذْتُ بِرَبّى وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَمْ
تُؤْمِنُوا لى فَاَعْتَرِزُونِ ﴿٢١﴾

وقرئ : ولقد فتنا ، بالتشديد للتأكيد . أو لوقوعه على القوم . ومعنى الفتنة : أنه أمهلهم ووسع عليهم فى الرزق ؛ فكان ذلك سببا فى ارتكابهم المعاصى واقترافهم الاثام . أو ابتلاهم بإرسال موسى إليهم ليؤمنوا ، فاختاروا الكفر على الإيمان . أو سلّهم ملكهم وأغرقهم (كريم) على الله وعلى عباده المؤمنين . أو كريم فى نفسه ، لأن الله لم يبعث نبيا إلا من سراة قومه وكرامهم (أن أذوا إلى) هى أن المفسرة ، لأن بحى . الرسول من بعث إليهم متضمن لمعنى القول لأنه لا يجيئهم إلا مبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله . أو المخففة من الثقيلة ومعناه : وجاءهم بأن الشأن والحديث أذوا إلى (وعباد الله) مفعول به وهم بنو إسرائيل ، يقول : أذوهم إلى وأرسلوهم معى ، كقوله تعالى (أرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم) ويجوز أن يكون نداء لهم على : أذوا إلى يا عباد الله ما هو واجب لى عليكم من الإيمان لى وقبول دعوتى واتباع سبيلى ، وعلل ذلك بأنه (رسول أمين) غير ظنين قد اتتمنه الله على وحيه ورسالته (وأن لا تعلوا) أن هذه مثل الأولى فى وجهها ، أى : لا تستكبروا (على الله) بالاستهانة برسوله ووحيه . أو لا تستكبروا على نبي الله (سلطان مبين) بجملة واضحة (أن ترجون) أن تقتلون . وقرئ : عت ، بالإدغام . ومعناه أنه عائد بربه متكل على أنه يعصمه منهم ومن كيدهم ، فهو غير مبال بما كانوا يتوعدونه به من الرجم والقتل (فاعتزلون) يريد : إن لم تؤمنوا لى فلا موالاة بينى وبين من لا يؤمنوا ، فتنموا عنى واقطعوا أسباب الوصلة عنى ، أى : غفلونى كغافا لالى ولا على ، ولا تعرضوا لى بشركم وأذاكم ؛ فليس جزاء من دعاكم إلى ما فيه فلاحكم ذلك .

فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ مَوَلَاءَ قَوْمٍ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَمِيرٌ بَعَادَى لَيْلًا إِنَّكُمْ

مُتَّبِعُونَ ﴿٢٣﴾ وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّفْرَقُونَ ﴿٢٤﴾

(أن هؤلاء) بأن هؤلاء ، أى : دعا ربه بذلك . قيل : كان دعاؤه : اللهم عجل لهم ما يستحقونه بإجرامهم : وقيل هو قوله (ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين) وإنما ذكر الله تعالى السبب الذى استوجبوا به الهلاك ، وهو كونهم مجرمين . وقرئ : إن هؤلاء ، بالكسر على إضمار القول ، أى : فدعا ربه فقال : إن هؤلاء (فأسر) قرئ بقطع الهمزة من أسرى ، ووصلها من سرى . وفيه وجهان : إضمار القول بعد الفاء ، فقال : أسر بعبادى . وأن يكون جواب شرط محذوف ، كأنه قيل : قال إن كان الأمر كما تقول فأسر (بعبادى) يعنى : فأسر بنى إسرائيل ، فقد دبر الله أن تتقدموا ويتبعكم فرعون وجنوده ، فينجى المتقدمين ويفرق التابعين . الره هو فيه وجهان أحدهما : أنه الساكن . قال الأعشى :

يَمْشِينَ رَهَوًا فَلَا الْأَعْجَازُ خَاذِلَةٌ وَلَا الصُّدُورُ عَلَى الْأَعْجَازِ قَتِكِلٌ ^(١)

أى مشياً ساكناً على هيئة . أراد موسى لما جاوز البحر أن يضربه بعصاه فينطبق ، كما ضربه فانطلق ، فأمر بأن يتركه ساكناً على هيئته ، قازاً على حاله : من انتصاب الماء ، وكون الطريق يبساً لا يضربه بعصاه ولا يغير منه شيئاً ليدخله القبط ، فإذا حصلوا فيه أطبقه الله عليهم . والثانى :

(١) يمشين رهوآ فلا الأعجاز خاذلة ولا الصدور على الأعجاز تتكل
فهن معترضات والحصى رهض والريح ساكنة والظل معتدل
يتبعن سامة العينين تحسبها مجنونة أو ترى ما لا ترى الابل
تهدى لنا كلما كانت علاوتنا ريح الخزامى جرى فيها الندى الحصل

للقطاف ، يصف إبلا يمشين مشياً رهوآ على هيئة وسكنة ، فلا أعجازها خاذلة أى تاركة لصدورها منككة عليها بحيث تضعف من ورائها ، ولا صدورها تتكل على أعجازها بأن تضعف من قدامها ، فأطلق الخذلان والانتكال وأراد لازمهما ، وهو الضعف : مجازاً مرسلًا . وأصل تتكل توتكل ، فقلبت الواو تاء وأدغمت فيها بعدها ، فهن سائرات في عرض القلوات . والحال أن الحصى حار من شدة وقع الشمس عليه . ورهض الحصى والرمل رمضا كتب تعباً : اشتد حره من الشمس ، فأطلق المصدر على اسم الفاعل مبالغة . ويجوز أنه رهض كذر والريح ساكنة ، فلا نسيم يأتى بالبرودة . أو فلا غبار يضرب بالسفر والظل معتدل : كناية عن اشتداد الحر : لأنه لا يعتدل إلا بتوسط الشمس في كبد السماء يتبعن تلك المطايا ناقة حديد البهر رافعة طرفها لتبصر أمامها ، تظنها يامن تراها مجنونة . أو رائية شيئاً لا تراه بقية الابل . أو شيئاً لا تراه الابل عادة ؛ فلذلك استغترته ، تهدى لنا تلك الناقة أو الابل بمشياً كلما وجد ارتفاعاً في الطريق ريح الخزامى . والملاوة - بالضم - : ضد السفالة . وأما بالكسر فهى ما يعلق على البحر بعد حله . والخزامى : نبت طيب الرائحة . والحصل : الرطب والمبتل والناعم . وضير فيها عائد على الخزامى . أو على الريح ، لكن هذا يفيد أن السفر كان صباحاً .

أن الرهو الفجوة الواسعة . وعن بعض العرب : أنه رأى جلا فالجا (١) فقال : سبحان الله ، رهو بين سنامين ، أى : اتركه مفتوحا على حاله منفرجا (إنهم جند مفرقون) وقرئ بالفتح ، بمعنى : لأنهم .

كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ

كَانُوا فِيهَا فَكَيْهِنَ (٢٧)

والمقام الكريم : ما كان لهم من المجالس والمنازل الحسنة . وقيل : المتابر . والنعمة - بالفتح - من التعم ، وبالكسر - من الإناعام . وقرئ : فاكهين وفكهين .

كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ

وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (٢٩)

(كذلك) الكاف منصوبة على معنى : مثل ذلك الإخراج أخرجنهم منها (وأورثناها) أو فى موضع الرفع على الأمر كذلك (قوما آخرين) ليسوا منهم فى شيء من قرابة ولا دين ولا ولاء ، وهم بنو إسرائيل : كانوا متسخرين مستعبدين فى أيديهم ، فأهلكهم الله على أيديهم ، وأورثهم ملكهم وديارهم . إذا مات رجل خطير قالت العرب فى تعظيم مهلكه : بكت عليه السماء والأرض ، وبكته الريح ، وأظلمت له الشمس . وفى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من مؤمن مات فى غربة غابت فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض » (٢) وقال جرير :

* تَبْكِي عَلَيْكَ نُجُومُ اللَّيْلِ وَالْقَمَرَا (٣)

(١) قوله « أنه رأى جلا فالجا » فى الصحاح « الفالج » : الضخم ذو السنامين . (ع)

(٢) أخرجه البيهقي فى الشعب فى السبعين منه والطبرى والتعالي من حديث شريح بن عبيد الحضرمى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن الاسلام بدأ غربيا ، وسيعود غربيا إلا غربة على مؤمن . مات مؤمن فى غربة غائب عنه فيها بواكيه - الحديث »

(٣) نعم النعاة أمير المؤمنين لنا يا خير من حج بيت الله واعتبرا

حلت أمراً عظيماً فاصطبرت له وقت فيه بأمر الله يا عمرا

الشمس طالعة ليست بكاسفة تبكى عليك نجوم الليل والقمر

لجرير ، يرثى عمر بن عبد العزيز . والنمى : النداء بالموت . وقوله « ياخير » حكاية قول النعاة ، أى : قائلين ياخير ، ويصنع أن من كلام الشاعر ، ففيه التفات . والأمر العظيم : الخلافة ومشافها : شبهها بالخصوس على طريق المكنية . والتحميل : تحميل . وأمر الله : شرعه . أو اكنى به عن ذكر التبريد لثقله عليه . وعمرا : منادى مندوب ، وألف =

وقالت الخارجية :

أَيَا شَجَرَ الْخَابُورِ مَالِكٌ مُورِقًا كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ابْنِ طَرِيفٍ (١)

وذلك على سبيل التمثيل والتخييل مبالغة في وجوب الجزع والبكاء عليه ، وكذلك ما يروى عن ابن عباس رضى الله عنهما : من بكاء مصلى المؤمن ، وآثاره في الأرض ، ومساعد عمله ، ومهابط رزقه في السماء : تمثيل ، ونفى ذلك عنهم في قوله تعالى ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴾ فيه تهكم بهم وبجألم المنافية لحال من يعظم فقده : فيقال فيه : بكّت عليه السماء والأرض . وعن الحسن : فَمَا بَكَى عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ ، بل كانوا يهلاكمهم مسرورين ، يعنى : فَمَا بَكَى عَلَيْهِمُ

== الدابة تمتعت ضمقوجليت فتحة . واستعمال «يا» في التذبة مع أن الأصل فيها «وا» لعدم الیس في النداء بعد ذكر النعى . ويقال : كسفت الشمس كسوفاً ، وكسفها الله كسفاً ، وبكى على زيد وبكاه ، وبأ كاه فبكاه ، أى غلبه في البكاء ، كفاخره ففخره إذا غلبه في الفخر ، فكسف ، وبكى : متعبداً ولازمان ، وطالعة : خبر الشمس . وليست بكاسفة : خبر ثان . وبكى عليك : حال أو خبر ثالث . ونجوم الليل : مفعول كاسفة ، أى : لم تكسف الشمس بنجوم الليل لانطاسها وقلة ضوئها من كثرة بكاها ، فلا تقدر على منع الكواكب من الظهور . ويحتمل أن نجوم الليل مفعول تبكى . أى : تغلب بنجوم الليل في البكاء عليك . وقيل : روايته هكذا وهم ، والرواية : الشمس كاسفة لبست بطالمة : أى لا تطلع أبداً من حيثئذ ، فالأوجه أن نجوم الليل مفعول تبكى . وقيل : ظرف له ، أى : مدة نجوم ... الخ . وقيل «نجوم» مرفوع على الفاعلية ، والقمر : مفعول معه ، ثم إن المراد بهذا حزن جميع المخلوقات عليه ، لا سيما للناس العقلاء .

(١) أَيْ شَجَرَ الْخَابُورِ مَالِكٌ مُورِقًا كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ابْنِ طَرِيفٍ
فَقَى لَا يَجِبُ الزَّاهِ إِلَّا مِنَ التَّقَى وَلَا الْمَالُ إِلَّا مِنْ قَتَا وَسَيُوفٍ
حَلِيفُ النَّدَى مَا عَاشَ يَرْضَى بِهِ النَّدَى فَإِنْ مَاتَ لَمْ يَرْضَ النَّدَى بِحَلِيفٍ
فَقَدْنَاهُ فَقْدَانُ الرِّبْعِ وَلَيْتَنَاهُ فَقْدْنَاهُ مِنْ سَادَاتِنَا بِأَلُوفٍ

لليلة بنت طريف ترى أمها الوليد . وأيا : حرف نداء . والخابور : موضع كثير الشجر ، نزلت شجرة منزلة العاقل ، فنادته واستفهمته عن سبب إخراجها الورق ، من باب تجاهل المعارف ساءت المعلوم مساق المجهول ، واستفهمت عنه لغرض ما بها من الجزع تيقنت أن كل الأشياء جرحت عليه حتى الشجر ، غلاطية بقولها : كأنك لم تجزع على أخى ، وذكرته بكنيته لتظلمه لقدره وتنوياً بذكره . ومورقا : حال من كاف الخطاب ، ثم قالت : هو فقى لا يجب أن يزود إلا من التقى ، ولا يجب المال إلا من الغنائم بالحرب ، فقولها «إلا من قتا وسيوف» : كناية عن ذلك . والقناة : الرماح ، واحدة : قناة . حليف الندى : أى ملازم له تلازم المتحالفين على الاجتماع ، فهو استعارة مصرحة ، ثم قالت : يرضى به أى بصحبته الندى : مدة حياته وإن طالت . وهذا ترشيح للاستعارة . وقولها : فإن مات «إن» فيه معنى إذ ، فهو مجرد الربط لالاشك ، كما ذهب إليه الكوفيون في نحو قوله تعالى ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُتُمَ مُؤْمِنِينَ ﴾ وهذا على أنه كان قد مات كما هو ظاهر قولها فقدناه . ويحتمل أنه كان في مرض الموت ، أى : شارفنا فقده مجازاً ، كأنه قد حصل . وشبهه بالربيع في ضمن تشبيه فقدناه فقدان الربيع بجماع عموم تقع كل مدحته بالقوى والشجاعة والكرم وعموم النفع والسيادة ، وتشكير ألوف للتكثير ، ويروى : دمهائنا ، بدل ساداتنا . والدماها : السواد العظيم . وظاهر التقى يدل أيضاً على أنه كان قد مات ، إلا أن يكون المعنى : لبنا قدناه مما أصابه فأمرته . وتكرير «حليف» من باب رد المعجز على المصدر

أهل السماء وأهل الأرض ﴿وما كانوا منظرين﴾ لما جاء وقت هلاكهم لم ينظروا إلى وقت آخر، ولم يمهلوا إلى الآخرة، بل عجل لهم في الدنيا.

وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾

﴿من فرعون﴾ بدل من العذاب المهين، كأنه في نفسه كان عذاباً مهيناً، لإفراطه في تعذيبهم وإهانتهم. ويجوز أن يكون المعنى: من العذاب المهين واقعاً من جهة فرعون. وقرئ من عذاب المهين. ووجهه أن يكون تقدير قوله ﴿من فرعون﴾: من عذاب فرعون، حتى يكون المهين هو فرعون. وفي قراءة ابن عباس: من فرعون، لما وصف عذاب فرعون بالشدة والفظاعة قال: من فرعون، على معنى: هل تعرفونه من هو في عتوه وشيظته، ثم عرف حاله في ذلك بقوله ﴿إنه كان عالياً من المسرفين﴾ أى كبيراً رفيع الطبقة، ومن بينهم فائقاً لهم، بليغاً في إسرافه. أو عالياً متكبراً، كقوله تعالى ﴿إن فرعون علا في الأرض﴾. و ﴿من المسرفين﴾ خبر ثان، كأنه قيل: إنه كان متكبراً مسرفاً.

وَلَقَدْ آخَرْنَا هُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَعَاتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَقَائِلُونَ ﴿٣٤﴾

الضمير في ﴿آخرناهم﴾ لبني إسرائيل. و ﴿على علم﴾ في موضع الحال، أى: عالين بمكان الخيرة، وبأنهم أحققاء بأن يختاروا. ويجوز أن يكون المعنى: مع علم منا بأنهم يزيغون ويفرط منهم الفرط في بعض الأحوال ﴿على العالمين﴾ على عالمي زمانهم. وقيل: على الناس جميعاً لكثرة الانبياء منهم ﴿من الآيات﴾ من نحو فلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى، وغير ذلك من الآيات العظام التي لم يظهر الله في غيرهم مثلها ﴿بلاء مبين﴾ نعمة ظاهرة؛ لأن الله تعالى يبلو بالنعمة كما يبلو بالمصيبة. أو اختبار ظاهر للنظر كيف تعملون، كقوله تعالى ﴿وفي ذلك بلاء من ربكم عظيم﴾.

إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُشْشِرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾

(هؤلاء) إشارة إلى كفار قريش فإن قلت : كان الكلام واقعا في الحياة الثانية ^(١) لافي الموت ^(٢) ، فهلا قيل : إن هي إلا حياتنا الأولى وما نحن بمنشرين ؟ كما قيل : إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ؟ وما معنى قوله ﴿إن هي إلا موتتنا الأولى﴾ ؟ وما معنى ذكر الأولى ؟ كأنهم وعدوا بموتة أخرى حتى نفوها وسجدوها وأثبتوا الأولى ؟ قلت : معناه - والله الموفق للصواب - : أنه قيل لهم : إنكم تموتون بموتة تتبعها حياة ، كما تقدمتمكم بموتة قد تتبعها حياة ، وذلك قوله عز وجل (وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم) فقالوا (إن هي إلا موتتنا الأولى) يريدون : ما الموتة التي من شأنها أن تتبعها حياة إلا الموتة الأولى دون الموتة الثانية ، وما هذه الصفة التي تصفون بها الموتة من تعقب الحياة لها إلا للموتة الأولى خاصة ، فلا فرق إذا بين هذا وبين قوله (إن هي إلا حياتنا الدنيا) في المعنى . يقال : أنشر الله الموتى ونشرهم : إذا بعثهم ﴿فأتوا بآبائنا﴾ خطاب للذين كانوا يعدونهم النشور : من رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، أى : إن صدقتم فيما تقولون فعجلوا لنا إحياء من مات من آبائنا بسؤالكم ربكم ذلك حتى يكون دليلا على أن ما تعدونه من قيام الساعة وبعث الموتى حق ، وقيل كانوا يطلبون اليهم أن يدعوا الله وينشرهم قصي بن كلاب ليشاوروه ، فإنه كان كبيرهم ومشاورهم في النوازل ومعظم الشئون .

أَمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبْعِ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٢٧﴾

هو تبع الخيري : كان مؤمنا وقومه كافرين ؛ ولذلك ذم الله قومه ولم يذمه ، وهو الذي سار بالجيوش وحير الحيرة وبنى سمرقند . وقيل : هدها وكان إذا كتب قال : بسم الله الذي ملك بزا وبجرا . وعن النبي صلى الله عليه وسلم لا تسبوا تبعا فإنه كان قد أسلم ^(٣) . وعنه عليه الصلاة

(١) قوله واقعا في الحياة الثانية ، أى التي يشكرونها . (ع)

(٢) قال محمود : ه فان قلت : كانت الكلام معهم واقعا في الحياة الثانية لا في الموت ... الخ ، قال أحمد : وأظهر من ذلك أنهم لما وعدوا بعد الحياة الدنيا حالتين أخريين : الأولى منهما الموت ، والأخرى حياة البعث : أثبتوا الحالة الأولى وهي الموت ، ونفوا ما بعدها ، وسموها أولى مع أنهم اعتقدوا أن لا شيء بعدها ؛ لأنهم نزلوا جحدهم على الإثبات لمعملها أولى على ما ذكرت لهم ، وهذا أولى من حل الموتة الأولى على السابقة على الحياة الدنيا (وجهين ، أحدهما : أن الاختصار عليها لا يعتدونه ، لأنهم يشبثون الموت الذي يعقب حياة الدنيا ، وحل المحصر لوجهين ، أحدهما : أن الاختصار عليها لا يعتدونه ، لأنهم يشبثون الموت الذي يعقب حياة الدنيا ، وحل المحصر المباشر للموت في كلامهم على صفة لم تذكر لا على نفس الموت المتعاقب لهم : فيه عدول عن الظاهر بلا حاجة . الثاني : أن الموت السابق على الحياة الدنيا لا يعبر عنه بالموتة ، فإن الموتة فعلة فيها إشعار بالتجدد والطيران . والموت السابق على الحياة الدنيا أمر مستصحب لم تقدمه حياة طرا عليها هذا ، مع أن في بقية السورة قوله تعالى (لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى وإنما عني بالموتة الأولى هنا : الموت المتعقب للحياة الدنيا فقط ، ففيه إرشاد لما ذكرته ، والله أعلم ،

(٣) أخرجه أحمد والطبراني والطبري وابن أبي حاتم من حديث سهل بن سعد وفيه ابن لمبة عن عمرو بن جابر . وهما ضعيفان . وروى حبيب عن مالك عن أبي حازم عن سهل مثله قال الدارقطني : تفرد به حبيب وهو =

والسلام وما أدرى أكان تبع نبياً أو غير^(١) نبي، وعن ابن عباس رضى الله عنهما : كان نبياً .
وقيل : نظر إلى قبرين بناحية حير قال : هذا قبر رضوى وقبر حبي بنت تبع لا تشركان بالله
شيئاً . وقيل : هو الذى كسا البيت . وقيل لملوك اليمن : التبابعة ، لأنهم يتبعون ، كما قيل : الأقبال ،
لأنهم يتقبلون^(٢) . وسمى الظل تبعاً ، لأنه يتبع الشمس . فإن قلت : ما معنى قوله تعالى ﴿أَمْ خَيْرٌ﴾
ولاخير فى الفريقين ؟ قلت : معناه أَمْ خَيْرٌ فى القوة والمنعة ، كقوله تعالى ﴿أَكْفَارَكُمْ خَيْرٌ مِنْ
أُولَئِكَ﴾ بعد ذكر آل فرعون . وفى تفسير ابن عباس رضى الله عنهما : أَمْ أَشَدُّ أَمْ قَوْمٌ تَبِعَ .

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِأَعْيُنٍ ۖ ۞٣٨ مَخْلَقَتُهُمَا إِلَّا
بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۞٣٩ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ۞٤٠
يَوْمَ لَا يَنْفَعِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۞٤١ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ
هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۞٤٢

﴿وما بينهما﴾ وما بين الجنسين . وقرأ عبيد بن عمير : وما بينهما . وقرأ : مِيقَاتُهُمْ بالنصب
على أنه اسم إن ، ويوم الفصل : خبرها ، أى : إن ميعاد حسابهم وجزائهم فى يوم الفصل
﴿لا ينفى مولى﴾ أى مولى كان من قرابة أو غيرها ﴿عن مولى﴾ عن أى مولى كان ﴿شيئاً﴾
من إغناء . أى : قليلاً منه ﴿ولا هم ينصرون﴾ الضمير للموالى ؛ لأنهم فى المعنى كثير ، لتناول
اللفظ على الإبهام والشياخ كل مولى ﴿إلا من رحم الله﴾ فى محل الرفع على البدل من الواو فى
﴿ينصرون﴾ أى : لا يمنع من العذاب إلا من رحمه الله . ويجوز أن ينتصب على الاستثناء ﴿إنه
هو العزيز﴾ لا ينصر منه من عصاه ﴿الرحيم﴾ لمن أطاعه .

إِنْ شَجَرَتِ الزُّقُومِ ۞٤٣ طَعَامُ الْأَنِيمِ ۞٤٤ كَأَنَّهُمْ يَبْعِي فِي الْبُطُونِ ۞٤٥
كَغَلَى الْحِمِيمِ ۞٤٦ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۞٤٧ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ

== متروك . وله شاهد من حديث ابن عباس أخرجه الطبرانى فى معجمه وابن مردويه قال محمد بن زكريا . عن
أبي حذيفة عن سفيان .

(١) أخرجه الثعلبى من طريق عبد الرزاق عن معمر عن ابن أبي ذئب عن المقبرى عن أبى هريرة بهذا .
والمعروف بهذا الاسناد «ما أدرى العنى هو أم لا ، وما أدرى أعزير نبي أم لا» أخرجه أبو داود . وكذا الحاكم
لكن قال : ذو القرنين بدل «عزير» قال الدارقطنى تفرد به عبد الرزاق وغيره أرسله .

(٢) قوله «لأنهم يتقبلون» فى الصحاح : تقبل شرب نصف النهار ، وتقيل فلان أباه : تبعه . (ع)

مِنْ عَذَابِ الْعَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَذَا

مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾

قريء : إن شجرت الزقوم ، بكسر الشين ، وفيها ثلاث لغات : شجرة ، بفتح الشين وكسرها وشيرة ، بالياء . وروى أنه لما نزل (أذلك خير نزل أم شجرة الزقوم) قال ابن الزبيري : إن أهل اليمن يدعون أكل الزبد والتمر : التزقم ، فدعا أبو جهل بتمر وزبد فقال : تزقوا فإن هذا هو الذي يخوفكم به محمد ، فنزل (إن شجرت الزقوم طعام الأثيم) وهو الفاجر الكثير الآثام . وعن أبي الدرداء أنه كان بقرى رجلا فكان يقول طعام اليثم ، فقال : قل طعام الفاجر ^(١) يا هذا . وبهذا يستدل على أن إبدال كلمة مكان كلمة جائز إذا كانت مؤدية معناها . ومنه أجاز أبو حنيفة القراءة بالفارسية على شريطة ، وهي : أن يؤدي القارئ المعاني على كمالها من غير أن يخرج منها شيئا . قالوا : وهذه الشريطة تشهد أنها إجازة كلا إجازة : لأن في كلام العرب خصوصا في القرآن الذي هو معجز بفصاحته وغرابة نظمه وأساليبه من لطائف المعاني والأغراض ما لا يستقل بأدائه لسان من فارسية وغيرها ، وما كان أبو حنيفة رحمه الله يحسن الفارسية ، فلم يكن ذلك منه عن تحقق وتبصر . وروى على بن الجعد عن أبي يوسف عن أبي حنيفة مثل قول صاحبيه في إنكار القراءة بالفارسية (كالمهل) قريء بضم الميم وفتحها ، وهو دردى ^(٢) الزيت . ويدل عليه قوله تعالى (يوم تكون السماء كالمهل) مع قوله (فيكانت وردة كالدخان) وقيل : هو ذائب الفضة والنحاس ، والكاف رفع خبر بعد خبر ، وكذلك (بغلي) وقرئ بالتاء للشجرة ، وبالياء للطعام . و (الحميم) الماء الحار الذي انتهى غليانه : يقال للزبانية (خذوه فاعتلوه) ففقدوه بعنف وغلظة ، وهو أن يؤخذ بتلييب ^(٣) الرجل فيجر إلى حبس أو قتل . ومنه : العتل وهو الغليظ الجافي . وقرئ بكسر التاء وضمها (إلى سواء الحميم) إلى وسطها ومعظمها . فإن قلت : هلا قيل : صبوا فوق رأسه من الحميم ، كقوله تعالى (يصب من فوق رؤسهم الحميم) لأن الحميم هو المصبوب لا عذابه ؟ قلت : إذا صب عليه الحميم فقد صب عليه عذابه وشدة ، إلا أن صب العذاب طريقة الاستعارة ، كقوله :

(١) قال محمود : نقل أن أبا الدرداء أقرأها رجلا فلم يقم النطق بالأثيم وجعل يقول طعام اليثم ... الخ ، قال أحد : لا دليل فيه لذلك . وقول أبي الدرداء محمول على إيضاح المعنى ليكون وضوح المعنى عند المتعلم عروفاً على أن يأتي بالفراة كما أنزل . على هذا حله القاضي أبو بكر في كتاب الانتصار ، وهو الوجه ، والله أعلم .

(٢) قوله وهو دردى الزيت ، لهله : ردى الزيت كعبارة النفس . (ع)

(٣) قوله وهو أن يؤخذ بتلييب الرجل ، الذي في الصحاح : لبث الرجل تلييبا ، إذا جمعت ثيابه عند صدره ونحوه في الحصى ، ثم جرته اه وبجوز أنه أراد بتلييب الرجل : ثيابه من عند صدره ونحوه . (ع)

* صَبَّتْ عَلَيْهِ صُرُوفُ الدَّهْرِ مِنْ صَبَبٍ * (١)

وكقوله تعالى (أفرغ علينا صبرا) فذكر العذاب معلقا به الصب، مستعار له، ليكون أهول وأهيب يقال (ذق إنك أنت العزيز الكريم) على سبيل الهزؤ والنهك بمن كان يتعزز ويصكرم على قومه. وروى أن أبا جهل قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ما بين جليلها أعز ولا أكرم مني، فوالله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلوا بي شيئا. وقرئ: إنك، بمعنى: لأنك. وعن الحسن ابن علي رضي الله عنهما أنه قرأ به على المنبر (إن هذا) العذاب. أو إن هذا الأمر هو (ما كنتم به تمترون) أي تشككون. أو تمارون وتتلاجون.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَنِينَ (٥٣) كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْخُلُونَ فِيهَا بِكُلِّ فُكَّةٍ ءَامِنِينَ (٥٥) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقُّمِ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضَلَّا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٥٧)

قرئ: في مقام، بالفتح: وهو موضع القيام، والمراد المكان، وهو من الخاص الذي وقع مستعملا في معنى العموم. وبالضم: وهو موضع الإقامة. و(الأمين) من قولك: أمن الرجل أمانة فهو أمين. وهو ضد الخائن، فوصف به المكان استعارة؛ لأن المكان الخفيف كأنما يخون صاحبه بما يلقى فيه من المكاره. قيل: السندس: مارق من الديباج. والإستبرق: ما غلظ منه وهو تعريب استبر. فإن قلت: كيف ساغ أن يقع في القرآن العربي المبين لفظ أعجمي؟ قلت: إذا عرب خرج من أن يكون عجميا؛ لأن معنى التعريب أن يجعل عربيا بالتصرف فيه، وتغييره عن مناجه، وإجرائه على أوجه الإعراب (كذلك) الكاف مرفوعة على: الأمر كذلك. أو منصوب على: مثل ذلك أنبئناهم (وزوجناهم) وقرأ عكرمة: بحور عين، على الإضافة: والمعنى: بالهور من العين؛ لأن العين إما أن تكون حورا أو غير حور، فهؤلاء

(١) كم امرئ كان في خفض وفي دعة صبت عليه صروف الدهر من صبيب

الصبيب: مكان انصباب الماء. وانعداده. يقول: كثير من الناس كان في لين عيش وفي راحة، توالى عليه حوادث الدهر كأنها سيل متحدر من صبيب، فاستعار الصب لزول الحوادث بالشخص على طريق التصريح، والصب ترشيح أو شبه الحوادث بالسيل على سبيل المكثية. والصب: تخيل. والصب: ترشيح. والصروف: جمع صرف، كحروف جمع حرف: مكاره الزمن ومصائبه.

من الحور العين ^(١) لامن شلهن مثلاً . وفي قراءة عبد الله : بعبس عين : والعيساء : البيضاء .
 تعلوها حمرة وقرأ عبيد بن عمير : لا يذاقون فيها الموت . وقرأ عبد الله : لا يذوقون فيها طعم
 الموت . فإن قلت : كيف استثنيت الموت الأولى - المذكورة قبل دخول الجنة - من الموت المنق
 ذوقه فيها ؟ قلت : أريد أن يقال : لا يذوقون فيها الموت البتة ، فوضع قوله (إلا الموت الأولى)
 موضع ذلك : لأن الموت الماضية محال ذوقها في المستقبل ، فهو من باب التعليق بالحال ، كأنه
 قيل : إن كانت الموت الأولى يستقيم ذوقها في المستقبل فإنهم يذوقونها ^(٢) . وقرئ : ووقاهم
 بالتشديد (فضلاً من ربك) عطاء من ربك وثواباً ، يعنى : كل ما أعطى المتقين من نعم الجنة
 والنجاة من النار . وقرئ : فضل ، أى . ذلك فضل .

فَإِنَّمَا يَسِرُنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَأَرْتَبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

(فإنما يسرناه بلسانك) فذلكم للسورة . ومعناها : ذكرهم بالكتاب المبين (فإنما يسرناه)
 أى : سهلناه ، حيث أنزلناه عربياً بلسانك بلغتك إرادة أن يفهمه قومك فيتذكروا (فأرتب)
 فانتظر ما يحل بهم (إنهم مرتقبون) ما يحل بك متربصون الدوائر .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة حم الدخان في ليلة أصبح يستغفر له
 سبعون ألف ملك » ^(٣) . وعنه عليه السلام : « من قرأ حم التي يذكر فيها الدخان في ليلة جمعة
 أصبح مغفورا له » ^(٤) .

(١) قوله « من الحور العين » لعله : من حور العين . (ع)

(٢) قال محمد : « إنما استثنيت الموت الأولى المذكورة قبل دخول الجنة من الموت المنق ذوقه فيها ... الخ »
 قال أحمد : هذا الذى ذكره مبنى على أن الموت بدل ، على طريقة بنى تميم المجوز فيها البدل من غير الجنس . وأما على
 طريقة الحجازيين ، فانتصبت الموت استثناء منقطعاً . وسر اللفظة التيمية : بناء التثنية المراد على وجه لا يبق للسامع
 مطعماً فى الالتفات ، فيقولون : ما فيها أحد إلا حمار ، على معنى : إن كان الحمار من الأحدين ففيها أحد ، فيعلقون
 الثبوت على أمر محال حتا بالنفي . وعليه حمل الزعفرى (قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله)
 أى إن كان الله بمن فى السموات والأرض ، ففي السموات والأرض من يعلم الغيب ، فإذا نفر السامع من ثبوت
 الأول تعدت الثغرة إلى ثبوت الثانى ، فجزمت بالنفى ، والله أعلم .

(٣) أخرجه الترمذى أيضاً وابن عدى والشعبي والبيهقي فى الشعب من رواية عمر بن خنم عن يحيى بن أبى كثير
 عن أبى سلة عن أبى هريرة ، وقال : غريب ، وعمر يضعف . قال محمد : إنه منكر الحديث . قلت : وهو معنى
 الذى قبله .

(٤) أخرجه الترمذى وأبو يعلى وابن السكيت فى اليوم والليلة والبيهقي فى الشعب وقال تفرد به أبو المقدام .
 وهو ضعيف . وعن الحسن عن أبى هريرة وقال الترمذى : أبو المقدام ضعيف والحسن لم يسمع من أبى هريرة .

سورة الجاثية

مكية [إلا آية ١٤ فمدنية]

وآياتها ٣٧ وقيل ٣٦ آية [نزلت بعد الدخان]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم ١ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ٢ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ٣ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يُوقِنُونَ ٤ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ
فَأَنحَمَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٥
تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ قُبَّاهِيَ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ٦

(حم) إن جمعتها اسما مبتدأ مخبرا عنه به (تنزيل الكتاب) لم يكن بدم حذف مضاف،
تقديره: تنزيل حم تنزيل الكتاب. و (من الله) صلة للتنزيل، وإن جعلتها تعديدا للحروف
كان (تنزيل الكتاب) مبتدأ، والظرف خبرا (إن في السموات والأرض) يجوز أن يكون
على ظاهره، وأن يكون المعنى: إن في خلق السموات لقوله (وفي خلقكم) فإن قلت: علام
عطف (وما يبعث) أعلى الخلق المضاف؟ أم على الضمير المضاف إليه؟ قلت: بل على المضاف،
لأن المضاف إليه ضمير متصل مجرور يقبح العطف عليه: استبحروا أن يقال: مررت بك وزيد، وهذا
أبوك وعمرو، وكذلك إن أكدوه كرهوا أن يقولوا: مررت بك أنت وزيد. قرئ: آيات
لقوم يوقنون، بالنصب والرفع، على قولك: إن زيدا في الدار وعمرا في السوق. أو عمرو في
السوق. وأما قوله (آيات لقوم) يعقلون فن العطف على عاملين، سواء نصبت أو رفعت، فالعاملان
إذا نصبت هما: إن، وفي: أقيمت الواو مقامهما، فعملت (٣) الجر في (اختلاف الليل والنهار)،

(١) قوله «وأما قوله: آيات لقوم» أى مع قوله (واختلاف) . (ج)

(٢) قوله «فعملت» أى: الواو . (ج)

والنصب في (آيات) . وإذا رفعت فالعاملان : الابتداء وفي : عملت الرفع في (آيات) ،
والجر في (واختلاف) وقرأ ابن مسعود : وفي اختلاف الليل والنهار . فبين قلت : العطف على
عاملين على مذهب الأخفش شديد لا مقال فيه . وقد أباه سيبويه ، فما وجه تخريج الآية عنده؟
قلت : فيه وجهان عنده . أحدهما : أن يكون على إضمار في . والذي حسنه تقدم ذكره في الآيتين
قبلها . ويعضده قراءة ابن مسعود . والثاني : أن ينتصب آيات على الاختصاص بعد انقضاء
المرور معطوفاً على ما قبله أو على التكرير ، ورفعها بإضمار هي : وقرأ : واختلاف الليل والنهار
بالرفع . وقرأ : آية . وكذلك وما يثبت من دابة آية . وقرأ : وتصريف الريح . والمعنى : إن
المنصفين من العباد إذا نظروا في السموات والأرض النظر الصحيح ، علموا أنها مصنوعة ،
وأنه لا بد لها من صانع ، فآمنوا بالله وأقروا ، فإذا نظروا في خلق أنفسهم وتنقلها من حال
إلى حال وهيئة إلى هيئة ، وفي خلق ما على ظهر الأرض من صنف الحيوان : ازدادوا إيماناً ،
وأيقنوا وانتفى عنهم اللبس ؛ فإذا نظروا في سائر الحوادث التي تتجدد في كل وقت كاختلاف
الليل والنهار ونزول الأمطار وحياة الأرض بها بعد موتها (وتصريف الرياح) جنوباً وشمالاً
وقبلاً ودبوراً : عقلوا واستحكم عليهم وخلص يقينهم ، وسمى المطر رزقاً ؛ لأنه سبب الرزق
(تلك) إشارة إلى الآيات المتقدمة ، أي : تلك الآيات آيات الله . و (تتلوها) في محل الحال ،
أي : متلوة (عليك بالحق) والعامل مادل عليه تلك من معنى الإشارة . ونحوه : (هذا بعلي
شيخاً) وقرأ : يتلوها ، بالياء (بعد الله وآياته) أي بعد آيات الله كقولهم : أعجبني زيد
وكرمه ، يريدون : أعجبني كرم زيد . ويجوز أن يراد : بعد حديث الله ، وهو كتابه وقرآنه ،
كقوله تعالى : (الله نزل أحسن الحديث) . وقرأ : (يؤمنون) بالتاء والياء .

وَبَلِّ لِكُلِّ آفَاكِ أَلِيمٍ ⑦ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ
مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ⑧ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا
شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ⑨ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ
وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ
عَذَابٌ عَظِيمٌ ⑩

الآفاك : الكذاب ، والأليم : المتبالغ في اقتراف الآثام (يصير) يقبل على كفره ويقوم

عليه . وأصله من إصرار الحمار على العانة ^(١) وهو أن ينحى عليها صارا أذنيه (مستكبرا) عن الإيمان بالآيات والإذعان لما ينطق به من الحق ، مزدريا لها معجبا بما عنده . قيل : نزلت في النضر بن الحرث وما كان يشتري من أحاديث الأعاجم ، ويشغل الناس بها عن استماع القرآن . والآية عامة في كل ما كان مضارا لدين الله . فإن قلت : ما معنى ثم في قوله (ثم يصبر مستكبرا) ؟ قلت : كمنه في قول القائل :

• بَرَى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ثُمَّ يَزُورُهَا • ^(٢)

وذلك أن غمرات الموت حقيقة ، بأن ينجو رائها بنفسه ويطلب الفرار عنها . وأما زيارتها والإقدام على مزاولتها . فأمر مستبعد ، فعنى ثم : الإيذان بأن فعل المقدم عليها بعد ما رآها وعانها ؛ شيء يستبعد في العادات والطباع ، وكذلك آيات الله الواضحة الناطقة بالحق ، من تليت عليه وسمعا : كان مستبعدا في العقول إصراره على الضلالة عندها واستكباره عن الإيمان بها (كان) مخفية ، والأصل كأنه لم يسمعا : والضمير ضمير الشأن ، كما في قوله :

• كَأَنَّ ظُلُمَةً تَعْطُو إِلَى نَاصِرِ السَّلَمِ • ^(٣)

وحمل الجملة النصب على الحال . أى : يصير مثل غير السامع (وإذا) بلغه شيء من آياتنا وعلم أنه منها (اتخذها) أى اتخذ الآيات (هزوا) ولم يقل : اتخذها ، للإشعار بأنه إذا أحس بشيء من الكلام أنه من جملة الآيات التي أنزلها الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم : خاض في الاستهزاء بجميع الآيات . ولم يقتصر على الاستهزاء بما بلغه ، ويحتمل : وإذاعلم من آياتنا شيئا

(١) قوله «من إصرار الحمار على العانة» جماعة حمر الوحش كما في الصحاح . وفيه أيضا : ضر الفرس أذنيه : ضمه إلى رأسه ، فإذا لم يوقفوا قالوا : أضر الفرس ، بالالف . (ع)

(٢) تقدم شرح هذا القاعد ، بالجزء الثالث صفحة ٥٠٥ فراجع إن شئت اه مصححه .

(٣) فيوما توافينا بوجه مقسم كان ظلية تعطو إلى وارق السلم

ويوما تريد مالنا مع مالها فان لم نلها لم تمننا ولم تم

الباعث بن صريم اليشكري يذكر حال امرأته . ويوما : ظرف مقدم . ويروى : ويوم ، أى : ورب يوم نقابلنا فيه ولا حاجة لتقدير الرابط على نصب اليوم . وقسم قسما وقسامة ، بكمل جمالا . وظرف ظرافة . والمقسم : المحسن . وكان : عطفة من الثقيلة ، واسمها ضمير المرأة ، أو ضمير الشأن . وظلية : بالرفع على الأول خبر . وعلى الثاني : مبتدأ ، وهو مع خبره خبر كان . وتعطو : صلة على الأول ، وهو الخبر على الثاني . ويروى : ظلية ، بالنصب ؛ فهو الاسم وإن كان عملها عطفة قليلا . ويروى : مجرورا بالكاف ، وإن : زائدة بين الجار والمجرور : وتعطو : تأخذ وتتناول ، ماثلة إلى وارق السلم . ومن النوادر : أورق فهو وارق . وأنيق فهو يانع . والقياس : مورق ، أى : كثير الورق . ويروى : ناصر ، بدل : وارق . والسلم : شهر المعاء ، هذا شأنها في يوم . وفي يوم آخر تؤذينا فترده مالنا منضحا إلى مالها ، فان تعطها لم تتركنا تنام من كثرة كلامها وإذاعتها ، ولم تم هى أيضا . واليوم هنا : مطلق الزمن .

يمكن أن يتشبث به المعاند ويجد له محملاً يتسلق به على الطمن والغميزة : اقرصه واتخذ آيات الله هزواً ، وذلك نحو اقتراص ابن الزبعرى قوله عز وجل (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) ومغالطته رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقوله : خصمته . ويجوز أن يرجع الضمير إلى شيء ؛ لأنه في معنى الآية كقول أبي العتاهية :

نَفْسِي بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا مُعْلَقَةٌ اللَّهُ وَالْقَائِمُ الْمَهْدِيُّ يَكْفِيهَا ^(١)

حيث أراد عتبة . وقرئ : علم ﴿أولئك﴾ إشارة إلى كل أفاك أثيم ، لشموله الأفاكين . والوراء اسم للجهة التي يواربها الشخص من خلف أو قدام . قال :

أَلَيْسَ وَرَاءَ أَنْ تَرَاحَتْ مَنِيَّتِي أَدْبُثُ مَعَ الْوَلَدَانِ أَرْحَفُ كَالنَّسْرِ ^(٢)

ومنه قوله عز وجل ﴿من وراءهم﴾ أى من قدامهم ﴿ما كسبوا﴾ من الاموال في رحلهم ومتاجرهم ﴿ولا ما اتخذوا من دون الله﴾ من الاوثان .

هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رَجْزٍ أَلِيمٍ ^(١١)

﴿هذا﴾ إشارة إلى القرآن ، يدل عليه قوله تعالى (والذين كفروا بآيات ربهم) لأن آيات ربهم هي القرآن ، أى هذا القرآن كامل في الهداية ، كما تقول : زيد رجل ، تريد كامل في الرجولية . وأما رجل . والرجز : أشد العذاب . وقرئ : بجر أليم ورفع .

(١) نفسى بشيء من الدنيا معلقة الله والقائم المهدي يكفيها

إني لأياس منها ثم يطعنني فيها احتقارك للدنيا وما فيها

لأبي العتاهية . وكفى بالشئ عن جارية من حظايا المهدي اسمها عتبة ، ولذلك أعاد عليه الضمير مؤثراً . وقوله «من الدنيا» معناه : أنه لا يريد من الدنيا غيره . والقائم : أى بأمر الشرع . وكفيها ، أى : يكفيني تلك الحاجة . أو يكفى نفسى ما تريد ، والله : بقطع الهمة ؛ لأن أول المصراع محل ابتداء في الجملة ، إني لأياس أى أقطع طبعي منها ، ثم أقطع فيها ثانياً بسبب احتقارك للدنيا وما فيها . وهو مدح بنهاية الكرم . وروى أنه كتب ذلك في ثوب ، وأدزجه في برية وأهداها للمهدي ، فهم بدفعها إليه فقالت : أندفعني إلى رجل متكسب بالتمسق ، فأمر بملء البرية مالا ودفعها إليه ، فقال للفرزان : إنما أمر لي بدنانير ، فقال له : نعطيك دراهم ونراجعه . واختلفوا في ذلك سنة ، فقالت : لو كان عاشقاً لما فرق بينهما .

(٢) لمبيد ، والهمة للتقرير . وورائي هنا بمعنى : أمامي ، وهو في الأصل : الجهة التي يواربها الشخص ، لكن يكثر في الجهة التي خلفه ، وتوسع فيه حتى استعمل في كل غيب . ومنه : المستقبل . وتراخت : تباعدت وتأخرت . وأدب : أمشى بهينة وتؤدة . وأن المصدرية مقدرة قبله ؛ لأنه اسم ليس ، وإن كان لفظه مرفوعاً . وأرحف : يحتمل أنه بدل ، وأنه حال . وكالنسر : حال . أو معناه : كرحف النسر في الأرض ، مع كونه أبيض وفيه نوع احتراس ؛ لأنه يتوهم من قوله «مع الولدان» نقص عقله ، فدل على أن المراد الضعف كالولدان . والغيب كالنسر ؛ لأنه أبيض ، مع كونه رئيس الطيور وكلها تخشاه .

اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا
مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾

(ولتبتغوا من فضله) بالتجارة أو بالغوص على اللؤلؤ والمرجان واستخراج اللحم الطرى وغير ذلك من منافع البحر. فإن قلت: ما معنى (منه) في قوله (جميعاً منه) وما موقعها من الإعراب، قلت: هي واقعة موقع الحال، والمعنى: أنه سخر هذه الأشياء كائنة منه وحاصلة من عنده، يعنى: أنه مكنونها وموجدها بقدرته وحكمته، ثم سخرها لخلقها. ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هي جميعاً منه، وأن يكون (وسخر لكم) تأكيداً لقوله تعالى (سخر لكم) ثم ابتدئ قوله: (ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه) وأن يكون (ما في الأرض) مبتدأ، و(منه) خبره. وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما: منه، وقرأ سبلة بن محارب: منه، على أن يكون منه فاعل سخر على الإسناد المجازي. أو على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: ذلك. أو هو منه.

قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلِمَهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ
تَرْجِعُونَ ﴿١٥﴾

حذف المفعول لأن الجواب دال عليه. والمعنى: قل لهم اغفروا يغفروا (لا يرجون أيام الله) لا يتوقعون وقائع الله بأعدائه، من قولهم لوقائع العرب: أيام العرب. وقيل: لا يأملون الاوقات التي وقها الله لثواب المؤمنين ووعدهم الفوز فيها. قيل: نزلت قبل آية القتال، ثم نسخ حكمها. وقيل: نزولها في عمر رضى الله عنه - وقد شتمه رجل من غفار فهم أن يبطش به. وعن سعيد بن المسيب: كنا بين يدي عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقرأ قارئ هذه الآية، فقال عمر: ليجزى عمر بما صنع (لنجزى) لتلبيح الأمر بالمغفرة، أى: إنما أمروا بأن يغفروا لما أراد الله من توفيتهم جزاء مغفرتهم يوم القيامة. فإن قلت: قوله (قوماً) ما وجه تنكيره وإنما أراد الذين آمنوا وهم معارف؟ قلت: هو مدح لهم وثناء عليهم، كأنه قيل: ليجزى أيما قوم وقوماً^(١) مخلصين، لصبرهم وإغضائهم على أذى أعدائهم من الكفار، وعلى ما كانوا

(١) قوله «أيما قوم وقوماً مخلصين» لعله: أو قوماً. (ع)

يجرعونهم من الغصص (بما كانوا يكسبون) من الثواب العظيم بكظم الغيظ واحتمال المكروه ومعنى قول عمر: ليجزى عمر بما صنع: ليجزى بصبره واحتماله. وقوله لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند نزول الآية: والذي بعثك بالحق لا ترى الغضب في وجهي. وقرئ: ليجزى قوما، أي: الله عز وجل. وليجزى قوم. وليجزى قوما، على معنى: وليجزى الجزاء قوما.

وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦) وَآتَيْنَاهُمْ يَاسِينَ مِنَ الْأَمْرِ مَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا يَبْذُفُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧)

(الكتاب) التوراة (والحكم) الحكمة والفقه. أو فصل الخصومات بين الناس؛ لأن الملك كان فيهم والنبوّة (من الطيبات) مما أحل الله لهم وأطاب من الأرزاق (وفضّلناهم على العالمين) حيث لم نوت غيرهم مثل ما آتيناهم (بينات) آيات ومعجزات (من الأمر) من أمر الدين، فما وقع بينهم الخلاف في الدين (ولما من بعد ما جاءهم) ما هو موجب لزوال الخلاف وهو العلم. وإنما اختلفوا لبغى حدث بينهم، أولعداوة وحسد.

ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يَغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩)

(على شريعة) على طريقة ومنهاج (من الأمر) من أمر الدين، فاتبع شريعتك الثابتة بالدلائل والحجج، ولا تتبع ما لاحجة عليه من أهواء الجهال. ودينهم المبني على هوى وبدعة، وهم رؤساء قريش حين قالوا: ارجع إلى دين آبائك. ولا توالم، إنما يوالى الظالمين من هو ظالم مثلهم، وأما المتقون: فوليهم الله وهم موالوه. وما بين الفصل بين الولايتين.

هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠)

(هذا) القرآن (بصائر للناس) جعل ما فيه من معالم الدين والشرائع بمنزلة البصائر في القلوب. كما جعل روحاً وحياة وهو هدى من الضلالة، ورحمة من العذاب لمن آمن وأيقن. وقرئ: هذه بصائر، أي: هذه الآيات.

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّمَوَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَآذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءٌ مَحْمُومٌ وَمَمَّائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾

(أم) منقطعة . ومعنى الهمزة فيها إنكار الحسبان . والاجتراح : الاكتساب . ومنه الجوارح وفلان جارحة أهله ، أى : كاسبهم (أن نجعلهم) أن نصيرهم . وهو من جعل المتعدى إلى مفعولين فأولها الضمير ، والثاني : الكاف ، والجملة التى هى (سواء محياهم ومماتهم) بدل من الكاف ؛ لأنّ الجملة تقع مفعولا ثانياً ، فكانت فى حكم المفرد . ألا تراك لو قلت : أن نجعلهم سواء محياهم ومماتهم : كان سديداً ، كما نقول : ظننت زبداً أبوه منطلق . ومن قرأ (سواء) بالنصب : أجرى سواء مجرى مستويا ، وارتفع محياهم ومماتهم على الفاعلية ، وكان مفردا غير جملة . ومن قرأ : ومماتهم بالنصب ، جعل محياهم ومماتهم : ظرفين ، كمقدم الحاج وخفوق النجم . أى : سواء فى محياهم وفى مماتهم . والمعنى : إنكار أن يستوى المسيئون والمحسنون محيا ، وأن يستووا مماتا ؛ لا افتراق أحوالهم أحياء . حيث عاش هؤلاء على القيام بالطاعات ، وأولئك على ركوب المعاصى . ومماتا ، حيث مات هؤلاء على البشرى بالرحمة والوصول إلى ثواب الله ورضوانه ؛ وأولئك على اليأس من رحمة الله والوصول إلى هول ما أعدّ لهم . وقيل : معناه إنكار أن يستووا فى الممات كما استووا فى الحياة ، لأنّ المسيئين والمحسنين مستو محياهم فى الرزق والصحة ، وإنما يفترقون فى الممات ، وقيل : سراء محياهم ومماتهم : كلام مستأنف على معنى : أن محيا المسيئين ومماتهم سواء ، وكذلك محيا المحسنين ومماتهم : كل يموت على حسب ما عاش عليه . وعن تميم الدارى رضى الله عنه أنه كان يصلّى ذات ليلة عند المقام ، فبلغ هذه الآية ، فجعل يبكى ويردّد إلى الصباح : ساء ما يحكمون . وعن الفضيل : أنه بلغها فجعل يردها ويبكى ويقول : يا فضيل ، ليت شعرى من أى الفريقين أنت .

وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ

وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

(ولتجزى) معطوف على بالحق ، لأنّ فيه معنى التعليل . أو على معال محذوف تقديره : خلق الله السموات والأرض ، ليدل به على قدرته ولتجزى كل نفس .

أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ مَخْمِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاةً فَنَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾

أى : هو مطواع لمسوى النفس يتبع مائدعوه إليه ، فكأنه يعبد كما يعبد الرجل إلهه .
 وقرئ : آلهة هواه ؛ لأنه كان يستحسن الحجر فيعبده ، فإذا رأى ما هو أحسن رفضه إليه ،
 فكأنه اتخذ هواه آلهة شتى : يعبد كل وقت واحدا منها (وأضله الله على علم) وتركه عن
 الهداية (١) واللفظ وخذه على علم ، علما بأن ذلك لا يجدى عليه ، وأنه ممن لا لطف له .
 أومع عليه بوجوه الهداية وإحاطته بأنواع اللطاف المحصلة والمقربة (٢) (فمن يهديه من
 بعد) إضلال (الله) وقرئ : غشاوة ، بالحركات الثلاث . وغشوة ، بالعكس والفتح .
 وقرئ : تتذكرون

وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم

بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤)

(نموت ونحيا) نموت نحن ونحيا أولادنا . أو يموت بعض ونحيا بعض . أو نكون موانا
 نطفأ في الأصلاب ، ونحيا بعد ذلك . أو يصيبنا الأمران : الموت والحياة ، يريدون : الحياة في
 الدنيا والموت بعدها ، وليس وراء ذلك حياة . وقرئ : نحيا ، بضم النون . وقرئ : إلا دهر
 يمر ، وما يقولون ذلك عن علم ، ولكن عن ظن وتخمين : كانوا يزعمون أن مرور الأيام
 والليالي هو المؤثر في هلاك الأنفس ، ويشكرون ملك الموت وقبضه الأرواح بأمر الله ،
 وكانوا يضيفون كل حادثة تحدث إلى الدهر والزمان ، وترى أشعارهم ناطقة بشكوى الزمان .
 ومنه قوله عليه السلام : لا تسبوا الدهر ، فإن الله هو الدهر ، (٣) أى : فإن الله هو الآتى
 بالحوادث لا الدهر .

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا يَذَّكَّرُ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعُوا آبَاءَنَا
 إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلِ اللَّهُ يُجِيبُكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ

الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٦)

وقرئ : حجتهم بالنصب والرفع ، على تقديم خبر كان وتأخيرها . فإن قلت : لم سمي قولهم
 حجة وليس بحجة ؟ قلت : لأنهم أدلوا به كما يدل المحتج بحجته وساقوه مساقها ، فسميت حجة

(١) قوله « وتركه عن الهداية » ، تأويل الآية بذلك لتوافق مذهب المعتزلة : أنه لا يريد الشر ولا يفعله .
 وعند أهل السنة : لا يقع في ملكه إلا ما يريد ، والله خالق كل شيء ، فلا ضلال : خلقه الضلال في القلب . (ع)

(٢) قوله « المحصلة والمقربة » ، يعنى : الهداية . (ع)

(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة ، واللفظ لمسلم .

على سبيل التهم . أو لانه في حسابهم وتقديرهم حجة . أو لانه في أسلوب قوله :

• تَحِصَّةٌ يَذِّنُهُمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ * (١)

كأنه قيل : ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة . والمراد : نفى أن تكون لهم حجة البتة . فإن قلت : كيف وقع قوله (قل الله يحبسكم) جواباً لقولهم (اتوا بآياتنا إن كنتم صادقين) ؟ قلت : لما أنكروا البعث وكذبوا الرسل ، وحسبوا أن ما قالوه قول مبك . أزموا ما هم مقرون به : من أن الله عز وجل هو الذى يحبسهم ثم يبيتهم ، وضم إلى إلزام ذلك إلزام ما هو واجب الإقرار به إن أنصفوا وأصفوا إلى داعى الحق ، وهو جمعهم إلى يوم القيامة ، ومن كان قادراً على ذلك كان قادراً على الإتيان بآياتهم ، وكان آمون شئ عليه .

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِثُ الْمُبْطِلُونَ (٢٧)

وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي

تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٣١)

عامل النصب في (يوم تقوم) ينخر ، و (يومئذ) بدل من (يوم تقوم) (جاثية) باركة مستوفزة على الركب . وقرئ : جاذية . والجنود : أشد استيفازاً من الجنود : لأن الجاذى هو الذى يجلس على أطراف أصابعه : وعن ابن عباس رضى الله عنهما : جاثية بجمعة . وعن قتادة : جماعات من الجنوة ، وهى الجماعة ، وجمعها : جثى . وفى الحديث (٣) ومن جثى جهنم (٣) وقرئ :

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٦٠ فراجع إن شئت اه مصححه .

(٢) هذا طرف من حديث الحرث بن الحرث الأشعرى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من دعا بدعوى الجماعة فانه من جثى جهنم ... الحديث » أخرجه الترمذى والنسائى وابن حبان والحاكم ، وأبو يعلى (تنبيه) احتج به المصنف على أن جثى جمع جثوة : وهى الجماعة . وفى البخارى من حديث ابن عمر رضى الله عنهما رفعه « إن الناس يصيرون يوم القيامة جثا ، كل أمة تتبع نبيا .

(٣) قوله « من جثى جهنم » فى الصحاح والجنوة ، مثله : الهجرة المجموعة . وجثى الحرم : بالضم وبالتكسر :

ما اجتمع فيه من حجارة الجار . (ع)

(كل أمة) على الابتداء : وكل أمة : على الإبدال من كل أمة (إلى كتابها) إلى صحائف أعمالها ، فاكثفت باسم الجنس ، كقوله تعالى (ووضع الكتاب ففرى المجرمين مشفقين مما فيه) . (اليوم تجزون) محمول على القول . فإن قلت : كيف أضيف الكتاب إليهم وإلى الله عز وجل ؟ قلت : الإضافة تكون لللابسة ، وقد لا بسهم ولا بسه ، أما ملابسته إليهم ، فلأن أعمالهم مثبتة فيه . وأما ملابسته إياه ، فلأنه ماله ، والأمر ملائكته أن يكتبوا فيه أعمال عباده (ينطق عليكم) يشهد عليكم بما علمتم (بالحق) من غير زيادة ولا نقصان (إنا كنا نستنسخ) الملائكة (ما كنتم تعملون) أى نستكتبهم أعمالكم (في رحمته) في جنته . وجواب أما محذوف تقديره : وأما الذين كفروا فيقال لهم (أفلم تكن آياتي تتلى عليكم) والمعنى ألم يأنكم رسلى فلم تكن آياتي تتلى عليكم ، لحذف المعطوف عليه .

وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِينَ ٢٢ وَبَدَأَ لَهُمْ سَمَاتٌ مَاعَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ

مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ٢٣

وقرى : والساعة ، بالنصب عطفا على الوعد ، وبالرفع عطفا على محل إن واسمها (ما الساعة) أى شيء الساعة ؟ فإن قلت : مامعنى (إن نظن إلا ظنا) ؟ قلت : أصله نظن ظنا . ومعناه : إثبات الظن فحسب ، فأدخل حرفا النفي والاستثناء ، ليفاد إثبات الظن مع نفي ماسواه وزيد نفي ماسوى الظن توكيدا بقوله (وما نحن بمستيقنين سينات ما عملوا) أى قبائح أعمالهم . أو عقوبات أعمالهم السينات ، كقوله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها) .

وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنفَسُكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ٢٤ ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمْ آتَخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّبْتُمْ

الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ٢٥

(نساكم) ترككم في العذاب كما تركتم عدة (لقاء يومكم هذا) وهى الطاعة ، أو نجعلكم بمنزلة الشيء المنسى غير المبالى به ، كما لم تبالوا أنتم بلقاء يومكم ولم تحظروه ببال ، كالشيء الذى يطرح نسياما نسيا . فإن قلت : فامعنى إضافة اللقاء إلى اليوم ؟ قلت : كعنى إضافة المكر فى قوله تعالى (بل مكر الليل والنهار) أى نسيتم لقاء الله فى يومكم هذا ولقاء جزائه . وقرى : لا يخرجون ، يفتح الياء (ولا هم يستعتبون) ولا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم أى يرضوه .

فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبَرِيَّاتُ
فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

(فله الحمد) فاحمدوا الله الذى هو ربكم ورب كل شىء من السموات والارض والعالمين ،
فان مثل هذه الربوبية العامة يوجب الحمد والثناء على كل مربوب ، وكبروه فقد ظهرت آثار
كبريائه وعظمته (فى السموات والارض) وحق مثله أن يكبر ويعظم .
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ حم الجاثية ستر الله عورته وسكن روعته
يوم الحساب » . (١)

سورة الأحقاف

مكية [إلا الآيات ١٠ و ١٥ و ٣٥ فمدنية]
وآياتها ٣٤ وقيل ٣٥ آية [نزلت بعد الجاثية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ ١ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا
مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾

(إلا بالحق) إلا خلقا ملتبسا بالحكمة والغرض الصحيح (و) بتقدير (أجل مسمى) ينتهى
إليه وهو يوم القيامة (والذين كفروا عما أُنذروا) من هول ذلك اليوم الذى لا بد لكل خلق
من انتهائه إليه (معرضون) لا يؤمنون به ولا يهتمون بالاستعداد له . ويجوز أن تكون ما
مصدرية ، أى : عن إنذارهم ذلك اليوم .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ

(١) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدى بأسانيدهم إلى ابن بن كعب .

شِرْكُ فِي السَّمَوَاتِ أَتُتَوْنِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾

(بكتاب من قبل هذا) أى من قبل هذا الكتاب وهو القرآن، يعنى : أن هذا الكتاب ناطق بالتوحيد وإبطال الشرك. وما من كتاب أنزل من قبله من كتب الله إلا وهو ناطق بمثل ذلك، فأتوا بكتاب واحد منزل من قبله شاهد بصحة ما أنتم عليه من عبادة غير الله (أو أثارة من علم) أو بقية من علم بقيت عليكم من علوم الأولين، من قولهم : سمعت الناقة على أثارة من شحم، أى : على بقية شحم كانت بها من شحم ذاهب. وقرئ : أثرة، أى : من شيء أوثرتم به وخصصتم من علم لا إحاطة به لغيركم. وقرئ : أثرة بالحركات الثلاث في الهمزة مع سكون اللام، فالأثرة بالكسر بمعنى الأثرة. وأما الأثرة فالمرّة من مصدر : أثر الحديث إذا رواه. وأما الأثرة بالضم فاسم ما يؤثر، كالخطبة : اسم ما يخطب به

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْفِئْمَةِ

وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾

(ومن أضل) معنى الاستفهام فيه إنكار أن يكون في الضلال كلهم أبلغ ضلالا من عبدة الأصنام، (١) حيث يتركون دعاء السميع المجيب القادر على تحصيل كل بغية ومرام، ويدعون من دونه جماداً لا يستجيب لهم ولا قدرة به على استجابة أحد منهم ما دامت الدنيا وإلى أن تقوم القيامة، وإذا قامت القيامة وحشر الناس : كانوا لهم أعداء، وكانوا عليهم ضدا، فليسوا في الدارين إلا على نكد ومضرة، لا تتولاهم في الدنيا بالاستجابة؛ وفي الآخرة تعاديهم وتباعد عبادتهم. وإنما قيل (من) و (هم) لأنه أسند إليهم ما يسند إلى أولى العلم من الاستجابة والغفلة، ولأنهم كانوا يصفونهم بالتييز جهلا وغباوة. ويجوز أن يريد : كل معبود من دون الله من الجن

(١) قال محمود : واستفهام معناه إنكار أن يكون في الضلال كلهم أبلغ ضلالا من عبدة الأصنام ... الخ، قال أحد : وفي قوله إلى يوم القيامة : نكتة حسنة، وذلك أنه جعل يوم القيامة غاية لعدم الاستجابة، ومن شأن الغاية انتهاء المغيا عندها. لكن عدم الاستجابة مستمر بعد هذه الغاية؛ لأنهم في القيامة أيضا لا يستجيبون لهم، فالوجه والله أعلم : أنها من الغايات المشفرة بأن ما بعدها وإن وافق ما قبلها إلا أنه أزيد منه زيادة بينة تلحقه بالتالي، حتى كأن الحالتين وإن كانتا نوعا واحداً لتفاوت ما بينهما كالشيء وضده، وذلك أن الحالة الأولى التي جعلت غايتها القيامة لا تزيد على عدم الاستجابة، والحالة الثانية التي في القيامة زادت على عدم الاستجابة بالعداوة بالكفر بعبادتهم إياهم، فهو من وادى ما تقدم آنفاً في سورة الزخرف في قوله (بل تمتع هؤلاء وآباؤهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون)

والإنس والالوان ، فغلب غير الاوثان عليها . قرى : ما لا يستجيب . وقرى : يدعو غير الله من لا يستجيب ، ووصفهم بترك الاستجابة والغفلة طريقه طريق التهكم بها وبعيدتها . ونحوه قوله تعالى (إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم) .

وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءُ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كُفْرِينَ ﴿٦﴾
وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾

(بينات) جمع بيضة : وهى الحجة والشاهد . أو واضحات مبینات . واللام فى (للقحق) مثلها فى قوله (وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً) أى لأجل الحق ولأجل الذين آمنوا . (١) والمراد بالحق : الآيات ، وبالذين كفروا : المتلوع عليهم ، فوضع الظاهران موضع الضميرين : للتسجيل عليهم بالكفر ، والمتلوع بالحق (لما جاءهم) أى : بادهوه بالجهود ساعة أتاها ، وأول ما سمعوه من غير إجابة فكر ولا إعادة نظر . ومن عنادهم وظلمهم : أنهم سموه سحراً مبیناً ظاهراً أمره فى البطلان لا شبهة فيه .

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾
(أم يقولون افتراه) إضراب عن ذكر تسميتهم الآيات سحراً إلى ذكر قولهم : إن محمداً افتراه . ومعنى الهمزة فى أم : الإنكار والتعجب ، كأنه قيل : دع هذا واسمع قولهم المستنكر المقتضى منه العجب ، وذلك أن محمداً كان لا يقدر عليه حتى يقوله ويفتره على الله ، ولو قدر عليه دون أمة العرب لكانت قدرته عليه معجزة لحرقها العادة ، وإذا كانت معجزة كانت تصديقاً من الله له ، والحكيم لا يصدق الكاذب فلا يكون مفترياً . والضمير للحق ، والمراد به الآيات (قل إن افتريته) على سبيل الفرض عاجلنى الله تعالى للاحالة بعقوبة الافتراء عليه . فلا تقدرון

(١) قال محمود : «اللام فى قوله تعالى للحق نحو اللام فى قوله (وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً) ما سبقونا إليه» أى لأجل الحق ولأجل الذين آمنوا ... الخ . قال أحد : هذا الإضراب فى بابه مثل الغاية التى قدمتها آتفاً فى بابها فانه انتقل إلى موافق ، لكنه أزيد من الأول ، فزول بزيادته عليه مع ما تقدمه مما ينقص عنه منزلة المتنافين ، كاللنى والاثبات للذين يضرب عن أحدهما للآخر ، وذلك أن نسبتهم للآيات إلى أنها مفتريات أشد وأبعد من نسبتها إلى أنها سحر ، فأضرب عن ذلك الأول إلى ذكر ما هو أغرب منه .

على كفه عن معاجلتى ولا تطيقون دفع شيء من عقابه عني ، فكيف أفتريه وأتعرض لعقابه .
يقال : فلان لا يملك إذا غضب ، ولا يملك عنائه إذا صم ، ومثله (فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم) ، (ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا) ومنه قوله عليه السلام : لا أملك لكم من الله شيئا ، ^(١) ثم قال (هو أعلم بما تفيضون فيه) أى تندفعون فيه من القدح في وحى الله تعالى ، والطعن في آياته ، وتسميته محرراً تارة وفرية أخرى (كنى به شهيداً بيني وبينكم) يشهد لي بالصدق والبلاغ ، ويشهد عليكم بالكذب والجحود . ومعنى ذكر العلم والشهادة وعيد مجزاء بإفاضتهم (وهو الغفور الرحيم) موعدة بالغفران والرحمة إن رجعوا عن الكفر وتابوا وآمنوا ، وإشعار بحلم الله عنهم مع عظم ما ارتكبوا . فإن قلت : فما معنى إسناد الفعل إليهم ^(٢) في قوله تعالى فلا تملكون لي ؟ قلت : كان فيما أنامهم به النصيحة لهم والإشفاق عليهم من سوء العاقبة وإرادة الخير بهم ، فكأنه قال لهم : إن أفتريته وأنا أريد بذلك التنصح لكم وصدكم عن عبادة الآلهة إلى عبادة الله ، فما تغنون عني أيها المنصوحون إن أخذني الله بعقوبة الافتراء عليه .

قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُمْ

إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ①

البدع ، بمعنى : البديع ، كالحنف بمعنى الخفيف . وقرئ : بدعا ، بفتح الدال ، أى : ذابذع

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضى الله عنه ، ولما نزلت (وأنذر عشيرتک الاقربين) دعا النبي صلى الله عليه وسلم قريشاً فاجتمعوا . فعم وخس . فقال : يا بني كعب بن لؤى يا بني مرة بن كعب : يا بني عبد شمس يا بني عبد مناف ، يا بني هاشم ، يا بني عبد المطلب ، إني لأملك لكم من الله شيئا - الحديث .

(٢) قال مجاهد : فإن قلت : ما معنى إسناد الفعل إليهم ... الخ قال أحمد : فيه نظر من قبيل أن الكلام جرى قرصاً وتقديراً . ومتى فرض الافتراء لا يتصور على تقديره نصيح ، فإن النصيح عبارة عن الداء إلى ما فيه نفع ، ولا ينفع المكلف في عمل ظاهر أو باطن إلا أن يكون مأموراً به من الله تعالى ، ولا يسيل إلى الإطلاع على ذلك إلا من الوحي الحق لا غير ، فإذا لا يتصور نصيح مع الافتراء ، وإنما يتم هذا الذي قرره على قاعدة المعقولة القائلة بأن العقل طريق يوصل إلى معرفة حكم الله تعالى ؛ لأنه إذا أمر بطاعة من الطاعات كالنوحيد مثلاً وقال : إن الله حتم عليكم وجوب التوحيد ، وأنا رسول الله إليكم . ولم يكن متعوقاً فإنه محق في الأمر بالتوحيد ؛ لأن العقل دل على وجوبه عندهم ، وإن كان مغترباً في دنوى كونه رسولا من الله عز وجل . وهذه قاعدة قد أسستها الأدلة القاطعة ، فيحتل في إجراء الآية على مذهب أهل السنة : أن يكون إسناد الفعل لهم على معنى التنبيه بالشئ على مقابلة بطريق المفهوم ، فالمعنى إذا إن كنت مغترباً فالتعقوب واقعة في لا تندفعونها عني ، ففهموه : وإن كنت محققاً وأتم مقفرون فالتعقوب واقعة بكم لا أقدر على دفعها عنكم . ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى (قل إن أفتريته فعلي إجرامي وأنا بريء مما تجرمون) وأمثلة كثيرة والله أعلم .

ويجوز أن يكون صفة على فعل ، كقولهم : دين قيم ، ولحم زيم^(١) : كانوا يقترحون عليه الآيات ويسألونه عما لم يوح به إليه من الغيوب ، فقيل له : ﴿ قل ما كنت بدعا من الرسل ﴾ فأتيكم بكل ما تنقروا عنه ، وأخبركم بكل ما تسألون عنه من المغيبات ؛ فإن الرسل لم يكونوا يأتون إلا بما آتاهم الله من آياته ، ولا يخبرون إلا بما أوحى إليهم . ولقد أجاب موسى صلوات الله عليه عن قول فرعون : فما بال القرون الأولى ؟ بقوله : عليها عند ربى ﴿ وما أدري ﴾ لأنه لا علم لى بالغيب - ما يفعل الله فى وبكم فيما يستقبل من الزمان من أفعاله ، ويقدر لى ولكم من قضائاه ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إلى ﴾ وعن الحسن : وما أدري ما يصير إليه أمرى وأمركم فى الدنيا ، ومن الغالب منا والمغلوب . وعن الكلبي : قال له أصحابه - وقد ضجروا من أذى المشركين - : حتى متى نكون على هذا ؟ فقال : ما أدري ما يفعل بى ولا بكم ، أترك بمكة أم أمر بالخروج إلى أرض قد رفعت لى ورأيتها - يعنى فى منامه - ذات نخيل وشجر ؟ وعن ابن عباس : ما يفعل بى ولا بكم فى الآخرة ، وقال : هى منسوخة بقوله (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) ويجوز أن يكون نفيًا للدراية المفصلة^(٢) . وقرئ : ما يفعل ، بفتح الياء ، أى : يفعل الله عز وجل . فإن قلت : إن (يفعل) مثبت غير منفي ، فكان وجه الكلام : ما يفعل بى وبكم . قلت : أجل ، ولكن النفي فى ما أدري لما كان مشتملا عليه لتناوله (ما) وما فى حيزه : صح ذلك وحسن . ألا ترى إلى قوله (أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعبى بخلقهن بقادر) كيف دخلت الياء فى حيز أن وذلك لتناول النفي إياها مع ما فى حيزها . و(ما) فى (ما يفعل) يجوز أن تكون موصولة منصوبة ، وأن تكون استفهامية مرفوعة . وقرئ : يوحى ، أى الله عز وجل .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَتْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنْ وَأَسْتَكْبِرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠)

(١) قوله « ولحم زيم » فى الصحاح « اللحم الزيم » المتفرق ليس مجتمع فى مكان فيدين . وفيه أيضاً : بدن

الرجل يبدن ، إذا ضم ومن . (ع)

(٢) قال محمود : « أاجود ما ذكر فيه حله على الدراية المفصلة ، يريد بذلك أن تفصيل ما يصير إليه من خير ويصيرون إليه من شر ... الخ ، قال أحمد : « بنى على أن الجور معطوف على مثله ، وأنها جميعا فى صلة موصول واحد ، ولوقيل : إن الجور لثانى من صلة موصول محذوف معطوف على مثله ، حتى يكون التقدير : وما أدري ما يفعل بى ولا ما يفعل بكم : لكانت (لا) واقعة بمكانة غير مفتقرة إلى تأويل ، وحذف الموصول المعطوف وتفصيله كثيرة . ومنه

فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء

يريد حسان رضى الله عنه : فمن يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن يمدحه سواء .

جواب الشرط محذوف تقديره : إن كان القرآن من عند الله وكفرتم به أستم ظالمين .
ويدل على هذا المحذوف قوله تعالى (إن الله لا يهدي القوم الظالمين) والشاهد من بنى إسرائيل :
عبد الله بن سلام ، لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة نظر إلى وجهه ، فعلم أنه ليس
بوجه كذاب . وتأمله فتحقق أنه هو النبي المنتظر وقال له : إني سأئك عن ثلاث لا يعلمهن
إلا نبي : ما أول الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه
أو إلى أمه ؟ فقال عليه الصلاة والسلام . ^(١) أما أول أسراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى
المغرب . وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت . وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل
نزعه ، وإن سبق ماء المرأة نزعه . فقال : أشهد أنك رسول الله حقا ، ثم قال : يا رسول الله ،
إن اليهود قوم بهت وإن علوا يأسلموا قبل أن تسألهم عنى بهتوني ^(٢) عندك . فجاءت اليهود
فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : أى رجل عبد الله فيكم ؟ فقالوا : خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا
وابن سيدنا ، وأعلنا وابن أعلنا . قال : أرايتم إن أسلم عبد الله ؟ قالوا : أعاذه الله من ذلك ،
نخرج إليهم عبد الله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، فقالوا : شرنا
وابن شرنا واتقصوه ، قال : هذا ما كنت أخاف يا رسول الله وأحذر . قال سعد بن أبى وقاص
ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشى على وجه الأرض أنه من أهل الجنة
إلا لعبد الله بن سلام ^(٣) ، وفيه نزل (وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله) ^(٤) الضمير
للقرآن ، أى : على مثله فى المعنى ، وهو ما فى التوراة من المعانى المطابقة لمعانى القرآن من التوحيد
والوعد والوعيد وغير ذلك . ويدل عليه قوله تعالى (ولأنه لى زبر الأولين) ، (إن هذا لى
الصف الأول) ، (كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك) ويجوز أن يكون المعنى : إن
كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد على نحو ذلك ، يعنى كونه من عند الله . فإن قلت :
أخبرنى عن نظم هذا الكلام لأقف على معناه من جهة ^(٥) النظم . قلت : الواو الأولى عاطفة

(١) أخرجه البخارى من رواية حميد عن أنس ، وأتم منه .

(٢) قوله «بهتوني» أى : رموني بما ليس فى . (ع)

(٣) متفق عليه

(٤) عند البخارى وشك فى إدراجها . وروى الطبرى من رواية محمد بن يوسف بن عبد الله بن سلام قال قال
عبد الله بن سلام وفى ذلك هذه الآية . ثم روى عن الضمى أنه أنكر ذلك لكون السورة مكية . كذا أخرجه ابن
أبى شيبة عن الضمى .

(٥) قال محمود : «إن قلت : أخبرنى عن نظم هذا الكلام لأقف عليه من جهة النظم ... الخ» قال أحمد :
إنما لم يرجع المعطوف إلى جهة واحدة : لأن التفصيل قد يكون عطف مجموع مفردات على مجموع مفردات كل منهما
والآية من هذا النمط ، ومثلها قوله تعالى (وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور) وقوله (إن المسلمين
والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات) (الآية) ، وقد تقدم تقرير ذلك فى الآيتين لجدد به عهدا .

لكفرتم على فعل الشرط ، كما عطفته (ثم) في قوله تعالى (قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به) وكذلك الواو الآخرة عاطفة لاستكبرتم على شهد شاهد ، وأما الواو في (وشهد شاهد) فقد عطفت جملة قوله . شهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم : على جملة قوله (كان من عند الله وكفرتم به) ونظيره قولك : إن أحسنت إليك وأساءت ، وأقبلت عليك وأعرضت عني ، لم تنفق في أنك أخذت ضميمتين فعطفتهما على مثلتهما ، والمعنى : قل أخبروني إن اجتمع كون القرآن من عند الله مع كفركم به ، واجتمع شهادة أعلم بني إسرائيل على نزول مثله وإيمانه به ، مع استكباركم عنه وعن الإيمان به ، أستم أضل الناس وأظلمهم ؟ وقد جعل الإيمان في قوله (فآمن) مسيباً عن الشهادة على مثله ؛ لأنه لما علم أن مثله أنزل على موسى صلوات الله عليه ، وأنه من جنس الوحي وليس من كلام البشر ، وأنصف من نفسه فشهد عليه واعترف كان الإيمان نتيجة ذلك .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ قَالُوا كَذَّبُوا هَذَا إِنْكَ قَدِيمٌ ⑪
وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانِ عَرَبِيًّا لِّنُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِّلْمُحْسِنِينَ ⑫
إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ⑬
أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ⑭

(الذين آمنوا) لأجلهم وهو كلام كفار مكة ، قالوا : عاقبة من يتبع محمدا السقاط ، يعنون الفقراء مثل عمار وصهيب وابن مسعود ، فلو كان ما جاء به خيراً ما سبقنا إليه هؤلاء . وقيل : لما أسلمت جهينة ومزينة وأسلم وغفار : قالت بنو عامر وغطفان وأسد وأشجع : لو كان خيراً ما سبقنا إليه رعاء البهم . وقيل : إن أمة لعمر أسلمت ، فكان عمر يضربها حتى يفتر ثم يقول لولا أني قرت لودتك ضرباً ، وكان كفار قريش يقولون : لو كان ما يدعوا إليه محمد حقاً ما سبقتنا إليه فلانة . وقيل : كان اليهود يقولونه عند إسلام عبدالله بن سلام وأصحابه . فإن قلت : لا بد من عامل في الظرف (١) في قوله (وإذا لم يهتدوا به) ومن متعلق لقوله (فسيقولون) وغير

(١) قال محمود : « لا بد من عامل الظرف وغير مستقيم أن يعمل فيه ... الخ » قال أحد : إن لم يكن مانع من عمل فسيقولون في الظرف ألتا في دلالاتي المعنى والاستقبال ، فهذا غير مانع ، فإن الاستقبال هنا إنما خرج مخرج الإشعار بدوام مازع ومعنى : لأن القوم قد حرموا الهداية وقالوا : هذا إفك قديم ، وأساطير الأولين =

مستقيم أن يكون (فسيقولون) هو العامل في الظرف ، لتدافع دلالاتي المضى والاستقبال ، فما وجه هذا الكلام ؟ قلت : العامل في إذ محذوف ، لدلالة الكلام عليه ، كما حذف من قوله (فلما ذهبوا به) وقولهم : حينئذ الآن ، وتقديره : وإذا لم يهتدوا به ظهر عنادهم ، فيقولون هذا إفاك قديم ، فهذا المضمر صرح به الكلام ، حيث انتصب به الظرف وكان قوله (فسيقولون) مسبباً عنه كما صرح بإضمار أن قوله (حتى يقول الرسول) لمصادفة (حتى) مجرورها ، والمضارع ناصبه . وقولهم (إفاك قديم) كقولهم : أساطير الأولين (كتاب موسى) مبتدأ ومن قبله ظرف واقع خبراً مقدماً عليه ، وهو ناصب (إماماً) على الحال ، كقولك : في الدار زيد قائماً . وقرئ : ومن قبله كتاب موسى ، على : وآتينا الذين قبله التوراة . ومعنى (إماماً) : قدوة يؤتم به في دين الله وشرائعه ، كما يؤتم بالإمام (ورحمة) لمن آمن به وعمل بما فيه (وهذا) القرآن (كتاب مصدق) لكتاب موسى . أو لما بين يديه وتقدمه من جميع الكتب . وقرئ : مصدق لما بين يديه . و (لساناً عربياً) حال من ضمير الكتاب في مصدق ، والعالم فيه (مصدق) ويجوز أن ينتصب حالا عن كتاب^(١) لتخصسه بالصفة ، ويعمل فيه معنى الإشارة . ويجوز أن يكون مفعولاً لمصدق ، أى : يصدق ذا لسان عربى وهو الرسول . وقرئ : لينذر بالياء والتاء . ولينذر : من نذر ينذر إذا حذر (وبشرى) في محل النصب معطوف على محل لينذر ، لأنه مفعول له .

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ
وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنًا قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي
أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَحْمَلَ صَلَاحًا تُرِضَاهُ

== وغير ذلك ؛ فعنى الآية إذا : وقالوا إذ لم يهتدوا به هذا إفاك قديم ودأبوا على ذلك وأصروا عليه ، فغير من وقوعه ثم دوامه بصيغة الاستقبال ، كما قال إبراهيم (إلا الذى فطرنى فانه سيدين) وقد كانت الهداية واقعة وماضية ولكن أخبر عن وقوعها ، ثم دوامها فغير بصيغة الاستقبال ، وهذا طريق الجمع بين قوله (سيدين) وقوله فى الأخرى (فهو يدين) ولولا دخول الفاء على الفعل لكان هذا الذى ذكرته هو الوجه ، ولكن الفاء المسببة دلالة بدخولها على محذوف هو السبب ، وقطعت الفعل عن الظرف المتقدم ؛ فوجب تقدير المحذوف عاملاً فيه لينظم بتقديره عاملاً أمراً : مصادفة الظرف للعامل والفعل المعلق لعلته ، فتعين ما ذكره الزعزعى لأجل الفاء لالتفاف الداليتين . والله أعلم .

(١) أجاز محمود فى نصبه أن يكون حالا عن كتاب لتخصسه بالصفة ... الخ . قال أحد : وجهان حستان أعزهما بئالذ : وهو النصب على الاختصاص ، وهذه الوجوه فى قوله تعالى (فيها يفرق كل أمر حكيم أمراً من عندنا) ، والله أعلم .

وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ
نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا مَحَلُّوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصَّدَقِ
الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾

قرئ: حسنا، بضم الحاء وسكون السين. وبضمهما. وبفتحهما. وإحسانا. وكرها، بالفتح
والضم، وهما لغتان في معنى المشقة، كالفقر والفقر. وانتصابه على الحال: أى: ذات كره.
أو على أنه صفة للمصدر، أى: حملاذا كثره (وحمله وفصاله) ومدة حمله وفصاله (ثلاثون
شهرا) وهذا دليل على أن أقل الحمل ستة أشهر: لأن مدة الرضاع إذا كانت حولين لقوله عز
وجل (حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة) بقيت للحمل ستة أشهر. وقرئ: وفصله.
والفصل والفصال: كالقطع والقطام، بناء ومعنى. فإن قلت: المراد بيان مدة الرضاع لا القطام،
فكيف عبر عنه بالفصال؟ قلت: لما كان الرضاع يليه الفصال ويلابسه لأنه ينتهى به ويتم:
سمى فصالا، كما سمي المدة بالآمد من قال:

كُلُّ حَيٍّ مُسْتَكْمِلٌ مُدَّةَ الْعُمُرِ وَمُودٍ إِذَا آتَتْهُ أَمْدُهُ ^(١)

وفيه فائدة وهي الدلالة على الرضاع التام المنتهى بالفصال ووقته. وقرئ: حتى إذا استوى
وبلغ أشده. وبلوغ الأشد: أن يكتهل ويستوفى السن التي تستحكم فيها قوته وعقله وتميزه،
وذلك إذا أناف على الثلاثين وناطح الأربعين. وعن قتادة: ثلاث وثلاثون سنة، ووجهه
أن يكون ذلك أول الأشد، وغايته الأربعين. وقيل: لم يبعث نبي قط إلا بعد أربعين سنة.
والمراد بالنعمة التي استوزع الشكر عليها: نعمة التوحيد والإسلام، وجمع بين شكرى النعمة
عليه وعلى والديه: لأن النعمة عليهما نعمة عليه. وقيل في العمل المرضي: هو الصلوات الخمس.
فإن قلت: مامعنى (في) في قوله (وأصلح لي في ذريتي)؟ قلت: معناه: أن يجعل ذريته موقعا
للصلاح ^(٢) ومظنة له كأنه قال: هب لي الصلاح في ذريتي وأوقعه فيهم ونحوه:

• يَجْرَحُ فِي عَرَائِقِهَا نَفْلِي • ^(٣)

(من المسلمين) من المخلصين. وقرئ: يتقبل، ويتجاوز، بفتح الياء، والضمير فيهما لله عز

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٢٧٧ فراجع إن شئت اه مصححه.

(٢) قال محمود: «فإن قلت: ما معنى في هنا، وأجاب بأن المراد جعل ذريته... الخ» قال أحد: ومثله
قوله تعالى (إلا المودة في القربى) عدولا عن قوله: إلا مودة القربى. أو المودة للقربى، والله أعلم.

(٣) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة ٥٧٨ فراجع إن شئت اه مصححه.

وجل . وقرئاً بالنون . فإن قلت : ما معنى قوله ﴿ في أصحاب الجنة ﴾ ؟ قلت : هو نحو قولك : أكرمني الأمير في ناس من أصحابه ، تريد : أكرمني في جملة من أكرم منهم ، ونظمني في عدادهم ، وعمله النصب على الحال . على معنى : كائنين في أصحاب الجنة ومعدودين فيهم ﴿ وعد الصدق ﴾ مصدر مؤكد ؛ لأن قوله : يتقبل ، ويتجاوز : وعد من الله لهم بالتقبل والتجاوز . وقيل : نزلت في أبي بكر رضي الله عنه وفي أبيه أبي قحافة وأمه أم الخير وفي أولاده ، واستجابة دعائه فيهم . وقيل : لم يكن أحد من الصحابة من المهاجرين منهم والأَنْصار أسلم هو ووالداه وبنوه وبناته غير أبي بكر .

وَالَّذِي قَالَ لَوْلَا إِلَهِي لَكُمَا أَتَعِدَايَ أَنْ أَخْرَجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِيتَانِ اللَّهَ وَبِكَ ءَامِنُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِيرِينَ (١٨)

﴿ والذي قال لو لولاهي لكانت القرون قد خلت من قبلي وهما يستفيتان الله وبك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين ﴾ (١٧) أولئك الذين حَقَّ عليهم القول في أمم قد خلت من قبليهم من الجن والإنس إنهم كانوا خسирين ﴿ والذي قال لو لولاهي ﴾ مبتدأ خبره : أولئك الذين حَقَّ عليهم القول . والمراد بالذي قال : الجنس القائل ذلك القول ، ولذلك وقع الخبر مجموعاً . وعن الحسن : هو في الكافر العاق لولاهي المكذب بالبعث . وعن قتادة : هو نعت عبد سوء عاق لولاهي فاجر لربه . وقيل : نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر^(١) قبل إسلامه وقد دعاه أبوه أبو بكر وأمه أُمّ رومان إلى الإسلام ، فأفف بهما وقال : ابعثوا لي جدعان بن عمرو وعثمان بن عمرو ، وهما من أجداده حتى أسألهما

(١) قال محمود : « زعم بعضهم أن المعنى بالآية عبد الرحمن بن أبي بكر ... الخ » قال أحمد : ونحن نختار أن المراد الجنس لا عبد الرحمن بن أبي بكر ، ولكننا لا نختار الرد على قائل ذلك بهذا الوجه ، فإن له أن يقول : أراد عبد الرحمن وأمه ، ومثل ذلك قول الله تعالى حكاية عن العزيز يخاطب زينبا (إنه من كيدهن إن كيدهن عظيم) غفطها وخاطب أمها ، والمقصودة هي ، وقد عاد إلى خطابها خصوصاً بقوله (واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين) ولكن وجه الرد على من زعم أن المراد عبد الرحمن : ما ذكره الوعشري ثانياً فقال (إن الذين حَقَّ عليهم القول) هم المخلدون في النار في علم الله تعالى ، وعبد الرحمن كان من أفاضل المسلمين وسرواتهم . ونقل أن معاوية كتب إلى مروان بأن يبايع الناس ليزيد فقال عبد الرحمن : لقد جئتم بها هرقلية أتابعون لأبنائكم فقال مروان أباها الناس : إن هذا هو الذي قال الله فيه (والذي قال لولاهي ... الآية) فسمعت عائشة ففضت وقالت : والله ما هو به ، ولو شئت أن أسميه لسميته ، ولكن الله لعن أباك وأنت في صلبه فأنت فضض من لعنة الله قال أحمد : وفي هذه الآية رد على من زعم أن المفرد الجنس لا يعم ؛ لأنه لا يعامل معاملة الجمع لا في الصفة ولا في الخبر ، فلا يجوز أن تقول : الديار الصفراء خير من الدرهم البيض ، وهذا مردود بأن خبر الذي الواقع جنساً جاء على نعت غير المجموع كما رأيت ، والله أعلم .

عما يقول محمد، ويشهدوا بطلانه أن المراد بالذي قال : جنس القائلين ذلك ، وأن قوله الذين حق عليهم القول : هم أصحاب النار، وعبدالرحمن كان من أفاضل المسلمين وسرواتهم . وعن عائشة رضى الله عنها إنكار نزولها فيه ، وحين كتب معاوية إلى مروان بأن يبايع الناس ليزيد قال عبدالرحمن : لقد جئتم بها هرقلية : تبايعون لأبنائكم ، فقال مروان : يا أيها الناس ، هو الذى قال الله فيه (والذى قال لوالديه أف لك) فسمعت عائشة فغضبت وقالت : والله ما هو به ، ولو شئت أن أسميه لسميته^(١) ولكن الله لعن أباك وأنت فى صلبه ، فأنت فضض من لعنة الله .^(٢) وقرئ : أف ، بالكسر والفتح بغير تنوين ، وبالحرركات الثلاث مع التنوين ، وهو صوت إذا صوت به الإنسان علم أنه متضجر ، كما إذا قال : حس ، علم منه أنه متوجع ، واللام للبيان ، معناه : هذا التأفيف لك خاصة ، ولا جملتك دون غيرك . وقرئ : أتعدانى : بنوين . وأتعدانى : بأحدهما . وأتعدانى : بالإدغام . وقد قرأ بعضهم : أتعدانى بفتح النون ، كأنه استقل اجتماع التنوين والكسرتين والياء ، ففتح الأولى تحرياً للتخفيف ، كما تحراه من أدغم ومن أطرح أحدهما (أن أخرج) أن ابعث وأخرج من الأرض . وقرئ : أخرج (وقد خلت القرون من قبلى) يعنى : ولم يبعث منهم أحد (يستغيثان الله) يقولان : الغياث بالله منك ومن قولك ، وهو استعظام لقوله (ويلك) دعاء عليه بالثبور : والمراد به الحث والتحريض على الإيمان لاحقيقة الهلاك (فى أمم) نحو قوله (فى أصحاب الجنة) وقرئ : أن ، بالفتح . على معنى : آمن بأن وعد الله حق .

وَلِكُلِّ دَرَجَتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوقَّيْمُ أَعْمَلَهُمْ وَمَنْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾

(ولكل) من الجنسين المذكورين (درجات مما عملوا) أى منازل ومراتب من جزاء ما عملوا من الخير والشر ، ومن أجل ما عملوا منهما .^(٣) فإن قلت : كيف قيل : درجات ، وقد جاء : الجنة درجات والنار دركات ؟ قلت : يجوز أن يقال ذلك على وجه التغايب ، لاشتغال كل على الفريقين (وليوفهم) وقرئ : بالنون تعليل معلله محذوف لدلالة الكلام عليه ، كأنه قيل :

(١) أخرجه النسائي ، واللفظ له وابن أبي خيثمة والحاكم وابن مردويه من رواية محمد بن زياد . وقال دلماع بايع معاوية لابنه قال مروان : سنة أبى بكر ومهر . فقال عبد الرحمن بن أبى بكر : سنة هرقل وقيسر قال مروان : هذا الذى أنزل . فذكر الآية فبلغ ذلك عائشة فقالت : كذب والله . ما هو به . فذكره . ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن أبا مروان ومروان فى صلبه إلى آخره . ولفظ ابن أبى خيثمة : وإن معاوية كتب إلى مروان بن الحكم أن يبايع الناس ليزيد بن معاوية . فقال عبد الرحمن لقد جئتم بها هرقلية . إلى آخر لفظ المصنف . قلت : أصله فى البخارى من رواية يوسف بن ماعك عن عائشة دون ما فى آخره .

(٢) قوله «فأنت فضض من لعنة الله» فى الصحاح كل شيء تفرق فهو فضض . وفى الحديث : أنت فضض

من لعنة الله ، يعنى : ما انفض من نطفة الرجل وتردد فى صلبه . (ع)

(٣) قوله «ومن أجل ما عملوا منهما» لعله : أو من أجل . (ع)

وليوفهم أعمالهم ولا يظلمهم حقوقهم : قدر جرائمهم على مقادير أعمالهم ، فجعل الثواب درجات والعقاب دركات .

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي

الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾

ناصب الظرف هو القول المضمر قبل ﴿أذهبت﴾ وعرضهم على النار : تعذيبهم بها ، من قولهم : عرض بنو فلان على السيف ^(١) إذا قتلوا به . ومنه قوله تعالى (النار يعرضون عليها) ويجوز أن يراد : عرض النار عليهم من قولهم : عرضت الناقة على الحوض ، يريدون : عرض الحوض عليها فقبلوا . ويدل عليه تفسير ابن عباس رضى الله عنه : يجاء بهم إليها فيكشف لهم عنها ﴿أذهبت طيباتكم﴾ أى : ما كتب لكم حظ من الطيبات إلا ما قد أصبتموه في دنياكم ، وقد ذهبت به وأخذتموه ، فلم يبق لكم بعد استيفاء حظكم شيء منها . وعن عمر رضى الله عنه : لو شئت لدعوت بصلاتي وصناب ^(٢) وكراكر وأسنة ، ولكنى رأيت الله تعالى نعى على قوم طيباتهم فقال : أذهبت طيباتكم في حياتكم الدنيا . ^(٣) وعنه : لو شئت لكنت أطيبكم طعاما وأحسنكم لباسا ، ولكنى أستبقي طيباتى : ^(٤) وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه دخل على أهل الصفة وهم يرقعون ثيابهم بالآدم ما يجدون لها رقاعا ، فقال : أأنتم اليوم خير أم يوم

(١) قال محمود : «عرضهم على النار إما من قولهم عرض بنو فلان على السيف ... الخ» قال أحمد : وإن كان قولهم : عرضت الناقة على الحوض مقولاً ، فليس قوله : يعرض الذين كفروا على النار مقولاً ؛ لأن الملحق . ثم إلى اعتقاد القلب أن الحوض جامد لا إدراك له ، والناقة هي المدركة ، فهي التي يعرض عليها الحوض حقيقة ، وأما النار فقد وردت النصوص بأنها حينئذ مدركة إدراك الحيوانات بل إدراك أولي العلم ؛ فالأمر في الآية على ظاهره ، كقولك : عرضت الأسرى على الأمير ، والله أعلم .

(٢) قوله «بصلاتي وصناب» في الصحاح : الصلات : الخبز الرقاق . والصناب : صباغ يتخذ من الحردل والريب . والكركرة : رحي زور البعير . والزور : أعلى الصدر أنه أخذ من مواضع . (ع)

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد أخبرنا جرير بن حازم أنه سمع الحسن يقول «قدم على أمير المؤمنين عمر وفد أهل البصرة مع أبي موسى الأشعري قال لو كنا ندخل وأنه كل يوم خبز بيت . فذكر الحديث . وفيه «أما والله ما أجهل من كراكر وأسنة وصلا وصناب وقال جرير : الصلاه هو الشواء والصناب الحردل ، والصلات الخبز الرقاق . ولكن سمعت الله غير أقواما بأمر فعلوه . فقال : (أذهبت طيباتكم) الآية . وأخرجه أبو عبيدة في الغريب . وابن سعد وأحمد في الزهد . وأبو نعيم في الحلية كلهم من طريق جرير به .

(٤) أخرجه الطبري من رواية سعيد عن قتادة قال ذكر لنا عمر قال : فذكره .

يندو أحدكم في حلة ويروح في أخرى ، ويفدى عليه بجفنة ويراح عليه بأخرى ، ويستر بيته كما تستر الكعبة . قالوا : نحن يومئذ خير . قال . بل أنتم اليوم خير ^(١) وقرئ : أذهبتم بهمة الاستفهام . وآ أذهبتم بألف بين هزتين : الهون . والهوان : وقرئ عذاب الهوان ، وقرئ يفسقون بضم السين وكسر هاء .

وَأَذْكُرُ أَتَحَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١)

الأحقاف : جمع حقف وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء ، من أحقوف الشيء . إذا أعوج ، وكانت عاد أصحاب عمد يسكنون بين رمال مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشحر من بلاد اليمن . وقيل : بين عمان ومهرة . و(النذر) جمع نذير بمعنى المنذر أو الإنذار (من بين يديه) من قبله (ومن خلفه) ومن بعده . وقرئ : من بين يديه ومن بعده . والمعنى : أن هوداً عليه السلام قد أذّرهم فقال لهم : لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم العذاب : وأعلمهم أن الرسل الذين بعثوا قبله والذين سيبعثون بعده كلهم منذرون نحو إنذاره وعن ابن عباس رضي الله عنه : يعني الرسل الذين بعثوا قبله والذين بعثوا في زمانه . ومعنى (ومن خلفه) على هذا التفسير ومن بعد إنذاره ، هذا إذا عقلت ، وقد خلت النذر بقوله : أذّر قومه ، ولك أن تجعل قوله تعالى (وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه) اعتراضاً بين أذّر قومه وبين (ألا تعبدوا) ويكون المعنى : واذكر إنذار هود قومه عاقبة الشرك والعذاب العظيم : وقد أذّر من تقدمه من الرسل ومن تأخر عنه مثل ذلك ، فاذكروهم .

قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ (٢٢)

الإفك : الصرف . يقال أفكك عن رأيه (عن آلهتنا) عن عبادتها (بما تعدنا) من معاملة العذاب على الشرك (إن كنت) صادقاً في وعدك .

قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣)

فإن قلت : من أين طابق قوله تعالى (إنما العلم عند الله) جواباً لقولهم (فأتنا بما تعدنا) ؟

(١) أخرجه الطبري من رواية سعد عن قتادة قال : ذكر لنا . فذكره . ومن طريقه الشعبي . ورواه أبو نعيم في الحلية في ترجمة أهل الصفة من طريق الحسن قال : حسب أضعاف المسلمين ، فذكر نحوه مطولاً وفق الترمذي من طريق محمد بن كعب القرظي : حدثني من سمع علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : بينا نحن جلوس في المسجد إذ طلع علينا مصعب بن عمير ما عليه إلا بردة له مرقوعة بفر . فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم بكى الذي كان فيه من النعمة . ثم قال : كيف بكم ... الحديث نحوه . .

قلت : من حيث إن قولهم هذا استعجال منهم بالعذاب . ألا ترى إلى قوله تعالى (بل هو ما استعجلتم به) فقال لهم : لا علم عندى بالوقت الذى يكون فيه تعذيبكم حكمة وصوابا ، إنما علم ذلك عند الله ، فكيف أدعوه بأن يأتيكم بعذابه فى وقت عاجل تقترحونه أنتم ؟ ومعنى : (وأبلغكم ما أرسلت به) وقرئ بالتخفيف : أن الذى هو شأنى وشرطى : أن أبلغكم ما أرسلت به من الإنذار والتخويف والصرف عما يعرضكم لسخط الله بجهدى ، ولكنكم جاهلون لا تعلمون أن الرسل لم يبعثوا إلا منذرين لا مقترحين ، ولا سائلين غير ما أذن لهم فيه .

فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾

(فلما رأوه) فى الضمير وجهان : أن يرجع إلى ما تعدنا ، وأن يكون مبهما قد وضع أمره بقوله (عارضا) إما تمييزاً وإما حالا . وهذا الوجه أعرب وأفصح . والعارض : السحاب الذى يعرض فى أفق السماء . ومثله : الحى والعنان ، من حبا وعن : إذا عرض . وإضافة مستقبل ومطر مجازية غير معرفة : بدليل وقوعهما وهما مضافان إلى معرفتين وصفاً للكرة (بل هو) القول قبله مضمر ، والقائل : هود عليه السلام ، والدليل عليه قراءة من قرأ : قال هود ، بل هو . وقرئ : قل بل ما استعجلتم به هى ريح ، أى قال الله تعالى : قل (تدمر كل شيء) تهلك من نفوس عاد وأموالهم الجمل الكثير ، فعبر عن الكثرة بالكلية . وقرئ : يدمر كل شيء من دمر دماراً إذا هلك (لا ترى) الخطاب للرائى من كان . وقرئ : لا يرى ، على البناء للفعول بالياء والتاء ، وتأويل القراءة بالتاء وهى عن الحسن رضى الله عنه : لا ترى بقايا ولا أشياء منهم إلا مساكنهم . ومنه بيت ذى الرمة :

• وَمَا بَقِيَتْ إِلَّا الضُّلُوعُ الْجَرَّاشِعُ • (١)

وليست بالقوية . وقرئ : لا ترى إلا مسكنهم ، ولا يرى إلا مسكنهم . وروى أن الريح كانت تحمل القسطاط والقلعينة فترفعها فى الجو حتى ترى كأنها جردة . وقيل : أول من أبصر العذاب امرأة منهم قالت : رأيت ريحا فيها كسهب النار . وروى : أول ما عرفوا به أنه عذاب : أنهم رأوا ما كان فى الصحراء من رحالهم ومواشيهم تطير به الريح بين السماء والأرض ، فدخلوا بيوتهم وغلقوا أبوابهم : فقلعت الريح

الابواب وصرعهم ، وأمال الله عليهم الاحقاف فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام لم
أنين ، ثم كشفت الريح عنهم ، فاحتملهم فطرحهم في البحر . وروى أن هوداً لما
أحس بالريح خط على نفسه وعلى المؤمنين خطا إلى جنب عين تنبع . وعن ابن عباس رضى الله
عنهما : اعتزل هود ومن معه في حظيرة ما يصيبهم من الريح إلا ما يابن على الجلود وتلذه الانفس ،
ولأنها لتمر من عاد بالظعن بين السماء والارض وتدمغهم بالحجارة . وعن النبي صلى الله عليه وسلم
أنه كان إذا رأى الريح فزع وقال : اللهم إني أسألك خيرها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك
من شرها وشر ما أرسلت ^(١) به ، وإذا رأى مخيلة : قام وقعد ، وجهه وذهب ، وتغير لونه ،
فيقال له : يا رسول الله ما تخاف ؟ فيقول : إني أخاف أن يكون مثل قوم عاد حيث قالوا : هذا
عارض بمطرنا . فإن قلت : ما فائدة إضافة الرب إلى الريح ؟ قلت : الدلالة على أن الريح وتصريف
أعتها مما يشهد لعظم قدرته ، لأنها من أعاجيب خلقه وأكابر جنوده . وذكر الأمر
وكونها مأمورة من جهته عز وجل : يعضد ذلك ويقويه ،

وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ مَمْنًا وَاَبْصَارًا وَاَفْئِدَةً
فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَتَاعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ
بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِعَمَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ^(٢)

(إن) نافية ، أى : فيما ما مكناكم فيه ، إلا أن (إن) أحسن في اللفظ : لما فيه مجامعة
(ما) مثلها من التكرير المستشع . ومثله مجتنب ، ألا ترى أن الأصل في «مهما» :
(ماما) فلبشاعة التكرير : قلبوا الالف هاء . ولقد أغث ^(٣) أبو الطيب في قوله :

• لَعْمَرُكَ مَامَا بَانَ مِنْكَ لِضَارِبٍ • ^(٤)

وما ضره لو اقتدى بعدوبة لفظ التنزيل فقال : لعمرك ما إن بان منك لضارب ^(٥)

(١) أخرجه مسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه والبرار وأبو يعلى والبغارى في الأدب المفرد ، كلهم من رواية
عطاء عن عائشة ، ولفظ مسلم قريب من لفظ الكتاب .

(٢) قوله «ولقد أغث أبو الطيب» في الصحاح «أغث» : أى ردؤ وفسد ، تقول : أغث الرجل في منطقه . (ع)

(٣) لعمرك ماما بان منك لضارب بأقتل بما بان منك لعائب

لأبي الطيب . يقول : وحياتك ليس الذى ظهر منك للضارب يعنى اللسان ، أقتل : أى أسرع قتلا من الذى ظهر
منك للعائب ، يعنى : اللسان ، بل هما سواء في الحدة . ويجوز أنه استعار القتل للضرب تصريحاً .

(٤) قال أحد : بيت المتنبي ليس كما أنفذه ، وإنما هو كما يروى :

لعمرك إن ما بان منك لضارب بأقتل بما بان منك لعائب

وقد جعلت إن صلة ، مثلها فيما أنشده الاخفش :

يُرَجَّى الْمَرءُ مَا إِنْ لَا يَرَاهُ وَتَعْرِضُ دُونَ أَذْنَاهُ الْخُطُوبُ (١)

وتقول ياإنا مكناهم في مثل ما مكناكم فيه : والوجه هو الاول ، ولقد جاء عليه غير آية في القرآن (هم أحسن أناثا ورثيا) ، (كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا) وهو أبلغ في التوبيخ ، وأدخل في الحث على الاعتبار (من شيء) أى من شيء من الإغناء ، وهو القليل منه . فإن قلت بم انتصب (إذ كانوا يمحذون) ؟ قلت : بقوله تعالى (فما أغنى) . فإن قلت : لم جرى مجرى التعليل ؟ قلت : لاستواء مؤدى التعليل والظرف في قولك : ضربته لإساءته وضربته إذا أساء ؛ لأنك إذا ضربته في وقت إساءته ؛ فإنما ضربته فيه لوجود إساءته فيه ؛ إلا أن واذ ، وحيث ، غلبتادون سائر الظروف في ذلك .

== ولا يستقيم إلا كذلك لأن قبله : هو ابن رسول الله وابن صفيه وهبهما شبهت بعد العجائب من قصيدة يمدح بها طاهر بن الحسين العلوي ، ولوائى أبو الطيب عريض « ماء » بـ « إن » لجاء البيت : يرى أن إن ما بان منك لضارب وهذا التكرار أفضل من تكرار « ماء » بلا مرأ . وإنما قنده العشرة وألومه استعمال « إن » عوض « ماء » لاعتقاده أن البيت كما أنفده :

لعمرك ما ما بان منك لضارب بأقتل عما بان منك لعائب

ولو عوض « إن » عوض « ماء » كما أصلحه الزعزعى : لزم دخول الباء في خبر « ماء » وإنما تدخل الباء في خبر « ماء » المجازية العامة ، و « إن » لاتعمل عمل « ماء » على الصحيح ، فلا يستقيم دخول الباء في خبرها ، فاعدل المتنبى عن ذلك إلا لتعذره عليه من كل وجه . على أنى لا أبرئ المنفى من التعريف ، فانه كان مفرى به ، مفرما بالغريب من النظم . ونقل الزعزعى في الآية وجهاً آخر : وهو جعلها صلة مثلها في قوله :

يرجى المرء ما إن لا يراه وتعرض دون أذناه الخطوب

قال : ويكون معناه على هذا مكناهم في مثل ما مكناكم ... الخ . قلت : واختص بهذه الطائفة قوله تعالى (وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة) وقوله (مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم) .

(١) فان أمسك فان العيش حلو إلى كأنه عسل محبوب

يرجى المرء ما إن لا يراه وتعرض دون أذناه الخطوب

وما يدرى الحريص علام باقى شرارته أعظم أم يصيب

لجابر بن والان الطائي . وقيل : لاياس بن الأرت . والشرار : جمع شرشر ، وهى أطراف الشيء المشرشرة ، أى : المفرقة المنفورة ، وتطلق على الجسد وعلى النفس كما هنا . وقيل : هى جبال الصيد . يقول : إن أبخل فالعيش حلو عنده كحلالة العسل الممزوج بالماء لتزول حرارته وخش « حلو » معنى محبوب ، فعدها بالى . ثم قال : ولكن لاخير في الامساك ؛ فان المرء يرجى الأمر الغائب عنه . وتحول أهوال الموت أو شدائد الدهر بينه وبين أدنى شيء منه . وإن : زائدة بعد ما الموصولة حلا على ما التافية ، وما يدرى الذى وجه نفسه بكلبتها للدنيا عواقب أمره . أريج أم خسر ، وعلى أنها جبال الصيد فى الكلام استعارة تمثيلية حيث شبه حال من أخذ في أسباب الأمر جاهلاً عاقبته : بحال من نصب الجبال للصيد ، فقد وقد .

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا وَحَّوْكَمُ مِنَ الْقَرْيِ وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾

(ماحولكم) يا أهل مكة (من القرى) من نحو حجر ثمود وقرية سدوم وغيرها. والمراد : أهل القرى . ولذلك قال (لعلهم يرجعون)

فَلَوْلَا تَصَرُّهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ صَلُّوا عَلَيْهِمْ

وَذَلِكَ إِنْكُفُّهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٢٨﴾

القربان : ما تقرب به إلى الله تعالى ، أى : اتخذوهم شفعاء متقربابهم إلى الله ، حيث قالوا : هؤلاء شفعائونا عند الله . وأحد مفعولى اتخذ الراجع إلى الذين ^(١) المحذوف ^(٢) ، والثاني : آلهة . وقربانا : حال ولا يصح أن يكون قربانا مفعولا ثانيا وآلهة بدلا منه لفساد المعنى . وقرئ قربانا بضم الراء . والمعنى : فهلا منعمهم من الهلاك آلهتهم (بل ضلوا عنهم) أى غابوا عن نصرتهم (وذلك) إشارة إلى امتناع نصرة آلهتهم لهم وضلالم عنهم ، أى : وذلك أثر إفكهم الذى هو اتخاذهم إياها آلهة ، وثمرة شركهم واقترابهم على الله الكذب من كونه ذا شركاء . وقرئ : إفكهم : والآفك والإفك : كالحذر والحذر . وقرئ : وذلك إفكهم ، أى : وذلك الاتخاذ الذى هذا أثره وثمرته صرفهم عن الحق . وقرئ : أفكهم على التشديد للبالغة . وآفكهم : جعلهم آفكين . وآفكهم ، أى : قولهم الآفك ذو الإفك ، كما تقول قول كاذب ، وذلك إفك بما كانوا يفترون ، أى : بعض ما كانوا يفترون من الإفك .

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا

أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَبْقَوْنَا إِنَّا نَمِيعُونَ

كُتِبَ أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى

طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَبْقَوْنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ

(١) قال محمود : «أحد مفعولى اتخذ الراجع إلى الموصول محذوف ... الخ» قال أحد : لم يتبين وجه فساد المعنى على هذا الأعراب . ونحن نبينه فنقول : لو كان قربانا مفعولا ثانيا ومعناه متقربا بهم : لصار المعنى إلى أنهم وبغوا على ترك اتخاذ الله متقربا به ، لأن السيد إذا وبخ عبده وقال : اتخذت فلانا سيدا دونى ، فأعما معناه اللوم على نسبة السيادة إلى غيره ، وليس هذا المقصد ؛ فان الله تعالى يتقرب إليه ولا يتقرب به لغيره ؛ فأعما وقع التوبيخ على نسبة الإلهية إلى غير الله تعالى ، فكان حق الكلام أن يكون آلهة هو المفعول الثانى لا غير .

(٢) قوله «اتخذ الراجع إلى الذين المحذوف» هو الذى أبرزه فى قوله : أى اتخذوهم . (ع)

ذُنُوبِكُمْ وَيُجْزِكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (٣١) وَمَنْ لَا يُجِيبِ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٢)

(صرفنا إليك نفرأ) أملناهم إليك وأقبلنا بهم نحوك . وقرئ : صرفنا بالشديد : لأنهم جماعة . والنفر : دون العشرة . ويجمع أنفارا . وفي حديث أبي ذر رضى الله عنه : لو كان ههنا أحد من أنفارنا ^(١) (فلما حضروه) الضمير للقرآن . أى : فلما كان يسمع منهم . أو لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وتعذده قراءة من قرأ (فلما قضى) أى أتمّ قراءته وفرغ منها (قالوا) قال بعضهم لبعض (أنصتوا) اسكتوا مستمعين . يقال : أنصت لكذا واستنصت له . روى أن الجن كانت تسترق السمع ، فلما حرست السماء ورجعوا بالشهب قالوا : ما هذا إلا لنبيأ حدث ، فنهض سبعة نفر أو تسعة من أشرف جن نصيين أو نينوى : منهم زوبيعة ، فضربوا حتى بلغوا تهامة ، ثم اندفعوا إلى وادى نخلة ، فوافقوا ^(٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قائم في جوف الليل يصلى أو في صلاة الفجر ، فاستمعوا لقراءته ، وذلك عند منصرفه من الطائف حين خرج إليهم يستنصرهم فلم يجيبوه إلى طلبته وأغروا به سفهاء ثقيف ^(٣) . وعن سعيد بن جبير رضى الله عنه : ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجن ولا رآهم ، وإنما كان يتلو في صلاته فمروا به فوقفوا مستمعين وهو لا يشعر ، فأنبأه الله باستماعهم ^(٤) . وقيل : بل أمر الله رسوله أن ينذر الجن ويقرأ عليهم فصرف إليه نفرا منهم جمعهم له فقال : إني أمرت أن أقرأ على الجن الليلة فن يتبعنى : قالوا ثلاثا ، فأطرقوا إلا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : لم يحضره ليلة الجن أحد غيرى ، فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة في شعب الحجون غلط لي خطأ وقال : لا تخرج منه حتى أعود إليك ، ثم افتتح القرآن وسمعت لفظا شديدا حتى خفت

(١) هذا طرف من قصة إسلام أبي ذر رضى الله عنه من رواية عبد الله بن الصامت عن أبي ذر ذكره مطولا . وفيه : فبينما أنا في ليلة قراء ختمواي وقد ضرب الله على أهل مكة فاططوف غير امرأتين ، فأتيا على فذكر القصة . وفيه ثم انطلقنا ببولان . وبقولان لو كان ههنا أحد من أنصارنا أخرجه مسلم مطولا .

(٢) قوله «فوافقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم» لعله : فوافوا . (ع)

(٣) متفق عليه بمعناه من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس دون أوله . ودون قوله «وكانوا تسعة نفر أحدهم زوبيعة» ودون قوله «في جوف الليل يصلى» ودون قوله «من نينوى» ودون قوله «وعند منصرفه إلى آخره» وأما زوبيعة فأخرجه الحاكم من رواية ذر عن ابن مسعود قال «مبطوا» يعنى الجن . على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة . فلما سمعوه قالوا أنصتوا . وكانوا تسعة أحدهم زوبيعة . فأنزل الله (وإذ صرفنا إليك الآية) وقوله «نينوى» أخرجه الطبرى من رواية قتادة في هذه الآية قال : ذكر لنا أنهم صرفوا إليه من نينوى الحديث .

(٤) متفق عليه من رواية سعيد بن جبير . وهو في الذى قبله .

على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وغشيته أسودة كثيرة حالت بيني وبينه حتى ما أسمع صوته ثم انقطعوا كقطع السحاب فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل رأيت شيئا ؟ قلت : نعم رجالا سودا مستغرى ثياب بيض^(١) ، فقال : أولئك جن نصيبين^(٢) ، وكانوا اثني عشر ألفا ، والسورة التي قرأها عليهم (اقرأ باسم ربك) . فإن قلت : كيف قالوا (من بعد موسى) ؟ قلت : عن عطاء رضى الله عنه : أنهم كانوا على اليهودية . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : إن الجن لم تكن سمعت بأمر عيسى عليه السلام ، فلذلك قالت : من بعد موسى . فإن قلت : لم يعض في قوله (من ذنوبكم) ؟ قلت : لأن من الذنوب ما لا يغفر بالإيمان كذنوب المظالم^(٣) ونحوها . ونحوه قوله عز وجل (أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم) . فإن قلت : هل للجن ثواب كما للإنس ؟ قلت : اختلف فيه فقيل : لا ثواب لهم إلا النجاة من النار ، لقوله تعالى (ويجركم من عذاب أليم) وإليه كان يذهب أبو حنيفة رحمه الله . والصحيح أنهم في حكم بنى آدم ، لأنهم مكلفون مثلهم (فليس بمعجز في الأرض) أى : لا ينجى منه مهرب ، ولا يسبق قضاءه سابق . ونحوه قوله تعالى (وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هربا) .

(١) قوله «مستغرى ثياب بيض» في القاموس «الاستغفار» : أن يدخل إزاره بين غديه ملويا وإدخال الكلب ذنبه بين غديه حتى يلزقه بطنه اهـ (ع)

(٢) لم أجد بهتمامه في سياق واحد . بل وجدته مفرقا . فروى الطبري من رواية قتادة ذكر لنا التي صلى الله عليه وسلم قال «إني أمرت أن أقرأ على الجن . فأبكم يتبعني فأطرقوا ثلاثا إلا ابن مسعود فاتبعه حتى دخل شعبا يقال له شعب الحجون قال : وخط على ابن مسعود خطأ . فذكر أى قوله حتى خفت عليه - وزاد فيه : فقلت ما هذا اللفظ ؟ فقال : اختصموا إلى في جبل قضيت بينهم بالحق» وروى الحاكم والطبراني والدارقطني من طريق أبي عثمان ابن شبة الخزاعي وكان رجلا من أهل الشام أنه سمع عبد الله بن مسعود يقول «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه وهو بمكة : من أحب منكم أن يحضر الليلة أمر الجن فليقبل . فلم يحضر منهم أحد غيري . قال : فانطلقت حتى إذا كنا بأهل مكة خط لي برجله خطأ ثم أمرني أن أجلس فيه ، ثم انطلق حتى قام . فافتتح القرآن - الحديث» ولم يذكر قوله «رجالا سودا» إلى آخره» وروى الطبري من رواية عمرو بن غيلان الثقفي أنه سأل ابن مسعود فذكر القصة . وفيها فقال «رأيت شيئا ؟ قلت : نعم . قد رأيت رجالا سودا مستغرىين بثياب بيض . فقال : أولئك جن نصيبين سألتني المتاع - فذكر الحديث» وليس فيه عددهم ولا اسم السورة . وروى ابن أبي حاتم من رواية عكرمة في هذه الآية قال «كانوا من جن نصيبين جاؤا من جزيرة الموصل . وكانوا اثني عشر ألفا ، فهذه الأحاديث من مجموعها ما ذكر إلا اسم السورة .

(٣) قال محمود : «إنما بعض المغفرة لأن من الذنوب ما لا يغفره الإيمان كذنوب المظالم» قال أحمد : ليس ما أطلقه من أن الإيمان لا يغفر المظالم بصحيح ، لأن الحربي لو نهب الأموال المصونة وسفك الدماء المحقونة ثم حسن إسلامه : جب الإسلام عنه إثم ما تقدم بلا إشكال . ويقال : إنه ما وعد المغفرة للكافر على تقدير الإيمان في كتاب الله تعالى إلا مبيضة ، وهذا منه . فان لم يكن لاطارده بذلك سر فسا هو إلا أن مقام الكافر قبض لا يسط ، فلذلك لم يسط رجاءه في مغفرة جملة الذنوب . وقد ورد في حق المؤمنين مثله كثيرا ، والله أعلم .

أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَكُنْ لِيَحْلُقْنِهِنَّ يَغْدِرْ

عَلَى أَنْ يُنْجِيَ الْمَوْتَى بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٣﴾

(يقادر) عمله الرفيع ؛ لأنه خبر أن يدل عليه قراءة عبدالله : قادر ؛ وإنما دخلت الباء لاشتغال النفي في أول الآية على أن وما في جزأها . وقال الزجاج : لو قلت : ما ظننت أن زيدا يفاتم : جاز ، كأنه قيل : أليس الله بقادر . ألا ترى إلى وقوع بلى مقورة للقدرة على كل شيء من البعث وغيره ، لا لرؤيتهم . وقرئ : يقدر . ويقال : عيت بالامر ، إذا لم تعرف وجهه . ومنه (أفصينا بالخلق الأول) .

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا

قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٢٤﴾

(أليس هذا بالحق) عكى بعد قول مضمر ، وهذا المضمر هو ناصب الظرف . وهذا إشارة إلى العذاب ، بدليل قوله تعالى (فذوقوا العذاب) والمعنى : التكم بهم ، والتوبيخ لهم على استهزائهم بوعد الله ووعيدة ، وقولهم (وما نحن بمعذبين) .

فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَهُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ

الْفَاسِقُونَ ﴿٢٥﴾

(أولو العزم) أولوا الجد والثبات والصبر . و(من) يجوز أن تكون للتبعيض ، ويراد بأولو العزم : بعض الأنبياء . قيل : هم نوح ، صبر على أذى قومه : كانوا يضربونه حتى يغشى عليه ، وإبراهيم على النار وذبح ولده ، وإسحق على الذبح ، ويعقوب على فقد ولده وذهاب بصره ، ويوسف على الحب والسجن ، وأيوب على الضر ، وموسى قال له قومه : إنا لمدركون ، قال : كلا إن معي ربي سيهدين ، وداد بكى على خطيئته أربعين سنة ، وعيسى لم يضع لينة على لينة وقال : إنها معبرة فاعبروها ولا تعمروها . وقال الله تعالى في آدم (ولم نجد له عزما) وفي يونس (ولاتسكن كصاحب الحوت) ويجوز أن تكون للبيان ، فيسكون أولو العزم صفة الرسل كلهم (ولاتستعجل) لكفار قريش بالعذاب ، أى : لاتدع لهم بتعجيله ؛ فإنه نازل بهم لآعالة ، وإن تأخر ، وأنهم مستقصرون حينئذ مدة لبثهم في الدنيا حتى يحسبوا (ساعة من نهار بلاغ)

أى هذا الذى وعظّم به كفاية فى الموعظة . أو هذا تبليغ من الرسول عليه السلام ﴿فهل يهلك﴾
إلا الخارجون عن الاعتاض به ، والعمل بموجبه . ويدل على معنى التبليغ قراءة من قرأ : بلغ
فهل يهلك : وقرئ : بلاغاً ، أى بلغوا بلاغاً : وقرئ : يهلك ، بفتح الياء وكسر اللام وفتحها ،
من هلك وهلك . ونهلك بالنون ﴿إلا القوم الفاسقون﴾ .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة الأحقاف كتب له عشر حسنات
بعدد كل رملة فى الدنيا » (١) .

سورة محمد صلى الله عليه وسلم

مدينة عند مجاهد . وقال الضحاك وسعيد بن جبير : مكية . وهى سورة القتال
وهى تسع وثلاثون آية . وقيل ثمان وثلاثون [نزلت بعد الحديد]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ ① وَالَّذِينَ ءَامَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ
سَوَاتِرُهُمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ②

﴿وصدوا﴾ . وأعرضوا وامتنعوا عن الدخول فى الإسلام : أو صدوا غيرهم عنه . قال
ابن عباس رضى الله عنه : هم المطعمون يوم بدر . وعن مقاتل : كانوا اثني عشر رجلاً من أهل
الشرك يصدون الناس عن الإسلام ويأمرونهم بالكفر . وقيل : هم أهل الكتاب الذين
كفروا وصدوا من أراد منهم ومن غيرهم أن يدخل فى الإسلام . وقيل : هو عام فى كل من كفر
وصد ﴿أضل أعمالهم﴾ أبطلها وأحبطها . وحقيقته : جعلها ضالة ضائعة ليس لها من يتقبلها

(١) أخرجه التلمبى وابن مردويه والواحدى بأسانيدهم إلى أبى بن كعب رضى الله عنه .

ويثيب عليها، كالضالة من الإبل^(١) التي هي بمضيعة لارب لها يحفظها ويعتق بأمرها. أو جعلها ضالة في كفرهم ومعاصيهم ومغلوبة بها، كما يضل الماء في اللبن. وأعمالهم : ما عملوه في كفرهم بما كانوا يسمونه مكارم : من صلة الأرحام وفك الأسارى وقرى الأضياف وحفظ الجوار. وقيل : أبطل ما عملوه من الكيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم والصدّة عن سبيل الله : بأن نصره عليهم وأظهر دينه على الدين كله

(والذين آمنوا) قال مقاتل : هم ناس من قريش . وقيل : من الأنصار . وقيل : هم مؤمنو أهل الكتاب . وقيل : هو عام . وقوله (وآمنوا بما نزل على محمد) اختصاص للإيمان بالمنزّل على رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين ما يجب به الإيمان تعظيماً لشأنه وتعلماً، لأنه لا يصح الإيمان ولا يتم إلا به . وأكّد ذلك بالجملة الاعتراضية التي هي قوله (وهو الحق من ربهم) وقيل : معناها إن دين محمد هو الحق ، إذ لا يرد عليه النسخ ، وهو ناسخ لغيره . وقرئ : نزل وأنزل ، على البناء للفعل . ونزل على البناء للفاعل ، ونزل بالتخفيف (كفر عنهم سيئاتهم) ستر بإيمانهم وعملهم الصالح ما كان منهم من الكفر والمعاصي لرجوعهم عنها وتوبتهم (وأصلح بهم) أى حالهم وشأنهم بالتوفيق في أمور الدين ، وبالتسليط على الدنيا بما أعطاهم من النصرة والتأييد .

ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ

رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ۝ (٣)

(ذلك) مبتدأ وما بعده خبره ، أى : ذلك الأمر وهو إضلال أعمال أحد الفريقين وتكفير سيئات الثاني : كائن بسبب اتباع هؤلاء الباطل وهؤلاء الحق . ويجوز أن يكون ذلك خبر مبتدأ محذوف ، أى . الأمر كما ذكر بهذا السبب ، فيكون محل الجار والمجرور منصوباً على هذا ، ومرفوعاً على الأول و(الباطل) ما لا ينفع به . وعن مجاهد : الباطل الشيطان : وهذا السلام يسميه علماء البيان التفسير (كذلك) مثل ذلك الضرب (يضرب الله للناس أمثالهم) والضمير راجع إلى الناس ، أو إلى المذكورين من الفريقين ، على معنى : أنه يضرب أمثالهم لأجل الناس

(١) قال محمود : «معناه جعلها كالضالة من الإبل ... الخ» قال أحمد : هذا المعنى الثاني حسن متضمن لمقابلة قوله (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) ثم قال (كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بهم) وتحرير المقابلة بينهما أن التكفار ضلت أعمالهم الصالحة في جلة أعمالهم السيئة من الكفر والمعاصي ، حتى صار صالحهم مستهلكاً في غمار سيئهم ، ومقابلة في المؤمنين ستر الله لأعمالهم السيئة في كنف أعمالهم الصالحة من الإيمان والطاعة ، حتى صار سيئهم مكفراً محققاً في جنب صالح أعمالهم ، وإلى هذا التمثيل الحسن في عدم تقبل صالح الكفار والتجاوز عن سيئ أعمال المؤمنين وقعت الإشارة بقوله تعالى (كذلك يضرب الله للناس أمثالهم) والله أعلم .

ليعتبروا بهم . فإن قلت : أين ضرب . الأمثال ؟ قلت : في أن جعل اتباع الباطل مثلا لعمل الكفار ، واتباع الحق مثلا لعمل المؤمنين . أو في أن جعل الإضلال مثلا لخيبة الكفار ، وتكفير السيئات مثلا لفوز المؤمنين .

فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثَغَتُمُوهُمْ فَشَدُّوا الوَثَاقَ قَائِمًا مِّنَّا بَعْدُ وَإِنَّمَا فَدَاءٌ حَتَّىٰ تَصْغَحَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَهَرَ مِنْكُمْ وَلَكِن لِّبَلْوَىٰ لِّبَعْضِكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَلُهُمْ ④ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ⑤ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ ⑥

(لقيم) من اللقاء وهو الحرب (فضرب الرقاب) أصله : فاضربوا الرقاب ضربا ، لحذف الفعل وقدم المصدر فأنيب منابه مضافا إلى المفعول . وفيه اختصار مع إعطاء معنى التوكيد ؛ لأنك تذكر المصدر وتدل على الفعل بالنسبة التي فيه . وضرب الرقاب عبارة عن القتل ، لأن الواجب أن تضرب الرقاب خاصة دون غيرها من الأعضاء ، وذلك أنهم كانوا يقولون : ضرب الأمير رقبة فلان ، وضرب عنقه وعلاوته ، وضرب ما فيه عيناه ^(١) إذا قتله ، وذلك أن قتل الإنسان أكثر ما يكون بضرب رقبته ، فوقع عبارة عن القتل ، وإن ضرب بغير رقبته من المقاتل كما ذكرنا في قوله (بما كسبت أيديكم) على أن في هذه العبارة من الغلظة والشدة ما ليس في لفظ القتل ، لما فيه ^(٢) من تصور القتل بأشنع صورة وهو حز العنق وإطارة العضو الذي هو رأس البدن وعلوه وأوجه أعضائه . ولقد زاد في هذه الغلظة في قوله تعالى (فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) . (أثغتموهم) أكثرتم قتلهم وأغلظتموه ، من الشيء الثخين : وهو الغليظ . أو أثغتموهم بالقتل والجراح حتى أذهبتم عنهم النهوض (فشدوا الوثاق) فأسروهم . والوثاق بالفتح والكسر :- اسم ما يوثق به (مثا) و (فداء) منصوبان بفعليهما مضمرين ، أي : فإما تمثون منا ، وإما تغدون فداء . والمعنى : التخيير بعد الأسر بين أن يمتنوا عليهم فيطلقوهم ، وبين أن يضافوهم . فإن قلت : كيف حكم أسارى المشركين ؟ قلت : أما عند أبي حنيفة وأصحابه فأحد أمرين : إما قتلهم وإما استرقاقهم : أيهما رأى الإمام ، ويقولون في المن والفداء المذكورين في الآية : نزل ذلك في يوم بدر ثم نسخ . وعن مجاهد : ليس اليوم من ولا فداء ، وإنما هو الإسلام أو ضرب العنق . ويجوز أن يراد بالمتن : أن يمن عليهم بترك القتل ويسترقوا .

(١) قوله «وضرب ما فيه عيناه» لعله كناية عن رأسه أو عن وجهه . (ع)

(٢) قوله «لما فيه من تصور القتل» لعله لما فيها . (ع)

أو يمنّ عليهم فيخلوا لقبولهم الجزية ، وكونهم من أهل الذمة . وبالفداء أن يفادى بأسارهم أسارى المشركين ، فقد رواه الطحاوي مذهباً عن أبي حنيفة ، والمشهور أنه لا يرى فداءهم لأبمال ولا بغيره ، خيفة أن يعودوا حرباً للمسلمين ، وأما الشافعي فيقول : للإمام أن يختار أحد أربعة على حسب ما اقتضاه نظره للمسلمين ، وهو : القتل ، والاسترقاق ^(١) ، والفداء بأسارى المسلمين ، والمن . ويحتج بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم من على أبي عروة الحنفي ^(٢) ، وعلى ثمامة بن أثال الحنفي ^(٣) ، وفادى رجل برجلين من المشركين ^(٤) : وهذا كله منسوخ عند أصحاب الرأي . وقرئ : فدى ، بالقصر مع فتح الفاء . أوزار الحرب : آلاتها وأثقالها التي لا تقوم إلا بها كالسلاح والكراع . قال الأعشى :

وَأَعْدَدْتُ لِلْعَرَبِ أَوْزَارَهَا رِمَاحًا طَوَّالًا وَخَمَلًا ذُكُورًا ^(٥)

وسميت أوزارها لأنه لما لم يكن لها بد من جزأها فكأنها تحملها وتستقل بها ، فإذا انقضت فكأنها وضعتها . وقيل : أوزارها آثامها ، يعني : حتى يترك أهل الحرب . هم المشركون شركهم ومعاصيهم بأن يسلبوا . فإن قلت : (حتى) بهم تعلقت ؟ قلت : لا تخلو إما أن تتعلق بالضرب والشدة : أو بالمن والفداء ، فالمنعنى على كلا المتعلقين عند الشافعي رضى الله عنه : أنهم لا يزالون على ذلك أبداً إلى أن لا يكون حرب مع المشركين . وذلك إذا لم يبق لهم شوكة . وقيل : إذا نزل عيسى ابن مريم عليه السلام . وعند أبي حنيفة رحمه الله : إذا علق بالضرب والشدة ؛ فالمنعنى : أنهم يقتلون ويؤسرون حتى تضع جنس الحرب الأوزار ، وذلك حين لا تبقى شوكة للمشركين . وإذا علق بالمن والفداء ، فالمنعنى : أنه يمن عليهم ويفادون حتى تضع حرب بدأوزارها

(١) قوله « وهو القتل والاسترقاق » له : وهي ... (ج)

(٢) هو المذكور في المغازي لابن إسحق وغيره وأنه أمر يوم بدر . فمن عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير فداء ثم أسره يوم أحد فقتله صباحاً ، ورواه الواقدي عن ابن أخي الزمري عن حم عن سعيد بن المسيب .

(٣) قوله « على ثمامة بن أثال الحنفي » هو في حديث أبي هريرة عند القهينين فطولا

(٤) قوله « وفادى رجلين من المشركين » : هذا طرف من حديث أخرجه مسلم والترمذي وغيرهما من حديث عمران ، ولكن فيه « أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أسروا رجلاً من بني عقيل ، وكانت ثقيف أسرت رجلين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . ففداه النبي صلى الله عليه وسلم بالرجلين اللذين أسرتهما ثقيف » ، وروى البيهقي في المعرفة عن الشافعي من هذا الوجه مثل لفظ الكتاب . ثم قال : أظنه من الكتاب ، والصحيح الأول .

(٥) للأعشى ، واستعار الأوزار لآلات الحرب على طريق التصريحية ، ويحتمل أنه شبه الحرب بمطايا ذات أوزار ، أى : أحمال فقال على طريق المكنية . وإثبات الأوزار تمثيل ، ورماعاً : بدل .

إلا أن يتأول المن والفداء بما ذكرنا من التأويل (ذلك) أى الأمر ذلك ، أو افعلوا ذلك (لا تنصروهم) لانقم منهم ببعض أسباب الهلك : من خسف ، أو رجفة ، أو حاصب ، أو غرق . أو موت جارف ، (ولكن) أمركم بالقتال ليلو المؤمنين بالكافرين : أن يجاهدوا ويصبروا حتى يستوجبوا الثواب العظيم ، والكافرين بالمؤمنين بأن يعاجلهم على أيديهم ببعض ماوجب لهم من العذاب . وقرئ : قتلوا ، بالتخفيف والتشديد : وقتلوا . وقتلوا . وقرئ : فلن يضل أعمالهم ، وتضل أعمالهم : على البناء للفعول . ويضل أعمالهم من ضل . وعن قتادة : أنها نزلت في يوم أحد (عزفها لهم) أعلمها لهم وبينها بما يعلم به كل أحد منزاته ودرجته من الجنة . قال مجاهد : يهتدى أهل الجنة إلى مساكنهم منها لا يخطئون ، كأنهم كانوا سكانها منذ خلقوا لا يستدلون عليها . وعن مقاتل : إن الملك الذى وكل بحفظ عمله في الدنيا يمشى بين يديه فيعرفه كل شيء أعطاه الله . أو طيبها لهم ، من العرف : وهو طيب الرائحة . وفي كلام بعضهم : عزف كنوح القهارى ^(١) ، وعرف كفوح القهارى . أو حدها لهم : فجنة كل أحد محدودة مفرزة عن غيرها ، من : عرف الدار وارفعها . والعرف والارف ، الحدود .

بِأَيِّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ^(٧)

(إن تنصروا) دين (الله) ورسوله (ينصركم) على عدوكم ويفتح لكم (ويثبت أقدامكم) في مواطن الحرب أو على حجة الإسلام .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَصْلٌ أَعْمَلُمْ ^(٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا

مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَخْبَطَ أَعْمَلُمْ ^(٩)

(والذين كفروا) يحتمل الرفع على الابتداء والنصب بما يفسره (فتعسا لهم) كأنه قال : أتعسا الذين كفروا . فإن قلت : علام عطف قوله (وأصل أعما لهم) ؟ قلت : على الفعل الذى نصب تعسا ؛ لأن المعنى فقال : تعسا لهم ، أو ففضى تعسا لهم . وتعسا له : تفيض ولعاله . قال الأعشى :

• فَالْتَمَسُ أَوَّلَى لَهَا مِنْ أَنْ أَتُولَ لَهَا • ^(٢)

(١) قوله « عزف كنوح القهارى » العرف : الفناء . والقهارى : جمع قرى ، اسم طير . والعود القهارى :

منسوب إلى موضع ببلاد الهند . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) وبلفظة يرهب الجواب دلجتها حتى تراه عليها يتبنى شيئا

كلفت مجهولها نفسى وشايعنى هى عليها إذا ما آلتها لهما

يريد : فالعشور والانعطاط أقرب لها من الاتعاش والثبوت . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : يريد في الدنيا القتل ، وفي الآخرة التردى في النار (كرهوا) القرآن وما أنزل الله فيه من التكليف والأحكام ، لأنهم قد ألقوا الإهمال وإطلاق العنان في الشهوات والملاذفات عليهم ذلك وتعاظمهم .

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَهَنُظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ⑩

دمره : أهلكه ، ودمر عليه : أهلك عليه ما يختص به . والمعنى : دمر الله عليهم ما يختص بهم من أنفسهم وأموالهم وأولادهم وكل ما كان لهم (ولل كافرين أمثالها) الضمير للعاقبة المذكورة أوله لهدلك : لأن التدمير يدل عليها . أول السنة ، لقوله عزّ وعلا (سنة الله في الذين خلوا) .

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ⑪

(مولى الذين آمنوا) وليهم وناصرهم . وفي قراءة ابن مسعود : ولى الذين آمنوا . ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في الشعب يوم أحد وقد فشت فيهم الجراحات ، وفيه نزلت ، فنادى المشركون : اعل هبل : فنادى المسلمون : الله أعلى وأجل ، فنادى المشركون : يوم يوم والحرب سجال ، إن لنا عزى ولا عزى لكم : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قولوا الله مولانا ولا مولى لكم ، إن القتلى مختلفة أما قتلنا فأحياء يرزقون وأما قتلنا فميتون يعذبون ^(١) . فإن قلت : قوله تعالى (وردوا إلى الله مولاهم الحق) مناقض لهذه الآية . قلت : لا تناقض بينهما ، لأن الله مولى عباده جميعا على معنى أنه ربهم ومالك أمرهم ؛ وأما على معنى الناصر فهو مول المؤمنين خاصة .

== بذات لوث عفناة إذا عثرت فالتمس أول لها من أن يقال لها
للأعشى ، أى : ورث مفازة يخاف الجواب : أى كثير السير ، من جبت الأرض : قطعها بالسير . والدلجة من دج وأدج ، وزن افتعل . وأدج وزن أكرم : إذا سار بلا . والدلجة : ساعة من الليل ، أى : يخاف المعتاد على السير من سيرها ليلا ، حتى يطلب الجماعات المساعدة له على سيرها ، كلفت نفسى سير الجهول منها ، وطوتى عزى على سيرها وقت لمعان آلهام وهو السراب الذى يرى عند شدة الحر ، كأنه ماء ، مع أن سير المهاجرة أشد من سير الليل ، ثم قال : مع ناقة صاحبة قوة . ويطلق اللوث على الضعف أيضا ، فهو من الأحداد . عفناة : غليظة . ويقال للعائر : لعاك : دعا له بالاعتاش . وتعسا له : دعا عليه بالدموط ، يريد أنها لا تعثر ، ولو عثرت فالعناء عليها أحق بها من الدعاء لها .

(١) أخرجه الطبري من رواية سعيد عن قتادة قال : ذكر لنا أن هذه الآية . يعنى (إن الله مولى الذين آمنوا) نزلت يوم أحد ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الشعب وقد فشت فيهم الجراحات . الخ . سواء . وله شاهد في البخارى من حديث البراء بن عازب .

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَحَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ

مَثْوًى لَهُمْ ﴿١٢﴾

(يتمتعون) ينتفعون بمتاع الحياة الدنيا أياماً قلائل (ويأكلون) غافلين غير مفكرين في العاقبة (كما تأكل الأنعام) في مسارحها ومعالفها، غافلة عما هي بصده من النحر والذبح (مثنوى لهم) منزل ومقام.

وَكَايُنْ مِنْ قَرْيَةٍ حِيَ أَشَدَّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكَنَاكُمْ

فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾

وقري: وكائن، بوزن كاعن^(١). وأراد بالقرية أهلها، ولذلك قال (أهلكناهم) كأنه قال: وكم من قوم هم أشد قوة من قومك الذين أخرجوك أهلكناهم. ومعنى أخرجوك: كانوا سبب خروجك. فإن قلت: كيف قال (فلا ناصر لهم)؟ وإنما هو أمر قد مضى. قلت: مجراه مجرى الحال المحكية، كأنه قال أهلكناهم فهم لا ينصرون.

أَقْنِ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٤﴾

من زين له: هم أهل مكة الذين زين لهم الشيطان شركهم وعداوتهم لله ورسوله، ومن كان على بينة من ربه أى على حجة من عنده وبرهان: وهو القرآن المعجز وسائر المعجزات هو رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقرئ: أمن كان على بينة من ربه. وقال تعالى (سوء عمله واتبعوا) للحمل على لفظ (من) ومعناه.

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً

حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾

(١) قوله «وكائن بوزن كاعن» في الصحاح «كائن»: معناها معنى كم في الخبر والاستفهام، وفيها لثلاث: كائن، مثال كين وكائن: مثال كاعن اه. (ع)

فإن قلت : ما معنى قوله تعالى ﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار ﴾ كمن هو خالد في النار ؟ قلت : هو كلام في صورة الإثبات ومعنى النقي والإنكار ^(١) ، لانطوائه تحت حكم كلام مصدر بحرف الإنكار ، ودخوله في حيزه ، وانخراطه في سلسله ، وهو قوله تعالى ﴿ أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله ﴾ فكأنه قيل : أمثل الجنة كمن هو خالد في النار ، أى كمثل جزاء من هو خالد في النار . فإن قلت : فلم عزى في حرف الإنكار ؟ وما فائدة التعرية ؟ قلت : تعريته من حرف الإنكار فيها زيادة تصوير لمكابرة من يسوى بين المتمسك بالبيئة والتابع لهواه ، وأنه بمنزلة من يثبت التسوية بين الجنة التي تجري فيها تلك الأنهار ، وبين النار التي يسقى أهلها الحميم . ونظيره قول القائل :

أَفْرَحُ أَنْ أُرْزَأَ الْكَرَامَ وَأَنْ أُورَثَ ذُودًا شَصَائِصًا نَبَلًا ^(٢)

هو كلام منكر للفرح برزية الكرام ووراثه الذود ، مع تعريه عن حرف الإنكار لانطوائه تحت حكم قول من قال : أتفرح بموت أخيك وبوراثه إبله ، والذي طرح لأجله حرف الإنكار إرادة أن يصور قبح ما أزن به ^(٣) فكأنه قال له : نعم مثلي يفرح بمرزاة الكرام وبأن يستبدل منهم ذوداً يقل طائله ^(٤) ، وهو من التسليم الذي تحته كل إنكار ، ومثل الجنة : صفة الجنة العجيبة الشأن ، وهو مبتدأ ، وخبره : كمن هو خالد . وقوله : فيها أنهار ، داخل في حكم الصلة كالتركيب لها . ألا ترى إلى صحة قولك : التي فيها أنهار . ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف هي فيها ^(٥)

(١) قال محمود : « هو كلام في صورة الإثبات ومعناه النقي ... الخ » قال أحمد : كم ذكر الناس في تأويل هذه الآية ، فلم أر أظلي ولا أعلى من هذه النكت التي ذكرها ، لا يعوزها إلا التنبية على أن في الكلام محذوفا لا بد من تقديره لأنه لا معادلة بين الجنة وبين الخالد في النار إلا على تقدير مثل ما كن فيه يقوم وزن الكلام ويتعادل كفته . ومن هذا الخط قوله تعالى ﴿ أجمعتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله ﴾ فانه لا بد من تقدير محذوف مع الأول أو الثاني ، ليتعادل القسمان . وهذا الذي قدرته في الآية ينطبق آخر الكلام على أوله ، فيكون المقصود تنظير بعد التسوية بين المتمسك بالبيئة والراكب للهوى يبعد التسوية بين المنعم في الجنة والمعذب في النار على الصفات المتقابلة المذكورة في الجهتين . وهو من وادى نظير الشيء بنفسه ، باعتبار حالتين أحدهما أوضح في البيان من الأخرى : فان المتمسك بالسنة هو المنعم في الجنة الموصوفة . والمتبع للهوى : هو الماعذب في النار المنعوتة ، ولكن أنكر التسوية بينهما باعتبار الأعمال أولا ، وأوضح ذلك يانكار التسوية بينهما باعتبار الأحوال أولا ، وأوضح ذلك بانكار التسوية بينهما باعتبار الجواز ثانيا .

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثالث صفحة ٢٦٤ فراجع إن شئت اه . صححه .

(٣) قوله « ما أزن » أى اتهم . أفاده الصحاح . (ع)

(٤) قوله « يقل طائله » لأن الصنائع قليلات اللين . والنبل : الكبار من الابل ، والصغار منها أيضا ، فهو

من الأضداد . أفاده الصحاح . (ع)

(٥) قوله « هي فيها » لعله : أى هي فيها . (ع)

أنهار ، وكأن قائلا قال : ومائلها ؟ فقليل : فيها أنهار ، وأن يكون في موضع الحال ، أى : مستقرة فيها أنهار ، وفي قراءة على رضى الله عنه : أمثال الجنة ، أى : ماصفاتها كصفات النار . وقرئ : أسن . يقال : أسن الماء وأجن : إذا تغير طعمه وريحه . وأنشد ليزيد بن معاوية :

لَقَدْ سَقَتْنِي رُحَابًا غَيْرَ ذِي اسِنَّ كَأَلْسِكَ فُتَّ عَلَى مَاءِ الْعَنَاقِيدِ ^(١)

(من لبن لم يتغير طعمه) كما تتغير ألوان الدنيا ، فلا يعود قارصاً ولا حاذراً ^(٢) . ولا ما يكره من الطعوم (لذة) تأنيث لذة ، وهو اللذيذ ، أو وصف بمصدر . وقرئ بالحركات الثلاث ، فالجر على صفة الخمر ، والرفع على صفة الأنهار ، والنصب على العلة ، أى : لأجل لذة الشاربين . والمعنى : ما هو إلا التلذذ الخالص ، ليس معه ذهاب عقل ولا خمار ولا صداع ، ولا آفة من آفات الخمر (مصنف) لم يخرج من بطون النحل فيخالطه الشمع وغيره (ماء حمياً) قيل إذا دنا منهم شوى وجوهمهم ، وانمازت فروة رؤوسهم ، فإذا شربوه قطع أمعاهم .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا

الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ^(١٦)

هم المنافقون : كانوا يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسمعون كلامه ولا يعونه ولا يلقون له بالاً تهاوناً منهم ، فإذا خرجوا قالوا لأولى العلم من الصحابة ، ماذا قال الساعة ؟ على جهة الاستهزاء . وقيل : كان يخطب فإذا غاب المنافقين خرجوا فقالوا ذلك للعلماء . وقيل : قالوه لعبد الله بن مسعود . وعن ابن عباس : أنا منهم ، وقد سميت فيمن سئل (آنفاً) وقرئ : أنفاً على فعل ، نصب على الظرف ^(٣) قال الزجاج : هو من استأنفت الشيء : إذا ابتدأته . والمعنى : ماذا قال في أول وقت يقرب منا .

وَالَّذِينَ آهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ^(١٧)

(زادهم) الله (هدى) بالتوفيق (وآتاهم تقواهم) أعانهم عليها . أو آتاهم جزاء تقواهم .

(١) ليزيد بن معاوية . وترضب الرجل ريق المرأة : إذا ترشفه . وأسن أسنا كتمب تعباً : تغير طعمه أو ربحه أولونه . لطول مدته . يقول : سقتني ريقها الذي لم يتغير . وماء العناقيد : كناية عن الخمر ، واستعاره لريقها على التصريحية ، وناولني المسك حال كونه تفتت على ريقها الطيب بالخمر ، أى : كأنه كذلك لطيبه . وبروى : كالمسك وهي الظاهرة ، والتشبيه من قبيل تشبيه المفرد بالمركب ، لأنه لا يريد تشبي الرضاب بالمسك فقط .

(٢) قوله «ولا حاذراً ولا ما يكره» لعله محذوف ، وأصله : حاذراً بالزاي ، وفي الصحاح : الحاذر : اللبن الحامض

(٣) قوله «وقرئ : أنفاً على فعل نصب على الظرف» لعله : بالضم . (ع)

وعن السدى : بين لهم ما يتقون . وقرئ : وأعطاهم . وقيل : الضمير في زادهم ، لقول الرسول
أولاستهزاء المنافقين .

فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ

إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهَا ۝ (١٨)

(أن تأتيهم) بدل اشتغال من الساعة ، نحو : أن تطوهم من قوله (رجال مؤمنون ونساء
مؤمنات) وقرئ : أن تأتيهم ، بالوقف على الساعة واستئناف الشرط ، وهى فى مصاحف أهل
مكة كذلك : فإن قلت : فما جزاء الشرط ؟ قلت : قوله فأنى لهم . ومعناه : إن تأتيهم الساعة
فكيف لهم ذكرها ، أى تذكرهم واتعاضهم إذا جاءتهم الساعة ، يعنى لا تنفعهم الذكرى حينئذ ،
كقوله تعالى (يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى) . فإن قلت : بهم يتصل قوله (فقد جاء
أشراطها) على القراءتين ؟ قلت : بإتيان الساعة اتصال العلة بالمعلول ، كقولك : إن أكرمى
زيد فأنا حقيق بالإكرام أكرمه . والأشراط : العلامات . قال أبو الأسود :

فَإِنْ كُنْتَ قَدْ أَرَمْتَ بِالصَّرِمِ يَبْنِنَا فَقَدْ جَعَلْتَ أَشْرَاطَ أَوَّلِهِ تَبْدُو (١)

وقيل : مبعث محمد خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم وعليهم منها ، وانشقاق القمر ، والدخان .
وعن الكلبي : كثرة المسال والتجارة ، وشهادة الزور ، وقطع الأرحام ، وقلة الكرام ، وكثرة
اللاثام . وقرئ : بغتة بوزن جربة (٢) ، وهى غريبة لم ترد فى المصادر أختها ، وهى مروية عن
أبي عمرو ، وما أخوفنى أن تكون غلظة من الراوى على أبي عمرو ، وأن يكون الصواب :
بغتة ، بفتح الغين من غير تشديد ، كقراءة الحسن فيما تقدم .

فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ

يَعْلَمُ مُتَقَلِّبَكُمُ وَمَمَوَاكُمُ ۝ (١٩)

لما ذكر حال المؤمنين وحال الكافرين قال : إذا علمت أن الأمر كما ذكر من سعادة هؤلاء
وشقاوة هؤلاء ، فاثبت على ما أنت عليه من العلم بوحدانية الله ، وعلى التواضع وهضم النفس :

(١) لابي الأسرود . يقول : إن كنت حزمت بقطع المودة بيننا فلا تكتميه : لأن علامات ابتدائه شرعت

فى الظهور .

(٢) قوله «بغتة بوزن جربة وهى غريبة» فى القاموس «الجربة» محركة مشددة : جماعة الخراء . وفى الصحاح

«الجربة» بالفتح : بغتة ، وتشديد الباء : العانة من الخير . وفيه أيضا «العانة» القطيع من حمر الوحش . (ع)

باستغفار ذنبك وذنوب من على دينك ، والله يعلم أحوالكم ومتصرفاتكم ومتقلبكم في معاشكم ومتاجرهم ، ويعلم حيث تستقرون في منازلكم أو متقلبكم في حياتكم ومثواكم في القبور . أو متقلبكم في أعمالكم ومثواكم من الجنة والنار . ومثله حقيق بأن يخشى ويتق ، وأن يستغفر ويسترحم . وعن سفيان بن عيينة : أنه سئل عن فضل العلم فقال : ألم تسمع قوله حين بدأ به فقال (فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك) فأمر بالعمل بعد العلم وقال : (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو) إلى قوله (سابقوا إلى مغفرة من ربكم) وقال : (واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة) ثم قال بعد (فاحذروهم) وقال : (واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه) ثم أمر بالعمل بعد .

وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنْ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ ۞ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ

لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۞ ٢١

كانوا يدعون الحرص على الجهاد ويتمنونه بالسنتهم ويقولون ﴿لولا نزلت سورة﴾ في معنى الجهاد ﴿فإذا أنزلت﴾ وأمرُوا فيها بما تمنوا وحرصوا عليه كاعوا^(١) وشق عليهم ، وسقطوا في أيديهم . كقوله تعالى (فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس) . ﴿محكمة﴾ مبينة غير متشابهة لا تحتمل وجهاً إلا وجوب القتال . وعن قتادة : كل سورة فيها ذكر القتال فهي محكمة ، وهي أشد القرآن على المنافقين . وقيل لها محكمة ، لأن النسخ لا يرد عليها من قبل أن القتال قد نسخ ما كان من الصفح والمهادنة ، وهو غير منسوخ إلى يوم القيامة . وقيل : هي المحدثثة ؛ لأنها حين يحدث نزولها لا يتناولها النسخ ، ثم تنسخ بعد ذلك أو تبقى غير منسوخة . وفي قراءة عبدالله : سورة محدثة . وقرئ : فإذا نزلت سورة وذكر فيها القتال : على البناء للفاعل ونصب القتال ﴿الذين في قلوبهم مرض﴾ هم الذين كانوا على حرف غير ثابتي الأقدام ﴿نظر المغشى عليه من الموت﴾ أى تشخص أبصارهم جنباً وعلماً وغيظاً ، كما ينظر من أصابته الغشية عند الموت ﴿فأولى لهم﴾ وعيد بمعنى : فويل لهم . وهو أفعل : من الولي وهو القرب . ومعناه الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه ﴿طاعة وقول معروف﴾ كلام مستأنف ، أى : طاعة وقول معروف خير لهم . وقيل : هي حكاية قولهم ، أى قالوا طاعة وقول معروف ،

(١) قوله كاعوا ، في الصحاح : كاع الكلب بكوع ، أى : مشى على كوعه في الرمل من شدة الحر . (ع)

بمعنى : أمرنا طاعة وقول معروف . وتشهد له قراءة أبي : يقولون طاعة وقول معروف ﴿فإذا عزم الأمر﴾ أى جده . والعزم والجد لأصحاب الأمر . وإنما يستندان إلى الأمر إسناداً مجازياً . ومنه قوله تعالى (إن ذلك لمن عزم الأمور) . ﴿فلو صدقوا الله﴾ فيما زعموا من الحرص على الجهاد . أو : فلو صدقوا فى إيمانهم وواطأت قلوبهم فيه ألسنتهم .

فَقُلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿٢٣﴾

عسيت وعسيتم : لغة أهل الحجاز . وأما بنو تميم فيقولون : عسى أن تفعل ، وعسى أن تفعلوا ، ولا يلحقون الضمائر : وقرأ نافع بكسر السين وهو غريب ، وقد نقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات : ليكون أبلغ فى التوكيد . فإن قلت : ما معنى : فهل عسيتم ... أن تفسدوا فى الأرض ؟ قلت : معناه : هل يتوقع منكم الإفساد ؟ فإن قلت : فكيف يصح هذا فى كلام الله عز و علا وهو عالم بما كان وما يكون ؟ قلت : معناه إنكم - لما عهد منكم - أحقاء بأن يقول لكم كل من ذاقكم وعرف تمريضكم ورخاوة عقدكم فى الإيمان : يا هؤلاء ، ماترون ؟ هل يتوقع منكم إن توليتم أمور الناس وتأمرتهم عليهم لما تبين منكم من الشواهد ولاح من المخايل ﴿أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ تناحرا على الملك وتهاكما على الدنيا ؟ وقيل : إن أعرستم وتوليتم عن دين رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنته أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه فى الجاهلية من الإفساد فى الأرض : بالتناور والتناهب ، وقطع الأرحام : بمقاتلة بعض الأقارب بعضاً وواد البنات ؟ وقرئ : وليتم^(١) . وفى قراءة على بن أبى طالب رضى الله عنه : توليتم ، أى : إن تولاكم ولاية غشمة خرجتم معهم ومشيتم تحت لوائهم وأفسدتم بإفسادهم ؟ وقرئ : وتقطعوا ، وتقطعوا ، من التقطيع والتقطع ﴿أولئك﴾ إشارة إلى المذكورين ﴿لعنهم الله﴾ لإفسادهم وقطعهم الأرحام ، فنعهم أطفافه وخذلهم ، حتى صموا عن استماع الموعدة ، وعموا عن إبطار طريق الهدى . ويجوز أن يريد بالذين آمنوا : المؤمنين الخالص الثابتين ، وأنهم يشوفون إلى الوحى إذا أبطأ عليهم ، فإذا أنزلت سورة فى معنى الجهاد : رأيت المنافقين فيما بينهم يضجرون منها .

أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾

(١) قوله ، وقرئ . ولتيم ، لعله بالبناء للجهول ، وكذا توليتم فى قراءة على . (ع)

(أفلا يتدبرون القرآن) ويتصفحونه وما فيه من المواعظ والزواجر ووعيد العصاة، حتى لا يجسروا على المعاصي، ثم قال (أم على قلوب أقمها) وأم بمعنى بل وهمزة التقرير، للتسجيل عليهم بأن قلوبهم مقفلة لا يتوصل إليها ذكر. وعن قتادة: إذا والله يجدوا في القرآن زاجراً عن معصية الله لتدبروه، ولكنهم أخذوا بالمشابهة فهلكوا. فإن قلت: لم نكرت القلوب وأضيفت الأقفال إليها؟ قلت: أما التشكيك فيه وجهان: أن يراد على قلوب قاسية منهم أمرها في ذلك. أو يراد على بعض القلوب: وهي قلوب المنافقين. وأما إضافة الأقفال: فلأنه يريد الأقفال المختصة بها، وهي أقفال الكفر التي استغلقت فلا تنفتح. وقرئ: إقفالها، على المصدر.

إِنَّ الَّذِينَ آرْتَدُوا عَلَىٰ أَذْبَرِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ۖ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ۖ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ يَصْرِبُونَ وَأُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ ۖ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آتَبَعُوا مَا اسَّخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ۖ (٢٨)

(الشيطان سَوَّلَ لَهُمْ) حيلة من مبتدأ وخبر وقعت خبراً لأن، كقولك: إن زيداً عمرو مرتبه. سَوَّلَ لَهُمْ: سهل لهم ركوب العظام، من السول وهو الاسترخاء، وقد اشتقه من السؤل من لا علم له بالتصريف والاشتقاق جميعاً^(١) (وَأَمْلَىٰ لَهُمْ) ومدت لهم في الآمال والاماني. وقرئ: وأملى لهم، يعني: إن الشيطان يغويهم وأنا أنظرهم، كقوله تعالى (إنما نملى لهم) وقرئ: وأملى لهم على البناء للمفعول، أى: أمهلوا ومد في عمرهم. وقرئ: سَوَّلَ لَهُمْ^(٢)، ومعناه: كيد الشيطان زين لهم على تقدير حذف المضاف. فإن قلت: من هؤلاء؟ قلت: اليهود كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم من بعد ما تبين لهم الهدى، وهو نعمته في التوراة. وقيل: هم المنافقون. الذين قالوا القائلون: اليهود. والذين كرهوا ما نزل الله: المنافقون. وقيل عكسه، وأنه قول المنافقين لقريظة والنضير: لئن أخرجتم لنخرجن معكم. وقيل (بعض الأمر): التكذيب برسول الله صلى الله عليه وسلم، أو بلائله إلا الله، أو ترك القتال معه. وقيل: هو قول أحد الفريقين

(١) قال محمود: هو مشتق من السؤل وهو الاسترخاء، أى: سهل لهم ركوب العظام. قال: وقد اشتقه من السؤل من لا علم له بالتصريف والاشتقاق جميعاً، قلت: لأن السؤل مجهول، وسؤل معتل.

(٢) قوله: وقرئ: سول لهم، لعله بالبناء للمجهول. (ع)

للشركيين : سنطيعكم في التظاهر على عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم والقعود عن الجهاد معه . ومعنى ﴿ في بعض الأمر ﴾ في بعض ما تأمرون به . أو في بعض الأمر الذي يهكم ﴿ والله يعلم أسرارهم ﴾ وقرئ : إسرارهم على المصدر ، قالوا ذلك سرأ فيما بينهم ، فأفشاء الله عليهم . فكيف يعملون وما حيلتهم حينئذ ؟ وقرئ : توفاهم ، ويحتمل أن يكون ماضياً ، ومضارعاً قد حذفت إحدى تاءيه ، كقوله تعالى (إن الذين توفاهم الملائكة) وعن ابن عباس رضى الله عنهما : لا يتوفى أحد على معصية الله إلا يضرب من الملائكة في وجهه ودبره ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى التوفى الموصوف ﴿ ما أخطأ الله ﴾ من كتاب نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم . و﴿ رضوانه ﴾ : الإيمان برسول الله .

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْفَنَهُمْ ﴿٢٩﴾
وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتُمُ يُسِيمَهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَلَكُمْ ﴿٣٠﴾

﴿ أضفانهم ﴾ أحقادهم وإخراجها : إبرازها لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين . وإظهارهم على نفاقهم وعداوتهم لهم ، وكانت صدورهم تغلى حنقا عليهم ﴿ لأريناكم ﴾ لعرفناكم ودلناكم عليهم . حتى تعرفهم بأعيانهم لا يخفون عليك ﴿ بسياهم ﴾ بعلامتهم : وهو أن يسمعهم الله تعالى بعلامة تعلمون بها . وعن أنس رضى الله عنه : ما خفى على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية شيء من المنافقين : كان يعرفهم بسياهم ، ولقد كنا في بعض الغزوات وفيها تسعة من المنافقين يشكوكهم الناس ، فناموا ذات ليلة وأصبحوا وعلى جهة كل واحد منهم مكتوب : هذا منافق ^(١) . فإن قلت : أى فرق بين اللامين في ﴿ فلعرفهم ﴾ و ﴿ لتعرفهم ﴾ ؟ قلت : الأولى هي الداخلة في جواب ولو ، كالتى في ﴿ لأريناكم ﴾ كررت في المعطوف ، وأما اللام في ﴿ ولتعرفهم ﴾ فواقعة مع النون في جواب قسم محذوف ﴿ في لحن القول ﴾ في نحوه وأسلوبه . وعن ابن عباس : هو قولهم : ما لنا إن أطينا من الثواب ؟ ولا يقولون : ما علينا إن عصينا من العقاب . وقيل : اللحن : أن تلحن بكلامك ، أى : تميله إلى نحو من الانحاء ليفطن له صاحبك كالترريض والتورية . قال :

وَلَقَدْ كُنْتُ لَكُمْ لِكَيْمًا تَفْقَهُوا وَاللَّحْنُ يَعْرِفُهُ ذَوُو الْأَلْبَابِ ^(٢)

(١) ذكره الشعبي بغير سند ، ولم أجده .

(٢) اللحن : العدول بالكلام عن الظاهر ، كالترريض والتورية ، والخطي . لاحن ، لعدوله عن الصواب =

وقيل للخطي: لاحن؛ لأنه يمدل بالكلام عن الصواب.

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾

(أخباركم) ما يحكى عنكم وما يخبر به عن أعمالكم، ليعلم حسنها من قبيحها؛ لأن الخبر على حسب الخبر عنه: إن حسناً لحسن، وإن قبيحاً فقبيح، وقرأ يعقوب: ونبلو، بسكون الواو على معنى: ونحن نبلو أخباركم. وقرئ: وليبلونكم ويعلم، ويبلو بالياء. وعن الفضيل: أنه كان إذا قرأها بكى وقال: اللهم لاتبلنا، فإنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا وعذبتنا.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ

لَهُمُ الْهُدَىٰ إِنَّهُمْ يَصُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُ أَعْمَلُهُمْ ﴿٣٢﴾

(وسيحبط أعمالهم) التي عملوها في دينهم يرجون بها الثواب؛ لأنها مع كفرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم باطلة، وهم قريظة والنضير. أو سيحبط أعمالهم التي عملوها، والمكائد التي نصبوها في مشاقة الرسول، أى: سيطلها فلا يصلون منها إلى أغراضهم، بل يستنصرون بها ولا يشمر لهم إلا القتل والجلاء عن أوطانهم. وقيل هم رؤساء قريش، والمطمعون يوم بدر.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾

(ولا تبطلوا أعمالكم) أى لا تحبطوا الطاعات بالكبائر^(١)، كقوله تعالى (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) إلى أن قال (أن تحبط أعمالكم) وعن أبي العالية: كان أصحاب

== أى: لكي تفهموا دون غيركم، فإن اللحن يعرفه أرباب الألباب دون غيرهم. والألباب: العقول ام.

(١) قال محمود: «معناه: لا تحبطوا الطاعات بالكبائر... الخ» قال أحد: قاعدة أهل السنة مؤسسة على أن الكبائر ما دون الشرك لا تحبط حسنة مكتوبة؛ لأن الله (لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً) نعم يقولون: إن الحسنات يذهبن السيئات كما وعد به الكريم جل وعلا. وقاعدة المعزلة موضوعة على أن كبيرة واحدة تحبط ما تقدمها من الحسنات ولو كانت مثل زبد البحر، لأنهم يقطعون بخلود الفاسق في النار، وسلب صفة الإيمان عنه، ومضى خلد في النار لم تنفع طاعاته ولا إيمانه؛ فعلى هذا بنى الرخوى كلامه وجلب الآثار التي في بعضها موافقة في الظاهر لمقتده، ولا كلام عليها جملة من غير تفصيل؛ لأن القاعدة المتقدمة ثابتة قطعاً بأدلة اقتضت ذلك بحاشي كل معتبر في الحل والعقد عن مخالفتها، فهما ورد من ظاهر مخالفتها وجب رده إليها بوجه من التأويل، فإن كان نصاً لا يقبل التأويل فالطريق في ذلك تحسين اللفظ بالمعقول عنه، والتوريك بالغلط على الثقة، على أن الأثر المذكور عن ابن عمر هو أولى بأن يدل ظاهره لأهل السنة فتأمله، وأما محل الآية عند أهل الحق فعلى أن النهي عن الإخلال بشروط من شروط العمل وبركن يقتضى إطلانه من أصله، لا أنه يطل بعد استجماع شرائط الصحة والقبول.

رسول الله صلى الله عليه وسلم يرون أنه لا يضر مع الإيمان ذنب ، كما لا ينفع مع الشرك ^(١) عمل ، حتى نزلت (ولا تبطلوا أعمالكم) فكانوا يخافون الكبائر على أعمالهم . وعن حذيفة : غافوا أن تحبط الكبائر أعمالهم . وعن ابن عمر : كنا نرى أنه ليس شيء من حسناتنا إلا مقبولا ، حتى نزل (ولا تبطلوا أعمالكم) فقلنا : ما هذا الذي يبطل أعمالنا ؟ قلنا : الكبائر الموجبات ^(٢) والفواحش ، حتى نزل (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فكففنا عن القول في ذلك ، فكنا نخاف على من أصاب الكبائر وزجروا لمن لم يصبها ^(٣) . وعن قتادة رحمه الله : رحم الله عبدا لم يحبط عمله الصالح بعمله السيئ . وقيل : لا تبطلوها بمعصيتهما . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : لا تبطلوها بالربا والسمعة ، وعنه : بالشك والنفاق : وقيل : بالمعجب ؛ فإن المعجب يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب . وقيل : لا تبطلوا صدقاتكم بالحق والأذى .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ

يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۖ (٣٤)

(ثم ماتوا وهم كفار) قيل : هم أصحاب القلب ، والظاهر العموم .

فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَغْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَ

أَعْمَلَكُمْ ۖ (٣٥)

(فلا تهنوا) ولا تضعفوا ولا تذلوا للعدو (و) لا (تدعوا إلى السلم) وقرئ : السلم وهما المسألة (وأنتم الأغليون) أى الأغلبون الأقهرون (والله معكم) أى ناصركم . وعن قتادة : لا تكونوا أول الطائفتين ضرعت إلى صاحبتهما بالموادعة . وقرئ : ولا تدعوا ، من ادعى القوم وتداعوا : إذا دعوا . نحو قولك : ارتبوا الصيد وتراموه . وتدعوا : مجزوم لدخوله

(١) أخرجه محمد بن نصر المروزي في كتاب قدر الصلاة له . قال حدثنا أبو قدامة حدثنا وكيع حدثنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس بهذا وزاد : فزلت (ولا تبطلوا أعمالكم) وفي الكتاب حديث مرفوع . أخرجه إسماعيل وأبو يعلى وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن مسعود . قال أبو نعيم : تفرد به يحيى بن يمان عن صفيان اه . ويحيى ضعيف . وفيه عن هر أيضاً أخرجه العقيلي . وابن عدى من رواية حجاج بن نصير عن منذر بن زياد وهما ضعيفان .

(٢) قوله : قلنا الكبائر الموجبات ، عبارة الخازن : الكبائر والفواحش . (ع)

(٣) أخرجه ابن مردويه . من طريق عبد الله بن المبارك عن بكير بن معروف . عن مقاتل بن حيان . عن

نافع . عن ابن عمر بهذا . وأخرجه محمد بن نصر أيضاً . من هذا الوجه .

في حكم النهي . أو منصوب لإضمار إن . ونحو قوله تعالى (وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ) : قوله تعالى (لَإِنْ أَنْتَ إِلَّا عَلِيٌّ) . (وَلَنْ يَرْكَبَ) من وترت الرجل إذا قتلت له قتيلا من ولد أو أخ أو حميم ، أو حربته ، وحقيقته : أفردته من قريبه أو ماله ، من الوتر وهو الفرد ؛ فشبه إضاعة عمل العامل وتمطيل ثوابه بوتر الوتر ، وهو من فصيح الكلام . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : « من فاته صلاة العصر ، فكأنما وتر أهله وماله » ^(١) أي أفرد عنهما قتلا ونهيا .

إِنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ^(٣٦) إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَمِنْكُمْ تَبَخَّلُوا وَبُخْرَجَ أَصْفَنَكُمْ ^(٣٧) هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ^(٣٨)

(يؤتكم أجوركم) ثواب إيمانكم وتقواكم (ولا يسألكم) أي ولا يسألكم جميعها ، إنما يقتصر منكم على ربع العشر ، ثم قال (إن يسألكموها فيخرجكم) أي يجهدكم ويطلبه كله ، والإحفاء : المبالغة وبلوغ الغاية في كل شيء ، يقال : أحفاه في المسئلة إذا لم يترك شيئا من الإلحاح . وأحنى شاربه : إذا استأضله (تبخلوا ويخرج أضفانكم) أي تضطغنون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٢) ، وتضييق صدوركم لذلك ، وأظهروا كراهتكم ومقتكم لدين يذهب بأموالكم ، والضمير في (يخرج) لله عز وجل ، أي يضفكم بطلب أموالكم . أو للبخل ؛ لأنه سبب الاضطغان . وقرئ : نخرج . بالنون . ويخرج ، بالياء والتاء مع فتحهما ورفع أضفانكم (هؤلاء) موصول بمعنى الذين صلته (تدعون) أي أنتم الذين تدعون . أو أنتم يا مخاطبون هؤلاء الموصوفون ، ثم استأنف وصفهم ، كأنهم قالوا : وما وصفنا ؟ فقيل : تدعون (لتنفقوا في سبيل الله) قيل : هي النفقة في الغزو . وقيل : الزكاة ، كأنه قيل : الدليل على أنه لو أحفاكم لبخلتكم وكرهتم العطاء واضطغنت أنكم تدعون إلى أداء ربع العشر ، فمنكم ناس يبخلون به ، ثم قال (ومن يبخل) بالصدقة وأداء الفريضة . فلا يتعداه ضرر بخله ، وإنما (يبخل عن نفسه) يقال بخلت عليه وعنه ، وكذلك

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر .

(٢) قوله ، أي تضطغنون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في الصحاح ، الضغن ، الحقد . وتضاغن

القوم واضطغنا : انطروا على الأحقاد . (ع)

ضننت عليه وعنه . ثم أخبر أنه لا يأمر بذلك ولا يدعو إليه لحاجته إليه ، فهو الغنى الذى تستحيل عليه الحاجات ، ولكن لحاجتكم وفقركم إلى الثواب (وإن تتولوا) معطوف على : وإن تؤمنوا وتتقوا (يستبدل قوما غيركم) يخفق قوما سواكم على خلاف صفتكم راغبين فى الإيمان والتقوى ، غير متولين عنهما ، كقوله تعالى (وبأت بخلق جديد) وقيل : هم الملائكة . وقيل : الأنصار . وعن ابن عباس : كندة والنخع . وعن الحسن : العجم وعن عكرمة : فارس والروم . وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القوم وكان سليمان إلى جنبه ، فضرب على فخذه وقال : هذا وقومه ، والذى نفسى بيده ، لو كان الإيمان منوطا بالثريا لتناوله رجال من فارس ، ^(١) .

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرأ سورة محمد صلى الله عليه وسلم كان حقاً على الله أن يسقيه من أنهار الجنة ، ^(٢)

سورة الفتح

مدينة | نزلت فى الطريق عند الانصراف من الحديبية |

وآياتها ٢٩ | نزلت بعد الجمعة |

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ① لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَبِئْسَ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ② وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ③

هو فتح مكة ، وقد نزلت مرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مكة عام الحديبية عدة له

(١) أخرجه الترمذى وابن حبان والحاكم . والطبرى وابن أبى حاتم وغيرهم من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة وله طرق عنه وعن غيره .

(٢) أخرجه الثعلبى وابن مردويه والواحدى ، بأسانيدهم إلى أبى بن كعب .

بالفتح ، وجيء به على لفظ الماضي على عادة رب العزة سبحانه في أخباره ؛ لأنها في تحققها وتيقنها بمنزلة للكائنة الموجودة ، وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن الخبير^(١) ما لا يخفى .^(٢)
 فإن قلت : كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة ؟ قلت : لم يجعل علة للمغفرة ، ولكن لاجتماع ما عُدَّ من الأمور الأربعة : وهي المغفرة وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز ، كأنه قيل : يسرنا لك فتح مكة ، ونصرتك على عدوك ، لتجتمع لك بين عز الدارين وأغراض العاجل والآجل . ويجوز أن يكون فتح مكة - من حيث إنه جهاد للعدو - سبباً للغفران والثواب والفتح والظفر بالبلد عنوة أو صلحاً بحرب أو بغير حرب ، لأنه منخلق ما لم يظفر به ، فإذا ظفر به وحصل في اليد فقد فتح . وقيل : هو فتح الحديبية ، ولم يكن فيه قتال شديد ، ولكن ترام بين القوم بسهام وحجارة . وعن ابن عباس رضى الله عنه : رموا المشركين حتى أدخلوهم ديارهم . وعن الكلبي : ظهروا عليهم حتى سألوا الصلح . فإن قلت : كيف يكون فتحاً وقد أحصروا فتحوا وحلقوا بالحديبية ؟ قلت : كان ذلك قبل الهدنة ، فلما طلبوها وتمت كان فتحاً ميبناً . وعن موسى بن عقبة : أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية راجعاً ، فقال رجل من أصحابه : ما هذا بفتح ، لقد صدونا عن البيت وصد هدينا ، فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « بئس الكلام هذا ، بل هو أعظم الفتح » ، وقد رضى المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح ،^(٣) ويسألوك القضية ، ويرغبوا إليكم في الأمان ، وقد رأوا منكم ما كرهوا ،^(٤) وعن الشعبي : نزلت بالحديبية وأصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في تلك الغزوة ما لم يصب في غزوة أصاب : أن بويحبيعة الرضوان ، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وظهرت الروم على فارس ؛ وبلغ الهدى محله ، وأطعموا نخل خيبر ، وكان في فتح الحديبية آية عظيمة . وذلك أنه نزح ماؤها حتى لم يبق فيها قطرة ، فتمضمض رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم جبه فيها ، فدرت بالماء حتى

(١) قوله « علو شأن الخبير » لعله : الخبير به . وعبارة النسب : الخبير عنه . (ع)

(٢) قال محمود : « جاء الاخبار بالفتح على لفظ الماضي وإن لم يقع بعد ؛ لأن المراد فتح مكة ، والآية نزلت حين رجع عليه الصلاة والسلام من الحديبية قبل عام الفتح ، وذلك على عادة رب العزة في أخباره ؛ لأنها كانت عفة نزلت منزلة الكائنة الموجودة ، وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن الخبير ما لا يخفى » قال أحمد : ومن الفخامة الالتفات من التكلم إلى النية .

(٣) قوله « عن بلادهم بالراح » في الصحاح : الراح ، الخز ، والراح : جمع راحة وهي الكف . والراح : الارتياح اه والظاهر هنا الثالث . (ع)

(٤) مكذا هو في منازل موسى بن عقبة عن الزهري وأخرجه البيهقي في الدلائل من طريقه ومن طريق أبي الأسود عن عروة أيضاً نحوه مطولاً

شرب جميع من كان معه : وقيل : لجاش الماء حتى امتلأت ولم ينفد ماؤها ^(١) بعد - وقيل : هو فتح خيبر ، وقيل : فتح الروم . وقيل : فتح الله له بالإسلام والنبوة والدعوة بالحجة والسيف ، ولا فتح أبين منه وأعظم ، وهو رأس الفتوح كلها ، إذ لا فتح من فتوح الإسلام إلا وهو تحته ومشعب منه . وقيل : معناه قضينا لك قضاء يئناً على أهل مكة أن تدخلها أنت وأصحابك من قابل ؛ لتطوفوا بالبيت : من الفتاحة وهي الحكومة ، وكذا عن قتادة (ما تقدم من ذنبك وما تأخر) يريد : جميع ما فرط منك . وعن مقاتل : ما تقدم في الجاهلية وما بعدها . وقيل : ما تقدم من حديث مارية وما تأخر من امرأة زيد (نصرأ عزيزاً) فيه عز ومنعة - أو وصف بصفة المنصور إسناداً مجازياً أو عزيزاً صاحبه .

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ
وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ④
وَالْمُؤْمِنَاتُ جُنَّتْ نَجْوَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ حُلِيِّنَ فِيهَا وَيُكْفَّرُ عَنْهُمْ
سَوَاءٌ هُنَّ أَمْ هُنَّ ذُنُوبٌ كَثِيرَةٌ ⑤
وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السُّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَغَضِبَ اللَّهُ
عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ⑥
وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ⑦

(السكينة) السكون كالهيئة للمهتان ، أي : أنزل الله في قلوبهم السكون والطمأنينة بسبب

(١) متفق عليه . من حديث البراء مطولا باللفظ الأول . ولمسلم من حديث سلمة بن الأكوع . قال وقدمنا المدينة ونحن أربع عشرة مائة وعليها نخسون شاة لاتروها . فقعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على جنب الركبة فاما دعا وإما بصق ، قال لجاشت . فسقينا واستقينا . وعند البخاري في الحديث الطويل عن المسور بن عزمة ومروان : فعدل عنهم حتى نزل بأفعى الحديبية على ثمد قليل الماء . فلم يلبث الناس أن سرحوه . وشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العطش فانزع سهما من كنانته ثم أمرهم أن يحموه فيه . فوالله ما زال يحبش لهم بالرى ولا مخالفة في هذا الحديث البراء . لما رواه الواقدي من طريق عطاء بن أبي مروان . عن أبيه . حدثني أربعة عشر رجلا من أسلم صحابة . أن ناجية بن الأعجم . قال ودعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم . حين شكى إليه من قلة الماء فدفع إلى سهما من كنانته وأمر بدلو من مأثا . ففضض فاه منه ثم بهج في الدلو . وقال لي : أنزل الماء فصبه في البئر وفتحت الماء بالمهم . ففعلت . فوالذي بعثه بالحق . ما كنت أخرج حتى كاد يخرقني . وروى أيضاً من حديث قتادة . قال : لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجل . فنزل بالسهم وتوضأ . وبج فاه منه ، ثم رده في البئر : جاشت بالرواء .

الصلح والامن ، ليعرفوا فضل الله عليهم بتيسير الامن بعد الخوف ، والهدنة غب القتال ، فيزدادوا يقينا إلى يقينهم ، وأنزل فيها السكون إلى ما جاء به محمد عليه السلام من الشرائع (ليزدادوا إيمانا) بالشرائع مقرونا إلى إيمانهم وهو التوحيد . عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن أول ما أتاهم به النبي صلى الله عليه وسلم التوحيد ، فلما آمنوا بالله وحده أنزل الصلاة والزكاة ، ثم الحج ، ثم الجهاد ، فازدادوا إيمانا إلى إيمانهم . أو أنزل فيها الوفاق والعظمة لله عز وجل ولرسوله ، ليزدادوا باعتقاد ذلك إيمانا إلى إيمانهم . وقيل : أنزل فيها الرحمة ليراحوا فيزداد إيمانهم (ولله جنود السموات والأرض) يسلط بعضها على بعض كما يقتضيه عليه وحكمته ، ومن قضيته أن سكن قلوب المؤمنين بصلح الحديبية ووعدهم أن يفتح لهم ، وإنما قضى ذلك ليعرف المؤمنون نعمة الله فيه ويشكروها فيستحقوا الثواب ، فيثيبهم ويعذب الكافرين والمنافقين لما غاظهم من ذلك وكرهوه . وقع السوء : عبارة عن رداءة الشيء وفساده ؛ والصدق عن جودته وصلاحه ، فقيل في المرضى الصالح من الأفعال : فعل صدق ، وفي المسخوط الفاسد منها : فعل سوء . ومعنى (ظن السوء) ظنهم أن الله تعالى لا ينصر الرسول والمؤمنين ، ولا يرجعهم إلى مكة ظافرين فاتحها عنوة وقهراً (عليهم دائرة السوء) أى : ما يظنونونه ويتربصونه بالمؤمنين فهو حائق بهم ودائر عليهم - والسوء : الهلاك والدمار . وقرئ : دائرة السوء (١) بالفتح ، أى . الدائرة التي يذمونها ويسخطونها ، فهي عندهم دائرة سوء ، وعند المؤمنين دائرة صدق . فإن قلت : هل من فرق بين السوء والسوء ؟ قلت : هما كالسكر والسكر والضعف والضعف ، من ساء ، إلا أن المفتوح غلب في أن يضاف إليه ما يراد ذمه من كل شيء . وأما السوء بالضم فخار مجرى الشر الذي هو نقيض الخير . يقال : أراد به السوء وأراد به الخير ؛ ولذلك أضيف الظن إلى المفتوح لكونه مذموماً ؛ وكانت الدائرة محمودة فكان حقها أن لا تضاف إليه إلا على التأويل الذي ذكرنا وأما دائرة السوء بالضم ، فلأن الذي أصابهم مكروه وشدة ، فصح أن يقع عليه اسم السوء ، كقوله عزّ وعلا (إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة) .

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ (٨) لَتُؤْمِنُنَّو بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ

وَتَعَزَّزُوهُ وَتُقَرِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ (٩)

(شاهدا) تشهد على أمتك ، كقوله تعالى (ويكون الرسول عليكم شهيداً) . (ليؤمنوا) الضمير للناس (ويعزروه) ويقوه بالنصرة (ويوقروه) ويعظموه (ويسبحوه) من التسبيح . أو من

(١) قوله : وقرئ : دائرة السوء بالفتح ، يفيد أن القراءة المشهورة : دائرة السوء . بالضم . (ع)

السبحة ، والضمائر لله عز وجل والمراد بتعزير الله : تعزير دينه ورسوله صلى الله عليه وسلم . ومن فرق الضمائر فقد أبعد . وقرئ : لتؤمنوا وتعزروه^(١) وتوقروه وتسبحوه ، بالتاء ؛ والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأئمة . وقرئ : وتعزروه بضم الزاي وكسر ها . وتعزروه بضم التاء والتخفيف ، وتعزروه بالزايين . وتوقروه من أوقره بمعنى وقره . وتسبحوا الله (بكرة وأصيلاً) عن ابن عباس رضي الله عنهما : صلاة الفجر وصلاة الظهر والعصر .

إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسْئُوتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١٠)

لما قال (إنما يبايعون الله) أكدته تأكيداً على طريق التخييل^(٢) فقال (يد الله فوق أيديهم) يريد أن يد رسول الله التي تعلو أيدي المبايعين : هي يد الله ، والله تعالى منزّه عن الجوارح وعن صفات الأجسام ، وإنما المعنى : تقرير أن عقد الميثاق مع الرسول كعقده مع الله من غير تفاوت بينهما ، كقوله تعالى (من يطع الرسول فقد أطاع الله) والمراد : بيعة الرضوان (فإنما ينكث على نفسه) فلا يعود ضرر نكثه إلا عليه . قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه : بايعنا رسول الله تحت الشجرة على الموت ، وعلى أن لا نفر ، فأنكث أحد منا البيعة إلا جدر بن قيس وكان منافقاً ، اختبأ تحت إبط بعيره ولم يسر مع القوم^(٣) . وقرئ : إنما يبايعون الله ، أي : لأجل الله ولوجهه ، وقرئ : ينكث بضم الكاف وكسر ها ، وبما عاهد وعهد (فمسئوتيه) بالنون والياء ، يقال : وفيت بالعهد وأوفيت به ، وهي لغة تهامة . ومنها قوله تعالى (أوفوا بالعقود) ، (والموفون بعهدهم) .

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ

(١) قوله «قرئ لتؤمنوا وتعزروه» يفيد أن قراءة الياء هي المشهورة ، وقد تفسر إلى تفريق الضمائر قراءة : وتسبحوا الله ... الآية . (ع)

(٢) قال محمود : «لما قال إنما يبايعون الله أكدته تأكيداً على طريق التخييل ... الخ» قال أحمد : كلام حسن بعد إسقاط لفظ التخييل وإبداله بالتخييل ، وقد تقدمت أمثاله .

(٣) لم أجده هكذا بل في حديث جابر «أنه سئل كم كانوا يوم الحديبية ؟ قال : كنا أربعة عشر مائة فبايعناه وعمر أخذ يده تحت الشجرة . وهي سمرة . فبايعناه . وجد بن قيس اختبأ تحت بطن بعيره ، أخرجه مسلم . ولا يبي على من هذا الوجه » لم يبايعه على الموت وإنما بايعناه على أن لا نفر ، بايعناه كلها . إلا الجدر بن قيس ، فانه اختبأ تحت بطن بعيره ، فهذا ليس فيه أنه بايع ونكث ، بل فيه أنه لم يبايع أصلاً .

أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١١)

هم الذين خلفوا عن الحديبية ، وهم أعراب غفار ومزينة وجهينة وأشجع وأسلم والدليل . وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمراً استنفر من حول المدينة من الأعراب وأهل البوادي ليخرجوا معه حذراً من قريش^(١) أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت ، وأحرم هو صلى الله عليه وسلم وساق معه الهدى ، ليعلم أنه لا يريد حرباً ، فشاغل كثير من الأعراب وقالوا : يذهب إلى قوم قد غزوه في عقر^(٢) داره بالمدينة وقتلوا أصحابه ، فيقاتلهم ، وظنوا أنه يهلك فلا يتقلب إلى المدينة واعتلوا بالشغل بأهاليهم وأموالهم وأنه ليس لهم من يقوم بأشغالهم . وقرئ : شغلنا ، بالتشديد ﴿ يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم ﴾ تكذيب لهم في اعتذارهم . وأن الذي خلفهم ليس بما يقولون ، وإنما هو الشك في الله والنفاق ؛ وطلبهم للاستغفار أيضاً ليس بصادق عن حقيقة ﴿ فن ملك لكم ﴾ فن يمنعكم من مشيئة الله وقضائه ﴿ إن أراد بكم ﴾ ما يضركم من قتل أو هزيمة ﴿ أو أراد بكم نفعاً ﴾ من ظفر وغنيمة^(٣) وقرئ : ضراً ، بالفتح والضم . الأهلون : جمع أهل . ويقال : أهلات ، على تقدير تاء التأنيث . كأرض وأرضات ، وقد جاء أهلة . وأما أهال ، فاسم جمع ، كليال .

بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيَّنَ ذَلِكَ

فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنَّ السَّوِّءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢)

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل من رواية آدم عن ورقاء . عن ابن نجيج عن مجاهد نحوه

(٢) قوله وقد غزوه في عقر داره في المصباح : عقر الدار أصلها ، وهو علة القوم . وأهل المدينة يقولون :

عقر الدار ، بالضم . (ع)

(٣) قال محمود : « أي قتلًا وهزيمة أو أراد بكم نفعاً أي ظفراً وغنيمة » قال أحد : لا تخلو الآية من الفن المعروف عند علماء البيان باللف ، وكان الأصل - والله أعلم - : فن ملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً ، ومن يحرملك النفع إن أراد بكم نفعاً ؛ لأن مثل هذا النظم يستعمل في الضر ، وكذلك ورد في الكتاب العزيز مطرداً ، كقوله ﴿ فن ملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم ﴾ . (ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً) (فلا تملكون في من الله شيئاً هو أعلم بما تفيضون فيه) ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في بعض الحديث « إني لأملك لكم شيئاً ، يخاطب عشيرته وأمثاله كثيرة ، وسر اختصاصه بدفع المضرة : أن الملك مضاف في هذه المواضع باللام ودفع المضرة نفع يضاف للدفع عنه ، وليس كذلك حرمان المنفعة ، فانه ضرر عائد عليه لا له ، فإذا ظهر ذلك فأنما انتظمت الآية على هذا الوجه ، لأن القسمين يشتركان في أن كل واحد منهما نفي لدفع المقدر من خير وشر ، فلما تقاربا أدرجهما في عبارة واحدة ، وخص عبارة دفع الضر ؛ لأنه هو المتوقع لهؤلاء ؛ إذ الآية في سياق التهديد أو الرعي الشديد ، وهي نظير قوله (قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة) فان المعصية إنما تكون من سوء لامن الرحمة . فهاتان الآيتان برامان في التقرير الذي ذكرته ، والله أعلم .

وقرئ : إلى أهلهم . وزين ، على البناء للفاعل وهو الشيطان ، أو الله عز وجل ، وكلاهما جاء في القرآن (وزين لهم الشيطان أعمالهم) ، (وزينا لهم أعمالهم) والبور : من بار ، كاهلك : من هلك ، بناء ومعنى ؛ ولذلك وصف به الواحد والجمع والمذكر والمؤنث . ويجوز أن يكون جمع باثر كعائد وعوذ . والمعنى : وكنتم قوما فاسدين في أنفسكم وقلوبكم ونياتكم لاخير فيكم . أو هالكين عند الله مستوجبين لسنخه وعقابه .

وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (١٣)

(للكافرين) مقام مقام لهم ، للإيدان بأن من لم يجمع بين الإيمانين الإيمان بالله وبرسوله فهو كافر ، ونكر (سعيراً) لأنها نار مخصوصة ، كما نكر (ناراً تالطى) .

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْفُرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ

غَفُورًا رَحِيمًا (١٤)

(ولله ملك السموات والارض) يديره تدبير قادر حكيم ، فيغفر ويعذب بمشيئته (١) ، ومشيته تابعة لحكمته ، وحكمته المغفرة للتائب وتعذيب المصّر (وكان الله غفوراً رحيماً) رحمته سابقة لغضبه ، حيث يكفر السيئات باجتناب الكبائر ، ويغفر الكبائر بالتوبة .

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَارِمٍ لِتَأْخُذُوا فِيهَا ذُرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ

فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥)

(سيقول المخلفون) الذين تخلفوا عن الحديبية (إذا انطلقتم إلى مغارم) إلى غنائم خيبر (أن يبدلوا كلام الله) وقرئ كلم الله ، أن يغيروا موعد الله لأهل الحديبية ، وذلك أنه وعدم أن يعرضهم من مغارم مكة مغارم خيبر (٢) إذا قفلوا مواعين لا يصيبون منهم شيئاً . وقيل :

(١) قال محمود : يغفر ويعذب بمشيئته ... الخ . قال أحمد : قد تقدمت أمثاله ، والقول بأن موجب الحكمة ماذكر تحكم . هذا وأما الشرع القاطع تأتي على مايتقدمه فلا تبقى ولا تذر ، فكمن دليل على أن المغفرة لا تنف على التوبة ، ولم يروم اتباع القرآن للرأى الفاسد فيقيد مطلقاً ويحجر واسماً ، وأهه الموفق .

(٢) قال محمود : والمراد بكلام الله وعده أهل الحديبية بغنائم خيبر عوضاً عما يغفونهم من غنائم مكة ... الخ . قال أحمد : فالاضراب الأول إذا هو المعروف ، والثاني هو المستغرب المستعذب الذي ليس فيه مبالغة بين الأول والثاني ، بل زيادة بينة ومبالغة متمكنة ، وإنما كان المنسوب إليهم ثانياً أشد من المنسوب إليهم أولاً ؛ لأن الأول نسبة إلى جهل في شيء مخصوص ، وهو نسبهم الحسد إلى المؤمنين ، والثاني يعتبر بجهل على الإطلاق . وقلة فهم على الاسترسال .

هو قوله تعالى (لن تخرجوا معي أبداً) . (تحذوننا) أن نصيب معكم من الغنائم . قرئ بضم السين وكسرهما (لا يفقهون) لا يفهمون إلا فهما (قليلاً) وهو فطنتهم لأمور الدنيا دون أمور الدين . كقوله تعالى (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا) فإن قلت : ما الفرق بين حرفي الإضراب ؟ قلت : الأول إضراب معناه : رد أن يكون حكم الله أن لا يتبعوهم وإثبات الحسد . والثاني إضراب عن وصفهم بإضافة الحسد إلى المؤمنين ، إلى وصفهم بما هو أطم منه ، وهو الجهل وقلة الفقه .

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾

(قل للمخلفين) هم الذين تخلفوا عن الحديبية (إلى قوم أولى بأس شديد) يعني بني حنيفة قوم مسيلة ، وأهل الردة الذين حاربهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه : لأن مشركي العرب والمرتبدين هم الذين لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف عند أبي حنيفة ومن عداهم من مشركي العجم وأهل الكتاب . والمجوس تقبل منهم الجزية ، وعند الشافعي لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب والمجوس دون مشركي العجم والعرب . وهذا دليل على إمامة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فإنهم لم يدعوا إلى حرب في أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن بعد وفاته . وكيف يدعوه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قوله تعالى (قل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً) وقيل : هم فارس والروم . ومعنى (يسلمون) ينقادون ، لأن الروم نصارى ، وفارس مجوس يقبل منهم إعطاء الجزية . فإن قلت : عن قتادة أنهم ثقيف وهو أذن ، وكان ذلك في أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلت : إن صح ذلك فالمعنى : لن تخرجوا معي أبداً مادمت على ما أنتم عليه من مرض القلوب والاضطراب في الدين . أو على قول مجاهد : كان الموعد أنهم لا يتبعون رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا متطوعين لا نصيب لهم في الغنم (كما توليتم من قبل) يريد في غزوة الحديبية . أو يسلمون . معطوف على تقاتلونهم ، أي : يكون أحد الأمرين : إما المقاتلة ، أو الإسلام ، لثالث لهما . وفي قراءة أبي : أو يسلموا ، بمعنى : إلى أن يسلموا .

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ

يُطِيعُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ بِمُذَّةٍ
عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾

نقى الحرج عن هؤلاء من ذوى المصاهات فى التخلف عن الفزوء . وقرئ : ندخله
ونعذبه ، بالنون .

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ
فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَنَّا بَعُمْ فَتَحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا
وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾

هى بيعة الرضوان ، سميت بهذه الآية ، وقصتها : أن النبى صلى الله عليه وسلم حين نزل
الحديبية بعث جواس^(١) بن أمية الخزاعى رسولا إلى أهل مكة ، فهموا به فنعاه الأحابيش ،
فلما رجع دعا بعمر رضى الله عنه ليعبثه فقال : إني أخافهم على نفسى ، لما عرف من عداوتى
إياهم وما بمكة عدوى^(٢) يمنعنى ، ولكنى أدلك على رجل هو أعز بها منى وأحب إليهم : عثمان بن
عفان فبعثه فخيرهم أنه لم يأت بحرب ، وإنما جاء زائرا لهذا البيت معظم الحرمته ، فوقروه وقالوا :
إن شئت أن تطوف بالبيت فافعل ، فقال : ما كنت لأطوف قبل أن يطوف رسول الله صلى
الله عليه وسلم واحتبس عندهم ، فأرجف بأنهم قتلوه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
لا نبرح حتى نناجز القوم . ودعا الناس إلى البيعة فبايعوه تحت الشجرة وكانت سمرة . قال جابر
ابن عبد الله : لو كنت أبصر لأريتكم مكانها^(٣) . وقيل : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم
جالسا فى أصل الشجرة وعلى ظهره غصن من أغصانها . قال عبد الله بن المغفل : وكنت قائما

(١) «جواس» الذى فى أبى السعود وفى الشهاب : خراش . بالخاء والراء والسين اه ملخصا من ماش ،
وكذا فى النسق والمخازن . (ع)

(٢) أخرجه أحد من رواية عروة عن المسور ومروان . قالوا : «خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عام
الحديبية يريد زيارة البيت» فذكر الحديث مطولا . وفيه هذه القصة دون قصة جابر وروى الطبرى من رواية عكرمة
مولى ابن عباس قال «دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم جواس بن أمية الخزاعى فذكره ومن طريق أبى إسحاق
حدثنى عبد الله بن أبى بكر . وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عثمان قتل فقال : لا نبرح حتى نناجز القوم .
ودعا الناس إلى البيعة . فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة . فكان الناس يقولون : يا أيهم رسول الله صلى الله عليه
وسلم على الموت ، وجابر يقول : لم يبايعتنا على الموت ولكن ببايعتنا على أن لا نفرء إلى أن قال : وبلغ رسول الله صلى
الله عليه وسلم أن الذى ذكر من أمر عثمان باطل . وقوله وكانت سمرة . رواه مسلم من حديث جابر قال «فبايعناه
وأخذ عمر يده تحت الشجرة وكانت سمرة» وقول جابر : لو كنت أبصر الخ : متفق عليه من حديثه .

على رأسه ويدي غصن من الشجرة أذب عنه . فرفعت الفصن عن ظهره فبايعوه على الموت دونه ، وعلى أن لا يفروا ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنتم اليوم خير أهل الأرض » (١) وكان عدد المبايعين ألفاً وخمسمائة وخمسة وعشرين (٢) وقيل : ألفاً وأربعمائة : وقيل : ألفاً وثلثمائة (٣) (فعل ما في قلوبهم) من الإخلاص وصدق الضمائر فيما بايعوا عليه (فأنزل السكينة) أي : الطمأنينة والامن بسبب الصلح على قلوبهم (وأنابهم فتحاً قريباً) وقرئ : وآتاهم ، وهو فتح خيبر غلب انصرافهم من مكة . وعن الحسن : فتح هجر ، وهو أجل فتح : اتبعوا بشرها زماناً (ومغانم كثيرة تأخذونها) هي مغنم خيبر ، وكانت أرضاً ذات عقار (٤) وأموال ، فقسمها رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عليهم ، ثم أتاه عثمان بالصلح فصالحهم وانصرف بعد أن نحر بالحديبية وحلق .

وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ

النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَسْكُنُوا آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢٠)

(وعدكم الله مغنم كثيرة) وهي ما بقى على المؤمنين إلى يوم القيامة (فعجل لكم هذه) المغنم يعني مغنم خيبر (وكف أيدي الناس عنكم) يعني أيدي أهل خيبر وحلفاؤهم من أسد وغطفان حين جاؤا لنصرتهم ، فقذف الله في قلوبهم الرعب فنكسوا . وقيل : أيدي أهل مكة بالصلح (ولتسكنوا) هذه الكفة (آية للمؤمنين) وعبرة يعرفون بها أنهم من الله تعالى بمكان ،

(١) قوله « وقيل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً في ظل الشجرة وعلى ظهره غصن من أغصانها . قال عبد الله بن مغفل : كنت قائماً على رأسه ويدي غصن من الشجرة أذب عنه ، فرفعت الفصن عن ظهره وبايعوه على الموت دونه ، وعلى أن لا يفروا ، فقال لهم : أنتم اليوم خير أهل الأرض » أخرجه النسائي من رواية ثابت عن عبد الله بن مغفل . قال « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية في أصل الشجرة وعلى رأسه غصن إلى قوله عن ظهره » . وفي حديث معقل بن يسار « لقد رأيته يوم الشجرة والنبي صلى الله عليه وسلم يبايع الناس وأنا رافع غصناً من أغصانها - الحديث » . وأما قوله « وبايعوه ... الخ » فهو في حديث جابر .

(٢) أما الأولى فتفق عليها من حديث سالم بن أبي الجعد عن جابر . دون قوله « وخمسة وعشرين » وأما الثانية ففي رواية عمرو بن مرة عن جابر في الصحيحين . وفي رواية أبي الزبير عنه ومسلم وعندهما عن قتادة . قلت : لسعيد ابن المسيب « لم كان عدد الذين شهدوا بيعة الرضوان ؟ قال : خمس عشرة مائة قال : قلت : فان جابراً قال : كانوا أربع عشرة مائة قال : رحمه الله لقد وهم ، هو واقعه حدثني أنهم كانوا خمس عشرة مائة » قال البيهقي في الدلائل : كان جابراً رجوع عن رواية خمس عشرة . إلى ألف وأربعمائة . وكذلك قال البراء ومعقل بن يسار . وسلة بن الأكوع . انتهى . والرواية الثالثة في الصحيحين من رواية عمرو بن مرة عن عبد الله بن أبي أوفى . قال « وكان أصحاب الشجرة ألفاً وثلثمائة وكان من أسلم من المهاجرين » . قلت والرواية التي فيها ألفاً وخمسمائة وخمسة وعشرين . أخرجه ابن مردويه في تفسيره من حديث ابن عباس موقوفاً . وفي عددهم أقوال غير هذه بسطتها في شرح البخاري (٣) قوله « ذات عقار » في الصحاح « العقار » بالفتح : الأرض والضياع والنخل . (ع)

وأنه ضامن نصرهم والفتح عليهم . وقيل : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح مكة في منامه ، ورؤيا الأنبياء صلوات الله عليهم وحى ، فآخر ذلك إلى السنة القابلة . فجعل فتح خيبر علامة وعنوانا لفتح مكة ﴿ ويهديكم صراطا مستقيما ﴾ ويزيدكم بصيرة ويقينا ، وثقة بفضل الله .

وَأَخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١)
 ﴿ وأخرى ﴾ معطوفة على هذه ، أى : فعجل لكم هذه المغانم ومغانم أخرى ﴿ لم تقدرُوا عليها ﴾ وهى مغانم هوازن فى غزوة حنين ، وقال : لم تقدرُوا عليها لما كان فيها من الجولة ﴿ قد أحاط الله بها ﴾ أى قدر عليها واستولى وأظهركم عليها وغنمكموها . ويجوز فى (أخرى) النصب بفعل مضمر ، يفسره ﴿ قد أحاط الله بها ﴾ تقديره : وقضى الله أخرى قد أحاط بها . وأما ﴿ لم تقدرُوا عليها ﴾ فصفة لآخرى ، والرفع على الابتداء لكونها موصوفة بلم تقدرُوا ، وقد أحاط الله بها : خبر المبتدأ ، والجزء بإضمار رب . فإن قلت : قوله تعالى (ولتكون آية للؤمنين) كيف موقعه ؟ قلت : هو كلام معترض . ومعناه : ولتكون الكفة آية للؤمنين فعل ذلك . ويجوز أن يكون المعنى : وعدكم المغانم ، فعجل هذه الغنيمة وكف الأعداء لينفعكم بها ، ولتكون آية للؤمنين إذا وجدوا وعد الله بها صادقا ، لأن صدق الإخبار عن الغيوب معجزة وآية ، ويزيدكم بذلك هداية وإيقانا .

وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْوَارَ ثُمَّ لَا يَمُجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢)

سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣)
 ﴿ ولو قاتلكم الذين كفروا ﴾ من أهل مكة ولم يصالحوا . وقيل : من حلفاء أهل خيبر لغللبوا وانهزموا ﴿ سنة الله ﴾ فى موضع المصدر المؤكد ، أى : سن الله غلبة أنبيائه سنة ، وهو قوله تعالى (لا غلبن أناورسلى) .

وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ

أُظْفِرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤)

﴿ أيدىهم ﴾ أيدى أهل مكة ، أى : قضى بينهم وبينكم المسكافة والمجازرة بعد ما خولكم الظفر عليهم والغلبة ، وذلك يوم الفتح . وبه استشهد أبو حنيفة رحمه الله ، على أن مكة فتحت عنوة لا صلحا . وقيل : كان ذلك فى غزوة الحديبية لما روى أن عكرمة بن أبى جهل خرج فى خمسمائة ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من هزمه وأدخله حيطان مكة (١) . وعن ابن

(١) أخرجه الطبري عن شيخه محمد بن حميد عن يعقوب القمي عن جعفر بن ابى الجهم عن ابن أبى عمير عن ابن أبى عمير .

عباس رضى الله عنه : أظهر الله المسلمين عليهم بالحجارة حتى أدخلوهم البيوت . وقرئ : تعملون ، بالناء والياء .

ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ
مَحَلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٍ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّهُمْ فَتُصِيبَكُمْ
مِنْهُمْ مَعْرَةٌ بَيِّنَةٌ عِلْمٌ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَنَذَّبْنَا الَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾

وقرئ : والهدى ، والهدى : بتخفيف الباء وتشديدها ، وهو ما يهذى إلى الكعبة :
بالنصب عطفًا على الضمير المنصوب في صدوكم . أى : صدوكم وصدوا الهدى وبالجر
عطفًا على المسجد الحرام ، بمعنى : وصدوكم عن نحر الهدى (معكوفًا أن يبلغ محله) محبوسًا
عن أن يباع ، وبالرفع على : وصد الهدى . ومحله : مكانه الذى يحل فيه نحره ، أى يجب . وهذا
دليل لآنى حنيفة على أن المحصر حل هديه الحرم . فإن قلت : فكيف حل رسول الله صلى الله
عليه وسلم ومن معه وإنما نحر هديهم بالحديبية ؟ قلت : بعض الحديبية من الحرم ^(١) . وروى
أن مضارب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت فى الحل ، ومضاره فى الحرم ^(٢) . فإن قلت :
فإذن قد نحر فى الحرم ، فلم قيل : (معكوفًا أن يبلغ محله) ؟ قلت : المراد الحل المعهود وهو منى
(لم تعلموهم) صفة للرجال والنساء جميعا . و (أن تطوؤهم) بدل اشتغال منهم أو من الضمير

== قال ولما خرج النبي صلى الله عليه وسلم بالهدى وانتهى إلى ذى الحليفة : قال له نحر : يا نبي الله تدخل على حرب
قوم حرب لك بغير سلاح ولا كراع . قال : فبعت إلى المدينة فلم يدع فيها كراعًا ولا سلاحًا إلا حله . فلما دنا من
مكة منعوه أن يدخل فصار حتى أتى منى فزول بها . فأتاه عتبة بن عكرمة بن أبى جهل ، قد خرج عليه فى خمسةائة .
فقال لخالد بن الوليد : يا خالد هذا ابن حنك قد أتاك فى الخيل . فقال خالد : أنا سيف الله ورسوله فيومئذ سى
سيف الله ، يا رسول الله أرم بى أين شئت ، فبعته على خيل ، فلقى عكرمة فى الشعب ، فهزمه ، حتى أدخله جيطان
مكة - الحديبية ، وأخرجه ابن أبى حاتم من هذا الوجه وفى صحته نظر : لأن خالدًا لم يكن أسلم فى الحديبية وظاهر
السياق أن هذه القصة كانت فى الحديبية . فلو كانت فى حمرة القضية لأمكن ، مع أن المشهور أنهم فيها لم يمانعوه
ولم يقاتلوه .

(١) أخرجه البخارى من حديث ابن عمر قال : «خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم معتمرًا لحال كفار
نريش بينه وبين البيت ، فحضر هديه وحلق رأسه بالحديبية» وفيه من رواية المسور ومروان «أنه صلى الله عليه
وسلم قال لأصحابه : قوموا فانحروا ثم احلقوا» قال البخارى : والحديبية خارج الحرم .

(٢) أخرجه أحمد من رواية المسور ومروان . فى أثناء الحديث الطويل . قال «وكان رسول الله صلى الله عليه
وسلم يصلى فى الحرم . وهو مضطرب فى الحل»

المنصوب في تعلمهم . والمعرفة : مفعلة . من عره بمعنى عراه إذا دهاه ^(١) ما يكره ويشق عليه . و (بغير علم) متعلق بأن تطوهم ، يعني : أن تطوهم غير عالين بهم . والوطء والدوس : عبارة عن الإيقاع والإبادة . قال :

وَوَطِئْتَنَّا وَطْأً عَلَى حَنْقٍ وَطْأَ الْمُقَمِّدِ نَابِتَ الْحَرَمِ ^(٢)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وأن آخر وطأة وطئها الله بوج » ^(٣) . والمعنى : أنه كان بمكة قوم من المسلمين مختلطون بالمشركون غير متميزين منهم ولا معروفين إلا ما كن : فقيل : ولولا كراهة أن تهللكوا ناسا مؤمنين بين ظهراني المشركين وأنتم غير عارفين بهم ، فتصيبكم بإهلاكهم مكروه ومشقة : لما كف أيديكم عنهم ، وحذف جواب . لولا ، لدلالة الكلام عليه ^(٤) . ويجوز أن يكون (لو تزيلوا) كالتكرير للولا رجال مؤمنون ، لمرجعهما إلى معنى واحد ، ويكون (لعذبنا) هو الجواب . فإن قلت : أى معرفة تصيبهم إذا قتلوهم وهم لا يعلمون . قلت : يصيبهم وجوب الدية والكفارة ، وسوء قالة المشركين أنهم فعلوا بأهل دينهم مثل ما فعلوا بنا من غير تمييز ، والمأثم إذا جرى منهم بعض التصدير . فإن قلت : قوله تعالى (ليدخل الله في رحمته من يشاء) تعليل لماذا ؟ قلت : لما ذلك عليه الآية وسيقت له :

(١) قوله بمعنى عراه إذا دهاه . عبارة الصحاح بلفظها : هو يعرفوه : أى يدخل عليهم مكروها بلفظهم به . والمعرفة : الأثم . (ع)

(٢) ووطئنا وطأ على حنق وطأ المقيد نابت الحرم

وتركتنا لحا على وضئ لو كنت تستيق من اللحم

للحراث بن ولة الذهلي . والوطء : وضع القدم فوق الشيء . بقية : وهو كناية عن الإهلال . والحنق - كسب ؛ الحقد والفيظ . والحرم - بالسكون - : ضرب من الحصى ترعاه الابل ، وبغير هاء : يرعى الحرم . يقول : أتيتنا مرتفعا علينا بقوتك وشدة بطشك كوطء الجمل المقيد للهرم النابت : أى الحديث النابت . ويروى : يابس الحرم فيهلك لعظمه وقوته ، مع رطوبة ذلك النبات وضعفه ، أرمع بيسه فيفتت ، لجعله مقيدا لتكون بطشته قوية ، حيث يرفع رجله مما يضربها عند الوثوب . أو جعله مقيدا ؛ لأن الدليل إذا قدر لا يعفو . والوضئ : خزان الجزار الذى يقطع عليه اللحم . و (لوه) شرطية . جوابها دل عليه قوله وتركتنا ، أى : على فرض أنك تركت هنا بقية تركتنا كهذا اللحم الذى يهأ للأكل . وفي تمثيل بلو : دلالة على أنه لم يستيق منهم .

(٣) تقدم في آخر برادة .

(٤) قال محمود : « يجوز أن يكون جواب لولا محذوفا ... الخ » قال أحد : وإنما كان مرجعها ههنا واحدا وإن كانت لولا تدل على امتناع لوجود ، و (لوه) تدل على امتناع لامتناع ، وبين هذين تناف ظاهر ، لأن لولا ههنا دخلت على وجود ، ولو دخلت على قوله تزيلوا وهو راجع إلى عدم وجودهم وامتناع عدم الوجود وجود ، فألا إلى أمر واحد من هذا الوجه . وكان جدى رحمه الله يختار هذا الوجه الثانى ويسميه نظرية ، وأكثر ما يكون إذا تطاول الكلام وبعد عهد أوله واحتيج إلى رد الآخر على الأول ، فرة يطرى بلفظه ، ومرة بلفظ آخر يؤدى مؤداه . وقد تقدمت لها أمثال ، والله أعلم . وهو الموفق .

من كف الأيدي عن أهل مكة، والمنع من قتلهم؛ صونا لمن بين أظهرهم من المؤمنين، كأنه قال: كان الكف ومنع التعذيب ليدخل الله في رحمته؛ أى: في توفيقه لزيادة الخير والطاعة مؤمنهم. أو ليدخل في الإسلام من رغب فيه من مشركهم (لو تزيلوا) لو تفرقوا وتميز بعضهم من بعض: من زاله يزيله. وقرئ: لو تزايدوا.

إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقُّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾

(إذ) يجوز أن يعمل فيه ما قبله. أى: لعدونا أو صدوم عن المسجد الحرام في ذلك الوقت، وأن ينتصب بإضمار اذكر. والمراد بحمية الذين كفروا وسكينة المؤمنين - والحمية الانفة والسكينة الوقار - ما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل بالحديبية بعث قريش سهيل بن عمرو القرشي وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص بن الأخيف، على أن يعرضوا على النبي صلى الله عليه وسلم أن يرجع من عامه ذلك على أن تخلى له قريش مكة من العام القابل ثلاثة أيام، ففعل ذلك، ^(١) وكتبوا بينهم كتابا، فقال عليه الصلاة والسلام لعلى رضى الله عنه: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل وأصحابه: ما نعرف هذا، ولكن اكتب: باسمك اللهم، ثم قال: اكتب هذا ما صالح عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل مكة، فقالوا: لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة، فقال عليه الصلاة والسلام: اكتب ما يريدون، فأنا أشهد أنى رسول الله وأنا محمد بن عبد الله، فهم المسلمون أن يأبوا ذلك ويشتمزوا منه، فأنزل الله على رسوله السكينة فتوقروا وحلبوا. و﴿كلمة التقوى﴾ بسم الله الرحمن الرحيم ومحمد رسول الله: قد اختارها الله لنبهه وللذين معه أهل الخير ومستحقه ومن هم أولى بالهداية من غيرهم. وقيل: هى كلمة الشهادة. وعن الحسن رضى الله عنه: كلمة التقوى هى الوفاء بالعهد. ومعنى إضافتها إلى التقوى: أنها سبب التقوى وأساسها. وقيل: كلمة أهل التقوى. وفي مصحف الحرث بن سويد صاحب عبد الله: وكانوا أهلها وأحق بها، وهو الذى دفن مصحفه أيام الحجاج.

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل من رواية عروة في قصة الحديبية. وفيه ثم بعث قريش سهيل بن عمرو الخ مطولا. والقصة في الصحيح من رواية البراء بن عازب ومن رواية مروان السور. وفي النسائي مختصرة من رواية ثابت البناني عن عبد الله بن مغفل.

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ
 ءَامِنِينَ مُخْلَقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ
 ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾

رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل خروجه إلى الحديبية كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة
 آمنين وقد حلقوا وقصروا ، فقص الرؤيا على أصحابه ، ففرحوا واستبشروا وحسبوا أنهم
 داخلوها في عامهم ، وقالوا : إن رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم حق ، فلما تأخر ذلك قال
 عبد الله بن أبي وعبد الله بن نفيل ورفاعة بن الحرث : والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد
 الحرام ^(١) . فنزلت . ومعنى ﴿صدق الله رسوله الرؤيا﴾ صدقه في رؤياه ولم يكذبه - تعالى الله عن
 الكذب وعن كل قبيح علواً كبيراً - فحذف الجاز وأوصل الفعل ، كقوله تعالى : صدقوا
 ما عاهدوا الله عليه . فإن قلت : بهم تعلق ﴿بالحق﴾ ؟ قلت : إما بصدق ، أى : صدقه فيما رأى ،
 وفي كونه وحصوله صدقا ملتبساً بالحق : أى بالغرض الصحيح والحكمة البالغة ، وذلك ما فيه
 من الابتلاء والتمييز بين المؤمن المخلص ، وبين من في قلبه مرض . ويجوز أن يتعلق بالرؤيا حالا
 منها أى : صدقه الرؤيا ملتبساً ^(٢) بالحق ، على معنى أنها لم تكن من أضغاث الأحلام . ويجوز
 أن يكون (بالحق) قسماً : إما بالحق الذى هو نقيض الباطل . أو بالحق الذى هو من أسمائه .
 و ﴿لتدخلن﴾ جوابه . وعلى الأول هو جواب قسم محذوف . فإن قلت : ما وجه دخول
 ﴿إن شاء الله﴾ في أخبار الله عز وجل ؟ قلت : فيه وجوه : أن يعلق عدته بالمشيئة تعليماً لعباده
 أن يقولوا في عداتهم مثل ذلك ، متأذين بأدب الله ، ومقتدين بسنته . وأن يريد : لتدخلن
 جميعاً إن شاء الله ولم يمت منكم أحداً ، أو كان ذلك على لسان ملك ، فأدخل الملك إن شاء الله .
 أو هى حكاية ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه وقص عليهم . وقيل : هو متعلق
 بآمنين ﴿فعلم ما لم تعلموا﴾ من الحكمة والصواب في تأخير فتح مكة إلى العام القابل ﴿لجعل من

(١) لم أجده هكذا مفسراً وروى الطبرى من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله (لقد صدق الله رسوله
 الرؤيا بالحق - الآية) فقال لم الذى صلى الله عليه وسلم . وإنى قد رأيت أنكم ستدخلون المسجد الحرام مخلفين رؤوسكم
 ومقصرين . فلما ترك الحديبية ولم يدخل ذلك العام طعن المنافقون في ذلك . فقالوا : أين رؤياه ، فقال الله (لقد
 صدق الله رسوله الرؤيا - الآية) وروى الطبرى من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد قال رأى رسول الله صلى الله
 عليه وسلم وهو بالحديبية أنه يدخل في أهل مكة هو وأصحابه مخلفين فلما نحر الهدى وهو بالحديبية قال أصحابه : أين
 رؤياك يا رسول الله ؟ فقلت : وبه قال وقوله (لجعل من دون ذلك فتحاً قريباً) قال : النحر بالحديبية ، فرجعوا
 ففتحوا خيبراً . وقال : ثم اعتمر بعد ذلك فكان تصديق رؤياه في السنة المقبلة .

(٢) قوله رأى صدقه الرؤيا ملتبساً ، لعله : ملتبساً . (ع)

دون ذلك) أى من دون فتح مكة (فتحاً قريباً) وهو فتح خيبر، لتستروح إليه قلوب المؤمنين إلى أن يتيسر الفتح الموعود.

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ

وَكُنِيَ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾

(بالحدى ودين الحق) بدين الإسلام (ليظهره) ليعليه (على الدين كله) على جنس الدين كله، يريد: الأديان المختلفة من أديان المشركين والجاحدين من أهل الكتاب: ولقد حقق ذلك سبحانه، فإنك لا ترى ديناً قط إلا وللإسلام دونه العز والغلبة. وقيل: هو عند نزول عيسى حين لا يبقى على وجه الأرض كافر. وقيل: هو إظهاره بالحجج والآيات. وفى هذه الآية تأكيد لما وعد من الفتح وتوطين نفوس المؤمنين على أن الله تعالى سيفتح لهم من البلاد وبقيض لهم من الغلبة على الأقاليم ما يستقلون إليه فتح مكة (وكنى بالله شهيداً) على أن ما وعده كائن. وعن الحسن رضى الله عنه: شهد على نفسه أنه سيظهر دينك^(١)

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاءُ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيْفِظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

(محمد) إما خبر مبتدأ، أى: هو محمد لتقدم قوله تعالى (هو الذى أرسل رسوله) وإما مبتدأ، ورسول الله: عطف بيان. وعن ابن عامر أنه قرأ: رسول الله، بالنصب على المدح (والذين معه) أصحابه (أشداء على الكفار رحماء بينهم) جمع شديد ورحيم. ونحوه (أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين)، (واغلظ عليهم)، (بالمؤمنين رؤوف رحيم) وعن الحسن رضى الله عنه: بلغ من تشددهم على الكفار: أنهم كانوا يتحززون من ثيابهم أن تلزق بثيابهم، ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم؛ وبلغ من ترحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمناً إلا صالحه وعانقه، والمصالح لم تختلف فيها الفقهاء. وأما المعانقة فقد كررها أبو حنيفة رحمه الله، وكذلك

(١) قوله: إنه سيظهر دينك، أمه: دينه، كعبارة النسب. (ع)

التقيل . قال لا أحب أن يقبل الرجل من الرجل وجهه ولا يده ولا شيئاً من جسده . وقد رخص أبو يوسف في المعاقبة . ومن حق المسلمين في كل زمان أن يراعوا هذا التشدد وهذا التعطف : فيقتشدوا على من ليس على ملتهم ودينهم ويتحاموه ، ويعاشروا إخوتهم في الإسلام متعطفين بالبر والصلة . وكف الأذى ، والمعونة ، والاحتمال ، والأخلاق السجيحة ^(١) . ووجه من قرأ : أشدها ، ورحمها - بالنصب - : أن ينصبها على المدح ، أو على الحال بالمقدّر في (معه) ، ويجعل (ترام) الخبر (سيام) علامتهم . وقرئ سيأؤم ، وفيها ثلاث لغات : هاتان . والسيمياء ، والمراد بها السمة التي تحدث في جهة السجاد من كثرة السجود ، وقوله تعالى (من أثر السجود) يفسرها ، أى : من التأثير الذي يؤثره السجود ، وكان كل من العليين : علي بن الحسين زين العابدين ، وعلي بن عبد الله بن عباس أبي الأملك ، يقال له : ذو الثغفات ؛ لأن كثرة سجودهما أحدثت في مواضع منهما أشباه ثغفات ^(٢) البعير . وقرئ : من أثر السجود ، ومن آثار السجود ، وكذا عن سعيد ابن جبير : هي السمة في الوجه . فإن قلت : فقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم لا تلعبوا ^(٣) صوركم ^(٤) ، وعن ابن عمر رضي الله عنه أنه رأى رجلاً قد أثر في وجهه السجود فقال : إن صورة وجهك أنفك ، فلا تلعب وجهك ، ولا تشن صورتك ^(٥) . قلت : ذلك إذا اعتمد بجمته على الأرض لتحدث فيه تلك السمة . وذلك رياء ونفاق يستعاذ بالله منه ، ونحن فيما حدث في جهة السجاد الذي لا يسجد إلا خالصاً لوجه الله تعالى . وعن بعض المتقدمين : كنا نصلي فلا يرى بين أعيننا شيء ، ونرى أحداً الآن يصلي فيرى بين عينيه ركة البعير ، فما ندري أثقلت الأرض أم خشنت الأرض وإنما أراد بذلك من تعمد ذلك للنفاق . وقيل : هو صفرة الوجه من خشية الله . وعن الضحاك : ليس بالندب ^(٦) في الوجوه ، ولكنه صفرة . وعن سعيد بن المسيب : ندى الطهور وتراب الأرض . وعن عطاء رحمه الله : استنارت وجوههم من طول

(١) قوله ، والأخلاق السجيحة ، أى السهلة . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) قوله ، ثغفات البعير ، في الصحاح : هي ما يقع على الأرض من أعضائه إذا استناخ . (ع)

(٣) قوله ولا تلعبوا صوركم ، في الصحاح : علبته أعليه - بالضم - : إذا سمته أو خدشته ، أو أثرت فيه . (ع)

(٤) لم أجده مرفوعاً وهو في الذي بعده موقوف .

(٥) أخرجه عبد الرزاق عن الثوري . عن الأعمش عن حبيب عن أبي الشعثاء . عن ابن عمر ، أنه رأى رجلاً يتحنن إذا سجد فقال : لا تقلب صورتك ، يقول لا تؤثرها . قلت : ما تقلب صورتك ؟ قال : لا تغير لثقتي ، ورواه إبراهيم الحربي عن رواية أبي معاوية عن الأعمش عن حبيب عن عطاء . عن عمر ، أنه رأى رجلاً قد أثر السجود بوجهه فقال : لا تقلب صورتك . ثم قال : فلبت الشيء إذا أثرت فيه .

(٦) قوله ، ليس بالندب في الوجوه ، في الصحاح ، الندب ، : أثر الجرح إذا لم يرتفع عن الجلد . (ع)

ماصلوا بالليل، كقوله «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار»^(١) (ذلك) الوصف (مثلهم) أى وصفهم العجيب الشأن فى الكتابين جميعاً، ثم ابتداء فقال (كزرع) يريد: هم كزرع. وقيل: تم الكلام عند قوله (ذلك مثلهم فى التوراة) ثم ابتدئ (ومثلهم فى الإنجيل كزرع) ويجوز أن يكون ذلك إشارة مهمة أوضحت بقوله (كزرع أخرج شطأه) كقوله تعالى (وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين). وقرئ: الأنجيل، بفتح الهمزة (شطأه) فراخه. يقال: أشطا الزرع إذا فرخ. وقرئ: شطأه، بفتح الطاء. وشطأه، بتخفيف الهمزة: وشطأه، بالمد. وشطه، بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى ما قبلها. وشطوه، بقلها واواً (فأزره) من المؤازرة وهى المعاونة. وعن الأخفش: أنه أفعل. وقرئ: فأزره بالتخفيف والتشديد، أى: فشد أزره وقواه. ومن جعل (آزر) أفعل، فهو فى معنى القراءتين (فاستغلظ) فصار من الدقة إلى الغلظ (فاستوى على سوقه) فاستقام على قصبه جمع ساق. وقيل: مكتوب فى الإنجيل سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع، يأمرؤن بالمعروف وينهون عن المنكر. وعن عكرمة: أخرج شطأه بأبى بكر، فأزره بعمر، فاستغلظ بعثان، فاستوى على سوقه بعل. وهذا مثل ضربه الله لبدء أمر الإسلام وترقيه فى الزيادة إلى أن قوى واحتكم، لأن النبى صلى الله عليه وسلم، قام وحده. ثم قواه الله بمن آمن معه كما يقوى الطاقة الأولى من الزرع ما يحتف بها مما يتولد منها حتى يعجب الزرع. فإن قلت: قوله (ليخبط بهم الكفار) تعليل لما ذا؟ قلت: لما دل عليه تشبيههم بالزرع من نهمهم وترقيهم فى الزيادة والقوة، ويجوز أن يعلل به (وعد الله الذين آمنوا) لأن الكفار إذا سمعوا بما أعد لهم فى الآخرة مع ما يعزم به فى الدنيا غاظهم ذلك. ومعنى (منهم) البيان، كقوله تعالى (فاجتنبوا الرجس من الأوثان). عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «من قرأ سورة الفتح فكأنما كان بمن شهد مع محمد فتح مكة»^(٢).

(١) أخرجه ابن ماجه عن اسماعيل الطلعى عن ثابت بن موسى عن شريك عن الأحش عن أبى سفيان عن جابر مرفوعاً بهذا وافق أئمة الحديث وابن عدى والدارقطنى والعقلى وابن حبان والحاكم على أنه من قول شريك قاله لثابت لما دخل. وقال ابن عدى سرقه جماعة من ثابت كعبد الله بن شبرمة الشريكي وعبد الحميد بن بحر وغيرهما وأورده صاحب مستند الشهاب من رواية عبد الرزاق عن الثورى وابن جريج عن أبى الدير عن جابر وهو موضوع على هذا الاسناد. وكذا من رواية الحسين بن حفص عن الثورى عن الأحش عن أبى سفيان عن جابر والأمر فيه كذلك. ومن طرق أخرى رامية. قال ابن طاهر: ظن القضاعى أن الحديث صحيح، لكثرة طرقه. وهو معذور لأنه لم يكن حافظاً. وله طرق أخرى من غير رواية جابر أخرجه ابن جميع فى معجمه من حديث أنس وابن الجوزى من وجه آخر عنه وهو باطل أيضاً من الوجهين.

(٢) أخرجه ابن مردويه والواحدى بالاسناد إلى أبى بن كعب.

سورة الحجرات

مدينة ، وآياتها ١٨ [نزلت بعد المجادلة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ

شَهِيدٌ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ①

قدمه وأقدمه : منقولان بثقل الحشو والهزرة ، من قدمه إذا تقدمه ^(١) في قوله تعالى (يقدم قومه) ونظيرهما معنى ونقلًا : سلفه وأسلفه . وفي قوله تعالى (لا تقدموا) من غير ذكر مفعول : وجهان ، أحدهما : أن يحذف ليتناول كل ما يقع في النفس مما يقدم . والثاني : أن لا يقصد قصد ^(٢) مفعول ولا حذفه ، ويتوجه بالنهي إلى نفس التقدم ، كأنه قيل : لا تقدموا على التلبس بهذا الفعل ، ولا تجعلوه منكم بسبيل ^(٣) ، كقوله تعالى (هو الذي يحيي ويميت) ويجوز أن يكون من قدم بمعنى تقدم ، كوجه وبين . ومنه مقدمة الجيش خلاف ساقته ، وهي الجماعة المتقدمة منه . وتمضده قراءة من قرأ : لا تقدموا ، يحذف إحدى تاءي تقدموا ، إلا أن الأول أملاً بالحسن وأوجه ، وأشد ملازمة لبلاغة القرآن ، والعلاء له أقبل . وقرئ : لا تقدموا من القدوم ، أى لا تقدموا إلى أمر من أمور الدين قبل قدومها ، ولا تعجلوا عليهما . وحقيقة قولهم : جلست بين يدي فلان ، أن يجلس بين الجهتين الماسمتين ليمينه وشماله قريباً منه ،

(١) قوله : إذا تقدمه في قوله تعالى ، لعله كما في قوله تعالى . (ع)

(٢) قوله : أن لا يقصد قصد ... الخ ، عبارة النفس : أن لا يقصد مفعول . ولتجى متوجه إلى نفس

التقدمة . (ع)

(٣) ذكر الزمخشري من النكت : أنه تعالى ابتداء السورة بإيجاب أن يكون الأمر الذي ينتهي إلى الله ورسوله مقدماً على الأمور كلها من غير تقييد ولا تخصيص ، قال أحد : يريد أنه لم يذكر المفعول الذي يتقاضاه تقدموا ، باطراح ذلك المفعول كقوله (يحيي ويميت) وحل الكلام مجاز التمثيل في قوله (بين يدي الله ورسوله) بفائدة ليست في الكلام العربيان ، وهو تصور المهجنة والشناعة فيما نهوا عنه من الاندفاع على أمر دون الاحتذاء على أشلة الكفاب والسنة ، وجعل صورة ذلك المنهى عنه مثل أن يجلس العبد في الجهتين الماسمتين ليمين سيده ويساره ويوله دبره ، ومعناه : أن لا تقدموا على أمر حتى يأذن الله ورسوله فيه فتكونوا مقتدين فيما تأتون وتذرون بكتاب الله وسنة نبيه .

فسميت الجهتان يدين لكونهما على سمت اليمين مع القرب منهما توسعا ، كما يسمى الشيء باسم غيره إذا جاوره وداناه في غير موضع ، وقد جرت هذه العبارة ههنا على سنن ضرب من المجاز ، وهو الذي يسميه أهل البيان تمثيلا . ولجريها هكذا فائدة جليلة ليست في الكلام العربيان : وهي تصوير المهجنة والشناعة فيما نهوا عنه من الإقدام على أمر من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة : والمعنى : أن لا تقطعوا أمرا إلا بعد ما يحكم به وبأذنان فيه ، فتكونوا إما عاملين بالوحي المنزل ، وإما مقتدين برسول الله صلى الله عليه وسلم . وعليه يدور تفسير ابن عباس رضى الله عنه . وعن مجاهد : لا تفتاتوا على الله شيئا حتى يقصه ^(١) على لسان رسوله . ويجوز أن يجرى مجرى قولك : سرق زيد وحسن حاله ، وأعجبت بعمرو وكرمه . وفائدة هذا الأسلوب : الدلالة على قوة الاختصاص ، ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من الله بالمكان الذي لا يخفى : سلك به ذلك المسلك . وفي هذا تمهيد وتوطئة لما نقيم منهم فيما يتلوه من رفع أصواتهم فوق صوته : لأن من أحظاه الله بهذه الأثرة واختصه هذا الاختصاص القوي : كان أدنى ما يجب له من التهييب والإجلال أن يخفض بين يديه الصوت ، ويخافت لديه بالكلام . وقيل : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تهامة سرية سبعة وعشرين رجلا وعليهم المنذر بن عمرو الساعدي ، فقتلهم بنو عامر وعليهم عامر بن الطفيل . إلا ثلاثة نفر نجوا فلقوا رجلين من بني سليم قرب المدينة ، فاعتزيا لهم إلى بني عامر ، لأنهم أعز من بني سليم ، فقتلوهما وسلبوهما ، ثم أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « بنسما صنعتم كانا من سليم ، والسلب ما كسوتهما ، فوداهما رسول الله صلى الله عليه وسلم » ^(٢) ونزلت ، أى : لا تعملوا شيئا من ذات أنفسكم حتى تستأمروا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن مسروق : دخلت على عائشة في اليوم الذي يشك فيه ، فقالت للجارية : اسقه عسلا ، فقلت : إني صائم ، فقالت : قد نهى الله عن صوم هذا اليوم ^(٣) . وفيه نزلت . وعن الحسن أن أناسا ذبحوا يوم الأضحي قبل الصلاة فنزلت ، وأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعيدوا ذبحاً ^(٤) آخر . وهذا مذهب أبي حنيفة رحمه

(١) قوله « حتى يقصه على لسان رسوله » ، لعله : يقصه . (ع)

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب في الخامس عشر من طريق مقاتل بن حيان قال « بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سرية واستعمل عليهم المنذر بن عمرو - فذكر قصة بشر معونة بطولها . وفيه هذا اللفظ . وروى الدلائل من طريق ابن إسحاق ، ومن طريق موسى بن عقبة : هذه القصة على غير هذا السياق وأن مقتولين بنى كلاب ، وأن ثلاثة قتل منهم واحد . وهو المحفوظ والمشهور في المغازي

(٣) هكذا ذكره الثعلبي بغير سند . وذكره الدارقطني من رواية مالك بن حمزة بضم المهملة والراء . عن مسروق قال « دخلت على عائشة رضى الله عنها في اليوم الذي يشك فيه أنه يوم عرفة » ... الحديث

(٤) أخرجه عبد الرزاق . حدثنا معمر عن الحسن في قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي

الله ، إلا أن تزول الشمس . وعند الشافعي : يجوز الذبح إذا مضى من الوقت مقدار الصلاة . وعن الحسن أيضا : لما استقر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة أتته الوفود من الآفاق فأكثروا عليه بالمسائل ، فتموا أن يبتدؤه بالمسئلة حتى يكون هو المبتدئ . ^(١) وعن قتادة : ذكر لنا أن ناسا كانوا يقولون : لو أنزل فيه كذا لكان كذا ، فكره الله ذلك منهم وأنزلها . وقيل : هي عامة في كل قول وفعل ، ويدخل فيه أنه إذا جرت مسئلة في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يسبقوه بالجواب ، وأن لا يمشی بين يديه إلا الحاجة ، وأن يستأني ^(٢) في الافتتاح بالطعام (واقفوا الله) فإنكم إن اتقيتموه عاقبكم التقوى عن التقديم المنهى عنها وعن جميع ما تقتضى مراقبة الله تجنبه ، فإن التقى حذر لا يشافه أمرا ^(٣) إلا عن ارتفاع الريب وانجلاء الشك في أن لا تبعه عليه فيه ، وهذا كما تقول لمن يقارف بعض الرذائل : لا تفعل هذا وتحفظ بما يلصق بك العار ، فتنهأ أولا عن عين ما قارفه ، ثم تم وتشيح وتأمره بما لو امثل فيه أمرك لم يرتكب تلك الفعلة وكل ما يضرب في طريقها ويتعلق بسببها (إن الله سميع) لما تقولون (عليهم) بما تعملون ، وحق مثله أن يتق ويراقب .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ
بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾

إعادة النداء عليهم : استدعاء منهم لتجديد الاستبصار عند كل خطاب وارد ، وتطرية الإنصات لكل حكم نازل ، وتحريك منهم لثلا يفتروا ويفعلوا عن تأملهم وما أخذوا به عند حضور مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأدب الذى المحافظة عليه تعود عليهم بعظيم الجدوى في دينهم ، وذلك لأن في إعظام صاحب الشرع إعظام ما ورد به ، ومستعظم الحق لا يدعه استعظامه أن يألو عملا بما يحذوه ^(١) عليه ، وارتداعا عما يصد عنه ، وانتهاء إلى كل خير ، والمراد بقوله (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) أنه إذا نطق ونطقتم فعليكم أن

== الله ورسوله قال : هم قوم ذهبوا قبل أن يعلى النبي صلى الله عليه وسلم . فأمرهم أن يبعدوا الذبح ، وأخرجهم العنبرى من رواية سعيد عن قتادة . قال وذكر لنا أن ناسا كانوا يقولون : لو أنزل كذا ، لو صنع كذا ، لو قبل كذا ، قال : وقال الحسن هم أناس ، فذكره .

(١) لم أجد .

(٢) قوله «وأن يستأني في الانتجاع» أى : ينتظر . أفاده الصراح . (ع)

(٣) قوله «لا يشافه أمرا» أى : لا يتشاغل بأمر ، وفي الصراح : «الشفه» : الشغل ، يقال : شغلني عن

كذا ، أى : شغلني . (ع)

(٤) قوله «بما يحذوه» أى : يحذره . (ع)

لا تبلغوا بأصواتكم وراء الحد الذي يبلغه بصوته، وأن تغضوا منها بحيث يكون كلامه عاليا لكلامكم، وجهره باهرا لجهركم؛ حتى تكون مزيته عليكم لاثمة، وسابقتها واضحة، وامتيازه عن جمهوركم كشية الابلق^(١) غير خاف، لا أن تغمروا صوته بلغظكم وتبروا منطلقه بصخبكم. وبقوله: ولا تجهروا له بالقول: إنكم إذا كلمتموه وهو صامت فإياكم والعدول عما نهيت عنه من رفع الصوت، بل عليكم أن لا تبلغوا به الجهر الدائر بينكم، وأن تعتمدوا في مخاطبته القول اللين المقرب من الهمس الذي يضاد الجهر، كما تكون مخاطبة المهيب المعظم، عاملين بقوله عز اسمه (وتعزروه وتوقروه) وقيل معنى (ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض) لا تقولوا له: يا محمد، يا أحمد، وخاطبوه بالنبوة. قال ابن عباس: لما نزلت هذه الآية قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، والله لا أكلك إلا السرار أو أخا السرار حتى ألقى الله،^(٢) وعن عمر رضي الله عنه: إنه كان يكلم النبي صلى الله عليه وسلم كأخى السرار لا يسمعه حتى يستفهمه^(٣)، وكان أبو بكر إذا قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد: أرسل إليهم من يعلمهم كيف يسلمون ويأمرهم بالسكينة والوقار عند رسول الله صلى الله عليه وسلم،^(٤) وليس الغرض برفع الصوت ولا الجهر: ما يقصد به الاستخفاف والاستهانة، لأن ذلك كفر، والمخاطبون مؤمنون، وإنما الغرض صوت هو في نفسه والمسموع من جرسه غير مناسب لما يهاب به العظماء ويوقر الكبراء، فيتكلف الغض منه، وردّه إلى حد يميل به إلى ما يستبين فيه المأمور به من التعزير والتوقير، ولم يتناول النهي أيضا رفع الصوت الذي لا يتأذى به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو ما كان منهم في حرب أو مجادلة معاند أو إرهاب عدو أو ما أشبه ذلك، ففي الحديث: أنه قال عليه الصلاة والسلام للعباس بن عبد المطلب لما انهزم الناس يوم حنين:

(١) قوله «كشية الابلق» في الصحاح «الشية»: لون يخالف معظم لون الفرس وغيره. وفيه أيضا: اللفظ الصوت والجلبة. وفيه الصخب: الصباح والجلبة. (ع)

(٢) ذكره الواحدى عن عطاء عن ابن عباس. ولم يبق سنده إليه. وأخرجه البزار وابن مردويه عن طريق طارق بن شهاب عن أبي بكر. قال لما نزل (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) قلت: يا رسول الله آيت ألا أكلك إلا كأخى السرار حتى ألقى الله؟ وأخرجه الحاكم والبيهقي في المدخل من حديث أبي هريرة. قال: لما نزلت (إن الذين يفضون - الآية) قال أبو بكر. والذي أنزل عليك الكتاب يا رسول الله لا أكلك إلا كأخى السرار حتى ألقى الله عز وجل. وقال صحيح على شرط مسلم

(٣) أخرجه البخارى من حديث أبي الزبير. قال: لما نزلت (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي - الآية) كان عمر بعد ذلك إذا حدث النبي صلى الله عليه وسلم حديثه كأخى السرار. لم يسمعه حتى يستفهمه.

(٤) لم أجده

« اصرخ بالناس ^(١) ، وكان العباس أجهر الناس صوتا ^(٢) . يروى : أن غارة أتهم يوما فصاح العباس بأصحابه ، فأسقطت الحوامل لشدة صوته . ^(٣) وفيه يقول نابغة بنى جمدة :

رَجَرَ أَبِي عُرْوَةَ السَّبَاعُ إِذَا أَشْفَقَ أَنْ يَخْتَلِطَنَّ بِالْغَنَمِ ^(٤)

زعمت الرواة أنه كان يزجر السباع عن الغنم فيفتق مرارة السبع في جوفه . ^(٥) وفي قراءة ابن مسعود : لا ترفعوا بأصواتكم والباء مزيدة محذوف بها حذف التشديد في قول الاعلم الهذلي :

رَفَعْتُ عَيْنِي بِالْحِجَا زِلِي أُنَاسٍ بِالْمَنَاقِبِ ^(٦)

وليس المعنى في هذه القراءة أنهم نهوا عن الرفع الشديد ، تخيلا أن يكون مادون التشديد مسوغا لهم ، ولكن المعنى نهيهم عما كانوا عليه من الجلبة ، واستجفاؤهم فيما كانوا يفعلون . وعن ابن عباس : نزلت في ثابت بن قيس بن شماس ، وكان في أذنه وقر ، وكان جهورى الصوت ، فكان إذا تكلم رفع صوته ، وربما كان يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيتأذى بصوته ^(٧) . وعن أنس أن هذه الآية لما نزلت : فقد ثابت ، فتفقده رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبر بشأنه ، فدعاه ، فسأله فقال : يا رسول الله ، لقد أنزلت إليك هذه الآية ، وإني رجل جهير الصوت . فأخاف أن يكون عملي قد حبط ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لست هناك ، إنك تعيش بخير وتموت بخير ، وإنك من أهل الجنة . ^(٨) . وأما ما يروى عن الحسن : أنها نزلت فيمن كان يرفع صوته من المنافقين فوق صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحمله والخطاب للمؤمنين : على أن ينهى المؤمنون ليندرج المنافقون تحت النهي ، ليكون الأمر أغلظ عليهم وأشق . وقيل : كان المنافقون يرفعون أصواتهم ليظهروا قلة مبالاتهم ، فيقتدى بهم ضعفة المسلمين . وكاف التشبيه في محل النصب ،

(١) لم أجده ، وقد تقدم أن ذلك كان يوم حنين ، والعباس لم يشهد أحدا .

(٢) لم أجده

(٣) لم أجده

(٤) تقدم شرح هذا الصامد بهذا الجزء . صفحة ٣٨ فراجع إن شئت اه مصححه .

(٥) لم أجده

(٦) للاعلام الهذلي ، يقول : نظرت وأنا في الحجاز إلى من في المناقب . وهذان الموضعان بينهما مسافة بعيدة ، وهذا من شدة الدعوى إلى من في المناقب .

(٧) لم أجده

(٨) متفق عليه من حديث أنس دون قوله « لست هناك » ، وزاد أحمد والطبراني فيه : فقال أنس : فكنا نراه يمشي بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة .

أى : لا تجهروا له جهراً مثل جهر بعضكم لبعض . وفى هذا : أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقاً ، حتى لا يسوغ لهم أن يكلموه إلا بالهمس والخفافة ، وإنما نهوا عن جهر مخصوص مفيد بصفة . أعنى : الجهر المنعوت بمائلة ماقد اعتادوه منهم فيما بينهم ، وهو الخلو من مراعاة أبهة النبوة وجلالة مقدارها ، وانحطاط سائر الرتب وإن جلت عن رتبتها (أن تحبط أعمالكم) منصوب الموضع ، على أنه مفعول له ، وفى متعلقه وجهان ، أحدهما : أن يتعلق بمعنى النهى ، فيكون المعنى : انتهوا عما نهيتهم عنه لحبوط أعمالكم ، أى : لخشية حبوطها على تقدير حذف المضاف ، كقوله تعالى (يبين الله لكم أن تضلوا) والثانى : أن يتعلق بنفس الفعل ، ويكون المعنى : أنهم نهوا عن الفعل الذى فعلوه لأجل الحبوط ، لأنه لما كان يصدد الاداء إلى الحبوط : جعل كأنه فعل لأجله ، وكأنه العلة والسبب فى إيجاده على سبيل التثليل ، كقوله تعالى (ليسكون لهم عدوا) . فإن قلت : لخص الفرق بين الوجهين . قلت : تلخيصه أن يقدر الفعل فى الثانى مضموماً إليه المفعول له ، كأنهما شئ واحد^(١) ، ثم يصب النهى عليهما جميعاً صبا . وفى الأول يقدر النهى

(١) قال محمود : فإنه مفعول له ومتعلقه إمامعنى النهى ، كأنه قال : انتهوا كرامة حبوط أعمالكم على حذف مضاف ، كقوله (يبين الله لكم أن تضلوا) وأما نفس الفعل فهو النهى عنه ، على معنى تنزيل صيرورة الجهر المنهى عنه إلى الحبوط . منزلة جعل الحبوط علة فى الجهر على التثليل ، من وادى (ليسكون لهم عدوا وحزنا) قال : وتلخيص الفرق بينهما أنه على الثانى يقدر انضمام المفعول من أجله إلى الفعل الأول ... الخ ، قال أحد : هو محوم على شرعة وبينة إياك ، ورودها : وذلك أنه يعتقد أن مادون الكفر ولو كبيرة واحدة تحبط العمل وتوجب الخلود فى اللذاب المقيم ، وتخرج المؤمن من اسم الإيمان ورحمه ، ومعاذ الله من هذا المعتقد ، فعلبك بعقيدة أهل السنة الممهدة فى مواضع من هذا المجموع ، لجذب العهد بها : وهى اعتقاد أن المؤمن لا يتخذ فى النار ، وأن الجنة له بوعده الله حتم ولو كانت خطايا مادون الشرك أو ما يؤدى إليه كريد البحر ، وأنه لا تحبط حسنة سيئة طارئة كاتمة ما كانت سوى الشرك . والزعشرى اعتمد الفرصة فى ظاهر هذه الآية فزولها على معتقده ووجه ظهورها فيها يدعيه : أن رفع الصوت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم معصية لا تبلغ الشرك ، وقد أعفاه الله عبادته من إحباطه الأعمال بها ، ولو كان الإحباط مقطوعاً بنفيه : لم تستقم الإخافة به ، وأنى له أن يبلغ من ذلك آماله ، ونظم الكلام بإياه عند البصر بمناه ، فنقول : المراد فى الآية النهى عن رفع الصوت على الإطلاق ، ومعلوم أن حكم النهى : الحذر مما يتوقع فى ذلك من إيذاء النبي عليه السلام ، والقاعدة المختارة أن إيذائه عليه الصلاة والسلام يبلغ مبلغ الكفر المحبط للعمل باقتناء ، فورد النهى عما هو مظنة لأذى النبي عليه الصلاة والسلام سواء وجد هذا المعنى أولاً ، حماية للزريعة وحسب البادة ، ثم لما كان هذا المنهى عنه وهو رفع الصوت منقسماً إلى ما يبلغ ذلك المبلغ أولاً ، ولا دليل يميز أحد القسمين عن الآخر : لزم المكلف أن يكف عن ذلك مطلقاً ، وخوف أن يقع فيهما هو محبط للعمل ، وهو البالغ حد الإيذاء ، إذ لا دليل ظاهر يميزه ، وإن كان فلا يتفق تمييزه فى كثير من الأحيان ، وإلى التباس أحد القسمين بالآخر وقعت الإشارة بقوله (أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) وإلا فلو كان الأمر على ما يعتقده الزعشرى : لم يكن لقوله (وأنتم لا تشعرون) موقع ؛ إذ الأمر بين أن يكون رفع الصوت مؤذياً فيكون كفراً محبطاً قطعاً ، وبين أن يكون غير مؤذٍ فيكون كبيرة محبطة على رأيه قطعاً ، فعلى كلا حاله الإحباط به محقق ، إذ فلا موقع لإدغام الكلام بعدم الشعور ، مع أن الإحباط ثابت مطلقاً ، والله أعلم وهذا التقرير الذى ذكرته يعود على مقدمتين كلتاهما صحيحة =

موجهاً على الفعل على حياله ، ثم يعلل له منياً عنه . فإن قلت : بأى التبيين تعلق المفعول له ؟ قلت : بالثاني عند البصريين ، مقدراً إضماره عند الأول ، كقوله تعالى (آتوني أفرغ عليه فطراً) وبالعكس عند الكوفيين ، وأيهما كان فرجع المعنى إلى أن الرفع والجهر كلاهما منصوص أدأؤه إلى حبوط العمل : وقراءة ابن مسعود : فتحبط أعمالكم ، أظهر نصاً بذلك ؛ لأن ما بعد الفاء لا يكون إلا مسبباً عما قبله ، فيتنزل الحبوط من الجهر منزلة الحلول من الطغيان في قوله تعالى (فيحل عليكم غضبي) والحبوط من حبطت الإبل : إذا أكلت الخضر فنفضت بطونها ، وربما هلكت . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام « وإن مما ينبت الربيع لما يقتل حبطاً أو يلم »^(١) ومن أخواته : حبجت الإبل ، إذا أكلت العرفج^(٢) فأصابها ذلك . وأحبط عمله : مثل أحبطه . وحبط الجرح وجبر : إذا غفر ، وهو نكسه وتراميه إلى الفساد : جعل العمل السيئ في إضراره بالعمل الصالح كاللداء والحرص^(٣) لمن يصاب به ، أعادنا الله من حبط الأعمال وخيبة الآمال . وقد دلت الآية على أمرين هائلين ، أحدهما : أن فيما يرتكب من يؤمن من الآثام ما يحبط عمله . والثاني : أن في آثامه ما لا يدرى أنه محبط ، وألعله عند الله كذلك ؛ فعلى المؤمن أن يكون في تقواه كالسائح في طريق شائك لا يزال يحترز ويتوق ويتحفظ .

إِنَّ الَّذِينَ بَغُضُّوا نَفْسُهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾

(امتحن الله قلوبهم للتقوى) من قولك : امتحن فلان لأمرك كذا وجرب له ، ودرب للنهوض به . فهو مضطلع به غير وإن عنه . والمعنى أنهم صبروا على التقوى ، أقوياء على احتمال مشاقها . أو وضع الامتحان موضع المعرفة ؛ لأن تحقق الشيء باختباره ، كما يوضع الخبر موضعها ، فكأنه قيل : عرف الله قلوبهم للتقوى ، وتكون اللام متعلقة بمحذوف ، واللام هي التي في قولك : أنت لهذا الأمر ، أى كائن له ومختص به قال : • أَنْتَ لَهَا أَحْمَدُ مِنْ بَيْنِ الْبَشَرِ •^(٤)

== [أحدهما : أن رفع الصوت من جفئ ما يحصل به الإيذاء . وهذا أمر يشهد به النقل والمشاهدة الآن ، حتى إن الصيخ ليتأذى برفع التليد صوته بين يديه ، فكيف برتبة النبوة وما يستحقه من الاجلال والاعظام . المقدمة الأخرى : أن إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم كفر ، وهذا أمر ثابت قد نص عليه أئمتنا وأفتوا بقتل من تعرض لذلك كفراً ، ولا تقبل توبته ، فإنا أنه أعظم عند الله وأكبر ، والله الموفق .

(١) أخرجه مسلم وغيره .

(٢) قوله « إذا أكلت العرفج » في الصحاح : فخر ينبت في السهل ، الواحدة : عرجة . (ع)

(٣) قوله « كاللداء والحرص » أى الفساد . أفاده الصحاح .

(٤) رائعة : عالية من الحشو والتعقيد : وصوغها - بالتفديد - : للبالغة ؛ وأنت لها : أى أهل لها وكفؤ ؛ وأحمد : منادى ؛ ومن بين البشر : متعلق بمحذوف حال ، أى : منتخباً من بينهم . ويجوز أن « أحمد » أفضل تفضيل ، كذا قيل .

* أَعْدَاءُ مَنْ لِلْيَعْمَلَاتِ عَلَى الْوَجَى * (١)

وهي مع معمولها منصوبة على الحال . أو ضرب الله قلوبهم بأنواع المحن والتكاليف الصعبة لأجل التقوى ، أى تثبت وتظهر تقواها ، ويعلم أنهم متقون : لأن حقيقة التقوى لا تعلم إلا عند المحن والشدائد والاصطبار عليها . وقيل أخلصها للتقوى . من قولهم : امتحن الذهب وفتنه . إذا أذاب به فخلص إبريزه من خبثه ونقاها . وعن عمر رضى الله عنه : أذهب الشهوات عنها . والامتحان : افتعال ، من محنة ، وهو اختبار بليغ أو بلاء جهيد . قال أبو عمرو : كل شيء جهده فقد محنته . وأنشد :

أَنْتَ رَذَائَا بِأَدِيَا كِلَاهُمَا قَدْ مَحْنَتْ وَأَضْطَرَبَتْ آطَاهُمَا (٢)

قيل : أنزلت في الشيخين رضى الله عنهم ، لما كان منهما من غض الصوت والبلوغ به أخا السرار . وهذه الآية بنظمها الذى رتب عليه من إيقاع الغاضين أصواتهم اسما لأن المؤكدة . وتصيير خبرها جملة من مبتدأ وخبر معرفتين معا . والمبتدأ : اسم الإشارة ، واستئناف الجملة المستودعة ما هو جزاؤهم على عملهم ، وإيراد الجزاء نسكرة : مبهما أمره ناظرة في الدلالة على غاية الاعتماد والارتضاء لما فعل الذين وقروا رسول الله صلى الله عليه وسلم من خفض أصواتهم ، وفي الإعلام بمبلغ عزة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدر شرف منزلته ، وفيها تعريض بعظيم ما ارتكب الرافعون أصواتهم واستيجابهم ضد ما استوجب هؤلاء .

إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ

صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)

(١) أعداء من لليعملات على الوجا وأضياف بيت يبتوا لنزول
أعداء ما للعيش بمدك لذة ولا لخليل بهجة بخليل
أعداء ما وجدى عليك بهين ولا الصبر إن أعطيت به جميل

لعتبة بن مالك العقيلي ، يرفى عدا صاحبه . والمهرة للنداء . وعداء - كفعال - : على صيغة المبالغة ، أى : يا من كان معدا لاغاثة المطايا للكثيرات العمل ، والفر مع الوجاء وهو الخفاء في أخفافها من كثرة السير ، واليعملات : جمع يعملة ، واليعير يعمل ، ومن كان معدا لأضياف بيته الذين يبتون للنزول والاستراحة عنده . والعيش : الحياة ، أو ما يعاش به . والهجة : السرور . والوجد : الحزن . وإن أعطيت : اعتراض ، دل على أنه لم يصبر . ونفى جمال الصبر مبالغة في عظم عدا عنه وحبه إياه ، وكرر النداء لظهور التفعيع .

(٢) الرذايا جمع رذية وهي الناقصة المهزولة الضعيفة . ومحنته : بلوته . ويقال : محنت ناقى أجهدتها في السير . ومحن الجلد : مددته ووسسته . والآطال : جمع أطل وهو الخاصرة ، كأسباب وسب . يقول : أنت المطايا مهاذيل ظاهراً ملالها وتعبها من السير ، قد أجهدت تلك النوق بالسير . أو قد تدلت واضطربت خواصرها من شدة الجوع ويروى : أوصلها ، أى : أعضاها .

والوراء : الجهة التي يوارىها عنك الشخص بظله من خلف أو قدام ^(١) . ومن لا ابتداء الغاية ، وأن المناداة نشأت من ذلك المكان . فإن قلت : فرق بين الكلامين بين ما ثبت فيه وما تسقط عنه . قلت : الفرق بينهما أن المتنادى والمتنادى في أحدهما يجوز أن يجمعهما الوراء ، وفي الثاني : لا يجوز لأن الوراء تصير بدخول من مبتدأ الغاية ، ولا يجمع على الجهة الواحدة أن تكون مبتدأ ومنتهى لفعل واحد ، والذي يقول : ناداني فلان من وراء الدار . لا يريد وجه الدار ولا دبرها ، ولكن أي قطر من أقطارها الظاهرة كان مطلقا بغير تعيين واختصاص ، والإنكار لم يتوجه عليهم من قبل أن النداء وقع منهم في أدبار الحجرات أو في وجوهها ، وإنما أنكر عليهم أنهم نادوه من البر ^(٢) والخارج مناداة الاجلاف بعضهم لبعض ، من غير قصد إلى جهة دون جهة . والحجرة : الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها ، وحظيرة الإبل تسمى الحجرة ، وهي فعلة بمعنى مفعولة ، كالغرفة والقبضة ، وجمعها : الحجرات - بضمين ، والحجرات - بفتح الجيم ، والحجرات بتسكينها . وقرئ بهن جميعا ، والمراد : حجرات نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت لكل واحدة منهن حجرة . ومناداهن من ورائها يحتمل أنهم قد تفرقوا على الحجرات متطلبين له ، فتأذاه بعض من وراء هذه ، وبعض من وراء تلك ، وأنهم قد أتوا حجرة حجرة فنادوه من ورائها ، وأنهم نادوه من وراء الحجرة التي كان فيها ، ولكنها جمعت لإجلال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولمكان حرمة . والفعل وإن كان مستندا إلى جميعهم فإنه يجوز أن يتولاه بعضهم ، وكان الباقر راضين ، فكأنهم تولوه جميعا ، فقد ذكر الأصم أن الذي ناداه عيينة بن حصن والأقرع بن حابس : والإخبار عن أكثرهم بأنهم لا يعقلون : يحتمل أن يكون فيهم من قصد بالمشاة . ويحتمل أن يكون الحكم بقلة العقلاء فيهم قصدا إلى نفى أن يكون فيهم من يعقل ، فإن القلة تقع موقع النفي في كلامهم . وروى أن وفد بني تميم أتوا رسول الله صلى الله

(١) قال محمود : « الوراء الجهة التي يوارىها عنك الشخص بظله من خلف أو قدام ... الخ » ، قال أحد : ولقد اغتر بعضهم في تبييت بني تميم بما لا تساعده عليه الآية ، فأنها نزلت في المتولين لمناداة النبي عليه الصلاة والسلام ، أو في الحاضرين حينئذ الراضين بفعل المتادين له . وقد سئل عليه الصلاة والسلام عنهم فقال : هم حفاة بني تميم ، وعلى الجهة (ولا تزر وازرة وزر أخرى) فكيف يسوغ إطلاق اللسان بالسوء في حق أمة عظيمة لأن واحدا منهم أو اثنين ارتكب جهالة وجفاء . فقد ورد أن المتنادى له عليه السلام : هو الأقرع ، هذا مع توارده الأحاديث في فضائل تميم وتخليدها وجره الكتب الصحاح .

(٢) قوله « أنهم نادوه من البر والخارج » الظاهر أن تفسيره ما بعده . وفي الصحاح « في مادة برء أن البرية هي الصحراء . وفي مادة سخن : في تفسير قوله عليه الصلاة والسلام في بعض كتبه : « إن لنا الضاحية من البعل ولكم الضامنة من النخل » مانصه : فالضاحية : هي الظاهرة التي في البر من النخل ، والضامنة : مانصتها أمصارهم وقراهم . (ع)

عليه وسلم وقت الظهيرة وهو راقد، فجعلوا ينادونه: محمد اخرج إلينا، فاستيقظ فخرج^(١) ونزلت. وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم فقال: «هم جفأة بني تميم، لو لا أنهم من أشد الناس قتالا لأعور الدجال لدعوت الله عليهم أن يهلكهم»،^(٢) فورود الآية على النظم الذى وردت عليه فيه ما لا يخفى على الناظر: من بينات إكبار محل رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجلاله: منها مجيئها على النظم المسجل على الصائحين به بالسفه والجهل، لما أقدموا عليه. ومنها لفظ الحجرات وإيقاعها كناية عن موضع خلوته. ومقبلة مع بعض نسائه. ومنها: المرور على لفظها بالاختصار على القدر الذى تبين به ما استنكر عليهم. ومنها: التعريف باللام دون الإضافة. ومنها: أن شفع ذمهم باستجفائهم وأستركاك عقولهم وقلة ضبطهم لمواضع التمييز في المخاطبات، تهوينا للخطب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتسلية له، وإمالة لما تداخله من إحشاش تغفر فهم وسوء أدبهم، وهلم جرا: من أول السورة إلى آخر هذه الآية، فتأمل كيف ابتدئ بإيجاب أن تكون الأمور التى تنتهى إلى الله ورسوله متقدمة على الأمور كلها من غير حصر ولا تقييد، ثم أردف ذلك النهى عما هو من جنس التقديم من رفع الصوت والجهر. كأن الأول بساط للثاني ووطاء لذكره ما هو ثناء على الذين تجاموا ذلك فغضوا أصواتهم، دلالة على عظيم موقعه عند الله، ثم جرى على عقب ذلك بما هو أطم وهجنته أتم: من الصياح برسول الله صلى الله عليه وسلم في حال خلوته ببعض حرمانه من وراء الجدر، كما يصاح بأهون الناس قدرا. لينبه على فظاعة من أجروا إليه وجسروا عليه: لأن من رفع الله قدره على أن يجهر له بالقول حتى خاطبه جلة المهاجرين^(٣) والأنصار بأخى السرار، كان صنيع هؤلاء من المنكر الذى بلغ من التفاحش مبلغا؛ ومن هذا وأمثاله يقتطف ثمر الآليات

(١) أخرجه ابن اسحق في السيرة قال: «قدمت وفود العرب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر القصة قال: ولما قدم وفد بني تميم دخلوا المسجد. فنادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات يا محمد اخرج إلينا - فذكره إلى آخره» وأخرجه ابن مردويه من رواية ابن إسحاق عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال «لما قدم وفد بني تميم وهم سبعون رجلا - فذكره مطولا. وأخرجه ابن منده في المعرفة. وأورده الثعلبي من طريق يعلى بن عبد الرحمن عن عبد الحميد بن جعفر عن ثمر بن الحكم عن جابر قال «جاءت بنو تميم فدخلوا المسجد فنادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات أن اخرج إلينا يا محمد فأذى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم من صياحهم. فذكره مطولا.

(٢) أخرجه الثعلبي من رواية هاشم بن القاسم الخرائي عن يعلى بن الأشدق حدثنا سعد بن عبد الله: أن النبي صلى الله عليه وسلم - فذكره: ولمسلم من حديث أبي هريرة «لا أزال أحب بني تميم لثلاث - فذكر فيه «وهم أشد أحب على الدجال».

(٣) قوله «حتى خاطبه جلة المهاجرين» معظم المهاجرين. (ع)

وتقتبس محاسن الآداب ، كما يحكى عن أبي عبيد - ومكانه من العلم والزهد وثقة الرواية ما لا يخفى - أنه قال : ما دقت بابا على عالم قط حتى يخرج في وقت خروجه ﴿أنهم صبروا﴾ في موضع الرفع على الفاعلية : لأن المعنى : ولو ثبت صبرهم . والصبر : حبس النفس عن أن تنازع إلى هواها . قال الله تعالى (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم) وقولهم : صبر عن كذا ، محذوف منه المفعول ، وهو النفس ، وهو حبس فيه شدة ومشقة على المحبوس ، فلهذا قيل للحبس على اليقين أو القتل : صبر . وفي كلام بعضهم : الصبر مَرَّ لا يتجرعه إلا حراً . فإن قلت : هل من فرق بين ﴿حتى يخرج﴾ وإلى أن يخرج ؟ قلت : إن ، حتى ، مختصة بالغاية المضروبة . تقول : أكلت السمكة حتى رأسها ، ولو قلت : حتى نصفها ، أو صدرها : لم يجز ، ود إلى ، عامة في كل غاية ، فقد أفادت ، حتى ، بوضعها : أن خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم غاية قد ضربت لصبرهم ، فساكن لهم أن يقطعوا أمراً دون الانتهاء إليه . فإن قلت : فأى فائدة في قوله ﴿إليهم﴾ ؟ قلت : فيه أنه لو خرج ولم يكن خروجه إليهم ولاجلهم ، للزمهم أن يصبروا إلى أن يعلموا أن خروجه إليهم ﴿لكان خيراً لهم﴾ في (كان) إما ضمير فاعل الفعل المضمر بعد لو ، وإما ضمير مصدر (صبروا) ، كقولهم : من كذب كان شرأله ﴿والله غفور رحيم﴾ ببلغ الغفران والرحمة واسعهما ، فلن يضيق غفرانه ورحمته عن هؤلاء إن تابوا وأنبأوا .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصِيبُوهَا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ تَدْمِينَ ۖ (٦) وَاعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۖ (٧) فَضَلَّ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ (٨)

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الوليد بن عتبة أخا عثمان لاقته - وهو الذي ولاه عثمان الكوفة بعد سعد بن أبي وقاص ، فصلى بالناس وهو سكران صلاة الفجر أربعاً ، ثم قال : هل أزيدكم ، فعزله عثمان ^(١) عنهم - مصداقاً إلى بنى المصطلق ، وكانت بينه وبينهم إحنة ، فلما شارف ديارهم ركبوا مستقبلين له ، فحسبهم مقاتليه ، فرجع وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) أخرجه مسلم من طريق أبي سفيان حصين بن منذر قال شهدت عثمان أخى الوليد بن عتبة وقد صلى الفداة بالكوفة أربعاً - الحديث بطوله - وأخرجه ابن إسحق وأتفقوا من هذا الوجه وقالوا فيه «وقد صلى للفداة أربعاً»

قد ارتدوا ومنعوا الزكاة^(١)، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم أن يغزوهم. فبلغ القوم فوردوا وقالوا: نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله، فاتهمهم فقال: «لنتنن أولاً بعنن إليكم رجلا هو عندي كنفسي يقاتل مقاتلتكم ويسبي ذراريكم، ثم ضرب يده على كتف علي رضي الله عنه. وقيل: بعث إليهم خالد بن الوليد فوجدهم منادين بالصلوات متهجين، فسلموا إليه الصدقات^(٢)، فرجع. وفي تنكير الفاسق والذنب: شياخ في الفساق والأنباء، كأنه قال: أي فاسق جاءكم بأى نبي^(٣). فتوقفوا فيه وتطلبوا بيان الأمر وانكشف الحقيقة، ولا تعتمدوا قول الفاسق، لأن من لا يتحامي جنس الفسوق لا يتحامي الكذب الذى هو نوع منه. والفسوق: الخروج من الشيء والانسلاخ منه. يقال: فسقت الرطبة عن قشرها. ومن مقلوبه: قفست البيضة، إذا كسرتها وأخرجت ما فيها. ومن مقلوبه أيضاً: قفست الشيء إذا أخرجته عن يد مالكه مغتصباً له عليه، ثم استعمل في الخروج عن القصد والانسلاخ من الحق. قال ربيعة:

• فَوَاسِقًا عَنْ قَصْدِهَا جَوَائِرًا • (٤)

وقرأ ابن مسعود: فثبتوا والتثبت والتبين: متقاربان، وهما طلب الثبات والبيان والتعريف، ولما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والذين معه بالمنزلة التي لا يحسر أحد أن يخبرهم بكذب، وما كان يقع مثل ما فرط من الوليد إلا في النذرة. قيل: إن جاءكم بحرف الشك وفيه أن على المؤمنين أن يكونوا على هذه الصفة، لئلا يطمع فاسق في مخاطبتهم بكلمة زور (أن تصيروا) مفعول له، أى: كراهة إصابتكم (قوماً بجهالة) حال، كقوله تعالى (وردة الله الذين كفروا بنيظهم) يعنى جاهلين بحقيقة الأمر وكنه القصة. والإصباح: بمعنى الصيرورة. والندم: ضرب من الغم، وهو: أن تغم على ما وقع منك تمنى أنه لم يقع، وهو غم يصحب

(١) أخرجه إمام الطبراني من حديث أم سلمة - دون قوله «فاتهمهم» فقال لنتنن أولاً بعنن إليكم رجلا هو عندي كنفسي يقاتل مقاتلتكم الخ» وعندهما بدل ذلك «فأزالوا يعتذرون إليه حتى نزلت فيهم الآية»، وفيه موسى بن صبيدة، وهو ضعيف ونحوه رواه أحمد والطبراني أيضاً من حديث الحارث بن دثار الخزاعي أخرجه ابن مردويه من طريق عبد الله بن عبد القدوس عن الأعشى عن موسى بن المسيب عن سالم بن أبي الجعد - عن جابر قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة - فذكر الحديث بنحوه وزاد فقال عليه الصلاة والسلام: لنتنن أولاً بعنن إليكم رجلا - فذكره.

(٢) لم أره.

(٣) قال محمود: «نكر فاسقاً ونياً لقصد الشياخ، فكأنه قيل أى فاسق جاء بأى نبي»، قال أحمد: تسامح بلفظ الشياخ والمراد الضمور، لأن النكرة إذا وقعت في سياق الشرط نعم، كما إذا وقعت في سياق النفي، والله أعلم.

(٤) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ١١٩ فراجع إن شئت اه مصححه.

الإنسان محبة لها دوام ولزام ، لأنه كلما تذكر المتقدم عليه راجعه من الندام : وهو لزام الشريب ودوام محبته . ومن مقلوباته : أدمن الأمر أدامه . ومدن بالمكان : أقام به . ومنه : المدينة وقد تراهم يجعلون لهم صاحباً ونجياً وسميراً وضجيعاً ، وموصوفاً بأنه لا يفارق صاحبه . الجملة المصدرية بلولا تكون كلاماً مستأنفاً ، لادائه إلى تنافر النظم ^(١) ، ولكن متصلاً بما قبله حالاً من أحد الضميرين في فيكم المستتر المرفوع ، أو البارز المجرور . وكلاهما مذهب شديد . والمعنى : أن فيكم رسول الله على حالة يجب عليكم تغييرها . أو أنتم على حالة يجب عليكم تغييرها : وهي أنكم تحاولون منه أن يعمل في الحوادث على مقتضى ما يعين لكم من رأى ، واستصواب فعل المطواع لغيره التابع له فيما يرتبه ، المحتذى على أمثله ؛ ولو فعل ذلك ﴿ لعنتم ﴾ أى لو قمتم في العنت والهلاك . يقال : فلان يتعنت فلاناً ، أى : يطلب ما يؤذيه إلى الهلاك . وقد أعنت العظم : إذا هيض ^(٢) بعد الجبر . وهذا يدل على أن بعض المؤمنين زينوا الرسول الله صلى الله عليه وسلم الإيقاع بنى المصطلق وتصديق قول الوليد . وأن نظائر ذلك من الهنات كانت تفرط منهم ، وأن بعضهم كانوا يتصونون ويزعمهم جدتهم في التقوى عن الجسارة على ذلك ، وهم الذين استثناهم بقوله تعالى ﴿ ولكن الله حبيب إليكم الإيمان ﴾ أى إلى بعضكم ، ولكنه أعنت عن ذكر البعض : صفتهم المفارقة لصفة غيرهم ، وهذا من إيجازات القرآن ومحامته اللطيفة ، التي لا يفتن لها إلا الخواص . وعن بعض المفسرين : هم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى . وقوله ﴿ أو أشك هم الراشدون ﴾ والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى : أولئك المستثنون هم الراشدون يصدق ما قلته . فإن قلت : ما فائدة تقديم خبر إن على اسمها ؟ قلت : القصد إلى توبيخ بعض المؤمنين على ما استهجن الله منهم من استتباع رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم لآرائهم ، فوجب تقديمه لانصباب الغرض إليه . فإن قلت : فلم قيل (يطيعكم) دون : أطاعكم ؟ قلت : للدلالة على أنه كان في إرادتهم استمرار عمله على ما يستصوبونه . وأنه كلما عن لهم رأى في أمر كان

(١) قال محمد : « الجملة المصدرية بلولا تكون مستأنفة ، لادائه إلى تنافر النظم ... الخ ، قال أحد : من جملة هنات المعتلة : تلهم على عثمان رضى الله عنه ووقفهم عن الحكم بتعنيف قلته ، فضم إلى هذا المعتقد غير معرج عليه : ما أورده الزحشرى في هذا الموضع من حكايات تولية عثمان لأخيه الوليد الفاعل تلك الفعل الشماء عروفاً عن سعد بن أبي وقاص أحد الصحابة ، وما عرض به من أن بعض الصحابة كان يصدر منهم منات ، فنها مطالبهم النبي صلى الله عليه وسلم باتباع آرائهم التي من جملتها تصديق الوليد في الإيقاع بنى المصطلق ، فاذا ضمنت هذه التبعة التي ذكرها إرسالاً إلى ما علت من معتقده : تبين لك من حاله - أعنى الزحشرى - ما لا أطيق التصريح به ، لأنه لم يصرح وإنما سلكتنا معه سبيل الانصاف ومحجة الانتصاف : نص بنص ، وتلويح بتلويح ؛ ففسأل الله العظيم - بعد الصلاة على نبيه محمد خاتم النبيين - أن يرضى عن أصحابه أجمعين ، وعناهم آمين .

(٢) قوله « إذا هيض بعد الجبر » في الصحاح : ماض العظم يهيض هيضاً : كسره بعد الجبر . وفيه أيضاً :

جبرت العظم جبراً ، وجبر العظم نفسه جبوراً ، أى : أجبر . (ع)

معمولا عليه ، بدليل قوله (في كثير من الامر) كقولك : فلان يقرى الضيف ويحمى الحرم ، تريد : أنه بما اعتاده ووجد منه مستمرا . فإن قلت : كيف موقع (لكن) وشرطتها مفقودة : من مخالفة ما بعدها لما قبلها نقياً وإثباتاً ؟ قلت : هي مفقودة من حيث اللفظ ، حاصلة من حيث المعنى ؛ لأن الذين حبيب إليهم الإيمان قد غايرت صفتهم صفة المتقدم ذكرهم ، فوفقت ، لكن في حاق موقعها من الاستدراك . ومعنى تحبيب الله وتكريهه (اللفظ والإمداد بالتوفيق^(١)) ، وسيله الكتابية كما سبق ، وكل ذى لب وراجع إلى بصيرة وذهن لا يبغي عليه أن الرجل لا يمدح بغير فعله ؛ وحمل الآية على ظاهرها يؤدى إلى أن يثنى عليهم بفعل الله ، وقد نبي الله هذا عن الذين أنزل فيهم (ويحبون أن يمدحوا بما لم يفعلوا) فإن قلت : فإن العرب تمدح بالجمال وحسن الوجوه ، وذلك فعل الله ، وهو مدح مقبول عند الناس غير مردود . قلت : الذى سوغ ذلك لهم أنهم رأوا حسن الرواء^(٢) ووسامة المنظر فى الغالب ، يسفر عن مخبر مرضى وأخلاق محمودة ومن ثم قالوا : أحسن ما فى الدميم وجهه^(٣) ، فلم يجعلوه من صفات المدح لذاته ، ولكن لدلالته على غيره . على أن من محققة الثقات وعلماء المعانى من دفع صحة ذلك وخطأ المادح به ، وقصر المدح على النعت بأقمار الخير : وهى الفصاحة والشجاعة والعدل والعفة ، وما يتشعب منها ويرجع إليها ، وجعل الوصف بالجمال والثروة وكثرة الحفدة والأعضاء وغير ذلك مما ليس

(١) عاد كلامه . قال : ومعنى تحبيب الله وتكريهه اللطف والإمداد بالتوفيق ... الخ ، قال أحد : تلجج والحق أبلغ ، وزاغ والسبيل منهج ، وقاس الخلق بالواحد الحق ، وجعل أفعالهم لهم من إيمان وكفر وخير وشر ، اغتراراً بحال اعتقد اطراذه فى الشاهد . وهو أن الانسان لا يمدح بفعل غيره ، وقاس القائب على الشاهد تحكما ، وتقليل باتباع هوى معجبا ، فجره ذلك بل جراه على تأويل الآية وإبطال ما ذكرته من نسبة تحبيب الإيمان إلى الله تعالى على حقيقته . وجعله مجازاً لأنه يعتقد أنها لو بقيت على ظاهرها لكان خلق الإيمان مضاعفاً إلى الله تعالى ، والعبد إذا مدح بما ليس من فعله . وهذا عنده محال ، فأتبع الآية رأيه الفاسد ؛ فاذا عرضت عليه الأدلة العقلية على الوجدانية ، والنقلية على أنه لا خالق إلا الله خالق كل شيء ، وطوبى بأبقاء الآية على ظاهرها المؤيد بالعقل والنقل ، فانه يتمسك فى تأويلها بالجمال المذكورة فى التحكم بقياس القائب على الشاهد ، بما له إدلاء إلى تعرج كتاب الله الذى لا يأتى الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ فالذى نعتقد - ثبتنا الله على الحق - أن الله تعالى صنع ومدح وأعطى وامتن ؛ فلا موجود إلا الله وصفاته وأفعاله ، غير أنه تعالى جعل أفعاله بعضها علانية ، فسمى المحل فاعلا والحال فعلا ؛ فهذا هو التوحيد الذى لا يحصى عنه اللزوم ولا بعيد ، ولا بد أن اطارحه القول فأقول : أخبرنى عن ثناء الله على أنبيائه ورسله بما حاصله اصطفاؤه لم لا اختياره إياهم ؛ هل بمكتسب أم بغير مكتسب ، فلا يسمعه أن يقول إلا أنه أتى عليهم بما لم يكتسبوه ، بل بما وهبه إياهم فأنبوه . وإن عرج على القسم الآخر وهو دعوى أنهم أتى عليهم بمكتسب لهم من رسالة أو نبوة ، فقد خرج عن أمل الملة ، وانحرف عن أمل القبلة ، وهذه البذرة كفاية إن شاء الله تعالى .

(٢) قوله : حسن الرواء ، فى الصحاح : الرواء - بالضم - : المنظر . (ج)

(٣) قوله : ما فى الدميم وجهه ، فى الصحاح : الدميم : القبيح . (ع)

للإنسان فيه عمل غلطاً ومخالفة عن المعقول (والكفر) تغطية نعم الله تعالى وغمطها بالوجود. و(الفسوق) الخروج عن قصد الإيمان ومحجة بركوب الكبائر (والمصيان) ترك الانقياد والمضي لما أمر به الشارع. والعرق العاصي: العائد^(١). واعتصمت النواة: اشتدت. والرشد: الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه من الرشادة وهي الصخرة: قال أبو الوازع: كل صخرة وشادة. وأنشد:

وَعَبِيرٌ مُّقْلِدٌ وَمَوْشِمَاتٍ صَالِحِينَ الصُّوَّةَ مِنْ صَمِّ الرُّشَادِ^(٢)

و(فضلاً) مفعول له، أو مصدر من غير فعله^(٣). فإن قلت: من أين جاز وقوعه مفعولاً له، والرشد فعل القوم، والفضل فعل الله تعالى، والشرط أن يتحد الفاعل. قلت: لما وقع الرشد عبارة عن التحبيب والتزيين والتكريه، مسندة إلى اسمه تقدست أسماؤه: صار الرشد كأنه فعله، لحاز أن ينتصب عنه أو لا ينتصب عن الراشدون، ولكن عن الفعل المسند إلى اسم الله تعالى، والجملة التي هي (أولئك هم الراشدون) اعتراض. أو عن فعل مقدر، كأنه قيل: جرى ذلك، أو كان ذلك فضلاً من الله. وأما كونه مصدراً من غير فعله، فأن يوضع موضع رُشدًا؛ لأن رُشدهم فضل من الله لكونهم موفقين فيه، والفضل والنعمة بمعنى الإفضال والإناعام (والله أعلم)

(١) قوله: والعرق العاصي: العائد، في الصحاح: عذ العرق: سال ولم يرَ، فهو عرق عائد. (ع)
(٢) الظاهر أن الشاعر يصف الديار بأنها لم يبق فيها غير وتد الحباء المقلد بالجل، وغير الآثافي الغير لونها بالنار. والوشم والتوشيم: تغيير اللون، أي: التي احترقت بضروها أي حرماً. ومن صم الرشد: بيان لها. والصم: جمع صاء، أي: صلبة. والرشاد الصخر: واحد رشادة. وقيل: يصف مطايا بأنها مطبوعة على العمل غير محتاجة للزمام، وأنها غيرهما أثر السير قوية، بحيث يظهر الشرر من شدة دفع خفافها على الصخر الصلب.
(٣) أعرب الزمخشري فضلاً في الآية مفعولاً لأجله، منصبا عن قوله: الراشدون... الخ. قال أحد: أورد الاشكال بعد تقرير أن الرشد ليس من فعل الله تعالى، وإنما هو فعلهم حقيقة على ما هو معتقد، ونحن نبينا على ما بينا: أن الرشد من أفعال الله ومخلوقاته، فقد وجد شرط انتصاب المفعول له، وهو اتحاد فاعل الفعلين، على أن الاشكال وارد نصاً على تقريرنا على غير الحد الذي أورد عليه الزمخشري، بل من جهة أن الله تعالى مخاطب خلقه بلقمتهم الموهودة عندهم. وما يمهده أن الفاعل من نسب إليه الفعل؛ وصواب كان ذلك حقيقة أو مجازاً حتى يكون زيد فاعلاً وانقض الحائط وأشباهه كذلك. وقد نسب الرشد إليهم على طريقة أنهم الفاعلون وإن كانت النسبة مجازية باعتبار المعتقد، وإذا تقرر ورود على هذا الوجه فذلك في الجواب عنه طريقان: إما جواب الزمخشري، وإما أمكن منه وأبين: وهو أن الرشد هنا يستلزم كونه راشداً؛ إذ هو مطاوعه؛ لأن الله تعالى أرشدهم فرشدوا. وحينئذ يتحد الفاعل على طريقة الصناعة المطابقة للحقيقة وهو هكس قوله (يريك البرق خوفاً وطمناً) فإن الاشكال بعينه وارد فيها، إذ الحرف والطمع فعلهم، أي: منسوب إليهم على طريقة أنهم الحائثون الطامعون، والفعل الأول لله تعالى؛ لأنه مرهم ذلك، والجواب عنه: أنهم مفعولون في معنى الفاعلين، بواسطة استلزام المطاوعة؛ لأنه إذا أراهم فقد أروا. وقد سلف هذا الجواب مكانه، فصحت الكلام هنا بتقدير المفعول فاعلاً وعكسه آية الحجرات، إذ تصحيح الكلام فيها بتقدير الفاعل مفعولاً. وهذا من دقائق العربية فتأمل، والله الموفق.

بأحوال المؤمنين وما بينهم من التمايز والتفاضل (حكيم) حين يفضل وينعم بالتوفيق على أفاضلهم .
 وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى
 الْأُخْرَىٰ فَاقْلِبُوا إِلَيْنَا تَبْنِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا
 بِالْعَدْلِ وَفِسطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على مجلس ببعض الأنصار وهو على حمار فبال الحمار ، فأمسك عبد الله ابن أبيّ بأنفه وقال : خل سبيل حمارك فقد آذانا نقتنه . فقال عبد الله بن رواحة : والله إن بول حماره لأطيب من مسكك ^(١) وروى : حماره أفضل منك ، وبول حماره أطيب من مسكك ^(٢) : ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وطال الخوض بينهما حتى استبأ وتجاددا ، وجاء قوماهما وهما الأوس والخزرج ، فجالدوا بالعصى ، وقيل بالأيدي والنعال والسعف ، فرجع إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصلح بينهم ، ونزلت . وعن مقاتل : قرأها عليهم فاصطلحوا . والبغى : الاستطالة والظلم وإباء الصلح . والفيء : الرجوع . وقد سمي به الظل والغنيمة ؛ لأن الظل يرجع بعد نسخ الشمس ، والغنيمة : ما يرجع من أموال الكفار إلى المسلمين ، وعن أبي عمرو : حتى تفي ، بغير همز ؛ ووجهه أن أبا عمرو خفف الأولى من الهمزتين اللتين فطقت على الراوى تلك الخلسة ^(٣) ، فظنه قد طرحها . فن قلت : ما وجه قوله (اقتلوا) والقياس اقتلتا ^(٤) ، كما قرأ ابن أبي عبيدة . واقتتلا ، كما قرأ عبيد بن عمير على تأويل الرهطين أو نفرين ؟ قلت : هو مما حمل على المعنى دون اللفظ ؛ لأن الطائفتين فى معنى القوم والناس . وفى قراءة عبد الله : حتى يفيئوا إلى أمر الله ، فإن فاؤا فخذوا بينهم بالقسط . وحكم الفئة الباغية : وجوب قتالها ما قاتلت . وعن ابن عمر : ما وجدت فى نفسى من شيء ما وجدتته

(١) لم أره عن ابن عباس . وهو فى الصحيحين من حديث أنس . وفيه وفيبلغنا أنها أنزلت (وإن طائفتان من المؤمنين ... الآية) . دون بول الحمار . وقوله « والله إن بول حماره لأطيب من مسكك » وليس فيه أيضا « وإنه صلى الله عليه وسلم معى » ثم نزلت الآية .

(٢) لم أره هكذا وحديث أنس فى الصحيحين « والله لخمار رسول الله صلى الله عليه وسلم أطيب ريحا منك » .

(٣) قوله « تلك الخلسة » فى الصحاح : خلست الشيء . واختلسته ، إذا استلبته . والاسم الخلسة - بالضم . (ح)

(٤) قال محمود : « ولم قال اقتلوا عدولا ... الخ » قال أحد : قد تقدم فى مواضع إنكار النحاة الحمل على لفظ

« ومن » ، بعد الحمل على معنهما ، وفى هذه الآية حمل على المعنى بقوله (اقتلوا) ثم على اللفظ بقوله (بينهما) فلا يمتنع أن المقول فى « من » مطرد فى هذا ؛ لأن المانع لزوم الاجمال والالهام بعد التفسير ، وهما لا يلزم ذلك ؛ إذ الإلزام فى الطائفة ، بل لفظها مفرد أبدا ، ومعناها جمع أبدا ، وكانت كذلك لاختلاف أحوالها من حيث المعنى مرة جمعا ومرة مفردة ، فتأمل ، والله الموفق .

من أمر هذه الآية إن لم أقاتل هذه الفئة الباغية كما أمرني الله عز وجل . قاله بعد أن اعتزل ، فإذا كافت وقبضت عن الحرب أيديها تركت ، وإذا تولت عمل بما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يا ابن أم عبد ، هل تدري كيف حكم الله فيمن بغى من هذه الآفة ؟ قال : الله ورسوله أعلم قال : لا يجهز على جريحها ، ولا يقتل أسيرها ، ولا يطلب هاربها ولا يقسم فيؤها »^(١) ولا تخلو الفتان من المسلمين في اقتتالها : إما أن يقتل على سبيل البغي منهما جميعاً ، فالواجب في ذلك أن يمضى بينهما بما يصلح ذات البين ويشمر المسكافة والموادة ، فإن لم تتحاجزا ولم تصطلحا وأقامتا على البغي : صير إلى مقاتلتها . وإما أن يلتحم بينهما القتال لشبهة دخلت عليهما . وكلتاها عند أنفسهما محقة ، فالواجب إزالة الشبهة بالحجج النيرة والبراهين القاطعة ، وإطلاعهما على مرشد الحق . فإن ركبنا من اللجاج ولم تعمل على شأكله ما هديتنا إليه ونصحتنا من اتباع الحق بعد وضوحه لها ، فقد لحقنا بالفئتين الباغيتين . وإما أن تكون إحداها الباغية على الأخرى ؛ فالواجب أن تقاتل فئة البغي إلى أن تكف وتتب ، فإن فعلت أصلح بينهما وبين المبغى عليهما بالقسط والعدل ، وفي ذلك تفاصيل : إن كانت الباغية من قلة العدد بحيث لا منعة لها : ضمنت بعد الفئته ما جنت ؛ وإن كانت كثيرة ذات منعة وشوكة ، لم تضمن إلا عند محمد بن الحسن رحمه الله ؛ فإنه كان يفتي بأن الضمان يلزمها إذا قامت . وأما قبل التجمع والتجند أو حين تتفرق عند وضع الحرب أوزارها ، فاجنته ضمنت عند الجميع ، فحمل الإصلاح بالعدل في قوله تعالى ﴿ فأصلحوا بينهما بالعدل ﴾ على مذهب محمد واضح منطبق على لفظ التنزيل ، وعلى قول غيره : وجهه أن يحمل على كون الفئة قليلة العدد ، والذي ذكروا أن الغرض إمامة الضغائن وسل الاحقاد دون ضمان الجنايات : ليس بحسن الطباق للأمر به من أعمال العدل ومراعاة القسط . فإن قلت : فلم قرن بالإصلاح الثاني العدل دون الأول ؟ قلت : لأن المراد بالاعتتال في أول الآية أن يقتتلا باغيتين معاً أو راكبتى شبهة ، وأيتهما كانت ؛ فالذي يجب على المسلمين أن يأخذوا به في شأنهما : إصلاح ذات البين ، وتسكين الدماء^(٢) بإرامه الحق والمواظف الشافية ، ونفى الشبهة ؛ إلا إذا أصرنا ، فحينئذ تجب المقاتلة . وأما الضمان فلا يتجه ، وليس كذلك إذا بغت إحداها ؛ فإن الضمان متجه على الوجهين المذكورين ﴿ وأقسطوا ﴾ أمر باستعمال القسط على طريق العموم بعد ما أمر به في إصلاح ذات البين ، والقول فيه مثله في

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك والبرار والحوارث . وابن عدى من رواية كوثر بن حكيم النافع عن نافع من ابن عمر . وكوثر مترك ، قال فيه أحد : أحاديه أباطل .

(٢) قوله والدعاء ، أى الجماعة . (ع)

الامر باتقاء الله على عقب النهى عن التقديم بين يديه ، والقسط - بالفتح - : الجور من القسط : وهو اعوجاج في الرجلين ^(١) . وعود قاسط : يابس . وأقسطه الرياح . وأما القسط بمعنى العدل ، فالفعل منه : أقسط ، وهمزته للسلب ، أى : أزال القسط وهو الجور .

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾

هذا تقرير لما ألزمه من تولى الإصلاح بين من وقعت بينهم المشاقة من المؤمنين ، وبيان أن الإيمان قد عقد بين أهله من السبب القريب والنسب اللاصق : ما إن لم يفضل الأخوة ولم يبرز عليها لم ينقص عنها ولم يتقاصر عن غايتها ، ثم قد جرت عادة الناس على أنه إذا نشب مثل ذلك بين اثنين من إخوة الولاد ، لزم السائر أن يتناهما في رفعه وإزاحته ، ويركبوا الصعب والذلول مشياً بالصلح وبثاً للسفراء ^(٢) بينهما ، إلى أن يصادف ما وهى من الوفاق من يرقعه ، وما استثنى ^(٣) من الوصال من يله : فالأخوة في الدين أحق بذلك بأشد منه . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يعيبه ، ولا يتناول عليه في البنيان فيستر عنه الريح إلا بإذنه ، ولا يؤذيه بقتار قدره » ^(٤) ثم قال : احفظوا ، ولا يحفظ منكم إلا قليل ^(٥) . فإن قلت : فلم خص الاثنين بالذكر دون الجمع ؟ قلت : لأن أقل من يقع بينهم الشقاق اثنين ؛ فإذا لزمت المصالحة بين الأقل كانت بين الأكثر ألزم ؛ لأن الفساد في شقاق الجمع أكثر منه في شقاق الاثنين ، وقيل : المراد بالأخوين الأوس والخزرج ، وقرئ : بين إخوانكم وإخوانكم . والمعنى : ليس المؤمنون إلا إخوة ، وأنهم خلص لذلك متمحضون ، قد انزاحت عنهم شبهات الأجنبية ، وأبى لطف حالم في التمازج والاتحاد أن يقدموا على ما يتولد منه التقاطع ، فبادروا قطع ما يقع من ذلك إن وقع واحسموه (واتقوا الله) فإنكم إن فعلتم لم تحملكم التقوى إلا على التواصل والاتلاف ، والمصارعة إلى إمطة ما يفرط منه ، وكان عند فعلكم ذلك وصول رحمة الله إليكم ، واشتمال رافته عليكم حقيقة بأن تعقدوا به رجاءكم .

(١) قوله « وهو اعوجاج في الرجلين » في الصحاح : القسط - بالتحريك - : انصباب في رجل الدابة ، وذلك عيب ، لأنه يستحب فيها الاتحان والتوفير اه . (ع)

(٢) قوله « وبثاً للسفراء بينهما ... الخ » جمع سفير : وهو الرسول والمصلح بين القوم . (ع)

(٣) قوله « واستثنى » في الصحاح : تثنى الجلد يبس ، واستثنى الرجل : مزل . (ع)

(٤) قوله « بقتار قدره » في الصحاح : والقتار : ربح الشواء . (ع)

(٥) أخرجه التلمبي من رواية اسماعيل بن رافع عن سعيد عن أبي هريرة به سواء وزاد فيه « ولا يؤذيه بقتار قدره إلا أن يعرف له منها . ولا يهتري لبنيه الفاكهة ، فيخرجون بها إلى صبيان جاره ثم لا يطمعونهم منها » قلت : وإسناده ضعيف وأول الحديث في الصحيحين ، مروجه آخر عن أبي هريرة : وسأني في آخر تفسير سورة الواقعة .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ
وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءِ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْزَمُوا أَفْئُسَكُمْ وَلَا
تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْآسَمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾

القوم : الرجال خاصة ؛ لأنهم القوام بأمور النساء . قال الله تعالى (الرجال قوامون على النساء)
وقال عليه الصلاة والسلام : « النساء لحم على وضئ^(١) » إلا ما ذب^(٢) عنه ، والذابون هم الرجال ،
وهو في الأصل جمع قائم ، كصوم وزور : في جمع صائم وزائر . أو تسمية بالمصدر . عن بعض
العرب : إذا أكلت طعاما أحببت نوما وأبغضت قوما . أى قياما ، واختصاص القوم بالرجال :
صريح في الآية وفي قول زهير :

* أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءٌ * (٣)

وأما قولهم في قوم فوعون وقوم عاد : هم الذكور والإناث ، فليس لفظ القوم بمتعاط للفرعيين ،
ولكن قصد ذكر الذكور وترك ذكر الإناث لأنهن توابع لرجالهن ، وتشكير القوم والنساء

(١) قوله «على وضئ» الوضئ : ما يوضع تحت اللحم من خشب وغيره يوق به من الأرض . أقاده الصالح . (ع)
(٢) لم أره عن علي ، وأخرجه ابن المبارك في البر والعتلة من قول عمر بن الخطاب ، وكذلك رواه أبو عبيد
وابراهيم الحربى في الغريب .

(٣) وما أدرى وسوف إخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء
فان تكن النساء مخبات لحق لكل عصاة اعتداء

لزهير يهجو حصن بن حذيفة الفزارى . والقوم : الرجال فقط ، حتى قيل : إنه جمع قائم ، كصوم وزور ، في صائم
وزائر . وقيل إنه في الأصل مصدر ، والمهزة لطلب التعيين ، ولكن الكلام من مجاميل المعارف . ونساء : عطف
على قوم الوقع خبراً من آل حصن ، أو خبراً مبتدأً محذوف ، والعطف من عطف الجمل . ويجوز أن المهزة للتسوية
كالواقعة بعد سواء ، كأنه . قال : ما أبال منهم ، سواء أكانوا رجالاً أو نساء . فيتمين أنه من عطف الجمل لأجل
التسوية ، ولكن المقصام يؤيد الأول ، وفي البيت الاعتراض بين سوف ومدخلها بالفعل الملقى عند المفعول ،
والاعتراض أيضاً بين ما أدرى وبين الاستفهام بجملة التسوية ، لأن «أدرى» طالب لمقولين وجلة «أقوم» سادة
مسددها ، وانظر كيف خطر بباله أن ينشئ الدراية بحال الآل . ثم قيل أن يكمل ذلك خطر بباله الجزم بأنه سوف
يدرى ، ثم قيل أن يكمل ذلك قال : إن حصول الدراية في المستقبل على سبيل التخيل والظن ، لحكى حال النفس عند
ترددنا في شأنه ، فته در العرب ما لطفهم في حكاية الحال بأبلغ مقال . وروى لست بدل سوف . وفيه نظر ؛
واسم تكن ضمير القوم ، والنساء خبرها ومخبات حال ، أى : فان كن محصنات لحق لهن أن يهدين إلى أزواجهن ،
وهدى المرأة إلى زوجها وأهداها إليه إهداء ، بمعنى .

يحتمل معنيين : أن يراد : لا يسخر بعض المؤمنين والمؤمنات ^(١) من بعض ؛ وأن تقصد إفادة الشياخ ، وأن تصير كل جماعة منهم منية عن السخرية ، وإنما لم يقل : رجل من رجل ، ولا امرأة من امرأة على التوحيد ، ^(٢) إعلاما بإقدام غير واحد من رجالهم وغير واحدة من نسايتهم على السخرية ، واستفظاا للشأن الذي كانوا عليه ، ولأن مشهد الساخر لا يكاد يخلو ممن يتلهى ويستضحك على قوله ، ولا يأتي ما عليه من النهى ^(٣) والإنكار ، فيكون شريك الساخر وتلوه في تحمل الوزر ، وكذلك كل من يطرق سمعه فيستطيعه ويضحك به ، فيؤدى ذلك - وإن أوجده واحد - إلى تكثر السخرة وانقلاب الواحد جماعة وقوما . وقوله تعالى ﴿ عسى أن يكونوا خيرا منهم ﴾ كلام مستأنف قد ورد مورد جواب المستخبر ^(٤) عن العلة الموجبة لما جاء النهى ^(٥) عنه ، وإلا فقد كان حقه أن يوصل بما قبله بالفاء . والمعنى وجوب أن يعتد كل أحد أن المسخور منه ربما كان عند الله خيرا من الساخر ، لأن الناس لا يظلمون إلا على ظواهر الاحوال ولا علم لهم بالخفيات ، وإنما الذى يزن ^(٦) عند الله : خلوص الضمائر وتقوى القلوب ، وعليهم من ذلك بمعزل ، فينبغى أن لا يجترئ أحد على الاستهزاء بمن تقتحمه عينه إذا رآه رث الحال ، أو ذا عاهة فى بدنه ، أو غير ليق فى محادثته ، فلعله أخلص ضميرا وأتقى قلبا ممن هو على ضد صفته ، فيظلم نفسه بتحقيق من وقره الله والاستهانة بمن عظمه الله ، ولقد بلغ بالسلف إفراط توقيهم وتصونهم من ذلك أن قال عمرو بن شرحبيل : لو رأيت رجلا يرضع غزأ فضحكته منه : خشيت أن أصنع مثل الذى صنعه . ^(٧) وعن عبد الله بن مسعود : البلاء موكل بالقول ، لو سخرت من كلب لحشيت أن أحول كلبا . ^(٨) وفى قراءة عبد الله : عسوا أن يكونوا ، وعسين

(١) قال محمود : « لم يقل لا يسخر بعض المؤمنين والمؤمنات ... الخ » قال أحمد : ولو عرف فقال : لا يسخر المؤمنون بعضهم من بعض : لكانت كل جماعة منهم منية ضرورة شمول النهى ، ولكن أورد العنبرى هذا ، وإنما أراد أن فى التشكير فائدة : أن كل جماعة منية على التفصيل فى الجماعات والاعراض بالنهى لكل جماعة على الخصوص ، ومع التعريف تحصيل النهى ، لكن لا على التفصيل بل على الشمول ، والنهى على التفصيل أبلغ وأوقع .
(٢) عاد كلامه . قال : « وإنما لم يقل رجل من رجل ولا امرأة من امرأة للاشعار ... الخ » قال أحمد : وهو فى غاية الحسن لا مزيد عليه .

(٣) قوله « ولا يأتي ما عليه من النهى » أى يتلهى ولا يفعل ما عليه من نهى الساخر والإنكار عليه . (ع)
(٤) قال محمود : « وقوله عسى أن يكونوا خيرا منهم جواب للمستخبر عن علة النهى ... الخ » قال أحمد : وهو من الطراز الأول .

(٥) قوله « لما جاء النهى عنه » لعل ما مصدرية ، ولفظ منه مزيد من ناسخ الاصل ، أى : ليجى النهى ، وإلا : أى وإلا يكن مستأنفا . (ع)

(٦) قوله « وإنما الذى يزن عند الله » لعله يزن . (ع)

(٧) لم أره عنه ، وفى ابن أبى شيبة عن أبى موسى من قوله نحوه .

(٨) أخرجه ابن أبى شيبة فى الأدب المفرد من رواية إبراهيم عن ابن مسعود بهذا .

أن يكن ، فعسى على هذه القراءة هي ذات الخبر كالتى فى قوله تعالى (فهل عسيتم) وعلى الأولى التى لا خبر لها كقوله تعالى (وعسى أن تكرهوا شيئاً) . واللمز : الطعن والضرب باللسان . وقرئ : ولا تلزوا - بالضم . والمعنى : وخصوصاً أيها المؤمنون أنفسكم بالانتهاء عن عيبيها والطعن فيها ، ولا عليكم أن تعيبوا غيركم ممن لا يدين بدينكم ولا يسير بسيرتكم ، فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس » ^(١) وعن الحسن رضى الله عنه فى ذكر الحجاج : أخرج إلى بنانا قصيرة قلباً عرقت فيها الاعمى فى سبيل الله ثم جعل يطبطب شعيرات له ويقول : يا أبا سعيد يا أبا سعيد ، وقال لما مات : اللهم أنت أمته فاقطع سنته ، فإنه أنا أنا أخيفش أعيمش ^(٢) يخطر فى مشيته ويصعد المنبر حتى تفوته الصلاة ، لا من الله يتقى ولا من الناس يستحي : فوفاً الله وتحته مائة ألف أو يزيدون ، لا يقول له قاتل : الصلاة أيها الرجل الصلاة أيها الرجل ، هيأت دون ذلك السيف والسوط . وقيل : معناه لا يعيب بعضهم بعضاً ، لأن المؤمنين كنفس واحدة ، فتي عاب المؤمن المؤمن فكأنما عاب نفسه . وقيل : معناه لا تفعلوا ما تلزون به ، لأن من فعل ما استحق به اللمز فقد لزم نفسه حقيقة . والتنازع بالألقاب : التداعى بها : تفاعل من نزه ، وبنو فلان يتنازعون ويتنازعون ويقال : التنازع ^(٣) والنازع : لقب السوء والتلقب المنهى عنه ، وهو ما يتداخل المدعوق به كراهة لكونه تقصيراً به وذمًا له وشيئاً ، فأما ما يحبه مما يزينه ويثوره فلا بأس به . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم : « من حق المؤمن على أخيه أن يسميه بأحب أسمائه إليه » ^(٤) ولهذا كانت التكنية من السنة والأدب الحسن .

(١) أخرجه أبو يعلى والترمذى الحكيم فى النوادر فى الثامن والستين والعقيلي وابن عدى وابن خبان كلهم من رواية الجارود بن يزيد عن بهز بن حكيم . عن أبيه عن جده مرفوعاً أثرعون عن ذكر الفاجر ؟ أذكره بما فيه ، كي يحذره الناس » واتفقوا على أن الجارود غير ثقة ، وقال الدارقطنى : هو من وضع الجارود ثم سرقه منه جماعة منهم عمرو بن الأزهر ، وسليمان بن عيسى عن الثورى عن بهز . وسليمان وعمرو كذابان وقد رواه العلاء بن بشر عن ابن عيينة عن بهز : قال الدارقطنى : وابن عيينة لم يسمع من بهز وغير لفظه فقال : « ليس للفاسق غيبة » انتهى وهذا أورده البيهقى فى الشعب عن الحاكم بسنده إلى العلاء وقال : قال الحاكم : هذا غير صحيح ولا يعتمد . وقال ابن طاهر : روى عن معمر عن بهز أيضاً أخرجه عبد الوهاب أخو عبد الرزاق . وعبد الوهاب كذاب وأخرجه الطبرانى فى الأوسط وقال لم يروه عن معمر غيره ، قال : وله طريق أخرى عن عمر بن الخطاب روى يوسف بن أبان حدثنا الأبرد بن حاتم أخبرنى منهل السراج عن عمر .

(٢) قوله « فإنه أنا أنا أخيفش أعيمش » فى الصحاح « الخفش » : صغر فى العين ، وضعف فى البصر خلقة والرجل أخفش . وفيه : العمى فى العين : ضعف الرؤية مع سيلان الدمع . والرجل أعشى أم . وأخيفش وأعيمش تصغير : أخفش وأعشى . (ع)

(٣) قوله « ويقال التنازع » فى الصحاح « التنازع » : بالتحريك : اللقب ؛ وبالتسكين : المصدر . (ع)

(٤) لم أجد مكدًا ، وروى البيهقى فى الشعب فى الحادى والستين عن عثمان بن طلحة الحنبل روى عنه قال « ثلاث مصفين لك ود أخوك : قس على إذا لقيته ، وتوسع له فى المجلس ، وتدعوه بأحب أسمائه إليه ، وفيه موسى بن »

قال عمر رضى الله عنه : أشيعوا الكفى فإنها منبهة . ولقد لقب أبو بكر بالعتيق والصديق ، وعمر بالفاروق ، وحزرة بأسد الله ، وخالد بسيف الله . وقل من المشاهير في الجاهلية والإسلام من ليس له لقب ، ولم تزل هذه الألقاب الحسنة في الأمم كلها من العرب والعجم تجرى في مخاطباتهم ومكاتباتهم من غير تكثير . روى عن الضحاك أن قوما من بني تميم استهزؤا بيلال وخباب وعمار وصهيب وأبي ذر وسالم مولى حذيفة . فزلت . وعن عائشة رضى الله عنها أنها كانت تسخر من زينب بنت خزيمة الهلالية وكانت قصيرة . وعن ابن عباس أن أم سلمة ربطت حقولها بسبيية ،^(١) وسدلت طرفها خلفها وكانت تجزعه ، فقالت عائشة لحفصة : انظري ما تجزى خلفها كأنه لسان كلب . وعن أنس : عيرت نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم أم سلمة بالقصر . وعن عكرمة عن ابن عباس أن صفية بنت حيي أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إن النساء يعيرنني ويقتلن يا يهودية بنت يهوديين ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : هلا قلت إن أبي هرون وإن عمى موسى وإن زوجى محمد ،^(٢) وروى أنها نزلت في ثابت بن قيس وكان به وقر ، وكانوا يوسعون له في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسمع ؛ فأتى يوما وهو يقول : تفسحوا لى ، حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم ، فقال للرجل : تنح ، فلم يفعل ، فقال : من هذا ؟ فقال الرجل . أنا فلان ، فقال : بل أنت ابن فلانة ، يريد : أما كان يعير بها في الجاهلية ، فنجل الرجل فنزلت ، فقال ثابت : لا أغر على أحد في الحسب بعدها أبدا^(٣) (الاسم) ههنا بمعنى الذكر ، من قولهم : طار اسمه في الناس بالكرم أو باللؤم ، كما يقال : طار ثناؤه وصيته . وحقيقته : ما سما من ذكره وارتفع بين الناس . ألا ترى إلى قولهم : أشاد بذكره ؛ كأنه قيل : بنس الذكر المرتفع للمؤمنين^(٤) بسبب ارتكاب

== عبد الملك بن عمير وهو ضعيف . وروى أبو يعلى والطبراني من حديث ذبال بن عبيد بن حنظلة حدثني جدى حنظلة بن جذيم قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجه أن يدعى الرجل بأحب الأسماء إليه » .

(١) قوله « حقولها بسبيية » في الصحاح « السب » : شقة كتان ؛ والسبيية : مثله . (ع)

(٢) ذكره الثعلبي عن عكرمة ، عن ابن عباس بغير إسناد وفي الترمذى من رواية هاشم بن سعيد الكوفي : حدثنا كنانة حدثنا صفية بنت حيي قالت « دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وقد بلغني عن عائشة وحفصة كلام . فذكرت ذلك له فقال : ألا قلت : وكيف تكونا خيرا ؟ » وروى عن محمد بن عبد الله عليه وسلم وأبي هارون وعمى موسى عليهما الصلاة والسلام . وكان الذى بلغها أنهن قلن نحن أكرم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وخير منها نحن أزواجه وبنات عمه . وقال : غريب . وليس إسناده بذلك . وروى الترمذى وابن حبان وأحمد والطبراني من رواية معمر بن ثابت عن أنس قال : « بلغ صفية أن حفصة قالت بنت يهودى فبككت ... فذكر معناه » .

(٣) ذكره الثعلبي ، ومن تبعه عن ابن عباس بغير سند .

(٤) قال محمود : « الاسم ههنا الذكر ، من قولهم : طار اسمه في الناس بالكرم . كأنه قال : بنس الذكر المرتفع للمؤمنين ... الخ ، قال أحمد : أقرب الوجوه الثلاثة ملائمة لقاعدة أهل السنة وأولاهما : هو أولها ، ولكن بعد ==

هذه الجرائر ^(١) أن يذكروا بالفسق . وفي قوله (بعد الإيمان) ثلاثة أوجه : أحدها استقباح الجمع بين الإيمان وبين الفسق الذي يأباه الإيمان ويحظره ، كما تقول : بثس الشأن بعد الكبرة الصبوة . ^(٢) والثاني : أنه كان في شتائمهم لمن أسلم من اليهود : يا يهودى يا فاسق ، فنهوا عنه ، وقيل لهم : بثس الذكر أن تذكروا الرجل بالفسق واليهودية بعد إيمانه ، والجملة على هذا التفسير متعلقة بالنهى عن التنازع . والثالث : أن يجعل من فسق غير مؤمن ، كما تقول للمتحول عن التجارة إلى الفلاحة : بثست الحرفة الفلاحة بعد التجارة .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَئْضُكُم بَعْضًا أَتُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾

يقال : جنبه الشر إذا أبعد عنه ، وحقيقته : جعله منه فى جانب ، فيعدى إلى مفعولين . قال الله عز وجل (واجنبى وبى أن نعبد الأصنام) ثم يقال فى مطاوعة : اجتنب الشر فتعص المطاوعة مفعولا . والمأمور باجتنابه هو بعض الظن ، وذلك البعض موصوف بالكثرة : ألا ترى إلى قوله (إن بعض الظن إثم) ؟ فإن قلت : بيّن الفصل بين (كثير) ، حيث جاء نكرة وبينه لوجه معرفة . قلت : بجيئه نكرة يفيد معنى البعضية ، وإن فى الظنون ما يجب أن يجنب من غير تبين لذلك ولا تعيين . لئلا يجترئ أحد على ظن إلا بعد نظر وتأمل ، وتميز بين حقه وباطله بأماره بينة ، مع استشعار للتقوى والحذر ؛ ولوعرف لكان الامر باجتناب الظن منوطا بما يكثر منه دون ما يقل ، ووجب أن يكون كل ظن متصف بالكثرة مجتنباً ، وما اتصف منه بالقلّة مرخصاً فى تظننه . والذى يميز الظنون التى يجب اجتنابها عما سواها : أن كل ما لم تعرف له أماره صحيحة وسبب ظاهر : كان حراما واجب الاجتناب ؛ وذلك إذا كان المظنون

== صرف الدم إلى نفس الفسق ، وهو مستقيم لأن الاسم هو المسمى . ولكن الوغشى لم يستطع ذلك : انحرفا إلى قاعدة : يصرف الدم إلى ارتفاع ذكر الفسق من المؤمن ، نحو ما على أن الاسم التسمية ، ولا شك أن صرف الدم إلى نفس الفسق أولى . وأما الوجه الثانى ، فأدخله ليتم له حمل الاسم على التسمية صريحا . وأما الثالث فليتم له أن الفاسق غير مؤمن ، وكلا القاعدتين مخالف للسنّة فأحذرهما ، والله التوفيق . ولقد كشف الله لى عن مقاصده ، حتى ما تنقلب له كلمة متحيزة إلى فئة البدعة إلا إذا أدركها الحق فكلبها ، والله الخد .

(١) قوله « هذه الجرائر » جمع جريرة ، وهى الجنابة . أفاده الصحاح . (ع)
(٢) قوله « بعد الكبرة الصبوة » الكبرة - بالفتح - : اسم للكبر فى السن . والصبوة : الميل إلى الجهل والفتنة . أفاده الصحاح . (ع)

به عن شوهده منه السر والصلاح ، وأونست منه الأمانة في الظاهر ، فظن الفساد والحيانة به محرم ، بخلاف من اشتهره الناس بتعاطي الريب والمجاهرة بالخبائث . عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى حرم من المسلم دمه وعرضه وأن يظن به ظن السوء » ^(١) وعن الحسن : كنا في زمان الظن بالناس حرام ، وأنت اليوم في زمان اعمل واسكت ، وظن بالناس ما شئت . وعنه : لا حرمة لفاجر . وعنه : إن الفاسق إذا أظهر فسقه وهتك ستره هتك الله ، وإذا استتر لم يظهر الله عليه لعله أن يتوب . وقد روى : من ألقي جلاباب الحياء فلا غيبة له ^(٢) . والإثم : الذنب الذي يستحق صاحبه العقاب . ومنه قيل لعقوبته : الآثام ، فعال منه : كالنكال والعذاب والوبال . قال :

لَقَدْ فَعَلْتُ هَذِي النَّوَى بِى قَعْلَةً أَصَابَ النَّوَى قَبْلَ الْمَمَاتِ أَنَا مَهَا ^(٣)

والهمزة فيه عن الواو ، كأنه يتم الأعمال : أى يكسرها بإحباطه . وقرئ : ولا تحسبوا بالحاء والمعنين متقاربين . يقال : تجسس الأمر إذا تطلبه وبحث عنه : تفعل من الجسس ، كما أن التلسس بمعنى التطلب من اللبس ، لما في اللبس من الطلب . وقد جاء بمعنى الطلب في قوله تعالى (وأنا لمسنا السماء) والتجسس : التعرف من الجسس ، ولتقاربهما قيل لمشاعر الإنسان : الخواص بالحاء والجيم ، والمراد النهى عن تتبع عورات المسلمين ومعايهم والاستكشاف عما ستره . وعن مجاهد . خذوا ما ظهر ودعوا ما ستره الله . وعن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه خطب فرفع صوته حتى أسمع العواتق في خدورهن . قال : يامعشر من آمن بلسانه ولم يخلص الإيمان إلى قلبه ، لا تتبعوا عورات المسلمين : فإن من تتبع عورات المسلمين تتبع الله عورته حتى يفضحه

(١) أخرجه ابن ماجه . من حديث ابن عمر باسناد فيه لين ، ولفظه « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة وهو يقول : ما أطيب وأطيب ريحك ، ما أعظمك وأعظم حرمتك ، والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك : ماله ودمه وأن يظن به إلا خيرا » وروى ابن أبى شيبة عن طريق مجاهد عن الشعبي عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم نظر إلى الكعبة فقال « ما أعظمك وأعظم حرمتك والمسلم أعظم حرمة منك . حرم الله دمه وماله وعرضه ، وأن يظن به ظن السوء » وروى البيهقي في الشعب عن طريق مجاهد عن ابن عباس نحوه . وفيه حفص بن عبد الرحمن .

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب في التاسع والستين والقضاعي في مسند الشهاب عن طريق رواد بن الجراح عن أبي سعد الساعدي عن أنس وإسناده ضعيف . وأخرجه ابن عدى عن رواية الربيع بن بدر عن أنس عن أنس وإسناده أضعف من الأول .

(٣) النوى : نية المسافر من قرب أو بعد ، فهي مؤنثة ، وتستعمل اسم جمع نية ، فيذكر : أى لقد فعلت في هذه النية فعلة مسيئة ، في معنى في ، ثم دعا عليها بقوله : أصاب النوى التى أذنتى أنا مَهَا ، أى : جزاء تلك القعلة . أو جزاء النوى التى تستحقه . وقد يسمى الذنب إنما وأنا مَهَا ، من إطلاق المسبب على السبب ، وقال قبل الممات ، أى : قبل موته ليتقنى فيها ، فيكأنه شبهها بعدد ، ثم دعا عليها .

ولو في جوف بيته ^(١) . وعن زيد بن وهب : قلنا لابن مسعود : هل لك في الوليد بن عقبة ابن أبي معيط تقطر لحيته خمرًا ؟ فقال ابن مسعود : إنا قد نهينا عن التجسس ، فإن ظهر لنا شيء أخذنا به ^(٢) . غابه واغتابه : كغاله واغتاله . والغيبة من الاغتيال ، كالغيلة من ^(٣) الاغتيال : وهي ذكر السوء في الغيبة . سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة فقال : « أن تذكر أخاك بما يكره . فإن كان فيه فقد اغتبته . وإن لم يكن فيه فقد بهته » ^(٤) . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : الغيبة إدام كلاب الناس (أيجب أحدكم) تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفظع وجه وأفحش . وفيه مبالغات شتى : منها الاستفهام الذي معناه التقرير . ومنها جعل ماهو في الغاية من الكراهة موصولا بالحجة . ومنها إسناد الفعل إلى أحدكم والإشعار بأن أحدا من الآخرين لا يجب ذلك . ومنها أن لم يقتصر على تمثيل الاغتيال بأكل لحم الإنسان ، حتى جعل الإنسان أخا . ومنها أن لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعل ميتا . وعن قتادة : كما تسكره إن وجدت جيفة مدودة أن تأكل منها ، كذلك فأكره لحم أخيك وهو حي . وانتصب (ميتا) على الحال من اللحم . ويجوز أن ينتصب عن الأخ . وقرئ : ميتا . ولما قزهرم عز وجل بأن أحدا منهم لا يجب أكل جيفة أخيه . عقب ذلك بقوله تعالى (فكرهتموه) معناه : فقد كرهتموه واستقر ذلك . وفيه معنى الشرط ، أي : إن صح هذا فكرهتموه ، وهي الفاء الفصيحة ،

(١) أخرجه الطبراني والعقيلي . وابن عدى من رواية قدامة بن محمد الأشجعي عن إسماعيل بن شبيب الطائفي عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس بهذا وفي الباب عن ابن عمر رواه الترمذي وابن حبان في صحيحه ولفظه « سعد النبي صلى الله عليه وسلم المنبر فنادى بصوت رفيع : قال يامعشر من أسلم بلسانه ولم يقض الايمان إلى قلبه لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فانه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه ، ولو في جوف رحله » وعن أبي بردة عند أبي داود وأحمد والطبراني وأبي يعلى وعن البراء بن عازب عند أبي يعلى والبيهقي في الشعب في التاسع والستين من رواية مصعب بن سلام عن أبي إسحاق عن البراء . وعن ثوبان عند أحمد بلفظ « لا تؤذوا عباد الله ولا تعيروهم ولا تطلبوا عوراتهم فانه من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه في بيته » وعن يبردة عند الطبراني وابن مردويه ولفظه « صلينا الظهر خلف النبي صلى الله عليه وسلم فلما انقفل أقبل علينا غضبان فنادى بصوت أسمع العواتق في جوف الحذور فذكر نحوه .

(٢) أخرجه أبو داود وابن أبي شيبة وعبد الرزاق والطبراني والبيهقي في الشعب في الثاني والخمسين من طرق عن الأعمش عن زيد بن وهب قال « أتى ابن مسعود قبل له : هذا فلان تقطر لحيته خمرًا » (مطأ أبي داود والباقي نحوه . ورواه الحاكم والبراز من رواية أسباط عن الأعمش فقال فيه « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهانا عن التجسس » قال البراز تفرد به أسباط وقال ابن أبي حاتم عن أبي زرعة والترمذي عن البخاري : أخطأ فيه أسباط . والصحيح من رواية أبي معاوية وغيره عن الأعمش « إن الله نهانا »

(٣) قوله « كالغيلة من الاغتيال » كذا في الصحاح . وفيه يقال : قتله غيلة ، وهو أن يجده فيذهب به إلى

موضع فيقتله فيه . (ع)

(٤) متفق عليه من حديث أبي هريرة .

أى : فتحققت - بوجوب الإقرار عليكم وبأنكم لا تقدرون على دفعه وإنكاره : لإباء البشرية عليكم أن تجحدوه - كراحتكم له وتقذركم منه ، فليتحقق أيضاً أن تسكروها ما هو نظيره من الغيبة والظلم في أعراض المسلمين . وقرئ : فكرهتموه . أى : جبليتم على كراحتهم . فإن قلت : هلا عدى يالى كما عدى في قوله (وكره إليكم الكفر) وأيهما القياس ؟ قلت : القياس تعذبه بنفسه ، لأنه ذو مفعول واحد قبل تثقيب حشوه ، تقول : كرهت الشيء ، فإذا ثقل استدعى زيادة مفعول . وأما تعذبه يالى ، فتأول وإجراء لكره مجرى بغض ، لأن بغض منقول من بغض إليه الشيء . فهو بغض إليه ، كقولك : حب إليه الشيء فهو حبيب إليه . والمبالغة في الثواب للدلالة على كثرة من يتوب عليه من عباده ، أو لأنه مامن ذنب يعترفه المقترف إلا كان معفواً عنه بالتوبة . أو لأنه بليغ في قبول التوبة ، منزل صاحبها منزلة من لم يذنب قط ، لسعة كرمه . والمعنى : واتقوا الله بترك ما أمرتم باجتنابه والندم على ما وجد منكم منه ، فإنكم إن اتقيتم تقبل الله توبتكم وأنعم عليكم بثواب المتقين التائبين . وعن ابن عباس : أن سليمان كان يخدم رجلين من الصحابة ويسوى لهما طعامهما ، فنام عن شأنه يوماً ، فبعثاه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يبغي لهما إداماً ، وكان أسامة على طعام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما عندى شيء ، فأخبرهما سليمان بذلك ، فعند ذلك قال : لو بعثناه إلى بئر سميحة لغارماؤهما ، فلما راحا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهما : مالى أرى خضرة اللحم في أفواهكما ، فقالا : ما تناولنا لهما فقال : إنكما قد اغتبتما ^(١) فنزلت .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ

لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾

(من ذكر وأنثى) من آدم وحواء . وقيل : خلقنا كل واحد منكم من أب وأم ، فما منكم أحد إلا وهو يدلى بمنلى ما يدلى به الآخر سواء بسواء ، فلا وجه للتفاخر والتفاضل في النسب . والشعب : الطبقة الأولى من الطبقات الست التى عليها العرب ، وهى : الشعب ، والقبيلة ، والعمارة ، والبطن ، والفخذ ، والفصيلة ؛ فالشعب يجمع القبائل ، والقبيلة تجمع العمائر ، والعمارة تجمع البطون ، والبطن تجمع الفخاذ ، والفخذ تجمع الفصائل : خزيمة شعب ، وكثانة قبيلة ، وقريش عمارة ، وقصى بطن ، وهاشم فخذ ، والعباس فصيلة . وسميت الشعوب ؛

(١) هكذا ذكر الثعلبي وريعة بغير سند ولا راو . وفى الترغيب لأبى القاسم الإصبهاني من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى نحوه .

لأن القبائل تشعبت منها . وقرئ : لتعارفوا ، ولتعارفوا بالإدغام . ولتعرفوا ، أى لتعلموا كيف تتناسبون . ولتعرفوا . والمعنى : أن الحكمة التى من أجلها رتبكم على شعوب وقبائل هى أن يعرف بعضكم نسب بعض . فلا يعتزى إلى غير آبائه ، لا أن تتفاخروا بالآباء والأجداد ، وتدعوا التفاوت والتفاضل فى الانساب . ثم بين الخصلة التى بها يفضل الإنسان غيره ويكتسب الشرف والكرم عند الله تعالى فقال : ﴿ إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ وقرئ : أن ، بالفتح ، كأنه قيل : لم لا يتفاخر بالانساب ؟ فقيل : لأن أكرمكم عند الله أتقاكم لا أنسبكم . وعن النبى صلى الله عليه وسلم : أنه طاف يوم فتح مكة ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : الحمد لله الذى أذهب عنكم عيبة ^(١) الجاهلية وتكبرها ، يا أيها الناس ، إنما الناس رجلان : مؤمن تقي كريم على الله ، وفاجر شقي هين على الله ، ^(٢) ثم قرأ الآية . وعنه عليه السلام : من سرته أن يكون أكرم الناس فليقت الله ^(٣) . وعن ابن عباس : كرم الدنيا الفنى ، وكرم الآخرة التقوى . وعن يزيد بن شجرة : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سوق المدينة فرأى غلاماً أسوديقول : من اشتراى فعلى شرط لا يمنعنى عن الصلوات الخمس خلف رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، فاشتراه رجل فكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يراه عند كل صلاة ، ففقدته يوماً فسأل عنه صاحبه ، فقال : محموم ، فعاده ثم سأل عنه بعد ثلاثة أيام فقال : هو لما به ، فجاءه وهو فى ذماته ^(٤) ، فتولى غسله ودفنه ، فدخل على المهاجرين والأنصار أمر ^(٥) عظيم ، فزلت .

(١) قوله « عيبة الجاهلية » فى الصحاح : رجل فيه عيبة ، أى : كبر وتجبر . وعيبة الجاهلية : نخوتها . (ع)
(٢) أخرجه الترمذى وابن حبان وأبو يعلى وابن أبي حاتم من رواية عبد الله بن دينار عن ابن عمر . وفى الباب عن أبي هريرة أخرجه أبو داود والترمذى وأحمد والبخارى وابن المبارك فى البر والصلة من رواية سعيد بن أبى سعيد عن أبيه عنه نحوه . ومنهم من قال عن سعيد عن أبي هريرة : وعن عبد الملك بن قدامة الحافظى . حدثنى أبى أن النبى صلى الله عليه وسلم عام فتح مكة . صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد يا أيها الناس . فذكر نحوه وأخرجه .

(٣) أخرجه الحاكم والبيهقى وأبو يعلى وإسحاق وعبد الطبرانى وأبو نعيم فى الحلية كلهم من طريق هشام ابن زياد أبى المقدم عن محمد بن كعب عن ابن عباس وأئمته ، قال البيهقى فى الزهد : تكلموا فى هشام بسبب هذا الحديث ، وأنه كان يقول : حدثنى عن محمد بن كعب ثم ادعى أنه سمعه من محمد ، ثم أخرجه البيهقى من طريق عبد الجبار بن محمد المطاردى والد أحمد عن عبد الرحمن الطبرى بن القاسم بن هروة عن محمد بن كعب عن ابن عباس يرفع الحديث نحوه .

(٤) قوله « وهو فى ذماته » فى الصحاح « الذم » : مدود بقية الروح فى المذبح . (ع)

(٥) هكذا ذكره الثعلبى والواحدى بغير سند .

قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمْنَا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ
 الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا
 إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾

الإيمان : هو التصديق مع الثقة وطمأنينة النفس . والإسلام : الدخول في السلم . والخروج
 من أن يكون حرباً للمؤمنين بإظهار الشهادتين . ألا ترى إلى قوله تعالى (ولما يدخل الإيمان في
 قلوبكم) فاعلم أن ما يكون من الإقرار باللسان من غير مواطأة القلب فهو إسلام ، وما واطأ
 فيه القلب اللسان فهو إيمان . فإن قلت : ما وجه قوله تعالى (قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا)
 والذي يقتضيه نظم الكلام أن يقال : قل لا تقولوا آمنا ، ولكن قولوا أسلمنا . أو قل لم تؤمنوا
 ولكن أسلمتم ؟ قلت : أفاد هذا النظم تكذيب دعواهم أولاً ، ودفع ما انتحلوه ^(١) ، فقيل : قل
 لم تؤمنوا . وروعي في هذا النوع من التكذيب أدب حسن حين لم يصرح بلفظه ، فلم يقل :
 كذبتكم ، ووضع (لم تؤمنوا) الذي هو نفي ما ادعوا لإثباته موضعه ، ثم نبه على ما فعل من وضعه
 موضع كذبتكم في قوله في صفة المخلصين (أولئك هم الصادقون) تعريضاً بأن هؤلاء هم الكاذبون ،
 ورب تعريض ليقاومه التصريح ، واستغنى بالجملة التي هي (لم تؤمنوا) عن أن يقال : لا تقولوا
 آمنا ، لاستهجان أن يخاطبوا بلفظ مؤذاه النهي عن القول بالإيمان ، ثم وصلت بها الجملة
 المصدرة بكلمة الاستدراك محمولة على المعنى ، ولم يقل : ولكن أسلمتم . ليكون خارجاً مخرج
 الزعم والدعوى ، كما كان قولهم (آمنا) كذلك ، ولو قيل : ولكن أسلمتم ، لكان خروجه في
 معرض التسليم لهم والاعتداد بقولهم وهو غير معتد به . فإن قلت : قوله (ولما يدخل الإيمان
 في قلوبكم) بعد قوله تعالى (قل لم تؤمنوا) يشبه التكرير من غير استقلال بفائدة متجددة .
 قلت : ليس كذلك ، فإن فائدة قوله (لم تؤمنوا) هو تكذيب دعواهم ، وقوله (ولما يدخل
 الإيمان في قلوبكم) توقفت لها أمروا به أن يقولوه ، كأنه قيل لهم (ولكن قولوا أسلمنا) حين

(١) قال محمود : « وجه هذا النظم تكذيب دعواهم أولاً الخ » قال أحمد : ونظير هذا النظم ومراعاة هذه
 اللطيفة قوله تعالى (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله) ثم قال : (والله يشهد إن المنافقين لكاذبون)
 ولما كان مؤدى هذا تكذيب الله تعالى لهم في شهادتهم برسالة النبي صلى الله عليه وسلم قدم على ذلك مقدمة تلخص
 المقصود وتخلصه من حوادث الوهم ونوابه ، فقال بين الكلامين ، (والله يعلم إنك لرسول) ، ثم قال بعد ذلك :
 (والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) فتلخص من ذلك أنهم كذبوا فيما ادعوه من شهادة فلو بهم بالحق ؛ لأن ذلك
 حقيقة الشهادة ، لأنهم كذبوا في أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رسول من الله وكان المخلص من ذلك قوله جل
 وعلا (والله يعلم إنك لرسول) .

لم تثبت مواطاة قلوبكم لألسنتكم ؛ لأنه كلام واقع موقع الحال من الضمير في (قولوا) وما في (لما) من معنى التوقع : دال على أن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد (لا يلتكم) لا ينقصكم ولا يظلمكم . يقال : ألته السلطان حقه أشد الألت ، وهي لغة غطفان . ولغة أسد وأهل الحجاز : لاته ليتا . وحكى الأصمعي عن أم هشام السلولية أنها قالت : الحمد لله الذي لا يفات ولا يلات ، ولا تصمه الأصوات^(١) . وقرئ باللغتين : لا يلتكم ، ولا يأتكم . ونحوه في المعنى (فلا تظلم نفس شيئاً) . ومعنى طاعة الله ورسوله : أن يتوبوا عما كانوا عليه من النفاق ويعقدوا قلوبهم على الإيمان ويعملوا بمقتضياته ، فإن فعلوا ذلك تقبل الله توبتهم ، ووهب لهم مغفرته ، وأنعم عليهم بمجزيل ثوابه . وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن نقرأ من بنى أسد قدموا المدينة في ستة جدبة ، فأظهروا الشهادة ، وأفسدوا طرق المدينة بالعذرات ، وأغلوا أسعارها ، وهم يغدون ويروحون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقولون : أئتتك العرب بأنفسها على ظهور رواحلها ، وجئتاك بالأنقال والذراري ، يريدون الصدقة ويمنون عليه ، فنزلت .

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾

ارتاب : مطاوع رابه إذا أوقعه في الشك مع التهمة . والمعنى : أنهم آمنوا ثم لم يقع في نفوسهم شك فيما آمنوا به ، ولا اتهم لمن صدقوه واعترفوا بأن الحق منه . فإن قلت : مامعنى ثم مهنا وهي للتراخي وعدم الارتباب يجب أن يكون مقارنا للإيمان لأنه وصف فيه ، لما يفت من إفادة الإيمان معنى الثقة والطمأنينة التي حقيقتها التيقن وانتفاء الريب ؟ قلت : الجواب على طريقتين ، أحدهما أن من وجد منه الإيمان ربما اعترضه الشيطان أو بعض المضلين بعد تلج الصدر فشككه وقذف في قلبه ما يلم يقينه ، أو نظر هو نظراً غير سديد يسقط به على الشك ثم يستمر على ذلك راكباً رأسه لا يطلب له مخرجاً ، فوصف المؤمنون حقاً بالبعد عن هذه المواقف . ونظيره قوله (ثم استقاموا) والثاني : أن الإيقان وزوال الريب لما كان ملاك الإيمان أفرد بالذكر بعد تقدم الإيمان ، تنبيهاً على مكانته ؛ وعطف على الإيمان بكلمة التراخي إشعاراً باستقراره في الأزمنة المتطاولة غصاً جديداً (وجاهدوا) يجوز أن يكون المجاهد منوباً وهو العدو المحارب أو الشيطان أو الهوى ، وأن يكون جاهد مبالغة في جهد . ويجوز أن يراد بالمجاهدة بالنفس : الغزو ، وأن يتناول العبادات بأجمعها ، وبالمجاهدة بالمال : نحو

(١) قوله «ولا تصمه الأصوات» إن كان من الوصم فالمعنى : لا تصدعه الأصوات ولا تعيه ، وإن كان من الصم فالمعنى : لا تعمد أصم . وفي الصحاح «الوصم» : الصدع والعيب . وفيه «أصمته» : وجده أصم . (ع)

ما صنع عثمان رضى الله عنه في جيش العسرة ، وأن يتناول الزكوات وكل ما يتعلق بالمال من أعمال البر التي يتحامل فيها الرجل على ماله لوجه الله تعالى ﴿ أولئك هم الصادقون ﴾ الذين صدقوا في قولهم آمنا ، ولم يكذبوا كما كذب أعراب بنى أسد . أو هم الذين إيمانهم إيمان صدق وإيمان حق وجد وثبات .

قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾

يقال : ما علمت بقومك ، أى : ما شعرت به ولا أحظت به . ومنه قوله تعالى ﴿ أتعلمون الله بدِينكم ﴾ وفيه تجهيل لهم .

يُحْمِئُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَتَمُّوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ
أَنْ هَذَا كُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

يقال : من عليه يد أسداها إليه ، كقولك : أنعم عليه وأفضل عليه . والمنته : النعمة التي لا يستتبع مسديها من يزها إليه ^(١) ؛ واشتقاقها من المن الذي هو القطع ، لأنه إنما يسديها إليه ليقطع بها حاجته لا غير ، من غير أن يعمد لطلب مشوبة . ثم يقال : من عليه صنعه ، إذا اعتده عليه منه وإنعاما . وسياق هذه الآية فيه لطف ورشاقة ، وذلك أن الكائن من الأعراب قد سماه الله إسلاما ، ونفى أن يكون كما زعموا إيمانا ؛ فلما منوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان منهم قال الله سبحانه وتعالى لرسوله عليه السلام : إن هؤلاء يعتدون عليك بما ليس جديراً بالاعتداد به من حدثهم الذي حق تسميته أن يقال له إسلام ، فقل لهم : لا تعتدوا على إسلامكم ، أى حدثكم المسمى إسلاما عندى لا إيمانا . ثم قال : بل الله يعتد عليكم أن أمدكم بتوفيقه حيث هذاكم للإيمان على ما زعمتم وادعيتم أنكم أرشدتم إليه ووقفتم له إن صح زعمكم وصدقت دعواكم ، إلا أنكم تزعمون وتدعون ما الله عليم بخلافه . وفي إضافة الإسلام إليهم وإيراد الإيمان غير مضاف : ما لا يخفى على المتأمل ، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه ، تقديره : إن كنتم صادقين في ادعائكم الإيمان ، فله المنته عليكم . وقرئ : إن هذاكم ، بكسر الهمزة .

(١) قوله « من يزها إليه » في الصحاح : أزلت إليه نعمته ، أى : أستديتها إليه . وفي الحديث « من أزلت إليه نعمة فليذكرها » وأزلت شيئا من حقه ، أى : أعطيت له . (ع)

وفي قراءة ابن مسعود رضى الله عنه : إذ هذا كم . وقرئ : تملنون ، بالتاء والياء ، وهذا بيان لكونهم غير صادقين في دعواهم ، يعنى أنه عز وجل يعلم كل مستتر في العالم ويبصر كل عمل تعملونه في سرهم وعلايتكم ، لا يخفى عليه منه شيء ، فكيف يخفى عليه ما في ضمائرهم ولا يظهر على صدقكم وكذبكم ، وذلك أن خاله مع كل معلوم واحدة لا تختلف .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة الحجرات أعطى من الأجر بعدد من أطاع الله وعصاه » (١) .

سورة ق

مكية [إلا آية ٣٨ فدينية]

وآياتها ٤٥ [نزلت بعد المرسلات]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ ① بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ

الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ② أَوَدَّ آمِنْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ③

الكلام في ﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ① ﴾ نحوهم في (ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا) سواء بسواء ، لا لتقائهما في أسلوب واحد . والمجيد : ذو المجد والشرف على غيره من الكتب ، ومن أحاط علماً بمعانيه وعمل بما فيه : مجد عند الله وعند الناس ، وهو بسبب من الله المجيد ، فجاز اتصافه بصفته . قوله بَلْ عَجِبُوا ﴿ أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ﴾ إنكار لتعجبهم بما ليس بعجب ، وهو أن ينذرم بالخوف رجل منهم قد عرفوا وساطته فيهم وعدالته وأمانته ، ومن كان على صفته لم يكن إلا ناصحاً أقومهم مترفعاً (٢) عليهم ، خائفاً أن ينالهم سوء ويحل بهم مكروه ، وإذا علم أن خَوْفاً أظلمهم ، لومه أن

(١) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدى من طرق عن أبي بن كعب به .

(٢) قوله « مترفعاً عليهم » في الصحاح : فلان برقا ، أى : بموطن . ورفرف الطائر : إذا حرك جناحيه حول الشيء يريد أن يقع عليه . ورف لونه بالقاء ، رقا ورفيفا : برق وتلاؤلا . وثوب رفيف وفجر رفيف : إذا تدانت أوراقه . وفيه أيضا : تفرق الشيء بالقاء : تلاؤلا . (ع)

ينذرهم ويحذرهم ، فكيف بما هو غاية المخاوف ونهاية المحاذير . وإنكار تعجبهم بما أنذرهم به من البعث ، مع علمهم بقدرة الله تعالى على خلق السموات والأرض وما بينهما ، وعلى اختراع كل شيء . وإبداعه ، وإقرارهم بالنشأة الأولى ، ومع شهادة العقل بأنه لا بد من الجزاء . ثم عول على أحد الإنكارين بقوله تعالى ﴿ فقال الكافرون هذا شيء عجيب ، أنذا متنا ﴾ دلالة على أن تعجبهم من البعث أدخل في الاستبعاد وأحق بالإنكار ، ووضع الكافرون موضع الضمير للشهادة على أنهم في قولهم هذا مقدمون على الكفر العظيم . وهذا إشارة إلى الرجوع ؛ وإذا منصوب بضمير : معناه : أحين نموت ونبلى نرجع ؟ ﴿ ذلك رجوع بعيد ﴾ مستبعد مستنكر ، كقولك : هذا قول بعيد . وقد أبعد فلان في قوله . ومعناه : بعيد من الوهم والعادة . ويجوز أن يكون الرجوع بمعنى المرجوع . وهو الجواب ، ويكون من كلام الله تعالى استبعاداً لإنكارهم ما أنذروا به من البعث ، والوقف قبله على هذا التفسير حسن . وقرئ : إذا متنا ، على لفظ الخبر ، ومعناه : إذا متنا بعد أن نرجع ، والدال عليه ﴿ ذلك رجوع بعيد ﴾ . فإن قلت : فما ناسب الظرف إذا كان الرجوع بمعنى المرجوع ؟ قلت : ما دل عليه المنذر من المنذره ، وهو البعث .

قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ ٤

﴿ قد علمنا ﴾ رد لاستبعادهم الرجوع ، لأن من لطف عليه حتى تغفل إلى ما تنقص الأرض من أجساد الموتى وتأكله من لحومهم وعظامهم ، كان قادراً على رجوعهم أحياء كما كانوا . عن النبي صلى الله عليه وسلم : كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب ، ^(١) وعن السدي ﴿ ما تنقص الأرض منهم ﴾ ما يموت فيدفن في الأرض منهم ﴿ كتاب حفيظ ﴾ محفوظ من الشياطين ومن التغير ، وهو اللوح المحفوظ . أو حافظ لما أودعه وكتب فيه .

بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ٥

﴿ بل كذبوا ﴾ إضراب أتبع الإضراب الأول ، للدلالة على أنهم جاؤا بما هو أفظع من تعجبهم ؛ وهو التكذيب بالحق الذي هو النبوة الثابتة بالمعجزات في أول وهلة من غير تفكير ولا تدبر ﴿ فهم في أمر مريج ﴾ مضطرب . يقال : مرج الخاتم في أصبعه ورجرج ؛ فيقولون تارة : شاعر ، وتارة : ساحر ، وتارة : كاهن ، لا يثبتون على شيء واحد . وقرئ : لما جاءهم ، بكسر اللام وما المصدرية ، واللام هي التي في قولهم لخمس خلون ، أى : عند مجيئ إياهم ، وقيل (الحق) : القرآن . وقيل : الإخبار بالبعث .

(١) متفق عليه من حديث أبي صالح عن أبي هريرة وأخرجه الحاكم من حديث أبي سعيد ، وزاد وقالوا : ما هو يا رسول الله ؟ قال : هو مثل حبة الخردل ، منه ينبتون .

أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ⑥
 (أفلم ينظروا) حين كفروا بالبعث إلى آثار قدرة الله في خلق العالم (بنيناها) رفعناها
 بغير عمد (من فروج) من فتوق: يعنى أنها ملساء سليمة من العيوب لا فتق فيها ولا صدع ولا
 خلل، كقوله تعالى: (هل ترى من فطور).

وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ

زَوْجٍ بَهِيجٍ ⑦ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ⑧

(مددناها) دحوناها (رواسي) جبالا ثوابت لولا هي لتكفأت (من كل زوج) من
 كل صنف (بهيج) يبتهج به لحسنه (تبصرة وذكرى) لتبصر به وتذكر كل (عبد منيب)
 راجع إلى ربه، مفكر في بدائع خلقه. وقرئ: تبصرة وذكرى بالرفع، أى: خلقها تبصرة.

وَزَلَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ⑨

وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ⑩ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا

كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ⑪

(ماء مباركا) كثير المنافع (وحب الحصيد) وحب الزرع الذى من شأنه أن يحصد،
 وهو ما يقتات به من نحو الحنطة والشعير وغيرهما (باسقات) طوالا في السماء: وفي قراءة
 رسول الله صلى الله عليه وسلم: باسقات. بإبدال السين صادًا لأجل القاف (نضيد) منضود
 بعضه فوق بعض: إما أن يراد كثرة الطلع وتراكمه: أو كثرة ما فيه من الثمر (رزقا) على
 أنبتائها رزقا، لأن الإنبات في معنى الرزق. أو على أنه مفعول له، أى: أنبتناها لترزقهم
 (كذلك الخروج) كاحييت هذه البلدة الميتة. كذلك تخرجون أحياء بعد موتكم، والكاف
 في محل الرفع على الابتداء:

كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَنَمُودُ ⑫ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ

لُوطٍ ⑬ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ ⑭

أراد بفرعون قومه كقوله تعالى (من فرعون وملته) لأن المعطوف عليه قوم نوح،
 والمعطوفات جماعات (كل) يجوز أن يراد به كل واحد منهم، وأن يراد جميعهم، إلا أنه وحد

الضمير الراجع إليه على اللفظ دون المعنى (لحق وعيد) فوجب وحل وعيدى ، وهو كلمة العذاب . وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتهديد لهم .

أَفَمَيَّنَّا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥)

عبي بالامر : إذا لم يهتد لوجه عمله ، والهزمة للإنكار . والمعنى : أنا لم نعجز كما علموا عن الخلق الأول ، حتى نعجز عن الثاني ، ثم قال : هم لا ينكرون ^(١) قدرتنا على الخلق الأول ، واعتراهم بذلك في طيه الاعتراف بالقدرة على الإعادة (بل هم في لبس) أى في خلط وشبهة . قد لبس عليهم الشيطان وحيرهم . ومنه قول علي رضي الله عنه : يا حار ^(٢) إنه لللبوس عليك ، أعرف الحق تعرف أهله . ولبس الشيطان عليهم : تسويله إليهم أن إحياء الموتى أمر خارج عن العادة ، فتركوا لذلك القياس الصحيح : أن من قدر على الإنشاء كان على الإعادة أقدر . فإن قلت : لم نكر الخلق الجديد ، ^(٣) وهلا عترف كما عترف الخلق الأول ؟ قلت : قصد في تنكيره إلى خلق جديد له شأن عظيم وحال شديد ، حق من سمع به أن يهتم به ويخاف ، ويبحث عنه ولا يقعد على لبس في مثله .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ

حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦)

(١) قوله «ثم قال هم لا ينكرون» يعنى كأنه قال ذلك بموتة الاضراب . وقوله «في طيه ... الخ» أى يلزمه ذلك وإن لم يقع منهم اللبس . (ع)

(٢) قوله «يا حار إنه لللبوس» لهه ترغيم حارث . (ع)

(٣) وقع في النسخة ما أحكيه وصورته : «فإن قلت لم نكر الخلق الجديد ... الخ» قال أحد : هذا كلام كما تراه غير منتظم ، والظاهر أنه لفساد في النسخة ، والذي يتحرر في الآية - وهو مقتضى تفسير الرخشري : أن فيها أسئلة ثلاثة : لم عرف الخلق الأول ونكر اللبس والخلق الجديد ؟ فاعلم أن التعريف لا غرض منه إلا تقخير ما قصد تعريفه وتعتيمه ، ومنه تعريف الذكور في قوله (وبهم لمن يشاء الذكور) ولهذا المقصد عرف الخلق الأول : لأن الغرض جملة دليلا على إمكان الخلق الثاني بطريق الأولى أى إذا لم يمتى تعالى بالخلق الأول على عظمت ، فالخلق الآخر أولى أن لا يمىأ به ؛ فهذا سر تعريف الخلق الأول . وأما التنكير فأمره منقسم : فمرة يقصد به تقخير المنكر من حيث ما فيه من الإبهام ، كأنه أنعم من أن يخاطبه معرفة ؛ ومرة يقصد به التقليل من المنكر والوضع منه ، وعلى الأول (سلام قولاً من رب رحيم) وقوله (لم مغفرة وأجر عظيم) و (إنا المتقين في جنات ونعيم) وقوله (يا أيها الذين آمنوا) وهو أكثر من أن يحصى . والثاني : هو الأصل في التنكير ، فلا يحتاج إلى تمثله ، فتذكير اللبس من التعتيم والتقخير ، كأنه قال : في لبس أى لبس : وتنكير الخلق الجديد للتقليل منه والتهوين لأمره بالنسبة إلى الخلق الأول ، ويحتمل أن يكون للتنعيم ، كأنه أمر أعظم من أن يرضى الإنسان بكونه ملتبساً عليه ، مع أنه أول ما تبصر فيه صحته ، ولعل إشارة الرخشري إلى هذا والله أعلم ، فهذا كما تراه كلام مناسب لاستطراف أسئلة وأجوبة ، فإن يكن هو ما أراده الرخشري فذاك ، وإلا فالعقل العسل ولا تسل .

الوسوسة : الصوت الخفى . ومنها : وسواس الحلى . ووسوسة النفس : ما يخطر ببال الإنسان ويهيج في ضميره من حديث النفس . والباء مثلها في قولك : صوت بكذا وهمس به . ويجوز أن تكون للتعدية والضمير للإنسان ، أى : ما تجعله موسوسا ، وما مصدرية ، لأنهم يقولون : حدث نفسه بكذا ، كما يقولون : حدثته به نفسه . قال :

• وَأَكْذِبِ النَّفْسَ إِذَا حَدَّثَتْهَا ^(١) •

(ونحن أقرب إليه) مجاز ، والمراد : قرب عليه منه ، وأنه يتعلق بمعلومه منه ومن أحواله تعلقا لا يخفى عليه شيء من خفياته ، فكأن ذاته قريبة منه ، كما يقال : الله فى كل مكان ، وقد جل عن الأمكنة . وحبل الوريد : مثل فى فرط القرب ، كقولهم : هو منى مقعد القابلة ومعقد الإزار . وقال ذو الرمة :

• وَالْمَوْتُ أَذْنَى لِي مِنَ الْوَرِيدِ • ^(٢)

والحبل : العرق ، شبه بواحد الحبال . ألا ترى إلى قوله :

(١) واكذب النفس إذا حدثها إن صدق النفس يروى بالآمل
غير أن لا تكذبها فى التقي واخرها بالبر لله الآجل

للبيد بن ربيعة ، وسئل بشار : أى بيت قالته العرب أشعر ؟ فقال تفضيل بيت واحد على الشعر كله غير شديد ، ولكنه أحسن لييد فى قوله : واكذب النفس ، يقال : كذبه وصدقه مخففاً ومشدداً ، بمعنى . وما هنا من الأول للوزن ، أى : لا تصدقها إذا حدثتك بأمر وحدثتها فيه ؛ لأنها مشبوبة عن نيل الفضائل . طاعة إلى الرذائل ، وهذا معنى «إن صدق النفس» أى : تصديقها ، يروى بالآمل . يقال : ذراه ، إذا عابه . وأذرى به : إذا أوقع به العيب ، غير أنه الحال والشأن لا تكذبها فى تحدثها إياك بالتقى . والخوف من الله ، فان مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن . ويجوز أنه ضمير المخاطب ، ولا نافية ، وإجراء الكلام على الاستثناء يحتاج إلى تكلف فى بيان المستثنى والمستثنى منه ، ويمكن إجراؤه على الاستدراك ؛ لكن نصب «غير» يحتاج إلى الحل على الاستثناء ، ويحتمل أن تكون «أن» مصدرية «ولام نافية أو زائدة ، لكن تأكيد الفعل بالنون بعد النهى كثير ، وبعد الننى قليل ، ومع الانبات فى هذا شاذ أو ضرورة ، ولابد من إجراء الكلام بهذا الوجه على الاستثناء معنى ولفظاً . وقد قال القسطلانى فى شرح صحيح البخارى باحتمال النهى والزيادة . وبعضهم باحتمال الننى فى قوله صلى الله عليه وسلم لعائشة حين حاضت فى الحج : «فاقتضى ما يقتضى الحاج غير أن لا تطوفى بالبيت» وخزاه يخزوه : قهره وغلبه ، أى : وأقهرها بالخير لله الآجل الأعظم ، وكان فى البر قهراً لها لمشقته عليها عادة .

(٢) هل أعدوت فى عيشة رغيد والموت أذن لى من الوريد

لدى الرمة . والاستفهام إنكارى ، أى : لا أكون فى عيشة واسعة والحال أن الموت أقرب لى من الوريد . وروى : أوفى . والمعنى واحد . والوريدان : عرقان فى مقدم صفحتى العنق ، سميا بذلك لأنهما يردان من الرأس . أو لأن الروح تردهما . وقال : عيشة رغيد ، كقول الله تعالى (إن رحمة الله قريب) وإن كان قليلاً فى فعل بمعنى فاعل .

* كَأَن وَّرِيدَهُ رِشَاءٌ خُلِبَ * (١)

والوريدان : عرقان مكتنفان لصفحتي العنق في مقدمهما متصلان بالوتين ، يردان من الرأس إليه . وقيل : سمى وريدا لأن الروح ترده . فإن قلت : ما وجه إضافة الجبل إلى الوريد ، والشيء لا يضاف إلى نفسه ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن تكون الإضافة لليان ، كقولهم : بعير سانية . والثاني : أن يراد جبل العاتق فيضاف إلى الوريد ، كما يضاف إلى العاتق لاجتماعهما في عضو واحد ، كما لو قيل : جبل العليا (٢) مثلا .

إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّمَانِ عَنِ الْعَمِينَ وَعَنِ الشَّمَالِ قَصِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨)

(إذ) منصوب بأقرب ، وساغ ذلك لأن المعاني تعمل في الظرف متقدمة ومتأخرة : والمعنى : أنه لطيف يتوصل علمه إلى خطرات النفس وما لا شيء أخفى منه ، وهو أقرب من الإنسان (٣) من كل قريب حين يتلقى الحفيظان ما يتلفظ به ، إيذانا بأن استحفاظ الملكين أمر هو غنى عنه ؛ وكيف لا يستغنى عنه وهو مطلع على أخفى الحفريات ؟ وإنما ذلك لحكمة اقتضت ذلك : وهي ما في كتبه الملكين وحفظهما ، وعرض صحائف العمل يوم يقوم الأشهاد . وعلم العبد بذلك مع علمه بإحاطة الله بعمله : من زيادة لطف له في الانتهاء عن السيئات والرغبة في الحسنات . وعن النبي صلى الله عليه وسلم « إن مقعد ملكيك على نيتيك ، ولسانك قلبهما ، وربقك مدادهما ، وأنت تجرى فيما لا يعينك لا تستحي من الله تعالى ولا منهما » (٤) ويجوز أن يكون تلقى الملكين بيانا للقرب ، يعني : ونحن قريبون منه مطلعون على أحواله مهيمنون عليه ، إذ حفظتنا وكتبتنا موكلون به ، والتلقى : التلقن بالحفظ والكتابة . والقعيد : القاعد ،

(١) غضنفر تلقاه عند الغضب كأن وريديه رشا.ا خلب

لرؤبة . والغضنفر : الأسد . والوريدان : عرقان يردان من الرأس يكتنفان الحلقوم . وقيل : تردهما الروح . والرشاءان : جبلان للاستقاء . والخلب - بضمين ، وقد يسكن - : اللب والماء المخلوط بالطين . ويجوز أن يراد به هنا البئر الكدرة : شبه الفجاء بالأسد ، وشبه وريديه عند الغضب بالرشامين ، وكان هنا عاملة ، وهي مخففة ، وهو قليل ، والكثير إماما .

(٢) قوله « لو قيل جبل العليا » ، هي عصب العنق ، كما في الصحاح . (ع)

(٣) قوله « وهو أقرب من الإنسان » يقال : قرب من الشيء . كما يقال : قرب إليه . (ع)

(٤) أخرجه التلعي من رواية جميل بن الحسن عن أرواه بن الأشعث العدوي عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « مقعد ملكيك » فذكره .

كالجلس بمعنى الجالس ، وتقديره : عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد من المتلفين ، فترك أحدهما لدلالة الثاني عليه ، كقوله :

... كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدِي بَرِيًّا ... (١)

(رقيب) ملك يرقب عمله (عتيد) حاضر ، واختلف فيما يكتب للملكان ، فقيل : يكتبان كل شيء حتى أنينه في مرضه . وقيل : لا يكتبان إلا ما يؤجر عليه أو يؤزر به . ويدل عليه قوله عليه السلام : كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيئات على يسار الرجل ، وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات ، فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشرأ ، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال : دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر ، (٢) وقيل : إن الملائكة يحتنبون الإنسان عند غائظه وعند جماعه . وقرئ : ما يلفظ ، على البناء للفعول .

وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي

الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١)

لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢)

لما ذكر إنكارهم البعث واحتج عليهم بوصف قدرته وعلمه ، أعلمهم أن ما أنكروه وجحدوه هم لا قوه عن قريب عند موتهم وعند قيام الساعة ، ونبه على اقتراب ذلك بأن عبر عنه بلفظ الماضي . وهو قوله (وجاءت سكرة الموت بالحق) ونفخ في الصور ، وسكرة الموت : شدته الذاهبة بالعقل . والباء في بالحق للتعدية ، يعني : وأحضرت سكرة الموت حقيقة الأمر الذي أنطق الله به كتبه وبعث به رسله . أو حقيقة الأمر وجلية الحال : من سعادة الميت وشقاوته . وقيل : الحق الذي خلق له الإنسان ، من أن كل نفس ذائقة الموت . ويجوز أن تكون الباء مثلها في قوله (تنبت بالدهن) أي وجاءت ملتبسة بالحق ، أي : بحقيقة الأمر . أو

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة ٥٢ فراجع إن شئت اهـ مصححه .

(٢) أخرجه الشطبي والبنوي من طريق جعفر عن القاسم عن أبي أمامة . ومن هذا الوجه أخرجه الطبراني . وأخرجه البيهقي من هذا الوجه . ومن رواية بشر بن نعيم عن القاسم نحوه . وأخرجه الطبراني من رواية ثور بن يزيد عن القاسم نحوه . وروى أبو نعيم في الحلية وابن مردويه عن طريق إسماعيل بن عياش عن عاصم بن رجاء عن عروة بن ربيع ، عن القاسم عن أبي أمامة وعند الطبري عن طريق علي بن جرير عن حماد بن سلمة عن عبد الحميد بن جعفر عن كنانة ، قال ودخل عثمان بن عفان على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : يا رسول الله ، كم مع العبد ملك ؟ - الحديث .

بالحكمة والغرض الصحيح ، كقوله تعالى (خلق السموات والأرض بالحق) وقرأ أبو بكر وابن مسعود رضي الله عنهما : سكرة الحق بالموت ، على إضافة السكرة إلى الحق والدلالة على أنها السكرة التي كتبت على الإنسان وأوجبت له ، وأنها حكمة ، والباء للتعدية ؛ لأنها سبب زهوق الروح لشدها ، أو لأن الموت يعقبها ؛ فسكانها جاءت به . ويجوز أن يكون المعنى : جاءت معها الموت . وقيل سكرة الحق سكرة الله ، أضيفت إليه تفضيلاً لشأنها وتهويلاً . وقرئ : سكرات الموت (ذلك) إشارة إلى الموت ، والخطاب للإنسان في قوله (ولقد خلقنا الإنسان) على طريق الالتفات . أو إلى الحق والخطاب للفاجر (تجيد) تنفر وتهرب . وعن بعضهم : أنه سأل زيد بن أسلم عن ذلك فقال : الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لحكاية لصالح بن كيسان فقال : والله ما سن عالية ولا لسان فصيح ولا معرفة بكلام العرب ، هو للكافر . ثم حكاهما للحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس فقال : أخالفهما جميعاً : هو للبر والفاجر (ذلك يوم الوعيد) على تقدير حذف المضاف ، أي : وقت ذلك يوم الوعيد ، والإشارة إلى مصدر نفخ (سائق وشهيد) ملكان : أحدهما يسوقه إلى المحشر ، والآخر يشهد عليه بعمله . أو ملك واحد جامع بين الأمرين ، كأنه قيل : معها ملك يسوقها ويشهد عليها ؛ وعمل (معها سائق) النصب على الحال من كل تعزفه بالإضافة إلى ما هو في حكم المعرفة . قرئ : لقد كنت . عنك غطاءك فيصرك ، بالكسر على خطاب النفس ، أي : يقال لها لقد كنت . جعلت الغفلة كأنها غطاء غطى به جسده كله أو غشاوة غطى بها عينيه فهو لا يبصر شيئاً ؛ فإذا كان يوم القيامة تيقظ وزالت الغفلة عنه وغطاؤها فيبصر ما لم يبصره من الحق . ورجع بصره الكليل عن الإبصار لغفلته : حديداً لتيقظه .

وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٍ ۖ

(وقال قرينه) هو الشيطان الذي قبض له في قوله (نقيض له شيطاناً فهو له قرين) يشهد له قوله تعالى (قال قرينه ربنا ما أطغيته) . (هذا مالدى عتيد) هذا شئ لدى وفي ملكتي عتيد لجهنم . والمعنى : أن ملكاً يسوقه وآخر يشهد عليه ، وشيطاناً مقروناً به ، يقول : قد أعدت لجهنم وهياتها لها ياغوائى وإضلالى . فإن قلت : كيف إعراب هذا السلام ؟ قلت : إن جعلت (ما) موصوفة ، فعتيد : صفة لها ؛ وإن جعلتها موصولة ، فهو بدل ، أو خبر بعد خبر . أو خبر مبتدأ محذوف .

أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلُّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۖ

٢٤

مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ۖ

الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ۖ

٢٥

٢٦

(ألقيا) خطاب من الله تعالى للمساكين السابقين : السائق والشهيد : ويجوز أن يكون خطابا للواحد على وجهين : أحدهما قول المبرد : أن تثنية الفاعل نزلت منزلة تثنية الفعل لاتحادهما ، كأنه قيل : ألقى ألقى : للتأكيد . والثاني : أن العرب أكثر ما يرافق الرجل منهم اثنان ، فكثير على ألسنتهم أن يقولوا : خليلي وصاحبي ، وقفا وأسعدا ، حتى خاطبوا الواحد خطاب الاثنين عن الحاجة أنه كان يقول : يا حرسى ، اضربا عنقه . وقرأ الحسن : ألقين ، بالنون الخفيفة . ويجوز أن تكون الآلف في (ألقيا) بدلا من النون : إجراء للوصول مجرى الوقف (عند) معاند بجانب للحق معاد لأهله (مناع للخير) كثير المنع للمال عن حقوقه ، جعل ذلك عادة له لا يبذل منه شيئا قط . أو مناع لجنس الخير أن يصل إلى أهله يحول بينه وبينهم . قيل : نزلت في الوليد بن المغيرة ، كان يمنع بنى أخيه من الإسلام ، وكان يقول : من دخل منكم فيه لم أنفعه بخير ما عشت (معتد) ظالم متخط للحق (مريب) شك في الله وفي دينه (الذى جعل) مبتدأ مضمن معنى الشرط ، ولذلك أوجب بالفاء . ويجوز أن يكون (الذى جعل) منصوبا بدلا من (كل كفار) ويكون (فألقياه) تكريرا للتوكيد .

قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧)

فإن قلت : لم أخليت هذه الجملة عن الواو وأدخلت على الأولى ؟ قلت : لأنها استوفت كما تستأنف الجمل الواقعة في حكاية التقاول كما رأيت في حكاية المقابلة بين موسى وفرعون . فإن قلت : فأين التقاول ههنا ؟ قلت : لما قال قرينه (هذا مالدى عتيد) وتبعه قوله (قال قرينه ربنا ما أطغيته) وتلاه (لا تختصموا لى) : علم أن ثم مقابلة من الكافر ، لكنها طرحت لمسايد عليها ، كأنه قال : رب هو أطغانى ، فقال قرينه : ربنا ما أطغيته . وأما الجملة الأولى فواجب عطفها للدلالة على الجمع بين معناها ومعنى ما قبلها في الحصول ، أعنى مجيء كل نفس مع الممسكين : وقول قرينه ما قال له (ما أطغيته) ما جعلته طاغيا ، وما أوقعته في الطغيان ، ولكنه طغى واختار الضلالة على الهدى كقوله تعالى : (وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى) .

قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّْ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبْدِلُ الْقَوْلُ

لَدَيَّْ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٢٩)

(قال لا تختصموا) استئناف مثل قوله (قال قرينه) كأن قائلا قال : فإذا قال الله ؟ فقيل : قال لا تختصموا . والمعنى : لا تختصموا في دار الجزاء وموقف الحساب ، فلا فائدة في اختصاصكم ولا طائل تحته ، وقد أوعدكم بعذابى على الطغيان في كتبى وعلى السنة رسلى ، فما تركت لكم

حجة علىّ، ثم قال : لا تطمعوا أن أبدل قولي ووعيدي فأعفيكم عما أوعدتكم به (وما أنا بظلام للعبيد) فأعذب من ليس يستوجب للعذاب . والباء في (بالوعيد) مزيدة مثلها في (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) أو معدية ، على أن «قدم» مطاوع بمعنى «تقدم» ، ويجوز أن يقع الفعل على جملة قوله (ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد) ويكون (بالوعيد) حالا ، أى : قدمت إليكم هذا ملتبساً بالوعيد مقترباً به . أو قدمته إليكم موعداً لكم به . فإن قلت : إن قوله (وقد قدمت إليكم) واقع موقع الحال من (لا تحتصموا) والتقديم بالوعيد في الدنيا والخصومة في الآخرة واجتماعها في زمان واحد واجب . قلت : معناه ولا تحتصموا وقد صح عندكم أني قدمت إليكم بالوعيد ، وصحة ذلك عندهم في الآخرة . فإن قلت : كيف قال (بظلام) على لفظ المبالغة ^(١) ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن يكون من قولك : هو ظالم لعبده ، وظلام لعبيده . والثاني : أن يراد لو عذبت من لا يستحق العذاب لكنت ظلاماً مفرط الظلم ، فتى ذلك .

يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ٣٠

قرئ : نقول ، بالنون والياء . وعن سعيد بن جبير : يوم يقول الله لجهنم . وعن ابن مسعود والحسن : يقال . وانتصاب اليوم بظلام أو بمضمّر ، نحو : أذكر وأنذر . ويجوز أن ينتصب بنفخ ، كأنه قيل . ونفخ في الصور يوم نقول لجهنم . وعلى هذا يشار بذلك إلى يوم نقول ولا يقدر حذف المضاف . وسؤال جهنم وجوابها من باب التخييل ^(٢) الذي يقصد به تصوير

(١) قال محمود : «إن قلت كيف جاء على لفظ المبالغة ... الخ» قال أحمد : وذكر فيه وجهان آخران ، أحدهما أن فعلاً قد ورد بمعنى فاعل ، فهذا منه . الثاني : أن المنسوب في المعتاد إلى الملوك من الظلم تحت ظلمهم : إن عظمياً فظلم ، وإن قليلاً فقتل ، فلما كان ملك الله تعالى على كل شيء . ملكه قدس ذاته عما يتوهم مخذول والعباد بالله أنه منسوب إليه من ظلم تحت شمول كل موجود ؛ ولقد بدل القدرة فتوهموا أن الله تعالى لم يأمر إلا بما أراده وبما هو من خلق العبد ، بناء على أنه لو كلف على خلاف ما أراد وبما ليس من خلق العبد لكان تكليفاً بما لا يطاق ، واعتقدوا أن ذلك ظلم في الشاهد ، فلو ثبت في الغائب لكان كما هو في الشاهد ظلاماً ، والله تعالى مبرا من الظلم . ألا ترى هذا المعتقد كيف لازمهم عليه أن يكون الله تعالى ظلاماً لعبيده ، تعالى الله عن ذلك ؛ لأن الحق الذي قامت بصحته البراهين : هو عين ما اعتقدوه ظلاماً فنفوه ، فلظلمهم وردت هذه الآية وأشباهاها ، لتبين للناس ما نزل إليهم ، ولئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، والله الموفق للصواب .

(٢) قال محمود : «سؤال جهنم وجوابها من باب التخييل الذي يقصد به تصوير المعنى ... الخ» قال أحمد : قد تقدم إنكارى عليه إطلاق التخييل في غير ماموضع ، والتكثير هنا أشد عليه ؛ فإن إطلاق التخييل قد مضى له في مثل قوله (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة) وفي مثل قوله (بل يداه مبسوطتان) وإنما أراد به حل الأيدي على نوع من المجاز ، فتخى كلامه صحيح ؛ لأننا نعتقد فيها المجاز ، ونحن الله بتفديسه عن المفهوم الحقيقي ؛ فلا بأس عليه في معنى إطلاقه ، غير أنا غطايون باجتناب الألفاظ المرمية في حق جلال الله تعالى وإن كانت معانيها صحيحة ، وإي إيهام أشد من إيهام لفظ التخييل . ألا ترى كيف استعمله الله فيما أخبر أنه سحر وباطل في قوله (نجبل إليه من محرم) =

المعنى فى القلب وتثبيته ، وفيه معنيان ، أحدهما : أنها تمتلئ مع اتساعها وتباعد أطرافها حتى لا يسمعها شيء ^(١) ولا يزداد على ابتلائها ، لقوله تعالى (لأملأن جهنم) والثاني : أنها من السعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها موضع للزيد . ويجوز أن يكون (هل من مزيد) استكثاراً للداخلين فيها واستبداءاً للزيادة ^(٢) عليهم لفرط كثرتهم . أو طلباً للزيادة غيظاً على العصاة . والمزيد : إما مصدر كالحميد والمميد ، وإما اسم مفعول كالمتيسع .

وَأَزْلَفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ^(٣١) هَذَا مَا تُوَعَّدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ

حَفِيفٍ ^(٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ^(٣٣)

أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ^(٣٤) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ^(٣٥)

(غير بعيد) نصب على الظرف ، أى : مكاناً غير بعيد . أو على الحال ، وتذكيره لأنه على زنة المصدر ، كالزئير والصليل ؛ والمصادر يستوى فى الوصف بها المذكر والمؤنث . أو على حذف الموصوف ، أى : شيئاً غير بعيد ، ومعناه التوكيد ، كما تقول : هو قريب غير بعيد ، وعزير غير ذليل . وقرئ : توعدون بالثناء والياء ، وهى جملة اعتراضية . و(لكل أواب) بدل من قوله للمتقين ، بتكرير الجاز كقوله تعالى (الذين استضعفوا لمن آمن منهم) ، وهذا إشارة إلى الثواب . أو إلى مصدر أزلفت . والأواب : الرجاء إلى ذكر الله تعالى ، والحفيظ : الحافظ لحدوده تعالى . و(من خشى) بدل بعد بدل تابع لكل . ويجوز أن يكون بدلا عن موصوف أواب وحفيظ ، ولا يجوز أن يكون فى حكم أواب وحفيظ ؛ لأن من لا يوصف به

== أنها تسمى) فلا يشك فى وجوب اجتنابه ، ثم يعود بنا الكلام إلى إطلاقه هنا فنقول : هو منكر لفظاً ومعنى . أما اللفظ فقد تقدم ، وأما المعنى فلأننا نعتقد أن سؤال جهنم وجوابها حقيقة ، وأن الله تعالى يخلق فيها الإدراك بذلك بشره ، وكيف نفرض وقد وردت الأخبار وتظاهرت على ذلك : منها هذا : ولما لجأ الجنة والنار . ومنها : اشتكاؤها إلى ربها فأذن لها فى نفسين . وهذه وإن لم تكن نصراً فظواهر يجب حملها على حقائقها ؛ لأننا متعبدون باعتقاد الظاهر عالم بمنع مانع ، ولأمانع هنا : فأن القدرة سالحة . والعقل يجوز ، والظواهر قاضية بوقوع مآصيره العقل ، وقد وقع مثل هذا قطعا فى الدنيا ، كتسليم الشجر وتسييح الحصاني كفى الذى صلى الله عليه وسلم وفى يد أصحابه ، ولو فتح باب المجاز والعدول عن الظواهر فى تفاصيل المقالة لاتسع الحرق وضل كثير من الخلق عن الحق ، وليس هذا كالظواهر الواردة فى الآيات مما لم يجوز العقل اعتقاد ظاهرها ، فأن العدول فيها عن ظاهر الكلام بضرورة الانقياد إلى أدلة العقل المرشدة إلى المعتقد الحق ، فاشدد يدك بما فصل فى هذا الفصل ، مما أرشدتك به إلى منهج القرب والوصل ، والله الموفق .

(١) قوله «حتى لا يسمعها شيء» كأن فيه قلباً . (ع)

(٢) قوله «واستبداءاً للزيادة» لعله واستبداءاً . (ع)

ولا يوصف من بين الموصولات إلا بالذى وحده . ويجوز أن يكون مبتدأ خبره : يقال لهم ادخلوها بسلام ، لأن (من) في معنى الجمع . ويجوز أن يكون منادى كقولهم : من لا يزال محسناً أحسن إلى ، وحذف حرف النداء للتقريب (بالغيب) حال من المفعول ، أى : خشيه وهو غائب لم يعرفه ، وكونه معاقباً إلا بطريق الاستدلال . أو صفة لمصدر خشى ، أى خشيه خشية ملتبسة بالغيب ، حيث خشى عقابه وهو غائب ، أو خشيه بسبب الغيب الذى أوعده به من عذابه . وقيل : في الخاوة حيث لا يراه أحد . فإن قلت : كيف قرن بالخشية اسمه الدال على سعة الرحمة ؟ قلت : للثناء البليغ على الخاشى وهو خشيته ، مع علمه أنه الواسع الرحمة ، كما أننى عليه بأنه خاش ، مع أن الخشى منه غائب ، ونحوه (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجة) فوصفهم بالوجل مع كثرة الطاعات . وصف القلب بالإجابة وهى الرجوع إلى الله تعالى ؛ لأن الاعتبار بما ثبت منها في القلب . يقال لهم (ادخلوها بسلام) أى سالمين من العذاب وزوال النعم . أو مسلماً عليكم يسلم عليكم الله وملائكته (ذلك يوم الخلود) أى يوم تقدير الخلود ، كقوله تعالى (فادخلوها خالدن) أى مقدرين الخلود (ولدينا مزيد) هو ما لم يخطر ببالهم ولم تبلغه أمانتهم ، حتى يشاؤوه . وقيل : إن السحاب تمز بأهل الجنة فتمطرهم الحور ، فنقول : نحن المزيد الذى قال الله عز وجل : (ولدينا مزيد) .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ

مِنْ تَحِيصٍ (٣٦)

(فنقبوا) وقرئ بالتخفيف : غرقوا في البلاد ودوخوا^(١) . والتنقيب : التنقيب عن الأمر والبحث والطلب . قال الحرث بن حنزة :

نَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ مِنْ حَذَرِ الْمَوْتِ وَجَالُوا فِي الْأَرْضِ كُلِّ مَجَالٍ^(٢)

ودخلت الغاء للتسبيح عن قوله (هم أشد منهم بطشاً) أى : شدة بطشهم أبطرتهم وأقدرتهم على التنقيب وقوتهم عليه . ويجوز أن يراد : فنقب أهل مكة في أسفارهم ومسائرهم في بلاد القرون ،

(١) قال محمود : «إن قلت : كيف قرن الخفية باسمه الدال على سعة الرحمة ... الخ» قال أحمد : ومن هذا الوادى بالغ رسول الله صلى الله عليه وسلم في الثناء على صبيب بقوله : «نعم العبد صبيب لو لم يخف الله لم يعصه» .

(٢) قوله «ودوخوا» الذى في الصحاح : أن دوخ البلاد بمعنى قهرها واستولى على أهلها . (ع)

(٣) للحرث بن كعدة . والنقب : الطريق . ونقبوا ، أى : ساروا في طرق البلاد ونفروا ونفقوا على مهرب وملجأ ، لأجل حذرهم من الموت . وجالوا ، أى : ذهبوا في الأرض . والجل : الناحية والمجاوب ، أى : ساروا في تواسى الأرض وجوانبها ، كل مجال ، أى : كل طريق ، أو كل جولان ؛ لأن مفعول صالح للسكان والحدث .

فهل رأوا لهم محيصا حتى يؤملوا مثله لأنفسهم ، والدليل على صحته قراءة من قرأ (فنبقوا) على الأمر ، كقوله تعالى (فسيحوا في الأرض) وقرئ بكسر القاف مخففة من النقب وهو أن يتنقب خف البعير . قال :

* مَا مَسَّهَا مِنْ نَقَبٍ وَلَا دَبْرٍ * (١)

والمعنى : فنقبت أخفاف إبلاهم . أو : حفيت أقدامهم ونقبت ، كما تنقب أخفاف الإبل لكثرة طوفهم في البلاد (هل من محيص) من الله ، أو من الموت .

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٢٧)

(لمن كان له قلب) أى قلب واع ؛ لأن من لا يعي قلبه فكأنه لا قلب له . وإلقاء السمع : الإصغاء (وهو شهيد) أى حاضر بفطنته ، لأن من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب ، وقد ملح الإمام عبد القاهر في قوله لبعض من يأخذ عنه :

مَا شِئْتَ مِنْ زَهْرَةٍ وَالْفَقَى بِمَصْقِلَابَازٍ لَسَقَى الزُّرُوعَ (٢)

(١) أقسم بالله أبو حفص عمر ما مسها من نقب ولا دبر

اغفر له اللهم إن كانت الجر

لاعرابي : شكا إلى عمر رضى الله عنه ضعف ناقته ، فأعطاه شيئا من الدقيق ولم يعطه مطية ، فقول يقول ذلك ، فأعطاه مراده . ومن زائدة في الفاعل ، مفيدة للبالغة في الاستفراق . والنقب - كالتعب - : ضرر خف البعير من الحفا ، ويطلق على الحرب والحكمة وروعة الجلد . والدبر كالتعب أيضا : انجراح مؤخر الظهر من الحمل ونحوه ، ووقوع ألف الوصل أول المصراع سائغ ، لأنها محل ابتداء ، كما نص عليه الخليل ، والمراد بالفجور : الخنث .

(٢) يحيى . فى فضلة وقت له يحيى . من شاب الهوى بالزروع

ثم يرى جبلة مشبوبة قد شددت أحواله بالنسوع

ما شئت من زهره والفقى بمصقلا باز لسقى الزروع

ملح وملح به الامام عبد القاهر في بعض من يأخذ عنه ولا يحضر ذهنه ، وهو أبو عامر الجرجاني ، أى : يحيى . فى بقية وقت له مع تعلق فكره بفكره بغير ما جاء له ، كجىء . من خلط الهوى بالزروع ، أى الرجوع ويطلق الزروع على الشوق أيضا ، ثم يرى جبلة وطبيعة غليظة مشعلة بشهوات الشباب . والجبلة - بكسر زين فتشديد - وبثليث أوله وسكون ثانيه - : الخلق والطبيعة ؛ ولعلها مضافة لما بعدها إضافة الموصوف لصفة . ويقال : شب يشب ويشب شبابا وشببا : قص ولعب . وشببت النار شببا وشبوبا : أوقدتها . وشبته : أظهرته . وأشبته : هيجته . وروى : ثم ترى جلسة مستوفز ، أى : مستعجل منتهى للقيام . وهذه الرواية أوفق بالوزن والمعنى . والنسع : حزام عريض يوضع تحت صدر المطية ، وستر المودج ، واسترخا . لم الأسنان ، وريح الشمال ، والذهاب ، وسرعة الانبات . وجمعه : أنساع ونسوع ونسع . أى : والحال أنه قد شددت أحواله بالنسوع ، كناية عن الرجل . ويقول الفارسي عند استحسان الأمر : زهازه ، فأخذ منه الزهرة ، أى : ما شئت من الاستحسان عند التعلم موجود منه كثير ، والخطاب لغير معين ، والحال أن الفقى فى مصقلا باز ، وهى حلة بمرجان ، ويروى بالذال المعجمة ، أى : كأن =

أو : وهو مؤمن شاهد على صحته وأنه وحى من الله ، أو وهو بعض الشهداء في قوله تعالى (لتكنوا شهداء على الناس) وعن قتادة وهو شاهد على صدقه من أهل الكتاب لوجود نعته عنده وقرأ السدي وجاعة : ألقى السمع ، على البناء للدفعول . ومعناه : لمن ألقى غيره السمع وفتح له أذنه لحسب ولم يحضر ذهنه وهو حاضر الذهن متفطن . وقيل : ألقى سمعه أو السمع منه .

وَأَقْدَ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسْنَأْ مِنْ لُغُوبٍ ﴿٣٨﴾
الغوب : الإعياء . وقرئ بالفتح بزنة القبول والولوع . قيل : نزلت في اليهود لعنت تكذيباً لقولهم : خلق الله السموات والأرض في ستة أيام أو لها الأحد وآخرها الجمعة ، واستراح يوم السبت واستلقى على العرش . وقالوا : إن الذي وقع من التشبيه في هذه الأمة إنما وقع من اليهود ومنهم أخذ .

فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ
الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَأَسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ
الْمُنَادِ مِنْ مَّسْكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ
الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾

(فاصبر على ما يقولون) أى اليهود ويأتون به من الكفر والتشويه . وقيل : فاصبر على ما يقول المشركون من إنكارهم البعث ؛ فإن من قدر على خلق العالم قدر على بعثهم والانتقام منهم . وقيل : هى منسوخة بآية السيف . وقيل : الصبر مأمور به في كل حال (بحمد ربك) حامداً ربك ، والتسبيح محمول على ظاهره أو على الصلاة ، فالصلاة (قبل طلوع الشمس) الفجر (وقبل الغروب) الظهر والعصر (ومن الليل) العشاء آن . وقيل التهجد (وأدبار السجود) التسبيح في آثار الصلوات ، والسجود والركوع يعبر بهما عن الصلاة . وقيل النوافل بعد المكتوبات . وعن علي رضي الله عنه : الركعتان بعد المغرب . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم : من صلى بعد المغرب قبل أن يتكلم كتبت صلاته في عليين ،^(١) وعن ابن عباس رضي الله

== هناك لسمي زروعه . لما كان قلبه غير متعلق إلا بذلك المكان ، كان جسمه كأنه هناك ، واقد ترقى في التشويه حيث شبه بين خطط الهوى بغيره تشبيهاً بليغاً ، ثم بين نهبا للرجل على سبيل التمثيل ، ثم بين سافر بالفعل ووصل مقصده واشتغل بما فيه تشبيهاً بليغاً ، فقه دره بليغاً .

(١) أخرجه ابن أبي شيبة وعبد الرزاق من رواية عبد العزيز بن عمر : سمعت مكحولاً يقول : بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من صلى ركعتين بعد المغرب قبل أن يتكلم كتبتا » أو قال ركعتا - في عليين . هذا ==

عنهما : الوتر بعد العشاء . والأدبار : جمع دبر . وقرئ : وأدبار ، من أدبرت الصلاة إذا انقضت وتمت . ومعناه : ووقت انقضاء السجود ، كقولهم : آتاك خفوق النجم (واستمع) يعنى واستمع لما أخبرك به من حال يوم القيامة . وفي ذلك تهويل وتعظيم لشأن المخبر به والمحدث عنه ، كما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال سبعة أيام لمعاذ بن جبل : ويا معاذ اسمع ما أقول لك ، ثم حدثه بعد ذلك (١) . فإن قلت : بهم انتصب اليوم ؟ قلت : بما دل عليه (ذلك يوم الخروج) أى : يوم ينادى المنادى يخرجون من القبور . ويوم يسمعون : بدل من (يوم ينادى) و (المنادى) لإسرافيل ينفخ في الصور وينادى : أيتها العظام البالية والأوصال المنقطعة واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء . وقيل : لإسرافيل ينفخ وجبريل ينادى بالحشر (من مكان قريب) من صخرة بيت المقدس ، وهى أقرب الأرض من السماء باثنى عشر ميلا ، وهى وسط الأرض . وقيل : من تحت أقدامهم . وقيل : من منابت شعورهم يسمع من كل شعرة : أيتها العظام البالية و (الصيحة) النفخة الثانية (بالحق) متعلق بالصيحة ، والمراد به البعث والحشر للجزاء .

يَوْمَ تَشَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُمْ يَسْرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤)

وقرئ : تشقق ، وتشقق بإدغام التاء فى الشين ، وتشقق على البئلا للفعول ، وتشقق (سراعا) حال من المجرور (علينا يسير) تقديم الظرف يدل على الاختصاص ، يعنى : لا يتيسر مثل ذلك الأمر العظيم إلا على القادر الذات الذى لا يشغله شأن عن شأن ، كما قال تعالى (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) .

نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ أَنْ مَنِ

يَخَافُ وَيَعِيدُ (٤٥)

(نحن أعلم بما يقولون) تهديد لهم وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم (بجبار) كقوله تعالى (بمسيطر) حتى تقسرم على الإيمان ، إنما أنت داع وباعث (٢) . وقيل : أريد التحل لهم وترك الغلظة عليهم . ويجوز أن يكون من جبره على الأمر بمعنى أجبره عليه ، أى : ما أنت

== مرسل . وقد روى موصولا عن أنس عن عائشة رضى الله عنهما . أما حديث أنس فرواه الدارقطنى فى غرائب مالك ، من رواية أحمد بن سليمان الأسدى عنه عن الزهري عن أنس به وأتم منه . وقال . هذا موضوع على مالك . وأما حديث عائشة فرواه ابن شاهين فى الترغيب . وفى إسناده جعفر بن جبيع

(١) لم أجده .

(٢) قوله « إنما أنت داع وباعث » أى : تبث الناس على الإيمان . (ع)

بوال عليهم تجبرهم على الإيمان . وعلى بمنزلة في قولك : هو عليهم ، إذا كان واليهم ومالك أمرهم
(من يخاف وعيد) كقوله تعالى (إنما أنت منذر من يخشاها) لأنه لا ينفع إلا فيه دون
المصر على الكفر .

عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « من قرأ سورة ق هون الله عليه تارات^(١)
الموت وسكراته »^(٢) .

سورة الذاريات

مكية وآياتها ٦٠ [نزلت بعد الأحقاف]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذُرْوًا ① فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ② فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ③
فَالْمَقْسَمَاتِ أَمْرًا ④ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ⑤ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ⑥

(والذاريات) الرياح لأنها تذر التراب وغيره . قال الله تعالى : (تذروه الرياح) وقرئ
يادغام التاء في الذال (فالحاملات وقرأ) السحاب ، لأنها تحمل المطر . وقرئ : وقرأ ، بفتح
الواو على تسمية المحمول بالمصدر . أو على إيقاعه موقع حملا (فالجاريات يسرا) الفلك .
ومعنى (يسرا) : جريا ذا يسر ، أي ذا سهولة (فالمقسمات أمرا) الملائكة ، لأنها تقسم الأمور
من الأمطار والأرزاق وغيرها . أو تفعل التقسيم مأمورة بذلك . وعن مجاهد : تتولى تقسيم أمر
العباد : جبريل للغلظة ، وميكائيل للرحمة . وملك الموت لقبض الأرواح ، وإسرافيل للنفخ .
وعن علي رضي الله عنه أنه قال وهو على المنبر : سلوني قبل أن لاتسألوني ، ولن تسألوا بعدي
منى ، فقام ابن السكواء فقال : ما الذاريات ذروا ؟ قال : الرياح . قال : فالحاملات وقرأ ؟

(١) قوله « هون الله عليه تارات الموت » في الصحاح : فعل ذلك الأمر تارة بعد تارة ، أي : مرة بعد

مرة . (ع)

(٢) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدى من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه .

قال السحاب . قال : فالجاريات يسراً ؟ قال : الفلك . قال فالمقسمات أمراً ؟ قال : الملائكة ^(١) وكذا عن ابن عباس . وعن الحسن (المقسمات) السحاب ، يقسم الله بها أرزاق العباد ، وقد حملت على الكواكب السبعة ، ويجوز أن يراد : الرياح لا غير ؛ لأنها تنفث السحاب وتقله وتصرفه ، وتجري في الجو جرياً سهلاً ، وتقسم الأمطار بتصرف السحاب . فإن قلت : ما معنى الفاء على التفسيرين ؟ قلت : أما على الأول فمعنى التعقيب فيها أنه تعالى أقسم بالرياح ، فبالسحاب الذي تسوقه ، فبالفلك التي تجريها بهبوبها ، فبالملائكة التي تقسم الأرزاق بإذن الله من الأمطار وتجارات البحر ومنافعه . وأما على الثاني ، فلأنها تبتدئ بالهبوب ^(٢) ، فتذرو التراب والحصباء ، فتقل السحاب ، فتجري في الجو باسطة له فتقسم المطر (إن ماتو عدون) جواب القسم ، وما موصولة أو مصدرية ، والموعود : البعث . ووعداً صادق : كمشة راضية . والدين : الجزاء . والواقع : الحاصل .

وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْحُبُكِ ^(٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ^(٨) يُؤَفِّكُ عَنْهُ

مَنْ أَفَكَ ^(٩)

(الحبك) الطرائق ، مثل حبك الرمل والماء : إذا ضربته الريح ، وكذلك حبك الشعر : آثار تشنيه وتكسره . قال زهير :

مُكَلَّلٌ بِأُصُولِ النَّجْمِ تَنْسُجُهُ رِيحٌ خَرِيْقٌ لِصَاحِي مَائِهِ حُبُكٌ ^(٣)

(١) أخرجه الحاكم والطبري . وغيرهما من رواية أبي الطفيل قال : رأيت علي بن أبي طالب رضي الله عنه على المنبر فذكره وزاد فيه : قال «فمن الذين بدلوا نعمة الله كفراً ؟ قال : هم منافقو قريش» وفي الباب عن عمر مرفوعاً أخرجه البراز ، وفيه قصة منيع ، وقال ابن أبي سبرة : ابن الحديث ، وسعيد بن سلام ليس من أصحاب الحديث اه ولم ينفرده به سعيد فقد رواه ابن مردويه من طريق عبيد بن موسى عن أبي سبرة أيضاً .

(٢) قوله «فلأنها تبتدئ بالهبوب» لعله : فأنها . (ع)

(٣) حتى استغاثت بماء لا رشاء له من الأباطح في حافاته البرك

مكلل بأصول النجم تنسجه ريح خريق لصاحي مائه حبك

كما استغاثت بسبيء من غيطة خاف العيون ولم ينظر به الحشك

زهير : يصف قطاة فرت من صقر حتى استغاثت منه بماء قريب لا رشاء له ، أي : لا حول يستقي به منه لعدم احتياجه إليه من الأباطح ، أي : في الأمكنة المنسوبة المستوية ؛ فإن أراد من الماء مكانه ؛ فن بيانية ، في حافاته أي جوانبه البرك جمع بركة ، كرطب ورطبة نوع من طير الماء يكلل ذلك الماء بأصول النجم ، أي : النبات الذي لا ساق له . وروى بعميم النجم ، أي : طويله ، تنسجه : أي تشنيه تشنيا منتظلاً كالنسج ، فهو استعارة مصرحة . والخرق - بالقاف - : الباردة والشديدة السير . والصاحي : الظاهر . والحبك : الطريق في وجه الماء إذا ضربته الريح ، جمع حبك أو حببكه . والسبيء بالفتح وبالكسر : اللبن في طرف الثدي . والفز : ولد البقرة الوحشية . والغيطة : الشجر الملتف ؛ فاضافة الفز إليها لأنه فيها . وقيل : هي البقرة الوحشية . والعيون هنا : رقباء الصيد =

والدرع محبوبه : لأن حلقها مطرق طرائق . ويقال : إن خلقه السماء كذلك . وعن الحسن : حبكها نجومها . والمعنى : أنها تزينها كما تزين الموشى طرائق الموشى . وقيل : حبكها صفاقتها وإحكامها ، من قولهم : فرس محبوبك المعاقم ؛ ^(١) أى محكمها . وإذا أجاد الحائك الحياكة قالوا : ما أحسن حبك ، وهو جمع حبائك ، كمثل ومثل . أو حبك ، كطريقة وطرق . وقرئ : الحبك ، بوزن القفل . والحبك ، بوزن السلك . والحبك ، بوزن الجبل . والحبك بوزن البرق . والحبك بوزن النعم . والحبك بوزن الإبل ^(٢) (إنكم لنى قول مختلف) قولهم فى الرسول : ساحر وشاعر ومجنون ، وفى القرآن : شعر وسحر وأساطير الأولين . وعن الضحاك : قول الكفرة لا يكون مستويا ، إنما هو متناقض مختلف . وعن قتادة : منكم مصدق ومكذب ، ومقر ومنكر ^(٣) يؤفك عنه ^(٤) الضمير للقرآن أو للرسول ، أى : يصرف عنه ، من صرف الصرف الذى لا صرف أشد منه ^(٥) وأعظم : كقوله : لا يهلك على الله إلا هالك . وقيل : يصرف عنه من صرف فى سابق علم الله ، أى : علم فيما لم يزل أنه مأفوك عن الحق لا يرعوى . ويجوز أن يكون الضمير لما توعدون أو للدين : أقسم بالذاريات على أن وقوع أمر القيامة حق ، ثم أقسم بالسماء على أنهم فى قول مختلف فى وقوعه ، فمنهم شاك ، ومنهم جاحد . ثم قال : يؤفك عن الإقرار بأمر القيامة من هو المأفوك . ووجه آخر : وهو أن يرجع الضمير إلى قول مختلف وعن مثله فى قوله :

• يَنْهَوْنَ عَنْ أَكْلِ وَصَنِ شُرْبِ • ^(٦)

أى : يتناهون فى السمن بسبب الأكل والشرب . وحقيقته : يصدر تناهيهم فى السمن عنهما ،

== نوحوا إليه . وحشكت الدرة باللين حشكا وحشوكا : امتلأته . وحرك الحشك هنا للضرورة ، أى : لم ينتظر به امتلاء الدرة ، ولعمري نعمت هذه الاستفانة . وقبه دلالة على أنها كانت ظمأنة .

(١) قوله «فرس محبوبك المعاقم» فى الصحاح : المعاقم من الخيل : المفاصل ، فالراسع عند الحافر معقم ، والركبة معقم ، والعرقوب معقم . اهـ (ع)

(٢) قال محمود : «يصرف عنه من صرف الصرف الذى لا صرف أشد منه ... الخ» قال أحمد : إنما أفاد هذا النظم المعنى الذى ذكر من قبل أنك إذا قلت : يصرف عنه من صرف ، علم السامع أن قولك يصرف عنه يعنى عن قولك من صرف ، لأنه بمجرد كالتكرار للأول ، لولا ما يستشعر فيه من فائدة تأبى جملة تكرارا ، وذلك لفائدة أنك لما خصصت هذا بأنه هو الذى صرف ، أفهم أن غيره لم يصرف ، فكأنك قلت : لا يثبت الصرف فى الحقيقة إلا هذا ، وكل صرف دونه فكل صرف بالنسبة إليه ، والله تعالى أعلم .

(٣) ينهون عن أكل وعن شرب مثل المما يرتعن فى خصب

يقال : نهى الجمل فهو ناه ، إذا فرط فى السمن . والمما : جمع مهاة وهى البقرة الوحشية . ويقال : أخصب المكان فهو مخصب ، وأخصبه الله . وأخصب خصبا ، كتمب تمبا ، وعلم علما : إذا كثرت كلاله ونباته . يصف أخصبا بأنهم يصدر تناهيهم وسمنهم عن الأكل والشرب . وشبههم بالمما لأننى يرتعن فى الكلال ، فالخصب فى الأصل : مصدر سعى به الكلال .

وكذلك يصدر إفكهم عن القول المختلف . وقرأ سعيد بن جبير : يؤفك عنه من أفك ، على البناء للفاعل . أى : من أفك الناس عنه وهم قریش ، وذلك أن الحى كانوا يعثون الرجل ذا العقل والرأى ليسأل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقولون له : احذره ، فيرجع فيخبرهم . وعن زيد بن على : يأفك عنه من أفك ، أى : يصرف الناس عنه من هو مأفوك فى نفسه . وعنه أيضا : يأفك عنه من أفك : أى : يصرف الناس عنه من هو أفاك كذاب . وقرئ : يؤفن عنه من أفن ، أى : يحرمه من حرم ، من أفن الضرع إذا نهكه حلبا .

قَتِيلَ الْخِرَاصُونَ ⑩ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ⑪ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الَّذِينَ ⑫ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ⑬ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ⑭

(قتل الخراصون) دعاء عليهم ، كقوله تعالى (قتل الإنسان ما أكفره) وأصله الدعاء بالقتل والهلاك ، ثم جرى مجرى : لعن وقبح . والخراصون : الكذابون المقدرين ما لا يصح ، وهم أصحاب القول المختلف ، واللام إشارة إليهم ، كأنه قيل : قتل هؤلاء الخراصون . وقرئ : قتل الخراصين ، أى : قتل الله (فى غمرة) فى جهل يغمرهم (ساهون) غافلون عما أمروا به (يسألون) فيقولون (أيان يوم الدين) أى متى يوم الجزاء . وقرئ بكسر الهمزة وهى لغة . فإن قلت : كيف وقع أيا ظرفا لليوم ، وإنما تقع الأحيان ظروفا للحدثان ؟ قلت : معناه : أيان وقوع يوم الدين . فإن قلت : فبم انتصب اليوم الواقع فى الجواب ؟ قلت : بفعل مضمر دل عليه السؤال ، أى : يقع يوم هم على النار يفتنون . ويجوز أن يكون مفتوحا لإضافته إلى غير متمكن وهى الجملة . فإن قلت : فما محله مفتوحا ؟ قلت : يجوز أن يكون محله نصبا بالمضمر الذى هو يقع ؛ ورفعا على هو يوم هم على النار يفتنون . وقرأ ابن أبي عيلة بالرفع (يفتنون) يحرقون ويعذبون . ومثله الفتين : وهى الحزة ؛ لأن حجارتهما كأنها عمرة (ذوقوا فتنكم) فى محل الحال ، أى : مقولا لهم هذا القول (هذا) مبتدأ ، و (الذى) خبره ، أى : هذا العذاب هو الذى (كنتم به تستعجلون) ويجوز أن يكون هذا بدلا من فتنكم ؛ أى : ذوقوا هذا العذاب .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ⑮ ءَاخِذِينَ مَاءً ثَامًّا رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا

قَبْلَ ذَلِكَ مُخْسِنِينَ ⑯ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ⑰

وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾

(آخذين ما آتاهم ربهم) قابلين لكل ما أعطاهم راضين به ، يعنى أنه ليس فيما آتاهم إلا ما هو متلقى بالقبول مرضى غير مسخوط ، لأن جميعه حسن طيب . ومنه قوله تعالى (ويأخذ الصدقات) أى يقبلها ويرضاها (محسنين) قد أحسنوا أعمالهم ، وتفسير إحسانهم ما بعده (ما) مزيدة . والمعنى : كانوا يجمعون فى طائفة قليلة من الليل إن جمعات قليلة ظرفا ، ولك أن تجعله صفة للمصدر ، أى : كانوا يجمعون هجوعا قليلا . ويجوز أن تكون (ما) مصدرية أو موصولة ؛ على : كانوا قليلا من الليل هجوعهم ، أو ما يجمعون فيه . وارتفاعه بقليل على الفاعلية . ^(١) وفيه مبالغات لفظ الهجوع ، وهو الفرار من النوم . ^(٢) قال :

قَدْ حَصَّتِ الْبَيْضَةُ رَأْسِي فَمَا أَطْعَمُ نَوْمًا غَيْرَ تَهْجَاعٍ ^(٣)

وقوله (قليلا) و (من الليل) لأن الليل وقت السبات والراحة . وزيادة (ما) المؤكدة لذلك :

(١) ذكر الزحشرى فيه وجهين أن تكون مازائدة وقليل ظرف منتصب يجمعون ، أى : كانوا يجمعون فى طائفة قليلة من الليل . أو تكون (ما) مصدرية أو موصولة على : كانوا قليلا من الليل هجوعهم . أو ما يجمعون فيه ، وارتفاعه بقليل على الفاعلية ، قال أحد : وجوه مستقيمة خلا جمل (ما) مصدرية ، فإن قليلا حينئذ واقع على الهجوع ، لأنه فاعله . وقوله (من الليل) لا يستقيم أن يكون صفة للقليل ولا بيانا له ، ولا يستقيم أن يكون من صلة المصدر لأنه تقدم عليه ، ولا كذلك على أنها موصولة ؛ فإن قليلا حينئذ واقع على الليل ، كأنه قال : قليلا المقدار الذى كانوا يجمعون فيه من الليل ، فلا مانع أن يكون (من الليل) بيانا للقليل على هذا الوجه ، وهذا الذى ذكره إنما تبع فيه الزجاج . وقد رد الزحشرى أن تكون مانفيا وقليل منصوب يجمعون على تقدير : كانوا ما يجمعون قليلا من الليل ، وأسند رده إلى امتناع تقدم ما فى حين التثنية عليه . قلت : وفيه خلل من حيث المعنى ، فإن طلب قيام جميع الليل غير مستثنى منه الهجوع وإن قل غير ثابت فى الشرع ولا مأمور . ثم قال : وصفهم بأنهم يجمعون الليل منهجدين ، فإذا أبحروا شرعوا فى الاستغفار . كأنهم أسلفوا فى ليالهم الجرائم . قال : وقوله (هم) معناه : هم الأحقاء بالاستغفار دون المصيرين . قال : وفى الآية مبالغات منها لفظ الهجوع وهو الخفيف الفرار من النوم . قال : وقوله (قليلا) وقوله (من الليل) لأنه وقت السبات . قال : ومنها زيادة ما فى بعض الوجوه . قلت : وفى عددا من المبالغة نظر ؛ فانها تؤكد الهجوع وتحققه ، إلا أن يجعلها بمعنى القلة فيجتمل .

(٢) قوله (وهو الفرار من النوم) فى الصباح : الفرار بالكسر : النوم القليل اه . (ع)

(٣) قد حصت البيضة رأسى فما أطعم نوما غير تهجاع

أسمى على جل بنى مالك كل امرئ فى شأنه ساع

لقيس بن الأسلت . وحصت : أملكك أو حلفت ، البيضة التى تلبس على الرأس فى الحرب ، أى حلفت شعرا رأسى من دوام لبسها للحرب . وشبه النوم بالمطعم لاستلذاذ مبادئه على طريق المسكنة ، وأطعم : أى أتناول تخجيل لذلك والتهجاع : التناقل قليلا لطرد النوم ؛ فالاستثناء منقطع . وجلهم : مهم أمورهم ومعظمها كالفارات يذنبها عنهم . وروى : على حبل بنى مالك ، وعليه نشبه العهد بالحبل للتوثق والتوصل بكل على طريق التصريحية ، أى : أسمى فى شأنى متمسكا بعهدهم ، وعلى الأول فقوله « كل امرئ فى شأنه ساع » فيه دلالة على الإزام نفسه بشأنهم ، وأنه شأن

وصفهم بأنهم يميون الليل متهمدين ، فإذا أضحوا أخذوا في الاستغفار ، كأنهم أسلفوا في ليهم الجرائم . وقوله ﴿ هم يستغفرون ﴾ فيه أنهم هم المستغفرون الاحقاء بالاستغفار دون المصرين ، فكأنهم المختصون به لاستدانتهم له وإطناهم فيه . فإن قلت : هل يجوز أن تكون ما نافية كما قال بعضهم ، وأن يكون المعنى : أنهم لا يجمعون من الليل قليلا ، ويحبونه كله ؟ قلت : لا ، لأن ما النافية لا يعمل ما بعدها فيها قبلها . تقول : زيدا لم أضرب ، ولا تقول : زيدا ما ضربت : السائل : الذي يستجدي ﴿ والمحروم ﴾ الذي يحسب غنيا فيحرم الصدقة لتعففه . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : « ليس المسكين الذي ترده الأكلة والآكلتان واللقمة والقمطان والقررة والتمر تان ، قالوا : فما هو ؟ قال : الذي لا يجد ولا يتصدق عليه ، ^(١) وقيل : الذي لا ينمي له مال . وقيل : المحارف ^(٢) الذي لا يكاد يكسب .

وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾

﴿ وفي الأرض آيات ﴾ تدل على الصانع وقدرته وحكمته وتديره حيث هي مدحوة كاللباسطلسا فوقها كما قال (الذي جعل لكم الأرض مهادا) وفيها المسالك والفجاج للمتقين فيها والمماشين في مناكبها ، وهي مجزأة : فن سهل وجبل وبر وبحر : وقطع متجاورات : من صلبة ورخوة ، وعذاة ^(٣) وسبخة ؛ وهي كالطروقة تلقح بالوان النبات وأنواع الأشجار بالثمار المختلفة الألوان والطعوم والروائح تسقى بماء واحد (ونفضل بعضها على بعض في الأكل) وكلها موافقة لحوائج ساكنيها ومنافعهم ومصالحهم في صحتهم واعتلالهم ، وما فيها من العيون المتفجرة والمعادن المفتنة والدواب المنبثة في برها وبحرها المختلفة الصور والأشكال والأفعال : من الوحش والإنس والهوام ، وغير ذلك ﴿ للموقنين ﴾ الموحدين الذين سلكوا الطريق السوي البرهاني الموصل إلى المعرفة ، فهم نظارون بعيون باصرة وأفهام نافذة ، كلما رأوا آية عرفوا وجه تأملها ، فازدادوا إيمانا مع إيمانهم ، وإيقانا إلى إيقانهم ﴿ وفي أنفسكم ﴾ في حال ابتدائها وتنقلها من حال إلى حال وفي بواطنها وظواهرها من عجائب الفطر وبدائع الخلق : ما تحير فيه الأذهان ، وحسبك بالقلوب ومراكز فيها من العقول وخصت به من أصناف المعاني ، وبالالسن ، والنطق ، ومخارج الحروف ، وما في تركيبها وترتيبها وإطاعتها : من الآيات الساطعة والبيئات القاطعة على حكمة المدير ، دع الأسماع والابصار والأطراف وسائر الجوارح وتأنيها لما خلقت له ، وما سوى في الأعضاء

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة .

(٢) قوله « وقيل المحارف » في الصحاح : رجل عارف ، يفتح الراء : أي حدود محروم ، خلاف قولك :

مباركاه . (ع)

(٣) قوله « وعذاة » في الصحاح « والعذاة » : الأرض الطيبة التربة ، والجمع عذوات . (ع)

من المفاصل للانعطاف والثني . فإنه إذا جسا^(١) شيء منها جاء العجز ، وإذا استرخى أناخ الذل ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٢٣﴾

(وفي السماء رزقكم) هو المطر : لأنه سبب الأقوات . وعن سعيد بن جبير : هو الثلج وكل عين دائمة منه . وعن الحسن : أنه كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه : فيه والله رزقكم ، ولكنكم تحرمونه لخطاياكم (وما توعدون) الجنة : هي على ظهر السماء السابعة تحت العرش . أو أراد : أن ما ترزقونه في الدنيا وما توعدون به في العقبى كله مقدر مكتوب في السماء . قرئ : مثل ما بالرفع صفة للحق ، أى حق مثل نطقكم ، وبالنصب على : إنه لحق حقاً مثل نطقكم . ويجوز أن يكون فتحاً لإضافته إلى غير متمكن . وما مزيدة بنص الخليل ، وهذا كقول الناس : إن هذا لحق ، كما أنك ترى وتسمع ، ومثل ما إنك ههنا . وهذا الضمير إشارة إلى ما ذكر من أمر الآيات والرزق وأمر النبي صلى الله عليه وسلم : أو إلى ما توعدون . وعن الأصمعي : أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابي على قعود له فقال : من الرجل ؟ قالت : من بني أصمع . قال : من أين أقبلت ؟ قلت : من موضع يتلى فيه كلام الرحمن . فقال : اتل على ، فتلوت (والذاريات) فلما بلغت قوله تعالى : (وفي السماء رزقكم) قال : حسبك ، فقام إلى ناقته فحجها ووزعها على من أقبل وأدبر ، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرها وولى ، فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف ، فاذا أنا بمن يهتف بى بصوت دقيق ، فالتفت فإذا أنا بالأعرابي قد نحل واصفر ، فلم على واستقرأ السورة ، فلما بلغت الآية صاح وقال : قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، ثم قال : وهل غير هذا ؟ فقرأت : فورب السماء والأرض إنه لحق ، فصاح وقال : ياسبحان الله ، من ذا الذى أغضب الجليل حتى حلف ، لم يصدقه بقوله حتى ألجأوه إلى اليمين ؛ قالها ثلاثاً وخرجت معها نفسه .

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ صَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِمِجْلٍ مَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَنْصَفْ

(١) قوله «إذا جسا شيء منها» في الصحاح : جست اليد وغيرها جسوا وجساء : يست أم . (ع)

وَبَشِّرُوهُ بِبُلَاقٍ عَالِيَةٍ ۖ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صِرَاطٍ فَهَكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ

عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۖ (٢٩) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ۖ (٣٠)

(هل أتاك) تفخيم للحديث وتفيه على أنه ليس من علم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما عرفه بالوحى. والضيف الواحد والجماعة كالزور والصوم؛ لأنه في الأصل مصدر ضافه، وكانوا اثني عشر ملكا. وقيل: تسعة عشرهم جبريل. وقيل ثلاثة: جبريل، وميكائيل، وملك معهما. وجعلهم ضيفا؛ لأنهم كانوا في صورة الضيف: حيث أضافهم إبراهيم. أو لأنهم كانوا في حسبانته كذلك. وإكرامهم: أن إبراهيم خدمهم بنفسه، وأخدمهم امرأته، وعجل لهم القرى أو أنهم في أنفسهم مكرمون. قال الله تعالى (بل عباد مكرمون). (إذ دخلوا) نصب بالمكرمين إذا فسر بإكرام إبراهيم لهم؛ وإلا فبا في ضيف من معنى الفعل. أو بإضمار اذ كر (سلاما) مصدر ساد مسد الفعل مستغنى به عنه. وأصله: نسلم عليكم سلاما، وأما (سلام) فمعدول به إلى الرفع على الابتداء. وخبره محذوف، معناه: عليكم سلام، للدلالة على ثبات السلام، كأنه قصد أن يحبيهم بأحسن مما حيوه به، أخذا بأدب الله تعالى. وهذا أيضا من إكرامه لهم. وقرئنا مرفوعين. وقرئ: سلاما قال سلما. والسلم: السلام. وقرئ: سلاما قال سلم (قوم منكرون) أنكرهم للسلام الذى هو علم الإسلام. أو أراد: أنهم ليسوا من معارفه أو من جنس الناس الذين عهدهم، كما لو أبصر العرب قوما من الحزور^(١) أو رأى لهم حالا وشكلا خلاف حال الناس وشكلهم، أو كان هذا سؤالا لهم، كأنه قال: أنتم قوم منكرون، فمرفوف من أنتم (فراغ إلى أهله) فذهب إليهم في خفية من ضيوفه؛ ومن أدب المضيف أن يخفى أمره^(٢)، وأن يباده بالقرى من غير أن يشعر به الضيف، حذرا من أن يكفه ويعذره. قال قتادة: كان عامة مال نبي الله إبراهيم: البقر (لجاء بعجل سمين). والهمزة في (ألا تأكلون) للإنكار: أنكر عليهم ترك الأكل. أو حشهم عليه (فأوجس) فأضمر. وإنما خافهم لأنهم لم يتحزموا بإطعامه^(٣)

(١) قوله «قوما من الحزور» في الصحاح: الحزور: جبل من الناس. والآخر: ضيق العين صغيرها، كما أفاده

الصحاح. (ع)

(٢) قال محمود: «فيه إشارة لاختفائه من ضيوفه، ومن أدب المضيف أن يخفى أمره... الخ» قال أحمد: معنى حسن، وقد نقل أبو عبيد أنه لا يقال: راغ إلا إذا ذهب على خفية. ونقل أبو عبيد في قوله عليه السلام: «إذا كنى أحدكم خادمه حر طعامه فليقدمه معه، وإلا فليروغ له لقمة»، قال أبو عبيد: يقال روغ اللقمة وسفلها وسفنها ومرغها: إذا غسها فرويت سمنا. قلت: وهو من هذا المعنى، لأنها تذهب مغموسة في السمن حتى تخفى ومن مقلوبه: غور الأرض والجرح وسائر مقلوباته قريبة من هذا المعنى، والله أعلم.

(٣) قوله «لأنهم لم يتحزموا بإطعامه» في الصحاح «الحرمة»: ما لا يحل انتهاكه، وقد نحرم بصحبته اهـ.

وهو يفيد أن التحريم مراعاة الحرمة، من حيث لا يحل انتهاكها. (ع)

فظن أنهم يريدون به سوءا . وعن ابن عباس : وقع في نفسه أنهم ملائكة أرسلوا للعذاب . وعن عون بن شداد : مسح جبريل العجل بجناحه فقام يدرج حتى لحق بأقمة (بغلام عليم) أى يبلغ ويعلم . وعن الحسن : عليم : نبي ، والمبشر به إسحاق ، وهو أكثر الأقاويل وأصحها ؛ لأن الصفة صفة سارة لاهاجر ، وهى امرأة إبراهيم وهو بعلمها . وعن مجاهد : هو إسماعيل (في صرة) في صيحة ، من : صر الجندب ، وصر القلم والباب ، ومحله النصب على الحال ، أى : بجأته صارة . قال الحسن : أقبلت إلى بيتها وكانت في زاوية تنظر إليهم ، لأنها وجدت حرارة الدم فلطمت وجهها من الحياء ، وقيل : فأخذت في صرة ، كما تقول : أقبل يشتغنى . وقيل : صرتها قولها : أوه . وقيل : يا ويلتنا . وعن عكرمة : رثتها^(١) (فصكت) فلطمت ببسط يديها . وقيل : فضربت بأطراف أصابعها جهتها فعل المتعجب (عجوز) أنا عجوز ، فكيف ألد (كذلك) مثل ذلك الذى قلنا وأخبرنا به (قال ربك) أى إنما نخبرك عن الله ، والله قادر على ما تستبعدين . وروى أن جبريل قال لها : انظري إلى سقف بيتك ، فنظرت فإذا جذوعه مورقة مشرة .

قَالَ فَاخْطِبْكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ۖ (٣١) قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ مُجْرِمِينَ (٣٢)
لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤)
فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ
الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَاهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٣٧)

لما علم أنهم ملائكة وأنهم لا ينزلون إلا بإذن الله رسلا في بعض الأمور (قال فاطخطبكم) أى : فاشأنكم وماطلبكم (إلى قوم مجرمين) إلى قوم لوط (حجارة من طين) يريد : السجيل ، وهو طين طبخ كما يطبخ الآجر ، حتى صار في صلابة الحجارة (مسومة) معلقة ، من السومة وهى العلامة على كل واحد منها اسم من يهلك به . وقيل : أعلنت بأنها من حجارة العذاب . وقيل : بعلامة تدل على أنها ليست من حجارة الدنيا . سمهم مسرفين ، كما سمهم عادين ، لإسرافهم وعدوانهم في عملهم : حيث لم يقتنعوا بما أيسح لهم . الضمير في (فيها) للقرية ، ولم يجر لها ذكر لكونها معلومة . وفيه دليل على أن الإيمان والإسلام واحد ، وأنهما صفتا مدح . قيل : هم لوط وابنتاه . وقيل : كان لوط وأهل بيته الذين نجوا ثلاثة عشر . وعن قتادة : لو كان فيها

(١) قوله «رثتها» في الصحاح «الرنّة، الصوت» ، يقال : رنت المرأة رنينا وارتت أيضا : صاحت . (ع)

أكثر من ذلك لأنجاهم ، ليعلموا أن الإيمان محفوظ لاضیعة على أهله عند الله (آية) علامة يعتبر بها الخائفون دون القاسية قلوبهم . قال ابن جريج : هى صخر منضود فيها . وقيل : ماء أسود منتن .

وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ يُرْكِنُهُ
وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾

(وفى موسى) عطف على (وفى الأرض آيات) أو على قوله (وتركنا فيها آية) على معنى : وجعلنا فى موسى آية كقوله :

* عَلَّقْتُهَا نَبْتًا وَمَاءً بَارِدًا *

(فتولى بركنه) فازور وأعرض ، كقوله تعالى (ونأى بجانبه) وقيل : فتولى بما كان يتقوى به من جنوده وملكه . وقرئ : بركنه ، بضم الكاف (وقال ساحر) أى هو ساحر (مليم) أت بما يلام عليه من كفره وعناده ، والجملة مع الواو حال من الضمير فى فأخذناه . فإن قلت : كيف وصف نبي الله يونس صلوات الله عليه بما وصف به فرعون فى قوله تعالى (فالتقمه الحوت وهو مليم) ؟ قلت : موجبات اللوم تختلف وعلى حسب اختلافها تختلف مقادير اللوم ، فراكب الكبيرة ملوم على مقدارها ، وكذلك مقترف الصغيرة . ألا ترى إلى قوله تعالى (وعصوا رسله) ، (وعصى آدم ربه) لأن الكبيرة والصغيرة يجمعهما اسم العصيان ، كما يجمعهما اسم القبيح والسيئة .

وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ

إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرِّيمِ ﴿٤٢﴾

(العقيم) التى لا خير فيها من إنشاء مطر أو إلقاح شجر ، وهى ریح الهلاك . واختلف فيها : فمن على رضى الله عنه : النكباء . وعن ابن عباس : الدبور . وعن ابن المسيب : الجنوب . الرميم : كل مارد أى بلى وتفتت من عظم أو نبات أو غير ذلك .

وَفِي نَمُودٍ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّكُمْ
فَأَخَذَهُمُ الصَّيْقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا

مُتَّصِرِينَ ﴿٤٥﴾

(حتى حين) تفسيره قوله (تمتعوا في داركم ثلاثة أيام) (فتمتعوا عن أمر ربهم) فاستكبروا عن امتثاله . وقرئ : الصعقة وهي المزة ، من مصدر صعقتهم الصاعقة : والصاعقة النازلة نفسها (وهم ينظرون) كانت نهارا يعاينونها . وروى أن العمالقة كانوا معهم في الوادي ينظرون إليهم وما ضررتهم (فما استطاعوا من قيام) كقوله تعالى (فأصبحوا في دارهم جاثمين) وقيل : هو من قولهم : ما يقوم به ، إذا عجز عن دفعه (منتصرين) منتعين من العذاب .

وَقَوْمٌ نُّوحٌ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾

(وقوم) قرئ بالجر على معنى : وفي قوم نوح وتقويه قراءة عبدالله : وفي قوم نوح . وبال نصب على معنى : وأهلكنا قوم نوح ؛ لأن ما قبله يدل عليه . أو واذكر قوم نوح .

وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ

الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾

(بأيد) بقوة . والأيد والآد : القوة . وقد آد يثيد وهو أيد (وإننا لموسعون) لقادرون ، من الوسع وهو الطاقة . والموسع : القوي على الإنفاق . وعن الحسن : لموسعون الرزق بالمطر . وقيل : جعلنا بينها وبين الأرض سعة (فنعم الماهدون) فنعم الماهدون نحن .

وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾

(ومن كل شيء) أى من كل شيء من الحيوان (خلقنا زوجين) ذكراً وأنثى . وعن الحسن : السماء والأرض ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ، والبر والبحر ، والموت والحياة ؛ فعدد أشياء وقال : كل اثنين منها زوج ، والله تعالى فرد لا مثل له (لعلكم تذكرون) أى فعلنا ذلك كله من بناء السماء وفرش الأرض وخلق الأزواج إرادة أن تتذكروا فتعرفوا الخالق وتعبدوه .

فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا

آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥١﴾

(فقرُّوا إلى الله) أى إلى طاعته وثوابه (١) من معصيته وعقابه ، ووحده ولا تشركوا به

(١) قال محمود : د معنى فقرُّوا إلى الله ، أى : إلى طاعته من معصيته وإلى ثوابه ... الخ ، قال أحمد : حمل الآية ما لم تحمله ، لأنه لا يكاد يخلى سورة حتى يدس في تفسيرها يده إلى مقتده ، فدس ههنا القطع بوعيد الفساق وبخلودهم كالكفار ، ولا تحتمل الآية لما ذكر ؛ فان الناية في قوله (فقرُّوا إلى الله) القرار إلى عبادة الله =

شيئا ، وكثر قوله ﴿إني لكم نذير مبين﴾ عند الأمر بالطاعة والنهي عن الشرك ، ليعلم أن الإيمان لا ينفع إلا مع العمل ، كما أن العمل لا ينفع إلا مع الإيمان ، وأنه لا يفوز عند الله إلا الجامع بينهما . ألا ترى إلى قوله تعالى (لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا) والمعنى : قل يا محمد : ففروا إلى الله .

كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْتَوٍ ۖ ﴿٥٢﴾

أَتَوَصَّوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾

﴿كذلك﴾ الأمر ، أى مثل ذلك ، وذلك إشارة إلى تكذيبهم الرسول وتسميته ساحرا ومجتونا ، ثم فسر ما أجمل بقوله ﴿ما أتى﴾ ولا يصح أن تكون الكاف منصوبة بأتى ؛ لأن ما النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها . ولو قيل : لم يأت ، لكان صحيحا ، على معنى : مثل ذلك الإتيان لم يأت من قبلهم رسول إلا قالوا ﴿أتواصوا به﴾ الضمير للقول ، يعنى : أتواصى الأولون والآخرون بهذا القول حتى قالوه جميعا متفقين عليه ﴿بل هم قوم طاغون﴾ أى لم يتواصوا به لأنهم لم يتلاقوا فى زمان واحد ، بل جمعهم العلة الواحدة وهى الطغيان ، والطغيان هو الحامل عليه .

فَقُولْ عَنْهُمْ فَأَنْتَ بِمَعْلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾

﴿فقول عنهم﴾ فأعرض عن الذين كثرت عليهم الدعوة فلم يجيبوا ، وعرفت عنهم العناد واللجاج ، فلا لوم عليك فى إعراضك بعد ما بلغت الرسالة وبذلك مجهودك فى البلاغ والدعوة ، ولا تدع التذكير والموعظة بأيام الله ﴿فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ أى تؤثر فى الذين عرف الله منهم أنهم يدخلون فى الإيمان . أو يزيد الداخلين فيه إيماننا . وروى أنه لما نزلت ﴿فقول عنهم﴾ حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم واشتد ذلك على أصحابه ، ورأوا أن الوحي قد انقطع وأن العذاب قد حضر ، فأُنزل الله . وذكر .

وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾

== فتوعده من لم يعبد الله ، ثم نهى عابده أن يشرك بعبادة ربه غيره ، وتوعده على ذلك . وفائدة تكرار التذكرة الدلالة على أنه لا تنفع العبادة مع الإشراك ، بل حكم المشرك حكم الجاحد المعطل ، لا كما قال الزمخشري : المأمور به فى الأول الطاعة الموقوفة بعد الإيمان ، فتوعده تاركها بالوعيد المعروف له وهو الخلود . وعلى هذا لا يكون تكرارا على اختلاف الوعدين ، فهو أولى ، فكيف يجعل الآية على خلاف ما هو أولى بها ، لئيم الاستدلال بها على معتقده الفاسد ، نعمود بالله من ذلك .

أى : وما خلقت الجن والإنس إلا لأجل العبادة ، ولم أرد من جميعهم إلا إياها ^(١) . فإن قلت : لو كان مريدا ^(٢) للعبادة منهم لكانوا كلهم عبادا ؟ قلت : إنما أراد منهم أن يعبدوه مختارين للعبادة لا مضطرين إليها ، لأنه خلقهم ممكنين ، فاختار بعضهم ترك العبادة مع كونه مريدا لها ، ولو أرادها على القسر والإلجام لوجدت من جميعهم .

مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُبْعِلُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ

الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾

يريد : أن شأني مع عبادي ليس كشأن السادة مع عبيدهم ، فإن ملك العبيد إنما يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معاشهم وأرزاقهم ، فإما يجهز في تجارة ليقربها . أو مرتب في فلاحه ليعتق أرضا . أو مسلم في حرقة لينتفع بأجرته . أو محتطب . أو محتش . أو طالح . أو خازن . وما أشبه ذلك من الأعمال والمهن التي هي تصرف في أسباب المعيشة وأبواب الرزق ، فأما ما لك ملك العبيد وقال لهم : اشتغلوا بما يسعدكم في أنفسكم ، ولا أريد أن أصرفكم في تحصيل رزقي ولا رزقكم ، وأنا غني عنكم وعن مرافقكم ، ومتفضل عليكم برزقكم وبما يصلحكم ويعيشكم من عندي ، فما هو إلا أنا وحدي (المتين) الشديد القوة . قرئ بالرفع صفة لذو ، وبالجر صفة للقوة على تأويل الاقتدار ، والمعنى في وصفه بالقوة والمتانة : أنه القادر البليغ الاقتدار على كل شيء . وقرئ : الرازق . وفي قراءة النبي صلى الله عليه وسلم : إني أنا الرازق .

(١) قال محمود : «إلا لأجل العبادة ، ولم أرد من جميعهم إلا إياها ... الخ» قال أحمد : من عاداته أنه إذا استشعر أن ظاهراً موافقاً لمعتقده نزل على مذهبه بصورة إبراد معتقد أهل السنة سؤالا ، وإبراد معتقده جوابا ؛ فكذلك صنع هنا ، فنقول : السؤال الذي أورده بما لا يجاب عنه بما ذكره ؛ فإنه سؤال مقدماته قطعية عقلية ، فيجب تنزيل الآية عليه ، وهي أن ظاهر سياق الآية دليل لأهل السنة ، فإنها إنما سبقت لبيان عظمته عز وجل ، وأن شأنه مع عبيده لا يقاس به شأن عبيد الخلق معهم ، فإن عبيدهم مطلوبون بالخدمة والتكسب للسادة ، وبواسطة مكاسب عبيدهم قدر أرزاقهم . والله تعالى لا يطلب من عباده رزقا ولا إعطاما ، وإنما يطلب منهم عبادته لا غير ، وزائد على كونه لا يطلب منهم رزقا أنه هو الذي يرزقهم ، فهذا المعنى الشريف هو الذي تحلى تحت راية هذه الآية ، وله سبقت ، وبه نطق ، ولكن الهوى يعمى ويصم ؛ لخاصته : وما خلقت الجن والإنس إلا لأدعوم إلى عبادتي ، وهذا ما لا يعدل عنه أهل السنة ، فإنه وافق معتقدهم رباهم التوفيق .

(٢) قوله «لو كان مريدا للعبادة» قد يقال : لا يلزم من خلقهم للعبادة أن يريدوا من جميعهم . وقوله «مع كونه مريدا لها» هذا على مذهب المعتزلة من أن إرادة الله الفعل من العبد بمعنى الأمر . وأما مذهب أهل السنة فكل ما أراد الله كان ، ولا يقع في ملكه إلا ما يريد ، وتحقيقه في علم التوحيد . (ع)

فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْمِلُونَ ﴿٥٩﴾

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

الذنوب : الدلو العظيمة ، وهذا تمثيل ، أصله في السقاة يتقسمون الماء فيكون لهذا ذنوب ولهذا ذنوب . قال :

لَنَا ذُنُوبٌ وَلَكُمْ ذُنُوبٌ فَإِنْ أَيْسَمُ فَلَنَا الْقَلِيبُ ^(١)

ولما قال عمرو بن شاس :

وَفِي كُلِّ حَيٍّ قَدْ خَبَطَتْ بِنِعْمَةٍ خَقٌّ لِشَاسٍ مِنْ نَدَاكَ ذُنُوبٌ ^(٢)

قال الملك : نعم وأذنبه . والمعنى : فإن الذين ظلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتكذيب من أهل مكة لهم نصيب من عذاب الله مثل نصيب أصحابهم ونظرانهم من القرون . وعن قتادة : سجلا من عذاب الله مثل سجل أصحابهم (من يومهم) من يوم القيامة . وقيل : من يوم بدر . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرأ سورة والذاريات أعطاه الله عشر حسنات بعدد كل ربح هبت وجرت في الدنيا . ^(٣)

(١) إنا إذا شاربنا شريب له ذنوب ولنا ذنوب

فإن أي كان له القلب

الشريب من يشرب معك . والذنوب : الدلو الممتلئة ماء ، والنصيب من الماء . والذنابة : مسيل الماء . والقلب البئر لقلب ترابه . يقول : إنا كرام نفاطر شربنا ، فإن لم يرض بالمناوبة أعطيتاه الجميع . وروى بدل المصراعين الآخرين :

لنا ذنوب ولكم ذنوب فإن أيسم فلنا القلب

ولعل الصواب : فإن أي أو فإن أيسم فلنا ؛ لثلاث ينكر البيت . والمعنى : نقول لمن يشرب معنا ذلك ، ففيه دلالة على الشجاعة والقلبة . والشريب كالمشير : يطلق على الواحد والمتعدد .

(٢) وأنت الذي آثاره في عدوه من اليأس والنعمي لمن ندوب

وفي كل حي قد خبطت بنعمة خق لفساس من ندادك ذنوب

لشاس أخى عاقمة بن عبيدة ، يخاطب الحرث بن أبي شمر الغساني وكان أسيراً عنده . والندوب : في الأصل : آثار الجراح بعد برزها . ومن بيانية ، أي : آثاره التي هي اليأس والنعمي . أو ابتدائية ، أي : الناشئة منها ، لمن بقايا في عدوه . واليأس : الشدة . والنعمي : الرخاء . والخابط : الذي يخبط مواضع الفقراء يتفقد أحوالهم من غير تخصيص ، ثم قيل لكل طالب : خابط ومخبط . ويجوز أن يكون من قولهم : خبط الشجرة ؛ ليسقط ورقها للابل والنعم فاستعار في نفسه الورق للأموال ، والخبط تخجيل والمعنى أنه فجع كريم ، بأسه أو من الأعداء ونعمته ظهرت عليهم بل على جميع الناس وشاس من ، ضع الظاهر موضع المضمر لآظهار المسكنة والاستعطاف : وقيل : إن القائل عمرو بن شاس ، فوضع الظاهر في موضعه . ولما سمع الحرث ذلك قال : نعم وأذنبته ، وكسا شاماً ومن معه ، وأركبهم وأطلقهم ، ولما استعار الذي للعطاء رشح ذلك بالذنوب : وهو الدلو الممتلئة .

(٣) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه .

سورة الطور

مكية ، وهي تسع وأربعون ، وقيل : ثمان وأربعون آية

[نزلت بعد السجدة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ ① وَكِتَابٍ مُنطَوِّرٍ ② فِي رَقٍّ مُنشُورٍ ③ وَالْبَيْتِ
الْمَعْمُورِ ④ وَالسَّيْفِ الْمَرْفُوعِ ⑤ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ⑥ إِنَّ عَذَابَ
رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ⑦ مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ ⑧ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ⑨
وَتُسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا ⑩

الطور : الجبل الذي كلم الله عليه موسى وهو بمدين . والكتاب المنطوي في الرق المنشور ، والرق : الصحيفة . وقيل : الجلد الذي يكتب فيه الكتاب الذي يكتب فيه الاعمال . قال الله تعالى (ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا) وقيل : هو ما كتبه الله لموسى وهو يسمع صرير القلم . وقيل : اللوح المحفوظ . وقيل القرآن ، ونكر لانه كتاب مخصوص من بين جنس الكتب ، كقوله تعالى (ونفس وما سواها) . (والبيت المعمور) الضراح ^(١) في السماء الرابعة . وعمرانه : كثرة غاشيته من الملائكة . وقيل : الكعبة لكونها معمورة بالحجاج والعمار والمجاورين (والسقف المرفوع) السماء (والبحر المسجور) المملوء . وقيل : الموقد ، من قوله تعالى (وإذا البحار سجرت) وروى أن الله تعالى يجعل يوم القيامة البحار كلها نارا تسجر بها نار جهنم . وعن علي رضي الله عنه أنه سأل يهوديا : أين موضع النار في كتابكم؟ قال : في البحر . قال علي : ما أراه إلا صادقا ، ^(٢) لقوله تعالى (والبحر المسجور) . (لواقع) لنازل . قال

(١) قوله « والبيت المعمور الضراح في السماء » في الصحاح « الضراح » بالضم : بيت في السماء ، وهو البيت المعمور . عن ابن عباس . (ع)

(٢) أخرجه الطبري من رواية داود بن أبي هند عن سعيد بن المسيب قال : قال علي لرجل من اليهود : أين جهنم؟ قال : البحر . قال . ما أراه إلا صادقا : (والبحر المسجور) ، (وإذا البحار سجرت) .

جبير بن مطعم : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أكله في الأسارى فألفيته في صلاة الفجر يقرأ سورة الطور ، فلما بلغ : إن عذاب ربك لواقع : أسليت خوفاً من أن ينزل العذاب ^(١) (تمور السماء) تضطرب وتجىء وتذهب . وقيل : المور تحرك في تموج ، وهو الشيء يتردد في عرض كالداغصة في الركبة . ^(٢)

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَى نَارِهِمْ دَعَاً ^(١١) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ^(١٢) أَفَسِحَّرَ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ^(١٣) أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ^(١٤)

غلب الخوض في الاندفاع في الباطل والكذب . ومنه قوله تعالى ﴿ وكنا نخوض مع الخائضين ﴾ ، (وخضتم كالذي خاضوا) الدع : الدفع العنيف ، وذلك أن خزنة النار يغلقون أيديهم إلى أعناقهم ، ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم ، ويدفعونهم إلى النار دفعاً على وجوههم وزخاً في أفقيتهم . ^(١) وقرأ زيد بن علي : يدعون ، من الدعاء أي يقال لهم : هلموا إلى النار ، وادخلوا النار (دعاً) مدعوين ، يقال لهم : هذه النار (أفسح هذا) يعني كنتم تقولون للوحى هذا سحر ، أفسح هذا ؟ يريد : أهذا المصدق أيضاً سحر ؟ ودخلت الفاء لهذا المعنى (أم أنتم لا تبصرون) كما كنتم لا تبصرون في الدنيا ، يعني : أم أنتم عمى عن الخبر عنه كما كنتم عمياً عن الخبر ، وهذا تقريع وتهكم (سواء) خبر محذوف ، أي : سواء عليكم الأمران : الصبر وعدمه . فإن قلت : لم علل استواء الصبر وعدمه بقوله (إنما تجزون ما كنتم تعملون) ؟ قلت : لأن الصبر إنما يكون له مزية على الجزع ، لنفعه في العاقبة بأن يجازى عليه الصابر جزاء الخير ، فأما الصبر على العذاب الذي هو الجزاء ولا عاقبة له ولا منفعة ، فلا مزية له على الجزع .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ^(١٥) فَكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ

(١) لم أجده هكذا . والذي جاء في الصحيح وأن ذلك في صلاة المغرب ، وأنه قال لما سمع (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون) - إلى آخره : كاد قلبي يطير .

(٢) قوله «كالداغصة في الركبة» هي العظم المدور الذي يتحرك على رأس الركبة ، كما في الصحاح . (ع)

(٣) قوله «وزخاً في أفقيتهم» في الصحاح «زخه» أي : دفعه في وهدة أم . (ع)

رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾

مُتَكِبِّينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾

(في جنات ونعيم) في أية جنات وأى نعيم ، بمعنى الكمال في الصفة . أو في جنات ونعيم مخصوصة بالمتقين خلقت لهم خاصة . وقرئ : فاكهين وفكهين وفاكهون : من نصبه حالا جعل الظرف مستقرا ، ومن رفعه خبرا جعل الظرف لغوا ، أى : متلذذين (بما آتاهم ربهم) . فإن قلت : علام عطف قوله (ووقاهم ربهم) ؟ قلت : على قوله (في جنات) أو على (آتاهم ربهم) على أن تجعل ما مصدرية ؛ والمعنى : فاكهين بإيتائهم ربهم ووقايتهم عذاب الجحيم . ويجوز أن تكون الواو للحال وقد بعدها مضمرة . يقال لهم (كلوا واشربوا) أكلا وشربا (هنيئا) أو طعاما وشرابا هنيئا ، وهو الذى لا تنغيص فيه . ويجوز أن يكون مثله في قوله :

هَنِيئًا مَرِيئًا غَيْرَ دَاءٍ مَخَامِرٍ لِعَزَّةٍ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتْ ^(١)

أعنى : صفة استعملت استعمال المصدر القائم مقام الفعل مرتفعا به ما استحلّت كما يرتفع بالفعل ، كأنه قيل : هناء عزة المستحل من أعراضنا ، وكذلك معنى (هنيئا) ههنا : هنا . كم الأكل والشرب . أو هناءكم ما كنتم تعملون ؛ أى : جزاء ما كنتم تعملون . والباء مزيدة كما في (كنى بالله) والباء متعلقة بكلوا واشربوا إذا جعلت الفاعل الأكل والشرب . وقرئ : بعيس ^(٢) عين .

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِكِهَيِّ

(١) يكفها الخنزير شتمى وماها هوانى ولكن للهلك استدل

هنيئا مريئا غير داء مخامر لعزة من أعراضنا ما استحلّت

لكثير بن صخر صاحب عزة ، كانت ينفذ أشعاره في حلقة البصرة ، فمرت به مع زوجها فقال لها : لتفضنه أولا ضربتك ، فقالت : كذا وكذا بقم الشاعر ، فقال ذلك . وقيل : خرجت تطلب سمنا فصادفها كثير فتحدثا ، وسكب من أدوة معه في إنائها حتى بل ثوبها ، وأنكر ذلك زوجها ، فقصت عليه القصص ، فأمرها بشتمه فقال ذلك . والمليك : مالك أمرها . وماها هوانى : أى ليست مريدة له . وهنيئا مريئا : صفتان مستعملتان استعمال المصدر النائب عن فعله ، وما استحلّت : مرفوع علا بأحدهما على التنازع ، وغير نصب على الحال . ومن أعراضنا بيان لما بعده . والغنى والمرى : الذى لا تنغيص فيه . المحمود العاقبة ، والمخامر : المخالط ، وشبه عرضه بالشراب السائغ على طريق المكنية . وهنيئا مريئا : تخييل . ويجوز أن التجوز فهما على طريق التصريحية .

(٢) قوله «وقرى- بعيس» فى الصحاح : العيس - بالكسر - : الأبل البيض مخالط بياضها شئ من الشفرة ،

واحدها : أعيس ، والأثنى : عيساء ، ويقال : هى كرائم الأبل اه ولعل هنا استعارة للنساء . (ع)

وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَبُونَ ﴿٢٣﴾ يَنْزِعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَعْوُ فِيهَا وَلَا تَأْنِيمٌ ﴿٢٣﴾

وَيُطَوِّفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ﴿٢٤﴾

(والذين آمنوا) معطوف على (حور عين) أى قرانهم بالحور وبالذين آمنوا، أى :
بالرفقاء والجلساء منهم ، كقوله تعالى (إخوانا على سرر متقابلين) فيشتمعون تارة بملاعبة
الحور ، وتارة بمؤانسة الإخوان المؤمنين (وأتبعناهم ذرياتهم) قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : (إن الله يرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه لثقت بهم ^(١) عينه ، ثم تلا هذه
الآية . فيجمع الله لهم أنواع السرور بسعادتهم في أنفسهم ، وبمزاوجة الحور العين ، وبمؤانسة
الإخوان المؤمنين ، وباجتماع أولادهم ونسلهم بهم . ثم قال (يايمان ألحقنا بهم ذرياتهم) أى
بسبب إيمان عظيم رفيع المحل ، وهو إيمان الآباء ألحقنا بدرجاتهم ذرياتهم وإن كانوا لا يستأهلونها ،
تفضلا عليهم وعلى آبائهم ، لنتم سرورهم ونكمل نعيمهم . فإن قلت : ما معنى تشكير الإيمان ؟
قلت : معناه الدلالة على أنه إيمان خاص عظيم المنزلة . ويجوز أن يراد : إيمان الذرية الداني المحل ،
كأنه قال : بشيء من الإيمان ، لا يؤهلهم لدرجة الآباء ألحقناهم بهم . وقرئ : وأتبعهم ذرياتهم وأتبعهم
ذرياتهم . وذرياتهم : وقرئ : ذرياتهم ، بكسر الذال . ووجه آخر : وهو أن يكون (والذين
آمنوا) مبتدأ خبره (يايمان ألحقنا بهم ذرياتهم) وما بينهما اعتراض (وما ألتناهم) وما نقصناهم ،
يعنى : وفرنا عليهم جميع ما ذكرنا من الثواب والتفضل ، وما نقصناهم من ثواب عملهم من شيء .
وقيل معناه : وما نقصناهم من ثوابهم شيئا نعطيه الأبناء حتى يلحقوا بهم ، إنما ألحقناهم بهم على
سبيل التفضل . قرئ : ألتناهم ، وهو من باين : من ألت يألث ، ومن آلات يليت ، كألمات يमित .
وآلتناهم ، من آلت يؤلت ، كآمن يؤمن . ولتناهم ، من لات يليت . وولتناهم ، من ولت يلت .
ومعناها واحد (كل امرئ بما كسب رهين) أى مرهون ، كأن نفس العبد رهن عند الله
بالعمل الصالح الذى هو مطالب به ، كما يرهن الرجل عبده بدين عليه ، فإن عمل صالحا فكفها
وخلصها ، وإلا أوبقها (وأمددناهم) وزدناهم فى وقت بعد وقت (ينازعون) يتعاطون
ويتعاورون هم وجلساؤهم من أقربائهم وإخوانهم (كأسا) خمرأ (لا لغو فيها) فى شربها (ولا
تأنيث) أى لا يتكلمون فى أثناء الشرب بسقط الحديث وما لا طائل تحته كفعل المتنادمين فى
الدنيا على الشراب فى سفههم وعربدتهم ، ولا يفعلون ما يؤثم به فاعله ، أى : ينسب إلى الإثم

(١) أخرجه البزار وابن عدى . وأبو نعيم فى الحلية وابن مردويه . والثعلبى من طريق قيس بن الربيع عن
عمرو بن مرة عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس مرفوعا . قال البزار تفرد قيس برفعه . ورواه الثورى موقوفا
ورواه الحاكم والبيهقى فى الاعتقاد والطبرى وابن أبي حاتم من طريق الثورى عن عمرو بن مرة به موقوفا

لو فعله في دار التكليف من الكذب والشتم والفواحش ، وإنما يتكلمون بالحكم والكلام الحسن متلذذين بذلك ، لأن عقولهم ثابتة غير زائلة ، وهم حكام علماء . وقرئ : لا لغوفها ولا تأثيم (غلبان لهم) أى يملكون لهم مخصوصون بهم (مكشون) فى الصدف ، لأنه رطباً أحسن وأصفى . أو يحزون لأنه لا يخزن إلا الثمين الغالى القيمة . وقيل لقتادة : هذا الخادم فكيف المخدم ؟ فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده إن فضل المخدم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » ^(١) وعنه عليه السلام : « وإن أدنى أهل الجنة منزلة من ينادى الخادم من خدامه فيجيبه ألف بياحه : ليك ليك » ^(٢) .

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ^(٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ^(٢٦) فَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّنَا عَذَابَ السُّومِ ^(٢٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ^(٢٨)

(يتساءلون) يتحادثون ويسأل بعضهم بعضاً عن أحواله وأعماله وما استوجب به نيل ما عند الله (مشفقين) أرقاء القلوب من خشية الله . وقرئ : ووقنا ، بالتشديد (عذاب السوم) عذاب النار ووجهها ولحمها . والسوم : الريح الحارة التى تدخل المسام فسميت بها نار جهنم لأنها بهذه الصفة (من قبل) من قبل لقاء الله تعالى والمصير إليه ، يعنون فى الدنيا (ندعوه) نعبده ونسأله الوقاية (إنه هو البر) المحسن (الرحيم) العظيم الرحمة الذى إذا عبد أثناب وإذا سئل أجاب . وقرئ : أنه بالفتح ، بمعنى : لأنه .

فَذَكَرْنَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ^(٢٩)

(فذكر) فأنبت على تذكير الناس وموعظتهم ، ولا يثبطنك قولهم : كاهن أو مجنون ، ولا تبال به فإنه قول باطل متناقض : لأن الكاهن يحتاج فى كهانيته إلى فطنة ودقة نظر ، والمجنون مغطى على عقله . وما أنت بحمد الله وإنعامه عليك بصدق النبوة ورجاحة العقل أحد هذين .

أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ ^(٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّ مَعَكُمْ

(١) أخرجه عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة به قال فذكره ، وأخرجه الثعلبي من رواية الحسن مرسلًا

(٢) أخرجه الثعلبي من رواية عمر بن عبد العزيز البصري عن يوسف بن أبي طيبة عن وكيع عن هشام عن أبيه عن عائشة نحوه .

مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ۚ (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢)
 أَمْ يَقُولُونَ قَوْلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا
 صَادِقِينَ (٣٤) أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمْ
 الْمَصْطَرُونَ (٣٧) أَمْ هُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ
 مُبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ
 مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ
 كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ
 عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣)

وقرئ: يتربص به ريب المنون، على البناء للفعول. وريب المنون. ما يقلق النفوس
 ويشخص بها من حوادث الدهر. قال:

* أَمِنَ الْمُنُونِ وَرَيْبِهِ أَتَوَجَّعُ * (١)

وقيل: المنون الموت، وهو في الأصل فعول؛ من منه إذا قطعه؛ لأن الموت قطع؛
 ولذلك سميت شعوب. قالوا: فننظر به نوائب الزمان فيهلك كما هلك من قبله من الشعراء: زهير
 والنايفة (من المتربصين) أتربص هلاككم كما تتربصون هلاكى (أحلامهم) عقولهم وألبابهم.
 ومنه قولهم: أحلام عاد. والمعنى: أنأمروهم أحلامهم بهذا التناقض في القول، وهو قولهم:
 كاهن وشاعر، مع قولهم بجنون. وكانت قريش يدعون أهل الأحلام والنهي (أم هم قوم طاغون)
 مجاوزون الحد في العناد مع ظهور الحق لهم. فإن قلت: ما معنى كون الأحلام أمرة؟ قلت:

(١) أمن المنون وريبه أتوجع والدهر ليس بمعيب من يجزع
 لأبي ذؤيب مطلع مرثية بنه، والاستفهام للانكار. وريب المنون: ما يقلق النفوس ويدهشها من حوادث الدهر.
 والمنون: الموت، كالمثنية؛ لأنه مقدر، فهو من متى إذا قدر. وقوله «والدهر... الخ» جملة حالية. ويقال:
 أعبه، إذا قبل عتابه وأزال شكواه؛ فعبه الدهر بأنسان مسمى على طريق المسكنية، وإسناد الاعتبار تخيل.
 والجزع: شدة الحزن.

هو مجاز لادائها إلى ذلك ، كقوله تعالى (أصلواتك تأمرك أن تترك ما يعبد آباؤنا) وقرئ : بل هم قوم طاغون . (تقوله) اختلقه من تلقاء نفسه (بل لا يؤمنون) فلذكروهم وعنادهم يرمون بهذه المطاعن ، مع عليهم بيطلان قولهم ، وأنه ليس بمنقول لعجز العرب عنه ، وما محمد إلا واحد من العرب . وقرئ بحديث مثله على الإضافة ، والضمير لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعناه : أن مثل محمد في فصاحته ليس بمعوز في العرب ، فإن قدر محمد على نظمه كان مثله قادرا عليه ، فليأتوا بحديث ذلك المثل : (أم خلقوا) أم أحدثوا و قدروا التقدير الذي عليه فطرتهم (من غير شيء) من غير مقدر (أم هم) الذين خلقوا أنفسهم حيث لا يعبدون الخالق (بل لا يؤمنون) أى : إذا سئلوا من خلقكم وخلق السموات والأرض ؟ قالوا : الله ، وهم شاكون فيما يقولون ، لا يؤمنون . وقيل : أخلقوا من أجل لا شيء من جزاء ولا حساب ؟ وقيل : أخلقوا من غير أب وأم ؟ (أم عندهم خزائن) الرزق حتى يرزقوا النبوة من شاؤا . أو : أعندهم خزائن عليه حتى يختاروا لها من اختياره حكمة ومصلحة ؟ (أم هم المسيطرون) الأرباب الغالبون ، حتى يدبروا أمر الربوبية ويبنوا الأمور على إرادتهم ومشيتهم ؟ وقرئ : المسيطرون بالصاد (أم لهم سلم) منصوب إلى السماء يستمعون صاعدين فيه إلى كلام الملائكة وما يوحى إليهم من علم الغيب حتى يعلموا ما هو كائن من تقدم هلاكه على هلاكهم وظفرهم في العاقبة دونه كما يزعمون ؟ (بسلطان مبين) بحجة واضحة تصدق استماع مستمعهم . المفرم : أن يلتزم الإنسان ما ليس عليه ، أى : لزهم مغرم ثقيل فدحهم ^(١) فزهدهم ذلك في اتباعك ؟ (أم عندهم الغيب) أى اللوح المحفوظ (فهم يكتبون) ما فيه حتى يقولوا لا نبعث . وإن بعثنا لم نعذب ^(٢) (أم يريدون كيدا) وهو كيدهم في دار الندوة برسول الله صلى الله عليه وسلم وبالمؤمنين (فألذين كفروا) إشارة إليهم أو أريد بهم كل من كفر بالله (هم المسكيدون) هم الذين يعود عليهم وبال كيدهم ويحقيق بهم مكرهم . وذلك أنهم قتلوا يوم بدر . أو المغلوبون في الكيد ، من كادته فكدته .

وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ٤٤
فَذَرْنَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ٤٥ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ
كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ٤٦ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٤٧

(١) قوله «فدحهم فزهدهم» أى : أثقلهم وبهظهم . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) قوله «وإن بعثنا لم نعذب» لعله : لا نعذب . (ع)

الكسف : القطعة ، وهو جواب قولهم (أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا) يريد : أنهم لشدة طغيانهم وعنادهم لو أسقطناه عليهم لقالوا : هذا سحاب مركوم بعضه فوق بعض يطرنا ، ولم يصدقوا أنه كسف ساقط للعذاب . وقرئ : حتى يلقوا ويلقوا (يصعقون) يموتون . وقرئ : يصعقون . يقال . صعقه فصعق ، وذلك عند النفخة الأولى نفخة الصعق (وإن للذين ظلموا) وإن . لهؤلاء الظلمة (عذابا دون ذلك) دون يوم القيامة : وهو القتل بيد ، والقحط سبع سنين ، وعذاب القبر . وفي مصحف عبد الله : دون ذلك قريبا .

وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾

وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾

(لحكم ربك) بامهالهم وما يلحقك فيه من المشقة والكلفة (فإنك بأعيننا) مثل ، أى : بحيث نراك ونكلوك . وجمع العين لأن الضمير بلفظ ضمير الجماعة . ألا ترى إلى قوله تعالى (ولتصنع على عيني) . وقرئ : وبأعيننا ، بالإدغام (حين تقوم) من أى مكان قت . وقيل : من منامك (وإدبار النجوم) وإذا أدبرت النجوم من آخر الليل . وقرئ : وأدبار ، بالفتح بمعنى فى أعقاب النجوم وآثارها إذا غربت . والمراد الأمر بقول : سبحان الله وبحمده فى هذه الأوقات . وقيل التسييح : الصلاة إذا قام من نومه ، ومن الليل : صلاة العشاءين ، وأدبار النجوم : صلاة الفجر .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة الطور كان حقا على الله أن يؤمنه من عذابه وأن ينعمه فى جنته ، » (١) .

(١) أخرجه الترمذي وابن مردويه والواحدى بأسانيدهم إلى أبي بن كعب رضى الله عنه .

سورة النجم

مكية [إلا آية ٣٢ فمدنية] وآياتها ٦٢ وقيل ٦١ آية

[نزلت بعد الإخلاص]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ① مَاصِلَ صَاحِبِكُمْ وَمَا عَوَى ② وَمَا يُنطِقُ عَنِ
 الْهَوَىٰ ③ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ④ عِلْمُهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ⑤
 ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ⑥ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ⑦ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ⑧ فَكَانَ
 قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ⑨ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ⑩ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ
 مَا رَأَىٰ ⑪ أَفَتَمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ⑫ وَأَقْدَرَ رَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ⑬
 عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ⑭ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ⑮ إِذْ يَبْعَثُ السِّدْرَةَ
 مَا يَنْشَىٰ ⑯ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ⑰ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ مَّآبِتِ
 رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ⑱

النجم : الثريا ، وهو اسم غالب لها . قال :

إِذَا طَلَعَ النَّجْمُ عِشَاءَ إِبْنَعَى الرَّاعِي كِسَاءَ ①

(١) هذا بقوله العرب عند الفناء ، وتقول عند الصيف : ه طلع النجم غدوة : وابنعي الراعي شكية . والنجم : اسم غالب على الثريا ؛ قيل : إنها تخفى في السنة أربعين يوما يسترها ضوء الشمس ، وتظهر عند دخول الفناء عشاءً ، وعند دخول الصيف صباحاً ، والكساء : ثوب ساينج . والغدية : تصغير غدوة : وهي أول النهار . والشكية : تصغير شكوة ، وهي قرية صغيرة جرداء ؛ لأنه في الفناء يطلب كساء بدنية لكثرة البرد ، وفي الصيف يطلب قرية يشرب منها لكثرة الحر ؛ والأول كناية عن دخول البرد ، والثاني كناية عن دخول الحر .

أو جنس النجوم . قال :

• فَبَاقَتْ تَعْدُ النُّجُومَ فِي مُسْتَعِيرَةٍ • (١)

يريد النجوم (إذا هوى) إذا غرب أو انتثر يوم القيامة . أو النجم الذي يرحم به إذا هوى : إذا انقض . أو النجم من نجوم القرآن ، وقد نزل منجما في عشرين سنة ، إذا هوى : إذا نزل . أو الثبات إذا هوى : إذا سقط على الأرض . وعن عروة بن الزبير أن عتبة بن أبي لهب وكانت تحته بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد الخروج إلى الشام ، فقال : لآتين محمداً فلاؤذنيه ؛ فأتاه فقال : يا محمد ، هو كافر بالنجم إذا هوى ، وبالأذى دنا فتدلى ، ثم تغل في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وردّ عليه ابنته وطلقها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم سلط عليه كلبا من كلابك ، وكان أبو طالب حاضرا ، فوجم (١) لها وقال : ما كان أغناك يا ابن أخي عن هذه الدعوة ! فرجع عتبة إلى أبيه فأخبره ، ثم خرجوا إلى الشام فزلوا منزلاً ، فأشرف عليهم راهب من الدير فقال لهم : إن هذه أرض مسبعة ، فقال أبو لهب لأصحابه : أغثونا يامعشر

(١)	فقد علموا أني وفيت لربها	فراح على عنس بأخرى يقودها
	قرت الكلابي الذي يئني القرى	وأملك إذ يحدي إلينا فعودها
	فباتت تعد النجم في مستعيرة	سريع بأيدي الأكلين جودها
	فلما سقيناها العكيس ثلاث	مذاخرها وارفض منها وريدها
	ولما قضت من ذى الاناء لبانة	أرادت إلينا حاجة لا نريدها

الراعي النيمى من بنى قحطان بن ربيعة : نزل به أضياف من بنى كلاب وقد غابت إليه ، فخير لهم ناقة من ركا بهم ، فلما أصبح أقبلت عليه إليه ، فأعطى صاحب الناقة مثلها ، وأعطاه ثنية زيادة عليها ، ونذمه خنوز بن أرقم من بنى بدر ابن ربيعة على ذبحها ، فأجابه الراعي بقصيدة منها ذلك . والعنس : الناقة الصلبة . وأملك : عطف على الكلابي . ويحدي : مبنى البجهول ، أى : يساق بالغناء له . والقعود - كصبور - : البكر من الابل ؛ لأنه لا يمكن الراكب من القعود على ظهره . وروى : إذ يحدي إليك ، بدل إلينا . ولعله بعد الضيافة الآتية أو تحريف : فباتت أملك تعد النجم ، أى : تحسب صور النجوم ، أو تحسب فقايع المرق في الجفنة ؛ فاستعار لها النجم على سبيل التصريرية . أو تحسب الثريا ؛ لأن النجم اسم غالب عليها ، وهى سبعة نجوم : ترى صورتها في ليالى الشتاء . وقيل : المراد بالعد هنا : الظن ، أى باتت تظن فيها . والمستعيرة : المتحيرة بامتلائها من المرق . وبرى : مستعيرة لأنها تبحر الناس للأكلى منها والعكس : المرق المزوج باللبن الحليب . وتملأت : امتلأت . وبرى : تمدحت ، بالبدال المهمة ، أى : اتسعت من الشبع . وبرى بالمعجمة ، أى : اصططكت واضطربت . والمذاخر : مواضع الاغثار ؛ والمراد بها المنة والامعاء . وبرى : خواصرها ، أى : جوانبها . وارفض : رشع وترشرش وارتمد ونفر ، وبرى : وازداد رشحاً وريدها . أى : باتت تنظر النجوم في جفنة كثيرة المرق والدم ، سريع جود دسما على أيدي الأكلين من برد الشتاء ، حتى إذا امتلأت لبتنا ونفرت عروق عنقها وقضت لبانة ، أى : حاجة من صاحب الاناء وهو المرق واللبن : طلبت منا حاجة لا نريدها ولا نرضاها ؛ لأنها فاحشة وكأنه ضمن أرادت معنى التضرع أو الميل أو النسبة فعداء بالى . ويجوز أنها بمعنى من ، كما أوضحناه في آخر حرف الباء .

(٢) قوله « فوجم لها » أى اشتد حزنه . أفاده الصحاح . (ع)

قريش هذه الليلة ، فإنني أخاف على ابني دعوة محمد ، فجمعوا جمالهم وأناخواها حولهم ؛ وأحدقوا بعتبة ، فجاء الأسد يتشمم وجوههم ، حتى ضرب عتبة فقتله .^(١) وقال حسان :

مَنْ يَرْجِعُ الْعَامَ إِلَى أَهْلِهِ فَا أَكِيلُ السَّبْعِ بِالرَّاجِعِ^(٢)

(ما ضل صاحبكم) يعني محمداً صلى الله عليه وسلم : والخطاب لقريش ، وهو جواب القسم ، والضلal : نقيض الهدى ، والنفي نقيض الرشد ، أى : هو مهتد راشد وليس كما تزعمون من نسبتكم إياه إلى الضلال والنفي ، وما أناكم به من القرآن ليس بمنطق يصدر عن هواه ورأيه ، وإنما هو وحى من عند الله يوحى إليه . ويحتج بهذه الآية من لا يرى الاجتهاد للأنبياء ، ويجاب بأن الله تعالى إذا سوغ لهم الاجتهاد ، كان الاجتهاد وما يستند إليه كله وحياً لا نطقاً عن الهوى (شديد القوى) ملك شديد قواه ، والإضافة غير حقيقية ، لأنها إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها ، وهو جبريل عليه السلام ، ومن قوته أنه اقتلع قرى قوم لوط من الماء الأسود ، وحملها على جناحه ، ورفعها إلى السماء ثم قلبها ، وصاح صيحة بشمود فأصبحوا جاثمين ، وكان هبوطه على الأنبياء وصموده فى أوحى من رجمة الطرف^(٣) ، ورأى إبليس يكلم عيسى عليه السلام على

(١) أخرجه أبو نعيم فى الدلائل من طريق ابن إسحاق عن عثمان بن عروة عن أبيه فذكر مثله . إلا أنه قال «فضربه الأسد بذنبه ضربة واحدة فأت مكانه» ورواه البيهقي فى الدلائل والطبراني من طريق سعيد عن قتادة مطولاً نحوه . لكن قال عتبة : ورواه الحاكم والبيهقي فى الدلائل أيضاً . من رواية أبي نوفل بن أبي عقرب عن أبيه . قال «كان لبيب بن أبي لمب» فذكره مختصراً . وقال البيهقي : هكذا قال عباس بن الفضل الأزرق . وليس بالقوى . وأهل المنازى يقولونه عتبة أو عتبة

(٢) لا يرفع الرحمن مصروعكم ولا يوهن قوة الصارع
وكان فيه لكم عبرة للسيد المتبوع والتابع
من يرجع العلم إلى أهله فأكيل السبع بالراجع
من عاد فالبيت له عائد أعظم به من خير شائع

لحسان بن ثابت . روى عن عروة بن الزبير أن عتبة بن أبي لمب كان نعمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذهب إليه وقال : إنه كافر بالنجم إذا هوى وبالدنى دنا فتدل ثم تغل فى وجهه وطلق ابنته وخرج إلى الشام فقال صلى الله عليه وسلم : اللهم سلط عليه كلباً من كلابك ، فبينما هم يحرسونه ذات ليلة فى سفر ، إذ جاء أسد يتشمم وجوههم حتى ضرب عتبة فقتله ، فقال حسان ذلك ؛ والقملان مجرومان بلا الدعاية . ويوهن بالتشديد ؛ والمعنى الدماء على القليل والدماء للقاتل . والمصروع : المطروح . والعبرة : الاعتبار أو ما يعتبر به . والتابع عطف على السيد . من يرجع فى هذا العام إلى أهله فلن يوجب وجوع غيره ؛ لأن من أكله السبع لا يرجع فلا يشن أهله رجوعه ، لاستحالة وسكون السبع لفة ، ثم قال : من عاد لمثل فعل عتبة فالأسد عائد له ، وأعظم به : صيغة تعجب ، من خبر : تمييز مقترن بمن ، شائع : ذائع منتشر .

(٣) قوله «فى أوحى من رجمة الطرف» أى : أسرع من الوحى وهو الصرعة ، يد ويقصر ، كذا فى الصحاح . وفيه أيضاً : نفخت الناقة : ضربت برجلها ، ونفخه بالسيف : تناوله . (ع)

بعض عقاب الأرض المقدسة ، فنفضه بجناحه نفضة فألقاه في أقصى جبل بالهند (ذو مرة) ذو حصافة في عقله ^(١) ورأيه ومثانيه في دينه (فاستوى) فاستقام على صورة نفسه الحقيقية دون الصورة التي كان يتمثل بها كلما هبط بالوحى ؛ وكان ينزل في صورة دحية ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب أن يراه في صورته التي جبل عليها ، فاستوى له في الأفق الأعلى وهو أفق الشمس فلا الأفق ^(٢) . وقيل : ما رآه أحد من الأنبياء في صورته الحقيقية غير محمد صلى الله عليه وسلم مرتين : مرة في الأرض ، ومرة في السماء ^(٣) (ثم دنا) من رسول الله صلى الله عليه وسلم (فتدلى) فتعلق عليه في الهواء . ومنه : تدلت الثمرة ، ودلى رجله من السرير . والدوالى : الثمر المعلق . قال :

• تَدَلَّى عَلَيَّهَا بَيْنَ سَبَبٍ وَخَيْطَةٍ • ^(٤)

ويقال : هو مثل القرلى : إن رأى خيراً تدلى ، وإن لم يره تولى (قاب قوسين) مقدار قوسين عربيتين : والقاب والقيب ؛ والقاد والقيد ، والقيس : المقدار . وقرأ زيد بن علي : قاد . وقرئ : قيد ، وقدر . وقد جاء التقدير بالقوس والرحم ، والسوط ، والذراع ، والباع ، والخطوة ، والشبر ، والفتر ، والأصبع . ومنه : لا صلاة إلى أن ترتفع الشمس مقدار ربحين ^(٥) . وفى الحديث : لقاب قوس أحدكم من الجنة وموضع قدح خير من الدنيا وما فيها ^(٦) ، والقذ : السوط . ويقال : بينهما خطوات يسيرة . وقال :

(١) قوله : ذو حصافة في عقله ، أى : استحكام ، أفاده الصحاح . (ع)

(٢) لم أجده هكذا . وفى الصحيحين من رواية مسروق عن عائشة «أنا أول من سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : إنما هو جبريل لم أره على صورته التى رآته عليها غير هاتين المرتين : رأيت منهبطاً من السماء ساداً عظم خلقه ما بين السماء والأرض» وللزمخدرى وابن حبان «ولكنه رأى جبريل ، لم يره في صورته إلا مرتين : مرة عند مدبرة المنهى . ومرة في أجياد ، له ستائة جناح ، وقد سد الأفق» .

(٣) لم أجده . هكذا . وذكر المرتين ، تقدم في الذى قبله .

(٤) تدلى عليها بين سب و خيطة تدلى دلو الماسخ المتشعر

يروى لأبي ذؤيب بدل الشطر الثانى : مجرداء مثل الوكف يكبو غرابها . والسب - بالكسر - : الحبل ، والخار ، والمهامة ، والخيطة كذلك الوند ونحوه : فى لغة هذيل . والماسخ : ماله الدلو من أسفل البئر . والماسخ - بالناء - : المستقى ، يصف جاني العسل بأنه تدلى على النحل أو العسل ؛ لأنه يؤث أيضاً ، أى : نزل متمسكاً بجبل مشدود فى وند ، كتدلى دلو الماله النشيط . والجرداء : فرس قليلة الشعر . والوكف : النطح . وكبا الجواد يكبو : سقط على وجهه . وغراب الدابة : أعلى ظهرها ، أى : كأن غرابها ينحدر لسرعة سيرها .

(٥) أخرجه الحاكم من حديث عمرو بن عبسة فى حديث طويل ورواه إسحاق والدارقطنى من حديث كعب بن مرة نحوه فى حديث ، ورواه الطبرانى من حديث عبد الرحمن بن عوف مختصراً .

(٦) أخرجه البخارى من طريق جيد عن أنس أمم من هذا .

• وَقَدْ جَعَلْتَنِي مِنْ حَزِيمَةٍ أَصْبَعًا • (١)

فإن قلت : كيف تقدير قوله (فكان قاب قوسين) ؟ قلت : تقديره فكان مقدار مسافة قربه مثل قاب قوسين ^(١) ، فخذت هذه المضافات كما قال أبو علي في قوله : • وقد جعلتني من حزيمة أصبعا • أى : ذا مقدار مسافة أصبع (أو أدنى) أى على تقديركم ، كقوله تعالى (أو يزيدون) . (إلى عبده) إلى عبد الله ، وإن لم يجر لاسمه عز وجل ذكر ، لأنه لا يلبس ؛ كقوله (على ظهرها) . (ما أوحى) تفخيم للوحى الذى أوحى ^(٢) إليه : قيل أوحى إليه وإن الجنة محزومة على الأنبياء حتى تدخلها وعلى الأئمة حتى تدخلها أمثلك (ما كذب) فؤاد محمد صلى الله عليه وسلم ما رآه ببصره من صورة جبريل عليه السلام ، أى : ما قال فؤاده لما رآه : لم أعرفك ، ولو قال ذلك لكان كاذبا ، لأنه عرفه ، يعنى : أنه رآه بعينه وعرفه بقلبه ، ولم يشك فى أن ما رآه حق وقرئ : ما كذب ، أى صدقه ولم يشك أنه جبريل عليه السلام بصورته (أفتأرونها) من المراء وهو الملاحة والمجادلة واشتقاقه من مرى الناقة : ^(٣) كأن كل واحد من المتجادلين يمرى ما عند صاحبه . وقرئ : أفتغلبونه : أفتغلبونه فى المراء ، من ماريتها فريته ، ولما فيه من معنى الغلبة عدى بعلى ، كما تقول : غلبته على كذا : وقيل : أفتغلبونه : أفتجحدونه . وأنشدوا :

لَيْزَ هَجَوْتَ أَخَا صِدْقٍ وَمَكْرُمَةٍ لَقَدْ مَرَيْتَ أَخَا مَا كَانَ يَمْرِيكَ ^(٤)

(١) فأدرك إبقاء المراوة ظلها وقد جعلتني من حزيمة أصبعا

للكلية ، وهو لقب لعبد الله بن هيرة . وقيل : جرير بن هيرة . وقيل : هيرة بن عبد مناف . وقيل : هو للأسود بن يعفر . وقيل : لرقية وليس بشئ . والابقاء : ما تبقى الفرس من الهمة لتبذله قرب بلوغ المقصد . والمراوة بكردة . وقيل : بالكسر اسم فرسه . والظلع - بالفتح - : غز فى المشية من وجع الرجل ، أى : أدرك الظلع ما بقيته الفرس فلم تقدر على بذله ، والحال أنها جعلتني قريبا من عدوى حزيمة بمهمة مفتوحة فعجزة مكسورة : رجل كان قد أغار على إبل الشاعر فقبضه . وقيل : قبيلته وليس بذلك . ويروى : فأدرك إرقال المراوة . والارقال : الاسراع فى السير ، أى : أبطل إسرائها العرج ؛ ولا بد من تأويل قوله : جعلتني أصبعا أى : جعلتني ذا مسافة أصبع . أو جعلت مسافتي مقدار أصبع .

(٢) قال محمود : « تقديره : فكان مقدار مسافة قربه مثل قاب قوسين إلى آخره » قال أحمد : وقد قال بعضهم : إنه كناية عن المعامدة على لزوم الطاعة ؛ لأن الحليفين فى عرف العرب إذا تحالفا على الوفاء والصفاء أصفا وترى قوسيهما ، قال أحمد : وفيه ميل لقوله (أو أدنى) .

(٣) قال محمود : « هذا تفخيم للوحى الذى أوحى الله إليه » قال أحمد : التفخيم لما فيه من الإبهام ، كأنه أعظم من أن يحيط به بيان ، وهو كقوله : (إذ يغشى السدرة ما يغشى) وقوله (ففشيهم من اليم ما غشيهم) .

(٤) قوله « من مرى الناقة » فى الصحاح : مرى الناقة ، إذا مسعت ضرعها لتدر . (ج)

(٥) يقول لصاحبه : لئن ذهبت أخا صدق ومكرمة ، يعنى : نفسه . ويقال : مرى الناقة ، أى : حلها . ومنه المارة . كأن كلام المتجادلين يمرى ما عند صاحبه . ومنه : فقدمت أخاصدق ، أى : غلبت فى الجدل وأنفذت =

وقالوا: يقال مريته حقه إذا جحدته، وتعديته يعلى لا تصح إلا على مذهب التضمين (نزلة أخرى) مرة أخرى من النزول، نصبت النزلة نصب الظرف الذى هو مرة، لأن الفعل اسم للمرة من الفعل، فكانت فى حكمها، أى: نزل عليه جبريل عليه السلام نزلة أخرى فى صورة نفسه، فراه عليها، وذلك لئيلة المعراج. قيل فى سدره المنتهى: هى شجرة نبق فى السماء السابعة عن يمين العرش: ثمرها كقلال هجر، وورقها كأذان الفيول، تنبع من أصلها الأنهار التى ذكرها الله فى كتابه، يسير الراكب فى ظلها سبعين عاما لا يقطعها. والمنتهى: بمعنى موضع الانتهاء، أو الانتهاء، كأنها فى منتهى الجنة وآخرها. وقيل: لم يجاوزها أحد، وإليها ينتهى علم الملائكة وغيرهم، ولا يعلم أحدا ما وراءها. وقيل: تنتهى إليها أرواح الشهداء (جنة المأوى) الجنة التى يصير إليها المتقون: عن الحسن. وقيل: تأوى إليها أرواح الشهداء. وقرأ على وابن الزبير وجماعة: جنة المأوى، أى ستره بظلاله ودخل فيه. وعن عائشة: أنها أنكرته وقالت: من قرأ به فأجنته الله (ما يغشى) تعظيم وتكثير لما يغشاها، فقد علم بهذه العبارة أن ما يغشاها من الخلائق الدالة على عظمة الله وجلاله: أشياء لا يكتسبها النعت ولا يحيط بها الوصف. وقد قيل: يغشاها الجم الغفير من الملائكة يعبدون الله عندها. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رأيت على كل ورقة من ورقها ملكا قائما يسبح الله»^(١). وعنه عليه السلام: يغشاها رفر من طير خضر^(٢). وعن ابن مسعود وغيره: يغشاها فراش من ذهب^(٣) (ما زاغ) بصر رسول الله صلى الله عليه وسلم (وما طغى) أى أثبت ما رآه إثباتا مستيقنا صحيحا، من غير أن يزيع بصره عنه أو يتجاوزها، أو ما عدل عن رؤية العجائب التى أمر برؤيتها ومكن منها، وما طغى: وما جاوز ما أمر برؤيته (لقد رأى) والله لقد رأى (من آيات ربه) الآيات التى هى كبرها وعظماها^(٤)، يعنى: حين رقى ربه إلى السماء فأرى عجائب الملكوت.

== ما عنده، لأن من حلب الناقة يركبها بإبسة الضرع؛ أى جحدت حقه كأنك أخذته منه، أو نسيت فى إخراج ما عنده، فيملك كما دتمته. ما كان يملك، أى: ما كان يفعل بك كذلك.

(١) أخرجه الطبرى من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال قيل له: يا رسول الله، أى شئ رأيت يغشى تلك الشجرة؟ فذكره وأتم منه «وعبد الرحمن ضعيف وهذا معضل».

(٢) لم أجده.

(٣) أما حديث ابن مسعود فرواه إسحاق بن راهويه من طريق مرة عنه بهذا وأتم منه وأما غيره فرواه (٥).

(٤) قال محمود: «معناه قد رأى من آيات ربه الآيات التى ... الخ» قال أحد: ويحتمل أن تكون الكبرى صفة آيات ربه، لا مفعولا به، ويكون المرقى محذوفا لتنفخ الأمر وتطعيمه، كأنه قال: لقد رأى من آيات ربه ==

أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۖ (١٩) وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخَرَىٰ ۚ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ
وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۖ (٢١) فَإِذَا قُضِيٰ ضِيَرَّتِي ۖ (٢٢) إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ مِمَّنْ تُسَمُّوهَُا
أَنْتُمْ وَهَآبُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلَٰطِينَ ۚ إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى
الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ ۖ (٢٣)

(اللوات والعزى ومناة) أصنام كانت لهم، وهى مؤنثات؛ فاللات كانت لثقيف بالطائف.
وقيل: كانت بنخلة تعبدها قريش، وهى فعلة من لوى؛ لأنهم كانوا يلوون عليها ويعكفون
للعبادة. أو يلتوون عليها^(١): أى يطوفون. وقرئ: اللات، بالتشديد. وزعموا أنه سمى
برجل كان يلت عنده السمن بالزيت ويطعمه الحاج. وعن مجاهد: كان رجل يلت السوق
بالطائف، وكانوا يعكفون على قبره، فجعلوه وثناً. والعزى كانت لغطفان وهى سمرة.
وأصلها تأنيث الأعز، وبعث إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فقطعها،
فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها داعية ويلها، واضعة يدها على رأسها، فجعل يضربها بالسيف
حتى قتلها وهو يقول:

يَا عَزْرُ كُفِّرَا نَكَ لَأُسَبِّحَنَّكَ إِنِّي رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ أَهَانَكَ (٢)

== الكبرى أمورا عظاما لا يحيط بها الوصف، والحذف فى مثل هذا يبلغ وأمول، وهذا - والله أعلم - أول من
الأول، لأن فيه تغنيا لآيات الله الكبرى، وأن فيها مارآه فيها مالم يره، وهو على الوجه الأول يكون مقتضا
أنه رأى جميع الآيات الكبرى على الشمول والعموم، وفيه بعد؛ فان آيات الله تعالى لا يحيط أحد علما بجمليتها.
فان قال: عام أريد به خاص، فقد رجع إلى الوجه الذى ذكرناه والله أعلم.

(١) قال محمود: «اشفاق اللات من لوى على كذا إذا قام عليه لأنهم كانوا... الخ» قال أحد: الأخرى
تأنيث آخر، ولا شك أنه فى الأصل مفتق من التأخير الوجودى؛ إلا أن العرب عدلت به عن الاستعمال فى التأخير
الوجودى إلى الاستعمال حيث يتقدم ذكر منابر لاغير، حتى سلطته دلالات على المعنى الأصلى، بخلاف آخر وآخره،
على وزن فاعل وفاعلة؛ فان إشعارها بالتأخير الوجودى ثابت لم يغير. ومن ثم عدلوا عن أن يقولوا: ربيع
الآخر، على وزن الأفعال، وجمادى الأخرى: إلى ربيع الآخر، على وزن فاعل، وجمادى الآخرة على وزن
فاعلة؛ لأنهم أرادوا أن يفهموا التأخير الوجودى، لأن الأفعال والفعل من هذا الاشتقاق مسلوب الدلالة على
غرضهم، فعدلوا عنها إلى الآخر والآخرة، والتزموا ذلك فهما. وهذا البحث بما كان الشيخ أبو عمرو بن الحارث
رحمه الله تعالى قد حرره آخر مدته، وهو الحق إن شاء الله تعالى، وحيث أنه يكون المراد الأشعار بتقدم منابر فى
الذكر، مع ما نعتقه فى الوفاء بفاصلة رأس الآية، والله أعلم.

(٢) لخالد بن الوليد رضى الله عنه. وعز: مرخم عزي. وترخيمة شاذ؛ لأنه ليس رباعيا ولا مؤنثا بالهاء،
وهى شجرة كانت تعبد بها الجاهلية، فضربها بسيفه فخرجت منها جنية صارخة، فقال لها ذلك البيت. وقيل: ضربها ==

ورجع فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام تلك العزى ولن تعبد أبداً^(١). ومناة : صخرة كانت لهذيل وخزاعة . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : لثقيف . وقرى : ومناة ، وكأنها سميت مناة لأن دماء النسائك كانت تنحى عندها ، أى : تراق ، ومناة مفعلة من النوء ، كأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبركاتها . و (الأخرى) ذم ، وهى المتأخرة الوضيعة المقدار ، كقوله تعالى (وقالت أخراهم لأولاهم) أى وضعاؤهم لرؤسائهم وأشرفهم . ويجوز أن تكون الأولى والتقدم عندهم لللات والعزى . كانوا يقولون إن الملائكة وهذه الأصنام بنات الله ، وكانوا يعبدونهم ويزعمون أنهم شفعاؤهم عند الله تعالى مع وأدم البنات ، فقيل لهم (ألم الذكر وله الأنثى) ويجوز أن يراد : أن اللات والعزى ومناة إناث ، وقد جعلتموهن لله شركاء ، ومن شأنكم أن تحتقروا الإناث وتستكفوا من أن يولدن لكم وينسبن إليكم ، فكيف تجعلون هؤلاء الإناث أنداداً لله وتسمونهن آلهة (قسمة ضيرى) جائزة ، من ضازة يضيره إذا ضامه ، والأصل : ضوزى^(٢) . ففعل بها ما فعل ببيض : لتسلم الياء . وقرى : ضيرى ، من ضازة بالهمز . وضير : بفتح الضاد (هى) ضمير الأصنام ، أى ما هى (إلا أسماء) ليس تحتها فى الحقيقة مسميات ، لأنكم تدعون الإلهية لما هو أبعد شئ منها وأشدّه منافاة لها . ونحوه قوله تعالى (ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها) أو ضمير الأسماء وهى قولهم ، اللات والعزى ومناة ، وهم يقصدون بهذه الأسماء الآلهة ، يعنى : ما هذه الأسماء سميتموها بهواكم وشهوتكم ، ليس لكم من الله على حجة تسميتها برهان تتعلقون به . ومعنى (سميتموها) سميتم بها ، يقال : سميت زيدا ، وسميته يزيد (إن يتبعون) وقرى : بالتاء (إلا الظن) إلا توهم أن ما هم عليه حق ، وأن آلهتهم شفعاؤهم ، وما تشبيه أنفسهم ، ويتركون ما جاءهم من الهدى والدليل على أن دينهم باطل .

== بالفأس حتى قطعها وقتل الجنية . وكفرانك : نصب محذوف وجوبا ، كسبحان ، أى : أكفر كفرانا بك ، لأنزه تزيها لك : فهما مصدران متعيان عن اللفظ بفعليهما . والاهانة : الإذلال .

(١) أخرجه ابن مردويه من طريق محمد بن إسماعيل عن محمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح وعن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث خالد بن الوليد إلى العزى لهدمها . وكانت بذخلة عليها سادس فجاءها خالد فهدمها فذكر نحوه إلى آخره ورواه الواقدي فى المغازى والأزرقي فى التاريخ من طريقه عن عبد الله بن يزيد الهذلى عن سعيد بن عمرو الهذلى قال « قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة فذكر القصة وفيها : بعث خالد ابن الوليد إلى العزى يهدمها فذكر القصة . وكذا ذكره ابن سعد فى الطبقات فى السرايا وأصل هذه القصة رواها النسائي وأبو يعلى والطبراني وأبو نعيم فى الدلائل من حديث أبي الطفيل قال « لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة - بعث خالد بن الوليد إلى نخلة - وكانت بها العزى فأناها خالد ، وكانت على ثلاث شجرات فقطع الشجرات » .

(٢) قوله « والأصل قوله ضوزى » لعل صوابه « ضيرى » بكسر الضاد . ويؤيده ما قبله وما بعده اهـ ملخصاً

من هامش . (ع)

أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ۚ (٢٤) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ (٢٥)

(أم للإنسان ما تمنى) هي أم المنقطعة ومعنى الهمزة فيها الإتيان ، أى : ليس للإنسان ما تمنى ، والمراد طمعهم فى شفاعة الآلهة ، وهو تمنى على الله فى غاية البعد ، وقيل : هو قولهم : (ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى) وقيل : هو قول الوليد بن المغيرة ولاوتين مالا وولدا ، وقيل هو تمنى بعضهم أن يكون هو النبي صلى الله عليه وسلم فله الآخرة والأولى أى هو مالهما . فهو يعطى منهما من يشاء ويمنع من يشاء ، وليس لأحد أن يتحكم عليه فى شيء منهما .

وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ

لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ (٢٦)

يعنى : أن أمر الشفاعة ضيق وذلك أن الملائكة مع قربتهم وزلفاهم وكثرتهم واغتناص السموات بمجموعهم لو شفّعوا بأجمعهم لأحدم تغن شفاعتهم عنه شيئا قط ولم تنفع ، إلا إذا شفّعوا من بعد أن يأذن الله لهم فى الشفاعة لمن يشاء الشفاعة له ويرضاه ويراه أهلا لأن يشفع له ، فكيف تشفع الأصنام إليه لعبدهم (١) .

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْآنَثَىٰ (٢٧)

وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨)

فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩)

ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ

بِمَنِ اهْتَدَىٰ (٣٠)

(يسمون الملائكة) أى كل واحد منهم (تسمية الآنثى) لأنهم إذا قالوا : الملائكة بنات الله ، فقد سمو كل واحد منهم بنتا وهى تسمية الآنثى (به من علم) أى بذلك وبما يقولون (٢) . وفى قراءة أبى : بها ، أى : بالملائكة . أو التسمية (لا يغنى من الحق شيئا) يعنى إنما يدرك الحق الذى هو حقيقة الشيء وما هو عليه بالعلم واليقين لا بالظن والتوهم (فأعرض) عن دعوة من رأيت معرضا عن ذكر الله عن الآخرة ولم يرد إلا الدنيا ، ولا تهالك على إسلامه ، ثم قال (إن

(١) قوله «عبدهم» له لعبدهم ، كعبدة النسوة . (ع)

(٢) قوله «وبما يقولون» له أربما يقولون . (ع)

ربك هو أعلم) أى إنما يعلم الله من يجب من لا يجب ، وأنت لا تعلم ، خفض على نفسك ولا تعنها ، فإنك لا تهدي من أحببت ، وما عليك إلا البلاغ . وقوله تعالى (ذلك مبلغهم من العلم) اعتراض أو فأعرض عنه ولا تقابله ، إن ربك هو أعلم بالضال والمهتدى ، وهو مجازيهما بما يستحقان من الجواز .

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ الَّذِينَ أَتَّعُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (٣٢)

قرئ : ليجزى . ويجزى ، بالياء والنون فيها . ومعناه : أن الله عز وجل إنما خلق العالم وسوى هذه الملكوت لهذا الغرض : وهو أن يجازى المحسن من المكلفين والمسيء منهم . ويجوز أن يتعلق بقوله (هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى) لأن نتيجة العلم بالضال والمهتدى جزاؤهما (بما عملوا) بعقاب ما عملوا من السوء . و(بالحسن) بالثبوت الحسنى وهى الجنة . أو بسبب ما عملوا من السوء وبسبب الأعمال الحسنى (كبار الإثم) أى الكبائر من الإثم ؛ لأن الإثم جنس يشتمل على كبائر وصغائر ، والكبائر : الذنوب التى لا يسقط عقابها إلا بالثبوت . وقيل : التى يكبر عقابها بالإضافة إلى ثواب صاحبها (والفواحش) ما فحش من الكبائر ، كأنه قال : والفواحش منها خاصة : وقري : كبير الإثم ، أى : النوع الكبير منه . وقيل : هو الشرك بالله . واللمم : ما قل وصغر . ومنه : اللمم المس من الجنون ، واللوثه منه . وألم بالمكان إذا قل فيه لبثه . وألم بالطعام : قل منه أكله : ومنه :

* لِقَاءُ أَخْلَاءِ الصَّفَاءِ لِمَامٍ * (١)

(١) لقاء أخلاء الصفاء لميام . وكل وصال الفانيات ذمام أى : لقاء الأحاب الذين صفت مودتهم لميام ، أى : قليل فهو مفاعلة من اللامام وهو الزيادة بلا ثبوت ولا تمكث وكل وصال النساء المستغنيات يجالمن عن التحل بالحلى أو الخدورات المقيبات في بيوتهم ، من غنى بالمكان كرضى : أقام به ذمام أى شئ . قليل من حقوق الحرمة والذمة ، وإطلاقه على ذلك مجاز ، وحقيقته : الحرمة والذمة والمعاهدة والعهود الذى يتعاهد به المتعاهدان وما يذم الشخص على إضاعته من العهد ، فهو إما مفاعلة من الذمة ، وإما اسم آلة : كالخزام والرفاق ، وقد يستعمل صفة لبث قليلة الماء ، ويستعمل جمع ذمة . والمعنى أن رؤية الأحاب قليلة =

والمراد الصغائر من الذنوب، ولا يخلو قوله تعالى ﴿إِلَّا اللّٰم﴾ من أن يكون استثناء منقطعا أو صفة، كقوله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله) كأنه قيل: كباثر الإثم غير اللّٰم، وآلهة غير الله: وعن أبي سعيد الخدري: اللّٰم هي النظرة، والغمرة، والقبلة: وعن السدي: الخطرة من الذنب: وعن الكلبي: كل ذنب لم يذكر الله عليه حدا ولا عذابا: وعن عطاء: عادة النفس الحين بعد الحين ﴿إِنْ رَبِّكَ وَاسِعَ الْمَغْفِرَةِ﴾ حيث يكفر الصغائر باجتناب الكبائر، (١) والكبائر بالتوبة ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ فلا تنسبوا إلى زكاء العمل وزيادة الخير وعمل الطاعات: أو إلى الزكاء والطهارة من المعاصي، ولا تثبوا عليها واهضموها، فقد علم الله الزكي منكم والتقى أولا وآخرأ قبل أن يخرجكم من صلب آدم، وقبل أن تخرجوا من بطون أمهاتكم. وقيل: كان ناس يعملون أعمالا حسنة ثم يقولون: صلاتنا وصيامنا وحجنا، فنزلت: وهذا إذا كان على سبيل الإعجاب أو الرياء: فأما من اعتقد أن ما عمله من العمل الصالح من الله وتبويقه وتأيبه ولم يقصد به التمدح: لم يكن من المزكين أنفسهم، لأن المسرة بالطاعة طاعة، وذكرها شكر.

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (٣٤) أَعِنْدَهُ عِلْمُ
الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي
وَقَّى (٣٧) أَلَا تَرَى زُرَّةً وَزَرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَنَّ لَيْسَ لِلنَّاسِ إِلَّا
مَاسَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يَرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (٤١)
وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَى (٤٢) وَأَنَّهُ هُوَ أَفْهَكَ وَأُبْكَى (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ
وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزُّوجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٤٥) مِنْ نُّطْقَةٍ إِذَا
تُمْنَى (٤٦) وَأَنَّ عِلْمَهُ النَّشْأَةُ الْآخِرَى (٤٧) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى (٤٨)
وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشُّعْرَى (٤٩) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى (٥٠) وَتَمُودَ

== إما حقيقة في العادة، وإما ادعاء واستقلال لها. ورؤية غيرهم كثيرة. وفيه معنى التحزن. ويجوز أن يقرأ: الدمام بالهملة، وهو ما يظن به الوجه ليجس، والمعنى: أن صالحن مجرد تمويه لاحقيقة له، والمعنى على التشبيه.

(١) قوله «يكفر الصغائر باجتناب الكبائر» هذا عند المعتزلة، وعند أهل السنة بذلك. أو مجرد الفضل وكذا ما بعده.. (ع)

قَمَاقَبٍ ٥١ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْفَى ٥٢
وَالْمُؤْتَفِكَةَ ٥٣ فَفَشَّمَهَا مَا عَشَى ٥٤

(أكدى) قطع عطيته وأمسك، وأصله: إكداء الحافر، وهو أن تلقاه كدية: وهي صلابة كالصخرة فيمسك عن الحفر، ونحوه: أجبل الحافر، ثم استعير ف قيل: أجبل الشاعر إذا ألحم. روى أن عثمان رضى الله عنه كان يعطى ماله فى الخير، فقال له عبد الله بن سعد بن أبي سرح وهو أخوه من الرضاغة: يوشك أن لا يبق لك شيء، فقال عثمان: إن لى ذنوباً وخطايا، وإنى أطلب بما أصنع رضا الله تعالى وأرجو عفوه، فقال عبد الله: أعطنى ناقتك برحلتها وأنا أتحمّل عنك ذنوبك كلها، فأعطاه وأشهد عليه وأمسك عن العطاء. فزلت. ومعنى (تولى) ترك المركز يوم أحد، فعاد عثمان إلى أحسن من ذلك وأجمل (فهو يرى) فهو يعلم أن ما قال له أخوه من احتمال أوزاره حق (وفى) قرئ مخففاً ومشدداً، والتشديد مبالغة فى الوفاء. أو بمعنى: وفر وأتم، كقوله تعالى (فاتمّن) وإطلاقه ليتناول كل وفاء وتوفية، من ذلك: تبليغه الرسالة، واستقلاله بأعباء النبوة، والصبر على ذبح ولده وعلى نار نمرود، وقيامه بأضيافه وخدمته لإيام نفسه، وأنه كان يخرج كل يوم فيمشى فرس خاير تاد ضيفا، فإن وافقه أكرمه، وإلا نوى الصوم. وعن الحسن: ما أمره الله بشيء إلا وفى به. وعن الهزيل بن شرحبيل (١): كان بين نوح وبين إبراهيم يؤخذ الرجل بحريّة غيره، ويقتل بأبيه وابنه وعمه وخاله، والزوج بامرأته، والعبد بسيده؛ فأقول من خالفهم إبراهيم. وعن عطاء بن السائب: عهد أن لا يسأل مخلوقاً، فلما قذف فى النار قال له جبريل وميكائيل: ألك حاجة؟ فقال: أما إليكافلا. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: وفى عمله كل يوم بأربع ركعات فى صدر (٢) النهار، وهى: صلاة الضحى. وروى: ألا أخبركم لم سعى الله خليله (الذى وفى)؟ كان يقول إذا أصبح وأمسى: (فسبحان الله حين تمشون... إلى... حين تظهرون) (٣) وقيل: وفى سهام الإسلام: وهى ثلاثون: عشرة فى التوبة (التائبون...) وعشرة فى الأحزاب: (إن المسلمين...) وعشرة فى المؤمنين (قد أفلح المؤمنون...) وقرئ: فى صحف، بالتخفيف (ألا تزر) أن مخففة من الثميلة. والمعنى: أنه

(١) قوله ودع الهزيل بن شرحبيل، لعله: الهذيل. (ع)

(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم وغيرهما من رواية جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبي أمامة مرفوعاً به وأتم منه.

(٣) أخرجه أحمد والطبراني وابن السني والطبري وابن أبي حاتم من رواية ابن أبي عمير عن زياد عن ابن فائد عن سهل بن معاذ عن أبيه به.

لا تزر ، والضمير ضمير الشأن ، وحل أن وما بعدها : الجربدلا من ما في صحف موسى . أو الرفع على : هو أن لا تزر ، كأن قائلا قال : وما في صحف موسى وإبراهيم ، فقيل : أن لا تزر (إلا ما سعى) إلا سعيه . فإن قلت : أما صح في الأخبار : الصدقة عن الميت ، والحج عنه ، وله الإضعاف ؟ قلت : فيه جوابان ، أحدهما : أن سعى غيره لما لم ينفعه إلا مبنيا على سعى نفسه . وهو أن يكون مؤمنا صالحا وكذلك الإضعاف . كأن سعى غيره كأنه سعى نفسه ، لكونه تابعا له وقائما بقيامه . والثاني : أن سعى غيره لا ينفعه إذا عمله لنفسه ، ولكن إذا نواه به فهو بحكم الشرع كالنائب عنه والوكيل القائم مقامه (ثم يحزاه) ثم يحزى العبد سعيه ، يقال : جزاه الله عمله وجزاه على عمله ، يحذف الجار وإيصال الفعل . ويجوز أن يكون الضمير للجزاء ، ثم فسره بقوله (الجزاء الأوفى) أو أبدله عنه ، كقوله تعالى : (وأسروا النجوى الذين ظلموا) ، (وأن إلى ربك المنتهى) قرئ بالفتح على معنى : أن هذا كله في الصحف ، وبالكسر على الابتداء ، وكذلك ما بعده . والمنتهى : مصدر بمعنى الانتهاء . أى : ينتهى إليه الخلق ويرجعون إليه . كقوله تعالى (إلى الله المصير) . (أضحك وأبكى) خلق قوتي الضحك والبكاء (١) إذا تمت (إذا تدفق في الرحم . يقال : منى وأمنى . وعن الاخفش : تخلق من منى المانى ، أى قدر المقدر : قرئ : النشأة والنشأة بالمد . وقال (عليه) لأنها واجبة (٢) عليه في الحكمة (٣) ، ليجازى على الإحسان والإساءة (وأقنى) وأعطى القنية وهى المال الذى تأثله وعزمت أن لا تنخرجه من يدك (الشعرى) مرزم الجوزاء (٤) : وهى التى تطلع وراءها ، وتسمى كلب الجبار ، وهما شريان الغميصاء والعبور وأراد العبور . وكانت خزاعة تعبدها ، سن لهم ذلك أبو كبشة رجل من أشrafهم ،

(١) قال محمود : رأى خلق قوتي الضحك والبكاء ، قال أحد : وخلق أيضا فعل الضحك والبكاء على قواعد السنة ، وعليه دلت الآية غير مثارة لتحريفه ، والله الموفق .

(٢) قال محمود : دائما قال عليه لأنها واجبة عليه ... الخ . قال أحد : هذا من فساد اعتقاد المعتزلة الذى يسمونه مراعاة للصالح والحكمة ، رأى فساد أعظم مما يؤدى إلى اعتقاد المعتزلة الإيجاب على رب الأرباب ، تسأل الله عن ذلك . ومثل هذه القاعدة التى عفت البراهين للقاطعة رسمها وأبطلت حكمها لا يمكن فيها كلمة محتملة : هى لو كانت ظاهرة لوجب تنزيلها على ما يوفق بينها وبين القواطع ، والذى حملت عليه لفظة عليه غير هذا المعنى : وهو أن المراد أن أمر النشأة الأخرى يدور على قدرته عز وجل وإرادته ، كما يقال : دارت قضية فلان على يدي . وقول المحدثين . على يدي دار الحديث ، أى هو الأصل فيه والسند ، والله أعلم .

(٣) قوله ولأنها واجبة عليه في الحكمة . هذا عند المعتزلة لأعد أهل السنة . (ج)

(٤) قوله مرزم الجوزاء . فى الصباح والمرزمان مرزما الشمرين ، وهما نجمان : أحدهما فى الشعرى ، والآخر فى الذراع اهـ . (ع)

وكانت قريش تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أبو كبشة، تشبها له به لخالفته إياهم في دينهم^(١)، يريد: أنه رب معبودهم هذا. عاد الأولى: قوم هود، وعاد الأخرى: إرم. وقيل: الأولى القديما؛ لأنهم أول الأمم هلاكا بعد قوم نوح، أو المتقدمون في الدنيا الأشراف. وقرئ: عادا لولي. وعادلولي، بإدغام التوين في اللام وطرح همزة أولى ونقل ضمها إلى لام التعريف (وثمودا) وقرئ: وثمود (أظم وأظنى)^(٢) لأنهم كانوا يؤذونه ويضربونه حتى لا يكون به حراك، وينفرون عنه حتى كانوا يحذرون صبيانهم أن يسمعوا منه، وما أثر فيهم دعاؤه^(٣) قريبا من ألف سنة (والمؤتفك) والقرى التي اتفكت بأهلها، أى: انقلبت، وهم قوم لوط، يقال: أفكك فاتفك: وقرئ: والمؤتفكات (أهوى) رفعها إلى السماء على جناح جبريل، ثم أهواها إلى الأرض أى: أسقطها (ماغشى) تهويل وتعظيم لما صب عليها من العذاب وأمطر عليها من الصخر المنضود.

قَبَائِلُ آلِ رَبِّكَ تَتَمَارَى ٥٥ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَى ٥٦

أَزِفَتِ الْأَافِقُ ٥٧ آيَسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ٥٨

(قَبَائِلُ آلِ رَبِّكَ تَتَمَارَى) وتشكك، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، أو للإنسان على الإطلاق، وقد عدد نعمًا ونعمًا وسماها كلها آلاء من قبل ما في نعمة من المزاجر والمواعظ للمعتبرين (هذا) القرآن (نذير من النذر الأولى) أى إنذار من جنس الإنذارات الأولى التي أنذرها من قبلكم. أو هذا الرسول منذر من المنذرين الأولين، وقال: الأولى على تأويل الجماعة (أزفت الأفق) قربت الموصوفة بالقرب في قوله تعالى (اقتربت الساعة)، (ليس لها) نفس (كاشفة) أى مبينة متى تقوم، كقوله تعالى (لا يجليها لوقتها إلا هو) أو ليس لها نفس كاشفة، أى: قادرة على كشفها إذا وقعت إلا الله، غير أنه لا يكشفها. أو ليس لها الآن نفس كاشفة بالتأخير، وقيل الكاشفة مصدر بمعنى الكشف: كالعافية. وقرأ طلحة: ليس لها بما يدعون من دون الله كاشفة، وهى على الظالمين ساءت العاقبة.

أَفِئ هَذَا الْحَدِيثِ تَعَجِبُونَ ٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ٦٠

وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ ٦١ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ٦٢

(١) هذا وهم، والمعروف أنهم كانوا يقولون له: ابن أبي كبشة، كما في حديث أبي سفيان العلويل في الصحيحين حيث قال: لقد أمر أمر ابن أبي كبشة أن يخافه ملك بنى الأصفر. يعنى هرقل.

(٢) قوله وقرئ: وثمود أظم وأظنى، يفيد أن قراءة التوين أشهر. (ع)

(٣) قوله «وما أثر فيهم دعاؤه» أى دعاؤه إياهم إلى الإسلام. (ع)

(أفمن هذا الحديث) وهو القرآن (تعجبون) إنكاراً (وتضحكون) استهزاء (ولا تبكون) والبكاء والخشوع حق عليكم. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه لم ير ضاحكاً بعد نزولها. ^(١) وقرئ: تعجبون تضحكون، بغير واو (وأنتم ساعدون) شائحون مبرطمون. ^(٢) وقيل: لاهون لاهون. وقال بعضهم لجاريته: اسمدى لنا، أى غنى لنا (فاسجدوا لله واعبدوا) ولا تمبدوا الآلهة.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرأ سورة النجم أعطاه الله عشر حسنات بعدد من صدق بمحمد وجحد به بمكة، ^(٣)

سورة القمر

مكية [إلا الآيات ٤٤ و ٤٥ و ٤٦ فدنية]

وآياتها ٥٥ [نزلت بعد الطارق]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ① وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ

مُسْتَوْرٌ ② وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ③

انشقاق القمر من آيات رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعجزاته النيرة. عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن الكفار سألو رسول الله صلى الله عليه وسلم آية فانشق القمر مرتين. ^(٤)

(١) أخرجه أحمد في الزهد والعلوي من حديث صالح بن أبي الخليل. ورواه ابن مردويه من طريق سعيد ابن جبير عن ابن عباس بإسناد ضعيف.

(٢) قوله «شائحون مبرطمون» في الصحاح «البرطمة» الانتفاخ من الغضب اه. وفيه «السامد»: رافع رأسه تكبرا، واللامى، والمعنى، والقائم، والساكت، والحزين الخاشع، واسماد الرجل بالهمز اسمدادا: أى ورم غضبا. (غ)

(٣) أخرجه العلوي وابن مردويه والواحدى من حديث أبي بن كعب رضى الله عنه.

(٤) متفق عليه من رواية قتادة عن أنس رضى الله عنه.

وكذا عن ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهما ، قال ابن عباس : انفلق فلقتين فلقة ذهب و فلقة بقيت .^(١) وقال ابن مسعود : رأيت حراء بين فلقتي القمر .^(٢) وعن بعض الناس : أن معناه ينشق يوم القيامة ، وقوله (وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) يرده ، وكفى به راذلاً ، وفي قراءة حذيفة : وقد انشق القمر ، أى : اقتربت الساعة وقد حصل من آيات اقترابها أن القمر قد انشق ، كما تقول : أقبل الأمير وقد جاء المبعث بقدمه . وعن حذيفة أنه خطب بالمداين ثم قال : ألا إن الساعة قد اقتربت وإن القمر قد انشق على عهد نبيكم .^(٣) مستمر : دائم مطرد ، وكل شيء قد انقادت طريقته ودامت حاله ، قيل فيه : قد استمر . لما رأوا تتابع المعجزات وترادف الآيات : قالوا : هذا سحر مستمر . وقيل : مستمر قوى بحكم ، من قولهم : استمر مريره .^(٤) وقيل : هو من استمر الشيء إذا اشتدت مرارته ، أى : مستبشع عندنا ، مز على لهواتنا ، لا نقدر أن نسيغه كما لا يساغ المر الممقر .^(٥) وقيل : مستمر ماز ، ذاهب يزول ولا يبق ، تمثية لأنفسهم وتعليلًا . وقرئ : وإن يروا (واتبعوا أهواءهم) وما زين لهم الشيطان من دفع الحق بعد ظهوره (وكل أمر مستقر) أى كل أمر لا بد أن يصير إلى غاية يستقر عليها ، وإن أمر محمد سيصير إلى غاية يتبين عندها أنه حق ، أو باطل وسيظهر لهم عاقبته . أو وكل أمر من أمرهم وأمره مستقر ، أى : سيثبت ويستقر على حالة خذلان أو نصرة في الدنيا ، وشقاوة أو سعادة في الآخرة . وقرئ بفتح القاف ، يعنى : كل أمر ذو مستقر ، أى : ذو استقرار . أو ذو موضع استقرار أو زمان استقرار . وعن أبي جعفر : مستقر ، بكسر القاف والجر عطفاً على الساعة ، أى : اقتربت الساعة واقترب كل أمر مستقر يستقر ويتبين حاله .

وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ

(١) أخرجه أبو نعيم في الدلائل ، من رواية الكلبي عن أبي صالح عنه ، وفي الصحيحين عنه : « انشق القمر على زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

(٢) أخرجه ابن مردويه من رواية منصور عن زيد بن وهب عن ابن مسعود قال : « ولقد رأيت والله حراء بين الشقطين » . وفي الصحيحين عن أبي معمر عنه « بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى إذا انفلق القمر فلقتين وكان فلقة وراء الجبل و فلقة دونه . فقال : اشهدوا . وفي الباب عن ابن عمر في مسلم . وعن جبير بن مطعم عن الحاكم في المستدرك ، وعن أحمد أيضاً .

(٣) أخرجه الحاكم والطبراني وأبو نعيم من رواية ابن علي عن عطاء بن السائب عن ابن عبد الرحمن بهذا وأتم . ورواه عبد الرزاق من وجه آخر عن عطاء ، وكذا أخرجه أحمد من رواية شعبة عن عطاء .

(٤) قوله واستمر مريره ، في الصحاح « المرير » : الغريرة وما لطف وطال واشتد فتلته من الجبال . (ع)

(٥) قوله وكما يساغ المر الممقر ، في الصحاح . مقر الشيء وأمقر ، أى : صار مرأ . (ع)

لِلنَّذْرِ ⑤ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ ⑥ خُشَعًا أَبْصَارُهُمْ

يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ⑦

(من الأنباء) من القرآن المودع أنباء القرون الخالية أو أنباء الآخرة ، وما وصف من عذاب الكفار (مزدجر) ازدجار أو موضع ازدجار . والمعنى : هو في نفسه موضع الازدجار ومظنة له ، كقوله تعالى (لكم في رسول الله أسوة حسنة) أى هو أسوة . وقرئ " مزدجر بقلب تاء الافتعال زايًا وإدغام الزاي فيها (حكمة بالغة) بدل من ما . أو على : هو حكمة . وقرئ " بالنصب حالًا من ما . فإن قلت : إن كانت ماموصولة ساء لك أن تنصب حكمة حالًا ، فكيف تعمل إن كانت موصوفة ؟ وهو الظاهر . قلت : تخصصها الصفة : فيحسن نصب الحال عنها (فما تغني النذر) نفي أو إنكار . وما منصوبة ، أى : فأى غناء تغنى النذر (فتول عنهم) لعليك أن الإنذار لا يغنى فيهم . نصب (يوم يدع الداعي) يخرجون ، أو بإختصار اذكر . وقرئ " بإسقاط الياء اكتفاء بالكسرة عنها ، والداعي إسرافيل أو جبريل ، كقوله تعالى (يوم ينادى) . (إلى شئ نكر) منكر فظيع تنكره النفوس لأنها لم تعهد بمثله وهو هول يوم القيامة . وقرئ : نكر بالتخفيف : ونكر بمعنى أنكر (خاشعًا أبصارهم) حال من الخارجين فعل الأبصار وذكر ، كما تقول : يخشع أبصارهم . وقرئ : خاشعة ، على : تخشع أبصارهم . وخشعًا ، على : يخشعن أبصارهم ، وهى لغة من يقول : أكلوني البراغيث . وهم طيئ . ويجوز أن يكون فى (خشعًا) ضميرهم ، وتقع (أبصارهم) بدلا عنه . وقرئ . خشع أبصارهم . على الابتداء والخبر ، ومحل الجملة النصب على الحال . كقوله :

• وَجَدْتُهُ حَاضِرَاهُ الْجُودُ وَالْكَرَمُ • ①

وخشوع الأبصار : كناية عن الذلة والانخزال ، لأن ذلة الدليل وعزة العزيز تظهران في عيونهما . وقرئ : يخرجون من الأجداث : من القبور (كأنهم جراد منتشر) الجراد مثل فى الكثرة والتموج . يقال فى الجيش الكثير المسائح بعضه فى بعض : جاؤا كالجراد ، وكالدباب ② منتشر فى كل مكان لكثرتهم (مهطعين إلى الداعي) مسرعين ماذى أعناقهم إليه . وقيل : ناظرين إليه لا يقلعون بأبصارهم . قال :

① إن الذى كنت أرجو فضل نائله وجدته حاضراه الجود والكرم

يقول : إن الذى كنت أرجو بقية عطائه أو زيادة عطائه : وجدته مصاحبًا للجود والكرم . وهما مبتدأ خبره حاضراه ، والجملة عليها نصب مفعول ثان ، وحضورهما : كناية عن قيامهما به .

② قوله " كالجراد والدباب " فى الصحاح " الدباب ، الجراد قبل أن يطير ، والواحدة دباب . (ع)

تَعْبِدَنِي يَمْشِرُ بْنُ سَعْدٍ وَقَدْ أَرَى وَيَمْشِرُ بْنُ سَعْدٍ لِي مُطِيعٌ وَمُهْطِعٌ ^(١)

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ ^(٦)

فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ ^(١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ^(١١)

وَقَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ^(١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ

الْوَاحِ وَدُسِيرٍ ^(١٣) تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرًا ^(١٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا

آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّيرٍ ^(١٥) فَكُفِّ عَذَابَ وَنَذَرٍ ^(١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا

الْقُرْآنَ أَنْ لَفْظٌ كَرِهُ لِمَنْ مُدَكِّيرٍ ^(١٧)

(قبلمهم) قبل أهل مكة (فكذبوا عبدنا) يعنى نوحا . فإن قلت : ما معنى قوله تعالى (فكذبوا) بعد قوله (كذبت) ^(١١)؟ قلت : معناه : كذبوا فكذبوا عبدنا أى : كذبوه تكذيباً على عقب تكذيب ، كلما مضى منهم قرن مكذب تبعه قرن مكذب . أو كذبت قوم نوح الرسل فكذبوا عبدنا ، أى : لما كانوا مكذبين بالرسل جاحدين للنبوة رأساً : كذبوا نوحاً ؛ لأنه من جملة الرسل (مجنون) هو مجنون (وازدجر) وانتهروه بالشتم والضرب والوعيد بالرجم فى قولهم (لتكونن من المرجومين) وقيل : هو من جملة قيلهم ، أى : قالوا هو مجنون ، وقد ازدجرته الجن وتخبطته وذهبت بلبه وطارت بقلبه . قرئ : أنى ، أى : فدعا بأنى مغلوب . وإنى : على إرادة

(١) الكلام على حذف حرف الاستفهام الإنكارى ، أى : أينخذنى عبداً هذا الرجل ، وحذف مفعول أرى لدلالة الحال عليه ، وهو قوله : ويمشِرُ بن ساعد مطيع لى ومهطع ، أى : منتظر أمرى لئيشله . أو مسرع إلى امتثاله ، وأظهر فى مقام الاختصار تعجباً منه واستغفافاً بشأنه ، ونمر : يسكون الميم .

(٢) قال محمود : وإن قلت : ما فائدة كذبوا بعد قوله كذبت قبلهم قوم نوح ... الخ ؟ قال أحد : قد تقدم كلامه على قوله تعالى (وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسل) وأجاب عنه بجوابين ، أحدهما متعذر هنا ، والآخر : يمكن وهو أن ذلك كقول القائل : أقدم فلان على الكفر فكفر بمحمد عليه الصلاة والسلام ، وقد مضى لى جوابان ، أحدهما : يمكن إجراؤه هنا ، وحاصله منع وزود السؤال : لأن الأول مطلق والثانى مقيد ؛ فليس تكراراً . وهو كقوله فى هذه السورة (فتعاطى فمقر) فان تعاطيه هو نفس عقده ، ولكن ذكره من جهة محومه ، ثم من ناحية خصوصه إسباباً ، وهو بمثابة ذكره مرتين ، وجواب آخر هنا : وهو أن المكذب أولاً محذوف دل عليه ذكر نوح ، فكأنه قال : كذبت قوم نوح نوحاً ، ثم جاء بتكذيبهم تأكيداً مضافاً إلى قوله (عبدنا) فوصف نوحاً بخصوص العبودية ، وأضافه إليه إضافة تشرىف ؛ فالتكذيب الخبر عنه ثانياً أبشع عليهم من المذكور أولاً لذلك اللمعة ، والله أعلم .

القول ، فدعا فقال : إني مغلوب^(١) غلبني قومي ، فلم يسمعوأ مني واستحكم اليأس من إجابتهم لي (فاتنصر) فاتنصر منهم بعداز تبعته عليهم ، وإنما دعا بذلك بعد ما علم عليه الأمر وبلغ السيل الربا^(٢) ، فقد روى : أن الواحد من أمته كان يلقاه فيخنفه حتى يخر مغشياً عليه : فيفيق وهو يقول : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون . وقرئ : ففتحنا مخففاً ومشدداً ، وكذلك وفجرنا (منهم) منصب في كثرة وتتابع لم ينقطع أربعين يوماً (وفجرنا الأرض عيوناً) وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون تنفجر ، وهو أبلغ من قولك : وفجرنا عيون الأرض ونظيره في النظم (واشتعل الرأس شيباً) . (فالتقى الماء) يعني مياه السماء والأرض . وقرئ : الما آن ، أى : النوعان من الماء الساوى والأرضى . ونحوه قولك : عندى تمران ، تريد : ضربان من التمر : برنى ومعلى . قال :

• لَنَا إِبْلَانٌ فِيهِمَا مَا عَلِمْتُمُ^(٣) •

وقرأ الحس : الماوان ، بقلب الهمزة واواً ، كقولهم : علباوان (على أمر قد قدر) على حال قدرها الله كيف شاء . وقيل : على حال جاءت مقدرة مستوية : وهى أن قدر ما أنزل من السماء كقدر ما أخرج من الأرض سواء بسواء . وقيل : على أمر قد قدر فى اللوح أنه يكون ، وهو هلاك قوم نوح بالطوفان (على ذات ألواح ودسر) أراد السفينة ، وهى من الصفات التى تقوم مقام الموصوفات فتتوب منهاها وتودى مؤداها . بحيث لا يفصل بينها وبينها . ونحوه :

... وَلَكِنَّ قَيْصَى مَسْرُودَةٌ مِنْ حَدِيدٍ^(٤)

(١) قوله «دعا فقال إني مغلوب» لعله : أى فدعا فقال . (ع)

(٢) قوله «وبلغ السيل الربا» لعله جمع روبة وهى ما ارتفع من الأرض كالراية . أفاده الصحاح : لكن فيه فى حرف الزاى : والزاية الراية لا يعلوها الماء . وفى المثل : قد بلغ السيل الزبى . والزاية : حفرة تحفر للأسد فى موضع عال لأجل صيده . اهـ ملخصاً . (ع)

(٣) لنا إبلان فيهما ما علمت فعن أيهما ما شئتم فتشكروا

يقول : لنا قطيعان من الإبل فيهما قرى الأضياف وصلة الفقراء ، فاحلوا ما شئتم منهما على مناكبكم ، أى : خذوه وافصلوه عن الباقي . أو المعنى : اعدلوا عنهما وانصرفوا عما أودعتموهما فى مناكب الأرض ، فانتا حانه . وإيهما : بالسكون لغة فى أى المهددة . وما شئتم : بدل منه . ويجوز أن «ما» زائدة ، أى : فى أيهما شئتم فانصرفوا فى مناكب الأرض وطرقها مبدين عنهما . ويجوز أن «ما شئتم» مفعول به ، أو مفعول مطلق مقدم على عامله ، وإفاء الثانية تكرير للأولى . ويجوز أنها إشارة إلى ما فى المفعول من معنى الشرط ، أى : فاما عن أيهما . أو فاما ما شئتم فتشكروا ، أى : تهنيؤا .

(٤) مفرشى صورة الحصان ولكن قيصى مسرودة من حديد

الصورة : مقعد الفارس من ظهر القرس . يقول : مفرشى ظهر حصان . وقيصى : درع من حديد متنايلة الفسخ ، =

أراد : ولكن قيصي درع ، وكذلك :

• وَلَوْ فِي عُيُونِ النَّازِيَّاتِ بِأَكْرَعٍ • (١)

أراد : ولو في عيون الجراد . ألا ترى أنك لو جمعت بين السفينة وبين هذه الصفة ، أو بين الدرع والجراد وهاتين الصفتين : لم يصح ، وهذا من فصيح الكلام وبديعه . والدرع : جمع دسار : وهو المسبار ، فعال من دسره إذا دفعه : لأنه يدرس به متفذه (جزاء) مفعول له لما قدم من فتح أبواب السماء وما بعده ، أي فعلنا ذلك جزاء (لمن كان كافر) وهو نوح عليه السلام ، وجعله مكفوراً لأن النبي نعمة من الله ورحمة . قال الله تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) فكان نوح عليه السلام نعمة مكفورة : ومن هذا المعنى ما يحكى أن رجلاً قال للرشد : الحمد لله عليك ، فقال : ما معنى هذا الكلام ؟ قال : أنت نعمة حمدت الله عليها . ويجوز أن يكون على تقدير حذف الجار وإيصال الفعل . وقرأ قتادة : كفر : أي جزاء للكافرين . وقرأ الحسن : جزاء ، بالكسر : أي مجازاة . الضمير في (تركناها) للسفينة . أو للفعلة ، أي : جعلناها آية يعتبر بها . وعن قتادة : أبقاها الله بأرض الجزيرة . وقيل : على الجودي دهرأ طويلاً ، حتى نظر إليها أوائل هذه الأمة . والمذكر : المعبر . وقرئ : مذتكر . على الأصل . ومذكر ، بقلب التاء ذالاً وإدغام الذال فيها . وهذا نحو : مذجر . والنذر : جمع نذير وهو الإنذار (ولقد يسرنا القرآن للذكر) أي سهلناه للادكار والاعتاظ ، بأن شخناه بالمواعظ الشافية وصرفنا فيه من الوعد والوعيد (فهل من) متعظ . وقيل : ولقد سهلناه للحفظ وأعنا عليه من أراد حفظه ، فهل من طالب لحفظه ليعان عليه . ويجوز أن يكون المعنى : ولقد هيأناه للذكر ، من يسر ناقتة للسفر : إذا رحلها ، ويسر فرسه للغزو : إذا أسرجه وأجله . قال :

وَقَفْتُ إِلَيْهِ بِاللَّجَامِ مُبْسِراً هُنَالِكَ يُجْزِيَنِ الَّذِي كُنْتُ أَصْنَعُ (٢)

== يعني أنه ليس من أهل التمس ، بل من أهل البدو والغزو . والاستدراك من باب استتباع المدح بما يشبه الذم ، مبالغة في المدح .

(١) وإنى لأستوفى حقوقى جاهداً ولو في عيون النازيات بأكرع

يقول : ولا بد من الاجتهاد في تخليص حقوقى وأخذها ، ولو كانت في أعني مكان وأبعده كمعبر الجراد النازيات الواثبات بأكرع ، أي أراجل دقيقة جمع كراع : لحذف الموصوف وكنى عنه النازيات صفته لجريانها بجري الاسم . وقيل : المعنى لابد من أخذ إبلى ولو كانت هزلاً جداً بحيث ترى في عيون الجراد لصفها ، أي : ولو كانت كأنها كذلك

(٢) أرى أم سهل لا تزال تفجع تلوم على أن أمدح الورد لقعة

تلوم وما تسقوى والورد ساعة تفزع

إذا هي قامت حاسراً مشمعة نخب الفؤاد رأسها ما يتقنع

وقفت إليه باللجام مبسراً هنالک يجزینی الذی کنت أصنع

ويرى : أن كتب أهل الأديان نحو التوراة والإنجيل لا ينلونها أهلها إلا نظراً ولا يحفظونها ظاهراً كما القرآن .

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ١٨ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا
صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ١٩ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ
مُنْقَعِرٍ ٢٠ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ٢١ وَقَدْ يَسْرُنَا الْفُرُءَانُ لِلذِّكْرِ
فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ ٢٢

(ونذر) وإنذارى لهم بالعذاب قبل نزوله . أو إنذار أتى في تعذيبهم لمن بعدهم (في يوم نحس) في يوم شؤم . وقرئ : في يوم نحس ، كقوله (في أيام نحسات) . (مستمر) قد استمر عليهم ودام حتى أهلكتهم . أو استمر عليهم جميعاً كبيرهم وصغيرهم ، حتى لم يبق منهم نسمة ، وكان في أربعاء في آخر الشهر لا تدور . ويجوز أن يريد بالمستمر : الشديد الماراة والبشاعة (تنزع الناس) تقلعهم عن أماكنهم ، وكانوا يصطفون آخذين أيديهم بأيدى بعض^(١) . ويتدخلون في الشعاب ، ويحفرون الحفر فيندسون فيها فتزعمهم وتكبههم وتدق رقابهم (كأنهم أعجاز نخل منقعر) يعنى أنهم كانوا يتساقطون على الأرض أمواتاً وهم جثث طوال عظام . كأنهم أعجاز نخل وهى أصولها بلا فروع ، منقعر : منقلع : عن مفارسه . وقيل : شبهوا بأعجاز النخل ، لأن الريح كانت تقطع رؤوسهم فتبقى أجساداً بلا رؤوس . وذكر صفة (نخل) على اللفظ ، ولو حلها على المعنى لانت ، كما قال (أعجاز نخل خاوية) .

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ٢٣ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَقِينَا
صَلَاحٍ وَسُوءٍ ٢٤ أَوْ لَقِينَا الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن تَفِينِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشَرُّ ٢٥

== للأعرج المعنى الخارجى . وتفجع وتوجع : أصلها ثنارين حذفن إحداهما تخفيفاً . وعلام : استفهام عن علة التوجع . وأمنح : أعطى والورد : اسم فرسه . واللقة : اللبن الحليب . والخامر : العريانة الوجه . والمشمولة : المريعة الجرى . والنخب : الخالية المجوفة . والمراد : الذى ذهب عقلها ورأسها ، ما يقنع : أى ما يستر بالقناع لدهشتها وخجلتها . وقوله «الورد الأول» مفعول به ، والثانى مفعول معه : هذا حال أم سهل . وأما حال مهره ، فبينها في قوله : وقت إليه مهيتها ومعادله بالاجام . أو مسهلاً له به ، دلالة على أنه كان صعباً لولا اللجام . وهناك إشارة إلى مكان الحرب ، أو إلى زمانها . يجزئى : أى يعطى جراً صنى معه ، وشبهه بمن أتعج منه المجازاة على طريق المكشاة ، وصنعه : هو سقيه اللبن .

(١) قوله «آخذين أيديهم بأيدى بعض» عبارة الفسنى : آخذين بعضهم بأيدى بعض . (ع)

سَهَطُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشْرُ ٢٦ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ
فَارْتَبِعُوهُمْ وَاصْطَبِرُوا ٢٧ وَتَبَيَّنْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ فِيسْمَةٍ يَبِينُهُمْ كُلُّ شَرِبٍ
مُحْتَضِرٌ ٢٨ فَتَنَادَوْا صَاحِبُهُمْ فَتَعَاطَى فَقَعَرَ ٢٩ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي
وَنَذِيرٌ ٣٠ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَحِيحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ٣١
وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّيرٍ ٣٢

(أبشرا منا واحداً) نصب بفعل مضمَر يفسره (تبعه) وقرئ: أبشرا منا واحد،
على الابتداء. وتبعه: خبره، والاول أوجه للاستفهام. كان يقول: إن لم تتبعوني كنتم في
ضلال عن الحق، وسعر: ونيران، جمع سعي، فمكسوا عليه فقالوا: إن اتبعناك كنا إذن كما
تقول. وقيل: الضلال: الخطأ والبعد عن الصواب. والسعر: الجنون. يقال: ناقة مسعورة. قال:

كَأَنَّ بَهَا سُفْرًا إِذَا الْعَيْسُ هَرَّهَا ذَمِيلٌ وَإِرْخَالًا مِنَ السَّيْرِ مُتَّعِبٌ (١)
فإن قلت: كيف أنكروا أن يتبعوا بشراً منهم واحداً؟ قلت: قالوا أبشراً: إنكاراً لأن
يتبعوا مثلهم في الجفسي، وطلبوا أن يكون من جنس أعلى من جنس البشر وهم الملائكة (٢)،
وقالوا (منا) لأنه إذا كان منهم كانت المائلة أقوى، وقالوا (واحداً) إنكاراً لأن تتبع
الامة رجلاً واحداً. أو أرادوا واحداً من أفئتهم (٣) ليس بأشرفهم وأفضلهم، ويدل
عليه قولهم (والقي الذكر عليه من بيننا) أي أنزل عليه الوحي من بيننا وفيما من هو أحق
منه بالاختيار للنبوة (أشرف) بطر متكبر، حمله بطره وشطارته وطلبه التعظم علينا على ادعاء
ذلك (سيعلمون غداً) عند نزول العذاب بهم أو يوم القيامة (من الكذاب الأشرف)
أصالح أم من كذبه. وقرئ: ستعلمون بالتاء على حكاية ما قال لهم صالح مجيباً لهم. أو هو كلام

(١) السعر: الجنون، والمسعور: المجنون والذي ضربته السموم. يقول: كأن بناقتي جنون لقوة سيرها؛
فالعيس: جمع عيساء. وهي النوق البيضاء. حركها ذميل وإرخاء: وهما نوعان من السير متعب كل منهما. وإسناد
المز إليها مجاز عطف من باب الإسناد للسبب؛ وإن أريد بالهز التسمير فيكون من الإسناد للبصر. كجد جده؛
لكن المسند هنا من المتمدى. والمسند إليه من اللازم.

(٢) قوله «أعلى من جنس البشر وهم الملائكة» تفضيل الملك على البشر مذهب المعتزلة. وأمل السنة يفضلون
البشر على الملك. (ع)

(٣) قوله «واحداً من أفئتهم» وفي الصحاح: يقال هو من أفئاء الناس، إذا لم يعلم عن هو. اهـ، ولم يذكر

له واحداً. (ع)

الله تعالى على سبيل الالتفات. وقرئ: الأشر، بضم الشين، كقولهم حدث وحدث. وحذر وحذر، وأخوات لها. وقرئ: الأشر، وهو الأبلغ في الشرارة. والآخر والأشر: أصل قولهم: هو خير منه وشر منه، وهو أصل مرفوض، وقد حكى ابن الأنباري قول العرب: هو أخير وأشر، وما أخيره وما أشره ﴿مرسلو الناقة﴾ باعثوها ومخرجوها من الهضبة ^(١) كما سألوهم ﴿فتنة لهم﴾ امتحاناً لهم وابتلاء. ﴿فارتقبهم﴾ فانتظروهم وتبصر ما هم صانعون ﴿واضطرب﴾ على أذاهم ولا تعجل حتى يأتيك أمرى ﴿قسمة بينهم﴾ مقسوم بينهم: لها شرب يوم ولهم شرب يوم. وإنما قال: بينهم، تغليباً للعقلاء. ﴿محتضر﴾ محضور لهم أو للناقة. وقيل: يحضرون الماء في نوبتهم واللبن في نوبتها ﴿صاحبهم﴾ قدار بن سالف أخير ثمود ﴿فتعاطى﴾ فاجترأ على تعاطى الأمر العظيم غير مكترث له، فأحدث المعقر بالناقة. وقيل فتعاطى الناقة فمعقرها، أو فتعاطى السيف ﴿صيحة واحدة﴾ صيحة جبريل. والمهشم: الشجر اليابس المتهشم المتكسر. والمحتظر: الذى يعمل الخطيرة وما يحتظر به يبدى بطول الزمان وتطوؤه البهائم فيتجطم ويتشم. وقرأ الحسن بفتح الظاء وهو موضع الاحتظار، أى: الخطيرة.

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنَّذْرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةٌ مِنَّا بِالنَّذْرِ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أُنذِرْتُمْ بِطُغْيَانِكُمْ فَتَعَارَوْا بِالنَّذْرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴿٣٧﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٨﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِكَرِّهِمْ مِنْ مُذَكِّرٍ ﴿٣٩﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٤٠﴾

(حاصباً) رجلاً تحصبهم بالحجارة، أى: ترميهم (بسحر) بقطع من الليل، وهو السدس الأخير منه. وقيل: هما سحران، فالسحر الأعلى قبل انصداع الفجر، والآخر عند انصداعه. وأنشد:

• مَرَّتْ بِأَعْلَى السَّحَرَيْنِ تَذَالُ • (٧)

(١) قوله «ومخرجوها من الهضبة» في الصحاح «الهضبة» الجبل المنبسط على وجه الأرض. (ع)

(٧) ياساتلى إن كنت عهنا تال مرت بأعلى السحرين تذال

يقول: يا من تسألنى إن كنت تسألنى عن الحر الوحشية لاغير، فقد مرت بأعلى السحرين وهو السحر الذى قيل ==

وصرف لانه نكرة . ويقال : لقيته سحر : إذا لقيته في سحر يومه (نعمة) إنعاما ،
مفعول له (من شكر) نعمة الله بإيمانه وطاعته (ولقد أنذرهم) لوط عليه السلام (بطشتنا)
أخذتنا بالعذاب (فتباروا) فكذبوا (بالنذر) متشاكين (فطمسنا أعينهم) فمسحناها
وجعلناها كسائر الوجوه لا يرى لها شق . روى أنهم لما عالجوا باب لوط عليه السلام ليدخلوا
قالت الملائكة خلهم يدخلوا ، (إنا رسل ربك لن يصلوا إليك) فصفقهم جبريل عليه السلام
بجناحه صفقة فتركهم يترددون لا يهتدون إلى الباب حتى أخرجهم لوط (فذوقوا) فقلت
لهم : ذوقوا على السنة الملائكة (بكرة) أول الهاروباء كره ، كقوله : مشرقين ، ومصبحين .
وقرأ زيد بن علي رضي الله عنهما : بكرة ، غير منصرفة ، تقول : أتيته بكرة وغدوة بالثوبين .
إذا أردت التنكير ، وبغيره إذا عزفت وقصدت بكرة نهارك وغدوته (عذاب مستقر)
ثابت قد استقر عليهم إلى أن يفضى بهم إلى عذاب الآخرة . فإن قلت : ما فائدة تكرير قوله
(فذوقوا عذابي ونذر) ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) ؟ قلت : فائدة أن يجتدوا
عند استماع كل نبياء من أنبياء الأولين أذكارا وإناظرا ، وأن يستأنفوا تنبها واستيقاظا ، إذا سمعوا
الحث على ذلك والبعث عليه ، وأن يقرع لهم العصا مرات ، ويقعق لهم الشن (٣) تارات ؛
لئلا يغلبهم السهو ولا تستولى عليهم الغفلة ، وهكذا حكم التكرير ، كقوله (فبأى آلاء ربكما
تكذبان) عند كل نعمة عدها في سورة الرحمن ، وقوله (ويل يومئذ للكاذبين) عند كل
آية أوردتها في سورة والمرسلات ، وكذلك تكرير الانبياء والتقصص في أنفسها لتكون تلك
العبر حاضرة للقلوب . مصورة للأذهان ، مذكورة غير منسية في كل أوان .

وَلَقَدْ جَاءَهُ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ

عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢)

(النذر) موسى وهرون وغيرهما من الأنبياء ، لأنهما عرضا عليهم ما أذره المرسلون .
أو جمع نذير وهو الإنذار (بآياتنا كلها) بالآيات التسع (أخذ عزيز) لا يغالب (مقتدر)
لا يعجزه شيء .

أَكْفَارُكُمْ خَبِيرٌ مِنْ أَوْلِيِّكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ

= انصداع الفجر . والادنى : هو الذي عند انصداعه ، أي مرت في السحر الأول تذال بالهجر ، أي : تسرع في
المشي من ذال كنع : إذا مشى في خفة . ومنه : ذؤالة الذئب ، وبين تسأل وتذال الجناس المضارع .

(١) قوله « ويقعق لهم الشن » القرية الخلق ، كذا في الصحاح . (ع)

نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذًى وَأَمْرٌ ﴿٤٦﴾

(أَكْفَارِكُمْ) يا أهل مكة (خير من أولئكم) الكفار المَعْدُودِينَ : قوم نوح وهود وصالح ولوط وآل فرعون ، أى أم خير قوة وآلة ومكانة فى الدنيا ، أو أقل كفراً وعناداً يعنى : أن كفاركم مثل أولئك بل شر منهم (أم) أنزلت عليكم يا أهل مكة (براءة) فى الكتب المتقدمة . أن من كفر منكم وكذب الرسل كان آمناً من عذاب الله ، فأنتم بتلك البراءة (نحن جميع) جماعة أمرنا مجتمع (منتصر) تمتنع لانضمام ولا انضمام . وعن أبى جهل أنه ضرب فرسه يوم بدر ، فتقدم فى الصف وقال : نحن ننتصر اليوم من محمد وأصحابه ، فنزلت (سَهْزِمُ الْجَمْعُ) عن عكرمة : لما نزلت هذه الآية قال عمر : أى جمع يهزم ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يثب فى الدرع ويقول : « سَهْزِمُ الْجَمْعُ » عرف تأويلها ^(١) (ويولون الدبر) أى الابدان كما قال :

* كَلُوا فِي بَعْضِ بَطْنِكُمْ تَغْفُوا * ^(٢)

وقرى : الابدان (أذى) أشد وأفظع . والداهية : الأمر المنكر الذى لا يهتدى لدوائه (وأمر) من الهزيمة والقتل والأسر . وقرى : سَهْزِمُ الْجَمْعُ .

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾

(فى ضلال وسعر) فى هلاك ونيران . أو فى ضلال عن الحق فى الدنيا ، ونيران فى الآخرة (مس سقر) كقولك : وجد مس الحى وذاق طعم الضرب ؛ لأن النار إذا أصابتهم بحرماً ولقحتهم بإبلامها ، فسكانها تمسهم مساً بذلك ، كما يمس الحيوان ويباشر بما يؤذى ويؤلم . وذوقوا : على إرادة القول . وسقر : علم لجهنم . من سقرته النار وصقرته إذا لوحته : قال ذو الرمة :

(١) أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة ، وعن أيوب عن عكرمة « أن عمر - نذكره - وأتم منه ، ورواه من هذا الوجه إسماعيل والطبرى وابن أبى حاتم ، ورواه الطبرى فى الأوسط من رواية عبد المجيد بن أبى رواد عن معمر عن قتادة عن أنس عن عمر موصولاً .

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٤٧٩ فراجع إن شئت اه مصححه .

إِذَا ذَابَتِ الشَّمْسُ اتَّقَى صَقَرَاتِهَا بِأَفْتَانٍ مَرْبُوعٍ الصَّرِيمَةِ مُعْبِلٍ ^(١)
 وعدم صرفها للتعريف والتأنيث (كل شيء) منصوب بفعل مضمر يفسره الظاهر ^(٢) .
 وقرئ: كل شيء بالرفع . والقدر والقدر : التقدير . وقرئ بهما ، أى : خلقنا كل شيء
 مقدراً محسباً مرتباً على حسب ما اقتضته الحكمة . أو مقدراً مكتوباً فى اللوح .
 معلوماً قبل كونه . قد علمنا حاله وزمانه (وما أمرنا إلا واحدة) إلا كلمة واحدة سريعة
 التكوين (كلح بالبصر) أراد قوله كن ، يعنى أنه إذا أراد تكوين شيء لم يلبث كونه .

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ ٥١ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ

فِي الزُّبُرِ ٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ مُسْتَطَرٌ ٥٣

(أشياكم) أشباهكم فى الكفر من الأمم (فى الزبر) فى دواوين الحفظ (وكل صغير
 وكبير) من الأعمال ومن كل ما هو كائن (مستطر) مسطور فى اللوح .

(١) لدى الرمة يصف بحر الوحش ، يقال : ذابت الشمس إذا اشتد حرها حتى يتساقط من شعاعها مثل
 اللعاب ، وصقر الصخرة بالمصقر : ضربها بالمحلول ليكسرها . وصقرته الشمس : إذا ضربته فغيرت لونه . وصقرة
 الشمس : اشتداد وقمها على الأرض . والأفانث : جمع فن وهو مجتمع الوراق المثلث المشكك فى النقص .
 والمربوع : الذى أصابه مطر الريح . والصريمة : الرملة المنصرمة من الرمال . والمعبل : كغير الورق مقلوبه .
 يقول : إذا اشتد حر الشمس توفى شدائده بأغصان شجر سقاء الريح فى هذا الموضع من الرمال . والمعبل : كثير
 الورق . ومعبيل : بهل من مربوع ، كأنه جامد . ويجوز أنه نعت له ، على أن إضافته من إضافة الوصف إلى
 الظرف ، فلا تفيد التعريف ، فيصح وصفه بالنكرة .

(٢) قال محمود : « منصوب بنضم يفسره الظاهر » قال أحمد : كان نيباس مأمهده النجاة : اختيار رفع (كل)
 لكن لم يقرأ بها واحد من السبعة ، وإنما كان كذلك ؛ لأن الكلام مع الرفع جملة واحدة ، ومع النصب جملتان ،
 فالرفع أخصر ، مع أنه لا مقتضى للنصب ههنا من أحد الأصناف الستة ، أعنى : الأمر ، والنهى ... إلى آخرها ،
 ولا أجد هنا مناسب عطف ولا غيره مما يحدونه من محال اختيارهم للنصب . فإذا تبين ذلك فاعلم أنه إنما عدل عن
 الرفع إجماعاً لرسر لطيف يعين اختيار النصب : وهو أنه لو رفع لوقعت الجلة التى هى (خلقناه) صفة لشئ ، ورفع
 قوله (بقدر) خبراً عن كل شئ المقيد بالصفة ، ويحصل الكلام على تقدير : إنا كل شئ مخلوق لنا بقدر ، فأفهم
 ذلك أن مخلوقاً ما يضاف إلى غير الله تعالى ليس بقدر ، وعلى النصب يصير الكلام : إنا خلقنا كل شئ بقدر ، فيفيد
 عموم نسبة كل مخلوق إلى الله تعالى ، فلما كانت هذه الفائدة لا توازيها الفائدة اللفظية على قراءة الرفع مع ما فى الرفع
 من نقصان المعنى ومع ما فى هذه القراءة المستفيضة من مجىء المعنى تاماً واضحاً كلفق الصبح ، لاجرم أجمعوا على
 العدول عن الرفع إلى النصب ، لكن الومضى لما كان من قاعدة أصحابه تقسيم المخلوقات إلى مخلوق الله ومخلوق لغير
 الله ، فيقولون : هذا لله بزمعهم ، هذا لنا : فترت هذه الآية فاه ، وقام إجماع القراء حجة عليه ، فأخذ يستروح
 إلى الشقاء . وينقل قراءتها بالرفع ؛ فلما أجمع له ويعرض عليه إعراض القراء السبعة عن هذه الرواية ، مع أنها هى الأولى
 فى العربية ، لولا ما ذكرناه ، أيجوز فى حكمه حيثئذ الإجماع على خلاف الأولى لفظاً ومعنى . من غير معنى اقتضى
 ذلك أم لا ؟ وهو الخبير بما يحكم به ، قال الله ترجع الأمور .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ⑤٤ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ⑤٥
 (ونهر) وأنهار، اكتفى باسم الجنس. وقيل: هو السعة والضياء من النهار. وقرئ:
 بسكون الماء. ونهر: جمع نهر، كأسد وأسد (في مقعد صدق) في مكان مرضى. وقرئ:
 في مقاعد صدق (عند ملك مقتدر) مقربين عند ملك بهم أمره في الملك والافتقار، فلا شيء
 إلا وهو تحت ماسكه وقدرته، فأى منزلة أكرم من تلك المنزلة وأجمع للغبطة كلها والسعادة بأسرها.
 عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ سورة القمر في كل غيب»^(١) بعثه الله يوم
 القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر»^(٢)

سورة الرحمن

مدنية وآياتها ٧٨ | نزلت بعد الرعد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَنُ ① عَلَّمَ الْقُرْآنَ ② خَلَقَ الْإِنْسَانَ ③ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ④
 الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ⑤ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ⑥ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا
 وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ⑦ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ⑧ وَأَقْبَسُوا الْوِزْنَ بِالْقِسْطِ
 وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ⑨ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ⑩ فِيهَا فَكِيمَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ
 الْأَكْمَامِ ⑪ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ ⑫ وَالرَّيْحَانُ ⑬ فَيَأْتِي أَعْلَاهُ رَبُّكُمَا
 مُكَذِّبَانِ ⑭

(١) قوله «في كل غيب بعثه الله» في الصباح والقب: أن ترد الابل الماء يوما وتدعه يوما. والقب في
 الوبارة: قال الحسن: في كل أسبوع. (ع)
 (٢) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدى بأسانيدهم إلى أبي بن كعب.

عدد الله عز و علا آلاؤه ، فأراد أن يقدم أول شيء ما هو أسبق قدما من ضروب آلائه^(١) وأصناف نعماته ، وهى نعمة الدين ، فقدم من نعمة الدين ما هو فى أعلى مراتبها وأقصى مراقبها : وهو إنعامه بالقرآن وتنزيله وتعليمه ، لأنه أعظم وحى الله رتبة ، وأعلاه منزلة ، وأحسنه فى أبواب الدين أثراً ، وهو سنام الكتب السماوية ومصداقها والعيار عليها ، وآخر ذكر خلق الإنسان عن ذكره ، ثم أتبعه إياه : ليعلم أنه إنما خلقه للدين ، وليحيط علماً بوحيه وكتبه وما خلق الإنسان من أجله ، وكأن الغرض فى إنشائه كان مقدماً عليه وسابقاً له ، ثم ذكر ما تميز به من سائر الحيوان من البيان ، وهو المنطق الفصيح^(٢) المعرب عما فى الضمير و ﴿ الرحمن ﴾ مبتدأ ، وهذه الأفعال مع ضمائرها أخبار مترادفة ، وإخلاؤها من العاطف لجبيتها على نمط التعديد ، كما تقول : زيد أغناك بعد فقر ، أعزك بعد ذل ، كثرك بعد قلة ، فعل بك ما لم يفعل أحد بأحد ، فما تشكر من إحسانه ؟ ﴿ بحسبان ﴾ بحساب معلوم وتقدير سوى ﴿ بحريان ﴾ فى بروجهما ومنازلهما . وفى ذلك منافع للناس عظيمة : منها علم السنين والحساب ﴿ والنجم ﴾ والنبات الذى ينجم من الأرض لاساق له كالبقول ﴿ والشجر ﴾ الذى له ساق . وسجودهما : انقيادهما لله فيما خلقا له ، وأنهما لا يمتنعان ، تشبيهاً بالساجد من المكلفين فى انقياده . فإن قلت : كيف اتصل هاتان الجملتان بالرحمن ؟ قلت : استغنى فيهما عن الوصل اللفظى بالوصل الماضى ، لما علم أن الحسبان حسبان ، والسجود له لا لغيره ، كأنه قيل : الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان له . فإن قلت : كيف أخل بالعاطف فى الجمل الأولى ، ثم جئ به بعد ؟ قلت : يكتم بتلك الجمل الأولى واردة على سنن التديد ، ليكون كل واحدة من الجمل مستقلة فى تقرير الذين أنشروا الرحمن وآلاؤه ، كما يبيك مشكر أياذى المنعم عليه من الناس بتعديدها عليه فى المثال الذى قدمته ، ثم رد الكلام إلى منهاجه بعد التبيكيت فى وصل ما يجب وصله للتناسب والتقارب

(١) قال محمود : « عدد الله عز وجل آلاؤه فأراد أن يقدم أول شيء ما هو أسبق قدما فى ضروب آلائه ... الخ » قال أحد : يغير من هذا الكلام قوله : أن خلق الإنسان كان الغرض فيه . أى المراد منه : أن يحيط علماً بالكتب والوحى ، ويعرض بأن المراد بخلقهم : أن يدعى إلى ذلك ، لا أن يقع ذلك منه ، فهذا هو المراد العام ، ثم منهم من أراد الله منه أن يحيط علماً بالدين فيفسر له ذلك ، ومنهم من أراد ضلالته وجهالته فيبعد عنه ولم يوفق ، والله الموفق للصواب .

(٢) قال محمود : « ثم ذكر ما تميز به عن سائر الحيوان من البيان ، وهو المنطق الفصيح المعرب . الخ » قال أحد : وإنما خص الجمل الأولى بذكرها تبيكيتاً للإنسان لأجل التصاق معانيها به ، ألا ترى أنه مذكور فيها نطقاً وإظهاراً وحذاً مدلولاً عليه فى الكلام ، فهو منطوق به مظهراً فى قوله (خلق الإنسان) ومضمراً فى قوله (علمه البيان) ومدلولاً على حذفه فى قوله (علم القرآن) فإنه المفعول الثانى . أما قوله (الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان) فليس للإنسان فيهما ذكر البتة ، وجل المقصود من سياقهما التنبية على عظمة الله تعالى :

بالعاطف . فإن قلت : أى تناسب بين هاتين الجملتين حتى وسط بينهما العاطف ؟ قلت : إن الشمس والقمر سماويان ، والنجم والشجر أرضيان ، فبين القميين تناسب من حيث التماثل ، وأن السماء والأرض لا تزالان تذكران قرينتين ، وأن جرى الشمس والقمر بحسبان من جاذب الاتياد لأمر الله ، فهو مناسب لسجود النجم والشجر . وقيل : (علم القرآن) جعله علامة وآية . وعن ابن عباس رضى الله عنه : الإنسان آدم . وعنه أيضاً : محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن مجاهد النجم : نجوم السماء (والسمااء رفعها) خلقها مرفوعة مسموكة ، حيث جعلها منشأ أحكامه ، ومصدر قضاياءه ، ومنزل أوامره ونواهيه ، ومسكن ملائكته الذين يهبطون بالوحي على أنبيائه ؛ ونبه بذلك على كبرياء شأنه وملكوته وسلطانه (ووضع الميزان) وفي قراءة عبد الله : وخفض الميزان ، وأراد به كل ما توزن به الأشياء وتعرف مقاديرها من ميزان وفرسطون ومكيال ومقياس ، أى خلقه موضوعاً مخفوضاً على الأرض : حيث علق به أحكام عبادته وقضاياهم وما تعبد بهم به من التسوية والتعديل فى أخذهم وإعطائهم (ألا تطغوا) لا تطغوا . أو هى أن المفصرة . وقرأ عبد الله : لا تطغوا بغير أن . على إرادة القول (وأقيموا الوزن بالقسط) وقوموا وزنكم بالعدل (ولا تخسروا الميزان) ولا تنقصوه : أمر بالتسوية ونهى عن الطغيان الذى هو اعتداء وزيادة ، وعن الخسران الذى هو تطفيف ونقصان . وكثر لفظ الميزان : تشديداً للتوصية به ، وتقوية للأمر باستعماله والحث عليه . وقرئ : والسماء . بالرفع . ولا تخسروا بفتح التاء وضم السين وكسرها وفتحها . يقال : خسر الميزان يخسره ويخسره ، وأما الفتح فعلى أن الأصل : ولا تخسروا فى الميزان ، لخذف الجار وأوصل الفعل . و(وضعها) خفضها مدحوة على الماء (للأنام) للخلق ، وهو كل ما على ظهر الأرض من دابة . وعن الحسن : الإنس والجن ، فهى كالمهاد لهم يتصرفون فوقها (فاكهة) ضروب مما يتفكه به ، و(الأكام) كل ما يكم أى يغطى من ليفة وسعفة وكفزة^(١) وكله منتفع به كما ينتفع بالمكوم من ثمره وجماره وجذوعه . وقيل الأكام أوعية التمر : الواحد كم . بكسر الكاف . و(العصف) ورق الزرع ، وقيل اللبن (والريحان) الرزق وهو اللب : أراد فيها ما يتلذذ به من الفواكه والجامع بين التلذذ والتغذى وهو ثمر النخل ، وما يتغذى به وهو الحب . وقرئ : والريحان ، بالكسر . ومعناه : والحب ذو العصف الذى هو علف الأنعام ، والريحان الذى هو مطعم الناس . وبالضم على : وذو الريحان ، لخذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه .

(١) قوله «وسعفة وكفزة» الذى فى الصحاح «الكفرى بلا تاء ، وأنها وعاء الطلع اه : فاعل عبارة المفسر من ليفة وسعفة وكفزة بإضافة كل إلى ضمير النخل . كما سيأتى فى ثمره وجماره وجذوعه ، والتاسخ توهم أنها ماء التائب فنقطها فوق . (ع)

وقيل : معناه وفيها الريحان الذي يشم ، وفي مصاحف أهل الشام : والحب ذو العصف والريحان ، أى : وخلق الحب والريحان : أو وأخص الحب والريحان . ويجوز أن يراد : وذو الريحان ، فيحذف المضاف ويقام المضاف إليه مقامه ، والخطاب في ﴿ ربكما تكذبان ﴾ للثقلين بدلالة الأناام عليهما . وقوله (سفرغ لكم أيها الثقلان) .

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ۖ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ۖ (١٥) قَبَائِدُ الْعَالِ رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦)

الصلصال : الطين اليابس له صلصلة . والفخار : الطين المطبوخ بالنار وهو الخزف . فإن قلت : قد اختلف التنزيل في هذا ، وذلك قوله عز وجل (من حمأ مسنون) ، (من طين لازب) ، (من تراب) . قلت : هو متفق في المعنى ، ومفيد أنه خلقه من تراب : جملة طينا ، ثم حمأ مسنونا ، ثم صلصالا . و﴿ الجان ﴾ أبو الجن . وقيل : هو إبليس . والمارج : اللهب الصافي الذي لا دخان فيه . وقيل : المختلط بسواد النار ، من مرج الشيء إذا اضطرب واختلط . فإن قلت : فما معنى قوله ﴿ من نار ﴾ ؟ قلت : هو بيان المارج ، كأنه قيل : من صاف من نار . أو مختلط من نار أو أراد من نار مخصوصة ، كقوله تعالى (فإنذرتمكم نارا تلظى) .

رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) قَبَائِدُ الْعَالِ رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨)

قرئ : رب المشرقين ورب المغربين ، بالجر بدلا من (ربكما) وأراد : مشرق الصيف والشتاء ومغربيهما .

مَرْجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠) قَبَائِدُ الْعَالِ رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يُخْرِجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ (٢٢) قَبَائِدُ الْعَالِ رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣)

﴿ مرج البحرين ﴾ أرسل البحر الملح والبحر العذب متجاورين متلاقين ، لا فصل بين المسابن في مرأى العين ﴿ بينهما برزخ ﴾ حاجز من قدرة الله تعالى ﴿ لا يبغيان ﴾ لا يتجاوزان حديهما ولا يبغي أحدهما على الآخر بالمهاجرة . قرئ يخرج ويخرج . وأخرج . ويخرج : أى الله عز وجل اللؤلؤ والمرجان بالنصب . ويخرج ، بالنون . واللؤلؤ : الدر . والمرجان : هذا الحرز الأحمر وهو البسد . وقيل : اللؤلؤ كبار الدر . والمرجان : صغاره . فإن قلت : لم قال

(منهما) وإنما يخرجان من الملح^(١)؟ قلت : لما التقيا وصارا كالشيء الواحد : جاز أن يقال : يخرجان منهما ، كما يقال يخرجان من البحر ، ولا يخرجان من جميع البحر ولكن من بعضه . وتقول : خرجت من البلد وإنما خرجت من محلة من محاله ، بل من دار واحدة من دوره . وقيل : لا يخرجان إلا من ملتحى الملح والعذب .

وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ فَيَأْتِيَهُمْ الْغَمْرُ مِنْ أَلَمٍ ﴿٢٥﴾
(الجوارى) السفن . وقرئ : الجوار تحذف الياء ورفع الراء ، ونحوه :

لَهَا ثَنَابًا أَرْبَعُ حِصَانُ وَأَرْبَعُ فَكْلَهَا ثَمَانُ^(٢)

و (المنشآت) المرفوعات الشرع^(٣) . وقرئ بكسر الشين : وهى الرافعات الشرع أو اللاتي ينشئن الأمواج بحريهن . والأعلام : جمع علم ، وهو الجبل الطويل .

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٣٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٣٧﴾
فَيَأْتِيَهُمْ الْغَمْرُ مِنْ أَلَمٍ ﴿٣٨﴾ نَكْذِبَانِ

(عليها) على الأرض (وجه ربك) ذاته ، والوجه يعبر به عن الجملة والذات^(٤) ، ومساكين مكة يقولون : أين وجه عربى كريم يتغذى من الهوان . و (ذو الجلال والإكرام) صفة الوجه . وقرأ عبد الله : ذى . على : صفة ربك . ومعناه : الذى يحله الموحدون عن التشبيه بخلقه وعن أفعاله^(٥) .

(١) قال محمود : « إن قلت لم قال منهما وإنما يخرجان من الملح ... الخ » قال أحمد : هذا القول الثانى مردود بالمساعدة ، والصواب هو الأول ، ومثله (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) وإنما أريد إحدى القريتين ، هذا هو الصحيح للظاهر ، وكما تقول : فلان من أهل ديار مصر ، وإنما بلده محلة واحدة منها .

(٢) الثنابا : مقدم الأسنان ، وظاهر البيت أنها أربع من فوق وأربع من تحت ، فكل ثناباها ثمان . وروى : فغرها ثمان ، وهذه الرواية تناسب ما اشتهر من أن الثنابا اثنتان من فوق واثنتان من تحت فهى أربع ، ويلها مقلها رباعيات ، ويلها مثلها أنياب ، ويلها مثلها ضواحك ، وما بقى أضراس . ثم نواجز . وعادل المتقوس معاملة الصحيح ، فرفع ثمان خبرا للبدأت ، وصارت الياء المحذوفة ثنابا مفعليا .

(٣) قوله « والمنشآت المرفوعات الشرع » فى الصحاح « والشرع » : شراع السفينة اهـ ، فالشرع جمع ، ككتتاب وكتب . (ج)

(٤) قال محمود : « الوجه يعبر به عن الذات ومساكين مكة يقولون ... الخ » قال أحمد : المعتزلة ينكرون الصفات الالهية التى دل عليها العقل ، فكيف بالصفات السمعية : هل أن من الأشعرية من حل الوجه واليد والعين على نحو ما ذكر ، ولم ير بيانها صفات سمعية .

(٥) قوله « عن التشبيه بخلقه وعن أفعاله » إجلاله عن أفعال الخلق مبنى على مذهب المعتزلة : أنه لا يخلق أفعال العباد . ومذهب أهل السنة : أنه هو الخالق لها . (ج)

أو الذي يقال له : ما أجلك وأكرمك . أو من عنده الجلال والإكرام الدخلى من عباده ، وهذه الصفة من عظيم صفات الله ؛ ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أظفوا ^(١) ياإذا الجلال والإكرام » ^(٢) وعنه عليه الصلاة والسلام : أنه مر برجل وهو يصلى ويقول : ياإذا الجلال والإكرام ، فقال : « قد استجيب ^(٣) لك » . فإن قلت : ما النعمة في ذلك ؟ قلت : أعظم النعمة وهو مجي . وقت الجزاء عقيب ذلك .

يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَيَأْتِيَهُمْ آيَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾

كل من أهل السموات والأرض مفتقرون إليه ، فيسأله أهل السموات ما يتعلق بدينهم ، وأهل الأرض ما يتعلق بدينهم ودنياهم (كل يوم هو في شأن) أى كل وقت وحين يحدث أمورا ويجدد أحوالا ، كما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه تلاها فقل له : وما ذلك الشأن ؟ فقال : « من شأنه أن يغفر ذنبا ويفرج كربا ، ويرفع قوما ويضع آخرين » ^(١) وعن ابن عيينة : الدهر عند الله تعالى يومان ، أحدهما : اليوم الذى هو مدة عمر الدنيا فشأنه فيه الأمر والنهى والإماتة والإحياء والإعطاء والمنع . والآخر : يوم القيامة ، فشأنه فيه الجزاء والحساب . وقيل : نزلت في اليهود حين قالوا : إن الله لا يقضى يوم السبت شيئا . وسأل بعض الملوك وزيره عنها فاستمهلها إلى الغد وذهب كشيئا يفكر فيها ، فقال غلام له أسود : يا مولاي ، أخبرني ما أصابك لعل الله يسهل لك على يدي ، فأخبره فقال له : أنا أفسرها للملك فأعلمه ، فقال : أيها الملك شأن الله أن يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، ويخرج الحي

(١) قوله « أظفوا ياإذا الجلال » أى : الزموا ذلك . اهـ صحاح . (ع)

(٢) أخرجه الترمذى من رواية يزيد الرقاشي . عن أنس ويزيد ضعيف ، ومن رواية مؤمل عن حماد بن حميد عن أنس مرفوعا ، وقال غيره مخفوضا وإنما هو عن حماد عن حميد عن الحسن مرسل وهو أصح ، وأخرجه من رواية مؤمل إسماعيل وابن أبي شيبة ، والثالث أبو يعلى والبخاري قال ابن أبي حاتم عن أبيه : أخطأ فيه مؤمل ، والصحيح ما رواه أبو سلمة عن حماد عن ثابت . وحميد عن الحسن مرسل ورواه ابن مردويه من رواية روح بن عبادة عن حماد عن حميد عن أنس موصولا أيضا ، وهذه متابعة قرية لمؤمل ، وفي الباب عن ربيعة بن عامر بن نجاد أخرجه الحاكم ، وفيه رشيد بن سعد ، وهو ضعيف وعن ابن عمر أخرجه ابن مردويه وإسناده ضعيف

(٣) أخرجه الترمذى والبخاري في الأدب المفرد وأحمد والبخاري والطبراني من طريق أبي الدرداء عن اللجلاج عن معاذ بن جبل فذكره .

(٤) أخرجه ابن ماجه وابن حبان والطبراني والبخاري وأبو يعلى من حديث أبي الدرداء ، وفي الباب عن ابن عمر أخرجه البخاري بإسناد ضعيف . وعن عبدة بن حبيب الأزدي . أخرجه البخاري والطبراني وابن أبي حاتم قال البخاري : لا أعلم أحدا عبدة بن حبيب إلا هذا الحديث .

من الميت ويخرج الميت من الحى ، ويشقى سقيماً ويسقم سليماً ، وابتلى معافاً ويعافى مبتلى ، ويمر ذليلاً ويذل عزباً ويفقر غنياً ويغنى فقيراً ؛ فقال الامير : أحسنت وأمر الوزير أن يخلع عليه ثياب الوزارة فقال : يا مولاي هذا من شأن الله . وعن عبد الله بن طاهر أنه دعا الحسين ابن الفضل وقال له : أشكلت على ثلاث آيات ، دعوتك لتكشفها لى : قوله تعالى (فأصبح من النادمين) وقد صح أن الندم توبة وقوله تعالى (كل يوم هو فى شأن) وقد صح أن القلم قد جف بما هو كائن إلى يوم القيامة . وقوله تعالى (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) فما بال الأضعاف ؟ فقال الحسين : يجوز أن لا يكون الندم توبة فى تلك الآفة . ويكون توبة فى هذه الآفة ؛ لأن الله تعالى خص هذه الآفة بخصائص لم يشاركهم فيها الأمم ، وقيل إن ندم قابيل لم يكن على قتل هابيل ، ولكن على حمله ، وأما قوله (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) فعناه : ليس له إلا ما سعى عدلاً ، ولئى أن أجزيه بواحدة ألفاً فضلاً ، وأما قوله (كل يوم هو فى شأن) فإنها شئون يبدىها لأشئون يبتدئها : فقام عبد الله وقبل رأسه وسقغ خراجها ،

سَنَفَرُغْ لَكُمْ أَيُّهُ الثَّقَلَانِ (٣١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢)

(سنفرغ لكم) مستعار من قول الرجل لمن يتهده : سأفرغ لك ، يريد : سأتحوز للإيقاع بك من كل ما يشغلنى عنك ، حتى لا يكون لى شغل سواه ، والمراد : التوفر على النكاية فيه والانتقام منه ، ويجوز أن يراد : ستنتهى الدنيا وتبلغ آخرها ، وتنتهى عند ذلك شئون الخلق التى أرادها بقوله (كل يوم هو فى شأن) فلا يبقى إلا شأن واحد وهو جزاؤكم ، فجعل ذلك فراغاً لهم على طريق المثل ، وقرئ : سيفرغ لكم ، أى : الله تعالى ، وسأفرغ لكم ، وسنغفر بالثون . فتوحا ومكسوراً وفتح الراء ، وسيفرغ بالياء مفتوحاً ومضموماً مع فتح الراء ، وفى قراءة أنى : سنفرغ إليكم ، بمعنى : سنقصد إليكم ، والثقلان : الإنس والجن ، سمياً بذلك لأنهما ثقلا الأرض ،

بِمَعْشَرِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَفْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

فَأَنْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَنِ (٣٣) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤)
بُرْسُلُ عَلَيْكُمَا شُواظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَلْتَمِصَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا

تُكَذِّبَانِ (٣٦)

(بمعشر الجن والإنس) كالترجمة لقوله : أيها الثقلان (إن استطعتم) أن تهربوا من قضائى وتخرجوا من ملكوتى ومن سماءى وأرضى ، فافعلوا ، ثم قال : لا تقدرُونَ على

النفوذ (إلا بسلطان) يعني بقوة وقهر وغلبة ، وأنى لكم ذلك ، ونحوه (وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء) وروى : أن الملائكة عليهم السلام تنزل فتحيط بجميع الخلائق ، فإذا رآهم الجن والإنس هربوا ، فلا يأتون وجها إلا وجدوا الملائكة أحاطت به . قرئ : شواظ ونحاس ، كلاهما بالضم والكسر ؛ والشواظ : اللهب الخالص . والنحاس : الدخان ؛ وأنشد :

نُضِيَ كَضَوْه سِرَاجِ السَّلَاسِطِ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ فِيهِ نُحَاسًا (١)

وقيل : الصفر المذاب يصب على ردوسهم . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : إذا خرجوا من قبورهم ساقهم شواظ إلى المحشر . وقرئ : ونحاس ، مرفوعاً عطفاً على شواظ . ومجروراً عطفاً على نار . وقرئ : ونحاس : جمع نحاس ، وهو الدخان ، نحو لحاف ولحف . وقرئ : ونحاس : أى : ونقتل بالعذاب . وقرئ : نرسل عايكما شواظاً من نار ونحاساً (فلا تقتصران) فلا تمتنعان .

فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) قِيَامِي ءَالٍ رَبُّكُمْ
مُكَذِّبَانِ (٣٨) فَهُمْ مِمَّنْ لَا يُسْتَلْعَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ (٣٩) قِيَامِي ءَالٍ
رَبُّكُمْ مُكَذِّبَانِ (٤٠)

(وردة) حمراء (كالدهان) كدهن الزيت ، كما قال : كاللؤلؤ ، وهو دردى الزيت ، وهو جمع دهن . أو اسم ما يدهن به كالخزام والإدام . قال :

كَانَهُمَا مَرَادَاتَا مُتَعَجِّلِي قَرِيَّانِ لَمَّا تُدْهِنَا يَدَهُنَا (٢)

(١) لفظة الجمدى . والسليط : الفيرج ، ولم يجعل : جملة حالية من السراج . والنحاس : الدخان . وشرط عجي . الحال من المضاف إليه موجود ؛ لأن الضوء مثل جزئه ، ولعله يصف وجه محبوسه التى قال فيها : إذا ما الضجيج تقي عطفاً ... البيت : شبهه بالسراج في الاضاءة ، بقيدان لا يكوذبه دخان ؛ لأن ضوء وجهها كذلك . فهو من التشبيه المقيد .

(٢) لامرئ القيس . والمزادة : قرية صغيرة يتزود فيها الماء للسفر . والقرى - وزن فاعيل بمعنى مفعول ، من فريت الجلد إذا شفته . ولما : حرف جزم ونفى كلف ، إلا أنه يختص بتوقع منفي . ويرى : لما تسلفا ، أى : تدهنا ، من سلفت الجلد إذا دهنته . والدهان : ما يدهن به ، كالإدام ما يؤتم به : شبه عينيه من كثرة البكاء بقرين رجل متعجل ، وهو من يأتي أمه بالاعجالة : وهى ما يعجله الراعى إلى أمه من اللبن قبل رقت الحلب . ويمكن أن المعنى أنه مستعجل لم يصبر حتى يدهنهما ويدهنهما ، قريان : مشقوقتان ، أى على حالة سلخهما لم يدهنا بدهن قط . وقيل : معنى المتعجل أنه لم يحكم ربطهما . فهما بذرفان ماء من فيهما لا من تقويمهما .

وقيل : الدهان الأديم الأحمر . وقرأ عمرو بن عبيد . وردة بالرفع ، بمعنى : لحصلت سماء وردة ، وهو من الكلام الذى يسمى التجريد ، كقوله :

فَلَنْ يَبْقِيَتْ لَأَرْحَلَنَّ بَغْزَوَةٌ تَحْوِي الْقَنَائِمَ أَوْ يَمُوتَ كَرِيمٌ^(١)

(إنس) بعض من الإنس (ولا جان) أريد به : ولا جن : أى : ولا بعض من الجن ، فوضع الجان الذى هو أبو الجن موضع الجن ، كما يقال : هاشم ، ويراد ولده . وإنما وحد ضمير الإنس فى قوله (عن ذنبه) لكونه فى معنى البعض . والمعنى : لا يسألون لأنهم يعرفون بسيا المجرمين وهى سواد الوجوه وزرقة العيون . فإن قلت : هذا خلاف قوله تعالى (فو ربك لنسألتهم أجمعين) وقوله (وقفورهم إنهم مسئولون) . قلت : ذلك يوم طويل وفيه مواطن ، فيسألون فى موطن ولا يسألون فى آخر : قال قتادة : قد كانت مسألة ، ثم ختم على أفواه القرم ، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون . وقيل لا يسأل عن ذنبه ليعلم من جهته ، ولكن يسأل سؤال توبيخ . وقرأ الحسن وعمر بن عبيد : ولا جان : فرارا من التقاء الساكنين ، وإن كان على حده .

يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسَمِّهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأُقْدَامِ^(٢) فَبِأَيِّ آلاءِ

(١) ومعنى أسود من خفيفة فى الوغى للبيض فوق رؤسهم نوسيم
قوم إذا لبسوا الحديد كأنهم فى البيض والحلق الدلاص نجوم
فلن يبيت لأرجعن بغزوة نحو القنائم أو يموت كريم

لقتادة بن مسلم الحننى . والدلاص : اللينة الملساء . واستعار الأسود للرجل على طريق التصريح ، ثم قال : إنهم مرسومون فى الحرب بالمخاف حال كونها فوق رؤسهم . والمراد بالحديد : الدروع والمخافر والحلق الدروع وكانت بيضاء . فسميهم فيها بالنجوم للجمان . أو كانت سوداء ، فسميهم فيها بالنجوم فى السماء ، فالجامع مركب حسى ، وإفاء فى قوله « فلن يبيت » يدل على أن ما بعدها مسبب عما قبلها من توفر رجاله ونجاعتهم ومنعتهم ، أى : والله لئن طال همرى لأرجعن إلى الأعداء بغزوة أخرى تجمع القنائم ونحوها ، فتحوز بالنون : فعل مضارع مجزوم فى جواب شرط مقدر ، أى : إن رجعتا إليهم بغزوة تجمع القنائم منهم . وأما جواب إن المذكورة فمحذوف ، دل عليه جواب القسم . وروى : لأرحلن بغزوة ، أى : لأسافرن بغزوة ، نحوى بالناء وزيادة الياء ، أى تجمع القنائم ونحوها . وإستاد الفعل للغزوة ، لأنها سبب الجمع والحياة . ويجوز أن معناها الكتبية ، مبالغة فى غزوها . وروى نحوى بالنون مع الياء ، أى : تجمع نحن ونحوى فى تلك الغزوة ، فالجاء صفة لغزوة . ويجوز أنه استغناء : جواب لسؤال مصدر . وروى : نحو القنائم بالنصب على الظرفية ، أى جهة القنائم . وأو بمعنى إلا ، أى إلا أن يموت كريم أى نفسه ، فهو من باب التجريد ، كأنه انزعج من نفسه شخصا مثله فى الهجاء فأخبر عنه ، والكرم هنا الهجاء : لأنه فى كل باب بحسبه ؛ فليس خاصا بمقابل البخل . ومعنى الاستثناء راجع إلى معنى الجمع والحياة ، ولا يلزم من اشتراط البقاء فى الذهاب اشتراط فيها يوجد عقبه فلا تكرار .

رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٢ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ٤٣
يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ٤٤ فَبِأَيِّ ءَالٍ رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٥

(فيؤخذ بالنواصي والاقدام) عن الضحاك : يجمع بين ناصيته وقدمه في سلسلة من وراء ظهره . وقيل تسحبهم الملائكة : تارة يأخذ بالنواصي ؛ وتارة تأخذ بالاقدام (حميم آن) ماء حار قد انتهى حره ونضجه ، أى : يعاقب عليهم بين التصلية بالنار وبين شرب الحميم . وقيل : إذا استغاثوا من النار جعل غياثهم الحميم . وقيل : إن واديا من أودية جهنم يجتمع فيه صديد أهل النار فينطلق بهم في الأغلال ، فيغمسون فيه حتى تنخلع أوصالهم ؛ ثم يخرجون منه وقد أحدث الله لهم خلقا جديدا . وقرئ : يطوفون من التطويف . ويطوفون ، أى : يتطوفون ويطافون . وفي قراءة عبد الله : هذه جهنم التي كتبنا بها تكذبان تصليان لا تموتان فيها ولا تحييان يطوفون بينها . ونعمة الله فيما ذكره من هول العذاب : نجاة الناجي منه برحمته وفضله ، وما في الإنذار به من اللطف .

وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ٤٦ فَبِأَيِّ ءَالٍ رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٧
ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ٤٨ فَبِأَيِّ ءَالٍ رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٩ فِيهِمَا عِثَابٌ
تَجْرِيَانِ ٥٠ فَبِأَيِّ ءَالٍ رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٥١ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ
رَوْحَانِ ٥٢ فَبِأَيِّ ءَالٍ رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٥٣ مُتَكَبِّرِينَ عَلَى فُرُشٍ
بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَابٌّ ٥٤ فَبِأَيِّ ءَالٍ رَبُّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ٥٥

(مقام ربه) موقفه الذي يقف فيه العباد للحساب يوم القيامة (يوم يقوم الناس لرب العالمين) ونحوه (لمن خاف مقامى) ويجوز أن يراد بمقام ربه : أن الله قائم عليه : أى حافظ مهيم من قوله تعالى (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت فهو يراقب ذلك فلا يجسر على معصيته . وقيل : هو مقبح كما تقول : أخاف جانب فلان ، وفعلت هذا لمكانك . وأنشد :

دَعَرْتُ بِهِ الْقَطَا وَنَمِئْتُ عَنْهُ مَقَامَ الذَّنْبِ كَأَرْجُلِ اللَّحْمِ (١)

(١) قوله «كأرجل اللحم» : هو شيء ينصب وسط الزرع لطرد الوحوش ، كذا في الصحاح . اه عليان . قلت : وتقدم شرح هذا الشاهد بهذا الجزء صفحة ٢٠٥ فراجع إن شئت اه مصححه .

يريد : ونفيت عنه الذئب . فمن قالت : لم قال (جستان) ؟ قالت : الخطاب للثقلين ؛ فكأنه قيل : لكل خاتفين منكبا جستان : الجنة للخائف الإنسى ، وجنة للخائف الجنى . ويجوز أن يقال : جنة لفعل الطاعات ، وجنة لترك المعاصي ؛ لأن التكليف دائر عليهما وأن يقال : جنة يثاب بها ، وأخرى تضم إليها على وجه التفضل ، كقوله تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) خص الأفنان بالذكر : وهى الغصنة ^(١) التى تتشعب من فروع الشجرة ؛ لأنها هى التى تورق وتثمر ، فهنا تمتد الظلال ، ومنها تجتنى الثمار . وقيل : الأفنان ألوان النعم ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين . قال :

وَمِنْ كُلِّ أَفْنَانٍ اللَّذَاذَةُ وَالصَّبَا لَهَوْتُ بِهِ وَالْعَيْشُ أَخْضَرُ نَاضِرٌ ^(٢)

(عينان تجريان) حيث شاءوا فى الأعلى والأسفل . وقيل : تجريان من جبل من ملك . وعن الحسن : تجريان بالماء الزلال : إحداهما التسليم ، والأخرى : السليل (زوجان) صنفان : قيل : صنف معروف وصنف غريب (متكئين) نصب على المدح الخائفين . أو حال منهم ، لأن من خاف فى معنى الجمع (بطانها من إستبرق) من ديباج ثخين ، وإذا كانت البطائن من الإستبرق ، فما ظنك بالظهار ؟ وقيل : ظهارها من سندس . وقيل : من نور (دان) قريب يناله القائم والقاعد والنام . وقرئ : وجنى ، بكسر الجيم .

فِيهِمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئُنْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ ^{٥٦} قَبَائِ
 ءَ الْآءِ رَبَّكُمْ مُنْكَذَّبَانِ ^{٥٧} كَانْتُنَّ الْيَاقُوتَ وَالْمَرْجَانَ ^{٥٨}
 قَبَائِيَّ ءَ الْآءِ رَبَّكُمْ مُنْكَذَّبَانِ ^{٥٩} هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ^{٦٠}
 قَبَائِيَّ ءَ الْآءِ رَبَّكُمْ مُنْكَذَّبَانِ ^{٦١}

(١) قوله « وهى الغصنة » جمع غصن ، كقرطة جمع قرط . أماده الصحيح . (ع)

(٢) الأفنان : جمع فنن ، وهو الفصن كثير الورق ، فيكون شبه اللذات والعبا : بروضة أو شجرة ذات أفنان على طريق الممكنة . وإثبات الأفنان : تخيل . ويجوز أنه جمع فن ، أى : نوع وصنف على غير قياس ، كصحب وأصحاب . واللذات : جمع لذادة ، وهى اللذة . ويروى : اللذادة بالأفراد . والصبا : الغياب أو هوى النفس . ومن بمعنى بعض على طريقة الزخشرى ، أى : وبعض الأفنان لهوت ، أى : تمتعت به . والجمهور يجعلون نحو هذا مما حذف فيه الموصوف ، كقولهم : منا ظمن ومنا أقام ، لتقديم مجرور يدل عليه ، فن كل : خبر مقدم ، ولهوت : صفة محذوف مبتدأ مؤخر ، أى : صنف لهوت به : لكن المعنى على الاخبار باللهو ، فلا بد من المصير إلى رأى الزخشرى . أو جعل الجار والمجرور صفة للبتدأ ، ولهوت خبرا وإن لم يتقدم المجرور على الصفة . ويجوز أن « من كل » معمول محذوف بفسره المذكور ، أى : تمتعت من كل الأفنان لهوت به ، والوار للعال ، أى : والحال أن العيش أخضر . أو رطب لهن ناضر حسن ، نعبه العيش روض يافع . والمحضرة تخيل .

(فبين) في هذه الآلاء المعدودة من الجنة والعينين والفاكهة والفرش والجنى. أو في الجنة، لاشتغالها على أماكن وقصور وبجائس (قاصرات الطرف) نساء قصرن أبصارهن على أزواجهن: لا ينظرن إلى غيرهم. لم يطمث الإنسيات منهن أحد من الإنس، ولا الجنيات أحد من الجن^(١) وهذا دليل على أن الجن يطمثون كما يطمث الإنس، وقرئ: لم يطمثهن، بضم الميم. قيل: هن في صفاء الباقوت وبياض المرجان وصفار الدر: أنصع بياضا. قيل: إن الحوراء تلبس سبعين حلة، فيرى مخ ساقها من ورائها كما يرى الشراب الأحمر في الزجاج البيضاء (هل جزاء الإحسان) في العمل (إلا الإحسان) في الثواب. وعن محمد بن الحنفية: هي مسجلة للبر والفاجر. أى: مرسلة، يعنى: أن كل من أحسن أحسن إليه، وكل من أساء أسى إليه.

وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ٦٢ قَبَائِيءَ الْآءِ رَبُّكُمَا مُكَذِّبَاتٍ ٦٣
مُدْهَامَتَانِ ٦٤ قَبَائِيءَ الْآءِ رَبُّكُمَا مُكَذِّبَاتٍ ٦٥ فِيهِمَا عِتَابٌ
نَضَّاحَتَانِ ٦٦ قَبَائِيءَ الْآءِ رَبُّكُمَا مُكَذِّبَاتٍ ٦٧ فِيهِمَا فَكِكَةٌ وَنَخْلٌ
وَرُمَّانٌ ٦٨ قَبَائِيءَ الْآءِ رَبُّكُمَا مُكَذِّبَاتٍ ٦٩

(ومن دونهما) ومن دون تينك الجنين الموعودتين للقرين (جنتان) لمن دونهم من أصحاب اليمين (مدهامتان) قد ادهامت من شدة الخصرة (نضاحتان) فوارتان بالماء. والنضغ أكثر من النضج، لأن النضج غير معجمة مثل الرش، فإن قلت: لم عطف النخل والرمان على الفاكهة وهما منها؟ قلت: اختصاصا لهما وبياناً لفضلهما، كأنهما لما لهما من المزية جنسان آخران، كقوله تعالى (وجبريل وميكائيل) أو لأن النخل ثمرة فاكهة وطعام، والرمان فاكهة ودواء، فلم يخلصا للتفكه. ومنه قال أبو حنيفة رحمه الله: إذا حلف لا يأكل فاكهة فأكل رماناً أو رطباً: لم يحث، وغالقه صاحبه.

فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ٧٠ قَبَائِيءَ الْآءِ رَبُّكُمَا مُكَذِّبَاتٍ ٧١ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ
فِي الْخِيَامِ ٧٢ قَبَائِيءَ الْآءِ رَبُّكُمَا مُكَذِّبَاتٍ ٧٣ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ

(١) قال محمود: «لم يطمث الإنسية إنسى ولا الجنية جنى... الخ». قال أحد: يشير إلى الرد على من زعم أن الجن المؤمنين لا ثواب لهم؛ وإنما جزاؤهم ترك العقوبة وجعلهم تراباً.

فَعَلِمُمْ وَلَا جَانَ ٧٤ قَبَائِيَّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٧٥ مُتَكِبِّينَ عَلَى
رَفْرَفٍ خُضِيرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ٧٦ قَبَائِيَّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٧٧
تَبَارَكَ أَنَسُّ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ٧٨

(خيرات) خيرات تخففت، كقوله عليه السلام «هينون لينون»^(١) وأما خير، الذي هو بمعنى أخير، فلا يقال فيه خيرون ولا خيرات. وقرئ: خيرات على الأصل. والمعنى: فاضلات الاخلاق حسان الخلق (مقصورات) قصرن في خدورهن. يقال: امرأة قصيرة وقصورة ومقصورة مخدرة. وقيل: إن الخيمة من خيامهن دزة مجوفة (قبلهم) قبل أصحاب الجنتين، دل عليهم ذكر الجنتين (متكبين) نصب على الاختصاص. والررف: ضرب من البسط. وقيل البسط وقيل الوسائد، وقيل كل ثوب عريض ررف. ويقال لأطراف البسط وفضول الفسطاط: رفار. وررف السحاب: هيدبه^(٢) والعبقري: منسوب إلى عبقر، تزعم العرب أنه بلد الجن؛ فينسبون إليه كل شيء عجيب. وقرئ: رفار خضر. بضمين. وعباقري، كدائي: نسبة إلى عباقرى في اسم البلد؛ وروى أبو حاتم: عباقرى، بفتح القاف ومنع الصرف، وهذا لا وجه لصحته. فإن قلت: كيف تقاصرت صفات هاتين الجنتين عن الأولين حق قيل: ومن دونهما؟ قلت: مدهاتان، دون ذواتا أفنان. ونضاختان دون: تجريان. وفاكهة دون: كل فاكهة. وكذلك صفة الحور والمتكأ. وقرئ: ذو الجلال صفة، للاسم.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ سورة الرحمن أدى شكر ما أنعم الله عليه»^(٣).

(١) قوله «هينون لينون» لعله ورد في صفة المؤمنين ومثله قال الشاعر:

• هينون لينون أيسار ذوو كرم • (ع)

(٢) قوله «وررف السحاب هيدبه» في الصحاح: يهدب السحاب: مانهذب منه، إذا أراد الورق أراد كانه

خيوط. (ع)

(٣) أخرجه الثعلبي والواحدى وابن مردويه بإسنادهم إلى أبي بن كعب.

سورة الواقعة

مكية [إلا آيتي ٨١ و ٨٢ فدينيتان]

وآياتها ٩٦ وقيل ٩٧ آية [نزلت بعد طه]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ① لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كَاذِبَةٌ ② خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ③
 إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ④ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ⑤ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ⑥
 وَكُنُفُهُمْ أَزْوَاجًا ثُلَاثًا ⑦

(وقعت الواقعة) كقولك : كانت الكائنة ، وحدثت الحادثة ، والمراد القيامة : وصفت بالوقوع لأنها تقع لامحالة ، فكانه قيل : إذا وقعت التي لا بد من وقوعها ، ووقوع الأمر : نزوله . يقال : وقع ما كنت أتوقعه ، أى : نزل ما كنت أتربى نزوله . فإن قلت : بم انتصب إذا ؟ قلت : بليس . كقولك يوم الجمعة ليسل شغل . أو بمحذوف ، يعنى : إذا وقعت كان كيت وكيت : أو بإضمار اذكر (كاذبة) نفس كاذبة ، أى : لا تكون حين تقع نفس تكذب على الله وتكذب فى تكذيب النيب : لأن كل نفس حينئذ مؤمنة صادقة مصدقة ، وأكثر النفوس اليوم كواذب مكذبات ، كقوله تعالى (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده) ، (لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم) ، (ولا يزال الذين كفروا فى مرة منه حتى تأتهم الساعة بغتة) واللام مثلها فى قوله تعالى (باليتنى قد تمت لحياتى) أو : ليس لها نفس تكذبها وتقول لها : لم تكونى كما لها اليوم نفوس كثيرة يكذبها ، يقلن لها : لن تكونى . أو هى من قولهم : كذبت فلانا نفسه فى الخطب العظيم ، إذا شجعت على مباشرته وقالت له : إنك تطيقه وما فوقه فتعرض له ولا تبال به ، على معنى : أنها وقمة لا تطاق شدة وفظاعة ، وأن لا نفس حينئذ تحدث صاحبها بما تحدث به عند عظام الأمور وتزين له احتمالها وإطاعتها ، لأنهم يومئذ أضعف من ذلك وأذل . ألا ترى إلى قوله تعالى (كالفرأش المبثوث) والفرأش مثل فى الضعف . وقيل (كاذبة) مصدر كالعاقبة بمعنى التكذيب ، من قولك : حمل على قرنه فما كذب ، أى : فما جهن وما تثبط . وحقيقته :

فأكذب نفسه فيما حدثته به . من إطاقته له وإقامته عليه . قال زهير :

..... إذا ما ألفت كذب عن أفرانه صدقا^(١)

أى : إذا وقعت لم تكن لها رجعة ولا ارتداد (خافضة رافعة) على : هى خافضة رافعة ، ترفع أقواما وتضع آخرين : إما وصفا لها بالشدّة : لأنّ الواقعات العظام كذلك : يرتفع فيها ناس إلى مراتب ويتضع ناس ، وإما لأنّ الأشياء يحطون إلى الدرجات ، والسعداء يرتفعون إلى الدرجات ؛ وإما أنها تزلزل الأشياء وتزيلها عن مقامها ، فتخفض بعضا وترفع بعضا : حيث تسقط السماء كدفا وتنتثر الكواكب وتنكدر وتسير الجبال فتتمزق في الجو من السحاب ، وقرئ : خافضة رافعة بالنصب على الحال (رجعت) حركت تحريكا شديدا حتى ينهدم كل شيء فوقها من جبل وبناء (وبست الجبال) وقتت^(٢) حتى تعود كالسويق ، أو صيقت من بس العنم إذا ساقها . كقوله (وسيرت الجبال) ، (منبتا) متفرقا . وقرئ : بالتاء أى : منقطعا . وقرئ : رجعت وبست ، أى : ارتجعت وذهبت . وفى كلام بنت الحسن^(٣) : عينا هاج ، وصلاها راج . وهى تمشى وتجاج . فإن قلت : لم انتصب إذا رجعت ؟ قلت : هو بدل من إذا وقعت . ويجوز أن ينتصب بخافضة رافعة . أى : تنخفض وترفع وقت رج الأرض ، وبس الجبال لأنه عند ذلك ينخفض ما هو مرتفع ويرفع ما هو منخفض (أزواجا) أصنافا ، يقال للأصناف التى بعضها مع بعض أو يذكر بعضها مع بعض : أزواج .

فَأَصْحَبُ الْمُيمَنَةِ مَا أَصْحَبُ الْمُيَمَنَةِ ۝ ٨ وَأَصْحَبُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَبُ الْمَشْأَمَةِ ۝ ٩

(فأصحاب الميمنة) الذين يؤتون صفاتهم بأيمانهم (وأصحاب المشأمة) الذين يؤتونها بشيائهم . أو أصحاب المنزل السنية وأصحاب المنزل الدنية ، من قولك : فلان منى باليمن ، فلان منى بالشمال : إذا وصفتهما بالرفعة عندك والضعفة ؛ وذلك ليمينهم باليمين وتشاؤمهم بالشمال ،

(١) ليت يعرف بصطاد الرجال إذا ما أليف كذب عن أفرانه صدقا

زهير يمدح شجاعا ، فاستعار له اسم الأسد على طريق التصرية ، والاصطيد ترشح . وعثر : اسم موضع . أى : فجاء فى عثر يقتل الرجال إذا كذب أى حين وضعف الفارس الشديد عن أفرانه فى الحرب ، صدق هو ونفذ عزمه وقتل قرنه ، وفى البيت العبايق بين الصدق والكذب ، وهو من بديع الكلام .

(٢) قوله «وقتت حتى تعود كالسويق» عبارة بالنسي : وقتت . (ع)

(٣) قوله «وفى كلام بنت الحسن» فى الصحاح : الحسن بالفتح : بقلة . والحسن بالضم : أمم رجل . ومنه : هند بنت الحسن . وعين هاجمة : أى غائرة . والصلأ : ما عن يمين الذئب ويساره . ولججت ما بين رجلي الجهماء : إذا فتحت . يقال : هو يمشى مقاجا . (ع)

ولتفاوتهم بالساح^(١) وتطيرهم من البارج ، ولذلك اشتقوا اليمين الاسم من اليمين ، وسموا الشمال الشؤمى . وقيل : أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة : أصحاب اليمين والشؤم ؛ لأن السعداء يهايمن على أنفسهم بطاعتهم ، والأشقياء مشأتم عليها بمعصيتهم . وقيل : يؤخذ بأهل الجنة ذات اليمين وبأهل النار ذات الشمال .

- وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ⑩ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ⑪ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ⑫
ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ⑬ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ⑭ عَلَىٰ مُرُورٍ مَّوْضُوعَةٍ ⑮
مُتَكَبِّرِينَ عَلَيْهَا مُتَقَدِّمِينَ ⑯ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ⑰
بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ ⑱ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ ⑲
وَفَكِيهَةٍ نِّمًا يَنْتَخِبُون ⑳ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا بَشَتُونَ ㉑ وَحُورٌ عِينٌ ㉒
كَأَمْثَلِ الذُّرَى الْمُكْنَونِ ㉓ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ㉔
لَا يَسْمُونَ فِيهَا لَهَوًا وَلَا تَمَنًّا ㉕ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ㉖

﴿والسابقون﴾ المخلصون الذين سبقوا إلى مادعاهم الله إليه وشقوا الغبار في طلب مرضاة الله عز وجل وقيل : الناس ثلاثة فرجل ابتكر الخير في حداثة سنه ، ثم داوم عليه حتى خرج من الدنيا ؛ فهذا السابق المقرب ، ورجل ابتكر عمره بالذنوب وطول الغفلة ، ثم تراجع بتوبة ؛ فهذا صاحب اليمين ، ورجل ابتكر الشر في حداثة سنه ، ثم يزل عليه حتى خرج من الدنيا ، فهذا صاحب الشمال ما أصحاب الميمنة . ما أصحاب المشأمة ؟ تعجب من حال الفريقين في السعادة والشقاوة^(٢) .

(١) قوله «ولتفاوتهم بالساح» هو ما مر من يسارك إلى يمينك من ظبي أو طائر . والبارج : عكسه . أقاده

الصباح . (ع)

(٢) قال محمود : «ما تعجب من حال الفريقين ... الخ» قال أحمد : اختار ما هو المختار ؛ لأنه أقدم بالفصاحة ، لكن بقي التنبيه على المخافة بين المذكورين في السابقين وفي أصحاب اليمين ، مع أن كل واحد منهما إنما أريد به التعميم والتهويل لحال المذكورين ، فنقول : التعميم المؤدى بقوله (السابقون) أبغ من قرينه ، وذلك أن مؤدى هذا : أن أمر السابقين وعظمة شأنه لا يكاد يخفى ، وإنما تعير فهم السامع فيه مشهور . وأما المذكور في قوله «وأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة» فانه تعظيم على السامع بما ليس عنده منه علم سابق . ألا ترى كيف سبق بسط حال السابقين بقوله (أولئك المقربون) لجمع بين اسم الإشارة المهار به إلى معروف ، وبين الاخبار عنه بقوله (المقربون) معرفا بالألف واللام المهدية ، وليس مثل هذا مذكوراً في بسط حال أصحاب اليمين ، فانه مصدر بقوله (في سدر مخضود) .

والمعنى : أى شيء هم ؟ والسابقون السابقون ، يريد : والسابقون من عرفت حالهم وبلغك وصفهم ، كقوله وعبد الله عبد الله . وقول أى النجم : وشعرى شعرى ^(١) ؛ كأنه قال : وشعرى ما انتهى إليك وسمعت بفصاحته وبراعته ، وقد جعل السابقون تأكيذاً . وأولئك المقربون : خبراً وليس بذلك . ووقف بعضهم على : والسابقون ؛ وابتدأ السابقون أولئك المقربون ، والصواب أن يوقف على الثانى ، لأنه تمام الجملة ، وهو فى مقابلة : ما أصحاب الميمنة ، وما أصحاب المشأمة (المقربون فى جنات النعيم) الذين قربت درجاتهم فى الجنة من العرش وأعليت مراتبهم . وقرئ : فى جنة النعيم . والثلة : الأمة من الناس الكثيرة . قال :

وَجَاءَتْ إِيَّاهُمْ ثَلَاثَةُ خَنْدَقِيَّةٍ يَجِيئُ كَتَّانٍ مِنَ السَّيْلِ مُزِيدٍ ^(٢)

وقوله عز وجل (وقليل من الآخرين) كفى به دليلاً على الكثرة ، وهو من التل وهو الكسر ، كما أن الأمة من الأمم وهو الضج ، كأنها جماعة كسرت من الناس وقطعت منهم . والمعنى : أن السابقين من الأولين كثير ، وهم الأمم من لدن آدم عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم (وقليل من الآخرين) وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل (من الأولين) من متقدمى هذه الأمة ، و (من الآخرين) من متأخريها . وعن النبى صلى الله عليه وسلم : « الثلثان جميعاً من أمتى » ^(٣) . فإن قلت : كيف قال : وقليل من الآخرين ، ثم قال : (وثلة من الآخرين) ؟

(١) أنا أبو النجم وشعرى شعرى لله درى ما أجن صدرى

تمام عيني وفؤادى يسرى مع المغاريت بأرض فقر

لأبى النجم العجلى - يريد : أنا المعروف بالبلاغة بين الناس كالمثل المشهور . وشعرى : هو البالغ المعروف بأنه شعر أبى النجم ، لأنه إذا اتحد المبتدأ والخبر أو الشرط والخبر : دل الكلام على المبالغة فى التظيم أو فى التحقير . وما هنا من الأول بدليل السياق . وفيه ادعاء أن نهاية العظمة فى الرجل المسمى بأبى النجم ، ونهاية البلاغة فى الشعر المنسوب إليه . والدر : اللبن ؛ لكن المراد به العمل والصنع ، أى : لله صنمى ، يعنى : أنه عظيم . وجن القيل : أعظم . ولقيت : طال والتف . والذباب : كثرت أصواته . وجن القيل : سقره ، وأجنه الصدر : أكنه . وما تسميحية . وأجن : فعل تعجب ، أى : شيء عظيم جعل صدرى محيطاً بالمعاني القريبة ؛ ويحتمل أن « ماء » يدل من درى . وأجن : فعل ماض صلة أوصفة له ، وفؤادى : قلبى أو غفل . يسرى : يسير لئلا . أى : بيت فكبرى كأنه ذاهب مع المغاريت بأرض فضاء لا نبات بها ، لا يبادى فى المعاني . وقيمت الثانى بيان للأول .

(٢) وجاءت إِيَّاهُمْ ثَلَاثَةُ خَنْدَقِيَّةٍ يَجِيئُ كَتَّانٍ مِنَ السَّيْلِ مُزِيدٍ

يقول : وجاءت إليهم جماعة من الناس منسوبة إلى خندق امرأة إلياس بن مضر . وقوله « يَجِيئُ » من باب التجريد ، كأنه انزع من الثلة جيشاً غيرها مبالغة فى الكثرة . ويحتمل أن الياء بمعنى مع ، أوفى ؛ لأن الجيش أوسع من الثلة ، وهو من جاتر إذا تحرك واضطرب ، كأنه يهتلى ، والتيار : الماء الشديد الجرى ، ومن يمانية أن تبعيضية . والمزيد : المرتفع زبده على وجهه لكثرتة وفوراته .

(٣) أخرجه الطبري وابن عدى من رواية أبان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال فى هذه الآية (ثلة من الأولين وثلة من الآخرين) قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هما جميعاً من أمتى » وأبان هو ابن أبى هاشم =

قلت : هذا في السابقين وذلك في أصحاب اليمين ؛ وأنهم يتكاثرون من الأولين والآخرين جميعاً . فإن قلت : فقد روى أنها لما نزلت شق ذلك على المسلمين ، فما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجع ربه حتى نزلت (ثلثة من الأولين وثلثة من الآخرين) . قلت : هذا لا يصح لأمرين ، أحدهما : أن هذه الآية واردة في السابقين وروداً ظاهراً ، وكذلك الثانية في أصحاب اليمين ^(١) . ألا ترى كيف عطف أصحاب اليمين ووعدهم ، على السابقين ووعدهم ، والثاني : أن النسخ في الاخبار غير جائز . وعن الحسن رضى الله عنه : سابقو الامم أكثر من سابقى أمتنا ، وتابعو الامم مثل تابعى هذه الامة . وثلة : خبر مبتدأ محذوف ، أى : هم ثلة (موضونة) مرمولة بالذهب ، ^(٢) مشبكه بالدر والياقوت ، قد دواخل بعضها في بعض كما توضح خلق الدرع . قال الأعشى :

• وَمِنْ نَسَجِ دَاوُدَ مَوْضُونَةٌ • ^(٣)

وقيل : متواصلة ، أدنى بعضها من بعض . (متكسين) حال من الضمير في على ، وهو العامل فيها ، أى : استقروا عليها متكسين (متقابلين) لا ينظر بعضهم في أقفاء بعض . وصفوا بحسن العشرة وتهذيب الأخلاق والآداب (مخلصون) مبقون أبداً على شكل الولدان وحدث الوصافة ، ^(٤) لا يتحولون عنه . وقيل : مقرطون ، والخلة : القرط . وقيل : هم أولاد أهل الدنيا : لم تكن لهم حسنات فيثابروا عليها ، ولا سيئات فيعاقبوا عليها . روى عن علي رضى الله عنه وعن الحسن . وفي الحديث : « أولاد الكفار خدام أهل الجنة » ، ^(٥) . الأكواب : أوان بلا عرى وخراطيم ،

== مقروك . ورواه إسحاق وسنده إلى الطيالسي وإبراهيم الحارثي والطبراني من رواية زيد بن صبيان عن أبي بكره مرفوعاً وموقوفاً . والموقوف أولى بالصواب . وحل ضيف .

(١) قوله « وكذلك الثانية في أصحاب اليمين » أى ظاهرة الورد . (ع)

(٢) قوله « مرمولة بالذهب » في الصحاح : رملت الحصر ، أى : سفته . وفيه أيضاً : سفت الخوص : أى

نسجه . (ع)

(٣) ومن نسج داود موضونة تساق مع الحى غيراً لغيراً

للأعشى ، يصف الدروع ، وحملها من نسج سيدنا داود بمالقة في حسن صنعها ؛ لأنه نسجها بأمر من الله وتعليمه له . موضونة : أى مدخل بعضها في بعض ، فهي عككة النسج لتساق ، أى : أصحابها مع الحى . والمدير بالفتح : السيد ، أى سيداً بعد سيد مقربين ، ويطلق المدير على طائر يطير فوق أقباطة السائرة ، وتبعد إرادته هنا .

(٤) قوله « وحدث الوصافة » هى بلوغ الغلام حد الخدمة . أفاده الصحاح . (ع)

(٥) أخرجه البزار والطبراني في الأوسط من رواية عباد بن منصور عن أبي رجا ، العطاردي عن سمرة بن جندب قال « سألتنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين فقال هم خدام أهل الجنة » ورواه البزار عن رواية علي بن زيد بن جدعان والطيالسي والطبراني وأبو يعلى عن رواية يزيد الرقاشي كلاهما عن أنس بهذا وأتم منه قلت : قد يمارضه حديث سمرة في صحيح البخاري . ففيه أنه رأى أولاد الناس تحت شجرة يكفلهم إبراهيم عليه

والأباريق، ذوات الخراطيم (لا يصدعون عنها) أى بسببها، وحقيقته: لا يصدر صدادعهم عنها. أو لا يفزقون عنها. وقرأ مجاهد: لا يصدعون، بمعنى: لا يتصدعون لا يفزقون، كقوله (يومئذ يصدعون) ويصدعون، أى: لا يصدع بعضهم بعضاً، لا يفزقونهم (يتخيرون) يأخذون خيره وأفضله (يشتهون) يتمنون. وقرئ: ولحوم طير. قرئ: وهور عين، بالرفع على: وفيها حور عين، كبيت الكتاب:

إِلَّا رَوَّاكَدُ جَرُّهُنَّ هَبَاةٌ وَمُسَجِّجٌ ... (١)

أو للعطف على ولدان، وبالجهر: عطفاً على جنات النعيم، كأنه قال: هم في جنات النعيم، وفاكهة ولحم وحور. أو على أكواب، لأن معنى (يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب) ينعمون بأكواب، وبالنصب على: ويؤتون حورا (جزاء) مفعول له، أى: يفعل بهم ذلك كله جزاء بأعمالهم (سلاما سلاما) إما بدل من (قيلا) بدليل قوله (لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاما) وإما مفعول به لقيلا، بمعنى: لا يسمعون فيها إلا أن يقولوا سلاما سلاما. والمعنى: أنهم يفشون السلام بينهم، فيسلمون سلاما بعد سلام. وقرئ سلام سلام، على الحسابة.

وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفُكَيْهٍ كُنُوزٍ (٣٢) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ثَلَاثَةٌ مِنْ

الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثَلَاثٌ مِنَ الْآخِرِينَ (٤٠)

== السلام قال قلنا: وأولاد المشركين؟ قال: وأولاد المشركين، أخرجه هذا اللفظ. وبمكة الجمع بينهما بأن لا منافاة بينهما لاحتمال أن يكونوا في البرزخ كذلك، ثم بعد الاستقرار يستقرون في الجنة خداماً لأهلها.

(١) بادت وغير آيمن مع البلى إلا رواكد جهرن هبا ومهيج إما سواء فذاله فيدا وغير ساره المفراء

للشاه، وقل: لذى الرمة، وهى من أبيات الكتاب. وباد بييد: ملك يهلك. والآى: اسم جمع آية وهى علامة والرواكد: الآثاني. وهى الأحجار التى توضع عليها للقدرة. والهباء: الرماد المختلط بالتراب. والمهيج: صفة جرت مجرى الاسم لوتد الحياة الذى تشجع رأسه من الدق. فبرز حول رأسه أطراف تشبه القذال. وهو شعر جوانب الرأس. وسواء الشيء. وسطه. وبروى: غيب، بدل: غير. والدار بالهمز وتركه: البقية. والمفراء: أرض يحاطل ترابها حجارة وحصى، يقول: ملكك تلك الديار وبليت آثارها، ولم يبق إلا العمل للنار وقبة وعد الحياة. وبروى: رواكد بالنصب، فمطف المرفوع على المنصوب اعتياداً على المعنى.

السدر : شجر النبق . والمخضود : الذي لا شوك له ، كأنما خضد شوكه . ^(١) وعن مجاهد : الموقر الذي تثني أغصانه كثرة حمله ، من خضد الغصن إذا ثناه . وهو رطب . والطلع : شجر الموز . وقيل : هو شجر أم غيلان ، وله نوار كثير طيب الرائحة . وعن السدي : شجر يشبه طلع الدنيا ، ولكن له ثمر أحلى من العسل . وعن علي رضي الله عنه أنه قرأ : وطلع ، وما شأن الطلع ، ^(٢) وقرأ ^(٣) قوله (لها طلع نضيد) فقليل له : أو نحوها ؟ فقال : آى القرآن لا تهاج اليوم ولا تحول . وعن ابن عباس نحوه . والمنضود : الذي نضد ^(٤) بالحل من أسفله إلى أعلاه ؛ فليست له ساق بارزة (وظل ممدود) تمتد منبسط لا يتقلص ، كظل ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس (مسكوب) يسكب لهم أين شاؤا وكيف شاؤا لا يتعنون فيه . وقيل : دائم الجربة لا ينقطع . وقيل : مصبوب يجري على الأرض في غير أخدود (لا مقطوعة) هي دائمة لا تنقطع في بعض الأوقات كفواكه الدنيا (ولا ممنوعة) لا تمنع عن تناولها بوجه ، ولا يحظر عليها كما يحظر على بساكن الدنيا . وقرئ : وفاكهة كثيرة ، بالرفع على : وهناك فاكهة ، كقوله : وحوار عين (وفرش) جمع فراش . وقرئ : وفرش ، بالتخفيف (مرفوعة) نضدت حتى ارتفعت . أو مرفوعة على الأسرة . وقيل : هي النساء ، لأن المرأة يكنى عنها بالفراش مرفوعة على الأرائك . قال الله تعالى (هم وأزواجهم في ظللال على الأرائك متكئون) ، ويدل عليه قوله تعالى (إنا أنشأناهم إنشأ) وعلى التفسير الأول أضمر لهم ، لأن ذكر الفرش وهي المضاجع دل عليهم (أنشأناهم إنشاء) أى ابتدأنا خلقهم ابتداء جديدا من غير ولادة ، فيما أن يراد . اللاتي ابتدئ إنشاءهن : أو اللاتي أعيد إنشاءهن . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٥) . أن أم سلمة رضي الله عنها سألته عن قول الله تعالى (إنا أنشأناهم) فقال : يا أم سلمة

(١) قوله « كأنما خضد شوكه » في الصحاح « خطدت الشجر » قطعت شوكه ، وخضدت العود ، أى : نقيته من غير كسر . (ع)

(٢) قوله « وما شأن الطلع » لعله : وقال ما شأن الطلع . (ع)

(٣) قوله « وقرأ » أى : استتمادا على قراءته . (ع)

(٤) قوله « والمنضود الذي نضد » في الصحاح : أنه المرصوص بعضه فوق بعض . (ع)

(٥) أخرجه الألباني بإسناد من طريق الحسن بن عليوة القطان عن إسماعيل بن عيسى عن المسيب بن شريك فذكره ولم يرفع إلا قصة عائشة . ومن طريق غنجاو حدثنا إسماعيل بن أبي البلاد عن يونس عن الحسن عن أم سلمة مرفوعا دون قصة عائشة . وروى الطبري والطبراني وابن مردويه من طريق هر بن هاشم البهروني عن سليمان بن أبي كريمة عن مشام عن الحسن عن أم سلمة قالت : قلت يا رسول الله ، أخبرني عن قوله تعالى (عربا أنرابا) فذكره . وفيه « لجملة » عذاري عربا متعشفات متجيبات إلى أزواجهن ، أنرابا على ميلاد واحد . وروى الترمذي من طريق موسى بن عبيدة عن يزيد الزقاش طرقا منه واستضعفه .

هنّ اللواتي قبضن في دار الدنيا عجائز شمطا رصاصا^(١)، جعلهنّ الله بعد الكبر، (أزبا) على ميلاد واحد في الاستواء^(٢)، كلما أتاهنّ أزواجهنّ وجدوهنّ أبكارا؛ فلما سمعت عائشة رضى الله عنها ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: وأوجعاه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس هناك وجع. وقالت عجوز لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ادع الله أن يدخلني الجنة، فقال: إن الجنة لا تدخلها العجائز، فولت وهي تبكي، فقال عليه الصلاة والسلام: وأخبروها أنها ليست يومئذ بعجوز^(٣)، وقرأ الآية (عربا) وقرئ: عربا، بالتخفيف جمع عروب وهي المتحبة إلى زوجها الحسنة التبعيل (أزبا) مستويات في السن بنات ثلاث وثلاثين، وأزواجهنّ أيضا كذلك. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: يدخل أهل الجنة الجنة جردا مردأ أيضا جمادا مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين^(٤)، واللام في (لأصحاب اليمين) من صلة أنشأنا وجعلنا.

وَأَصْحَبُ الشَّامِ مَا تَخْبُ الشَّامِ (٤١) فِي مَمُومٍ وَحِيمٍ (٤٢) وَظَلَمَ مِنْ يَحْمُومٍ (٤٣) لَا يَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) وَكَانُوا يُصْرُونَ عَلَى الْخَنَثِ الْعَظِيمِ (٤٦) وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَعِنَّا أَلْعَبُونِ (٤٧) أَوْ عَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (٤٨) قُلْ إِنْ

(١) قوله «عجائز شمطا رصاصا» في الصحاح «الشمط»: يبيض شعر الرأس بخالط سواده، والرجل أشط، والمرأة شمطاء. وفيه: الرمص: وسخ يجمع في الموق. وقد رمصت عينه، والرجل أرمص اه، أى: والمرأة رمصاء، والجمع شمط ورمص. (ع)

(٢) قوله «ميلاد واحد في الاستواء» له ملحق بمعنى النهي، أى: كأنهن على ميلاد واحد في استواء الخلق. (ع)

(٣) أخرجه الترمذى في الشامل من رواية مبارك بن فضالة عن الحسن بن حماد مرسل وسياقه أتم. وله طرق أخرى. منها في البيهقي من رواية ليث بن أبي سليم عن مجاهد عن عائشة. ومنها في الأوسط من رواية مسعدة بن اليسع عن سعيد عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن عائشة. ورواه خارجة بن مصعب عن سعيد عن قتادة عن أنس. وكلها ضعيفة.

(٤) أخرجه أحمد وابن أبي شيبة وأبو يعلى والطبراني في الأوسط من رواية حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة بهذا. وزاد على خلق آدم ستون ذراعا عرض سبعة أذرع. وذكر ابن أبي حاتم في الغلال أن أباه قال: روى أبو سلمة عن حماد مرسل ولم يذكر فيه أبا هريرة وكذا أخرجه ابن سعد عن يحيى بن السكن عن حماد. وعلي بن زيد ضعيف. وفي الباب عن معاذ بن جبل. أخرجه الترمذى وقال: غريب. وبعض أصحاب قتادة أرسلوه. وأخرجه البيهقي موصولا، ثم أخرجه موقوفا على قتادة.

الْأُولَى وَالْآخِرِينَ ٤٩ ﴿٥٠﴾ كَمَجْبُوعُهُونَ إِلَى بَيْمَاتٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿٥١﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتُمُ
الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥٢﴾ لَا تَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ ﴿٥٣﴾ قَسَالَتُونَ
مِنْهَا الْبُطُونُ ﴿٥٤﴾ فَشَرِبُونَ مِنْهِمْ ٥٥ ﴿٥٥﴾ فَشَرِبُوا مِنْهُم ٥٦
هَذَا نَزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ٥٧

(في سموم) في حر نار ينفذ في المسام (وحميم) وماء حار متناه في الحرارة (وظل من
يحموم) من دخان أسود بهيم (لا بارد ولا كريم) نفى لصفى الظل عنه، يريد : أنه ظل، ولكن
لا كسائر الظلال : سماء ظلا، ثم نفى عنه برد الظل وروحه ونفعه لمن يأوى إليه من أذى الحر
وذلك كرمه ليحقق ما في مدلول الظل من الاسترواح إليه . والمعنى أنه ظل حار ضار إلا أن
النفي في نحو هذا شأننا ليس للإثبات . وفيه تمكيم بأصحاب الشأمة ، وأنهم لا يستأهلون الظل البارد
الكريم الذي هو لا ضدادهم في الجنة . وقرئ : لا بارد ولا كريم بالرفع ، أى : لا هو كذلك .
(الجنة) الذنب العظيم . ومنه قولهم : بلغ الغلام الحنث ، أى : الحلم ووقت المؤاخذه بالمآثم .
ومنه : حنث في يمينه ، خلاف : بر فيها . ويقال : نحت إذا تأثم وتخرج (أو آباؤنا) دخلت
همزة الاستفهام على حرف العطف . فإن قلت : كيف حسن العطف على المضمر في (لمبعوثون)
من غير تأكيد بنحو ؟ قلت : حسن للفصل الذي هو الهمزة ، كما حسن في قوله تعالى (ما أشركنا
ولا آباؤنا) لفصل (لا) المؤكدة للنفي . وقرئ : أو آباؤنا . وقرئ : لجمعون ^(١) (إلى ميقات
يوم معلوم) إلى ما وقت به الدنيا من يوم معلوم . والإضافة بمعنى من ، كخاتم فضة . والميقات :
ما وقت به الشيء ، أى : حد . ومنه مواقيت الإحرام : وهى الحدود التى لا يتجاوزها من
يريد دخول مكة إلا محرما (أيها الضالون) عن الهدى (المكذبون) بالبعث ، وهم أهل مكة
ومن في مثل حالهم (من شجر من زقوم) من الأولى لا ابتداء العناية ، والثانية لبيان الشجر
وتفسيره . وأنت ضمير الشجر على المعنى ، وذكره على اللفظ في قوله (منها) و(عليه) ومن قرأ
(من شجرة من زقوم) فقد جعل الضميرين للشجرة ، وإنما ذكر الثانى على تأويل الزقوم ،
لأنه تفسيرها وهى في معناه (شرب الهيم) قرئ بالحركات الثلاث ، فافتح والضم : مصدران .
وعن جعفر الصادق رضى الله عنه : أيام أكل وشرب ، بفتح الشين . وأما المكسور فبمعنى
المشروب ، أى : ما يشربه الهيم وهى الإبل التى بها الهيام ، وهو داء تشرب منه فلا تروى :
جمع أهيم وهيماء . قال ذو الرمة :

(١) قوله : وقرئ : لجمعون إلى ميقاته في الصحاح : أجمعت لقوله : جعلته جيما . (ع)

فَأَصْبَحَتْ كَالْهِمَاءِ لِأَلَمَاءٍ مُّيزَةٍ صَدَاهَا وَلَا يَقْضِي عَنْهَا هَيَامُهَا (١)

وقيل الهميم : الرمال . ووجهه أن يكون جمع الهيام بفتح الهاء وهو الرمل الذي لا يتباسك ، جمع على فعل كسحاب وسحب ، ثم خفف وفعل به ما فعل بجمع أيض . والمعنى : أنه يسلط عليهم من الجوع ما يضطرهم إلى أكل الزقوم الذي هو كالمهل ؛ فإذا ماؤا منه البطون يسلط عليهم من العطش ما يضطرهم إلى شرب الحميم الذي يقطع أمعاءهم ، فيشربونه شرب الهميم . فإن قلت : كيف صح عطف الشارين على الشارين ، وهما لذوات متفقة ، وصفتان متفقتان ، فكان عطفاً للشيء على نفسه ؟ قلت : ليستا بمتفقتين ، من حيث إن كونهم شاربين للحميم على ما هو عليه : من تنامي الحرارة وقطع الأمعاء : أمر عجيب ، وشربهم له على ذلك كما تشرب الهميم الماء : أمر عجيب أيضاً ، فكما تخاصفتين مختلفتين . النزل : الرزق الذي يعد للنازل تذكراً له . وفيه تهكم ، كما في قوله تعالى (فبشرهم بعذاب أليم) وكقول أبي الشعر العنبي .

وَكَُنَّا إِذَا الْجَبَّارُ بِالْجَيْشِ صَافِنَا جَعَلْنَا الْقَنَا وَالْمُوهِقَاتِ لَهُ نُزْلًا (٢)

وقرى نزلهم بالتخفيف .

نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) مَا أَنْتُمْ بِخَالِقُوهُ أَمْ أَنْتُمْ الْأَخْلِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٦٠) عَلَى أَنْ يُبَدَّلَ أَمْرُكُمْ وَتُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَأَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢)

(١) وقد زودت مى على التأى قبله
فأصبحت كالهماء لا الماء مجرد
علاقات حاجات طويل سخامها
صداها ولا يقضى عليها هيامها

لدى الرمة ، يقول : وقد زودت ، أى جعلت زادنا مى عند الرحيل قبله ، فكانت القبلة علاقات الحاجات وأسباب التطلع إلى الوصال ، فعلاقات : خبر مرفوع ، أو بدل منصوب . والسقام ككلام ، وسقم كتب ، وسقم كبخل : مصدر سقم كتب تعباً ، أى : عناؤها طويل المدة لا يبرأ . ويقال للجمل : أهيم ، وللناقة هيام ، إذا أصابها الهيام بالغم : وهو داء تغل منه قلوب الابل كالعطش الشديد ، أى : فأصبحت كالناقة الهيام . وقوله ولا الماء مبرده استئناف مبين لوجه التشبه فيها . أو حال منها ، أى : لا يبرد الماء ظمأها ولا يقضى عليها ، أى : لا يمتينا هيامها ، فأنا كذلك لا وصال أيقظنى ، ولا التلهف يمتنى . ويروى : ولا يقضى على هيامها ، ولعل معناه : لا الماء يبرد الجرفة التى حصلت لى منها ، ولا يمتنى الهيام الذى حصل لى منها ؛ ولكن الأولى أنعد وأجود معنى .

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٥٨٨ فراجع إن شئت اه مصححه .

(فلولا تصدقون) تخصيص على التصديق : إما بالخلق لأنهم وإن كانوا مصدقين به ، إلا أنهم لما كان مذهبهم خلاف ما يقتضيه التصديق ، فكأنهم مكذبون به . وإما بالبعث ؛ لأن من خلق أولاً لم ينتفع عليه أن يخلق ثانياً (ما تمنون) ما تمنونه ، أى : تقذفونه فى الأرحام من النطف . وقرأ أبو السمال بفتح التاء ، يقال : أمنى النطفة ومناها . قال الله تعالى (من نطفة إذا تمى) . (تخلقونه) تقدرونه وتصورونه (قدرنا بينكم الموت) تقديرأ وقسمناه عليكم قسمة الرزق على اختلاف وتفاوت كما تقتضيه مشيئتنا ، فاختلقت أعماركم من قصير وطويل ومتوسط . وقرئ : قدرنا بالتخفيف . سبقتة على الشيء . إذا أعجزته عنه وغلبته عليه ولم تمكنه منه ، فعنى قوله (وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم) أنا قادرون على ذلك لا تغلبونا عليه ، وأمثالكم جمع مثل : أى على أن نبدل منكم ومكانكم أشباهكم من الخلق ، وعلى أن (ننشئكم) فى خلق لا تعلمونها وما عهدتم بمثلها ، يعنى : أنا نقدر على الأمرين جميعاً : على خلق ما يماثلكم ، وما لا يماثلكم ؛ فكيف نعجز عن إعادتكم . ويجوز أن يكون (أمثالكم) جمع مثل ، أى : على أن نبدل ونغير صفاتكم التى أنتم عليها فى خلقكم وأخلاقكم ، وننشئكم فى صفات لا تعلمونها . قرئ : النشأة والنشأة . وفى هذا دليل على صحة القياس حيث جهلهم فى ترك قياس النشأة الأخرى على الأولى .

أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾
لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطًا مَا قَبَضْتُمْ تَعْمَدُونَ ﴿٦٥﴾ إِنْ أَرَادْنَا لَكُمْ مَوْتَ ﴿٦٦﴾
بَلْ نَحْنُ مُحَرِّمُونَ ﴿٦٧﴾

(أفرايتم ما تحرثون) من الطعام ، أى : تبتدون حبه وتعملون فى أرضه (أنتم تزرعون) تبتونونه وتردونه نباتا ، يرف وينمى ^(١) إلى أن يبلغ الغاية . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يقول أحدكم : زرعت ، وإيقل : حرثت ، ^(٢) قال أبو هريرة : أرايتم إلى ^(٣) قوله :

(١) قوله : نباتا يرف وينمى ، فى الصحاح : رف لونه يرف - بالكسر - برق وتلاّلا . وشجر رفيف : إذا تددت أوراقه . (ع)

(٢) أخرجه ابن حبان والبارى والطبرانى من طريق غلدة بن حسين عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة بهذا قال : ثم قرأ أبو هريرة (أفرايتم ما تحرثون أنتم تزرعون) .

(٣) قوله (قال أبو هريرة : أرايتم) أى استشهد على الحديث بالآية ، وهى قوله تعالى (أفرايتم ما تحرثون) وقوله (أرايتم) خطاب لمن يسمع منه ، وأراد معنى النظر ، فعداه بالى كقوله (أر لم يروا إلى ما خلق الله من شئ) . (ع)

(افرايتم .. الآية). والحطام : من حطم ، كالفتات والجذاذ من فت وجذ : وهو ما صار هشيما وتحطم (فظلتم) وقرى بالكسر . وفضلتم على الأصل (تفككون) تعجبون . وعن الحسن رضى الله عنه : تندمون على تعبك فيه وإنفاقكم عليه . أو على ما اقترعتم من المعاصي التي أصبتم بذلك من أجلها . وقرى : تفككون . ومنه الحديث ، مثل العالم كمثل الحمة يأتيا البعداء ^(١) ويتركها القرباء فيينا هم إذ غار ماؤها فاتفع بها قوم وبقى قوم يتفككون ، ^(٢) أى : يتندمون (إنا لمغمون) للزموهم غرامة ما أنفقنا . ومهلكون لهلاك رزقنا ، من الغرام : وهو الهلاك (بل نحن) قوم (محرومون) محارفون محدودون ، لاحظ لنا ولا بحث لنا ؛ ولو كننا محدودين ، لما جرى علينا هذا . وقرى : أننا .

أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾

(الماء الذى تشربون) يريد : الماء العذب الصالح للشرب . و(المزن) السحاب : الواحدة مزنة . وقيل : هو السحاب الأبيض خاصة ، وهو أعذب ماء (أجاجا) ملحاً زعاقاً ^(٣) لا يقدر على شربه . فإن قلت : لم أدخلت اللام على جواب (لو) فى قوله (لجعلناه حطاما) ونزعت منه ههنا ؟ قلت : إن ولو ، لما كانت داخلة على جملتين معلقة ثابتهما بالاولى تعلق الجزاء بالشرط ، ولم تكن مخرجة للشرط كإِنْ ولا عاملة مثلها ، وإنما سرى فيها معنى الشرط اتفاقا من حيث إفادتها فى مضمونى جملتها أَنَّ الثانى امتنع لا امتناع الاول : افتقرت فى جوابها إلى ما ينصب علما على هذا التعلق ، فزيدت هذه اللام لتكون علما على ذلك ، فإذا حذف بعد ما صارت علما مشهورا مكانه ، فلأن الشيء إذا علم وشهر موقعه وصار مألوفا ومأنوسا به : لم يبال بإسقاطه عن اللفظ ، استغناء بمعرفة السامع . ألا ترى إلى ما يحكى عن رؤية أنه كان يقول : خير ، لمن قال له : كيف أصبحت ؟ لحذف الجار لعل كل أحد بمكانه . وتساوى حالى حذفه وإثباته لشهرة أمره . وناهيك بقول أوس :

حَتَّى إِذَا الْكَلَابُ قَالَ لَهَا كَالْيَوْمِ مَطْلُوبًا وَلَا طَلَبًا ^(٤)

(١) قوله «كمثل الحمة يأتيا البعداء» فى الصحاح «الحمة» : العين الحارة يستغنى بها الأهلاء والمرضى . وفى الحديث : «العالم كالحمة» اه . (ج)

(٢) لم أجده

(٣) قوله «ملحاً زعاقاً» فى الصحاح «الماء الزعاق» : الملح . وطعام مزعوق : إذا كثر ملحه . (ع)

(٤) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثانى صفحة ٢٨٨ فراجع إن شئت اه مصححه .

وحذفه ولم أر، فإذا حذفها اختصار لفظي، وهي ثابتة في المعنى، فاستوى الموضعان بلا فرق بينهما؛ على أن تقدم ذكرها والمسافة قصيرة مغن عن ذكرها ثانية ونائب عنه. ويجوز أن يقال: إن هذه اللام مفيدة معنى التوكيد لا محالة، فأدخلت في آية المطعوم دون آية المشروب، للدلالة على أن أمر المطعوم مقدم على أمر المشروب، وأن الوعيد بفقده أشد وأصعب، من قبل أن المشروب إنما يحتاج إليه تبعاً للمطعوم. ألا ترى أنك إنما تسقى ضيفك بعد أن تطعمه، ولو عكست قعدت تحت قول أبي العلاء:

إِذَا سُقِيَتُ ضُيُوفُ النَّاسِ مَحْمَصًا سَقُوا أَضْيَافَهُمْ شَبَابًا زَلَالًا (١)

وسقى بعض العرب فقال: أنا لا أشرب إلا على ثيلة؛ ولهذا قدمت آية المطعوم على آية المشروب.

أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَنَذِيرًا لِلْمُقِيمِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤)

(تورون) تقدحونها وتستخرجونها من الزناد والعرب تقدح بعودين تحك أحدهما على الآخر، ويسمون الأعلى: الزند، والأسفل: الزنده؛ شبهوهما بالفصل والطروقة (١) (شجرتها) التي منها الزناد (تذكرة) تذكيراً لنار جهنم، حيث علقنا بها أسباب المعاش كلها، وعممنا بالحاجة إليها البلوى لتكون حاضرة للناس ينظرون إليها ويدكرون ما أوعدوا به. أو جعلناها تذكرة وأتمودجا من جهنم، لما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ناركم هذه التي يوقد بنو آدم جزء من سبعين جزءاً من حر جهنم» (٢) (ومتاعاً) ومنفعة (للمقيمين) للذين ينزلون القواء وهي القفر. أو للذين خلعت بطونهم أو مزادهم من الطعام. يقال: أقويت من

(١) لأبي العلاء يمدح سعد الدولة أبا الفضائل، وعيب عليه حيث مدح ببق الضيوف الماء قبل ذكر الطعام. والمغص - بمجمتين - : اللبن المزروع زبد، فهو بمعنى المنخوص. ويرى: محصاً، بالحاء المهملة، أى: خالصاً حلواً أو حامضاً. والهم - كحز - : البارد. والزلال: المذهب. هذا وأحيث جعل علماء البلاغة اللقاه مدخلا في الدلالة على المراد فنقول: إن معنى البيت: إذا عجلت الناس اللبن لأضيافهم واكتفوا به عن الإسراع بالطعام: عجلواهم بالطعام لضيوفهم لاستعدادهم للضيوفان، فيحتاجون لشرب الماء، فيسقونهم ماء قبل إتمام غيرهم الضيفان، فسقهم الماء فيجد تمجيد الطعام قبله بمعونة المقام، لأنه يلزمه عادة فلا عيب فيه.

(٢) قوله «بالفعل والطروقة» أنى الفصل، كما في الصحاح. (ج)

(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

أيام ، أيلم أكل شيئاً (فصبح باسم ربك) فأحدث التسبيح بذكر اسم ربك ، أو أراد بالاسم : الذكر ، أى : بذكر ربك . و (العظيم) صفة للمضاف أو للمضاف إليه . والمعنى : أنه لما ذكر ما دل على قدرته وإنعامه على عباده قال : فأحدث التسبيح وهو أن يقول : سبحان الله ، إما تنزيها له عما يقول الظالمون الذين يجددون وحادثونه ويكفرون نعمته ، وإما تعجبا من أمرهم في غطط آلائه ^(١) وأبأديه الظاهرة ، وإما شكراً لله على النعم التي عدّها ونبه عليها .

فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ^(٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ^(٧٦)
إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ^(٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ^(٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُعَلَّمُونَ ^(٧٩)
نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْمُسْلِمِينَ ^(٨٠)

(فلا أقسم) معناه فأقسم . ولا مزيدة مؤكدة مثلها في قوله (لئلا يعلم أهل الكتاب) وقرأ الحسن : فلا أقسم . ومعناه : فلأنا أقسم : اللام لام الابتداء ^(١) دخلت على جملة من مبتدأ وخبر ، وهى : أنا أقسم ، كقولك : ولزيد منطلق ، ثم حذف المبتدأ ، ولا يصح أن نكون اللام لام القسم لأمرين ، أحدهما : أن حقها أن يقرن بها النون المؤكدة ، والإخلال بها ضعيف قبيح . والثاني : أن ، لأفعلن ، فى جواب القسم للاستقبال ، وفعل القسم يجب أن يكون للحال (بمواقع النجوم) بمساقطها ومغاربها ، لعل الله تعالى فى آخر الليل إذا انحطت النجوم إلى المغرب أفلا مخصصة عظيمة ، أو للبلائكة عبادات موصوفة ، أو لأنه وقت قيام المهتجرين والمبتهلين إليه من عباده الصالحين ، ونزول الرحمة والرضوان عليهم ؛ فذلك أقسم بمواقفها ، واستعظم ذلك بقوله (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) أو أراد بمواقفها : منازلها ومسارها ، وله تعالى فى ذلك من الدليل على عظيم القدرة والحكمة ما لا يحيط به الوصف . وقوله (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) اعتراض فى اعتراض ؛ لأنه اعترض به بين المقسم والمقسم ^(٢) عليه ، وهو قوله (إنه لقرآن كريم) واعتراض به (لو تعلمون) بين الموصوف وصفته .

(١) قوله « فى غطط آلائه » أى تحقير نعمه . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) قال محمود : « ولا زائدة مؤكدة مثلها فى قوله (لئلا يعلم أهل الكتاب) » قال : وقرأ الحسن فلا أقسم ، واللام فى هذه للابتداء ... الخ . قلت : تلخيص الرد بهذا الوجه الثانى : أن سياق الآية يرشد إلى أن القسم بمواقع النجوم واقع ، ويدل عليه القراءة الأخرى على زيادة لا : « وقتضى جعلها جواباً لقسم محذوف أن لا يكون القسم بمواقع النجوم واقفاً ، بل مستقبلاً ، فتتأنس القراءتان إذا ، وانه الموفق للصواب .

(٣) قال محمود : « وقوله « إنه لقسم لو تعلمون عظيم » اعتراض فى اعتراض فالجمله الكبرى اعتراض به بين المقسم والجواب ... الخ » قال أحمد : « وعلى هذا التفسير يكون جواب القسم مناسباً للمقسم ، مثل قوله (حم) والكتاب المبين إنا جطناه قرآناً عربياً) ومن واديه : « وثنايك إنهما لغريض » كما تقدم .

وقيل : مواقع النجوم : أوقات وقوع نجوم القرآن . أى : أوقات نزولها كريم حسن مرضى في جنسه من الكتب . أو نفاع جم المنافع . أو كريم على الله (في كتاب مكشون) مصون من غير المقربين من الملائكة ، لا يطلع عليه من سواهم ، وهم المطهرون من جميع الأدناس أدناس الذنوب وما سواها : إن جعلت الجملة صفة لكتاب مكشون وهو اللوح . وإن جعلتها صفة للقرآن : فالمعنى لا ينبغي أن يمس إلا من هو على الطهارة من الناس ، يعنى مس المكتوب منه . ومن الناس من حمله على القراءة أيضاً ، وعن ابن عمر أحب إلى أن لا يقرأ إلا وهو طاهر ، وعن ابن عباس في رواية أنه كان يبيح القراءة للجنب ، ونحوه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه » ^(١) أى لا ينبغي له أن يظلمه أو يسلمه . وقرئ : المتطهرون ، والمطهرون بالإدغام . والمطهرون ، من أطهره بمعنى طهره . والمطهرون بمعنى : يطهرون أنفسهم أو غيرهم بالاستغفار لهم والوحى الذى ينزلونه (تنزيل) صفة رابعة للقرآن ، أى : منزل من رب العالمين . أو وصف بالمصدر ؛ لأنه نزل نجوماً من بين سائر كتب الله تعالى ، فكأنه في نفسه تنزيل ؛ ولذلك جرى مجرى بعض أسمائه ، فقيل : جاء في التنزيل كذا ، ونطق به بالتنزيل . أو هو تنزيل على حذف المبتدأ . وقرئ : تنزيلا ، على : نزل تنزيلا ،

أَقْبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ^(٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ ^(٨٢)

(أقبهذا الحديث) يعنى القرآن (أنتم مدهنون) أى : متهاونون به ، كمن يدهن في الأسر ، أى يلين جانبه ولا يتصلب فيه تهاونا به (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) على حذف المضاف . يعنى : وتجعلون شكر رزقكم التكذيب ، أى : وضعتم التكذيب موضع الشكر . وقرأ على رضى الله عنه : وتجعلون شكركم أنكم تكذبون . وقيل : هى قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم . والمعنى وتجعلون شكركم لنعمة القرآن أنكم تكذبون به . وقيل : نزلت في الأنواء ونسبتهم السقيا إليها . والرزق : المطر ، يعنى : وتجعلون شكر ما يرزقكم الله من الغيث أنكم تكذبون بكونه من الله ، حيث تنسبونه إلى النجوم . وقرئ : تكذبون وهو قولهم في القرآن : شعر وسحر واقتراء . وفى المطر : وهو من الأنواء ، ولأن كل مكذب بالحق كاذب .

فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ^(٨٣) وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ^(٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَهُ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ^(٨٥) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر . والمسلم من طريق ابن مريضة بعينه .

مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ
الْمُفْرِّينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ
أَصْحَابِ الْمِيمِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْمِيمِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ
الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةٌ جَهِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنْ هَذَا
لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

ترتيب الآية : فلولا ترجعونها إذا بلغت الخلقوم إن كنتم غير مدنيين. (و. فلولا) الثانية مكررة للتوكيد، والضمير في (ترجعونها) للنفس وهي الروح، وفي (أقرب إليه) المحضّر (غير مدنيين) غير مربوبين، من دان السلطان الرعية إذا ساسهم. (ونحن أقرب إليه منكم) (٣) يا أهل الميت بقدرتنا وعلتنا، أو بملأئكة الموت. والمعنى : إنكم في جحودكم أفعال الله تعالى وآياته في كل شيء. إن أنزل عليكم كتابا معجزا قلتم : سحر واقراء. وإن أرسل إليكم رسولا قلتم : ساحر كذاب، وإن رزقكم مطرا يحبسكم به قلتم : صدق نوء كذا، على مذهب يؤدي إلى الإهمال والتعطيل. فإلستم لا ترجعون الروح إلى البدن بعد بلوغه الخلقوم إن لم يكن ثم قابض وكنتم صادقين في تعطيلكم وكفركم بالحجي الميت المبدئ المعيد (فأما إن كان) المتوفى (من المقربين) من السابقين من الأزواج الثلاثة المذكورة في أول السورة (فروح) فله استراحة. وروت عائشة رضي الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : فروح، (١) بالضم. وقرأ به الحسن وقال : الروح الرحمة، لأنها كالحياة للرحوم. وقيل : البقاء، أي : فهذان له معا، وهو الخلود مع الرزق (٣) والنعم. والريحان : الرزق (فسلام لك من أصحاب الميم) أي : فسلام لك يا صاحب الميم من إخوانك أصحاب الميم، أي : يسلمون عليك، كقوله تعالى (إلا قليلا سلاسلما). (فنزول من حميم) كقوله تعالى (هذا نزلهم يوم الدين) وقرئ : بالتخفيف (وتصليئة جحيم) قرئت بالرفع والجرح عطفاً على نزل وحميم (إن هذا) الذي أنزل في هذه السورة (لهو حق اليقين) أي الحق الثابت من اليقين.

(١) قوله «ونحن أقرب إليه منكم» لم يظهر وجه لتأخير هذا عما قبله إلا بالنظر لترتيب الذي ذكره فليحذر. (ع)

(٢) أخرجه الترمذي والنسائي وإسحاق والحاكم من رواية بديل بن مبررة عن عبد الله بن شقيق عن عائشة. زاد إسحاق «يزفع الرا». .

(٣) قوله «وهو الخلود مع الرزق، لله : وما . (ع)

عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم : « من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً ، » (١) .

سورة الحديد

مدينة ، وهي تسع وعشرون آية [نزلت بعد الزلزلة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ① لَهُ مُلْكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ② هُوَ الْأَوَّلُ
وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ③ هُوَ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ بِسْمِ اللَّهِ مَا يَلِجُ فِي
الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ
مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ④ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَالِلَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ⑤ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ
عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ⑥

(١) أخرجه ابن وهب في جامعه حدثني السري بن يحيى أن شجاعاً حدثه عن أبي ظبية عن عبد الله بن مسعود تابعه يزيد بن أبي حكيم وعباس بن الفضل البصري كلاهما عن السري . أخرجه البيهقي في الشعب من طريقهما . وكذا رواه أبو داود من رواية محمد بن حبيب عن السري . ورواه البيهقي في الشعب من رواية حجاج بن منهال عن السري فقال : عن شجاع عن ابن فاطمة عن ابن مسعود . وكذا رواه أبو عبيد في فضائل القرآن من رواية السري فقال : عن أبي ظبية ، فاختلف أصحاب السري . هل شيخه شجاع أو أبو شجاع . وكذا اختلفوا في شيخ شجاع هل هو أبو فاطمة أو أبو ظبية . ثم اختلفوا في ضبط أبي ظبية فعند الدارقطني بالطاء المهمة بعدها تختانية ، ثم موحدة وإنه عيسى بن سليمان الجرجاني . وأن روايته عن ابن مسعود منقطعة . ويؤيده أن الثعلبي أخرجه عن طريق أبي بكر المطاردى عن السري عن شجاع عن أبي ظبية الجرجاني . وعند البيهقي أنه بالمعجمة بعدها موحدة ، ثم تختانية ، وأما مجهول . وقال أحمد بن حنبل : هذا حديث منكرو . وشجاع لا أعرفه .

جاء في بعض الفوايح (سبح) على لفظ الماضي ، وفي بعضها على لفظ المضارع ، وكل واحد منهما معناه : أن من شأن من أسند إليه التسبيح أن يسبحه ، وذلك هجيره ودينه ، وقد عدى هذا الفعل باللام تارة وبنفسه أخرى في قوله تعالى (وتسبحوه) وأصله : التعدى بنفسه ، لأن معنى سبخته : بعدته عن السوء ، منقول من سبح إذا ذهب وبعد ، فاللام لا تخلو إما أن تكون مثل اللام في : نصحته ، ونصحت له . وإما أن يراد بسبح لله : أحدث التسبيح لأجل الله ولو لوجهه خالصاً ، (ما في السموات والأرض) ما يتأتى منه التسبيح ويصح . فإن قلت : ما محل (يحى) ؟ قلت : يجوز أن لا يكون له محل ، ويكون جملة برأسها ؛ كقوله (له ملك السموات) وأن يكون مرفوعاً على : هو يحيى ويميت ، ومنصوباً حالاً من المحرور في (له) والجار عاملاً فيها ومعناه : يحيى النطف والبيض والموتى يوم القيامة ويميت الأحياء (هو الأول) هو القديم الذي كان قبل كل شيء (والآخر) الذي يبقى بعد هلاك كل شيء . (والظاهر) بالأدلة الدالة عليه (والباطن) لكونه غير مدرك بالحواس . فإن قلت : فما معنى الواو ؟^(١) قلت الواو الأولى معناها الدلالة^(٢) على أنه الجامع بين الصفتين الأولى والآخرة ، والثالثة على أنه الجامع بين الظهور والخفاء . وأما الوسطى ، فعلى أنه الجامع بين مجموع الصفتين الأوليين ومجموع الصفتين الآخرين ، فهو المستمر الوجود في جميع الأوقات الماضية والآتية ، وهو في جميعها ظاهر وباطن : جامع للظهور بالأدلة والخفاء ، فلا يدرك بالحواس . وفي هذا حجة على من جوز إدراكه^(٣) في الآخرة بالحاسة . وقيل : الظاهر العالي على كل شيء الغالب له ، من ظهر عليه إذا علاه وغلبه . والباطن الذي بطن كل شيء ، أى علم باطنه ؛ وليس بذلك مع العدول عن الظاهر المفهوم .

(١) قال محمود : « إن قلت : ما معنى الواو وأجاب بأن المتوسطة بين الأول والآخر الجمع بين معنى الأولى والبقاء الخ . قال : ومعنى الظاهر أى بالأدلة والباطن أى عن الحواس . وقيل : وفيه دليل الرد على من زعم أنه تعالى يرى في الآخرة بالحاسة » قال أحمد : « لا دليل فيه على ذلك : فإن لنا أن نقول : إن المراد هدم الإدراك بالحاسة في الدنيا لاف الآخرة . ونحن نقول به ، أوفى الآخرة . والمراد : الكفار والجاحدون للرؤية كالتقديرية الأتري إلى قوله (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) فانه قيل : تقييد وتخصيص على خلاف الظاهر : قلنا والمستلثة قطعية ، فيسكن الاحتمال . وأيضاً فقسيمه لا بد فيه من تخصيص ؛ فانه تعالى لم يظهر جميع خلقه على الأدلة الموصلة إلى معرفته ، بل أغفاهم عن كثير منهم وحرهم الفوز بالإيمان به هر وجل ؛ فالظاهر إذاً معناها في التخصيص كالثاني طبقاً بينه وبين الأول .

(٢) قوله « قلت الواو الأولى معناها الدلالة الأولى » إنما دلت على اجتماع الصفتين الأوليين ، والثالثة على اجتماع الآخرين . والثانية على اجتماع المجموعين . (ع)

(٣) قوله « حجة على من جوز إدراكه » يريد أهل السنة ، وهم قد جوزوا رؤيته مطلقاً ، وقالوا : لا تدركه الأبصار ، أى : لا تحيط به ؛ والمعتزلة أحالوا رؤيته تعالى ؛ وتفصيله في التوحيد . (ع)

ءَامِنُوا بِاللّٰهِ وَرُسُلِهِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَالرُّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾

(مستخلفين فيه) يعنى أن الأموال التي في أيديكم إنما هي أموال الله مخلقه وإنشائه لها، وإنما مولاكم إياها، وخو لكم الاستمتاع بها، وجعلكم خلفاء في التصرف فيها، فليست هي بأموالكم في الحقيقة. وما أنتم فيها إلا بمنزلة الوكلاء والتواب، فأنفقوا منها في حقوق الله، وليهن عليكم الانفاق منها كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره إذا أذن له فيه. أو جعلكم مستخلفين من كان قبلكم فيما في أيديكم: بتوريثه إياكم، فاعتبروا بحالهم حيث انتقل منهم إليكم، وسيقتل منكم إلى من بعدكم؛ فلا تبخلوا به، وأنفقوا بالإنفاق منها أنفسكم (لا تؤمنون) حال من معنى الفعل في مالكم، كما تقول: مالك قائما، بمعنى: ما تصنع قائما، أى: وما لكم كافرين بالله. والواو في (والرسول يدعوكم) واو الحال، فهما حالان متداخلتان. وقرئ: (وما لكم لا تؤمنون بالله ورسوله والرسول يدعوكم) والمعنى: وأى عذر لكم في ترك الإيمان والرسول يدعوكم إليه وينبهكم عليه ويتلو عليكم الكتاب الناطق بالبراهين والحجج، وقبل ذلك قد أخذ الله ميثاقكم بالإيمان: حيث ركب فيكم العقول، ^(١) ونصب لكم الأدلة، ومكنكم من النظر، وأزاح علكم، فإذا لم تبق لكم علة بعد أدلة العقول وتنبية الرسول، فما لكم لا تؤمنون (إن كنتم مؤمنين) لموجب ما؛ فإن هذا الموجب لا مزيد عليه. وقرئ: أخذ ميثاقكم؛ ^(٢) على البناء للفاعل، وهو الله عز وجل.

هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ

وَأَنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾

(ليخرجكم) الله بآياته من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان. أو ليخرجكم الرسول بدعوته

(١) قال محمود: «أخذ الميثاق عبارة عن تركيب العقول فيهم... الخ» قال أحد: وما عليه أن يحمل أخذ الميثاق على ما بينه الله في آية غير هذه، إذ يقول تعالى (وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى) ولقد يربط منه إنكاره لكثير من مثل هذه الظواهر والعدول بها عن حقائقها مع إمكانها عقلا ووقوعها بالسمع فضلا إلى ما يتوهمه من تمثيل يسميه تخيلا، فالقاعدة التي تعتمد عليها كي لا يضرك ما يرى إليه أن ما كل ما يجوز العقل وورد بوقوع السمع وجب حمله على ظاهره والله الموفق.

(٢) قوله «وقرئ»: أخذ ميثاقكم» يفيد أن القراءة على البناء للدفعول أشهر. (ع)

(لرؤف) وقرى لرؤوف. (١)

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي
مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ
أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠)
مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَمُضِعَّهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١)

(وما لكم ألا تنفقوا) في أن لا تنفقوا (ولله ميراث السموات والأرض) يرث كل
شيء فيهما لا يبقى منه باق لأحد من مال وغيره، يعنى: وأى غرض لكم في ترك الإنفاق في
سبيل الله والجهاد مع رسوله والله مهلككم فوارث أموالكم، وهو من أبلغ البعث على الإنفاق
في سبيل الله. ثم بين التفاوت بين المنفقين منهم فقال (لا يستوى منكم من أنفق) قبل فتح
مكة قبل عز الإسلام وقوة أهله ودخول الناس في دين الله أفواجا وقلة الحاجة إلى القتال
والنفقة فيه، ومن أنفق من بعد الفتح لحذف لوضوح الدلالة (أولئك) الذين أنفقوا قبل
الفتح وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم:
«لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه» (١) (أعظم درجة) وقرى:
قبل الفتح (وكلاً) وكل واحد من الفريقين (وعد الله الحسنى) أى المثوبة الحسنى وهى
الجنة مع تفاوت الدرجات. وقرى بالرفع على: وكل وعده الله. وقيل: نزلت في أبى بكر
رضى الله عنه، لأنه أول من أسلم وأول من أنفق في سبيل الله. القرض الحسن: الإنفاق في
سبيله. شبه ذلك بالقرض على سبيل المجاز، لأنه إذا أعطى ماله لوجهه فكأنه أقرضه إياه
(فيضاعفه له) أى يعطيه أجره على إنفاقه مضاعفاً (أضعافاً) من فضله (وله أجر كريم)
يعنى: وذلك الأجر المضموم إليه الأضعاف كريم في نفسه. وقرى: فيضاعفه. وقرئاً منصوبين
على جواب (٣) الاستفهام والرفع عطف على (يقرض)، أو على (فهو يضاعفه).

(١) قوله وقرى «لرؤوف» يفيد أن القراءة بالقصر أشهر، وفيه نظر فلي نظر. وفي الصحاح: رؤوف به
- بالضم، ورأف به - بالفتح، ورثف به - بالكسر، فهو رؤوف على فعول. قال كعب بن مالك الأنصارى:
نطيع نينا ونطيع ربا هو الرحمن كان بنا رؤفا
ورؤوف أيضاً على فعل. قال جرير:

يرى للسبلين عليه حقاً كفعل الوالد الرؤوف الرحيم

والظاهر أن رسمه بواو واحدة حال المد والقصر، فيكون الأشهر قراءة المد، كما هو الأشهر في الاستعمال اللغوى. (ع)

(٢) متفق عليه من حديث أبى سعيد الخدوى رضى الله عنه.

(٣) قوله «وقرئاً منصوبين على جواب» أى قوله: فيضاعفه، وقوله فيضاعفه. (ع)

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَسْمَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ
 بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ
 الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾

(يوم ترى) ظرف لقوله : وله أجر كريم . أو منصوب بإضماره اذكره ، تعظيماً لذلك اليوم . وإنما قال (بين أيديهم وبأيمنهم) لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين ؛ كما أن الأشقياء يؤتونها من شمالكهم ومن وراء ظهورهم ، فجعل النور في الجهتين شعاراً لهم وآية ؛ لأنهم هم الذين بحسناتهم سعدوا وبصحائفهم البيض أفلحوا ، فإذا ذهب بهم إلى الجنة ومروا على الصراط يسعون : سمى بسعيهم ذلك النور جنياً لهم ومتقدماً . ويقول لهم الذين يتلقونهم من الملائكة . (بشراكم اليوم) . وقرئ : ذلك الفوز .

يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ الَّذِينَ آمَنُوا آفَظَرُونَا أَتَقْبَلُونَا مِنْ نُورِكُمْ
 قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَانْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ
 الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ
 وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ
 أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ
 كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

(يوم يقول) بدل من يوم ترى (انظرونا) انتظرونا ، لأنهم يسرع بهم إلى الجنة كالبروق الخاطفة على ركاب ترف^(١) بهم . وهؤلاء مشاءة . وانظروا إلينا ؛ لأنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم والنور بين أيديهم فيستضيئون به . وقرئ : انظرونا من النظرة وهي الإمهال : جعل اتادهم في الماضي إلى أن يلحقوا بهم إنظاراً لهم (تقبس من نوركم) نصب منه ؛ وذلك أن يلحقوا بهم فيستنيروا به (قبل ارجعوا وراءكم فانتمسوا نوراً) طرد لهم وتهكم بهم ، أى : ارجعوا إلى الموقف إلى حيث أعطينا هذا النور فالتمسوه هنالك ، فمن ثم يقبس . أو ارجعوا إلى الدنيا ، فالتمسوا نوراً بتحصيل سببه وهو الإيمان . أو ارجعوا غائبين وتحووا عنا ،

(١) قوله « ترف بهم » أى : ترفع . أفاده الصحاح . (ع)

فالتسوا نورا آخر، فلا سبيل لكم إلى هذا النور، وقد علموا أن لا نور وراءهم؛ وإنما هو تخيب وإقناط لهم (فضرب بينهم بسور) بين المؤمنين والمنافقين بحائط حائل بين شق الجنة وشق النار. وقيل: هو الأعراف لذلك السور (باب) لاهل الجنة يدخلون منه (باطنه) باطن السور أو الباب، وهو الشق الذي بلى الجنة (وظاهره) ما ظهر لاهل النار (مقبله) من عنده ومن جهته (العذاب) وهو الظلمة والنار. وقرأ زيد بن علي رضي الله عنهما: فضرب بينهم على البناء للفاعل (ألم تكن معكم) يريدون موافقتهم في الظاهر (فنتنم أنفسكم) محتسوها بالنفاق وأهلكتموها (وتربصتم) بالمؤمنين الدوائر (وغرتكم الآمان) طول الآمال والطمع في امتداد الأعمار (حتى جاء أمر الله) وهو الموت (وغرتم بالله الغرور) وغرتم الشيطان بأن الله عفو كريم لا يعذبكم. وقرئ: الغرور، بالضم (فدية) ما يفدى به (هي) مولاكم (قيل: هي أولى بكم، وأنشد قول لبيد:

فَدَدَتْ كِلَا الْفَرَجَيْنِ تَحْسِبُ أَنَّهُ مُوَلَّى الْمَخَافَةِ خَلَفَهَا وَأَمَامَهَا ^(١)

وحقيقة مولاكم: محراكم ومقمنكم ^(٢). أى: مكانكم الذى يقال فيه هو أولى بكم، كما قيل: هو مثنة للكرم، أى مكان؛ لقول القائل: إنه للكرم. ويجوز أن يراد: هي ناصركم، أى لناصر لكم غيرها. والمراد: نفي الناصر على البتات. ونحوه قولهم: أصيب فلان بكذا فاستنصر الجزع ^(٣). ومنه قوله تعالى (يغاثوا بماء كالمهل) وقيل: تتولاكم كما توليتم في الدنيا أعمال أهل النار.

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ

(١) وتوجست رز الأنيس فراعها من ظهر غيب والأنيس مقامها

فدنت كلا الفرجين تحسب أنه مولى المخافة خلفها وأمامها

الليد من مغلقة. يصف بقرة وحشية، توجست: أى تسامت البقرة. والتوجس: التسمع. ويقال: رزت السماء رزاً، بتقديم الزاء إذا صوتت عند المطر؛ فالرز بالفتح: التصويت الحق، وبالكسر: اسم للصوت الحق. ورز: أى صوت الأنيس، وهم الصياد، فأزعها بظهر الغيب. وإقناط الظاهر في مثل هذا التركيب: مبالغة في الخفاء؛ لأن ماروا الظاهر لا يعلم ولا يدري ما هو. وسمى الصياد أنيساً بالنسبة إلى ناي لا إليها، لأنه عازها وسبب خوفها، لجملة نفس السقام مبالغة. وكلا الفرجين: مبتدأ. وتحسب أنه مولى المخافة: خبر، أى أنه الأول بالخوف من جهته. وخلفها وأمامها: خبر لمبتدأ محذوف، أو بدل من كلا الفرجين للتوضيح والتبيين، أى: لها ما بين رجليها وما بين يديها، وبمعنهم فمرها بنقرتين في الجبل؛ وعليه فلا معنى للام المهمل فيهما.

(٢) قوله «محراكم ومقمنكم» يقال: هو حرى أن يفعل كذا، وهو قن أن يفعله، أى: جدير بذلك

وحقيق به. أنشده الصحاح. (ع)

(٣) قوله «فاستنصر الجزع» لعله: الجزع، أى: يقضي الصبر. (ع)

وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا السِّكِّتَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ
 قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾

(ألم يأن) من أنى الأمر يأنى ، إذا جاء إناءه ، أى . وقته . وقرئ : ألم يئن ، من أن يئن بمعنى : أنى يأنى ، وألم يأن ، قيل : كانوا يجد بين يديهم ، فلما هاجروا أصابوا الرزق والنعمة ففتروا عما كانوا عليه ، فزلت . وعن ابن مسعود : ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبتنا بهذه الآية إلا أربع سنين ^(١) . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن . وعن الحسن رضى الله عنه : أما والله لقد استبطأهم وهم يقرؤن من القرآن أقل مما تقرأون . فانظروا فى طول ما قرأتم منه وما ظهر فيكم من الفسق . وعن أبى بكر رضى الله عنه أن هذه الآية قرئت بين يديه وعنده قوم من أهل النيام ، فبكوا بكاء شديداً ، فنظر إليهم فقال : هكذا كنا حتى قست القلوب . وقرئ : نزل ونزل . وأنزل (ولا يكونوا) عطف على تخشع ، وقرئ بالناء على الالتفات . ويجوز أن يكون نهياً لهم عن مماثلة أهل الكتاب فى قسوة القلوب بعد أن وبخوا ، وذلك أن بنى إسرائيل كان الحق يحول بينهم وبين شهواتهم ، وإذا سمعوا التوراة والإنجيل خشعوا لله ورقى قلوبهم ، فلما طال عليهم الزمان غلبهم الجفاء والقسوة واختلفوا وأحدثوا ما أحدثوا من التحريف وغيره . فإن قلت : ما معنى (لذكر الله وما نزل من الحق) ؟ قلت : يجوز أن يراد بالذكر وبما نزل من الحق : القرآن ؛ لأنه جامع للأمرين : للذكر والموعظة ، وأنه حق نازل من السماء ، وأن يراد خشوعها إذا ذكر الله وإذا تلى القرآن كقوله تعالى (إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً) أراد بالآمد : الأجل ، كقوله :

• • • • • إذا انتهى أمدُه • • • ^(١)

وقرئ : الامد ، أى : الوقت الأطول (وكثير منهم فاسقون) خارجون عن دينهم رافضون لما فى الكتابين .

اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَكُمْ

تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾

(١) أخرجه مسلم بلفظ «وبين أن عاتبتنا الله » وروى الحاكم فاستدركه .

(٢) قوله «لقد تلى القرآن» أى : البيت من أوله :

كل حى مستكمل مدة العمر ومود إذا انتهى أمدُه

قلت : قد تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٢٧٧ فراجع إن شئت . اهـ مصححه .

(اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها) قيل : هذا تمثيل لآثر الذكر في القلوب ، وأنه يحييها كما يحيي الغيث الأرض

إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ

أَجْرٌ كَرِيمٌ ①٨

(المصدقين) المتصدقين . وقرئ على الأصل . والمصدقين من صدق ، وهم الذين صدقوا الله ورسوله يعني المؤمنين . فإن قلت : علام عطف قوله (وأقرضوا) ؟ قلت : على معنى الفعل في المصدقين ؛ لأن اللام بمعنى الذين ، واسم الفاعل بمعنى اصدقوا ، كأنه قيل : إن الذين اصدقوا وأقرضوا . والقرض الحسن : أن يتصدق من الطيب عن طيبة النفس وصحة النية على المستحق للصدقة . وقرئ : يضحف ، ويضاعف ، بكسر العين ، أى : يضاعف الله .

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُم وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ①٩

يريد أن المؤمنين بالله ورسوله هم عند الله بمنزلة الصديقين والشهداء : وهم الذين سبقوا إلى التصديق واستشهدوا في سبيل الله (لهم أجرهم ونورهم) أى : مثل أجر الصديقين والشهداء ومثل نورهم . فإن قلت : كيف يستوى بينهم في الأجر ولا بد من التفاوت ؟ قلت : المعنى أن الله يعطى المؤمنين أجرهم ويضاعفه لهم بفضله ، حتى يساوى أجرهم مع إضاعفه أجر أولئك . ويجوز أن يكون (والشهداء) مبتدأ ، و(لهم أجرهم) خبره .

اعْلَمُوا أَنَّهَا الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا لَيْبٌ وَلَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَوَةُ

الدُّنْيَا إِلَّا مَتَّعُ الْغُرُورِ ②٠

أراد أن الدنيا ليست إلا محقرات من الأمور وهى اللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر . وأما الآخرة فإلى إلا أمور عظام ، وهى : العذاب الشديد والمغفرة ورضوان الله . وشبه حال الدنيا وسرعة تقضيها مع قلة جدواها بنبات أُنبت الغيث فاستوى واكتهل^(١) وأعجب به

(١) قوله «فاستوى واكتهل» فى الصحاح : اكتهل للنبات ، أى : تم طوله وظهر نوره . (ع)

الكفار الجاحدون لنعمة الله فيما رزقهم من الغيث والنبات ، فبعت عليه العاهة فهاج واصفر
وصار حطاما عقوبة لهم على جحودهم ، كما فعل بأصحاب الجنة وصاحب الجنتين . وقيل (الكفار) :
الزراع . وقرئ : مصفراً .

سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
أَعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ

ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١)

(سابقوا) سارعوا مسارعة المسابقين لأقرانهم في المضمار ، إلى جنة (عرضها كعرض
السماء والأرض) قال السدي : كعرض سبع السموات وسبع الأرضين ، وذكر العرض
دون الطول ؛ لأن كل ماله عرض وطول فإن عرضه أقل من طوله ، فإذا وصف عرضه بالبسطة :
عرف أن طوله أبسط وأمت . ويجوز أن يراد بالعرض : البسطة ، كقوله تعالى (فذودعاء
عريض) لما حفر الدنيا وصغر أمرها وعظم أمر الآخرة : بعث عباده على المسارعة إلى نيل
ما وعد من ذلك : وهي المغفرة المنجية من العذاب الشديد والفوز بدخول الجنة (ذلك)
الموعود من المغفرة والجنة (فضل الله) عطاؤه (يؤتيه من يشاء) وهم المؤمنون .

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ
أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا
تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) الَّذِينَ يَبْتَخُلُونَ

وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٤)

المصيبة في الأرض : نحو الجذب وآفات الزروع والثمار . وفي الأنفس : نحو الإلواء
والموت (في كتاب) في اللوح (من قبل أن نبرأها) يعني الأنفس أو المصائب (إن ذلك)
إن تقدير ذلك وإثباته في كتاب (على الله يسير) وإن كان عسيراً على العباد ، ثم علل ذلك
وبين الحكمة فيه فقال (لكيلا تأسوا... ولا تفرحوا) يعني أنكم إذا علمتم أن كل شيء
مقدر مكتوب عند الله قل أساكم على الفاتت وفرحكم على الآتي ؛ لأن من علم أن ما عنده
مفقود لا محالة : لم يتفاقم جزعه عند فقده ، لأنه وطن نفسه على ذلك ، وكذلك من علم أن بعض
الخير واصل إليه ، وأن وصوله لا يفوته بحال : لم يعظم فرحه عند نياله (والله لا يحب كل مختال

غفور) لأن من فرح بحظ من الدنيا وعظم في نفسه : اختال وافتخر به وتكبر على الناس .
 قرئ : بما آتاكم . وآتاكم ، من الإيتاء والإتيان . وفي قراءة ابن مسعود : بما أوتيتم . فإن
 قلت : فلا أحد يملك نفسه - عند مضرة تنزل به ، ولا عند منفعة ينالها - أن لا يحزن ولا يفرح .
 قلت : المراد : الحزن المخرج إلى ما يذهل صاحبه عن الصبر والتسليم لأمر الله ورجاء ثواب
 الصابرين ، والفرح المطنى الملهى عن الشكر ؛ فأما الحزن الذى لا يكاد الإنسان يخلو منه مع
 الاستسلام ، والسرور بنعمة الله والاعتداد بها مع الشكر : فلا بأس بهما (الذين يبتخلون)
 بدل من قوله (كل محتال غفور) كأنه قال : لا يحب الذين يبتخلون ، يريد : الذين يفرحون بالفرح
 المطنى إذا رزقوا مالا وحظاً من الدنيا فلحهم له وعزته عندهم وعظمه في عيونهم : يزوونه
 عن حقوق الله ويبتخلون به ، ولا يسكفهم أنهم يخلوا حتى يحملوا الناس على البخل ويرغبوهم
 في الإمساك ويزينوه لهم ، وذلك كله نتيجة فرحهم به وبطرحهم عند إصابته (ومن يتول) عن
 أوامر الله ونواهيه ولم ينه عما نهى عنه من الأسى على الفاتى والفرح بالآتى : فإن الله غنى
 عنه . وقرئ : بالبتل . وقرأ نافع : فإن الله العنى ، وهو فى مصاحف أهل المدينة والشام كذلك .

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ
 بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ
 يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥)

(لقد أرسلنا رسلنا) يعنى الملائكة إلى الأنبياء (بالبينات) بالحجج والمعجزات (وأنزلنا
 معهم الكتاب) أى الوحي (والميزان) روى أن جبريل عليه السلام نزل بالميزان فدفعه إلى
 نوح وقال : مرقومك يزونا به (وأنزلنا الحديد) قيل : نزل آدم من الجنة ومعه خمسة أشياء
 من حديد : السندان ، والكلبان ، والميقعة ، والمطرقة^(١) ، والإبرة . وروى : ومعه
 المر والمسحاة . وعن النبى صلى الله عليه وسلم : أن الله تعالى أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض :
 أنزل الحديد ، والنار ، والماء ، والملح^(٢) . وعن الحسن (وأنزلنا الحديد) : خلقناه ، كقوله
 تعالى (وأنزل لكم من الأنعام) وذلك أن أوامره تنزل من السماء وقضاياه وأحكامه (فيه بأس
 شديد) وهو القتال به (ومنافع للناس) فى مصالحهم ومعايشهم وصنائعهم ، فما من صناعة

(١) قوله والميقعة والمطرقة... الخ فى الصحاح والميقعة : المطرقة . والميقعة - أيضاً : الماسن الطويل .

والمر : الخبل ، والمسحاة كالهمزة ، إلا أنها من حديد . (ع)

(٢) أخرجه الثعلبى من حديث ابن عمر ، وفى إسناده من لأمره .

إلا والحديد آلة فيها : أو ما يعمل بالحديد (وليعلم الله من ينصره ورسله) باستعمال السيوف والرماح وسائر السلاح في مجاهدة أعداء الدين (بالغيب) غائباً عنهم ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : ينصرونه ولا يبصرونه (إن الله قوى عزيز) غنى بقدرته وعزته في إهلاك من يريد هلاكه عنهم ، وإنما كلفهم الجهاد لينتفعوا به ويصلوا بامتنال الأمر فيه إلى الثواب .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ

مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾

(والكتاب) والوحي . وعن ابن عباس : الخط بالقلم ، يقال : كتب كتاباً وكتبته (فمنهم) من الذرية أو من المرسل إليهم ، وقد دل عليهم ذكر الإرسال والمرسلين . وهذا تفصيل لحالم ، أى : فمنهم مهتد ومنهم فاسق ، والغلبة للفساق .

ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَئِيلَةَ أَتَّبَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا آتِيعُوا رِضْوَانِ اللَّهِ قَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا

مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾

قرأ الحسن : الإنجيل ، بفتح الهمزة ، وأمره أهون من أمر البرطيل والسكينة فيمن رواهما بفتح الفاء . لأن الكلمة أعجمية لا يلزم فيها حفظ أبنية العرب . وقرئ : رأفة ، على : فعالة ، أى : وقفناهم للتراحم والتعاطف بينهم . ونحوه في صفة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم (رحماء بينهم) . والرهابية : ترهبهم في الجبال فآزى من الفتنة في الدين ، مخلصين أنفسهم للعبادة ، وذلك أن الجبارة ظهروا على المؤمنين بعد موت عيسى ، فقاتلوهم ثلاث مرات ، فقتلوا حتى لم يبق منهم إلا القليل ، فخافوا أن يفتنوا في دينهم ، فاختاروا الرهبانية : ومعناها الفعلة المنسوبة إلى الرهبان ، (١) وهو الخائف : فعلا من رهب ، تكشيان من خشى . وقرئ : ورهبانية بالضم ، كأنها نسبة إلى الرهبان : وهو جمع راهب كراكب وركبان ، وانتصابها بفعل مضمر (٢) يفسره

(١) قال محمود : والرهبانية : الفعلة المنسوبة للرهبان ... الخ ، قال أحد : وفيه إشكال ، فإن النسب إلى الجمع على صيغته غير مقبول عندهم حتى يرد إلى مفردة ، إلا أن يقال : إنه لما صار الرهبان طائفة مخصوصة صار هذا الاسم - وإن كان جمعا - كالعلم لهم ، فلعق بأنصارى ومدائى وأهراقى .

(٢) قال محمود : وهو منصوبة بفعل مضمر ... الخ ، قال أحد : في إعراب هذه الآية تورط أبوعل الفارسي ونحوه إلى فلة الفتنة وطائفة البدعة ، فأعرب رهبانية على أنها منصوبة بفعل مضمر يفسره الظاهر ، وعلى امتناع =

الظاهر : تقديره . وابتدعوا رهبانية (ابتدعوها) بمعنى : وأحدثوها من عند أنفسهم ونذروها (ما كتبناها عليهم) لم نفرضها نحن عليهم (إلا ابتغاء رضوان الله) استثناء منقطع ، أى : ولكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله (فأرعوها حق رعايتها) كما يجب على الناظر رعاية نذره ؛ لأنه عهد مع الله لا يحل نكثه (فأتينا الذين آمنوا) يريد : أهل الرحمة والرفقة الذين اتبعوا عيسى (وكثير منهم فاسقون) الذين لم يحافظوا على نذرهم . ويجوز أن تكون الرهبانية معطوفة على ما قبلها ، وابتدعوها : صفة لها في محل النصب ، أى : وجعلنا في قلوبهم رافة ورحمة ورهبانية مبتدعة من عندهم ، بمعنى : وفقناهم للتراحم بينهم ولا ابتداع الرهبانية واستحداثها ، ما كتبناها عليهم إلا ليلتفتوا بها رضوان الله ويستحقوا بها الثواب ، على أنه كتبها عليهم وألزمها لإيادهم ليتخلصوا من الفتن ويتغنوا بذلك رضا الله وثوابه ، فأرعوها جميعاً حق رعايتها ؛ ولكن بعضهم ، فأتينا المؤمنين المرأعين منهم للرهبانية أجراً ، وكثير منهم فاسقون . وهم الذين لم يرعوها .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَعَآمِنُوا بِرُسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾
(يا أيها الذين آمنوا) يجوز أن يكون خطاباً للذين آمنوا من أهل الكتاب والذين آمنوا^(١) من غيرهم ، فإن كان خطاباً للمؤمنين أهل الكتاب . فالعنى : يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى آمنوا بمحمد (يؤتكم) الله (كفلين) أى نصيبين (من رحمته) لإيمانكم بمحمد وإيمانكم بمن قبله (ويجعل لكم) يوم القيامة (نوراً تمشون به) وهو النور المذكور في قوله (يسعى نورهم) . (ويغفر لكم) ما أسلفتم من الكفر والمعاصي .

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

== المعطف فقال : ألا ترى أن الرهبانية لا يستقيم حملها على (جعلنا) مع وصفها بقوله (ابتدعوها) لأن ما يجعله هو تعالى لا يبتدعونه هم ، والزخشرى ورد أيضاً مورده النعيم ، وأسله شيطان الرجيم ، فلما أجاز ما منعه أبو على من جعلها معطوفة : أعذر لذلك بتحريف الجمل إلى التوفيق ، فرأى بما فرمته أبو على : من اعتقاد أن ذلك مخلوق لله تعالى ، وجنوحاً إلى الاشراك واعتقاد أن ما يفعلونه هم لا يفعله الله تعالى ولا يخلقه ، وكفى بما في هذه الآية دليلاً بعد الأدلة القطعية والبراهين العقلية على بطلان ما اعتقدناه ؛ فانه ذكر عمل الرحمة والرفقة مع العلم بأن عملها القلب ، فجعل قوله (في قلوب الذين اتبعوه) تأكيداً لحلقه هذه المعاني وتصوراً لمعنى الخلق بذكر عمله ؛ ولو كان المراد أمراً غير مخلوق في قلوبهم لله تعالى كما زعموا : لم يبق لقوله في قلوب الذين اتبعوه موقع ، وبأني الله أن يهتمل كفايه الكريم على مالا موقع له ، أمعننا الله الحجة ونهج بنا واضح الحجة ، إنه ولي التوفيق وراغب التحقيق .

(١) قوله ، والذين آمنوا ، لعله وللذين آمنوا . (ع)

(ثلاثا يعلم) ليعلم (أهل الكتاب) الذين لم يسلموا. ولا مزيدة (ألا يقدرّون) أن مخففة من الثقيلة، أصله: أنه لا يقدرّون، يعنى: أن الشأن لا يقدرّون (على شيء من فضل الله) أى: لا يتناولون شيئاً مما ذكر من فضله من الكفيلين: والنور والمغفرة، لأنهم لم يؤمنوا برسول الله، فلم ينفعهم إيمانهم بمن قبله، ولم يكسبهم فضلاً قط. وإن كان خطاباً لغيرهم، فالمعنى: اتقوا الله واثبتوا على إيمانكم برسول الله يؤتكم ما وعد من آمن من أهل الكتاب من الكفيلين في قوله (أولئك يؤتون أجرهم مرتين) ولا ينقصكم من مثل أجرهم، لأنكم مثلهم في الإيمان لا تفرقون بين أحد من رسله. روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث جعفرأرضى الله عنه في سبعين راكباً إلى النجاشي يدعوه، فقدم جعفر عليه فدعاه فاستجاب له، فقال ناس ممن آمن من أهل مملكته وهم أربعون رجلاً. ائذن لنا في الوفادة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأذن لهم فقدموا مع جعفر وقد تهيأ لوقعة أحد، فلما رأوا ما بالمسلمين من خصاصة: استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرجعوا وقدموا بأموالهم فأسوا بها المسلمين^(١)، فأنزل الله (الذين آتيناهم الكتاب... إلى قوله... وبما رزقناهم ينفقون) فلما سمع من لم يؤمن من أهل الكتاب قوله (يؤتون أجرهم مرتين) نفروا على المسلمين وقالوا: أما من آمن بكتابكم وكتابنا فله أجره مرتين، وأما من لم يؤمن بكتابكم فله أجر كأجركم، فما فضلكم علينا؟ فنزلت. وروى أن مؤمنى أهل الكتاب افتخروا على غيرهم من المؤمنين بأنهم يؤتون أجرهم مرتين، وادعوا الفضل عليهم، فنزلت. وقرئ: لى يعلم. ولكيلا يعلم. وليعلم. ولأن يعلم: بإدغام النون في الياء. وابن يعلم: بقلب الهمزة ياء وإدغام النون في الياء. وعن الحسن: ليلا يعلم، بفتح اللام وسكون الياء. ورواه قطرب بكسر اللام. وقيل في وجهها: حذفت همزة أن، وأدغمت نونها في لام لا؛ فصار: للا، ثم أبدلت من اللام المدغمة ياء، كقولهم: ديوان، وقيراط. ومن فتح اللام فعلى أن أصل لام الجز الفتح، كما أنشد:

• أريدُ لِأَنسى ذِكْرَها ... • (٢)

(١) المعروف أن جعفر إنما قدم بعد أحد برمان، قدم عند فتح خيبر.

(٢) أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لي ليلى بكل سيل

لقبس بن الملوح مجنون ليلى العامرية. وقيل: لكثير صاحب عزة، وكفى عنها بلبلى استقرأ. وقيل: سرقه كثير من شعر جميل صاحب بنية. وقوله: لأنسى بفتح لام الجر على الأصل في الحروف المفردة، وذلك: لغة عكل، ويتمين فيها إذا دخلت على فعل منصوب بأن مضمره كما هنا. وتروى بالكسر على اللفظة المشهورة، أى: أريد لنسيان تذكرها، ولللام زائدة، لكنها هي التي أشمرت بحذف «إن»، وتمثل: أصله تتمثل، أى تتشكل وتتخيل أمامي ليلى بكل طريق، إما الحسى وإما طريق الذكر، والاول أوجه، بدليل قوله «كأنما» وتمثلها له يوجب تذكرها. رما زائدة بعد كان، كافة لها عن العمل فلذلك دخلت على الفعل.

وقرى : أن لا يقدروا (بيد الله) فى ملكه وتصرفه . وألبد مثل (يؤتبه من يشاء) ولا يشاء إلا إيتاء من يستحقه . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة الحديد كتب من الذين آمنوا بالله ورسوله » (١) .

سورة المجادلة

مدنية ، وآياتها ٢٢ [نزلت بعد المنافقون]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ
تَحَاوُرَ كُفْرًا إِنَّ اللَّهَ يَجْمَعُ يَصِيرُ ①

(قد سمع الله) قالت عائشة رضى الله عنها : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات : (١) لقد كلمت المجادلة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جانب البيت وأنا عنده لا أسمع ، وقد سمع (٢) لها . وعن عمر أنه كان إذا دخلت عليه أكرمها وقال : قد سمع الله لها . وقرى : « تحاورك ، أى : تراجعك الكلام . وتحاورك . أى : تسائلك ، وهى خولة بنت ثعلبة امرأة أوس بن الصامت أخى عبادة : رآها وهى تصلى وكانت حسنة الجسم ، فلما سلت راودها فأبى ، فغضب وكان به خفة ولم (٣) ، فظاهر منها ، فأنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إن أوساً تزوجنى وأنا شابة مرغوب فى ، فلما خلا سنى وثرت بطنى - أى : كثر ولدى - جعلنى عليه (٤) كآفه . وروى أنها قالت له :

(١) أخرجه الثعلبى وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبى كعب .

(٢) قال محمود : « قالت عائشة رضى الله عنها : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات ... الخ » قال أحمد : ولقد استدل به بعضهم على عدم لزوم ظهار الذى ، وليس بقوى ؛ لأنه غير المقصود .

(٣) أخرجه النسائى وابن ماجه والطبري وأحمد وإسحاق والبخاري عن طريق الأعمش عن نعيم بن سلة عن عروة عن عائشة . وعلقه البخارى ، وأخرجه الحاكم أتم سياقاً منه ، وفيه تسميتها وتسمية زوجها .

(٤) قوله « ولم » أى طرف من الجنون ، أوس من الجن . أفاده الصحاح (ع) .

(٥) أخرجه الدارقطنى والبيهقى .

إِنَّ لِي صَبِيَّةً صَغِيرًا ، إِنْ ضَمَمْتُمْ إِلَيْهِ ضَاعُوا ، وَإِنْ ضَمَمْتُمْ إِلَيَّ جَاعُوا . فقال : ما عندي في أمرك شيء . وروى أنه قال لها : حرمت عليه ، فقالت : يا رسول الله ، ما ذكر طلاقا وإنما هو أبو ولدي وأحب الناس إليّ ، فقال : حرمت عليه ، فقالت : أشكو إلى الله فاقني ووجدى ، كلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حرمت عليه . هتفت وشكيت إلى الله ^(١) ، فنزلت (في زوجها) في شأنه ومعناه (إِنْ اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) يصح أن يسمع كل مسموع ويبصر كل مبصر . فإن قلت : ما معنى (قد) في قوله (قد سمع) ؟ قلت : معناه التوقع ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمجادلة كانا يتوقعان أن يسمع الله مجادلتها وشكواها وينزل في ذلك ما يفرج عنها .

الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمُّهُتُمْ إِلَّا الْإِثْمُ
وَأَلَدُهُمْ وَإِنَّهُمْ لَمَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَفَوَّ عَفْوَرٌ ۖ
وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ
أَنْ يَتَمَاسَا ذَٰلِكُمْ تَوْعُظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۚ قَنْ لَمْ يَجِدْ
فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا قَنْ لَمْ يَنْتَظِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا
ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ رَ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۚ

(الذين يظاهرون منكم) في (منكم) توييح للعرب وتهجين لعادتهم في الظهار ، لأنه كان من أيمان أهل جاهليتهم خاصة دون سائر الأمم (ماهن أمهاتهم) وقرئ بالرفع على اللغتين الحجازية والنخعية . وفي قراءة ابن مسعود : بأمهاتهم ، وزيادة الباء في لغة من ينصب . والمعنى أن من يقول لامرأته أنت علي كظهر أمي : ملحق في كلامه هذا للزوج بالأم ، وجعلها مثلها . وهذا تشبيه باطل لتباين الحالين (إِنْ أُمُّهُتُمْ إِلَّا الْإِثْمُ وَلَدُهُمْ) يريد أن الأمهات على الحقيقة إنما هن الودعات وغيرهن ملحقات بهن لدخولهن في حكمهن ، فالمرضعات أمهات ؛ لأنهن

(١) هذه الرواية الثانية أخرجه الطبري من طريق أبي معشر عن محمد بن كعب القرظي قال : كانت خولة بنت ثعلبة تحت أوس بن الصامت . وكان رجلا به لم . فقال في بعض هجراته : أنت علي كظهر أمي ، قال : ما ظنك إلا قد حرمت علي فجأت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فعالت : يا بني الله ، إن أوس بن الصامت أبو ولدي ، وأحب الناس إلي ، والذي أنزل عليك الكتاب ما ذكر طلاقا قال : ما أراك إلا حرمت عليه ، فقالت : يا رسول الله لا نقل كذلك والله ما ذكر طلاقا . فراودت النبي صلى الله عليه وسلم مرارا ثم قالت : اللهم إني أشكو إليك فاقني ووجدني وما يفتق علي من قرأته . الحديث ، ومن طريق أبي العالية قال : فجعلت كلما قال لها : حرمت عليه ، هتفت وقالت : أشكو إلى الله ، فلم ترم مكانها حتى نزلت الآية .

لما أَرْضَعْنِ دَخَلْنَ بِالرَضَاعِ فِي حَكْمِ الْأُمَمَاتِ ، وكذلك أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم أمهات المؤمنين ؛ لأن الله حَرَّمَ نِكَاحَهُنَّ عَلَى الْأُمَّةِ فَدَخَلْنَ بِذَلِكَ فِي حَكْمِ الْأُمَمَاتِ . وأما الزوجات فأبعد شيء من الأمومة لانهن لسن بأمهات على الحقيقة ، ولا بدخلات في حَكْمِ الْأُمَمَاتِ ، فكان قول المظاهر : منسكراً من القول تنكركه الحقيقة وتنكركه الأحكام الشرعية وزوراً وكذباً باطلاً منحرفاً عن الحق ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴾ لما سلف منه إذا تيب عنه ولم يعد إليه ، ثم قال : (والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا) يعني : والذين كانت عادتهم أن يقولوا هذا القول (١) المنكر فقطعوه بالإسلام ، ثم يعودون لمثله ، فكفارة من عاد أن يحزر رقبته ثم يماس المظاهر منها لا تحل له بماستها إلا بعد تقديم الكفارة . ووجه آخر : ثم يعودون لما قالوا : ثم يتداركون ما قالوا (٢) ؛ لأن المتدارك للأمر عائد إليه . ومنه المثل : عاد غيث على ما أفسد ، أى : تداركه بالإصلاح . والمعنى : أن تدارك هذا القول وتلافيه بأن يسكفر حتى ترجع حالهما كما كانت قبل الظهار . ووجه ثالث : وهو أن يراد بما قالوا : ما حرموه (٣)

(١) قال محمود : « يعنى والذين كانت عادتهم أن يقولوا هذا القول ... الخ » قال أحمد : وهذا الوجه يلزم الكفارة بمجرد قول الظهار في الإسلام لا غير ، والقول بوجودها بمجرد الظهار : قول مجاهد من التابعين وسفيان من الفقهاء .

(٢) قال محمود : « ووجه ثان ثم يعودون لما قالوا ثم يتداركون ما قالوا ... الخ » قال أحمد : وهذا التفسير منزل على أن وجوب الكفارة مشروط بالعود بعد الظهار وهو القول المشهور لفقهاء الأمصار ولا يخص هذا التفسير وجهاً من وجوه العود التي ذكرها العلماء .

(٣) قال محمود : « ووجه ثالث : وهو أن يكون المراد بما قالوه ... الخ » قال أحمد : وهذا التفسير يقوى القول بأن العود الوطء نفسه ؛ لأن حاصله : ثم يعودون للوطء . وظاهر قولك : عاد للوطء فعله ، وحمل العود على الوطء : من جملة أقوال مالك رحمه الله ، فقد تلخص أن كلام المختلفين في العود له مأخذ من هذه الآية ، فأما من لم يقف وجوب الكفارة عنده إلا على مجرد الظهار ، فحمل العود على الظهار . ونسبته عوداً والحالة هذه باعتبار أنه كان في الجاهلية وانقطع في الإسلام ، فابقاعه بعد الإسلام عود إليه . وأما من أوقفها على العود وجعل العود أن يعيد لفظ الظهار وهو قول داود فاعتبر ظاهر اللفظ ، وأما من حمل العود على العزم على الوطء فرأى أن العود إلى القول الأول عود بالتدارك لا بالتكرار ، وتدارك بعضه ببعضه ، وحمل نقيضه العزم على الوطء لأن الأول امتناع منه أو العزم على الإمساك ؛ لأن العصمة تقتضي الحل وعدم الامتناع ، فيكفي محل خلاف . وأما من حمله على الوطء نفسه فرأى أن المراد بالقول المقول فيه ، ويحمل قوله (من قبل أن يناسا) أى مرة ثانية . وقد اختلف العلماء أيضاً فيما إذا قدم الوطء على الكفارة ، فالذهب المشهور للعلماء أن ذلك لا يسقط الكفارة ولا يوجب أخرى . وذهب مجاهد إلى إيجاب أخرى به ، وذهبت طائفة إلى إسقاط الكفارة به أصلاً ورأساً ، وكان منعاً خلافهم النظر إلى قوله (من قبل أن يناسا) فرآه أكثر العلماء منعاً من الوطء قبل التكفير ، حتى كأنه قال : لا ناس حتى تنكفر ، ورأته الطائفة المسقطه للكفارة بالوطء شرطاً في الوجوب ، فلا جرم إذا مسها ، فقد فقد الشرط الذي هو عدم الناس فسقط الوجوب . ورآه مجاهد في إيجاب الكفارة ، فإذا تناسا قبل الكفارة تعددت ، ثم فيه نظر آخر : وهو أنه ذكر عدم الناس في كفارة المشق والصوم ، وأسقطه في كفارة الاطعام ، فنلق أبو حنيفة بذلك الفرق بين الاطعام وبين الآخرين ، حتى أنه لو وطئ في حال الاطعام لم يجب عليه استئناف كفارة ، بخلاف =

على أنفسهم بلفظ الظهار ، تنزيلا للقول منزلة المقول فيه نحو ما ذكرنا في قوله تعالى (وزنه ما يقول) ويكون المعنى : ثم يريدون العود للتاس . والماسة : الاستمتاع بها من جماع ، أو لمس بشهوة ، أو نظر إلى فرجها لشهوة ^(١) (ذالكم) الحكم (توعظون به) لأن الحكم بالكفارة دليل على ارتكاب الجناية ، فيجب أن تتعظوا بهذا الحكم حتى لا تعودوا إلى الظهار وتحافوا عقاب الله عليه . فإن قلت : هل يصح الظهار بغير هذا اللفظ ؟ قلت : نعم إذا وضع مكان أنت عضواً منها يعبر به عن الجملة كالرأس والوجه والرقبة والفرج ، أو مكان الظهر عضواً آخر يحرم النظر إليه من الأم كالبطن والفخذ . ومكان الائم ذات رحم محرم منه من نسب أو رضاع أو صهر أو جماع . نحو أن يقول : أنت على كظهر أختي من الرضاع

== الآخر بين فإن الوطء في خلال كل واحدة منهما يوجب إبطالها واستئناف أخرى ، هل أن أبا حنيفة سوى بين الثلاث في تحريم المساس قبل حصولها كاملة ، كذا نقل الزعشم عنه . ولقائل أن يقول على أبي حنيفة : إذا جمعت الفائدة في ذكر عدم التماس في بعضها وإسقاطه من بعضها الفرق بين أنواعها ، فلم صرفت الفرق إلى أحد الحكمين وهو إيجاب الاستئناف بالوطء في خلال الكفارة في بعضها دون البعض دون الحكم الآخر وهو تحريم التماس قبل الشروع في الكفارة ، فما يخصص أحد الحكمين دون الآخر إلا النوع من التحكم . وله أن يقول : انفقنا على التسوية فيه فتمين صرفه إلى الآخر هذا منتهى النظر مع أبي حنيفة ؛ ورأى القائلون بأن الطعام يطل بتخلل الوطء في أثناءه كالصيام : أن فائدة ذكره عدم الماسة ، ثم إسقاطه للتنبه على التسوية بين التكفير قبل وبعد . وتقريره : أن ذكره مع الاثنين كذكره مع الثالث ، وإطلاق الثالث كإطلاق الاثنين ، فكأنه قال في الجميع : من قبل أن يتناسا ومن بعد . وانطوى إيراد الآية على هذا الوجه على إبطال قول من قال : إن الأمر يختلف بين ما قبل التماس وما بعده فيجب قبل ويسقط بعد ، وعلى قول من قال : يجب قبل كفارة وبعد كفارتان ، وهما نظر آخر : في أنه لم ذكر عدم التماس مع نوعين منها ، وقد كان ذكره مع واحد منها مفيداً لهذه الفائدة على التقرير المذكور . والجواب عنه : أن ذكره مع العتق مقتصر على إعادة تحريم الوطء قبل العتق ، ولا يتصور في العتق الوطء في أثناءه ، إذ لا يقيض ولا يفرق ، فاحتيج إلى ذكره مع الصيام الواقع على التوالي ليفيد تحريم الوطء قبل الشروع فيه وبعد الشروع إلى التماس ، إذ لو لم يذكره هنا لتوهم أن الوطء إنما يحرم قبل الشروع خاصة لا بعد ، لأنها هي الحالة التي دل عليها التقيد في العتق ، فلما ذكره مع الصيام الواقع متوالياً : استغنى عن ذكره مع الطعام لأنه مثله في التعدد والتوالي وإمكان الوطء في خلاله ، وهذا التقرير منزل على أن العتق لا يشترط ولا يقيض ، وهذا هو المرضي . وقد نقل العيني عن ابن القاسم أن من اعتق شقفاً من عبد يملك جميعه ثم اعتق بقبته عن الظهار : أن ذلك يجزئ ، وهو خلاف أصله في المدونة ، وعابه عليه أصبغ وسخون وابنه . (تنبيه) إن قال قائل بارتفاع التحريم بالكفارة لا يخلو ، إيمان يكون مشروطاً فيلزم أن لا يرتفع التحريم بالكفارة التي تقدم على الشروع فيها مساساً ، وإن لم يكن مشروطاً لزم ارتفاع التحريم بالكفارة التي تخللها المساس ، وكلاهما غير مقول به عندكم ؛ فالجواب : أن المساس مناف لصحة الكفارة واعتبارها في رفع التحريم ، فإن وقع قبل الشروع في الكفارة تعذر الحكم بإبطال الكفارة : لأن العمل لم يوجد ، وتعذر ذلك لإبطال الحكم ككونه منافياً : إيمان وقع في أثناءها : فالعمل المحكوم فيه بعدم الصحة قائم ، فوجب إعمال المنافي ، وهذا كالحديث مناف لصحة الصلاة : فإن وقع في أثناءها أثر في إبطالها ، والله تعالى الموفق للصواب .

(١) قوله «أو نظر إلى فرجها لشهوة» عبارة التسنن بشهوة . (ع)

أو عمتي من النسب أو امرأة ابني أو أمي أو أم امرأتي أو بنتها ، فهو مظاهر . وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه . وعن الحسن والنخعي والزهري والأوزاعي والثوري وغيرهم نحوه . وقال الشافعي : لا يكون الظهار إلا بالآتم وحدها وهو قول قتادة والشعبي . وعن الشعبي : لم ينس الله أن يذكر البنات والأخوات والعلمات والخالات ؛ إذ أخبر أن الظهار إنما يكون بالآتمهات والمولات دون المرضعات . وعن بعضهم : لا بد من ذكر الظهر حتى يكون ظهاراً . فإن قلت : فإذا امتنع المظاهر من الكفارة ، هل للمرأة أن ترافقه ؟ قلت : لها ذلك . وعلى القاضي أن يجبره على أن يكفر ، وأن يجبره ؛ ولا شيء من الكفارات يجبر عليه ويجبس إلا كفارة الظهار وحدها ، لأنه يضرّ بها في ترك التكفير والامتناع من الاستمتاع ، فيلزم إيفاء حقها . فإن قلت : فإن مسّ قبل أن يكفر ؟ قلت : عليه أن يستغفر ولا يعود حتى يكفر ، لما روى أن سلة بن صخر البياضي قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ظهرت من امرأتي ثم أبصرت خلخالها في ليلة قرأ فواقعتها ، فقال عليه الصلاة والسلام : « استغفر ربك ولا تعد حتى تكفر »^(١) . فإن قلت : أي رقبة تجزئ في كفارة الظهار ؟ قلت : المسلة والكافرة جميعاً ، لأنها في الآية مطلقة . وعند الشافعي لا تجزئ إلا المؤمنة . لقوله تعالى في كفارة القتل . فتحريم رقبة مؤمنة ولا تجزئ أمّ الولد والمدير والمكاتب الذي أذى شيئاً ، فإن لم يؤد شيئاً جاز . وعند الشافعي : لا يجوز : فإن قلت : فإن أعق بعض الرقبة أو صام بعض الصيام ثم مس ؟ قلت : عليه أن يستأنف - نهارة مس - أو ليلاً - ناسياً أو عامداً - عند أبي حنيفة ، وعند أبي يوسف ومحمد : عتق بعض الرقبة عتق كلها فيجزيه ، وإن كان المسّ يفسد الصوم استقبال ، وإلا بئ . فإن قلت : كم يعطى المسكين في الإطعام ؟ قلت : نصف صاع من برّ أو صاعاً من غيره عند أبي حنيفة ، وعند الشافعي مداً من طعام بلده الذي يقتات فيه . فإن قلت : ما بال التماس لم يذكر عند الكفارة بالإطعام كما ذكر عند الكفارتين ؟ قلت : اختلف في ذلك ، فعند أبي حنيفة : أنه لا فرق بين الكفارات الثلاث في وجوب تقديمها على المساس ، وإنما ترك ذكره عند الإطعام دلالة على أنه إذا وجد في خلال الإطعام لم يستأنف كما يستأنف الصوم إذا وقع في خلاله . وعند غيره : لم يذكر للدلالة على أن

(١) لم أره بهذا اللفظ وهو في السنن الأربعة من طريق الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس « أن رجلاً طاهر من أمراته ، ثم واقعها قبل أن يكفر فأقى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال : ما حلك على ما صنعت ؟ قال : رأيت بياض ساقها في القمر . قال : فاعتزلها حتى تكفر عنك » وللقزويني « قال : رأيت خلخالها في القمر . قال : فلا تقرها حتى تفعل ما أمرك الله » أخرجه من رواية الفضل بن موسى عن معمر عنه موصولاً ، وأبو داود والنسائي من رواية عبد الرزاق عن معمر مرسلين . قال النسائي : هذا أولى بالصواب ولا يروى في داود والقزويني من حديث سلة بن صخر بن البياضي قال : كنت امرأة استكثرت من النساء . فذكر القصة مطولة ، وليس فيها « استغفر الله » إلى آخره .

التكفير قبله وبعده سواء . فإن قلت : الضمير في أن يتأسا لإلام يرجع ؟ قلت : إلى ما دلّ عليه الكلام من المظاهر والمظاهر منها ﴿ ذلك ﴾ البيان والتعليم للأحكام والتنبية عليها لتصدقوا ﴿ بالله ورسوله ﴾ في العمل بشرائعه التي شرعها من الظهار وغيره ، ورفض ما كنتم عليه في جاهليتكم ﴿ وتلك حدود الله ﴾ التي لا يجوز تعديها ﴿ وللكافرين ﴾ الذين لا يتبعونها ولا يعملون عليها ﴿ عذاب أليم ﴾ .

إِنَّ الَّذِينَ يُرَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُتِبَتْ لَهُمْ سَبِيلٌ مِّنْ قَبْلِهِمْ وَكَذَلِكَ أُتِيَ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَمْثَلُ اللَّهُ نَسْوَهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾

﴿ يحادون ﴾ يعادون ويشاقون ﴿ كتبوا ﴾ أخطوا وأهلكوا ﴿ كما كتبت ﴾ من قبلهم من أعداء الرسل . قيل : أريد كتبهم يوم الخندق ﴿ وقد أنزلنا آيات بينات ﴾ تدل على صدق الرسول وصحة ما جاء به ﴿ وللكافرين ﴾ بهذه الآيات ﴿ عذاب مهين ﴾ يذهب بعزهم وكبرهم ﴿ يوم يبعثهم ﴾ منصوب بلهم . أو يهين . أو ياخمار اذكر تعظيما لليوم ﴿ جميعا ﴾ كلهم لا يترك منهم أحد غير مبعوث . أو مجتمعين في حال واحدة ، كما تقول : حتى جميع ﴿ فينبئهم بما عملوا ﴾ تخجيلا لهم وتوبيخا وتشهيرا بحالهم ، يتمنون عنده المسارعة بهم إلى النار ، لما يلحقهم من الخزي على رؤوس الأشهاد ﴿ أمثله الله ﴾ أحاط به عددا لم يفقه منه شيء ﴿ ونسوه ﴾ لأنهم تهاونوا به حين ارتكبه لم يبالوا به لضرارتهم بالمعاصي ، وإنما تحفظ معظمت الأمور .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾

﴿ ما يكون ﴾ من كان التامة . وقرئ بالياء والياء ، والياء على أن النجوى تأنيها غير حقيق ومن فاصلة . أو على أن المعنى ما يكون شيء من النجوى . والنجوى : التناجى ، فلا تخلو إما أن تكون مضافة إلى ثلاثة ، أى : من نجوى ثلاثة نفر . أو موصوفة بها ، أى : من أهل نجوى ثلاثة ، لحذف الأهل . أو جعلوا نجوى في أنفسهم مباينة ، كقوله تعالى : خلصوا نجيا . وقرأ ابن أبي عمير : ثلاثة وخمسة ، بالنصب على الحال ياخمار يتناجون ؛ لأن نجوى يدل عليه . أو

على تأويل نجوى بمتناجين ، ونصها من المستكن فيه . فإن قلت : ما الداعي إلى تخصيص الثلاثة والخمسة ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن قوما من المنافقين تحلقوا للتناجى مغايطة للمؤمنين على هذين العددين : ثلاثة وخمسة ، فقليل : ما يتناجى منهم ثلاثة ولا خمسة كما ترونهم يتناجون كذلك (ولا أدنى من) عددهم (ولا أكثر إلا) والله معهم يسمع ما يقولون ، فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنه : أنها نزلت فى ربيعة وحبيب ابني عمرو وصفوان بن أمية : كانوا يروا ما يتحدثون ، فقال أحدهم : أترى أن الله يعلم ما نقول ؟ فقال الآخر : يعلم بعضا ولا يعلم بعضا . وقال الثالث : إن كان يعلم بعضا فهو يعلم كله ؛ وصدق . لأن من علم بعض الأشياء بغير سبب فقد علمها كلها لأن كونه عالما بغير سبب ثابت له مع كل معلوم ، والثاني : أنه قصد أن يذكر ما جرت عليه العادة من أعداد أهل التجوى والمتخالين للشورى والمندبون^(١) لذلك ليسوا بكل أحد وإنما هم طائفة مجتباة من أولى النهى والأحلام ، ورهط من أهل الرأى والتجارب ، وأول عددهم الاثنان فصاعداً إلى خمسة إلى ستة إلى ما اقتضته الحال وحكم الاستصواب . ألا ترى إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه كيف ترك الأمر شورى بين ستة ولم يتجاوز بها إلى سابع ، فقد كرر عز وعلا الثلاثة والخمسة وقال (ولا أدنى من ذلك) فدل على الاثنى والأربعة وقال (ولا أكثر) فدل على ما يلى هذا العدد ويقاربه . وفى مصحف عبد الله : إلا الله رابعهم ، ولا أربعة إلا الله خامسهم ، ولا خمسة إلا الله سادسهم ، ولا أقل من ذلك ولا أكثر إلا الله معهم إذا انتجوا . وقرئ : ولا أدنى من ذلك ولا أكثر ، بالنصب على أن لا لثنى الجنس . ويجوز أن يكون : ولا أكثر ، بالرفع معطوفاً على محل (لا) مع أدنى ، كقولك : لا حول ولا قوة إلا بالله ، بفتح الحول ورفع القوة . ويجوز أن يكونا مرفوعين على الابتداء ، كقولك : لا حول ولا قوة إلا بالله ، وأن يكون ارتفاعهما عطفاً على محل (من نجوى) كأنه قيل : ما يكون أدنى ولا أكثر إلا هو معهم . ويجوز أن يكونا مجرورين^(٢) عطفاً على نجوى ، كأنه قيل : ما يكون من أدنى ولا أكثر إلا هو معهم . وقرئ : ولا أكبر ، بالباء . ومعنى كونه معهم : أنه يعلم ما يتناجون به ولا يخفى عليه ما هم فيه ، فكأنه مشاهدهم ومحاضرهم ، وقد تعالى عن المكان والمشاهدة . وقرئ : ثم ينبئهم ، على التخفيف .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ هُؤْلُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَؤُودُونَ لِمَا هُؤْلُوا عَنْهُ وَيَنْتَجِبُونَ
بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَقْصِيَتِ الرَّسُولِ إِذَا جَاءَهُكَ حُجُوكَ يَمَّا لَمْ يُحْيِكَ بِهِ اللَّهُ

(١) قوله «والمندبون لذلك» لعل أصله : (المندبون) ، فأدغم . (ع)

(٢) قوله «ويجوز أن يكونا مجرورين» على قراءة (أكثر) بفتح الراء . (ع)

وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا

فَيُنْصَلِّ الْمَصِيرُ ٨

كانت اليهود والمنافقون يتناجون فيما بينهم ويتغامزون بأعينهم إذا رأوا المؤمنين، يريدون أن يغيظوهم، فهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فعادوا لمثل فعلهم، وكان تناجيهم بما هو إثم وعدوان للمؤمنين وتواصل بمعصية الرسول ومخالفته. وقرئ: ينتجون بالإثم والعدوان، بكسر العين، ومعصيات الرسول (حيث لم يحيك به الله) يعني أنهم يقولون في تحيتك: السام عليك يا محمد؛ والسام: الموت؛ والله تعالى يقول (وسلام على عباده الذين اصطفى) و(يا أيها الرسول) و(يا أيها النبي): (لولا يعذبنا الله بما نقول) كانوا يقولون: ماله إن كان نبياً لا يدعو علينا حتى يعذبنا الله بما نقول، فقال الله تعالى (حسبهم جهنم) عذاباً.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّجُوا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ

الرُّسُولِ وَتَنَجَّجُوا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَآتَقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُعْشِرُونَ ٩

إِنَّمَا الْمُنَجَّوِيُّ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا

بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ١٠

(يا أيها الذين آمنوا) خطاب للمنافقين الذين آمنوا بالستهم. ويجوز أن يكون للمؤمنين، أى: إذا تناجيتم فلا تشبهوا بأولئك في تناجيهم بالشر (وتناجوا بالبر والتقوى) وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجأون دون صاحبهما فإن ذلك يحزنه»^(١) وروى دون الثالث. وقرئ فلا تناجوا. وعن ابن مسعود: إذا انتجيتم فلا تنتجوا (إنما التجوى) اللام إشارة إلى التجوى بالإثم والعدوان، بدليل قوله تعالى (ليحزن الذين آمنوا) والمعنى: أن الشيطان يزينها لهم، فكأنها منه ليغيث الذين آمنوا ويحزنهم (وليس) الشيطان أو الحزن (بضارهم شيئاً إلا بإذن الله). فإن قلت: كيف لا يضرم الشيطان أو الحزن إلا بإذن الله؟ قلت: كانوا يوهمون المؤمنين في نجواهم وتغامزهم أن غراتهم غلبوا وأن أقاربهم قتلوا، فقال: لا يضرم الشيطان أو الحزن بذلك الموهم إلا بإذن الله، أى: بمشيئته، وهو أن يقضى الموت على أقاربهم أو الغلبة على الغزاة. وقرئ: ليحزن، وليحزن.

(١) متفق عليه وهذا اللفظ لمسلم من حديث ابن مسعود. وقوله: «وروى دون الثالث» هذا اللفظ للبخاري

(قائداً) أخرجه للدار من حديث ابن عمر نحوه - وزاد «إلا بآذنه» قلت: «كانوا أربعة» قال: «لا بأس به».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾

(تفسحوا في المجلس) توسعوا فيه وليفسح بعضكم عن بعض ، من قولهم : أفسح عني ، أى : تنح ؛ ولا تتضايقوا . وقرئ : تفاسحوا . والمراد : مجلس رسول الله ، وكانوا يتضايقون فيه تنافسا على القرب منه ، وحرصا على استماع كلامه . وقيل : هو المجلس من مجالس القتال ، وهى مراكز الغزاة ، كقوله تعالى (مقاعد للقتال) وقرئ : في المجالس . قيل : كان الرجل يأتى الصف فيقول : تفسحوا ، فيأبون لحرصهم على الشهادة . وقرئ : في المجلس - بفتح اللام : وهو الجلوس ، أى : توسعوا في جلوسكم ولا تتضايقوا فيه (يفسح الله لكم) مطلق في كل ما يبتغى الناس الفسحة فيه من المسكان والرزق والصدر والقبور وغير ذلك (انشزوا) انهمضوا للتوسعة على المقبلين . أو انهمضوا عن مجلس رسول الله إذا أمرتم بالتهوض عنه ، ولا تملوا رسول الله بالارتكاز فيه : أو انهمضوا إلى الصلاة والجهاد وأعمال الخير إذا استنهضتم ، ولا تثبطوا ولا تفرطوا (يرفع الله) المؤمنين بامتنال أو امره وأوامر رسوله ، والعالمين منهم خاصة (١) (درجته والله بما تعملون) قرئ بالتاء والياء . عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : أنه كان إذا قرأها قال يا أيها الناس افهموا هذه الآية ولترغبكم في العلم . وعن النبي صلى الله عليه وسلم بين العالم والعابد مائة درجة بين كل درجتين حشر الجواد المضمر (٢) سبعين سنة (٣) . وعنه عليه السلام : فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، (٤) وعنه

(١) قال محمود : « فيه تعميم تم تخصيص العلماء ... الخ » قال أحد : في الجزاء رفع الدرجات ههنا مناسبة للعمل لأن المأمور به تفسيح المجلس كيلا يتنافسوا في القرب من المكان الرفيع حوله عليه الصلاة والسلام فيتضايقوا ؛ فلما كان الممثل لذلك يخفض نفسه مما يتنافس فيه من الرفعة امثالاً وتواضعا : جوزى على تواضعه برفع الدرجات كقوله : « من تواضع لله رفعه الله » ؛ ثم لما علم أن أهل العلم يحببت يستوجبون عند أنفسهم وعند الناس ارتفاع مجالسهم ، خصهم بالذكر عند الجزاء ليسهل عليهم ترك ما لم من الرفعة في المجلس تواضعا لله تعالى .

(٢) قوله « حشر الجواد المضمر » الذى في الصحاح : أحضر الفرس إحضارا ، واحتضر : أى عدا ، واستحضرت : أعديته ، وفرس محضير : أى كثير العدو أم (ع)

(٣) أخرجه أبو يعلى وابن عدى من رواية عباد بن حمزة عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة ، وعبد الله بن عمر - بهملات - : ساقط الحديث ، وذكر ابن عبد البر في العلم أن ابن عون رواه عن ابن سيرين عن أبي هريرة ، فينظر من خرج . وفى الباب عن ابن عمر بن العاص فى الترغيب للأصبهاني .

(٤) أخرجه أصحاب السنن الأربعة من حديث أبي الدرداء رضى الله عنه ،

عليه السلام، يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء، ^(١) فأعظم بمرتبة هي واسطة بين النبوة والشهادة بشهادة رسول الله. وعن ابن عباس: خير سليلان بين العلم والمال والمالك، فاختار العلم فأعطى المال والمالك معه ^(٢). وقال عليه السلام: أوحى الله إلى إبراهيم: يا إبراهيم، إني عليم أحب كل عليم ^(٣)، وعن بعض الحكماء: ليت شعري أى شيء أدرك من فاته العلم، وأى شيء فات من أدرك العلم. وعن الأحنف: كاد العلماء يكونون أربابا، وكل عز لم يوطد ^(٤) بعلم فإلى ذل ما يصير. وعن الزبيرى ^(٥) العلم ذكر فلا يجبه إلا ذكورة الرجال.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَجَسَّسْتُمُ الرُّسُلَ فَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ
صَدَقَ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ^(١٢)
أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَتْ فَأَذْ لَمْ يَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ
عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَهُ خَيْرٌ

بِمَا تَعْمَلُونَ ^(١٣)

(بين يدي نجواكم) استعارة من له يدان. والمعنى: قبل نجواكم كقول عمر: من أفضل ما أوتيت العرب الشعر، يقدمه الرجل أمام حاجته فيستمطر به الكريم ويستنزل به ^(١) اللهم، يريد: قبل حاجته (ذلكم) التقديم (خير لكم) في دينكم (وأطهر) لأن الصدقة طهرة. روى أن الناس أكثر ما نجا رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يريدون حتى أملاه وأبرموه ^(٢)، فأريد أن يكفوا عن ذلك، فأمروا بأن من أراد أن ينال به قدم قبل مناجاته صدقة. قال على رضي الله عنه: لما نزلت دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ما تقول في دينار؟

(١) أخرجه ابن ماجه وأبو يعلى وابن عدى والبيهقي في الشعب من حديث عثمان. وفيه عتبه بن عبدالرحمن القرظي، وهو متروك.

(٢) ذكره صاحب الفردوس هكذا، وذكره قبله ابن عبد البر في كتاب العلم بلا إسناد.

(٣) أخرجه ابن عبد البر في العلم قال: روى عن النبي صلى الله عليه وسلم - فذكره بغير إسناد.

(٤) قوله «وكل عز لم يوطد بعلم» في الصحاح: وطدت الشيء، أى: أثبتته وثقلته. (ع)

(٥) قوله «وعن الزبيرى: العلم ذكر» قوله الزبيرى: هو أبو أحمد محمد بن عبد الله بن الزبير مولى لبنى أسد، وليس من ولد الزبير بن العوام، كذا في الهداية والإرشاد اهـ من هامش. (ع)

(٦) لم أجده.

(٧) قوله «حتى أملاه وأبرموه» في الصحاح: أبرمه، أى: أملاه وأضرجه اهـ. (ع)

قلت : لا يطيقونه . قال : كم ؟ قلت : حبة أو شعيرة ؛ قال : إنك لرهيد . فلما رأوا ذلك : اشتد عليهم فارتدعوا وكفوا . أما الفقير فلعسرت ، وأما الغني فلتشحه^(١) . وقيل : كان ذلك عشر ليال ثم نسخ . وقيل : ما كان إلا ساعة من نهار . وعن علي رضي الله عنه : إن في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدى : كان لي دينار فصرفته ، فكنت إذا ناجيته تصدقت بدرهم^(٢) . قال الكلبي : تصدق به في عشر كلمات سألهن رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣) . وعن ابن عمر : كان لعلي ثلاث : لو كانت لي واحدة منهن كانت أحب إلي من حر النعم : تزويجه فاطمة ، وإعطاؤه الراية يوم خيبر ، وآية النجوى . قال ابن عباس : هي منسوخة بالآية التي بعدها ، وقيل : هي منسوخة بالزكاة (أشققتم) أخفتم تقديم الصدقات لما فيه من الإتفاق الذي تكرهونه ، وأن الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء (فإذا لم تفعلوا) ما أمرتم به وشق عليكم ، و(تاب الله عليكم) وعذركم ورخص لكم في أن لا تفعلوه ، فلا تفرطوا في الصلاة والزكاة وسائر الطاعات (بما تعملون) قرئ بالتاء والياء .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَآءُ مِّنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَخْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٤ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٥ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝١٦ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١٧ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَافِرُونَ ۝١٨ اسْتَعْوَذَ

(١) قلت : هذا ملحق من حديثين . فمن قوله وقال علي إنك لرهيد ، أخرجه الترمذي وابن حبان وأبو يعلى والبراز من رواية علقمة الانباري عن علي به وأتم منه . وقال بعد قوله «إنك لرهيد» : فزلت أشققتم الآية . قال : فتى خفف الله عن هذه الآية ، قال الترمذي : حسن قريب : إنما نعرفه من هذا الوجه . وقال البراز : لا يحفظ إلا عن علي بهذا الاسناد . وأما قوله وآخره فأخرجه الطبري وابن مردويه من رواية علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية قال : وإن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى شقوا عليه . فأراد الله أن يخفف عن نبيه صلى الله عليه وسلم ، فلما قال ذلك من كثير من الناس بأموالهم ، فكلف كثير من الناس عن المسألة . فأمر الله تعالى بعد هذا (فإن لم تفعلوا وتاب الله عليكم - الآية) فوسع الله عليهم .

(٢) أخرجه الحاكم من طريق عبد الرحمن بن أبي ليلى عن علي به وأتم منه . وأخرجه ابن أبي شيبة من رواية ليث بن أبي سليم عن علي بلقط المصنف .

(٣) لم أجده .

عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَأَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾

كان المنافقون يقولون اليهود وهم الذين غضب الله عليهم في قوله تعالى (من لعنه الله وغضب عليه) ويتناصحونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين (ما هم منكم) يا مسلمون (ولا منهم) ولا من اليهود، كقوله تعالى (مبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء). (ويحلفون على الكذب) أى يقولون: والله إنما مسلمون، فيحلفون على الكذب الذى هو ادعاء الإسلام (وهم يعلمون) أن المحلوف عليه كذب بحت. فإن قلت: فافائدة قوله (وهم يعلمون)؟ قلت: الكذب: أن يكون الخبر لا على وفاق الخبر عنه، سواء علم الخبر أو لم يعلم، فالغنى: أنهم الذين يخبرون وخبرهم خلاف ما يخبرون عنه، وهم عالمون بذلك متعمدون له، كمن يحلف بالغموس^(١). وقيل: كان عبدالله بن نبتل المنافق يحالس رسول الله^(ص) صلى الله عليه وسلم، ثم يرفع حديثه إلى اليهود، فبينما رسول الله في حجرة من حجره إذ قال لأصحابه: يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار وينظر بعين شيطان، فدخل ابن نبتل وكان أزرق، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: علام تشتمنى أنت وأصحابك؟ خلف بالله ما فعل، فقال عليه السلام: فعلت، فانطلق فجاء بأصحابه، خلفوا بالله ما سبه، فنزلت (عذابا شديدا) نوعا من العذاب متفاقما (إنهم ساء ما كانوا يعملون) يعنى أنهم كانوا في الزمان الماضى المتطاوّل على سوء العمل مصرين عليه. أو هي حكاية ما يقال لهم في الآخرة. وقرئ: إيمانهم؛ بالكسر، أى: اتخذوا إيمانهم التى خلفوا بها. أو إيمانهم الذى أظهروه (جنة) أى ستره يتسترون بها من المؤمنين ومن قتلهم (فصدوا) الناس في خلال أمنهم وسلامتهم (عن سبيل الله) وكانوا يتبطون من لقوا عن الدخول في الإسلام ويضعفون أمر المسلمين عندهم. وإنما وعدهم الله العذاب المهيّن المخزى لكفرهم وصددهم، كقوله تعالى (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب). (من الله) من عذاب الله (شيئا) قليلا من الإغناء. وروى أن رجلا منهم قال:

(١) قوله (وكن يحاف بالغموس) في الصحاح: الأمر الغموس: الشديد. واليمين الغموس: التى تنفخ صاحبها في الأثم. (ع)

(٢) لم أجده هكذا. وروى أحمد والبخاري والطبراني والطبري وابن أبي حاتم والحاكم من رواية سماك بن ابن جبير عن ابن عباس قال (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في ظل حجرة وقد كاه الغزال أن يتخلص، فقال: إنه سيأتيكم إنسان، فينظر إليكم بعين شيطان. فإذا جاءكم فلا تكلموه. فلم يلبث أن طلع عليهم رجل أزرق أعور فقال حين رآه: علام تشتمنى أنت وأصحابك؟ فقال: ذرى آتيكم بهم فانطلق فدعاهم خلفوا ما قالوا وما فعلوا. فأبزل الله تعالى الآية، لفظ الحاكم.

لننصرن يوم القيامة بأنفسنا وأموالنا وأولادنا (فيحلفون) لله تعالى على أنهم مسلمون في الآخرة (كما يحلفون لكم) في الدنيا على ذلك (ويحسبون أنهم على شيء) من النفع، يعني: ليس العجب من حلفهم لكم، فإنكم بشر تخفى عليكم السرائر، وأن لهم نفعاً في ذلك دفعاً عن أرواحهم واستجرار فوائد دنيوية، وأنهم يفعلونه في دار لا يضطرون فيها إلى علم ما يوعدون، ولكن العجب من حلفهم لله عالم الغيب والشهادة مع عدم النفع والاضطرار إلى علم ما أئذرتهم الرسل، والمراد: وصفهم بالتوغل في نفاقهم ومروءتهم عليه، وأن ذلك بعد موتهم وبعثهم باق فيهم لا يضمحل، كما قال (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه) وقد اختلف العلماء في كذبهم في الآخرة، والقرآن ناطق بثباته قطعاً مكشوفاً. كما ترى في هذه الآية وفي قوله تعالى (والله ربنا ما كنا مشركين انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون) ونحو حسابهم أنهم على شيء من النفع إذا حلفوا استنظارهم المؤمنين ليقتبسوا من نورهم، لحسبان أن الإيمان الظاهر بما ينفعهم. وقيل عند ذلك: يختم على أفواههم (ألا إنهم هم الكاذبون) يعني أنهم الغاية التي لا مطمح وراءها في قول الكذب، حيث استوت حالهم فيه في الدنيا والآخرة (استحوذ عليهم) استولى عليهم. من جاذ الحمار العانة^(١) إذا جمعها وساقها غالباً لها. ومنه: كان أحوزياً نسيج وحده، وهو أحد ما جاء على الأصل، نحو: استصوب واستنوق، أي: ملكهم (الشیطان) اطاعتهم له في كل ما يريده منهم، حتى جعلهم رعيته وحزبه (فأنساهم) أن يذكروا الله أصلاً لا بقلوبهم ولا بألسنتهم. قال أبو عبيدة: حزب الشيطان جنده.

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ٣٠

(في الأذلين) في جملة من هو أذل خلق الله لا ترى أحداً أذل منهم.

كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ٣١

(كتب الله) في اللوح (لأغلبن أنا ورسلي) بالحجة والسيف. أو بأحدهما.

لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

(١) قوله «العانة» هي القطيع من حمر الوحش، كما في الصحاح. (ع)

خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ
هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

(لا تجدد قوماً) من باب التخييل . خيل أن من الممتنع المحال : أن تجد قوماً مؤمنين يوالون المشركين . والغرض به أنه لا ينبغي أن يكون ذلك ، وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال ، مبالغة في النهي عنه والزجر عن ملاسته ، والتوصية بالتصلب في مجانبة أعداء الله ومباعدتهم والاحتراس من مخالطتهم ومعاشرتهم ، وزاد ذلك تأكيداً وتشديداً بقوله (ولو كانوا آباءهم) وبقوله (أولئك كتب في قلوبهم الإيمان) وبمقابلة قوله (أولئك حزب الشيطان) بقوله (أولئك حزب الله) فلا تجد شيئاً أدخل في الإخلاص من موالاته أولياء الله ومعاداة أعدائه ، بل هو الإخلاص بعينه (كتب في قلوبهم الإيمان) أثبتته فيها بما وفقهم فيه وشرح له صدورهم (وأيدم بروح منه) بلطف من عنده حيث به قلوبهم . ويجوز أن يكون الضمير للإيمان ، أي : بروح من الإيمان ، على أنه في نفسه روح لحياة القلوب به . وعن الثوري أنه قال : كانوا يرون أنها نزلت فيمن يصحب السلطان . وعن عبد العزيز بن أبي رواد : أنه لقيه المنصور في الطواف فلما عرفه هرب منه وتلاها . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه كان يقول : اللهم لا تجعل لفاجر ولا لفاسق عندي نعمة ، ^(١) فإني وجدت فيها أوحيت إلي : لا تجد قوماً . وروى أنها نزلت في أبي بكر رضي الله عنه ، وذلك أن أبا قحافة سب رسول الله صلى الله عليه وسلم فصكه صكة سقط منها ، فقال له رسول الله : أو فعلته ؟ قال : نعم ، قال : ولا تعد ، قال : والله لو كان السيف قريباً مني لقتلته . ^(٢) وقيل في أبي عبيدة بن الجراح : قتل أباه عبد الله الجراح يوم أحد . وفي أبي بكر : دعا ابنه يوم بدر إلى البراز ، وقال لرسول الله : دعني أكثر في الرعدة ^(٣) الأولى ؛ قال : متعنا بنفسك يا أبا بكر ، أما تعلم أنك عندي بمنزلة تسمى وبصري . ^(٤) وفي مصعب بن عمير : قتل أخاه عبيد بن عمير يوم أحد . وفي عمر : قتل خاله العاص بن هشام يوم بدر . وفي علي وحزمة وعبيدة بن الحارث : قتلوا عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة يوم بدر . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرأ سورة المجادلة كتب من حزب الله يوم القيامة ، ^(٥)

(١) ذكره صاحب الفردوس من حديث معاذ . وأورده ابن مردويه من رواية جعفر الأحمر عن كثير بن عطية عن رجل قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يذكر ولا لفاسق .

(٢) نقله الثعلبي عن ابن جريج قال : حدثت أن أبا قحافة ... فذكره .

(٣) قوله (دعني أكثر في الرعدة) هي القطعة من الخيل ، كما في الصحاح . (ع)

(٤) هو في تفسير مقاتل بن حيان عن مرة الهمداني عن ابن مسعود ، وذكره الثعلبي عن تفسير مقاتل .

(٥) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدى بإسنادهم إلى أبي بن كعب رضي الله عنه .

سورة الحشر

مدنية ، وهي أربع وعشرون آية [نزلت بعد البينة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَمِيعَ اللَّهِ مَافِي السَّمَوَاتِ وَمَافِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي
أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ
يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا
وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا

يَسْأُولِي الْأَبْصَرِ ﴿٢﴾

صالح بنو النضير رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا يكونوا عليه ولا له ، فلما ظهر يوم
بدر قالوا : هو النبي الذي نفعه في التوراة لا ترد له راية ، فلما هزم المسلمون يوم أحد ارتابوا
ونكثوا ، فخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكبا إلى مكة خالفوا عليه قريشا عند الكعبة
فأمر عليه السلام محمد بن مسلمة الأنصاري فقتل كعبا غيلة وكان أخاه من الرضاة ، ثم صبحهم
بالكتائب وهو على حمار مخطوم بليف فقال لهم : اخرجوا من المدينة ، فقالوا : الموت أحب
إلينا من ذلك ، فتنادوا بالحرب . (١) وقيل : استمهلوا رسول الله عشرة أيام ليتجهزوا
للخروج ، فدرس عبد الله بن أبي المنافق وأصحابه إليهم : لا تخرجوا من الحصن فإن قاتلوكم
فنحن معكم لا نخذلكم ، ولئن خرجتم لنخرجن معكم ، فدرّبوا على الأزقة (٢) وحصنوها
فحاصروهم إحدى وعشرين ليلة ، فلما قذف الله الرعب في قلوبهم وأيسوا من
نصر المنافقين : طلبوا الصلح ، فأبى عليهم إلا الجلاء : على أن يحمل كل ثلاثة آيات
على بعير ما شاؤوا من متاعهم فجلّوا إلى الشام إلى أريحا وأذرع ، إلا أهل بيتين منهم : آل

(١) لم أجد له إسنادا ، بل ذكره التلمبي هكذا بغير سند .

(٢) قوله « فدرّبوا على الأزقة » أي ضيقوا أفواها بالحطب والحجارة كما يؤخذ مما ساق في تخريبهم بيوتهم

بأيديهم . وفي الصحاح « الدرب » : المضيق في الجبل . (ع)

أبي الحقيق وآل حبي بن أخطب ، فإنهم لحقوا بخيبر ولحقت طائفة بالحيرة . اللام في (لأول الحشر) تتعلق بأخرج . وهي اللام في قوله تعالى (باليتنى قدمت لحياقي)^(١) وقولك : جنته لوقت كذا . والمعنى : أخرج الذين كفروا عند أول الحشر . ومعنى أول الحشر : أن هذا أول حشرهم إلى الشام ، وكانوا من سبط لم يصعب جلاء قط . وهم أول من أخرج من أهل الكتاب من جزيرة العرب إلى الشام . أو هذا أول حشرهم : وآخر حشرهم : إجلاء عمر إياهم من خير إلى الشام . وقيل : آخر حشرهم حشر يوم القيامة ؛ لأن المحشر يكون بالشام . وعن عكرمة : من شك أن المحشر ههنا - يعني الشام - فليقرأ هذه الآية . وقيل : معناه أخرجهم من ديارهم لأول ما حشر قتالهم : لأنه أول قتال قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما ظننتم أن يخرجوا) لشدة بأسهم ومنعتهم . ووثاقة حصونهم ، وكثرة عددهم وعدتهم ، وظنوا أن حصونهم تمنعهم من بأس الله (فأتاهم) أمر الله (من حيث لم يحتسبوا) من حيث لم يظنوا ولم يخطر ببالهم : وهو قتل رئيسهم كعب بن الأشرف غزاة على يد أخيه . وذلك مما أضعف قوتهم وفل من شوكتهم ، وسلب قلوبهم الأمن والطمأنينة بما قذف فيها من الرعب ، وألهبهم أن يوافقوا المؤمنين في تخريب بيوتهم ويعينوا على أنفسهم ، وثبط المنافقين الذين كانوا يتولونهم عن مظاهرتهم . وهذا كله لم يكن في حسابهم . ومنه أتاهم الهلاك . فإن قلت : أى فرق بين قولك : وظنوا أن حصونهم تمنعهم أو ما نعمتهم ، وبين النظم الذى جاء عليه ؟ قلت : في تقديم الخبر على المبتدأ دليل على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها إياهم ؛ وفي تصوير ضميرهم اسما لأن وإسناد الجملة إليه : دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة لا يبالى معها بأحد يتعرض لهم أو يطمع في معازتهم^(٢) ؛ وليس ذلك في قولك : وظنوا أن حصونهم تمنعهم . وقرئ : فأتاهم الله ، أى : فأتاهم الهلاك . والرعب : الخوف الذى يرعب الصدر ، أى يملؤه ؛ وقذفه : إثباته وركزه . ومنه قالوا في صفة الاسد : مقذف ، كأنما قذف باللحم قذفا لا كتنازه وتداخل أجزائه . وقرئ : يخربون ويخربون ، مثقلا ومخففاً . والتخريب والإخراب : الإفساد بالنقض والهدم . والخربة : الفساد ، كانوا يخربون بواطنها والمسلمون ظواهرها ؛ لما أراد الله من استئصال شأقتهم^(٣) وأن لا يبقى لهم بالمدينة دار ولا منهم ديار ، والذى دعاهم إلى التخريب : حاجتهم إلى الخشب والحجارة

(١) قال محمود : « اللام في قوله (لأول الحشر) كاللام في قوله (قدمت لحياقي) قال أحد : كأنه يريد أنها اللام التى تصحب التاريخ ، كقوله : كتبت لعام كذا ولشهر كذا .

(٢) قوله « أريد طمع في معازتهم » أى مغالبتهم ، كما في الصحاح . (ج)

(٣) قوله « من استئصال شأقتهم » في الصحاح « الشأفة » : فرجة تخرج من أسفل القدم فتكوى فتذهب ، يقال في المثل : استأصل الله شأفته ، أى : أذهب الله كما أذهب تلك الفرجة بالكي اه . (ع)

ليسدوا بها أفواه الأزقة . وأن لا يتحسروا بعد جلائهم على بقائهم لئلا يكونوا للمسلمين ، وأن ينقلوا معهم ما كان في أبينتهم من جدد الخشب والساج المليح . وأما المؤمنون فداعيم إزالة متحصنهم ومنمنعهم ، وأن يتسع لهم مجال الحرب . فإن قلت : ما معنى تخريبهم لها بأيدي المؤمنين ؟ قلت : لما عرضهم لذلك وكانوا السبب فيه فكأنهم أمروهم به وكلفوهم إياه (فاعتبروا) بما دبر الله ويسر من أمر إخراجهم وتسليط المسلمين عليهم من غير قتال . وقيل : وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين أن يورثهم الله أرضهم وأموالهم بغير قتال ، فكان كما قال .

وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبُكُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ

شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾

يعنى : أن الله قد عزم على تطهير أرض المدينة منهم وإراحة المسلمين من جوارهم وتوريثهم أموالهم ، فلولا أنه كتب عليهم الجلاء واقتضته حكمته ودعاه إلى اختياره أنه أشق عليهم من الموت (لعذبهم في الدنيا) بالقتل كما فعل بإخوانهم بنى قريظة (ولهم) سواء أجلوا أو قتلوا (عذاب النار) يعنى : إن نجوا من عذاب الدنيا لم ينجوا من عذاب الآخرة .

مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ

وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾

(من لينة) بيان لما قطعتم . وعمل (ما) نصب بقطعتم ، كأنه قال : أى شئ قطعتم ، وأنث الضمير الراجع إلى ما في قوله (أو تركتموها) لأنه في معنى اللينة . واللينة : النخلة من الألوان ، ضروب النخل ما خلا العجوة ^(١) والبرنية ، وهما أجود النخيل ، وياؤها عن واو ، قلبت لكسرة ما قبلها ، كالديمة . وقيل : اللينة ، النخلة الكريمة ، كأنهم اشتقوها من اللين . قال ذو الرمة :

(١) ذكر الزمخشري فيه تفسيرين أحدهما أنه النخل ما عدا العجوة والبرنى وهما خير النخل ... الخ . قال أحد : والظاهر أن الإذن عام في القطع والترك ؛ لأنه جواب الشرط المضمر لها جميعاً ويكون التعليل بإجراء الفاسقين لها جميعاً ، وأن القطع يحسرم على ذهابها والترك يحسرم على بقائها للمسلمين ينتفعون بها . فهم في حسرتين من الأمرين جميعاً .

كَأَن قُتُوْدِي فَوْقَهَا عُشٌّ طَائِرٌ عَلَى لَيْنَةٍ سَوَّاءَ تَهْفُو جُنُوبَهَا (١)

وجمعها لين . وقرئ : قوما ، على أصلها . وفيه وجهان : أنه جمع أصل كرهن ورمه . أو اكتفى فيه بالضمة عن الواو . وقرئ : قائما على أصوله ذهابا إلى لفظ ما (فيأذن الله) فقطعها بإذن الله وأمره (وليخزي الفاسقين) ولبلد اليهود ويفظهم إذن في قطعها ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أمر أن تقطع نخلمهم وتحرق قالوا : يا محمد ، قد كنت تنهى عن الفساد في الأرض ، فما بال قطع النخل وتحريقها ؟ فكان في نفس المؤمنين من ذلك شيء (٢) . فنزلت ، يعني : أن الله أذن لهم في قطعها ليزيدكم غيظاً ويضاعف لكم حسرة إذا رايتموهم يتحكمون في أموالكم كيف أحبوا ويتصرفون فيها ما شاؤوا . وانفق العلماء أن حصون الكفرة وديارهم لا بأس بأن تهدم وتحرق وتفرق وترمى بالمجانيق . وكذلك أشجارهم لا بأس بقلعها ثمرة كانت أو غير ثمرة . وعن ابن مسعود : قطعوا منها ما كان موضعاً للقتال . فإن قلت : لم خصت اللينة بالقطع ؟ قلت : إن كانت من الألوان فليستبقوا لأنفسهم العجوة والبرنية ، وإن كانت من كرام النخل فليكون غيظ اليهود أشد وأشق . وروى أن رجلين كانا يقطعان : أحدهما العجوة ، والآخر اللون ، فسألها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هذا : تركتها لرسول الله ، وقال هذا : قطعتها غيظاً للكفار (٣) . وقد استدل به على جواز الاجتهاد ، وعلى جواز بحضرة الرسول صلى الله عليه وسلم : لأنهما بالاجتهاد فعلا ذلك ،

(١) لدى الرمة يصف ناقته : والقنود عيدان الرجل بلا أذانه . تتخذ من القنود وهو حجر صلب ذو شوك . واللينة : النخلة . والسوق : طويلة الساق . وهذا الريح والبصير يهفو : عدا بسرعة . والجنوب : نوع من الريح ، والضمير للينة : شبه عيدان الرجل فوق الناقة بعش الطائر فوق النخلة ، ويلزم من ذلك تشبيه الناقة بالنخلة في الطول والنجابة . وهو المقصود بقليل : إن استعمال التشبيه الأول في الثاني من باب المجاز ، أو إرادة الثاني من الأول من باب الكناية لم يكن بعيداً . وفي ذلك إشارة لتشبيهه بالطائر في الحذر واليقظ . وفي قوله « تهفو جنوبها » دلالة على سرعة سير الناقة ، واختراقها للرياح كسرعة سير الريح على النخلة ، فهي مخترقة له ، كأنها سائرة فيه بسرعة . (٢) أخرجه ابن إسحاق في المغازي والطبري من طريقه : حدثنا يزيد بن رومان فذكره . وذكره ابن هشام عن ابن إسحاق من غير ذكر شيخه : ورواه ابن مردويه من طريق ابن إسحاق عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس . وذكر الواقدي في المغازي « أن الذي أرسل إلى النبي صلى الله عليه وسلم هو حيي بن أخطب ، وروى أبو داود في المراسيل من طريق عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم نحوه مختصراً .

(٣) لم أجد هذا السياق لكن للبخاري في الواقدي ، واستعمل على قطع النخل وحرقتها رجلين من أصحابه : أبا لبل المازني وعبد الله بن سلام فكان أبو لبل يقطع العجوة وكان الآخر يقطع اللون . فنقل لما في ذلك . فقال أبو لبل : كانت العجوة أحرق لهم وقال ابن سلام : قد عرف أن الله سيغنيهم أموالهم ، وكانت العجوة خيراً أموالهم فأزله الآية . وروى البيهقي في الدلائل من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد قال دهم يهضر المهاجرين بعضاً عن قطع النخل وقالوا : إنما هو من منافع المسلمين . وقال الذين قطعوا : بل هو غيظ للعدو . فنزل القرآن .

واحتج به من يقول: كل مجتهد مصيب .

وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ
وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾
وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كُنْ لَا يَكُونُ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا أَتَاكُمْ
الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾

(أفاء الله على رسوله) جعله له فينا خاصة . والإيجاف من الوجيف . وهو السير السريع .
ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في الإفاضة من عرفات ، ليس البرّ بإيجاف الخيل ولا إيصاع
الإبل ^(١) على هينتكم ، ^(٢) ومعنى (فما أوجفتم عليه) فما أوجفتم على تحصيله وتغنمه
خيلاً ولا ركاباً ، ولا تعبت في القتال عليه ، وإنما مشيتم إليه على أرجلكم . والمعنى : أن ما حوّل
الله رسوله من أموال بني النضير شيء لم تحصلوه بالقتال والغلبة ، ولكن سلطه الله عليهم وعلى
مافي أيديهم كما كان يسلط رسله على أعدائهم ، فالأمر فيه مفقوض إليه يضعه حيث يشاء ، يعنى :
أنه لا يقسم قسمة الغنائم التي قوتل عليها وأخذت عنوة وقهراً ، وذلك أنهم طلبوا القسمة فنزلت .
لم يدخل العاطف على هذه الجملة : لأنها بيان الأولى . فهي منها غير أجنبية عنها . بين لرسول الله
صلى الله عليه وسلم ما يصنع بما أفاء الله عليه ، وأمره أن يضعه حيث يضع الحسن من الغنائم
مقسوماً على الأقسام الخمسة . والدولة والدولة - بالفتح والضم - وقد قرئ هما ما يدول للإنسان ،
أى يدور من الجدد . يقال : دالت له الدولة . وأذيل لفلان . ومعنى قوله تعالى : (كيلا يكون
دولة بين الأغنياء منكم) كيلا يكون التي . الذى حقه أن يعطى الفقراء ليسكون لهم بلغة يعيشون
بها جداً بين الأغنياء يتكاثرون به . أو كيلا يكون دولة جاهلية بينهم . ومعنى الدولة الجاهلية :
أن الرؤساء منهم كانوا يستأخرون بالفتنة لأنهم أهل الرياسة والدولة والغلبة ، وكانوا يقولون
من عزّ بزت . والمعنى : كيلا يكون أخذ غلبة وأثرة جاهلية . ومنه قول الحس : اتخذوا عباد الله

(١) قوله «ولا إيصاع الإبل» فى الصحاح : وضع البعير وغيره . أى : أسرع فى سيره وأوضعه راحته أم
أى : جملة مسرعا فى سيره . (ع)

(٢) أخرجه أبو داود . وأحمد وإسحاق والبخارى والحاكم من رواية مقسم عن ابن عباس نحوه . والبخارى من
وجه آخر عن ابن عباس نحوه .

خولا ، ومال الله دولا ، يريد : من غلب منهم أخذه واستأثر به . وقيل : والدولة ، ما يتداول ، كالغرفة : اسم ما يغترف ، يعنى : كيلا يكون الذى شيئا يتداوله الاغنياء بينهم ويتعاورونه ، فلا يصيب الفقراء . والدولة - بالفتح - : بمعنى التداول ، أى : كيلا يكون ذا تداول بينهم . أو كيلا يكون إمساكه تداول بينهم لا يخرجونه إلى الفقراء . وقرئ دولة بالرفع على ، كان ، التامة كقوله تعالى : وإن كان ذو عسرة ، يعنى كيلا يقع دولة جاهلية ولينقطع أثرها أو كيلا يكون تداول له بينهم . أو كيلا يكون شئ متعاور بينهم غير مخرج إلى الفقراء ﴿ وما آتاكم الرسول ﴾ من قسمة غنيمة أوفى . ﴿ فخذوه ومانهاكم ﴾ عن أخذه منها ﴿ فانتهاوا ﴾ عنه ولا تتبعه أنفسكم ﴿ واتقوا الله ﴾ أن تحالفوه وتهاونوا بأوامره ونواهيه ﴿ إن الله شديد العقاب ﴾ لمن خالف رسوله ، والأجود أن يكون عاما فى كل ما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهى عنه ، وأمر الذى داخل فى عمومه . وعن ابن مسعود رضى الله عنه : أنه لقي رجلا محرما وعليه ثيابه فقال له : انزع عنك هذا ^(١) فقال الرجل : اقرأ علىّ فى هذا آية من كتاب الله . قال : نعم ، فقرأها عليه .

لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا

مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْجُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾

﴿ للفقراء ﴾ بدل من قوله (لذى القربى) والمعطوف عليه ^(٢) والذى منع الإبدال من : لله

(١) أخرجه ابن أبي شيبة حدثنا معاوية بن همام حدثنا الثوري عن الأعمش عن إبراهيم عن عبد الرحمن بن يزيد عن ابن مسعود به ، وأخرجه ابن عبد البر فى العلم من طريق يحيى بن آدم عن عطية وأبي بكر بن عباس عن ابن إسحاق عن عبد الرحمن بن زيد قال « لنى عبدالله بن مسعود ، فذكره .

(٢) قال محمود : « هو بدل من قوله لذى القربى وما بعده والذى منع الإبدال من لله وللرسول ... الخ » قال أحمد : مذهب أبي حنيفة أن استحقاق ذوى القربى اسمهم من الذى موقوف على الفقراء حتى لا يستحقه أغنيائهم ، وقد أغلظ الشافعى رضى الله عنه فيما نقله عنه إمام الحرمين الرد على هذا المذهب بأن الله تعالى علق الاستحقاق بالقرابة ولم يشترط الحاجة ، وعدم اعتبار القرابة مضادة ومخادة ، واعتذر إمام الحرمين لأبي حنيفة بأن الصدقات لما حرمت عليهم كان فائدة ذكرهم فى خمس التى والغنمة أنه لا يمنع صرف ذلك إليهم امتناع صرف الصدقات ، ثم أتبع هذا المنذر بأن قال : لا يبنى أن يعبر به ، فان صيغة الآية ناصة على تعيين الاستحقاق لهم تشريفا لهم وتنبها على عظم أقدارهم ، فن حمل ذلك على جواز الصرف إليهم مع معارضة هذا الجواز بجواز حرمانهم فقد عطل لحوى الآية ، ثم استعظم الامام وقع ذلك عليهم لأنهم يذهبون إلى اشتراط الايمان فى رقة الطهار زيادة على النص ، فيأتون فى إثبات ذلك بالقياس لأنه يستنتج ، وليس من شأنه الثبوت بالقياس . قال : فكذلك يلزمهم أن يعتقدوا أن اشتراط الفقر فى القرابة واشتراط الحاجة لقرب مذكروه بفرض القرب : فأما وإن أصلهم المخصوصون من نسب الرسول عليه الصلاة والسلام والثابتون من شجرته كالمجعة ، فلا يبق مع هذا المذهب وجه انتهى كلام الامام وإنما أوردته ليعلم أن معارضته لأبي حنيفة على أن اشتراط الحاجة عند أبي حنيفة مستند إلى قياس أو نحوه من الأسباب الخارجة من الآية . فذلك الزم أن يكون زيادة على النص : فأما وقد تلى أبو حنيفة اعتبار الحاجة =

والرسل والمعطوف عليهما ، وإن كان المعنى لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله عز وجل أخرج رسوله من الفقراء في قوله (وينصرون الله ورسوله) وأنه يرفع برسول الله عن التسمية بالفقير ، وأن الإبدال على ظاهر اللفظ من خلاف الواجب في تعظيم الله عز وجل بأولئك هم الصادقون في إيمانهم وجهادهم .

وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحْجِئُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

(والذين تبوءوا) معطوف على المهاجرين ، وهم الأنصار . فإن قلت : ما معنى عطف الإيمان على الدار ، ولا يقال : تبوءوا الإيمان ؟ قلت : معناه تبوءوا الدار وأخلصوا الإيمان ، كقوله :

• عَظَّمْتُمَا تَبَيَّنَا وَمَاءَ بَارِدًا •

أو : وجعلوا الإيمان مستقراً ومتوطناً لهم لتكسبهم منه واستقامتهم عليه . كما جعلوا المدينة كذلك . أو : أراد دار الهجرة ودار الإيمان ، فأقام لام التعريف في الدار مقام المضاف إليه ، وحذف المضاف من دار الإيمان ووضع المضاف إليه مقامه . أو سمي المدينة لأنها دار الهجرة

== من تقييد هذا البديل المذكور في الآية ، فأنما يدلك معه في راد غير هذا فيقول : هو يدل من المساكين لا غيره . وتقريره أنه سبحانه أراد أن يصف المساكين بصفات تؤكد استحقاتهم وبحمل الأغنياء على إيتائهم وأن لا يجدوا في صدورهم حاجة مما أوتوا ، فلما قصد ذلك وقد فصل بين ذكركم وبين ما يقصد من ذكر صفاتهم بقوله (كلا يكون دولة بين الأغنياء منكم) إلى قوله (شديد العقاب) طرى ذكركم ليكون توطئة للصفات المتتالية بعده ، فذكر بصفة أخرى مناسبة للصفة الأولى مبدلة منها وهي الفقر ، لنشهد للظنية على فائدة الجمع لم بين صفتي المسكينة والفقر ثم تليت صفاتهم على أثر ذلك وهي إخراجهم من ديارهم وأموالهم مهاجرين ، وإبتغائهم الفضل والرضوان من الله ، ونصرهم لله ورسوله ، وصدقهم في نياتهم ، إلى آخر ذلك ، فهذا هو الذي يرشد إليه السياق مؤيداً بالأصل فإن ذوى القربى ذكروا بصفة الاطلاق : فالأصل بقاؤهم على ذلك حتى يتحقق أنهم مرادون بالتقييد . وما ذكرناه من صرف ذلك إلى المساكين يكتفى في إقامة وزن الكلام . فيبقى ذوى القربى على أصل الاطلاق ، وتلك قاعدة لا يسع الخفية مدافعها ؛ فانهم يرون الاستثناء المتعقب للجمع يختص بالجملة الأخيرة ؛ لأن عوده إلينا يقيم وزن الكلام ويبقى ما تقدمه من على الأصل ، ولا فرق بين التعقيب بالاستثناء والبديل وكل ما سوى هذا . مع أنه لو جعل بدلا من ذوى القربى مع ما بعده : لم يكن لإبداله من ذوى القربى إلا بديل بعض من كل ؛ فإن ذوى القربى منقسمون إلى فقراء وأغنياء ولم يكن لإبداله من المساكين إلا بدلا للشيء من الشيء ، وهما لعين واحدة ، فيلزم أن يكون هذا البديل محسوسا بالنوعين المذكورين في حالة واحدة ، وذلك متعذر لما بين النوعين من الاختلاف والتباين ، وكل منهما يتقاضى ما ياباه الآخر ، فهذا القدر كاف في شأده تعالى ، وعليه أعرب الزجاج الآية لجملة بدلا من المساكين خاصة ، والله تعالى الموفق للصواب .

ومكان ظهور الإيمان بالإيمان (من قبلهم) من قبل المهاجرين؛ لأنهم سبقوهم في تبوء دار الهجرة والإيمان. وقيل: من قبل هجرتهم (ولا يجدون) ولا يعلمون في أنفسهم (حاجة) بما أوتوا (أى طلب محتاج إليه بما أوتى المهاجرون من النى وغيره، والمحتاج إليه يسمى حاجة؛ يقال: خذ منه حاجتك، وأعطاه من ماله حاجته، يعنى: أن نفوسهم لم تتبع ما أعطوا ولم تطمح إلى شيء منه يحتاج إليه (ولو كان بهم خصاصة) أى خلة، وأصلها: خصاص البيت، وهى فروجه؛ والجملة فى موضع الحال، أى: مفروضة خصاصتهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قسم أموال بنى النضير على المهاجرين ولم يعط الأنصار إلا ثلاثة نفر محتاجين: أبادجانة سمالك بن خريشة، وسهل بن حنيف، والحارث بن الصمة^(١). وقال لهم: إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتهم فى هذه الغنيمة، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة، فقالت الأنصار: بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها، فنزلت. الشح - بالضم والكسر، وقد قرئ بهما -: اللؤم، وأن تكون نفس الرجل كزة حريصة على المنع، كما قال:

يُمَارِسُ نَفْسًا لَّانَ جَنْبَهُ كَزَّةٌ إِذَا هُمْ بِالْمَعْرُوفِ قَالَتْ لَهُ مَهْلًا^(٢)

وقد أضيف إلى النفس؛ لأنه غريزة فيها. وأما البخل فهو المنع نفسه. ومنه قوله تعالى (وأحضرت الأنفس الشح). (ومن يوق شح نفسه) ومن غلب ما أمرته به منه وخالف هواها بمعوة الله وتوفيقه (فأولئك هم المفلحون) الظافرون بما أرادوا. وقرئ: ومن يوق. وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ^(٣)

(١) ذكره الثعلبي هكذا بغير سند. وروى الواقدي عن معمر عن الزهري عن خارجة بن زيد عن أم العلاء قالت: لما غنم رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى النضير قال لثابت بن قيس بن شماس: ادع إلى الأنصار كلهم. فقال: إن أحببتهم قسمت بينكم وبين المهاجرين. وإن أحببتهم أعطيتهم وخرجوا من دوركم، فقال السعدان: بل نقسمه للمهاجرين ويكونون في دورنا. فرضيت الأنصار. فأعطى المهاجرين ولم يعط الأنصار، إلا رجلين محتاجين سهل بن حنيف وأبادجانة ونقل سيف بن أبي الحقيق سعد بن معاذ. وكان له ذكر عندهم. وعند أبي داود من رواية عبد الرزاق عن معمر طرف منه وأهم اسم الأنصارين. وعند ابن إسحاق في المغازى: حدثني عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قسم أموال بنى النضير على المهاجرين الأولين دون الأنصار، إلا أن سهل بن حنيف وأبادجانة ذكرا فقرا فأعطاهما.

(٢) يصف رجلا بالبخل، وأنه يعالج نفسه إلى بين جنبيه، كزة - بالفتح - شحينة منقضية عن فعل الخير إذا غلبها، وأراد المعروف دعتة ثانيا إلى البخل وحجبته عن البذل، فكأنها قالت له: أهمل فبطاوعها. ومهلا: مصدر حذف فعله وجوبا. وقولها: ذلك، استعارة تصريحية لوسوستها بالبخل.

(والذين جاؤا من بعدهم) عطف أيضاً على المهاجرين : وهم الذين هاجروا من بعد .
وقيل : التابعون بإحسان (غلا) وقرئ : غمرا ، وهما الحق .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ
قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا
لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَذْبَارَ

ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ (١٢)

(لإخوانهم) الذين بينهم وبينهم أخوة الكفر ، ولأنهم كانوا يوالونهم ويؤاخونهم ،
وكانوا معهم على المؤمنين في السر (ولا نطيع فيكم) في قتالكم أحداً من رسول الله والمسلمين
إن حملنا عليه . أو في خذلانكم وإخلاف ما وعدناكم من النصرة (لكاذبون) أى في مواعيدهم
للإهود . وفيه دليل على صحة النبوة : لأنه إخبار بالغيب . فإن قلت : كيف قيل (ولئن نصروهم)
بعد الإخبار بأنهم لا ينصرونهم ؟ قلت : معناه : ولئن نصروهم على الغرض والتقدير ، كقوله
تعالى (لئن أشركت ليحبطن عملك) وكما يعلم ما يكون ، فهو يعلم ما لا يكون لو كان كيف يكون .
والمعنى : ولئن نصر المنافقون اليهود لينهزم المنافقون ثم لا ينصرون بعد ذلك ، أى : يهلكهم
الله تعالى ولا ينفعهم نفاقهم لظهور كفرهم . أو لينهزم اليهود ثم لا ينفعهم نصرة المنافقين .

لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٣)

لَا يَقْسِتُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ
شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (١٤)

كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥)

كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي

أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَسَكَانَ عَقِبَتُهُمَا أَتَمًا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا

وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧)

(رهبة) مصدر رهب المبنى للمفعول، كأنه قيل: أشد مرهوبة. وقوله (في صدورهم) دلالة على نفاقهم، يعني أنهم يظهرون لكم في العلانية خوف الله وأنتم أهيب في صدورهم من الله. فإن قلت: كأنهم كانوا يرهبون من الله حتى تكون رهبتهم منهم أشد. قلت: معناه أن رهبتهم في السر منكم أشد من رهبتهم من الله التي يظهرونها لكم. وكانوا يظهرون لهم رهبة شديدة من الله - ويجوز أن يريد أن اليهود يخافونكم في صدورهم أشد من خوفهم من الله؛ لأنهم كانوا قوما أولى بأس ونجدة، فكانوا يتشجعون لهم مع إضمار الخيفة في صدورهم (لا يفتقون) لا يعلمون الله وعظمته حتى يخشوه حق خشيته (لا يقاتلونكم) لا يقدرّون على مقاتلتكم (جميعا) مجتمعين متساندين، يعني اليهود والمنافقين (إلا) كائنين (في قرى محصنة) بالحنّادق والدروب (أو من وراء جدر) دون أن يصحروا لكم^(١) ويبارزوكم، لقذف الله الرعب في قلوبهم، وأن تأييد الله تعالى ونصرته معكم. وقرئ: جدر، بالتحفيف. وجدار. وجدر وجدر، وهما: الجدار (بأسهم بينهم شديد) يعني أن البأس الشديد الذي يوصفون به إنما هو بينهم إذا اقتتلوا؛ ولو قاتلوكم لم يبق لهم ذلك البأس والشدة؛ لأن الشجاع يجبن والعزيز يذل عند محاربة الله ورسوله (تحسبهم جميعا) مجتمعين ذوى ألفة واتحاد (وقلوبهم شتى) متفرقة لا ألفة بينها، يعني: أن بينهم إحدا وعداوات، فلا يتعاقدون حق التعاضد، ولا يرمون عن قوس واحدة. وهذا تحجير للؤمنين وتشجيع لقلوبهم على قتالهم (قوم لا يعلمون) أن تشتت القلوب بما يوهن قواهم ويعين على أرواحهم^(٢) (كمثل الذين من قبلهم) أى مثلهم كمثل أهل بدر في زمان قريب. فإن قلت: بهم انتصب (قريبا)؟ قلت: بمثل، على: كوجود مثل أهل بدر قريبا (ذاقوا وبال أمرهم) سوء عاقبة كفرهم وعداوتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم. من قولهم كلاً: وويل: وخيم سئى العاقبة، يعني ذاقوا عذاب القتل في الدنيا (ولهم) في الآخرة عذاب النار. مثل المنافقين في إغرائهم اليهود على القتال ووعدهم بإمام النصر، ثم متاركتهم لهم وإخلافهم (كمثل الشيطان) إذا استغوى الإنسان^(٣) بكيدته ثم تبرأ منه في العاقبة، والمراد استغواؤه قريشاً يوم بدر؛ وقوله لهم: لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم، إلى قوله: إني برىء منكم. وقرأ ابن مسعود: خالدان فيها، على أنه خبر أن، و(في النار) لغو، وعلى القراءة المشهورة: الطرف مستقر، وخالدين فيها: حال. وقرئ: أنا برىء. وعاقبتهم بالرفع.

(١) قوله «دون أن يصحروا لكم» في الصحاح «أحمر الرجل»: خرج إلى الصحراء اه. (ع)

(٢) قوله «ويعين على أرواحهم» كذا عبارة النسق أيضاً. (ع)

(٣) قوله «إذا استغوى الإنسان» لعله: إذ، كعبارة النسق. (ع)

بِأَيِّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ
 إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ
 أَنْفُسُهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾

كرر الامر بالتقوى تأكيذا : واتقوا الله في أداء الواجبات : لأنه قرن بما هو عمل ،
 واتقوا الله في ترك المعاصي لأنه قرن بما يجرى مجرى الوعيد . والغد : يوم القيامة ، سواء باليوم
 الذى يلي يومك تقريبا له ^(١) وعن الحسن : لم يزل يقربه حتى جعله كالغد . ونحوه قوله تعالى
 (كأن لم تغن بالأمس) يريد : تقرب الزمان المساعى . وقيل : عبر عن الآخرة بالغد كأن الدنيا
 والآخرة نهاران : يوم وغد . فإن قلت : ما معنى تنكير النفس والغد ؟ قلت : أما تنكير
 النفس فاستقلالاً للنفس النواظر فيما هو من الآخرة ، كأنه قال فلتنظر نفس واحدة في ذلك .
 وأما تنكير الغد فلتعظيمه وإبهام أمره ، كأنه قيل : لغدا لا يعرف كنهه لعظمه . وعن مالك بن دينار :
 مكتوب على باب الجنة : وجدنا ما عملنا ، رجحنا ما قدمنا . خسرنا ما خلفنا (نسوا الله) نسوا
 حقه ، فجعلهم ناسين حق أنفسهم بالخذلان ^(٢) ، حتى لم يسعوا لها بما ينفعهم عنده . أو فأراهم يوم
 القيامة من الأحوال ما نسوا فيه أنفسهم ، كقوله تعالى (لا يرد إليهم طرفهم) .

لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾

هذا تنبيه للناس وإيدان لهم بأنهم لفرط غفلتهم وقلة فكرهم في العاقبة وتهالكهم على
 إثارة العاجلة واتباع الشهوات : كأنهم لا يعرفون الفرق بين الجنة والنار والبهن العظيم بين أصحابهما ،
 وأن الفوز مع أصحاب الجنة : فمن حقهم أن يعلموا ذلك وينبهوا عليه ، كما تقول لمن يعق أباه :
 هو أبوك ، تجعله بمنزلة من لا يعرفه ، فتنبه بذلك على حق الآبوة الذى يقتضى البر والتعطف .

(١) قال محمود : «سمى يوم القيامة غدا تقريبا له ... الخ» قال أحمد : وقد قيل في قوله تعالى (علت نفس
 ما أحضرت) كقوله (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً) حتى قيل : إنه من عكس الكلام الذى يقصد به
 الانطراف فيما يعكس عنه ، كقوله (ربما يود الذين كفروا) فعنى رب مهنا هو معنى كم ، وأبلغ منه قول القائل :
 «قد أترك القرن مصفراً أنامله» . إلا أن الزحشرى فر من هذا المعنى ، لأن الواقع قلة النفوس الناطقة
 في أسر المعاد ، فنزله على معنى يطابق الواقع ، ويمكن أن يلاحظ الأمر فيدفع حله على التنكير للنفوس المأمورات
 بالنظر في المعاد ، وأنه مامن نفس إلا ومن حقها أن تمتثل هذا الأمر ، وهو نظر حسن : فإن الفعل المستند إلى
 النفس مهنا ليس وقوع النظر حتى يستقل ، وإنما هو طلب النظر وهو عام يتعلق بكل نفس . والانصاف : أن
 ما ذكره الزحشرى أمكن وأحسن ، والله الموفق .

(٢) قال محمود : «جعلهم ناسين بالخذلان» قال أحمد : بل خلق فيهم النسيان .

وقد استدلل أصحاب الشافعي رضى الله عنه بهذه الآية على أن المسلم لا يقتل بالكافر ، وأن الكفار لا يملكون أموال المسلمين بالقهر .

لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ
وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نُضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغُيُوبِ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾

هذا تمثيل وتخيل ^(١) ، كما مر في قوله تعالى (إنا عرضنا الأمانة) وقد دل عليه قوله (وتلك الأمثال نضربها للناس) والغرض توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وقلة تخشعه عند تلاوة القرآن وتدبر قوارعه وزواجره . وقرئ : مصدعا على الإدغام (وتلك الأمثال) إشارة إلى هذا المثل وإلى أمثاله في مواضع من التنزيل .

هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمُنُ الْعَزِيزُ
الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ
لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٣﴾

(الغيب) (المعلوم) (والشهادة) الموجود المدرك كأنه يشاهده . وقيل : ما غاب عن العباد وما شاهده . وقيل : السر والعلائية . وقيل : الدنيا والآخرة (القدوس) بالضم والفتح - وقد قرئ بهما - البليغ في الزاخرة عما يستقبح . ونظيره : السبوح ، وفي تيسيح الملائكة : سبوح قدوس رب الملائكة والروح . و (السلام) بمعنى السلامة . ومنه (دار السلام) و (سلام عليكم) وصف به مبالغة في وصف كونه سليما من النقائص . أو في إعطائه السلامة (والمؤمن) واهب الأمن . وقرئ بفتح الميم بمعنى المؤمن به على حذف الجار ، كما تقول في قوم موسى من قوله تعالى (واختار موسى قومه) اختارون بلفظ صفة السبعين . و (المهيمن) الرقيب على كل شيء ، الحافظ له ، فيفعل من الأمن ؛ إلا أن همزته قلبت هاء . و (الجبار) القاهر الذي جبر خلقه على ما أراد ، أى أجبره ، و (المتكبر) البليغ الكبرياء والعظمة . وقيل : المتكبر عن ظلم عباده . و (الخالق) المقدر لما يوجد (والبارئ) المميز بعضه من بعض بالأشكال

(١) قال محمود : وهذا تخيل وتمثيل كما تقدم الخ ، قال أحمد : وهذا بما تقدم لإسكاري عليه نبيه . أملا كان يتأهب بأدب الآية : حيث سمي الله هذا مثلا ولم يقل : وتلك الحيات نضربها للناس ، أممنا الله حسن الأدب معه والله الموفق .

المختلفة. و(المصور) الممثل. وعن حاطب بن أبي بلتعة أنه قرأ: الباري المصور، بفتح الواو ونصب الراء، أى: الذى يبرأ المصور أى: يميز ما يصوره بتفاوت الهيئات. وقرأ ابن مسعود: وما فى الأرض.

عن أبي هريرة رضي الله عنه : سألت حبيبي صلى الله عليه وسلم عن اسم الله الأعظم فقال : عليك بأخبر الحشر فأكثر قراءته ، ^(١) فأعدت عليه فأعاد عليّ ، فأعدت عليه فأعاد عليّ . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة الحشر غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » ^(٢)

روى أن مولاة لآبي عمرو بن صيفي بن هاشم يقال لها سارة أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة وهو يتجهز للفتح ، فقال لها : أمسلي جنت ؟ قالت : لا . قال : أفهاجرة جنت ؟ قالت : لا . قال : فما جاء بك ؟ قالت : كنتم الأهل والموالى والعشيرة ، وقد ذهبت الموالى ، تعنى : قتلوا يوم بدر ، فاحتجت حاجة شديدة ^(١) فحث عليها بنى عبدالمطلب فكسوها وحملوها وزودوها ، فأناها حاطب بن أبى بلتعة وأعطاه عشرة دنانير وكساها برداً ، واستحملها كتاباً إلى أهل مكة نسخته : من حاطب بن أبى بلتعة إلى أهل مكة ، اعدوا أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يريدكم فخذوا حذرکم ، فخرجت سارة ونزل جبريل بالخبر ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً وعمرًا وطلحة والزبير والمقداد وأبا مرثد - وكانوا فرسانا - وقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى أهل مكة ، فخذوها منها واخلوها ، فإن أبت فاضربوا عنقه ، فأدركوها فجدت وحلفت ، فهموا بالرجوع فقال على رضى الله عنه : والله ما كذبنا ولا كذب رسول الله ، وسل سيفه ، وقال : أخرجى الكتاب أو تضعى رأسك ، فأخرجته من عقاص شعرها . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتم جميع الناس يوم الفتح إلا أربعة : هى أحدهم ^(٢) ، فاستحضر رسول الله حاطباً وقال :

(١) هكذا ذكره الثعلبي واليعربى والواضى بغير إسناد . وفيه مخالفة شديدة لما فى الصحيحين وهو مخرج فيهما من طريق عبد الله بن أبى رافع عن على ومن طريق أبى عبد الرحمن السلمي عن على . وفى رواية لابن حبان عن على خرجت أنا والزبير وطلحة والمقداد ، وأخرجه ابن إسحاق فى السيرة قال : حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا . قال ولما أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم السير إلى مكة كتب حاطب ابن أبى بلتعة إلى قريش كتابا يخبرهم فيه بأمره ، ثم أعطاه امرأة زعم محمد بن جعفر أنها من مزينة . وجعل لها جعلاً على أن تبلغه قريشا . فجاءته فى رأسها . ثم قتلت عليه قرونها ثم خرجت به . وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء بما فعل حاطب ، فذكر القصة ، وذكر الواقدي من طريق يزيد بن رومان ، وسماها سكود وذكر أن الجعل كان عشرة دنانير . وروى الطبري وابن أبى حاتم وأبو يعلى من طريق أبى البخترى عن الحرث عن على قال ولما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتى مكة أسر إلى أناس من أصحابه أنه يريد مكة ، فيهم حاطب ابن أبى بلتعة : وأفضى فى الناس أنه يريد خيبر - فكتب حاطب - فذكره ، وفيه فأخرجته من قبلها .

(٢) هكذا رواه البيهقي فى الدلائل وابن مردويه من طريق الحاكم بن عبد الملك عن قتادة عن أنس . وسماه : عبد العزيز بن حنظل ، ومقيس بن صباب ، وعبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وأم سارة مولاة لقريش وألفظه قريب من لفظ الكتاب وفى الدارقطنى من طريق عمر بن عثمان بن عبيد الرحمن بن سميد الخزيمى عن أبيه عن جده قال وأمن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلا أربعة وسماه ، إلا أنه قال والحويرث بن نفقة وسارة ، وذكره ابن إسحاق بغير إسناد فذكر الحنفة . وقال فيه : وسارة مولاة لبعض بنى عبدالمطلب ، ورواه الدارقطنى أيضاً والحاكم من طريق مصعب بن سعد عن أبيه ، وجعل عوض سارة عكرمة بن أبى جهل . وقال الواقدي فى المغازى ، وتبعه ابن سعد وأمر النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفتح بقتل ستة نفر وأربع نسوة : عكرمة وهيار بن الأسود ، وعبد الله بن حنظل وابن أبى سرح ، ومصعب بن صباب . والحويرث بن نفيل ، وهند بنت عتبة ، وسارة مولاة عمر بن هاشم ومريتا ومريضة . فقتل منهم ابن حنظل ودهيسا والحويرث .

ما حملك عليه؟ فقال: يا رسول الله ما كفرت منذ أسلمت، ولا غششتك منذ نصحتك، ولا أحببتهم منذ فارقتهم؛ ولكني كنت أمراً ملصقاً في قريش. وروى: عزيزاً فيهم، أي: غريباً، ولم أكن من أنفسها، وكل من معكم من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهلهم وأموالهم غيري، فخشيت على أهلي، فأردت أن أتخذ عندهم يداً، وقد علمت أن الله تعالى ينزل عليهم بأسه. وأن كتابي لا يغني عنهم شيئاً، فضدقه وقبل عذره، فقال عمر: دعى يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق؛ فقال: وما يدريك يا عمر، لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال لهم: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، ففاضت عيناه وعمر وقال: الله ورسوله أعلم، فزلت. عدى واتخذ، إلى مفعولي، وهما عدوى، أولياء. والمدى: فمول، من عدا: كعقوق من عفا؛ ولكونه على زنة المصدر أوقع على الجمع إيقاعه على الواحد. فإن قلت: (تلقون) بم يتعلق؟ قلت: يجوز أن يتعلق بلا تتخذوا حالاً من ضميره؛ وبأولياء صفة له. ويجوز أن يكون استثناءً. فإن قلت: إذا جعلته صفة لأولياء وقد جرى على غير من هوله، فأين الضمير البارز وهو قولك: تلقون إليهم أتم بالمودة؟ قلت: ذلك إنما اشترطوه في الأسماء دون الأفعال، لو قيل: أولياء ملقين إليهم بالمودة على الوصف. لما كان بد من الضمير البارز؛ والإلقاء عبارة عن إيصال المودة والإفضاء بها إليهم: يقال ألقى إليه خراشي صدره^(١)، وأفضى إليه بقشوره. والباء في (بالمودة) إما زائدة مؤكدة للتعدى مثلها في (ولا تأتوا بأيديكم إلى التهلكة) وإما ثابتة على أن مفعول تلقون محذوف. معناه: تلقون إليهم أخبار رسول الله بسبب المودة التي بينكم وبينهم. وكذلك قوله (تسرون إليهم بالمودة) أي: تفضون إليهم بمودتكم سرّاً. أو تسرون إليهم لإسرار رسول الله بسبب المودة. فإن قلت: (وقد كفروا) حال ممّاذا؟ قلت: إما من (لا تتخذوا) وإما من (تلقون) أي: لا تتولولهم أو توادونهم وهذه حالهم. و(يخرجون) استثناء كالتفسير لكفرهم وعقوبهم. أو حال من كفروا. و(أن تؤمنوا) تعليل ليخرجون، أي يخرجونكم لإيمانكم. وقول النحويين كنتم خرجتم متعلق بلا تتخذوا، يعني: لا تتولوا أعدائكم إن كنتم أوليائكم. وقول النحويين في مثله: هو شرط جوابه محذوف لدلالة ما قبله عليه. و(تسرون) استثناء، ومعناه: أي طائل لكم في إسراركم وقد علمتم أن الإخفاء والإعلان سيان في علمي لا تفاوت بينهما، وأنا مطلع رسولي على ما تسرون (ومن يفعله) ومن يفعل هذا الإسرار فقد أخطأ طريق الحق والصواب. وقرأ الجحدري: لما جاءكم، أي: كفروا لأجل ما جاءكم، بمعنى: أن ما كان يجب

(١) قوله «يقال ألقى إليه خراشي صدره» في الصحاح «الخراش» مثل الخرباء: جلد الحية وقشرة البيضة بعد أن يخرج ما قبلها، ثم يشبه به كل شيء فيه انتفاخ وتمتق كالرغوة، وقد يسمى البلغم خراشاً. يقال: ألقى خراشي صدره، أي: (ع)

أن يكون سبب إيمانهم جعلوه سبباً لكفرهم . (إن يتفوقكم) إن يظفروا بكم ويتمكنوا منكم (يكونوا لكم أعداء) خالصى العداوة ، ولا يكونوا لكم أولياء كما أنتم (ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء) بالقتال والشتن ، وتمنوا لو ترتدون عن دينكم ، فإذا مودة أمثالهم ومناصحتهم خطأ عظيم منكم ومغالطة لأنفسكم ونحوه قوله تعالى (لا يألونكم خبالاً) فإن قلت : كيف أورد جواب الشرط مضارعاً مثله ثم قال (وودوا) بلفظ الماضي ؟ قلت : الماضي وإن كان يجرى في باب الشرط مجرى المضارع في علم الإعراب ، فإن فيه نكتة ، كأنه قيل : وودوا قبل كل شيء كفركم وارتدادكم ، يعنى : أنهم يريدون أن يلحقوا بكم مضار الدنيا والدين جميعاً : من قتل الأنفس ، وتزيق الأعراض ، وردكم كفاراً ؛ وردكم كفاراً أسبق المضار عندهم وأولها ؛ لعلمهم أن الدين أعز عليكم من أرواحكم ، لأنكم بذّالون لها دونها ، والعدو أهم شيء عنده أن يقصد أعز شيء عند صاحبه .

لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا

تَعْمَلُونَ يَصِيرُ ﴿٣﴾

(لن تنفعكم أرحامكم) أى قراباتكم (ولا أولادكم) الذى نوالون الكفار من أجلهم وتنقربون إليهم بحاماة عليهم ، ثم قال (يوم القيامة يفصل بينكم) وبين أقاربكم وأولادكم (يوم يفتر المرء من أخيه ... الآية) فالكم ترفضون حق الله مراعاة لحق من يفتر منكم غدا : خطأ رأيهم في موالاته الكفار بما يرجع إلى حال من والوه أولاً ، ثم بما يرجع إلى حال من اقتضى تلك الموالاته ثانياً ؛ ليربهم أن ما أقدموا عليه من أى جهة نظرت فيه وجدته باطلا . قرئ : يُفَصِّلُ وَيُفَصِّلُ ، على البناء للمفعول . وَيُفَصِّلُ وَيُفَصِّلُ ، على البناء للفاعل وهو الله عز وجل . ونفصل ونفصل ، بالنون .

فَدَكَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُاُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا تُشْفِقَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَآخِرُ لَنَا رَبَّنَا

إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾

وقرى: أسوة وإسوة. وهو اسم المؤنثى به، أى كان فيهم مذهب حسن مرضى بأن يؤتسى به ويتبع أثره، وهو قولهم لكفار قومهم ما قالوا، حيث كاشفهم بالعداوة وقشروا لهم العصا، وأظهروا البغضاء والمقت، وصرحوا بأن سبب عداوتهم وبغضائهم ليس إلا كفرهم بالله؛ وما دام هذا السبب قائماً كانت العداوة قائمة، حتى إن أزالوه وآمنوا بالله وحده انقلبت العداوة موالاة، والبغضاء محبة، والمقت مقة^(١)، فأفصحوا عن محض الإخلاص. ومعنى ﴿كفرنا بكم﴾ وبما تعبدون من دون الله: أنا لا نعتد بشأنكم ولا بشأن آلهتكم، وما أتم عندنا على شيء. فإن قلت: مم استثنى قوله ﴿إلا قول إبراهيم﴾؟ قلت: من قوله (أسوة حسنة) لأنه أراد بالأسوة الحسنة: قولهم الذى حق عليهم أن يأتسوا به ويتخذونه سنة يستنون بها. فإن قلت: فإن كان قوله ﴿لاستغفرن لك﴾ مستثنى من القول الذى هو أسوة حسنة، فما بال قوله ﴿وما أملك لك من الله من شيء﴾ وهو غير حقيق بالاستثناء. ألا ترى إلى قوله (قل فمن يملك من الله شيئاً)؟ قلت: أراد استثناء جملة قوله لآييه، والقصد إلى موعد الاستغفار له، وما بعده مبنى عليه وتابع له، كأنه قال: أنا أستغفر لك وما فى طاقى إلا الاستغفار. فإن قلت: بهم اتصل قوله ﴿ربنا عليك توكلنا﴾؟ قلت: بما قبل الاستثناء، وهو من جملة الأسوة الحسنة. ويجوز أن يكون المعنى: قولوا ربنا، أمراً من الله تعالى للمؤمنين بأن يقولوه، وتعلماً منه لهم تمييزاً لما وصاهم به من قطع العلائق بينهم وبين الكفار، والانتساء بإبراهيم وقومه فى البراءة منهم، وتنسباً على الإنابة إلى الله والاستعاذة به من فتنة أهل الكفر، والاستغفار بما فرط منهم. وقرى: برآء كشركاء. وبرآء كظراف. وبرآء على إبدال الضم من الكسر، كرخال ورباب. وبرآء^(٢) على الوصف بالمصدر. والبرآء والبراءة كالظلم والظلمة.

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن

يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾

ثم كرر الخث على الانتساء بإبراهيم وقومه تقريراً وتأكيذاً عليهم، ولذلك جاء به مصدراً بالقسم لأنه الغاية فى التأكيد، وأبدل عن قوله ﴿لكم﴾ قوله ﴿لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾ وعقبه بقوله ﴿ومن يتولَّ فإنَّ الله هو الغنى الحميد﴾ فلم يترك نوعاً من التأكيد إلا جاء به.

(١) قوله «المقت مقة» أى: محبة. (ع)

(٢) قوله «كرخال ورباب» فى الصحاح: الرخل - بكسر الخاء -: الأثني من أولاد الضأن. والذكر حمل، والجمع رخال ورخال أيضاً بالضم. وقبه أيضاً: «الربى» بالضم على فعلى: الشاة التى وضعت حديثاً. وجمعها رباب بالضم. (ع)

حَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً ۗ وَاللَّهُ قَدِيرٌ

وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾

ولما نزلت هذه الآيات : تشدد المؤمنون في عداوة آبائهم وأبنائهم وجميع أقربائهم من المشركين ومقاطعتهم ، فلما رأى الله عز وجل منهم الجد والصبر على الوجه الشديد وطول التقى السبب الذي يبيع لهم الموالاة والمواصلة : رحمهم فوعدهم تيسير ما تمنوه ، فلما يسر فتح مكة أظفرهم الله بأمنيتهم ، فأسلم قومههم ، وتم بينهم من التحاب والتصافي ما تم . وقيل : تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم حبيبة ، فلانت عند ذلك عريكة أبي سفيان واسترخت شكيمته في العداوة ، وكانت أم حبيبة قد أسلمت وهاجرت مع زوجها عبد الله بن أبي جهش إلى الحبشة ، فنصر وأرادها على النصرانية ، فأبت وصبرت على دينها ، ومات زوجها ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي غطبا عليه ^(١) ، وساق عنه إليها مهرها أربعمائة دينار ، وبلغ ذلك أباهما فقال : ذلك الفحل لا يقدر أنفه ^(٢) . و(عسى) وعد من الله على عادات الملوك حيث يقولون في بعض الحوائج : عسى أولعل : فلا تبقى شبهة للححتاج في تمام ذلك . أو قصد به إطلاع المؤمنين ، والله قدير على قلبب القلوب وتغيير الأحوال وتمهيل أسباب المودة (والله غفور رحيم) لمن أسلم من المشركين .

لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ

(١) هكذا ذكره الثعلبي بغير سند . ومجموعه مفرق في أحاديث . وروى أبو داود والحاكم من رواية الزهري عن عروة عن أم حبيبة «أنها كانت تحت عبد الله بن جهش فأتى بأرض الحبشة . فزوجها النجاشي النبي صلى الله عليه وسلم وأمهراغته أربعة آلاف . وبعث بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع شرحبيل بن حسنة» وروى الحاكم عن الزهري قال «تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم حبيبة بنت أبي سفيان . وكانت قبله تحت عبد الله بن جهش الأسدي . وكان قد هاجر بها من مكة إلى الحبشة ثم أفتن وتنصر ومات نصرانيا وأثبت الله الاسلام لأم حبيبة حتى رجعت إلى المدينة غطبا رسول الله صلى الله عليه وسلم فزوجها إياه عثمان بن عفان» قال الزهري وزعموا أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إلى النجاشي فزوجها إياه وساق عنه أربعين أوقية» وروى الواقدي في المغازي ومن طريقه الحاكم من رواية جعفر بن محمد عن أبيه قال «بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية إلى النجاشي خطب عليه أم حبيبة ، وأصدقها من عنده أربعمائة دينار» قال الواقدي : حدثني عبد الله بن جعفر عن عبد الواحد بن أوعون قال : لما بلغ أبا سفيان بن حرب نكاح النبي صلى الله عليه وسلم ابنته قال : ذاك الفحل لا يقدر أنفه ، وقال أبو نعيم في الدلائل «بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي فزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان وأصدقها عنه أربعائة دينار ، وبعث بها إليه ، وقال : وكان ذلك في سنة ست من الهجرة بعد رجوعه من خيبر ولا أعلم في ذلك خلافا .

(٢) قوله «ذلك الفحل لا يقدر أنفه» أي لا يضرب أنفه ولا يكف وذلك لكونه كريما . أفاده الصحاح . (ع)

أَنْ تَبْرُوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ
الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ
تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾

(أن تبروهم) بدل من الذين لم يقاتلوكم . وكذلك (أن تولوهم) من الذين قاتلوكم :
والمنع : لا ينهاكم عن مبرة هؤلاء ، وإنما ينهاكم عن تولي هؤلاء . وهذا أيضاً رحمة لهم
لتشددهم وجددهم في العداوة مقدّمة لرحمته بتيسير إسلام قومهم ، حيث رخص لهم في صلة
من لم يجاهر منهم بقتال المؤمنين وإخراجهم من ديارهم . وقيل : أرادهم خزاعة وكانوا
صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا يقاتلوه ولا يعينوا عليه . وعن مجاهد :
هم الذين آمنوا بمكة ولم يهاجروا . وقيل : هم النساء والصبيان . وقيل قدمت على أسماء بنت
أبي بكر أمها قتيلة بنت عبد العزى وهى مشركة بهذا فلم تقبلها ولم تأذن لها فى الدخول ، فنزلت ،
فأمرها رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أن تدخلها وتقبل منها وتكرمها وتحسن
إليها ^(١) . وعن قتادة : نسخها آية القتال (وتقسطوا إليهم) وتقضوا إليهم بالقسط ولا تطلبوهم .
وناهيك بتوصية الله المؤمنين أن يستعملوا القسط مع المشركين به ويتحاموا ظلمهم ، مترجمة
عن حال مسلم يجزئ على ظلم أخيه المسلم .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَأَمْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ
أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهْنُ حِلٌّ
لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُنَّ مَا نَفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا
ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَأَسْأَلُوكُمَا نَفَقَتَهُنَّ وَلَيْسَ أُولَا
مَا نَفَقُوا ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ بِحُكْمٍ يُبَيِّنُكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِنْ قَاتَمَكُمْ
شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَلَيْكُمْ قَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ
مَا نَفَقُوا وَآتَقُوا اللَّهَ الَّذِى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

(١) أخرجه الحاكم من طريق المبارك عن مصعب بن ثابت عن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن جده قال قدمت
قتيلة بنت عبد العزى على ابنتها أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما . وكان أبو بكر طلقها ، فذكره وساقه أنهم .
ومن هذا الوجه أحمد والبرار وأبو داود وأبو يعلى والطبرى والطبرانى وابن أبى حاتم وغيرهم . وحديث أسماء
فى الصحيحين عن عروة عنها بغير هذا السياق .

(إذا جاءكم المؤمنات لتصديقنكم بأسمائهن فامتنحنهن) بكلمة الشهادة ولم يظهر منهن ما يتأني ذلك . أو لأنهن مشارفات لثبات إيمانهن بالامتحان (فامتنحنهن) فامتنحنهن بالحلف والنظر في الإشارات ليغلب على ظنونكم صدق إيمانهن ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول للممتحنة : « بالله الذى لا إله إلا هو ما خرجت من بغض زوج ، بالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض ، بالله ما خرجت التماس دنيا ، بالله ما خرجت إلا حباً لله ولرسوله » ^(١) (الله أعلم بإيمانهم) منكم لأنكم لا تكسبون فيه علماً تطمئن معه نفوسكم ، وإن استحلقتنهم ورتزمت أحوالهن ، وعند الله حقيقة العلم به (فإن علمتموهن مؤمنات) العلم الذى تبلغه طاقتكم وهو الظن الغالب بالحلف وظهور الإشارات (فلا ترجعوهن إلى الكفار) فلا تردوهن إلى أزواجهن المشركين ، لأنه لا حل بين المؤمنة والمشرک ^(٢) (وآتوهن ما أنفقوا) وأعطوا أزواجهن مثل ما دفعوا إليهن من المهور ، وذلك أن صلح الحديدية كان على أن من

(١) أخرجه الطبراني والطبري من رواية الأغر بن الصباح عن خليفة بن حصين عن أبي بهز الأسدي . قال مثل ابن عباس - فذكره أنهم سبأاً منه . قال البرزالي لا تعلمه عن ابن عباس إلا من هذا الوجه . ورواه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة مرسلًا .

(٢) قال محمود : « معناه لا حل بين المؤمنة والمشرک » قال أحمد : هذه الآية بما استدل بها على خطاب الكفار بالفروع لأنه تعالى قال (لاهن حل لهم) والضمير الأول للمؤمنات ، والثاني للكفار ، والمراد به يحرم على الكفار لأن قسمه متفق على أن المراد به تحريم الكفار على المؤمنات ، فيكون كل من القليلين المؤمنات والكفار مخاطباً بالحرمة ، ولما كان المذهب المعزى إلى أصحاب أبي حنيفة أن الكفار غير مخاطبين بذلك الزمخشري بتفسير الآية ما يوافق ذلك ، لحملها على أن المراد نفي الحل بين المؤمنة والكافر على الإجمال ، حتى لا يتحصن نسبة الحرمة إلى الكفار ، وهذا لا يختص فيه ؛ فإن الحل المنفي بين المؤمنة والكافر إلى الحرمة ، لا بد وأن يتعلق بفعل أحدهما أو كليهما ، إذ هو حكم فان يتعلق بفعل كل واحد منهما أعني التمكن من المرأة والفعل من الرجل : فتحقق خطاب الكافر بالحرمة ؛ وتعلقه بفعل المرأة دون فعل الرجل : بإياه نظم الآية ، فإنه نفي الحل من الجهتين جميعاً ولو كان كذلك ، لكان قوله (ولا هم يحلون لهن) والتحقيق الممتحن على قواعد الأصول : هو ما ذكره إن شاء الله تعالى فنقول : كل من فعل المؤمنة والكافر ينفي عنه الحل بالتفسير اللاتق ؛ فأما فعل المؤمنة وهو التمكن فلا شك في تعلق الحرمة للشرع . باعتبار أنها مخاطبة بأن لا يحصل في الوجود على وجه لو حصل لكانت متوقعة على حصوله وأما فعل الكافر وهو الوطء مثلاً ، فنفي حله باعتبار أن الشرع قصد إلى أن لا يحصل الوطء ، لما يشمل عليه من المفسدة ، وللشرع قصد في أن لا يقع المفساد ، وإيس الكافر موزداً للخطاب ، ولكن الأئمة مثلاً أو من يقوم مقامهم . مخاطبون بأن يمنعوا الكافر كي لا يقع هذا الفعل المنطوي على المفسدة في نظر الشرع ، فكلما فعلوا إذا من جانب المرأة والرجل غرض في أن لا يقع ، لكن مورد الخطاب المنطوي على السلامة من المفسدة في حق المرأة هي وفي حق الكافر الأئمة مثلاً ، ويتفق المختلفون فيه في خطاب الكفار على أن الشرع غرضاً في أن لا تحصل المفساد في الوجود . ألا ترى أن الكافر إذا جهر بالفساد بين المسلمين يتفق على وجوب رده عن ذلك ومنعه عنه ، وما ذاك إلا لما فهم من الشرع من طلب سلامة الوجود عن المفساد ، ومورد الخطاب يردع الكافر كي لا يجهر بالفساد بهم الأئمة ، والله الموفق .

أَتَاكُمْ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ رَدًّا إِلَيْهِمْ، وَمَنْ أَتَى مِنْكُمْ مَكَّةَ لَمْ يَرِدْ إِلَيْكُمْ؛ وَكَتَبُوا بِذَلِكَ كِتَابًا وَخَقَمُوهُ،
جَاءَتْ سَبْعَةٌ بَنَتْ الْحَرْثَ الْأَسْلَمِيَّةَ مُسْلِمَةً وَالنَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْحَدِيدِيَّةِ، فَأَقْبَلَ زَوْجَهَا
مَسَافِرَ الْمَخْرُومِي. وَقِيلَ صَبِيحُ بْنُ الرَّاهِبِ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، ارْجِعْ عَلَيَّ أَمْرًا فَإِنَّكَ قَدْ شَرَطْتَ
لَنَا أَنْ تَرُدَّ عَلَيْنَا مَنْ أَتَاكَ مِنَّا، وَهَذِهِ طَبِئَةُ الْكِتَابِ لَمْ تَحْجَفْ، فَزَلْتَ بَيَانًا لِأَنَّ الشَّرْطَ إِنَّمَا كَانَ فِي الرِّجَالِ
دُونَ النِّسَاءِ. ^(١) وَعَنِ الضَّحَّاكِ: كَانَ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ:
أَنْ لَا تَأْتِيَنَّكَ مِنَّا امْرَأَةٌ لَيْسَتْ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهَا إِلَيْنَا، فَإِنْ دَخَلْتَ فِي دِينِكَ وَلَهَا زَوْجٌ
أَنْ تَرُدَّ عَلَى زَوْجِهَا الَّذِي أَنْفَقَ عَلَيْهَا، وَلِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الشَّرْطِ مِثْلُ ذَلِكَ. وَعَنِ
قَتَادَةَ: ثُمَّ نَسَخَ هَذَا الْحُكْمَ وَهَذَا الْعَهْدَ بَرَاءَةً، فَاسْتَحْلَفَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَلْفَتُ،
فَأَعْطَى زَوْجَهَا مَا أَنْفَقَ وَتَزَوَّجَهَا عُمَرُ. فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ سَمِيَ الظَّنَّ عَلِيمًا فِي قَوْلِهِ (فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ)؟
قُلْتَ: إِذَا بَانَ الظَّنُّ الْغَالِبُ وَمَا يَفْضِي إِلَيْهِ الْاجْتِهَادُ وَالْقِيَاسُ جَارِئُ الْعِلْمِ، وَأَنْ صَاحِبَهُ
غَيْرُ دَاخِلٍ فِي قَوْلِهِ (وَلَا تَقِفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا فَائِدَةُ قَوْلِهِ (اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ)
وَذَلِكَ مَعْلُومٌ لَا شَبَهَةَ فِيهِ؟ قُلْتَ: فَائِدَتُهُ بَيَانُ أَنْ لَا سَبِيلَ لَكُمْ إِلَى مَا تَطْمَئِنُّ بِهِ النَّفْسُ وَيُثَلِّجُ بِهِ
الصَّدْرُ مِنَ الْإِحَاطَةِ بِحَقِيقَةِ إِيْمَانِهِنَّ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا اسْتَأْثَرَ بِهِ عِلَامُ الْغُيُوبِ، وَأَنْ مَا يُؤْدِي إِلَيْهِ
الْإِمْتِحَانُ مِنَ الْعِلْمِ كَافٍ فِي ذَلِكَ، وَأَنْ تَسْكَيفَكُمْ لَا يَعْدُوهُ؛ ثُمَّ نَفَى عَنْهُمُ الْجَنَاحَ فِي تَزَوُّجِ هَؤُلَاءِ
الْمُهَاجِرَاتِ إِذَا آتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ أَوْ مَهُورَهُنَّ، لِأَنَّ الْمَهْرَ أَجْرُ الْبُضْعِ، وَلَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَرَادَ
بِهَا مَا كَانَ يَدْفَعُ إِلَيْهِنَّ لِيُدْفَعَهُنَّ إِلَى أَزْوَاجِهِنَّ فَيَشْتَرَطَ فِي إِبَاحَةِ تَزَوُّجِهِنَّ تَقْدِيمَ أَذَانِهِ، وَإِمَّا أَنْ
يَرَادَ أَنْ ذَلِكَ إِذَا دَفَعَ إِلَيْهِنَّ عَلَى سَبِيلِ الْقَرْضِ ثُمَّ تَزَوَّجْنَ عَلَى ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ بِهِ بَأْسٌ، وَإِمَّا أَنْ
يُبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّ مَا أُعْطِيَ أَزْوَاجَهُنَّ لَا يَقُومُ مَقَامَ الْمَهْرِ وَأَنَّهُ لَا يَدُّ مِنْ إِصْدَاقٍ، وَبِهِ احْتِجَّ أَبُو حَنِيفَةَ
عَلَى أَنَّ أَحَدَ الزَّوْجَيْنِ إِذَا خَرَجَ مِنْ دَارِ الْحَرْبِ مُسْلِمًا أَوْ بِذِمَّةٍ وَبَقِيَ الْآخَرُ حَرِيصًا: وَقَعَتْ
الْفِرْقَةُ، وَلَا يَرَى الْعِدَّةَ عَلَى الْمُهَاجِرَةِ وَيُبَيِّحُ نِكَاحَهَا إِلَّا أَنْ تَكُونَ حَامِلًا (وَلَا تَمْسُكُوا بِعَصَمِ
الْكُوفَرِ) وَالْعَصْمَةُ مَا يَعْتَصِمُ بِهِ مِنْ عَقْدٍ وَسَبَبٍ، يَعْنِي: إِيَّاكُمْ وَإِيَّاهُنَّ، وَلَا تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُنَّ
عَصْمَةٌ وَلَا عِلَاقَةٌ زَوْجِيَّةٌ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَنْ كَانَتْ لَهَا امْرَأَةٌ كَافِرَةٌ بِمَسْكَةٍ فَلَا يَعْتَدُنَّ بِهَا مِنْ نِسَائِهِ،
لِأَنَّ اخْتِلَافَ الدَّارَيْنِ قَطَعَ عَصَمَتَهَا مِنْهُ. وَعَنِ النَّخَعِيِّ: هِيَ الْمُسْلِمَةُ تَلْحَقُ بِدَارِ الْحَرْبِ فَتُكْفَرُ.
وَعَنِ مَجَاهِدٍ: أَمْرُهُمْ بِطُلَاقِ الْبَاقِيَاتِ مَعَ الْكُفَرَاءِ وَمِفَارَقَتِهِنَّ (وَاسْتَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ) مِنْ مَهُورِ
أَزْوَاجِهِمُ الْآلِاحَاتِ بِالْكُفَرَاءِ (وَلَا يَسْتَلُوا مَا أَنْفَقُوا) مِنْ مَهُورِ نِسَائِهِمُ الْمُهَاجِرَاتِ. وَقَرَأَ:
وَلَا تَمْسُكُوا بِالْتَخْفِيفِ. وَلَا تَمْسُكُوا بِالْتَّثْقِيلِ. وَلَا تَمْسُكُوا (ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ عَلَى
إِيْمَانِهِ) يَعْنِي جَمِيعَ مَا ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ (يُحْكَمُ بَيْنَكُمْ) كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ. أَوْ حَالٌ مِنْ حُكْمِ اللَّهِ عَلَى

حذف الضمير ، أى : يحكمه الله . أو جعل الحكم حاكما على المبالغة . روى أنها لما نزلت هذه الآية أدى المؤمنون ما أمروا به من أداء مهور المهاجرات إلى أزواجهن المشركين ، وأبى المشركون أن يؤدوا شيئا من مهور الكوافر إلى أزواجهن المسلمين ، فنزل قوله (وإن فاتكم) وإن سبقكم وانفلت منكم (شئ) من أزواجكم : أحد منهن إلى الكفار ، وهو فى قراءة ابن مسعود : أحد . فإن قلت : هل لإيقاع شئ فى هذا الموقع فائدة ؟ قلت : نعم ، الفائدة فيه : أن لا يغادر شئ من هذا الجنس وإن قل وحقر ، غير معوض منه تغليظا فى هذا الحكم وتشديدا فيه (فعاقبتهم) من العقبة وهى التوبة : شبه ما حكم به على المسلمين والكافرين من أداء هؤلاء مهور نساء أولئك تارة ، وأولئك مهور نساء هؤلاء أخرى بأمر يتعاقبون فيه كما يتعاقب فى الركوب وغيره . ومعناه : فجاءت عقبتكم من أداء المهر ، فأتوا من فاتته امرأته إلى الكفار مثل مهرها من مهر المهاجرة ، ولا تؤتوه زوجها الكافر ، وهكذا عن الزهرى : يعطى من صدق من لحق بهم . وقرئ : فأعقبتهم . فعقبتهم بالتشديد . فعقبتهم بالتخفيف ، بفتح القاف وكسر ها ، فعنى أعقبتهم : دخلتم فى العقبة ، وعقبتهم : من عقبه إذا قفاه ، لأن كل واحد من المتعاقبين يقفى صاحبه ، وكذلك عقبتهم بالتخفيف ، يقال : عقبه يعقبه . وعقبتهم نحو تبعتم . وقال الزجاج : فعاقبتهم فأصابتهم فى القتال بعقوبة حتى غنمتم ، والذي ذهبت زوجته كان يعطى من الغنيمة المهر ، وفسر غيرها من القراءات فكانت العقبي لكم ، أى : فكانت الغلبة لكم حتى غنمتم . وقيل : جميع من لحق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين راجعة عن الإسلام ست نسوة : أم الحكم بنت أبي سفيان كانت تحت عياض بن شداد الفهرى . وفاطمة بنت أبي أمية كانت تحت عمر بن الخطاب وهى أخت أم سلمة ، وبروع بنت عقبة كانت تحت شماس بن عثمان ، وعبد بن عبد العزى بن نضلة وزوجها عمرو بن عبد ود ، وهند بنت أبي جهل كانت تحت هشام بن العاص . وكثوم بنت جبرول كانت تحت عمر ، فأعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مهور نسائهم من الغنيمة . (١)

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِهْتَنِ يَفْتَرِيهِنَّ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَرْوْفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنْ اللَّهُ

عَفُورٌ رَحِيمٌ

(١٢)

(ولا يقتل أولادهم) وقرئ: يقتلن، بالتشديد، يريد: وأد البنات (ولا يأتين بهتان بفتريته بين أيديهن وأرجلهن) كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها: هو ولدي منك. كنى بالبهتان المفتري بين يديها ورجليها عن الولد الذي تلصقه بزوجها كذبا، لأن بطنها الذي تحمله فيه بين اليدين، وفرجها الذي تلده به بين الرجلين (ولا يعصينك في معروف) فيما تأمرهن به من المحسنات وتنهان عنهن من المقيحات. وقيل: كل ما وافق طاعة الله فهو معروف. فإن قلت: لو اقتصر على قوله (ولا يعصينك) فقد علم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأمر إلا بمعروف؟ قلت: نبه بذلك على أن طاعة المخلوق في معصية الخالق جديرة بغاية التوقي والاجتناب. وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فرغ يوم فتح مكة من بيعه الرجال: أخذ في بيعه النساء وهو على الصفا^(١) وعمر بن الخطاب رضى الله عنه أسفل منه يبايعهن بأمره ويبلغهن عنه، وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان متقنعة متشكرة خوفا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعرفها^(٢) فقال عليه الصلاة والسلام: «أبايعنك على أن لا تشركن بالله شيئا فرفعت هند رأسها وقالت: والله لقد عبدنا الأصنام وإنك لتأخذ علينا أمرا ما رأيناك أخذته على الرجال تبائع الرجال على الإسلام والجهاد، فقال عليه الصلاة والسلام: ود لا يسرقن»^(٣) فقالت: إن أبا سفيان رجل شحيح، وإنى أصبت من ماله هنات، فما أدري، أتحملى أم لا. فقال أبو سفيان: ما أصبت من شيء فيما مضى وفيما غبر فهو لك حلال، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفها فقال لها: وإني لك لهند بنت عتبة؟ قالت: نعم فأعف عما سلف يابني الله عفا الله عنك. فقال: «ولا يزنين» فقالت: أو تزني الحرة؟ وفي رواية: مازنت منهن امرأة قط، فقال عليه الصلاة والسلام: «ولا يقتلن أولادهن»، فقالت: ربيناهم صغاراً وقتلهم كباراً فأنتم وهم أعلم، وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قد قتل يوم بدر، فضحك عمر حتى استلقى، وتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «ولا يأتين بهتان» فقالت: والله إن البهتان لأمر قبيح، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق، فقال: «ولا يعصينك في معروف»، فقالت: والله ما جالسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء. وقيل في كيفية

(١) لم أره بسياقه لكن أخرجه الطبري بمعناه وأخص منه من طريق العوفي عن ابن عباس. وأخرجه ابن أبي حاتم من طريق مقاتل بن حيان. وفيه قول هند: ربيناهم صغاراً وقتلناهم كباراً، فضحك عمر بن الخطاب رضى الله عنه حتى استلقى.

(٢) قوله «خوفا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعرفها» لما صنعت بحمزة، كذا في النسقي، وذلك في غزوة أحد. (ع)

(٣) قوله «فقال عليه السلام ولا يسرقن» في النسقي قبل هذا: فبايع عمر النساء على أن لا يشركن بالله

شيئا. (ع)

المبايعة : دعا بقدرح من ماء فغمس فيه يده ، ثم غمسن أيديهن ^(١) . وقيل صاغهن وكان على يده ثوب قطري ^(٢) . وقيل كان عمر يصاغهن عنه ^(٣)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُولُوا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَكُونُوا مِنَ الْآخِرَةِ
كَمَا يَبْسُ الْكُفَّارُ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾

روى أن بعض فقهاء المسلمين كانوا يواصلون اليهود ليصيبوا من ثمارهم ^(٤) . فقيل لهم ﴿ لا تتولوا قوما ﴾ مفضوياً عليهم ﴿ قد يئسوا ﴾ من أن يكون لهم حظ في الآخرة لعنادهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم يعلمون أنه الرسول المنعوت في التوراة ﴿ كما يئس الكفار ﴾ من موتاهم أن يبعثوا ويرجعوا أحياء . وقيل ﴿ من أصحاب القبور ﴾ بيان للكفار ، أى : كما يئس الكفار الذين قبروا من خير الآخرة ؛ لأنهم تئسوا قبح حالهم وسوء منقلبهم .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة الممتحنة كان له المؤمنون والمؤمنات شفعا يوم القيامة . » ^(٥)

(١) أخرجه ابن سعد عن الواقدي عن أسامة بن زيد عن عمرو بن شعيب بنحوه ، وله شاهد في الطبراني عن عروة بن مسعود ، وآخر في تاريخ أصبهان لأبي نعيم في حرف الحاء من حديث أسماء بنت يزيد .

(٢) رواه أبو داود في المراسيل عن الشعبي ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بايع النساء أتى ببرد قطري فوضعه على يده . وقال : لأصافح النساء . وروى عبد الرزاق عن الثوري عن منصور عن إبراهيم النخعي قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصافح النساء على يده ثوب قطري .

(٣) أخرجه ابن حبان والطبراني والبخاري وغيرهم من حديث أم عطية قالت « لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أمر نساء الأنصار لجمعهن في بيت ثم أرسل إليهن عمر . فجاء عمر فسلم - فذكر القصة - وفيها : ثم مد يده من خارج البيت وعددنا أيدينا من داخل البيت .

(٤) قال محمد « كان طائفة من ضعفاء المسلمين قد والوا اليهود ليصيبوا من أثمارهم ، فنزلت هذه الآية ، والمراد بالكفار المشركون ... الخ » قال أحمد : قد كان الزخشي ذكر في قوله (وما يستوى البحرين) إلى قوله (ومن كل ثأكلون لما طريا) أن آخر الآية استطراد ، وهو فن من فنون البيان مبوب عليه عند أهل ، وآية الممتحنة هذه يمكن أن تكون من هذا الفن جدا ، فإنه ذم اليهود واستطرد ذمهم بدم المشركين على نوع حسن من النسبة ، وهذا لا يمكن أن يوجد للضعفاء في الاستطراد أحسن ولا يمكن منه ، وما صدروا هذا الفن به قوله :

إذا ما اتق الله الفتي وأطاعه فليس به بأس وإن كان من جرم
إن كنت كاذبة التي حدثني فنجوت منجي الحرث بن هشام
ترك الأجرة أن يقاتل دونهم ونجما برأس طمرة ولجام

(٥) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدى بأسانيدهم إلى أبي بن كعب رضى الله عنه .

سورة الصف

مدنية ، وآياتها ١٤ [نزلت بعد التغابن]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ①
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ② كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ
 تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ③ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ
 بُنْيَانٌ مَرْصُوعٌ ④

(لم) هي لام الإضافة داخلة على ما الاستفهامية كما دخل عليها غيرها من حروف الجر في قولك : بم ، وفيم ، ومم ، وعم ، وإلام ، وعلام . وإنما حذف الألف : لأن ما والحرف كشيء واحد ، ووقع استعمالها كثيراً في كلام المستفهم : وقد جاء استعمال الأصل قليلاً والوقف على زيادة هاء السكت أو الإسكان ، ومن أسكن في الوصل فلا جرأته مجرى الوقف ، كما سمع : ثلاثة ، أربعة : بالهاء وإلقاء حركة الهمزة عليها محذوفة . وهذا الكلام يتناول الكذب وإخلاف الموعد . وروى أن المؤمنين قالوا قبل أن يومروا بالقتال : لو نعلم أحب الأعمال إلى الله تعالى لعملناه ولبدلنا فيه أموالنا وأنفسنا ، فدلهم الله تعالى على الجهاد في سبيله ، فولوا يوم أحد فميرهم . وقيل : لما أخبر الله بثواب شهداء بدر قالوا : لئن لقينا قتالاً لنفرغن فيه وسعنا ، ففروا يوم أحد ولم يفوا . وقيل : كان الرجل يقول : قتلت ولم يقتل ، وطعنت ولم يطعن ، وضربت ولم يضرب ، وصبرت ولم يصبر . وقيل : كان قد أذى المسلمين رجل ونسكى فيهم ، فقتله صهيب واتحل قتله آخر ، فقال عمر لصهيب : أخبر النبي عليه السلام أنك قتلت ، فقال : إنما قتله الله ورسوله ، فقال عمر : يا رسول الله قتله صهيب ، قال : كذلك يا أبا يحيى ؟ قال : نعم ، فنزلت (١) في المتحل . وعن الحسن : نزلت في المنافقين . ونداؤهم بالإيمان : تهكم بهم

(١) أخرجه الثعلبي من حديث صهيب قال « كان رجل يوم بدر قد أذى المسلمين ونسكأ فيهم فقتله صهيب . فقال رجل : يا رسول الله قتلت فلاناً . ففرح بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال عمرو بن عبد الرحمن صهيب أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك - الحديث »

وبإيمانهم ؛ هذا من أفصح كلام وأبلغه^(١) في معناه قصد في (كبر) التعجب من غير لفظه كقوله :

• غَلَّتْ نَابٌ كُلِّيبٌ بَوَاؤُهَا •^(٢)

ومعنى التعجب : تعظيم الأمر في قلوب السامعين ؛ لأن التعجب لا يكون إلا من شيء خارج عن نظائره وأشكاله ، وأسند إلى أن تقولوا . ونصب (مقتاً) على تفسيره ، دلالة على أن قولهم ما لا يفعلون مقت خالص لا شوب فيه ، لفرط تمكن المقت منه ؛ واختير لفظ المقت لأنه أشد البغض وأبلغه . ومنه قيل : نكاح المقت ، للعقد على الرابة^(٣) ، ولم يقتصر على أن جعل البغض كبيراً ، حتى جعل أشده وأخشه . و (عند الله) أبلغ من ذلك ، لأنه إذا ثبت كبر مقتته عند الله فقد تم كبره وشدة وانزاحت عنه الشكوك . وعن بعض السلف أنه قيل له : حدثنا ، فسكت ثم قيل له حدثنا ؛ فقال : تأمروني أن أقول ما لا أفعل فاستعجل مقت الله . في قوله (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله) عقيب ذكر مقت الخلف : دليل^(٤) على أن المقت قد تعلق بقول الذين وعدوا الثبات في قتال الكفار فلم يفوا . وقرأ زيد بن علي : يقاتلون بفتح التاء . وقرئ : يقتلون (صفاً) صافين أنفسهم أو مصفوفين (كأنهم) في تراصهم من غير فرجة ولا خلل (بنيان) رص بعضه إلى بعض وورصف . وقيل : يجوز أن يريد استواء نياتهم في الثبات حتى يكونوا في اجتماع الكلمة كالبنيان المرصوص . وعن بعضهم : فيه دليل على فضل القتال راجلاً ؛ لأن الفرسان لا يصطفون على هذه الصفة . وقوله (صفاً كأنهم بنيان) حالان متداخلتان^(٥) .

(١) قال محمود : « هذا من أفصح الكلام وأبلغه ، في معناه قصد إلى التعجب بغير صيغة التعجب لتعظيم الأمر ... الخ » قال أحمد : وزائد على هذه الوجوه الأربعة وجه خامس : وهو تكراره لقوله (ما لا يفعلون) وهو لفظ واحد في كلام واحد ومن فوائد التكرار : التهويل والاعظام ، وإلا فقد كان الكلام مستقلاً لو قيل : كبر مقتاً عند الله ذلك ، فأعادته إلا لكان هذه الفائدة الثانية ، والله أعلم .

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثالث صفحة ٢٧٣ فراجع إن شئت اه مصححة .

(٣) قوله « على الرابة » هي بتشديد الباء كالعادة . وفي الصحاح : نكاح المقت كان في الجاهلية : أن يتزوج الرجل امرأة أبيه اه . (ع)

(٤) قال محمود : « وذكره لهذا عقيب ذكر مقت الخلف دليل ... الخ » قال أحمد : صدق ، والأول كالهيئة العامة لهذه القصة الخاصة ، كقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم ، يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) فالنبي العام ورد أولاً ؛ والمقصود اندراج هذا الخاص فيه كما تقول للمقترف جرماً معيناً : لا تفعل ما يلبق العار بك ولا تشاتم زيدا ، وقائمة مثل هذا النظم : التهي عن الشيء الواحد مرتين متدرجا في العموم ومفردا بالخصوص ، وهو أولى من التهي عنه على الخصوص مرتين فان ذلك معدود في حين التكرار ، وهذا يتكرر مع ما في التعميم من التعظيم والتهويل ، والله أعلم .

(٥) قال محمود : « قوله (صفاً كأنهم بنيان مرصوص) : حالان متداخلتان » قال أحمد : يريد أن معنى الأولى مشتق على معنى الثانية ؛ لأن القرائص هيئة للاصطفاف ، والله أعلم .

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَفْقَهُمْ لِمَ تُوذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾

(وَإِذْ) منصوب بإضمار اذكر . أو : وحين قال لهم ما قال كان كذا وكذا ﴿تُوذُونَنِي﴾ كانوا يؤذونه بأنواع الأذى من انتقاصه وعيبه في نفسه ، ووجود آياته ، وعصيانه فيما تعود إليهم منافعه ، وعبادتهم البقر ، وطلبهم رؤية الله جهرة ، والتكذيب الذي هو تضييع حق الله وحقه ﴿وقد تعلمون﴾ في موضع الحال ، أى : تؤذوننى عالين علماً يقيناً^(١) ﴿أنى رسول الله إليكم﴾ وقضية عليكم بذلك وموجبه تعظيمى وتوقيرى ، لا أن تؤذونى وتستهنوا بى ؛ لأن من عرف الله وعظمته عظم رسوله ، علماً بأن تعظيمه فى تعظيم رسوله ، ولأن من آذاه كان وعيد الله لاحقاً به ﴿فلما زاغوا﴾ عن الحق ﴿أزاغ الله قلوبهم﴾ بأن منع الطافه عنهم^(٢) ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ لا يلفظ بهم لأنهم ليسوا من أهل اللطف . فإن قلت : مامعنى (قد) فى قوله (قد تعلمون) ؟ قلت : معناه التوكيد كأنه قال : وتعلمون علماً يقيناً لاشبهة لكم فيه .

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سَاحِرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾

(١) قال محمود : « بين أنهم على عكس الصواب حيث قال : تؤذوننى عالين ... الخ . قال أحمد : أهل العربية تقول : إن وقد ، تصحب الماضى لتقريبه من الحال . ومنه قول المؤذن : قد قامت الصلاة ، وتشتمل المصاحبة للماضى أيضاً على معنى التوقع ، فذلك قال سيبويه « قد فعل » ، جواب لما يفعل ، وقال الخليل : هذا الخبر لقوم ينتظرونه ، وأما مع المضارع فانها تفيد التقليل مثل : ربما ، كقولهم : إن الكذب قد يصدق ، فإذا كان معناها مع المضارع التقليل وقد دخلت فى الآية على مضارع ، فالوجه - والله أعلم - أن يكون هذا من الكلام الذى يقصدون به الافراط فيما ينمكس عنه ، وتكون وقد فى هذا المعنى نظيرة « ربما » ، فى قوله (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) فانها فى هذا الموضع أبغ من كم فى التكثير ، فلما أوردت « ربما » فى التكثير على عكس معناها الأصلى فى التقليل ، فكذلك إيراد « قد » هنا لتكثير عليهم ، أى : تحقيق تأكيده على عكس معناها الأصلى فى تقليل الأصل ؛ ودليه : « قد أترك القرون مصغراً أنامله » . وإنما مدح نفسه بكثرة هذا الفعل منه عكس ديدنه الأصلى ، ولا يقال : إن حملها فى الآية على التكثير متعذر ؛ لأن العلم معلوم التعلق لا يتكثر ولا يتنقل ؛ لأننا نقول : يعبر عن تمكين الفعل وتحقيقه وتأكيده وبلوغه الغاية فى نوعه بما يعبر به عن التكثير ، وهو تعبير صحيح . ألا ترى أن قوله (ربما يود الذين كفروا) هو من هذا القبيل ، فإن المراد شدة ودم لذلك وبلوغه أقصى منتهاه لا غير ، والله الموفق .

(٢) قوله « بأن منع الطافه عنهم » فسر الازاعة بذلك بناء على مذهب المعتزلة : أنه تعالى لا يريد للنسب .

ومذهب أهل السنة : أنه تعالى يريد الشر والخير ، كما تقرر فى محله . (ع)

قيل : إنما قال : يا بني إسرائيل ، ولم يقل : يا قوم كما قال موسى ؛ لأنه لا نسب له فيهم فيكونوا قومه^(١) . والمعنى : أرسلت إليكم في حال تصديقي ما تقدمني ﴿ من التوراة ﴾ وفي حال تبشيري ﴿ برسول يأتي من بعدي ﴾ يعني : أن ديني التصديق بكسب الله وأنبيائه جميعا من تقدم وتأخر . وقرئ : من بعدى ، بسكون الياء وفتحها ، والحليل وسيبويه يختاران الفتح . وعن كعب : أن الحوارين قالوا لعيسى : يا روح الله ، هل بعدنا من أمة ؟ قال : نعم أمة أحمد حكاه علماء أربار أتقياء ، كأنهم من الفقه أنبياء ، يرضون من الله باليسير من الرزق ، ويرضى الله منهم باليسير من العمل . فإن قلت : هم انتصب مصدقا ومبشرا ؟ أما في الرسول من معنى الإرسال أم باليكم ؟ قلت : بل بمعنى الإرسال ؛ لأن (إليكم) صلة للرسول ، فلا يجوز أن تعمل شيئا لأن حروف الجز لا تعمل بأنفسها ، ولكن بما فيها من معنى الفعل ؛ فإذا وقعت صلات لم تتضمن معنى فعل ، فن أين تعمل ؟ وقرئ : هذا ساحر مبين .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ

لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾

وأى الناس أشد ظلما ممن يدعوه ربه على لسان نبيه إلى الإسلام الذى له فيه سعادة الدارين ، فيجعل مكان إجابته إليه افتراء الكذب على الله بقوله لكلامه الذى هو دعاء عباده إلى الحق : هذا سحر ، لأن السحر كذب وتمويه . وقرأ طلحة بن مصرف : وهو يدعى ، بمعنى يدعى . دعاه وأدعاه ، نحو : لمسه والتمسه . وعنه : يدعى ، بمعنى يدعو ، وهو الله عز وجل .

يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَاللَّهُ مُنِيرٌ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾

أصله : يريدون أن يطفئوا كما جاء في سورة براءة ، وكأن هذه اللام زيدت مع فعل الإرادة تأكيداً له ، لمسا فيها معنى الإرادة في قولك : جشك لا كرامك ، كما زيدت اللام في : لا أبالك ، تأكيداً لمعنى الإضافة في : لا أباك ، وإطفاء نور الله بأفواههم : تهكم بهم في إرادتهم إبطال الإسلام بقولهم في القرآن : هذا سحر . مثلت حالهم بحال من ينفخ في نور الشمس بفيه ليطفئه ﴿ والله متم نوره ﴾ أى متم الحق ومبلغه غايته . وقرئ بالإضافة .

(١) قال الزمخشري : « وإنما قال (يا بني إسرائيل) ولم يقل : يا قوم ؛ لأنه لم يكن له - صلوات الله على نبينا وعليه - نسب فيهم » قال أحمد : وهذا نظير قوله تعالى (إذ قال لهم شعيب) لأن شعيباً لم يكن من قوم من أرسل إليهم .

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ
وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾

(ودين الحق) الملة الحنيفية (ليظهره) ليعليه (على الدين كله) على جميع الأديان المخالفة له؛ ولعمري لقد فعل، فما بقي دين من الأديان إلا وهو مغلوب ومقهور بدين الإسلام. وعن مجاهد: إذا نزل عيسى لم يكن في الأرض إلا دين الإسلام. وقرئ: أرسل نفيه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذِلَّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾
تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ
خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ
جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِينٍ ظَلِيمَةٍ فِي جَنَّتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ يُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

(تنجيكم) قرئ: مخففاً ومثقلاً. و (تؤمنون) استئناف، كأنهم قالوا: كيف: نفعل؟ فقال: تؤمنون^(١). وهو خبر في معنى الأمر؛ ولهذا أوجب بقوله (يغفر لكم) وتدل عليه قراءة ابن مسعود: آمنوا بالله ورسوله واجاهدوا. فإن قلت: لم جاء به على لفظ الخبر؟ قلت: للإيذان بوجوب الامتثال، وكأنه أمثل فهو يخبر عن إيمان وجهاد موجودين. ونظيره قول

(١) قال محمود: قوله (تؤمنون) استئناف كلام كأنه لما قال الكلام الأول قيل: كيف نفعل؟ فقبل: تؤمنون... الخ. قال أحمد: إنما وجه إعراب الفراء بما ذكر، لأنه لو جعله جواباً لقوله (هل أدلكم) فأنكم إن أدلكم على كذا وكذا أغفر لكم، فتكون المغفرة حينئذ مرتبة على مجرد دلالة إيمانهم على الخير؛ وليس كذلك، إنما ترتب المغفرة على فعلهم لما دلهم عليه لا على نفس الدلالة، فلذلك أول (هل أدلكم على تجارة) بتأويل: هل نتجرون بالإيمان والجهاد حتى تكون المغفرة مرتبة على فعل الإيمان والجهاد لا على الدلالة، وهذا التأويل غير محتاج إليه؛ فإن حاصل الكلام إذا صار إلى: هل أدلكم أغفر لكم، التحق ذلك بأمثال قوله تعالى (قل لبيادى الذى آمنوا يقيموا الصلاة) فانه رتب فعل الصلاة على الأمر بها، حتى كأنه قال، فانك إن فعل لم أقيموا يقيموها. وللقائل أن يقول: قد قيل لبعضهم: أقم الصلاة فتركها؟ فالجواب عنه: أن الأمر الموجه على الزمن الراسخ في الإيمان لما كان مظنة لحصول الامتثال، جميل كالحقق وقوعه مرتباً عليه؛ وكذلك هنا لما كانت دلالة الذين آمنوا على فعل الخير مظنة لامتثالهم. وامثالهم سبباً في المغفرة محققاً: عومل معاملة تحقق الامتثال والمغفرة مرتبين على الدلالة، والله أعلم.

الداعي : غفر الله لك ، ويغفر الله لك : جعلت المغفرة لقوة الرجاء ، كأنها كانت ووجدت .
فإن قلت : هل لقول الفراء أنه جواب (هل أدلكم) وجه ؟ قلت : وجهه أن متعلق الدلالة
هو التجارة ، والتجارة مفسرة بالإيمان والجهاد ؛ فسكانه قيل : هل تتجرون بالإيمان والجهاد
يغفر لكم ؟ فإن قلت : فما وجه قراءة زيد بن علي رضي الله عنهما (تؤمنوا ... وتجاهدوا) ؟
قلت : وجهها أن تكون على إضمار لام الأمر ، كقوله :

مُحَمَّدٌ تَفْدٍ نَفْسِكَ كُلُّ نَفْسٍ إِذَا مَا خِفْتَ مِنْ أَمْرِ قَبَالًا ^(١)

وعن ابن عباس أنهم قالوا : لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لعملناه ، فنزلت هذه الآية ،
فكشوا ماشاء الله يقولون : ليتنا نعلم ما هي ، فدلهم الله عليها بقوله (تؤمنون) وهذا دليل على
أن (تؤمنون) كلام مستأنف ، وعلى أن الأمر الوارد على النفوس بعد تشوق وتطلع منها إليه :
أوقع فيها وأقرب من قبولها له مما فوجئت به (ذلكم) يعني ما ذكر من الإيمان والجهاد
(خير لكم) من أموالكم وأنفسكم . فإن قلت : ما معنى قوله (إن كنتم تعلمون) ؟ قلت : معناه
إن كنتم تعلمون أنه خير لكم كان خيراً لكم ^(٢) حينئذ ؛ لأنكم إذا علمتم ذلك واعتقدتموه أحببتم
الإيمان والجهاد فوق ما تحبون أنفسكم وأموالكم ، فتخلصون وتفلحون (وأخرى تحبونها)
ولكم إلى هذه النعمة المذكورة من المغفرة والثواب في الآجلة نعمة أخرى عاجلة محبوبة إليكم ،
ثم فسرها بقوله (نصر من الله وفتح قريب) أي عاجل وهو فتح مكة . وقال الحسن : فتح فارس
والروم . وفي (تحبونها) شيء من التوخيخ على محبة العاجل . فإن قلت : علام عطف قوله
(وبشر المؤمنين) ؟ قلت : على (تؤمنون) لأنه في معنى الأمر ، كأنه قيل : آمنوا وجاهدوا
يثبكم الله وينصركم ، وبشر يارسول الله المؤمنين بذلك . فإن قلت : لم نصب من قرأ نصراً من

(١) لأن طالب . وقيل : للأعشى ، يقول : يارسول الله ، تفد ، أي لتفد ، فحذف لام الدعاء المجازمة
للفعل لصورة الشعر ، وسوخ حذفها قرينة مقام الطلب ؛ وإلا لغروف الجزم كحروف الجر لا تعمل وهي حذوفة
إلا شذوذاً ، كما صرح به السكاكي . هذا والحذف في نحو قوله تعالى (قل لعبادي الذين آمنوا يلبسوا الصلاة) أسهل
لأن قرينته لفظية ، وهي لفظ (قل) الدال على الطلب . وقيل : هو خبر بمعنى الدعاء ، وخفف بحذف الياء ؛
وقيل : إن ذلك في غير القواصل والقوافي غير شديد ، أي : فدى الله نفسك بكل نفس إذا خفت تبالاً من شيء .
والعجبال : هو الوبال ، فليت واوه تاء . ويروي بالجر ، على أنه صفة أمر وليس بجيد .

(٢) قال محمود : « معناه : إن كنتم تعلمون أنه خير لكم كانت خيراً لكم ... الخ » قال أحمد : كأنه يجرى
الشرط على حقيقته وليس بالظاهر ؛ لأن عليهم لذلك محقق . إذ الخطاب مع المؤمنين ، والظاهر أنه من وادي
قوله (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين) والمقصود بهذا الشرط : التنبيه على المعنى
الذي يقتضيه الامتنال وإلهاب الحية للطاعة ، كما تقول لمن تأمره بالانصاف من عدوه : إن كنت حراً فانتصر ،
تريد أن تثير منه حية الانتصار لا غير ، والله أعلم .

الله وفتحاً قريباً؟ قلت: يجوز أن ينصب على الاختصاص. أو على تنصرون نصراً، ويفتح لكم فتحاً. أو على: يغفر لكم ويدخلكم جنات، ويؤتيكم أخرى نصراً من الله وفتحاً.

بِأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لَلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا

ظَهْرِينَ ١٤

قرئ: كونوا أنصار الله وأنصاراً لله. وقرأ ابن مسعود: كونوا أنتم أنصار الله. وفيه زيادة حتم للنصرة عليهم. فإن قلت: ما وجه صحة التشبيه - وظاهره تشبيه كونهم أنصاراً بقول عيسى صلوات الله عليه: (من أنصاري إلى الله) (١)؟ قلت: التشبيه محمول على المعنى، وعليه يصح. والمراد: كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار عيسى حين قال لهم (من أنصاري إلى الله). فإن قلت: ما معنى قوله (من أنصاري إلى الله)؟ قلت: يجب أن يكون معناه مطابقاً لجواب الحواريين (نحن أنصار الله) والذي يطابقه أن يكون المعنى: من جندى متوجهها إلى نصرته الله، وإضافة (أنصاري) خلاف إضافة (أنصار الله) فإن معنى (نحن أنصار الله): نحن الذين ينصرون الله. ومعنى (من أنصاري) من الأنصار الذين يختصون بي ويكونون معي في نصرته الله؛ ولا يصح أن يكون معناه: من ينصرني مع الله؛ لأنه لا يطابق الجواب. والدليل عليه: قراءة من قرأ: من أنصار الله. والحواريون أصفياؤه وهم أول من آمن به وكانوا اثني عشر رجلاً؛ وحواري الرجل: صفيه وخلصانه (٢) من الحور وهو البياض الخالص. والحواري: الدرمك. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: الزبير ابن عمتي وحواري من أمتي، (٣) وقيل: كانوا قصارين يحثرون الثياب يبيضونها. ونظير الحواري في زنته: الحوالي: الكثير الحيل (فأمنت طائفة منهم بعيسى) (وكفرت) به (طائفة فأيدنا) مؤمنهم على كفارهم، فظهروا

(١) قال محمد: «إن قلت ما وجه التشبيه وظاهره تشبيه كونهم أنصاراً... الخ» قال أحمد: كلام حسن وتمم على الذي أحسن: أن يجوز بين الإضافتين المذكورتين: بأن الأولى عضة والثانية غير عضة، فتنبه لها، والله الموفق.

(٢) قوله «وخلصانه» أي عائلته، يستوى فيه الواحد والكثير، كذا في الصحاح. وفيه: الدرمك: دقيق الحواري. وفيه أيضاً: والحواري ماحور من الطعام، أي بيض. وهذا دقيق حواري، وكل هذه بالضم كما أفاده الصحاح. (ج)

(٣) أخرجه النسائي من حديث جابر. وهو في الصحيحين بلفظ «لكل بني حواري وحواري الزبير».

عليهم . وعن زيد بن علي : كان ظهورهم بالحجة .
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة الصف كان عيسى مصليا عليه
مستغفرا له مادام في الدنيا وهو يوم القيامة رفيقه ، » (١) .

سورة الجمعة

مدنية ، وآياتها ١١ [نزلت بعد الصف]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١)
هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ
وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢)
وَالْآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ
يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤)

قرئت صفات الله عزّ وعلا بالرفع على المدح ، كأنه قيل : هو الملك القدوس ، ولو قرئت
منصوبة لكان وجهها ، كقول العرب : الحمد لله أهل الحمد . الأسمى : منسوب إلى أمة العرب ، لأنهم
كانوا لا يكتبون ولا يقرؤون من بين الأمم . وقيل : بدأت الكتابة بالطائفة ، أخذوها من أهل
الخيرة ، وأهل الخيرة من أهل الأنبار . ومعنى (بعث في الأميين رسولا منهم) بعث رجلا أميا في
قوم أميين ، كما جاء في حديث شعيب : « أني أبعث أعمى في عميان ، وأقيا في أميين » (١) وقيل منهم .
كقوله تعالى (من أنفسكم) يعلمون نسبه وأحواله . وقرئ : « في الأميين » بحذف ياء النسب

(١) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدى من حديث أبي بن كعب رضى الله عنه .

(٢) أخرجه أبو نعيم في الدلائل من طريق عبد الصمد بن معقل ، سمعت وعب بن منبه يقول « أوحى الله إلى
نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له شعيب فذكره مطولا .

(يتلو عليهم آياته) يقرؤها عليهم مع كونه أقيماً مثلهم لم تعهد منه قراءة ولم يعرف بتعلم، وقراءة أمي بغير تعلم آية بينة (ويزكهم) ويطهرهم من الشرك وخباثات الجاهلية (ويعلمهم الكتاب والحكمة) القرآن والسنة. وإن في (وإن كانوا) هي الخففة من الثقيلة واللام دليل عليها، أي: كانوا في ضلال لا ترى ضلالاً أعظم منه (وآخرين) مجرور عطف على الأميين، يعني: أنه بعثه في الأميين الذين على عهده، وفي آخرين من الأميين لم يلحقوا بهم بعد وسيأحقون بهم، وهم الذين بعد الصحابة رضى الله عنهم. وقيل: لما نزلت قيل: من هم يا رسول الله، فوضع يده على سلمان ثم قال: ولو كان الإيمان عند الثريا لتناوله رجال من هؤلاء، وقيل: هم الذين يأتون من بعدهم إلى يوم القيامة، ويجوز أن ينتصب عطفاً على المنصوب في (ويعلمهم) أي: يعلمهم ويعلم آخرين؛ لأن التعليم إذا تناسق إلى آخر الزمان كان كله مستنداً إلى أوله، فسكانه هو الذي تولى كل ما وجد منه (وهو العزيز الحكيم) في تمكينه رجلاً أقيماً من ذلك الأمر العظيم، وتأيينه عليه، واختياره إياه من بين كافة البشر (ذلك) الفضل الذي أعطاه محمداً وهو أن يكون نبي أبناء عصره، ونبي أبناء العصور الغواير. هو (فضل الله يؤتبه من يشاء) إعطاه وتقتضيه حكمته.

مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾

شبه اليهود في أنهم حملوا التوراة وقراؤها وحفاظ ما فيها، ثم إنهم غير عاملين بها ولا متفعين بآياتها، وذلك أن فيها نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم والبشارة به ولم يؤمنوا به. بالحمار حمل أسفاراً، أي كتباً كباراً من كتب العلم، فهو يمشي بها ولا يدري منها إلا ما يمر بجنبه وظهره من السكد والتعب. وكل من علم ولم يعمل بعلمه فهذا مثله، وبئس المثل (بئس) مثلاً (مثل) القوم الذين كذبوا بآيات الله) وهم اليهود الذين كذبوا بآيات الله الدالة على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم. ومعنى (حملوا التوراة): كلفوا عليها والعمل بها، (ثم لم يحملوها) ثم لم يعملوا بها، فكأنهم لم يحملوها. وقرئ: حملوا التوراة، أي حملوها ثم لم يحملوها في الحقيقة لفقد العمل. وقرئ: يحمل الأسفار. فإن قلت: (يحمل) ما محله؟ قلت: النصب على الحال^(١)، أو الجر على الوصف؛ لأن الحمار كالتلم في قوله:

• وَلَقَدْ أَمَرْنَا عَلَى اللَّيْمِ بِسُبْحِي * (٢)

(١) قال محمود: «إما أن يكون قوله (يحمل) حالا، كقوله:

• وَلَقَدْ أَمَرْنَا عَلَى اللَّيْمِ بِسُبْحِي • قال أحمد: يريد أن المراد فيها الجنس، فتعريفه وتنكيره سواء.

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ١٦ فراجع إن شئت اه مصححه.

قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا ابْنَ زَعَمْتُمْ أَنفَكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ
فَتَمَنُّوا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ
أَيْدِيَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ
مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

هاد يهود : إذا تهود^(١) كانوا يقولون : نحن أبناء الله وأحباؤه ، أى : إن كان قولكم حقا وكنتم على ثقة (فتمنوا) على الله أن يمتحنكم ويفعلكم سريعا إلى دار كرامته التي أعدّها لأوليائه ، ثم قال (ولا يتمنونه أبداً) بسبب ما قدموا من الكفر ، وقد قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : : والذي نفسى بيده لا يقولها أحد منكم إلا غص بريقه ، فلو لا أنهم كانوا موقنين بصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم لقتلوا ، ولكنهم علموا أنهم لو تمنوا لما تروا من ساعتهم ولحقهم الوعيد . فما تمالك أحد منهم أن يتمنى : وهي إحدى المعجزات . وقرئ : فتمنوا الموت ، بكسر الواو ، تشبيها بـ لو استطعنا . ولا فرق بين ولا ، وإن ، فى أن كل واحدة منهما نفي للمستقبل ، إلا أن فى وإن ، تأكيداً وتشديداً ليس فى ولا ، فأتى مرة بلفظ التأكيد (ولن يتمنوه) ومرة بغير لفظه (ولا يتمنونه) ثم قيل لهم : (إن الموت الذى تفرون منه) ولا تجسرون أن يتمنوه خيفة أن تؤخذوا بوبال كفركم : لا تفوتونه وهو ملائكم لا محالة (ثم تردون) إلى الله فيجازيكم بما أنتم أهل من العقاب . وقرأ زيد بن على رضى الله عنه : إنه ملائكم . وفى قراءة ابن مسعود : تفرون منه ملائكم ، وهى ظاهرة . وأما التى بالغاء ، فلتضمن الذى معنى الشرط ، وقد جعل (إن الموت الذى تفرون منه) كلاماً برأسه فى قراءة زيد ، أى : إن الموت هو الشيء الذى تفرون منه ، ثم استوفى : إنه ملائكم .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ
اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ
الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾

(١) قوله «هاد يهود إذا تهود» فى الصحاح : هاد يهود : تاب ورجع إلى الحق ، وهاد وتهود : إذا صار

يوم الجمعة: يوم الفوج المجموع، كقولهم: ضحكة، المضحك منه. ويوم الجمعة، بفتح الميم: يوم الوقت الجامع، كقولهم: ضحكة، ولعنة، ولعبة: ويوم الجمعة تثقيلاً للجمعة، كما قيل: عسرة في عسر. وقرئ: "هنّ جميعاً". فإن قلت: من في قوله (من يوم الجمعة) ما هي؟ قلت: هي بيان لإذا وتفسيره. والنداء: الأذان. وقالوا: المراد به الأذان عند قعود الإمام على المنبر، وقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذن واحد، فكان إذا جلس على المنبر أذن على باب المسجد؛ فإذا نزل أقام للصلاة^(١)، ثم كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما على ذلك؛ حتى إذا كان عثمان وكثر الناس وتباعدت المنازل زاد مؤذناً آخر، فأمر بالتأذين الأول على داره التي تسمى زوراء، فإذا جلس على المنبر: أذن المؤذن الثاني، فإذا نزل أقام للصلاة، فلم يعب ذلك عليه. وقيل: أول من سماها جمعة، كعب بن لؤي، وكان يقال لها: العروبة. وقيل: إن الأنصار قالوا: لليهود يوم يجتمعون فيه كل سبعة أيام، وللنصارى مثل ذلك؛ فلهذا جعل لنا يوماً نجتمع فيه فنذكر الله فيه ونصلي، فقالوا: يوم السبت لليهود، ويوم الأحد للنصارى، فاجعلوه يوم العروبة. فاجتمعوا إلى سعد بن زرارة فصلى بهم يومئذ ركعتين وذكرهم، فسموه يوم الجمعة لاجتماعهم فيه، فأنزل الله آية الجمعة، فهي أول جمعة، كانت في الإسلام^(٢) وأما أول جمعة جمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهي: أنه لما قدم المدينة مهاجراً نزل قباء على بنى عمرو بن عوف، وأقام بها يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وأسس مسجدهم، ثم خرج يوم الجمعة عامداً إلى المدينة فأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن واد لهم، فخطب وصلى الجمعة^(٣). وعن بعضهم: قد أبطل الله قول اليهود في ثلاث: افتخروا بأنهم أولياء الله وأحباؤه، فكذبهم في قوله (فتمنوا الموت إن كنتم صادقين) وبأنهم أهل الكتاب والعرب لا كتاب لهم فشبهم بالجار يحمل أسفاراً؛ وبالسبت وأنه ليس للمسلمين مثله فشرع الله لهم الجمعة. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أهبط إلى الأرض، وفيه تقوم الساعة، وهو عند الله يوم المزيّد. وعنه عليه السلام: أنا في جبريل وفي كفّه مرآة يضاء وقال: هذه الجمعة يعرضها عليك ربك لتكون لك عيداً ولا تمتك من بعدك، وهو سيد الأيام عندنا، ونحن

(١) متفق عليه من حديث السائب بن يزيد بغير هذا السياق، وليس فيه على باب المسجد.

(٢) أخرجه عبد الرزاق عن معمر بن أيوب عن ابن سيرين بهذا مطولاً. وأخرجه الثعلبي من طريقه. وروى الطبراني من حديث كعب بن مالك نحوه باختصار.

(٣) أخرجه ابن إسحاق في المغازي عن محمد بن جعفر عن عروة بن عبد الرحمن بن عويم أخبرني بعض قومي قال قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة يوم الاثنين. ذكر ذلك مطولاً. ومن طريقه البيهقي في الدلائل. وذكره ابن هشام في مختصره عن ابن إسحاق بغير الحذف.

ندعوه إلى الآخرة يوم المزيّد، ^(١) . وعنه صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى في كل جمعة ستائة ألف عتيق من النار » . وعن كعب : « إن الله فضل من البلدان : مكة ، ومن الشهور : رمضان ، ومن الأيام : الجمعة . وقال عليه الصلاة والسلام : من مات يوم الجمعة كتب الله له أجر شهيد ، ووقى فتنة القبر ، » ^(٢) وفي الحديث : « إذا كان يوم الجمعة قعدت الملائكة على أبواب المسجد » ^(٣) بأيديهم صحف من فضة وأقلام من ذهب ، يكتبون الأوّل فالأوّل على مراتبهم ، ^(٤) وكانت الطرقات في أيام السلف وقت السحر وبعد الفجر مغتصّة بالمسكرين إلى الجمعة يمشون بالسرج .

(١) متفق عليه دون قوله « وروى عنه الله يوم المزيّد » للبخاري والطبري من طريق جهضم بن عبد الله بن الطفيل عن أبي طيبة عن عثمان بن عمير عن أنس بهذا مطولا . وانظر « ونحن ندعوه في الآخرة » وهو الصواب وفي رواية الطبري في تفسير ق- حدثنا جهضم بن عبد الله بن الطفيل عن أبي طيبة عن عثمان بن حمير عن أنس بهذا مطولا ولفظه « ونحن ندعوه في الآخرة » وهو الصواب . وفي رواية الطبري في تفسير ق- حدثني أبو طيبة عن معاوية العبيسي عن عثمان . ورواه ابن مردويه عن رواية علي بن الحكم البزازي وعنبية بن سعيد ، كلاهما عن عثمان بن حمير عن أنس به . وطريق علي بن الحكم عن أبي يعلى وأخرجه ابن أبي شيبة وإسحاق من رواية ليث بن أبي سليم عن عثمان بن عمير به . ورواه الشافعي بإسناد واه قال : أخبرني إبراهيم بن أبي يحيى حدثني موسى بن عبيدة حدثني أبو الأضرع معاوية بن إسحاق بن طلحة عن عبد الله بن حمير أنه سمع أنس بن مالك نحوه . وله طريق أخرى عن أنس أخرجه الطبراني في الأوسط . من رواية ثابت بن ثوبان عن سالم بن عبد الله عن أنس . وقال إسحاق بن راهويه : أخبرنا محمد بن شعيب حدثني عمرو بن حمزة عن أنس . وله شاهد من حديث حذيفة أخرجه البخاري من رواية القاسم بن مطيب عن الأعشى عن أبي رائل عنه .

(٢) أخرجه أبو يعلى والبيهقي في الشعب وابن عدي وابن حبان من رواية أزور بن غالب عن سليمان التيمي عن ثابت عن أنس والأزور . قال الدارقطني : مقروك . رواه أبو يعلى من رواية المختار بن نافع عن عبد الله العمري عن ثابت حدثني أنس ، وأخرجه البخاري في التاريخ في ترجمة المختار . وأخرجه الدارقطني في الأفراد من رواية عبد الواحد بن زيد بن ثابت .

(٣) قال عبد الرزاق أخبرنا ابن جريج عن رجل عن ابن شهاب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من مات يوم الجمعة أوليلة الجمعة وفي فتنة القبر وكتب له أجر شهيد » وقال أبو مرة في السنن : ذكر ابن جريج أخبرني سفيان عن ربيعة بن سيف عن عبد الله بن عمرو مرفوعا مثله . ومن طريق ربيعة أخرجه الترمذي ولم يذكر الشهادة وقال : غريب وليس لربيعه سماع من عبد الله بن عمرو انتهى . وقد وصله الطبراني وأبو يعلى من حديث ربيعة عن عياض عن قبة المزني عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما . وله طريق أخرى أخرجهما أحمد وإسحاق والطبراني من رواية بكية : حدثني معاوية عن سعيد سمعت أبا قبيس سمعت عبد الله بن عمرو نحوه . ورواه أبو نعيم في الحلية في ترجمة ابن المنكدر من طريق عمر بن موسى بن الوحيه عن جابر ، بلفظ « من مات يوم الجمعة أوليلة الجمعة أجبر من عذاب القبر ، وجاء يوم للقيامة عليه طابع الشهادة » .

(٤) قوله « على أبواب المسجد » لعله « المساجد » . وفي الخازن : إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المساجد ملائكة يكتبون ... الخ . (ج)

(٥) أخرجه ابن مردويه من طريق عمرو بن سمرة عن سعد بن طريف عن الأصمعي بن نباتة عن علي وإسناده ضعيف جداً . وهو في الصحيح من حديث أبي هريرة دون قوله بأيديهم صحف من فضة وأقلام من ذهب .

وقيل : أول بدعة أحدثت في الإسلام : ترك البكور إلى الجمعة . وعن ابن مسعود : أنه بكر فرأى ثلاثة نفر سبقوه ، فاغتم وأخذ يعاتب نفسه يقول : أراك رابع أربعة وما رابع أربعة بسعيد^(١) . ولا تقام الجمعة عند أبي حنيفة رضي الله عنه إلا في مصر جامع ، لقوله عليه السلام : لا الجمعة ولا تشريق ولا فطر ولا أضحي إلا في مصر جامع^(٢) . والمصر الجامع : ما أقيمت فيه الحدود ونفذت فيه الأحكام ، ومن شروطها الإمام أو من يقوم مقامه ، لقوله عليه السلام : فمن تركها وله إمام عادل أو جائر ... الحديث^(٣) . وقوله صلى الله عليه وسلم : « أربع إلى الولاية : النية ، والصدقات ، والحدود ، والجمعات »^(٤) . فإن أم رجل بغير إذن الإمام أو من ولاه من قاض أو صاحب شرطة : لم يحز ؛ فإن لم يكن الاستئذان فاجتمعوا على واحد ففعل بهم : جاز ، وهي تعقد بثلاثة سوى الإمام . وعند الشافعي بأربعين . ولا الجمعة على المسافرين والعبيد والنساء والمرضى والزمنى ، ولا على الأعمى عند أبي حنيفة ، ولا على الشيخ الذي لا يمشي إلا بقائد . وقرأ عمر وابن عباس وابن مسعود وغيرهم : فامضوا . وعن عمر رضي الله عنه أنه سمع رجلا يقرأ : فاسعوا . فقال : من أقرأك هذا ؟ قال أبي بن كعب ، فقال : لا يزال يقرأ بالمسوخ ، لو كانت (فاسعوا) لسعيت حتى يسقط رداي . وقيل : المراد بالسعي القصد دون

(١) أخرجه ابن ماجه والبخاري من رواية الأعمش عن إبراهيم عن علقمة قال « خرجت مع عبد الله بن مسعود إلى الجمعة ، فوجد ثلاثة قد سبقوه - فذكره . وليس فيه فاغتم وأخذ يعاتب نفسه . وزاد « إلى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الناس يجلسون من الله يوم القيامة على قدر رواحهم إلى الجمعات » واختلفا في الراوي عن الأعمش مع اتفاقهما على أنه من رواية عبد المجيد بن أبي رواد . ففي ابن ماجه بينهما معمر وفي البخاري بينهما مروان بن سالم . وذكره ابن أبي حاتم في المجلد روى عن عبد المجيد عن الثوري عن الأعمش . وهذا لا يصح عن الثوري .

(٢) لم أره مرفوعا . ورواه ابن أبي شيبة عن علي . وإسناده ضعيف .

(٣) أخرجه ابن ماجه من رواية عبد الله بن محمد المدوني عن علي بن زيد بن جعدان عن سعيد بن المسيب عن جابر قال « خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أيها الناس توبوا إلى الله قبل أن تموتوا - الحديث بطوله » وفيه هذا وغيره أخرجه ابن عدي . وروى عن وكيع أن المدوني كان يضع الحديث . وله طريق أخرى عند أبي يعلى من رواية فضيل بن مرزوق : أخبرني الوليد بن بكير عن عمر بن علي عن سعيد بن المسيب . وفي إسناده نظر . فقال : رواه الطبراني في الأوسط من رواية موسى بن عطية الباهلي عن فضيل بن مرزوق عن عطية عن أبي سعيد . وقال : تفرد به يحيى بن حبيب عن موسى بن عطية . وقال : رواه أحمد بن موسى وعبد الله بن صالح العجلي عن فضيل بن مرزوق عن الوليد بن بكير عن عبد الله بن محمد المدوني عن علي بن زيد عن سعيد بن جابر . قلت : فرجعت الرواية الأخرى إلى المدوني وقال ابن حبان في الضعفاء : أخبرنا ابن خزيمة حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن غزوان حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد ، وقال محمد بن عبد الرحمن يروي المعجبات . ورواه في الضعفاء أيضا من طريق خالد بن عبد الله بن عبيد الله بن زيد عن زهرة بن معبد عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة وأما بخالد بن عبد الله بن عبيد الله بن زيد : اختلف زهرة وعلي في محنته . وكلاهما غير ثابت .

(٤) لم أره مرفوعا .

العدو، والسعى : التصرف في كل عمل . ومثله قوله تعالى (فلما بلغ معه السعى) ، (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) وعن الحسن : ليس السعى على الأقدام ، وسكنه على الثبات والقلوب . وذكر محمد بن الحسن رحمه الله في موطنه : أن عمر سمع الإقامة وهو بالبقيع فأسرع المشى . قال محمد : وهذا لا بأس به ما لم يجهد نفسه (إلى ذكر الله) إلى الخطبة والصلاة ، ولتسمية الله الخطبة ذكر الله قال أبو حنيفة رحمه الله : إن اقتصر الخطيب على مقدار يسمى ذكر الله كقوله : الحمد لله ، سبحان الله : جاز ^(١) . وعن عثمان أنه صعد المنبر فقال : الحمد لله وأرتج عليه ، فقال : إن أبا بكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالا ، وإنكم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوال ، وستأتيتكم ^(٢) الخطب ، ثم نزل ، وكان ذلك بحضرة الصحابة ولم ينكر عليه أحد . وعند صاحبيه والشافعي : لا بد من كلام يسمى خطبة . فإن قلت : كيف يفسر ذكر الله بالخطبة وفيها ذكر غير الله ؟ ^(٣) قلت : ما كان من ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم والثناء عليه وعلى خلفائه الراشدين وأتقياء المؤمنين والموعظة والتذكير فهو في حكم ذكر الله ، فأما ما عدا ذلك من ذكر الظلمة وألقابهم والثناء عليهم والدعاء لهم ، وهم أحقاء بعكس ذلك ؛ فن ذكر الشيطان وهو من ذكر الله على مراحل ، وإذا قال المنصت للخطبة لصاحبه صه ، فقد لنا ، أفلا يكون الخطيب الغالي في ذلك لاغيا ، نعوذ بالله من غربة الإسلام ونسكد الأيام . أراد الأمر بترك ما يذهل عن ذكر الله من شواغل الدنيا ، وإنما خص البيع من بينها لأن يوم

(١) قال : محمد و استدل بذلك على مذهب أبي حنيفة رحمه الله ... الخ . قال أحمد : ولا دليل فيه ؛ فإن العرب تسمى الشيء باسم ما يفتعل عليه ، كما سميت الصلاة مرة قرآنا ومرة جهودا ومرة ركوعا ؛ لأنها مشتملة على ذلك ؛ فكذلك الخطبة لما كانت مشتملة على ذكر الله سميت به ، ولا يلزم أن يكون كذلك كل ما اشتملت عليه . لاسيما والمسمى خطبة عند العرب لا بد وأن يزيد على القدر الذي اكتفى به أبو حنيفة . قال بعض أصحاب مالك رحمه الله : أقلها حمد الله والصلاة على نبيه وتحذير وتهجير وقرآن .

(٢) أتبع العنبري الاستدلال على مذهب أبي حنيفة بالآية ، بأثر عن عثمان : وهو أنه صعد المنبر فقال إن أبا بكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالا وإنكم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوال ، وستأتيتكم الخطب ثم نزل وكان ذلك بحضرة الصحابة فلم ينكر عليه أحد . قال أحمد : ساء بلا اشتباه ، فإن عثمان لم يصدر ذلك منه في خطبة الجمعة ، وإنما كان ذلك في ابتداء خلافته وصعوده المنبر للبيعة ، وكانت عادة العرب الخطب في المهمات . ألا ترى إلى قوله : وستأتيتكم بعد ذلك الخطب ؛ فإن ذلك يحقق أن مقالته هذه ليست بخطبة ، ولو كان في الجمعة لكان تاركا للخطبة بالكلية ، وهي منقولة في التاريخ أنه أرتج عليه فقال : سيحمل الله بعد عمر يسرا وبعد عي بيانا ، وإنكم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوال ، وستأتيتكم الخطب .

(٣) قال محمود : وإن قلت : كيف فسر ذكر الله بالخطبة وفيه ذكر غير الله ، وأجاب بأن ذكر رسول الله والصحابة والخلفاء الراشدين ... الخ . قال أحمد : الدعاء السلطان الواجب الطاعة مشروع بكل حال . وقد نقل عن بعض السلف أنه دعا لسلطان ظالم ف قيل له : أندعوه وهو ظالم ؟ فقال : إي والله أدعوه ، له إن ما يدفع الله ببقائه أعظم مما يدفع برواله ؛ لاسيما إذا ضمن ذلك الدعاء بصلاحه وسداده وتوفيقه ، والله الموفق .

الجمعة يوم يهبط الناس فيه من قراهم وبوادهم، وينصبون إلى المصر من كل أوب ووقت مبولهم واجتماعهم واغتصاص الأسواق بهم إذا انتفخ النهار^(١) وتعالى الضحى ودنا وقت الظهيرة، وحينئذ تحز التجارة ويتكاثر البيع والشراء، فلما كان ذلك الوقت مظنة الذهول بالبيع عن ذكر الله والمضى إلى المسجد، قيل لهم: بادروا تجارة الآخرة، واثركوا تجارة الدنيا، واسمعوا إلى ذكر الله الذى لا شيء أنفع منه وأربح (وذروا البيع) الذى نفعه يسير وربحه مقارب. فإن قلت: فإذا كان البيع فى هذا الوقت مأموراً بتركه محرماً، فهل هو فاسد؟ قلت: عاقبة العلماء على أن ذلك لا يوجب فساد البيع. قالوا: لأن البيع لم يحرم لعينه، ولكن لما فيه من الذهول عن الواجب، فهو كالصلاة فى الأرض المغضوبة والثوب المغضوب، والوضوء بماء مغضوب، وعن بعض الناس: أنه فاسد. ثم أطلق لهم ما حظر عليهم بعد قضاء الصلاة من الانتشار وابتغاء الربح، مع التوصية بالكثارة الذكر، وأن لا يلهيهم شيء من تجارة ولا غيرها عنه، وأن تكون مهمهم فى جميع أحوالهم وأوقاتهم موكلة به لا يتفصون عنه، لأن فلاحهم فيه وفوزهم منوط به: وعن ابن عباس: لم يؤمروا بطلب شيء من الدنيا، إنما هو عيادة المرضى وحضور الجنائز وزيارة أخ فى الله: وعن الحسن وسعيد بن المسيب: طلب العلم، وقيل: صلاة التطوع: وعن بعض السلف أنه كان يشغل نفسه بعد الجمعة بشيء من أمور الدنيا نظراً فى هذه الآية.

وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا آنَفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكَوْكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١)

روى أن أهل المدينة أصابهم جوع وغلاء شديد، فقدم دحية بن خليفة بتجارة من زيت الشام والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة، فقاموا إليه، خشوا أن يسبقوا إليه، فابقى معه إلا يسير. قيل: ثمانية، وأحد عشر، واثنى عشر، وأربعون، فقال عليه السلام: والذى نفس محمد بيده، لو خرجوا جميعاً لأضرم الله عليهم الوادى^(٢) ناراً، وكانوا إذا

(١) قوله «إذا انتفخ النهار» أى علا. وقوله «نحمر» أى تمطش أو يشتد حرها. أفاده الصحاح. (ع)
(٢) هكذا ذكره الواحدى عن المفسرين. وذكره الثعلبى ثم البغوى عن الحسن بغير إسناد. ولفظ الحسن أخرجه عبد الرزاق عن معمر عنه قال «أصاب أهل المدينة جوع وغلاء سمر. فقدمت غير والنبي صلى الله عليه وسلم قائم يخطب يوم الجمعة فسمعوا بها وخرجوا إليها والنبي صلى الله عليه وسلم قائم يخطب كما هو، فأمر الله تعالى (وتركوك قائماً) فقال: لو اتبع آخرهم أولهم لالتب الوادى عليهم ناراً» وفى رواية أبى سفيان الآية عند ابن حبان نحوه قال «والذى نفسى بيده لو تابعتهم حتى لم يبق منكم أحد لسال الوادى عليكم ناراً»: وتروى هذه الآية، وفيهين دحية فى قوله «خشوا أن يسبقوا إليه» رواه الطبرى مختصراً من رواية السدى عن ابن مالك قال: =

أقبلت العير استقبلوها بالطبل والتصفيق ، فهو المراد باللهو : وعن قتادة : فعلوا ذلك ثلاث مرات في كل مقدم عير . فإن قلت : فإن اتفق تفرق الناس عن الإمام في صلاة الجمعة كيف يصنع ؟ قلت : إن بقي وحده أو مع أقل من ثلاثة ، فعند أبي حنيفة : يستأنف الظهر إذا نفروا عنه قبل الركوع . وعند صاحبيه : إذا كبر وهم معه مضى فيها . وعند زفر : إذا نفروا قبل التشهد بطلت . فإن قلت : كيف قال ﴿إليها﴾ وقد ذكر شيئين ؟ قلت : تقديره إذا رأوا تجارة انفضوا إليها ، أو لهوا وانفضوا إليه : فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه ، وكذلك قراءة من قرأ : انفضوا إليه . وقراءة من قرأ : لهوا أو تجارة انفضوا إليها . وقرئ : إليها .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ سورة الجمعة أعطى من الاجر عشر حسنات بعدد من أتى الجمعة وبعدد من لم يأتها في أمصار المسلمين ، » (١) .

== قدم دحية بن خليفة بجارية زبيب من الشام والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة . فلما رآه قاموا خفية أن يسبقوا إليه فزلت (وإذا رأوا تجارة - الآية) وروى البزار من طريق عكرمة عن ابن عباس قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة ، جاء دحية ببيع سلعة فابقي في المسجد أحد الإخراج - إلا نفر - والنبي صلى الله عليه وسلم قائم فزلت . وأصل هذه القصة في الصحيحين من رواية حصين عن سالم بن أبي الجعد عن جابر قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب قائماً يوم الجمعة فجاءت عير من الهام فاقتل الناس حتى لم يبق إلا اثني عشر رجلاً فأنزلت » وفي لفظ مسلم « منهم أبو بكر وعمر » وفي رواية له « أما فيهم » وفي رواية البخاري « بينما نحن نصلي مع النبي صلى الله عليه وسلم إذ أقبلت عير » قال البيهقي : المراد بقوله نصلي أي نسمع الخطبة ، جمعاً بين الروايتين انتهى . وقد أخرجه ابن حبان من رواية أبي سفيان عن جابر كذلك . ولفظه « بينما النبي صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة . فقدمت عير من الشام إلى المدينة فابتدعها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم حتى لم يبق معه إلا اثني عشر رجلاً . الحديث » ويؤيده حديث كعب بن عجرة عند مسلم « أنه أنكر على عبد الرحمن بن أم الحكم أن يخطب قاعداً . فقال : انظروا إلى هذا يخطب قاعداً . والله يقول : وتروك قائماً » ويدل أيضاً على أنه كان في الخطبة ما رواه أبو داود في المراسيل من رواية بكر بن معروف عن مقاتل بن حيان قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي يوم الجمعة قبل الخطبة حتى إذا كان ذات يوم وهو يخطب وقد صلى الجمعة فدخل رجل فقال : إن دحية قد قدم . وكان إذا قدم تغفرو بالدفاف فخرج الناس ، لم يظنوا إلا أنه ليس في ترك الخطبة شيء . فأنزل الله الآية . فقدم النبي صلى الله عليه وسلم الخطبة يوم الجمعة « وآخر الصلاة » (تنبيه) لم أقف على رواية أنهم كانوا ثمانية ولا أحد عشر ، وأما رواية اثني عشر فهي المشهورة الصحيحة . ورواية الأربعين أخرجهما الدارقطني من طريق علي بن عاصم عن حصين : وقال : لم يقل أحد من أصحاب حصين أربعين إلا علي بن عاصم . والكل قالوا : اثني عشر رجلاً . وكذلك قال أبو سفيان عن جابر كما تقدم عند ابن حبان .

(١) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدى بأسانيدهم إلى أبي بن كعب رضى الله عنه .

سورة المنافقون

مدنية ، وهي إحدى عشرة آية [نزلت بعد الحج]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ
وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ
كَفَرُوا قَطِيعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣)

أرادوا بقولهم (نشهد إنك لرسول الله) شهادة واطأت فيها قلوبهم ألتسهم. (١) فقال الله عز وجل : قالوا ذلك (والله يعلم) أن الأمر كما يدل عليه قولهم : إنك لرسول الله ، والله يشهد إنهم لكاذبون في قولهم : نشهد ؛ وادعائهم فيه المواطأة . أو إنهم لكاذبون فيه ، لانه إذا خلا عن المواطأة لم يكن شهادة في الحقيقة ؛ فهم كاذبون في تسميته شهادة . أو أراد : والله يشهد إنهم لكاذبون عند أنفسهم : لأنهم كانوا يعتقدون أن قولهم (إنك لرسول الله) كذب وخبر على خلاف ما عليه حال الخبر عنه . فإن قلت : أى فائدة في قوله تعالى (والله يعلم إنك لرسوله) ؟ قلت : لو قال : قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يشهد إنهم الكاذبون ، لكان يوم أن قولهم هذا كذب ؛ فوسط بينهما قوله (والله يعلم إنك لرسوله) ليميط هذا الإيهام (اتخذوا أيمانهم جنة) يجوز أن يراد أن قولهم نشهد إنك لرسول الله يمين من أيمانهم الكاذبة ، لأن الشهادة تجري مجرى الحلف فيما يراد به من التوكيد ، يقول الرجل : أشهد وأشهد بالله ، وأعزم وأعزم

(١) نال محمود : « إنما كذبهم لأنهم ادعوا أن شهادتهم بألتسهم تواطىء قلوبهم ... الخ » قال أحد : ومثل هذا من نمطه الملبح قوله (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلنا) وقد كان المطابق لقوله (ولكن قولوا أسلنا) أن يقال لهم : لا تقولوا آمنا ، ولكنه لما كان موها للئى عن قول الايمان عدل عنه على ما فيه من الطباق إلى ماسلم الكلام فيه من الوم ، وذلك أجل وأعظم من فائدة المطابقة ، لاسيما في مخاطبة هؤلاء الذين كانوا يتبعون ما لشابه منه ابتغاء للفتنة . الاتراهم كيف غلطوا أنفسهم متغايين ، ولبسوا على منةهم متجاهلين عندما نزل قوله (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) .

بالله في موضع أقسم وأولى . وبه استشهد أبو حنيفة رحمه الله على أن « أشهد » يعين ^(١) . ويجوز أن يكون وصفا للمنافقين في استجنانهم بالإيمان . وقرأ الحسن البصري : (إيمانهم ، أى : ما أظهره من الإيمان بالسنتهم . ويعضده قوله تعالى (ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا) . (ساء ما كانوا يعملون) من نفاقهم وصددهم الناس عن سبيل الله . وفي (ساء) معنى التعجب الذي هو تعظيم أمرهم عند السامعين (ذلك) إشارة إلى قوله (ساء ما كانوا يعملون) أى ذلك القول الشاهد عليهم بأنهم أسوأ الناس أعمالاً () سبب (أنهم آمنوا ثم كفروا) أو إلى ما وصف من حالهم في النفاق والكذب والاستجنان بالإيمان ، أى : ذلك كله بسبب أنهم آمنوا ثم كفروا (فطبع على قلوبهم) فحسروا على كل عزيمة . فإن قلت : المنافقون لم يكونوا إلا على الكفر الثابت الدائم ^(٢) . فما معنى قوله (آمنوا ثم كفروا) ؟ قلت : فيه ثلاثة أوجه ، أحدها : آمنوا ، أى : نطقوا بكلمة الشهادة وفعلوا كما يفعل من يدخل في الإسلام ، ثم كفروا : ثم ظهر كفرهم بعد ذلك وتبين بما أطلع عليه من قولهم : إن كان ما يقوله محمد حقاً فنحن حير ، وقولهم في غزوة تبوك : أيطمع هذا الرجل أن تفتح له قصور كسرى وقصر هيات . ونحوه قوله تعالى (يخلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم) أى : وظهر كفرهم بعد أن أسلموا . ونحوه قوله تعالى (لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم) والثاني آمنوا : أى نطقوا بالإيمان عند المؤمنين ، ثم نطقوا بالكفر عند شياطينهم استهزاء بالإسلام ، كقوله تعالى (وإذا لقوا الذين آمنوا) إلى قوله تعالى (إنما نحن مستهزؤن) والثالث : أن يراد أهل الردة منهم . وقرئ : فطبع على قلوبهم . وقرأ زيد بن علي : فطبع الله .

(١) قال محمد : « استدلل لابي حنيفة على أن قول القائل « أشهد » يعين بقوله (اتخذوا أيمانهم جنة) ولم يصدر منهم إلا قولهم (نشهد إنك لرسول الله) فجعله يمينا » قال أحمد : أحد القولين عند مالك رحمه الله إذا قال أشهد وأحلف وأقسم ولم ينو بالله ولا بغيره ، كما نقل عن أبي حنيفة أنه يعين وليس بالمشهور . أما لو نوى بالله وإن لم يتلفظ فيمين بلا إشكال ، وليس فيما ذكره دليل على ما ذكره ، فإن قوله (اتخذوا أيمانهم جنة) غايته أن ما فكره يسمى يمينا ، وليس الخلاف في تسميته يمينا ؛ وإنما الخلاف هل يكون يمينا منعقدة يلزم بالحنث فيها كفر أم لا ؟ وليس كل ما يسمى حلفاً أرقباً يوجب حكماً ، ألا ترى أنه لو قال : « أحلف » ولم يقل « بالله » ولا بغيره ، فهو من حال الخلاف في وجوب الكفارة به ، وإن كان حلفاً لغة باتفاق ، لأنه فعل مهتمق منه .

(٢) قال محمد : « المنافقون لم يكونوا إلا على الكفر الثابت الدائم ... الخ . قال أحمد : ويحتمل وجهاً رابعاً وهو أنهم آمنوا به قبل مبته على الصفة المذكورة في التوراة ، لأنهم كانوا يسمعونها من جيرانهم اليهود ، ثم كفروا به بعد مبته وموافقة الصفة ، ولعل في المنافقين يهوداً ، وإن لم يكن فقد كان الإيمان قبل مبته من الفريقين : اليهود وعبد الأوثان من العرب ، إلى نزول قوله (لم يكن الذي كفروا من أهل الكتاب والمشركين متفككين حق فأنهم للجنة) كيف حكى الله تعالى عن الفريقين ما كانوا يقولونه . والبيئة : التي صلى الله عليه وسلم .

وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوِّهِمْ كَأَنَّهُمْ
خَشَبٌ مُسْتَنْدٌ يُحْسِبُونَ كُلَّ صَوِّعَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَتَلَهُمُ اللَّهُ
أَنَّهُ يُؤْفِكُونَ ﴿٤﴾

كان عبد الله بن أبي رجلا جسيما صليحا ، فصيحاً ، ذاق اللسان^(١) وقوم من المنافقين في مثل صفته ، وهم رؤساء المدينة ، وكانوا يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فيستندون فيه ، ولهم جهارة المناظر وفصاحة الألسن^(٢) ؛ فكان النبي صلى الله عليه وسلم ومن حضر يعجبون بهياكلهم ويسمعون إلى كلامهم . فإن قلت : ما معنى قوله ﴿ كَأَنَّهُمْ خَشَبٌ مُسْتَنْدٌ ﴾ ؟ قلت : شبهوا في استنادهم - وماهم إلا أجرام خالية عن الإيمان والخير - بالخشب المستند إلى الحائط ؛ ولأن الخشب إذا انتفع به كان في سقف أو جدار أو غيرها من مظان الارتفاع ، وما دام متروكا فارغا غير منتفع به أسند إلى الحائط ، فشبهوا به في عدم الارتفاع . ويجوز أن يراد بالخشب المستند : الأصنام المنحوتة من الخشب المستندة إلى الحيطان ؛ شبهوا بها في حسن صورهم وقلة جدواهم ؛ والخطاب في (رأيتهم تعجبك) لرسول الله ، أو لكل من يخاطب . وقرئ : يُسْمَعُ ، على البناء للفعول ، وموضع (كأنهم خشب) رفع على : هم كأنهم خشب . أو هو كلام مستأنف لإحمل له . وقرئ : خشب جمع خشبة ، كبذنة وبدن . وخشب ، كشمرة وثمر . وخشب ، كمدرة ومدر ، وهي في قراءة ابن عباس . وعن الزيدى أنه قال في (خشب) : جمع خشباء ، والخشباء : الخشبة التي دعر جوفها^(٣) ؛ شبهوا بها في نفاقهم وفساد بواطنهم (عليهم) ثاني مفعولي يحسبون^(٤) ، أى : يحسبون كل صيغة واقعة عليهم وضارة لهم ، لجنهم واهلهم وما في قلوبهم من الرعب ؛ إذا نادى مناد في العسكر أو انفلتت دابة أو أنشدت ضالة : ظنوه إيقاعا بهم . وقيل : كانوا على وجل من أن ينزل الله فيهم ما يهلك أستارهم ويبيح دماءهم وأموالهم . ومنه أخذ الاضطراب :

(١) قوله « فصيحاً ذاق اللسان » أى طلق اللسان ، كذا في الصحاح . (ع)

(٢) قال محمود : « كانوا يجالسون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويستندون في المجلس ولهم جهارة المناظر وفصاحة الألسن ... الخ » : قال أحمد : وفيما قال الزيدى نظر من حيث مقتضى العربية ، وإلا فهو متمكن المعنى ، وذلك أنها قرئت بضم الشين وسكونها فراءتين مستفيضتين ، ففيه دليل أن أصلها الضم ، ولا يكون إنما هو طارئ عليه تحفيفاً ، وهذا يبعد كونها جمع خشباء على وزن فعلاء ؛ لأن قياس جمده فعل يسكون العين كحمراء وجر ، ولا يطرأ الضم ، فلو كان كما قال لم تضم شينها ، واقه تعالى أعلم .

(٣) قوله « التي دعر جوفها » أى فسد . أفاده الصحاح . (ع)

(٤) قال محمود : « المفعول الثاني (عليهم) تقديره : واقعة عليهم ... الخ » قال أحمد : وغلا المتن في المعنى فقال : وضاعت الأرض حتى صار هاربهم إذا رأى غير شيء . ظنه رجلا

مَا زِلْتَ تَحْسِبُ كُلَّ شَيْءٍ بِعَدَّتُمْ خَصَلًا تَكْثُرُ عَلَيْهِمْ وَرِجَالًا^(١)

يوقب على (عليهم) ويبدأ (هم العدو) أى الكاملون فى العداوة : لأن أعدى الأعداء العدو المداحى^(٢) ، الذى يكاشرك وتحت ضلوعه الداء الدوى (فاحذرهم) ولا تغتر بظواهرهم . ويجوز أن يكون (هم العدو) المفعول الثانى ، كما لو طرحت الضمير . فإن قلت : لحقه أن يقال : هو العدو . قلت : منظور فيه إلى الخبر ، كما ذكر فى (هزارى) وأن يقدر مضاف محذوف على : يحسبون كل أهل صيحة (قاتلهم الله) دعاء عليهم ، وطلب من ذاته أن يلغىهم ويخزىهم . أو تعليم للؤمنين أن يدعوا عليهم بذلك (أنى يؤفكون) كيف يعدلون عن الحق تعجباً من جهلهم^(٣) وضلالهم .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا بَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوْ ذَا رُؤسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ۝ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ^(٦)
(لووا رؤسهم) عطفوها وأمالوها إعراضاً عن ذلك واستكباراً . وقرئ بالتخفيف والتشديد للتكثير .

فُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَقُوا وَلِلَّهِ حَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ^(٧) يَقُولُونَ لَسِئَلُ رَبَّنَا إِلَى الْعَدِيبَةِ أَمُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ^(٨)

روى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين لقي بنى المصطلق على المريسيع وهو ماء لهم وهزمهم وقتل منهم : ازدحم على الماء جهجاه بن سعيد أجير لعمر يقود فرسه ،

(١) الأخطل ، يقول : لازلت يا جرير تظن كل شيء بعدى ، أى : بعد خذلان قومك . ويجوز أن يمدحهم بغيرهم ، خيلاً تكثر : أى ترجع بمرقة عليهم ورجالا لكثرة ما قام بقلبك من الخوف .

(٢) قوله «العدو المداحى الذى يكاشرك» أى المدارى . ولا تكسر : التهم تبدو منه الإنسان . والدوى - مقصور - المرض ، تقول : دوى الرجل - بالكسر : مرض ودوى صدره أيضاً : ضغن . ودوى الرج : حفيها ، كذا فى الصحاح . (ع)

(٣) قوله «تعجباً من جهلهم» لعله تعجب ، بل لعله : تعجب . (ع)

وسنان الجهني حليف لعبد الله بن أبيّ، واقتتلا، فصرخ جهجاه: يا للهاجرين: وسنان: يا لأنصار: فأعان جهجاهما جعل من فقراء المهاجرين واطم سنانا. فقال عبد الله لجمال: وأنت هناك، وقال: ما محبنا محمداً إلا لنلطم، والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال: سمنك كلك يا كلك، أما والله لن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، عني بالأعز: نفسه، وبالأذل: رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال لقومه: ماذا فعلتم بأنفسكم؟ أحللتهم بلادكم وقاسمتهم أموالكم؟ أما والله لو أمسكتهم عن جمال وذويه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم، ولأوشكوا أن يتحولوا عنكم فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد، فسمع بذلك زيد بن أرقم وهو حدث. فقال: أنت والله الذليل القليل المبعوض في قومك، ومحمد في عز من الرحمن وقوة من المسلمين، فقال عبد الله: اسكت فإنما كنت ألعب، فأخبر زيد رسول الله فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق يارسول الله، فقال: إذن ترعد أنف كثيرة ييثر ب. قال: فإن كرهت أن يقتله مهاجري، فأمر به أنصارياً فقال: فكيف إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟ وقال عليه الصلاة والسلام لعبد الله: أنت صاحب السلام الذي بلغني؟ قال: والله الذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئا من ذلك، وإن زيدا لكاذب، وهو قوله تعالى (اتخذوا أيمانهم جنة) فقال الحاضرون: يارسول الله: شيخنا وكبيرنا لا تصدق عليه كلام غلام، عني أن يكون قد وهم. وروى أن رسول الله قال له: لعلك غضبت عليه: قال: لا: قال: فلعله أخطأ سمعك: قال: لا: قال: فلعله شبه عليك: قال: لا. فلما نزلت: لحق رسول الله زيدا من خلفه فمرك أذنه وقال: وفيت أذنك يا غلام، إن الله قد صدقك وكذب المنافقين^(١). ولما أراد عبد الله أن يدخل المدينة: اعترضه ابنه حباب، وهو عبد الله بن عبد الله غير رسول الله اسمه، وقال: إن حباباً اسم شيطان. وكان مخلصاً وقال: ورامك، والله: لا تدخلها حتى تقول رسول الله الأعز وأنا الأذل، فلم يزل حبيساً في يده حتى أمره رسول الله بتخليته^(٢). وروى أنه قال له:

(١) هكذا ذكره الواقدي في المغازي بغير إسناد وهواه إلى الشلب والواحدى ولاصحاب السير، وأخرجه ابن إسحاق في السيرة: حدثني عامر بن مهران قتادة، وعبد الله بن أبي بكر ومحمد بن يحيى بن حبان كل قد حدثني بعض حديث بني المصطلق - فذكر لغزوة بطولها والقصة المذكورة باختلاف يسير. وكذا أخرجه الطبري من طريقه وأصل القصة في الصحيحين من طريق أبي إسحاق عن زيد بن أرقم قال: كنت مع عمي فسمعت عبد الله بن أبي يقول - الحديث - وأوله عندهما أيضاً من طريق عمرو بن دينار عن جابر قال: كنا في غزوة بني المصطلق فتبع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، ورواه الترمذي والنسائي والحاكم من طريق أبي سعد الأودي حدثنا زيد بن أرقم قال: غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان معنا أناس من الأعراب فكننا نبتدر الماء وكان الأعراب يسبقونا فسبق أعرابي. فلا الحوض، فذكر القصة بطولها. وفي سياقتها اختلاف.

(٢) هكذا ذكره الثعلبي موصولاً بالذي قبله، وروى الزبيدي من طريق عمرو بن دينار عن جابر أصل القصة وقال بعد عمر: دعني أضرب عنقه. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه، قال وقال =

لئن لم تقر الله ورسوله بالعز لأضربن عنقك ، فقال : ويحك ، أفاعل أنت ؟ قال : نعم . فلما رأى منه الجد قال : أشهد أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، فقال رسول الله لابنه : جزاك الله عن رسوله وعن المؤمنين خيراً ^(١) . فلما بان كذب عبد الله قيل له : قد نزلت فيك آى شداد ، فاذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر لك . فآوى رأسه ثم قال : أمرتموني أن أومن فأمنت ، وأمرتموني أن أركى مالى فركيت . فما بقى إلا أن أجد محمد ، فنزلت (وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله) ولم يلبث إلا أياماً فلا تمل حتى اشتكى ومات ^(٢) (سواء عليهم) الاستغفار وعدمه ، لأنهم لا يلتفتون إليه ولا يعتدون به لكفرهم . أو لأن الله لا يغفر لهم . وقرئ : استغفرت ، على حذف حرف الاستفهام : لأن ، أم ، المعادلة تدل عليه . وقرأ أبو جعفر : استغفرت ، إشباعاً لمزة الاستفهام للإظهار والبيان ، لا قلباً لمزة الوصل ألفاً ، كما فى : آل سحر ، وآله (ينفضوا) يفرقوا . وقرئ : ينفضوا ، من انفض القوم إذا فئت أزوادهم . وحقيقته : حان لهم أن ينفضوا مزادهم (والله خزائن السموات والأرض) ويده الأرضاق والغسم ، وهو رازقهم منها ؛ وإن أبى أهل المدينة أن ينفقوا عليهم ، ولكن عبد الله وأضرابه جاهلون (لا يفقهون) ذلك فيهدون بما يزين لهم الشيطان . وقرئ : ليخرجن الأعز منها الأذل بفتح الياء . وليخرجن ، على البناء للفعول . قرأ الحسن وابن أبى عتبة : لنخرجن ، بالنون ونصب الأعز والأذل . ومعناه : خروج الأذل . أو إخراج الأذل . أو مثل الأذل (والله العزة) الغلبة والقوة ، ولئن أعزه الله وأيده من رسوله ومن المؤمنين ، وهم الإخصاء بذلك ، كما أن المذلة والهوان للشيطان وذويه من الكافرين والمنافقين . وعن بعض الصالحات - وكانت فى هيئة رثة - ألسنت على الإسلام ؟ وهو العز الذى لا ذل معه ، والغنى الذى لا فقر معه . وعن الحسن بن على رضى الله عنهما : أن رجلاً قال له : إن الناس يزعمون أن فىك تنها ؛ قال : ليس بتيه ، ولكن عزة ، وتلا هذه الآية .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ ءَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ

يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾

== غير عمر وقال له ابنه عبدالله بن عبدالله والله لا تنفقت حتى تقول إنك الذليل ورسول الله صلى الله عليه وسلم العزيز ففعل . قلت : وأصل حديث جابر فى الصحيح .

(١) هكذا أورده الثعلبى موصولاً بالحديث الذى قبله .

(٢) ذكره الثعلبى موصولاً بالذى قبله . وأخرجه الطائرى من رواية إبراهيم بن الحكم بن أبان عن أبيه عن بشر بن مسلم وأنه قيل لعبدالله بن أبى : يا أبأ الحباب : إنه أزل آى شداد ، فاذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فذكره أخصر منه .

(لَا تَلْهَكُمْ) لَا تَشْغَلْكُمْ (أَمْوَالُكُمْ) والتصرف فيها : والسعى في تدبير أمرها : والتهاك على طلب النماء فيها بالتجارة والاعتلال ، وابتغاء النتائج والتلذذ بها : والاستمتاع بمنافعها (وَلَا أَوْلَادَكُمْ) وسروركم بهم ، وشفقتكم عليهم ، والقيام بمقنهم ، وتسوية ما يصلحهم من معاشهم في حياتكم وبعد مماتكم ، وقد عرقت قدر منفعة الأموال والأولاد ، وأنه أهون شيء وأدونه في جنب ما عند الله (عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ) وإيثاره عليهما (وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ) يريد الشغل بالدنيا عن الدين (فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) في تجارتهم حيث باعوا العظيم الباقي بالحقير الفاني . وقيل : ذكر الله الصلوات الخمس . وعن الحسن : جميع الفرائض ، كأنه قال : عن طاعة الله . وقيل : القرآن . وعن السكبي : الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ١٠
وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ١١

من في (عما رزقناكم) للتبويض ، والمراد : الإنفاق الواجب (من قبل أن يأتي أحدكم الموت) من قبل أن يرى دلائل الموت ، ويعاين ما يبأس معه من الإمهال ، ويضيق به الخناق ، ويتعذر عليه الإنفاق ويفوت وقت القبول ، فيتحسر على المنع ، ويعرض أنامله على فقد ما كان متمسكاً منه . وعن ابن عباس رضى الله عنه : تصدقوا قبل أن ينزل عليكم سلطان الموت ، فلا تقبل توبة ، ولا ينفع عمل . وعنه : ما يمنع أحدكم إذا كان له مال أن يزكي ، وإذا أطاق الحج أن يحج من قبل أن يأتيه الموت ، فيسأل ربه الكرة فلا يعطاها . وعنه : أنها نزلت في ما نعى الزكاة ، والله لو رأى خيراً لما سأل الرجعة ، فقبل له : أما تتق الله ، يسأل المؤمنون الكرة ؟ قال : نعم ، أنا أقرأ عليكم به قرآنا ، يعنى : أنها نزلت في المؤمنين وهم المخاطبون بها ، وكذا عن الحسن : ما من أحد لم يزك ولم يصم ولم يحج إلا سأل الرجعة . وعن عكرمة أنها نزلت في أهل القبلة (لولا أخرتني) . وقرئ : أخرتني ، يريد : هلا أخرت موق (إلى أجل قريب) إلى زمان قليل (فأصدق) وقرأ أى : فأصدق على الأصل . وقرئ : وأكن ، عطفاً على محل (فأصدق) كأنه قيل : إن أخرتني أصدق وأكن . ومن قرأ : وأكون على النصب ، فعلى اللفظ . وقرأ عبيد بن عمير : وأكون ، على : وأنا أكون عدة منه بالصلاح (ولن يؤخر الله) نبي للتأخير على وجه التأكيد الذى معناه منافاة المنق الحسنة . والمعنى : إنكم إذا علمتم أن تأخير الموت عن وقته مما لا سبيل إليه . وأنه هاجم لا محالة ، وأن الله عليم بأعمالكم فجاز

عليها ، من منفع واجب وغيره : لم تبق إلا المسارعة إلى الخروج عن عهدة الواجبات والاستعداد للقاء الله . وقرئ : تعملون ، بالياء والياء . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة المنافقين برئ من النفاق » ^(١) .

سورة التغابن

مختلف فيها ، وهي ثمان عشرة آية [نزلت بعد التحريم]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْبَحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ①
هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنَسَفَكُمْ ② كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ③
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ④
يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُعْتَرُونَ ⑤
وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ⑥

قدم الطرفان ليدل بتقديمهما على معنى اختصاص الملك والحمد بالله عز وجل ، وذلك لأن الملك على الحقيقة له ، لأنه مبدئ كل شيء ومبدعه ، والقائم به ، والمهيمن عليه ؛ وكذلك الحمد ، لأن أصول النعم وفروعها منه . وأما ملك غيره فتسليط منه واستعلاء ، وحده اعتداد بأن نعمة الله جرت على يده (هو الذي خلقكم فنفكم كافرين ومنكم مؤمن) يعني : فنكم أت بالكفر وفاعل له ^(١)

(١) أخرجه ابن مردويه والعلابي والواحدى بأسانيدهم إلى أبي بن كعب .

(٢) قوله « فنكم أت بالكفر وفاعل له » قد أول الآية بمذهب المعتزلة : من أت العبد هو الخالق لفعله الاختياري ، ومذهب أهل السنة : أن العبد ليس له في فعله إلا الكسب ، وخالفه في الحقيقة هو الله عز وجل ، بدليل قوله تعالى (والله خلقكم وما تعملون) خيراً كان أو شراً ، وكما أن خلق الكافر لا يستوجب الذم كما يقول خلق كفره لا يستوجب الذم لأنه لحكمة وإن خفيت علينا . (ع)

ومنكم آت بالإيمان^(١) وفاعل له ، كقوله تعالى (وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب) ، (فهم مهتد وكثير منهم فاسقون) والدليل عليه قوله تعالى (والله بما تعملون بصير) أى عالم بكفركم وإيمانكم اللذين هما من عملكم . والمعنى : هو الذى تفضل عليكم بأصل النعم الذى هو الخلق والإيجاد عن العدم ، فكان يجب أن تنظروا النظر الصحيح ، وتكونوا بأجمعكم عباداً شاكرين ، فما فعلتم مع تمكّنكم ، بل تشعبتم شعباً ، وتفرقتم أما ؛ فنكم كافر ومنكم مؤمن ، وقدم الكفر لانه الأغلب عليهم والاكثر فيهم . وقيل : هو الذى خلقكم فنكم كافر بالخلق وهم الدهرية ، ومنكم مؤمن به . فإن قلت : نعم ، إن العباد هم الفاعلون للكفر ، ولكن قد سبق فى علم الحكيم أنه إذا خلقهم لم يفعلوا إلا الكفر ولم يختاروا غيره ، فما دعاه إلى خلقهم مع علمه بما يكون منهم ؟ وهل خلق القبيح وخلق فاعل القبيح إلا واحد ؟ وهل مثله إلا مثل من وهب سيفاً باتراً لمن شمر بقطع السيل وقتل النفس المحترمة فقتل به مؤمناً ؟ أما يطبق العقلاء على ذم الواهب وتعنيفه والدق فى فروته^(٢) كما يذمون القاتل ؟ بل إنحازوهم بالوائهم على الواهب أشد ؟ قلت : قد علمنا أن الله حكيم عالم بقبح القبيح عالم بغناه عنه ، فقد علمنا أن أفعاله كلها حسنة ، وخلق فاعل القبيح فعله ، فوجب أن يكون حسناً ، وأن يكون له وجه حسن ؛ وخفاء وجه الحسن علينا لا يقدح فى حسنه ، كما لا يقدح فى حسن أكثر مخلوقاته جهلنا بداعى الحكمة إلى خلقها (بالحق) بالعرض الصحيح والحكمة البالغة ، وهو أن جعلها مقام المسكفين ليعملوا فيجازيهم (وصوركم فأحسن صوركم) وقرئ : صوركم بالسكسر ، لتشكروا . وإليه مصيركم فجزاؤكم على الشكر والتفريط فيه . فإن قلت : كيف أحسن صورهم ؟ قلت : جعلهم أحسن الحيوان كله وأجابه ، بدليل أن الإنسان لا يتمنى أن تكون صورته على خلاف ما يرى من سائر الصور . ومن حسن صورته

(١) قال محمد : د معناه : فنكم آت بالكفر وفاعل له ومنكم آت بالإيمان ... الخ . قال أحمد : لفه ركب محيا . وخبط خبط عشواء ، واقتنع وعراً : السالك فيه هالك ، والناظر فيه عائر ؛ وإنما ينصب إلى هاروى الأراك ، ويحوم حول مراتع الاشراك ؛ ويبحث ولكن على حشفة بظلمة ، ويتحدق وما هو إلا يتشددق ، ويتحقق وما هو إلا يتفقق ؛ وهب أنه أعرض عن الأدلة العقلية والنصوص العقلية المتظافرة على أن الله تعالى خالق كل شيء ، وأطرده فى الشاهد ما ادعاه . ومن مذهبه قياس الغائب على الظاهر ، قد التجأ إلى الاعتراف بأن الله خالق العبد الفاعل للقبيح ، وأن خلق العبد الفاعل للقبيح بمثابة إعطاء السيف البار للرجل الفاجر ، وأن هذا يبيح شاهداً ، ولا يلزم أن يكون مثله قبيحاً فى خلق الله تعالى ، أفلا يجوز أن يكون منطويا على حكمة استأثر الله بعلمها ، فأؤمنه من دعوى أن أفعال العبد وإن استتبعها العقلاء مخلوقة لله تعالى ، وفى خلقها حكمة استأثر الله بعلمها ، وهل الفرق إذا إلا عين التحكم ، ونفس اتباع الهوى . هذا ودون تمكّنه من اتباع هذه القواعد : أن يمكن من اقتناء اغتراف ، ومن الجمل أن يبلغ فى سم الحياط .

(٢) قوله : والدق فى فروته ، فى الصالح د لفروته ، : جلدة الرأس . والفروة : قطعة نيات مجتمعة

بابية اه . (ع)

أنه خلق متصفاً غير منكب ، كما قال عز وجل (في أحسن تقويم) . فإن قلت : فكيف من دمهم مشوه الصورة سمح الخلقة فتقحمه العيون ؟ قلت : لا سماجة ثم ولكن الحسن كغيره من المعاني على طبقات ومراتب ، فلا انحطاط بعض الصور عن مراتب ما فوقها انحطاطاً ينياً وإضافتها إلى الموفق^(١) عليها لا تستملح ، وإلا فهي داخلة في حيز الحسن غير خارجة عن حده . ألا ترى أنك قد تعجب بصورة وتستملحها ولا ترى الدنيا بها ، ثم ترى أملح وأعلى في مراتب الحسن منها فينبو عن الأولى طرفك ، وتستقل النظر إليها بعد افتتانك بها وتها لكك عليها . وقالت الحكمة : شيآن لا غاية لها : الجمال ، والبيان . نبه بعلمه ما في السموات والأرض ، ثم بعلمه ما يسره العباد ويعلمونه ، ثم بعلمه ذوات الصدور : أن شيئاً من السكليات والجزئيات غير خاف عليه ولا عازب عنه ، فحقه أن يتي ويحذر ولا يجترأ على شيء مما يخاف رضاه . وتكرير العلم في معنى تكرير الوعيد ، وكل ما ذكره بعد قوله تعالى (فأنكم كافر ومنكم مؤمن) كما ترى في معنى الوعيد على الكفر ، وإنكار أن يعصى الخالق ولا تشكر نعمته فـأجهل من يمزج الكفر بالخلق^(٢) ويجعله من جملة ، والخلق : أعظم نعمة من الله على عباده ، والكفر : أعظم كفران من العباد لربهم .

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكُفِّرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌ حَمِيدٌ ﴿٦﴾

(ألم يأتكم) الخطاب لكفار مكة . و (ذلك) إشارة إلى ما ذكر من الوبال الذي ذاقوه في الدنيا وما أعد لهم من العذاب في الآخرة (بأنه) بأن الشأن والحديث (كانت تأتيم رسلهم ... أبشر يهدوننا) أنسكروا أن تكون الرسل بشراً ، ولم ينسكروا أن يكون الله حجراً (واستغنى الله) أطلق ليتناول كل شيء ، ومن جملة إيمانهم وطاعتهم . فإن قلت : قوله (وتولوا واستغنى الله) يوم وجود التولي والاستغناء معاً^(٣) ، والله تعالى لم يزل غنياً . قلت : معناه : وظهر استغناء الله حيث لم يلجئهم إلى الإيمان ولم يضطرهم إليه مع قدرته على ذلك .

(١) قوله وإضافتها إلى الموفق عليها ، يعني إلى المتفوق عليها من الصور . (ع)

(٢) قوله « فـأجهل من يمزج الكفر بالخلق » يريد أهل السنة : حيث يقولون أنه تعالى هو الخالق لأعمال العباد حتى الكفر وغيره من المعاصي ، ولا وجه لتجهيلهم مع استنادهم إلى قوله تعالى « والله خلقكم وما تمعلون » . (ع)
(٣) قال محمود : وأطلقه ليتناول كل شيء . ثم قال فإن قلت كان التولي فهم ... الخ . قال أحمد : إنما الحق أنه لم يخلق لهم إيماناً ولا قدرة عليه ، فكان قادراً أن يخلق لهم الإيمان والقدرة عليه ، وإنما حرفها الزمخشري إلى قاعدته .

زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُخَوَّلَ قُلُوبُ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنْ يَدْعُوا بِهِمُ الرَّبَّ لَئِنْ لَمْ يَنْزِلْ بِهِمُ الْغَيْبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ يَسِيرٌ (٧) فَأَمُنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨)

الزعم : ادعاء العلم : ومنه قوله عليه السلام ، زعموا مطية الكذب ، (١) وعن شريح : لكل شيء كنية وكنية الكذب ، زعموا ، ويتمدى إلى المفعولين تعدى العلم . قال :
* ... وَلَمْ أَزْعَمْكَ عَنْ ذَلِكَ مَعْرَلاً * (٢)

وإن مع ما في حيزه قائم مقامهما . ولذين كفروا . أهل مكة . و(بني) إثبات لما بعد لن ، وهو البعث (وذلك على الله يسير) أى لا يصرفه عنه صارف . وعنى برسوله والنور : محمداً صلى الله عليه وسلم والقرآن .

يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيَدْخُلْهُ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٠)

وقرى : نجمكم . ونكفر . وندخله ، بالياء والنون . فإن قلت : بم انتصب الظرف ؟ قلت بقوله : لتنبؤن ، أو بخير ، لما فيه من معنى الوعيد ، كأنه قيل : والله معاقبكم يوم يجمعكم . أو بإضماره اذكر ، (ليوم الجمع) ليوم يجمع فيه الأولون والآخرين . التغابن : مستعار من تغابن القوم في التجارة ؛ وهو أن يغبن بعضهم بعضاً ، لنزول السعداء منازل الأشقياء التي كانوا ينزلونها لو كانوا سعداء ، ونزول الأشقياء منازل السعداء التي كانوا ينزلونها لو كانوا أشقياء . وفيه تهكم بالأشقياء ؛ لأن نزولهم ليس بغبن . وفي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وما من عبد يدخل الجنة إلا أرى مقعده من النار لو أساء ، ليزداد شكراً . وما من عبد يدخل النار إلا أرى مقعده من

(١) لم أجده مرفوعاً بهذا اللفظ وقد تقدم في أوائل البقرة بالفظ «بنس» مطية الرجل إلى الكذب زعموا ، وقد تقدم عن شريح : زعموا كنية الكذب .

(٢) وإن الذى قد عاش يا أم مالك يموت ولم أزعملك عن ذلك معزلاً يقول : وإن كل حي وإن حال عمره يموت ، ولم أظنك يا أم مالك معزلاً عن ذلك الحكم أو الموت . والمعزول : مكان الدرة والافتراد ، أى : لم أظنك فى معزول عنه أو ذات معزول أو معزولة . أو نفس المعزول مبالغة .

الجنة لو أحسن، إزداد حسرة، ^(١١) ومعنى ﴿ذلك يوم التغابن﴾ - وقد يتغابن الناس في غير ذلك اليوم -: استعظام له وأن تغابنه هو التغابن في الحقيقة، لا التغابن في أمور الدنيا وإن جلت وعظمت ﴿صالحاً﴾ صفة للمصدر، أى: عملاً صالحاً.

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ

شَيْءٍ عَلِيمٌ ^(١١)

﴿إلا بإذن الله﴾ إلا بتدبيره ومشيئته، كأنه أذن للمصيبة أن تصيبه (يهد قلبه) يلطف به ويشرحه للازدياد من الطاعة والخير. وقيل: هو الاسترجاع عند المصيبة. وعن الضحاك: يهد قلبه حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه. وما أخطأه لم يكن ليصيبه. وعن مجاهد: إن ابتلى صبر، وإن أعطى شكر، وإن ظلم غفر. وقرئ: يهد قلبه، على البناء للمفعول، والقلب: مرفوع أو منصوب. ووجه النصيب: أن يكون مثل سفه نفسه، أى: يهد في قلبه. ويجوز أن يكون المعنى: أن الكافر ضال عن قلبه بعيد منه، والمؤمن واجد له مهتد إليه، كقوله تعالى (لمن كان له قلب) وقرئ: نهد قلبه، بالنون. ويهد قلبه، بمعنى: يهتد. ويهدأ قلبه: يطمئن. ويهد. ويهدأ على التخفيف ﴿والله بكل شيء عليم﴾ يعلم ما يؤثر فيه اللطف من القلوب مما لا يؤثر فيه فيمنحه ويمنحه.

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ^(١٢)

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ^(١٣)

﴿فإن توليتم﴾ فلا عليه إذا توليتم، لأنه لم يكتب عليه طاعتكم، إنما كتب عليه أن يبلغ ويبين بحسب ﴿وعلى الله فليتكمل المؤمنون﴾ بعث لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم على التوكل عليه والتقوى به في أمره، حتى ينصره على من كذبه وتولى عنه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ
وَبِأَن تَعْمُوا وَتَصَفَّحُوا وَتَقَرُّوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ^(١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ

وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ^(١٥)

(١١) رواه البخارى من رواية الأعرج عن أبي هريرة: وفى المتفق عليه من حديث أنس فى قصة المؤمن، فيقال له: انظر إلى مقدمك من النار أبداً لك به مقدماً من الجنة. قال نبي الله: فهما جيبا، ولها عن ابن عمر «إن أحكم إذا مات عرض عليه مقدمه بالعداء والعشى - الحديث».

إن من الأزواج أزواجاً يعادين بعواتهن ويخاصمنهم ويحلبن عليهم ، ومن الأولاد أولاداً يعادون آباءهم ويعقونهم ويجرعونهم الفصص والأذى (فاحذروهم) الضمير للعدو أو للأزواج والأولاد جميعاً ، أى : لما علمتم أن هؤلاء لا يخلون من عدو ، فكونوا منهم على حذر ولا تأمنوا غوائلهم وشرهم (وإن تعفوا) عنهم إذا اطلعت منهم على عداوة ولم تقابلوهم بمثلاً ، فإن الله يغفر لكم ذنوبكم ويكفر عنكم . وقيل : إن ناساً أرادوا الهجرة عن مكة ، فقبضهم أزواجهم وأولادهم وقالوا : تطلقون وتضيعوننا فرقرأهم ووقفوا ، فلما هاجروا بعد ذلك ورأوا الذين سبقوهم قد فقهوا في الدين : أرادوا أن يعاقبوا أزواجهم وأولادهم ، فزين لهم العفو . وقيل : قالوا لهم : أين تذهبون وتدعون بلدكم وعشيرتكم وأموالكم ، فغضبوا عليهم وقالوا : لن جمعنا الله في دار الهجرة لم نصبكم بخير ، فلما هاجروا منعهم الخير ، فحثوا أن يعفوا عنهم ويردوا إليهم البر والصلة . وقيل : كان عوف بن مالك الأشجعي ذا أهل وولد ، فإذا أراد أن يغزو تعلقوا به وبكوا إليه ورققوه ، فكأنه هم بأذام ، فنزلت (فتنة) بلاء ومحنة ، لأنهم يوقعون في الإثم والعقوبة ، ولا بلاء أعظم منهما : ألا ترى إلى قوله (والله عنده أجر عظيم) وفي الحديث « يؤتى برجل يوم القيامة فيقال : أكل عياله حسناته » ^(١) وعن بعض السلف : العيال سوس الطاعات . وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يخطب ، فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يمثران ويقومان ، فنزل إليهما فأخذهما ^(٢) ووضعهما في حجره على المنبر فقال : « صدق الله (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) رأيت هذين الصبيين فلم أصبر عنهما ، ثم أخذ في خطبته . وقيل : إذا أمكنكم الجهاد والهجرة فلا يفتنكم الميل إلى الأموال والأولاد عنهما .

فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ

شَحْ نَفْسِهِ قَاوَلَتْ لِكُلِّ أَصْحَابٍ

(ما استطعتم) جهدكم ووسعكم ، أى : ابدلوا فيها استطاعتكم (واسمعوا) ما توعدون به (وأطيعوا) فيما تأمرون به وتنهون عنه (وأنفقوا) في الوجوه التي وجبت عليكم النفقة فيها

(١) لم أره مرفوعاً : وأخرجه أبو نعيم في الحلية في ترجمة سفيان الثوري من قوله . وروى علي بن ميمون في الطاعة والمصيبة عن إسماعيل بن أبي يحيى عن عبد الملك عن بكير قال : نادى مناد يوم القيامة : أين الذين أكلت عيالهم حسناتهم فقوموا فإن قبلكم الانبياء .

(٢) أخرجه أصحاب السنن وابن جبان والحاكم وأحمد وإسحاق وابن أبي شيبة وأبو يعلى والبخاري من رواية حسين بن واقد عن ابن بريدة عن أبيه . قال البخاري لا نعلم له طريقاً إلا هذا .

(خير لأنفسكم) نصب بمحذوف، تقديره: اتقوا خيراً لأنفسكم، وافعلوا ما هو خير لها وأنفع؛ وهذا تأكيد للحث على امتثال هذه الأوامر. وبيان لأن هذه الأمور خير لأنفسكم من الأموال والأولاد وما أنتم عاكفون عليه من حب الشهوات وزخارف الدنيا.

إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧)

عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)

وذكر القرض: تطلق في الاستدعاء (يضاعفه لكم) يكتب لكم بالواحدة عشرة أو أو سبعمائة إلى ما شاء من الزيادة. وقرئ: يضعفه (شكور) مجاز، أى: يفعل بكم ما يفعل المبالغ في الشكر من عظيم الثواب، وكذلك (حليم) يفعل بكم ما يفعل من يحلم عن المسيء، فلا يعاجلكم بالعقاب مع كثرة ذنوبكم.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة التغابن رفع عنه موت الفجأة، (١).

سورة الطلاق

مدنية، وهي إحدى عشرة، أو اثنتا عشرة، أو ثلاث عشرة آية

[نزلت بعد الإنسان]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ مِنْ أَمَدَيْنِ وَأَخْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يُخْرِجَنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَفَلَكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (١)

(١) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدى بإسنادهم إلى أبي بن كعب رضى الله عنه.

بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَوَلَّى اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ٢ وَبَرَزُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ٣

خص النبي صلى الله عليه وسلم بالنداء وعم بالخطاب ^(١)؛ لأن النبي إمام أخته وقدونهم، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم: يا فلان افعلوا كيت وكيت، إظهاراً لتقدمه واعتباراً لترؤسه، وأنه مدرة قومه ^(٢) ولسانهم، والذي يصدر عن رأيه ولا يستبدون بأمر دونه، فكان هو وحده في حكم كلهم، وساذماً مسدّ جميعهم. ومعنى (إذا طلقتم النساء) إذا أردتم تطليقهن ومهمتهن به على تنزيل المقبل على الأمر المشارف له منزلة الشارع فيه: كقوله عليه السلام ومن قتل قتيلاً فله سلبه، ^(٣) ومنه كان الماشي إلى الصلاة والمنظر لها في حكم المصلي (فطلقوهن لعدتهن) فطلقوهن مستقبلات لعدتهن ^(٤). كقولك: أتيته لليلة بقيت من المحرم، أى: مستقبلات لها. وفي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم: في قبل عدتهن، وإذا طلقت المرأة في الطهر المتقدم للقرء الأول من أقرائها، فقد طلقت مستقبلات لعدتها. والمراد: أن يطلقن في طهر لم يجامعن فيه ^(٥)، ثم يخلين حق تنقضي عدتهن. وهذا أحسن الطلاق وأدخله في السنة وأبعده

(١) قال محمود: «خص النبي صلى الله عليه وسلم بالنداء وعم بالخطاب... الخ» قال أحمد: وعلى هذا الفرق جرى قوله تعالى حكاية عن فرعون: (قال فن ربك يا موسى) فأفرد موسى عليه السلام بالنداء، لأنه كان أجل الاثنين عليهما السلام وعهما بالخطاب. وقد تقدم فيه وجه آخر.

(٢) قوله «وأنه مدرة قومه» في الصحاح العرب تسمى القرية مدرة إه، قالهني أنه بمنزلة القرية لقومه. (ع)
(٣) يتفق عليه. وقد تقدم في أوائل البقرة.

(٤) قال محمود: «ومعنى فطلقوهن مستقبلات لعدتهن... الخ» قال أحمد: حل القراءتين المستفيضة والقاعدة على أن وقت الطلاق هو الوقت الذي تكون للعدة مستقبلات بالنسبة إليه، وادعى أن ذلك معنى المستقبل فيها، ونظر اللام فيها باللام في قولك مؤرخاً الليلة. ليلة بقيت من المحرم. وإنما يعني أن العدة بالحيز: كل ذلك تحامل للذهب أبي حنيفة في أن الأقرء الحيز، ولا يمت له ذلك؛ فقد استدل أصحابنا بالقراءة المستفيضة، وأكدوا الدلالة بالعادة على أن الأقرء الأظهار. ووجه الاستدلال لها على ذلك: أن الله تعالى جعل العدة - وإن كانت في الأصل مصدرًا - ظرفاً للطلاق المأمور به. وكثيراً ما تستعمل العرب المصادر ظرفاً، مثل خفوق النجم ومقدم الحاج. وإذا كانت العدة ظرفاً للطلاق المأمور به، وزمانه هو الطهر وفاقا؛ فالطهر عدة إذا. ونظير اللام هنا على التحقيق: اللام في قوله (باليقين قدمت لحياتي) وإنما تمنى أن لو عمل عملاً في حياته؛ وقراءته عليه السلام: في قبل عدتهن، تحقق ذلك. فان قيل: الشيء جزء منه وداخل فيه وفي صفة مسح الرأس فأقبل بهما وأدبر، أى مسح قبل الرأس وهو مقدمها، فحينئذ قبل العدة جزء منها وهو الطهر.

(٥) قال محمود: «والمراد أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه... الخ» قال أحمد: الأمر كما نقله، وضابط =

من الندم ، ويدل عليه ما روى عن إبراهيم النخعي أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يستحبون أن لا يطلقوا أزواجهم للسنة إلا واحدة ، ثم لا يطلقوا غير ذلك حتى تنقضي العدة ، وكان أحسن عندهم من أن يطلق الرجل ثلاثاً في ثلاثة أظهار . وقال مالك بن أنس رضي الله عنه : لا أعرف طلاق السنة إلا واحدة ، وكان يكره الثلاث بمجموعة كانت أو متفرقة . وأما أبو حنيفة وأصحابه فإنما كرهوا ما زاد على الواحدة في طهر واحد ، فأما مفرقا في الأظهار فلا ؛ لما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لابن عمر حين طلق امرأته وهي حائض : ما هكذا أمرك الله ، إنما السنة أن تستقبل الطهر استقبالا ، وتطلقها لكل قرء تطليقة ^(١) وروى أنه قال لعمر : مرا ابنك فليراجعها ، ثم ليدعها حتى تحيض ثم تطهر ، ثم ليطلقها إن شاء ؛ فتلك العدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء ^(٢) . وعند الشافعي رضي الله عنه : لا بأس بإرسال الثلاث ، وقال : لا أعرف في عدد الطلاق سنة ولا بدعة وهو مباح . فمالك تراعى في طلاق السنة الواحدة والوقت ؛ وأبو حنيفة يراعى التفريق والوقت ؛ والشافعي يراعى الوقت وحده . فإن قلت : هل يقع الطلاق المخالف للسنة ؟ قلت : نعم ، وهو آثم ؛ لما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلا طلق امرأته ثلاثاً بين يديه ، فقال : أتلعبون بك كتاب الله وأنا بين أظهركم ^(٣) . وفي حديث ابن عمر أنه قال : يا رسول الله ، أ رأيت لو طلقته ثلاثاً ، فقال له : إذن حصيت وبانت منك امرأتك ^(٤) . وعن عمر رضي الله عنه أنه كان لا يؤتي برجل طلق امرأته

== السنة عندما لك : أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه واحدة وهي غير معتدة . والآية تدل لمذهبه على تأويل المتقدمين جميعا ؛ أما على تأويل الزمخشري وتفسيره المقيد بالاستقبال ، فلأن الطلاق المأمور به أي المأذون فيه في الآية : مقيد بوقت تكون العدة مستقبلة بالنسبة إليه ، وهذا يأتي وقوع الطلاق في أثناء العدة الماضي بعضها . وأما على تأويلنا فلأنه مقيد بزمان يكون أولا للعدة وقبلا لها ، وهذا يأتي من وقوعه مرادفا في الشهر الثاني والثالث ، غير أن البدعة عند مالك متفاوتة ، فلا جرم قال إن طلقها في الحيض أجبر على الرجعة ، فإن أبي أرتجع عليه الحاكم ؛ وإن طلقها في طهر مسحا فيه أو أوردف الطلاق لم يجبره ،

(١) أخرجه الدارقطني من رواية عطاء الخراساني عن الحسن عن ابن عمر به ، وأتم منه .

(٢) متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٣) لم أره هكذا . وإنما رواه النسائي من رواية مخزومة بن بكير عن أبيه عن محمود بن لبيد « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعا ، فقام غضبان ثم قال : أيا رب يكتب الله وأنا بين أظهركم حتى قام رجل فقال : يا رسول الله ، ألا تقتله ؟ » .

(٤) هو في آخر الحديث الثاني عند الدارقطني ولفظه « فقلت : يا رسول الله ، أ رأيت لو طلقته ثلاثا أكان يحل لي أن أراجعها ؟ قال : لا . كانت تبين منك ، وكانت معصية ، واللفظ الذي في الكتاب موقوف .. في الصحيح على ابن عمر رضي الله عنهما . »

ثلاثاً إلا أوجعه ضرباً . وأجاز ذلك عليه ^(١) . وعن سعيد بن المسيب وجماعة من التابعين : أن من خالف السنة في الطلاق فأوقعه في حيض أو ثلث لم يقع ، وشبهوه بمن وكل غيره بطلاق السنة بخالف . فإن قلت : كيف تطلق للسنة التي لا تحيض لصغر أو كبر أو حمل وغير المدخول بها ؟ قلت : الصغيرة والآيسة والحامل كلهن عند أبي حنيفة وأبي يوسف يفرق عليهن الثلاث في الأشهر ، وخالفهما محدوزفر في الحامل فتالاً : لا تطلق للسنة إلا واحدة . وأما غير المدخول بها فلا تطلق للسنة إلا واحدة ، ولا يراعى الوقت . فإن قلت : هل يسكره أن تطلق المدخول بها واحدة بائنة ؟ قلت : اختلفت الرواية فيه عن أصحابنا . والظاهر الكراهة . فإن قلت : قوله إذا طلقتم النساء عام يتناول المدخول بهن وغير المدخول بهن من ذوات الأقراء والآيسات والصغائر والحوامل ، فكيف صح تخصيصه بذوات الأقراء المدخول بهن ؟ قلت : لا عموم ثم ولا خصوص ، ولكن النساء اسم جنس للإناث من الإنس . وهذه الجنسية معنى قائم في كلهن وفي بعضهن ، فجاز أن يراد بالنساء هذا وذاك ، فلما قيل (فطلقوهن لعدتهن) علم أنه أطلق على بعضهن وهن المدخول بهن من المعتدات بالحيض (وأحصوا العدة) واضبطوها بالحفظ وأكلوها ثلاثة أقراء مستقبلات كوامل لانقضاء فيهن ^(٢) (ولا تخرجوهن) حتى تنقضي عدتهن (من يوتهن) من مساكنتهن التي يسكنها قبل العدة ، وهي بيوت الأزواج ؛ وأضيفت إليهن لاختصاصها بهن من حيث السكنى . فإن قلت : ما معنى الجمع بين إخراجهم أو خروجهن ^(٣) ؟ قلت : معنى الإخراج ^(٤) : أن لا يخرجهن البعولة غضبا عليهن وكراهة لمساكنتهن ، أو لحاجة لهم إلى المساكن ، وأن لا يأذنوا لهن في الخروج إذا طلبن ذلك ، إيداناً بأن إذهبن لا أثر له في رفع الخطر ، ولا يخرجن بأنفسهن إن أردن ذلك (إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) قرئ بفتح الياء وكسرهما . قيل : هي الزنا ، يعني إلا أن يأتين بفاحشة إقامه الحد عليهن . وقيل : إلا أن يطلقن على النشوز ، والنشوز يسقط حقهن في السكنى . وقيل : إلا أن يبدون ^(٥)

(١) أخرجه ابن أبي شيبة وعبد الرزاق من رواية شقيق بن عبد الله عن أنس قال : كان عمر رضى الله عنه إذا أتى برجل طلق امرأته ثلاثاً في مجلس أوجعه ضرباً . وفرق بينهما .

(٢) قال محمود : « منهن أكلوا العدة أقراء ثلاثة مستوفاة » قال أحمد : وقوله (واتقوا الله ربكم) نوطنة لقوله (لا تخرجوهن من بيوتهن) حتى كأنه نهى عن الإخراج مرتين : مندرجاً في العموم ، ومفرداً بالخصوص . وقد تقدمت أمثاله .

(٣) قوله « بين إخراجهم أو خروجهن » لعله : وخروجهن . (ع)

(٤) قوله « قلت : معنى الإخراج » الأولى : معنى الجمع بينهما ، وإلا فالأولى فيما أتى ، ومعنى الخروج : أن لا يخرجن بأنفسهن . (ع)

(٥) قوله « وقيل إلا أن يبدون » في الصحاح : البداة - بالمد : الفحش ، تقول : بذوت على القوم وأبذيت ، وقد بذر الرجل . (ع)

فيحل إخراجهن لذاتهن ؛ وتؤكد قرأة أبي : إلا أن يفحش عليكم . وقيل : خروجها قبل انقضاء العدة فاحشة في نفسه . الأمر الذي يحدثه الله : أن يقلب قلبه من بغضها إلى محبتها ، ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها . ومن عزيمة الطلاق إلى الندم عليه فيراجعهما . والمعنى : فطلقوهن أعدتهن وأحصوا العدة ، لعلكم ترغبون وتندمون فراجعون (فإذا بلغن أجلهن) وهو آخر العدة وشارفنه ، فأنتم بالخيار : إن شئتم فالرجعة والإمساك بالمعروف والإحسان ، وإن شئتم فترك الرجعة والمفارقة واتقاء الضرر وهو أن يراجعهما في آخر عدتها ثم يطلقها تطويلاً للعدة عليها وتعذيباً لها (وأشهدوا) يعني عند الرجعة والفرقة جميعاً . وهذا الإشهاد مندوب إليه عند أبي حنيفة كقوله (وأشهدوا إذا تبايعتم) وعند الشافعي : هو واجب في الرجعة مندوب إليه في الفرقة . وقيل : فائدة الإشهاد أن لا يقع بينهما التجاحد ، وأن لا يتهم في إمساكها ، ولئلا يموت أحدهما فيدعى الباقي ثبوت الزوجية ليرث (منكم) قال الحسن : من المسلمين . وعن قتادة : من أحراركم (لله) لوجهه خالصاً ، وذلك أن تقيموها لا للشهود له ولا للشهود عليه . ولا لغرض من الأغراض سوى إقامة الحق ودفع الظلم ، كقوله تعالى (كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم) أي (ذاكم) الحث على إقامة الشهادة لوجه الله ولأجل القيام بالقسط (يوعظ به ومن يتق الله) يجوز أن تكون جملة اعتراضية مؤكدة لما سبق من إجراء أمر الطلاق على السنة ، وطريقه الأحسن والابعد من الندم ، ويكون المعنى : ومن يتق الله فطلق للسنة ولم يضار المعتدة ولم يخرجها من مسكنها واحتاط فأشهد (يجعل) الله (له) مخرجا (ويرزقه) من وجه لا يخطره بباله ولا يحتسبه إن أوفى المهر وأدى الحقوق والنفقات وقل ماله . وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن طلق ثلاثاً أو ألفاً ، هل له من مخرج ؟ فتلاها (١) . وعن ابن عباس أنه سئل عن ذلك فقال : لم تتق الله فلم يجعل لك مخرجا ، بانت منك ثلاث والزيادة إثم في عنقك . ويجوز أن يجاء بها على سبيل الاستطراد عند ذكر قوله (ذاكم) (يوعظ به) يعني : ومن يتق الله يجعل له مخرجا ومخلصاً من غموم الدنيا والآخرة . وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأها فقال : مخرجا من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت ومن شدائد

(١) أخرجه الدارقطني والطبراني وابن مردويه عن طريق عبيد الله بن الوليد وغيره عن إبراهيم بن عبد الله بن عبادة بن الصامت عن أبيه عن جده . قال « طلق بعض آبائي امرأته ألفاً فانطلق بنوه ، فقالوا : يا رسول الله إن أبانا طلق أمنا ألفاً . فهل له مخرج . فقال : إن أباكم لم يتق الله فيجعل له مخرجا - الحديث » وفي إسناده جماعة من الضعفاء . رواه إسماعيل في مسنده عن ابن إدريس عن عبيد الله بن الوليد عن داود بن إبراهيم عن عبادة بن الصامت كذا قال .

يوم القيامة^(١) . وقال عليه السلام : إني لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتمهم (ومن يتق الله ...) فما زال يقرؤها ويعيدها^(٢) . وروى أن عوف بن مالك الأشجعي أسر المشركون ابناً له يسمى سالماً ، فأتى رسول الله فقال : أسر ابني وشكاً إليه العاقبة ؛ فقال : ما أمسى عند آل محمد إلا مدّة فاتق الله واصبر وأكثّر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله ، ففعل فبينما هو في بيته إذ قرع ابنه الباب ومعه مائة من الإبل تغفل عنها العدو فاستأقها ، فنزلت هذه الآية^(٣) (بالغ أمره) أى يبلغ ما يريد لا يفوته مراد ولا يعجزه مطلوب . وقرئ : بالغ أمره بالإضافة ، وبالبغ أمره : بالرفع ، أى : نافذ أمره وقرأ المفضل : بالغاً أمره ، على أن قوله (قد جعل الله) خبر إن ، وبالبغ حال (قدراً) تقديرأ وتوقيتاً . وهذا بيان لوجوب التوكل على الله^(٤) ، وتفويض الأمر إليه ؛ لأنه إذا علم أن كل شيء من الرزق ونحوه لا يكون إلا بتقديره وتوقيته : لم يبق إلا التسليم للقدر والتوكل .

(١) أخرجه الثعلبي والواحدي من رواية سعيد بن راشد عن عبد الله بن سعيد بن أبي هند عن زيد بن أسلم عن عطاء عن ابن عباس به مرفوعاً . ورواه أبو نعيم موقوفاً على قتادة في ترجمته في الحلية .
(٢) أخرجه أحمد في الزهد وابن ماجه وابن حبان والحاكم من طريق ابن السليل حبيب بن مغيرة عن أبي ذر مرفوعاً
(٣) أخرجه الثعلبي من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : جاء عوف بن مالك الأشجعي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذكره نحوه . ولم يسم الابن ، لكن قال : أنه أحضر أربعة آلاف شاة ورواه البيهقي في الدلائل من طريق أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه نحوه . وفيه فلم يلبث الرجل أن رد الله عليه ابنه وابله وأوفر ما كانت . فأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره فقام على المنبر الحمد لله وأثنى عليه وأمرهم بمسألة الله والرغبة إليه . وقرأ عليهم (ومن يتق الله - الآية) وروى الحاكم من طريق سالم بن الجعد عن جابر قال : نزلت هذه الآية في رجل من أشجع كان فقيراً خفيف ذات اليد كثير الغيال ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله . فقال : اتق الله واصبر ، فلم يلبث إلا يسيراً حتى جاء ابن له بغنم كان العدو أصابها . فذكره مختصراً . وفيه عبيد بن كثير تركه الأزدي وعباد عن يعقوب . وهو رافضى .

(٤) قال محمود : وقوله (بالغ أمره) بيان لوجوب التوكل على الله ، وتفويض الأمر إليه ... الخ ، قال أحمد : ليس بعشك قادر على إراده القدرى ، وأن التسليم للقدر وليس هذا دينه ولا معتقده من تقسيم الحوادث ثلاثة أقسام : فتما ما يريد الله تعالى وجوده وهو المأمورات ولا يقع أكثر مراده منها ، ومنها ما يريد عدمه وهو المنهيات فيوجد أكثرها على خلاف مراده ، ومنها ما لا يريد عدمه ولا وجوده فان وجد فغير إرادته عز وجل وإن عدم فكذلك فيحصل من هذا المذيان الذى لا يتصور أن الكائنات إنما تتبع إرادة الخالق لأنها لا تقع إلا بها ، فان واقعت إرادة الله تعالى فليس وقوعها تابعاً لها ؛ لأنها وقعت بدونها ؛ وإن خالفت إرادة الله تعالى لم يكن لها معها للإرادة الربانية تأثير في منع وقوعها ، فن يتوغل في أدغال هذا الضلال كيف له بالتوكل الذى يتوقف على اعتقاد أن الكائنات جميعها إنما تتوقف على إرادة الله عز وجل ، فهما أراده وقع ، ومهما لم يرد لم يقع ، شاء العبد أو أبى ، فإشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، والعبد مجرى لحدوث الكائنات الواقعة بقدرة الله تعالى وإرادته لا غير ، لا راد لأمره ولا معقب لحكمه ، فالتقوى من هذا المقام للترقى إلى أعلى مراحل لا يقربه إليها إلا راحة الانصاف وزاد التقوى ودليل التوفيق ، والله حسبنا ونعم الوكيل .

وَالَّذِي يَثْنَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ
وَالَّذِي لَمْ يَضَنْ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ
يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ④ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ
يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ⑤

روى أن ناسا قالوا : قد عرفنا عدة ذوات الأقراء ، فما عدة اللائي لا يحضن ؛ فنزلت : فغنى
(إن ارتبتم) : إن أشكل عليكم حكمهن وجهلتم كيف يعتدّن فهذا حكمهن ، وقيل : إن ارتبتم
في ذم البالغات مبلغ اليأس وقد قدره بستين سنة وخمسة وخمسين ، أهو دم حيض أو استحاضة ؟
(فعدتهن ثلاثة أشهر) وإذا كانت هذه عدة المرتاب بها ، فغير المرتاب بها أولى بذلك (واللائي
لم يحضن) هن الصغائر . والمعنى : فعدتهن ثلاثة أشهر ، فحذف لدلالة المذكور عليه . اللفظ مطلق
في أولات الاحمال ، فاشتمل على المطلقات والمتوفى عنهن . وكان ابن مسعود وأبي وأبو هريرة
وغيرهم لا يفرقون . وعن علي وابن عباس : عدة الحامل المتوفى عنها أبعد الأجلين ^(١) . وعن
عبدالله : من شاء لاعنته أن سورة النساء القصوى نزلت بعد التي في البقرة ^(٢) ، يعني : أن هذا
اللفظ مطلق في الحوامل . وروى أم سلمة أن سبيعة الأسلمية ولدت بعد وفاة زوجها ليال ،
فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها : قد حلت فأنكحي ^(٣) (يجعل له من
أمره يسرا) يسره له من أمره ويحلل له من عقده بسبب التقوى (ذلك أمر الله) يريد ما علم
من حكم هؤلاء المعتدات . والمعنى : ومن يتق الله في العمل بما أنزل الله من هذه الأحكام
وحافظ على الحقوق الواجبة عليه بما ذكر من الإسكان وترك الضرار والتفقه على الحوامل
وإيتاء أجر المرضعات وغير ذلك : استوجب تكفير السيئات والأجر العظيم .

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تَضَارَّوهُنَّ لِتَصَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ

(١) رواه البخارى في صحيحه قال : «جاء رجل إلى ابن عباس وأبو هريرة عنده . فقال : أمتي في امرأة
ولدت بعد وفاة زوجها بأربعين ليلة . فقال ابن عباس آخر الأجلين وفيه قصة سبيعة . وفيه مخالفة أبي هريرة
له في ذلك رواه ابن أبي شيبة عن وكيع عن إسماعيل عن الشعبي قال قال عبد الله «أجل كل حامل حتى تضع» . وكان
على يقول «آخر الأجلين» وله طريق أخرى عنده موصولة من طريق عبيد بن الحسن عن عبد الرحمن بن معقل قال
«شهدت عليا رضي الله عنه ... فذكره نحوه» .

(٢) أخرجه البخارى وأبو داود والنسائي وابن ماجه من طريق مسروق لم يذكر البخارى أوله . وزاد عبد الرزاق
أنه قال ذلك لما بلغه أن عليا قال «هي في آخر الأجلين» .

(٣) متفق عليه وله طرق وألفاظ . وفي رواية البخارى «فوضعت بعد موته بأربعين ليلة» .

وَإِنْ كُنْ أُولَاتٍ حَمَلَ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَتَمِرُوا يَتَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُم فَاسْتَرْضِعْ لَهُ أُخْرَى ٦ ۚ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آفَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ ضَرِّهِ يُسْرًا ٧ ۚ

(أُسْكِنُوهُنَّ) وما بعده : بيان لما شرط من التقوى في قوله (ومن يتق الله) كأنه قيل : كيف نعمل بالتقوى في شأن المعتدات ؟ فقيل : أُسْكِنُوهُنَّ . فإن قلت : من في (من حيث سكنتم) ما هي ؟ قلت : هي من التبعية مبهمة محذوف^(١) . معناه : أُسْكِنُوهُنَّ مكاناً من حيث سكنتم ، أي بعض مكان سكناكم ، كقوله تعالى (ينفضوا من أبصارهم) أي بعض أبصارهم . قال قتادة : إن لم يكن إلا بيت واحد ، فأسكنها في بعض جوانبه . فإن قلت : فقوله (من وجدكم) ؟^(٢) قلت : هو عطف بيان لقوله (من حيث سكنتم) وتفسير له ، كأنه قيل : أُسْكِنُوهُنَّ مكاناً من مسكنكم مما تطيقونه . والوجد : الوسع والطاقة . وقرئ بالحركات الثلاث . والسكنى والنفقة : واجبتان لكل مطلقة . وعند مالك والشافعي : ليس للبتونة إلا السكنى ولا نفقة لها . وعن الحسن وحماد : لا نفقة لها ولا سكنى ؛ لحديث فاطمة بنت قيس : أن زوجها أبت طلاقها^(٣) ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا سكنى لك ولا نفقة^(٤) . وعن عمر رضي الله عنه : لا ندع كتاب ربنا وسنة نبينا لقول امرأة لعلها نسيت أو شبه لها : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : لها السكنى والنفقة^(٥) . (ولا تضاروهن) ولا تستعملوا معهن الضرار (لتضيقوا عليهن) في المسكن ببعض الأسباب : من إزال من لا يوافقهن ، أو يشغل مكانهن ، أو غير ذلك ، حتى تضطروهن إلى الخروج . وقيل : هو أن يراجعهما إذا بقي من عدتها يوماً ليضيق

(١) قوله «مبهمة محذوف معناه» قد يقال : مبهما هو مدخولها ، وهو (حيث سكنتم) بمعنى مكان سكناكم فلا حذف ، إلا أن يراد بمبهما البعض المدلول عليه بها . (ع)

(٢) قوله «فإن قلت فقوله من وجدكم» لعل عقبه سقطاً تقديره . ما موقعه ؟ (ع)

(٣) قوله «أن زوجها أبت طلاقها» لعله «بت» كافي النسب . (ع)

(٤) أخرجه مسلم من طرق عنها . وفي رواية «فلم يجعل لها سكنى ولا نفقة» وفي رواية «لا نفقة لك ولا سكنى» وفي رواية «طلقتي زوجي ثلاثاً» .

(٥) أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي من طريق أبي إسحاق قال «كنت مع الأسود ومعنا الشعبي في المسجد إذ حدث الشعبي بحديث فاطمة بنت قيس . فأخذ الأسود كفاً من حصا لحصبه به وقال : يا ويلك تحدث بمثل هذا ؟ قال عمر : لا تترك كتاب ربنا وسنة نبينا لقول امرأة لعلها حفظت أرونته .

عليها أمرها . وقيل : هو أن يلجئها إلى أن تفتدى منه . فإن قلت : فإذا كانت كل مطلقة عندهم تجب لها النفقة ، فما فائدة الشرط في قوله (وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن) (١) قلت : فائدته أن مدة الحمل ربما طالت فظن ظان أن النفقة تسقط إذا مضى مقدار عدة الحائض ، فنفى ذلك الوم . فإن قلت : فما تقول في الحامل المتوفى عنها ؟ قلت : يختلف فيها ؛ فأكثرهم على أنه لا نفقة لها ، لوقوع الإجماع على أن من أجبر الرجل على النفقة عليه من امرأة أو ولد صغير لا يجب أن يتفق عليه من ماله بعد موته ، فكذلك الحامل . وعن علي وعبدالله وجماعة : أنهم أوجبوا نفقتها (فإن أرضعن لكم) يعني هؤلاء المطلقات إن أرضعن لكم ولداً من غيرهن أو منهن بعد انقطاع عصمة الزوجية (فأتوهن أجورهن) حكمن في ذلك حكم الأظفار (٢) ، ولا يجوز عند أبي حنيفة وأصحابه رضى الله عنهم الاستئجار إذا كان الولد منهن مالم يكن . ويجوز عند الشافعي . الاتجار بمعنى التأمر ، كالأشتوار بمعنى التشاور . يقال : ائتمروا القوم وتآمروا ، إذا أمر بعضهم بعضاً . والمعنى : وليأمر بعضهم بعضاً ، والخطاب للآباء والأمهات (المعروف) بحميل وهو المساحة ، وأن لا يماكس الأب ولا تعاسر الأم ؛ لأنه ولدهما معا ، وهما شريكان فيه وفي وجوب الإشفاق (٣) عليه (وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى) فستوجد ولا تعوز مرضعة غير الأم ترضعه ؛ وفيه طرف من معاتبة الأم على المعاسرة ، كما تقول لمن تستقصيه حاجة فيلوانى : سيقضها غيرك (٤) ، تريد : لن تبقى غير مقضية وأنت ملوم ، وقوله (له) أى للأب . أى : سيجد الأب غير معاسرة ترضع له ولده إن عاسرته أمه (لينفق) كل واحد من

(١) قوله تعالى : (أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم) إلى قوله : (وإن كن أولات حمل ... الآية) . قال أحد : لا يخفى على المتأمل لهذه الآية أن الميتة غير الحامل لا نفقة لها ، لأن الآية سبقت لبيان الواجب ، فأوجب السكنى لكل معتدة تقدم ذكرها ولم يوجب - وأما ، ثم استثنى الحوامل فخصن بإيجاب النفقة لمن حتى يضع حملهن ، وليس بعد هذا البيان بيان ، والقول بعد ذلك بوجوب النفقة لكل معتدة ميتة حاملاً أو غير حامل لا يخفى منافقته لنظم الآية ، والزمخشري نصر مذهب أبي حنيفة فقال : فائدة تخصيص الحوامل بالذكر : أن الحمل ربما طال أمده فيتوهم متوهم أن النفقة لا يجب بطوله ، فخصت بالذكر تنبيها على قطع هذا الوم ؛ وغرض الزمخشري بذلك أن يحمل للتخصيص على هذه الفائدة ، كيلا يكون له مفهوم في إسقاط النفقة لغير الحوامل ؛ لأن أبا حنيفة يهوى بين الجميع في وجوب النفقة .

(٢) قوله « في ذلك حكم الأظفار الطائر : الموضع لولد غيرها ، والجمع : ظوار ، بالضم . وظور وأظآر ، كما في الصحاح . (ع)

(٣) قوله « وفي وجوب الإشفاق » كذا عبارة التنقيح . (ع)

(٤) قال محمود : « وفي قوله (وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى) معاتبة للأم على المعاسرة ، كما تقول لمن تستقصيه حاجة ... الخ » قال أحد : وغص الأم بالمعاتبة لأن المبدول من جهتها هو لبنها ولدها ، وهو غير متمول ولا مضنون به في العرف ، وخصوصاً في الأم على الولد ، ولا كذلك المبدول من جهة الأب ؛ فإنه المال المضنون به عادة ، فالأم إذا أجدى بالقوم وأحق بالعتب ، والله أعلم .

الموسر والمعسر ما بلغه وسعه يريد : ما أمر به من الإنفاق على المطلقات والمرضعات ، كما قال (ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره) وقرئ لينفق بالنصب ، أى شرعنا ذلك لينفق . وقرأ ابن أبي عملة : قدر (سيجعل الله) موعد لفقراء ذلك الوقت بفتح أبواب الرزق عليهم ، أو لفقراء الأزواج إن أنفقوا ما قدروا عليه ولم يقصروا .

وَكَأَيُّنَ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ رَبِّهَا وَرُؤْسِهِ فَحَاسَبْتُهَا حِسَابًا شَدِيدًا
وَعَذَابُهَا عَذَابًا مُنْكَرًا ⑧ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَابُهُ أَمْرًا
مُخْشِرًا ⑨ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ الَّذِينَ
آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ⑩ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِكُمْ . آيَاتِ اللَّهِ
مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ
يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ⑪

(عتت عن أمر ربها) أعرضت عنه على وجه العتق والعناد (حسابا شديدا) بالاستقصاء
والمناقشة (عذابا منكرا) وقرئ : نكرا منكرا عظيما ، والمراد : حساب الآخرة وعذابها
ما يذوقون فيها من الوبال ويلقون من الخسر ، وجىء به على لفظ الماضي ، كقوله تعالى
(ونادى أصحاب الجنة) ، (ونادى أصحاب النار) ونحو ذلك ؛ لأن المنتظر من وعد الله ووعيده
ملق في الحقيقة ، وما هو كائن فكان قد . وقوله (أعد الله لهم عذابا شديدا) تكرير للوعيد
وبيان لكونه مترقبا ، كأنه قال : أعد الله لهم هذا العذاب فليكن لكم ذلك (يا أولى الألباب)
من المؤمنين لطفا في تقوى الله وحذر عقابه . ويجوز أن يراد إحصاء السيئات ، واستقصاؤها
عليهم في الدنيا ، وإثباتها في صحائف الحفظ ، وما أصيبوا به من العذاب في العاجل ؛ وأن يكون
(عتت) وما عطف عليه : صفة للقرية . وأعد الله لهم : جوابا للكآين (رسولا) هو جبريل
صلوات الله عليه : أبذل من ذكرا ، لأنه وصف بتلاوة آيات الله ، فكان إنزاله في معنى إنزال
الذكر ⑪ فصح إبداله منه . أو أريد بالذكر : الشرف ، من قوله (وإنه لذكر لك ولقومك) فأبدل

(١) قوله تعالى (رسولا) ذكر العشرى فيه ستة أوجه : إبدال الرسول من الذكر لأن إنزاله في معنى إنزال
الذكر ... الخ) قال أحد : وعلى هذين الوجهين الآخرين يكون مقعولا ، إعمال الفعل المحذوف أو بالمصدر . وعلى
الأربعة المتقدمة بدلا . والله سبحانه وتعالى أعلم .

منه ، كأنه في نفسه شرف : إما لأنه شرف النزل عليه ، وإما لأنه ذو مجد وشرف عند الله ، كقوله تعالى (عند ذى العرش مكين) أو جعل لكثرة ذكره لله وعبادته كأنه ذكر . أو أريد : ذا ذكر ، أى ملكاً مذكوراً فى السموات وفى الآم كلها . أو دل قوله (أنزل الله إليكم ذكراً) على : أرسل فكأنه قيل : أرسل رسولاً ؛ أو أعمل ذكرأ فى رسولاً إعمال المصدر فى المفاعيل ، أى : أنزل الله أن ذكر رسولاً أو ذكره رسولاً . وقرئ : رسول ، على : هو رسول . أنزله (ليخرج الذين آمنوا) بعد إنزاله ، أى : ليحصل لهم ما هم عليه الساعة من الإيمان والعمل الصالح : لأنهم كانوا وقت إنزاله غير مؤمنين ، وإنما آمنوا بعد الإنزال والتبليغ . أو ليخرج الذين عرف منهم أنهم يؤمنون . قرئ : يدخله ، بالياء والنون (قد أحسن الله له رزقاً) فيه معنى التعجب والتعظيم ، لما رزق المؤمن من الثواب .

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ

لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)

(الله الذى خلق) مبتدأ وخبر . وقرئ : مثلهن بالنصب ، عطفاً على سبع سموات ؛ وبالرفع على الابتداء ، وخبره : من الأرض . قيل : ما فى القرآن آية تدل على أن الأرضين سبع إلا هذه . وقيل : بين كل سماء من مسيرة خمسمائة عام ، وغلط كل سماء كذلك ، والأرضون مثل السموات (يتنزل الأمر بينهن) أى يجرى أمر الله وحكمه بينهن ، وملسكه ينفذ فيهن . وعن قتادة : فى كل سماء وفى كل أرض خلق من خلقه وأمر من أمره وقضاء من قضائه . وقيل : هو ما يدبر فيهن من عجائب تدبيره . وقرئ : ينزل الأمر . وعن ابن عباس : أن نافع بن الأزرق سأله هل تحت الأرضين خلق ؟ قال : نعم . قال : فما الخلق ؟ قال : إما ملائكة أو جن (لتعلموا) قرئ : بالياء والياء .

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من قرأ سورة الطلاق مات على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم »^(١)

سورة التحريم

مدينة ، وتسمى سورة النبي صلى الله عليه وسلم
وهي ثلثا عشرة آية [نزلت بعد الحجرات]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَ لَكَ مَرْحَاتُ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ①
الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ②

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خلا بمارية في يوم عائشة ، وعلمت بذلك حفصة ،
فقال لها : اكتمى على ، وقد حرمت مارية على نفسي ^(١) ، وأبشرك أن أباهك وعمر يملكان

(١) « نقل الزعزري في سبب نزولها أنه عليه السلام خلا بمارية في يوم عائشة وعلمت بذلك حفصة ، فقال لها : اكتمى على » وقد حرمت مارية على نفسي ... الخ » قال أحد : ما أطلقه الزعزري في حق النبي صلى الله عليه وسلم بقول وأفتراء ، والنبي صلى الله عليه وسلم منه براء ؛ وذلك أن تحريم ما أحله الله على وجهين : اعتقاد ثبوت حكم التحريم فيه ، فهذا بمثابة اعتقاد حكم التحليل فيما حرمه الله عز وجل ، وكلاهما محذور لا يصدر من المؤمنين بسمة الايمان ؛ وإن صدر سلب المؤمن حكم الايمان واسمه . الثاني : الامتناع عما أحله عز وجل ، وحمل التحريم بمجرد صحيح ، لقوله (وحرمتنا عليه المراضع من قبل) أى منعنا لا غير ، وقد يكون مؤكداً بالبين مع اعتقاد حله ، وهذا مباح صرف وحلال محض ، ولو كان على المنع ترك المباح والامتناع منه غير مباح استحال حقيقة الحال بلا إشكال ، فإذا علمت بون ما بين القسمين ، فعلى القسم الثاني تحمل الآية ، والتفسير الصحيح يعضده : فان النبي صلى الله عليه وسلم حلف بالله لا أقرب مارية ، ولما نزلت الآية كفر عن يمينه ، ويدل عليه : (قد فرض الله لكم تحلة إيمانكم) وقال مالك في المدونة : عن زيد بن أسلم إنما كفر النبي صلى الله عليه وسلم في تحريمه أم ولده ، لأنه حلف أن لا يقربها . ومثله عن الشعبي ، وهذا المقدار مباح ليس في ارتكابه جناح ، وإنما قبل له : لم تحرم ما أحل الله لك ، وفقاً به وشفقة عليه ، وتنويعاً لقدرة وخصيه صلى الله عليه وسلم : أن يراعى مرضات أزواجه بما يشق عليه ، جرياً على ما ألف من لعاف الله تعالى بنبيه ورفعته عن أن يخرج بسبب أحد من البشر الذين هم أتباعه ومن أجله خلقوا ، ليظهر الله كمال نبوته بظهور نقصانهم عنه ، والزعزري قطعاً لم يحمل التحريم على هذا الوجه ، لأنه جملة زلة ، فيلزمه أن يحمله على الحمل الأول ، ومماذا الله وحاش لله وإن آحاد المؤمنين يحاشون أن يمتنع تحريم ما أحل الله له ، فكيف لا يربأ بمنصب النبي ﷺ عليه السلام عما يرتفع عنه منصب عامة الأمة ، وما هذه من الزعزري إلا الجراءة على الله ورسوله ، وإطلاق القول من غير تحرير ، وإبراز الرأي الفاسد بلا تخمير ؛ نعوذ بالله من ذلك ، وهو المشغول أن يجعل وسيلتنا إليه تعظيماً لنبينا صلوات الله عليه ، وأن ينجينا خطوات الشيطان ، ويقينا من عثرات اللسان ، آمين .

بعدي أمر أمي . فأخبرت به عائشة وكانتا متصادقتين ^(١) . وقيل : خلاها في يوم حفصة ، فأرضاهما بذلك واستكتمها فلم تكتم ^(٢) ، فطلقها واعتزل نساءه : ومكث تسعاً وعشرين ليلة في بيت مارية . وروى أن عمر قال لها : لو كان في آل الخطاب خير لما طلقك ، فنزل جبريل عليه السلام وقال : راجعها فإنها صوامة قوامة ، وإنها لمن نسائك في الجنة ^(٣) . وروى أنه شرب عسلاً في بيت زينب بنت جحش . فتواطأت عائشة وحفصة فقالتا له : إنا نشم منك ريح المغافير ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره النفل ، فحرّم العسل ^(٤) ، فعناه (لم تحرم ما أحل الله لك) من ملك اليمين أو العسل . و(تقتنى) إما تفسير لتحرم . أو حال : أو

(١) لم أقف في شيء من الطرق على أن ذلك كان في بيت عائشة رضي الله عنها ، إلا فيما رواه ابن سعد عن الواقدي عن عمر بن عتبة عن شعبة هو مولى ابن عباس سمعت ابن عباس يقول «خرجت حفصة من بيتها . وكان يوم عائشة فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بمارية القبطية بيت حفصة ، فجاءت حفصة والباب مجاف فدفعته حتى خرجت الجارية . فقالت حفصة : أما إني قد رأيت ما صنعت . فقال لها : اكتنبي على وهي على حرام ، فأنطلقت حفصة إلى عائشة فأخبرتها فأنزل الله تعالى (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك) فأمر فكفر عن يمينه وحبس نساءه . وروى الطبراني في عشرة النساء وابن مردويه في التفسير عنه من طريق موسى بن جعفر بن أبي كثير بن عبد الرحمن عن عمر عن أبي بكر بن عبد الرحمن عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بمارية القبطية بيت حفصة بنت عمر فوجدتها معه . فقالت : يا رسول الله في بيتي وتفعل هذا بي من دون نسائك قال : فإنها على حرام أن أمسها يا حفصة ، ألا أبشرك ؟ فقالت : بلى . قال : بلى هذا الأمر من بعدي أبو بكر ويليه من بعده أبوك واكتنبي هذا علي ، فخرجت حتى أتت عائشة فذكرت ذلك كله . وفيه قوله : ركان أدى السرور أن حرّمها على نفسه ، فأنزل الله تعالى (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك) وروى الطبراني من طريق الضحاك عن ابن عباس قال «دخلت حفصة على النبي صلى الله عليه وسلم في بيتها وهو يطأ مارية ، فقال لها لا تخبري عائشة حتى أبشرك ببشارة . فان أبأك بلى من بعد أبي بكر إذا أنا مت ، فذهبت حفصة فأخبرت عائشة . فقالت عائشة رضي الله عنها : لا أنظر إليك حتى تحرم مارية لغرمها . فأنزل الله الآية » .

(٢) أخرجه ابن إسحاق ومن طريقه ابن أبي خيثمة قال : أخبرني بعض آل عمر قال وأصاب النبي صلى الله عليه وسلم جاريته القبطية أم إبراهيم في بيت حفصة وفي يومها . فمترت حفصة على ذلك . فقالت : يا رسول الله ، لقد جئت أمراً ما جئته إلى أحد من نسائك في بيتي وعلى فراشي ، وفي دولتي ؟ قال : أيرضيك أن أحرّمها فلا أمسها أبداً ؟ قالت : نعم . فغرمها على نفسه . وقال لا تذكره لأحد من الناس ، وكانت حفصة لا تكتم عائشة شيئاً ، فلما خرجت ذهبت إلى عائشة فأخبرتها . فأنزل الله تعالى (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك) ، فكفر عن يمينه ، وقرب جاريته . وقوله «وطلقها واعتزل نساءه ومكث تسعة وعشرين ليلة في بيت مارية» : لم أر هذا .

(٣) لم أره هكذا ، وهو عند الحاكم وغيره بغير ذكر سببه ، وقال ابن سعد : أخبرنا زيد . وقال الحرث أخبرنا عفان قال : عن حماد عن أبي عمران الجوني عن قيس بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلق حفصة ، فقال : إن جبريل أتاني فقال لي : راجع حفصة فإنها صوامة قوامة ، وهي زوجتك في الجنة . وروى الحاكم من طريق الحسن بن أبي جعفر عن ثابت عن أنس نحوه وزاد تطليقة ، والحسن ضعيف . واختلف عليه فيه ، ورواه الطبراني والبخاري من رواية الحسن المذكور عن عاصم عن عمار رضي الله عنه .

(٤) متفق عليه من حديث عمر بدون قوله «يكره النفل» فعندهما «وكان يشتد عليه أن يوجد منه ريح» .

استئناف ، وكان هذا زلة منه لأنه ليس لاحد أن يحرم ما أحل الله لأن الله عز وجل إنما أحل ما أحل الحكمة ومصلحة عرفها من إحلاله ، فإذا حرم كان ذلك قلب المصلحة مفسدة (والله غفور) قد غفر لك ما زلت فيه (رحيم) قد رحمك فلم يؤاخذك به (قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) فيه معنيان ، أحدهما : قد شرع الله لكم الاستثناء في أيمانكم ، من قولك : حل فلان في يمينه . إذا استثنى فيها . ومنه : حلا أيبت اللعن ^(١) ، بمعنى : استثنى في يمينك إذا أطلقها ؛ وذلك أن يقول « إن شاء الله » عقيبها ، حتى لا يحنث . والثاني : قد شرع الله لكم تحلتها بالكفارة . ومنه قوله عليه السلام : « لا يموت لرجل ثلاثة أولاد فتمسه النار إلا تحلة القسم » ^(٢) وقول ذي الرمة :

• قَلِيلًا كَتَحْلِيلِ الْأَلِيِّ • ^(٣)

فإن قلت : ما حكم تحريم الحلال ؟ قلت : قد اختلف فيه ، فأبو حنيفة يراه يميناً في كل شيء ، ويعتبر الانتفاع المقصود فيما يحرمه ؛ فإذا حرم طعاماً فقد حلف على أكله ، أو أمة فعلى وطئها ، أو زوجة فعلى الإيلاء منها إذا لم يكن له نية ؛ وإن نوى الظهار فظهار ؛ وإن نوى الطلاق فطلاق بائن . وكذلك إن نوى ثنتين وإن نوى ثلاثاً فكما نوى ، وإن قال : نويت الكذب دين فيما بينه وبين الله تعالى ، ولا يدين في القضاء بإبطال الإيلاء . وإن قال : كل حلال على حرام فعلى الطعام والشراب إذا لم ينو ، وإلا فعلى ما نوى ، ولا يراه الشافعي يميناً . ولكن سبباً في الكفارة في النساء وحدهن ، وإن نوى الطلاق فهو رجعي عنده . وعن أبي بكر وعمر وابن عباس وابن مسعود وزيد رضي الله عنهم : أن الحرام يمين ^(٤) وعن عمر : إذا نوى الطلاق فرجعي . وعن علي رضي الله عنه : ثلاث ^(٥) . وعن زيد : واحدة بائنة . وعن عثمان : ظهار .

(١) قوله « ومنه : حلا أيبت اللعن » في الصحاح : يقال حلا ، أي استثنى . وبأخالف أذكر حلا ، وهو بالكسر أفاده الصحاح أيضاً . (ع)

(٢) أخرجه مسلم من حديث سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) قوله « كتحلل الألى » في الصحاح والالية : « البين على فعيلة » ، وكذلك الألوه والألوه : فأما الألوه بالشديد فهو العود الذي يتخير بهاء ؛ فالألى في كلام ذي الرمة جمع الألوه بالتخفيف كالمدية والمدي ، والخطوة والخطى . (ع)

(٤) حديث أبي بكر رضي الله عنه أخرجه ابن أبي شيبة من رواية جوير عن الضحاك : أن أبا بكر وعمر وابن مسعود قالوا : من قال لامرأته : هي علي حرام ، فليست بحرام وعليه كفارة يمين . وإسناده ضعيف ومنقطع طبع . وحديث عمر رضي الله عنه مثله ، وله طريق أخرى أخرجه ابن أبي شيبة أيضاً من رواية خالد الحذاء عن عكرمة عنه قال « الحرام يمين » وهذا منقطع وحديث ابن عباس رضي الله عنهما مثله متفق عليه من رواية ابن جبير عنه قال : الحرام يمين يكفرها . وفي رواية لمسلم « إذا حرم الرجل امرأته فهي يمين يكفرها » . وحديث ابن مسعود مثله ، وله طريق أخرى أخرجه عبد الرزاق من طريق الطبراني عن ابن عتبة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عنه ، قال : في الحرام يمين يكفرها . ورجاله ثقات مع انقطاعه . وحديث زيد بن ثابت رضي الله عنه مثله .

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة وعبد الرزاق من رواية جعفر بن محمد عن أبيه عن علي في قول الرجل لامرأته : أنت علي حرام ، هي ثلاث . وهذا منقطع أيضاً .

وكان مسروق لا يراه شيئاً ويقول : ما أبالي أحرمتها أم قصعة من ثريد ، وكذلك عن الشعبي قال : ليس بشيء ، محتجاً بقوله تعالى (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام) وقوله تعالى (لا تحزموا طيبات ما أحل الله لكم) وما لم يحزمه الله تعالى فليس لأحد أن يحزمه ولا أن يصير بتحريمه حراماً ، ولم يثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لما أحله الله : هو حرام على ، وإنما امتنع من مارية ليمن تقدمت منه ، وهو قوله عليه السلام : والله لا أقربها بعد اليوم ، ف قيل له : (لم تحرم ما أحل الله لك) أى لم تمتنع منه بسبب اليمين ، يعنى : أقدم على ما حلفت عليه ، وكفر عن يمينك . ونحوه قوله تعالى (وحرمتنا عليه المراضع) أى : منعناه منها . وظاهر قوله تعالى (قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) أنه كانت منه يمين . فإن قلت : هل كفر رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك ؟ قلت : عن الحسن : أنه لم يكفر ؛ لأنه كان مغفوراً له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ^(١) ، وإنما هو تعليم للمؤمنين . وعن مقاتل : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعتق رقبة في تحريم مارية (والله مولاكم) سيدكم ومتولى أموركم (وهو العليم) بما يصلحكم فيشرعه لكم (الحكيم) فلا يأمركم ولا ينهىكم إلا بما توجب به الحكمة . وقيل : مولاكم أولى بكم من أنفسكم ، فكانت نصيحته أنفع لكم من نصائحكم لأنفسكم .

وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَمِيرُ ﴿٣﴾

(بعض أزواجه) حفصة . والحديث الذى أسر إليها : حديث مارية وإمامة الشيخين (نبأت به) أفشته إلى عائشة . وقرئ : أنبأت به (وأظهره) وأطلع النبي عليه السلام (عليه) على الحديث ، أى : على إفشائه على لسان جبريل . وقيل : أظهر الله الحديث على النبي صلى الله عليه وسلم من الظهور (عرف بعضه) أعلم ببعض الحديث تكريماً . قال سفيان : ما زال التغافل من فعل الكرام . وقرئ : عرف بعضه ، أى : جاز عليه ، من قولك للسوء : لا عرفن لك ذلك ، وقد عرفت ما صنعت . ومنه : أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم ، وهو كثير فى القرآن . وكان جزاؤه تطليقه إياها . وقيل : المعرف : حديث الإمامة ، والمعرض عنه : حديث مارية . وروى

(١) لم أجده . وفى المراسيل لآبى داود عنه خلاف ذلك ، أخرجه من طريق قتادة عنه فى تحريم أم إبراهيم . قال : نأمر أن يكفر عن يمينه ، وكذا ذكره ابن اصبغ كما تقدم أنه كفر عن يمينه .

أنه صلى الله عليه وسلم قال لها : ألم أقل لك اكتفى على ، قالت : والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسي فرحاً بالكرامة التي خص الله بها أباه . فإن قلت : هلا قيل : فلما نبأت به بعضهن وعرفها بعضه ؟ قلت : ليس الغرض بيان من المذاع إليه ومن المعرف ، وإنما هو ذكر جنائية حفصة في وجود الإنبياء به وإفشائه من قبلها ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بكرمه وحله ، لم يوجد منه إلا الإعلام ببعضه ، وهو حديث الإمامة . ألا ترى أنه لما كان المقصود في قوله (فلما نبأها به قالت من أنباك هذا) ذكر المنبأ ، كيف أتى بضميره .

إِنْ قَتُوبًا إِلَى اللَّهِ قَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ

مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾

(إن توبا) خطاب لحفصة وعائشة على طريقة الالتفات ، ليكون أبلغ في معاتبتهما . وعن ابن عباس : لم أزل حربصاً على أن أسأل عمر عنهما حتى حج وحججت معه ، فلما كان ببعض الطريق عدل وعدلت معه بالإداوة ، فسكبت الماء على يده فتوضأ ، فقلت : من هما ؟ فقال : عجيباً يا ابن عباس . كأنه كره ما سأله عنه . ثم قال : هما حفصة وعائشة ^(١) (فقد صغت قلوبكما) فقد وجد منكما ما يوجب التوبة ، وهو ميل قلوبكما عن الواجب في مخالصة رسول الله صلى الله عليه وسلم من حب ما يحبه وكره ما يكرهه . وقرأ ابن مسعود : (فقد زأغت) (وإن تظاهرا) وإن تعاونا (عليه) بما يسوءه من الإفراط في الغيرة وإفشاء سره ، فلن يعدم هو من يظاھرہ ، وكيف يعلم المظاهر من الله مولاه أي وليه وناصره ؛ وزيادة (هو) إيذان بأن نصرته عزيزة من عزائمه ، وأنه يتولى ذلك بذاته (وجبريل) رأس الكرويين ؛ وقرن ذكره بذكره مفرداً له من بين الملائكة تعظيماً له وإظهاراً لمسكاته عنده (وصالح المؤمنين) ومن صلح من المؤمنين ، يعني : كل من آمن وعمل صالحاً . وعن سعيد بن جبیر : من برئ منهم من النفاق . وقيل : الأنبياء وقيل : الصحابة . وقيل : الخلفاء منهم . فإن قلت : صالح المؤمنين واحد أم جمع ؟ قلت : هو واحد أريد به الجمع ، كقولك : لا يفعل هذا الصالح من الناس ، تريد الجنس ، كقولك : لا يفعله من صلح منهم . ومثله قولك : كنت في السامر والحاضر . ويجوز أن يكون أصله : صالحوا المؤمنين بالواو ، فكاتب بغير واو على اللفظ ؛ لأن لفظ الواحد والجمع واحد فيه ، كما جاءت أشياء في المصحف متبوع فيها حكم اللفظ دون وضع الخط (والملائكة) على تسكائر عددهم ، وامتلاء السموات من جوعهم (بعد ذلك) بعد نصرته الله وناموسه وصالحى المؤمنين (ظهير) فوج مظاهر له ، كأنهم يد واحدة على من يعاديه ، فما يبلغ تظاهر امرأتين على من هؤلاء

ظهوره؟ فإن قلت: قوله (بعد ذلك) تعظيم للملائكة ومظاهرتهم. وقد تقدمت نصرة الله وجبريل وصالح المؤمنين، ونصرة الله تعالى أعظم وأعظم. قلت: مظاهره الملائكة من جملة نصرة الله، فكأنه فضل نصرة تعالى بهم وبمظاهرتهم على غيرها من وجوه نصرة تعالى، لفضلهم على جميع خلقه^(١). وقرئ: تظاهرا. وتظاهرا. وتظهرا.

عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ

مُؤْمِنَاتٍ قَاتِنَاتٍ تَأْتِيَنَّاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾

قرئ: يبدله، بالتخفيف والتشديد للكثرة (مسلمات مؤمنات) مقررات مخلصات (سائحات) صائمات. وقرئ: سيحات، وهي أبلغ. وقيل للصائم: سائح؛ لأن السائح لا زاد معه، فلا يزال مسكا إلى أن يحسد ما يطعمه، فشبه به الصائم في إمساكه إلى أن يحجى وقت إفطاره. وقيل: سائحات مهاجرات، وعن زيد بن أسلم: لم تكن في هذه الأمة سياحة إلا الهجرة. فإن قلت: كيف تكون المبدلات خيرا منهن، ولم تكن على وجه الأرض نساء خيرا من أمهات المؤمنين؟^(٢) قلت: إذا طلقهن رسول الله لعصيانهن له وإيذائهن إياه، لم يبقين على تلك الصفة، وكان غيرهن من الموصوفات بهذه الأوصاف مع الطاعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم والنزول على هواه ورضاه خيرا منهن، وقد عرض بذلك في قوله (قاتنات) لأن القنوت هو القيام بطاعة الله، وطاعة الله في طاعة رسوله. فإن قلت: لم أخليت الصفات كلها عن العاطف^(٣) ووسط بين الثيبات والابكار؟ قلت: لأنهما صفتان متنافيتان لا يجتمعان فيهما اجتماعهن^(٤) في سائر الصفات،

(١) قوله لفضلهم على جميع خلقه، مذهب المعتزلة تفضيل الملك على البشر، وأهل السنة على تفضيل بعض

البشر على الملائكة. (ع)

(٢) قوله ونساء خيرا من أمهات المؤمنين، لعله خيرا. (ع)

(٣) قال محمود: وإن قلت لم أخليت هذه الصفات من العاطف... الخ، قال أحد: وقد ذكر لي الشيخ أبو عمرو بن الحاجب رحمه الله: أن القاضي الفاضل عبد الرحيم البيهقي الكاتب رحمه الله كان يعتقد أن الواو في الآية هي الواو التي سماها بعض ضمة النحاة وواو الثمانية، لأنها ذكرت مع الصفة الثامنة، فكان العاضل يتجمع باستخراجها زائدة على المواضع الثلاثة المشهورة صلة، أحدها التي في الصفة الثامنة من قوله (الثانيون العابدون) عند قوله (والناهيون عن المنكر) والثانية في قوله (وثامنهم كلهم) والثالثة في قوله (وقدحت أبوابها) قال الشيخ أبو عمرو بن الحاجب: ولم يزل القاضي يستحسن ذلك من نفسه إلى أن ذكره يوما بمحضرة أبي الجود النحوي المقرئ فبين له أنه واهم في عدده من ذلك القليل، وأحال البيان على المعنى الذي ذكره الزعفراني من دعاء الضرورة إلى الاتيان بها مهنا، لاستناع اجتماع الصفتين في موصوف واحد، وواو الثمانية إن ثبتت فأنما ترد بحسب الحاجة إليها إلا لاشعار بتمام نهاية العدد الذي هو السبعة، فأصقه الفاضل رحمه الله، واستحسن ذلك منه وقال: أرشدنا يا أبا الجود.

(٤) قوله «لا يجتمعان فيهما اجتماعهن» لعل فيه قلبا، والأصل: لا يجتمعان فيهن اجتماع سائر الصفات فيهن. (ع)

فلم يكن بد من الواو .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ

عَلَيْهَا مَلَأْنِكَ غِلَظًا شِدَادًا لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُعْجِرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

(قوا أنفسكم) بترك المعاصي وفعل الطاعات (وأهلكم) بأن تأخذوهم بما تأخذون به أنفسكم . وفي الحديث «رحم الله رجلا قال يا أهلاه صيامكم زكاتكم مسكنكم يتيمكم جيرانكم لعل الله يجمعهم معي في الجنة» (١) وقيل : إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة من جهل أهله . وقرئ : وأهلككم (٢) ، عطفاً على واو (قوا) وحسن العطف للفاصل . فإن قلت : أليس التقدير : قوا أنفسكم ، وليق أهلككم أنفسهم ؟ قلت : لا ، ولكن المعطوف مقارن في التقدير للواو ، وأنتسم واقع بعده ، فكأنه قيل : قوا أنتم وأهلكم أنفسكم لما جمعت مع المخاطب الغائب غلبته عليه ، فجعلت ضميرهما معاً على لفظ المخاطب (ناراً وقودها الناس والحجارة) نوعاً من النار لا يتقد إلا بالناس والحجارة ، كما يتقد غيرها من الثيران بالخطب . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : هي حجارة الكبريت ، وهي أشد الأشياء حراً إذا أوقد عليها . وقرئ : وقودها بالضم ، أي ذوقودها (عليها) يلي أمرها وتعذيب أهلها (ملأناك) بمعنى الزبانية التسعة عشر وأعوانهم (غلظ شداد) في أجرامهم غلظة وشدة ، أي : جفاء وقوة . أو في أفعالهم جفاء وخشونة ، لا تأخذهم رافة في تنفيذ أوامر الله وال غضب له والانتقام من أعدائه (ما أمرهم) في محل النصب على البدل ، أي : لا يعصون ما أمر الله . أي : أمره ، كقوله تعالى (أف عصيت أمري) أولاً يعصونه فيما أمرهم . فإن قلت : أليست الجملتان في معنى واحد ؟ قلت : لا ، فإن معنى الأولى أنهم يتقبلون أوامره ويلتزمون ولا يأتونها ولا يشكرونها . ومعنى الثانية : أنهم يؤدون ما يؤمرون

(١) لم أجده .

(٢) قال حمود في قوله تعالى (قوا أنفسكم وأهلكم ناراً) : قرئ : وأهلككم . قال أحمد : ولكن المعطوف مقارن في التقدير للواو ، وأنتسم واقع بعده ، كأنه قال : قوا أنتم وأهلكم أنفسكم ، ولكن لما اجتمع ضمير المخاطب والغائبين : غلب ضمير المخاطب على ضمير الغيبة . ثم قال : فإن قلت قوله (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) ليس الجملتان في معنى واحد ؟ وأجاب بأن معنى الأولى أنهم يلتزمون الأوامر ولا يأتونها ... الخ . قال أحمد : جوابه الأول مفرع على قاعدته الفاسدة في اعتقاد خلود الفساق في جهنم ؛ ولعله إنما أورد السؤال ليتكلف منه بجواب بنفس عما في نفسه مما لا يطبق كنهانه من هذا الباطل نفوذاً بالله منه ؛ وإلا فالسؤال غير وارد ؛ فإنه لا يمتنع أن المؤمن يحذر من عذاب الكافر أن يناله على الإيمان ، كقوله في آل عمران خطاباً للؤمنين (واتقوا النار التي أعدت للكافرين ، وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون) .

به لا يتأفلون عنه ولا يتوانون فيه . فإن قلت : قد خاطب الله المشركين المكذبين بالوحي بهذا بعينه في قوله تعالى (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة) وقال (أعدت للكافرين) فجعلها معدة للكافرين ، فما معنى مخاطبته به المؤمنين ؟ قلت : الفساق وإن كانت دركاتهم فوق دركات الكفار ، فإنهم مساكنون الكفار في دار واحدة فقبل للذين آمنوا : قوا أنفسكم واجتنب الفسوق مساكنة الكفار الذين أعدت لهم هذه النار الموصوفة . ويجوز أن يأمرهم بالتوقي من الارتداد ، والتدم على الدخول في الإسلام ، وأن يكون خطابا للذين آمنوا بألسنتهم وهم المنافقون ؛ ويعضد ذلك قوله تعالى على أثره ﴿يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ أى : يقال لهم ذلك عند دخولهم النار لا تعتذروا ، لأنه لا عذر لكم . أو لأنه لا ينفعكم الاعتذار .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَآغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾

(توبة نصوحا) وصفت التوبة بالنصح على الإسناد المجازى : والنصح : صفة التائبين ، وهو أن ينصحوا بالتوبة أنفسهم ، فيأتوا بها على طريقها متداركة للفرطات ماحية للسيئات ، وذلك : أن يتوبوا عن القبائح لقبحها : نادمين عليها ، مغتمين أشد الاغتمام لارتكابها ، عازمين على أنهم لا يعودون في قبيح من القبائح إلى أن يعود اللب في الضرع ، موطنين أنفسهم على ذلك . وعن على رضى الله تعالى عنه : أنه سمع أعرابيا يقول : اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك ، فقال : يا هذا ، إن سرعة اللسان بالتوبة توبة الكذابين . قال : وما التوبة ؟ قال : يجمعها ستة أشياء : على الماضي من الذنوب : الندامة ، وللغرائض : الإعادة ، ورد المظالم ، واستحلال الخصوم ، وأن تعزم على أن لا تعود ، وأن تذيب نفسك في طاعة الله ، كما ربيتها في المعصية ، وأن تذيبها مرارة الطاعات كما أدققتها حلاوة المعاصي . وعن حذيفة : بحسب الرجل من الشر أن يتوب عن الذنب ثم يعود فيه . وعن شهر بن حوشب : أن لا يعود ولو حز بالسيف وأحرق بالنار . وعن ابن السكك : أن تنصب الذنب الذى أقللت فيه الحياء من الله أمام عينك وتستعد لمنظرك . وقيل : توبة لا يتاب منها . وعن السدى : لا تصح التوبة إلا بنصيحة النفس والمؤمنين ، لأن من صحت توبته أحب أن يكون الناس مثله . وقيل : نصوحا من نصاحاة الثوب ، أى : توبة ترفو

خروجك في دينك ، وترم خلك .^(١) وقيل : خالصة ، من قولهم : غسل ناصح إذا خلص من الشمع . ويجوز أن يراد : توبة تنصح الناس ، أي : تدعوهم إلى مثلها لظهور أثرها في صاحبها ، واستعماله الجهد والعزيمة في العمل على مقتضياتها . وقرأ زيد بن علي : توباً نصوحاً . وقرئ : نصوحاً بالضم ، وهو مصدر نصح . والنصح والنصوح ، كالشكر والشكور ، والكفر والكفور . أي : ذات نصوح . أو تنصح نصوحاً . أو توبوا للنصح أنفسكم على أنه مفعول له ﴿ عسى ربكم ﴾ إطلاع من الله لعباده ، وفيه وجهان ، أحدهما : أن يكون على ما جرت به عادة الجبارة من الإجابة بعسى ولعل . ووقوع ذلك منهم موقع القطع والبت . والثاني : أن يجيء به تعليلاً للعباد وجوب الترجع بين الخوف والرجاء ، والذي يدل على المعنى الأول وأنه في معنى البت : قراءة ابن أبي عملة : ويدخلكم بالجزم ، عطفاً على محل ﴿ عسى أن يكفر ﴾ كأنه قيل : توبوا يوجب لكم تكفير سيئاتكم ويدخلكم ﴿ يوم لا يخزي الله ﴾ نصب يدخلكم ، ولا يخزي : تعريض بمن أخزاهم الله من أهل الكفر والفسوق ، واستجداد إلى المؤمنين على أنه عصمهم من مثل حالهم ﴿ يسمى نورهم ﴾ على الصراط ﴿ أتمم لنا نورنا ﴾ قال ابن عباس : يقولون ذلك إذا طلع نور المنافقين إشفاقاً . وعن الحسن : الله متممه لهم ولكنهم يدعون تقرباً إلى الله ، كقوله تعالى ﴿ واستغفر لذنبك ﴾ وهو مغفور له . وقيل : يقوله أديانهم منزلة ، لأنهم يعطون من النور قدر ما يبصرون به مواطع أقdamهم ، لأن النور على قدر الأعمال فيسألون إتمامه تفضلاً . وقيل : السابقون إلى الجنة يبرون مثل البرق على الصراط ، وبعضهم كالريح ، وبعضهم حوا وزحفاً ؛ فأولئك الذين يقولون ﴿ ربنا أتمم لنا نورنا ﴾ فإن قلت : كيف يشفقون والمؤمنون آمنون ، (أم من يأتي آمناً يوم القيامة) . (لا خوف عليهم) ، (لا يحزنهم الفزع الأكبر) أو كيف^(٢) يتقربون وليست الدار دار تقرب ؟ قلت : أما الإشفاق فيجوز أن يكون على عادة البشرية وإن كانوا معتقدين الآمن . وأما التقرب فلما كانت حالهم كحال المتقربين حيث يطلبون ما هو حاصل لهم من الرحمة : سماء تقرباً .

يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ

وَيَنْفُسَ الْمَصِيرُ ٩

(جاهد الكفار) بالسيف (والمنافيقين) بالاحتجاج ؛ واستعمل الغلظة والخشونة على

(١) قوله وترم خلك ، في الصحاح والخل ، الثوب البالي . وعبارة النسق : خلك . وفي الصحاح والخل ،

بالتحريك : الفرجة بين الصبيين ، ونساق في الأمر . (ع)

(٢) قوله أو كيف ، لعله : وكيف . (ع)

الفريقين فيما يجاهداهما به من القتال والحاجة . وعن قتادة : مجاهدة المنافقين لإقامة الحدود عليهم . وعن مجاهد : بالوعيد . وقيل : بإفشاء أسرارهم .

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا

النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠)

مثل الله عز وجل حال الكفار - في أنهم يعاقبون على كفرهم وعداوتهم للمؤمنين معاقبة مثلهم ^(١) من غير إبقاء ولا محابة ، ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كان بينهم وبينهم من لحمه نسب أو وصلة صهر ؛ لأن عداوتهم لهم وكفرهم بالله ورسوله قطع العلائق وبت الوصل ، وجعلهم أبعد من الأجانب وأبعد ، وإن كان المؤمن الذي يتصل به الكافر نبياً من أنبياء الله - بحال امرأة نوح وامرأة لوط : لما ناققتا رسولين لم يغن الرسولا عنهما بحق ما بينهما وبينهما من وصلة الزواج إغناء ما من عذاب الله (وقيل) لهما عند موتهما أو يوم القيامة : (ادخلا النار مع) سائر (الداخلين) الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء . أو مع داخلها من إخوانكما من قوم نوح وقوم لوط . ومثل حال المؤمنين - في أن وصلة الكافرين لا تضرهم ولا تنقص شيئاً من ثوابهم وزلفاهم عند الله - بحال امرأة فرعون ومزلاتها عند الله تعالى ، مع كونها زوجة أعدى أعداء الله الناطق بالكلمة العظمى ، ومريم ابنة عمران وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة والاصطفاء على نساء العالمين ، مع أن قومها كانوا كفاراً . وفي طي هذين التمثيلين تعريض بأتمى المؤمنين المذكورين في أول السورة وما فرط منهما من التظاهر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٢) بما كرهه وتحذير لهما على أعظم وجه وأشدّه ، لما في التمثيل من ذكر الكفر . ونحوه في التغليظ قوله تعالى (ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين) وإشارة إلى أن من حقهما أن تكونا في الإخلاص والكمال فيه كمثل هاتين المؤمنتين ، وأن لا تتسكلا على أنهما زوجا رسول الله ، فإن ذلك الفضل لا ينفعهما إلا مع كونهما مخلصتين ، والتعريض بحفصة أرجح ، لأن امرأة لوط أفشت عليه كما أفشت حفصة على رسول الله ، وأسرار التنزيل ورموزه في كل باب بالغة من اللطف والخفاء حدا يدق عن تفتن العالم ويزل عن نبصره .

(١) قوله وحال الكفار في أنهم يعاقبون على كفرهم أي الذين بينهم وبين المؤمنين علاقة . وقوله ومثلهم أي

من لاعلاقة بينهم وبين المؤمنين . (ع)

(٢) قوله وعلى التظاهر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لعله من التظاهر ، كعبارة الندي . (ع)

فإن قلت ، ما فائدة قوله (من عبادنا) ؟ قلت : لما كان مبنى التمثيل على وجود الصلاح في الإنسان كائنا من كان ، وأنه وحده هو الذى يبلغ به الفوز وينال ما عند الله : قال غبدين من عبادنا صالحين ، فذكر النبيين المشهورين العليين بأنهما عبادان لم يكونا إلا كسائر عبادنا ، من غير تفاوت بينهما وبينهم إلا بالصلاح وحده إظهاراً وإبانة ، لأن عبداً من العباد لا يرجع عنده إلا بالصلاح لا غير ، وأن ما سواه مما يرجع به الناس عند الناس ليس بسبب للرجحان عنده . فإن قلت : ما كانت خيانتها ؟ قلت : تفاقهما وإبطانها الكفر ، وتظاهرها على الرسولين ، فامرأة نوح قالت لقومه : إنه مجنون ، وامرأة لوط دلت على ضيفانه . ولا يجوز أن يراد بالخيانة الفجور لأنه سمح في الطباع نقيصة عند كل أحد ، بخلاف الكفر فإن الكفار لا يستسمجون به بل يستحسنونه ويسمونهم حقاً ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما : ما بغت امرأة نبي قط ، (١) .

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ
بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١)
وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَتُ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ
بِكَلِمَتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِكْرَامٌ (١٢)

وامرأة فرعون : : آسية بنت مزاحم . وقيل : هى عمه موسى عليه السلام آمنت حين سمعت بتلقف عصا موسى الإفاك ، فعذبها فرعون . عن أبي هريرة : أن فرعون وتد امرأته بأربعة أوتاد ، واستقبل بها الشمس : وأضجعها على ظهرها ، ووضع رجليه على صدرها . وقيل : أمر بأن تلقى عليها صخرة عظيمة فدعت الله فرقى بروحها ، فألقيت الصخرة على جسد لاروح فيه . وعن الحسن : فنجها الله أكرم نجاة : فرفعها إلى الجنة فهى تأكل وتشرب وتتنعم فيها . وقيل : لما قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة : أريت بيتها فى الجنة ببنى . وقيل : إنه من درة . وقيل : كانت تعذب فى الشمس فتظلها الملائكة . فإن قلت : ما معنى الجمع بين عندك وفى الجنة ؟ قلت طلبت القرب من رحمة الله والبعد من عذاب أعدائه ، ثم بينت مكان القرب بقولها (فى الجنة) أو أرادت ارتفاع الدرجة فى الجنة وأن تكون جنتها من الجنان التى هى أقرب إلى العرش وهى جنات المساوى ، فعبرت عن القرب إلى العرش بقولها (عندك) . (من فرعون وعمله) من عمل فرعون . أو من نفس فرعون الخبيثة وسلاطانه الغشوم ، وخصوصا

من عمله وهو : الكفر ، وعبادة الاصنام ، والظلم ، والتعذيب بغير جرم (ونجى من القوم الظالمين) من القبط كلهم . وفيه دليل على أن الاستعاذة بالله والالتجاء إليه ومسئلة الخلاص منه عند المحن والنوازل : من سير الصالحين وسنن الأنبياء والمرسلين : (فافتح بيني وبينهم فتحاً ونجى ومن معي من المؤمنين) ، (ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ، ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) . (فيه) في الفرج . وقرأ ابن مسعود : فيها ، كما قرئ في سورة الأنبياء ، والضمير للجملة ، وقد مرّ في هذا الطرف كلام . ومن بدع التفاسير : أن الفرج هو جيب الدرع ، ومعنى أحصنته : منعه جبريل ، وأنه جمع في التثنية بين التي لها زوج والتي لا زوج لها ، تسلياً للأرامل وتطييباً لأنفسهن (وصدقت) قرئ بالتشديد والتخفيف على أنها جعلت الكلمات والكتب صادقة ، يعنى : وصفتها بالصدق ، وهو معنى التصديق بعينه . فإن قلت : فما كلمات الله وكتبه ؟ قلت : يجوز أن يراد بكلماته : صحفه التي أنزلها على إدريس وغيره ، سماها كلمات لقصرها ^(١) ، وبكتبه : الكتب الأربعة ^(٢) ، وأن يراد جميع ما كلم الله به ملائكته وغيرهم ، وجميع ما كتبه في اللوح وغيره . وقرئ : بكلمة الله وكتابه . أى : بعيسى وبالكتاب المنزل عليه وهو الإنجيل . فإن قلت : لم قيل (من القاتنين) على التذكير ؟ قلت : لأن القنوت صفة تشمل من قنت من القبيلين ، فغلب ذكره على إناثه . (من) للتبويض . ويجوز أن يكون لا ابتداء الغاية ، على أنها ولدت من القاتنين ؛ لأنها من أعقاب هرون أخى موسى صلوات الله عليهما . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : « كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا أربع : آسية بنت مزاحم امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد . وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » ^(٣) وأما ما روى أن عائشة سألت

(١) قال محمود : « يجوز أن يراد بالكلمات للصحف التي أنزلها الله تعالى على إدريس وغيره : سماها كلمات لقصرها ... الخ » قال أحد : هو يعتقد حدوث كلام الله ويحدد الكلام القديم . فلا جرم أن كلامه لا يبعدوا الأشعار بأن كلمات الله متناهية ؛ لأنه في الوجه الأول جعلها مجموعة جمع فله لقصرها ، وفي الثاني حصرها بقوله « جميع » وأين وصفه لها بالقصر والحصر من الآيتين التوأمين اللتين إحداهما قوله (قل لو كان البحر مدداً لكلمات ربى) والأخرى قوله (ولأن ما في الأرض من شجرة أقلام ... الآية) وما هو في الحقيقة إلا غير مؤمن بكلمات الله تعالى ؛ فالحق أن كلام الله تعالى صفة من صفات كاله أزلية أبدية غير متناهية ، فهكذا آمنت امرأة فرعون المتلو ثناؤها في كتاب الله العزيز ، ثبتنا الله على الإيمان ، ووقانا الخذلان ، والله المستعان .

(٢) قوله « وبكتبه الكتب الأربعة » لعلها علت بالإنجيل والقرآن نزولهما . (ع)

(٣) أخرجه الثعلبي من طريق عمرو بن مرزوق عن شعبة عن عمرو بن مرة سمع مرة عن أبي موسى بهذا . وأخرجه أبو نعيم في الحلية في ترجمة عمرو بن مرة من هذا الوجه . قال : حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا يوسف القاضى حدثنا عمرو بن مرزوق بهذا . وهو في البخارى من رواية مرة عن أبي موسى دون ذكر خديجة وفاطمة ==

رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف سمي الله المسلمة؟ تعني مريم، ولم يسم الكافرة؟ فقال: بغضالها: قالت: وما اسمها؟ قال: اسم امرأة نوح، وواحدة، واسم امرأة لوط، وواحدة، فحديث أثر الصنعة عليه ظاهر بين، ولقد سمي الله تعالى جماعة من الكفار بأسمائهم وكنائهم، ولو كانت القسمة للحب وتركها للبغض لسمى آسية، وقد قرن بينها وبين مريم في التثليل للؤمنين، وأبى الله إلا أن يجعل للصنعة أماراة تم عليه، وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم أحكم وأسلم من ذلك.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرأ سورة التحريم آمنه الله توبة نصوحا،^(١)

سورة الملك

مكية، وهي ثلاثون آية [نزلت بعد الطور]

وتسمى: الواقعة، والنجية؛ لأنها تقي وتنجي قارئها من عذاب القبر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ①
الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ②
الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ مَآوَاتٍ طِبَاقًا مَاتَرِي فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ③
ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ④

(تبارك) تعالى وتعاظم عن صفات المخلوقين (الذي بيده الملك) على كل موجود (وهو

رضي الله عنهما. وفي ابن جابر والحاكم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما رفعه «أفضل نساء العالمين أربع... فذكره».

(١) أخرجه الثعلبي وابن مردويه بإسنادهما إلى أبي بن كعب.

على كل) ما لم يوجد مما يدخل تحت القدرة (قدير) وذكر الابدحاز عن الإحاطة بالملك والاستيلاء عليه. والحياة : ما يصح بوجوده الإحساس . وقيل : ما يوجب كون الشيء حيا ، وهو الذى يصح منه أن يعلم ويقدر . والموت عدم ذلك ^(١) فيه ، ومعنى خلق الموت والحياة : إيجاد ذلك المصحح وإعدامه . والمعنى : خلق موتكم وحياتكم أبا المسكفون (ليلوكم) وسعى علم الواقع منهم باختيارهم بلوى ، وهى الخبرة استعارة من فعل المختبر . ونحوه قوله تعالى (ولنبلونكم) حتى نفعل المجاهدين منكم) . فإن قلت : من أين تعلق قوله (أيكم أحسن عملا) بفعل البلوى ^(٢) ؟ قلت : من حيث أنه تضمن معنى العلم ، فكأنه قيل : ليعلمكم أيكم أحسن عملا ؛ وإذا قلت : علمته أزيد أحسن عملا أم هو ؟ كانت هذه الجملة واقعة موقع الثانى من مفعولىه ، كما تقول : علمته هو أحسن عملا . فإن قلت : أتسمى هذا تعليقا ؟ قلت : لا ، إنما التعليق أن توقع بعده ما يسد مسد المفعولين جميعا ، كقولك : علمت أيهما عمرو ، وعلمت أزيد منطلق . ألا ترى أنه لا فصل بعد سبق أحد المفعولين بين أن يقع ما بعده مصدرا بحرف الاستفهام وغير مصدر به ، ولو كان تعليقا لا فترقت الحالتان كما افترقتا فى قولك : علمت أزيد منطلق . وعلمت زيدا منطلقا . (أحسن عملا) . قيل : أخلصه وأصوبه ؛ لأنه إذا كان خالصا غير صواب لم يقبل ، وكذلك إذا كان صوابا غير خالص ؛ فالخالص : أن يكون لوجه الله تعالى ؛ والصواب : أن يكون على السنة . وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه تلاها ، فلما بلغ قوله (أيكم أحسن عملا) قال : «أيكم أحسن عقلا وأورع عن محارم الله وأسرع فى طاعة الله» ^(٣) . يعنى : أيكم أتم عقلا عن الله وفهما لأغراضه ؛ والمراد : أنه أعطاكم الحياة التى تقدرون بها على العمل وتستمكنون منه ، وسلط عليكم الموت الذى هو داعيكم إلى اختيار العمل الحسن على القبيح ، لأن وراءه البعث والجزاء الذى لا بد منه . وقدم الموت على الحياة ، لأن أقوى الناس داعيا إلى العمل من نصب موته بين عينيه فقدم لأنه فيما يرجع إلى الغرض المسوق له الآية أم (وهو العزيز)

(١) قال محمود : «أى ما يوجب كون الشيء حيا أو ما يصح بوجوده الإحساس والموت عدم ذلك ... الخ» قال أحمد : خطأ فى تفسير الموت ديدنه المعروف أن يفسر ويتبع التفسير آراء القدرية ، ومنها قطع الله ذكرها : أن الموت عدم ، وهو خطأ صراح . ومعتقد أهل السنة أنه أمر وجودى يضاد الحياة ، وكيف يكون عدم بهذه اللطابة ، ولو كان عدم مخلوقا حادثا وعدم الحوادث مقرر أزلا : لازم قطع الحوادث أزلا ، وذلك أبش من القول بقدم العالم ؛ فانظر إلى هذا الهوى ابن مؤداه . وكيف أهوى بصاحبه فأرداه ، فعوذ بالله من الزلل والخطأ .

(٢) قال محمود : «أين تعلق قوله (أيكم أحسن عملا) بفعل البلوى ؟ وأجاب بأن معناه ليعلمكم أيكم أحسن عملا ؛ لأن البلوى تتضمن العلم ... الخ» قال أحمد : التعليق عن أحد المفعولين مختلف فيه بين النجاة ، والأصح ما أجازاه ، وهو فى هذا الفن يشى وفيه يدرج ويدرى كيف يدخل فيه ويخرج .

(٣) تقدم الكلام عليه فى أول سورة هود .

الغائب الذي لا يعجزه من أساء العمل (الغفور) لمن تاب من أهل الإساءة (طباقا) مطابقة بعضها فوق بعض، من طابق النعل: إذا خصفها طبقاً على طبق، وهذا وصف بالمصدر. أو على ذات طبق، أو على: طوبقت طباقا (من تفاوت) وقرئ: من تفاوت. ومعنى البنائين واحد، كقولهم: تظاهروا من نسائهم. وتظاهروا. وتعاهدته وتعهدته، أى: من اختلاف واضطراب في الخلقة ولا تناقض؛ إنما هي مستوية مستقيمة. وحقيقة التفاوت: عدم التناسب، كأن بعض الشيء يفوت بعضاً ولا يلائمه. ومنه قولهم: خلق متفاوت. وفي تقيضه: متاصف. فإن قلت: كيف موقع هذه الجملة بما قبلها؟ قلت: هي صفة مشايعة لقوله (طباقا) وأصلها: ما ترى فيهن من تفاوت، فوضع مكان الضمير قوله (خلق الرحمن) تعظيماً لخلقهن. وتنبيهاً على سبب سلامتهن من التفاوت: وهو أنه خلق الرحمن، وأنه بياهر قدرته هو الذي يخلق مثل ذلك الخلق المتناسب، والخطاب في ما ترى للرسول أو لكل مخاطب. وقوله تعالى (فارجع البصر) متعلق به على معنى التسيب: أخبره بأنه لا تفاوت في خلقهن، ثم قال (فارجع البصر) حتى يصح عندك ما أخبرت به بالمعانية، ولا تبقى معك شبهة فيه (هل ترى من فطور) من صدوع وشقوق: جمع فطر وهو الشق. يقال: فطره فانفطر. ومنه: فطر ناب البعير، كما يقال: شق وبزل. ومعناه: شق اللحم فطلع. وأمره بتكرير البصر فيهن متصفحا ومتنبعا يلتبس عيبا وخطا (ينقلب إليك) أى إن رجعت البصر وكررت النظر لم يرجع إليك بصرك بما التمسته من رؤية الخلل وإدراك العيب، بل يرجع إليك بالخسوء والخسور، أى: بالبعد عن إصابة الملتبس، كأنه يطرد عن ذلك طردا بالصغار والقمامة^(١)، وبالإعياء والكلال لطول الإجلالة والبريد. فإن قلت: كيف ينقلب البصر خاسئا حسيرا برجعه كرتين اثنتين؟ قلت: معنى التثنية التكرير بكثرة^(٢)، كقولك: لييك وسعديك، تريد إجابات كثيرة بعضها في أثر بعض، وقولهم في المثل: دهرين سعد القين^(٣) من ذلك. أى: باطلا بعد باطل. فإن قلت: فما معنى ثم ارجع؟ قلت: أمره بارجع

(١) قوله «بالصغار والقمامة» أى: الصغر والذل، كما في الصحاح. (ع)

(٢) قال محمود: «لم خصس التكرين؟ فأجاب بأن معنى التثنية وهنا التأكيد... الخ» قال أحمد: وفي قوله (ينقلب إليك البصر) وضع للظاهر موضع المضمرة. وفيه من الفائدة: التنبيه على أن الذي يرجع خاسئا حسيراً غير مدرك الفطور: هو الآلة التي يلتبس بها إدراك ما هو كائن، فإذا لم يدرك شيء دل على أنه لا شيء. ومن هذا القبيل قوله (خلق سبع سموات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت) وأصله: ما ترى في خلقهن من تفاوت، وليكن ذكرهن مفسرات لخلق الرحمن، تنبيهاً على السبب الذي رأين على الفطور والتفاوت.

(٣) قوله «دهرين سعد القين... الخ» في القاموس بضم الدالين وفتح الراء المشددة: اسم لبطل، والباطل والكذب كالدهدر. ودهرين سعد القين: أى بطل سعد الحداد. أو أن فينا ادعى أن اسمه سعد زمانا، ثم نبين كذبه، فليل له ذلك، أى: جمعت باطلا إلى باطل باسم الحداد. ويروي منفصلا «ده» أمر من الدهاء؛ و«دهرين» من در: أى تابع، أى: بالغ في الكذب باسمه. وفيه غير ذلك، فراجع: كذا جهامش الأصل. (ع)

البصر، ثم أمره بأن لا يقتنع بالرجعة الأولى وبالنظرة الحقا، وأن يتوقف بعدها ويحجم بصره، ثم يعاود ويعاود، إلى أن يحسر بصره من طول المعاودة، فإنه لا يعثر على شيء من فطور.

وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا

لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ٥

(الدنيا) القرني؛ لأنها أقرب السموات إلى الناس، ومعناها: السماء الدنيا منكم. والمصابيح السرج، سميت بها الكواكب، والناس يزنون مساجدهم ودورهم بأثقاب المصابيح^(١)، فقيل: ولقد زيننا سقف الدار التي اجتمعتم فيها (بمصابيح) أي بأى مصابيح لا توازيها مصابيح إضاءة، وضممنا إلى ذلك منافع أخرى: أنا (جعلناها رجوما) أعدائكم: لـ (لشياطين) الذين يخرجونكم من النور إلى الظلمات وتهتدون بها في ظلمات البر والبحر. قال قتادة: خلق الله النجوم ثلاث: زينة للسماء، ورجوما للشياطين، وعلامات يهتدى بها. فمن تأول فيها غير ذلك فقد تكلف مالا علم له به وعن محمد بن كعب: في السماء والله ما لأحد من أهل الأرض في السماء نجم. ولكنهم يتفنون الكهانة ويتخذون النجوم علة. والرجوم: جمع رجم. وهو مصدر سمي به ما يرم به. ومعنى كونها مراجع للشياطين: أن الشهاب التي تنقض لرى المسترقة منهم منفصلة من نار الكواكب، لأنهم يرجون بالكواكب أنفسهم؛ لأنها قارة في الفلك على حالها. وما ذاك إلا كغيبس يؤخذ من نار، والثار ثابتة كاملة لا تنقص. وقيل: من الشياطين المرجومة من يقتله الشهاب. ومنهم من يخبله. وقيل: معناه وجعلناها ظنونا ورجوما بالغيب لشياطين الإنس وهم النجामون^(٢) (وأعتدنا لهم عذاب السعير) في الآخرة بعد عذاب الإحراق بالشهب في الدنيا.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ٦ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمْ خَزَائِنَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ٨ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا

(١) قوله «ودورهم بأثقاب المصابيح» في الصحاح «ثقت النار»: انقذت. وأثقتها أنا. وشهاب ثاقب،

أي: مضى. (ع)

(٢) حمل الزخشرى الشياطين على ظاهره، ونقل عن بعضهم أن معناه: وجعلناها ظنونا ورجوما بالغيب... الخ. قال أحمد: وهذا من الاستطراد. لما ذكر وعيد الغياطين استطرده ذلك وعيد الكافرين عموما والله أعلم.

وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا أَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِهِمْ) أى : ولكل من كفر بالله من الشياطين وغيرهم (عذاب جهنم) ليس الشياطين المرجومين مخصوصين بذلك . وقرئ عذاب جهنم بالنصب عطفا على عذاب السعير (إذا ألقوا فيها) أى طرحوا كما يطرح الخطب في النار العظيمة ، ويرى به . ومثله قوله تعالى (حصب جهنم) . (سمعوا لها شهيقا) إما لاهلها عن تقدم طرحهم فيها . أو من أنفسهم ، كقوله (لم فيها زفير وشهيق) وإما للنار تشبيها لحسبها^(١) المنكر الفظيع بالشهيق (وهي تقور) تغلي بهم غليان المرجل بما فيه . وجعلت كالمغناطة عليهم لشدة غليانها بهم ، ويقولون : فلان يتميز غيظا ويتقصف غضبا ، وغضب فطارت منه شقة في الأرض وشقة في السماء : إذا وصفوه بالإفراط فيه . ويجوز أن يراد : غيظ الزبانية (ألم يأتكم نذير) توبيخ يزدادون به عذابا إلى عذابهم وحسرة إلى حسرتهم . وخزنتها : مالك وأعوانه من الزبانية (قالوا بلى) اعتراف منهم بعدل الله ، وإقرار بأن الله عز وعلا أزاح عنهم بيعته الرسل وإنذارهم ما وقعوا فيه ، وأنهم لم يؤتوا من قدره كما تزعم المجبرة^(٢) ؛ وإنما أتوا من قبل أنفسهم ، واختيارهم خلاف ما اختار الله وأمر به وأوعد على ضده . فإن قلت : (إن أنتم إلا في ضلال كبير) من المخاطبون به ؟ قلت : هو من جملة قول الكفار وخطابهم للنذرين ، على أن النذير بمعنى الإنذار . والمعنى : ألم يأتكم أهل نذير . أو وصف منذروهم لغلوم في الإنذار ، كأنهم ليسوا إلا إنذارا ؛ وكذلك (قد جاءنا نذير) ونظيره قوله تعالى (إنا رسول رب العالمين) أى حاملا رسالته . ويجوز أن يكون من كلام الحزنة للكفار على إرادة القول : أرادوا حكاية ما كانوا عليه من ضلالهم في الدنيا . أو أرادوا بالضلال : الهلاك . أو سموا عقاب الضلال باسمه . أو من كلام الرسل لهم حكموه للحزنة ، أى قالوا لنا هذا فلم نقبله (لو كنا نسمع)

(١) قوله «تقريباً لحسبها» في الصحاح : الحس والحسيس : الصوت ، والخفي . (ع)

(٢) قوله «كما تزعم المجبرة» إن كان مراده أهل السنة كمادته لقولهم : إنه تعالى هو الخالق لأفعال العباد ، وأنها بقضائه تعالى وقدره ، بل من جهة ما لم فيها من الكسب والاختيار كما تقرر في عمله وإن كان مراده القائلين بالجبر المحض وأن العبد كالريشة المعلقة في الهواء لا دخل له في عمله أصلا ، فقد أصاب للفرق الضروري بين حركة اليد في البطش وحركتها في الارتعاش ، كما تقرر في علم التوحيد ، فارجع إليه . (ع)

الإذاز سماع طالين للحق^(١). أو نعله عقل متأملين. وقيل: إنما جمع بين السمع والعقل؛ لأن مدار التكليف على أدلة السمع والعقل. ومن بدع التفاسير: أن المراد لو كنا على مذهب أصحاب الحديث أو على مذهب أصحاب^(٢) الرأي، كأن هذه الآية نزلت بعد ظهور هذين المذهبين، وكان سائر أصحاب المذاهب والمجتهدين قد أنزل الله وعيدهم، وكان من كان من هؤلاء فهو من الناجين لا محالة؛ وعدة المبشرين من الصحابة: عشرة، لم يضم إليهم حادى عشر، وكان من يجوز على الصراط أكثرهم لم يسمعوا باسم هذين الفريقين (بذنبهم) بكفرهم في تكذيبهم الرسل (فصحاً) قرئ بالتخفيف والتثقيب، أى: فبعداً لهم، اعترفوا أو جحدوا؛ فإن ذلك لا ينفعهم.

وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ
مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)

ظاهره الأمر بأحد الأمرين: الإسرار والإجهار. ومعناه: ليستو عندكم إسراركم وإجهاركم^(٣) في علم الله بهما، ثم أنه علله بـ (أنه عليم بذات الصدور) أى بضمايرها قبل أن ترجم الالسة عنها، فكيف لا يعلم ماتكم به. ثم أنكر أن لا يحيط علماً بالمضمر والمسر والمجهر (من خلق) الأشياء^(٤)، وحاله أنه اللطيف الخبير، المتوصل إليه ما ظهر من خلقه

(١) قال محمود: ومعناه لو كنا نسمع للإذاز سماع طالين للحق... الخ. قال أحمد: إن عني أن الأحكام الشرعية تستفاد من العقل كما تستفاد من السمع بناء على قاعدة التحسين والتفويض، فهو غير بعيد عن أصحاب السمع. وإن عني أن العقل يرشد إلى العقائد الصحيحة والسمع يختص بالأحكام الشرعية: فهو مع أهل السنة.

(٢) قال محمود: ومن بدع التفاسير أن المراد: لو كنا على مذهب أصحاب الحديث أو على مذهب أصحاب الرأي... الخ. قال أحمد: ولولطف نبيه هذه الآية أمدها دليلاً على تفضيل السمع على البصر، فانه قد استدلل على ذلك بأخفى منها.

(٣) قوله «إسراركم وإجهاركم» في الصحاح «إجهار الكلام»: إعلانه. (ع)

(٤) قال محمود: «أنكر أن لا يحيط علماً بالسر أو الجهر من خلق ذلك... الخ» قال أحمد: هذه الآية رد على المعتزلة وتصحيح الطريق التي يسلكها أهل السنة في الرد عليهم؛ فان أهل السنة يستدلون على أن العبد لا يخلق أفعاله بأنه لا يعلمها، وهو استدلال بنى اللازم الذي هو العلم على نفي الملزوم الذي هو الخلق، وبهذه الملازمة دلت الآية؛ فان الله تعالى أرشد إلى الاستدلال على ثبوت العلم له عز وجل بثبوت الخلق، وهو استدلال بوجود الملزوم على وجود اللازم، فهو نور واحد يقتبس منه ثبوت العلم للبارى عز وجل، وإبطال خلق العبد لأفعاله؛ وإعرا ب الآية ينزل على هذا المعنى، فان الوجه فيها أن يكون (من) قاعلاً مراداً به الخالق، ومفعول العلم محذوف تقديره: ذلك إشارة إلى السر والجهر ومفعول خلق محذوف ضميره عائد إلى ذلك. والتقدير في الجميع: ألا يعلم السر والجهر من خلقهما. ومتى حذفنا غير هذا الوجه من الإعراب ألقانا إلى مضائق التكلف والضعف؛ فن المحتمل أن يكون من مفعولة واقعة على فاعل السر والجهر، والتقدير: ألا يعلم الله المسرين والجاهرين؛ وليس مطابقاً =

وما بطن . ويجوز أن يكون (من خلق) منصوباً بمعنى : ألا يعلم مخلوقه وهذه حاله . وروى أن المشركين كانوا يتكلمون فيما بينهم بأشياء ، فيظهر الله رسوله عليها ، فيقولون : أسروا قواكم لئلا يسمعه إله محمد ، فنبه الله على جهلهم . فإن قلت : قدرت في (ألا يعلم) مفعولاً على معنى : ألا يعلم ذلك المذكور بما أضمر في القلب وأظهر باللسان من خلق ، فهلا جعلته مثل قولهم : هو يعطى ويمنع ؛ وهلا كان المعنى : ألا يكون عالماً من هو خالق ؛ لأن الخلق لا يصح إلا مع العلم ؟ قلت : أبت ذلك الحال التي هي قوله (وهو اللطيف الخبير) لأنك لو قلت : ألا يكون عالماً من هو خالق وهو اللطيف الخبير : لم يكن معنى صحيحاً ؛ لأن ألا يعلم معتمد على الحال . والشئ لا يوقت بنفسه ، فلا يقال : ألا يعلم وهو عالم ، ولكن ألا يعلم كذا وهو عالم بكل شئ .

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ

وَالِجَنَّةِ النَّشُورِ ﴿١٥﴾

المنشى في مناكبها : مثل لفرط التذليل ومجاوزته الغاية ؛ لأن المنسكين وملتحاقها من الغارب أرق شئ من البعير وأنباء عن أن يطأه الراكب بقدمه ويعتمد عليه ، فإذا جعلها في الذل بحيث يمشى في مناكبها لم يترك^(١) . وقيل : مناكبها جبالها . قال الزجاج : معناه سهل لكم السلوك في جبالها ، فإذا أمكنكم السلوك في جبالها ، فهو أبلغ التذليل . وقيل جوانبها . والمعنى : وإليه نشوركم ، فهو مسائلكم^(٢) عن شكر ما أنعم به عليكم .

أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضُ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾

أَمْ أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾

وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى

الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفًى وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرِّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾

(من في السماء) فيه وجهان : أحدهما من ملكوته في السماء ؛ لأنها مسكن ملائكته وشمعره وكرسيه واللوح المحفوظ ، ومنها تنزل قضاياه وكتبه وأوامره ونواهي . والثاني : أنهم

== للفصل ، فإنه لم يقع ذوات الفاعلين ، وإنما وقع على أفعالهم من السر والجهر . وعليه وقع الاستدلال . ويحتمل غير ذلك أبعد منه . والاول هو الاول لفظاً ومعنى . والله الموفق .

(١) قوله «لم يترك» لعل هنا سقطاً تقديره : لم يترك شيئاً منها إلا قد ذلله . (ع)

(٢) قوله «فهو مسائلكم» عبارة للنفي : مسائلكم . (ع)

كانوا يعتقدون التشبيه ، وأنه في السماء ، وأن الرحمة والعذاب ينزلان منه ، وكانوا يدعونه من جهتها ، فقبل لهم على حسب اعتقادهم : أأنتم من تزعمون أنه في السماء ، وهو متعال عن المكان أن يعذبكم بخسف أو محاصب ، كما تقول لبعض المشبهة : أما تخاف من فوق العرش أن يعاقبك بما تفعل ، إذا رأيته يركب بعض المعاصي ﴿ فستعلمون ﴾ قرئ بالتاء والياء ﴿ كيف نذير ﴾ أى إذا رأيتم المُنذر به علمتم كيف إنذارى حين لا ينفعكم العلم ﴿ صافات ﴾ باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانها ؛ لأنهن إذا بسطنها صغفن قوادمها^(١) صفا ﴿ ويقبضن ﴾ ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن . فإن قلت : لم قيل : ويقبضن ، ولم يقل : وقابضات ؟ قلت : لأن الأصل في الطيران هو صف الأجنحة ؛ لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء ، والأصل في السباحة مد الأطراف وبسطها . وأما القبض فطارىء على البسط للاستظهار به على التحرك ، فجاء بما هو طار غير أصل بلفظ الفعل ، على معنى أنهم صافات ، ويكون منهن القبض تارة كما يكون من الساج ﴿ ما يسكنهن إلا الرحمن ﴾ بقدرته وبما دبرهن من القوام والحوائى^(٢) ، ونحو الأجسام على شكل وخصائص قد فأتى منها الجرى في الجو ﴿ إنه بكل شيء بصير ﴾ يعلم كيف يخلق وكيف يدبر المعجائب .

أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ
إِلَّا فِي غُرُورٍ ۝ ٢٠ ﴿ ٢٠ ﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي
عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ۝ ٢١ ﴿ ٢١ ﴾

﴿ أمَّن ﴾ يشار إليه من الجوع ويقال ﴿ هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون ﴾ الله إن أرسل عليكم عذابه ﴿ أمَّن ﴾ يشار إليه ويقال ﴿ هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه ﴾ وهذا على التقدير . ويجوز أن يكون إشارة إلى جميع الأوثان لا اعتقادهم أنهم يحفظون من النوائب ويرزقون ببركة آلهتهم ، فكانتهم الجند الناصر والرازق . ونحوه قوله تعالى (أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا) . ﴿ بل لجوا في عتو ونفور ﴾ بل تبادوا في عناد وشراد عن الحق لثقله عليهم فلم يتبعوه .

أَفَنْ يَمَسِّسِي مَكِبًا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمَسِّسِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ ٢٢ ﴿ ٢٢ ﴾

(١) قال محمود : « معناه : باسطات أجنحتها ؛ لأنها إذا بسطتها صفت قوادمها ... الخ » قال أحمد : ويلاحظ هذا المعنى في قوله (والطير عشورة) بعد قوله (إنا نحرنا الجبال منه يسبحن) ولم يقل مسبحات ، مثل عشورة لقربه من هذا التفسير ؛ ولقد أحسن فيه كل الاحسان .

(٢) قوله « من القوام والحوائى » في الصحاح « قوام الطير » : مقادير ريشه ، وهى عشر ريشات في كل جناح . والحوائى ما دون الريشات العشر من مقدم الجناح . (ع)

قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾

يجعل ، أأكب ، مطاوع ، كبه ، يقال : كبته فأكب ، من الغرائب والشواذ . ونحوه : قشعت الريح السحاب فأقشع ، وما هو كذلك : ولا شيء من بناء أفعل مطاوعا ، ولا يتقن نحو هذا إلا جملة كتاب سيويه ؛ وإنما ، أأكب ، من باب ، انفض ، واللام ،^(١) ومعناه : دخل في الكب ، وصار ذا كب ؛ وكذلك أقشع السحاب : دخل في القشع . ومطاوع كب وقشع : انكب وانقشع . فإن قلت : مامعنى (يمشى مكبا على وجهه) ؟ وكيف قابل (يمشى سويا على صراط مستقيم) ؟ قلت : معناه : يمشى معتسفا في مكان معتاد غير مستوفيه انخفاض وارتفاع ، فيعثر كل ساعة فيخر على وجهه منكبا ، فحاله نقيض حال من يمشى سويا ، أى : قائما سالما من العثر والحرور . أو مستوى الجهة قليل الانحراف خلاف المعتسف الذى ينحرف هكذا وهكذا على طريق مستو . ويجوز أن يراد الأعمى الذى لا يهتدى إلى الطريق فيعتسف ، فلا يزال ينكب على وجهه ، وأنه ليس كالرجل السوى الصحيح البصر الماشى فى الطريق المهتدى له ، وهو مثل اللؤمن والكافر . وعن قتادة : الكافر أأكب على معاصى الله تعالى فحشره الله يوم القيامة على وجهه . وعن الكلبي : عني به أبو جهل بن هشام . وبالسوى : رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم . وقيل : حمزة بن عبدالمطلب .

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴿٢٧﴾

(فلما رأوه) الضمير للوعد . والزلفة : القرب ، واتصافها على الحال أو الظرف ، أى : رأوه ذا زلفة أو مكانا ذا زلفة (سيئَتْ وجوه الذين كفروا) أى ساءت رؤية الوعد وجوههم : بأن عليها الكتابة وغشها الكسوف والفترة ، وكلحوا ، وكما يكون^(٢) وجه من يقاد إلى القتل أو يعرض على بعض العذاب (وقيل) القائلون : الزبانية (تدعون) تفتعلون من الدعاء .

(١) قوله «من باب انفض والام» فى الصحاح «انفض القوم» هلكت أموالهم . وانفضوا أيضا : مثل ارمعوا فنى زادم . وفيه أيضا : الام الرجل إذا صنع ما يدعوه الناس عليه لثيا . (ع)

(٢) قوله «وكما يكون» لعله كما بدون وار . (ع)

أى: تطلبون وتستعجلون به . وقيل: هو من الدعوى ، أى: كنتم بسببه تدعون أنكم لا تبعثون . وقرئ: تدعون . وعن بعض الزهاد: أنه تلاها في أول الليل في صلاته ، فبقى يكررها وهو يبكي إلى أن نودي لصلاة الفجر ؛ ولعمري إنها لوقادة^(١) لمن تصور تلك الحالة وتأملها .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِى اللَّهُ وَمَنْ مَعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ

مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨)

كان كفار مكة يدعون على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين بالهلاك . فأمر بأن يقول لهم: نحن مؤمنون متربصون لإحدى الحسنيين: إما أن نهلك كما تتمنون فننقلب إلى الجنة، أو نرحم بالنصرة والإدالة للإسلام كما نرجو، فأنتم ما تصنعون؟ من يجيركم - وأنتم كافرون - من عذاب النار؟ لا بد لكم منه، يعنى: إنكم تطلبون لنا الهلاك الذى هو استعجال للفوز والسعادة، وأنتم فى أمر هو الهلاك الذى لا هلاك بعده، وأنتم غافلون لا تطلبون الخلاص منه . أو إن أهلكنا الله بالموت فمن يجيركم بعد موت هداكم، والآخذين بحجزكم من النار، وإن رحمنا بالإمهال والغلبة عليكم وقتلكم فمن يجيركم؛ فإن المقتول على أيدينا هالك . أو إن أهلكنا الله فى الآخرة بذنوبنا ونحن مسلمون، فمن يجير الكافرين وهم أولى بالهلاك لكفرهم؛ وإن رحمنا بالإيمان فمن يجير من لا إيمان له .

قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ۖ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٩)

فإن قلت: لم أخرج مفعول آمنا وقدم مفعول توكلنا؟ قلت: لوقوع آمنا تعريضا بالكافرين حين ورد غضب ذكرهم، كأنه قيل: آمنا ولم نكفر كما كفرتم، ثم قال: وعليه توكلنا خصوصا لم تشكل على ما أنتم متكلون عليه من رجالكم وأموالكم .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (٣٠)

(غورا) غائرا ذاهبا فى الأرض . وعن الكلبي لا تناله الدلاء ، وهو وصف بالمصدر كمدل ورضا . وعن بعض الشطار أنها تليت عنده فقال: تجىء به الفؤوس والمعاول ، فذهب ماء عينيه ؛ فعوذ بالله من الجراءة على الله وعلى آياته .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الملك فكأنما أحيى ليلة القدر^(٢) .

(١) قوله إنها لوقادة لمن تصور تلك الحالة وتأملها . (ع)

(٢) أخرجه الكلبي والواحدى وابن مردويه عن أبي بن كعب رضى الله عنه .

سورة ن

مكية، وهي اثنان وخمسون آية [نزلت بعد العلق]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾

قرئ: ن والقلم بالبيان والإدغام، ويسكون النون وفتحها وكسرها، كما في ص. والمراد هذا الحرف من حروف المعجم: وأما قولهم: هو الدواء فما أدرى أهو وضع لغوى أم شرعى؟ ولا تخلو إذا كان اسماً للدواء من أن يكون جنساً أو علماً، فإن كان جنساً فأين الإعراب والتنوين، وإن كان علماً فأين الإعراب، وأيهما كان فلا بد له من موقع في تأليف الكلام. فإن قلت: هو مقسم به وجب إن كان جنساً أن تجزئه وتنونه. ويكون القسم بدواة منكرة مجهولة، كأنه قيل: ودواة والقلم، وإن كان علماً أن تصرفه وتجزئه. أو لا تصرفه وتفتحها للعلنية والتأنيث. وكذلك التفسير بالحوت: إما أن يراد نون من النيان. أو يجعل علماً للهموت^(١) الذى يزعمون، والتفسير باللوح من نور أو ذهب، والنهر فى الجنة نحو ذلك. وأقسم بالقلم: تعظيماً له، لما فى خلقه وتسويته من الدلالة على الحكمة العظيمة، ولما فيه من المنافع والفوائد التى لا يحيط بها الوصف (وما يسطرون) وما يكتب من كتب. وقيل: ما يستره الحفظة: وما موصولة أو مصدرية. ويجوز أن يراد بالقلم أصحابه، فيسكون الضمير فى (يسطرون) لهم كأنه قيل: وأصحاب القلم ومسطوراتهم. أو وسطرهم، ويراد بهم كل ما يسطر، أو الحفظة.

مَا أَنْتَ بِنِعْمَةٍ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾

فإن قلت: هم يتعلق الباء فى (بنعمة ربك) وما محله؟ قلت: يتعلق بمجنون منفياً^(٢)، كما يتعلق بعامل مثبتاً فى قولك: أنت بنعمة الله عاقل، مستويماً فى ذلك الإثبات والنفي استواءهما فى قولك: ضرب زيد عمرأ، وما ضرب زيد عمرأ: تعمل الفعل مثبتاً ومنفياً إعمالاً واحداً؛

(١) قوله «أو يجعل علماً للهموت» لعله بالهموت بالوحدة كعبارة غيره، فليحذر. (ع)

(٢) قوله «يتعلق بمجنون منفياً» فى النسب يتعلق بمحذوف، وعمله للصب على الحال. والمعامل فهما

(مجنون) . (ع)

وعمله النصب على الحال ، كأنه قال : ما أنت بمجنون ممنعا عليك بذلك ^(١) ؛ ولم تمنع الباء أن يعمل مجنون فيما قبله ، لأنها زائدة لتأكيد النفي . والمعنى : استبعاد ما كان ينسب إليه كفار مكة عداوة وحسداً ، وأنه من إنعام الله عليه بحصافة العقل ^(٢) والشهامة التي يقتضيها التأهيل للنبوّة ، بمنزلة (وإن لك) على احتمال ذلك وإساعة القصة فيه والصبر عليه (لا جراً) لثوابا (غير ممنون) غير مقطوع كقوله (عطاء غير مجذوذ) أو غير ممنون عليك به ^(٣) ، لأنه ثواب تستوجبه ^(٤) على عملك ، وليس بتفضل ابتداء ؛ وإنما تمنّ الفواضل لا الاجور على الاعمال .

وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾

استعظم خلقه لفرط احتماله المصنات ^(٥) من قومه وحسن مخالفته ومداراته لهم . وقيل : هو الخلق الذي أمره الله تعالى به في قوله تعالى (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) وعن عائشة رضي الله عنها : أن سعيد بن هشام سأله عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : كان خلقه القرآن ، ألسنت تقرأ القرآن : قد أفلح المؤمنون ^(٦) .

فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَيْسَرُ الْمَفْتُونِ ﴿٦﴾

(المفتون) المجنون ، لأنه فتن : أي محن بالجنون . أو لأن العرب يزعمون أنه من تخيل الجن ، وهم الفتن للفتاك منهم ، والباء مزيدة . أو المفتون مصدر كالمعقول والمجلود ، أي : بأيكم

(١) قوله ممنعا عليك بذلك ، كذا في النسق بعد ما سبق فيه (ما أنت بنعمة ربك) أي بانعامه عليك بالنبوّة وغيرها . وهذا مرجع الإشارة . (ع)

(٢) قوله وإنه من إنعام الله بحصافة ، لعله من إنعام الله عليه بحصافة العقل أي استحكامه . كما أفاده الصحاح . (ع)

(٣) قال محمود : دمعناه غير مقطوع ، كقوله (عطاء غير مجذوذ) ... الخ ، قال أحمد : ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يرضى من الزمخشري بتفسير الآية هكذا . وهو صلى الله عليه وسلم يقول « لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله » قيل : ولأنت يا رسول الله ؟ قال : « ولأنا ، إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة » ، ولقد بلغ الزمخشري سوء الأدب إلى حد يوجب الحد ، وحاصل قوله : أن الله لائمة له على أحد ولا فضل في دخول الجنة لأنه قام بواجب عليه ، نموذ بالله من الجرأة عليه .

(٤) قوله « لأنه ثواب تستوجبه على عملك ، وجوب الثواب عليه تعالى مذهب المعتزلة ، ولا يجب عليه شيء عند أهل السنة . (ع)

(٥) قوله « احتماله المصنات » أي : الموجهات . أفاده الصحاح . (ع)

(٦) أخرجه مسلم من رواية زرارة ابن أبي أوفى عن سعد بن هشام عنه ، وفيه قصة ؛ وأخرجه الحاكم مختصراً بلفظ المصنف .

الجنون . أو بأى الفريقين منكم الجنون^(١) ، أبفريق المؤمنين أم بفريق الكافرين ؟ أى : فى أيهما يوجد من يستحق هذا الاسم : وهو تعريض بأى جهل بن هشام والوليد بن المغيرة وأضرأهما ، وهذا كقوله تعالى (سيعلمون غداً من الكذاب الاشر) .

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُتَّعِدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تَطْعَمُ

الْمُسْكَنَ بَيْنَ ۙ (٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾

(إن ربك هو أعلم) بالمجانين على الحقيقة ، وهم الذين ضلوا عن سبيله (وهو أعلم) بالمعقلا وهم المتهتدون . أو يكون وعيداً ووعداً ، وأنه أعلم بحزاء الفريقين (فلا تطعم المسكينين) تهيبج وإلهاب للتصميم على معاصاتهم ، وكانوا قد أرادوه على أن يعبد الله مدة ، وآلهتهم مدة ، ويكفوا عنه غوائلهم (لو تدهن) لو تلين وتصانع (فيدهنون) . فإن قلت : لم رفع (فيدهنون) ولم ينصب بإضمار (أن) وهو جواب التثنية ؟ قلت : قد عدل به إلى طريق آخر : وهو أن جعل خبر مبتدأ محذوف ، أى : فهم يدهنون ، كقوله تعالى (فن يؤمن بربه فلا يخاف) على معنى : ودوا لو تدهن فهم يدهنون حينئذ . أو ودوا إدهانك فهم الآن يدهنون ؛ لطمعهم فى إدهانك . قال سيبويه : وزعم هرون أنها فى بعض المصاحف ودوا لو تدهن فيدهنوا .

وَلَا تَطْعَمُ كُلَّ حَلْفٍ مِّمَّيْنِ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَاءً بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَنَاعٍ لِلتَّخْفِيرِ

مُعْتَدٍ أُنِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾

إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِفُهُ عَلَى الْحَرُوطِ ﴿١٦﴾

(حلاف) كثير الحلف فى الحق والباطل ، وكفى به مزجرة لمن اعتاد الحلف . ومثله قوله تعالى (ولا تعملوا الله عرضة لإيمانكم) . (مهمين) من المهانة وهى القلة والحقارة ، يريد القلة فى الرأى والتمييز . أو أراد الكذاب لأنه حقير عند الناس (هماز) عياب طعان . وعن الحسن . يلوى شذقيه فى أافية الناس (مشاء بنميم) مضرب^(٢) نقال للحديث من قوم إلى قوم على وجه السعاية والإفساد بينهم . والنميم والتميمة : السعاية ، وأنشدنى بعض العرب :

(١) قوله «أو بأى الفريقين منكم الجنون» لعله الجنون . وفى النسب . قال الزجاج : الباء بمعنى فى . تقول : كنت بيلد كذا ، أى : فى بلد كذا ، وتقديره : فى أيكم المفتون ، أى : فى أى الفريقين منكم الجنون . (ع)
(٢) قوله «مضرب نقال» فى المصاحف «التضريب بين القوم» : الاغراء . (ع)

تَشْبِيهِ تَشَبَّ النَّعِيمَةِ تَمْشِي بِهَا زَهْرًا إِلَى نَعِيمَةٍ (١)

(مناع الخير) بخيل . والخير : المال . أو مناع أهله الخير وهو الإسلام ، فذكر المنوع منه دون المنوع ، كأنه قال : مناع من الخير . قيل : هو الوليد بن المغيرة المخزومي : كان موسراً ، وكان له عشرة من البنين ، فكان يقول لهم وللحمته : (١) من أسلم منكم منعته رفاً عن ابن عباس . وعنه : أنه أبو جهل . وعن مجاهد : الأسود بن عبد يغوث . وعن السدي : الأخنس ابن شريق ، أصله في تقيف وعداده في زهرة ، ولذلك قيل : زعيم (معتمد) مجاوز في الظلم حده (أنيم) كثير الآثام (عتل) غليظ جاف ، من عتله : إذا قاده بعنف وغلظة (بعد ذلك) بعد ما عدله من المثالب والنقائص (زنيماً) دعى . (٢) قال حسان :

وَأَنْتَ زَنْيِمٌ نَيْطٌ فِي آلِ هَاشِمٍ كَمَا نَيْطَ خَلْفِ الرَّأْيِ الْقَدَحُ الْفَرْدُ (٤)

وكان الوليد دعياً في قريش ليس من سنخهم ، ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة من مولده . وقيل : بغت أمه ولم يعرف حتى نزلت هذه الآية ، جعل جفاءه ودعوته أشد معاصيه ، لأنه إذا جفا وغلظ طبعه قسا قلبه واجترأ على كل معصية ، ولأن الغالب أن النطفة إذا خبثت خبث الناسئ منها . ومن ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يدخل الجنة ولد الزنا ولا ولده ولا ولد ولده ، (٥) (و) (بعد ذلك) نظير (ثم) في قوله (ثم كان من الذين آمنوا) وقرأ الحسن : عتل ،

(١) لأعرابي يخاطب النار . والتشبيب : التوقد . والنعيمة : تزوير الكلام وتزييفه للافساد بين الناس . وثوب منعم ومنعم : منقش بحسن . وزهراً - بالفتح - : اسم امرأة تامة . ونعيمة : قبيلة تميم ، ونزل النار مغولة العاقل فأمرها وقال : اشتد كاشتعال النعيمة حال كونها تمشي بها هذه المرأة إلى بني تميم ، وكانت كثيرة الافساد بين العرب ، حتى ضرب بها المثل : وجعل اشتعال نعيمتها أبلغ من اشتعال النار ، فأمرها أن تتوقد كتوقدها ، وبين نعيمة ونعيمة الجناس اللاحق .

(٢) قوله ويقول لهم وللحمته ، في الصحاح واللحمة ، بالضم : القرابة . (ع)

(٣) قال محمود : العتل الجافي ، والزنيماً الداعي ، وكذلك كان الوليد بن المخزومي استلحقه المغيرة بعد ثمان عشر من مولده ... الخ ، قال أحد : وإنما أخذ كون هذين أشد معاصيه من قوله بعد ذلك ، فإنه يعطى تراخي المرتبة فيما بين المذكور أولاً والمذكور بعده في الشر والخير . ونظيره في الخير قوله تعالى (والملائكة بعد ذلك ظهير) ومن ثم استعملت ثم لتراخي المراتب ، وإن أعطيت عكس الترتيب الوجودي .

(٤) لحسان بن ثابت يخاطب الوليد بن المغيرة ، يقول : إنه زعيم ، أي معلق في آل هاشم كالزئعة في الاهاب وهي قطعة جلد صغيرة تترك معلقة بطرفه ، ففهم بها وشبهه بالقدر المنفرد الفارغ المعلق خلف الراكب .

(٥) أخرجه أبو نعيم في ترجمة مجاهد من رواية عبد الله بن حسن في ترجمة يوسف بن أسباط من رواية بركة بن محمد عن يوسف بن أسباط عن أبي إسرائيل الملائي عن إسماعيل بن إسحاق عن قبيصة بن عروة عن مجاهد عن أبي هريرة عن أبي هريرة . ثم رواه عن طريق إسحاق بن منصور عن أبي إسرائيل به وأبو إسحاق ضعيف جداً . وقد ادعى ابن طاهر وابن الجوزي أن هذا الحديث موضوع . وقد خولف عن مجاهد . ورواه النسائي عن طريق إبراهيم بن

رفعا على الذم وهذه الفرامة تقوية لما يدل عليه بعد ذلك . والزعم : من الزئمة وهي الهنة من جلد الماعزة تقطع فتخلى معلقة في حلقها ، لأنه زيادة معلقة بغير أهله (أن كان ذا مال) متعلق بقوله (ولا تطع) يعنى ولا تقطعه مع هذه المثالب ، لأن كان ذا مال . أى : ليساره وحظه من الدنيا . ويجوز أن يتعلق بما بعده على معنى : لكونه متمولا مستظهاً بالبنين كذب آياتنا ^(١) ولا يعمل فيه (قل) الذى هو جواب إذا ، لأن ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبله ، ولكن ما دلت عليه الآية من معنى التكذيب . وقرئ : أن كان ؟ على الاستفهام على : إلا لأن كان ذا مال وبنين ، كذب . أو أقطيعه لأن كان ذا مال . وروى الزبيرى عن نافع : إن كان ، بالكسر والشرط للمخاطب ، أى : لا تطع كل خلاف شارطا يساره ، لأنه إذا أطاع الكافر لغناه فكانه اشترط في الطاعة الغنى ، ونحو صرف الشرط إلى المخاطب صرف الترجيح إليه في قوله تعالى (لعله يتذكر) الوجه : أكرم موضع في الجسد ، والأنف أكرم موضع من الوجه لتقدمه له ، ولذلك جعلوه مكان العز والحية ، واشتقوا منه الأنفة . وقالوا الأنف في الأنف ، وحى أنفه ، وفلان شائح العينين . وقالوا فى الذليل : جدد أنفه . ورغم أنفه ، فعبر بالوسم على الخراطوم عن غاية الإذلال والإهانة ، لأن السمة على الوجه شين وإذالة ، ^(٢) فكيف بها على أكرم موضع منه ، ولقد وسم العباس أباعر ^(٣) فى وجوها ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أكرموا الوجوه ، ^(٤) فوسمها فى جوارعها ^(٥) وفى لفظ الخراطوم : استخفاف به واستهانة . وقيل معناه : ستمعله يوم القيامة بعلامة مشوهة يبين بها عن سائر الكفرة ، كما

== مجاهد عن مجاهد عن محمد بن عبد الرحمن عن أبي هريرة بلفظ ولا يدخل الجنة ولد زنا . ولا شيء من نسله إلى سبعة آباء . وإبراهيم فيه ضعف . ورواه أيضاً من رواية يزيد بن أبي زياد عن مجاهد عن أبي سعيد نحو حديث منصور الآتى . ويزيد ضعيف وروى النسائى أيضاً من رواية شعبة عن منصور عن سالم بن أبي الجعد عن عبد الله بن شريك عن جابر بن عبد الله بن عمر بلفظ ولا يدخل ولد زانية الجنة . ومن رواية سفيان عن منصور بإسقاط عبد الله بن شريك . وأخرجه ابن حبان من الوجهين . وقال الطريقان عفوفان . إلا أن الثورى أعرف بحديث ملو .

(١) قوله وكذب آياتنا ، عبارة للنسب : كذب بآياتنا . (ع)

(٢) قوله « وإذالة » فى القاموس « أذنته » أهنته اه . (ع)

(٣) قوله « أباعر » لعله أباعره بالاضافة إلى الضمير ، لأن الجمع أبعرة وأباعر ، كما فى الصحاح . (ع)

(٤) لم أره هكذا . وفى ابن حبان من حديث ابن عباس « أن العباس وسم بغير آله . وداية فى وجوها قرأه النبي صلى الله عليه وسلم فغضب : فقال العباس : لا أسمه إلا فى آخره فوسمه فى جاعرتيه » وأصله فى مسلم بلفظ « رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم حماراً موسوم الوجه ، فأنكر ذلك فقال الرجل : والله لا أسمه إلا فى أقصى فى . بن الوجه . فأمر بحماره فكوى فى جاعرتيه . فهو أول من كوى فى الجاعرتين : زاد الطبرانى « وكان الرجل الذى كوى : العباس بن عبد المطلب » .

(٥) قوله « فوسمها فى جوارعها » الجاعرة : ما حول الدبر . أئدة الصحاح . (ع)

عادى رسول الله صلى الله عليه وسلم عدرة بان بها عنهم . وقيل : خطم يوم بدر بالسيف فبقيت سمة على خرطوم . وقيل : سئمه بهذه الشئمة في الدارين جميعا ، فلا تحفى ، كما لا تحفى السمعة على الخرطوم . وعن النضر بن شميل : أن الخرطوم الخمر ، وأن معناه : سنحده على شربها وهو نعسف . وقيل للخمر : الخرطوم ، كما قيل لها : السلافة . وهى ما سلف من عصير العنب . أو لانها تطير في الخياشيم .

- إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَفْجَبَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ١٧
وَلَا يَسْتَنْتُونَ ١٨ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ١٩
فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ٢٠ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ٢١ أَنْ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٢٢ فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ ٢٣ أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا
الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ٢٤ وَغَدُوا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ ٢٥ فَلَمَّا رَأَوْهَا
قَالُوا إِنَّا لَضَائُونَ ٢٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ٢٧ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ
لَوْ لَا تُسَبِّحُونَ ٢٨ قَالُوا سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ٢٩ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ
عَلَى بَعْضٍ يَتَلَائِمُونَ ٣٠ قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ٣١ عَسَى رَبُّنَا أَنْ
يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ٣٢ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ
أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ٣٣

إنا بلونا أهل مكة بالقحط والجوع بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم ﴿ كما بلونا أصحاب الجنة ﴾ وهم قوم من أهل الصلاة كانت لأبيهم هذه الجنة دون صنعاء بفرسخين ، ^(١) فكان

(١) قال محمود : « أصحاب الجنة قوم من أهل الصلاة كانت لأبيهم هذه الجنة دون صنعاء بفرسخين ... الخ ، قال أحد : وفائدة التشكير الإيهام تعظيما لأصاها ، ومعنى كالصريم : أى هلاك ثمرها . وقيل الصريم الليل ، لأنها احترقت واسودت . وقيل : النهار ، أى عالية فارغة من قوهم : يبيض الاناء ، إذا فرغه . قلت : ومنه البياض من الأرض ، أى : الحالية من الشجر . ورد في الحديث ، ويستعمله الفقهاء في المساقاة ، ومعنى صارهمين : حاصدين . قال : وإنما عدل عن « إلى » ، في قوله (على حركم) لأن غدوهم كان ليصرموه ، فهو غدو عليه ، ومعنى (يتخافتون) يسرون حديثهم خيفة من ظهور المساكين عليهم . وقوله (الآن يدخلونها اليوم عليكم مسكين) مثل : لا أرينك هنا ؛ والمجرد من حاردت السنة إذا منعت خيرها . والمعنى : وغدوا على نكد ومنع غير عاجزين عن النفع . وقيل : الحره =

يأخذ منها قوت سنته ويتصدق بالباقي، وكان يترك للمساكين ما أخطأه المنجل، وما في أسفل
الأكداس،^(١) وما أخطأه القطاف من العنب، وما بقى على البساط الذى يبسط تحت النخلة
إذا صرمت، فكان يجتمع لهم شيء كثير، فلما مات قال بنوه: إن فعلنا ما كان يفعل أبونا
ضاق علينا الأمر ونحن أولو عيال، خلفوا ليصر منها مصبحين في السدف^(٢) خفية عن المساكين،
ولم يستثوا في بينهم، فأحرق الله جنتهم. وقيل: كانوا من بنى إسرائيل (مصبحين) داخلين
في الصبح مبكرين (ولا يستثون) ولا يقولون إن شاء الله. فإن قلت: لم سمى استثناء، وإنما
هو شرط؟ قلت: لأنه يؤدى مؤدى الاستثناء، من حيث أن معنى قولك: لأخرجن إن شاء
الله، ولا أخرج إلا أن يشاء الله. واحد (قطاف عليها) بلاء أو هلاك (طائف) كقوله
تعالى (وأحيط بشمره) وقرئ: طيف (فأصبحت كالصريم) كالمصرومة هلاك ثمرها. وقيل:
الصريم الليل، أى: احترقت فأسودت. وقيل: النهار أى: يبدست وذبحت خضرتها. أو لم يبق
شيء فيها، من قولهم: يبض الإناء، إذا فرغه. وقيل: الصريم الرمال (صارمين) حاصدين. فإن
قلت: هلا قيل: اغدوا إلى حرثكم؛ وما معنى (على)؟ قلت: لما كان الغدو إليه ليصرموه ويقطعوه:
كان غدوا عليه، كما تقول: غدا عليهم العدو. ويجوز أن يضمن الغدو معنى الإقبال، كقولهم:
يفندى عليه بالجفنة ويراح، أى: فأقبلوا على حرثكم باكرين (يتخافتون) يتسازون فيما بينهم.
وخفي، وخفت، وخفد: ثلاثها في معنى السكتم؛ ومنه: الخفدود للخفاش (أن لا يدخلها)
أن مفسرة. وقرأ ابن مسعود بطرحها بإضمار القول، أى: يتخافتون يقولون لا يدخلها؛ والنهى
عن الدخول للمسكين نهى لهم عن تمكينه منه، أى: لا تمكنوه من الدخول حتى يدخل،
كقولك: لا أرينك ههنا. الحرد: من حردت السنة إذا منعت خيرها؛ وحاردت الإبل إذا
منعت دبرها. والمعنى: وغدوا قادرين على تكبد، لا غير عاجزين عن النفع، يعنى أنهم عزموا
أن يتكبدوا على المساكين ويحرموهم وهم قادرون على نفعهم، فغدوا بحال فقر وذهاب مال
لا يقدرّون فيها إلا على التكبد والحرمان، وذلك أنهم طلبوا حرمان المساكين فتمجّلوا الحرمان
والمسكنة. أو وغدوا على محاردة جنتهم وذهاب خيرها قادرين، بدل كونهم قادرين على إصابة

== السرعة، أى: غدوا مسارعين نشطين لما عزموا عليه من الحرمان. ومعنى (قادرين) على هذا التأويل: عند
أنفسهم. وقيل: حرد اسم الجنة المذكورة، وقولهم (إنا لضالون) قالوه في بداية أمرهم دهشا لما رأوا ما لم يمهّدوه
فاعتقدوا أنهم ضلّوا عنها وأنها ليست هى؛ ثم لما تبينوا وأيقنوا أنها هي أضربوا عن الأول إلى قولهم (بل
نحن محزونون).

- (١) قوله وما في أسفل الأكداس، في الصحاح: الكدس، بالضم: واحد أكداس العامام. (ع)
(٢) قوله مصبحين في السدف خفية، في الصحاح: السدف، في لغة نجد: الظلة، وفي لغة غوهم الضوء. (ع)

خيرها ومنافعها ، أى : غدوا حاصلين على الحرمان مكان الانتفاع ، أو لما قالوا اغدوا على حرثكم وقد خبثت نيتهم : عاقبهم الله بأن حاربت جنتهم وحرموا خيرها ، فلم يغدوا على حرث وإنما غدوا على حرد . و (قادرين) من عكس الكلام لنتهم ، أى : قادرين على ما عزموا عليه من الصرام وحرمان المساكين ، وعلى حرد ليس بصلة قادرين ، وقيل : الحرد بمعنى الحرد . وقرئ : على حرد ، أى لم يقدروا إلا على حرق وغضب بعضهم على بعض ، كقوله تعالى (يتلاومون) وقيل : الحرد القصد والسرعة ؛ يقال : حردت حردك . وقال :

أَقْبَلَ سَيْلٌ جَاءَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ يَخْرُذُ حَرْدَ الْجَنَّةِ الْمَغَلَّةِ (١)

وقطا حراد : سراع ، يعنى : وغدوا قاصدين إلى جنتهم بسرعة ونشاط ، قادرين عند أنفسهم ، يقولون : نحن نقدر على صرامها وزى (٢) منفعتها عن المساكين . وقيل (حرد) علم للجنة ، أى غدوا على تلك الجنة قادرين على صرامها عند أنفسهم . أو مقدرين أن يتم لهم مرادهم من الصرام والحرمان (قالوا) فى بديهة وصورهم (إنا لضالون) أى ضللنا جنتنا ، وما هى بها لمارأوا من هلاكها ؛ فلما تأملوا وعرفوا أنها هى قالوا (بل نحن محرومون) حرمانا خيرها لجنايتنا على أنفسنا (أوسطهم) أعد لهم وخيرهم ، من قولهم : هو من سطة قومه ، وأعطى من سطات مالك . ومنه قوله تعالى (أمة وسطا) . (لولا تسبحون) لولا تذكرون الله وتتوبون إليه من خبث نيتكم ، كأن أوسطهم قال لهم حين عزموا على ذلك : اذكروا الله وانتقامه من المجرمين ، وتوبوا عن هذه العريضة الخبيثة من فوركم ، وسارعوا إلى حسم شرها قبل حلول النقمة ، فعضوه فغيرهم . والدليل عليه قولهم (سبحان ربنا إنا كنا ظالمين) فتكلموا بما كان يدعوهم إلى التكلم به على أثر مقارفة الخطيئة ، ولكن بعد خراب البصرة . وقيل : المراد بالتسبيح . الاستثناء لالتقاءهما فى معنى التعظيم لله ، لأن الاستثناء تفويض إليه ، والتسبيح تنزيه له ؛ وكل واحد من التفويض والتنزيه تعظيم . وعن الحسن : هو الصلاة ، كأنهم كانوا يتوانون فى الصلاة ؛ وإلا لنتهم عن الفحشاء والمنكر ، ولكانت لهم لطفا فى أن يستثنوا ولا يجرموا (سبحان ربنا) سبحوا الله وزهوه عن الظلم وعن كل قبيح ، ثم اعترفوا بظلمهم فى منع المعروف وترك الاستثناء (يتلاومون) يلوم بعضهم بعضا ؛ لأن منهم من زين ، ومنهم من قبل ، ومنهم من أمر بالكف وعذر

(١) يصف سَيْلا بالكثرة ، ولذلك قال : من عند الله . وبروى : من أمر الله ، وحذفت الآلف قبل الهاء من لفظ الجلالة لأنه جائز فى الوقف . وحرد يجرى من باب ضرب ، بمعنى قصد وأسرع ، أى : يجرع إسراج الجنة أى البستان المغلة كثير اللثة والخير ، ومعنى إسراج الجنة : ظهور خيرها قبل غيرها فى زمن يسير ، واختارها لأنها تنهأ عن السيل .

(٢) قوله « وزى منفعتها » فى الصحاح : تقول : زوى فلان المال عن وارثه زيا . (ع)

وممنهم من عصى الأمر ، ومنهم من سكت وهو راض (أن يبدلنا) قرئ بالتشديد والتخفيف (إلى ربنا راغبون) طالبون منه الخير راجون لعفوه (كذلك العذاب) مثل ذلك العذاب الذى بلونا به أهل مكة وأصحاب الجنة عذاب الدنيا (والعذاب الآخرة) أشد وأعظم منه ، وسئل قتادة عن أصحاب الجنة : أ هم من أهل الجنة أم من أهل النار ؟ فقال : لقد كلفتني تعباً . وعن مجاهد : تابوا فأبدلوا خيراً منها . وروى عن ابن مسعود رضى الله عنه : بلغني أنهم أخلصوا وعرف الله منهم الصدق فأبدلهم بها جنة يقال لها الحيوان : فيها عنب يحمل البغل منه عنقوداً .

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾

(عند ربهم) أى فى الآخرة (جنتات النعيم) ليس فيها إلا التمتع الخالص ، لا يشوبه ما ينقصه كما يشوب جنات الدنيا .

أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾

أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنْ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾

أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا بَلِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنْ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾

كان صناديد قريش يرون وفور حظهم من الدنيا وقلة حظوظ المسلمين منها ، فإذا سمعوا بحديث الآخرة وما وعد الله المسلمين قالوا : إن صح أنا نبعث كما يزعم محمد ومن معه لم تكن حالهم وحالتنا إلا مثل ما هي فى الدنيا ، وإلا لم يزيدوا علينا ولم يفضلونا ، وأقصى أمرهم أن يساونا ، فقيل : أنعيف فى الحكم فنجعل المسلمين كالكافرين . ثم قيل لهم على طريقة الالتفات (١) (ما لكم كيف تحكمون) هذا الحكم الأعوج ؟ كأن أمر الجزاء مفروض إليكم حتى تحكموا فيه بما شئتم (أم لكم كتاب) من السماء (تدرسون) فى ذلك الكتاب أن ما تختارونه وتشتهونه لكم ، كقوله تعالى (أم لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم) والأصل تدرسون أن لكم ما تختارون ، بفتح أن ؛ لأنه مدروس ؛ فلما جاءت اللام كسرت . ويجوز أن تكون حكاية للدروس ، كما هو ، كقوله (وتركنا عليه فى الآخرين سلام على نوح فى العالمين) . وتخير الشيء واختاره : أخذ خيره ، ونحوه : نتخله وانتخله : إذا أخذ متخلوه . لفلان على بكذا : إذا ضمنته منه وحلفت له (٢) على الوفاء به ، يعنى : أم ضمننا منكم وأقسمنا لكم بأيمان مغلظة متناهية فى التوكيد

(١) قال محمود : « هذا خطاب على وجه الالتفات لأهل مكة إذا اعتقدوا أنهم فى الآخرة أكثر نعيماً من المؤمنين ... الخ » قال أحمد : ولما كان الدرس قولاً كسرهما .

(٢) قوله « إذا ضمنته منه وحلفت له » لعله : عنه ؛ وكذا قوله « منكم » لعله « عنكم » وفى الصحاح : ضمنته الشيء تضميناً تضمنته عنى . (ج)

فإن قلت : بهم يتعلق (إلى يوم القيامة) ؟ قلت : المقدر في الظرف ، أى : هى ثابتة لكم علينا إلى يوم القيامة لا تخرج عن عهدها إلا يومئذ إذا حكناكم وأعطيناكم ما تحكمون . ويجوز أن يتعلق ببالغة ، على أنها تبلغ ذلك اليوم وتنتهى إليه وافرة لم تبطل منها يمين إلى أن يحصل المقسم عليه من التحكيم . وقرأ الحسن : بالغة ، بالنصب على الحال من الضمير في الظرف (إن لكم لما تحكمون) جواب القسم ؛ لأن معنى (أم لكم أيمان علينا) أم أقسمنا لكم .

سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ

إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾

(أيهم بذلك) الحكم (زعيم) أى قائم به وبالاحتجاج لصحته ، كما يقوم الزعيم المتكلم عن القوم المتكفل بأمورهم (أم لهم شركاء) أى ناس يشاركونهم في هذا القول ويوافقونهم عليه ويذهبون مذهبهم فيه (فليأتوا) بهم (إن كانوا صادقين) في دعواهم ، يعنى : أن أحداً لا يسلّم لهم هذا ولا يساعدهم عليه ، كما أنه لا كتاب لهم ينطق به ، ولا عهد لهم به عند الله ، ولا زعيم لهم يقوم به .

يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَشِيعَةً

أَبْصَرُهُمْ تَرَهَقُمُ ذَلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾

الكشف عن الساق والإبداء عن الخدام^(١) : مثل في شدة الامر وصعوبة الخطب ، وأصله في الروح والهزيمة وتشهير المخدرات عن سوقهن في الحرب ، وإبداء خدامهن عند ذلك . قال حاتم :

أَخُو الْحَرْبِ إِنْ عَصَتْ بِهِ الْحَرْبُ عَصَهَا وَإِنْ شَمَرَتْ عَنْ سَاقِهَا الْحَرْبُ شَمَرَا^(٢)

(١) قوله «والإبداء عن الخدام» جمع خدمة ، وهي الخلخال . أفاده الصحاح ، وذلك كرقاب جمع رقبة . (ع)

(٢) الجور . ويروى بدل الخطر الأول :

ألا رب سامي الطرف من آل مازن إذا شمرت الخ

وسامي الطرف : قاتر العين . وأخو الحرب : بمعنى أنه يألفها ويلازمها كالآخ . وشبه الحرب بفرس عضوه على طريق الكناية ، فأثبت لها العضد . وعصها : أى بلغ منها مراده . أوغلب أهلها ؛ فالعض استعارة لذلك على طريق التصريح . ويجوز أنه ترشيح للأولى . وقوله «به» يدل على أن العض وقع بجزئه . وقوله «عصها» يفيد أنه وقع بها كلها . يعنى : أنه يكافى أعداءه وزيادته . والتهمير عن الساق : كناية عن اشتداد الامر وصعوبته . وأصله : أن يستند للإنسان ؛ لأن تشهير الثوب عن الساق لخوضه لجهة أو جرى أو نحوه ، فأستدل للحرب لتشبيهها

وقال ابن الرقيات :

تُذْهِلُ الشَّيْخَ عَنْ بَيْنِهِ وَتُبْدِي عَنْ خِدَامِ الْعَقِيلَةِ الْعُذْرَاءَ ^(١)

فمضى (يوم يكشف عن ساق) في معنى : يوم يشتد الأمر ويتفاقم ، ولا كشف ثم ولا ساق ، كما تقول للأقطع الشيخ : يده مغلوله ، ولا يده ثم ولا غل ؛ وإنما هو مثل في البخل .^(٢) وأما من شبه فلضيق عطنه ^(٣) وقلة نظره في علم البيان ، والذي غره منه حديث ابن مسعود رضي الله عنه : « يكشف الرحمن عن ساقه ؛ فأما المؤمنون فيخزون سجداً ^(٤) ، وأما المنافقون فتكون ظهورهم طبقة طبقة كأن فيها سفايد » ^(٥) ومعناه : يشتد أمر الرحمن ويتفاقم هوله ، وهو الفرع الأكبر يوم القيامة ، ثم كان من حق الساق أن تعرف على ما ذهب إليه المشبه ، لأنها ساق مخصوصة معهوده عنده وهي ساق الرحمن . فإن قلت : فلم جاءت منكفرة في التثنية ؟ قلت : للدلالة على أنه أمر مبهم في الشدة منكراً خارج عن المألوف ، كقوله (يوم يدع الداع إلى شيء منكر) كأنه قيل : يوم يقع أمر فظيع هائل ؛ ويحكى هذا التشبيه عن مقاتل : وعن أبي عبيدة : خرج من خراسان رجلان ، أحدهما : شبه حتى مثل ، وهو مقاتل بن سليمان ، والآخر نفي حتى عطل

== يالإنسان على طريق الكناية . وقوله « شمر » أي عن ساعده لا عن ساقه ؛ لأن تشمير الساعد كناية عن ملاقة الأمر ومباشرة بنشاط وقوة ، وهو المراد . وأشهر عن ساقه وساعده دليل الاخلاق ، فيكون أبلغ من تشميرها . فان قلت : كان ينبغي ذكر التشمير قبل البس لأن من باب الاستعداد ، قلت : نعم لوبق على معناه ، ولكن المراد به هنا شدة الأمر ، وصعوبة الحرب : زيادة على أصلها .

(١) كيف نوى على الفرات ولما تفصل الشام غارة شعواء

تذهل للشيخ عن بينه وتبدي عن خدام العقيلة العذراء

لمبيد بن قيس الرقيات . وكيف استفهام إنكارى ، بمعنى نفي النوم . ولما بمعنى لم ، إلا أن فيها استمرار التثنية إلى زمن التكلم وتوقيع الوقوع بعده . وشبه الغارة وهي الحرب بماله إحاطة وشمول على طريق المكنية ؛ والضمور تخيل ؛ والشعواء الفاشية المنتشرة ؛ وإذعائها للشيخ عن بينه : كناية عن اشتدادها ، وكذلك كشفها عن خدام العقيلة ، والخدام : المخلخال . وعقيلة كل شيء : أكرمه . ومن النساء المخدرة التي عقلت في خدرها . والعذراء : التي يتعذر نوالها ويشق وصلها . وفيه الأقواء ، وهي اختلاف الروى بالضم والكسر . ويروى برفع العقيلة العذراء على أنه قائل تبدي ، وجملة ابن جرير شاهداً على جواز حذف اللتين إذا تلاها ساكن ، وإن كان الكثير تحريكه حينئذ ، وعلى هذا فحتاج هذه الجملة إلى رابط يعود على المذمومة وهو غارة ؛ والتقدير : وتبدي فيها العقيلة عن خلخال .

(٢) قوله « وأما من شبه فلضيق عطنه » أي من قال بمذهب المشبهة على ما هو مقرر في علم الكلام ، كما يشير إليه بعد . (ع)

(٣) أخرجه الحاكم من طريق سلة بن كهيل عن أبي الزهراء عن ابن مسعود في أثناء حديث طويل ليس فيه تصريح برفعه . ودواء للطبري مختصراً .

(٤) قوله « كأن فيها السفايد » واحداً مفرداً بالتفديد ، وهي حديدة يشوى بها اللحم . أفاده الصحاح . (ع)

وهو جهنم بن صفوان؛ ومن أحسن بعظم مضار فقد هذا العلم علم مقدار عظم منافعه. وقرئ: يوم
تكشف بالنون. وتكشف بالتاء على البناء للفاعل والمفعول جميعا، والفعل للساعة أو للحال،
أى: يوم تشتد الحال أو الساعة، كما تقول: كشفت الحرب عن ساقها على المجاز. وقرئ:
تكشف بالتاء المضمومة وكسر الشين، من أكشف: إذا دخل في الكشف. ومنه: أكشف
الرجل فهو مكشف، إذا انقلبت شفته العليا. وناصب الظرف: فليأتوا. أو إضماره اذكر،
أو يوم يكشف عن ساق كان كيت وكيت، لحذف للنهويل البليغ، وإن ثم من الكوائن
مالا يوصف لعظمه. عن ابن مسعود رضى الله عنه: تعم أصلاهم، أى ترد عظاما بلامفاصل لا تنتهي
عند الرفع والخفض. وفي الحديث: وتيق أصلاهم طبقا واحدا، أى: فقارة واحدة. فإن
قلت: لم يدعون إلى السجود ولا تكيف؟ قلت: لا يدعون إليه تعبدًا وتكليفًا، ولكن
توبيخًا وتعنيفًا على تركهم السجود في الدنيا، مع إقام أصلاهم والحيولة بينهم وبين الاستطاعة
تحسيرا لهم وتنديما على ما فرطوا فيه حين دعوا إلى السجود، وهم سالمون الأصلاب (١)
والمفاصل يمكنون مزاحو العلل فيما تعبدوا به.

فَذَرْنِي وَمَنْ يُكْذِبُ بِهِذَا الْحَدِيثِ سَدَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ٤٤

وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ٤٥

يقال: ذرني وإياه، يريدون كله إلى، فإنى أكفيك، كأنه يقول: حسبك إيقاعا به أن تسكل
أمره إلى وتخلي بيني وبينه، فإنى عامل بما يجب أن يفعل به مطبق له، والمراد: حسبى مجازيا (٢)
لمن يكذب بالقرآن، فلا تشغل قلبك بشأنه وتوكل على في الانتقام منه تسلياً لرسول الله
صلى الله عليه وسلم، وتهديداً للكاذبين. استدراجه إلى كذا: إذا استنزله إليه درجة فدرجة،
حتى يورطه فيه. واستدراج الله العصاة أن يرزقهم الصحة والنعمة، فيجعلوا رزق الله ذريعة
ومتسلقا إلى ازدياد الكفر والمعاصي (من حيث لا يعلمون) أى: من الجهة التي لا يشعرون
أنه استدراج وهو الإنعام عليهم، لأنهم يحسبونهم إشارا لهم وتفضيلا على المؤمنين، وهو سبب
هلاكهم (وأُمْلِي لَهُمْ) وأمهالهم، كقوله تعالى (إنما نملى لهم ليزدادوا إثما) والصحة والرزق
والمدة في العمر: إحسان من الله وإفضال يوجب عليهم الشكر والطاعة، ولكنهم يحملونه
سبيا في الكفر باختيارهم، فلما تدرجوا به إلى الهلاك وصف المنعم بالاستدراج. وقيل: كم
من مستدرج بالإحسان إليه، وكم من مفتون بالثناء عليه، وكم من مغرور بالستر عليه. وسعى

(١) قوله «وهم سالمون الأصلاب» لعله سالمون الأصلاب بالإضافة. (ع)

(٢) قوله «والمراد حسبى مجازيا» الاستعمال المعروف: حسبك في مجازيا. أو حسبك الله مجازيا. (ع)

إحسانه وتمكينه كيداً كما سماه استدراجاً، لكونه في صورة الكيد حيث كان سبباً للتورط في الهلكة، ووصفه بالثبات لقوة أثر إحسانه في التسبب للهلاك.

أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرِمٍ مُنْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾

المغرم: الغرامة، أى لم تطلب منهم على الهداية والتعلم أجراً، فيثقل عليهم حمل الغرامات في أموالهم، فيثبطهم ذلك عن الإيمان (أم عندهم الغيب) أى اللوح (فهم يكتبون) منه ما يحكمون به.

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾
لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ
فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾

(الحكم ربك) وهو إمامهم وتأخير نصرتك عليهم (ولا تكن كصاحب الحوت) يعنى: يونس عليه السلام (إذ نادى) فى بطن الحوت (وهو مكظوم) مملوء غيظاً، من كظم السقاء إذا ملأه، والمعنى: لا يوجد منك ما وجد منه من الضجر والمغاضبة، فتبلى بيلائه. حسن تذكير الفعل لفصل الضمير فى تداركه. وقرأ ابن عباس وابن مسعود: تداركته. وقرأ الحسن: تداركه، أى تداركه على حكاية الحال الماضية، بمعنى: لو لا أن كان يقال فيه تداركه، كما يقال: كان زيد سيقوم فتمعه فلان، أى كان يقال فيه سيقوم. والمعنى: كان متوقفاً منه القيام ونعمة ربه: أن أنعم عليه بالتوفيق للتوبة وتاب عليه. وقد اعتمد فى جواب «لولا» على الحال، أعنى قوله (وهو مذموم) يعنى أن حاله كانت على خلاف الذم حين نبذ بالعراء، ولولا توبته لكانت حاله على الذم. روى أنها نزلت بأحد حين حل برسول الله صلى الله عليه وسلم ما حل به، فأراد أن يدعو على الذين انهزموا. وقيل: حين أراد أن يدعو على ثقيف. وقرئ: رحمة من ربه (فاجتباها ربه) جمعه إليه، وقربه بالتوبة عليه، كما قال: (ثم اجتباها ربه فتأبى عليه وهدى) (فجعل من الصالحين) أى من الأنبياء. وعن ابن عباس: رد الله إليه الوحى وشفعه فى نفسه وقومه.

وَابْنَ يَكَاذَ الَّذِينَ كَفَرُوا كَذِبُوا لَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ
وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾

إن مخففة من الثقيلة واللام عليها. وقرئ: ليزلقونك بضم الياء وفتحها. وزلقه وأزلقه بمعنى: ويقال: زلق الرأس وأزلقه: حلقه. وقرئ: ليزهقونك، من زهقت نفسه وأزهقها، يعني: أنهم من شدة تحديقهم ونظرهم إليك شزراً بعيون العداوة والبغضاء، يكادون يزلون قدمك أو يهلكونك، من قولهم: نظر إلى نظراً يكاد يصرعني، ويكاد يأكلني، أى: لو أمكنه بنظره الصرع أو الأكل لفعله. قال:

يَتَقَارِضُونَ إِذَا التَّقَوَّا فِي مَوْطِنٍ نَظَرًا يُزِلُّ مَوَاطِنَ الْأَقْدَامِ (١)

وقيل: كانت العين في بني أسد، فكان الرجل منهم يتجوع ثلاثة أيام فلا يمر به شيء، فيقول فيه: لم أرك اليوم مثله إلا عانه، فأريد بعض العيانيين على أن يقول في رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ذلك، فقال: لم أرك اليوم رجلاً فعصمه الله. وعن الحسن: دواء الإصابة بالعين أن تقرأ هذه الآية (لما سمعوا الذكركم) أى القرآن لم يملكوا أنفسهم حسداً على ما أوتيت من النبوة (ويقولون إنه لمنجئون) حيرة في أمره وتنفيراً عنه؛ وإلا فقد علموا أنه أعقلهم. والمعنى: أنهم جنتوه لأجل القرآن (وما هو إلا ذكر) وموعظة (للعالمين) فكيف يجنن من جاء بمثله.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ سورة القلم أعطاه الله ثواب الذين حسن الله أخلاقهم» (١).

(١) يقول: إذا التقتوا في مجلس - وروى موطن - يتقارضون، أى: يقرض بعضهم بعضاً بنظره إليه، كأن أحدهم يعطى خصمه النظر، والثاني يكافئه بنظره إليه حسداً وغيظاً؛ وإزالة مواطن - الأقدام: كناية عن الإهلاك؛ لأن من زلت قدمه سقط على الأرض وربما هلك. أى: ينظر بعضهم بعضاً بنظر الحسود المغتاظ، فتسبب عن ذلك زال الأقدام عن مواطنها، وإيقاع الازلال على مواضع الأقدام: مجاز عقلي، لأنه محله، وفيه مبالغة في زلل القدم.

(٢) أخرجه للعلامة والواحدى وابن مردويه عن أبي بن كعب.

سورة الحاقة

مكية ، وآياتها ٥٢ [نزلت بعد الملك]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ ① مَا الْخَاقَّةُ ② وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْخَاقَّةُ ③ كَذَبَتْ نَمُوذُ
 وَعَادُ بِالْقَارِعَةِ ④ فَأَمَّا نَمُوذُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ⑤ وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا
 بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ⑥ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا
 فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَزُوا تُخْلِي حَاقِيَةً ⑦ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ
 مِنْ بَاقِيَةٍ ⑧

(الحاقة) الساعة الواجبة الوقوع الثابتة المحيية، التي هي آتية لا ريب فيها. أو التي فيها حواقي الأمور
 من الحساب والثواب والعقاب. أو التي تحقق فيها الأمور، أي: تعرف على الحقيقة، من قولك
 لا أحق هذا، أي: لا أعرف حقيقته. جعل الفعل لها وهو لاهلها وارتفاعها على الابتداء وخبرها
 (ما الحاقة) والاصل: الحاقة ما هي، أي: أي شيء هي تفخيم الشأنها وتعظيمها لها، فوضع الظاهر
 موضع المضمرة؛ لانه أهول لها (وما أدراك) أي: أي شيء أعلمك ما الحاقة، يعني: أنك لا علم
 لك بكنهها ومدى عظمتها، على أنه من العظم والشدة بحيث لا يبلغه دراية أحد ولا وهمه، وكيفما
 قدرت حالها فهي أعظم من ذلك، و(ما) في موضع الرفع على الابتداء. و(أدراك) مطلق عنه
 لتضمنه معنى الاستفهام. (القارعة) التي تفرع الناس بالأفراع والأهوال، والسماء بالانشقاق
 والانفطار، والأرض والجبال بالدك والنسف، والنجوم بالطمس والانكدار. ووضعت
 موضع الضمير لتدل على معنى القرع. في الحاقة: زيادة في وصف شدتها؛ ولما ذكرها
 ونغمها أتبع ذكر ذلك ذكر من كذب بها وما حل بهم بسبب التكذيب، تذكيراً لأهل مكة
 وتخويفاً لهم من عاقبة تكذيبهم (بالطاغية) بالواقعة المجاوزة للحد في الشدة. واختلف فيها،

فقيل : الرجفة . وعن ابن عباس : الصاعقة . وعن قتادة : بعث الله عليهم صيحة فأحمدتهم . وقيل : الطاغية مصدر كالعافية ، أى : بطغيانهم ؛ وليس بذلك لعدم الطباق بينها وبين قوله (ريح صرصر) والصرصر : الشديدة الصوت لها صرصرة . وقيل : الباردة من الصر ، كأنها التى كرر فيها البرد وكثر : فهى تحرق لشدة بردها (عاتية) شديدة العصف والعتو استعارة . أوعتت على عاد ، فما قدروا على ردها بجيلة . من استنار ببناء ، أولياذ بجبل ، أو اختفاء فى حفرة ؛ فإنها كانت تنزعهم من مكانهم وتهلكهم . وقيل : عتت على خزانها ، فخرجت بلا كيل ولا وزن : وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أرسل الله سفينة من ريح إلا بمكيال ولا قطرة من مطر إلا بمكيال إلا يوم عاد ويوم نوح ، فإن الماء يوم نوح طغى على الخزان فلم يكن لهم عليه السيل ، ثم قرأ (إنالما طغى الماء حملناكم فى الجارية) وإن الريح يوم عاد عتت على الخزان فلم يكن لهم عليها سيل ثم قرأ (ريح صرصر عاتية) »^(١) ولعلها عبارة عن الشدة والإفراط فيها . الحسوم : لا يتخلو من أن يكون جمع حاسم كشهود وقعود . أو مصدراً كالشكور والكفور ؛ فإن كان جمعا فمضى قوله (حسوما) نحسات حسمت كل خير واستأصلت كل بركة . أو متتابعة هبوب الرياح : ماخفت ساعة حتى أتت عليهم تمثيلا لتتابعها بتتابع فعل الحاسم فى إعادة السكى على الداء ، كرة بعد أخرى حتى ينحسم . وإن كان مصدراً : فيما أن ينتصب بفعله مضمر ، أى : تحسم حسوما ، بمعنى تستأصل استئصالا . أو يكون صفة كقولك : ذات حسوم . أو يكون مفعولا له ، أى : سخرها عليهم للاستئصال . وقال عبدالعزيز ابن زرارة السكلاي :

فَفَرَّقَ بَيْنَ يَتِيمِهِمْ زَمَانٌ تَتَابَعَ فِيهِ أَعْوَامٌ حُسُومٌ^(٢)

وقرأ السدى : حسوما ، بالفتح حالا من الريح ، أى : سخرها عليهم مستأصلة . وقيل : هى أيام العجز ؛ وذلك أن عجوزاً من عاد توارت فى سرب ، فانتزعها الريح فى اليوم الثامن فأهلكتها . وقيل : هى أيام العجز ، وهى آخر الشتاء ؛ وأسماؤها : الصن والصنبر ، والوبر . والامر ،

(١) أخرجه الثعلبي وابن مردويه من رواية موسى بن أعين عن الثوري عن موسى بن المسيب عن شهر بن حوشب عن ابن عباس مرفوعا . وأخرجه الطبري من طريق مهران بن أبي عمر عن سفيان موقفا .

(٢) لعبد العزيز بن زرارة السكلاي ، وأصل الكلام : ففرق بينهم زمان ، فيبينهم ظرف للتفريق ، إلا أنه أراد المبالغة بجمل التفريق بين أجزاء هذا الظرف أيضا ، فقال : ففرق بين بينهم زمان ؛ وإذا فرق بين الظرف فقد فرق بين أصحابه بالضرورة ، فهو من باب الكتابة . ويمكن أن بين الثاني كناية عن الوصلة لى بينهم ، ولعل أصله : ففرق بين ذات بينهم ؛ وبين سبب تفريق الزمان بينهم بوصفه بأنه تتابع فيه أعوام حسوم ، من الحسم : وهو للقطع ، والكى بالنار مرة بعد أخرى حتى ينقطع الدم . وظاهر كلام الجوهرى أنه مفرد ، لأنه قال : أيام حسوم ، أى : مستأصلة . والحسوم : الشزم . ويجوز أنه جمع حسم كرا كع وركوع ، وصاجد وجمود ، أى : حاسمات وقاطعات لأبواب الخير .

والمؤتمر، والمعلل، ومطفيء الجمر. وقيل: مكثي الطعن^(١) ومعنى (سخرها عليهم) سيطرها عليهم كما شاء (فيها) في مهابتها. أو في الليالي والأيام. وقرئ: أعجاز نخيل (من باقية) من بقية أو من نفس باقية. أو من بقاء، كالطاغية: بمعنى الطغيان.

وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَتُ بِالْخَاطِئَةِ ٩ فَمَصَّوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ

فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ١٠

(ومن قبله) يريد: ومن عنده من تباعه. وقرئ: ومن قبله، أي: ومن تقدمه. وتعصد الأولى قراءة عبدالله وأنى: ومن معه. وقراءة أبي موسى: ومن تلقاه (والمؤتفكات) قرى قوم لوط (بالخاطئة) بالخطيئة. أو بالفعل، أو الأفعال ذات الخطيئة العظيم (رابية) شديدة زائدة في الشدة، كما زادت قبائحهم في القبيح. يقال: ربا الشيء يربو: إذا زاد (ليربو في أموال الناس).

إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ١١ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً

وَنَعِيهَا أَذُنٌ وَإِعِيةٌ ١٢

(حملناكم) حملنا آباءكم (في الجارية) في سفينة: لأنهم إذا كانوا من نسل المحمولين الناجين، كان حمل آباءهم منة عليهم. وكأنهم هم المحمولون، لأن نجاتهم سبب ولادتهم (لنجعلها) الضمير للفعلة: وهي نجاة المؤمنين وإغراق الكفرة (تذكرة) عظة وعبرة (أذن وإعية) من شأنها أن تعي وتحفظ ما سمعت به ولا تضعمه بترك العمل، وكل ما حفظته في نفسك فقد وعيته^(٢) وما حفظته في غير نفسك فقد أوعيته كقولك: وعيت الشيء في الظرف. وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لعلي رضي الله عنه عند نزول هذه الآية: سألت الله أن يجعلها أذنك يا علي، قال: علي رضي الله عنه: فأنسيت شيئاً بعد وما كان لي أن أنسى^(٣). فإن قلت: لم قيل: أذن وإعية، على التوحيد والتشكير؟ قلت: للإيذان بأن الوعاة فيهم قلة، ولتوبيخ الناس بقلة من يعي منهم؛ وللدلالة على أن الأذن الواحدة إذا وعت وعقلت عن الله فهي السواد الأعظم عند الله، وأن ماسواها لا يبالى بهم بالة وإن ملثوا ما بين الحافقين. وقرئ: ونعيا بسكون العين للتخفيف: شبه تعي بكبد.

(١) قوله «وقيل مكثي الطعن» جمع ظلمة وهي المودج، أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قال محمود: «وقال وعيته أي حفظته في نفسك... الخ» قال أحد: هو مثل قوله (ولننظر نفس ما قدمت لعد) وقد ذكر أن فائدة التشكير والتوحيد فيه الإشعار بقلة الناظرين.

(٣) أخرجه سعيد بن منصور والطبري من رواية مكحول به مرسلًا بتمامه نحوه. وأخرجه الثعلبي من طريق أبي حمزة الثمالي حدثني عبد الله بن حسن قال: حين نزلت فذكره بلفظ المصنف.

فَإِذَا تُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۖ (١٣) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۖ (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۖ (١٥) وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاعِيَةٌ ۖ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ۖ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ۖ (١٨)

أسند الفعل إلى المصدر ، وحسن تذكيره للفصل . وقرأ أبو السمال نفخة واحدة بالنصب مسنداً للفعل إلى الجار والجرور . فإن قلت : هما نفختان ، فلم قيل : واحدة (١) ؟ قلت معناه أنها لا تنفى في وقتها . فإن قلت : فأى النفختين هي ؟ قلت الأولى لأن عندهما فساد العالم ، وهكذا الرواية عن ابن عباس . وقد روى عنه أنها الثانية . فإن قلت : أما قال بعد (يومئذ تعرضون) والعرض إنما هو عند النفخة الثانية ؟ قلت : جعل اليوم اسماً للحين الواسع الذي تقع فيه النفختان والصعقة والنشور والوقوف والحساب ، فلذلك قيل (يومئذ تعرضون) كما تقول : جنته عام كذا ؛ وإنما كان يجيئك في وقت واحد من أوقاته (وحملت) ورفعت من جهاتها بريح بلغت من قوة عصفها أنها تحمل الأرض والجبال . أو يخلق من الملائكة . أو بقدرة الله من غير سبب . وقرئ : وحملت ، بحذف المحمل وهو أحد الثلاثة (فدكتا) فدكت الجبلتان : جملة الأرضين وجملة الجبال ، فضرب بعضها ببعض حتى تشدق وترجع كثيراً مهيباً وهباً منبثاً . والدك أبلغ من الدق . وقيل : فبسطنا بسطة واحدة . فصارتا أرضاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمناً ، من قولك : اندك السنام إذا انغرش . ويعبر أدك وناقة دكاه . ومنه : الدكان (فيومئذ وقعت الواقعة) حينئذ نزلت النازلة وهي القيامة (واهي) مسترخية ساقطة القوة جداً بعد ما كانت محكمة متمسكة . يريد : والخلق الذي يقال له الملك ، وردّ إليه الضمير مجوعاً في قوله (فوقهم) على المعنى : فإن قلت : ما الفرق بين قوله (والملك) ، وبين أن يقال (والملائكة) ؟ قلت : الملك أعم من الملائكة ، ألا ترى أن قولك : ما من ملك إلا وهو شاهد ، أعم من قولك : ما من ملائكة (على أرجائها) على جوانبها : الواحد رجا مقصور ، يعنى : أنها تنشق ، وهي مسكن الملائكة ، فينضون (٢) إلى أطرافها وماحولها من حافاتهما (٣) (ثمانية) أى : ثمانية

(١) قال محمود : «إن قلت : لم قال واحدة وهما نفختان ... الخ ؟ قال أحد : وأما فائدة الإشعار بعظم هذه النفخة : أن المؤثر لك الأرض والجبال وخراب العالم هي وحدهما غير محتاجة إلى أخرى .

(٢) قوله «فينضون إلى أطرافها» في الصحاح ضويبت إليه : أويت إليه وانضمت . (ع)

(٣) قال محمود : «أى على حافاتهما لأنها تنشق فتضوى الملائكة الذين من سكانها إلى أذيالها ... الخ» قال أحد : كلاماً معرّف تعريف الجنس ، فالواحد والجمع سواء في العموم .

منهم . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : هم اليوم أربعة ، فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله بأربعة آخرين فيكونون ثمانية^(١) ، وروى : ثمانية أملاك : أرجلهم في تخوم الأرض السابعة ، والعرش فوق رؤسهم ، وهم مطرقون مسبحون . وقيل : بعضهم على صورة الإنسان ، وبعضهم على صورة الأسد ، وبعضهم على صورة الثور ، وبعضهم على صورة النسر . وروى : ثمانية أملاك في خلق الأوعال ، ما بين أظلافها إلى ركبها : مسيرة سبعين عاما . وعن شهر بن حوشب : أربعة منهم يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك ؛ وأربعة يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك ، لك الحمد على حلك بعد عليك . وعن الحسن : الله أعلم كم هم ، أثمانية أم ثمانية آلاف ؟ وعن الضحاك : ثمانية صفوف لا يعلم عددهم إلا الله . ويجوز أن تكون الثمانية من الروح ، أو من خلق آخر ، فهو القادر على كل خلق ، سبحانه الذي خلق الأزواج كلها عما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون . العرض : عبارة عن المحاسبة والمساءلة . شبه ذلك بعرض السلطان العسكر لتعرف أحواله . وروى أن في يوم القيامة ثلاثة عرضات ، فأما عرضتان فاعتذار واحتجاج وتوبيخ ، وأما الثالثة ففيها تنشر الكتب فيأخذ الفائز كتابه يمينه والهالك كتابه بشماله (خافية) سريرة وحال كانت تخفى في الدنيا بستر الله عليكم .

فَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ يَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيَةَ ①٩
إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَةَ ②٠ هُوَ فِي عَيْشَةٍ رَاضَةٍ ②١ فِي جَنَّةٍ
عَالِيَةٍ ②٢ قُطُوفُهَا دَانِمَةٌ ②٣ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي
الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ②٤

(فأما) تفصيل للعرض . ها : صوت يصوت به فيفهم منه معنى ، كآف وحس . وما أشبه ذلك .^(٢) و (كتابيه) منصوب هؤم عند الكوفيين ، وعند البصريين بأقروا ، لأنه أقرب العاملين . وأصله : هؤم كتابي اقروا كتابي ، خذف الأول لدلالة الثاني عليه . ونظيره (آتوني أفرغ عليه قطرا) قالوا : ولو كان العامل الأول ل قيل : اقرؤه وأفرغه . والهاء للسكت في (كتابيه) ، وكذلك في (حسابيه) و (ماليه) و (سلطانيه) وحق هذه الها آت أن

(١) أخرجه الطبري من طريق أبي إسحاق . قال : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال - فذكره . وهو مذكور في الحديث الطويل الذي يرويه إسماعيل بن رافع عن زيد بن أبي زياد عن القرظي عن رجل عن أبي هريرة . رواه أبو يعلى وغيره وقد تقدم .

(٢) قوله « كآف وحس » ، وما أشبه ذلك ، يفهم من كل منهما معنى الضمير والتأني . كما يفهمه الصحاح . (ع)

ثبت في الوقف وتسقط في الوصل،^(١) وقد استحب إثارة الوقف إشاراً لثباتها لثباتها في المصحف. وقيل: لا بأس بالوصل والإسقاط. وقرأ ابن محيصن بإسكان الياء بغير هاء. وقرأ جماعة بإثبات الهاء في الوصل والوقف جميعاً لإتباع المصحف (ظننت) علمت. وإنما أجرى الظن مجرى العلم، لأن الظن الغالب يقام مقام العلم في العادات والأحكام. ويقال: أظن ظناً كاليقين أن الأمر كيت وكيت (راضية) منسوبة إلى الرضا؛ كالدارع والنايل. والنسبة نسبتان: نسبة بالحرف، ونسبة بالصيغة. أو جعل الفعل لها مجازاً وهو لصاحبها (عالية) مرتفعة المكان في السماء. أو رقيقة الدرجات. أو رقيقة المباني والقصور والأشجار (دانية) ينالها القاعد والناثم. يقال لهم (كلوا واشربوا هنيئاً)^(٢) أكلاً وشرباً هنيئاً. أو هنيئتم هنيئاً على المصدر (بما أسلفتم) بما قدمتم من الأعمال الصالحة (في الأيام الخالية) الماضية من أيام الدنيا. وعن مجاهد: أيام الصيام، أي: كلوا واشربوا بدل ما أمسكتم عن الأكل والشرب لوجه الله. وروى. يقول الله عز وجل: يا أوليائي طالما نظرت إليكم في الدنيا وقد قلصت شفاهكم عن الاشربة؛ وغارت أعينكم، وخمضت بطونكم، فمكونوا اليوم في نعيمكم، وكلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية.

وَأَمَّا مَنْ أُوْنِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ بَلَيْتَنِي لَمْ أَوْتِ كِتَابِيَّةً ٢٥
وَلَمْ أَذْرِ مَاحِسَايَةَ ٢٦ بَلَيْتَهُمَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ٢٧ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي
مَالِي ٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ٢٩

الضمير في (باليتهما) البوثة: يقول: ياليت الموتة التي متهتا (كانت القاضية) أي القاطعة

(١) قال محمود: «وحق هذه الها آت يعني في كتابيه وحساويه وماليه وسلطانيه... الخ» قال أحد: لتعليل لقراءة باتباع المصحف عجيب مع أن المعتقد الحق أن القراءات السبع بتفصيلها منقولة تواتراً عن النبي صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم، فالذي أثبت الهاء في الوصل إنما أثبتنا من التواتر عن قراءة النبي صلى الله عليه وسلم: أيها كذلك قبل أن تكتب في المصحف؛ وما نفس هؤلاء إلا إدخال الاجتهاد في القراءات المستفيضة، واعتقاد أن فيها ما أخذ بالاختيار النظري وهذا خطأ لا ينبغي فتح بابه، فانه ذريعة إلى ما هو أكبر منه؛ ولقد جرت بيني وبين الشيخ أبي عمرو رحمه الله مفاوضة في قوله (ومن يطلع الله ورسوله ويخش الله ويتقه) على قراءة حفص، انتهت إلى أن أزم الرد على من أنه الهاء في الوصل في كلات سورة الحاقة. لأن حججه بأثبات القراء المضاهية لها كذلك، ففهمت من رده لذلك ما فهمه من كلام الزحشرى مهنا ولم أقبله منه رحمه الله، فتراجع عنه؛ وكانت هذه المفاوضة بمكاتبة بيني وبينه، وهي آخر ما كتب من العلوم على ما أخبرني به خاصته، وذلك صحيح لأنها كانت في أوائل مرضه رحمه الله، والله أعلم.

(٢) قوله «كلوا واشربوا هنيئاً» في الصحاح: هنيئ الطعام وهنيء، أي: صار هنيئاً. وهنأى الطعام هنيئاً وهنيئاً، ولا نظير له في المهموز هنا وهناه. وهنئت الطعام، أي: نهنت به، وكلوه هنيئاً مريئاً. (ع)

لا يرى ، فلم أبحث بعدها ؛ ولم ألق ما ألقى . أو للحالة ، أى : لبت هذه الحالة كانت الموتة التى قضت على ، لأنه رأى تلك الحالة أبشع وأمر بما ذاقه من مرارة الموت وشدته ؛ فتمتاته عندها (ما أغنى) نفي أو استفهام على وجه الإنكار ، أى : أى شئ أغنى عنى ما كان لى من اليسار (هلك عنى سلطانيه) ملكى وتسلطى على الناس ، وبقيت فقيرا ذليلا . وعن ابن عباس : أنها نزلت فى الأسود بن عبد الأشد . وعن فناخسرة الملقب بالعضد ، أنه لما قال :

عَضْدُ الدَّوْلَةِ وَابْنُ رُكْنِهَا مَلِكُ الْأَمْلاَكِ غَلَابُ الْقَدَرِ ^(١)

لم يفلح بعده وجن فكان لا ينطق لسانه إلا بهذه الآية . وقال ابن عباس : ضلت عنى حتى . ومعناه : بطلت حتى التى كنت أحتج بها فى الدنيا .

حُذُوهُ فَقَفَّوْهُ ^(٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلَّوْهُ ^(٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ
ذِرَاعًا فَاسْلُكُوْهُ ^(٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ^(٣٣) وَلَا يَحْضُ
عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ^(٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ^(٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا
مِنْ غَيْلَيْنِ ^(٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ^(٣٧)

(ثم الجحيم صلوه) ثم لا تصلوه إلا الجحيم ، وهى النار العظمى ، لأنه كان سلطانا يتعظم على الناس . يقال : صلى النار وصلاه النار . سلكه فى السلسلة : أن تولى على جسده حتى تلف

(١)	ليس شرب الكأس إلا فى المطر	وغذاء من جوار فى بحر
	غائيات ساليات للهى	ناعمت فى تضاعيف الوتر
	مبردات الكأس من مطلعها	ساقيات الكأس من فاق البشر
	عضد الدولة وابن ركنها	ملك الأملاك غلاب القدر

للحسن بن على الطومى . وقيل لعضد الدولة نفسه ، يقول : ليس شرب الخمر الكامل اللذة إلا فى حال المطر ، وفى حال غناء الجوارى فى البحر ، غائيات : جيلات مقبات فى العيون عذرات ، ساليات : ناعبات للهى : جمع نية وهى العقل ؛ ناعمت : أى متنعمت . وفى تضاعيف الوتر : متعلق بغناء . ويروى : ناعغات ، بالمعجمة ، أى : محسنات لأصواتهن فى أثناء صوت الوتر ؛ وهو الخيط المشدود فى آلة اللهور . والراح : الخمر . وعضد الدولة : بدل من الموصل المتعول بساقيات . والعضد فى الأصل : استعارة للدمودح ؛ لأن به قوتها . كالعضد للانسان . والركن كذلك استعارة لآيةه بجامع التقوية أيضا ، وهو أقرب من تشبيه الدولة بالانسان تارة وبالبناء أخرى ، على طريق المكشبة ، ولكنهما الآن لقبان للدمودح وآيةه ، وذكر الضمير وإعادته على الدولة مع أنها جزء العلم فى المحلين للبحر الأصل كالاستعارة . والقدر : ما قدره الله وقضاه . وفى وصف مدحجه بأنه غلاب القدر من تجور النباه ما لا ينفى ، ولذلك روى أنه جن وحبس لسانه حتى مات : وعن النبى صلى الله عليه وسلم : « أعظمت الناس رجلا على الله يوم القيامة وأخبتهم : رجل تسمى ملك الأملاك ، ولا ملك إلا الله » .

عليه أنناؤها؛ وهو فيها بينها مرهق مضيق عليه لا يقدر على حركة؛ وجعلها سبعين ذراعا إرادة الوصف بالطول، كما قال: إن تستغفر لهم سبعين مرة، يريد: مرات كثيرة، لأنها إذا طالت كان الإرهاق أشد. والمعنى في تقديم السلسلة على السلك: مثله في تقديم الجحيم على النصيلة. أى: لا تسلكوه إلا في هذه السلسلة، كأنها أفضح من سائر مواضع الإرهاق في الجحيم. ومعنى (ثم) الدلالة على تفاوت ما بين الغل والتصيلة بالجحيم، وما بينها وبين السلك في السلسلة، لا على تراخي المدة (أنه) تعليل على طريق الاستئناف، وهو أبلغ؛ كأنه قيل: ما له يعذب هذا العذاب الشديد؟ فأجيب بذلك. وفي قوله (ولا يحض على طعام المسكين) دليلان قويان على عظم الجرم في حرمان المسكين، أحدهما: عطفه على الكفر، وجعله قرينة له. والثاني: ذكر الحض دون الفعل، ليعلم أن تارك الحض بهذه المنزلة، فكيف بتارك الفعل، وما أحسن قول القائل:

إِذَا نَزَلَ الْأَضْيَافُ كَانَ عَذُورًا عَلَى الْخِيِّ حَتَّى تَسْتَقِلَّ مَرَاجِلُهُ ^(١)

يريد حضهم على القرى واستعجلهم وتشاكس عليهم. ^(٢) وعن أبي الدرداء أنه كان يحض امرأته على تكثير المرق لاجل المساكين، وكان يقول: خلعتنا نصف السلسلة بالإيمان، أفلا نخلع نصفها الآخر؟ وقيل: هو منع الكفار. وقولهم: (أنظّم من لو يشاء الله أطعمه) والمعنى على بذل طعام المسكين (حميم) قريب يدفع عنه ويمزّن عليه، لأنهم يتحامونه ويفرون منه،

(١) تركنا في قد أبقن الجوع أنه إذا ما ثوى في أرسل القوم قاتله
ففي قد قد السيف لا متضائل ولا رمل لبانه وأباجله
إذا نزل الأضياف كان عذورا على الخي حتى تستقل مراجله

قيل: إنه للمجير السلولى. وقيل: لذيذ بنت الطائفة ترقى أعاها يزيد. واللبن الطائر والخائر: هم. شبه الجوع بانسان عذر للقوم على سبيل المكنية، وإثبات الأبقان له تخيل، وكذلك قتله، وهذا مبالغة في وصف يزيد بالكرم، وأنه مانع للجوع من دخوله بيوت القوم ولحوقه بهم، حتى كان الجوع يخافه ويتيقن أنه إذا دخل بيوت القوم قتله يزيد. ويجوز أن فاعل ثوى: ضمير يزيد، لكن الأول أبلغ؛ لأنه يفيد أن الجوع لم يدخل على القوم لحوقه من يزيد، وقد فعل مبنى للمجهول، وقد السيف: مفعول مطلق، أى خالق على شكل السيف في المضى في المكان وتنفيذ العزائم. والمتضائل المتضاعف المتخاضع، والرمل: كتب - الاسترخاء. والرمل - كندر - : وصف منه، وجع اللبة باعتبار ما حولها. والأباجل: جمع أبجل، وهو عرق غليظ في الفخذ والساق وفرس ومن الأباجل مريع الجرى، والمعدور - باله بن المهمة وتشديد الواو - : سيء الخلق قليل الصبر عن مطلوبه، كأنه يحتاج إلى الاعتذار عن سوء خلقه. والمراجل: الدور العظيم يقول: تركنا في المعركة حتى كربما جوادا سريعا في قرى الضيفان، إذا نزلوا به كان سيء الخلق على أهله، حتى ترتفع قدوره الاتاني، فيحسن خلقه كما كان.

(٢) قوله «وتشاكس عليهم» في الصحاح: رجل شكس، أى: صعب الخلق. (ع)

كقوله (ولا يسأل حيم حيا). والغسلين: غسالة أهل النار وما يسيل من أبدانهم من الصديد والدّم؛ قلعين من الغسل (الخاطئون) الآثمون أصحاب الخطايا. وخطئ الرجل: إذا تعدد الذنب (١)، وهم المشركون: عن ابن عباس: وقرئ: الخاطيون، بإبدال الهمزة ياء، والخاطون بطرحها. وعن ابن عباس: ما الخاطون؟ كلنا نخطو. وروى عنه أبو الأسود الدؤلي: ما الخاطون؟ إنما هو الخاطئون؛ ما الصابون؟ إنما هو الصابئون؛ ويجوز أن يراد: الذين يتخطون الحق إلى الباطل، ويتعدون حدود الله.

فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ٣٩ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ ٤٢ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٤٣

هو إقسام بالأشياء كلها على الشمول والإحاطة، لأنها لا تخرج من قسمين: مبصر وغير مبصر. وقيل: الدنيا والآخرة، والأجسام والأرواح، والإنس والجن، والخلق والخالق، والنعم الظاهرة والباطنة، إن هذا القرآن (لقول رسول كريم) أى يقوله ويتكلم به على وجه الرسالة من عند الله (وما هو بقول شاعر) ولا كاهن كما تدعون. والقلة في معنى القدم، أى: لا تؤمنون ولا تذكرون ألبتة. والمعنى: ما أكفركم وما أغفلكم (تنزيل) هو تنزيل، بيانا لأنه قول رسول نزل عليه (من رب العالمين) وقرأ أبو السمال: تنزيلا، أى: نزل تنزيلا. وقيل: الرسول الكريم، جبريل عليه السلام. وقوله (وما هو بقول شاعر) دليل على أنه محمد صلى الله عليه وسلم: لأن المعنى على إثبات أنه رسول، لا شاعر ولا كاهن.

وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ٤٥ ثُمَّ لَقَطَمْنَا مِنْهُ الْفَوَاقِينَ ٤٦ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ٤٧ وَإِنَّهُ لَتَذْكُرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ٤٨ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ٤٩ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ٥٠ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْوَقِيعِ ٥١ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ٥٢

(١) قوله «خطئ الرجل إذا تعدد الذنب» في الصحاح: قال الأموي: الخطئ من أراد الصواب فصار إلى غيره. والخطيء: من تعدد لها لا ينفى. (ع)

التقول : افتعال القول^(١) ، كأن فيه تكلفاً من المفتعل . وسمى الأقوال المتقولة ، أقاويل ، تصغيراً بها وتحقيراً ، كقولك : الأعاقيب والأضاحيك ، كأنها جمع أفعولة من القول . والمعنى : ولو ادعى علينا شيئاً لم نقله لقتلناه صبراً ، كما يفعل الملوك بمن يتكذب عليهم معاملة بالسخط والانتقام ، فصوّر قتل الصبر بصورته ليكون أهول : وهو أن يؤخذ بيده وتضرب رقبته . وخص اليقين عن اليسار لأن القتال إذا أراد أن يوقع الضرب في قفاه أخذ بيساره ، وإذا أراد أن يوقعه في جيبه وأن يكفحه بالسيف ، وهو أشد على المصبور لنظره إلى السيف أخذ يمينه . ومعنى ﴿ لاخذنا منه باليمين ﴾ لاخذنا يمينه ، كما أن قوله ﴿ لقطعنا منه الوتين ﴾ لقطعنا وتينه ، وهذا بين . والوتين : نياط القلب وهو حبل الوريد : إذا قطع مات صاحبه . وقرئ : ولو تقول على البناء للمفعول . قيل ﴿ حاجزين ﴾ في وصف أحد ؛ لأنه في معنى الجماعة ، وهو اسم يقع في النقي العام مستويافيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث . ومنه قوله تعالى ﴿ لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ ، (لستن كأحد من النساء) والضمير في عنه للقتل ، أي : لا يقدر أحد منكم أن يحجزه عن ذلك ويدفعه عنه . أو لرسول الله ، أي : لا تقدر أن تحجزوا عنه القاتل وتحولوا بينه وبينه ؛ والخطاب للناس ، وكذلك في قوله تعالى ﴿ وإنا لنعلم أن منكم مكذبين ﴾ وهو إبعاد على التكذيب . وقيل الخطاب للمسلمين . والمعنى : أن منهم ناساً سيكفرون بالقرآن ﴿ وإنه ﴾ الضمير للقرآن ﴿ الحسرة ﴾ على الكافرين به المكذبين له إذا رأوا ثواب المصدقين به . أو للتكذيب ، وأن القرآن اليقين حق اليقين ، كقولك : هو العالم حق العالم ، وجدّ العالم . والمعنى : لعين اليقين ، ومحض اليقين ﴿ فسيح ﴾ الله بذكر اسمه العظيم . وهو قوله : سبحان الله ؛ وأعبده شكراً على ما أهلك له من إجماعه إليك .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة الحاقة حاسبه الله حساباً يسيراً »^(٢) .

(١) قال محمود : « التقول : افتعال من القول ؛ لأن فيه تكلفاً ... الخ » قال أحد : وبناء أفعولة من القول ، وهو معتل ، كما ترى غيب عن القياس التصريفي . ويحتمل أن تكون الأقاويل جمع الجمع ، كالأنعام : جمع أفعال وأنعام ؛ وهو الظاهر ، والله أعلم .

(٢) أخرجه الثعلبي والواحدى وابن مردويه بالسند إلى أبي بن كعب .

سورة المعارج

مكية ، وآياتها ٤٤ [نزلت بعد الحاقة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ① لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ②
 مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ③ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ
 خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ④ فَاَصْبَرَ صَبْرًا جَبِيلًا ⑤ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ⑥
 وَنَرَاهُ قَرِيبًا ⑦ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ ⑧ وَتَكُونُ الْجِبَالُ
 كَالْعِهْنِ ⑨ وَلَا يَسْأَلُ حِمِيمٌ حَمِيًّا ⑩ يُبْصَرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُنْجَرِمِ ثَوْبًا يَفْتَدِي
 مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بَيْنِيهِ ⑪ وَصَحْبَتِهِ وَأَخِيهِ ⑫ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُتَوَبُّعُ ⑬
 وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ⑭ كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْلَى ⑮ نَزَاعَةٌ لِّلْأَشْوَى ⑯
 تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ⑰ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ⑱

ضمن (سأل) معنى دعا ، فعدتى تعديته ، كأنه قيل : دعا داع (بعذاب واقع) من قولك :
 دعا بكذا . إذا استدعى وطلبه . ومنه قوله تعالى (يدعون فيها بكل فاكهة) وعن ابن عباس
 رضى الله عنهما : هو النضر بن الحرث : قال إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا
 حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم . وقيل : هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، استعمل
 بعذاب للكافرين . وقرئ : سأل سائل ، وهو على وجهين : إما أن يكون من السؤال وهى لغة
 قريش ، يقولون : سالت تسال ، وهما يتسايلان ؛ وأن يكون من السيلان . ويؤيده قراءة ابن
 عباس : سأل سيل ، والسيل : مصدر فى معنى السائل ، كالغور بمعنى الغائر . والمعنى : اندفع
 عليهم وادى عذاب فذهب بهم وأهلكهم . وعن قتادة : سأل سائل عن عذاب الله على من ينزل
 وبمن يقع ؟ فنزلت ، وسأل على هذا الوجه مضمن معنى : عنى وأهم . فإن قلت : بهم يتصل

قوله ﴿للكافرين﴾ ؟ قلت : هو على القول الأول متصل بعذاب صفة له ، أى : بعذاب واقع كائن للكافرين ، أو بالفعل ، أى : دعا للكافرين بعذاب واقع . أو بواقع ، أى : بعذاب نازل لأجلهم ، وعلى الثانى : هو كلام مبتدأ جواب للسائل ، أى : هو للكافرين . فإن قلت : فقوله ﴿من الله﴾ بم يتصل ؟ قلت : يتصل بواقع ، أى واقع من عنده ، أو بدافع ؛ بمعنى : ليس له دافع من جهته إذا جاء وقته وأوجبت الحكمة وقوعه ﴿ذى المعارج﴾ ذى المصاعد جمع معرج ، ثم وصف المصاعد وبعد مداها فى العلو والارتفاع فقال : ﴿تخرج الملائكة والروح إليه﴾ إلى عرشه وحيث تهبط منه أو امره ﴿فى يوم كان مقداره﴾ كقدر مدة ﴿خمسین ألف سنة﴾ بما يعد الناس . والروح . جبريل عليه السلام ، أفردته لتميزه بفضله . وقيل : الروح خلق هم حفظة على الملائكة ، كما أن الملائكة حفظة على الناس . فإن قلت : بم يتعلق قوله ﴿فاصبر﴾ ؟ قلت : بسأل سائل ؛ لأن استعجال النصر بالعذاب إنما كان على وجه الاستهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم والتكذيب بالوحى ، وكان ذلك مما يضجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر بالصبر عليه ، وكذلك من سأل عن العذاب لمن هو ، فإنما سأل على طريق التثنت ، وكان من كفار مكة . ومن قرأ : سأل سائل ، أو سيل ، فعناه : جاء العذاب لقرب وقوعه ، فاصبر فقد شارفت الانتقام ، وقد جعل ﴿فى يوم﴾ من صلة ﴿واقع﴾ أى : يقع فى يوم طويل مقداره خمسون ألف سنة من سنينكم ، وهو يوم القيامة : إما أن يكون استطراداً له لشدة على الكفار ، وإما لأنه على الحقيقة كذلك . قيل : فيه خمسون موطناً كل موطن ألف سنة ، وما قدر ذلك على المؤمن إلا كابين الظهر والعصر . الضمير فى ﴿يرونه﴾ للعذاب الواقع ، أو ليوم القيامة فيمن علق ﴿فى يوم﴾ بواقع ؛ أى : يستبعدونه على جهة الإحالة ﴿و﴾ نحن ﴿نراه قريباً﴾ هيناً فى قدرتنا غير بعيد علينا ولا متعذر ، فالمراد بالبعيد : البعيد من الإمكان ، وبالقريب : القريب منه . نصب ﴿يوم تكون﴾ بقريباً ، أى : يمكن ولا يتعذر فى ذلك اليوم . أو بإضمار يقع ، لدلالة ﴿واقع﴾ عليه . أو يوم تكون السماء كالمهل . كان كيت وكيت . أو هو بدل عن ﴿فى يوم﴾ فيمن علقه بواقع ﴿كالمهل﴾ كدردى الزيت . وعن ابن مسعود : كالفضة المذابة فى تلوتها ﴿كأعهن﴾ كالصوف المصبوغ ألواناً ؛ لأن الجبال جدد بيض وحر مختلف ألوانها وغرايب سود ، فإذا بست وطيرت فى الجو : أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح ﴿ولا يسأل حميم حمياً﴾ أى لا يسأله بكيف حاله ولا يكلمه ، لأن بكل أحد ما يشغله عن المسألة ﴿يبصرونهم﴾ أى يبصر الأحباء الأحباء ، فلا يخفون عليهم ،^(١) فما يمنهم من المسألة أن

(١) قال محمود : «معناه يبصر الأصدقاء أصدقاءهم فيعرفونهم ... الخ» قال أحد : وفيه دليل على أن الفاعل والمفعول الراضين فى سياق التثنية ، كما التزم فى : واقع لأشرب ماء من إدارة : أنه عام فى المياه والأدوات ، خلافاً لبعضهم فى الأدوات .

بعضهم لا يبصر بعضا ، وإنما يمنعهم التشاغل : وقرئ : يبصرونهم . وقرئ : ولا يسئل ، على البناء للمفعول ، أى : لا يقال للحميم أين حميمك ولا يطلب منه : لأنهم يبصرونهم فلا يحتاجون إلى السؤال والطلب . فإن قلت : ما موقع يبصرونهم ؟ قلت : هو كلام مستأنف ، كأنه لما قال (ولا يسأل حميم حميا) قيل : لعله لا يبصره ، فقيل : يبصرونهم ، ولكنهم لتشاغلهم لم يتمكنوا من تساؤلهم . فإن قلت : لم جمع الضميران في (يبصرونهم) وهما للحميمين ؟ قلت : المعنى على العموم لكل حميمين لا لحميمين اثنين . ويجوز أن يكون (يبصرونهم) صفة ، أى : حميا مبصرين معرفين إياهم . قرئ : يومئذ ، بالجزء والفتح على البناء للإضافة إلى غير متمكن ، ومن عذاب يومئذ ، بقتون (عذاب) ونصب (يومئذ) وانتصابه بعذاب : لأنه في معنى تعذيب (وفصيلته) عشيرته الأدنى الذين فصل عنهم (تزويده) تضمه انتماء إليها ، أو لياذا بها في الثواب (ينجي) عطف على يقتدى ، أى : يؤدّ لو يقتدى ، ثم لو ينجي الاقتداء . أو من في الأرض . وثم : لاستبعاد الإنجاء ، يعنى : تمى لو كان هؤلاء جميعاً تحت يده وبذلهم في فداء نفسه ، ثم ينجي ذلك وهبات أن ينجي (كلا) رد للجرم عن الودادة ، وتنبه على أنه لا ينفعه الاقتداء ولا ينجي من العذاب ، ثم قال (إنها) والضمير للنار ، ولم يجر لها ذكر : لأن ذكر العذاب دل عليها . ويجوز أن يكون ضميراً مبهماً ترجم عنه الخبر ، أو ضمير القصة . و (لظى) علم للنار ، منقول من اللظى : بمعنى اللهب . ويجوز أن يراد اللهب . و (نزاعة) خبر بعد خبر : لأن أو خبر للظى إن كانت الهاء ضمير القصة ، أو صفة له إن أردت اللهب ، والتأنيث لأنه في معنى النار . أو رفع على التحويل ، أى : هى نزاعة . وقرئ نزاعة ، بالنصب على الحال المؤكدة ، أو على أنها متلظية نزاعة : أو على الاختصاص للتحويل . والشوى : الأطراف . أو جمع شواة : وهى جلدة الرأس تنزعها نزعاً فتبتكها ^(١) ثم تعاد (تدعو) مجاز عن إحضارهم ، كأنها تدعوهم فتحضروهم . ونحوه قول ذى الرمة :

• ... تدعو أفعه الرب • ^(٢)

(١) قوله «فتبتكها» أى : تقطعها . (ع)

(٢) أمسى برهين مختاراً لمرثعه من ذى الفوارس تدعو أفعه الرب

لدى الرمة يصف ثوراً وحشياً . ووهين : اسم موضع ، وكذلك ذى الفوارس . والرب : بوحدهون - : جمع وبة وهى أول ما ينبت من الكلا . والدعاء : الطلب ، وهو هنا مجاز عن التسبب في الأمر : لأن النبات الصغير سبب في وصول أفعه للأرض ، ليرعاه . ويجوز تقييد الرب بالداعي ، والدعاء تخيل ، ثم يحتمل أن مرثعه من ذى الفوارس فيحتمل أنه سار من ذى الفوارس إلى وهين . ويروى : مختاراً ، أى : متخيلاً ومتطلباً غير المراتع .

وقوله : ﴿لَيَالِي اللَّهِ يُطِيبُنِي فَانْبَعُثْ﴾ (١)

وقول أبي النجم : ﴿تَقُولُ لِأَرَايِدُ أَغْشَبْتَ أَنْزِلِ﴾ (٢)

وقيل : تقول لهم : إلى إلى يا كافر يا منافق . وقيل : تدعو المنافقين والكافرين بلسان فصيح ، ثم تلتقطهم التقاط الحب ، فيجوز أن يخلق الله فيها كلاما كما يخلق في جلودهم وأيديهم وأرجلهم ، وكما خلقه في الشجرة (٣) ويجوز أن يكون دعاء الزبانية . وقيل : تدعو تم لك ، من قول العرب : دعاك الله ، أى : أهلكك . قال

﴿دَعَاكَ اللَّهُ مِنْ رَجُلٍ بِأَفْعَى﴾ (٤)

(من أدبر) عن الحق (وتولى) عنه (وجمع) المال فجعله في وعاء وكنزه ولم يؤد الزكاة والحقوق الواجبة فيه ، وتشاغل به عن الدين : وزهى باقتنائه وتكبر .

إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيَّوْمَ الدِّينِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ

(١) تقدم شرح هذا القامد بالجزء الثالث صفحة ١٩١ فراجع إن شئت أم صححه .

(٢) تقدم شرح هذا القامد بالجزء الثاني صفحة ١٦٨ فراجع إن شئت أم صححه .

(٣) قوله « وكما خلقه في الشجرة » على زعم المعتزلة أنه تكليم الله موسى ، كأنه كذلك . وعند أهل السنة أنه أطلعه على كلامه القديم القائم بذاته تعالى . (ع)

(٤) دعاك الله من رجل بأفعى ضئيل تنفث السم الذخا

دعاك ، أى : أهلكك الله بأفعى ؛ يقال : دعاه الله بالمكروه : أنزله به ، ومن رجل : ؛ يابى واقع موقع الحال ؛ أو تمييز مقترن بمن . لأن ما قبله فيه معنى التعجب ، فيحتاج تمييز جهة التعجب . وقال بعض النحاة : قد يعمى التمييز بمجرد التوكيد ، فيكون هذا منه ؛ بأفعى بالتثنية : اسم الحية . وقيل ينبوع من الصرف ، لأنه صفة للحية الدديدة السم ، والذخاف : أى الشديد القتال ؛ ضئيل : ضعيفة مهزولة . والنفث : إخراج النفس مع بلل ، وهو هنا إخراج السم الذخاف كغراب : المسمع للقتل . ويحتمل أن «دعاك الله» من باب المجاز ، كأن الله ناداه لقتله بالأفعى . أو طلبه بأفعى أرسلها إليه لتحضره باهلاكة . وخص المهزولة لأنها أشد إيذاء من غيرها . وقال ضئيل ، مع أن موصوفه مؤنث على حد : إن رحمة الله قريب ، والمذكر : أفسوان . ويروى «ينفث» على أن الأفعى واحد من الجنس فهو مذكر .

أَوْ مَمْلَكْتَ أَتَيْتَهُمْ فَاذْنَبُوا عَلَيْهِمْ غَيْرِ مُلْمِينَ ۝ (٢٠) قَمِنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأَوَّلَ كُتُبِكَ
 هُمُ الْعَادُونَ ۝ (٢١) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝ (٢٢) وَالَّذِينَ هُمْ
 بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ۝ (٢٣) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝ (٢٤) أَوَلَمْ يَكُنْ لَكَ
 فِي جَنَّةٍ مُّكْرَمُونَ ۝ (٢٥)

أريد بالإنسان الناس؛ فلذلك استثنى منه إلا المصلين. والهلوع: سرعة الجزع عند مسّ
 المكروه وسرعة المنع عند مسّ الخير، من قولهم: ناقة هلوع سريعة السير. وعن أحمد بن يحيى
 قال لى محمد بن عبد الله بن طاهر: ما الهلوع؟ فقلت: قد فسرته الله، ولا يكون تفسير أئين من
 تفسيره، وهو الذى إذا ناله شر أظهر شدة الجزع، وإذا ناله خير بخل به ومنعه الناس.
 والخير: المال والغنى؛ والشر: الفقر. أو الصحة والمرض: إذا صح الغنى منع المعروف وشح
 بماله، وإذا مرض جزع وأخذ يوصى. والمعنى: إن الإنسان لا يثاره الجزع والمنع وتمسكهما
 منه ورسوخهما فيه، كأنه مجبول عليهما مطبوع^(١)، وكأنه أمر خلق وضرورى غير اختياري،
 كقوله تعالى (خلق الإنسان من عجل) والدليل عليه أنه حين كان فى البطن والمهد لم يكن به
 هلع، ولأنه ذم الله لا يذم فعله، والدليل عليه: استثناء المؤمنين الذين جاهدوا أنفسهم
 وحملوها على المكروه وظلفوها عن الشهوات،^(٢) حتى لم يكونوا جازعين ولا مانعين. وعن
 النبي صلى الله عليه وسلم: «شر ما أعطى ابن آدم شح» هالع وجبن^(٣) خالع، فإن قلت: كيف
 قال (على صلاتهم دائمون) ثم على صلاتهم يحافظون؟ قلت: معنى دوامهم عليها أن يواظبوا
 على أدائها لا يخلون بها ولا يشتغلون عنها بشيء من الشواغل، كما روى عن النبي صلى الله عليه

(١) قال محمود: والمعنى أن الإنسان لا يثاره الجزع والمنع ورسوخهما فيه كأنه... الخ، قال أحمد: هو يشرك
 باطنا وبزوه ظاهراً، فينتفى كون الهلوع الذى هو موجود للأدنى مخلوقاً لله تعالى تزيها له عن ذلك، ويشتت خالفهم
 الله، ويتغافل عن اقتضاء نظم الآية لذلك، فانك إذا قلت: برئت القلم رقيقاً، فقد نصبت إليك الحال وهو
 ترفيقه، كما نسب إليك البرى، وكذلك الآية. وأما قوله: «واقه لا يذم خلقه»؛ فاقه تعالى له الحد على كل حال؛
 وإنما المذموم العبد بحجة أنه جعل فيه اختياراً يفرق بالضرورة بين الاختيارات والقسميات ألا الله الحجة البالغة
 والله أعلم.

(٢) قوله: «وظلفوها عن الشهوات» فى الصحاح: ظلف نفسه عن الشيء، أى: منعها من أن تفعله
 أمر تأتبه. (ج)

(٣) أخرجه أبو داود وابن حبان وأحمد وإسحاق والبراز كلهم من طريق عبد العزيز بن مروان: سمعت أبا هريرة
 بهذا، لكن قال «شر ما فى الرجل».

وسلم ، أفضل العمل أدومه وإن قل ، ^(١) وقول عائشة : كان عمله ديمة . ^(٢) وحافظتهم عليها : أن يراعوا إسباغ الوضوء لها ومواقبتها وقيموا أركانها ويكملوها بسنتها وآدابها ، ويحفظوها من الإحباط ^(٣) باقتراف المآثم ، فالدوام يرجع إلى أنفس الصلوات والمحافظة إلى أحوالها (حق معلوم) هو الزكاة ، لأنها مقدرة معلومة ، أو صدقة يوظفها الرجل على نفسه يؤديها في أوقات معلومة . السائل : الذي يسأل (والمحروم) الذي يتعفف عن السؤال فيحسب غنيا فيحرم (يصدقون بيوم الدين) تصديقا بأعمالهم واستعدادهم له ، ويشفقون من عذاب ربهم . واعترض بقوله (إن عذاب ربهم غير مأمون) أى لا ينبغي لأحد وإن بالغ في الطاعة والاجتهاد أن يأمنه . وينبغي أن يكون مترجحا بين الخوف والرجاء . قرئ : بشهادتهم وبشهاداتهم . والشهادة من جملة الأمانات . وخصها من بينها بإبانة لفضلها ، لأن في إقامتها إحياء الحقوق وتصحيحها . وفي زياها : تضييعها وإبطالها .

قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهُتَمِينَ ^(٣٦) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ
عَزِينَ ^(٣٧) أَبْطَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ^(٣٨) كَلَّا إِنَّا
خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ^(٣٩) فَلَا أَقْسَمُ بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ^(٤٠)
عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوفِينَ ^(٤١) فَذَرْنَاهُمْ يُخَافُونَ وَيَلْعَبُوا خَتِي
بُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ^(٤٢) يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا
كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِصُونَ ^(٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ
الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ^(٤٤)

كان المشركون يحتمنون حول النبي صلى الله عليه وسلم حلقا حلقا وفرقا فرقا ، يستمعون ويستهمون بكلامه ، ويقولون : إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلندخلها قبلهم ، فزلت (مهطمين) مسرعين نحوك ، ماذى أعناقهم إليك ، مقبلين بأبصارهم عليك (عزین) فرقا

(١) متفق عليه من حديث عائشة .

(٢) متفق عليه من حديثها رضى الله عنها .

(٣) قال محمود : دأى لا يتركونها في وقت ولا يحيطونها ... الخ قال أحمد : حفظها من الإحباط نص عند

أهل السنة على حفظها من الكفر خاصة ، فلا يحيط ما سواه خلافا للقدرة ، وقد تقدمت أمثاله واقعة أعلم .

شقي جمع عزة، وأصلها عزوة، كأن كل فرقة تعتزى إلى غير من تعتزى إليه الأخرى : فهم مفترقون . قال الكيت :

وَنَحْنُ وَجَنَّدُلُ بَاغٍ تَرَ كُنَّا كَسَائِبَ جَنَّدُلٍ شَتَّى هَزِينَا ^(١)

وقيل : كان المستهزءون خمسة أرهط (كلا) ردع لهم عن طمعهم في دخول الجنة ، ثم علل ذلك بقوله (إنا خلقناهم مما يعلمون) إلى آخر السورة ، وهو كلام دال على إنكارهم البعث ، فسكانه قال : كلا إنهم منكرون البعث والجزاء ؛ فمن أين يطمعون في دخول الجنة ؟ فإن قلت : من أى وجه دل هذا السلام على إنكار البعث ؟ قلت : من حيث أنه احتجاج عليهم بالنشأة الأولى ، كالاحتجاج بها عليهم في مواضع من التنزيل ، وذلك قوله (خلقناهم مما يعلمون) أى من النطف ، وبالقدره على أن يهلكهم ويبدل ناسا خيرا منهم ، وأنه ليس بمسبوق على ما يريد تكويته لا يعجزه شيء ، والغرض أن من قدر على ذلك لم تعجزه الإعادة . ويجوز أن يراد : إنا خلقناهم مما يعلمون ، أى : من النطفة المذرة ، وهى منصبهم الذى لا منصب أوضع منه . ولذلك أبهم وأخفى : إشعارا بأنه منصب يستحيا من ذكره ، فمن أين يتشرفون ويدعون التقدم ويقولون : لندخل الجنة قبلهم . وقيل : معناه إنا خلقناهم من نطفة كما خلقنا نبي آدم كلهم ، ومن حكمنا أن لا يدخل أحد منهم الجنة إلا بالإيمان والعمل الصالح ، فلم يطمع أن يدخلها من ليس له إيمان وعمل . وقرئ : رب المشرق والمغرب . ويخرجون ، ويخرجون . ومن الأحداث سراعا ، بالإظهار والإدغام . ونصب ، ونصب : وهو كل ما نصب فعبء من دون الله (يوفضون) يسرعون إلى الداعى مستبقين كما كانوا يستبقون إلى أنصاهم .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة سأل سائل أعطاه الله ثواب الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » . ^(٢)

(١) الكيت . والكسائب : جمع كنيبة وهى الجماعة . وشقى : جمع شتيت ، كرمى ورمىض . وهزين : جمع عزة ، أصلها عزو ، فموضعت التاء عن الواو ، من عزاء إلى كذا ، أى : نسبة إليه ؛ لأن بعضها ينسب إلى بعض . أو لأنها تنسب إلى رئيسها . أو إلى أصلها الأعلى ، وهذا كناية عن قتله مع كثرة جيله .
(٢) أخرجه الترمذى والراعى وابن مريويه بإسنادهم إلى أبي بن كعب .

سورة نوح

مكية ، وهي ثمان وعشرون آية [نزلت بعد النحل]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ① قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ② أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ
وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ③ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى
إِنْ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ④

(أن أنذر) أصله : بأن أنذر ، غذف الجار وأوصل الفعل : وهي أن الناصبة للفعل ،
والمعنى : أرسلناه بأن قلنا له أنذر ، أى : أرسلناه بالامر بالإظهار . ويجوز أن تكون مفسرة ؛
لأن الإرسال فيه معنى القول . وقرأ ابن مسعود : أنذر بغير د ، أن ، على إرادة القول . و(أن
اعبدوا) نحو (أن أنذر) فى الوجهين . فإن قلت : كيف قال (ويؤخركم) مع إخباره بامتناع
تأخير الأجل ، وهل هذا إلا تناقض ؟ قلت : قضى الله مثلاً أن قوم نوح إن آمنوا عمرهم ألف
سنة ، وإن بقوا على كفرهم أهلكهم على رأس تسعمائة ، ف قيل لهم : آمنوا يؤخركم إلى أجل
مسمى ، أى : إلى وقت سماه الله وضربه أمداً تنتهون إليه لا تتجاوزونه ، وهو الوقت الأطول
تمام الألف . ثم أخبر أنه إذا جاء ذلك الأجل الأمد لا يؤخر كما يؤخر هذا الوقت ، ولم تكن
لكم حيلة ، فبادروا فى أوقات الإمهال والتأخير .

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ⑤ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ⑥
وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَفْسَحُوا وَخَابُوا
وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا ⑦ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ⑧ ثُمَّ إِنِّي
أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَصْرَرْتُ لَهُمْ إِفْرَارًا ⑨ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ

كَانَ غَفَّارًا ⑩ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ⑪ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ
وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ⑫ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ⑬
وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ⑭ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ⑮
وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ⑯ وَاللَّهُ أَنْتَبَسُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ
نَبَاتًا ⑰ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ⑱ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ
الْأَرْضَ بَسَاطًا ⑲ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ⑳

(لئلا ونهارا) دأبنا من غير فتور مستغرقا به الأوقات كلها (فل يزدحم دعائي) جعل
الدعاء فاعل زيادة الفرار . والمعنى على أنهم ازدادوا عنده فراراً ؛ لأنه سبب الزيادة . ونحوه
(فزادتهم رجساً إلى رجسهم) ، (فزادتهم إيماناً) (لتغفر لهم) ليتوبوا عن كفرهم فتغفر لهم ،
فذكر المسبب الذي هو حظهم خالصا ليكون أقيح لإعراضهم عنه . سدوا مسامعهم عن استماع
الدعوة (واستغشوا ثيابهم) وتغطوا بها ، كأنهم طلبوا أن تغشاهم ثيابهم ، أو تغشيم لثلا
ييصروه كراهة النظر إلى وجهه من ينصحهم في دين الله . وقيل : لثلا يعرفهم ؛ ويعضده قوله
تعالى (ألا إنهم يثنون صدورهم ليستغفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم) . الإصرار : من
أصر الحمار على العانة ^(١) إذا صرّ أذنيه وأقبل عليها يسكدها ويطردها : استعير للإقبال على
المعاصي والإكباب عليها (واستكبروا) وأخذتهم العزة من ^(٢) اتباع نوح وطاعته ، وذكر
المصدر تأكيد ودلالة على فرط استقبالهم وعتوهم . فإن قلت : ذكر أنه دعاهم ليلا ونهارا ،
ثم دعاهم جهاراً ، ثم دعاهم في السر والعلن : فيجب أن تكون ثلاث دعوات مختلفات حتى يصح
العطف . قلت : قد فعل عليه الصلاة والسلام كما يفعل الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر :
في الابتداء بالاهون والترقي في الأشد فالأشد ، فافتتح بالمناجحة في السر ، فلما قبلوا ثنى بالجهارة ،
فلما لم تؤثر ثلث بالجمع بين الإسرار والإعلان . ومعنى (ثم) الدلالة على تباعد الأحوال ، لأن
الجهار أغلظ من الإسرار ؛ والجمع بين الأمرين ، أغلظ من أفراد أحدهما . (و جهاراً)

(١) قوله « من أصر الحمار على العانة » هي القطيع من حر الوحش ، والكدم : العض بأذى القدم . أفاده
المصباح . وفيه : صر للفرس أذنيه ضمها إلى رأسه ؛ فإذا لم يوقفوا قالوا : أصر الفرس بالآلاف اه ، يعني : إذا لم
يجعلوا الفعل متدياً إلى مفعول . (ع)

(٢) قوله « وأخذتهم العزة من اتباع نوح » لعله : عن . (ع)

منصوب بدعوتهم ، نصب المصدر لأنّ الدعاء أحد نوعيه الجهار ، فنصب به نصب القرفصاء بقعد ، لكونها أحد أنواع القعود . أو لأنه أراد بدعوتهم جاهرتهم . ويجوز أن يكون صفة لمصدر دعا ، بمعنى دعا جهاراً ، أى : مجاهرأ به . أو مصدرأ فى موضع الحال ، أى : مجاهرأ . أمرهم بالاستغفار الذى هو التوبة عن الكفر والمعاصى ، وقدم إليهم الموعد بما هو أوقع فى نفوسهم وأحب إليهم من المنافع الحاضرة والفوائد العاجلة ، ترغيباً فى الإيمان وبركاته والطاعة ونتائجها من خير الدارين ، كما قال (وأخرى تحبونها نصر من الله) ، (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات) ، (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لا كلوا من فوقهم) ، (وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم) وقيل : لما كذبوه بعد طول تكرير الدعوة : حبس الله عنهم القطر وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة . وروى سبعين . فوعدهم أنهم إن آمنوا رزقهم الله تعالى الخصب ودفع عنهم ما كانوا فيه . وعن عمر رضى الله عنه : أنه خرج يستسقى ، فما زاد على الاستغفار ، فقيل له : ما رأيناك استسقيت فقال : لقد استسقيت بمجاديح السماء التى يستنزل بها القطر ^(١) . شبه الاستغفار بالألواء الصادقة التى لا تخطئ . وعن الحسن : أن رجلاً شكأ إليه الجذب فقال . استغفر الله ؛ وشكأ إليه آخر الفقر ، وآخر قلة النسل ، وآخر قلة ريع أرضه ، فأمرهم كلهم بالاستغفار ، فقال له الربيع بن صبيح : أتاك رجال يشكون أبواباً ويسألون أنواعاً ، فأمرتهم كلهم بالاستغفار ! فتلا له هذه الآية . والسماء المظلة ؛ لأنّ المطر منها ينزل إلى السحاب ؛ ويجوز أن يراد السحاب أو المطر ، من قوله .

• إِذَا نَزَلَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ • ^(٢)

والمدرار : الكثير الدرور ، ومفعال مما يستوى فيه المذكر والمؤنث ، كقولهم : رجل أو امرأة معطار ومتفال (جنات) بساتين (لا ترجون لله وقاراً) لا تأملون له توقيراً أى تعظيماً . والمعنى ما لكم لا تكونون على حال تأملون فيها تعظيم الله إياكم فى دار الثواب ^(٣) ، و(لله) بيان للموقر ،

(١) أخرجه عبد الرزاق وابن أبي شيبة والطبرانى فى الدعاء والطبرى وغيرهم من رواية الشعبي : أن عمر ... بهذا وزاد : ثم قرأ (استغفروا ربكم إنه كان كفاراً) ورجاله ثقات ، إلا أنه منقطع .

(٢) إذا نزل السماء بأرض قوم رعياناً وإن كانوا غضاباً تطلق السماء على المظلة ، وعلى السحاب ، وعلى المطر كما هنا ؛ لما فيه من السمو والارتفاع ، وتطلق على النبات مجازاً ؛ لأن المطر سببه ؛ فذلك قال : رعياناً ؛ فى الكلام استخدام ، حيث أطلق السماء بمعنى ، وأعاد عليها الضمير بمعنى آخر ، والغضب : جمع غضبان والمعنى : أننا نجعلان دون غمنا .

(٣) قال محمود : « ما لكم لا تكونون على حال يكون فيها تعظيم الله تعالى ... الخ » قال أحد : وهذا التفسير يبقى الرجاء على باب الخ .

ولو تأخر لكان صلة للوقار. وقوله ﴿وقد خلقكم أطوارا﴾ في موضع الحال، كأنه قال: ما لكم لا تؤمنون بالله والحال هذه وهي حال موجبة للإيمان به، لأنه خلقكم أطوارا: أى تارات: خلقكم أولا ترابا، ثم خلقكم نطفة، ثم خلقكم علقا، ثم خلقكم مضغا، ثم خلقكم عظاما ولحما، ثم أنشأكم خلقا آخر. أو لا تخافون الله حلياً وترك معاملة العقاب فتؤمنوا؟ وقيل: ما لكم لا تخافون الله عظمة؟ وعن ابن عباس: لا تخافون الله عاقبة، لأن العاقبة حال استقرار الأمور وثبات الثواب والعقاب، من «وقر»، إذا ثبت واستقر. نههم على النظر في أنفسهم أولا؛ لأنها أقرب منظور فيه منهم، ثم على النظر في العالم وما سوى فيه من العجائب الشاهدة على الصانع الباهر قدرته وعليه من السموات والأرض والشمس والقمر ﴿فهن﴾ في السموات، وهو في السماء الدنيا؛ لأن بين السموات ملابسة من حيث أنها طباق^(١)، فجاز أن يقال: فهن كذا، وإن لم يكن في جميعهن، كما يقال: في المدينة كذا وهو في بعض نواحيها. وعن ابن عباس وابن عمر رضى الله عنهما: أن الشمس والقمر وجوههما مما يلي السماء وظهورهما مما يلي الأرض^(٢) ﴿وجعل الشمس سراجا﴾ يبصر أهل الدنيا في ضوئها كما يبصر أهل البيت في ضوء السراج ما يحتاجون إلى إبصاره، والقمر ليس كذلك، إنما هو نور لم يبلغ قوة ضياء الشمس. ومثله قوله تعالى (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا) والضياء: أقوى من النور. استعير الإنبات للإنشاء، كما يقال: زرعك الله للخير، وكانت هذه الاستعارة أدل على الحدوث^(٣)، لأنهم إذا كانوا نباتا كانوا محدثين لاحالة حدوث النبات: ومنه قيل للحشوية: الثابتة والنوابت، لحدوث مذهبهم في الإسلام من غير أولية لهم فيه^(٤). ومنه قولهم: نجم فلان لبعض المارقة. والمعنى: أثبتكم فنتيم نباتا. أو نصب بأنبتكم لتضمنه معنى نبتهم (ثم يعيدكم فيها) مقبورين ثم (يخرجكم) يوم القيامة، وأكده بالمصدر كأنه قال يخرجكم حقاً ولا محالة. جعلها بساطاً مبسوطة تنقلبون عليها كما يتقلب الرجل على بساطه (لجاجة) واسعة منفجة.

(١) قال محمود: «ولأنما هو في السماء الدنيا لأن بين السموات وبين السماء الدنيا مناسبة» قال أحد: ويلاحظ (يخرج منهما الأول والمزاج).

(٢) حديث ابن عباس موقوف، أخرجه ابن مردويه في يونس من رواية حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عنه بهذا. بلفظ «وأقبتهما إلى الأرض» وروى الحاكم منه ذكر القمر حسب. وحديث ابن عمر رضى الله عنهما مثله أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال: قال عبد الله بن عمر: فذكره موقوفاً. وروى الطبري من طريق هشام الدستوائى عن قتادة عن شهر بن حوشب عن عبد الله بن عمر. ﴿تنبه﴾ وقع في الأصل ابن عمر مصنف. ولأنما هو عمر ورضى الله عنهما.

(٣) قوله «أدل على الحدوث» لعله: أدل دليل على الحدوث. (ج)

(٤) قوله «من غير أولية لهم فيه» إن كان مراده بالحشوية أهل السنة، فأوليتهم في مذهبهم: المكتتاب والسنة. (ع)

قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾
وَمَكْرُوهًا مَكْرًا كَبِيرًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًا
وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَصْلَوْا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ
 الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾

(واتبعوا) رؤسهم المقدمين أصحاب الاموال والأولاد، وارتسموا ما رسموا لهم من التمسك بعبادة الاصنام، وجعل أموالهم وأولادهم التي لم تزد لهم إلا وجاهة ومنفعة في الدنيا زائدة (خساراً) في الآخرة، وأجرى ذلك مجرى صفة لازمة لهم وسمة يعرفون بها، تحقيقاً له وتثبيتاً، وإبطالا لما سواه. وقرئ: وولده بضم الواو وكسرهما (ومكروا) معطوف على لم يزد، وجمع الضمير وهو راجع إلى من؛ لأنه في معنى الجمع والمساكرون: هم الرؤساء. ومكروهم: احتياهم في الدين وكيدهم لنوح، وتحريش الناس على أذاه، وصدمهم عن الميل إليه والاستماع منه. وقولهم لهم: لا تذكروا آلهتكم إلى عبادة رب نوح (مكراً كبيراً) قرئ: بالتخفيف والتثقل. والكبار: أكبر من الكبير. والكبار: أكبر من الكبار، ونحوه: طوال وطوال (ولا تذكروا وداً) كأن هذه المسميات كانت أكبر أصنامهم وأعظمها عندهم، فخصوها بعد قولهم (لا تذكروا آلهتكم) وقد انتقلت هذه الاصنام عن قوم نوح إلى العرب، فكان وداً لكلب، وسواع لهمدان، ويغوث لمذحج، ويعوق لمراد، ونسر لحير؛ ولذلك سمى العرب بعبدة وداً وعبدة يغوث. وقيل هي أسماء رجال صالحين. وقيل: من أولاد آدم ماتوا، فقال إبليس لمن بعدهم: لو صورتم صورهم فكنتم تنظرون إليهم، ففعلوا؛ فلما مات أولئك قال لمن بعدهم: إنهم كانوا يعبدونهم، فعبدوهم. وقيل: كان وداً على صورة رجل، وسواع على صورة امرأة، ويغوث على صورة أسد، ويعوق على صورة فرس، ونسر على صورة نسر. وقرئ: وداً، بضم الواو. وقرأ الأعمش: ولا يغوثا ويعوقا، بالصرف، وهذه قراءة مشككة، لأنهما إن كانا عربيين أو عجميين ففيهما سبباً منع الصرف: إما التعريف ووزن الفعل، وإما التعريف والعجمة: ولعله قصد الأزواج فصرهما، لمصادفته أخواتهما منصرفات ودا وسواعا ونسرا، كما قرئ: وضحاها بالإمالة، لوقوعه مع الممالات للأزواج (وقد أصلوا) الضمير للرؤساء. ومعناه: وقد أصلوا (كثيراً) قبل هؤلاء الموصين بأن يتمسكوا بعبادة الاصنام ليسوا بأول من أصلوهم. أو وقد أصلوا بإضلالهم كثيراً، يعني أن هؤلاء المضلين فيهم كثرة. ويجوز أن يكون للأصنام، كقوله تعالى (إنهن أضللن كثيراً من الناس). فإن قلت: علام عطف قوله (ولا تزد

الظالمين)؟ قلت: على قوله (رب إنهم عصوني) على حكاية كلام نوح عليه السلام بعد (قال) وبعد الواو النائية عنه: ومعناه: قال رب إنهم عصوني، وقال: لا تزد الظالمين إلا ضللاً، أى: قال هذين القولين وهما في محل النصب، لأنهما مفعولا وقال، كقولك: قال زيد نودى للصلاة وصل في المسجد؛ تحكى قوله معطوفاً أحدهما على صاحبه. فإن قلت: كيف جاز أن يريد لهم الضلال ويدعو الله بزيادته؟ قلت: المراد بالضلال: أن يخذلوا^(١) ويمنعوا الألفاف^(٢)، لتصميمهم على الكفر ووقوع اليأس من إيمانهم، وذلك حسن جميل يجوز الدعاء به، بل لا يحسن الدعاء بخلافه. ويجوز أن يريد بالضلال: الضياع والهلاك، لقوله تعالى (ولا تزد الظالمين إلا تباراً).

مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ۝٢٥
وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْنِي
يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۝٢٧

تقديم (مما خطيئاتهم) لبيان أن لم يكن إغراقهم بالطوفان، فإدخالهم النار إلا من أجل خطيئتهم، وأكد هذا المعنى بزيادة «ما»، وفي قراءة ابن مسعود: من خطيئتهم ما أغرقوا، بتأخير الصلة، وكفى بها مزجرة لمرتكب الخطايا، فإن كفر قوم نوح كان واحدة من خطيئتهم، وإن كانت كبراً من. وقد نعت عليهم سائر خطيئاتهم كما نعى عليهم كفرهم، ولم يفرق بينه وبينهن في استيجاب العذاب، لئلا يتكل المسلم الخاطئ على إسلامه، ويعلم أن معه ما يستوجب به للعذاب وإن خلا من الخطيئة الكبرى. وقرئ: خطيئتهم بالهمزة. وخطيئتهم بقلها ياء وإدغامها. وخطاياهم. وخطيئتهم. بالتوحيد على إرادة الجنس. ويجوز أن يراد الكفر (فأدخلوا ناراً) جعل دخولهم النار في الآخرة كأنه متعقب لإغراقهم، لا قترابه، ولأنه كأن لا محالة، فسكانه قد كان. أو أريد عذاب القبر. ومن مات في ماء أو في نار أو أكلته السباع والطير: أصابه ما يصيب المقبور من العذاب. وعن الضحاك: كانوا يفرقون من جانب ويحرقون من جانب. وتنكير النار إما لتعظيمها، أو لأن الله أعد لهم على حسب خطيئتهم نوعاً من النار (فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً) تعريض باتخاذهم آلهة من دون الله وأنها غير قادرة

(١) قوله «يخذلوا» ويمنعوا مبنى على مذهب المعتزلة أنه تعالى لا يريد الشر ولا يفعله، وأجيب: بأنه إنما دعا عليهم بذلك بعد أن أعده الله تعالى أنهم لا يؤمنون، حيث قال له: إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن. وهذا على مذهب أهل السنة الذين أجازوا أنه تعالى يفعل للشر كلخلق الضلال في القلب: لأن فعله لا يخلو عن حكمة. (ع)

(٢) قال محمود: «كيف جاز أن يريد الضلال، وأجاب بأن المراد به منع الألفاف» قلت: هذا على قاعدته.

على نصرهم ، وتمكم بهم ، كأنه قال : فلم يجدوا لهم من دون الله آلهة ينصرونهم ويمنعونهم من عذاب الله ، كقوله تعالى (أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا) . (ديارا) من الأسماء المستعملة في النفي العام ، يقال : ما بالدار ديار وديور ، كقيام وقيوم ؛ وهو فيعال من الدور . أو من الدار ؛ أصله ديوار ، ففعل به ما فعل بأصل سيد وميت ، ولو كان فعلا لكان دواراً . فإن قلت : بم علم أن أولادهم يكفرون ، وكيف وصفهم بالكفر عند الولادة ؟ قلت : لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، فذاقهم وأكلهم وعرف طباعهم وأحوالهم ، وكان الرجل منهم ينطلق بابنه إليه ، ويقول : احذر هذا ، فإنه كذاب ، وإن أرى حذريه فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك ؛ وقد أخبره الله عز وجل أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ؛ ومعنى (لا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) لا يلدوا إلا بن سيفجر ويكفر ، فوصفهم بما يصيرون إليه ، كقوله عليه السلام : من قتل قتيلا فله سلبه .^(١)

رَبِّ أَغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا

تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا

(ولوالدي) أبوه ملك بن متوشلخ ، وأمه شمش بنت أنوش : كانا مؤمنين . وقيل : هما آدم وحواء . وقرأ الحسين بن علي : ولو لودي ، يريد : ساما وحاماً (يتيق) منزلي . وقيل : مسجدي . وقيل : سفيتي ؛ خص أولاً من يتصل به ؛ لأنهم أولى وأحق بدعائه ، ثم عم المؤمنين والمؤمنات (تباراً) ملاكاً . فإن قلت : ما فعل صبيانهم حين أغرقوا ؟ قلت : غرقوا معهم لأعلى وجه العقاب^(٢) ، ولكن كما يموتون بالأنواع من أسباب الموت ، وكم منهم من يموت بالغرق والحرق ، وكأن ذلك زيادة في عذاب الآباء والامتهات إذا أبصروا أطفالهم يغرقون .

(١) متفق عليه ، وقد تقدم .

(٢) قال محمود : « ما موجب إغراقهم حين أغرقوا ، وأجاب بأنهم ما غرقوا لأعلى وجه العقاب ... الخ » قال أحد : هذا السؤال مفسح عما في باطنه من وجوب تعليل أفعال الله تعالى ، وعليه يبنى أنه لا يجوز الألم من الله تعالى إلا باستحقاق سابق ، أو لأعراض مقربة ، أو لغیر ذلك من المصالح . بناء على القاعدة لم في الصلاح والأصلح والصيانة لأجاية سبقت منهم ولأعراض يترقب فيهم ، فبدر السؤال على ذلك . وأما أهل السنة فالتعالى قد تكفل الجواب عنهم بقوله (لا يستل عما يفعل) وهذا الكلام بالنظر إلى خصوص واقعة قوم نوح ، وينجز الكلام منها إلى حكم الله علينا في الدور إذا خيف من مقاتلتهم بالآلات على ذرارهم أن ذلك لا يوجب الاكفاف من مقاتلتهم بالآلات المهلكة لهم والمذرية ، ويستدل برى النبي صلى الله عليه وسلم على أهل الطائف بالمجانيق . وقيل له فيهم الذرية ، فقال : هم من آبائهم ، وأما رميهم بالفار وفيهم الذرية : فتنة مالك رحمه الله ، إلا أن يخاف غائتهم فيرمون بها إن لم يندفعوا بنهرها ، والله تعالى أعلم .

ومنه قوله عليه السلام : يهلكون مهلكاً واحداً ويصدرون مصادر شتى، ^(١) وعن الحسن : أنه سئل عن ذلك فقال : علم الله برأتهم فأهلكهم بغير عذاب . وقيل : أعظم الله أرحام نساءهم وأبىس أصلاب آبائهم قبل الطوفان بأربعين أو سبعين سنة ، فلم يكن معهم صبي حين أغرقوا . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرأ سورة نوح كان من المؤمنين الذين تدركهم دعوة نوح عليه السلام ، ^(٢) .

سورة الجن

مكية ، وآياتها ٢٨ [نزلت بعد الأعراف]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝
يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝
وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا
مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝
وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِينُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۝
وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝

قرئ : أحي ، وأصله وحي ؛ يقال : أوحى إليه ووحى إليه ، فقلبت الواو همزة ، كما يقال : أعد وأذن (وإذا الرسل أمتت) وهو من القلب المطلق جوازه في كل واو مضمومة : وقد أطلقه المازني في المكسورة أيضا كإشاح وإسادة ، وإعاء أخيه ، وقرأ ابن أبي عبلة : وحي على الأصل (أنه استمع) بالفتح ، لأنه فاعل أوحى . وإنا سمعنا : بالكسر : لأنه مبتدأ . محكي بعد القول ، ثم تحمل عليهما البواقي ، فإما كان من الوحي فتح ، وما كان من قول الجن كسر : وكلهن من فوهن إلا الثنتين الأخريين (وأن المساجد) ، (وأنه لما قام) ومن فتح كلهن فمطلقاً

(١) أخرجه مسلم من طريق ابن الزبير عن عائشة رضي الله عنها .

(٢) أخرجه الترمذي والواحدي وابن مردويه بإسنادهم إلى أبي بن كعب .

على محل الجار والمجرور في آملنا به ، كأنه قيل : صدقناه وصدقنا أنه تعالى جد ربنا ، وأنه كان يقول سفينا ، وكذلك البواق (نفر من الجن) جماعة منهم ما بين الثلاثة إلى العشرة . وقيل : كانوا من الشيصبان ، وهم أكثر الجن عدداً وعامة جنود إبليس منهم (فقالوا إنا سمعنا) أى : قالوا لقومهم حين رجعوا إليهم ، كقوله (فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً) ، (عجبا) بديعاً مبيناً لسائر الكتب في حسن نظمه وصحة معانيه ، قائمة فيه دلالات الإعجاز . وعجب مصدر يوضع موضع العجيب . وفيه مبالغة : وهو ما خرج عن حد أشكاله ونظائره (يهدي إلى الرشـد) يدعو إلى الصواب . وقيل : إلى التوحيد والإيمان . والضمير في (به) للقرآن ؛ ولما كان الإيمان به إيماناً بالله وبوحدانيته وبرأه من الشرك : قالوا (ولن نشرك بربنا أحداً) أى : ولن نعود إلى ما كنا عليه من الإشراف به في طاعة الشيطان . ويجوز أن يكون الضمير لله عز وجل ؛ لأن قوله (ربنا) يفسره (جـد ربنا) عظمته من قولك : جد فلان في عيني ، أى : عظم . وفي حديث عمر رضى الله عنه : كان الرجل منا إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فينا . وروى في أعيننا^(١) . أو ملكه وسلطانه . أو غناه ، استعارة من الجد الذى هو الدولة والبخت ؛ لأن الملوك والأغنياء هم المجدودون . والمعنى : وصفه بالتعالى عن الصاحبة والولد لعظمته . أو لسلطانه وملكوته . أو لغناه . وقوله (ما اتخذ صاحبة ولا ولداً) بيان لذلك . وقرئ : جدنا ربنا ، على التمييز . وجد ربنا ، بالكسر : أى صدق ربوبيته وحق إلهيته عن اتخاذ الصاحبة والولد ، وذلك أنهم لما سمعوا القرآن ووقفوا للتوحيد والإيمان : تنبهوا على الخطأ فيما اعتقدوه كفره الجن من تشبيه الله بخلقه واتخاذ صاحبة وولدا ، فاستعظموه ونزهوه عنه . سفينهم : إبليس لعنه الله أو غيره من مردة الجن . والشطط : مجاوزة الحد في الظلم وغيره . ومنه : أشط في السوم ، إذا أبعد فيه ، أى : يقول قولاً هو في نفسه شطط ؛ لفرط ما أشط فيه ، وهو نسبة الصاحبة والولد إلى الله ، وكان في ظننا أن أحداً من الثقلين لن يكذب على الله ولن يفترى عليه ما ليس بحق ، فكنا نصدقهم فيما أضافوا إليه من ذلك ، حتى تبين لنا بالقرآن كذبهم وافتراؤهم (كذباً) قولاً كذباً ، أى : مكذوباً فيه . أو نصب نصب المصدر لأن الكذب نوع من القول . ومن قرأ : أن لن تقول : وضع كذباً موضع تقول ، ولم يجعله صفة ؛ لأن القول لا يكون إلا كذباً .

وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۖ

وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَنْبَغْتَ اللَّهُ أَحَدًا ۖ

(١) لم أره عن عمر ، بل هو عن أنس ، كما مضى في البقرة .

والرهق : غشيان المحارم . والمعنى : أن الإنس باستعاذتهم بهم زادهم كبراً وكفراً ؛ وذلك أن الرجل من العرب كان إذا أسمى في وادٍ قفر في بعض مسائره وخاف على نفسه قال : أعود بسيد هذا الوادى من سفهاء قومه ، يريد الجن وكبيرهم ؛ فاذا سمعوا بذلك استكبروا وقالوا : سدنا الجن والإنس ؛ فذلك رهقهم . أو فزاد الجن الإنس رهقاً بإغوائهم وإضلالهم لاستعاذتهم بهم (وأنهم) وأن الإنس (ظنوا كما ظنتم) وهو من كلام الجن ، يقوله بعضهم لبعض . وقيل : الآيتان من جملة الوحى . والضمير فى (وأنهم ظنوا) للجن ، والخطاب فى (ظنتم) لكفار قريش .

وَأَنَا لَصَنَاءُ السَّمَاءِ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَةً فَخَفَّضْنَاهَا حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝ (٨) وَأَنَا كُنَّا

نَقَعُدُّ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلْمَسْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ۝ (٩)

اللس : المس ، فاستعير للطلب ؛ لأنَّ المسَّ طالب متعرِّف . قال :

مَسَّنَا مِنَ الْآبَاءِ شَيْئًا وَكُنَّا إِلَى نَسَبٍ فِي قَوْمِهِ غَيْرِ وَاضِعٍ (١)

يقال : لمسه والتمسه وكتلمسه وأطلبه وتطلبه ، ونحوه : الجس . وقولهم : جسوه بأعينهم وتجسسوه . والمعنى : طلبنا بلوغ السماء واستماع كلام أهلها . والحرس : اسم مفرد فى معنى الحراس ، كالخدم فى معنى الخدام ؛ ولذلك وصف بشديد ، ولو ذهب إلى معناه لقليل : شداداً ؛ ونحوه

* أَخْشَى رَجِيلاً أَوْ رُكْبَةً غَادِيًا * (٢)

لأنَّ الرجل والركب مفردان فى معنى الرجال والركاب . والرصد : مثل الحرس : اسم جمع

(١) مسنا من الآباء شيئا فكنا
فلما بلغنا الأمهات وجدتم
إلى نسب فى قومه غير واضح
بني حكم كانوا كرام المضاجع

لبيد بن الحاكم الكلابي . ومسنا : أى نلنا ، فلمس مجاز مرسل ، فكلمنا ينتمى إلى نسب فى قومه غير منخفض ويروى : إلى حسب ، فاستوتينا من جهة الآباء فى التفاخر ، فلما بلغنا فيه ذكر الأمهات وجدتم أقاربكم كرام المضاجع كناية عن الأزواج . أو غير باسم المحل عن الحال فيه ، وهن الأزواج مجازاً مرسلًا ، وكرم النساء مذموم ، لأنه كناية عن الخنا ، كما يكفى يخلون عن العفة ، فلنسنا سواء فى الأمهات .

(٢) أخشى رجلاً أو ركباً غادياً
والذئب أخشاه وكلبا عارياً

الرجيل : قصير رجل . والركب : صغير ركب . غادياً : أى سائراً فى الفداة على العماء . يقول : أخاف لهرى . وضعت الرجل الصغير والركب القليل . والذئب : نصب بضمير ، كالمذكور على الاشتغال . أى : وأخشى الذئب وكلبا عطف عليه . أو نصب بضمير ، أى : وأخشى كلبا عارياً . والجملة معطوفة على جملة « أخشى رجلاً » وقوله الكلب بكونه عارياً ، لئلا يتوهم كذبه فى دعواه .

للا رصد ، على معنى : ذوى شهاب راصدين بالرجم ، وهم الملائكة الذين يرجونهم بالشهب ، ويمتنعونهم من الاستماع . ويجوز أن يكون صفة للشهاب ، بمعنى الراصد أو كقوله :

• ... وَمَعْنَى جِياعًا • (١)

يعنى . يجد شهابا راصداً له ولاجله . فإن قلت : كأن الرجم لم يكن فى الجاهلية ، وقد قال الله تعالى (ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين) فذكر فائدتين (٢) فى خلق الكواكب : التزيين ، ورجم الشياطين ؟ قلت : قال بعضهم حدث بعد مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو إحدى آياته ، والصحيح أنه كان قبل المبعث ؛ وقد جاء ذكره فى شعر أهل الجاهلية . قال بشر بن أبى خازم :

وَالْعِيرُ يُرْهِقُهَا الْقَبَارُ وَجَحْشُهَا يَنْقُضُ خَلْفَهُمَا انْقِضَاضَ الْكَوْكَبِ (٣)

(١) قوله : «ومعنى جياعا» فى الصحاح المعنى واحد الامعاء والجياح جمع الجائع . وأول البيت :

كَانَتْ قَتودٌ رَحِلٌ حِينَ ضَمَّتْ حَوَالِبَ غَزْرًا وَمَعْنَى جِياعًا

والقَتود : جمع قَتَد ، وهو غصب الرجل . (ع)

(٢) قال محمود : «إن قلت كأن الرجم لم يكن فى الجاهلية . وقد قال تعالى (ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين) فذكر فائدتين الزينة والرجم ... الخ» قال أحد : ومن عقائدهم أن الرشد والضلال جميعا مرادان لله تعالى بقوله (وأنا لا ندرى أشر أريد بين فى الأرض أم أراد بهم رجيم رشدا) ولقد أحسنوا الأدب فى ذكر إرادة الشر محذوفة الفاعل ، والمراد بالمريد : هو الله عز وجل ، وإبرازهم لاسمه عند إرادة الخير والرشد ، لجمعوا بين العقيدة الصحيحة والأدب الملية .

(٣) والمعير يرمقها الحبار وجحشها ينقض خلفهما انقضااض الكوكب

نعلها سبط كانت ضبابه محبوب صادات دواجر تنضب

فتجاريا شأوا بطيشا مشه ميات شأوها وشأو التواب

لبشر بن أبى خازم . والمعير : الحبار ؛ يرمقها : يكلفها ، أى : الآتان . والحبار - بضم المهملة ، وقيل بفتحها - : الأثر من كل شيء ؛ وبالمعجمة : الأرض اللينة . وروى : الغيار ؛ والانقضااض : الاسراع ؛ والسبط : القبار الممتد ؛ والضباب : ندى يفضى الأرض بالغدوات . والصاد : الديك الذى ينكف للقراب فيثير غباره ، ويطلق على القدر من الخحاس ومن البرام ، وعلى داء فى الرأس يداوى بالكي بالنار . قيل : وعلى العلم ، وفسر به هنا . والدواجر : الفواشط ، من دجر إذا فطش سرورا ؛ أو المظلمات . واللبل الدجور والديجور : المظلم . وتنضب : اسم شجر دخانه أبيض ، وعلم على قرية قريبة من مكة . والشأو : الطلق ، يقال : شأى كسبى ، إذا سبق غيره . والتواب : الجعش إذا مضى عليه سنة واحدة ، يقول : إن حمار الوحش يكلف أتاؤه اقتفاله أثره عند الجرى ، وجحشها يسرع خلفها كاسراع شهاب الرجم ، فارتفع فوقهما عند من الغيار ، كأن ما أشبه الضباب منه غبار أثارته الديكة لأنها تحبه ، وكأنه مرتفع وحان ذلك الشجر أو مظله ؛ لأنه يحبب الضوء . وإن كان أبيض ؛ فدواجر خير بعد خير . ويجوز أنه على حذف العاطف ، فقد أجازوه السراق وابن عصفور وابن مالك ؛ ومنه ابن جنى والسهملى ، وخرجا ما يومه على بدل الاضراب ؛ ويجوز ذلك هنا أيضا ، فشبه أتيار بثلاثة أشياء ، ثم قال : فتجاريا شوعا طويلا =

وقال أوس بن حجر :

وَأَنْقَضُ كَالْدُرِّيَّ يَتَّبِعُهُ نَقْعٌ يُثَوِّرُ تَحَالَهُ طُنْبًا ^(١)

وقال عوف بن الحرع :

يَرُدُّ عَلَيْنَا الْعِيرَ مِنْ دُونِ إِلْفِهِ أَوْ الثَّوْرَ كَالْدُرِّيَّ يَتَّبِعُهُ الدَّمُّ ^(٢)

ولكن الشياطين كانت تسترق في بعض الاحوال ، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم : كثر الرجم وزاد زيادة ظاهرة ؛ حتى تنبه لها الإنس والجن ، ومنع الاستراق أصلاً . وعن معمر : قلت للزهري : أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية ؟ قال : نعم . قلت : أرايت قوله تعالى (وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ) فقال : غلظت وشدد أمرها حين بعث النبي صلى الله عليه وسلم . وروى الزهري عن علي بن الحسين عن ابن عباس رضى الله عنهما : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في نفر من الأنصار إذ رمى بنجم فاستنار ، فقال : ما كنتم تقولون في مثل هذا في الجاهلية ؟ فقالوا : كنا نقول : يموت عظيم أو يولد عظيم . ^(٣) وفي قوله (ملئت) دليل على أن الحادث هو الملء والكثرة ، وكذلك قوله (نقعد منها مقاعد) أى كنا نوجد فيها بعض المقاعد خالية من الحرس والشهب ، والآن ملئت المقاعد كلها ، وهذا ذكر ما حملهم على الضرب في البلاد حتى عثروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم واستمعوا قرأته .

== مثله : وإثبات البعد للثقل كناية عن إثباته للثأر . ويحتمل أن ضمير مثله للجحش ، فهو بالنصب . ثم قال : بعد ما بين شوطهما وشوطه كأنه تأخر . ويحتمل أن المعنى : بعد كل من الغوطتين وطال .

(١) لأوس بن حجر يصف فرساً بشدة العدو والسرعة ، كالسكوك الدرى نسبة للدر لصفاته ، أو مأخوذ من الدر . لدرته الظلام ، يتبعه : أى للفرس نقع ، أى غبار ينتشر تظنه طنباً بضمين ، وهو جبل الحيمة كما يتبع الدرى شعاعه ممتداً عند هويه ، فقد شبه النقع بالطلب تصرعها ، وبشعاع السكوك : ضمناً .

(٢) لعوف بن الحرع ، يصف فرساً بشدة العدو في الصيد ، وأنه يرد عليه الحمار الوحشى حال كونه . أى الحمار من دون إلفه أى يقربه أو يرده من دونه ، أى من قربه ، وإذا رده من جنب ألفه كان رده وهو وحده أهون عليه ؛ لأنه إذا كان مع إلفه كان أشد فراراً . ويجوز أن المعنى : حال كون الحمار بدون إلفه أى متفرداً لا إلف معه يوجب ارتباكاً . أو يرد علينا الثور الوحشى حال كونه ، أى الثور ، كالدرى . أو حال كون الفرس كالدرى ، أى : كالسكوك نسبة للدر لصفاء جوهره وإضاءته . أو من الدر ، أى : الدرع ؛ لأنه يدرؤ للظلام حال كون السكوك يتبعه عند سقوطه من السماء خط أحر من ضوئه يشبه الدم ، فالدم : استعارة مصرفة .

(٣) أخرجه مسلم من رواية الأوزاعي عن الزهري عن علي بن الحسين عن ابن عباس أخبرني رجال من الأنصار ، وقال « بينا هم جلوس - فذكره مطولاً » ورواه الترمذى من رواية معمر عن الزهري عن علي بن الحسين عن ابن عباس قال « بينا - فذكره » ولم يقل : أخبرني رجال .

وَأَنَا لَا تَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠

يقولون : لما حدث هذا الحادث من كثرة الرجم ومنع الاستراق، قلنا : ما هذا إلا لأمر أَراده الله بأهل الأرض ، ولا يخلو من أن يكون شرأ أو رشداً ، أى : خيراً ، من عذاب أو رحمة ، أو من خذلان أو توفيق .

وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ۝١١

(منا الصالحون) منا الأبرار المتقون (ومنادون ذلك) ومنا قوم دون ذلك ، لحذف الموصوف ، كقوله (وما منا إلا له مقام معلوم) وهم المقتصدون في الصلاح غير الكاملين فيه . أو أرادوا الطالحين (كننا طرائق قددا) بيان للقسم المذكورة ، أى : كنا ذوى مذاهب مفرقة مختلفة . أو كنا في اختلاف أحوالنا مثل الطرائق المختلفة . أو كنا في طرائق مختلفة ، كقوله :
* كَمَا عَسَلَ الطَّرِيقَ النُّعْلَبُ * (١)

أو كانت طرائقنا طرائق قددا على حذف المضاف الذى هو الطرائق وإقامة الضمير المضاف إليه مقامه ؛ والقدة من قد . كالمقطعة من قطع ، ووصفت الطرائق بالقد ، لدلالاتها على معنى التقطع والتفرق .

وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُنْجِزَهُ هَرَبًا ۝١٢

(في الأرض) و (هرباً) حالان ، أى : لن نعجزه كائنين في الأرض أينما كنا فيها ، ولن نعجزه هارين منها إلى السماء . وقيل : لن نعجزه في الأرض إن أراد بنا أمراً ، ولن نعجزه هرباً إن طلبنا . والظن بمعنى اليقين ؛ وهذه صفة أحوال الجن ومآم عليه من أحوالهم وعقائدهم : منهم أخيار ، وأشرار ، ومقتصدون ؛ وأنهم يعتقدون أن الله عز وجل عزيز غالب لا يفوته مطلب ولا ينجى عنه مهرب .

وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْمُدْيَةَ أَمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا

وَلَا رَهَقًا ۝١٣

(لما سمعنا المدي) هو سماعهم القرآن وإيمانهم به (فلا يخاف) فهو لا يخاف ، أى فهو غير خائف ؛ ولأن الكلام في تقدير مبتدأ وخبر دخلت الفاء ، ولولا ذلك لقليل : لا يخف . فإن

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة ٩٢ فراجع إن شئت اه مصححه .

قلت : أى فائدة : فى رفع الفعل وتقدير مبتدأ قبله حتى يقع خبراً له ووجوب إدخال الفاء ، وكان ذلك كله مستغنى عنه بأن يقال : لا يخف ؟ قلت : الفائدة فيه أنه إذا فعل ذلك ، فكانه قيل : فهو لا يخاف ، فكان دالاً على تحقيق أن المؤمن ناج لا محالة وأنه هو المختص بذلك دون غيره وقرأ الأعمش : فلا يخف ، على النهى (بخساً ولا رهقاً) أى جزاء بخس ولا رهق ، لأنه لم يخس أحد أحداً حقاً ولا رهق ظلم أحد ^(١) فلا يخاف جزاءهما . وفيه دلالة على أن من حق من آمن بالله أن يجنب المظالم . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : المؤمن من آمنه الناس على أنفسهم وأموالهم ^(٢) ، ويجوز أن يراد : فلا يخاف أن يخس بل يحزى الجزاء الأوفى ، ولا أن ترهقه ذلة ، من قوله عز وجل (وترهقهم ذلة) .

وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَ الْقَاسِطِينَ قَنُ أَسْلَمَ فَأَوْلَيْكَ تَعَرَّوْا رَشَدًا ^(١٤)
وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ^(١٥)

(القاسطون) الكافرون الجاثرون عن طريق الحق . وعن سعيد بن جبير رضى الله عنه : أن الحجاج قال له حين أراد قتله : ما تقول فى ؟ قال : قاسط عادل ، فقال القوم : ما أحسن ما قال ، حسبوا أنه يصفه بالقسط والعدل ؛ فقال الحجاج : يا جهلة ، إنه سمانى ظالماً مشركاً ، وتلاهم قوله تعالى (وأما القاسطون) وقوله تعالى (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) وقد زعم من لا يرى للجن ثواباً أن الله تعالى أوعدهم قاسطهم وما وعد مسلمهم ؛ وكفى به وعداً أن قال (فأولئك تحزوا رشداً) فذكر سبب الثواب وموجبه ، والله أعدل من أن يعاقب القاسط ولا يثيب الراشد .

وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا ^(١٦) لَنَفْتِنَنَّكُمْ فِيهِ
وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ^(١٧)

(وأن لو استقاموا) أن مخففة من الثقيلة ، وهو من جملة الموحى . والمعنى : وأوحى إلى أن الشأن والحديث لو استقام الجن على الطريقة المثلى ، أى : لو ثبت أبوم الجان على ما كان

(١) قوله «ولا رهق ظلم أحد» فى الصحاح : رهقه بالكسر برهقه رهقاً ، أى : غشيه . (ع)

(٢) أخرجه ابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديث فضالة بن عبيد بهذا . وأتم منه . وفى الباب عن أبي هريرة يلفظ «المؤمن من آمنه الناس على دماهم وأموالهم» وأخرجه الترمذى وابن حبان والحاكم . وعن أنس أخرجه ابن حبان والحاكم أيضاً . وعن أبي مالك الأشعرى ورواية بن الأسقع ، أخرجهما الطبرانى ، طويلاً . وأخرج حديث وائلة أبو يعلى . وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أخرجه عبد بن حيد .

عليه من عبادة الله والطاعة ولم يستكبر عن السجود لآدم ولم يكفر وتبعه ولده على الإسلام ،
 لأنعمنا عليهم ولوسعنا رزقهم . وذكر الماء الغدق وهو الكثير بفتح الدال وكسرها .
 وقرئ بهما ، لأنه أصل المعاش وسعة الرزق ﴿ لنفتهم فيه ﴾ لنختبرهم فيه كيف يشكرون
 ما خلقوا منه . ويجوز أن يكون معناه : وأن لو استقام الجن الذين استمعوا على طريقتهم التي
 كانوا عليها قبل الاسماع ولم ينتقلوا عنها إلى الإسلام لوسعنا عليهم الرزق مستدرجين لهم ،
 لنفتهم فيه : لتكون النعمة سببا في اتباعهم شهواتهم ، ووقوعهم في الفتنة ، وازديادهم إثما ؛ أو
 لنعذبهم في كفران النعمة ﴿ عن ذكر ربه ﴾ عن عبادته أو عن موعظته أو عن حبه ﴿ يسلكه ﴾
 وقرئ بالتون مضمومة ومفتوحة ، أى : ندخله ﴿ عذابا ﴾ والأصل : نسلكه في عذاب ،
 كقوله (ما سلككم في سقر) فعذى إلى مفعولين : إنا نحذف الجار وإيصال الفعل ، كقوله
 (واختار موسى قومه) وإنا بتضمينه معنى ، ندخله ، يقال : سلكه وأسلكه . قال :

• حَتَّى إِذَا أَسْلَكُوهُمْ فِي قَتَائِدَةٍ • (١)

والصعد : مصدر صعد ، يقال : صعد صعداً وصعوداً ، فوصف به العذاب ، لأنه يتصعد
 المذهب أى يعلوه ويغلبه فلا يطيقه . ومنه قول عمر رضى الله عنه : ما تصعدنى شيء ما تصعدتنى
 خطبة النكاح (١) ، يريد : ما شق على ولا غلبنى .

وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (١٨)

﴿ وأن المساجد ﴾ من جملة الموحى . وقيل معناه : ولأن المساجد ﴿ لله فلا تدعوا ﴾ على أن
 اللام متعلقة بلا تدعوا ، أى : فلا تدعوا ﴿ مع الله أحدا ﴾ في المساجد ، لأنها لله خاصة ولعبادته .
 وعن الحسن : يعنى الأرض كلها ؛ لأنها جعلت للنبي صلى الله عليه وسلم مسجداً . وقيل : المراد بها
 المسجد الحرام ، لأنه قبلة المساجد . ومنه قوله تعالى (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر
 فيها اسمه) وعن قتادة : كان اليهود والنصارى إذا دخلوا بيعهم وكنائسهم أشركوا بالله ، فأمرنا
 أن نخلص لله الدعوة إذا دخلنا المساجد . وقيل : المساجد أعضاء السجود السبعة . قال رسول
 الله صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أسجد على سبعة آراب : وهى الجهة ، والأنف ، واليدان ،

(١) قوله « إذا أسلكوهم في قتائدة » فى الصحاح : « قتائدة » اسم عقبة . قال عبد مناف بن ربيعة :

حتى إذا أسلكوهم في قتائدة شلا كما تطرد الجمالة الشرذا

والشلا : الطرد . والشرذ : جمع شارد ، كالخدم جمع خادم . (ع)

(٢) حدثني أبو عبيدة فى الغريب من رواية هشام بن عروة عن أبيه عن عمر بهذا ، وهو منقطع .

والركبتان ، والقدمان^(١) ، وقيل : هي جمع مسجد وهو السجود .

وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۝١٩

(عبد الله) النبي صلى الله عليه وسلم . فإن قلت : هلا قيل : رسول الله أو النبي ؟ قلت : لأن تقديره : وأوحى إلى أنه لما قام عبداً . فلما كان واقفاً في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نفسه : جئ . به على ما يقتضيه التواضع والتدلل . أو لأن المعنى أن عبادة عبد الله ليست بأمر مستبعد عن العقل ولا مستنكر ، حتى يكونوا عليه لبداً . ومعنى (قام يدعوه) قام يعبد ، يريد : قيامه لصلاة الفجر بنخلة حين أتاه الجن فاستمعوا لقراءته صلى الله عليه وسلم (كادوا يكونون عليه لبداً) أي يزدحون عليه متراكبين تعجباً مما رأوا من عبادته واقتداء أصحابه به قائماً وراكماً وساجداً ، وإعجاباً بما تلا من القرآن ، لأنهم رأوا ما لم يروا مثله ، وسمعوا بما لم يسمعوا بنظيره . وقيل معناه : لما قام رسولاً يعبد الله وحده مخالفاً للشركيين في عبادتهم الآلهة من دونه : كاد المشركون لتظاهروا عليه وتعاونهم على عداوته يزدحون عليه متراكبين (لبداً) جمع لبدة وهو ما تلبد بعضه على بعض ، ومنها لبدة الأسد ، وقرئ : لبدا واللبدة في معنى اللبدة ؛ ولبدا : جمع لابد ، كساجد وسجد . ولبدا بضمين : جمع لبود ، كصبور وصبر . وعن قتادة : تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطغثوه . فأبى الله إلا أن ينصره ويظهره على من ناواه . ومن قرأ : وإنه ، بالكسر : جعله من كلام الجن : قالوه لقومهم حين رجعوا إليهم حاكين ما رأوا من صلاته وازدحام أصحابه عليه في ائتمامهم به .

قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ۝٢٠ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝٢١ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ۝٢٢ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ قَبَّحَ اللَّهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۝٢٣ حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَقُولُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ۝٢٤ قُلْ إِنْ أُذِرِي أَقْرَبُ مَا تُوَعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ

(١) أخرجه البزار من حديث العباس بهذا اللفظ ، لكن قال «الوجه عوض الجبهة والأنف» ورواه الآريفة في السنن من حديثه بلفظ «إذا سجد العبد سجد معه سبعة أرباب : وجهه وكفاه وقدماه وركبتيه» وفي الصحيحين عن ابن عباس مرفوعاً «أمرت أن أجد على سبعة أعظم» وفي لفظ «أعضاء» وعند أبي داود «أمرت» وقال «أمر نبيكم صلى الله عليه وسلم أن يسجد على سبعة أرباب»

رَبِّي أَمَدًا ٢٥) عَالِمِ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ٢٧) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ٢٨)

(٢٥) قال (للتظاهرين عليه) (إنما ادعوا ربّي) يريد : ما أنيتكم بأمر منكم ، إنما أعبد ربّي وحده (ولا أشرك به أحدا) وليس ذلك مما يوجب إطباقكم على مقبي وعداوتي . أو قال للجن عند ازدحامهم متمجين : ليس ماترون من عبادتي الله ورفضى الإشراف به بأمر يتعجب منه ، إنما يتعجب من يدعو غير الله ويحصل له شريك . أو قال الجن لقومهم ذلك حكاية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (ولارشدنا) ولا نفعا . أو أراد بالضر : النقي ، ويدل عليه قراءة أنى (غيا ولارشدنا) والمعنى : لا أستطيع أن أضركم وأن أنفعكم ، إنما الضار والنافع الله (٢٦) . أو لا أستطيع أن أقسركم على النقي والرشد ، إنما القادر على ذلك الله عز وجل : (ولا إبلاغا) استثناء منه . أى لا أملك إلا إبلاغا من الله (٢٧) . (قل إني لن يحيرني) جملة معترضة اعترض بها لتأكيد نفي الاستطاعة عن نفسه وبيان عجزه ، على معنى أن الله إن أراد به سوا من مرض أو موت أو غيرهما : لم يصح أن يحيره منه أحد أو يحد من دونه ملاذا يأوى إليه : والملتجئ الملتجأ ، وأصله المدخل ، من اللحد . وقيل : محيصا ومعدلا . وقرئ : قال لا أملك ،

(١) قوله « قال للتظاهرين عليه » هذه قراءة غير عاصم وحرة ، كذا في النسخ ، وهو يفيد أن قراءتهما (قل) بصيغة الأمر ، كأنه سقط من كلام المصنف ذكر هذه القراءة فليحذر .

(٢) قال محمود : « معناه أى لا أستطيع أن أنفعكم أو أضركم إنما النافع والضار الله عز وجل ... الخ » قال أحد : في الآية دليل بين على أن الله تعالى هو الذى يملك لمبادء الرشد والنقي أى يخلفهما لا غير ، فإن النقي صلى الله عليه وسلم إنما سلب ذلك عن قدره ليحضر إضافته إلى قدرة الله وحده ، ونظن الزمخشري لذلك فأخذ يعمل الخيل ، فتارة يحمل الرشد على مطلق النفع ، فيضرب ذلك إلى الله تعالى ، وتارة يكسح عنه لأن فيه إبلاغا لخصوصية الرشد المخصوص عليه في الآية ، فيشور له من تقليده الرأى الفاسد ثوائر تصرفه عن الحق وعن اعتقاد أن الله تعالى هو الذى يخلق الرشد لمباده مقارنا لاختيارهم ، فيدخل زيادة القسر : لأن معنى ماورد من إضافة الرشد إلى قدرة الله تعالى عندهم أنه يخلق أن يخضع لها الرقاب ، فيخلق العبد لنفسه عند ظهورها رشدا . فيضاف إلى قدرة الله تعالى : لأنه خلق السبب وهو في الحقيقة مخلوق بقدرة العبد وهذه قاعدة القدرية وعقيدتهم : وماالجن بعد هذا إلا أوفر منهم عقلا وأسد منهم نظرا : لأنهم قالوا : وأنا لا ندرى أشر أريد من فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا ، فأضافوا الرشد نفسه إلى إرادة الله عز وجل وقدرته .

(٣) قال محمود : « هو اعترض . وقوله (إلا إبلاغا) استثناء من قوله (لا أملك) أى لا أملك لكم إلا إبلاغا . وقيل إبلاغا يدل من ملتحدا ... الخ » قال أحد : فيكون تعديرا للكلام : إبلاغا من الله مستفادا من قوله (قل إن أدرى أقرب ما نودون أم يجعل له ربى أمدا) .

أى قال عبد الله للمشركين أول الجن . ويجوز أن يكون من حكاية الجن لقومهم . وقيل (بلاغا) بدل من (ملتجدا) أى : لن أجد من دونه منجى إلا أن أبلغ عنه ما أرسلنى به . وقيل : (إلا) هى وإن لا ، ومعناه : أن لا أبلغ بلاغا ، كقولك : إن لا قياما فقعودا (ورسلاته) عطف على بلاغا ، كأنه قيل : لأملك لكم إلا التبليغ والرسالات . والمعنى : إلا أن أبلغ عن الله فأقول : قال الله كذا . ناسبا لقوله إليه ، وأن أبلغ رسالته التى أرسلنى بها من غير زيادة ولا نقصان . فإن قلت : ألا يقال : بلغ عنه . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام «بلغوا عنى بلغوا عنى» ؟ (١) قلت : من ليست بصلة للتبليغ ، إنما هى بمنزلة من فى قوله (برأه من الله) بمعنى بلاغا كائنا من الله . وقرئ : فأن له نار جهنم ، على : فجزاؤه أن له نار جهنم ، كقوله (فأن قد خمسة) أى : فحكمه أن لله خمسة . وقال (خالد بن) حملا على معنى الجمع فى من . فإن قلت : بم تعلق «حتى» ، وجعل ما بعده غاية له ؟ قلت : بقوله (يكونون عليه لبداء) على أنهم يتظاهرون عليه بالعداوة ، ويستضعفون أنصاره ويستقلون عددهم (حتى إذا رأوا ما يوعدون) من يوم بدر وإظهار الله له عليهم . أو من يوم القيامة (فسيعلمون) حينئذ أنهم (أضعف ناصرا وأقل عددا) ويجوز أن يتعلق بمحذوف دلت عليه الحال : من استضعاف الكفار له واستقلالهم لعدده ، كأنه قال : لا يزالون على ما هم عليه (حتى إذا رأوا ما يوعدون) قال المشركون : متى يكون هذا الموعد ؟ إنكارا له ، فقيل (قل) إنه كائن لا ريب فيه . فلا تشكروه ؛ فإن الله قد وعد ذلك وهو لا يخلف الميعاد . وأما وقته فأدرى متى يكون ؛ لأن الله لم يبينه لما رأى فى إخفاء وقته من المصلحة . فإن قلت : ما معنى قوله (أم يحمل له ربي أمدا) والأمد يكون قريبا وبعيدا ألا ترى إلى قوله (تود لو أن بيننا وبينه أمدا بعيدا) ؟ قلت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستقرب الموعد ، فكأنه قال : ما أدرى أهو حال متوقع فى كل ساعة أم مؤجل ضربت له غاية أى : هو (عالم الغيب فلا يظهر) فلا يطلع . و(من رسول) تبيين لمن ارتضى ، يعنى : أنه لا يطلع على الغيب إلا المرتضى الذى هو مصطفى للنبوّة خاصة ، لا كل مرتضى . وفى هذا إبطال للكرامات (٢) ؛ لأن الذين تضاف إليهم وإن كانوا أولياء مرتضين ، فليسوا برسل (٣) . وقد

(١) أخرجه البخارى من حديث عبد الله بن عمرو بن العاصى بلفظ «بلغوا عنى ولو آية ... الحديث» .

(٢) قوله «وفى هذا إبطال للكرامات» إبطالها مذهب المعتزلة ؛ وإثباتها مذهب أهل السنة ، وهو لا تنحصر

فى الاخبار بالغيب . (ع)

(٣) قال محمود : «إبطال للكرامات» ، لأنه حصر ذلك فى المرتضى من الرسل ، والولى وإن كانت من المرتضين ... الخ قال أحمد : ادعى عاما واستدل خاصا ، فإن دعواه إبطال الكرامات بجميع أنواعها ، والمطلوب عليه بالإية إبطال اطلاع الولى على الغيب خاصة ، ولا يكون كرامة وعاقر للمادة إلا الإطلاع على الغيب لا غير ، وما القدورية إلا وهم شبهة فى إبطالها ، وذلك أن الله عز وجل لا يتخذ منهم وليا أبدا وهم لم يحدثوا بذلك عن أشياعهم =

خصّ الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب وإبطال الكهانة والتنجيم ، لأن أصحابهما أبعد شيء من الارتضاء وأدخله في السخط ﴿ فإنه يسلك من بين يديه ﴾ يدى من ارتضى الرسالة ﴿ ومن خلفه رصدا ﴾ حفظه من الملائكة يحفظونه من الشياطين يطردونهم عنه ويعصمونه من وساوسهم وتخاليطهم ، حتى يبلغ مأوى به إليه . وعن الضحاك : ما بعث نبي إلا معه ملائكة يحرسونه من الشياطين أن يتشبهوا بصورة الملك ﴿ ليعلم ﴾ الله ﴿ أن قد أبلغوا رسالات ربهم ﴾ يعنى الأنبياء : وحد أولا على اللفظ في قوله ﴿ من بين يديه ومن خلفه ﴾ ثم جمع على المعنى ، كقوله ﴿ فإن له نار جهنم خالدين ﴾ والمعنى : ليبلغوا رسالات ربهم كما هم ، محروسة من الزيادة والنقصان ؛ وذكر العلم كذكره في قوله تعالى ﴿ حتى نعلم المجاهدين ﴾ وقرئ : ليعلم ، على البناء للفعول ﴿ وأحاط بما لديهم ﴾ بما عند الرسل من الحكم والشرائع ، لا يفوته منها شيء ولا ينسى منها حرفا ، فهو مهيم عليها حافظ لها ﴿ وأحصى كل شيء عددا ﴾ من القطر والرمل وورق الأشجار ، وزبد البحار ، فكيف لا يحيط بما عند الرسل من وحيه وكلامه . وعددا : حال ، أى : وضبط كل شيء معدودا محصورا . أو مصدر فى معنى إحصاء .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة الجن كان له بعدد كل جنى صدق محمداً صلى الله عليه وسلم وكذب به عتق رقبة » ^(١) .

== فط ، فلا جرم أنهم يستمرون على الإنكار ولا يعلمون أن شرط الكرامة الولاية ، وهى مسلوقة عنهم اتفاقا . وأما سلب الإيمان فمئة خلاف . فسا أطمع من يكون إيمانه مسئلة خلاف وهو يريد الكرامة لأنه لم يؤتها ، وانه الموفق .

(١) أخرجه التعلبي والواحدى وابن مردويه بإسنادهم إلى أبى بن كعب .

سورة المزمل

مكية [إلا الآيات ١٠ و ١١ و ٢٠ فمدنية]

وآياتها ١٩ وقيل ٢٠ [نزلت بعد القلم]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْأَلُهَا الْمُزْمِّلُ ① قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ② نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ

قَلِيلًا ③ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ أَنْ تَزِيلًا ④

(المزمل) المزمل ، وهو الذى تزمل فى ثيابه : أى تلفف بها ، بإدغام التاء فى الزاى : ونحوه : المذثر فى المذثر . وقرئ : المزمل على الأصل : والمزمل بتخفيف الزاى وفتح الميم وكسرهما . على أنه اسم فاعل أو مفعول ، من زمله ، وهو الذى زمله غيره أو زمل نفسه : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم نائماً بالليل متزماً فى قطيفة ، فنبه ونودى بما يهجن إليه ^(١) الحالة التى كان عليها من التزمل فى قطيفته واستعداده للاستئصال فى النوم ، كما يفعل من لا يهيمه أمر ولا يعنيه شأن . ألا ترى إلى قول ذى الرمة :

وَكَأَنَّ قَطَطًا نَاقَتِي مِنْ مَقَارِةٍ وَمِنْ نَائِمٍ عَنْ كَلِيلِهَا مُتَزَمِّلٍ ②

(١) قال محمود : وهو المتلفف فى ثيابه كالمدثر ونودى بما يهجن إليه ... الخ . قال أحمد : أما قوله الأول أن نداه بذلك تهجين للحالة التى ذكر أنه كان عليها واستشهاده بالآيات المذكورة . خطأ وسوء أدب . ومن اعتبر عادة خطاب الله تعالى له فى الأكرام والاحترام : علم بطلان ما تخيله الزمخشري : فقد قال العلماء : أنه لم يخاطب باسمه نداه ، وأن ذلك من خصائصه دون سائر الرسل إكراماً له وتشريفاً ، فإن نداه بصيغة مهجنة من ندائه ، باسمه ، واستشهاده على ذلك بآيات قبلت دماً فى جفأة حفاة من الرعاء ، ما أبا أبرا إلى الله من ذلك وأربأ به صلى الله عليه وسلم ، ولقد ذكرت بقوله : . أوردتها سعد وسعد مشتمل . ما وقعت عليه من كلام ابن خروف التحوى يرد على الزمخشري ويخطئ . رأيته فى تصنيفه المفضل ، وإججانه فى الاختصار بمساقى كلام سيبويه ، حتى سماه ابن خروف : البرناج . وأشد عليه :

أوردتها سعد وسعد مشتمل ما هكذا نورد ياسعد الأبل

وأما ما نقله أن ذلك كان فى مرط عائشة رضى الله عنها فبعيد ، فإن السورة مكية ، وبى النبي صلى الله عليه وسلم على عائشة رضى الله عنها بالمدينة . والصحيح فى الآية ما ذكره آخراً : لأن ذلك كان فى بيت خديجة عند ماله جبريل أول مرة ، فبذلك وردت الأحاديث الصحيحة ، والله أعلم .

(٢) لذى الرمة . وكان : بمعنى كالحيرية ، والأكثر استعمالها مع «من» تقول : وكان من كذا . والمزمل ==

يريد : التكسلان المتقاعس الذي لا ينهض في معاطم الأمور وكفايات الخطوب ، ولا يحمل نفسه المشاق والمتاعب ، ونحوه :

فَأَمَّتْ بِهِ حُوشَ الْفُؤَادِ مَبِطَّنًا - سُهْدًا إِذَا مَا نَامَ لَيْلُ الْهَوَجِلِ ^(١)
وفي أمثاله :

أَوْرَدَهَا سَعْدٌ وَسَعْدٌ مُشْتَمِلٌ مَا هَكَذَا تَوْرَدُ يَأْسَعُدُ الْإِبِلُ ^(٢)

== المتلف في ثيابه عند كثرة النوم ، يقول : كثيراً من المفارز تحطنه نائقي وسارته ، وكثيراً من نائم وغافل عن ليلها - أى : المفازة أو الناقة - متكسل - عما فيه من عظام الأمور ، فالمزمل كناية عن ذلك .

(٤) ولقد سريت على الظلام بمنشم
عن حملن به ومن عراقة
جهد من الفتيان غير مثقل
حبك النطاق فشب غير مهبل
ومبرأ من كل غير حبضة
وفساد مرضعة وداء مفيل
حلت به في ليلة مزودة
كرها وعقد نطاقها لم يحلل
فأمت به حوش الفؤاد مبطناً
سهداً إذا ما نام ليل الهوجل

لأن كبير الهذل يصف فأبط شراً ، واسمه : جابر بن ثابت ، تزوج الهذل بأمه بعد جابر بخلاف منه ، فأغترته على قتله فخرج به متحيراً لذلك فلم يقدر ، فدحه بالشجاعة والفظنة : يقول : سرت لبلا في الظلة بمنشم ، أى مع قتي يقدم على الأمر بلا مبالاة ولا تدبير ولا خوف عاقبة ، مع جرأة ، جلد ، أى : صلب صبور غير مثقل ، أى : خفيف في السير مفزع عن كل ما يوجب الضعف والتباطؤ ، وبينه بقوله : عن حملن - أى : هو عن حملن ، أى جنس النسوة به ؛ وأمر بعض الفتيان الذين حملت بهم النسوة ، وأورد ضمير « به » مراعاة لفظ « من » وضم العمل معنى العلوق ، فمداه بالباء ؛ وإلا فهو يتعدى بنفسه . والحبك : جمع حباك ككرام . أو جمع حبيك أو حبيكة ؛ وهو الخيوط التي يحبك بها النطاق . والمهبل : المدعو عليه بالهبل ، أى : الشكل والفقد . والفيل - بالضم - فالتشديد - : بقية الخيض وغيره ، وكذلك الفيل - بالضم - وبالفتح مع السكون . والفيل : الباقي والذاهب . ويجوز أن غير : جمع غار ، وغير يفير غيوراً - كدخل - : بقي وذهب ، أى : لم تحمل به أمه في زمن بقية الخيض . ومرضع : من الصفات المختصة بالأموات ؛ والغالب تجهيزها من قتله ؛ فها هنا على خلاف الغالب . والفتية : إجمال الرجل امرأته وهي ترضع ولدها : فيمرض ، فالمفيل : الممرض بالفتية . وفي حديث مسلم : أقدمت أن أنهي عن الفتية حتى ذكرت أن الروم وفارس يصنعون ذلك فلا يضر أولادهم ، وكان القياس في مفيل إعلاؤه كقيم ومبين ومعين ، لكن جاء على الأصل شذوذاً للضرورة . وروى معضل ، أى معي ومعجز للأطباء . وزأده - كذعره : إذا خوفه ، فهو مزورده ومزهور فالمرزودة : الخوفة ، وتخويف اللية مجاز عقل : كسربت الكوز . والخوف في الحقيقة البراءة . وروى بالنصب على الحال ، لكن يصح ذكر ليلة ، إلا أن يقدر وصفها بمظلة . والنطاق : ما يشد به الوسط . وحوش الفؤاد بالضم وحش القلب لحدة وتوقده وفقره عن الناس . والرجل الحوش والحوشى : الذى يجانب الناس مبطناً يخفى البطن منضمرة : سهداً - بضمين - : كثير السهاد أى السهر . وإسناد النوم إلى الليل مجاز عقل ؛ وإنما التائم الهوجل : وهو الرجل الطويل الأحق . ومن تجربة العرب : أن المرأة إذا حملت بولدها كارهة غير مستعدة للوطء : جاء ولدها نجيباً . حكى عن أم تأبط شراً أنها قالت فيه : والله إنه الشيطان ، مارأته ضاحكاً قط ، ولأم بشىء في صباه إلا قله ، ولقد حملت به في ليلة ظلام ، وإن نطاقاً لمشدود ؛ وذلك يدل على نجابته وشجاعته .

(٢) مالك بن زيد مثلاً يخاطب أخاه ، وكان قد نبى على امرأته فلم يحسن - بعد القيام بأمر الابل ، فقال : أوردتها ==

فقدمه بالاشتغال بكسائه، وجعل ذلك خلاف الجلد والكبس، وأمر بأن يختار على الهجود التهجّد، وعلى التزمل التشمّر، والتخفف للعبادة والمجاهدة في الله، لاجرم أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تشمّر لذلك مع أصحابه حق التشمّر، وأقبلوا على إحياء ليالهم، ورفضوا له الرقاد والدعة، وتجاهدوا فيه حتى انتفخت أقدامهم واصفرت ألوانهم، وظهرت السيمى في وجوههم وترامى أمرهم إلى حد رحيم له ربهم . تخفف عنهم . وقيل : كان مترملا في مرط لعائشة ^(١) يصلى ، فهو على هذا ليس بتهجين ، بل هو ثناء عليه وتحسين لحاله التى كان عليها ، وأمر بأن يدوم على ذلك ويواظب عليه . وعن عائشة رضى الله عنها : أنها سئلت ما كان ترميله؟ قالت : كان مرطاً طول له أربع عشرة ذراعاً نصفه على وأنا نائمة ونصفه عليه وهو يصلى ، فسئلت : ما كان ؟ قالت : والله ما كان خزا ولا قزا ولا مرعى ^(٢) ولا إريسا ولا صوفاً : كان سداً شعراً ولحمته وبراً ^(٣) . وقيل : دخل على خديجة ، وقد جثت فرقا ^(٤) أول ما أتاه جبريل وبوادره ترعد ، فقال : زملونى زملونى ، وحسب أنه عرض له ؛ فبينما هو على ذلك إذ ناداه جبريل : يا أيها المزمل ^(٥) . وعن عكرمة : أنّ المعنى : يا أيها الذى زمل أمراً عظيماً ، أى : حمله . والزمل : الحمل . وازدمله : أحتمله . وقرئ : قم الليل بضم الميم وفتحها . قال عثمان بن جنى : الغرض بهذه الحركة التبليغ بها هرباً من التقاء الساكنين ، فبأى الحركات تحرك فقد وقع الغرض (نصفه) بدل من الليل . وإلا قليلاً : استثناء من النصف ، كأنه قال : قم أقل من نصف الليل . والضمير فى منه وعليه للنصف ، والمعنى : التخيير بين أمرين ؛ بين أن يقوم أقل من نصف الليل على البت ، وبين أن يختار أحد الأمرين وهما النقصان من النصف والزيادة عليه . وإن شئت جعلت

== سعد إلى الماء والحال أنه مفتعل مظف بثيابه لامتشمّر . وذكر الظاهر مكان المضمّر : فيه نوع من التوبيخ .
 ماهكذا تورّد ، أى : تساق إلى الماء ، وكان مريضاً عنه فالتفت إليه وتداوّه نداء البعيد : دلالة على أنه بعيد .
 وحق ماء التنبيه : الدخول على اسم الإشارة ، لكن قدمت على كاف التشبيه مبادرة واهتماماً بالتنبيه . ويروى بدل القمطر الثانى : يأسد ماتروى بهذا كالأبل . وهذا اسم إشارة ، وصار هذا البيت يضرب مثلاً لكل من لم يحسن القيام بشأن ماتولاه .

(١) قوله «وقيل كان مترملا في مرط لعائشة» كيف والسورة مكية . (ع)

(٢) قوله «ولا مرعى» المرعى الزغب الذى تحت شعر العزاه صحاح . (ع)

(٣) لم أره هكذا ومن قوله «ما كان خزا» رواه البيهقي فى الدعوات من حديثها فى ليلة النصف من شعبان وأنزل لى صلى الله عليه وسلم من مرطى . ثم قالت : والله ما كان مرطى من حرير ولا قز . ولا كتان ولا كرسف ولا صوف . قلنا : من أى شئ كان ؟ قالت : إن كان سداً لمن شعر وإن كانت لحته لمن وبره .

(٤) «قوله وقد جثت فرقا» أى أفزع ، فهو مجزوث : أى مذعور ، كذا فى الصحاح . وفيه البوادر من

الانسان وغيره : الامة التى بين المنكب والعنق . (ع)

(٥) لم أره هكذا . وأصله فى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها .

نصفه بدلا من قليلا ، وكان تخيرا بين ثلاث : بين قيام النصف بتمامه ، وبين قيام الناقص منه وبين قيام الزائد عليه ؛ وإنما وصف النصف بالقلة بالنسبة إلى الكل ، وإن شئت قلت : لما كان معنى (قم الليل إلا قليلا نصفه) إذا أبدلت النصف من الليل ، قم أقل من نصف الليل ، رجع الضمير في منه وعليه إلى الأقل من النصف ، فكأنه قيل : قم أقل من نصف الليل . أو : قم أنقص من ذلك الأقل أو أزيد منه قليلا ، فيكون التخير فيما وراء النصف بينه وبين الثلث . ويجوز إذا أبدلت نصفه من قليلا وفسرته به أن تجعل قليلا الثاني بمعنى نصف النصف : وهو الربع ، كأنه قيل . أو أنقص منه قليلا نصفه . وتعمل المزيد على هذا القليل ، أعنى الربع ، نصف الربع كأنه قيل : أوزد عليه قليلا نصفه . ويجوز أن تجعل الزيادة لكونها مطلقة تتمم الثلث ، فيكون تخيرا بين النصف والثلث والربع . فإن قلت : أكان القيام فرضا أم نفلا ؟ قلت : عن عائشة رضى الله عنها أن الله جعله تطوعا بعد أن كان فريضة . وقيل : كان فرضا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ، ثم نسخ بهن إلا ما تطوعوا به . وعن الحسن : كان قيام تلك الليل فريضة ، وكانوا على ذلك سنة . وقيل : كان واجبا ، وإنما وقع التخير في المقدار ، ثم نسخ بعد عشر سنين . وعن الكلبي : كان يقوم الرجل حتى يصبح مخافة أن لا يحفظ ما بين النصف والثلث والثلثين ؛ ومنهم من قال : كان نفلا بدليل التخير في المقدار ، ولقوله تعالى (ومن الليل فتهجد به نافلة لك) . ترتيل القرآن : قراءته على ترسل وتؤدة بتبيين الحروف وإشباع الحركات ، حتى يحجى المتلوة منه شيئا بالثر المرتل : وهو المفجع المشبه بنور الإخوان ، وألا يهذه هذا ولا يسرده سردا ^(١) ، كما قال عمر رضى الله عنه : شر السير الحقيقة . وشر القراءة الهزيمة ، حتى يشبه المتلو في تنابعه الثغر الأص ^(٢) . وسئلت عائشة رضى الله عنها عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : لا كسر دكم هذا ، لو أراد السامع أن يعد حروفه لعددها . و (ترتيلا) تأكيد في إيجاب الأمر به ، وأنه مالا بد منه للقارئ .

إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝

هذه الآية اعتراض ، ويعنى بالقول الثقيل : القرآن وما فيه من الأوامر والنواهي التي هي

(١) قوله « وأن لا يهذه هذا ولا يسرده » الهذ : الاسراع . والسرد : التتابع . والحقيقة : شدة السير . والاص : متقارب الأسنان . أفاده الصحاح . وفيه الهزيمة ، سرعة القراءة . (ج)
(٢) لم أره عنه من رواية منصور ، وإنما قال أبو عبيد بن قتيبة في الغريب قال عمر « شر القراءة الهزيمة » وأخرجه الخطيب في الجامع من رواية منصور بن جعفر قال : قرأت على أبي محمد بن ذرستويه . قال : قرأنا على ابن قتيبة بهذا وروى ابن المبارك في الزهد من رواية الحسن قال كان يقال : شر السير الجمجمة ، ورواه ابن عدى مرفوعا من رواية الحسن بن دينار عن الحسن بن أبي هريرة . والحسن بن دينار ضعيف .

تكاليف شاقة ثقيلة على المكلفين ، خاصة على رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه متحملها بنفسه ومحملها أمته ؛ فهي أثقل عليه وأهمل له ؛ وأراد بهذا الاعتراض : أن ما كلفه من قيام الليل من جملة الشكايف الثقيلة الصعبة التي ورد بها القرآن ، لأن الليل وقت السبات والراحة والهدوء فلا بد لمن أحياءه من مضادة لطبعه ومجاهدة لنفسه . وعن ابن عباس رضى الله عنه : كان إذا نزل عليه الوحي ثقل عليه^(١) وتردد له^(٢) جلده . وعن عائشة رضى الله عنها : رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليرفض عرقا^(٣) . وعن الحسن : ثقیل في الميزان . وقيل : ثقیل على المنافقين . وقيل : كلام له وزن ورجحان ليس بالسفساف .

إِنْ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيَلًا ۖ

(ناشئة الليل) النفس الناشئة بالليل ، التي تنشأ من مضجعها إلى العبادة^(٤) ، أى : تنهض وترتفع ، من نشأت السجادة : إذا ارتفعت . ونشأ من مكانه ونشز : إذا نهض ، قال :

نَشَأْنَا إِلَىٰ خُوصٍ بَرَىٰ نَهْمًا شَرَىٰ وَأُلْصَقَ مِنْهَا مُشْرِفَاتٍ الْفَاحِشِ^(٥)

وقيام الليل ، على أن الناشئة مصدر من نشأ إذا قام ونهض ، على فاعلة : كالعاقبة . ويدل عليه ما روى عن عبيد بن عمير : قلت لعائشة : رجل قام من أول الليل ، أتقولين له قام ناشئة ؟ قالت لا ؛ إنما الناشئة القيام بعد النوم . ففسرت الناشئة بالقيام عن المضجع أو العبادة التي تنشأ بالليل ، أى : تحدث ، وترتفع . وقيل : هي ساعات الليل كلها ؛ لأنها تحدث واحدة بعد أخرى . وقيل : الساعات الأولى منه . وعن علي بن الحسين رضى الله عنهما أنه كان يصلى بين المغرب والعشاء ويقول : أما سمعتم قول الله تعالى (إِنْ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ) هذه ناشئة الليل (هي أشد وطأ) هي خاصة دون ناشئة النهار ، أشد مواطأة يواطئ قلبها لسانها : إن أردت النفس . أو يواطئ فيها قلب

(١) أخرجه أحد من حديث ابن عباس في قصة ابن أمية . قال «وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحي هرفوا ذلك في تردد جلده» وأبو نعيم في الدلائل «كان إذا نزل عليه الوحي ترد له وجهه وجسده» وفي الباب حديث عبادة بن الصامت «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحي كُرب لذلك وتردد وجهه» .

(٢) قوله «وتردد» أى تعبس . (ع)

(٣) متفق عليه من حديث عائشة .

(٤) قال محمود : «وقيل الناشئة النفس القائمة بالليل التي تنشأ عن مضجعها ... الخ» قال أحد : فإن حملت الناشئة على النفس فإضافة المواطأة إليها حقيقة ، وإن حملتها على الساعات أو المصدر فهو من الاتساع المجازي

(٥) نشأنا : نهضنا . والخصوص - جمع خواص : الناقة المرتفعة الأعلى ، الضخمة الأسفل . والى : الشحم . والسرى : سير الليل . والفاحد : جمع قحذوة : وهي أعلى عظم الرأس . يقول : نهضنا إلى نوق عظيمة أذاب فحمها سير الليل ، وألصق عظام رأسها بعضها ببعض ، كناية عن تمرنها على السير واعتيادها له .

القائم لسانه : إن أردت القيام أو العبادة أو الساعات . أو أشد موافقة لما يراد من الخشوع والإخلاص . وعن الحسن : أشد موافقة بين السر والعلانية ، لا تقطاع رؤية الخلائق . وقرئ : أشد وطأً بالفتح والكسر . والمعنى : أشد ثبات قدم وأبعد من الزلل . أو أثقل وأغلظ على المصلي من صلاة النهار ، من قوله عليه السلام : اللهم اشدد وطأتك على مضر ، ^(١) (وأقوم قبلاً) وأسد مقالاً وأثبت قراءة لهدو الأصوات . وعن أنس رضي الله عنه أنه قرأ : وأصوب قبلاً ، فقيل له : يا أبا حمزة ، إنما هي : وأقوم ؛ فقال : إن أقوم وأصوب وأهياً واحداً . وروى أبو زيد الأنصاري عن أبي سرار الغنوي أنه كان يقرأ : فحاسوا ، بحاء غير معجمة ، فقيل له : إنما هو (جاسوا) بالجيم ، فقال : وجاسوا وحاسوا واحد .

إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْعًا طَوِيلًا ۝٧

(سبحا) تصرفا وتقلبا في مهماتك وشواغلك ، ولا تفرغ إلا بالليل ؛ فعليك بمناجاة الله التي تقتضي فراغ البال وانتفاء الشواغل . وأما القراءة بالخاء . فاستعارة من سبىخ الصوف : وهو نفشه ونشر أجزائه ؛ لا انتشار الهم وتفريق القلب بالشواغل : كلفه قيام الليل ، ثم ذكر الحكمة فيما كلفه منه : وهو أن الليل أعون على المواظبة وأشد للقرأة ، لهدو الرجل وخفوت الصوت : وأنه أجمع للقلب وأضم لنشر الهم من النهار ؛ لأنه وقت تفرق الهموم وتوزع الخواطر والتقلب في حوائج المعاش والمعاد . وقيل : فراغا وسعة لنومك وتصرفك في حوائجك . وقيل : إن فائدتك من الليل شيء . فلك في النهار فراغ تقدر على تداركه فيه .

وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَقَبَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَلَا تُهِنِّمْ

هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠

(واذكر اسم ربك) ودم على ذكره في ليلك ونهارك ، واحرص عليه . وذكر الله يتناول كل ما كان من ذكر طيب : تسبيح ، وتهليل ، وتسكير ، وتمجيد ، وتوحيد ، وصلاة ، وتلاوة قرآن ، ودراسة علم ، وغير ذلك مما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغرق به ساعة ليله ونهاره (وتبتل إليه) وانقطع إليه . فإن قلت : كيف قيل (تبتلا) مكان تبتلا ؟ قلت : لأن معنى تبتل بتل نفسه ، فجئ به على معناه مراعاة لحق الفواصل (رب المشرق والمغرب) قرئ مرفوعاً على المدح ، ومجروراً على البدل من ربك . وعن ابن عباس : على القسم بإضمار حرف

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة ، وقد تقدم في الأنبياء .

القسم ، كقولك : الله لأفعلن ، وجوابه (لا إله إلا هو) كما تقول : والله لأأحد في الدار إلا زيد . وقرأ ابن عباس : رب المشارق والمغارب (فاتخذوه كيلاً) مسبب على التهيئة ؛ لأنه هو وحده هو الذي ^(١) يجب لتوحده بالربوبية أن توكل إليه الأمور . وقيل (وكيلاً) : كفيلاً بما وعدك من النصر والإظهار . الهجر الجميل : أن يجانبهم بقلبه وهواه ، ويخالقهم مع حسن المخالقة والمداواة والإغضاء وترك المكافأة . وعن أبي الدرداء رضي الله عنه : إنا لنكشر في وجوه قوم ونضحك إليهم ، وإن قلوبنا لتقلهم ^(٢) . وقيل : هو منسوخ بآية السيف .

وَدَّرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهْلُكُمْ قَلِيلًا ^(١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ^(١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ^(١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا ^(١٤)

إذا عرف الرجل من صاحبه أنه مستهم بخطب يريد أن يكفاه ، أو بعدو يشتبه أن ينتقم له منه وهو مضطلع بذلك مقتدر عليه قال : ذرني وإياه . أي : لا تحتاج إلى الظفر ^(٣) برادك ومشتاك ، إلا أن تحلى بيني وبينه بأن تكل أمره إلى وتستكفينيه . فإن في ما يفرغ بالك ويجلي همك ، وليس ثم منع حتى يطلب إليه أن يذره وإياه إلا ترك الاستكفاء والتفويض ، كأنه إذا لم يكل أمره إليه ، فكأنه منعه منه ؛ فإذا وكله إليه فقد أزال المنع وتركه وإياه ، وفيه دليل على الوثوق بأنه يتمكن من الوفاء بأقصى ما تدور حوله أمنية المخاطب وبما يزيد عليه . النعمة - بالفتح - التمتع ، وبالسكسر : الإلغام ، وبالضم : المسرة ؛ يقال : نعم ، ونعمة عين ، وهم صناديد قرش ، وكانوا أهل تنعم وترفه (إن لدينا) ما يضاد تنعمهم من أنكال : وهي القيود الثقالة : عن الشعبي ، إذا ارتفعوا استقلت بهم . الواحد : نكل ونكل . ومن جحيم : وهي النار الشديدة الحر والانتقاد . ومن طعام ذي غصة وهو الذي ينشب في الخلق فلا يساغ يعني الضريع وشجر الرقوم . ومن عذاب أليم من سائر العذاب فلا ترى موكولا إليه أمرهم موزورا بينه وبينهم ينتقم منهم بمثل ذلك الانتقام . وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية فصعق ^(٤) . وعن

(١) قوله « هو الذي » لعله « الذي » بدون : هو . (ع)

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه تعليقا في الأدب : ويذكر عن أبي الدرداء . ووصله البيهقي في الشعب في السادس والخمسين من طريق أبي الأحوص يعني ولد أحوص بن حكيم عن أبي الزهراء قال قال أبو الدرداء . ورواه أبو نعيم في الحلية في ترجمة أبي الدرداء من طريق سفیان عن خلف بن حوشب قال قال أبو الدرداء . مثل رواية البيهقي .

(٣) قوله « لا تحتاج إلى الظفر » لعله : في الظفر . (ع)

(٤) أخرجه أحمد في الزهد والطبري من طريق وكيع عن حمزة الزيات عن حمران بن أعين « وأن النبي صلى الله عليه وسلم »

الحسن : أنه أمسى صائماً ، فأتى بطعام ، فعرضت له هذه الآية ؛ فقال : ارفعه ، ووضع عنده الليلة الثانية ، فعرضت له ، فقال : ارفعه ، وكذلك الليلة الثالثة ، فأخبر ثابت البناني ويزيد الضبي وبجى البكاء ، فجاءوا فلم يزالوا به حتى شرب شربة من سويق (يوم ترجف) منصوب بما في لدينا . والرجفة : الزلولة والزعزعة الشديدة . والكثيب : الرمل المجتمع من كشب الشيء إذا جمعه ، كأنه فعيل بمعنى مفعول في أصله . ومنه السكبة من اللبن ، قالت الضائنة : أجز جنالاً وأحلب كنباً^(١) عجلاً ، أى : كانت مثل رمل مجتمع هيل هيل ، أى : ثر وأسيل .

إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَهِدَ عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾

فَمَصَىٰ فِرْعَوْنَ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾

الخطاب لأهل مكة (شاهداً عليكم) يشهد عليكم يوم القيامة بكفركم وتكذيبكم . فإن قلت : لم نكر الرسول ثم عرف ؟ قلت : لأنه أراد : أرسلنا إلى فرعون بعض الرسل ، فلما أعاده وهو معهود بالذكر أدخل لام التعريف إشارة إلى المذكور بعينه (وبيلاً) ثقيلًا غليظًا ، من قولهم : كلاً وبيل وخم لا يستمرأ لثقله . والوبيل : العصا الضخمة . ومنه الوابل للطر العظيم .

فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءَ مَنفُطِرًا بِهِ

كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾

(يوماً) مفعول به ، أى : فكيف تقون أنفسكم يوم القيامة وهوله ، إن بقيتم على الكفر . ولم تؤمنوا وتعملوا صالحاً . ويجوز أن يكون ظرفاً ، أى : فكيف لكم بالتقوى في يوم القيامة إن كفرتم في الدنيا . ويجوز أن ينتصب بكفرتم على تأويل جحدتم ، أى فكيف تقون الله وتحشونه إن جحدتم يوم القيامة والجزاء : لأن تقوى الله خوف عقابه (ويجعل الولدان شيباً) مثل في الشدة يقال في اليوم الشديد : يوم يشيب نواصي الأطفال . والأصل فيه : أن الموم والأحزان إذا تفاقمت على الإنسان . أسرع فيه الشيب . قال أبو الطيب :

وَالْهَمُّ يَخْتَرِمُ الْجَسِيمَ نَحَافَةً وَيُشِيبُ نَاصِيَةَ الصَّبِيِّ وَيَهْرِمُ^(٢)

== عليه وسلم بهذا . ورواه ابن عدى من رواية أبي يوسف عن حمزة عن حمدان عن أبي حرب بن أبي الأسود . وقال غيره : أن يوسف يرويه عن حمزة عن حسب عن حران .

(١) قوله «وأجز جنالاً وأحلب كنباً» الجفال : الصوف الكثير . والكسبة من اللبن : قدر حلبة ، والجمع كنب ، كذا في الصحاح . (ع)

(٢) لأبي الطيب ، يقول : إن الهم ينتقص الرجل الجسيم ويقطعه شيئاً نفيساً . ونحف نحافة : هول هزالا ؛ فنحافة مفعول مطلق ، لأنها تلاقى الاحترام في المعنى . ويجوز أنها تمييز ، أى : ينتقص الهم العظيم الجسيم من جهة ==

وقد مرّني في بعض الكتب أن رجلا أمسى فاحم الشعر كحناك الغراب ، واصبح وهو أبيض الرأس واللحية كالثلغامة ، فقال : أريت القيامة والجنة والنار في المنام ، ورأيت الناس يقادون في السلاسل إلى النار ، فمن هول ذلك أصبحت كما ترون . ويجوز أن يوصف اليوم بالطول . وأن الأطفال يبلغون فيه أو أن الشيخوخة والشيب ﴿ السماء منفطر به ﴾ ووصف اليوم بالشدّة أيضاً . وأن السماء على عظمها وإحكامها تنفطر فيه ، فما ظنك بغيرها من الخلائق . وقرئ : منفطر ومتفطر . والمعنى : ذات انقطاع . أو على تأويل السماء بالسقف . أو على تأويل السماء شيء منفطر ، والباء في (به) مثلها في قولك : فطرت العود بالقدم فانفطر به ، يعنى : أنها تنفطر بشدة ذلك اليوم وهوله كما ينفطر الشيء بما يفطر به . ويجوز أن يراد السماء مثقلة به إنقالا يؤدى إلى انفطارها لعظمه عليها وخشيتها من وقوعه ، كقوله (ثقلت في السموات والأرض) . (وعده) من إضافة المصدر إلى المفعول ، والضمير لليوم . ويجوز أن يكون مضافا إلى الفاعل وهو الله عز وعلا ، ولم يحمله ذكر لسكونه معلوما .

إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ١٩

(إن هذه) الآيات الناطقة بالوعيد الشديد (تذكرة) موعظة (فمن شاء) اتعظ بها . واتخذ سبيلا إلى الله بالتقوى والخشية . ومعنى اتخاذ السبيل إليه : التقرب والتوسل بالطاعة .

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنُصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ نَحْضُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ يَسْكَوْنَ مِنْكُمْ مَّرْضًىٰ وَآخَرُونَ بِضَرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَلْتَمِسُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ

إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٢٠

== التحفة إلى تنها عنه . ويجوز جعلها مفعولا لأجله على مذهب من لم يشترط اتحاد الفعل والمصدر في الفاعل . والناسية : مقدم الرأس ، أى : يشيب رأس الصبي . وخص الناسية : لأنها التي تقابل الناظر عند التقابل ، ولا شعر للصبي إلا في رأسه . ويهرم ، أى : يصير الصبي هرما ضعيفا .

(أدنى من ثلثي الليل) أقل منهما؛ وإنما استمير الأدنى وهو الأقرب للأقل؛ لأن المسافة بين الشئتين إذا دنت: قل ما بينهما من الاحياز؛ وإذا بعدت كثر ذلك. وقرئ: ونصفه وثلثه بالنصب على أنك تقوم أقل من الثلثين، وتقوم النصف والثلث: وهو مطابق لما مر في أول السورة: من التخيير بين قيام النصف بتمامه وبين قيام الناقص منه - وهو الثلث - وبين قيام الزائد عليه - وهو الأدنى من الثلثين. وقرئ: ونصفه، وثلثه: بالجزء، أى: تقوم أقل من الثلثين وأقل من النصف والثلث، وهو مطابق للتخيير بين النصف: وهو أدنى من الثلثين. والثلث: وهو أدنى من النصف. والرابع: وهو أدنى من الثلث، وهو الوجه الأخير (وطائفة من الذين معك) ويقوم ذلك جماعة من أصحابك (والله يقدر الليل والنهار) ولا يقدر على تقدير الليل والنهار ومعرفة مقادير ساعاتهما إلا الله وحده؛ وتقديم اسمه عز وجل مبتدأ مبنياً عليه يقدر: هو الدال على معنى الاختصاص بالتقدير؛ والمعنى: أنكم لا تقدرون عليه، والضمير في (إن تحصوه) لمصدر يقدر، أى علم أنه لا يصح منكم ضبط الاوقات ولا يتأتى حسابها بالتعديل والتسوية، إلا أن تأخذوا بالأوسع للاحتياط: وذلك شاق عليكم بالغ منكم (فتاب عليكم) عبارة عن الترخيص في ترك القيام المقدّر. كقوله (فتاب عليكم وعفا عنكم) فالآن بأشروهن) والمعنى: أنه رفع التبعة في تركه عنكم، كما يرفع التبعة عن النائب. وعبر عن الصلاة بالقرأة؛ لأنها بعض أركانها، كما عبر عنها بالقيام والركوع والسجود. يريد: فصلوا ما تيسر عليكم، ولم يتعذر من صلاة الليل؛ وهذا ناسخ للأول، ثم نسخا جميعا بالصلوات الخمس. وقيل: هى قراءة القرآن بعينها: قيل: يقرأ مائة آية. ومن قرأ مائة آية في ليلة لم يحاجه القرآن، وقيل: من قرأ مائة آية كتب من القاتنين. وقيل: خمسين آية. وقد بين الحكمة في النسخ. وهى تعذر القيام على المرضى، والضاربين في الأرض للتجارة، والمجاهدين في سبيل الله. وقيل: سوى الله بين المجاهدين والمسافرين لكسب الحلال. وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: أيما رجل جلب شيئاً إلى مدينة من مدائن المسلمين صابراً محتسباً، فباعه بسعر يومه: كان عند الله من الشهداء^(١). وعن عبد الله بن عمر: ما خلق الله مائة أموات بعد القتل في سبيل الله أحب إلى من أن أموت بين شعبي رحل: أضرب في الأرض أبتغي من فضل الله^(٢). و(علم)

(١) أخرجه الثعلبي من رواية فرقد السبخي عن إبراهيم عن ابن مسعود موقوفاً. وفرقد ضعيف. ووصله ابن مردويه بذكر علقمة بن إبراهيم وعبد الله ورفعه أيضاً. وزاد: ثم قرأ (وآخرون يضربون في الأرض - الآية)
(٢) أخرجه الثعلبي من رواية القاسم بن عبد الله عن أبيه عن نافع عن ابن عمر به. وإسناده ضعيف. ورواه ابن معبد في الطاعة والعصية عن ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب عن نافع أن عمر قال «ما خلق الله مائة أموات إلا أن أموت مجاهداً في سبيل الله أحب إلى من أن أموت - إلى آخره» والبيهقي في الشعب في الثالث عشر =

استئناف على تقدير السؤال عن وجه النسخ ﴿وأقيموا الصلوة﴾ يعنى المفروضة والزكاة الواجبة وقيل: زكاة الفطر؛ لأنه لم يكن بمكة زكاة . وإنما وجبت بعد ذلك ، ومن فسرهما بالزكاة الواجبة جعل آخر السورة مدنياً ﴿وأقرضوا الله قرضاً حسناً﴾ يجوز أن يريد: سائر الصدقات وأن يريد: أداء الزكاة على أحسن وجه : من إخراج أطيب المال وأعوده على الفقراء ، ومراعاة النية وابتغاء وجه الله ، والصرف إلى المستحق ، وأن يريد: كل شيء يفعل من الخير مما يتعلق بالنفس والمال ﴿خيراً﴾ ثانى مفعولى وجد ، وهو فصل . وجاز وإن لم يقع بين معرفتين ، لأن أفعل من أسبه في امتناعه من حرف التعريف المعرفة . وقرأ أبو السمال : هو خير وأعظم أجراً ، بالرفع على الابتداء والخبر .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من قرأ سورة المزمل دفع الله عنه العسر في الدنيا والآخرة» (١) .

سورة المذثر

مكية ، وهى ست وخمسون آية [نزلت بعد المزمل]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنْذِرْ ② وَرَبُّكَ فَكَبِيرٌ ③ وَيَسْأَلُكَ
فَطَهَّرَ ④ . وَالرُّجْزَ فَاهْبِطْ ⑤ .

﴿المذثر﴾ لابس الدثار ، وهو مافوق الشعار : وهو الثوب الذى يلى الجسد . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : «الانصار شعار والناس دثار» (١) وقيل : هى أول سورة نزلت . وروى جابر بن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كنت على جبل حراء فنوديت : يا محمد ، إنك رسول الله ، فنظرت عن يميني ويساري فلم أرى شيئاً ، فنظرت فوق فرأيت شيئاً» (٢) . وفى

== من طريق عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عبد الله ذكر عمر أو غيره قال «ما خلق الله إلى آخره» .

(١) أخرجه الترمذي والواحدى وابن مردويه بسندهم إلى أبي رضى الله عنه .

(٢) تقدم فى آل عمران .

(٣) متفق عليه من رواية أبي سلة عنه وأتم منه .

رواية عائشة : وفنظرت فوق فإذا به قاعد على عرش بين السماء والأرض - يعنى الملك الذى ناداه - فرعبت ورجعت إلى خديجة فقلت : دثرونى دثرونى ، فنزل جبريل وقال : يا أيها المدثر^(١) وعن الزهرى : أول ما نزل : سورة اقرأ باسم ربك إلى قوله (ما لم يعلم) فخرن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل يعلو شواهد الجبال ، فأتاه جبريل فقال : إنك نبي الله ، فرجع إلى خديجة وقال : دثرونى وصبوا على ماء بارداً ، فنزل : يا أيها المدثر^(٢) وقيل : سمع من قریش ما كرهه فاعتم ، فتغطى بثوبه مفكراً كما يفعل المغموم . فأمر أن لا يدع إنذارهم وإن أسمعوه وآذوه . وعن عكرمة أنه قرأ على لفظ اسم المفعول . من دثره . وقال : دثرت هذا الأمر وعصب بك ، كما قال فى المزمع : قم من مضجعتك . أوقم قيام عزم وتصميم (فأنذر) فحذر قومك من عذاب الله إن لم يؤمنوا . والصحيح أن المعنى : فافعل الإنذار من غير تخصيص له بأحد (وربك فكبر) واختص ربك بالتكبير : وهو الوصف بالكبرياء ؛ وأن يقال : الله أكبر . ويروى أنه لما نزل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والله أكبر ، فكبرت خديجة وفرحت ، وأيقنت أنه الوحي ؛ وقد يحمل على تكبير الصلاة ، ودخلت الغناء لمعنى الشرط . كأنه قيل : وما كان فلا تدع تكبيره (وثيابك فطهر) أمر بأن تكون ثيابه طاهرة من النجاسات ؛ لأن طهارة الثياب شرط فى الصلاة لاتصح إلا بها ، وهى الأولى والأحب فى غير الصلاة ، وقبيح بالمؤمن الطيب أن يحمل خبثاً . وقيل : هو أمر بتقصيرها ، ومخالفة العرب فى تطويلهم الثياب وجرم الذبول ، وذلك ما لا يؤمن معه إصابة النجاسات . وقيل : هو أمر بتطهير النفس عما يستفذر من الأفعال ويستجن من العادات . يقال : فلان طاهر الثياب وطاهر الجيب والذليل والأردان إذا وصفوه بالنقاء من المعاييب ومدافس الأخلاق . وفلان دنس الثياب للغادر ؛ وذلك لأن الثوب يلبس الإنسان ويشتمل عليه ، فكفى به عنه . ألا ترى إلى قولهم : أعجبني زيد ثوبه ، كما يقولون : أعجبني زيد عقله وخلقه ، ويقولون : المجد فى ثوبه ، والكرم تحت حلتة ؛ ولأن الغالب أن من طهر باطنه ونقاها عنى بتطهير الظاهر وتنقيته ، وأبى إلا اجتناب الخبث وإيثار الطهر فى كل شيء (والرجز) قرئ بالكسر والضم . وهو العذاب ، ومعناه : أجز ما يؤدى إليه من عبادة الأوثان وغيرها من المآثم . والمعنى : الثبات على هجره ؛ لأنه كان بريئاً منه .

(١) لم أره عن عائشة . وإنما هو قصة حديث جابر . ولعل الزعشمى قصد بقوله «دثرونى» رواية عائشة لفظاً منه وإلا فالجميع من حديث جابر رضى الله عنه قلت : يوجد ما ذكره الزعشمى من رواية النعمان بن راشد عن الزهرى عن عروة عن عائشة عند الطبرى .

(٢) أخرجه الطبرى من رواية محمد بن ثور عن معمر عن الزهرى قال «كان أول شيء نزل على النبي صلى الله عليه وسلم اقرأ» فذكره وأتم منه . رواه الحاكم من طريق محمد بن سيرين عن الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها .

وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ⑥ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ⑦

قرأ الحسن : ولا تمنن . وتستكثر ، مرفوع منصوب المحل على الحال ، أى : ولا تعظم مستكثراً راتباً لما تعطيه كثيراً ، أو طالباً للكثير : نهى عن الاستغفار : وهو أن يهب شيئاً وهو يطمع أن يتعوض من الموهوب له أكثر من الموهوب ، وهذا جائز . ومنه الحديث المستغفر بثاب من هبته ،^(١) وفيه وجهان ، أحدهما : أن يكون نهياً خاصاً برسول الله صلى الله عليه وسلم : لأن الله تعالى اختار له أشرف الآداب وأحسن الأخلاق . والثانى : أن يكون نهياً تنزيهياً لا تحريم له ولا قته . وقرأ الحسن : تستكثر . بالسكون . وفيه ثلاثة أوجه : الإبدال من تمنن . كأنه قيل : ولا تمنن لا تستكثر ؛ على أنه من المنّ فى قوله عز وجل (ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى) لأن من شأن المنان بما يعطى أن يستكثره ، أى : يراه كثيراً ويعتد به . وأن يشبه ثرو بعضه ، فيسكن تخفيفاً ، وأن يعتبر حال الوقف . وقرأ الأعشى بالنصب بإضمار وأن ، كقوله :

• أَلَا أَيْهَذَا الزَّاجِرِ أَحْضَرُ الْوَعَى * ⑧

وتؤيده قراءة ابن مسعود : ولا تمنن أن تستكثر . ويجوز فى الرفع أن تحذف وأن ، ويبطل عملها ، كما روى : أحضر الوعى بالرفع ، (ولربك فاصبر) ولوجه الله ، فاستعمل الصبر . وقيل : على أذى المشركين . وقيل : على أداء الفرائض . وعن النخعي : على عطيتك ، كأنه وصله بما قبله ، وجعله صبراً على العطاء من غير استكثار . والوجه أن يكون أمراً بنفس الفعل ، وأن يتناول على العموم كل مصبور عليه ومصبور عنه ، ويراد الصبر على أذى الكفار ؛ لأنه أحد ما يتناوله العام .

فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ ⑧ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ⑨ عَلَى الْكَافِرِينَ

عَسِيرٌ يَسِيرٌ ⑩

والفاء فى قوله (فإذا نفّر) للتسيب ، كأنه قال : اصبر على أذاهم . فبين أيديهم يوم عسير يلقون فيه عاقبة أذاهم ، وتلقى فيه عاقبة صبرك عليه . والفاء فى (فذلك) للجزاء . فإن قلت : هم انتصب إذا ، وكيف صح أن يقع (يومئذ) ظرفاً ليوم عسير ؟ قلت : انتصب إذا بما دل

(١) تقدم فى الروم من قول شريح .

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ١٥٩ فراجع إن شئت اه مصححه .

عليه الجزاء ، لأن المعنى : فإذا نفر في الناقر عسر الأمر على الكافرين ، والذي أجاز وقوع (يومئذ) ظرفاً ليوم عسير : أن المعنى : فذلك وقت النقر ووقوع يوم عسير ، لأن يوم القيامة يأتي ويقع حين ينقر في الناقر . واختلف في أنها النفخة الأولى أم الثانية . ويجوز أن يكون يومئذ مبنياً مرفوع المحل ، بدلا من (ذلك) و (يوم عسير) خبر ، كأنه قيل : فيرم النقر يوم عسير . فإن قلت : فما فائدة قوله (غير يسير) و (عسير) مغن عنه ؟ قلت : لما قال (على الكافرين) فقصر العسر عليهم قال : (غير يسير) ليؤذن بأنه لا يكون عليهم كما يكون على المؤمنين يسيراً هيناً ، ليجمع بين وعيد الكافرين وزيادة غيظهم وبشارة المؤمنين وتسليتهم . ويجوز أن يراد أنه عسير لا يرجى أن يرجع يسيراً ، كما يرجى تيسر العسير من أمور الدنيا .

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝ ١١ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۝ ١٢ وَبَنِينَ شُودًا ۝ ١٣ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ۝ ١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝ ١٥ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ۝ ١٦ سَأَرْهَقُهُ صُوْدًا ۝ ١٧ إِنَّهُ فَكَرَ وَقَدَرَ ۝ ١٨ فَقَتِلَ كَيْفَ قَدَرَ ۝ ١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَرَ ۝ ٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝ ٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝ ٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۝ ٢٣ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ۝ ٢٤ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۝ ٢٥

(وحيداً) حال من الله عز وجل على معنيين ، أحدهما . ذرني وحدي معه ، فأنا أجزيك في الانتقام منه عن كل منتقم . والثاني : خلقته وحدي لم يشركني في خلقه أحد . أو حال من المخلوق على معنى : خلقته وهو وحيد فريد لا مال له ولا ولد ، كقوله (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة) وقيل : نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي وكان يلقب في قومه بالوحيد ، ولعله لقب بذلك بعد نزول الآية ؛ فإن كان ملقباً به قبل فهو تهكم به وبلقيه ، وتغيير له عن الغرض الذي كانوا يؤمنونه - من مدحه ، والثناء عليه بأنه وحيد قومه لرياسته ويساره وتقدمه في الدنيا - إلى وجه الذم والعيب : وهو أنه خلق وحيداً لا مال له ولا ولد ، فأتاه الله ذلك ، فكفر بنعمة الله وأشرك به واستهزأ بدينه (ممدوداً) مبسوطة كثيراً : أو ممدداً بالنماء ، من مده الهر ومدته نهر آخر . قيل : كان له الزرع والضرع والتجارة . وعن ابن عباس : هو ما كان له بين مكة والطائف من صنوف الأموال . وقيل : كان له بستان بالطائف لا ينقطع ثماره صيفاً وشتاء . وقيل : كان له ألف مثقال . وقيل : أربعة آلاف . وقيل تسعة آلاف . وقيل : ألف ألف . وعن ابن

جريح : غلة شهر بشهر (وبين شهوداً) حضوراً معه بمكة لا يفارقونه للتصرف في عمل أو تجارة ، لأنهم مكفيون لو فور نعمة أبيهم واستغنائهم عن التكسب وطلب المعاش بأنفسهم ، فهو مستأنس بهم لا يشتغل قلبه بغيرتهم . وخوف معاطب السفر عليهم ولا يحزن لفرارهم والاشتياق إليهم . ويجوز أن يكون معناه : أنهم رجال يشهدون مع المجامع والمحافل . أو تسمع شهادتهم فيما يتحاكم فيه . وعن مجاهد : كان له عشرة بنين . وقيل : ثلاثة عشر . وقيل : سبعة كلهم رجال : الوليد بن الوليد ، وخالد ، وعمارة ، وهشام ، والعاص ، وقيس ، وعبد شمس : أسلم منهم ثلاثة : خالد ، وهشام ، وعمارة (ومهدت له تمهيداً) وبسطت له الجاه العريض والرياسة في قومه . فأتممت عليه نعمتي المال والجاه واجتماعهما : هو الكمال عند أهل الدنيا . ومنه قول الناس : أدام الله تأييدك وتمهيدك ، يريدون : زيادة الجاه والحشمة . وكان الوليد من وجهاء قريش وصناديدهم ؛ ولذلك لقب الوحيد وريحانة قريش (ثم يطمع) استبعاد واستنكار لطمعه وحرصه ^(١) ، يعني أنه لا مزيد على ما أوتي سعة وكثرة . وقيل : إنه كان يقول : إن كان محمد صادقاً فاخلقت الجنة إلا لي (كلا) ردع له وقطع لرجائه وطمعه (إنه كان آياتنا عنيداً) تعليل للردع على وجه الاستئناف ، كأن قائله قال : لم لا يزد ؟ فقيل : إنه عاند آيات المنعم وكفر بذلك نعمته ، والكافر لا يستحق المزيد : ويروى : أنه ما زال بعد نزول هذه الآية في نقصان من ماله حتى هلك (سأرهقه صعوداً) سأغشيه عقبة شاقة المصعد : وهو مثل لما يلقي من العذاب الشاق الصعد الذي لا يطاق . وعن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : يكلف أن يصعد عقبة في النار كلها وضع عليها يده ذابت ^(٢) ، فإذا رفعها عادت ، وإذا وضع رجله ذابت ، فإذا رفعها عادت ، وعنه عليه السلام : الصعود جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفاً ثم يهوى فيه كذلك أبداً ^(٣) ، (إنه فكر) تعليل للوعيد ، كأن الله تعالى عاجله بالفقر بعد الغنى ، والذل بعد العز في الدنيا بعناده ، ويعاقب في الآخرة بأشد العذاب وأفظعه لبلوغه بالعناد غايته وأقصاه في تفكيره ، وتسميته القرآن سحراً . ويجوز أن تكون كلمة الردع متبوعة بقوله (سأرهقه صعوداً)

(١) قال محمود : دخلت ثم استبعداً لطمعه وحرصه على الزيادة ، واستنكاراً لذلك فرد الله طمعه خائباً ... الخ . قال أحمد : لأن الكلمة الشتماء لما خطرت بباله بعد إيمانه النظر : لم يبالك أن نطق بها من غير تلبس .

(٢) أخرجه البزار والطبري في الأوسط والبيهقي في الشعب والطبري وابن أبي حاتم . كلهم من طريق شريك عن عمار الدهني عن عطية بن أبي سعيد مرفوعاً . قال البزار : لا نعلمه رفعه إلا شريك . وبه جزم الطبراني . ورواه البزار والبيهقي من رواية ابن عيينة عن عمارة مرفوعاً .

(٣) أخرجه الترمذي من طريق أبي لمبة عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد مرفوعاً انتهى . وقد رواه الحاكم والطبري والبيهقي في الشعب من رواية عمرو بن الحارث عن دراج . ورواه ابن مردويه من رواية رشدين ابن سعد عن دراج أيضاً .

رداً لزمه أن الجنة لم تخلق إلا له ؛ وإخباراً بأنه من أشد أهل النار عذاباً ، ويعمل ذلك بعناده ، ويكون قوله (إنه فكر) بدلاً من قوله (إنه كان لا ياتنا عنيداً) أيانا لكنته عناده . ومضاه فكر ماذا يقول في القرآن (وقدر) في نفسه ما يقول وهياه (ف قيل كيف قدر) تعجيب من تقديره وإصابته فيه المحز . ورميه الغرض الذي كان تلتيه قريش . أو ثناء عليه على طريقة الاستهزاء به . أو هي حكاية لما كرروه من قولهم . قتل كيف قدر تهكأ بهم وبأعجابهم بتقديره ، واستعظامهم لقوله . ومعنى قول القائل : قتل الله ما أشجعه . وأخزاه الله ما أشعره : الإشعار بأنه قد بلغ المبلغ الذي هو حقيق بأن يحسد ويدعو عليه حاسده بذلك . روى أن الوليد قال لبني مخزوم : والله لقد سمعت من محمد آفأ كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، إن له لخلأوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمشم ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو وما يعلو ؛ فقالت قريش : صبا والله الوليد ، والله لتصبأن قريش كلهم ؛ فقال أبو جهل : أنا اكفكموه ، فقمذ إليه حزينا وكله بما أحماه فقام فأتاهم فقال : تزعمون أن محمداً مجنون ، فهل رأيتموه يخفق ؛ وتقولون إنه كاهن ، فهل رأيتموه قط يتكهن ؛ وتزعمون أنه شاعر ، فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قط ؛ وتزعمون أنه كذاب ، فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب ، فقالوا في كل ذلك : اللهم لا ، ثم قالوا : فاف هو ؟ ففكر فقال : ماهو إلا ساحر . أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ، وما الذي يقوله إلا سحر يأثره عن مسيلة وعن أهل بابل ، فارنج النادى فرحاً ، وفرقوا معجبين بقوله متعجبين منه (ثم نظر) في وجوه الناس^(١) ، ثم قطب وجهه^(٢) ، ثم زحف مدبراً . وتشاوس مستكبراً لما خطرت بباله الكلمة الشنعاء ، وهم بأن يرمى بها وصف أشكاله التي تشكل بها حتى استنبط ما استنبط ، استهزاء به . وقيل : قدر ما يقوله ، ثم نظر فيه . ثم عبس لما ضاقت عليه الحيل ولم يدر ما يقول . وقيل : قطب في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم (ثم أدبر) عن الحق (واستكبر) عنه فقال ما قال . و (ثم نظر) عطف على (فكر وقدر) والدعاء : اعتراض بينهما . فإن قلت : ما معنى (ثم) الداخلة في تكرير الدعاء ؟ قلت : الدلالة على أن الكثرة الثانية أبلغ من الأولى . ونحوه قوله .

• أَلَا يَا أَسْلَى نُمَّ أَسْلَى نُمَّتَ أَسْلَى •

(١) قوله . ثم نظر في وجوه الناس ، أى نظر بمنزعه عنه تكبراً أو تغيظاً ، كما في الصحاح . (ع)

(٢) قوله . ثم قطب وجهه ، في الصحاح : قطب وجهه تقطياً : عبس . وفيه أيضاً : عبس عبوساً كبح ، وبسر

يسورا : كبح . يقال : عبس وبسر اه . (ع)

فإن قلت: ما معنى المتوسطة بين الأفعال التي بعدها؟ قلت: الدلالة على أنه قد تأتى في التأمل وتمهل، وكأن بين الأفعال المناسبة تراخ وتباعد. فإن قلت: فلم قيل (فقال إن هذا) بالغاء بعد عطف ما قبله ثم؟ قلت: لأن الكلمة لما خطرت بباله بعد التطلب لم يتالك أن نطق بهما من غير تلبث. فإن قلت: فلم لم يوسط حرف العطف بين الجملتين؟ قلت: لأن الأخرى جرت من الأولى مجرى التوكيد من المؤكد.

سَأَصْلِيهِ سَقَرٌ ۝٢٦ وَمَا أَذْرَاكَ مَسْقَرٌ ۝٢٧ لَا تُبْنِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوْ آتَاكَ
لِقَبَشِيرٌ ۝٢٩ عَلَيْهِمْ تِسْعَ عَشَرَ ۝٣٠ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً
وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَشْفِقْنَ الَّذِينَ أَوْتُوا السَّكِيبَ
وَيَزِدَّادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيْمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أَوْتُوا السَّكِيبَ وَالْمُؤْمِنُونَ
وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا
كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ
وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْقَبَشِيرِ ۝٣١

(سأصليه سقر) بدل من (سأرهقه صموداً). (لا تبني) شينا يلقى فيها إلا أهلكته: وإذا هلك لم تذره هالكا حتى يعاد. أو لا تبقى على شيء ولا تدعه من الهلاك، بل كل ما يطرح فيها هالك لا محالة (لواحة) من لوح المجير. قال:

نَقُولُ مَا لَاحَكَ يَا مُسَافِرُ يَا بَنَّةَ عَمِّي لَأَخِي الْمَوَاجِرُ ١١

قيل: تلفح الجلد لفحة فتدعه أشد سواداً من الليل. والبشر: أعالي الجلود. وعن الحسن: تلوح للناس، كقوله (ثم لترونها عين اليقين) وقرئ: لواحة، نصبا على الاختصاص للتهويل (عليها تسعة عشر) أى إلى أمرها ويتسلط على أهلها تسعة عشر ملكا. وقيل: صنفا من الملائكة. وقيل: صفة. وقيل: نقيبا. وقرئ: تسعة عشر، يسكون العين لتوالى الحركات في ما هو في حكم

(١) لاحة الحر لوحا: غيره وسوده. والمهاجرة: شدة الحر. وأجر القوم وهجروا بالتهديد وتهجروا: ساروا في المهاجرة، وفيه التفات، كأنه خاطب غيرهما أولا. وعجبه من استفهامها عن الشيء الظاهر سبه وهو السفر، بل هي معروفة أنه مسافر كما قالت، ومن قساوة قلبها عليه، ثم التفات إليها بجواب سؤالها. وفي تدانها معنى التنبيه والابتاط والاستعطاف.

اسم واحد . وقرئ : تسعة أعشر ، جمع عشير ، مثل : يمين وأيمن . جعلهم ملائكة لأنهم خلاف جنس الممذيين من الجن والإنس ، فلا يأخذهم ما يأخذ المجانس من الرأفة والركة ، ولا يسترحون لإيهم ، ولأنهم أقوم خلق الله بحق الله وبالفضب له ، فتؤمن هوادتهم ، ولأنهم أشد الخلق بأسا وأقوام بطشا . عن عمرو بن دينار : واحد منهم يدفع بالدفة الواحدة في جهنم أكثر من ربيعة ومضر . وعن النبي صلى الله عليه وسلم . دكان أعينهم البرق ، وكان أفواهم الصياصى ، ^(١) يجررون أشعارهم ، لأحدهم مثل قوة الثقلين ، يسوق أحدهم الأمة وعلى رقبته جبل فيرى بهم في النار ويرى بالجليل عليهم ، ^(٢) . وروى أنه لما نزلت (عليها تسعة عشر) قال أبو جهل لقريش . نكلكم أمهاتكم ، أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر وأتم الدم ، أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم ، فقال أبو الأشد بن أسيد بن كلدة الجحى وكان شديد البطش . أنا أكيفكم سبعة عشر ، فاكفوني أتم اثنين ، فأنزل الله (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة) أى ما جعلناهم رجالا من جنسكم يطاقون . فإن قلت : قد جعل افتنان الكافرين بعدة الزبانية سببا لاستيقان أهل الكتاب وزيادة إيمان المؤمنين واستهواء الكافرين والمتافقين ، ^(٣) فما وجه صحة ذلك ؟ قلت . ما جعل افتنانهم بالعدة سببا لذلك ، وإنما العدة نفسها هى التى جعلت سببا ، وذلك أن المراد بقوله (وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا) وما جعلنا عدتهم إلا تسعة عشر ، فوضع (فتنة للذين كفروا) موضع (تسعة عشر) لأن حال هذه العدة الناقصة واحدا من عقد العشرين . أن يفتن بها من لا يؤمن بالله وبحكمته ويعترض ويستزئ ، ولا يذعن لإذعان المؤمن ، وإن خفى عليه وجه الحكمة ، كأنه قيل . ولقد جعلنا عدتهم عدة من شأنها أن يفتن بها ، لأجل استيقان المؤمنين وحيرة الكافرين واستيقان

(١) قوله «الصياصى» من الحصون ، واحدا صيصية . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) لم أجده .

(٣) قال محمود : «إن قلت قد جعل افتنان الكافرين بعدة الزبانية سببا ... الخ» قال أحد : ما جعل افتنانهم بالعدة سببا لذلك ، وإنما العدة نفسها هى التى جعلت سببا ، لأن المراد : وما جعلنا عدتهم إلا تسعة عشر ، فوضع (فتنة للذين كفروا) موضع ذلك : لأن حال هذه العدة الناقصة واحدا من العشرين : أن يفتن بها من لا يؤمن بالله وبحكمته ولا يذعن ، وإن خفى عليه وجه الحكمة كأنه قيل : لقد جعلنا عدتهم عدة من شأنها أن يفتن بها لأجل استيقان المؤمنين وحيرة الكافرين واستيقان أهل الكتاب . قال أحد : السائل جعل الفتنة التى هى في تقدير الصفة للعدة ، إذ معنى الكلام ذات فتنة سببا فيما بعدها ، والمجيب جعل العدة التى عرضت لها هذه الصفة سببا لا باعتبار عروض الصفة لها . ويجوز أن يكون (ليستيقن) راجعا إلى ما قبل الاستثناء ، كأنه قيل : جعلنا عدتهم سببا لفتنة الكافرين وسببا ليقين المؤمنين ؛ وهذا الوجه أقرب عما ذكره الزعزعى ؛ وإنما الجاء إليه اعتقاد أن الله تعالى ما فتنهم ولكنهم فتنوا أنفسهم ، بناء على قاعدة التبعض في المشيئة وبنت القاعدة فاحذرهما .

أهل الكتاب ، لأن عدتهم تسعة عشر في الكتابين ، فإذا سمعوا يمثلها في القرآن أيقنوا أنه منزل من الله ، وازدياد المؤمنين إيمانا لتصديقهم بذلك كما صدقوا سائر ما أنزل ، ولما رأوا من تسليم أهل الكتاب وتصديقهم أنه كذلك . فإن قلت : لم قال (ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون) والاستيقان وازدياد الإيمان دالا على انتفاء الارتياب ؟ قلت : لأنه إذا جمع لهم إثبات اليقين ونفي الشك . كان أكد وأبلغ لوصفهم ^(١) بسكون النفس وتلج الصدر ، ولأن فية تعريضا بحال من عدام ، كأنه قال : ولتخالف حالهم حال الشاكين المرتابين من أهل النفاق والكفر . فإن قلت : كيف ذكر الذين في قلوبهم مرض وهم المنافقون ، والسورة مكية ، ولم يكن بمكة نفاق ، وإنما نجم بالمدينة ؟ قلت : معناه وليقول المنافقون الذين ينجمون في مستقبل الزمان بالمدينة بعد الهجرة (والكافرون) بمكة (ماذا أراد الله بهذا مثلا) وليس في ذلك إلا إخبار بما سيكون كسائر الإخبارات بالغيوب ، وذلك لا يخالف كون السورة مكية . ويجوز أن يراد بالمرض : الشك والارتياب ، لأن أهل مكة كان أكثرهم شاكين وبعضهم قاطعين بالكذب . فإن قلت : قد علل جعلهم تسعة عشر بالاستيقان وانتفاء الارتياب وقول المنافقين والكافرين ما قالوا ، فهب أن الاستيقان وانتفاء الارتياب يصح أن يكونا غرضين ، فكيف صح أن يكون قول المنافقين والكافرين غرضا ؟ قلت : أفادت اللام معنى العلة والسبب ، ولا يجب في العلة أن تكون غرضا ، ألا ترى إلى قولك : خرجت من البلد لمخافة الشر ، فقد جعلت المخافة علة لخروجك وما هي بغرضك . (مثلا) تمييز لهذا ، أو حال منه ، كقوله (هذه ناقة الله لكم آية) . فإن قلت : لم سموه مثلا ؟ قلت : هو استعارة من المثل المضروب . لأنه بما غرب من الكلام وبدع ، استغرابا منهم لهذا العدد واستبداعا له . والمعنى : أى شيء أراد الله بهذا العدد العجيب ، وأى غرض قصد في أن جعل الملائكة تسعة عشر لا عشرين سواء ، ومرادهم إنكاره من أصله ، وأنه ليس من عند الله ، وأنه لو كان من عند الله لما جاء بهذا العدد الناقص . السكاف في (كذلك) نصب ، وذلك : إشارة إلى ما قبله من معنى الإضلال والهدى ، أى : مثل ذلك المذكور من الإضلال والهدى يضل الكافرين ويهدي المؤمنين ، يعنى : يفعل فعلا حسنا مبليا على الحكمة والصواب ، فيراه المؤمنون حكمة ويدعون له لاعتقادهم أن أفعال الله كلها حسنة وحكمة فيزيدهم إيمانا ، ويشكره الكافرون ويشكون فيه فيزيدهم كفرا وضللا

(١) قال محمود : وقوله تعالى (ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب) بعد قوله (ليستيقن) ليحصل لهم قناعة الجع بين إثبات اليقين ... الخ . قال أحمد : أطلق لفرض على الله عز وجل ، مع أنه موم ولم يرد فيه سماع . وأورده السؤال على قاعدته بعد ذلك كله في أن الله لم يرد من المنافقين والكافرين أقوالهم ، وإنما قالوا على خلاف ما أراد ؛ وقد عرفت فساد القاعدة فأرجح فكرك من هذا السؤال . فالكل مراد ، وحسبك تنمة الآية (كذلك) يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء .

(وما يعلم جنود ربك) وما عليه . كل جدد من العدد الخاص من كون بعضها على عقد كامل وبعضها على عدد ناقص ، وما في اختصاص كل جند بعدده من الحكمة (إلا هو) ولا سبيل لأحد إلى معرفة ذلك كما لا يعرف الحكمة في أعداد السموات والأرضين وأيام السنة والشهور والبروج والكواكب وأعداد النصب والحدود والكفارات والصلوات في الشريعة . أو : وما يعلم جنود ربك لفرط كثرتها إلا هو ، فلا يعز عليه تنعيم الحزنة عشرين ، ولكن له في هذا العدد الخاص حكمة لا تعلمونها وهو يعلمها . وقيل : هو جواب لقول أن جهل : أما لرب محمد أعوان إلا تسعة عشر ، وما جعلنا أصحاب النار - إلى قوله - إلا هو : اعتراض . وقوله (وما هي إلا ذكرى) متصل بوصف سفر وهي ضميرها ، أي : وما سفر وصفها إلا تذكرة (للنبي) أو ضمير الآيات التي ذكرت فيها .

كَلَّا وَالْقَمَرَ ٣٢ وَاللَّيْلَ إِذَا أَدْبَرَ ٣٣ وَالصُّبْحَ إِذَا أَصْفَرَ ٣٤
إِنهَا لِأَحَدَى الْكُبْرَى ٣٥ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ٣٦ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقَدَّمَ
أَوْ يَتَأَخَّرَ ٣٧

(كلا) إنكار بعد أن جعلها ذكرى أن تكون لهم ذكرى ، لأنهم لا يتذكرون . أو ردع لمن يشكر أن تكون إحدى الكبرى نذيرا . و (دبر) بمعنى أدبر ^(١) ، كقبل بمعنى أقبل . ومنه صاروا كأمس الدابر . وقيل : هو من دبر الليل النهار إذا خلفه . وقرئ : إذا أدبر (إنها لإحدى الكبرى) جواب القسم . أو تعليل لكلا ، والقسم معترض للتوكيد . والكبر : جمع الكبرى ، جعلت ألف التأنيث كتابتها ^(٢) ، فلما جمعت فعلة على فعل : جمعت فعلى عليها ، ونظير ذلك : السواقي في جمع الساقيات ، والقواصع في جمع القاصعاء ، كأنها جمع فاعلة ، أي : لإحدى البلايا أو الدواهي الكبرى ، ومعنى كونها إحداهن : أنها من بينهن واحدة في العظم لانظيرة لها . كما تقول : هو أحد الرجال ، وهي إحدى النساء . و (نذيرا) تمييز من إحدى ، على معنى : إنها لإحدى الدواهي إنذارا ، كما تقول : هي إحدى النساء عفافا . وقيل : هي حال . وقيل : هو متصل بأول السورة ، يعني : قم نذيرا ، وهو من بدع التفاسير . وفي قراءة أبي : نذير بالرفع

(١) قوله «ودبر بمعنى أدبر» يعني في قراءة : والليل إذا أدبر . وعبرة النفس : والليل إذا أدبر : نافع وحقق وحجة ويعقوب وخلف وغيرهم إذا دبر . ودبر بمعنى أدبر . وقوله الآتي : وقرئ : إذا أدبر ، يفيد أن قراءة «دبر» هي المشهورة . (ع)

(٢) قوله «جعلت ألف التأنيث كتابتها» لعله كتابته . (ع)

خير بعد خبر «لأن» أو يحذف المبتدأ (أن يتقدم) في موضع الرفع بالابتداء. ولمن شاء: خبر مقدم عليه، كقولك: لمن توشأ أن يصل؛ ومعناه مطلق لمن شاء التقدم أو التأخر أن يتقدم أو يتأخر، والمراد بالتقدم والتأخر: السبق إلى الخير والتخلف عنه: وهو كقوله (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) ويجوز أن يكون (لمن شاء) بدلا من (للشئ) على أنها منذرة للسكفين الممكنين: الذين إن شأوا تقدموا ففازوا، وإن شأوا تأخروا فهلكوا.

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ٣٨ إِلَّا أَفْجَبَ الْيَمِينِ ٣٩ فِي جَنَّتِ
يَتَسَاءَلُونَ ٤٠ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ٤١ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ٤٢ قَالُوا لَمْ نَكُ
مِنَ الْمُصَلِّينَ ٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ ٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ
الْحَتَّائِينَ ٤٥ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ ٤٦ حَتَّى آتَانَا الْيَقِينَ ٤٧
فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ٤٨

(رهينة) ليست بتأنيث رهين (٣) في قوله (كل امرئ بما كسب رهين) لتأنيث النفس؛ لأنه لو قصدت الصفة ل قيل: رهين؛ لأن فعلا بمعنى مفعول يستوى فيه المذكر والمؤنث، وإنما هي اسم بمعنى الرهن، كالشئمة بمعنى الشتم، كأنه قيل: كل نفس بما كسبت رهن، ومنه بيت الحماسة:

أَبْعَدَ الَّذِي بِالنَّعْفِ نَعْفُ كُوَيْكِبٍ رَهِينَةَ رَمْسٍ ذِي تُرَابٍ وَجَنْدَلٍ (٢)

(١) قال محمود: «ولست بتأنيث رهين... الخ» قال أحمد: «لأنه فعيل بمعنى مفعول، يستوي مذكره ومؤنثه، كقبتل وجدده».

(٢) أبعد الذي بالنعف نعف كويكب رهينة رمس ذي تراب وجندل
أذكر بالبقيا على من أصابى وبقياى أن جاهد غير مؤتل
لمسور بن زيادة الحارثي. وقيل: لعبد الرحمن بن زيد، قتل أبوه زيادة فعرض عليه فيه سبع ديات، فأبى إلا الفأر والاسقفام إنكارى. والنعف - بالفتح - الجبل والمكان المرتفع. وقيل: ما ينفكك من الجبل. وكويكب: جبل يعينه. وفي هذا الابدال من التفصيل بعد الاجمال: ما بينى عن تفخيم الجبل والحال، أى: أبعد قتل أبي المدفون في ذلك الموضع حال كونه محبسا في رمس. وقيل: رهينة بالجر، بدل من الذي؛ فهو اسم ملحق بالجوامد بمعنى الرهن. ويقال: رمست الشئ رمسا إذا دفنته في التراب، فأطلق المصدر وأريد مكانه، وهو القبر. والجندل: الحجارة، وكررت همزة الاستفهام في قوله «أذكر» تأكيداً للأولى. لأنها داخلة على هذا الفعل تقديرا أيضاً. ويحتمل أنها داخلة على مقدر، أى: أبعد أبى أفرح بالدية. وروى «أذكر» بالتهديد والبناء للجهول، فالهمزة الأولى داخلة عليه، ولا شاهد فيه حيثئذ. والبقيا: الابقاء على الشئ. أى: لا أذكر =

كأنه قال : رهن رمس . والمعنى : كل نفس رهن بكسبها عند الله غير مفكوك (إلا أصحاب اليمين) فانهم فكوا عنه رقابهم بما أطابوه من كسبهم ، كما يخلص الراهن رهنه بأداء الحق . وعن ابن عباس رضى الله عنه أنه فسر أصحاب اليمين بالأطفال ، لأنهم لأعمال لم يرتنون بها . وعن ابن عباس رضى الله عنه : هم الملائكة (فى جنات) أى هم فى جنات لا يكنته وصفها (يتساءلون عن المجرمين) يسأل بعضهم بعضا عنهم ^(١) . أو يتساءلون غيرهم عنهم ، كقولك : دعوته وتداعيناه . فإن قلت : كيف طابق قوله (ماسلككم) وهو سؤال للمجرمين : قوله (يتساءلون عن المجرمين) وهو سؤال عنهم ؟ وإنما كان يتطابق ذلك لوقيل : يتساءلون المجرمين ماسلككم قلت : ماسلككم ليس ببيان للتساؤل عنهم ، وإنما هو حكاية قول المسؤولين عنهم ؛ لأن المسؤولين يلقون إلى السائلين ما جرى بينهم وبين المجرمين ، فيقولون : قلنا لهم ماسلككم (فى سقر قالوا لم نك من المصلين) إلا أن الكلام جرى به على الحذف والاختصار ، كما هو نهج التنزيل فى غرابة نظمه . الخوض : الشروع فى الباطل وما لا ينبغي . فإن قلت : لم يسألونهم وهم عالمون بذلك قلت : توبيخنا لهم وتحسيرا ، وليسكون حكاية الله ذلك فى كتابه تذكرة للسامعين . وقد عضد بعضهم تفسير أصحاب اليمين بالأطفال : أنهم ^(٢) إنما سألوهم لأنهم ولدان لا يعرفون موجب دخول النار . فإن قلت : أيريدون أن كل واحد منهم بمجموع هذه الأربع دخل النار ، أم دخلها بعضهم بهذه وبعضهم بهذه ؟ قلت : يحتمل الأمرين جميعا . فإن قلت : لم أخرج التكذيب وهو أعظمها ؟ قلت : أرادوا أنهم بعد ذلك كله كانوا مكذبين بيوم الدين تعظيما للتكذيب . كقوله (ثم كان من الذين آمنوا) و (اليقين) الموت ومقدماته ، أى : لو شفع لهم الشافعون جميعا من الملائكة والتهيين وغيرهم ؛ لم تنفعهم شفاعتهم ؛ لأن الشفاعة لمن ارتضاه الله وهم مسخوط عليهم . وفيه دليل على أن الشفاعة تنفع يومئذ ؛ لأنها تزيد فى درجات المرتضين .

== بين الناس بأنى أبقيت على قاتل أنى ، والحال أن إبقائى عليه كوفى جاهداً ومصم للعزم على الفتك به غير حالف على ذلك ؛ لأنى لأحتاج إلى الحلف فى تنفيذ أمورى . أو غير مقصر فى الاجتهاد ؛ لأن الانتلاء يحى . بمعنى الحلف وبمعنى التقصير ،

(١) قال محمود : « يتساءلون بمعنى يسأل بعضهم بعضا عنهم ... الخ » قال أحمد : إنما أورد السؤال ذريعة وحيلة لتحميل الآية الدلالة على أن فساق المسلمين تاركى الصلاة مثلا ، يسلكون فى النار مخدلين مع الكفار ، فجعل كل واحدة من الحلال الأربع توجب ما توجب الأخرى من الخلود . والصحيح فى معنى الآية أنها خاصة بالكفار . ومعنى قولهم (لم نك من المصلين) : لم نك من أهل الصلاة ، وكذلك إلى آخرها ؛ لأنهم يكذبون بيوم الدين ، والمكذب لا يصح منه طاعة من هذه الطاعات ، ولو فعلها لم تنفعه وقدرت كالأدم ، وإنما يتأسفون على ترك فعل هو نافع لهم .

(٢) قوله «أنهم» لعله : بأنهم . (ع)

فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾
 فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُنشَرَةً ﴿٥٢﴾
 كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكُرْهُ ﴿٥٥﴾
 وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَعْرِفَةِ ﴿٥٦﴾

(عن التذكرة) عن التذكير وهو العظة ، يريد : القرآن أو غيره من المواعظ .
 و (معرضين) نصب على الحال ، كقولك : مالك قائماً . والمستنفرة : الشديدة النفار كأنها
 تطلب النفار من نفوسها في جمعها له وحملها عليه ^(١) . وقرئ بالفتح : وهي المنفرة المحمولة
 على النفار : والقسورة : جماعة الرماة الذين يتصيدونها . وقيل : الأسد . يقال : ليوث قساور
 وهي فعولة من القسر : وهو النهر والغلبة ، وفي وزنه الحيدرة ، من أسماء الأسد . وعن ابن
 عباس : ركز الناس وأصواتهم . وعن عكرمة : ظلمة الليل . شبههم في إعراضهم عن القرآن
 واستماع الذكر والموعظة وشرادهم عنه ، بحمر جدت في نفارها مما أفرعها . وفي تشبيههم بالحر :
 مذمة ظاهرة وتهجين لحالمهم بين . كما في قوله (كمثل الحمار يحمل أسفارا) وشهادة عليهم بالبله
 وقلة العقل . ولا ترى مثل نفار حمير الوحش واطرادها في العدو إذا راهبا رائب ؛ ولذلك كان
 أكثر تشبيهات العرب في وصف الإبل وشدة سيرها بالحر ، وعدوها إذا وردت ماء فأحست
 عليه بقائص (صحفاً منشرة) قراطيس تنشر وتقرأ كالكتب التي يتكاتب بها . أو كتباً كتبت
 في السماء ونزلت بها الملائكة ساعة كتبت منشرة على أيديها غضة رطبة لم تطو بعد ؛ وذلك أنهم
 قالوا الرسول الله صلى الله عليه وسلم : لن تتبعك حتى تأتي كل واحد منا بكتب من السماء عنوانها
 من رب العالمين إلى فلان بن فلان ، نؤمر فيها باتباعك . ونحوه قوله (وقالوا لن تؤمن لك
 حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه) وقال : (ولونزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم ... الآية)
 وقيل : قالوا إن كان محمد صادقاً فليصبح عند رأس كل رجل منا صحيفة فيها برأته وأمنه من
 النار . وقيل : كانوا يقولون : بلغنا أن الرجل من بني إسرائيل كان يصيح مكتوباً على رأسه ذنبه
 وكفارته ، فأنتا بمثل ذلك ؛ وهذا من الصحف المنشرة بمعزل . إلا أن براد بالصحف المنشرة :
 الكتابات الظاهرة المكشوفة . وقرأ سعيد بن جبير : صحفاً منشرة بتخفيفهما ، على أن أنشر
 الصحف ونشرها : واحد ، كأنزله ونزله . ردعهم بقوله (كلا) عن تلك الإرادة ، وزجرهم عن
 اقتراح الآيات ، ثم قال (بل لا يخافون الآخرة) فلذلك أعرضوا عن التذكرة للامتناع إتياء

(١) قوله « في جمعها له وحملها عليه » متعلق بكتابها ؛ لأنه وجه التشبيه . (ع)

الصحف ، ثم ردعهم عن إعراضهم عن التذكرة وقال (إنه تذكرة) بمعنى تذكرة بليغة كافية ، مبهم أمرها في الكفاية (فمن شاء) أن يذكره ولا ينساه ويجعله نصب عينه فعل ، فإن نفع ذلك راجع إليه . والضمير في (إنه) و(ذكره) للتذكرة في قوله (فألم عن التذكرة معرضين) وإنما ذكر لأنها في معنى الذكر أو القرآن (وما يذكرون إلا أن يشاء الله) يعني : إلا أن يقسمهم على الذكر ويلجئهم إليه . لأنهم مطبوع على قلوبهم . معلوم أنهم لا يؤمنون اختياراً (هو أهل التقوى وأهل المغفرة) هو حقيق بأن يتقيه عباده مريخافوا عقابه ، فيؤمنوا ويطيعوا ، وحقيق بأن يغفر لهم إذا آمنوا وأطاعوا . وروى أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هو أهل أن يتقى ، وأهل أن يغفر لمن اتقاه »^(١) وقرئ : يذكرون . بالياء والتاء مخففاً ومشدداً .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة المدثر أعطاه الله عشر حسنات بعدد من صدق بمحمد وكذب به بمكة »^(٢) .

سورة القيامة

مكية ، وآياتها ٤٠ [نزلت بعد القارعة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَأَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ① وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ② أَلَيْسَ ③
الْإِنْسَانُ أَلَّا نَجْعَ عِظَامُهُ ④ بَلَى قَدِيرِينَ ⑤ عَلَى أَنْ تُسَوِّيَ بَنَانَهُ ⑥
بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ⑦ نَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ⑧

(١) أخرجه الترمذى والنسائى وابن ماجه والطبرانى في الأوسط وابن عدى والحاكم وأحمد وأبو يعلى والبراز كلهم من رواية سهل بن إبراهيم العطفي عن ثابت عن أنس رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في هذه الآية « قال الله تعالى : أنا أعلم أن أتقى - إلى آخره » قال الترمذى والطبرانى وابن عدى : تفرد به سهل . ورواه الحكميم الترمذى في السابغ والسبعين بعد المسألة ، بلفظ « قال : هو أهل أن يتقى . فمن اتقى فهو أهل أن يغفر له » وله شاهد من رواية عبد الله قال سمعت ثلاثة نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبا هريرة وابن عمر وابن عباس رضى الله عنه يقولون : مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى فذكره .

(٢) أخرجه الخطيب وابن مردويه والواحدى بأسانيدهم إلى أبيه بن كعب .

إدخال « لا ، النافية على فعل القسم مستفيض في كلامهم وأشعارهم . قال امرؤ القيس :

لَا وَأَبِيكَ آتِيَّةَ النَّاصِرِيَّ لَا يَدْعِي الْقَوْمُ أَنِّي أَفِرُّ^(١)

وقال غوثة بن سلى :

أَلَا نَادَتِ أُمَامَةُ بِاحْتِمَالٍ لَتَحْزُنَنِي فَلَا بَكَ مَا أَبَالِي^(٢)

وفائدتها تأكيد القسم ، وقالوا إنها صلة مثلها في (لئلا يعلم أهل الكتاب) وفي قوله :

• فِي بَيْتَرٍ لَأَحْوَرٍ مَرَرَى وَمَا شَعَرَ •^(٣)

واعترضوا عليه بأنها إنما تزداد في وسط الكلام لافي أوله ، وأجابوا بأن القرآن في حكم سورة واحدة متصل ببعضه ببعض ، والاعتراض صحيح ؛ لأنها لم تقع مزيدة إلا في وسط الكلام ، ولكن الجواب غير سديد . ألا ترى إلى امرئ القيس كيف زادها في مستهل قصيدته . والوجه أن يقال : هي للنفي . والمعنى في ذلك أنه لا يقسم بالشئ إلا إعظاماً له يدل ذلك عليه قوله تعالى (فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) فكأنه بإدخال حرف النفي يقول : إن إعظامي له ياقسامي به كلا إعظام ؛ يعنى أنه يستأهل فوق ذلك . وقيل إن « لا ، نفي لكلام

(١) تقدم شرح هذا القاعد بالجزء الأول صفحة ٦٩٢ فراجع إن شئت اه مصححه .

(٢) إذا نادت أمامة باحتمال لتحزنتي فلا بك ما أبالي

فسرى ما بدالك أو أقيمي فأيا ما أتيت في نقالي

لغومة بن سلى بن ربيعة ، يقول : إذا أظهرت أمامة عجبتي أمارات الارتحال عنى لتحزنتي ، فأطلق النداء على ذلك مجازاً . ويروى «ألا» بدل «إذا» ولا زائدة قبل القسم ؛ لأنه المعنى فيحققك وحياتك ما أبالي ولا أحزن ، وحسن زيادتها : أنها في الغالب مسلطة على دعوى الخصم نافية لها ، وفي القسم بمحبوبته على عدم المبالاة ببعضها عنه نوع تمكيم بها . وقيل : المعنى فلا يقع ما أبالي على النداء ، وهذا إنما يظهر على رواية : فلا بك ما أبالي ؛ وأصله يكن ، أى : يحصل ، لحذف النون عند الجزم تخفيفاً ، وما موصولة . ويروى : فأبك ، أى : أبعدك الله : دعاء أهنأ . والتقال : التباغض ، أى : فسرى ما دام يظهر لك المسير ؛ أو أقيمي ، فهما منك سواء ، وأى شئ تفعليته فهو ناشئ عن تباغض بيني وبينك ، ومع ذلك لا أعنى بدأئك لأنى مشغول بأهم منك ؛ وهو موت أقاربه ، والتفت إليها بالخطاب ليصدها بالجواب .

(٣) في بئر لا حور مررى وما شعر بأفك حتى إذا أصبح جسر

«لا» زائدة بين المضاف والمضاف إليه شذوذاً . والحور - بالضم - : الملاك جمع حائر أى مالك ، كبزل وبازل ، ونزل ونازل . وقيل : الحور بمعنى الملاك ، وجمه : أحور ، أى : سرى في بئر هلاك وما درى بذلك . وقوله «بأفك» يجوز تعلقه بهجر ، ويجوز تعلقه بسرى ؛ وشبه سبب الهلاك بالبئر على طريق التصریح للتجهر والضرر بالوقوع في كل ، ولذلك قال : سرى ، وهو يناسب الظفة والخبرة ؛ لأنه بمعنى سار ليلاً . والافك : الباطل ؛ واستعار الصبح الحق على طريق التصریح . وحشر : أضاء . واضع ، حيث تبيّن كذبه ، أى : دام على كذبه حتى ظهر الحق .

وردة له قبل القسم ، كأنهم أنكروا البحث ف قيل : لا ، أى ليس الامر على ما ذكرتم ، ثم قيل : أقسم بيوم القيامة . فإن قلت : قوله تعالى (فلا وربك لا يؤمنون) والآيات التى أنشدتها : المقسم عليه فيها منى ، فهلا زعمت أن لا ، التى قبل القسم زيدت موطنه للتى بعده ومؤكدة له ، وقدرت المقسم عليه المحذوف ههنا منفياً ، كقولك (لا أقسم بيوم القيامة) ، لا تكون سدى ؟ قلت : لو قصر الامر على التنى دون الإثبات لكان لهذا القول مساغ ، ولكنه لم يقصر . ألا ترى كيف لقي (لا أقسم بهذا البلد) بقوله (لقد خلقنا الإنسان) وكذلك (فلا أقسم بمواقع النجوم) بقوله (إنه لقرآن كريم) وقرئ : لا أقسم ، على أن اللام للابتداء . وأقسم خبر مبتدأ محذوف ، معناه : لا أنا أقسم . قالوا : ويعضده أنه فى الإمام بنير ألف (بالنفس الواو) بالنفس المتقية التى تلوم النفوس فيه أى فى يوم القيامة على تقصيرهن فى التقوى أو بالتى لا تزال تلوم نفسها وإن اجتهدت فى الإحسان . وعن الحسن : إن المؤمن لا تراه إلا لا ثماً نفسه ، وإن الكافر يعضى قدما لا يعاتب نفسه^(١) . وقيل : هى التى تتلو يومئذ على ترك الأزدباد إن كانت محسنة . وعلى التفريط إن كانت مسيئة . وقيل : هى نفس آدم ، لم تزل تلوم على فعلها الذى خرجت به من الجنة . وجواب القسم ما دل عليه قوله (أبحسب الإنسان أن لن نجتمع عظامه) وهو لتبعثن . وقرأ قتادة : أن لن نجتمع عظامه ، على البناء للمفعول . والمعنى : نجتمعها بعد تفرقها ورجوعها رمياً ورفاً محتطاً بالتراب ، بعدما سقتها الرياح وطيرتها فى أباعد الأرض . وقيل إن عدى ابن أبى ربيعة ختن الأخنس بن شريق^(٢) وهما اللذان كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيهما : اللهم اكفنى جارى السوء^(٣) قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا محمد حدثنى عن يوم القيامة متى يكون وكيف أمره ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقال : لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك يا محمد ولم أؤمن به أو يجمع الله العظام ، فنزلت (بلى) أوجب ما بعد التنى وهو الجمع ، فكأنه قيل (بلى) نجتمعها . و(قادرين) حال من الضمير فى نجتمع ، أى : نجتمع العظام قادرين على تأليف جميعها وإعادة تها إلى التركيب الأول ، إلى أن نسوى بنانه أى : أصابعه التى هى أطرافه ، وآخر ما يتم به خلقه . أو على أن نسوى بنانه ونضم سلامياته على صغرهما ولطافتها بعضها إلى بعض كما كانت أولاً من غير نقصان ولا تفاوت ، فكيف بكبار العظام . وقيل : معناه بلى نجتمعها ونحن قادرون على أن نسوى أصابع يديه

(١) قوله : « وأب الكافر يعنى قدما لا يعاتب » فى الصحاح معنو قدما - بضم الدال - : لم يرج ولم يثنى له . (ع)

(٢) قوله « ختن الأخنس بن شريق » فى الصحاح « الخن » بالتحريك : كل من كان من قبل المرأة مثل الأب والأخ ؛ وعند العامة : ختن الرجل زوج ابنته . (ع)

(٣) ذكره الثعلبى والبيهقى ، والواحدى بنير إسناد .

ورجليه ، أى نجعلها مستوية شيئاً واحداً تكف البعير وحافر الحمار لانفراق بينهما ، فلا يمكنه أن يعمل بها شيئاً مما يعمل بأصابعه المفرقة ذات المفصل والآنامل من فنون الأعمال ، والبسط والقبض ، والثانى لما يريد من الحوائج . وقرئ قادرون ، أى : نحن قادرون ، ﴿ بل يريد ﴾ عطف على ﴿ أحسب ﴾ فيجوز أن يكون مثله استفهاماً ، وأن يكون إيجاباً على أن يضرب عن مستفهم عنه إلى آخر . أو يضرب عن مستفهم عنه إلى موجب ﴿ ليفجر أمامه ﴾ ليدوم على فجوره فيما بين يديه من الأوقات وفيما يستقبله من الزمان لا ينزع عنه . وعن سعيد بن جبير رضى الله عنه : يقدم الذنب ويؤخر الثوب . يقول : سوف أتوب ، سوف أتوب : حتى يأتيه الموت على شر أحواله وأسوأ أعماله ﴿ يسئل ﴾ سؤال متعنت مستبعد لقيام الساعة فى قوله ﴿ أيا ن يوم القيامة ﴾ ونحوه : ويقولون متى هذا الوعد .

فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ⑦ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ⑧ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ⑨
يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ⑩ كَلَّا لَا وَزَرَ ⑪ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ
الْمُسْتَقَرُّ ⑫ يُنْبِئُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ⑬ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ
نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ⑭ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ⑮

﴿ برق البصر ﴾ تحير فزعاً ، وأصله من برق الرجل إذا نظر إلى البرق فدهش بصره . وقرئ : برق من البرق ، أى لمع من شدة شخوصه . وقرأ أبو السمال : بلى إذا انفتح وانفجر . يقال : بلى الباب وأبلقته وبلقته : فتحته ﴿ وخسف القمر ﴾ وذهب ضوؤه ، أو ذهب بنفسه . وقرئ : وخسف على البناء للفعول ﴿ وجمع الشمس والقمر ﴾ حيث يطالعهما الله من المغرب . وقيل : وجما في ذهاب الضوء ^(١) . وقيل : يجمعان أسودين مكورين كأنهما ثوران عقيران فى النار . وقيل : يجمعان ثم يقذفان فى البحر ، فيكون نار الله الكبرى ﴿ المفتر ﴾ بالفتح المصدر ، وبالكسر : المكان . ويجوز أن يكون مصدراً كالمراجع . وقرئ بهما ﴿ كلا ﴾ ردع عن طلب المفتر ﴿ لا وزر ﴾ لا ملجأ ، وكل ما التجأت إليه من جبل أو غيره وتخلصت به فهو وزرك ﴿ إلى ربك ﴾ خاصة ﴿ يومئذ ﴾ مستقر العباد ، أى استقرارهم ، يعنى : أنهم لا يقدر أن يستقروا إلى غيره وينصبوا إليه . أو إلى حكمه ^(٢) ترجع أمور العباد ، لا يحكم فيها غيره ، كقوله (لن الملك اليوم) أو إلى ربك مستقرهم ، أى : موضع قرارهم من جنة أو نار ، أى : مفوض ذلك إلى مشيئته ، من شاء أدخله

(١) قوله : وقيل وجما في ذهاب الضوء ، لعله : وقيل جمعا . (ع)

(٢) قوله : وينصبوا إليه أو إلى حكمه ، فى الصحاح : نصب القوم ، : ساروا يومهم ، وهو سير لين ، ونصب

الرجل - بالكسر - نصبا : تعبا . (ع)

الجنة ومن شاء أدخله النار ﴿بما قدم﴾ من عمل عمله ﴿و﴾ بما ﴿آخر﴾ منه لم يعمل أو بما قدم من ماله فتصدق به ، أو بما أخره تخلفه . وبما قدم من عمل الخير والشر ، وبما أخر من سنة حسنة أو سيئة فعمل بها بعده . وعن مجاهد : بأول عمله وآخره . ونحوه : فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه ﴿بصورة﴾ حجة بينة وصفت بالبصارة على المجاز ، كما وصفت الآيات بالإبصار في قوله ﴿فلما جاءتهم آياتنا مبصرة﴾ أو عين بصيرة . والمعنى أنه ينبأ بأعماله وإن لم ينبأ ، ففيه ما يحزى عن الإنبياء ؛ لأنه شاهد عليها بما عملت ؛ لأن جوارحه تنطق بذلك (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) ، ﴿ولو ألقى معاذيره﴾ ولو جاء بكل معذرة يعتذر بها عن نفسه ويجادل عنها . وعن الضحاك : ولو أرحى ستوره ، وقال : المعاذير الستور ، واحداها معذار ، فإن صح فلائنه يمنع رؤية المحتجب ، كما تمنع المعذرة عقوبة المذنب . فإن قلت : أليس قياس المعذرة أن تجمع معاذر لا معاذير ؟ قلت : المعاذير ليس بجمع معذرة ، إنما هو اسم جمع لها ، ونحوه : المناكير في المنكر .

لَا تُحْزَنْكَ بِذِهِ لِسَانُكَ لِتَتَمَجَّلَ بِهِ ۖ (١٦) إِنَّا عَلَّمْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧)
فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّا عَلَّمْنَاهُ بَيَانَهُ (١٩) كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ
الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) وَجُودَ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا
نَاطِرَةٌ (٢٣) وَجُودَ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) فَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥)

الضمير في ﴿به﴾ للقرآن . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا لقن الوحي نازع جبريل القراءة ، ولم يصبر إلى أن يتمها ، مسارعة إلى الحفظ وخوفاً من أن يتفك منه ، فأمر بأن يستنصت له ملقياً إليه بقلبه وسمعه ، حتى يقضى إليه وحيه ، ثم يقف به بالدراسة إلى أن يرسخ فيه . والمعنى : لا تحزرك لسانك بهراءة الوحي مادام جبريل صلوات الله عليه يقرأ ﴿لتعجل به﴾ لناخذه على عجلة ، وكذا يتفك منك . ثم علل النهي عن العجلة بقوله ﴿إن علينا جمعه﴾ في صدرك وإثبات قراءته في لسانك ﴿فإذا قرأناه﴾ جعل قراءة جبريل قراءته : والقرآن : القراءة ﴿فاتبع قرآنه﴾ فكأن مقفياً له فيه ولا ترأسه ، وطأمن نفسك أنه لا يبق غير محفوظ ، فنحن في ضمان تحفيظه ﴿ثم إن علينا بيانه﴾ إذا أشكل عليك شيء من معانيه ، كأنه كان يعجل في الحفظ والسؤال عن المعنى جميعاً ، كما ترى بعض الحراص على العلم ؛ ونحوه (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه) ، ﴿كلا﴾ ردع لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن عادة العجلة وإنكار لها عليه ، وحث على الانابة والتوادة ، وقد بالغ في ذلك بإتباعه قوله ﴿بل تحبون

العاجلة) كأنه قال : بل أنتم يا بني آدم لأنكم خلقتُم من عجل وطبعتم عليه تمجلون في كل شيء ، ومن ثم تحبون العاجلة (وتذرون الآخرة) وقرئ بالياء وهو أبلغ . فإن قلت : كيف اتصل قوله (لا تحرك به لسانك) إلى آخره ، بذكر القيامة ؟ قلت : اتصاله به من جهة هذا التخلص منه ، إلى التوبيخ بحب العاجلة وترك الاهتمام بالآخرة . الوجه : عبارة عن الجملة ^(١) . والناصرة : من نضرة النعيم (إلى ربها ناظرة) تنظر إلى ربها خاصة لا تنظر إلى غيره ، وهذا معنى تقديم المفعول . ألا ترى إلى قوله (إلى ربك يومئذ المستقر) ، (إلى ربك يومئذ المساق) ، (إلى الله تصير الأمور) ، (وإلى الله المصير) ، (وإليه ترجعون) ، (عليه توكلت وإليه أنيب) كيف دل فيها التقديم على معنى الاختصاص ، ومعلوم أنهم ينظرون إلى أشياء لا يحيط بها الحصر ولا تدخل تحت العدد في محشر يجتمع فيه الخلائق كلهم ، فإن المؤمنين نظارة ذلك اليوم . لأنهم الآمنون الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فاختصاصه بنظرهم إليه لو كان منظورا ^(٢) إليه : محال ، فوجب حمله على معنى يصح معه الاختصاص ، والذي يصح معه أن يكون من قول الناس : أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بي ، تريد معنى التوقع والرجاء . ومنه قول القائل :

وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَيْكَ مِنْ مَلِكٍ وَالْبَحْرُ دُونَكَ زِدْنِي نِعَمًا ^(٣)

وسمعت سرورية مستجدة بمكة وقت الظهر حين يغلق الناس أبوابهم ، ويأوون إلى منازلهم . تقول : عييتي نويطرة إلى الله وإليكم ، والمعنى : أنهم لا يتوقعون النعمة والكرامة إلا من ربه ، كما كانوا في الدنيا لا يخشون ولا يرجون إلا إياه ، والباسر : الشديد العبوس ، والباسل : أشد

(١) قال محمد : « الوجه كناية عن الجملة ، وقدم إلى ربها ليفيد الحصر ... الخ . قال أحد : ما أقصر لسانه عند هذه الآية ، فكيف له يمدن ويطل في جسد الرؤية ويشقق القباء ويكثر ويشعق ، فلما فغرت هذه الآية فاه : صنع في مصادمتها بالاستدلال ، على أنه لو كان المراد الرؤية لما انحصرت بتقديم المفعول ، لأنها حينئذ غير منحصرة على تقدير رؤية الله تعالى ، وما يعلم أن المتمتع برؤية جمال وجه الله تعالى لا يصرف عنه طرفه ، ولا يؤثر عليه غيره ، ولا يمد له به عز وعلا منظورا سواء ؛ وحقيق له أن يحصر رؤيته إلى من ليس كئله شيء ؛ ونحن نشاهد العاشق في الدنيا إذا أظفرته برؤية محبوبه لم يصرف عنه لحظة ، ولم يؤثر عليه ؛ فكيف بالحب لله عز وجل إذا أحاطه النظر إلى وجهه الكريم ، نسأل الله العظيم أن لا يصرف عنا وجهه ، وأن يهدينا عن مزالق البهدة ومزلات الشبهة ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

(٢) قوله « لو كان منظورا إليه » عدم كونه منظورا إليه تعالى مبنى على مذهب المعتزلة ، وهو عدم جواز رؤيته تعالى . ومذهب أهل السنة جوازها . ويجوز أن يكون تقديم المفعول هنا للاهتمام بذكر المنظور إليه ، الذي يقتضى النظر إليه نضرة وجوه الناظرين ، لا للاختصاص . (ع)

(٣) يقول : وإذا رجوت مكارمك زدني نعمًا فالنظر إليه كناية عن ذلك . ويجوز أن المعنى : بمجرد نظري إليك تيميني فوق مشولي ، ولا تحتاج إلى التصريح بالطلب . ومن ملك : تمييز مقترون بمن . والبحر دونك : جملة اعتراضية أو حالية ، أى : أقل منك في الخيرات والمكارم .

منه ، ولكنه غلب في الشجاع إذا اشتد كلوحه (نظن) تتوقع أن يفعل بها فعل هو في شدته وفضاءته (فاقرة) داهية تقصم فقار الظهر ، كما توقعت الوجوه الناضرة أن يفعل بها كل خير .

كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ النَّرَاقِ ٢٦ وَفِيلَ مَن رَّاقٍ ٢٧ وَظَنُّوا أَنَّهُ الْفِرَاقُ ٢٨
وَالْتَفَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ٢٩ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ٣٠

(كلا) ردع عن إبطار الدنيا على الآخرة ، كأنه قيل : ارتدعوا عن ذلك ، وتنبهوا على ما بين أيديكم من الموت الذي عنده تنقطع العاجلة عنكم ، وتنتقلون إلى الآجلة التي تبقون فيها مخلدين . والضمير في (بلغت) للنفس وإن لم يجر لها ذكر ، لأن السلام الذي وقعت فيه يدل عليها ، كما قال حاتم :

أَمَاوِيٍّ مَا يَنْفِي الشَّرَاءَ عَنِ الْفَقَى إِذَا حَشَرَجَتْ يَوْمًا وَصَاقَ بِهَا الصَّدْرُ (١)

وتقول العرب : أرسلت ، يريدون : جاء المطر ، ولا تكاد تسمعونهم يذكرون السماء (التراق) العظام المكتنفة لشجرة النحر عن يمين وشمال . ذكرهم صعوبة الموت الذي هو أول مراحل الآخرة حين تبلغ الروح التراقي ودنا زهوها : وقال حاضرو صاحبها - وهو المحتضر - بعضهم لبعض (من راق) أيكم يرقه بما به ؟ وقيل : هو من كلام ملائكة الموت : أيكم يرقى بروحه ؟ ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب ؟ (وظن) المحتضر (أنه الفراق) أن هذا الذي نزل به هو فراق الدنيا المحبوبة (والتفت) ساقه بساقه والثرت عليها عند عز (٢) الموت . وعن قتادة : ماتت رجلاه فلا تحملانه ، وقد كان عليهما جوالا . وقيل : شدة فراق الدنيا بشدة إقبال

(١) أماوي ما ينفي الشراء عن الفقى إذا حشرجت يوما وصاق بها الصدر
وأي إن المال غاد ورائح وبقى من المال الأحاديث والذكر
وقد علم الأقوام لو أن حاتمًا أراد ثراء المال كان له وفر

حاتم الطائي ، والمهزة للنداء . وماوى : مرعى ، أصله : ماوية ، اسم أمه وهي بنت عفير ، وكانت تلومه . وأصله : نسبة للباء ، لأنها تشبه في اللون والرفق والصفاء والثراء . والثررة : الفقى . والحشرجة : تردد صوت النفس في الصدر . والضمير للنفس وإن لم تذكر ادعاء لشهرتها . روى أنه لما احتضر أبو بكر رضى الله عنه قالت له عائشة لعمرك ما يعني ... البيت ، فقال : لا تقول هذا يا بنية (وجاءت سكرة الحق بالموت) وهي قراءة منسوبة إليه وكرر نداء ماوية للتفريع ، وغاد ورائح : آت وذاهب . وقوله «من المال» أى من آثاره ، ولو كفت «علم» عن العمل في المفعول وعبر عن نفسه بالظاهر : لأن هذا الكلام تتحدث به نفوس الأقوام ، فاعتبر صدوره منهم . وثراء المال : الفقى به ، أو جمعه . والوفى : الزيادة والمبالاة للكثير .

(٢) قوله «عز الموت» هو كالعادة تأخذ المريض . (ع)

الآخرة ، على أن الساق مثل في الشدة . وعن سعيد بن المسيب : هماساقه حين تلفان في أكفانه (المساق) أى يساق إلى الله وإلى حكمه .

فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى ٣١ وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى ٣٢ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ٣٣ أَوَلَى لَكَ فَأُوتَى ٣٤ ثُمَّ أَوَلَى لَكَ فَأُوتَى ٣٥

(فلا صدق ولا صلى) يعنى الإنسان فى قوله (أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه) ألا ترى إلى قوله (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) وهو معطوف على (يسأل أيا ن يوم القيامة) أى : لا يؤمن بالبعث ، فلا صدق بالرسول والقرآن ، ولا صلى . ويجوز أن يراد : فلا صدق ماله ، بمعنى : فلا زكاه . وقيل : نزلت فى أبى جهل (يتمطى) يتبختر . وأصله يتمطط ، أى : يتمدد ، لأن المتبختر يمد خطاه . وقيل : هو من المطا وهو الظهر ، لأنه يلويه . وفى الحديث : إذا مشى أمتى المعطيطاء وخدمتهم فارس والروم فقد جعل بأسهم بينهم ، (٣) يعنى : كذب برسول الله صلى الله عليه وسلم وتولى عنه وأعرض ، ثم ذهب إلى قومه يتبختر افتخارا بذلك (أولى لك) بمعنى ويل لك ، وهو دعاء عليه بأن يليه ما يكره .

أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ٣٦ أَلَمْ يَكُنْ نَفْثَةً مِنْ مِثْيٍ يُمْتَلِئُ ٣٧ ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَمَخْلَقَ فَسَوَّى ٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ الزُّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ٣٩ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِرٍ عَلَى أَنْ يُنْجِيَّ الْعَوْنَى ٤٠

(خلق) فقدر (فسوى) فعدل (منه) من الإنسان (الزوجين) الصنفين (أليس ذلك) الذى أنشأ هذا الإنشاء (بقادر) على الإعادة . وروى أن رسول الله صلى الله عليه

(١) أخرجه الترمذى وإسحاق وابن أبى شيبة وأبو يعلى . وابن عدى من رواية موسى بن عبيدة عن عبد الله ابن دينار عن ابن عمر . وموسى ضعيف . وروى الترمذى أيضا والبرار عن محمد بن إسماعيل عن أبى معاوية عن يحيى بن سعيد عن عبد الله بن دينار نحوه . قال الترمذى : ليس له أصل . وإنما المعروف حديث موسى بن عبيدة . وقال البرار : لا نعلم أحدا تابع عليه محمد بن إسماعيل وإنما يعرف عن موسى . واختلف فيه على يحيى بن سعيد . فرواه الحاكم من طريق حماد بن سلمة عنه عن عبيد عن خولة بنت قيس . ورواه الطبرانى فى الأوسط من رواية ابن لهيعة عن حمارة بن خزيمة عن يحيى بن جعفر عن مولى الزبير عن أبى هريرة . ورواه الأصمغانى فى الترغيب من طريق فرج بن فضالة عن يحيى بن جعفر عن مرسلا .

وسلم كان إذا قرأها قال سبحانك بلى^(١) .
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرأ سورة القيامة شهدت له أنا وجبريل يوم القيامة
أنه كان مؤمناً بيوم القيامة^(٢) .

سورة الإنسان

مدنية ، وآياتها ٣١ [نزلت بعد الرحمن]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ①

هل بمعنى وقد ، في الاستفهام خاصة ، والاصل : أهل ، بدليل قوله :

• أَهْلٌ رَأَوْنَا يَسْفَعُ الْقَاعَ ذِي الْأَكْمِ •^(٣)

فاللعنى : أقد أتى ؟ على التقرير والتقريب جميعاً ، أى : أتى على الإنسان قبل زمان قريب (حين من الدهر لم يكن) فيه (شيئاً مذكوراً) أى كان شيئاً منسياً غير مذكور نقطة في الاصلاب والمراد بالانسان : جنس بنى آدم ، بدليل قوله (إنا خلقنا الإنسان من نطفة) . (حين من الدهر) طائفة من الزمن الطويل الممتد . فإن قلت : ما محل (لم يكن شيئاً مذكوراً) ؟ قلت : محله النصب على الحال من الإنسان ، كأنه قيل : هل أتى عليه حين من الدهر غير مذكور . أو الرفع على الوصف لحين ، كقوله (يوماً لايجزى والد عن ولده) وعن بعضهم : أنها تليت عنده فقال : ليتها تمت ، أراد : ليت تلك الحالة تمت ، وهى كونه شيئاً غير مذكور ولم يخلق ولم يكلف .

(١) أبو داود . من رواية موسى بن أبى عاتقة عن رجل سمعه عن النبي صلى الله عليه وسلم ورواه الحاكم من رواية إسماعيل بن أمية عن أبى اليسع عن أبى هريرة نحوه (قلت) راويه عن إسماعيل عند الحاكم يزيد بن عياض متروك . ولكن أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى من طريق سفيان بن عيينة عن إسماعيل عن رجل عن أبى هريرة . واختلف فيه على إسماعيل على أوجه أخرى ذكرتها في حاشية الأطراف .

(٢) أخرجه الثعلبي والواحدى وابن مردويه بإسنادهم إلى أبى بن كعب .

(٣) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثالث صفحة ٣٤٢ فراجع إن شئت اه . صححه .

إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾

(نطفة أمشاج) كبرمة أعشار^(١)، وبرد أكاش: وهي الفاظ مفردة غير جموع، ولذلك وقعت صفات للأفراد. ويقال أيضا: نطفة مشج، قال الشماخ:

كَوَتْ أَحْشَاءَهُ مِنْ نَجَةٍ لَوْ قَتِ عَلَى مَشَجٍ سُلَاتُهُ مَهِينُ^(٢)

ولا يصح أمشاج أن يكون تكسيرا له، بل هما مثلان في الإفراد، لوصف المفرد بهما. ومشجه ومزجه: بمعنى. والمعنى من نطفة قد امتزج فيها الما آن. وعن ابن مسعود: هي عروق النطفة. وعن قتادة: أمشاج ألوان وأطوار، يريد: أنها تكون نطفة، ثم علقه، ثم مضغة (نبتليه) في موضع الحال، أي: خلقناه مبتلين له، بمعنى: مريرين ابتلاء، كقولك: مررت برجل معه صقر صائداً به غداً، تريد: قاصداً به الصيد غداً. ويجوز أن يراد: ناقلين له من حال إلى حال، فسمى ذلك ابتلاء على طريق الاستمارة. وعن ابن عباس: نصرفه في بطن أمه نطفة ثم علقه. وقيل: هو في تقدير التأخير، يعني: فجعلناه سميعاً بصيراً لنبتليه، وهو من التصف.

إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾

شاكراً وكفوراً: حالان من الهاء في هديناه^(٣)، أي: مكناه وأقدرناه في حالتيه جميعاً. أو دعواناه إلى الإسلام بأدلة العقل والسمع: كان معلوماً منه^(٤) أنه يؤمن أو يكفر؛ لإلزام الحجة. ويجوز أن يكونا حالين من السبيل، أي: عرفناه السبيل إما سبيلاً شاكراً وإما سبيلاً كفوراً كقوله (وهديناه النجدين) ووصف السبيل بالشكر والكفر مجاز. وقرأ أبو الصمال بفتح الهمزة

(١) قوله د كبرمة أعشار، في الصحاح: برمة أعشار، إذا انكسرت قطعاً وقلب أعشار: جاء هل بناء الجمع، كما قالوا: ربح أقصاده، ولم يذكر أكاش ولا مادته فيه، فلينظر في غيره. (ع)

(٢) للشماخ: ورتجت الباب وأرتجته: إذا أغلقته. والرتاج: الباب. ومفج الشيء: مزجه. والمشج: كسب. - الممزوج. ومثله: أمشاج؛ فهو مفرد على صورة الجمع كأخلاق. وقيل: جمع مشج. والسلافة: في الأصل: ما ينسل من بين الأصابع من الطين المائع. والمهين: الحقير، يصف امرأة قبلت المني في فرجها وطوت قبلها عليه. ومرتجة صفة للأحشاء: أي مغلفة إلى وقت تمام الخلق. على مني مختلط من مني الرجل ومنها، سلالة: أي ما أنسل وتدفق منه: مهين: حقير. وقيل: بوصف به المذكر والمؤنث، والواحد والمتعدد.

(٣) قال محمود: هما حالان من الهاء في هديناه... الخ، قال أحد: هذا من تحريفه المنكر وهو عند أهل السنة على ظاهره.

(٤) قال محمود: وأو يكون معناه إنا دعواناه إلى الإيمان كان معلوماً منه... الخ، قال أحد: واستحصانه لقراءة أبي الصمال لتبيله أن في التقسيم إشعاراً بفرضه للقاسد، وليس كذلك: فإن التقسيم يحتمل الجزاء إما شاكراً فتاب، وإما كفوراً فعاقب، ويرشد إليه ذكر جزاء الفريقين بعد.

في (أما) وهي قراءة حسنة . والمعنى : أما شاكرًا فتتوقفنا ، وأما كفورًا فبسوء اختياره ^(١)

إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ①

ولما ذكر الفريقين أتبعهما الوعيد والوعد . وقرئ : سلاسل ، غير منون . وسلاسل ، بالتثنية ^(٢) . وفيه وجهان : أحدهما أن تكون هذه النون بدلا من حرف الإطلاق ، ويجرى الوصل مجرى الوقف . والثاني : أن يكون صاحب القراءة به ممن ضرى برواية الشعر وممن لسانه على صرف غير المنصرف .

إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ② عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا

عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ③ يُوفُونَ بِالْإِذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ

مُسْتَطِيرًا ④ وَيُطْعَمُونَ أَطْعَامًا عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ⑤

إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ⑥ إِنَّا نَخَافُ مِنْ

رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ⑦

(الابرار) جمع برّ أو بارز ، كرب وأرباب ، وشاهد وأشهاد . وعن الحسن : هم الذين لا يؤذون الذر ^(٣) . والكأس : الزجاجة إذا كانت فيها خمر ، وتسمى الخمر نفسها : كأساً (مزاجها) ما تمزج به (كافوراً) ماء كافور ، وهو اسم عين في الجنة ماؤها في بياض الكافور ^(٤) ورائحته

(١) قوله : فسوء اختياره ، هذا على مذهب المعتزلة أنه تعالى لا يخلق الشر ، أما عند أهل السنة فهو خالق الخير والشر ، كالشكر والكفر . (ع)

(٢) قال محمود : ، قرئ : بتثنية سلاسل فوجهه أن تكون هذه النون بدلا من ألف الإطلاق ... الخ ، قال أحمد : وهذا من الطراز الأول لأن مقتضى القراءة المستفيضة غير موقوفة على النقل المتواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم في تفاصيلها ، وأنها موكولة إلى اجتهاد القراء واختيارهم بمقتضى نظرهم كما مره ، ولم هل ذلك هنا لجعل تثنية سلاسل من قبيل اللفظ الذي يسبق إليه اللسان في غير موضعه لقرئته عليه في موضعه ، والحق أن جميع الوجوه المستفيضة منقولة تواترا عنه صلى الله عليه وسلم ، وتثنية هذا على لغة من يصرف في نثر الكلام جميع ما لا ينصرف إلا أفعل ؛ والقراءات مشتقة على اللغات المختلفة ، وأما قوارير قوارير : فقرأ : بترك تنوينها وهو الأصل ، وتثنية الأول خاصة بدلا من ألف الإطلاق لأنها فاصلة ، وتثنية الثانية كالأولى اتباعا لها ؛ ولم يقرأ أحد بتثنية الثانية وترك تثنية الأولى ، فإنه عكس أن يترك تثنية فاصلة مع الحاجة إلى المجانسة ، وتثنية غيرها من غير حاجة .

(٣) قوله : لا يؤذون الذر ، في الصحاح : الذر ، الغل . (ع)

(٤) قال محمود : : كافورا عين في الجنة اسمها كذلك في لون الكافور ورائحته وبرده ... الخ ، قال أحمد : هذا =

وبرده . و (عينا) بدل منه . وعن قتادة : تمزج لهم بالكافور وتحتم لهم بالمسك . وقيل : تخلق فيها رائحة الكافور ويأضه وبرده . فكانها مزجت بالكافور . و (عينا) على هذين القولين : بدل من محل (من كأس) على تقدير حذف مضاف ، كأنه قيل : يشربون فيها خمر عين . أو نصب على الاختصاص . فإن قلت : لم وصل فعل الشرب بحرف الابتداء أولا ، وبحرف الإلصاق آخر ؟ قلت : لأن الكأس مبدأ شربهم وأول غايته ؛ وأما العين فيها يمزجون شرابهم ، فكان المعنى : يشرب عباد الله بها الخمر ، كما تقول : شربت الماء بالعسل (يفجرونها) يمجرونها حيث شاءوا من منازلهم (تفجيرا) سهلا لا يمتنع عليهم (يوفون) جواب من عسى ، يقول : ما لهم يرزقون ذلك ، والوفاء بالنذر مبالغة في وصفهم بالتوفر على أداء الواجبات ؛ لأن من وفى بما أوجبه هو على نفسه لوجه الله كان بما أوجبه الله عليه أوفى (مستطيرا) فاشيا منتشرا بالغا أقصى المبالغ ، من استطار الحريق ، واستطار الفجر . وهو من طار ، بمنزلة استنفر من نفر (على حبه) الضمير للطعام ، أى : مع اشتهاؤه والحاجة إليه . ونحوه (وآتى المال على حبه) (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) وعن الفضيل بن عياض : على حب الله (وأسيرا) عن الحسن : كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم يؤتى بالأسير فيدفعه إلى بعض المسلمين فيقول : أحسن إليه ؛ فيكون عنده اليومين والثلاثة ، فيؤثره على نفسه . وعند عامة العلماء : يجوز الإحسان إلى الكفار في دار الإسلام ولا تصرف إليهم الواجبات . وعن قتادة : كان أسيرهم يومئذ المشرك ، وأخوك المسلم أحق أن تطعمه . وعن سعيد بن جبير وعطاء : هو الأسير من أهل القبلة . وعن أبي سعيد الخدري : هو المملوك والمسجون . وسعى رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم الغريم : أسيرا ، فقال : غريمك أسيرك فأحسن إلى أسيرك ، (إنما نطعمكم) على إرادة القول . ويجوز أن يكون قولاً باللسان منعاً لهم عن المجازاة بمثله أو بالشكر ؛ لأن إحسانهم مفعول لوجه الله ؛ فلا معنى لمكافأة الخلق . وأن يكون قولهم لهم لطفاً وتفقهاً وتنبيهاً ، على ما ينبغي أن يكون عليه من إخلاص لله . وعن عائشة رضى الله عنها أنها كانت تبعث بالصدقة إلى أهل بيت ، ثم تسأل الرسول ما قالوا ؟ فإذا ذكر دعاء دعته لهم بمثله ليبقى ثواب الصدقة لها خالصاً عند الله . ويجوز أن يكون ذلك بياناً وكشفاً عن اعتقادهم وصحة نيتهم وإن لم يقولوا شيئا . وعن مجاهد :

== الجواب على القولين الأولين ؛ وأما على القولين الآخرين وهو أن العين بدل من الكأس . ومعنى مزاجها بالكافور : إما اشتهاؤها على أوصافه ، وإما أن يكون الكافور المعهود كما تقدم ، فلا يتم الجواب المذكور ، فيجيب عن السؤال بأنه لما ذكر الشراب أولا باعتبار الوقوع في الوجود ، ذكره ثانياً مطعناً للالتذاذ به ، وكأنه قال : فيشربون منها فيلتذون بها ؛ وعليه حله أبو عبيدة .

أما إنهم ما تكلموا به ، ولكن عليه الله منهم فأنى عليهم . والشكور والكفور : مصدران كالشكر والكفر (إنا نخاف) يحتمل إن إحساننا إليكم للخوف من شدة ذلك اليوم ، لا لإرادة مكافأتكم ؛ وإنا لا نزيد منكم المكافأة خوفاً لعقاب الله تعالى على طلب المكافأة بالصدقة . ووصف اليوم بالعبوس . مجاز على طريقين : أن يوصف بصفة أهله من الأشقياء ، كقولهم : نهارك صائم : روى أن الكافر يعبس يومئذ حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران ، وأن يشبه في شدته وضرره بالأسد العبوس أو بالشجاع الباسل : والقمطير : الشديد العبوس الذي يجمع ما بين عينيه . قال الزجاج : يقال : أقطرت الناقة : إذا رفعت ذنبها وجمعت قطريها وزمت بأنفها ^(١) ، فاشتقه من القطر وجعل الميم مزيدة . قال أسد بن ناعصة ^(٢)

وَأَصْطَلَمْتُ الْحُرُوبَ فِي كُلِّ يَوْمٍ بِأَسِلِ الشَّرِّ قَمَطِيرِ الصَّبَاحِ ^(٣)

فَوَقَّاهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ^(١١) وَجَزَّاهُمْ يَمًا
صَبْرًا وَجَنَّةً وَحَرِيرًا ^(١٢) مُتَكَبِّينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَيْئًا
وَلَا زَمَهْرِيرًا ^(١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذَلِيلًا ^(١٤)
وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ^(١٥) قَوَارِيرَ مِنْ
فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ^(١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ^(١٧)
عَمِيمًا فِيهَا كُسْعَى سَلْسِيلًا ^(١٨) وَيُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانُ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ
حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْنُورًا ^(١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ نَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلُكًا كَبِيرًا ^(٢٠)
عَلَيْهِمْ نِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَامُ رُبَّمَا

(١) قوله «وجمعت قطريها وزمت بأنفها» القطر : الناحية والجانب . وزق الطائر فرخه : أطعمه بفيه .
والزفرة : ترقص الطفل ، كذا في الصحاح . (ع)

(٢) قوله «قال أسد بن ناعصة» من النقص : وهو النمايل . (ع)

(٣) لأسد بن ناعصة . وصل النار واصطلاها إذا ذاق شدة حرها وتدفأ بها ، فشبه الحرب بالنار على طريق
المكينة ، والاصطلاء تخيل ، والباسل : الشجاع إذا اشتد كلوجه . والقمطير : الشديد العبوس الذي يجمع ما بين
عينيه ، يقال : أقطرت الناقة : إذا جمعت قطريها فرفعت ذنبها وزمت بأنفها ، فهو من القطر ، والميم زائدة ، ووصف
الشر والصباح بذلك مجاز .

شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴿٢٢﴾

(ولقاهم نضرة وسرورا) أى: أعطاهم بدل عبوس الفجار وحزنهم نضرة في الوجوه وسرورا في القلوب ، وهذا يدل على أن اليوم موصوف بعبوس أهله (بما صبروا) بصبرهم على الإيثار . وعن ابن عباس رضى الله عنه : أن الحسن والحسين مرضا ، فعادهما رسول الله صلى الله عليه وسلم في ناس معه ؛ فقالوا : يا أبا الحسن ، لو نذرت على ولدك ^(١) ، فنذر على وفاطمة وفضة جارية لهما إن برآ عما بهما : أن يصوموا ثلاثة أيام ، فشفيا وما معهم شيء ، فاستقرض على من شعون الخيرى اليهودى ثلاث أصوع من شعير ، فطاحت فاطمة صاعا واختبرت خمسة أقراص على عددهم ، فوضعوها بين أيديهم ليفطروا فوقف عليهم سائل فقال : السلام عليكم أهل بيت محمد ، مسكين من مساكين المسلمين ، أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة ، فأثروه وباتوا لم يذوقوا إلا الماء ، وأصبحوا صياما ؛ فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يتيم ، فأثروه ؛ ووقف عليهم أسير في الثالثة ، ففعلوا مثل ذلك ؛ فلما أصبحوا أخذ على رضى الله عنه بيد الحسن والحسين وأقبلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما أبصرهم وهم يرتعشون كالفرأخ من شدة الجوع قال : ما أشد ما يسوءنى ما أرى بكم ، وقام فانطلق معهم فرأى فاطمة في محرابها قد التصق ظهرها ببطنها وغارت عيناها . فساء ذلك ، فنزل جبريل وقال : خذها يا محمد هنالك الله في أهل بيتك فأقرأه السورة . فإن قلت : ما معنى ذكر الحرير مع الجنة ؟ قلت : المعنى وجزاهم بصبرهم على الإيثار وما يؤذى إليه من الجوع والعري بستانا فيه ما كل هنى ، وحريرا فيه ملبس هنى . يعنى : أن هواءها معتدل ، لاحت شمس يحمى ولا شدة برد تؤذى . وفي الحديث : هواء الجنة سحسج ^(٢) ، لاحت ولا قتر . وقيل : الزمهرير القمر . وعن ثعلب : أنه في لغة طي . وأنشد :

وَأَيُّهَا ظِلَامُهَا قَدْ اعْتَسَكَرَ قَطَعْتُهَا وَالزَّمْهَرِيرُ مَا زَهَرَ ^(٣)

(١) أخرجه الثعلبي من رواية القاسم بن جرام عن ليث بن أبي سليم عن مجاهد عن ابن عباس ومن رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله تعالى (يوسف بالنذر - الآية) فذكر نساه . وزاد في أثنائه أشعارا لعل وفاطمة . قال الحكمي الترمذى في الرابع والأربعين : ومن الأحاديث التي تنكرها القلوب حديث روه عن مجاهد عن ابن عباس فذكره بشعره . ثم قال : هذا حديث مزوق مفتعل لا يروج إلا لى أحق جاهل . ورواه ابن الجوزى في الموضوعات من طريق أبي عبد الله السمرقندى . عن محمد بن كثير عن الأصم بن نباته . قاله : مرض الحسن والحسين . إلى آخره فذكره بشعره وزيادة ألفاظ . ثم قال : وهذا لانك في وضعه .

(٢) قوله «هواء الجنة سحسج» تفسيره ما بهده ، كما يفيد الصالح . (ع)

(٣) أى : ورب ليلة ظلامها قد تراكم واختلط وكثر ، قطعتها وأمضيها بالسير ، والحال أن الزمهرير ما زهر أى : ما ظهر وأضاء . والزمهرير في لغة طي : القمر ؛ وهذه الحال مؤكدة لاعتسار الظلام .

والمعنى : أن الجنة ضياء فلا يحتاج فيها شمس وقر . فإن قلت : ﴿ ودانية عليهم ظلالها ﴾ علام عطفت ؟ قلت : على الجملة التي قبلها ؛ لأنها في موضع الحال من المجزيين ؛ وهذه حال مثلها عنهم لرجوع الضمير منها إليهم في عليهم ، إلا أنها اسم مفرد ، وتلك جملة في حكم مفرد تقديره : غير راثنين فيها شمساً ولازمهرا ، ودانية عليهم ظلالها ؛ ودخلت الواو للدلالة على أن الأمرين مجتمعان لهم ، كأنه قيل : وجزاهم جنة جامعين فيها بين البعد عن الحر والقر ودنو الظلال عليهم وقرئ : ودانية ، بالرفع ، على أن ظلالها مبتدأ ، ودانية خبر ، والجملة في موضع الحال ؛ والمعنى : لا يرون فيها شمساً ولازمهرا ، والحال أن ظلالها دانية عليهم ؛ ويجوز أن تجعل (متكئين) و(لا يرون) و(دانية) كلها صفات للجنة . ويجوز أن يكون (ودانية) معطوفة على جنة ، أى : وجنة أخرى دانية عليهم ظلالها ، على أنهم وعدوا جنتين ، كقوله (ولن خاف مقام ربه جنتان) لأنهم وصفوا بالخوف : (إنا نخاف من ربنا) . فإن قلت : فعلام عطفت ﴿ وذلك ﴾ ؟ قلت : هى - إذا رفعت (ودانية) - : جملة فعلية معطوفة على جملة ابتدائية ، وإذا نصبها على الحال ، فهى حال من دانية ، أى : تدنو ظلالها عليهم فى حال تذليل قطوفها لهم . أو معطوفة عليها على : ودانية عليهم ظلالها ، ومذلة قطوفها ؛ وإذا نصبت (ودانية) على الوصف ، فهى صفة مثلها ؛ ألا ترى أنك لو قلت : جنة ذلك قطوفها : كان صحيحاً ؛ وتذليل القطوف : أن تجعل ذللاً لا تمتنع على قطافها كيف شاؤا . أو تجعل ذليلاً لهم خاضعة متقاصرة ، من قولهم : حائط ذليل إذا كان قصيراً ﴿قوارير قوارير﴾ قرئنا غير مشونين ، وبتونين الأول ، وبتونينهما . وهذا التونين بدل من ألف الإطلاق ، لأنه فاصلة ؛ وفى الثانى لإتباعه الأول ، ومعنى قوارير من ﴿فضة﴾ أنها مخلوقة من فضة ، وهى مع بياض الفضة وحسناً فى صفاء القوارير وشفيفها . فإن قلت : مامعنى كانت ؟ قلت : هو من (يكون) فى قوله (كن فيكون) أى : تكونت قوارير ، بتكوين الله تفخيماً لتلك الخلقة العجيبة الشأن ، الجامعة بين صفى الجوهرين المتباينين . ومنه كان فى قوله : كانت مزاجها كافورا . وقرئ : قوارير من فضة ، بالرفع على : هى قوارير ﴿قدروها﴾ صفة لقوارير من فضة . ومعنى تقديرهم لها : أنهم قدروها فى أنفسهم أن تكون على مقادير وأشكال على حسب شهواتهم ، فجاءت كما قدروا . وقيل : الضمير للطاقين بها ، دل عليهم قوله (ويطاف عليهم) على أنهم قدروا شراؤها على قدر الرى ، وهو ألد للشارب لكونه على مقدار حاجته لا يفضل عنها ولا يعجز . وعن مجاهد : لا تفيض ولا تنفيض . وقرئ : قدروها ، على البناء للمفعول . ووجهه أن يكون من قدر ، متقولاً من قدر . تقول : قدرت الشيء وقدرنيه فلان : إذا جعلك قادراً له . ومعناه : جعلوا قادرين لها كما شاؤا . وأطلق لهم أن يقدرُوا على حسب ما اشتروا ، سميت العين زنجيلاً لعلم الزنجيل فيها ، والعرب تستلذه وتستطيعه .

قال الأعشى :

كَأَنَّ الْقَرْفَلَ وَالزُّنْجِيلَ بَاتَا فِيهَا وَأَزْيَا مُشَوْرَا ^(١)

وقال المسيب بن علس ^(٢)

وَكَأَنَّ طَعْمَ الزُّنْجِيلِ بِهِ إِذْ ذُقْتُهُ وَسُلَاقَةَ الْخَمْرِ ^(٣)

و (سلسيلا) سلاسة انحدارها في الخلق وسهولة مساغها ، يعنى : أنها في طعم الزنجيل وليس فيها لذعه ، ولكن تقيض اللذع وهو السلاسة . يقال : شراب سلسل وسلسال وسلسيل ، وقد زيدت الباء في التركيب حتى صارت الكلمة خماسية . ودلت على غاية السلاسة . قال الزجاج : السلسيل في اللغة : صفة لما كان في غاية السلاسة . وقرئ : سلسيل ، على منع الصرف ، لاجتماع العلمية والتأنيث : وقد عزوا إلى علي بن أبي طالب رضى الله عنه أن معناه سل سبيلا إليها ، وهذا غير مستقيم على ظاهره . إلا أن يراد أن جملة قول القائل : سل سبيلا ، جعلت علما للعين ، كما قيل : تأبطشراً ؛ وذرى حبا ؛ وسميت بذلك لأنه لا يشرب منها إلا من سأل إليها سبيلا بالعمل الصالح ، وهو مع استقامته في العرية تكلف وابتداع ؛ وعزوه إلى مثل على رضى الله عنه أبدع . وفي شعر بعض المحدثين :

سَلَّ سَبِيلًا فِيهَا إِلَى رَاحَةِ النَّفْسِ بِرَاحِ كَأَنَّهَا سَلْسِيلُ ^(٤)

و (عينا) بدل من (زنجيلا) وقيل : تمزج كأسهم بالزنجيل بعينه . أو يخلق الله طعمه فيها . و (عينا) على هذا القول : مبدلة من (كأسا) كأنه قيل : ويسقون فيها كأسا كأس عين . أو منصوبة على الاختصاص . شهبوا في حسنهم وصفاء ألوانهم وانبثاثهم في مجالسهم ومنازلهم باللؤلؤ المشور

(١) للأعشى ، شبه رائحة فيها وطعمه بالقرنفل والزنجيل ، لأن العرب تستطههما وتستلذما ، وشبه طعم ريقها بطعم الأرى : وهو العسل . والمشور : اسم مفعول ، من شاره شورا إذا جناه . والمشور : موضع تعسل فيه النحل .

(٢) قوله «المسيب بن علس» العلس في الأصل : القراد الضخم . وبه سمي الرجل ؛ كذا في الصحاح . (ع)
(٣) للمسيب بن علس ؛ وإجراء التشبيه هنا في طعم الزنجيل يفيد أنه في لبيت السابق كذلك ، وخبر به للفم وإذ ذقته : أى حين ذقت ريقه ، فهو مجاز ، وسلافة الخمر : أول ما يصير من العنب ويتخمر ، وتقبه طعم الرين هما في مطلق الاستلذاذ لا يفيد أن فيه حرافة كما فيها . وسلافة : عطف على طعم . ويجوز أن ضمير «به» لريق وهو المذوق ، ومعنى كون السلافة به : أنها ممزوجة فيه .

(٤) اطلب طريقاً فيها إلى راحة نفسك ، براح : أى بخمر . والسلسيل والسلسال والسلسل : عين في الجنة سهلة الانحدار في الخلق ، سلسة المساغ . وزيدت الباء مبالغة في الدلالة على السلاسة والسهولة . وشبه الخمر بها لما هو معلوم ونابت بين الناس أن شراب الجنة أعلى الشراب .

وعن المأمون : أنه ليلة زفت إليه بوران بنت الحسن بن سهل وهو على بساط منسوج من ذهب وقد ثرت عليه نساء دار الخلافة اللؤلؤ . فنظر إليه منشورا على ذلك البساط ، فاستحسن المنظر وقال : لله در أبي نواس ، وكأنه أبصر هذا حيث يقول :

كَأَنَّ صُغْرَى وَكُبْرَى مِنْ قَوَاقِمِهَا حَضْبَاهُ دُرٍّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ^(١)

وقيل : شبهوا باللؤلؤ الرطب إذا نثر من صدفه ، لأنه أحسن وأكثر ماء (رأيت) ليس له مفعول ظاهر ولا مقدر ليشيع ويم ، كأنه قيل : وإذا أوجدت الرؤية ، ثم . ومعناه : أن بصير الرائي أينما وقع لم يتعلق إدراكه إلا بنعيم كثير وملك كبير . و (ثم) في موضع النصب على الظرف ، يعني في الجنة ومن قال : مضاه ، ماضم ، فقد أخطأ ، لأن ، ثم ، صلة لها ، ولا يجوز إسقاط الموصول وترك الصلة (كبيرا) واسعا وهنيئا . يروى : أن أدنى أهل الجنة منزلة ينظر في ملكة مسيرة ألف عام ، يرى أقصاه كما يرى أذناه . وقيل لازوال له . وقيل : إذا أرادوا شيئا كان . وقيل : يسلم عليهم الملائكة ويستأذنون عليهم . قرئ : عليهم ، بالسكون ، على أنه مبتدأ خبره^(٢) (ثياب سندس) أى ما يطوهم من لباسهم ثياب سندس . وعليهم . بالنصب ، على أنه حال من الضمير في (يطوف عليهم) أوفى (حسبهم) أى يطوف عليهم ولدان عاليا للطوف عليهم ثياب . أو حسبهم لؤلؤا عاليا لهم ثياب . ويجوز أن يراد : رأيت أهل نعيم وملك عليهم ثياب . وعاليتهم : بالرفع والنصب على ذلك . وعليهم . وخضر . واستبرق . بالرفع ، حملا على الثياب بالجر على السندس . وقرئ : واستبرق ، نصبا في موضع الجر على منع الصرف لأنه أعجمي ، وهو غلط لأنه نكرة يدخله حرف التعريف : تقول : الاستبرق ، إلا أن يزعم ابن محيصن أنه قد يجعل علما لهذا الضرب من الثياب . وقرئ : واستبرق ، بوصل الهزمة والفتح : على أنه مسمى باستفعل من البريق ، وليس بصحيح أيضا ؛ لأنه معرب مشهور تعريبه ، وأن أصله : استبره (وحلوا) عطف على (ويطوف عليهم) . فإن قلت : ذكره هنا أن أساورهم من فضة ، وفي موضع آخر أنها من

(١) لأبي نواس ، يصف الخمر بأن حياها الذى يعلوها كالعقارب يشبه الدر ، بأنها تهب الذهب ؛ وهو من التشبيه المركب . وحكى أنه لما زفت بوران بنت الحسن بن سهل للمأمون بن الرشيد كان على بساط منسوج بالذهب وثرت عليه نساء دار الخلافة اللؤلؤ ، فنظر إليه وقال : لله در أبي نواس حيث قال : كأن صغرى ... البيت ؛ وقد عيب عليه استعمال صغرى وكبرى مجردتين من آل والاضافة ، مع أنهما عن أفعل التفضيل ، وهو إذا جرد وجب تذكره .

(٢) قال محمد : « قرئ بالسكون على أنه مبتدأ خبره ثياب ... الخ » قال أحد : في هذا الوجه الآخر نظر ، فإنه يجعله داخلا في مضمون الحسان ، وكيف يكون ذلك وهم لا يسمون السندس حقيقة ، لا على وجه التشبيه باللؤلؤ ، بخلاف كونهم أولوا ، فإنه على طريق التشبيه المقتضى لقرب شبههم باللؤلؤ إلى أن يحسبوا لؤلؤا . ويحتمل أن يصح هذا الوجه لكن بعد تكلف مستغنى عنه بالأول .

ذهب. قلت: هب أنه قيل: وحلوا أساور من ذهب ومن فضة. وهذا صحيح لا إشكال فيه، على أنهم يستورون بالجفنين: إما على المعاقبة، وإما على الجمع، كما تزوج نساء الدنيا بين أنواع الحسنى وتجمع بينها، وما أحسن بالمقصر أن يكون فيه سواران: سوار من ذهب، وسوار من فضة (شرابا طهورا) ليس برجس كخمر الدنيا؛ لأن كونها رجسا بالشرع لا بالعقل، وليست الدار دار تكليف. أو لأنه لم يعصر فتمسه الأيدي الوضرة^(١)، وتدوسه الأقدام الدنسة، ولم يجعل في الدنان والآباريق التي لم يعن بتنظيفها. أو لأنه لا يتول إلى النجاسة لأنه يرشح عرقا من أبدانهم له ريح كريخ المسك. أى: يقال لأهل الجنة (إن هذا) وهذا إشارة إلى ما تقدم من عطاء الله لهم: ما جاوزتم به على أعمالكم وشكر به سمعكم، والشكر مجاز.

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ۚ (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا يُطْعِمُ مِنْهُمْ شَيْئًا ۚ أَوْ كَفُورًا ۚ (٢٤) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۚ (٢٥) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ۚ (٢٦)

تكرير الضمير بعد إيقاعه اسما لإن: تأكيد على تأكيد معنى اختصاص الله بالتزليل، لينتقر في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه إذا كان هو المنزل لم يكن تنزيله على أى وجه نزل إلا حكمة وصوابا، كأنه قيل: ما نزل عليك القرآن تنزيلا مفرقا منجيا إلا أنا لا غيرة، وقد عرفنى حكما فاعلا لكل ما أفعله بدواعي الحكمة؛ ولقد دعيتى حكمة بالغة إلى أن أنزل عليك الأمر بالمسكاة والمصابرة، وسأنزل عليك الأمر بالقتال والانتقام بعد حين (فاصبر لحكم ربك) الصادر عن الحكمة وتعليقه الأمور بالمصالح، وتأخير نصرته على أعدائك من أهل مكة؛ ولا تطع منهم أحدا قلة صبر منك على أذاهم وضجرا من تأخر الظفر، وكانوا مع إفراطهم في العداوة والإيذاء له ولمن معه يدعونه إلى أن يرجع عن أمره ويبدلون له أموالهم وتزويج أكرم بناتهم إن أجابهم. فإن قلت: كانوا كلهم كفرة، فما معنى القسمة في قوله (آثما أو كفورا)؟ قلت: معناه ولا تطع منهم راجبا لما هو إثم داعيا لك إليه. أو فاعلا لما هو كفر داعيا لك إليه؛ لأنهم إما أن يدعوه إلى مساعدتهم على فعل هو إثم أو كفر، أو غير إثم ولا كفر، فهم أن يساعدهم على الاثنين دون الثالث. وقيل: الآثم عتبة؛ والكفور الوليد؛ لأن عتبة كان ركبا للآثم، متعاطيا لأنواع الفسوق؛ وكان الوليد غالبا في الكفر.

(١) قوله «تمسه الأيدي الوضرة» من الوض: وهو الدرن والدم. أفاده الصحاح. (ع)

شديد الشكيمة في العتو . فإن قلت : معنى أو : ولا تطع أحدهما ، فهلا جرى بالواو ليكون نهياً عن طاعتها جميعاً ؟ قلت : لو قيل : ولا تطعهما ، جاز أن يطيع أحدهما ؛ وإذا قيل : لا تطع أحدهما ، علم أن الناهي عن طاعة أحدهما : عن طاعتها جميعاً أنهى . كما إذا نهى أن يقول لأبويه : أف ، علم أنه منهى عن ضربهما على طريق الأولى (وإذا ذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً) ودم على صلاة الفجر والعصر (ومن الليل فاسجد له) وبعض الليل فصل له . أو يعنى صلاة المغرب والعشاء ، وأدخل (من) على الظرف للتبويض ، كما دخل على المفعول في قوله (يغفر لكم من ذنوبكم) . (وسبحه ليلاً طويلاً) وتهجد له هزيماً طويلاً ^(١) من الليل : نائيه ، أو نصفه . أو ثلثه .

إِنْ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا نَقِيلًا ^(٢٧) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمَنَاتَهُمْ تَبْدِيلًا ^(٢٨)

(إن هؤلاء) الكفرة (يحبون العاجلة) يؤثرونها على الآخرة ، كقوله (بل تؤثرون الحياة الدنيا) . (وراءهم) قدامهم أو خلف ظهورهم لا يعبأون به (يوماً نقيلاً) استعير الثقيل لشدة وهوله ، من الشيء الثقيل الباهظ لحامله . ونحوه : (نقلت في السموات والأرض) الأسر : الربط والتوثيق . ومنه : أسر الرجل إذا أوثق بالقد وهو الإسار . وفرس مأسور الخلق . وترس مأسور بالعقب ^(٢) . والمعنى : شددنا توصيل عظامهم بعضها ببعض ، وتوثيق مفاصلهم بالأعصاب . ومثله قولهم : جارية معصوبة الخلق ومجدولته (وإذا شئنا) أهلكناهم (وبدلنا أماناتهم) في شدة الأسر ، يعنى : النشأة الأخرى . وقيل : معناه : بدلنا غيرهم عن بطيع . وحقه أن يحى . يأن ، لا يأذا ، كقوله (وإن تولوا يستبدل قوماً غيركم) ، (إن يشأ يذهبكم) .

إِنْ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ^(٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ^(٣٠) يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ^(٣١)

(١) قوله « وتهجد له هزيماً طويلاً » في الصحاح : مضى مزاج من الليل ، أى : طائفة . (ع)

(٢) قوله « وترس مأسور بالعقب » في الصحاح : العقب - بالتحريك - : العصب : الذى تعمل منه الأوتار ؛

الواحدة عقبة ، تقول منه : عقب السهم والقذح والفوس : إذا لويت شيئاً منه عليه . (ع)

(هذه) إشارة إلى السورة أو إلى الآيات القريبة (فمن شاء) فمن اختار الخير لنفسه وحسن العاقبة واتخاذ السبيل إلى الله عبارة عن التقرب إليه والتوسل بالطاعة (وما يشاؤون) الطاعة ^(١) (إلا أن يشاء الله) بقسرم عليها ^(٢) (إن الله كان عليا) بأحوالهم وما يكون منهم (حكيا) حيث خلقهم مع علمهم . وقرئ : تشاؤون ، بالتاء . فإن قلت : ما محل (أن يشاء الله) ؟ قلت النصب على الظرف ، وأصله : إلا وقت مشيئة الله ، وكذلك قراءة ابن مسعود : إلا ما يشاء الله : لأن (ما) مع الفعل كأن معه (يدخل من يشاء) هم المؤمنون ونصب (الظالمين) بفعل بفسره . أعد لهم ، نحو : أوعد وكافأ ، وما أشبه ذلك . وقرأ ابن مسعود : وللظالمين ، على : وأعد للظالمين وقرأ ابن الزبير : والظالمون على الابتداء ، وغيرها أولى لذهاب الطباق بين الجملة المعطوفة والمعطوف عليها فيها ، مع مخالفتها للبصحف .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة همل أتى كان جزاؤه على الله جنة وحريرا ، ^(٣) » .

(١) قال محمود : « معناه وما تفاؤن الطاعة إلا أن يشاء الله ... الخ » قال أحد : وهذا من تحريفاته للتصريح وتسوره على خزائن الكتاب العزيز ، كدأب القطار والصوص ، فلنقطع يد حجة أتى أهدما ، وذلك حكم هذه السرفة وحدها ، فنقول : الله تعالى نقي وأبعد على سبيل الحصر الذي لا حصر ولا نصر أوضح منه . ألا ترى أن كلمة التوحيد اقتصر بها على النقي والاثبات ؛ لأن هذا النظم أعلق شيء بالحصر وأدله عليه ، فنقي الله تعالى أن يفعل العبد شيئا له فيه اختيار ومشيئة ، إلا أن يكون الله تعالى قد شاء ذلك الفعل ؛ فقتضاء ما لم يشأ الله وقوعه من العبد لا يقع من العبد ، وما شاء منه وقوعه وقع ، وهو رديف : ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ؛ وانظر إدخاله النقص في تعطيل الآية لا تأويلها كيف ناقض به ؛ فإن معنى الآية عنده : أن مشيئة العبد الفعل لا تكون إلا إذا قسره الله عليها ، والقصر مناف للعبثية ؛ فصار الحاصل أن مشيئة العبد لا توجد إلا إذا انتفت ؛ فإذا لامشيئة للعبد البتة ولا اختيار ، وما هو إلا فر من إثبات قدرة العبد غير مؤثرة ومشيئة غير خالقة ، ليم له إثبات قدرة ومشيئة مؤثرين ؛ فوقع في سلب القدرة والمشيئة أصلا ورأسا ، وحيث لزم الحيد عن الاعتزال ؛ انحرف بالكلية إلى الطرف الأقصى متحيزاً إلى الجبر ، فيأبى ما توجه بسوء نظره . والله الموفق .

(٢) قوله « إلا أن يشاء الله أن بقسرم عليها » إرادته تعالى تستلزم وجود المارد ، ولكن لا تستلزم كون العبد مقسوراً وجبوراً على الفعل إلا عند المعتزلة . وأما أهل السنة فقد أنهتوا للعبد الكسب ، مع كون الله هو الخالق للفعل عندهم ؛ وتفصيل ذلك في التوحيد . (ج)

(٣) أخرجه الثعلبي والواحدى وابن مهديهم إلى أبي بن كعب .

سورة المرسلات

مكة ، [الإية ٤٨ فدية] وآياتها ٥٠ [نزلت بعد الحمزة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ① فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ② وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ③
فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا ④ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ⑤ عُذْرًا أَوْ نَذْرًا ⑥

أقسم سبحانه بطوائف من الملائكة ، أرسلهن بأوامره فعصفن في مضيهن كما تعصف الرياح ، تخففاً في امتثال أمره ، وبطوائف منهم نشرن أجنحتهن في الجو عند انحطاطهن بالوحي . أو نشرن الشرائع في الأرض . أو نشرن النفوس الموتى بالكفر والجهل عما أوحين ، ففترق بين الحق والباطل ، فألقين ذكراً إلى الأنبياء (عذرا) للمحقين (أو نذرا) للباطلين . أو أقسم برياح عذاب أرسلهن . فعصفن ، وبرياح رحمة نشرن السحاب في الجو ففترق بينه ، كقوله : (ويجعله كسفا) أو بسحاب نشرن الموت ، ففترق بين من يشكر الله تعالى وبين من يكفر ، كقوله (لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه) فألقين ذكراً إما عذراً للذين يعتذرون إلى الله بتوبتهم واستغفارهم إذا رأوا نعمة الله في الغيث ويشكرونها ، وإما إنذاراً للذين يفعلون الشكر لله وينسبون ذلك إلى الأنواء ، وجعلن ملقيات للذكر لكونهن سبباً في حصوله إذا شكرت النعمة فيهن أو كفرت . فإن قلت : مامعنى عرفاً ؟ قلت : متابعة كشمع العرف^(١) . يقال : جاؤا عرفاً واحداً ؛ وهم عليه كعرف الضبع : إذا تألبوا عليه ، ويكون بمعنى العرف الذي هو نقيض النكر ؛ وانتصابه على أنه مفعول له ، أى : أرسلن للإحسان والمعروف ؛ والأول على الحال . وقرئ : عرفاً على الثقيل ، نحو نكر في نكر . فإن قلت : قد فسرت المرسلات بملائكة العذاب ، فكيف يكون إرسالهم معروفًا ؟ قلت : إن لم يكن معروفًا للكفار فإنه معروف للأنبياء والمؤمنين الذين انتقم الله لهم منهم . فإن قلت : ما العذر والنذر ، وبما انتصبا ؟ قلت : هما مصدران من أعذر إذا عفا الإساءة ، ومن أذّر إذا خوّف على

(١) قوله «كشمع العرف» في الصحاح «العرف» : عرف الفرس . وقوله تعالى (والمرسلات عرفاً)

يقال : هو مستعار من عرف الفرس ، أى : يتألبون كعرف الفرس . وفيه «تألبوا» : تجمعوا . (ع)

فعل ، كالكفرو والشكر ، ويجوز أن يكون جمع عذير ، بمعنى المَعذرة ؛ وجمع نذير بمعنى الإنذار .
أو بمعنى العاذر والمنذر . وأما انتصابهما فعلى البدل من ذكرنا على الوجهين الأولين . أو على
المفعول له . وأما على الوجه الثالث فعلى الحال بمعنى عاذرين أو منذرين . وقرئنا : مخففين ومثقلين .

إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ۖ ٧ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ۚ ٨ وَإِذَا السَّمَاءُ
فُرِجَتْ ۚ ٩ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّفَتْ ۚ ١٠ وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْتَتْ ۚ ١١ لِأَيِّ يَوْمٍ
أُجِّلَتْ ۚ ١٢ لِيَوْمِ الْفُضْلِ ۚ ١٣ وَمَا أَذْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفُضْلِ ۚ ١٤ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ۚ ١٥

إن الذى توعدونه من مجيء يوم القيامة لكائن نازل لا ريب فيه ، وهو جواب القسم .
وعن بعضهم : أن المعنى : ورب المرسلات (طمست) محيت ومحقت . وقيل : ذهب بنورها
ومحق ذواتها ، موافق لقوله (انثرت) و (انكدرت) ويجوز أن يحق نورها ثم تنتثر بمحوقة
النور (فرجت) فتحت فسكانت أبوابا . قال الفارجى : باب الأمير المهم (نسفت) كالحب
إذا نسف بالمنسف . ونحوه (وبست الجبال بسا) ، (وكانت الجبال كتيها مهيلا) وقيل : أخذت
بسرعة من أماكنها ، من انسفت الشيء إذا اختطفته . وقرئت : طمست : وفرجت ونسفت
مشددة . قرئ : أقت . ووقفت ، بالتشديد والتخفيف فيهما . والاصل : الوار . ومعنى توقيت
الرسل : تبين وقتها الذى يحضرون فيه للشهادة على أمهم . والتأجيل : من الاجل ، كالتوقيت : من
الوقت (لأى يوم أجلت) تعظيم لليوم ، وتعجيب من هوله (ليوم الفصل) بيان ليوم التأجيل ،
وهو اليوم الذى يفصل فيه بين الخلائق . والوجه أن يكون معنى وقت : بلغت ميقاتها الذى
كانت تنتظره : وهو يوم القيامة . وأجلت : أخرت . فإن قلت : كيف وقع الشكر مبتدأ فى
قوله (ويل يومئذ للمكذبين) ؟ قلت : هو فى أصله مصدر منصوب ساذ مسد فعله ، ولكنه
عدل به إلى الرفع للدلالة على معنى ثبات الهلاك ودوامه للدعو عليه . ونحوه (سلام عليكم)
وبجوز : وبلا ، بالنصب ؛ ولكنه لم يقرأ به . يقال : وبلا له وبلا كيلا .

أَلَمْ تُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ۚ ١٦ ثُمَّ تُنْذِرُ الْآخِرِينَ ۚ ١٧ كَذَلِكَ نَقُصُّ

بِالْمُجْرِمِينَ ۚ ١٨ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۚ ١٩

قرأ قتادة : نهلك ، بفتح النون ، من هلك بمعنى أهلك . قال السجّاج :

• وَمَهُمَّ هَالِكٍ مَنْ تُعَرَّجَا • (١)

(ثم تتبعهم) بالرفع على الاستئناف ، وهو وعيد لأهل مكة . يريد : ثم فعل بأمتلهم من الآخرين مثل ما فعلنا بالاولين ، ونسلك بهم سبيلهم لأنهم كذبوا مثل تكذيبهم . ويقويها قراءة ابن مسعود . ثم سنتبعهم . وقرئ بالجزم للمطف على نهلك . ومعناه : أنه أهلك الاولين من قوم نوح وعاد وثمود ، ثم أتبعهم الآخرين من قوم شعيب ولوط وموسى (كذلك) مثل ذلك الفعل الشنيع (نفسل) بكل من أجرم إنذارا وتحذيرا من عاقبة الجرم وسوء أثره .

أَلَمْ تَنْطَلِقُوا مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ۚ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (٢١) إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣) وَبَلْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٤)

(إلى قدر معلوم) إلى مقدار من الوقت معلوم قد علمه الله وحكم به : وهو تسعة الأشهر ، أو مادونها ، أو ما فوقها (فقدرونا) فقدرونا ذلك تقديرا (فنعم القادرون) فنعم المقدرين له نحن . أو فقدرونا على ذلك فنعم القادرون عليه نحن ؛ والاول أولى لقراءة من قرأ : فقدرونا بالتشديد ، واقوله (من نقطة خلقه فقدروا) .

أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا (٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَاخِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا (٢٧) وَبَلْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٨)

الكفات : من كفت الشيء إذا ضمه وجمعه وهو اسم ما يكفت ، كقولهم : الضمام والجماع لما يضم ويجمع ، يقال : هذا الباب جماع الأبواب ، وبه انتصب (أحياء وأمواتا) كأنه قيل : كافة أحياء وأمواتا . أو بفعل مضمر يدل عليه وهو تكفت . والمعنى : تكفت أحياء على ظهرها ، وأمواتا في بطنها . وقد استدلل بعض أصحاب الشافعي رحمه الله على قطع النبش بأن الله تعالى جعل الأرض كفاتا للأموات ، فكان بطنها حرزا لهم ؛ فالنبش سارق من الحرز . فإن قلت : لم قيل أحياء وأمواتا على التشكير ، وهي كفات الأحياء والأموات جميعا ؟ قلت :

(١) ومهمه هالك من تعرجا لا برنهي الخريت منها مخرجا

للمعاج . والمهمه : المغازاة القفرة . ويقال : أهلكه وهلك . ومنه : هالك من تعرج . وعرج وتعرج : إذا نزل في المكان . والخريت : الدليل العارف بالطرق الضيقة ، ولو مثل خرت الابرة ، أي : لا يرجو الدليل مخرجا منها إذا ولجها ، فإلا بال غيره ، وهو مع ذلك قطعه بالخير .

هو من تنكير التفعيم، كأنه قيل : تكفت أحياء لا يمدون وأمواتا لا يحصرون ، على أن أحياء الإنس وأمواتهم ليسوا بجميع الأحياء والأموات. ويجوز أن يكون المعنى : تكفتكم أحياء وأمواتا ، فينتصبا على الحال من الضمير ؛ لأنه قد علم أنها كفأت الإنس . فإن قلت : فالتمكيد في (رواسي شامخات) و (ماء فراتنا) ؟ قلت : يحتمل إفادة التبعية ؛ لأن في السماء جبالا قال الله تعالى (ونزل من السماء من جببال فيها من برد) وفيها ماء فرات أيضا ، بل هي معدنه ومصبه ، وأن يكون للتعظيم .

أَنْظِلُّوْا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُوْنَ ۖ (٢٩) أَنْظِلُّوْا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (٣٠) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِّ (٣١) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِبَلٌ صُفْرٌ (٣٣) وَبِلْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِيْنَ (٣٤) هَٰذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) وَبِلْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِيْنَ (٣٧)

أى يقال لهم : انطلقوا إلى ما كذبتم به من العذاب ، وانطلقوا الثاني تكرير . وقرئ : انطلقوا على لفظ الماضى إخباراً بعد الأمر عن عملهم بموجبه ، لأنهم مضطرون إليه لا يستطيعون امتناعاً منه (إلى ظل) أى دخان جهنم ، كقوله : وظل من يحوم (ذى ثلاث شعب) بتشعب لعظمه ثلاث شعب ، وهكذا الدخان العظيم تراه بفرق ذوائب . وقيل : يخرج لسان من النار فيحيط بالكفار كالمرادق ، ويتشعب من دخانها ثلاث شعب ، فتظلم حتى يفرغ من حسابهم ؛ والمؤمنون في ظل العرش (لا ظليل) تهكم بهم وتعريض بأن ظلمهم غير ظل المؤمنين (ولا يغنى) فى محل الجهر ، أى : وغير مغنى عنهم من حر اللهب شيئاً (بشرر) وقرئ : بشرار (كالقصر) أى كل شررة كالقصر من القصور فى عظمها . وقيل : هو الغليظ من الشجر ، الواحدة قصرة ، نحو : حمرة وجر . وقرئ : كالقصر ، بفتحين : وهى أعناق الإبل ، أو أعناق النخل ، نحو شجرة وشجر . وقرأ ابن مسعود : كالقصر بمعنى القصور ، كرهن ورهن . وقرأ سعيد ابن جبير : كالقصر فى جمع قصرة ، كحاجة وحوج (جمالات) جمع جمال . أو جمالة جمع جل ؛ شبت بالقصور ، ثم بالجمال لبيان التشبيه . ألا تراه يشبهون الإبل بالافدان والمجادل (١) . وقرئ : جمالات ، بالضم : وهى قلوب الجسور . وقيل : قلوب سفن البحر ، الواحدة جمالة .

(١) قوله « بالافدان والمجادل » جمع فدان وجمع جدل ، وكلاهما بمعنى القصر ، كذا فى الصحاح . وفيه أيضا « الجسر » بالفتح : العظيم من الإبل . وفيه « القلوس » : جبل ضم من قلوب السفن . (ع)

وقرى : جمالة ، بالكسر ، بمعنى : جمال ، وجمالة بالضم : وهى القلس . وقيل (صفر) لإرادة الجنس . وقيل (صفر) : سود ، تضرب إلى الصفرة . وفى شعر عمران بن حطان الخارجى :

دَعَتْكُمْ بِأَعْلَى صَوْنِهَا وَرَمَتْكُمْ بِمِثْلِ الْجَمَالِ الصُّفْرِ نَزَاعَةُ الشَّوَى ^(١)

وقال أبو العلاء :

حَرَاءٌ سَاطِعَةٌ الذَّوَائِبِ فِي الدُّجَى تَرْمِي بِكُلِّ شَرَارَةٍ كَطَرَفِ ^(٢)

فشبهها بالطراف وهو بيت آدم فى العظم والحرة ، وكأنه قصد بحديثه : أن يزيد على تشبيه القرآن وتبجيحه بما سؤل له من توهم الزيادة جاء فى صدر بيته بقوله وحراء ، توطئة لها ومناداة عليها ، وتنبيها للسامعين على مكانها ، ولقد عمى : جمع الله له عمى الدارين عن قوله عز وعلا ، كأنه جمالات صفر ؛ فإنه بمنزلة قوله : كبيت أحمر ؛ وعلى أن فى التشبيه بالقصر وهو الحصن تشبيها من جهتين : من جهة العظم ، ومن جهة الطول فى الهواء . وفى التشبيه بالجمالات وهى القلوس : تشبيه من ثلاث جهات : من جهة العظم والطول والصفرة ، فأبعد الله إغرابه فى طرافه ومافخ شذقيه من استطرافه .

قرئ ينصب اليوم ، ونصبه الأعمش ، أى : هذا الذى قص عليكم واقع يومئذ ، ويوم القيامة طويل ذو موطن ومواقيت : ينطقون فى وقت ولا ينطقون فى وقت ؛ ولذلك ورد الأمران فى القرآن . أوجعل نطقهم كلا نطق ؛ لأنه لا ينفج ولا يسمع (فيعتذرون) عطف

(١) لعمر بن حطان يصف جهنم . وشبهها فى اختطافها للكفار بلمبها وكلايها بما فى مصح منه الدعاء على سبيل المكينة ، فالدعاء والرعى : تخيل ، والصوت ترشيح . ويجوز أنها تفعل ذلك حقيقة ، كقولها (هل من مزيد) وقال ابن عباس : تدعو الناس بأسمائهم بلسان فصيح وتقول : إلّ إلّ ، فلتقطعهم كما يقطع الطير الحب ، ثم قال : ورمتهم بشرى مثل الجبال للصفر . والمراد التى يرهق سوادها صفرة . ونزاعة للشوى : فاعل . والشوى : اسم جمع شواة ، وهى القوية : البقية لقليلة من اللحم ونحوه ؛ وتصغر شواية على شوية لزيادة التحقير . ويحتمل أن «شوية» تصغير شيء ، قلبت ياءه وقرأ قلبت همزته ياء وألحق ثناء المثناة . وقيل لشوى : الأطراف والجلد . وقيل : كل ما ليس بقتلا للإنسان ، يعنى أنها تنزع جلود أهلها وأطرافهم ، لكن يدلون غيرها ؛ والألف فى قافية ألقيت للاطلاق .

(٢) الموقد نار القرى الأصال والاصحار بالأضمار والاضغاف
حراء ساطعة الذوائب فى الدجى ترمى بكل شرارة كطراف

لأن العلاء المعرى يصف قوما بالكرم ، والموقدى حذفت نونه بالاضافة لمفعوله . والأصال : جمع أصيل ، نصب على التثنية ، أى : يوقدن النار فى الأصال للمشاء . وفى الاصحار لتعجيل اللذات . والأضمار : المواضع المطننة . والاضغاف : أعالي الجبل ، حراء : حال من النار . وذوائبها : أطراف لمبها فى الدجى ، أى : الظلم ، ترمى : جملة جالية . وشبه الشرارة بالطراف : وهو بيت من أهم فى العظم والحرة ، وإذا كانت الشرارة كذلك فكيف النار كلها ؟

على (يؤذن) مفخرط في سلك النفي . والمعنى : ولا يكون لهم إذن واعتذار منعقب له ، من غير أن يجعل الاعتذار مسببا عن الإذن . ولو نصب لكان مسببا عنه لا محالة .

هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمْعُكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (٣٨) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا (٣٩)
وَبَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٠) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَهَيُوءٍ (٤١) وَقَوَّاتٍ
مِمَّا بَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)
إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٤٤) وَبَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٥)

(جمعناكم والأولين) كلام موضح لقوله (هذا يوم الفصل) لانه إذا كان يوم الفصل بين السعداء والأشقياء وبين الأنبياء وأممهم . فلا بد من جمع الأولين والآخرين ، حتى يقع ذلك الفصل بينهم (فإن كان لكم كيد فكيدون) تقرير لهم على كيدهم لدين الله وذويه ، وتسجيل عليهم بالعجز والاستكانة (كلوا واشربوا) في موضع الحال من ضمير المتقين ، في الطرف الذي هو في ظلال ، أى : هم مستقرون في ظلال ، مقولا لهم ذلك .

كُلُوا وَتَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ (٤٦) وَبَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٧)
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آرْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (٤٨) وَبَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٩)
فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (٥٠)

و (كلوا وتمتعوا) حال من المكذبين ؛ أى الويل ثابت لهم في حال ما يقال لهم كلوا وتمتعوا فإن قلت : كيف يصح أن يقال لهم ذلك في الآخرة ؟ قلت : يقال لهم ذلك في الآخرة إيدانا بأنهم كانوا في الدنيا أحقاء بأن يقال لهم ، وكانوا من أهله تذكيرا بجاهلهم السمجة وبما جنوا على أنفسهم من إثارة المتاع القليل على النعيم والملك الخالد . وفي طريقته قوله :

إِخْوَانِي لَا تُبْعِدُوا أَبَدًا وَيَلَى وَاللَّهِ قَدْ بَعِدُوا (١)

يريد : كنتم أحقاء في حياتكم بأن يدعى لكم بذلك ، وعلل ذلك بكونهم مجرمين دلالة على أن كل مجرم ماله إلا الأكل والتمتع أياما قلائل ، ثم البقاء في الهلاك أبدا . ويجوز أن يكون (كلوا وتمتعوا) كلاما مستأنفا خطابا للمكذبين في الدنيا (اركعوا) اخضعوا لله وتواضعوا له بقبول

وحيه واتباع دينه . واطرحوا هذا الاستكبار والنخوة ، لا يخشعون ولا يقبلون ذلك ، ويصرون على استكبارهم . وقيل : ما كان على العرب أشد من الركوع والسجود : وقيل : نزلت في ثقيف حين أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاة ، فقالوا : لا ننجي ^(١) فإنها صبة ^(٢) علينا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود ^(٣) بعده . بعد القرآن ، يعني أن القرآن من بين الكتب المنزلة آية مبصرة ومعجزة باهرة ، حين لم يؤمنوا به فبأى كتاب بعده ^(٤) يؤمنون) وقرئ : تؤمنون ، بالتاء .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة والمرسلات كتب له أنه ليس من المشركين ^(٥)

سورة عم يتساءلون

مكية ، وتسمى سورة النبأ ، وهي أربعون ، أو إحدى وأربعون آية

[نزلت بعد المعارج]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ^(١) عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ ^(٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ^(٣)

(عم) أصله عما ، على أنه حرف جر دخل على ما الاستفهامية ، وهو في قراءة عكرمة وعيسى بن عمر . قال حسان رضي الله عنه :

عَلَى مَا قَامَ بِشْتُمْنِي لَتَيْمٌ كَخِزِيرٍ تَمَرَّغَ فِي رَمَادٍ ^(٤)

(١) قوله «فقالوا لا نجي» نجي من النجبة : وهي الاعتناء . (ع)

(٢) هكذا ذكره الثعلبي . وأخرجه أبو داود وأحمد وابن أبي شيبة والطبراني من رواية الحسن عن عثمان بن أبي العاص به وأتم منه .

(٣) أخرجه الثعلبي والواحدى وابن مردويه عن أبي بن كعب .

(٤) على ما قام يشتمني لقيم كخزير تمرغ في رماد

وتلقاه على ما كانت فيه من المفوات أو نوك الفواد

جبن التي لا يني عليه وفيه بعد عن سيل الرشاد

لحسان بن المنذر . وقيل : ابن ثابت ، بهو أحد بني عاتق بن عمرو بن غزوم . وما استفهام إنكاري وكان حقها =

والاستعمال الكثير على الحذف ، والأصل : قليل . ومعنى هذا الاستفهام : تفخيم الشأن ، كأنه قال : عن أى شأن يتساءلون . ونحوه ما فى قولك : زيد ما زيد ^(١) ؟ جعلته لا تقطاع قريته وعدم نظيره كأنه شئ خفى عليك جنسه فأنت تسأل عن جنسه وتفحص عن جوهره ، كما تقول : ما الغول وما العنقاء ؟ تريد : أى شئ هو من الأشياء هذا أصله ؛ ثم جرد للعبارة عن التفخيم ^(٢) ، حتى وقع فى كلام من لا تخفى عليه خافية (يتساءلون) يسأل بعضهم بعضا . أو يتساءلون غيرهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين . نحو : يتداعونهم ويترامونهم . والضمير لأهل مكة : كانوا يتساءلون فيما بينهم عن البعث ، ويتساءلون غيرهم عنه على طريق الاستهزاء (عن النبأ العظيم) بيان للشأن المفخم . وعن ابن كثير أنه قرأ : عمه ، بهاء السكت ، ولا يخلو : إيمان يجرى الوصل مجرى الوقف وإما أن يقف ويتبدى (يتساءلون عن النبأ العظيم) على أن يضم (يتساءلون) لأن ما بعده يفسره ، كشئ . بهم ثم يفسر . فإن قلت : قد زعمت أن الضمير فى يتساءلون للكفار ، فما تصنع بقوله (هم فيه مختلفون) ؟ قلت : كان فيهم من يقطع القول بإنكار البعث ، ومنهم من يشك . وقيل : الضمير للمسلمين والكافرين جميعا ، وكانوا جميعا يسألون عنه . أما المسلم فلizard خشية واستعدادا ، وأما الكافر فلizard استهزاء . وقيل : المتساءل عنه القرآن . وقيل : نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . وقرئ : يسألون بالإدغام ، وستعلمون بالثناء .

كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾

(كلا) ردع للتسائلين هزوا . و (سيعلمون) وعيد لهم بأنهم سوف يعلمون أن ما يتساءلون عنه ويضحكون منه حق ، لأنه واقع لا ريب فيه . وتكرير الردع مع الوعيد تشديد فى ذلك . ومعنى (ثم) الإشعار بأن الوعيد الثانى أبلغ من الأول وأشد .

== حذف الألف لدخول حرف الجر عليها ، وثبوتها قليل ، أى : على أى شئ . يسئى لهم مثل الخنزير المتمرغ فى الرماد لذه . ويروى : فى دمان كرماد وزنا ومعنى . أى بمعنى الدسة وهى الكناسة المخططة بالبر ؛ ولعل ابن ثابت غيره وإلا فقصيدة ابن المنذر دالية لاثوية . والنونك : الحق والهوج . والفؤاد : القلب والعقل ، أى : وتلقاه مع مائيت فيه من الخلال لا يخفى عليه الخى المبين ، أى : يرتكب طريقه ولا يعرف سبل الرشاد . ومعنى البعدي : تفاوت ما بين الخبرين . وغبا عليه الشئ . كرضى - : خفى عليه . ورغى هو عن الشئ . كرضى أيضا - : عجز عن معرفته . وفى قوله (لا يغنى ... الخ) طباق الإيجاب والسلب .

(١) قال محمود : « معنى هذا الاستفهام تفخيم الشأن ، كأنه قيل : عن أى شئ يتساءلون ونحوه ما فى قولك ... الخ » قال أحمد : وقد أكثر أم زرع من هذا التفخيم فى قولها : وأبوزرع ما أبوزرع ، إلى آخر حديثها . (٢) قال مجاهد : « هذا أصله ، ثم جرد للدلالة على التفخيم ... الخ » قال أحمد : لأن بعضهم يشك فى البعث ، وبعضهم يثبت النبأ ؛ ومن ثم قيل الضمير للمسلمين والكافرين ، فسؤال المسلمين ليزدادوا خشية ، ولأنما سؤال الكفار لزيادة الاستهزاء والكفر .

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ⑥ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ⑦ وَخَلَقْنُسُكُمْ أَزْوَاجًا ⑧ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُباتًا ⑨ وَجَعَلْنَا الْقِيلَ لِبَاسًا ⑩ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ⑪ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ⑫ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ⑬ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ⑭ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ⑮ وَجَعَلْنَا أَلْهَافًا ⑯

فإن قلت : كيف اتصل به قوله (ألم نجعل الأرض مهادا)^(١) قلت : لما أنكروا البعث قيل لهم : ألم يخلق من يضاف إليه البعث هذه الخلائق العجيبة الدالة على كمال القدرة ، فواجه إنكار قدرته على البعث ، وما هو إلا اختراع كهذه الاختراعات . أو قيل لهم : ألم يفعل هذه الأفعال المتكاثرة . والحكيم لا يفعل فعلا عبثا ، وما تنكرونها من البعث والجزاء مؤد إلى أنه عاين في كل ما فعل (مهادا) فراشا . وقرئ : مهدا . ومعناه : أنها لهم كال مهد للصبي : وهو ما يهد له فينوم عليه ، تسمية للمهدود بالمصدر ، كضرب الأمير . أو وصفت بالمصدر . أو بمعنى : ذات مهد ، أي : أرسيناها بالجبال كما يرسى البيت بالأوتاد (سباتا) موتا . والمسبوت : الميت ، من السبت وهو القطع ؛ لأنه مقطوع عن الحركة . والنوم : أحد التوفيقين ، وهو على بناء الإدواء . ولما جعل النوم موتا ، جعل اليقظة معاشا ، أي : حياة في قوله (وجعلنا النهار معاشا) أي : وقت معاش تستيقظون فيه وتتقلبون في حوائجكم ومكاسيكم . وقيل : السبات الراحة (لباسا) يستركم عن العيون إذا أردتم هربا من عدو ، أو يباتا له . أو إخفاء مالا تحبون الاطلاع عليه من كثير من الأمور .

وَكَمْ لِظَلَامِ اللَّيْلِ عِنْدَكَ مِنْ يَدٍ تُخَبِّرُ أَنَّ الْمَآئُوتَةَ تَكْذِبُ^(٢)

(١) قال محمود : «فإن قلت : كيف اتصال قوله (ألم نجعل الأرض مهادا) بما قبله ... الخ » قال أحمد : جوابه الأول شديد ، وأما الثاني فغير مستقيم ، فإنه مفرع على المذهب الأعوج في وجوب مراعاة الصلاح والأصلح ، واعتقاد أن الجزاء واجب على الله تعالى عقلا ثوابا وعقابا بمقتضى إيجاب الحكمة . وقد فرغ من إبطال هذه القاعدة .

(٢) وكَمْ لظلام الليل عندك من يد . تخبر أن المائوتة تكذب

وقاك ردى الأعداء أسرى إليهم وشارك فيه ذو الدلال المحجب

لأن الطيب . وكَمْ خبرية للتكثير . واليد : النعمة . وتخبر : تدل مجازاً مرسلًا . والمائوتة طائفة تنسب الخير للنور والشر للظلام ؛ فكذبهم في البيت الأول ، واستدل على ذلك ، ونفى اليد في الثاني . والدلال : تمنع المحجوب مع رضاه . وأسرى : حال ؛ والمحجب : نعت ذو الدلال ، وإيضاح مسألة المائوتة . أنه لم يخالف في أن الله واحد =

(سبعا) سبع سموات (شدادا) جمع شديدة، يعنى : بحكمة قوية الخلق لا يؤثر فيها مرور الأزمان (وهاجا) متلاثا وقادا، يعنى : الشمس : وتوهجت النار : إذا تلبظت ^(١) فتوهجت بضوتها وحرها . المعصرات : السحاب إذا أعصرت ، أى : شارفت أن تعصرها الرياح فتعطر ، كقولك : أجز الزرع ، إذا حان له أن يحز . ومنه : أعصرت الجارية إذا دنت أن تحيض . وقرأ عكرمة : بالمعصرات ، وفيه وجهان : أن تراد الرياح التى حان لها أن تعصر السحاب ، وأن تراد السحاب ؛ لأنه إذا كان الإنزال منها فهو بها ، كما تقول : أعطى من يده درهما ، وأعطى يده . وعن مجاهد : المعصرات الرياح ذوات الأعاصير . وعن الحسن وقتادة : هى السموات . وتأويله : أن الماء ينزل من السماء إلى السحاب ، فسكان السموات يعصرون ، أى : يحملن على المعصر ويمكن منه . فإن قلت : فما وجه من قرأ (من المعصرات) وفسرها بالرياح ذوات الأعاصير ، والمطر لا ينزل من الرياح ؟ قلت : الرياح هى التى تنشئ السحاب وتدر أخلافه ^(٢) ، فصح أن تجعل مبدأ للإنزال : وقد جاء أن الله تعالى يبعث الرياح فتحمل الماء من السماء إلى السحاب ، فإن صح ذلك فالإنزال منها ظاهر . فإن قلت : ذكر ابن كيسان ^(٣) أنه جعل المعصرات بمعنى المغيثات ، والعاصر هو المغيث لا المعصر . يقال : عصره فاعتصر . قلت : وجهه أن يريد اللاتى أعصرن ، أى حان لها أن تعصر ، أى : تغيث (نجاها) منصبا بكثرة . يقال : نجه ونج نفسه وفى الحديث : «أفضل الحج : العج والتنج» ^(٤) أى رفع الصوت بالتلبية ، وصب دماء الهدى . وكان ابن عباس مشجاً يسبل غربا ، يعنى يشج الكلام ثمجاً فى خطبته . وقرأ الأعرج : نجاها . ومناجج الماء : مصابه ، والماء ينشجج فى الوادى (حبا ونباتا) يريد ما ينفقوت من الحنطة والشعير وما يعلف من التبن والحشيش ، كما قال (كلوا وارعوا أنعامكم) ، (والحب

== إلا الشنوية . قالوا : نهدنى لعالم خيراً كثيراً وشرّاً كثيراً ، والواحد لا يكون خيراً شريراً ، فسلكت من الخير والشر قاعل مستقل ، فالماثوية والديسانية من الشنوية قالوا : فاعل الخير هو النور ، وفاعل الشر هو الظلمة ، واعتقدوا أنهما جسمان قديمان حساسان سميان بصيران . والمجوس من الشنوية أيضاً قالوا : إن فاعل الخير هو : بزوان . وفاعل الشر هو : أمرمن ، يعنون به الشيطان ، وكل ذلك ظاهر البطلان .

(١) قوله «وتوهجت النار إذا تلبظت» فى الصحاح «توهجت النار» توقدت . وتوهج الجوهر : تلالا ؛ فقول : فتوهجت ... الخ : يعنى جمعت بين التلالا بضوتها ، والنو قد يحمرها ، فتدبر . (ع)

(٢) قوله «وتدر أخلافه» واحدا خلف : وهو تدى الناقة ، كما يفيد الصحاح . (ع)

(٣) قوله «فإن قلت ذكر ابن كيسان» لعله «ذكر عن ابن كيسان» . (ع)

(٤) أخرجه الترمذى من حديث ابن عمر بمعناه . وضعفه إبراهيم بن يزيد الحرزى . وأخرجه هو وابن ماجه من رواية محمد بن المنكدر ، عن عبدالرحمن بن يربوع عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه مرفوعا نحوه . وقال لم يسمع ابن المنكدر عن عبدالرحمن بن يربوع .

ذو المصف والريحان). (ألفافاً) ملتفة ولا واحد له، كالأوزاع والإخفاف^(١). وقيل: الواحد لف. وقال صاحب الإقليد: أنشدني الحسن بن علي الطوسي:

جَنَّةٌ لِفَ وَعَيْشٌ مُفِدِقٌ وَنَدَائِي كُلُّهُمْ بِيضٌ زُهْرٌ^(٢)

وزعم ابن قتيبة أنه لغاء لف، ثم ألفاف: وما أظنه واجداً له نظيراً من نحو خضر وأخضر وحر وأحمر، ولو قيل: هو جمع ملتفة بتقدير حذف الزوائد، لكان قولاً وجيهاً.

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا^(١٧) يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَمَأْتُونُ أَفْوَاجًا^(١٨)

وَقُتِّمَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا^(١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا^(٢٠)

(كان ميقاتاً) كان في تقدير الله وحكمه حدّاً توقّت به الدنيا وتنتهي عنده؛ أو حداً للخلائق ينتهون إليه (يوم ينفخ) بدل من يوم الفصل، أو عطف بيان (فمأتون أفواجا) من القبور إلى الموقف أما كل أمة مع إمامهم. وقيل: جماعات مختلفة. وعن معاذ رضي الله عنه أنه سأل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا معاذ، سألت عن أمر عظيم من الأمور، ثم أرسل عينيه وقال: تحشر عشرة أصناف من أمتي: بعضهم على صورة القردة، وبعضهم على صورة الخنازير، وبعضهم منكسون: أرجلهم فوق وجوههم يسحبون عليها، وبعضهم عيا، وبعضهم صما بكاء، وبعضهم يمضغون ألسنتهم فهي مدلاة على صدورهم: يسيل القيح من أفواههم يتقدّروهم أهل الجمع، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم، وبعضهم مصلبون على جذوع من نار، وبعضهم أشدّ تنناً من الجيف، وبعضهم ملبسون جباً باسابقة من قطران لازقة بجلودهم؛ فأما الذين على صورة القردة فالقاتلات من الناس. وأما الذين على صورة الخنازير: فأهل السحت. وأما المنكسون على وجوههم فأكلة الربا، وأما العمى فالذين يجورون في الحكم، وأما الصمّ البكم فالملجبون بأعمالهم، وأما الذين يمضغون ألسنتهم فالعلماء والقصاص الذين خالف قولهم

(١) قوله كالأوزاع والأضفاف في الصحاح «أوزاع من الناس» أي: جماعات. والأوزاع: بطن من همدان. وفيه «الناس أضياف، أي: يختلفون. وإخوة أضياف، إذا كانت أهم واحدة، والآباء شق». (ع)
(٢) الحسن بن علي الطوسي. واللف - بالكسر -: الملتف أريد به الملتفة لشكائهم أعمارها وأورثها. والمغدق الكثير الواسع. والبيض: مجاز عن الأخبار. ويجوز أنه على ظاهره. ورجل أزه: مشرق الوجه، قاله زهر: المشرق الوجه، كأحر وحر، يعني: أن تدماء خبار حسان الحصال. أبيض حسان الوجه. والمطرّد في جمع أفل وفعلاء على فعل: سكون العين. ويجوز في الصغر ضمها فيما صحت عينه ولاه ولم يصف كما هنا، وكما في قوله: «وأنسرت ذوات الأعين للجل». على أنه يجوز للشاعر تحريك الساكن بحركة مقابلة للوزن، ويجوز تحريكه بحركة ما بعده إذا سكن للوقف، فيكون بفتح الهاء، كغرفة وغرف.

أعمالهم ، وأما الذين قطعت أيديهم وأرجلهم فهم الذين يؤذون الجيران ، وأما المصلوبون على جذوع من نار فالساعة بالناس إلى السلطان ، وأما الذين هم أشد تنقاً من الجيف فالذين يتبعون الشهوات واللذات ومنعوا حق الله في أموالهم ، وأما الذين يلبسون الجباب فأهل الكبر والفخر والخيلاء ،^(١) وقرئ : وفتحت ، بالتشديد والتخفيف ، والمعنى : كثرة أبوابها المفتحة لنزول الملائكة ، كأنها ليست إلا أبواباً مفتحة ، كقوله (وجعلنا الأرض عيوناً) كأن كلها عيون تنفجر . وقيل : الأبواب الطرق والمسالك ، أى . تكشف فيفتح مكانها وتصير طرقاً لا يسدها شيء . (فكانت مراباً) كقوله (فكانت هباء منبثاً) يعنى أنها تصير شيئاً كلاً شيء ، لتفرق أجزائها وانثبات جواهرها .

إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۖ (٢١) لِلطَّاغِينَ مَثَابًا ۖ (٢٢) لَا يَبْنِيْنَ فِيهَا أَحْقَابًا ۖ (٢٣) لَا يَدْخُلُونَهَا فِيْهَا بَرْذًا وَلَا شَرَابًا ۖ (٢٤) إِلَّا حَيْمًا وَعَسَاقًا ۖ (٢٥) جَرَاءً ۖ وَفَاقًا ۖ (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۖ (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذْبًا ۖ (٢٨) وَكُلُّ شَيْءٍ أَنصَيْنَاهُ كِتَابًا ۖ (٢٩) فَذُوقُوا فَلَنْ نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۖ (٣٠)

المرصاد : الحدة الذى يكون فيه الرصد . والمعنى : أن جهنم هى حدة الطاغين الذى يرصدون فيه للعذاب وهى مأبهم . أو هى مرصاد لأهل الجنة ترصد الملائكة الذين يستقبلونهم عندها ، لأن مجازهم عليها ، وهى مأب للطاغين . وعن الحسن وقتادة نحوه ، قالوا : طريقاً وممراً لأهل الجنة . وقرأ ابن عمر : أن جهنم ، بفتح الهمزة على تعليل قيام الساعة بأن جهنم كانت مرصاداً للطاغين ، كأنه قيل : كان ذلك لإقامة الجزاء . قرئ : لاثنين ولبنين ، واللبث أقوى ، لأن اللابث من وجد منه اللبث ، ولا يقال لبث ، إلا لمن شأنه اللبث ، كالذى يجثم بالمكان لا يسكاد ينفك منه (أحقاباً) حقبا^(٢) بعد حقب ، كلما مضى حقب تبعه آخر إلى غير نهاية ، ولا يسكاد يستعمل الحقب والحقبة إلا حيث يراد تنابع الأزمنة وتواليها ، والاشتقاق يشهد لذلك . ألا ترى إلى

(١) أخرجه الثعلبي وابن مردويه من رواية محمد بن زهير عن محمد بن الهندي عن حنظلة السدوسي عن أبيه عن البراء بن عازب عنه بطوله .

(٢) قوله « أحقاباً » فى الصحاح « الحقب » بالضم : ثمانون سنة . والحقبة - بالكسر - : واحدة الحقب ، وهى السنون . والحقب : الدهر ، والأحقاب : الدهور . (ع)

حقيبة الراكب، والحقب الذى وراء التصدير^(١) وقيل: الحقب ثمانون سنة، ويجوز أن يراد: لاثنين فيها أحقابا غير ذاتيين فيها برءا ولا شرابا إلا حميا وغساقا، ثم يبدلون بعد الأحقاب غير الحميم والفاسق من جنس آخر من العذاب. وفيه وجه آخر: وهو أن يسكون من حقب عامنا، إذا قل مطره وخيره، وحقب فلان: إذا أخطأه الرزق، فهو حقب، وجمعه أحقاب، فينتصب حالهم، يعنى لاثنين فيها حقيبين^(٢) جمحين. وقوله (لا يذوقون فيها برءا ولا شرابا) تفسيره والاستثناء منقطع، يعنى: لا يذوقون فيها برءا وروحا ينفس عنهم حر النار، ولا شرابا يسكن من عطشهم، ولكن يذوقون فيها حميا وغساقا وقيل: البرء، النوم، وأنشد:

فَلَوْ شِئْتُ حَسَرْتُ النِّسَاءَ سِوَاكُمْ وَإِنْ شِئْتُ لَمْ أَطْعَمْ قَقَاعًا وَلَا يَرْدًا^(٣)

وعن بعض العرب: منع البرء البرء^(٤). وقرئ: غساقا، بالتخفيف والتشديد: وهو ما يفسق، أى: يسيل من صديدهم (وفاقا) وصف بالمصدر. أو ذا وفاق. وقرأ أبو حيوه: وفاقا، فعال من وفقه كذا (كذابا) تكذيبا، وفعال فى باب فعل كله فاش فى كلام فصحاء من العرب لا يقولون غيره؛ وسمعى بعضهم أفسر آية فقال لقد فسرتها فساراً ما سمع بمثله. وقرئ بالتخفيف، وهو مصدر كذب، بدليل قوله:

فَصَدَقْتَهَا وَكَذَّبْتُهَا وَاللَّهِ يَنْفَعُهُ كِذَابُهُ^(٥)

وهو مثل قوله (أنبتكم من الأرض نباتا) يعنى: وكذبوا بآياتنا فكذبوا كذابا. أو تنصبه بكذبوا، لأنه يتضمن معنى كذبوا، لأن كل مكذب بالحق كاذب، وإن جعلته بمعنى المكاذبة فعناه: وكذبوا بآياتنا، فكذبوا مكاذبة. أو كذبوا بها مكاذبين، لأنهم إذا كانوا عند المسلمين كاذبين وكان المسلمون عندهم كاذبين فيبينهم مكاذبة. أو لأنهم يتكلمون بما هو إفراط فى الكذب فعل من يغالب فى أمر، فيبلغ فيه أقصى جهده. وقرئ: كذابا، وهو جمع كاذب، أى: كذبوا

(١) قوله: والحقب الذى وراء التصدير، فى الصحاح «التصدير»: الحزام، وهو فى صدر البعير، والحقب عند الثيل. وفيه «الثيل»: وعاء قضيب البعير. (ع)

(٢) قوله: ولاثنين فيها حقيبين، لعله حقيبن من حقب بالكسر كحجدين من جحد: إذا كان ضيقا قليل الخير فيهما، أفاده الصحاح. (ع)

(٣) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٢٩٤ فراجع إن شئت أمه مصرحه.

(٤) قوله: منع البرء البرء، أى: منع البرء النوم. (ع)

(٥) الكذاب - ككتاب - مصدر مضاف لفاعله. وصدقها وكذبها - بتخفيفها - بمعنى: قلت لها قولاً صادقا تارة، وقولاً كاذباً تارة أخرى. أو قلت لها: أنت صادقة تارة، وأنت كاذبة تارة. والضمير لنفسه أو صاحبته مثلا. وعمل ذلك بأن الكذب قد ينفخ.

بآياتنا كاذبين ؛ وقد يكون الكذاب بمعنى الواحد البليغ في الكذب ، يقال : رجل كذاب ، كقولك : حسان ، وبخال ؛ فيحصل صفة لمصدر كذبوا ، أى : تكذبيبا كذابا مفرطا كذبه ، وقرأ أبو العباس : وكل شيء أحصيناه ، بالرفع على الابتداء (كتابا) مصدر في موضع إحصاء وأحصينا في معنى كتبنا ، لالتقاء الإحصاء ، والكسبية في معنى الضبط والتحصيل . أو يكون حالا في معنى : مكتوبا في اللوح وفي صحف الحفظ . والمعنى : إحصاء معاصيهم ، كقوله : (أحصاه الله ونسوه) وهو اعتراض . وقوله (فذوقوا) مسبب عن كفرهم بالحساب وتكذيبهم بالآيات ، وهى آية في غاية الشدة ، وناهيك بلن زيدكم ، وبدلانه على أن ترك الزيادة كالحال الذى لا يدخل تحت الصحة . وبمجيتها على طريقة الالتفات شاهدا على أن الغضب قد تبالغ ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم : وهذه الآية أشد ما في القرآن على أهل النار ،^(١)

إِنَّ الْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۖ حَدَاتِقَ وَأَعْنَابًا ۖ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۖ^(٣١)
وَكَأَنَّا دِهَانًا ۖ لَا يَسْمُونُ فِيهَا لُتُومًا وَلَا كِذَابًا ۖ^(٣٢) جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ
عَطَاءً حِسَابًا ۖ^(٣٣)

(مفازا) فوزا وظفرا بالبغية . أو موضع فوز . وقيل : نجاة مما فيه أولئك . أو موضع نجاة . وفسر المفاز بما بعده . والحدائق : البساتين فيها أنواع الشجر المثمر . والأعنان : الكروم . والكواعب : اللاتق فلسكت ثديين^(١) ، وهن النواهد . والآراب . اللدات : والدهاق : المترعة . وأدهق الحوض : ملاء حتى قال قطي . وقرئ : ولا كذابا ، بالتشديد والتخفيف ، أى : لا يكذب بعضهم بعضا . ولا يكذبه . أو لا يكاذبه . وعن علي رضي الله عنه أنه قرأ بتخفيف الاثنين (جزاء) مصدر مؤكد منصوب بمعنى قوله (إن للمتقين مفازا) كأنه قال : جزاى المتقين بمفاز . و (عطاء) نصب بجزاء نصب المفعول به . أى : جزاءهم عطاء . و (حسابا) صفة بمعنى : كافيا . من أحسبه الشيء إذا كفاه حتى قال حسي . وقيل : على حسب أعمالهم . وقرأ ابن قطيب : حسابا ، بالتشديد ، على أن الحساب بمعنى المحسب ، كالذراك بمعنى المدرك .

رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ۖ^(٣٤)

(١) أخرجه ابن أبي حاتم والعلابي من رواية جسر بن فرقد السبكي عن الحسن سألت أبا برزة الأسلمي ففكره وجسر ضعيف . ورواه الطبراني والبيهقي في الشعب موقوفا .
(٢) قوله « فلسكت ثديين » في الصحاح : « فلك ثدى الجارية تغليكا ، وتلك : استدار . » (ع)

يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ
وَقَالَ صَوَابًا (٣٨) ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَثَابًا (٣٩)

قارئ : رب السموات . والرحمن : بالرفع ، على : هو رب السموات الرحمن . أوروب
السموات مبتدأ ، والرحمن صفة ، ولا يملكون : خبر . أوهما خبران . وبالجر على البدل من
ربك ، وبجر الأول ورفع الثاني على أنه مبتدأ خبره (لا يملكون) . أو هو الرحمن لا يملكون .
والضمير في (لا يملكون) لأهل السموات والأرض ، أى : ليس في أيديهم مما يخاطب به
الله وبأمر به في أمر الثواب والعقاب خطاب واحد يتصرفون فيه تصرف الملاك ، فيزبدون
فيه أو ينقصون منه . أو لا يملكون أن يخاطبوه بشيء من نقص العذاب أو زيادة في الثواب ،
إلا أن يهب لهم ذلك ويأذن لهم فيه . و(يوم يقوم) متعلق بلا يملكون ، أو بلا يتكلمون .
والمعنى : إن الذين هم أفضل الخلائق (١) وأشرفهم وأكثرهم طاعة وأقربهم منه وهم الروح
والملائكة لا يملكون التكلم بين يديه ، فما ظنك بمن عدا من أهل السموات والأرض ؟
والروح : أعظم خلقاً من الملائكة وأشرف منهم وأقرب من رب العالمين . وقيل : هو ملك
عظيم ما خلق الله بعد العرش خلقاً أعظم منه . وقيل : لينوا بالملائكة ، وهم يأكلون . وقيل :
جبريل . هما شريطان : أن يكون المتكلم مأذوناً له في الكلام . وأن يتكلم بالصواب فلا يشفع
غير مرتضى (٢) ، لقوله تعالى (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) .

إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ

بِلسَانِي كُنْتُ تُرَابًا (٤٠)

(المراء) هو الكافر لقوله تعالى (إنا أنذرناكم عذاباً قريباً) والكافر : ظاهره وضع موضع
الضمير لزيادة الذم ، ويعنى (ما قدمت يداها) من الشر ، كقوله (وذوقوا عذاب الحريق ذلك
بما قدمت أيديكم) ، (ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ذلك بما قدمت يداك) ، (بما قدمت

(١) قوله : إن الدين هم أفضل الخلائق ، تفضيلهم على البشر مذهب المعتزلة ، ومذهب أهل السنة تفضيل
للبنس عليهم : والظاهر أن الروح كالملاك في هذا الخلاف ، فتدبر . (ع)

(٢) قال محمد : «وقف للشفاعة على شرطين ... الخ» قال أحد : يعرض بأن الشفاعة لا تحمل على مرتكبي
الكبائر من الموحدين . وقد صرح بذلك في مواضع تقدمت له ، ويتلق ذلك من أنها مخصوصة بالمرتضين : وذو
الكبائر ليسوا مرتضين . ومن ثم أخطأ أن الله عز وجل ما خصهم بالإيمان والتوحيد وتوفاهم عليه : إلا وقد
ارتضاهم لذلك ، بدليل قوله تعالى (ولا يرضى لعباده الكفر ، وإن شكروا برضه لكم) لجعل الشكر بمعنى الإيمان
المقابل للكفر . مرضياً لله تعالى ، وصاحبه مرضى .

أيديهم والله عليم بالظالمين) و (ما) يجوز أن تكون استفهامية منصوبة بقدّمت ، أى ينظر أى شيء قدّمت يده ، وموصولة منصوبة ينتظر ، يقال : نظرته بمعنى نظرت إليه ، والراجع من الصلة محذوف ، وقيل : المرء عام ، وخصص منه الكافر . وعن قتادة : هو المؤمن ﴿ ياليتنى كنت ترابا ﴾ فى الدنيا فلم أخلق ولم أكلف . أوليتنى كنت ترابا فى هذا اليوم فلم أبعث . وقيل يحشر الله الحيوان غير المكلف حتى يقتص للجهنم من القرناء ، ثم يرده ترابا ، فيودّ الكافر حاله . وقيل : الكافر إبليس ، يرى آدم وولده وثوابهم ، فيتمنى أن يكون الشيء الذى احتقره حين قال (خلقتنى من نار وخلقته من طين) .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : ومن قرأ سورة عم يتساءلون سقاها الله برد الشراب يوم القيامة . (١)

سورة النازعات

مكية ، وهى خمس أو ست وأربعون آية [نزلت بعد النبأ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ① وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ② وَالسَّابِقَاتِ سَبْعًا ③
فَالسَّابِقَاتِ سَبْعًا ④ فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا ⑤ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ⑥
تَتَّبِعُنَّ الرَّادِفَةَ ⑦ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ⑧ أَبْصَرُهَا خَاشِعَةٌ ⑨
يَقُولُونَ أَيْنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ⑩ أَيْدَا كُنَّا عِظْمًا نَخِرَةً ⑪
فَالْوَا تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ⑫ فَاِئْتِمَا حَى زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ⑬ فَاِذَا هُمْ
بِالْعَاصِرَةِ ⑭

أقسم سبحانه بطوائف الملائكة التى تنزع الارواح من الاجساد ، وبالطوائف التى تنشطها

(١) أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مهدي بإسنادهم إلى أبي بن كعب .

أى تخرجها . من نشط الدلو من البئر إذا أخرجها . وبالطوائف التى تسبح فى مضيا ، أى :
تسرع فتسبق إلى ما أمروا به ، فتسدير أمراً من أمور العباد مما يصلحهم فى دينهم أو دنياهم كما
رسم لهم (غرقاً) إغراقاً فى النزاع ، أى : تنزعها من أقاليم الأجساد من أناملها وأظفارها .
أو أقسم بحيل الغزاة التى تنزع فى أعنتها نزعا تفرق فيه الأعداء لظول أعناقها : لأنها عراب .
والتي تخرج من دار الإسلام إلى دار الحرب من قولك : ثور ناشط . إذا خرج من بلد إلى
بلد . والتي تسبح فى جريها فتسبق إلى الغاية فتدير أمر الغلبة والظفر ، وإسناد التدبير إليها ،
لأنها من أسبابه . أو أقسم بالنجوم التى تنزع من المشرق إلى المغرب . وإغراقها فى النزاع :
أن تقطع الفلك كله حتى تنحط فى أقصى الغرب ، والتي تخرج من برج إلى برج ، والتي
تسبح فى الفلك من السيارة فتسبق فتسدير أمراً من علم الحساب . وقيل النازعات أبدى
الغزاة ، أو أنفسهم تنزع القسي بإغراق السهام ، والتي تنشط الأرواق ^(١) والمقسم عليه
مخدوف ، وهو لتبعث ، لدلالة ما بعده عليه من ذكر القيامة . و (يوم ترجف) منصوب
بهذا المضمرة . و (الراجفة) الواقعة التى ترجف عندها الأرض والجبال ، وهى النفخة الأولى :
وصفت بما يحدث بحدوثها (تتبعها الرادفة) أى الواقعة التى تردف الأولى ، وهى النفخة
الثانية . ويجوز أن تكون الرادفة من قوله تعالى (قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذى
تستعجلون) أى القيامة التى يستعجلها الكفرة استبعاداً لها ، وهى رادفة لم لاقرابها . وقيل
(الراجفة) الأرض والجبال ، من قوله (يوم ترجف الأرض والجبال) والرادفة : السماء
والكواكب ؛ لأنها تشق وتنتثر كواكبها على أثر ذلك . فإن قلت : ما عل تتبعها ؟ قلت :
الحال ، أى : ترجف تابعتها الرادفة . فإن قلت : كيف جعلت (يوم ترجف) ظرفاً للمضمرة الذى
هو لتبعث ، ولا يعيشون عند النفخة الأولى ؟ قلت : المعنى : لتبعث فى الوقت الواسع الذى يقع فيه
النفختان ، وهم يعيشون فى بعض ذلك الوقت الواسع ، وهو وقت النفخة الأخرى . ودل على
ذلك أن قوله (تتبعها الرادفة) جعل حالاً عن الراجفة . ويجوز أن ينتصب (يوم ترجف) بما دل
عليه (قلوب يومئذ واجفة) أى يوم ترجف وجفت القلوب (واجفة) شديدة الاضطراب ،
والوجيب والوجيف : أخوان (حاشعة) ذليلة . فإن قلت : كيف جاز الابتداء بالنكرة ؟
قلت : (قلوب) مرفوعة بالابتداء ، و (واجفة) صفتها ، و (أبصارها حاشعة) خبرها فهو كقوله :
(ولابد مؤمن خير من مشرك) . فإن قلت : كيف صح إضافة الأبصار إلى القلوب ؟ قلت :
معناه أبصار أصحابها بدليل قوله (يقولون) . (فى الحافرة) فى الحالة الأولى ، يعنون : الحياة
بعد الموت . فإن قلت : ما حقيقة هذه الكلمة ؟ قلت : يقال : رجع فلان فى حافرته ، أى : فى

(١) قوله « تنشط الأرواق » من جبال الموائى . أفاده الصحاح . (ع)

طريقه التي جاء فيها خفرها ، أى : أثر فيها بمشيئه فيها : جعل أثر قدميه حفراً ، كما قيل : حضرت أسنانه حفراً : إذا أثر الآكال في أسنانها^(١) . والخط المحفور في الصخر . وقيل : حافرة ، كما قيل : عيشة راضية ، أى : منسوبة إلى الحفر والرضا ، أو كقولهم : نهارك صائم ، ثم قيل لمن كان في أمر فخرج منه ثم عاد إليه : رجع إلى حافرته ، أى طريقته وحالته الأولى . قال :

أَحَافِرَةٌ عَلَى صُلْعٍ وَشَيْبٍ مَعَادَ اللَّهِ مِنْ سَفَةٍ وَعَارٍ^(٢)

يريد : أرجوعاً إلى حافرة . وقيل : التقد عند الحافرة ، يريدون عند الحالة الأولى : وهى الصفقة . وقرأ أبو حيوة : فى الحفرة . والحفرة بمعنى : المحفورة . يقال : حفرت أسنانه فحفرت حفراً ، وهى حفرة : وهذه القراءة دليل على أن الحافرة فى أصل الكلمة بمعنى المحفورة . يقال : نخر العظم فهو نخر ونأخر ، كقولك طمع فهو طمع وطامع ؛ وفعل أبلغ من فاعل ؛ وقد قرئ بهما : وهو البالى الأجوف الذى تمر فيه الريح فيسمع له نخير . و(إذا) منصوب بمحذوف ، تقديره : أنذا كنا عظاماً نرد ونبعث (كرة خاسرة) منسوبة إلى الخسران ، أو خاسر أصحابها . والمعنى : أنها إن صحت فنحن إذا خاسرون لتكذيبنا بها ، وهذا استهزاء منهم . فإن قلت : بهم تعلق قوله (فإنما هى زجرة واحدة) ؟ قلت : بمحذوف ، معناه : لا تستصعبوها ، فإنما هى زجرة واحدة ؛ يعنى : لا تحسبوا تلك الكرة صعبة على الله عز وجل ، فإنها سهلة هينة فى قدرته ، ما هى إلا صيحة واحدة^(٣) . يريد النفخة الثانية (فإذا هم) أحياء على وجه الأرض بعد ما كانوا أمواتاً فى جوفها ، من قولهم : زجر البعير ، إذا صاح عليه . والساهرة : الأرض البيضاء المستوية ، سميت بذلك لأن السراب يجرى فيها ، من قولهم : عين ساهرة جارية الماء ، وفى ضدها : نائمة . قال الأشعث بن قيس :

(١) قوله «أثر الآكال فى أسنانها» فى الصحاح «أسناخ الأسنان» : أصولها . (ع)

(٢) أنشده ابن الأعرابي . والمهزة للانكار . والحافرة فى الأصل : الطريق المحفور بالسير ، فتسميته حافرة مجاز عقل . أو هل معنى النسب ، أى : ذات حفر ، ثم استعملت فى كل حال كنت فيه ، ثم رجعت إليه . وهى نصب بمحذوف ، أى : أراجع حافرة ، أى فى طريقى الأولى من الشباب والصبى . أو على نزع الحافض ، أى : أراجع إليها . والصلع : انحسار شعر الجبهة ، ويقلب فى الهرم . ومعاد : مصدر نصب بمحذوف . والسفة : الجهل والطيش .

(٣) قال محمود : «إن قلت : كيف اتصل بما قبله ؟ وأجاب أنهم أنكروا الإعادة ... الخ» قال أحمد : وما أحسن تسهيل أمر الإعادة بقوله (زجرة) عرضاً من صيحة ، لأن الزجرة أخف من الصيحة ؛ وبقوله (واحدة) أى غير محتاجة إلى مشنوية ، وهو يحقق لك ما أجبت به من السؤال الوارد عند قوله تعالى (فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة) حيث قيل : كيف وحدها وهما نفختان ، فجده به عهداً .

وَسَاهِرَةً يُبْصِي السَّرَابُ مُجَلَّلًا لَا قَطَارَهَا قَدْ جُبَّتْهَا مُتَلَمَّمًا (١)

أو لأن سالكها لا ينام خوف الملكة. وعن قتادة: فإذا هم في جهنم.

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْقُدْسِ طُوًى (١٦)

أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (١٧) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (١٨)

وَأَهْدِكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (١٩) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (٢٠) فَكَذَّبَ

وَعَصَى (٢١) ثُمَّ أَذْبَرَ بَنِي (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَى (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ

الْأَعْلَى (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (٢٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً

لِمَنْ يَخْشَى (٢٦)

(أذهب) على إرادة القول. وفي قراءة عبدالله: أن أذهب، لأن في النداء معنى للقول.

هل لك في كذا، وهل لك إلى كذا؛ كما تقول: هل ترغب فيه، وهل ترغب إليه (إلى أن تزكى) إلى أن تظهر من الشرك، وقرأ أهل المدينة: تزكى، بالإدغام (وأهديك إلى ربك) وأرشدك إلى معرفة الله أنهمك عليه فتعرفه (فتخشى) لأن الخشية لا تسكون إلا بالمعرفة. قال الله تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) أي العلماء به؛ وذكر الخشية لأنها ملاك الأمر، من خشي الله: أتى منه كل خير. ومن أمن: اجترأ على كل شر. ومنه قوله عليه السلام: ومن خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، (١) بدأ مخاطبته بالاستفهام الذي معناه العرض، كما يقول الرجل اضيفه: هل لك أن تنزل بنا، وأردفه الكلام الرقيق ليسقديه بالتلطف في القول، ويستنزله بالمداواة من عتوه، كما أمر بذلك في قوله (فقلوا له قولاً ليناً). (الآية الكبرى) قلب المعاصية لأنها كانت المقدمة والاصل، والآخرى كالاتباع لها؛ لأنه كان يتقها بيده، فقليل

(١) للأشعث بن قيس؛ والساهرة: الأرض البيضاء؛ لأن السراب يجري فيها فتعبه العين الساهرة؛ لظهور

ياضها وجريان مائها، بخلاف الناعسة. أو وصفت بالسمر، لأن السائر فيها ساهر لا ينام خوف الملكة، فهو مجاز عقل. مجلا: خير «بضحي» أي: سائر لا قطارها وجراتها. يقول: رب مفازة يستترها النهار بسراب يشبه جل الفرس؛ ويطلق النهار على السراب، وعلى فرخ الحبارى، وتصح إرادة كل منهما. قد أنبتها لا يسا القمام خوف الحر والريح.

(٢) أخرجه الحاكم والبيهقي في الذهب وأبو نعيم في الحلية من رواية الثوري عن أبي عقيل عن الطفيل بن أبي

عن أبيه بهذا. قال أبو نعيم تفرد به وكيع. قاله في ترجمته وهو ضعيف برواية الحاكم من طريق عبد الله بن الوليد عن الثوري ورواه الترمذي والحاكم والمعقل بن رواية يزيد بن سنان سمعت بكر بن فيروز. سمعت أبا هريرة - فذكره.

له : أدخل يدك في جيبك . أو أرادهما جميعا ، إلا أنه جعلهما واحدة : لأن الثانية كأنها من جملة الأولى لكونها تابعة لها (فكذب) بموسى والآية الكبرى ، وسماهما ساحراً وسحراً (وعصى) الله تعالى بعد ما علم صحة الأمر ، وأن الطاعة قد وجبت عليه (ثم أدبر يسمي) أى لما رأى الثعبان أدبر مرعوباً^(١) ، يسمي : يسرع في مشيته . قال الحسن . كان رجلاً طلياشاً خفيفاً . أو تولى عن موسى يسمي ويحتد في مكابדתه ، وأريد : ثم أقبل يسمي ، كما تقول : أقبل فلان يفعل كذا ، بمعنى : أنشأ يفعل ، فوضع (أدبر) موضع : أقبل ؛ لئلا يوصف بالإقبال (فخر) فجمع السحرة ، كقوله (فأرسل فرعون في المدائن حاشرين) . (فنادى) في المقام الذى اجتمعوا فيه معه . أو أمر منادياً فنادى في الناس بذلك . وقيل قام فيهم خطيباً فقال تلك العظيمة . وعن ابن عباس : كلته الأولى : (ما علمت لكم من إله غيري) والآخرة : (أنا ربكم الأعلى) . (نكال) هو مصدر مؤكد ، كوعد الله ، وصيغة الله : كأنه قيل : نكل الله به نكال الآخرة والأولى والنكال بمعنى التنكيل ، كالسلام بمعنى التسليم . يعنى الإغراق في الدنيا والإحراق في الآخرة^(٢) ، وعن ابن عباس : نكال كلتيه الآخرة ، وهى قوله : (أنا ربكم الأعلى) والأولى وهى قوله (ما علمت لكم من إله غيري) وقيل : كان بين الكلمتين أربعون سنة . وقيل عشرون .

أَنْتُمْ أَشَدُّ حَقًّا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ٢٧ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا ٢٨
وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ نُجُومَهَا ٢٩ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ٣٠ أَخْرَجَ
مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ٣١ وَالْجِبَالَ أُرْسَاهَا ٣٢ مَتَّعًا لَكُمْ وَلِأَنْفُسِكُمْ ٣٣

الخطاب لمنكرى البعث ، يعنى (أنتم) أصعب (خلقاً) وإنشاء (أم السماء) ثم بين كيف خلقها فقال (بناها) ثم بين البناء فقال (رفع سمكها) أى جعل مقدار ذهابها في سميت العلوم مدبداً رفيعاً مسيرة خمسمائة عام (فسواها) فعدلها مستوية لمساء ، ليس فيها تفاوت ولا فطور . أو قسمها بما علم أنها تتم به وأصلحها ، من قولك : سوى فلان أمر فلان . غطش الليل وأغطشه الله ، كقولك : ظلم وأظلمه . ويقال أيضاً : أغطش الليل ، كما يقال أظلم (وأخرج

(١) قال محمود : «أى لما رأى الثعبان ولى هارباً مذعوراً ... الخ» قال أحمد : وهذا الوجه الأخير حسن لطيف جداً ، وهو على هذا من أفعال المقاربة .

(٢) قال محمود : «وقوله (نكال الآخرة والأولى) يعنى الإغراق في الدنيا والإحراق في الآخرة ... الخ» قال أحمد : فعل الأول يكون قريباً من إضافة الموصوف إلى الصفة : لأن الآخرة والأولى صفتان للكلمتين : وعلى الثاني لا يكون كذلك .

(ضحاها) وأبرز ضوء شمسها ، يدل عليه قوله تعالى (والشمس وضحاها) يريد وضوئها . وقولهم : وقت الضحى ، للوقت الذى تشرق فيه الشمس ويقوم سلطانها ؛ وأضيف الليل والشمس إلى السماء ، لأن الليل ظلها والشمس هى السراج المنقب فى جوها^(١) (ماءها) عيونها المتفجرة بالماء (ومرعاها) ورعيها ، وهو فى الأصل موضع الرعى . ونصب الأرض والجبال بإضمار دحا ، و «أرسي» ، وهو الإضمار على شريطة التفسير . وقرأهما الحسن مرفوعين على الابتداء . فإن قلت : هلا أدخل حرف العطف على «أخرج»؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن يكون معنى (دحاها) بسطها ومهدا للسكنى ، ثم فسر التهديد بما لا بد منه فى تأتى سكنها ، من تسوية أمر المأكل والمشرب ؛ وإمكان القرار عليها ، والسكون بإخراج الماء والرعى ، وإرساء الجبال وإثباتها أو تادأها حتى تستقر ويستقر عليها . والثانى : أن يكون (أخرج) حالا بإضمار دقد ، كقوله : (أوجاؤكم حصرت صدورهم) وأراد بمرعاها : ما يأكل الناس والأنعام . واستعير الرعى للإنسان كما استعير الرتع فى قوله (رتع ونلعب) وقرئ : رتع ، من الرعى ؛ ولهذا قيل : دل الله سبحانه بذكر الماء والرعى على عامة ما يرتفق به ويتمتع بما يخرج من الأرض حتى الملح ، لانه من الماء (متاعا لكم) فعل ذلك تمتعاً لكم (ولأنعامكم) لأن منفعة ذلك التهديد واصله إليهم وإلى أنعامهم .

فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَىٰ (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَمَىٰ (٣٥)

وَبُرُزَّتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ بَرَىٰ (٣٦)

(الطامة) الداهية التى تطم على الدواهي ، أى : تعلو وتغلب . وفى أمثالهم : جرى الوادى فطم على القرى ، وهى القيامة لطمومها على كل هائلة . وقيل : هى النفخة الثانية . وقيل : الساعة التى تساق فيها أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار (يوم يتذكر) بدل من إذا جاءت ، يعنى : إذا رأى أعماله مدونة فى كتابه تذكرها وكان قد نسيها ، كقوله (أحصاه الله ونسوه) . و (ما) فى (ماسمى) موصولة ، أو مصدرية (وبرزت) أظهرت وقرأ أبو نهيك : وبرزت

(١) قوله د هو السراج المنقب فى جوها . فى الصحاح «نقبت النار» : إذا انقادت . وأثقيتها أنا . (ع)

(٢) قال محمود : وكان قلت هلا أدخل العاطف على «أخرج» الخ . قال أحمد : والأول أحسن ، وهو مناسب لقوله (السماء بناها) ، لأنه لما قال (أأنتم أشد خلقاً أم السماء) تم الكلام ، لكن بجلا : ثم بين التفاوت ففسر كيف خلقها فقال ، (بناها) ، بغير عاطف : ثم فسر البناء فقال (رفع سمكها) ، بغير عاطف أيضاً

(لمن يرى) للرأين جميعاً ، أى : لكل أحد ، يعنى : أنها تظهر إظهاراً بيناً مكشوفاً^(١) ، يراها أهل الساهرة كلهم ، كقوله : قد بين الصبح لذى عينين ، يريد : لكل من له بصر ؛ وهو مثل فى الأمر المتكشف الذى لا يخفى على أحد . وقرأ ابن مسعود : لمن رأى . وقرأ عكرمة : لمن ترى . والضمير للجحيم ، كقوله (إذا رأته من مكان بعيد) وقيل : لمن ترى يا محمد .

فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ ۖ (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٣٩)

(فأما) جواب (فإذا) أى : فإذا جاءت الطاقة فإن الأمر كذلك . والمعنى : فإن الجحيم مأواه ، كما تقول للرجل : غض الطرف ، تريد : طرفك ، وليس الألف واللام بدلاً من الإضافة ، ولكن لما علم أن الطاغى هو صاحب المأوى ، وأنه لا يفيض الرجل طرف غيره : تركت الإضافة ؛ ودخول حرف التعريف فى المأوى والطرف للتعريف ، لانهما معروفان ، و(هى) فصل أو مبتدأ .

وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٤١)

(ونهى النفس) الامارة بالسوء (عن الهوى) المردى وهو اتباع الشهوات وزجرها عنه وضبطها بالصبر والتوطين على إثبات الخير . وقيل : الآيتان نزلتا فى أبي عزيز بن عمير ومصعب بن عمير ، وقد قتل مصعب أخاه أبا عزيز يوم أحد ، ووفى رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه حتى نفذت المشاقص^(٢) فى جوفه^(٣) .

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۖ (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ۖ (٤٣) إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ۖ (٤٤) إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَنْشَاهَا ۖ (٤٥) كَانَتْهُمْ يَوْمَ بَرَزْنَاهَا لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا عَشِيمَةً أَوْ ضَحَاها ۖ (٤٦)

(أيان مرساه) متى إرساؤها ، أى إقامتها ، أرادوا : متى يقيمها الله ويثبتها ويكونها ؟

(١) قال محمود : «بمعنى أظهرت إظهاراً بيناً مكشوفاً ... الخ» قال أحد : وقائدة هذا لفظ الاشعار بأنه أمر ظاهر لا يتوقف إدراكه إلا على البصر خاصة ، أى : لا شئ يحجب ولا بعد يمنع رؤيته ، ولا قرب مفرط ، إلى غير ذلك من موانع الرؤية .

(٢) قوله «حتى نفذت المشاقص» جمع مشقص : وهو السهم الطويل العريض . أفاده الصحاح . (ع)

(٣) لم أجده .

وقبل أيا من منتهاها ومستقرها^(١) ، كما أن مرسى السفينة مستقرها ، حيث تنتهى إليه (فيم أنت) في أى شيء أنت^(٢) من أن تذكر وقتها لم وتعلمهم به ، يعنى : ما أنت من ذكرها لم وتبين وقتها فى شيء . وعن عائشة رضى الله عنها : لم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الساعة يسأل عنها حتى نزلت^(٣) ، فهو على هذا تعجب^(٤) من كثرة ذكره لها ، كأنه قيل : فى أى شغل واهتمام أنت من ذكرها والسؤال عنها . والمعنى : أنهم يسألونك عنها ، فحصر لك على جوابهم لا تزال تذكرها وتساءل عنها ، ثم قال (إلى ربك منتهاها) أى منتهى عليها لم يؤت عليها أحدا من خلقه . وقيل : (فيم) إنكار لسؤالهم^(٥) ، أى : فيم هذا السؤال ، ثم قيل : أنت من ذكرها ، أى : إرسالك وأنت خاتم الأنبياء وآخر الرسل المبعوث فى نسمة الساعة^(٦) ذكر من ذكرها وعلامة من علاماتها ، فكفاهم بذلك دليلا على دنوها ومشارقتها ووجوب الاستعداد لها ، ولا معنى لسؤالهم عنها (إنما أنت منذر من يحشاها) أى : لم تبعث لتعلمهم بوقت الساعة الذى لا فائدة لهم فى علمه ، وإنما بعثت لتنذر من أهرأها من يكون من إنذارك لطفاله فى الخشية منها . وقرئ : منذر بالتثوين ، وهو الأصل ؛ والإضافة تخفيف ، وكلاهما يصلح للحال والاستقبال ؛ فإذا أريد الماضى فليس إلا الإضافة ، كقولك : هو منذر زيد أمس ، أى : كأنهم لم يلبثوا فى الدنيا ، وقيل : فى القبور (إلا عشية أو ضحاها) . فإن قلت : كيف صحت إضافة الضحى إلى العشية ؟ قلت : لما بينهما من الملازمة لاجتماعهما فى نهار واحد . فإن قلت : فهلا قيل : إلا عشية أو ضحى وما فائدة الإضافة ؟ قلت : الدلالة على أن مدة لبثهم كأنها لم تبلغ يوما كاملا ، ولكن

(١) قال محمود : «مرساها أى مستقرها ... الخ» قال أحمد : وفيه إشعار بنقل اليوم ، كقوله (ويذرون ورواهم يوما ثقيلا) الاتزام لا يستعملون الارساء إلا نيا تفل كرسى السفينة وإرساء الجبال .

(٢) قال محمود : «ومعنى (فيم أنت) أى : فى أى شيء أنت من أن تذكر وقتها ... الخ» قال أحمد : وفى هذا الوجه نظر ؛ فإن الآية الأخرى ترد ، وهي قوله (يسئلونك كأنك حق عنها) أى : أنك لا تحتج بالسؤال عنها ولا تنهم بذلك ، وهم يسئلونك كما يسئل الحق عن الشيء ، أى : الكثير السؤال عنه ، فالوجه الأول أصوب .

(٣) أخرجه إسماعيل فى مسنده وابن مردويه من طريقه أخبرنا ابن عتبة عن الزهرى عن عروة عنها بهذا . ورواه الطبري عن يعقوب عن إبراهيم عن ابن عتبة مثله . قال الحاكم بعد أن أخرجه من طريق ابن عتبة : لم يخرجناه لأن ابن عتبة كان يرسله . وقال ابن أبي حاتم عن أبي زرعة : الصحيح مرسل . وأخرجه عبد الرزاق عن ابن عتبة مرسلًا وقال الدارقطني أسنده ابن عتبة مرة وأرسله أخرى .

(٤) قوله «فهو على هذا تعجب» له : تعجب . (ع)

(٥) قال محمود : «وقيل (فيم) إنكار لسؤالهم ، أى : فيم هذا السؤال ... الخ» قال أحمد : فعلى هذا ينبغي أن يوقف على قوله (فيم) ليفصل بين الكلامين .

(٦) قوله «فى نسمة الساعة» فى الصحاح «نسمة الريح» : أروها حين تقبل بلين قيل أن تشده . ومن الحديث «بعثت فى نسمة الساعة» أى : حين ابتدأت وأقبلت أوائلها . (ع)

ساعة منه عشيته أو ضحاها ؛ فلما ترك اليوم أضافه إلى عشيته ، فهو كقوله (لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة والنازعات كان بمن حبه الله في القبر والقيامة حتى يدخل الجنة قدر صلاة المكتوبة ^(١) » .

سورة عبس

مكية ، وآياتها ٤٢ وقيل ٤١ [نزلت بعد النجم]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- عَبَسَ وَتَوَلَّى ① أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ② وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ بُرْكَى ③
أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ④ أَلَمْ يَكُنْ مِنْ آسِئَاتِي ⑤ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ⑥
وَمَا عَلَّمَكَ إِلَّا بَرَكًى ⑦ وَأَلَمْ يَكُنْ جَاءَكَ نَسَمًى ⑧ وَهُوَ يَخْشَى ⑨
فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ⑩

أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن أم مكتوم ^(١) - وأم مكتوم أم أبيه ؛ واسمه عبدالله بن شرح ابن مالك بن ربيعة الفهري من بني عامر بن لؤي - وعنده صناديد قريش : عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو جهل بن هشام . والعباس بن عبد المطلب ، وأمية بن خلف ، والوليد بن المغيرة ؛ يدعوهم إلى الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم ^(٢) . فقال : يا رسول الله ، أقرئني وعلمي بما

(١) أخرجه الثعلبي والواحدى وابن مردويه بالسند إلى أبي بن كعب .

(٢) ذكر الزعشمى سبب نزول الآية . وهو أن ابن أم مكتوم الأعشى ... الخ قال أحمد : وإنما أخذ الاختصاص من تقدير الجملة بضمير المخاطب وجعله مبتدأ مخبرا عنه وهو كثيرا ما يلقى الاختصاص من ذلك ؛ ولقد غلط في تفسير الآية ، وما كان له أن يبلغ ذلك .

(٣) ذكره الثعلبي بلا إسناد ، وأخرجه ابن أبي حاتم من رواية العوفي عن ابن عباس نحوه دون قوله « صناديد قريش » ودون سياق نسب ابن أم مكتوم . وكذا أخرجه الطبري من رواية سعيد عن قتادة . قال : ذكر لنا فذكره . وبهذا الإسناد أن النبي صلى الله عليه وسلم استخلفه بمدة ذلك على المدينة مرتين يصلي بأهلها . ورواه الترمذى =

عليك الله ، وكرر ذلك وهو لا يعلم تشاغله بالقوم ، ففكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعه لكلامه ، وعبس وأعرض عنه ، فنزلت : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرمه ويقول إذا رآه : مرحبا بمن عاتبنى فيه ربي ، ويقول له : هل لك من حاجة ؟ واستخلفه على المدينة مرتين ؛ وقال أنس : رأيته يوم القادسية وعليه درع وله راية سوداء ^(١) . وقرئ : عبس ، بالتشديد للمبالغة ؛ ونحوه : كلع في كلع (أن جاءه) منصوب بهولى ، أو بعبس ، على اختلاف المذهبين . ومعناه : عبس ، لأن جاءه الأعمى . أو أعرض لذلك . وقرئ : آ أن جاءه بهمزة على وبألف بينهما ، ووقف على (عبس وتولى) ثم ابتدئ ، على معنى : ألا أن جاءه الأعمى فعل ذلك إنكارا عليه . وروى أنه ما عبس بعدها في وجه فقير قط ، ولا تصدى لغنى . وفي الإخبار عما فرط منه ، ثم الإقبال عليه بالخطاب : دليل على زيادة الإنكار ، كمن يشكو إلى الناس جانبا جنى عليه ، ثم يقبل على الجاني إذا حى في الشكاية مواجهها له بالتوبيخ وإلزام الحجة . وفي ذكر الأعمى نحو من ذلك ، كأنه يقول : قد استحق عنده العبوس والإعراض لأنه أعمى ، وكان يجب أن يزيده لعماه تعظفا وترؤفا وتقريبا وترحميا ، ولقد تأذّب الناس بأدب الله في هذا تأدبا حسنا ؛ فقد روى عن سفیان الثوري رحمه الله أن الفقراء كانوا في مجلسه أمراء (وما يدريك) وأى شيء يجعلك داريا بحال هذا الأعمى ؟ (لعله يزكى) أى يتطهر بما يتلقن من الثرائع من بعض أوصار الإثم (أو يذكر) أو يعظ (فتنتفع) ذكراك ، أى : موعظتك ؛ وتكون له لطفًا في بعض الطاعات . والمعنى : أنك لا تدري ما هو مترقب منه ، من ترك أو تذكر ، ولو دريت لما فرط ذلك منك . وقيل : الضمير في (لعله) للكافر . يعنى أنك طمعت في أن يتزكى بالإسلام ، أو يتذكر فقرته الذكري إلى قبول الحق ؛ وما يدريك أن ما طمعت فيه كائن . وقرئ : فتنتعه ، بالرفع عطفا على يذكر . وبالنصب جوابا للعل ، كقوله (فأطلع إلى إله موسى) ، (تصدى) تعرض بالإقبال عليه ، والمصاداة . المعارضة ؛ وقرئ . تصدى ، بالتشديد ، بإدغام

== والمحاكم من حديث عائشة رضوان الله عنها نحوه (تنبيه) النسب الذي ساقه في غاية التخليل ، يظهر لمن له أدنى إلمام بالأخبار والأنساب . قال ابن سعد : أما أهل المدينة فيقولون اسمه عبدالله . وأما أهل العراق وشمس الكلبي فيقولون اسمه عمرو ثم أجمعوا على نسبه . فقالوا : ابن قيس بن زياد بن الأصم بن رواحة بن حجر بن عبد بن معيص ابن عامر بن لؤى . وأمه عاتكة هي أم مكتوم بنت عبدالله بن عامر بن مخزوم . وقال ابن سعد : أخبرنا يزيد بن هارون . أخبرنا جوير عن الضحاك . قال « كان النبي صلى الله عليه وسلم تصدى لرجل من قريش يدعو إلى الإسلام فأقبل عبدالله بن أم مكتوم الأعمى ، فجعل يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يعرض عنه ويعبس في وجهه ، ويقبل على الآخر . فتاب الله رسوله فقال (عبس وتولى أن جاء الأعمى - الآيات) فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكرمه واستخلفه على المدينة مرتين » .

(١) أخرجه عبدالرزاق عن معمر عن قتادة . أخبرني أنس بهذا وكذا رواه أبو يعلى والطبري من رواية قتادة عن أنس رضي الله عنه .

التاء في الصاد . وقرأ أبو جعفر : تصدى ، بضم التاء ، أى : تعرض . ومعناه : يدعوك داع إلى التصدى له : من الحرص والتهالك على إسلامه ، وليس عليك بأس فى أن لا يتزكى بالإسلام (إن عليك إلا البلاغ) ، (يسمى) يسرع فى طلب الخير (وهو يخشى) الله أو يخشى الكفار ، وأدام فى إتيانك . وقيل : جاء وليس معه قائد ، فهو يخشى الكبوة (تلهى) تشاغل ، من لهى عنه . والتهى . وتلهى . وقرأ طلحة بن مصرف : تلهى . وقرأ أبو جعفر : تلهى ، أى : يلهيك شأن الصناديد . فإن قلت : قوله (فأنت له تصدى) ، (فأنت عنه تلهى) كأن فيه اختصاصا . قلت : نعم ، ومعناه : إنكار التصدى والتلهى عليه ، أى : مثلك خصوصا لا ينبغى له أن يتصدى للغنى ويتلهى عن الفقير .

كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ۝ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝ (١٣)
مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝ (١٦)

(كلا) ردع عن المعائب عليه ، وعن معاودة مثله (إنها تذكرة) أى موعظة يجب الاتعاظ والعمل بموجبها (فمن شاء ذكره) أى كان حافظا له غير ناس ، وذكر الضمير لأن التذكرة فى معنى الذكر والوعظ (فى صحف) صفة للتذكرة ، يعنى : أنها مثبتة فى صحف منتسخة من اللوح (مكرمة) عند الله (مرفوعة) فى السماء . أو مرفوعة المقدار (مطهرة) منزهة عن أيدي الشياطين ، لا يمسها إلا أيدي ملائكة مطهرين (سفرة) (١) كتبة ينتسخون الكتب من اللوح (بررة) أتقياء . وقيل : هم صحف الأنبياء ، كقوله (إن هذا لى الصحف الأولى) وقيل السفرة : القراء . وقيل : أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ ۝ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝ (١٨) مِنْ نُّفْثَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ۝ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ ۝ (٢٠) ثُمَّ أَمَانَةً فَأَفْجَرَهُ ۝ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ۝ (٢٢) كَلَّا لَمَّا بُقِىَ مَا أَمَرَهُ ۝ (٢٣)

(قتل الإنسان) دعاء عليه ، وهى من أشنع دعواتهم (٢) . لأن القتل قصارى شدائد

(١) قوله « سفرة » فى الصحاح : واحد من سافر ، ككافر وكفرة . (ع)

(٢) قال محمود : « دعاء عليه وهو من أشنع دعواتهم ... الخ » قال أحد : ما رأيت كاليوم قط عبدا ينازع ربه ، الله تعالى يقول (ثم شققنا) فيضيف فعله إلى ذاته حقيقة ، كما أضاف بقية أعماله من عند قوله (من نفثة خلقه) وهم جرا . والوخششى يجعل الإضافة مجازية من باب إسناد الفعل إلى سببه ، فيجعل إضافة الفعل إلى الله تعالى =

الدنيا وفظائعها . و(ما أكفره) تعجب ^(١) من إفراطه في كفران نعمة الله ، ولا ترى أسلوباً أغلظ منه ، ولا أخشن مساً ، ولا أدل على سخط ، ولا أبعد شوطاً في المذمة ، مع تقارب طرفيه ، ولا أجمع للأئمة على قصر مثته ثم أخذ في وصف حاله من ابتداء حدوثه ، إلى أن انتهى وما هو مغموور فيه من أصول النعم وفروعها ، وما هو غارز فيه رأسه من الكفران والغمط ^(٢) وقلة الالتفات إلى ما يتقلب فيه وإلى ما يجب عليه من القيام بالشكر (من أى شيء خلقه) من أى شيء حقير ^(٣) مهن خلقه ، ثم بين ذلك الشيء بقوله (من نطفة خلقه فقدره) فيها لما يصلح له ويختص به . ونحوه (وخلق كل شيء فقدره تقديراً) . نصب السيليل بإضمار ويسره وفسره بيسر والمعنى : ثم سهل سبيله وهو مخرجه من بطن أمه . أو السيليل الذى يختار سلوكه من طريق الخير والشر بإقداره وتمكينه ، كقوله (إنا هديناه السيليل) وعن ابن عباس رضى الله عنهما : بين له سبيل الخير والشر (فأقبره) فجعله ذا قبر يوارى فيه تكرامة له ، ولم يجعله مطروحاً على وجه الأرض جزراً للسباع والطير كسائر الحيوان . يقال : قبر الميت إذا دفنه . وأقبره الميت . إذا أمره أن يقبره ومكنه منه . ومنه قول من قال للحجاج : أقبرنا صالحاً (أنشأه) أنشأه النشأة الأخرى . وقرئ : نشره (كلا) ردع للإنسان عما هو عليه (لما يقض) لم يقض بعد ، مع تطاول الزمان وامتداده من لدن آدم إلى هذه الغاية (ما أمره) الله حتى يخرج عن جميع أوامره ، يعنى : أن إنساناً لم يخل من تقصير قط .

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ٢٤ أَنَا صَبَيْنَا أَلَمًا صَبًا ٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَاهُ
الْأَرْضَ شَقًّا ٢٦ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ٢٧ وَعَصَبًا وَقَضْبًا ٢٨ وَزَيْتُونًا
وَنَخْلًا ٢٩ وَحَدَائِقَ غُلَبًا ٣٠ وَقَالِكُمُ وَابَّأْنَا ٣١ مَتَاعًا لَكُمْ
وَلَا نُنصِمْ ٣٢

من باب إضافة الشق إلى الحرات ؛ لأنه السبب . قتل الله ما أكفره على قول ؛ وما أضله على آخر ؛ وإذا جعل شق الأرض مضافاً إلى الحرات حقيقة ، وإلى الله مجازاً ، فإيتمه أن يجعل الحرات هو الذى صلب الماء وأقبت الحب ، والعصب والقضب : حقيقة ؛ وهل هما إلا واحد .

(١) قوله « تعجب من إفراطه » لعله : تعجب . (ع)

(٢) قوله « من الكفران والغمط » بطر النعمة وتحقيرها . أفاده الصراح . (ع)

(٣) قوله « من أى شيء خلقه » أى من أى شيء حقير . لعله : أى من نوع ... الخ . (ع)

ولما عدد النعم في نفسه : أتبعه ذكر النعم فيما يحتاج إليه ، فقال (فلينظر الإنسان إلى طعامه) إلى مطعمه الذي يعيش به كيف دبرنا أمره (أنا صبيتنا الماء) يعنى الغيث . قرى بالكسر على الاستئناف ، وبالفتح على البدل من الطعام . وقرأ الحسين بن علي رضي الله عنهما . أنى صبيتنا ، بالإمالة على معنى : فلينظر الإنسان كيف صبيتنا الماء . وشققنا : من شق الأرض بالثبات ويجوز أن يكون من شققها بالكرا ب على (١) البقر ، وأسند الشك إلى نفسه إسناد الفعل إلى السبب . والحب : كل ما حصد من نحو الحنطة والشعير وغيرهما . والقضب : الرطبة (٢) . والمقضب : أرضه ، سمي بمصدر قضبه إذا قطعه ؛ لأنه يقضب مرة بعد مرة (وحدائق غلبا) يحتمل أن يجعل كل حديقة غلباء ، فيريد تكافئها وكثرة أشجارها وعظمها ، كما تقول : حديقة ضخمة ، وأن يجعل شجرها غلبا ، أى : عظاما غلاظا . والأصل في الوصف بالغلب : الرقاب ؛ فاستعير . قال عمرو بن معد يكرب :

بَمَشَى بِهَا غُلْبُ الرِّقَابِ كَأَنَّهُمْ بُزُلٌ كَسَيْنَ مِنَ السُّكْحِ جِلَالًا (٣)
والاب : المرعى ، لأنه يؤب أى يؤم ويتجمع . والاب والام : أخوان . قال :

جِذْمُنَا قَيْسٌ وَنَجْدٌ دَارُنَا وَلَنَا الْأَبُّ بِهِ وَالْمَكْرَعُ (٤)

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه سئل عن الاب فقال : أى سماء تظلى ، وأى أرض تظلى إذا قلت في كتاب الله ما لا علم لي به (٥) . وعن عمر رضي الله عنه : أنه قرأ هذه الآية فقال :

(١) قوله ومن شققها بالكرا ب ، في الصحاح : كربت الأرض ، إذا قلبتها للحرث . (ع)

(٢) قوله « والقضب الرطبة » في الصحاح « القضة ، والقضب » الرطبة . وفيه أيضا « الرطبة » بالفتح :

القضب اه وفيه دور . وقال بعض الفضلاء « القضب » : هو المسمى في مهر بالبرسيم المجازى . (ع)

(٣) لعمرو بن معد يكرب . ويقال : أسد أغلب ، أى : غليظ العنق ، والغلب : جمعه ، ثم استعير لكل غليظ والبزل : جمع بازل للذكر والمؤنث من الابل إذا انطرت نابه ، وذلك في السنة التاسعة : والكحيل : الفطران . والجلال : جمع جل : يصف مفازة تمشي فيها أسود غلاظ الأعناق ، كأنها قنات من الابل دهن بالفطران حتى صار عليها كالجلال ، فكسين : استعاره مصرحة ، والجلال : ترشيح . ويروى : كأنهم ، باستعارة ضمير المقلاء غيرهم .

(٤) الجذم - بالكسر وقد يفتح : الأصل الذى يقطع منه غيره . والاب والام - بالفتح والتشديد - بمعنى المرعى ، لأنه يؤب ويؤم ، أى : يقصد . والمكراع : المنبل . يقول : نحن من قبيلة قيس ونجد هي ديارنا ، ولنا به أى في نجد المرعى والمروى . وفيه تمجيد بالشرف والشجاعة على غيره .

(٥) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن . حدثنا محمد بن يزيد عن العوام بن حوشب عن إبراهيم التيمي أن أبا بكر رضي الله عنه سئل عنه فذكره ورواه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن هذا الوجه . وهذا منقطع . ورواه يحيى الخاني وابن عبد البر في العلم من طريقه من رواية إبراهيم التيمي عن أبي معمر عن أبي بكر فذكره .

كل هذا قد عرفنا ، فما الآب ؟ ثم رفض عصا كانت بيده^(١) وقال : هذا لعمر الله التكلف ، وما عليك يا ابن أم عمر أن لا تدري ما الآب ، ثم قال : اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب ، وما لا فدعوه . فإن قلت : فهذا يشبه النهي عن تتبع معاني القرآن والبحث عن مشكلاته . قلت : لم يذهب إلى ذلك ، ولكن القوم كانت أكبر همهم عاكفة على العمل ، وكان التشاغل بشيء من العلم لا يعمل به تكلفاً عندهم ؛ فأراد أن الآية مسوقة في الامتنان على الإنسان بمطعمه واستدعاء شكره ، وقد علم من لحوى الآية أن الآب بعض ما أنبته الله للإنسان متاعاً له أو لإنعامه ؛ فمالك بما هو أهم من النورض بالشكر لله - على ما تبين لك - ولم يشكل - بما عُد من نعمه ، ولا تشاغل عنه بطلب معنى الآب ومعرفة النبات الخاص الذي هو اسم له ، واكتف بالمعرفة الجلية إلى أن يتبين لك في غير هذا الوقت ، ثم وصى الناس بأن يجروا على هذا السنن فيما أشبه ذلك من مشكلات القرآن .

فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَةُ ۖ (٣٢) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٣) وَأُمِّهِ وَأَيْسِهِ (٣٤)
وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٥) لِكُلِّ أَسْرِيٍّ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٦)
وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٧) ضَاحِكَةٌ مُسْتَفْشِرَةٌ (٣٨) وَوُجُودٌ يَوْمَئِذٍ عَلِيمٌ (٣٩)
غَبْرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجْرَةُ (٤٢)

يقال : صخ الحديثه ، مثل : أصاخ له ، فوصفت النفخة بالصاخة مجازاً : لأن الناس يصخون لها (يفزع) منهم لاشتغاله بما هو مدفوع إليه ، ولعله أنهم لا يفتنون عنه شيئاً ؛ وبدأ بالآخ ، ثم بالآبوين لأنهما أقرب منه ، ثم بالصاحبة والبنين لأنهم أقرب وأحب : كأنه قال : يفزع من أخيه ، بل من أبويه ، بل من صاحبه وبنيه . وقيل : يفزع منهم حذراً من مطالبهم بالتبعات . يقول الآخ : لم تواسني بمالك . والآبوان : قصرت في برنا . والصاحبة : أطعمتني الحرام وفعلت وصنعت . والبنون : لم تعلمنا ولم ترشدنا ، وقيل : أول من يفزع من أخيه : هابيل ؛ ومن أبويه : إبراهيم ؛ ومن صاحبه : نوح ولوط ؛ ومن ابنه : نوح (يقنيه) يكفيه في الاهتمام به . وقرئ : يغنيه أي يهيمه (مسفرة) مضئئة مثله ، من أسفر الصبح : إذا أضاء . وعن ابن عباس رضي الله

(١) أخرجه الطبري والطبراني في مسند الشاميين من طريق ابن وهب عن يونس ومرو بن الحارث . ورواه الحاكم والبيهقي في الشعب في التاسع عشر من طريق صالح بن كيسان : وابن مردويه عن رواية شبيب كلهم عن الزهري وأن أنساناً أخبره أنه سمع عمر فذكره . وله طريق أخرى من رواية حبيد بن أنس أخرجهما الحاكم . وروى الحاكم أيضاً من وجه آخر عن عمر رضي الله عنه أنه سأل ابن عباس رضي الله عنهما عن الآية فقال : هو ثبت الأرض بما تأكله الدواب والأنعام . ولا يأكله الناس .

عنهما : من قيام الليل ؛ لما روى في الحديث ، من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار^(١) ، وعن الضحاك : من آثار الوضوء . وقيل : من طول ما اغبرت في سبيل الله (غبرة) غبار يعلوها (فترة) سواد كاللدخان ؛ ولا ترى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه ، كما ترى من وجوه الزنوج إذا اغبرت ؛ وكأن الله عز وجل يجمع إلى سواد وجوههم الغبرة ، كما جمعوا الفجور إلى الكفر .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من قرأ سورة عبس وتولى جاء يوم القيامة ووجهه ضاحك مستبشر^(٢) .

سورة التكوير

مكية ، وآياتها ٢٩ [نزلت بعد المسد]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ① وَإِذَا النُّجُومُ آنكَدَرَتْ ② وَإِذَا الْجِبَالُ
سُيِّرَتْ ③ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ④ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ⑤ وَإِذَا
الْبَحَارُ سُجِّرَتْ ⑥ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ⑦ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ ⑧
بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ⑨ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ⑩ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ⑪
وَإِذَا الْجَبَابِيزُ سُعِّرَتْ ⑫ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنزِلَتْ ⑬ عَلِمَتْ نَفْسٌ
مَا أُحْضَرَتْ ⑭

في التكوير وجهان : أن يكون من كثرت الهامة إذا لفقتها ، أى : يلف ضوءها لفاً فيذهب

(١) تقدم في سورة الفتح .

(٢) أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه باسنادهم إلى أبي بن كعب .

انبساطه وانتشاره في الآفاق . وهو عبارة عن إزالتها والذهاب بها ؛ لأنها ما دامت باقية كان ضياؤها منبسطة غير ملفوف . أو يكون لها عبارة عن رفعها وسترها ؛ لأن الثواب إذا أريد رفعه لف وطوى ؛ ونحوه قوله (يوم نطوى السماء) وأن يكون من طعنه بجوره وكوره ؛ إذا ألقاه ، أى : تلقى وتطرح عن فلكها ، كما وصفت النجوم بالانكدار . فإن قلت : ارتفاع الشمس على الابتداء أو الفاعلية ؟ قلت : بل على الفاعلية رافعها فعل مضمر يفسره كورت ؛ لأن ؛ إذا ، يطلب الفعل لما فيه من معنى الشرط (انكدرت) انقضت . قال :

• أَبْصَرَ خَيْرَ بَأْنٍ فَضَاءً فَأَنْكَدَرَ • (١)

ويروى في الشمس والنجوم : أنها تطرح في جهنم ليراهن من عبدها ، كما قال (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) . (سرت) أى على وجه الأرض وأبعدت . أو سرت في الجوق تسير السحاب كقوله (وهى تمز السحاب) . والعشار فى جمع عشاء ، كالنفاس فى جمع نساء . وهى التى أتى على حملها عشرة أشهر ، ثم هو اسمها إلى أن تضع لتنام السنة ، وهى أنفاس ما تكون عند أهلها وأعزها عليهم (عطلت) تركت مسية مهملة . وقيل : عطلها أهلها عن الحلب والصر ، لاشتغالهم بأنفسهم . وقرئ : عطلت ، بالتخفيف (حشرت) جمعت من كل ناحية . قال قتادة : يحشر كل شئ . حتى الذباب للقصاص . وقيل : إذا قضى بينها ردت ترابا فلا يبقى منها إلا ما فيه سرور لبنى آدم وإعجاب بصورته . كالطاوس ونحوه . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : حشرها موتها . يقال : إذا أجمعت السنة بالناس وأموالهم حشرتهم السنة . وقرئ : حشرت ، بالتشديد (سحرت) قرئ بالتخفيف والتشديد ، من سحر التنوير : إذا ملأه بالحطب ، أى : ملئت ولجر بعضها إلى بعض حتى تعود بجرأ واحداً . وقيل : ملئت نيراناً تضطرم لتعذيب أهل النار . وعن الحسن : يذهب ماؤها فلا تبقى فيها قطرة (زوجت) قرنت كل نفس بشكلها . وقيل : قرنت الأرواح

(١) إذا الكرام ابتدروا الباع بدر تقضى البازى إذا البازى كسر
وأن جناحه من الطود فر أبصر خربان فضاء فانكدر

للمعاج يدح عمر بن عبيد الله التميمي . والباع بالمهمة : قدر مد البدين ، والمراد به المكرم مجازاً . وبدر : أسرع وغلب المكرم . وتقضى : نصب به ، وأصله : تقضى ، أبدل الثانى حرف علة وكسر الأول ، أى : آمال جناحه وداناهما من الجبل العظيم ، وسر : سار على وجه الجبل . وخربان - جمع غرب - : طائر يقال له الجبارى ، وهو مضاف لفضاء ، فانكدر : أى انقضت وسقط عليها لياكلها . ويروى صدر هذا الرجز :

لقد سما ابن معمر حين اعتمر مفزى بعيداً من بعيد وضير

تقضى البازى ... الخ . واعتبر : أى زار . والمفزى : مكان للفرز . وضير ضبراً : جمعه جمعاً . يقول : ارتفع فدره حين غزا موضعاً بعيداً من الضام ، وجمع لذلك جيشاً عظيماً ، وأمرع كأمراع البازى إلى الجبارى : بالغ في وصف البازى تصويراً لحال المشبه ، ومبالغة في مدحه .

بالاجساد . وقيل بكتبها وأعمالها . وعن الحسن : هو كقوله (وكنتم أزواجا ثلاثة) وقيل : نفوس المؤمنين بالخور ، ونفوس الكافرين بالشياطين . وأد يثد مقلوب من آد يؤد : إذا أثقل . قال الله تعالى (ولا يؤده حفظهما) لأنه إنقال بالتراب : كان الرجل إذا ولدت له بنت فأراد أن يستحيها : ألبسها جبة من صوف أو شعر ترعى له الإبل والغنم في البادية ؛ وإن أراد قتلها تركها حتى إذا كانت سداسية فيقول لامها : طيبها وزينها ، حتى أذهب بها إلى أحائها ، وقد حفر لها بئراً في الصحراء ، فيبلغ بها البئر فيقول لها : انظري فيها ، ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها ، حتى تستوى البئر بالأرض . وقيل : كانت الحامل إذا أقربت حفر حفرة فتمنخت على رأس الحفرة ؛ فإذا ولدت بنتاً رمت بها في الحفرة ، وإن ولدت ابناً حبسته . فإن قلت : ما حملهم على وأد البنات ؟ قلت : الخوف من لحوق العار بهم من أجهل . أو الخوف من الإملاق ، كما قال الله تعالى (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق) وكانوا يقولون : إن الملائكة بنات الله ، فألحقوا البنات به ، فهو أحق بهن . وصمصعة بن ناجية ممن منع الوأد ؛ فيه افتخار الفرزدق في قوله :

وَمِمَّا الَّذِي مَنَعَ الْوَأِدَاتِ فَأُحْيَا الْوَيْدَ فَلَمْ تُؤَادِرِ^(١)

فإن قلت : فما معنى سؤال المؤودة عن ذنبها الذي قتلت به ؛ وهلا سئل الوائد عن موجب قتلها ؟ قلت : سؤالها وجوابها تبكيك لغاتها نحو التبيكيك في قوله تعالى لعيسى (أأنت قلت للناس ... إلى قوله ... سبحانه ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق) وقرئ : سألت ، أى : خاصمت عن نفسها ، وسألت الله أو قاتلتها ؛ وإنما قيل (قتلت) بناء على أن الكلام إخبار عنها ؛ ولو حكى ما خوطبت به حين سئلت . فقيل : قتلت . أو كلامها حين سئلت لقيل : قتلت . وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما : قتلت ، على الحكاية . وقرئ : قتلت ، بالتشديد . وفيه دليل بين على أن أطفال المشركين لا يعذبون ، وعلى أن التعذيب لا يستحق إلا بالذنب ، وإذا بكى الله الكافر ببراءة المؤودة من الذنب : فما أقبح به ، وهو الذى لا يظلم مثقال ذرة أن يكثر

(١) للفرزدق ، يفخر بحمد صمصمة : قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم وقال : يا رسول الله ، علمت أعمالاً في الجاهلية فهل لي فيها من أجر ؟ فقال : وما علمت ؟ قال : قد أحيت ثلاثاً وستين من المؤودة أشقى الواحدة منهن بناتين عشراوتين وجل ، فقال صلى الله عليه وسلم : هذا من باب البر ولك أجره إذ من الله عليك بالاسلام . ويقال : وأد بنته إذا دقها وهي حية ، وكانت كئيدة تفعل ذلك خوف لعار والفقر . ويروى : فأحيا الويد وهو أوقع . والويد يقال للفرد والجمع مذكراً أو مؤنثاً . ويروى : وجدى ، أى : هو الذى منع الجماعات الدافعات بناتهن حيات وفداهن من الموت ، فكأنه أحياهن ، فأطلق الويد على المشرفات على الموت مجازاً ، والاحياء توشيح .

عليها بعد هذا التبكيت فيفعل بها ما تنسى عنده فمل المبكك من العذاب الشديد السرمذ . وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه سئل عن ذلك ، فاحتج بهذه الآية (نشرت) قرى بالتخفيف والتشديد ، يريد : صحف الأعمال تطوى صحيفة الإنسان عند موته ، ثم تنشر إذا حوسب . عن قتادة : صحيفتك يا ابن آدم تطوى على عملك ، ثم تنشر يوم القيامة ، فلينظر رجل ما يمل في صحيفته . وعن عمر رضى الله عنه أنه كان إذا قرأها قال : إليك يساق الأمري يا ابن آدم . وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يحشر الناس عراة حفاة ، فقالت أم سلمة : كيف بالنساء ؟ فقال : مشغل الناس يا أم سلمة ، قالت : وما مشغلهم ؟ قال : نشر الصحف فيها مناقيل الذر ومناقيل الخردل (١) ، ويجوز أن يراد : نشرت بين أصحابها ، أى فرقت بينهم . وعن مرثد بن وداعة : إذا كان يوم القيامة تطايرت الصحف من تحت العرش ، فتقع صحيفة المؤمن في يده في جنة عالية ، وتقع صحيفة الكافر في يده في سموم وحميم أى مكتوب فيها ذلك ، وهى صحف غير صحف الأعمال (كشطت) كشفت وأزيلت ، كما يكشط الإهاب عن الذبيحة ، والغطاء عن الشيء . وقرأ ابن مسعود : قشطت . واعتقاب الكاف والغاف كثير . يقال : لبكت الثريد ولبقته ، والكافور والقافور (سمرت) أوقدت إيقاداً شديداً . وقرى : سمرت بالتشديد للبالغة . قيل : سرها غضب الله تعالى وخطايا بني آدم (أزلقت) أدنيت من المتقين ، كقوله تعالى (وأزلقت الجنة للمتقين غير بعيد) قيل : هذه اثنا عشرة خصلة . ست منها في الدنيا ، وست في الآخرة . (وعلت) : هو عامل النصب في (إذا الشمس كورت) وفيما عطف عليه . فإن قلت : كل نفس تعلم ما أحضرت ، كقوله (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً) لا نفس واحدة . فما معنى قوله (علست نفس) ؟ قلت : هو من عكس كلامهم الذى يقصدون به الإفراط فيما يعكس عنه . ومنه قوله عز وجل : (ربما يؤد الذين كفروا لو كانوا مسلمين) ومعناه : معنى كم وأبلغ منه . وقول القائل :

* قَدْ أَتْرَكَ الْقُرْنَ مُصْفَرًا أَنَامِلُهُ * (٢)

وتقول لبعض قواد العساكر : كم عندك من الفرسان ؟ فيقول : رب فارس عندى . أو لا تعدم عندى فارساً ، وعنده المقانب (٣) : وقصده بذلك التماذى في تكثير فرسانه ، ولكنكته أراد

(١) أخرجه النعماني من طريق محمد بن أبي موسى عن عطاء بن يسار عن أم سلمة بهذا . وأصله في الصحيحين عن عائشة ، وأخرجه الحاكم من حديث سودة .

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٢٠٢ فراجع إن شئت أمه مصرحه .

(٣) قوله « وعنده المقانب » في الصحاح « المقنب » : ما بين الثلاثين إلى الأربعين من الخيل . (ع)

إظهار براءته من التزديد ، وأنه ممن يقلل كثير ما عنده ، فضلا أن يتزدد ، فجاء بلفظ التقليل ، ففهم منه معنى الكثرة على الصحة واليقين . وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن قارئاً قرأها عنده . فلما بلغ (علمت نفس ما أحضرت) قال : وانقطاع ظهرياه .

فَلَا أَقْسِمُ بِالْخُنُوسِ ١٥ الْجَوَارِ الْكُنُوسِ ١٦ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَصَ ١٧
وَالصُّبْحِ إِذَا قَنَفَسَ ١٨

(الخنوس) الرواجع ، بينما ترى النجم في آخر البرج إذ كرر راجعاً إلى أوله . و (الجوارى) السيارة . و (الكنوس) (١) الغيب من كنس الوحش : إذا دخل كناسه . قيل : هو الدرارى

(١) تعرض الزخشرى فى تفسيره للعامل الخ . قال أحمد : هذا الجواب لا يستمر ، لأجل ظهور الفعل الثانى فى قوله (فلا أقسم بالخنس) ولما أعزل الجواب عن هذا السؤال فى سورة التكويد : التزم الفيح أبو عمرو بن الحاجب إجازة التعطف على عاملين ، واتخذ هذه الآية وزره ومعضده فى مخالفة سيويه ، ورد على الزخشرى جوابه فى سورة الشمس وخجاء . لأنه لم يطرده هنا ، وكان على رده يستحسن تيقظ فطنته فى استنباطه ؛ ونحن والله الموفق نلتزم مذهب سيويه فى امتناع العطف على عاملين فى جمل الواو الثانية عاطفة ، ويجرى جواب الزخشرى هنا وينفصل عن هذه الآية فنقول : قوله (واللّيل إذا عسص) هذه الواو الأولى ابتداء قسم ، والواو فى قوله (والصبح إذا تنفس) عاطفة فيطرد ماقال الزخشرى . فان قيل : فقد خالفتم سيويه ، فانه لا يرى الواو المتعقبية للقسم ابتداء قسم بل عاطفة ، وقد جعلتم الواو الأولى وهى متعقبية للقسم ابتداء قسم ؟ قلنا : إنما تكلم سيويه فى الواو المتعقبية للقسم بالواو وأما الآية فالقسم الأول فيها بالياء والفعل ، فجعلنا الواو بعد ذلك قسماً وتعباً ، وهو أبلغ ؛ كأنه أقسم قسمين بعينين مختلفين . فان قيل : أجل . إنما تكلم سيويه على الواو المتعقبية للقسم بالواو ، فما للفرق بين المتعقبية للقسم بالواو والمتعقبية للقسم بالياء ؟ وما هما إلا سواء ، فان كل واحد منهما آله له ، والثانى تدل على الياء فكلهما واحد ؟ قلنا : ليستا سواء فان القسم من صدر بالواو ولم يله واو أخرى ، فجعلها قسماً آخر فيه تكرار مشكركه ، إذ الآلة واحدة ، ولا كذلك إذا اختفت الآلة ؛ فان عامة التكرار مأمونة إذا . ألا ترى أنه لو صدر القسم بالواو ، ثم تلاه قسم بالياء ، لنحتم جعلهما قسمين مستقلين . فكذلك لو حوّل هذا الترتيب . وأيضاً ، فانه إن كان المانع لسيويه من جعل الواو الثانية قسماً مستقلاً بجى . الجواب واحداً ، واحتياج الواو الأولى إلى محذوف ، فالعطف يغض عن تقدير محذوف ، فيتعين ، فلا يلزم اطراد الياء لأنها أصل القسم لاسيما مع التصريح بفعل القسم ثم نأكيده بزيادة لا ، فان فى مجموع ذلك ما يغنى عن إفراده بجواب مذكور ، ولا كذلك الواو فانها ضعيفة المكنة فى باب القسم بالنسبة إلى الياء ، فلا يلزم من حذف جواب تمكنت الدلالة عليه حذف جواب دونه فى الوضوح ؛ وأختم الكلام على هذا السؤال بنكتة بدعية فأقول : إنما خصصت إيراد السؤال بالواو الثانية فى قوله (واللّيل إذا عسص) دون الثالثة لأنه غير متوجه عليها . ألا تراك لو جعلتها عاطفة لم يلزمك العطف على عاملين ، لأنك تجعلها نافية عن الياء وتعمل إذا فيها منصوبة بالفعل مباشرة إذا لم يتقدم فى جملة الفعل طرف تعطف عليه إذا ، فتصير بمثابة قولك : مررت بزيد وعمر اليوم ، فالיום منصوب بالفعل مباشرة ، وفهم من المثال أن مرورك بزيد مطلق غير مقيد بطرف ، وإنما المقيد باليوم مرورك بعمر خاصة لكن يطابق الآية : فان الطرف فيها وإن عمل فيه الفعل مباشرة فهو مقيد بالقسم بالليل ، لا بالقسم بالخنس .

الخمس: بهرام^(١)، وزحل، وعطارد، والزهرة، والمشتري: تجرى مع الشمس والقمر، وترجع حتى تخفى تحت ضوء الشمس: تغتوسها رجوعها: وكثوسها: اختفاؤها تحت ضوء الشمس. وقيل: هي جميع الكواكب، تخنس بالنهار فتغيب عن العيون، وتكس بالليل: أي تطلع في أماكنها، كالوحش في كنسها. عسعس الليل وسعس: إذا أدبر. قال المعاج:

حَقَّ إِذَا الضُّبُعُ لَهَا تَنَفُّسًا وَأَنجَابَ عَنْهَا آيِلَهَا وَعَسَعَسَا^(٢)

وقيل: عسعس: إذا أقبل ظلامه. فإن قلت: مامعنى تنفس الصبح؟ قلت: إذا أقبل الصبح: أقبل بإقباله روح ونسيم، لجعل ذلك نفسا له على الحجاز. وقيل: تنفس الصبح.

إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ (٢٠)

مُطَاعٍ نَمَّ أَمِينٍ ۝ (٢١)

(إنه) الضمير للقرآن (لقول رسول كريم) هو جبريل صلوات الله عليه^(٣) (ذو قوة)

(١) قوله «بهرام»: ليس يبرى، والمراد به: المريح. (ع)

(٢) للمعاج: وتنفس الصبح: اتساع ضوئه، أو إقباله بضوء ونسيم. وضمير «لها» للشمس؛ وقيل: للمعازة. وانجباب: انقطع وانفصل عنها ظلام الليل. وعسعس: ولى مدبرا وزال ظلامه، فهو توكيد لها قبله. ويجوز أن الضمير لبقرة وحشية مثلا.

(٣) قال محمود: والمراد بالرسول الكريم: جبريل عليه السلام. وقوله (عند ذي العرش) ليدل على عظم منزلته ومكانته، وثم إشارة إلى الظرف المذكور يعنى عند ذي العرش الخ. قال أحمد: ما كان جبريل صلوات الله عليه يرضى منه هذا التفسير المنطوق على التفسير في حق البشير النذير عليه أفضل الصلاة والسلام، ولقد اتبع الزمخشري هواه في تهويد أصول مذهبه الفاسد، فأخطأ على الأصل والفرع جميعا؛ ونحن نبيذ ذلك بحول الله وقوته فنقول: أولا اختلف أهل التفسير، فذهب منهم الجهم الغفيري إلى أن المراد بالرسول الكريم ههنا إلى آخر التعوت: محمد صلى الله عليه وسلم. فإن يكن كذلك والله أعلم فذلك فضل الله المعتاد على نبيه، وإن كان المراد جبريل عليه السلام فقد اختلف الناس في المفاضلة بين الملائكة والرسل، والمشهور عن أبي الحسن: تفضيل الرسل. ومذهب المعتزلة: تفضيل الملائكة، إلا أن المعتزلة أجعدوا على أنه لا يسوغ تفضيل أحد القبايل الجليلين بما يتضمن تفضيل معين من الملائكة معين من الرسل؛ لأن التفضيل وإن كان ثابتا إلا أن في التبيين إيذا للفضول؛ وعليه حل الحذاق قوله صلى الله عليه وسلم «لا تفضلوني على بونس بن مقي» أي لا تعينوا مفضولا على التخصيص؛ لأن التفضيل على التعميم ثابت بإجماع المسلمين، أي تفضيل النبي صلى الله عليه وسلم على النبيين أجمعين، وكان جدى رحمه الله يوضح ذلك بمثال يقول: لو قلت محضرة جماعة من الفقهاء: فلان أفضل أهل عصره، لكان في الجماعة احتمال لهذا التفضيل وإن لم اندراجهم في المفضلين، ولو عرفت واحدا منهم قلت: فلان أفضل منك وأنتي قد، لأسرع به الأذى إلى نفسك. وإذا تقرر لك أنه لا يلزم من اعتقاد التفضيل على التعميم جواز إطلاق التفضيل على التخصيص، علمت أن الزمخشري أخطأ على أصله لأنه بتقدير أن تكون الملائكة أفضل كما يفتق، لا يجوز أن يقال أحد من الملائكة على التخصيص: أنه أفضل من أحد الأنبياء على التخصيص، لاسيما في سيد ولد آدم عليه أفضل الصلاة والسلام: =

كقوله تعالى (شديد القوى ذو مرة) لما كانت حال المسكنة على حسب حال الممكن ، قال :
(عند ذى العرش) ليدل على عظم منزلته ومكانته (ثم) إشارة إلى الظرف المذكور ، أعنى :
عند ذى العرش ، على أنه عند الله مطاع فى ملائكته المقرّين يصدرّون عن أمره ويرجعون
إلى رأيه . وقرئ : ثم ، تعظيماً للأمانة ، وبياناً لأنها أفضل صفاته المعدودة .

وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ۖ

(وما صاحبكم) يعنى : محمداً صلى الله عليه وسلم (بمجنون) كما تهته الكفرة ^(١) ، وناهيك
بهذا دليلاً على جلالة مكان جبريل عليه السلام وفضله على الملائكة ، ومباينة منزلته ^(٢) أفضل
الإنس محمد صلى الله عليه وسلم : إذا وازنت بين الذكرين حين قرن بينهما ، وقايس بين
قوله (إنه لقول رسول كريم) عند ذى العرش مكين مطاع ثم (أمين) وبين قوله (وما
صاحبكم بمجنون) .

== ثم يعود الكلام على الآية بعد تسليم أن المراد جبريل ، وبعد أن نكته فى تعظيمه النبى صلى الله عليه وسلم وعده
مفضلاً إلى الله فنقول : لم يذكر فيها نعت إلا ولنبى صلى الله عليه وسلم مثله ، أولها : رسول كريم ، فقد قال فى
حقه صلى الله عليه وسلم فى آخر سورة الحاقة (إنه لقول رسول كريم) وقد قيل أيضاً : إن المراد جبريل ، إلا أنه
بابه قوله (وما هو بقول شاعر) وقد وافق الزعزعى على ذلك فيما تقدم ، فهذا أول النعوت وأعظمها . وأما
قوله (ذى قوة) فليس على الخلاف ؛ إنا لا نزاع فى أن لجبريل عليه السلام فضل القوة الجسمية ومن يقتل المدائن
بريشة من جناحه ، لامراً فى فضل قوته على قوة البشر . وقد قيل هذا فى تفسير قوله (ذو مرة فاستوى) وقوله
(عند ذى العرش مكين مطاع ثم) فقد ثبت طاعة الملائكة أيضاً للنبى صلى الله عليه وسلم ، ورد أن جبريل عليه
السلام قال للنبى صلى الله عليه وسلم : إن الله يقرئك السلام ، وقد أمر ذلك الجبال أن يطيعك عند ما أذنت قرئش
فسلم عليه الملك وقال : إن أمرتى أن أطبق عليهم الأخشبين فعلت ، فصبر النبى صلى الله عليه وسلم واحسب .
وأعظم من ذلك وأشرف : مقامه المحمود فى الشفاعة الكبرى يوم لا يتقدمه أحد ، إذ يقول الله تعالى له : ارفع
رأسك وقل يسمع لك وسل تعطه واشفع تشفع . وأما (أمين) فقد قال وهو الصادق المصدوق : والله إني لأمين
فى الأرض أمين فى السماء ، وحسبك قوله : وما هو على الغيب بظنين . إن قرأته بالظاء فعناه أنه صلى الله عليه وسلم
أمين على الغيب غير متم ، وإن قرأته بالضاد رجع إلى الكرم ، فكيف يذهب إلى التفضيل بالنعوت المشتركة بين
الفاضل والمفضول سواء ؛ ومال مباحث فى أصل المسئلة ، ولكن الرد عليه فى خطته على كل قول يتعين ، وإلا
فالمسئلة فى غير هذا الكتاب . فنسأل الله أن يثبتنا على الإيمان به وبملائكته وكتبه ورسله ، وعلى القول الثابت
فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، وأن يعمر قلوبنا بهم ، وأن يجعل توسلنا إليه بهم ، وهو حسينا وأنهم الوكيل .

(١) قوله « كما تهته الكفرة » أى تهته بما ليس فيه . (ع)

(٢) قوله « ومباينة منزلته ... الخ » يعنى ارتفاع منزلته على منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو مبنى
على مذهب المعتزلة من تفضيل الملك على البشر . ومذهب أهل السنة : تفضيل رؤساء البشر . وإنما ذكر جبريل
بذلك الصفات واقتصر على نفي المجنون عن النبى صلى الله عليه وسلم لأن جبريل مجهول لهم ، بخلاف محمد صلى الله عليه
وسلم فانه صاحبهم ؛ ولهذا اقتصر على نفي ما يهتبه به . (ع)

وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤)
وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥)

(ولقد رآه) ولقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل (بالأفق المبين) بمطلع الشمس الأعلى (وما هو) وما محمد على ما يخبر به من الغيب من رؤية جبريل والوحي إليه وغير ذلك (بظنين) يهتم من الظنة وهي التهمة. وقرئ: بضنين، من الضن وهو البخل، أى: لا يبخل بالوحي فيزوى بعضه غير مبلغه؛ أو يسأل تعليمه فلا يملئه؛ وهو في مصحف عبد الله بالظاء، وفي مصحف أبي بالضاد. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بهما. وإتقان الفصل بين الضاد والظاء: واجب. ومعركة مخرجهما مما لا بد منه للقارى، فإن أكثر العجم لا يفرقون بين الحرفين؛ وإن فرقوا ففرقا غير صواب، وبينهما بون بعيد؛ فإن مخرج الضاد من أصل حافة اللسان وما يليها من الأضراس من يمين اللسان أو يساره، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه أضبط يعمل بكتبا يديه. وكان يخرج الضاد من جانبي لسانه، وهى أحد الأحرف الشجرية أخت الجيم والشين، وأما الظاء فمخرجها من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا، وهى أحد الأحرف الذوقية أخت الذال والثاء. ولو استوى الحرفان لما ثبتت في هذه الكلمة قراءتان اثنتان واختلاف بين جباين من جبال العلم والقراءة، ولما اختلف المعنى والاشتقاق والتركيب فإن قلت: فإن وضع المصلى أحد الحرفين مكان صاحبه. قلت: هو كواضع الذال مكان الجيم، والثاء مكان الشين، لأن التفاوت بين الضاد والظاء كالتفاوت بين أخواتهما (وما هو) وما القرآن (بقول شيطان رجيم) أى بقول بعض المستترقة للسمع، وبوجههم إلى أوليائهم من الكينة.

فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ

أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩)

(فأين تذهبون) استضلال لهم كما يقال لتارك الجادة اعتسافاً أو ذهاباً في بنات الطريق^(١): أين تذهب؛ مثلت حالهم بحاله في تركهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل (لمن شاء منكم) بدل من العالمين وإنما أبدلوا منهم لأن الذين شاؤوا الاستقامة بالدخول في الإسلام هم المنتفعون بالذكر، فكأنه لم يوعظ به غيرهم وإن كانوا موعظين جميعاً (وما تشاؤون) الاستقامة يامن

(١) قوله «في بنات الطريق» في الصحاح «بنات الطريق»: هي الطرق الصحار تنسب من الجادة. (ع)

يشاؤها إلا بتوفيق الله ^(١) ولطفه . أو : وما تشاؤونها أنتم يا من لا يشاؤها إلا بقدر الله وإجلاته .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة إذا الشمس كورت أعاده الله أن يفضحه حين تنشر صحيفته » ^(٢) .

سورة الانفطار

مكية ، وآياتها ١٩ [نزلت بعد الفازعات]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ① وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَبَرَتْ ② وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ③ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ④ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَاقَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ⑤

(انفطرت) انشقت (فجرت) فتح بعضها إلى بعض ، فاختلف العذب بالمساح ، وزال البرزخ الذي بينهما ، وصارت البحار بحرا واحدا . وروى أن الأرض تنشف الماء بعد امتلاء البحار ، فتصير مستوية ، وهو معنى التسخير عند الحسن ، وقرئ : فجرت ، بالتخفيف . وقرأ مجاهد : فجرت على البناء للفاعل والتخفيف ، بمعنى : بفت لزوال البرزخ نظرا إلى قوله تعالى (لا يبغيان) لأن البنى والفجور أخوان . بعث ويبحث بمعنى ، وهما مر كبان من البعث والبحث

(١) قوله « يا من يشاؤها إلا بتوفيق الله » مأويل المهيئة بذلك مبنى على أن فعل العبد بخلق العبد وإرادته . لا يخلق الله تعالى ولا بإرادته : وهو مذهب المعتزلة . ومذهب أهل السنة : أنه يخلق الله تعالى وإرادته كظاهري الآيات . وقوله بقدر الله ، أى بجهده العبد على الفعل ؛ لكن الجبر يناقى الاختيار المصحح للتكليف واستحقاق الثواب والعقاب ، ويمكن أنه أراد بقدر الله إرادته المستلزمة لوجود المراد ، كما سبق له في الكتاب غير مرة التعبير بإرادة القدر ، لكن استلزام الإرادة للمراد لا يستلزم قدر العبد وجهده عند أهل السنة ، وإن كان الله هو الخالق لفعل العبد ؛ لأنهم أثبتوا العبد الكسب ، خلافا للمعتزلة . وتفصيل المقام في علم التوحيد . (ع)

(٢) أخرجه الشافعي والرازي وابن مردويه بإسنادهم إلى أبي بن كعب .

مع راء مضمومة إليهما . والمعنى : بحث وأخرج موتاهما . وقيل : لبراءة المبعثرة ؛ لأنها بعثت أسرار المنافقين .

يَسْأَلُهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ⑥ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ⑦

فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ⑧

فإن قلت : ما معنى قوله : (ما غرك ربك الكريم) وكيف طابق الوصف بالكرم إنكار الاغترار به ^(١) ، وإنما يغتر بالكرم ، كما يروى عن علي رضي الله عنه أنه صاح بغلام له كرات فلم يلبه ، فنظر فإذا هو بالباب ، فقال له : مالك لم تجبني ؟ قال : لثقتي بحملك وأمنى من عقوبتك . فاستحسن جوابه وأعتقه ^(٢) . وقالوا : من كرم الرجل سوء أدب غلانه . قلت : معناه أن حق الإنسان أن لا يغتر بكمرك الله عليه ، حيث خلقه حيا لينفعه ، وبتفضله عليه بذلك حتى يطمع بعدما يمكنه وكلفه فمضى وكفر النعمة المتفضل بها أن يتفضل عليه بالثواب وطرح العقاب ، اغترارا بالتفضل الأول ، فإنه منكر خارج من حد الحكمة ، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تلاها . « غره جهله » ^(٣) . وقال عمر رضي الله عنه : غره حقه وجهله . وقال الحسن : غره والله شيطانه الحديث . أي : زين له المعاصي وقال له : افعل ما شئت ، فربك الكريم الذي تفضل عليك بما تفضل به أولا وهو متفضل عليك آخرأ . حتى وورطه . وقيل للتفضيل ابن عياض : إن أقامك الله يوم القيامة وقال لك : (ما غرك ربك الكريم) ماذا تقول ؟ قال أقول : غرتي ستورك المرخاة . وهذا على سبيل الاعتراف بالخطي في الاغترار بالستر ، وليس باعذار كما يظنه الطماع ، ويطن به قصاص الحشوية ويروون عن أئمتهم : إنما قال (لربك الكريم) دون سائر صفاته ، ليلقن عبده الجواب حتى يقول : غزني كرم الكريم . وقرأ سعيد بن جبير : ما غرك . إما على التعجب ، وإما على الاستفهام ؛ من قولك : غز الرجل فهو غاز : إذا غفل ،

(١) قال محمود : « وإن قلت : قوله ما غرك ربك الكريم ما معناه وكيف يطابق الوصف بالكرم ... الخ » قال أحمد : حجة الزعشمى بهذا فارغة ؛ فإن الآية إنما وردت في التكفار ، بدليل قوله (كلا بل تكذبون بالدين) ونحن نوافق على خلودهم وانقطاع ما ذرهم ، لا على أن تخلد لهم واجب على الله تعالى بمقتضى الحكمة ، فإن الله لا يجب عليه شيء . ويجوز عقلا أن يثيب الكافر وعظمه في الجنة . وبالعكس في المؤمن ؛ ولولا ورود السمع بآثابة المؤمنين وعذاب الكافرين فيتمين المصير إليه ، لكان ما ذكرناه في الجواز والاحتمال ؛ فإن الله عز وجل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

(٢) لم أجده .

(٣) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن عن كثير بن وهام عن جعفر بن برقان عن صالح بن ميمار قال بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية فذكره .

من قولك : بينهم المدوّ وهم غازون . وأغزه غيره : جملة غارا (فتواك) فجملك سويا سالم الاعضاء (فعدلك) فصيرك معتدلا متناسبا الخلق من غير تفاوت فيه ، فلم يجعل إحدى اليدين أطول ، ولا إحدى العينين أوسع ، ولا بعض الأعضاء أبيض وبعضها أسود ، ولا بعض الشعر فاحما وبعضه أشقر . أو جملك معتدل الخلق تمشى قائما لا كالبهائم . وقرئ : فعدلك بالتخفيف . وقبه وجهان ، أحدهما : أن يكون بمعنى المشدّد ، أى : عدل بعض أعضائك ببعض حتى اعتدلت . والثاني (فعدلك) فصرفك . يقال : عدله عن الطريق يعنى : فعدلك عن خلقه غيرك وخلقك خلقة حسنة مفارقة لساثر الخلق . أو فعدلك إلى بعض الأشكال والهيآت . (ما) فى (ماشاء) مزيدة ، أى : ركبك فى أى صورة اقتضتها مشيئته وحكمته من الصور المختلفة فى الحسن والقبح والطول والقصر والذكورة والانوثة ، والشبه ببعض الأقارب وخلاف الشبه . فإن قلت : هلا عطف هذه الجملة كما عطف ما قبلها ؟ قلت : لأنها بيان لعدلك . فإن قلت : بهم يتعلق الجار ؟ قلت : يجوز أن يتعلق بركبك . على معنى : وضمك فى بعض الصور ومكثك فيه ، وبمحذوف : أى ركبك حاصلًا فى بعض الصور ؛ وعمله النصب على الحال إن علق بمحذوف ويجوز أن يتعلق بعدلك ، ويكون فى (أى) معنى التعجب ^(١) ، أى فعدلك فى صورة بحجية ؛ ثم قال : ماشاء ركبك . أى . ركبك ماشاء من التراكيب ، يعنى تركيبا حسنا .

كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ٩ وَإِنَّ مَلَائِكَتَكَ لَاصْفَاتٍ ١٠ كِرَامًا

كَاتِبِينَ ١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ١٢

(كلا) ارتدعوا عن الاعتزاز بكرم الله والتسلى به ، وهو موجب الشكر والطاعة ، إلى عكسهما الذى هو الكفر والمعصية . ثم قال (بل تكذبون بالذين) أصلا وهو الجزاء . أو دين الإسلام . فلا تصدقون ثوابا ولا عقابا وهو شر من الطمع المنكر (وإنّ عليكم لحافظين) تحقيق لما يكذبون به من الجزاء ، يعنى أنكم تكذبون بالجزاء والكاتبون يكتبون عليكم أعمالكم لتجاوزوا بها . وفى تعظيم الكتابة بالثناء عليهم : تعظيم لأمر الجزاء . وأنه عند الله من جلائل الأمور ؛ ولولا ذلك لما وكل بضبط ما يحاسب عليه ، ويجازى به الملائكة الكرام الحفظة الكتبة . وفيه إنذار وتهويل وتشويق للعصاة ^(٢) ولطف للمؤمنين . وعن الفضيل أنه كان إذا قرأها قال : ما أشدها من آية على العافلين .

(١) قوله بمعنى التعجب ، لعله : التعجب . (ع)

(٢) قوله «وتشويق للعصاة» أى إجمالاً كذا بهائم . وفى الصحاح «الهور» : الفرع . ومنه قيل :

شوربه أى كأنه أبدى عورته . (ع)

إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝ (١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ
الَّذِينَ ۝ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ۝ (١٦)

(ومام عنها بغائبين) كقوله (ومام بخارجين منها) ويجوز أن يراد : يصلون النار يوم
الدين وما يغيثون عنها قبل ذلك ، يعنى : فى قبورهم . وقيل : أخبر الله فى هذه السورة أن لابن
آدم ثلاث حالات : حال الحياة التى يحفظ فيها عمله ، وحال الآخرة التى يجازى فيها ، وحال
البرزخ وهو قوله (ومام عنها بغائبين) .

وَمَا أَذْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝ (١٧) ثُمَّ مَا أَذْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝ (١٨) يَوْمَ لَا تَنْفَعُ
نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ۝ (١٩)

يعنى أن أمر يوم الدين بحيث لا تدرى دراية دار كنهه فى الهول والشدة وكيفما تصوره فهو
فوق ذلك وعلى أضعافه ، والتكرير لزيادة التهويل ، ثم أجمل القول فى وصفه فقال (يوم لا تملك
نفس لنفس شيئا) أى لا تستطيع دفعها عنها ولا نفعها لها بوجه ولا أمر إلا الله وحده . من رفع
فعلى البذل من يوم الدين ، أو على : هو يوم لا تملك . ومن نصب فإضمار يداونون ؛ لأن الدين
يدل عليه . أو بإضمار أذكر . ويجوز أن يفتح لإضافته إلى غير متمكن وهو فى محل الرفع .
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرأ إذا السماء انفطرت كتب الله له بعدد كل قطرة
من السماء حسنة وبعد كل قبر حسنة . (١)

سورة المطففين

مكية ، وآياتها ٣٦ [نزلت بعد العنكبوت ، وهي آخر سورة نزلت بمكة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- وَبِلِّ الْمُطَفِّفِينَ ① الَّذِينَ إِذَا أَكْتَأُوا عَلَى النَّاسِ يَتَوَفُّونَ ②
وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ③ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ④
لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ⑤ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ⑥

التطفيف: البخس في الكيل والوزن : لأن ما يخس شيء طفيف حقير . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وكانوا من أخبث الناس كيلا ، فنزلت ، فأحسنوا الكيل ^(١) وقيل : قدمها وبها رجل يعرف بأبي جهينة ومعه صاعان : يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر ^(٢) . وقيل : كان أهل المدينة تجارا يطففون ، وكانت يباعاتهم المتباددة والملامسة والمخاطرة . فنزلت فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأها ^(٣) عليهم . وقال : «خمس بخمس» : قيل : يا رسول الله ، وما خمس بخمس ؟ قال : «مانقض قوم العهد لإسلاط الله عليهم عدوهم ، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ، ولا طففوا الكيل إلا لامنعوا النبات وأخذوا بالسنين ، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر» ^(٤) ، وعن علي رضي الله عنه : أنه مر برجل يزن الزعفران وقد أرجح فقال له : أقم الوزن بالقسط ، ثم أرجح بعد ذلك ماشئت . كأنه أمره بالتسوية أولا ليعتادها ويفصل الواجب من النفل . وعن ابن عباس : إنكم معشر الأعاجم وليتم أمرين : بهما هلك من كان قبلكم : المكيال والميزان ؛ وخص الأعاجم لأنهم يجمعون الكيل والوزن جميعا وكانا مفترقين في الحرميين : كان أهل مكة يزنون

(١) أخرجه النسائي وابن حبان والحاكم من رواية يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) نقله الثعلبي عن السدي .

(٣) لم أجده .

(٤) أخرجه الحاكم من رواية عبد الله بن بريدة عن أبيه رفته «مانقض قوم العهد ... الحديث» وفيه إشراح ابن المهاجر . وفيه مقال : ومن طريق عطاء بن أبي رباح عن عبد الله بن عمرو مرفوعا نحوه .

وأهل المدينة يكيلون . وعن ابن عمر أنه كان يمر بالبائع فيقول له : اتق الله وأوف الكيل ، فإن المطففين يوقفون يوم القيامة لعظمة الرحمن حتى إن المرق ليجمعهم . وعن عكرمة : أشهد أن كل كيل ووزان في النار ، ف قيل له : إن ابنك كيال أو وزان ؛ فقال : أشهد أنه في النار . وعن أبي رضى الله عنه : لا تلتبس الحوائج من رزقه في رؤس المكاييل وألسن الموازين . لما كان اكتيالهم من الناس اكتيالا يضرهم^(١) ويتحامل فيه عليهم : أبدل وعلى مكان ومن ، للدلالة على ذلك . ويجوز أن يتعلق «على» يستوفون ، ويقدم المفعول على الفعل لإفادة الخصوصية ، أى : يستوفون على الناس خاصة : فأما أنفسهم فيستوفون لها : وقال الفراء ومن ، وعلى ، يعقبان في هذا الموضع ، لأنه حق عليه ؛ فإذا قال : اكتلت عليك ، فكأنه قال : أخذت ما عليك ؛ وإذا قال : اكتلت منك ، فكأنه قال : استوفيت منك . والضمير في (كالوهم أو وزنهم) ضمير منصوب راجع إلى الناس . وفيه وجهان : أن يراد : كالواهم أو وزنوا لهم ؛ لحذف الجار وأوصل الفعل ، كما قال :

وَلَقَدْ جَنَيْتُكَ أَكْمُوًّا وَعَسَاقِلًا وَلَقَدْ تَهَيَّئْتُكَ عَنْ نَبَاتِ الْأَوْبَرِ^(٢)

والحرير يصيدك لا الجواد ، بمعنى : جنيت لك ، ويصيد لك . وأن يكون على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، والمضاف هو المكييل أو الموزون ، ولا يصح أن يكون ضميراً مرفوعاً للمطففين ، لأن الكلام يخرج به إلى نظم فاسد ؛ وذلك أن المعنى : إذا أخذوا من الناس استوفوا ، وإذا أعطوهم أخسروا ؛ وإن جعلت الضمير للمطففين انقلب إلى قولك : إذا أخذوا من الناس استوفوا ، وإذا تولوا الكيل أو الوزن هم على الخصوص أخسروا ، وهو كلام متنافر

(١) قال محمود : «لما كان اكتيالهم على الناس اكتيالا يضرهم ... الخ» قال أحمد : لا منافاة فيه ، ولا يجعل هذا للقاتل الضمير دالا على مباشرة ولا إهمار أيضا فيه بذلك ، إنما يكون نظم الكلام على هذا الوجه : إذا كان الكيل من جهة غيرهم استوفوه ، وإذا كان الكيل من جهتهم خاصة أخسروه ، سواء بآشروه أولا ، وهذا أنظم كلام وأحسنه والله أعلم ، والذي يدل على أن الضمير لا يملأ مباشرة الفعل أن لك أن تقول : الأمراء هم الذين يقيمون الحدود لا السوقة ، ولست تعني أنهم يباشرون ذلك بأنفسهم ؛ وإنما معناه أن فعل ذلك من جهتهم خاصة .

(٢) «حتى لا يتعدى إلا لواحد والثاني باللام ، فالأصل : جنيت لك ، لحذف الجار وأوصل الضمير . أوشخته معنى : أجهتكم ، فعداه لها . والأكؤ : جمع كأ ، كأفلس وفلس ؛ وهو واحد الكأة ، وهى لنوع كبير من نبات يسمى شجرة الأرض ، سمى كأة لاشتجاره بها . والعسائل : جمع عسقل كعصفور ، وكان حقه : عاقيل ؛ لحذف الباء للوزن . وقيل : إنه جمع عسقل ، وهو نوع صغير منها جيد أبيض ، ونبات أوبر : نوع ردى منها أسود مرغوب ، كأن عليه وبر . وقيل : هو جنس آخر يدعى القلقاس أو القفت . ونبات أوبر : جمع ابن أوبر ، لأنه علم لما لا يعقل . وأل فيه زائدة . وقال المبرد : هو اسم جنس ، قال فيه معرفة ، والبيت من باب التثنية لخال من أغرى على الطيب ، فعدل إلى الخبيث ، ثم يرجع بتقديم على عاقبته .

لأن الحديث واقع في الفعل لا في المباشر ، والتعلق في إبطاله بخط المصحف ، وأن الآلاف التي تكتب بعد واو الجمع غير ثابتة فيه : ركيك ؛ لأن خط المصحف لم يراع في كثير منه حد المصطلح عليه في علم الخط ، على أني رأيت في الكتب المخطوطة بأيدى الأئمة المتقنين هذه الآلاف مرفوضة لكونها غير ثابتة في اللفظ والمعنى جميعاً ؛ لأن الواو وحدها معطية معنى الجمع ، وإنما كتبت هذه الآلاف تفرقة بين واو الجمع وغيرها في نحو قولك : هم لم يدعوا ، وهو يدعو ؛ فمن لم يثبتها قال : المعنى كاف في التفرقة بينهما . وعن عيسى بن عمر وحمة : أنهما كانا يرتكبان ذلك ، أى يجهلان الضميرين للمطففين ، ويقفان عند الواوين وقيفة بينانها ما أرادا . فإن قلت : هلا قيل : أو اتزنوا ، كما قيل (أو وزنوم) ؟ قلت : كان المطففين كانوا لا يأخذون ما يكال ويوزن إلا بالمكاييل دون الموازين لتمسكهم بالاكتيال من الاستيفاء والسرقة ، لأنهم يدعدعون^(١) ويحتالون في الملاء ، وإذا أعطوا كالواو أو وزنوا لتمسكهم من البخس في النوعين جميعاً (يخسرون) ينقصون . يقال : خسر الميزان^(٢) وأخسره (ألا يظن) إنكار وتعجيب عظيم من حالهم في الاجترأ على التطفيف ، كأنهم لا يخطر عليهم ولا يخمنون تخميناً (أنهم مبعوثون) ومحاسبون على مقدار الذرة والخردلة . وعن قتادة : أوف يا ابن آدم كما تحب أن يوفى لك ، واعدل كما تحب أن يعدل لك . وعن الفضيل : بخس الميزان سواد الوجه يوم القيامة . وعن عبد الملك بن مروان : أن أعرابياً قال له : قد سمعت ما قال الله في المطففين : أراد بذلك أن المطفف قد توجه عليه الوعيد العظيم الذي سمعت به ، فساظنك بنفسك وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل ولا وزن . وفي هذا الإنكار والتعجيب وكلة الظن ، ووصف اليوم بالعظم ، وقيام الناس فيه لله خاضعين ، ووصفه ذاته برب العالمين : بيان ببلغ لعظم الذنب وتقادم الإثم في التطفيف وفيما كان في مثل حاله من الحيف وترك القيام بالقسط ، والعمل على السوية والعدل في كل أخذ وإعطاء ، بل في كل قول وعمل . وقيل : الظن بمعنى اليقين ، والوجه ما ذكر ؛ ونصب (يوم يقوم) مبعوثون . وقرئ بالجر بدلاً من (يوم عظيم) وعن ابن عمر أنه قرأ هذه السورة فلما بلغ قوله (يوم يقوم الناس لرب العالمين) بكى نحيباً وامتنع من قراءة ما بعده .

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُتُورِ لَفِي سَجِينٍ ۝ (٧) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِينٌ ۝ (٨)

كِتَابٌ مَرْقُومٌ ۝ (٩)

(١) قوله « يدعدعون ويحتالون » في الصحاح الدعدة تحريك المكاييل ونحوه ليسعه الشيء . ودعدع الشيء :

ملأه . (ع)

(٢) قوله « يقال خسر الميزان » عبارة الصحاح : خسرت الشيء وأخسرت : نقصته . (ع)

(كلا) ردعهم عما كانوا عليه من التطفيف والغفلة عن ذكر البعث والحساب ، ونههم على أنه مما يجب أن يتاب عنه ويندم عليه ، ثم أتبعه وعيد الفجار على العموم . وكتاب الفجار : ما يكتب من أعمالهم . فإن قلت . قد أخبر الله عن كتاب الفجار بأنه في سجين ، وفسر سجيناً بكتاب مرقوم : فكأنه قيل : إن كتابهم في كتاب مرقوم . فما معناه : قلت : (سجين) كتاب جامع هو ديوان الشر : دون الله فيه أعمال الشياطين وأعمال الكفرة والفسقة من الجن والإنس . وهو كتاب مرقوم مسطور بين الكتابة . أو معلم يعلم من رآه أنه لا خير فيه ، فالمعنى أن ما كتب من أعمال الفجار مثبت في ذلك الديوان . وسمى سجيناً : فعيلاً من السجن ، وهو الحبس والتضييق . لأنه سبب الحبس والتضييق في جهنم . أو لأنه مطروح - كما روى - تحت الأرض السابعة في مكان وحش مظلم ، وهو مسكن إبليس وذريته استهانة به وإذالة ^(١) ، وليشهده الشياطين المدحورون ، كما يشهد ديوان الخير الملائكة المقربون . فإن قلت : فما سجين ، أصفه هو أم اسم ؟ قلت : بل هو اسم علم منقول من وصف كآتهم ، وهو منصرف لأنه ليس فيه إلا سبب واحد وهو التعريف .

وَبَلِّ بَوْمَثِدٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝ (١٠) الَّذِينَ يُكْذِبُونَ يَوْمَ الدِّينِ ۝ (١١)
وَمَا يُكْذِبُ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝ (١٢) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ
أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ ۝ (١٣) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ (١٤)
كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمْ يَسْمِعُوا ۝ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ۝ (١٦)
ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهٖ تُكَذِّبُونَ ۝ (١٧)

(الذين يكذبون) مما وصف به للذم لا للبيان ، كقولك فعل ذلك فلان الفاسق الخبيث (كلا) ردع للمعتدى الأثيم عن قوله (ران على قلوبهم) ركها كما يركب الصدا وغلب عليها : وهو أن يصر على الكبرياء ويسوف التوبة حتى يطبع على قلبه ، فلا يقبل الخير ولا يميل إليه . وعن الحسن : الذنب بعد الذنب حتى يمسو القلب . يقال : ران عليه الذنب وغان عليه ، رينا وغينا ، والغين : الغيم ، ويقال : ران فيه النور رسخ فيه ، ورانت به الحر : ذهبت به . وقرئ بإدغام اللام في الراء وبالإظهار ، والإدغام أجود . وأميلت الألف ونحمت (كلا) ردع عن

(١) قوله استهانة به وإذالة ، أى : إهانة ، كما في الصحاح . (ع)

الكسب الرائن على قلوبهم . وكونهم محجوبين عنه : تمثيل ^(١) للاستخفاف بهم ^(٢) وإهانتهم ،
لأنه لا يؤذن على الملوك إلا لأوجهاه المكرمين لديهم ، ولا يحجب عنهم إلا الأدنىاء المهانون
عندهم . قال :

إِذَا آخَرْتُوا بِأَبْ ذِي عُيُوبَةٍ رُجِبُوا وَالنَّاسُ مِنْ بَيْنِ مَرْجُوبٍ وَمَحْجُوبٍ ^(٣)

عن ابن عباس وقتادة وابن أبي مليكة : محجوبين عن رحمة . وعن ابن كيسان :
عن كرامته :

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلَمَيْنِ ^(١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلْمُهُنَّ ^(١٩)

كِتَابٌ مَرْقُومٌ ^(٢٠) بِشَهَادَةِ الْمُقَرَّبُونَ ^(٢١)

(كلا) ردع عن التكذيب . وكتاب الأبرار : ما كتب من أعمالهم . وعلمون : علم لديوان
الخير الذي دُون فيه كل ما عملته الملائكة وصلاحه الثقلين ، منقول من جمع دَعَى ، فعيل من
العلو كسجين من السجن . سمي بذلك إما لأنه سبب الارتفاع إلى أعلى الدرجات في الجنة ، وإما لأنه
مرفوع في السماء السابعة حيث يسكن الكروبيون ، تكريماً له وتعظيماً . روى « إن الملائكة
لتصعد بعمل العبد فيستقلونه ، فإذا انتهوا به إلى ما شاء الله من سلطنة أوحى إليهم إنكم الحفظة
على عبادي وأنا الرقيب على ما في قلبه ، وأنه أخلص عمله فأجملوه في عليين ، فقد غفرت له ؛ وإنها
لتصعد بعمل العبد فيزكونه ، فإذا انتهوا به إلى ما شاء الله أوحى إليهم : أتم الحفظة على

(١) قال محمود : « كونهم محجوبين عنه تمثيل ... الخ » قال أحد : هذا عند أهل السنة على ظاهره من أدلة
الرؤية ، فإن الله تعالى لما خص الفجار بالحجاب دل على أن المؤمنين الأبرار مرفوع عنهم الحجاب ، ولا معنى
لرفع الحجاب إلا الإدراك بالعين ؛ وإلا فالحجاب على الله تعالى بغير هذا التفسير عال ، هذا هو الحق وما بعد
الحق الإلضلال ، وما أرى من جحد الرؤية المدلول عليها بقواطع الكتاب والسنة يحفظي بها ، والله المستول في العصمة .
(٢) قوله « تمثيل للاستخفاف بهم » مبنى على مذنب المعقولة : وهو عدم جواز الرؤية عليه تعالى . وذنب
أهل السنة إلى جوازها . وفي النسق : قال الزجاج : في الآية دليل على أن المؤمنين يرون ربهم ، وإلا لا يكون
التخصيص مفيداً ، وقال الحسن بن الفضل : كما حجهم في الدنيا عن توحيدهم ، حجهم في العقي عن رؤيته . وقال
مالك بن أنس : لما حجب أعداءه فلم يروه ، تجلى لأولياته حتى رآه . وكذا في الخازن . وفيه أيضاً : قال
الشافعي : في الآية دلالة على أن أولياء الله يرون الله جل جلاله .

(٣) غروا : قصدوا . وروى : اعتروا ، أى : نزلوا به وأصابوه . والعمية : الكبر والفخر . قال صلى الله
عليه وسلم « إن الله تعالى قد أذهب عنكم عية الجاهلية بالأباء » الناس رجالان : مؤمن تقى وكافر شقى . ورجبة
الرجل : عظمته . يقول إنهم يلجئون أبواب العطاء لا تمتنعهم الحجاب ، بخلاف غيرهم فانهم تارة وتارة .

عبدى وأنا الرقيب على ما فى قلبه . وإنه لم يخلص لى عمله فاجعلوه فى سجين ^(١) .

إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ^(٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ^(٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ
نَضْرَةَ النَّعِيمِ ^(٢٤) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ^(٢٥) خِتَمُهُ مِنْكَ وَفِي ذَلِكَ
فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ^(٢٦) وَمِنْ أَجْهِ مِنْ تَنْسِيمٍ ^(٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا
الْمُقَرَّبُونَ ^(٢٨)

(الآرائك) الأسرة فى المجال ^(١) (ينظرون) إلى ماشاؤا مد أعينهم إليه من مناظر الجنة ، وإلى ما أولاهم الله من النعمة والكرامة ، وإلى أعدائهم يعذبون فى النار ، وما تحجب المجال أبصارهم عن الإدراك (نضرة النعيم) بهجة التمتع وماءه ورونته ، كما ترى فى وجوه الأغنياء وأهل الترفه . وقرئ : تعرف . على البناء للفعول . ونضرة النعيم - بالرفع . الرحيق الشراب الخالص الذى لا غش فيه (مختوم) تحتم أوانيه من الأكواب والآباريق بمسك مكان الطينة . وقيل (ختامه مسك) مقطعه رائحة مسك إذا شرب . وقيل : يمزج بالكافور ، ويحتم مزاجه بالمسك . وقرئ : خاتمه ، بفتح التاء وكسرها ، أى : ما يحتم به ويقطع (فليتنافس المتنافسون) فليرتقب المرتقبون (تسليم) علم لعين بعينها : سميت بالتسليم الذى هو مصدر سئمه إذا رفعه : إنما لأنها أرفع شراب فى الجنة وإما لأنها تأتهم من فوق ، على ما روى أنها تجري فى الهواء متسئمة فتصب فى أوانهم . و (عينًا) نصب على المدح . وقال الزجاج : نصب على الحال . وقيل : هى للقرين ، يشربونها صرافا ، وتمزج لسائر أهل الجنة .

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ^(٢٩) وَإِذَا مَرُّوا
بِهِمْ يَتَخَفَتُونَ ^(٣٠) وَإِذَا آنَقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ^(٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ
قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ^(٣٢) وَمَا أَرْسَلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ^(٣٣)

هم مشركو مكة : أبو جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وأشياهم : كانوا يضحكون

(١) أخرجه ابن المبارك فى الزهد : أخبرنا أبو بكر ابن أبى حريم عن حمزة بن حبيب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ... فذكره .

(٢) قوله « الأسرة فى المجال » فى الصحاح : الحجة - بالتحريك - : واحدة حجال المروس : وهى بيت يزين بالثياب والأسرة والستور . (ع)

من عمار وصهيب وخباب وبلال وغيرهم من فقراء المؤمنين ويستمزنون بهم . وقيل : جاء على ابن أبي طالب رضي الله عنه في نفر من المسلمين فسخر منهم المنافقون وضحكوا وتغامزوا ، ثم رجعوا إلى أصحابهم فقالوا : رأينا اليوم الأصلح فضحكوا منه ، فزلت قبل أن يصل على إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (يتغامزون) يغمز بعضهم بعضا ، ويشيرون بأعينهم (فكبهين) ملتذين بذكركم والسخرية منهم ، أى : ينسبون المسلمين إلى الضلال (وما أرسلوا) على المسلمين (حافظين) موكلين بهم يحفظون عليهم أحوالهم ، ويهيمون على أعمالهم ، ويشهدون برشدكم وضلالهم : وهذاتكم بهم . أو هو من جملة قول الكفار ، وإنهم إذا رأوا المسلمين قالوا : إن هؤلاء لضالون ؛ وإنهم لم يرسلوا عليهم حافظين إنكاراً لصدم إياهم عن الشرك ، ودعائهم إلى الإسلام . وجذم في ذلك .

فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ
يَنْظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ نُؤِيبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

(على الأرائك ينظرون) حال من (يضحكون) أى : يضحكون منهم ناظرين إليهم وإلى ما هم فيه من الهوان والصغار بعد العزة والكبر ، ومن ألوان العذاب بعد النعيم والترفة : وهم على الأرائك آمنون . وقيل : يفتح للكفار باب إلى الجنة فيقال لهم : اخرجوا إليها ؛ فإذا وصلوا إليها أغلق دونهم ، يفعل ذلك بهم مراراً ، فيضحك المؤمنون منهم . ثوبه وأثابه : بمعنى ، إذا جازاه . قال أوس :

سَأَجْزِيكَ أَوْ يَنْجِزِيكَ عَنِّي مُنْوَبٌ وَحَسْبُكَ أَنْ يُثْنَى عَلَيْكَ وَتُحَدِّى (١)
وقرى بإدغام اللام في التاء .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرأ سورة المطففين سقاه الله من الرحيق المختوم يوم القيامة (٢) .

(١) لأوس بن حجر . ويقال : ثوبه وأثابه : إذا جازاه . فالمثوب المجازى أى : سأجزيك يا فرسى بنفسى ، أو يجزيك بدلا منى مجاز غيرى . أو مجازاة ناشئة عنى ، وكأنك من الناس أن يثنوا عليك ويحمدوك ؛ فعليك : نائب الفاعل . ويجوز أن يكون المثوب المنادى للحرب مشيراً بطرف ثوبه ، ليرى من بعيد فيبقات .
(٢) أخرجه ابن مردويه والعللى والواحدى يسندهم إلى أبي بن كعب .

سورة الانشقاق

مكية ، وآياتها ٢٥ [نزلت بعد الانقطار]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ① وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وُحِّتْ ② وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ③
وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ④ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحَّتْ ⑤

حذف جواب إذا ليذهب المقدر كل مذهب . أو اكتفاء بما علم في مثلها من سورتي التكويد والانقطار . وقيل : جوابها ما دل عليه (فلاقيه) أي إذا السماء انشقت لاقى الإنسان كدحه . ومعناه : إذا انشقت بالغيام ، كقوله تعالى (ويوم تشقق السماء بالغمام) وعن علي رضي الله عنه : تنشق من المجرة . أذن له : استمع له ^(١) . ومنه قوله عليه السلام : ما أذن الله لشيء كاذنه لنبي يتنقى بالقرآن ^(٢) . وقول جحاف بن حكيم :

* أَذِنْتُ لَكُمْ لَمَّا سَمِعْتُ هَرِيرَكُمْ * ^(٣)

والمعنى : أنها فعلت في انقيادها لله حين أراد انشقاقها فعل المطواع الذي إذا ورد عليه الأمر من جهة المطاع أنصت له وأذعن ولم يأب ولم يمتنع ، كقوله (أتينا طائعين) . (وحقت) من قولك هو محقوق بكذا وحقيق به ، يعني : وهي حقيقة بأن تنقاد ولا تمتنع . ومعناه الإيذان بأن القادر الذات ^(٤) يجب أن يتأني له كل مقدور ويحق ذلك (مدت) من مد الشيء فامتد :

(١) قال محمود : «معنى أذنت استمعت ... الخ» قال أحمد : نفص تفسير الآية بقوله : القادر بالذات وما باله لا يقول : القادر الذي عت قدرته الكائنات ، حتى لا يكون لإب قدرته : حقيق أن يسمع له ويطيع . فثبت لله صفة الكمال ، ويوحده حق توحده : وهو غير من سلب صفة الكمال عن الله تعالى وإشراك مخلوقاته به - جل ربنا وعز -
(٢) متفق عليه ، وقد تقدم في سورة إبراهيم .

(٣) أذنت لكم لَمَّا سَمِعْتُ هَرِيرَكُمْ فاستمعوني بالحنا والفواش

لجحاف بن حكيم . وأذنت : أصغيت وأصغيت بأذن لكلامكم حين سمعت صوتكم ، وضمن استمعوني معنى : أعلتموني ، فعداه بالياء . ويهز أنها زائدة . والحنا : الزنا وتواضعها يتعلق بالنساء ، والفواش : أعم من ذلك
(٤) قوله «الايذان بأن القادر بالذات» هذا التعبير مبني على مذهب المعتزلة من أنه تعالى قادر بذاته لا بقدره زائدة على ذاته ، عالم بذاته لا يعلم زائد على ذاته . ومذهب أهل السنة : أنه قادر بقدره زائدة على ذاته ، عالم بعلم زائد على ذاته ، ومكذا ، كما في الحيوانات

وهو أن تزال جبالها وآكامها وكل أمت فيها ، حتى تمتد وتنسط ويستوى ظهرها ، كما قال تعالى (فاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا) وعن ابن عباس رضى الله عنهما : مدت مدة الأديم العكاظي : لأن الأديم إذا مدت زال كل انثناء فيه وأمت واستوى أو من مده بمعنى أمده ، أى : زيدت سعة وبسطة (وألفت ما فيها) ودمت بما في جوفها مما دفن فيها من الموتى والكسوز (وتخلت) وخلت غاية الخلو . حتى لم يبق شيء في باطنها ، كأنها تكلفت أقصى جهدها في الخلو ، كما يقال : تكرم الكريم ، وترحم الرحيم : إذا بلغا جهدهما في الكرم والرحمة ، وتكلفا فوق ما في طبيعتهما (وأذنت لربها) في إلقاء ما في بطنها وتخليها .

يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدًّا قُلَافِيهِ ⑥ فَأَمَّا مَنْ
أُوِّنَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ ⑦ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ⑧ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ
أَهْلِهِ مَسْرُورًا ⑨ وَأَمَّا مَنْ أُوِّنَ كِتَابُهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ⑩ فَسَوْفَ يَدْعُوا
ثُبُورًا ⑪ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ⑫ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ⑬ إِنَّهُ ظَنَّ
أَنْ لَّنْ يُجُورَ ⑭ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ⑮

الكدح : جهد النفس في العمل والكد في حق يؤثر فيها ، من كدح جلده : إذا خدشه . ومعنى (كادح إلى ربك) جاهد إلى لقاء ربك ، وهو الموت وما بعده من الحال الممثلة باللقاء (فلاقيه) فلاق له لا محالة لا مفتر لك منه ، وقيل : الضمير في ملاقيه للكدح (يسيرا) سهلا مينا لا يناقش فيه ولا يعترض بما يسوء ويشق عليه ، كما يناقش أصحاب الشمال . وعن عائشة رضى الله عنها : هو أن يعترف ذنوبه ، ثم يتجاوز عنه . وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : من يحاسب يعذب ، فقيل يارسول الله : فسوف يحاسب حسابا يسيرا . قال ذلكم العرض ، من نوقش في الحساب عذب ، (إلى أهله) إلى عشيرته إن كانوا مؤمنين . أو إلى فريق المؤمنين . أو إلى أهله في الجنة من الحور العين (وراء ظهره) قيل : تغل يمناء إلى عنقه ، وتجعل شماله وراء ظهره ، فيؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره . وقيل تخلع يده اليسرى من وراء ظهره . (يدعو ثبورا) يقول : يا ثبورا . والثبور : الهلاك . وقرئ : ويصلى سعيرا ، كقوله (وتصلية جحيم) ويصلى : بضم الياء والتخفيف ، كقوله (ونصله جهنم) . (في أهله) فيما بين ظهرانيهم : أو معهم . على أنهم كانوا جميعاً مسرورين ، يعنى أنه كان في الدنيا مترقا بطرا مستبشرا كعادة

الفجار الذين لا يهتمهم أمر الآخرة ولا يفكرون في العواقب ، ولم يكن كثيباً حزيناً متفكراً كمادة الصلحاء والمتقين وحكاية الله عنهم (إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين). (ظن أن لن يحور) لن يرجع إلى الله تعالى تكذيباً بالمعاد . يقال : لا يحور ولا يحول ، أى : لا يرجع ولا يتغير . قال لبيد :

• يَحُورُ رَمَادًا بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعُ * (١)

وعن ابن عباس : ما كنت أدري ما معنى يحور حتى سمعت أعرابية تقول لبنية لها : حورى ، أى : ارجعى (بلى) بإيجاب لما بعد النفي في (لن يحور) أى : بلى ليحورن (إن ربه كان بصيراً) وبأعماله لا ينساها ولا تحفى عليه ، فلا بد أن يرجعه ويجازيه عليها . وقيل : نزلت الآيتان في أبي سلة بن عبد الأشد وأخيه الأسود بن عبد الأشد .

فَلَا أَقْسِمُ بِالشَّفَقِ (١٦) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (١٨)

لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ (١٩)

الشفق : الحمرة التى ترى في المغرب بعد سقوط الشمس ، وبسقوطه يخرج وقت المغرب ويدخل وقت العتمة عند عامة العلماء ، إلا ما يروى عن أبي حنيفة رضى الله عنه في إحدى الروايتين : أنه البياض . وروى أسد بن عمرو : أنه رجع عنه ، سمى لرقته . ومنه الشفقة على الإنسان : رقة القلب عليه (وما وسق) وما جمع وضم ، يقال : وسقه فأتسق واستوسق . قال :

• مُسْتَوْسِقَاتٌ لَوْ يَجِدُنَّ سَاقًا * (٢)

ونظيره في وقوع الفعل واستفعل مطاوعين : اتسع واستوسع . ومعناه : وما جمعه وستره وآوى إليه من الدواب وغيرها (إذا اتسق) إذا اجتمع واستوى ليلة أربع عشرة . قرئ : لتركبن ، على خطاب الإنسان في (يا أيها الإنسان) ولتركبن ، بالضم على خطاب الجنس ، لأن النداء للجنس ؛ ولتركبن بالكسر على خطاب النفس ، ولتركبن بالياء على : ليركبن

(١) تقدم شرح هذا القاعد بالجزء الرابع صفحة ١٣ فراجع إن شئت اه مصححه .

(٢) إن لنا قلائصاً حقائقاً مستوسقات لو يجدن ساقاً

القلائص : جمع قلوص وهى الفتية من الابل . والحقائق : جمع حقة ، التى استحققت الحل عليها ؛ أو استحققت ضراب الفضل . ويقال : وسقه فأتسق واستوسق ، أى : جمع عليه الأحوال فتحمل ، أو جمعه فاجتمع . ومستوسقات : متحملات أو مجتمعات ؛ وأو بمعنى إلى ، أى : واقفات إلى أن يجدن من يسوقهن فيسرن . ويروى : لو يجدن . وفيه معنى التنى . ويحور أن جوابه مقدور ، أى : لا سرعن :

الإنسان . والطبق : ما طابق غيره . يقال : ما هذا بطبق لذا ، أى : لا يطابقه . ومنه قيل للغطاء الطبق . وإطباق الثرى : ما تطابق منه ، ثم قيل للحال المطابقة لغيرها : طبق . ومنه قوله عز وعلا ﴿ طبقاً عن طبق ﴾ أى حالاً بعد حال : كل واحدة مطابقة لآخرتها في الشدة والهول : ويجوز أن يكون جمع طبقة وهى المرتبة ، من قولهم : هو على طبقات . ومنه : طبق الظهر لفقاره الواحدة : طبقة ، على معنى : لتركن أحوالاً بعد أحوال هى طبقات في الشدة بعضها أرفع من بعض . وهى الموت وما بعده من مواطن القيامة وأهوالها . فإن قلت : ما محل عن طبق ؟ قلت : النصب على أنه صفة لطبقاً ، أى : طبقاً مجاوزاً لطبق . أحوال من الضمير في لتركن ، أى : لتركن طبقاً مجاوزين لطبق . أو مجاوزاً . أو مجاوزة ، على حسب القراءة : وعن مكحول : كل عشرين عاماً تجدون أمراً لم تكونوا عليه .

قَسَا لَهُمُ الْيَوْمَ نُونٌ ۚ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۖ (٢١)
بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ۚ (٢٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۖ (٢٣) قَبِشْرُهُمْ
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۚ (٢٤) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ
مَمْنُونٍ ۚ (٢٥)

﴿ لا يسجدون ﴾ لا يستكبن ولا يخضعون . وقيل . قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم (واستجد واقرب) فسجد هو ومن معه من المؤمنين وقريش تصفق فوق رؤسهم وتصفر ^(١) ، فنزلت . وبه احتج أبو حنيفة رضى الله عنه على وجوب السجدة . وعن ابن عباس ليس في المفصل سجدة . وعن أنى هريرة رضى الله عنه : أنه سجد فيها وقال : والله ما سجدت فيها إلا بعد أن رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسجد ^(٢) فيها . وعن أنس : صليت خلف أنى بكر وعمر وعثمان فسجدوا . وعن الحسن : هى غير واجبة ﴿ الذين كفروا ﴾ إشارة إلى المذكورين ﴿ بما يوعون ﴾ بما يجمعون في صدورهم ويضمرون من الكفر والحسد والبغي والبغضاء . أو بما يجمعون في صحفهم من أعمال السوء ويدخرون لأنفسهم من أنواع العذاب ﴿ إلا الذين آمنوا ﴾ استثناء منقطع .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرأ سورة انشقت أعاده الله أن يعطيه كتابه ورأه ظهره ، ^(٣) .

(١) لم أجدّه .

(٢) متفق عليه بمناه .

(٣) أخرجه الترمذي والواحدي وابن مردويه بإسنادهم إلى أبي بن كعب .

سورة البروج

مكية ، وآياتها ٢٢ [نزلت بعد الشمس]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ① وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ② وَشَahِدٍ وَمَشْهُودٍ ③

هى البروج الاثنا عشر ، وهى قصور السماء على التشبيه . وقيل : (البروج) النجوم التى هى منازل القمر . وقيل : عظام السكواكب . سميت بروجاً لظهورها . وقيل : أبواب السماء . (واليوم الموعود) يوم القيامة (وشاهد ومشهود) يعنى وشاهد فى ذلك اليوم ومشهود فيه . والمراد بالشاهد : من يشهد فيه من الخلائق كلهم ؛ وبالمشهود : ما فى ذلك اليوم من عجايبه . وطريق تنكيرهما : إما ما ذكرته فى قوله (علبت نفس ما أحضرت) كأنه قيل : وما أفرطت كثرته من شاهد ومشهود . وإما الإيهام فى الوصف ، كأنه قيل : وشاهد مشهود لا يكتنه وصفهما . وقد اضطربت أقاويل المفسرين فيهما : فقيل : الشاهد والمشهود : محمد صلى الله عليه وسلم ، ويوم القيامة . وقيل : عيسى . وأمثه . لقوله (وكنت عليهم شهيداً مآدمت فيهم) وقيل : أمة محمد ، وسائر الامم : وقيل : يوم التروية ، ويوم عرفة . وقيل : يوم عرفة ، ويوم الجمعة . وقيل : الحجر الأسود ، والحجيج . وقيل : الايام والليالى ، وبنو آدم . وعن الحسن : ما من يوم إلا وينادى : إني يوم جديد وإني على ما يعمل فى شهيد ؛ فاعتننى ، فلو غابت شمسى لم تدركنى إلى يوم القيامة : وقيل : الحفظة وبنو آدم . وقيل : الانبياء ومحمد عليه السلام .

قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ④ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ⑤ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ⑥

وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعُلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ⑦ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ⑧ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ

شَيْءٍ شَهِيدٌ ⑨

فإن قلت : أين جواب القسم ؟ قلت : محذوف يدل عليه قوله (قتل أصحاب الاخدود) كأنه قيل : أقسم بهذه الأشياء أنهم ملعونون ، يعنى كفار قريش كما لعن أصحاب الاخدود ؛ وذلك

أن السورة وردت في تثبيت المؤمنين وتصييرهم على أذى أهل مكة ، وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم : من التعذيب على الإيمان . وإلحاق أنواع الأذى ، وصبرهم وثباتهم ، حتى يأنسوا بهم ويصبروا على ما كانوا يلقون من قومهم ، ويعلموا أن كفارهم عند الله بمنزلة أولئك المعذبين المحرقين بالنار ، ملعونون أحقاء بأن يقال فيهم : قتلتم قريش ، كما قيل : قتل أصحاب الأخدود وقتل : دعاء عليهم ، كقوله (قتل الإنسان ما أكفره) وقرئ : قتل ، بالتشديد . والأخدود : الخد في الأرض وهو الشق ، ونحوهما بناء ومعنى : الحق والأحقوق . ومنه فساخت قوائمه في أخاقيق جردان ^(١) . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : كان لبعض الملوك ساحر ، فلما كبر ضم إليه غلاما ليعلمه السحر ، وكان في طريق الغلام راهب : فسمع منه ، فرأى في طريقه ذات يوم دابة قد حبست الناس . فأخذ حجرا فقال : اللهم إن كان الراهب أحب إليك من الساحر فاقتلها ؛ فقتلها ؛ فكان الغلام بعد ذلك يبرئ الآكهم والأبرص ، ويشفي من الأدواء ، وعمى جليس للملك فأبرأه فأبصره الملك فسأله فقال : من رد عليك بصرى ؟ فقال : ربى ؛ فغضب فعذبه . فدل على الغلام فعذبه ، فدل على الراهب ، فلم يرجع الراهب عن دينه ، فقد بالمشار وأبى الغلام فذهب به إلى جبل لي طرح من ذروته ، فدعا فرجب بالقوم ، فطاحوا ونجا ، فذهب به إلى قرقر ^(٢) فلججوا به ليغرقوه ، فدعا فانكفأت بهم السفينة ، فغرقوا ونجا ، فقال للملك : لست بقاتلى حتى تجمع الناس في صعيد وتصلبني على جذع وتأخذ سهما من كنانتي وتقول : بسم الله رب الغلام ، ثم ترميني به . فرماه فوقع في صدغه فوضع يده عليه ومات ؛ فقال الناس : آمنابرب الغلام ؛ فقيل للملك . نزل بك ما كنت تحذر ؛ فأمر بأخاديد في أفواه السكك وأوقدت فيها النيران فن لم يرجع منهم طرحة فيها حتى جاءت امرأة معها صبي فتقاعست ^(٣) أن تقع فيها ، فقال الصبي : يا أماء ، اصبري فإنك على الحق ؛ فاقتمحت . وقيل : قال لها قمى ولا تناقنى . وقيل : قال لها ما هي إلا غميضة فصبرت ^(٤) . وعن علي رضي الله عنه : أنهم حين اختلفوا في أحكام المجوس قال : هم أهل كتاب وكانوا متمسكين بكتابتهم ، وكانت الخرق قد أحلت لهم ، فتناولها بعض ملوكهم فسكروا ، فوقع على أخته فلما صحا ندم وطلب النخرج ، فقالت له : المخرج أن تخطب الناس فتقول : يا أيها الناس ، إن الله أحل نكاح الأخوات ، ثم تخطبهم بعد ذلك فتقول : إن الله حرمه ؛ فخطب فلم يقبلوا منه

(١) قوله « جردان » في الصحاح « الجرذ » : ضرب من الفار والجمع : الجرذان . (ع)

(٢) قوله « قرقر » في الصحاح « القرقر » : السفينة الطويلة . (ع)

(٣) قوله « تقاعست » في الصحاح « تقاعس » : إذا تأخر عن الأمر ولم يتقدم . (ع)

(٤) أخرجه مسلم . والترمذي والنسائي وابن حبان والطبري والطبراني وأبو يعلى والبرزكلي . من رواية ابن أبي ليلى من طرق وأقرها إلى لفظ الكتاب سيق الطبري . نفرد به ثابت البناني عن عبد الرحمن .

فَقَالَتْ لَهُ : ابْسِطْ فِيهِمُ السُّوْطَ : فَلَمْ يَقْبَلُوا ؛ فَقَالَتْ لَهُ : ابْسِطْ فِيهِمُ السَّيْفَ ، فَلَمْ يَقْبَلُوا ؛ فَأَمَرَتْهُ بِالْأَخَادِيدِ وَإِقَادِ النَّيْرَانِ وَطَرَحَ مِنْ أُنَى فِيهَا ؛ فَهَمُّ الَّذِينَ أَرَادَهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ (قَتَلَ أَصْحَابَ الْأَخْدُودِ) ^(١) وَقِيلَ : وَقَعَ إِلَى نَجْرَانَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ عَلَى دِينَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَدَعَاهُمْ فَأَجَابُوهُ فَسَارَ إِلَيْهِمْ ذُو نَوَاسِ الْيَهُودِي بِمَجْنُودٍ مِنْ حَمِيرٍ ، فَخَيَّرَهُمْ بَيْنَ النَّارِ وَالْيَهُودِيَّةِ فَأَبَوْا ، فَأَحْرَقَ مِنْهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا فِي الْأَخَادِيدِ . وَقِيلَ : سَبْعِينَ أَلْفًا ^(٢) ؛ وَذَكَرَ أَنَّ طُولَ الْأَخْدُودِ : أَرْبَعُونَ ذِرَاعًا وَعَرْضُهُ اثْنَا عَشَرَ ذِرَاعًا . ^(٣) وَعَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ إِذَا ذَكَرَ أَصْحَابَ الْأَخْدُودِ تَعَوَّذَ مِنْ جَهْدِ الْبَلَاءِ ^(٤) (النَّارِ) بِدَلِّ اشْتِمَالٍ مِنَ الْأَخْدُودِ (ذَاتِ الْوُقُودِ) وَصَفَّ لَهَا بِأَنَّهَا نَارٌ عَظِيمَةٌ لَهَا مَا يَرْتَفِعُ بِهِ لَهَا مِنَ الْحَطَبِ الْكَثِيرِ وَأَبْدَانِ النَّاسِ ، وَقُرِئَ : الْوُقُودُ ، بِالضَّمِّ (إِذَا) ظُرِفَ لِقَتْلِ ، أَيْ لَعَنُوا حِينَ أَحْدَقُوا بِالنَّارِ قَاعِدِينَ حَوْلَهَا . وَمَعْنَى (عَلَيْهَا) عَلَى مَا يَدْنُو مِنْهَا مِنْ حَافَاتِ الْأَخْدُودِ ، كَقَوْلِهِ :

* وَبَاتَ عَلَى النَّارِ النَّدَى وَالْمَحَلَّقُ * ^(٥)

وَمَا تَقُولُ : مَرَّتْ عَلَيْهِ ، تَرِيدُ : مُسْتَعْلِمًا لِمَكَانٍ يَدْنُو مِنْهُ . وَمَعْنَى شَهَادَتِهِمْ عَلَى إِحْرَاقِ الْمُؤْمِنِينَ : أَنَّهُمْ وَكَلُوا بِذَلِكَ وَجَعَلُوا شُهُودًا يَشْهَدُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عِنْدَ الْمَلِكِ أَنَّ أَحَدًا مِنْهُمْ لَمْ يَفِرْطْ فِيهَا أَمْرًا بِهِ وَفُوضَ إِلَيْهِ مِنَ التَّعْذِيبِ . وَيَجُوزُ أَنْ يَرَادَ : أَنَّهُمْ شُهِدُوا عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ ، يُؤَدُّونَ شَهَادَتَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) . (وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ) وَمَا عَابُوا مِنْهُمْ وَمَا أَنْكَرُوا إِلَّا الْإِيمَانَ ، كَقَوْلِهِ :

* وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُبُوحَهُمْ * ^(٦)

قال ابن الرقيات :

مَا قَصَمُوا مِنْ بَنِي أُمِّيَّةٍ إِلَّا أَنَّهُمْ يَخْلَعُونَ إِنْ عَصَبُوا ^(٧)

(١) أخرجه مسلم والترمذي والنسائي وأبو يعلى . والطبري والطبراني . واحد وإسحاق والبخاري كلهم من رواية عبد الرحمن بن حنبل والطبري من رواية جعفر بن أبي المغيرة عن عبد الرحمن بن أبيزى قال : « لما هزم المسلمون أهل الأسديين انصرفوا فجاءهم يعني عمر رضى الله عنه . فاجتمعوا فقالوا . أى شيء يجرى على الجوس من الأحكام ؟ فانهم لبسوا أهل كتاب . وليسوا من مشركي العرب . فقال : هم أهل الكتاب . فذكره . وسياق الطبري أنهم منه »

(٢) أخرجه ابن إسحاق في السيرة . حدثني يزيد بن أبي زياد عن محمد بن كعب . قد رده مطولا .

(٣) نقله الثعلبي عن الكلبي .

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة عن أبي أسامة عن عوف بن الحسن بهذا .

(٥) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثالث صفحة ٥٣ فراجع إن شئت اه مصححه .

(٦) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة ١٤٢ فراجع إن شئت اه مصححه .

(٧) لقبي الرقيات . ونقصوا كرهوا : وحل - كظرف - : صفح . يقول : إنهم جعلوا أحسن الأشياء وهو =

وقرأ أبو حية: نعموا، بالكسر، والفصيح: هو الفتح. وذكر الأوصاف التي يستحق بها أن يؤمن به ويعبد، وهو كونه عزيزاً غالباً قادراً يخشى عقابه حميداً منماً. يجب له الحمد على نعمته ويرجى ثوابه (له ملك السموات والأرض) فكل من فيهما تحقق عليه عبادته والخشوع له تقديراً، لأن (ما نعموا منهم) هو الحق الذي لا ينقمه إلا مبطل منهمك في الغنى، وإن الناقين أهل لا تنقام الله منهم بعذاب لا يعدله عذاب (والله على كل شيء شهيد) وعيد لهم، يعني أنه علم ما فعلوا، وهو مجازيهم عليه.

إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ⑩ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الثَّوْرُ الْكَبِيرُ ⑪

ويجوز أن يريد بالذين فتنوا: أصحاب الأخدود خاصة، وبالذين آمنوا: المطروحين في الأخدود. ومعنى فتنوهم: عذبوهم بالنار وأحرقوهم (فلهم) في الآخرة (عذاب جهنم) بكفرهم (ولهم عذاب الحريق) وهي نار أخرى عظيمة تتسع كما يتسع الحريق بإحراقهم المؤمنين. أولهم عذاب جهنم في الآخرة، ولهم عذاب الحريق في الدنيا، لما روى أن النار انقلبت عليهم فأحرقتهم. ويجوز أن يريد: الذين فتنوا المؤمنين، أي: بلوهم بالأذى على العموم؛ والمؤمنين: المقتولين؛ وأن للمقتولين عذابين في الآخرة: لكفرهم، ولقتلتهم.

إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ⑫ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ ⑬ وَهُوَ الْعَفُورُ

الْوَدُودُ ⑭ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ⑮ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ ⑯

البطش: الأخذ بالعنف؛ فإذا وصف بالشدّة فقد تضاعف وتفاقم؛ وهو بطشه بالجبارة والظلمة، وأخذهم بالعذاب والانتقام (إنه هو يبدى ويعيد) أي يبدى البطش ويعيده. يعني: يبطش بهم في الدنيا وفي الآخرة. أودل باقتداره على الإبداء والاعادة على شدة بطشه. وأوعد الكفرة بأنه يعيدهم كما أبدأهم ليبطش بهم إذ لم يشكروا نعمة الإبداء وكذبوا بالاعادة.

== الحلم عند الغضب قبيحاً. ويجوز أن فاعل الفعلين خير بنى أمية. ويجوز أن الأول لم، والثاني: الناقين. وفيه استتباع المدح بما يشبه الذم للبالغة في المدح، حيث جعل الحلم عند الغضب ذماً، مع أنه غاية في المدح. ويروى ما هم الناس، وعليها فالصراب إسقاط «ين» لأجل الوزن.

وقرى: يبدأ (الودود) الفاعل بأهل طاعته ما يفعله الودود: من إعطائهم ما أرادوا .
وقرى: ذى العرش، صفة لربك . وقرى: المجيد، بالجر صفة للعرش . ومجد الله: عظمته .
ومجد العرش: علوه وعظمته (فعال) خبر مبتدأ محذوف . وإنما قيل: فعال؛ لأن ما يريد
ويفعل في غاية الكثرة^(١) .

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ١٧ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ١٨ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا
فِي تَكْذِيبِ ١٩ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ٢٠ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ٢١
فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ٢٢

(فرعون وثمود) بدل من الجنود . وأراد بفرعون إياه وآله ، كما في قوله (من فرعون
وملئهم) والمعنى: قد عرفت تكذيب تلك الجنود للرسل وما نزل بهم لتكذيبهم (بل الذين
كفروا) من قومك (في تكذيب) أى: تكذيب واستيحاب للعذاب ، والله عالم بأحوالهم
وقادر عليهم وهم لا يعجزونه . والاحاطة بهم من ورائهم: مثل لانهم لا يفوتونه ، كما لا يفوت
فائت الشيء المحيط به . ومعنى الاضراب: أن أمرهم أعجب من أمر أولئك ؛ لانهم سمعوا
بقصصهم وبما جرى عليهم ، ورأوا آثار هلاكهم ولم يعتبروا ، وكذبوا أشد من تكذيبهم
(بل هو) أى بل هذا الذى كذبوا به (قرآن مجيد) شريف على الطبقة فى الكتب وفى
أظمه وإعجازه . وقرى: قرآن مجيد ، بالاضافة ، أى: قرآن رب مجيد . وقرأ يحيى بن يعمر:
فى لوح . واللوح: الهواء^(٢) ، يعنى: اللوح فوق السماء السابعة الذى فيه اللوح (محفوظ)
من وصول الشياطين إليه . وقرى: محفوظ ، بالرفع صفة القرآن .
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: « من قرأ سورة البروج أعطاه الله بعدد كل يوم جمعة
وكل يوم عرفة يكون فى الدنيا عشر حسنات »^(٣) .

(١) قال محمود: «إنما يقال فعال لأن ما يريد ويفعل فى غاية الكثرة» قال أحد: ما قدر الله حق قدره ،
ملا قال: إنه لا قائل إلا هو ، وهل يخالف لذلك إلا مشرك ، ولم أراد الله تعالى على معتقد القدرة من فعل فلم
يفعله ، وهب أنا طرحنا النظر فى مقتضى مبالغة الصيغة ، أليس قد دل بقوله (لما يريد) على عموم فعله فى جميع
مراده ، فأرده إلى الخصوص إلا نكوص عن التخصيص .

(٢) قوله «واللوح الهواء» فى الصحاح «اللوح» بالضم: الهواء بين السماء والأرض . (ع)

(٣) أخرجه الواحدى والتملى وابن مردويه باسنادهم إلى ابن كعب .

سورة الطارق

مكية ، وآياتها ١٧ [نزلت بعد البلد]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ① وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ② النَّجْمُ النَّاقِبُ ③

(النجم الناقب) المضيء ، كأنه يثقب الظلام بضوئه فينفذ فيه ، كما قيل : درى ، لأنه يدرؤه ، أى : يدفعه . ووصف بالطارق ؛ لأنه يبدو بالليل ، كما يقال للآق ليلا : طارق : أو لأنه يطرق الجنى ، أى يصكه . والمراد : جنس النجوم ، أو جنس الشهب التى يرحم بها . فإن قلت : ما يشبه قوله (وما أدراك ما الطارق : النجم الناقب) إلا ترجمة كلمة بأخرى ، فبين لى أى فائدة تحته ؟ قلت : أراد الله عز من قائل : أن يقسم بالنجم الناقب تعظيما له ، لما عرف فيه من عجوب القدرة ولطيف الحكمة ، وأن ينبه على ذلك فجاء بما هو صفة مشتركة بينه وبين غيره ، وهو الطارق ، ثم قال : (وما أدراك ما الطارق ؟) ثم فسره بقوله (النجم الناقب) كل هذا إظهار لفخامة شأنه ، كما قال (فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) روى أن أبا طالب كان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنحط نجم ، فامتلا ما ثم نورا . فجزع أبو طالب وقال : أى شيء هذا ؟ فقال عليه السلام : هذا نجم رى به ، وهو آية من آيات الله ، فعجب أبو طالب ^(١) ، فنزلت .

إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا حَافِظٌ ④

فإن قلت : ما جواب القسم ؟ قلت : (إن كل نفس لما عليها حافظ) لأن «إن» لا تخلو فيمن قرأ لما مشددة ، بمعنى : إلا أن تكون نافية . وفيمن قرأها مخففة على أن «ما» صلة تكون مخففة من الثقيلة ، وأيتما كانت فهى مما يتلقى به القسم ، حافظ مهيم عليها رقيب ، وهو الله عز وجل (وكان الله على كل شيء رقيبا) ، (وكان الله على كل شيء مقبلا) وقيل : ملك يحفظ عملها ويمصى عليها ما تكسب من خير وشر . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم : « وكل بالمؤمن مائة وستون ملكا يذوبون عنه كما يذوب عن قصعة العسل الذباب . ولو وكل العبد إلى نفسه طرفة عين لا اختطفته الشياطين ^(٢) » .

(١) مكثدا ذكره القليل والواحدى بنير إسناد .

(٢) أخرجه الطبرانى من رواية عفير بن معدان عن سالم بن عامر عن أبي أمامة به وأتم منه . وهو ضعيف .

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ نِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ
بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾

فإن قلت : ما وجه اتصال قوله (فليَنْظُرِ) بما قبله ؟ قلت : وجه اتصاله به أنه لما ذكر أن على كل نفس حافظا ، أتبعه توصية الإنسان بالنظر في أول أمره ونشأته الأولى ، حتى يعلم أن من أنشأه قادر على إعادته وجرائه ، فيعمل ليوم الإعادة والجزاء ، ولا يمل على حافظه إلا ما يسره في عاقبته ؛ و (م خلق) استفهام جوابه (خلق من ماء دافق) والدفق : صب شيء دفع . ومعنى دافق : النسبة إلى الدفق الذي هو مصدر دفق ، كاللبن والتامر . أو الاستناد المجازي . والدفق في الحقيقة لصاحبه ، ولم يقل ما من لا متراجهما في الرحم ، واتحادهما حين ابتدئ في خلقه من بين الصلب والترائب من بين صلب الرجل وترائب المرأة : وهى عظام الصدر حيث تكون القلادة . وقرئ : الصلب - بفتحتين ، والصلب بضمهمين . وفيه أربع لغات : صلب ، وصلب ، وصلب وصالب . قال المعجاج : * فِي صُلْبٍ مِثْلِ الْعِنَانِ الْمُؤَدِّمِ * (١)

وقيل : العظم والعصب من الرجل ، واللحم والدم من المرأة .

إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ قَالَهُ مِنْ قُوَّةٍ

وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾

(إنه) الضمير للخالق ، لدلالة خلق عليه . ومعناه : إن ذلك الذي خلق الإنسان ابتداء من نقطة (على رجعه) على إعادته خصوصا (لقادر) لبين القدرة لا يلمات (٢) عليه ولا يعجز عنه . كقوله : إني لفقير (٣) (يوم تبلى) منصوب برجعه ؛ ومن جعل الضمير في (رجعه) للباء

(١) ربا العظام نعمة الخدم في صلب مثل العنان المؤدم

المعجاج . والربا : تأنيث الريان ، أى : لينة العظام ، سمينة محل الخدام وهو الخللخال . والمخدم - بالتشديد - على اسم المفعول . والصلب - بضمهمين ، وبفتحتين ، وبضم فسكون - : عظام الظهر ، والمراد هنا : الخصر . وفى معنى مع ، أى : وصفت هذه الصفات ، منع أن لها خصرا رقيقا لينا ، مثل العنان المؤدم . على اسم المفعول ، أى : المؤلف بالقتل ، يقال : آدم بينهما - بقصر الحمزة وبمدها - : بمعنى ألف وأصلح . أو المفعول له أدمه . أو لين الأدمه - بفتحتين ، وهى الجلدة المدبوعة المصلحة ، من أدمه بالمد : جعل له أدمه . والفضمة بالضم : الضخامة واسترخاء الرجلين . والفضمة - بالفتح - : وصف منه .

(٢) قوله «لا يلمات عليه» فى الصحاح «الثات فى عمله» : أى أبطل . (ع)

(٣) قوله «كقوله إني لفقير» أى لفاقر ، حيث قال :

(ع) لئن كان يهدى برد أنياها لعلى لافقر منى إني لفقير

وقد تقدم شرح هذا المعجم بهذا الجزء صفحة ٢٣ فراجع إن شئت اه مصححه .

وفسره برجمه إلى مخرجه من الصلب والترائب أو الإحليل . أو إلى الحالة الأولى نصب الطرف بمضمرة (السرائر) ما أسرت في القلوب من العقائد والنيات وغيرها ، وما أخفى من الأعمال . وبلاؤها . تعرفها وتصفحها ، والتمييز بين ما طاب منها وما خبت . وعن الحسن أنه سمع رجلاً ينشد :

سَيَنْقِي لَهَا فِي مُضْمَرِ الْقَلْبِ وَالْحَشَا سِرِّيَّةً وَدَّيَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ^(١)

فقال : ما أغفله عما في (والسما والطارق) ؟ (فإله) فما للإنسان (من قوة) من منعة في نفسه يتمتع بها (ولا ناصر) ولا مانع يمنعه .

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرُّجْمِ ^(١١) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ^(١٢) إِنَّهُ يَقُولُ

فَقُلْ ^(١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ^(١٤)

سمى المطر رجماً ، كما سمي أوباً . قال :

رَبَّاهُ شَعَاهُ لَا يَأْوِي إِقْلَمَتُهَا إِلَّا السَّحَابُ وَالْأَوْبُ وَالسَّبِيلُ ^(٢)

تسمية بمصدرى : رجع ، وآب : وذلك أن العرب كانوا يزعمون أن السحاب يحمل الماء من بحار الأرض ، ثم يرجعه إلى الأرض . أو أرادوا التفاؤل فسموه رجماً . وأوباً ، ليرجع ويؤب . وقيل : لأن الله يرجعه وقتاً فوقتاً . قالت الخنساء : كالرجع في المدجنة السارية . والصدع : ما يتصدع عنه الأرض من النبات (إنه) الضمير للقرآن (فصل) فاصل بين

(١) إذا رمته فلها سلوة قال شافع من الحب مبعاد للسلو المقابر

سابق لها في مضمرة القلب والحشا سريرة ود يوم تبلى السرائر

ليجنون بنى عامر صاحب ليلي العامرية . وسلا عنه سلوة وسلاوا : صد عنه وأعرض ، وشبه بعث الحب إياه وحله على دوام المودة بقول القائل على طريق التصريح ، وتسمية الحب شافعاً : ترشيح . ومن بيانية . ويحتمل أنها تجريدية دلالة على أن الحب بلغ نهاية اللذة حتى حل على دوام المودة فانزع منه غيره وأسند له الفعل . ويجوز أنها تبعية دالة على أن بعضه يكفي في الشفاعة . وقوله « المقابر » أي دخولها كناية عن الموت . والمراد : التأيد ، بدليل ما بعده . ومضمرة القلب : المضمرة في القلب . أو مضمرة هو القلب . وتبلى : مبهى للفاعل ، أي : تقى . ويحتمل بناءه للفعل ، أي : تختبر . والحفا : بالفتح - : عطف على القلب أهم منه ، دلالة على أن الحب في غير قلبه أيضاً .

(٢) للفتخل الهزل يرثى ابنه . وقيل : يصف رجلاً بأنه رباء . أي طلاع من ربا وأرتياً : إذا طلع لينظر إلى أمر . ومنه الريبة : وإضافته إلى شفاء من إضافة الوصف لمفعوله : وهي القلعة المرتفعة من الشمم وهو الارتفاع . وقلة الجبل وقته : رأسه وأعلاه . والأوب : النحل ، لأنه يذهب ويؤوب إلى بيته . أو المطر : لأن أصله من بحار الأرض على زعم العرب ، ثم يؤوب إليها . والسبل - بالعريك - : المطر من أسبلت الستر إذا أرسلته وأرخيته ، وعلى أن الأوب بمعنى النحل لا مناسبة بيته قريظة ، وعلى أنه بمعنى المطر ، فالسبل مرادف له .

الحق والباطل، كما قيل له فرقان (وما هو بالهزل) يعنى أنه جد كله لا هوادة فيه. ومن حقه - وقد وصفه الله بذلك - أن يكون مهيباً في الصدور، معظماً في القلوب، بترفع به قارته وسامعه وأن يلهي بهزل أو ينفكه بمزاج، وأن يلقى ذهنه إلى أن يجبار السموات بمخاطبه في أمره وينهاه، ويعده وبوعده، حتى إن لم يستغفره الخوف ولم تتبالغ فيه الخشية، فأدنى أمره أن يكون جازاً غير هازل، فقد نعى الله ذلك على المشركين في قوله (وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون)، (والفوا فيه).

إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ فَمَهْلِكُ الْكَافِرِينَ
أَمْهَلُهُمْ رُوبَدًا ۝١٧

(إنهم) يعنى أهل مكة يعملون المكائد في إبطال أمر الله وإطفاء نور الحق، وأنا أقابلهم بكيدى: من استدراجي لهم وانتظارى بهم الميعات الذى وقته للانتصار منهم (فهل الكافرين) يعنى لا تدع بهلاكهم ولا تستعجل به (أمهلهم رويداً) أى إمهالاً يسيراً؛ وكثر وخالف بين اللفظين لزيادة التسكين منه والتصبير.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «من قرأ سورة الطارق أعطاه الله بعدد كل نجم في السماء عشر حسنات» (١).

سورة الأعلى

مكية، وآياتها ١٩ [نزلت بعد التكوثر]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَبِّحِ آمَنَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ

فَهَدَى ۝٣ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْعَرْصَى ۝٤ فَجَعَلَ خُضَاءً أَنْحْوَى ۝٥
تسبيح اسمه عزو علا: تنزيهه عما لا يصح فيه من المعاني التي هي إلحاد في أسمائه، كالجبر

(١) أخرجه الواحدى والتعللى وابن مردويه بالسند إلى أبى بن كعب .

والتشبيه ونحو ذلك ، مثل أن يفسر الأعلى بمعنى العلو الذي هو القهر والافتقار ، لا بمعنى العلو في المكان والاستواء على العرش حقيقة ؛ وأن يسان عن الابتذال والذكر ، لا على وجه الخشوع والتعظيم . ويجوز أن يكون (الأعلى) صفة للرب ، والاسم ؛ وقرأ على رضى الله عنه : سبحان ربى الأعلى . وفى الحديث لما نزلت : فسمي باسم ربك العظيم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اجعلوها فى ركوعكم ، فلما نزل سجد اسم ربك الأعلى قال : « اجعلوها فى سجودكم »^(١) وكانوا يقولون فى الركوع : اللهم لك ركعت ، وفى السجود : اللهم لك سجدت (خلق فسوى) أى خلق كل شئ فسوى خلقه تسوية ، ولم يأت به متفاوتا غير ملتئم ، ولكن على إحكام واتساق ، ودلالة على أنه صادر عن عالم ، وأنه صنعة حكيم (قدر فهدى) قدر لكل حيوان ما يصلحه ، فهداه إليه وعزفه وجه الانتفاع به . يحكى أن الأفعى إذا أتت عليها ألف سنة عمت ، وقد ألهمها الله أن مسح العين بورق الرازيانج الغض يرد إليها بصرها ، فربما كانت فى برية بينها وبين الریف مسيرة أيام فتطوى تلك المسافة على طولها وعلى عماها حتى تهجم فى بعض البساتين على شجرة الرازيانج لا تخطئها ، فتحك بها عينيها وترجع باصرة بإذن الله . وهدايات الله للإنسان إلى مالا يحده من مصالحه ومالا يحصر من حوائجه فى أغذيته وأدويته ، وفى أبواب دنياه ودينه ، وإلهامات البهائم والطيور وهوام الأرض : باب واسع ، وشوط بطين^(٢) ، لا يحيط به وصف واصف ؛ فسبحان ربى الأعلى . وقرئ : قدر ، بالتخفيف (أحوى) صفة لغناء ، أى (أخرج المرعى) أنبته (لجعله) بعد خضرته ورفيفه (غشاء أحوى) دربنا^(٣) أسود . ويجوز أن يكون (أحوى) حالا من المرعى ، أى : أخرجه أحوى أسود من شدة الخضرة والرى ، فجعله غشاء بعد حوبه .

سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ۖ (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۖ (٧)

بشره الله بإعطاء آية بينة ، وهى : أن يقرأ عليه جبريل ما يقرأ عليه من الوحى وهو أى لا يكتب ولا يقرأ ، فيحفظه ولا ينساه (إلا ما شاء الله) فذهب به عن حفظه برفع حكمه وتلاوته ، كقوله (أو ننسها) وقيل : كان يعجل بالقراءة إذا لقنه جبريل ، فقيل : لا تعجل ، فإن جبريل مأمور بأن يقرأ عليك قراءة مكررة إلى أن تحفظه ؛ ثم لا تنساه إلا ما شاء الله ، ثم تذكره بعد النسيان . أو قال : إلا ما شاء الله ، يعنى : القلة والتدرة ، كما روى أنه أسقط آية فى

(١) أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن حبان وأحمد من رواية إياس بن عامر عن عقبة بن طاهر به .

(٢) قوله «وشوط بطين» أى بعيد أفاده الصحاح . (ع)

(٣) الدرهم : حطام المرعى إذا قدم ، كذا فى الصحاح . (ع)

قراءته في الصلاة ، لحسب أبي أنها نسخت ، فسأله فقال : نسيتم^(١) . أو قال : إلا ما شاء الله ، الغرض نفي النسيان رأسا كما يقول الرجل لصاحبه أنت سيمى فيما أملك إلا فيما شاء الله ولا يقصد استثناء شيء وهو من استعمال القلة في معنى النفي . وقيل : قوله (فلا تنسى) على النهى ، والآلف مزيدة للفاصلة ، كقوله (السبيل) يعنى : فلا تغفل قراءته وتكريره فتنساه ، إلا ما شاء الله أن ينسيكه برفع تلاوته للصلاة (إنه يعلم الجهر) يعنى أنك تجهر بالقراءة مع قراءة جبريل عليه السلام مخافة التفلت ، والله يعلم جهرك معه وما فى نفسك مما يدعوك إلى الجهر ، فلا تفعل ، فأنا أكفيك ما تخافه . أو يعلم ما أسررت وما أعلنت من أقوالكم وأفعالكم ، وما ظهر وبطن من أحوالكم ، وما هو مصلحة لكم فى دينكم ومفسدة فيه ، فينبى من الوحى ما يشاء ؛ ويترك محفوظا ما يشاء .

وَنُيْسِرُكَ لِّلْيَسْرِ ۖ ⑧ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ۖ ⑨ سَوَدَّ كُرٌّ مِّنْ يَّخْشَى ۖ ⑩ وَبَتَّجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ⑪ الَّذِى يُصَلِّى النَّارَ الْكُبْرَى ۖ ⑫
نَمٌ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَخْشَى ⑬

(ونيسرك لليسر) معطوف على (سنقرئك) وقوله (إنه يعلم الجهر وما يخفى) اعتراض ومعناه : ونوفقك للطريقة التى هى أيسر وأسهل ، يعنى : حفظ الوحى^(١) . وقيل للسرعة السمحة التى هى أيسر الشرائع وأسهلها مأخذاً . وقيل : نوفقك لعمل الجنة . فإن قلت : كان الرسول صلى الله عليه وسلم مأموراً بالذكرى نفعت أو لم تنفع ، فما معنى اشتراط النفع ؟ قلت : هو على وجهين ، أحدهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استفرغ مجهوده فى تذكيرهم ، وما كانوا يزيدون على زيادة الذكرى إلا اعتوّأ وطغيانا ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتلظى حسرة وتلهفا ، ويزداد جدّاً فى تذكيرهم وحرصا عليه ، فقل له (وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) ، (وأعرض عنهم وقل سلام) ، (وذكّر إن نفعك الذكرى) وذلك بعد إلزام الحجة بتكرير التذكير . والثانى : أن يكون ظاهره شرطا ، ومعناه ذمّا للذكرين ، وإخباراً عن حالهم ، واستبعاداً لتأثير الذكرى فيهم ، وتسجيلا عليهم بالطبع على قلوبهم ، كما تقول للواعظ : عظ المساكين إن سمعوا منك . قاصدا بهذا الشرط استبعاد ذلك ، وأنه لن يكون (سيذكرك) فيقبل التذكيرة

(١) أخرجه ابن أبى شيبة والذئبى والبخارى فى جزء القراءة . والطبرى من رواية زر عن سعيد بن عبد الرحمن ابن أبى عن أبيه قال : صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الفجر فقرأ آية فذكر الحديث . وأخرجه أبو بشر الدولابى من هذا الوجه فقال : عن سعيد عن أبيه عن أبى بن كعب ... فذكره .

(٢) قوله « يعنى حفظ الوحى » لعله : يعنى فى حفظ الوحى . (ع)

وينتفع بها (من يخشى) الله وسوء العاقبة ، فينظر ويفكر حتى يقوده النظر إلى اتباع الحق : فأما هؤلاء فغير خاشين ولا ناظرين ، فلا تأمل أن يقبلوا منك (ويتجنبها) ويتجنب الذكرى ويتحاماها (الاشقى) الكافر ؛ لأنه أشقى من الفاسق . أو الذى هو أشقى الكفرة لتوغله فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : نزلت فى الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة (النار الكبرى) السفلى من أطباق النار^(١) وقيل (الكبرى) نار جهنم . والصغرى : نار الدنيا . وقيل (ثم) لأن التراجع بين الحياة والموت أفضح من الصلى ، فهو متراخ عنه فى مراتب الشدة : والمعنى : لا يموت فيستريح ، ولا يحيى حياة تنفعه .

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى^(١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى^(١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا^(١٦) وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَنْتُمْ^(١٧)

(تزكى) تطهر من الشرك والمعاصى . أو تطهر للصلاة . أو تكثر من التقوى ، من الزكاة وهو النماء . أو تفعل من الزكاة ، كتصدق من الصدقة (فصلى) أى الصلوات الخمس ، نحو قوله (وأقام الصلاة وآتى الزكاة) وعن ابن مسعود : رحم الله امرأ تصدق وصلى . وعن علي رضي الله عنه أنه التصدق بصدقة الفطر وقال : لا أبالي أن لا أجد فى كتابي غيرها^(٢) ، لقوله (قد أفلح من تزكى) أى أعطى زكاة الفطر ، فتوجه إلى المصلى ، فصلى صلاة العيد ، وذكر اسم ربه فكبر تكبيرة الافتتاح . وبه يحتاج على وجوب تكبيرة الافتتاح ، وعلى أنها ليست من الصلاة لأن الصلاة معطوفة عليها ، وعلى أن الافتتاح جائز بكل اسم من أسمائه عز وجل . وعن ابن عباس رضي الله عنه : ذكر معاده وموقفه بين يدي ربه فصلى له . وعن الضحاك : وذكر اسم ربه فى طريق المصلى فصلى صلاة العيد (بل تؤثرون الحياة الدنيا) فلا تفعلون ما تفعلون به . وقرئ :

(١) قال محمود : «الاشقى : الكافر ، لأنه أشقى من الفاسق . والنار الكبرى : السفلى من أطباق النار» قال أحد : يشير إلى خلود الفاسق مع الكافر فى أسافل النار : والفاسق أعلى منه ، كما تقدم له التمرج بذلك كثيرا .

(٢) قال محمود : «وهن على أنه قال هو التصدق بصدقة الفطر وقال لا أبالي أن لا أجد فى كتابي غيرها ... الخ» قال أحد : فى تلقى هذين الحكيمين الآخرين من الآية تكلف : أما الأول ، فلأن المعطف وإن انقضى المغايرة فيقال بموجها : فنحن إن قلنا إن تكبيرة الاحرام جزء من الصلاة ، فالجزء مغاير للكل ، فلا غرو أن يعطف عليه ، والمغايرة مع الجزئية ثابتة والحالة هذه . وأما الثانى ، فلأن الاسم معرف بالإضافة ، وتعريف الإضافة عهدى عند محقق الفقه . حتى إن القائل إذا قال : جاءنى غلام زيد ، ولويد غلامان ، فأنما نفهم من قوله معينا منهم يسابق عهد بينك وبينه ، هذا مهيح تعريف الإضافة : والمعهود فى افتتاح الصلاة : ما استمر لى صلى الله عليه وسلم على العمل به قولاً وفعلًا : وهو التكبير المعروف ، ولو نزلنا على أنه فى الآية مطلق ، فالخبر فى قوله : تحريمها للتكبير قيد إطلاقه .

يؤثرون ، على الغيبة . ويعضد الأولى قراءة ابن مسعود : بل أنتم تؤثرون (خير وأبقى) أفضل في نفسها وأنعم وأدوم . وعن عمر رضى الله عنه : ما الدنيا في الآخرة إلا كنفخة أرب . (١)

إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٨) مُحَمَّدٌ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (١٩)
(هذا) إشارة إلى قوله (قد أفلح) إلى (أبقى) يعنى أن معنى هذا الكلام وارد في تلك الصحف . وقيل : إلى ما في السورة كلها . وروى عن أبي ذر رضى الله عنه أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : كم أنزل الله من كتاب ؟ فقال : مائة وأربعة كتب ، منها على آدم : عشر صحف ، وعلى شيث : خمسون صحيفة ، وعلى أخنوخ وهو إدريس : ثلاثون صحيفة ، وعلى إبراهيم : عشر صحائف ، والتوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والفرقان (٢) . وقيل إن في صحف إبراهيم ينبنى للعاقل أن يكون حافظا للسانه عارفا بزمانه مقبلا على شأنه . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن قرأ سورة الأعلى أعطاه الله عشر حسنات بعدد كل حرف أنزله الله على إبراهيم وموسى ومحمد (٣) وكان إذا قرأها قال : سبحان ربى الأعلى (٤) وكان على وابن عباس يقولان ذلك ، وكان يحبا (٥) وقال : أول من قال : سبحان ربى الأعلى ، ميكائيل (٦) .

سورة الغاشية

مكية ، وآياتها ٢٦ [نزلت بعد الداريات]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١)

(الغاشية) الداهية التى تغشى الناس بشدائدها وتلبسهم أهوالها . يعنى القيامة . من قوله

- (١) قوله «إلا كنفخة أرب» فى الصحاح «نفخت الأرب» إذا ثارت . (ع)
- (٢) هو مختصر من حديث طويل أخرجه ابن حبان والحاكم . وقد تقدمت الإشارة إليه فى الحج (تفسيه) وقع فيه «على آدم عشر صحائف» والذي عند المذكورين على موسى قبل التوراة عشر صحائف .
- (٣) أخرجه الثعلبى والواحدي وابن مردويه بالسند إلى أبى بن كعب .
- (٤) أخرجه أبو داود والحاكم من طريق سعد بن جبير عن ابن عباس بهذا .
- (٥) أخرجه البزار عن يوسف بن موسى : وركيع عن إسرائيل عن ثور بن إبي فاختة عن أبيه عن هلى بهذا ورواه الواحدي من طريق أحمد بن حنبل وركيع .
- (٦) ذكره الثعلبى عن هلى بنهر إسناده .

(يوم يغشاهم العذاب) وقيل : النار ، من قوله (وتغشى وجوههم النار) ، (ومن فوقهم غواش) (يومئذ) يوم إذ غشيت (خاشعة) ذليلة (عاملة ناصبة) تعمل في النار عملا تنعب فيه ، وهو جرهما السلاسل والأغلال ^(١) ، وخوضها في النار كما تخوض الإبل في الوحل ، وارتقاؤها دائبة في صعود من نار ، وهبوطها في حذور منها . وقيل : عملت في الدنيا أعمال السوء والتذت بها وتنعمت ، فهي في نصب منها في الآخرة . وقيل : عملت ونصبت في أعمال لا تجدى عليها في الآخرة . من قوله (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل) . (وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا أولئك الذين حببط أعمالهم) وقيل : هم أصحاب الصوامع . ومعناه : أنها خشعت لله وعملت ونصبت في أعمالها من الصوم الدائب ، ^(٢) والتهجد الواصب . وقرئ : عاملة ناصبة على الشتم . قرئ : تصلى بفتح التاء . وتصلى بضمها . وتصلى بالتشديد . وقيل : المصلى عند العرب : أن يحفروا حفيرا فيجمعوا فيه جرا كثيرا ، ثم يعمدوا إلى شاة فيدسوها وسطه ، فأما ما يشوى فوق الجرا أو على المقلى أوفى التنور ، فلا يسمى مصليا (آنية) متناهية في الحز ، كقوله (وبين حميم آن) . الضريع . يبيس الشبرق ، وهو جنس من الشوك ترعاه الإبل مادام رطبا ^(٣) ، فإذا يبس تحامته الإبل وهو سم قاتل . قال أبو ذؤيب :

رَعَى الشَّبْرَقَ الرِّيَّانَ حَتَّى إِذَا ذَوَى وَعَادَ صَرِيحًا بَانَ عَنْهُ النَّحَائِصُ ^(٤)

وقال :

وَحُبِّنَ فِي هَزَمِ الضَّرِيعِ فَكُلَّهَا حَدْبَاهُ دَامِمَةُ الْيَدَيْنِ حَرُودُ ^(٥)

(١) قال محمود : وذائلة تعمل في النار عملا تنصب منه وهو جرهما السلاسل ... الخ ، قال أحد : الوجه الأول متعين لأن الظرف المذكور وهو قوله (يومئذ) مقطوع من الجملة المضاف إليها ، تقديرها : يوم إذ غشيت ، وذلك في الآخرة بلا إشكال ، وهو عارف بجميع الصفات المخبر بها ، أعنى : خاشعة عاملة ناصبة ، فكيف يتناول أعمال الدنيا .

(٢) قوله : من الصوم الدائب ، الدائب الواصب كلامها بمعنى الدائم . (ح)

(٣) قال محمود : الضريع : يبيس الشبرق ، وهو جنس من الشوك ترعاه الإبل مادام رطبا ... الخ ، قال أحد : فملى الوجه الأول يكون صفة مخصصة لازمة . ذكرت شارحة لحقيقة الضريع . وعلى الثاني : تكون صفة مخصصة .

(٤) أى : رعى البعير الشبرق الريان ، أى : الشوك الرطب . وذوى يذوى ذويا : ذبل ذبولا . وذوى كرونى أنكروما المجرى ، وأثبتها أبو عبيدة ، أى : حتى إذا جف وصار ضريعا يابسا يفتقع بأن عنه ، أى : بعد عنه النحائص : جمع نحوص وهى الناقة الحائل ، لعلها أنه لا يمن ولا يفتق من جوع .

(٥) لقيس بن عباد . وهزمه - بالزاي - : صدعه ، ومنه : الهزم ، أى : المنكسر . ونافه هزما : بدا عظم وركبها من الهزال . وأما الحرم بالراء فهو الحضر ، وبعير هارم : برعى الحضر . والضريع : نبات حبي =

فإن قلت : كيف قيل (ليس لهم طعام إلا من ضريع) وفي الحاقة (ولا طعام إلا من غسلين) ؟ قلت : العذاب ألوان ، والمعذبون طبقات ؛ فمنهم أكلة الزقوم . ومنهم أكلة الغسلين ، ومنهم أكلة الضريع : (لكل باب منهم جزء مقسوم) . (لا يسمن) مرفوع المحل أو مجروره على وصف طعام . أو ضريع ، يعني : أن طعامهم من شيء ليس من مطاعم الإنس ، وإنما هو شوك والشوك بما ترعاه الإبل وتتولع به . وهذا نوع منه تنفر عنه ولا تقربه . ومنفعة الغذاء منتفيتان عنه : وهما إِمَاطة الجوع ، وإِفَادَة القوة والسمن في البدن . أو أريد : أن لا طعام لهم أصلاً : لأن الضريع ليس بطعام للبهائم فضلاً عن الإنس ؛ لأن الطعام ما أشيع أو أسمن ، وهو منهما بمنزل . كما تقول ليس لفلان ظل إلا الشمس ، تريد : نفي الظل على التوكيد . وقيل : قالت كفار قريش : إن الضريع لتسمن عليه إبلنا فنزلت (لا يسمن) فلا يخلو إما أن يتكذبوا ويتعنوا بذلك وهو الظاهر ، فیرد قولهم بنی السمن والشیع ، وإما أن يصدقوا فيكون المعنى : أن طعامهم من ضريع ليس من جنس ضريعكم ، إنما هو من ضريع غير مسمن ولا مغم من جوع .

وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ② عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ③ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً ④

تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آفِيَةٍ ⑤ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ⑥ لَا يُسْمِنُ وَلَا

يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ⑦ وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ⑧ لِسْعِيهَا رَاضِيَةٌ ⑨

فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ⑩ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لِأَعْوَةٍ ⑪ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ⑫

فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ⑬ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ⑭ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ⑮

وَزَرَّائِلُ مَبْنُوتَةٌ ⑯

(ناعمة) ذات بهجة وحسن ، كقوله (تعرف في وجوههم نضرة النعيم) أو متممة (لسعيا راضية) رضيت بعملها لما رأت ما أدام إليه من الكرامة والثواب (عالية) من علو المكان أو المقدار (لا تسمع) يا مخاطب . أو الوجوه (لاغية) أى لغوا ، أو كلمة ذات لغو . أو نفساً تافوا ، لا يتكلم أهل الجنة إلا بالحكمة وحمد الله على ما رزقهم من النعيم الدائم . وقرئ : لا تسمع : على البناء للمفعول بالتاء والياء ^(١) (فيها عين جارية) يريد عبونا في غاية الكثرة ،

== ذو شوك . والحديد : الاتعاء . والحديداء : المنحنية . وحرد حردا : يبس وشرح ، يقول : حبسنا النوق في مرعى غث متفتت ، فكلمنا منحنية الظهور أو الأرجل من الهزال ، دامية اليدين من الهوك ، قلبة اللبن .

(١) قوله د على البناء للمفعول بالتاء والياء ، أى : ولاغية : بالرفع فهما . (ع)

كقوله (علت نفس) . (مرفوعة) من رفعة المقدار أو السمك ، ليرى المؤمن يجلسه عليه جميع ما خوله ربه من الملك والنعيم . وقيل : مخبوءة لهم ، من رفع الشيء إذا خبأه (موضوعة) كلما أرادوها وجدوها موضوعة بين أيديهم عتيقة حاضرة ، لا يحتاجون إلى أن يدعوا بها . أو موضوعة على حافات العيون معدة للشرب . ويجوز أن يراد : موضوعة عن حد السكبار ، أو ساط بين الصغير والكبر ، كقوله (قدروها تقديرا) . (مصفوفة) بعضها إلى جنب بعض . مساند ومطارح ، ^(١) أيما أراد أن يجلس على مسورة واستند إلى أخرى (وزراني) وبسط عراض فاخرة . وقيل : هي الطنافس التي لها خمل رقيق . جمع زربية (مبشوة) مبسطة . أو مفرقة في المجالس .

أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ^(١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ^(١٨)
وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ^(١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِّعَتْ ^(٢٠) فَذَكِّرْ
إِنَّمَأَنْتَ مُذَكِّرٌ ^(٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ^(٢٢) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ^(٢٣)
فَعَذَابُ اللَّهِ أَلَمٌ أَلْبَسَ ^(٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابُكُمْ ^(٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا
حِسَابُكُمْ ^(٢٦)

(أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت) نظر اعتبار (كيف خلقت) خلقا عجيبا ، دالا على تقدير مقدر ، شاهدا يتدبر مدبر ، حيث خلقها للنهوض بالاثقال وجرها إلى البلاد الشاحطة ^(١) فجعلها تترك حتى تحمل عن قرب ويسر ، ثم تنهض بما حملت ، ويخترها متفاداة لكل من اقتادها بأزقتها : لا تعاز ضعيفا ولا تمانع صغيرا ، وبرأها طوال الاعناق لتتوه بالأوقار . وعن بعض الحكماء . أنه حدث عن البعير وبديع خلقه ، وقد نشأ في بلاد لإبل بها ، ففكر ثم قال : يوشك أن تكون طوال الاعناق ، وحين أراد بها أن تكون سفائن البر صبرا على احتمال العطش ؛ حتى إن أظماها ^(٢) لترفع إلى العشر فصاعدا ، وجعلها ترعى كل شيء نابت في البراري والمغاز بما لا يرعاه سائر البهائم . وعن سعيد بن جبير قال : لقيت شريحا القاضي فقلت : أين تريد ؟ قال :

(١) قوله ، مساند ومطارح ، عبارة النسي . وسائدة وقوله . هل مسورة عبارة النسي . على موسدة . (ع)

(٢) قوله إلى البلاد الشاحطة ، أي البعيدة . أفاده الصحاح . (ع)

(٣) قوله حتى إن أظماها ، في الصحاح . د الظم . ما بين الوردتين : وهو حبس الإبل عن الماء إلى

غاية الورد ، والجمع : الأظماء . (ع)

أريد الكناسة: قلت: وما تصنع بها؟ قال: أنظر إلى الإبل كيف خلقت. فإن قلت: كيف حسن ذكر الإبل مع السماء والجبال والأرض ولا مناسبة؟ قلت: قد انتظم هذه الأشياء نظر العرب في أوديتهم وبواديهم؛ فانظمتها الذكر على حسب ما انتظمها فظروهم، ولم يدع من زعم أن الإبل السحاب إلى قوله: إلا طلب المناسبة، ولعله لم يرد أن الإبل من أسماء السحاب، كالنعام والمزن والرباب والغيم والغين، وغير ذلك، وإنما رأى السحاب مشبها بالإبل كثيرا في أشعارهم، فجوز أن يراد بها السحاب على طريق التشبيه والمجاز (كيف رفعت) رفعا بعيد المدى بلامساك وبغير عمد. و(كيف نصبت) نصبا ثابتا، فهي راسخة لا تميل ولا تزول. و(كيف سطحت) سطحا بتمهيد وتوطئة، فهي مهاد للثقل عليها. وقرأ على بن أبي طالب رضي الله عنه: خلقت، ورفعت؛ ونصبت، وسطحت: على البناء للفاعل وتاء الضمير، والتقدير: فعلتها. حذف المفعول. وعن هرون الرشيد أنه قرأ: سطحت بالشديد، والمعنى: أفلا ينظرون إلى هذه المخلوقات الشاهدة على قدرة الخالق، حتى لا يشكروا اقتداره على البعث فيسمعوا إنذار الرسول صلى الله عليه وسلم ويؤمنوا به ويستعدوا للقاءه. أى: لا ينظرون، فذكرهم ولا تلح عليهم، ولا يهمنك أنهم لا ينظرون ولا يذكرون (إنما أنت مذكر) كقوله (إن عليك إلا البلاغ). (لست عليهم بمسيطر) بمساطر، كقوله (وما أنت عليهم بجبار) وقيل: هو في لغة تميم مفتوح الطاء؛ على أن سيطر، متعد عندهم. وقولهم: تسيطر، يدل عليه (إلا من تولى) استثناء منقطع، أى: لست بمستول عليهم، ولكن من تولى (وكفر) منهم؛ فإن الله الولاية والقهر. فهو يعذبه (العذاب الأكبر) الذى هو عذاب جهنم. وقيل: هو استثناء من قوله (فذكر) أى: فذكر إلا من انقطع طمعك من إيمانه وتولى، فاستحق العذاب الأكبر وما بينهما اعتراض. وقرئ: إلا من تولى، على التثنية. وفي قراءة ابن مسعود: فإنه يعذبه: وقرأ أبو جعفر المدني: إياهم، بالشديد. ووجهه أن يكون «فيعالا» مصدر «أيب»، فيعمل من الإياب. أو أن يكون أصله أوابا: فعلا من أوب، ثم قيل: إيوابا كديوان في دوان، ثم فعل به ما فعل بأصل: سيد وميت. فإن قلت: ما معنى تقديم الظرف؟ قلت: معناه التشديد في الوعيد، (١) وأن إياهم أيس إلا إلى الجبار المقتدر على الانتقام، وأن حسابهم ليس بواجب إلا عليه، وهو الذى يحاسب على التقدير والقطمير. ومعنى الوجوب: الوجوب فى الحكمة. عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «من قرأ سورة الغاشية حاسبه الله حسابا يسيرا»، (٢)

(١) قال محمود: «إن قلت: ما معنى تقديم الظرف؟ وأجاب بأن معناه تشديد فى الوعيد... الخ، قال أحمد: ومعنى (ثم) الدلالة على أن الحساب أشد من الإياب، لأنه موجب العذاب وبادوته.

(٢) أخرجه الواحدى والنسائي وابن مردويه بالاسناد إلى أبى بن كعب.

سورة الفجر

مكية ، وآياتها ٣٠ وقيل ٢٩ [نزلت بعد الليل]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ ١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ٣ وَالْأَفْلِ إِذَا بَسَرٍ ٤

هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حَبْرِ ٥

أقسم بالفجر كما أقسم بالصبح في قوله (والصبح إذا أسفر) ، (والصبح إذا تنفس) . وقيل : بصلاة الفجر . أراد بالليالي العشر : عشر ذى الحجة . فإن قلت : فما بالها منكبة من بين ما أقسم به ؟ قلت : لأنها ليال مخصوصة من بين جنس الليالي : العشر بعض منها . أو مخصوصة بفضيلة ليست لغيرها . فإن قلت : فهلا عرفت بلام العهد ، لأنها ليال معلومة معهودة ؟ قلت : لو فعل ذلك لم تستغل بمعنى الفضيلة الذي في التشكير ؛ ولأن الأحسن أن تكون اللامات متجانسة ، ليكون الكلام أبعد من الالغاز والتعمية . وبالشفع والوتر : إما الأشياء كلها شفعها ووترها ؛ وإما شفع هذه الليالي ووترها . ويجوز أن يكون شفعها يوم النحر ، ووترها يوم عرفة ، لأنه تاسع أيامها وذاك عاشرها ، وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه فسرهما بذلك .^(١) وقد أكثروا في الشفع والوتر حتى كادوا يستوعبون أجناس ما يقعان فيه ، وذلك قليل الطائل ، جدير بالتلهي عنه ، وبعد ما أقسم بالليالي المخصوصة أقسم بالليل على العموم (إذا بسر) إذا يمضى ؛ كقوله (والليل إذا أدبر) ، (والليل إذا عسعس) . وقرئ : والوتر بفتح الواو ، وهما لغتان كالخبر والخبر في العدد ، وفي الترة : الكسر وحده^(٢) . وقرئ : الوتر بفتح الواو وكسر التاء : رواها يونس عن أبي عمرو ، وقرئ : والفجر ، والوتر ، ويسر : بالتثنية ، وهو التثنية الذي يقع بدلا من حرف الإطلاق . وعن ابن عباس : وليال عشر ، بالإضافة . يريد : وليال أيام عشر . وباء (بسر) تحذف في الدرج ، اكتفاء عنها بالكسرة . وأما في الوقف فتحذف مع

(١) (قلت) : التحليل من كلام العنبري . وأصله عند اللساني واحد والبرار والمحاكم واليهيقي في الشعب الثالث والعشرين من رواية خير بن نعم عن أبي الزبير عن جابر . قال : لا نطله إلا بهذا الاسماء .

(٢) قوله : وفي الترة الكسر وحده ، في الصحاح « الموتر » الذي قتل له قبيح فلم يدرك بدنه ؛ تقول : وتره وتره وتره ، وكذلك : وتره حقه ، أي : نفسه . (ع)

الكسرة . وقيل : معنى « يسرى » يسرى فيه ﴿ هل في ذلك ﴾ أى فيها أقسمت به من هذه الاشياء (قسم) أى مقسم به ﴿ لذى حجر ﴾ يريد : هل يحق عنده أن تعظم بالإقسام بها . أو : هل فى إقسامى بها لذى حجر ، أى : هل هو قسم عظيم يؤكد بمثله المقسم عليه . والحجر : العقل ؛ لأنه يحجر عن التفات فيما لا ينبغي ، كما سعى عقلا ونهية ؛ لأنه يعقل وينهى . وحصة : من الإحصاء وهو الضبط . وقال الفراء : يقال : إنه لذو حجر ، إذا كان قاهراً لنفسه ضابطاً لها ؛ والمقسم عليه محذوف وهو « ليعذب » يدل عليه قوله (ألم تر) إلى قوله (فصب عليهم ربك سوط عذاب)

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَتَمُودَ الَّذِي جَابُوا الصَّخَرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْأَعْيُنِ ﴿١٤﴾

قيل لعقب عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عاد ، كما يقال لبنى هاشم : هاشم . ثم قيل للأولين منهم عاد الأولى وإرم ، تسمية لهم باسم جدتهم ، ولمن بعدهم : عاد الأخيرة . قال ابن الرقيات :
مَجْدًا تَلِيدًا بَنَاهُ أَوَّلُهُ أَذْرَكَ عَادًا وَقَبْلَهَا إِرَمًا ^(١)

فإرم فى قوله ﴿ بعاد إرم ﴾ عطف ببيان لعاد . وإيدان بأنهم عاد الأولى القديمة . وقيل (إرم) بلدتهم وأرضهم التى كانوا فيها ويدل عليه قراءة ابن الزبير : بعاد إرم ، على الإضافة . وتقديره : بعاد أهل إرم ، كقوله (واسأل القرية) ولم تنصرف قبيلة كانت أو أرضاً للتعريف والتأنيث . وقرأ الحسن : بعاد أرم ، مفتوحتين . وقرئ : بعاد إرم ، بسكون الراء على التخفيف ، كما قرئ : بورقكم . وقرئ : بعاد إرم ذات العماد ، بإضافة إرم إلى ذات العماد . والإرم : العلم ، يعنى : بعاد أهل أعلام ذات العماد . و ﴿ ذات العماد ﴾ اسم المدينة . وقرئ : بعاد إرم ذات العماد ، أى جعل الله ذات العماد رمياً بدلاً من فعل ربك ؛ وذات العماد إذا كانت صفة للقبيلة ، فالمعنى : أنهم كانوا بدويين أهل عمد . أو طوال الأجسام على تشبيه قدودهم بالأعمدة . ومنه قولهم : رجل معمد وعمدان : إذا كان طويلاً . وقيل : ذات البناء الرفيع ، وإن كانت صفة

(١) لابن الرقيات ، يصف رجلاً بأنه حاز مجداً تليداً . أى : قديماً . وشبهه بالحصل المبني على طريق المكينة وبناء مخيل ، أى شرعه وجدده أوله ، أى : آياؤه الأولون : أدرك هذا المجد من حدود المدح عاداً وإرم قبله أى : قبل عاد ، لأنه عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح ، فعقب عاد هذا : هم عاد الأولى ، ومن بعدهم : عاد الثانية .

للبلدة فالمعنى : أنها ذات أساطين . وروى أنه كان لمعاد اثنتان : شداد وشديد ؛ فلما كاه وقهرا ، ثم مات شديد وخلص الأمر لشداد ، فلك الدنيا ودانت له ملوكها ، فسمع بذكر الجنة فقال : أبنى مثلها ، فبنى إرم في بعض صحارى عدن في ثلثمائة سنة ، وكان عمره تسعمائة سنة ؛ وهى مدينة عظيمة قصورها من الذهب والفضة ، وأساطينها من الزرجد والياقوت . وفيها أصناف الأشجار والأنهار المطردة ؛ ولما تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته ؛ فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا . وعن عبد الله بن قلابه : أنه خرج في طلب إبل له ، فوقع عليها ، فحمل ما قدر عليه مما ثم ، وبلغ خبره معاوية فاستحضره ، فقص عليه ، فبعث إلى كعب فسأله فقال : هى إرم ذات العماد ^(١) ، وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عقبه خال ، يخرج في طلب إبل له ؛ ثم التفت فأبصر ابن قلابه فقال : هذا والله ذلك الرجل (لم يخلق مثلها) مثل عاد (في البلاد) عظم أجرام وقوة ، كان طول الرجل منهم أربعمائة ذراع ، وكان يأقى الصخرة العظيمة فيحملها فيلقبها على الحمى فهلسمهم ، أولم يخلق مثل مدينة شدآد في جميع بلاد الدنيا . وقرأ ابن الزبير : لم يخلق مثلها ، أى : لم يخلق الله مثلها (جاءوا الصخر) قطعوا صخر الجبال واتخذوا فيها بيوتا ، كقوله (وتنتحون من الجبال بيوتا) قيل : أول من نحت الجبال والصخور والرخام : ثمود ، وبنوا ألفا وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة . قيل له : ذو الأوتاد ، لكثرة جنوده ومضاربهم التى كانوا يضربونها إذا نزلوا ، أو لتعذيبه بالأوتاد ، كما فعل بماشطة بنته وبآسية (الذين طفوا) أحسن الوجوه فيه أن يكون فى محل النصب على الدم . ويجوز أن يكون مرفوعا على : هم الذين طفوا . أو مجرورا على وصف المذكورين عاد وثمود وفرعون . يقال : صب عليه السوط وغشاه وقنعه ، وذكر السوط : إشارة إلى أن ما أحله بهم فى الدنيا من العذاب العظيم بالقياس إلى ما أعد لهم فى الآخرة ، كالسوط إذا قبس إلى سائر ما يعذب به . وعن عمر بن عبيد : كان الحسن إذا أتى على هذه الآية قال : إن عند الله أسواطا كثيرة ، فأخذهم بسوط منها . المرصاد : المكان الذى يترتب فيه الرصد ومفعال ، من رصده . كالملاقات من وقته . وهذا مثل لإرصاده العصاة بالعقاب ، وأنهم لا يفوتونه . وعن بعض العرب أنه قيل له : أين ربك ؟ فقال : بالمرصاد . وعن عمرو بن عبيد رحمه الله أنه قرأ هذه السورة عند بعض الظلمة حتى بلغ هذه الآية فقال : إن ربك لبالمرصاد يا فلان ، عرض له فى هذا النداء بأنه بعض من توعد بذلك من الجبابرة ، فنهذه أى أسد

(١) أخرجه الثعلبي من طريق عثمان الدارمي عن عبد الله بن أبي صالح عن أبي ليمية عن خالد بن أبي عمران عن وهب بن مغيرة عن عبد الله بن قلابه أنه خرج في طلب إبل له فمردت فذكره مطولا . قلت : آثار الوضع عليه لا تحصى .

فَإِنْ كَانَ بَيْنَ ثَوْبَيْهِ ، يَدَقُّ الظِّلَّةُ بِإِنْكَارِهِ ، وَيَقْصَعُ أَهْلُ الْأَهْوَاءِ ^(١) ، وَالدُّعَى بِاحْتِجَاجِهِ .

فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ^(١٥)

وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ^(١٦)

فَإِنْ قُلْتُ : بِمِ اتَّصَلَ قَوْلُهُ ^(١٥) (فَأَمَّا الْإِنْسَانُ) ؟ قُلْتُ : بِقَوْلِهِ (إِنَّ رَبِّكَ لَبَاسِرٌ) كَأَنَّهُ قِيلَ : إِنَّ اللَّهَ لَا يَرِيدُ مِنَ الْإِنْسَانِ إِلَّا الطَّاعَةَ وَالسَّعْيَ لِلْعَاقِبَةِ ، وَهُوَ مَرَصِدٌ بِالْعُقُوبَةِ لِلْعَاصِي ؛ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ فَلَا يَرِيدُ ذَلِكَ وَلَا يَهْمُهُ إِلَّا الْعَاجِلَةُ وَمَا يَلْذُو وَيَنْعَمُ فِيهَا . فَإِنْ قُلْتُ : فَكَيْفَ تَوَازَنَ قَوْلُهُ ، فَأَمَّا الْإِنْسَانُ ، (إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ) وَقَوْلُهُ (وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ) ^(١٦) وَحَقُّ التَّوَازُنِ أَنْ يَتَقَابَلَ الْوَاقِعَانِ بَعْدَ أَمَّا وَأَمَّا ، تَقُولُ : أَمَّا الْإِنْسَانُ فَيَكْفُرُ ، وَأَمَّا الْمَلِكُ فَيُشْكِرُ . أَمَّا إِذَا أَحْسَنْتَ إِلَى زَيْدٍ فَهُوَ عَمَّنْ إِلَيْكَ ؛ وَأَمَّا إِذَا أَسَأْتَ إِلَيْهِ فَهُوَ مَسِيءٌ إِلَيْكَ ؟ قُلْتُ : هُمَا مُتَوَازِنَانِ مِنْ حَيْثُ إِنَّ التَّقْدِيرَ : وَأَمَّا هُوَ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ ؛ وَذَلِكَ أَنْ قَوْلَهُ (فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ) خَبَرُ الْمُبْتَدَأِ الَّذِي هُوَ الْإِنْسَانُ ، وَدُخُولُ الْفَاءِ لِمَا فِي «أَمَّا» مِنْ مَعْنَى الشَّرْطِ ، وَالظَّرْفُ الْمَتَوَسِّطُ بَيْنَ الْمُبْتَدَأِ وَالْخَبَرِ فِي تَقْدِيرِ التَّأْخِيرِ ، كَأَنَّهُ قِيلَ : فَأَمَّا الْإِنْسَانُ فَقَاتِلْ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَقَدْ ابْتَلَاهُ ، فَجَوَّبَ أَنْ يَكُونَ (فَيَقُولُ) الثَّانِي خَبَرَ الْمُبْتَدَأِ وَاجِبٌ تَقْدِيرُهُ . فَإِنْ قُلْتُ : كَيْفَ سَمِيَ كُلَا الْأَمْرَيْنِ مِنْ بَسْطِ الرِّزْقِ وَتَقْدِيرِهِ ابْتِلَاءً ؟ قُلْتُ : لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا اخْتِبَارٌ لِلْعَبْدِ ، فَإِذَا بَسَطَ لَهُ فَقَدْ اخْتَبَرَ حَالَهُ أَشْكُرَ أَمْ يَكْفُرُ ؟ وَإِذَا قَدَّرَ عَلَيْهِ فَقَدْ اخْتَبَرَ حَالَهُ أَيْصِرَ أَمْ يَجْرِعُ ؟ فَالْحِكْمَةُ فِيهِمَا وَاحِدَةٌ . وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى (وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً) . فَإِنْ قُلْتُ : هَلَا قَالَ : فَأَهَانَهُ وَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ، كَمَا قَالَ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ ؟ قُلْتُ : لِأَنَّ الْبَسْطَ إِكْرَامٌ مِنَ اللَّهِ لِعَبْدِهِ بِإِنْعَامِهِ عَلَيْهِ مُتَفَضِّلًا مِنْ غَيْرِ سَابِقَةٍ ^(١) ، وَأَمَّا التَّقْدِيرُ فَلَيْسَ بِإِهَانَةٍ لَهُ ؛ لِأَنَّ الْإِخْلَالَ بِالْتَفَضُّلِ لَا يَكُونُ إِهَانَةً ، وَلَكِنْ تَرْكًا لِلْكَرَامَةِ ، وَقَدْ يَكُونُ الْمَوْلَى مَكْرَمًا لِعَبْدِهِ وَمُهَيَّنًا ، وَغَيْرَ مَكْرَمٍ وَلَا مُهَيَّنٍ ؛ وَإِذَا أَهْدَى لَكَ زَيْدٌ هَدِيَّةً قُلْتُ : أَكْرَمَنِي بِالْهَدِيَّةِ ، وَلَا تَقُولُ : أَهَانَنِي

(١) قوله «ويقصع أهل الأهواء» في الصحاح «قصعت الرجل» صفرته وحقرته . (ج)

(٢) قال محمود : «إِنْ قُلْتُ : كَيْفَ اتَّصَلَ قَوْلُهُ (فَأَمَّا الْإِنْسَانُ) بِمَا قَبْلَهُ ... الخ» قَالَ أَحَدٌ : قَوْلُهُ لَا يَرِيدُ مِنَ الْإِنْسَانِ إِلَّا الطَّاعَةَ وَلَا يَأْمُرُهُ إِلَّا بِهَا : فَاحَدُ الصَّدَرِ ، مَبْنًى عَلَى أَصْلِهِ الْفَاسِدُ ، سَلِيمُ الْعَجْزِ .

(٣) قَالَ محمود : «وَأَنْ قُلْتُ كَيْفَ تَوَازَنَ قَوْلُهُ (فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ) وَقَوْلُهُ (وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ) قَالَ أَحَدٌ : يَرِيدُ أَنَّهُ صَدْرُ مَا يَبْدُو أَمَّا الْأَوَّلَى بِالْأَسْمِ ، وَمَا يَبْدُو أَمَّا الثَّانِيَّةُ بِالْفِعْلِ . وَهَذَا صَوْدُ السَّائِلِ أَنْ يَكُونَ مَصْدَرِيَّةً : [مَا بِهَاسِينَ أَوْ بِفَعْلِينَ] .

(٤) قَالَ محمود : «وَأَنْ قُلْتُ هَلَا قَالَ فَأَهَانَهُ وَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ، كَمَا قَالَ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ ؟ وَاجِبٌ أَنْ الْبَسْطَ إِكْرَامٌ مِنَ اللَّهِ تَمَالَى لِلْعَبْدِ مِنْ غَيْرِ سَابِقَةٍ » قَالَ أَحَدٌ : «فَقَدْ زَائِدٌ تَفْرِيعًا عَلَى أَصْلِهِ الْفَاسِدِ ، وَالْحَقُّ أَنْ كُلُّ نِعْمَةٍ مِنْ أَفْئِدَةٍ كَذَلِكَ .

ولا أكرمني إذا لم يهد لك . فإن قلت : فقد قال (فأكرمه) فصحيح إكرامه وأثبتته ، ثم أنكر قوله (ربّي أكرمن) وذمه عليه ، كما أنكر قوله (أهانن) وذمه عليه . قلت : فيه جوابان ، أحدهما : أنه إنما أنكر قوله ربّي أكرمن وذمه عليه ، لأنه قال على قصد خلاف ما صححه الله عليه وأثبتته ، وهو قصده إلى أن الله أعطاه ما أعطاه إكراماً له مستحقاً مستوجباً على عادة افتخارهم وجلالة أقدارهم عندهم ، كقوله (إنما أوتيته على علم عندي) ^(١) وإني أعطاه الله على وجه التفضل من غير استيجاب منه له ولا سابقة بما لا يعتد الله إلا به ، وهو التقوى دون الأنساب والأحساب التي كانوا يفتخرون بها ويرون استحقاق الكرامة من أجلها . والثاني : أن ينساق الإنكار والذم إلى قوله (ربّي أهانن) يعني أنه إذا تفضل عليه بالخير وأكرم به اعترف بتفضل الله وإكرامه ، وإذا لم يتفضل عليه سمى ترك التفضل هواناً وليس هواناً ، ويعضد هذا الوجه ذكر الإكرام في قوله (فأكرمه) ^(٢) وقرئ : فقدر بالتخفيف والتشديد . وأكرمن ، وأهانن : يسكون النون في الوقف ، فيمن ترك الباء في الدرج مكتفياً منها بالكسرة .

كَلَّا بَلْ لَأَنْكُرِيَنَّ مُوْنِ الْيَتِيمِ ^(١٧) وَلَا تَحَاضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ ^(١٨)
وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثِ أَكْلًا لَمًّا ^(١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ^(٢٠)

(كلا) ردع للإنسان عن قوله . ثم قال : بل هناك شر من القول ^(٣) . وهو : أن الله يكرمهم بكثرة المال ، فلا يؤدّون ما يلزمهم فيه من إكرام اليتيم بالتفقد والمبرة ، وحض أهله

(١) قال محمود : « فإن قلت : فقد قال فأكرمه فصحيح إكرامه وأثبتته ، ثم أنكر قوله ربّي أكرمن وذمه عليه كما أنكر قوله ربّي أهانن وذمه عليه ، وأجاب بأمرين ، أحدهما أن المنكر عليه اعتقاده أن إكرام الله تعالى له عن استحقاق لمكان نبيه وحبه وجلالة قدره ، كما كانوا يعتقدون الاستحقاق بذلك على الله ، كما قال : « إنما أوتيته على علم » قال أحمد : « والقدرى لا يبعد عن ذلك ، لأنه يرى أن اليتيم الأعظم في الآخرة حق للعبد على الله واجب له عليه ليس بتفضل ولا بمنون . »

(٢) قال محمود : « والثاني أن سياق الإنكار والذم إلى قوله (ربّي أهانن) يعني أنه إذا تفضل عليه بالخير اعترف بتفضل الله تعالى ، وإذا لم يتفضل عليه سمى ترك التفضل هواناً وليس هواناً ، ويعضد هذا الوجه ذكر الإكرام في قوله فأكرمه ، قال أحد : كأنه يجعل قوله (فأكرمه) توطئة لذمه على قوله (أهانن) لأنه مذموم معه ، قال محمود : « إنما أحزب عن الأول للإشعار بأن هنا ما هو أشد من القول الأول ... الخ » قال أحد :

وفي هذه الآية إشعار بإبطال الجواب الثاني من جوابي الزمخشري ؛ فإنه جعل قوله (أكرمن) غير مذموم ، ودلت هذه الآية على أن المعنى أن للكرم باليسر بالرزق سالتين ، إحداهما : اعتقاده أن إكرام الله له عن استحقاق ، والثانية أشد من الأولى : وهي أن لا يعترف بالإكرام أصلاً ، لأنه يفعل أفعال جاحدى النعمة ، فلا يؤدى حق الله الواجب عليه في المال من إطعام اليتيم والمساكين .

على طعام المسكين ويأكلونه أكل الانعام، ويحبونه فيشحنون به وقرئ: يكرمون، وما بعده بالياء والتاء. وقرئ: تحاضون، أى: يحض بعضهم بعضاً: وفي قراءة ابن مسعود: ولا تحاضون بضم التاء، من المحاضنة (أكلوا) ذالم وهو الجمع بين الحلال والحرام. قال الخطيب:

إِذَا كَانَ لَمَّا يَبْسَعُ الدَّمُ رَبَّهُ فَلَا قَدَسَ الرَّحْمَنُ تِلْكَ الطَّلَاحِنَا (٢)

يعنى: أنهم يجمعون في أكلهم بين نصيبهم من الميراث ونصيب غيرهم. وقيل: كانوا لا يوزنون النساء ولا الصبيان، ويأكلون تراثهم مع تراثهم. وقيل: يأكلون ما جمعه الميت من الظلة، وهو عالم بذلك فلم في الأكل بين حلاله وحرامه. ويجوز أن يذم الوارث الذي ظفر بالمال سهلاً مهلاً، من غير أن يعرق فيه جيبته، فيسرف في إنفاقه، ويأكله أكلاً واسعاً جامعاً بين ألوان المشتبهات من الأطعمة والأشربة والفواكه، كما يفعل الوزات البطالون (حباً جماً) كثيراً شديداً مع الحرص والشره ومنع الحقوق.

كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِئَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (٢٣) يَقُولُ يَسْأَلْنِي قَدَمَتُ لِحْمَاتِي (٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا (٢٥) وَلَا يُؤْتِي وَثْقَهُ أَحَدًا (٢٦)

(كلا) ردع لهم عن ذلك وإنكار لفعالهم. ثم أتى بالوعيد وذكر تحسرهم على ما فرطوا فيه حين لا تنفع الحسرة؛ ويومئذ بدل من (إذا دكت الأرض) وعامل النصب فيهما يتذكر (دكا دكا) دكا بعد دك. كقوله: حسبته بابا بابا، أى: كثر عليها الدك حتى عادت هباء منبثا. فإن قلت: ما معنى إسناد المجيء إلى الله، والحركة والانتقال إنما يجوزان على من كان في جهة قلت: هو تمثيل لظهور آيات اقتداره وتبين آثار قهره وسلطانه: مثلت حاله في ذلك بحال الملك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من آثار الهيبة والسياسة ما لا يظهر بحضور عساكره كلها ووزرائه وخواصه عن بكرة أبيهم (صفاً صفاً) ينزل ملائكة كل سماء فيصطفون صفاً بعد صف محدقين بالجن والإنس (وجيء يومئذ بجهنم) كقوله (وبرزت الجحيم) وروى أنها لما

(١) الخطيب. والم: الجمع بين الحلال والحرام من غير فرق. وروى «ربه» بدل «أمله» والطواحين: الأضراس. وتسمى: الأضراس جمع رحي، يقول: إذا كان الأكل جمعا، أى: إذا جمع بين الخبيث والطيب يتبع صاحبه الذم، فلا طهر الله تلك الأضراس التي تطحن ذلك المأكول؛ والباء عليها: دعا، على صاحبها.

نزلت تغيير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرف في وجهه حتى اشتد على أصحابه ، فأخبروا علياً رضى الله عنه ، فجاء فاحتضنه من خلفه وقبله بين عاتقيه ؛ ثم قال : يا نبي الله ، بأني أنت وأمي ما الذى حدث اليوم ، وما الذى غيرك ؟ فتلا عليه الآية . فقال على : كيف يجاء بها ؟ قال : يجيئ بها سبعون ألف ملك يقودونها بسبعين ألف زمام ، فتشرد شرده لو تركت لأحرقت أهل الجحيم ^(١) . أى يتذكر ما فُوت فيه ، أو يتعظ (وأنى له الذكرى) ومن أين له منفعة الذكرى ، لا بد من تقدير حذف المضاف ، وإلا فبين : يوم يتذكر ، وبين (وأنى له الذكرى) تناف وتناقض (قدمت لحياتي) هذه ، وهى حياة الآخرة . أو وقت حياى فى الدنيا ، كقولك : جنته لعشر لبال خلون من رجب ؛ وهذا أين دليل على أن الاختيار كان فى أيديهم ومعلقا بقصدهم وإرادتهم ، وأنهم لم يكونوا محجوبين عن الطاعات مجبرين على المعاصى ، كذهب أهل الأهواء ^(٢) والبدع ، وإلا فامعنى التحسر ؟ قرئ : بالفتح ، يعذب ويرثق . وهى قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن أبى عمرو أنه رجع إليها فى آخر عمره . والضمير الإنسان الموصوف . وقيل هو أبى بن خلف أى لا يعذب أحد مثل عذابه ، ولا يوثق بالسلاسل والأغلال مثل وثاقه ؛ لتناهيه فى كفره وعناده ، أو لا يحمل عذاب الإنسان أحد ، كقوله (ولا تزر وازرة وزر أخرى) وقرئ بالسكسر ، والضمير لله تعالى ، أى : لا يتولى عذاب الله أحد : لأن الأمر لله وحده فى ذلك اليوم . أو للإنسان ، أى : لا يعذب أحد من الزبانية مثل ما يعذبونه .

يَأْتِيَتَهَا النَّفْسُ الْمَطْمَئِنَّةُ ٢٧ أَرْجِمْنِي إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ٢٨

فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ٢٩ وَادْخُلِي جَنَّتِي ٣٠

(يا أيتها النفس) على إرادة القول ، أى : يقول الله للمؤمن (يا أيتها النفس) إما أن يكلمه إكراماً له كما كلم موسى صلوات الله عليه ، أو على لسان ملك . و(المطمئنة) الآمنة التى لا يستفزها خوف ولا حزن ، وهى النفس المؤمنة أو المطمئنة إلى الحق التى سكنتها تلج البقين فلا يتحاجلها شك ، ويشهد للتفسير الأول : قراءة أبى بن كعب : يا أيتها النفس الآمنة المطمئنة . فإن قلت : متى يقال لها ذلك ؟ قلت : إما عند الموت . وإما عند البعث ، وإما عند دخول الجنة . على معنى : ارجمى إلى موعد ربك (راضية) بما أوتيت (مرضية) عند الله (فادخلى فى عبادى) فى جملة عبادى الصالحين ، وانتظمى فى سلكهم (وادخلى جنتى) معهم ، وقيل : النفس الروح .

(١) أخرجه الطحاوى وابن مردويه والواحدي من طريق عطية بن أبى سعيد به وأتم منه .

(٢) قوله كذهب أهل الأهواء ، إن كان المراد بهم أهل السنة لقولهم بأن الله هو الخالق لفعل العبد فهم يثبتون له الاختيار فيه لأنهم يثبتون له الكسب فيه وإن كان المراد بهم من قال بالجبر المحض وهم القائلون بأن العبد لا دخل له فى فعله أصلاً ، بل هو كالريشة المعلقة فى الهواء ، فكلامه مسلم (ظهور بطلان مذهبهم) . (ع)

ومعناه : فادخل في أجساد عبادي . وقرأ ابن عباس : فادخل في عبادي . وقرأ ابن مسعود : في جسد عبادي . وقرأ أبي : اتق ربك راضية مرضية . ادخل في عبادي ، وقيل : نزلت في حمزة ابن عبد المطلب . وقيل : في خبيب بن عدي الذي صلبه أهل مكة وجعلوا وجهه إلى المدينة ، فقال : اللهم إن كان لي عندك خير فحول وجهي نحو قبلك ، فحول الله وجهه نحوها فلم يستطع أحد أن يحوله . والظاهر العموم .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة الفجر في الليالي العشر غفر له ومن قرأها في سائر الأيام كانت له نوراً يوم القيامة » (١) .

سورة البلد

مكية ، وآياتها ٢٠ [نزلت بعد ق]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ① وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ② وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ③ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ④ أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَفْعِدَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ⑤ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ⑥ أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ⑦

أقسم سبحانه بالبلد الحرام وما بعده على أن الإنسان خلق مغموراً في مكابدة المشاق والشدائد ؛ واعترض بين القسم والقسم عاينه بقوله (وأنت حل بهذا البلد) يعني : ومن المكابدة أن مثلك على عظم حرمته يستحل بهذا البلد الحرام كما يستحل الصيد في غير الحرم . عن شرحبيل : يحزمون أن يقتلوا بها صيداً ويعضدوا بها شجرة ، ويستحلون إخراجك وقتلك وفيه تثبيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعث على احتمال ما كان يكابد من أهل مكة ، وتعجيب من حالهم في عداوته . أو صلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بالقسم

(١) أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بإسنادهم إلى أبي رضى الله عنه .

بيلده ، على أن الإنسان لا يخلو من مفاضة الشدائد ؛ واعترض بأن وعده فتح مكة تسمى للتسليية والتنفيس عنه . فقال : وأنت حل هذا البلد ، يعني : وأنت حل به في المستقبل تصنع فيه ما تريد من القتل والأسر . وذلك أن الله فتح عليه مكة وأحلها له ، وما فتحت على أحد قبله ولا أحلت له فأحل ما شاء وحرم ما شاء . قتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة . ومقيس بن صباية وغيرهما ، وحرم دار أبي سفيان ^(١) ، ثم قال : إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهي حرام إلى أن تقوم الساعة ، لم تحل لأحد قبلي ولن تحل لأحد بعدي ، ولم تحل لي إلا ساعة من نهار ، فلا يعصده شجرها ولا يختل خلاها ولا ينفر صيدها ولا تحل لقطتها إلا لمنشد . فقال العباس : يا رسول الله ، إلا الإذخر فإنه لقيوننا ^(٢) وقبورنا ويوتنا ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : « إلا الإذخر » ^(٣) . فإن قلت : أين نظير قوله (وأنت حل) في معنى الاستقبال ؟ قلت : قوله عز وجل (إنك ميت وإنهم ميتون) ومثله واسع في كلام العباد ، تقول لمن تعدده الإكرام والحباء : أنت مكرم محبو ، وهو في كلام الله أوسع ؛ لأن الأحوال المستقبلية عنده كالحاضرة المشاهدة . وكفاك دليلاً قاطعاً على أنه للاستقبال ، وأن تفسيره بالحال محال : أن السورة بالاتفاق مكية ، وأين الهجرة عن وقت نزولها ، فما بال الفتح ؟ فإن قلت : ما المراد بوالد وما ولد ؟ قلت : رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن ولده ، أقسم بيلده الذي هو مسقط رأسه وحرم أبيه إبراهيم ومنشأ أبيه إسماعيل ، ومن ولده وبه . فإن قلت : لم نكر ؟ قلت : للإيهام المستقل بالمدح والتعجب . فإن قلت : هلا قيل ومن ولد ؟ قلت : فيه ما في قوله (والله أعلم بما وضعت) أي بأى شيء وضعت ، يعني موضوعاً عجيب الشأن . وقيل : هما آدم وولده . وقيل : كل والد وولد .

والسكبد : أصله من قولك : كبد الرجل كيدا ، فهو أكبد ؛ إذا وجدت كبده وانفتحت ، فاتسع فيه حتى استعمل في كل تعب ومشقة . ومنه اشتقت المكابدة ، كما قيل : كبته بمعنى أهلكه . وأصله : كبده ، إذا أصاب كبده . قال لبيد :

بَاعَيْنُ هَلَا بِكَمَتْ أَرْبَدَ إِذْ قُمْنَا وَقَامَ الْخُصُومُ فِي كَبَدٍ ^(٤)

(١) تقدم . وقتل ابن خطل : متفق عليه ، وقتل مقيس بن صباية عند أبي دار والنسائي من رواية مصعب ابن سعد عن أبيه وقتل غيرهما تقدم أيضاً . ومنهم الحويرث بن نفيل . رواه الرازي في المغازي . والمراد بقرله « حرم دار أبي سفيان قوله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن » وقد رواه إصحاق وغيره

(٢) قوله « فإنه لقيوننا » القيون : جمع قين ، وهو الحداد . كذا في الصحاح . (ع)

(٣) متفق عليه من حديث أبي سلة عن أبي هريرة وله طرق وألفاظ .

(٤) للبيد برئ أخاه أربد . وكبد كبداً كتمب : وجدت كبده وانفتحت ، فاتسع فيه حتى صار كتمب في المعنى أيضاً . يقول : يا عيين هلا بكيف أخى وقت قيامنا للحرب وقيام الخصوم معنا فيه . والعاملان تنازعا قوله (في كبد) ونزل عنه منزلة من يعقل ، ناطقها . وهلا : حرف تفضي .

أى : فى شدة الأمر وصعوبة الخطب .

والضمير فى (أحسب) لبعض صناديد قريش الذى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكابد منهم ما يكابد . والمعنى : أظن هذا الصنديد القوى فى قومه المتضعف للمؤمنين : أن لن تقوم قيامة ، ولن يقدر على الانتقام منه وعلى مكافأته بما هو عليه ، ثم ذكر ما يقوله فى ذلك اليوم ، وأنه يقول (أهلكت مالا لبدا) يريد كثرة ما أنفق فيه فيما كان أهل الجاهلية يسمونها مكارم ، ويدعونها معالى ومفاخر (أحسب أن لم يره أحد) حين كان ينفق ما ينفق رثاء الناس وافتخارا بينهم ، يعنى : أن الله كان يراه وكان عليه رقيباً . ويجوز أن يكون الضمير للإنسان ، على أن يكون المعنى : أقسم بهذا البلد الشريف ، ومن شرفه أنك حل به مما يقرقه أهله من المآثم متخرج برىء ، فهو حقيق بأن أعظمه بقسمى به (أقد خلقنا الإنسان فى كبد) أى فى مرض : وهو مرض القلب وفساد الباطن ، يريد : الذين علم الله منهم حين خلقهم أنهم لا يؤمنون ولا يعملون الصالحات . وقيل : الذى يحسب أن لن يقدر عليه أحد : هو أبو الأشد ، وكان قويا يسطر له الأديم العكاظى فيقوم عليه ويقول : من أزالنى عنه فله كذا ، فلا ينزع إلا قطعاً ويبقى موضع قدميه . وقيل : الوليد بن المغيرة (لبدا) قرئ بالضم والكسر : جمع لبدة ولبدة ، وهو ما تلبد يريد الكثرة : وقرئ : لبدا بضمين : جمع لبود . ولبدا : بالتشديد جمع لابد .

أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ۝ ٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝ ٩ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۝ ١٠
فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۝ ١١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۝ ١٢ فَكُ رَقَبَةً ۝ ١٣
أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْجَرٍ ۝ ١٤ يَبْسُجًا ذَا مَقَرٍّ ۝ ١٥ أَوْ مِسْكِينًا
ذَا مَقَرٍّ ۝ ١٦

(ألم نجعل له عينين) يبصر بهما المرئيات (ولساناً) يترجم به عن ضمائره (وشفتين) يطبقهما على فيه ويستعين بهما على النطق والأكل والشرب والنفض وغير ذلك (وهديناه النجدين) أى طريقى الخير والشر . وقيل : الشدين (فلا اقتحم العقبة) يعنى : فلم يشكر تلك الأباذى والنعم بالأعمال الصالحة : من فك الرقاب وإطعام اليتامى والمساكين ، ثم بالإيمان

الذى هو أصل كل طاعة ، وأساس كل خير ؛ بل غمط النعم^(١) وكفر بالمنعم . والمعنى : أن الإنفاق على هذا الوجه هو الإنفاق المرضى النافع عند الله ، لا أن يهلك مالا لبدأ في الرياء والفخار ، فيكون مثله (كمثل ربح فيها صر أصابت حرث قوم ... الآية) . فإن قلت : قلنا تقع ، إلا ، الداخلة على الماضى إلا مكررة ، ونحو قوله :

* فَأَيُّ أَمْرِ سَيِّئٍ لَّا فَعَلَهُ * .

لا يكاد يقع ، فما لم تكرر في الكلام الأنفصاح ؟ قلت : هى متكررة فى المعنى ؛ لأن معنى (فلا اقتحم العقبة) فلا فك رقبة ، ولا أطعم مسكينا . ألا ترى أنه فسر اقتحام العقبة بذلك . وقال الزجاج قوله : (ثم كان من الذين آمنوا) يدل على معنى : (فلا اقتحم العقبة) ، ولا آمن . والاقترحام : الدخول والمجاوزة بشدة ومشقة . والقحمة : الشدة ، وجعل الصالحة : عقبة ، وعملها : اقتحاما لها ، لما فى ذلك من معاناة المشقة ومجاهدة النفس . وعن الحسن : عقبة والله شديدة . مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوه الشيطان . وفك الرقة : تخليصها من رق أو غيره . وفى الحديث : أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : دلنى على عمل يدخلنى الجنة . فقال : تعتق النسمة وتفق الرقة . قال : أوليسا سواء ؟ قال : لا ، إعتاقها أن تنفرد بمنقها . وفكها : أن تعين فى تخليصها من قود أو غرم^(٢) . والعنق والصدقة : من أفاضل الأعمال . وعن أبى حنيفة رضى الله عنه : أن العنق أفضل من الصدقة . وعند صاحبيه : الصدقة أفضل ، والآية أدل على قول أبى حنيفة ؛ لتقديم العنق على الصدقة . وعن الشعبي فى رجل عنده فضل نفقة : أبيضه فى ذى قرابة ، أو يعتق رقبة ؟ قال : الرقة أفضل ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من فك رقبة فك الله بكل عضو منها عضواً منه من النار »^(٣) . قرئ : فك رقبة . أو إطعام على : هى فك رقبة ، أو إطعام . وقرئ : فك رقبة ، أو أطعم ، على الإبدال من اقتحم العقبة . وقوله (وما أدراك ما العقبة) اعتراض ، ومعناه : أنك لم تدركه صعوبتها على النفس وكنه ثوابها عند الله . والمسغبة ، والمقربة ، والمتربة : مفعلات من سغب : إذا جاع . وقرب فى النسب ، يقال : فلان ذو قرابتى . وذو مقربتى . وترب : إذا افتقر ، ومعناه . التصق بالتراب . وأما أترب فاستغنى ، أى : صار

(١) قوله « بل غمط النعم » أى : استغنى عنها . (ع)

(٢) أخرجه ابن حبان والحاكم وأحمد وإسحاق وابن أبى شبة والبخارى فى الأدب المفرد ، والبيهقى فى الشعب ، والترمذى وابن مردويه والواحدى من رواية عبد الرحمن بن عوف عن البراء بن عازب وليس عند أحد منهم قوله « من قود أو غرم » ، وكأنه من كلام الزمخشري .

(٣) أخرجه الحاكم من حديث عقبة بن عامر بلفظ « من أعتق رقبة » .

إذا مال كالتراب في الكثرة ، كما قيل : أثرى . وعن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله (ذا متربة) الذي مأواه المزابيل ^(١) ، ووصف اليوم بذى مسغبة نحو ما يقول النحويون في قولهم : هم ناصب : ذو ناصب . وقرأ الحسن : ذا مسغبة نصبه بإطعام . ومعناه : أو إطعام في يوم من الأيام ذا مسغبة .

ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ ^(١٧)
 أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ^(١٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ
 الْمَشْأَمَةِ ^(١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ ^(٢٠)

(ثم كان من الذين آمنوا) جاء بهم لتراخي الإيمان وتباعده في الرتبة والفضيلة عن العتق والصدقة ، لا في الوقت ؛ لأن الإيمان هو السابق المقدم على غيره ، ولا يثبت عمل صالح إلا به . والمرحمة : الرحمة ، أى : أوصى بعضهم بعضاً بالصبر على الإيمان والثبات عليه . أو بالصبر عن المعاصي وعلى الطاعات والحنن التي يبتلى بها المؤمن ، وبأن يكونوا متراحمين متعاطفين . أو بما يؤدى إلى رحمة الله . الميمنة والمشأمة : اليمين والشمال . أو البين والشؤم ، أى : الميامين على أنفسهم والمشائيم عليهم . قرئ : مؤصدة ، بالواو والهمزة ، من وصدت الباب وأصدته : إذا أطبقته وأغلقتها . وعن أبى بكر بن عياش : لنا إمام يهزم مؤصدة : فأشتهى أن أصد أذنى إذا سمعته .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرأ لا أقسم بهذا البلد أعطاه الله الأمان من غضبه يوم القيامة ، ^(٢) .

(١) أخرجه ابن مردويه من رواية مجاهد عن عبد الله بن عمر بهذا . وعند الحاكم عن ابن عباس : قال : هو الذى لا يقيه من التراب فى . ، موقوف .
 (٢) أخرجه اللعلى والواحدى وابن مردويه بالسند الى أبى بن كعب .

سورة الشمس

مكية ، وآياتها ١٥ [نزلت بعد القدر]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- وَالشَّمْسُ وَنُجُجَهَا ① وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَاها ② وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَاها ③
وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاها ④ وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَّاها ⑤ وَالْأَرْضُ وَمَا طَعَّاها ⑥
وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاها ⑦ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاها ⑧ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها ⑨
وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاها ⑩

ضحّاها : ضوءها إذا أشرقت وقام سلطانها ؛ ولذلك قيل : وقت الضحى ، وكان وجهه شمس الضحى . وقيل : الضحوة ارتفاع النهار . والضحى فوق ذلك . والضحاه بالفتح والمد : إذا امتد النهار وقرب أن ينتصف (إذا تلاها) طالما عند غروبها أخذنا من نورها ؛ وذلك في النصف الأول من الشهر . وقيل : إذا استدار فتلاها في الضياء والنور (إذا جلاها) عند ارتفاع النهار ^(١) وانبساطه ، لأن الشمس تنجلي في ذلك الوقت تمام الانجلاء . وقيل : الضمير للظلمة ، أو للدنيا ، أو للأرض ، وإن لم يجر لها ذكر ، كقولهم : أصبحت باردة : يريدون الغداة ، وأرسلت : يريدون السماء إذا يغشاها ، فتغيب وتظلم الآفاق ، فإن قلت : الأمر في نصب وإداء معضل ؛ لأنك لا تخلو إما أن تجعل الواوات عاطفة فتصب بها وتجر ، فتقع في العطف على عاملين في نحو قولك : مررت أمس بزيد ، واليوم عمرو . وإما أن تجعلهن للقسم ، فتقع فيما اتفق الخليل وسيبويه على استكراهه . قلت : الجواب فيه أن واو القسم مطروح معها إبراز الفعل إطرأ حاكيا ، فكان لها شأن خلاف شأن الباء ، حيث أبرز معها الفعل وأضمر ، فكانت الواو قائمة مقام الفصل والباء سادة مسددهما معا ، والواوات العواطف نواب عن هذه الواو ، لحققن أن يكن عوامل على الفعل ^(٢) والجار جميعا ، كما تقول : ضرب زيد عمرا ،

(١) قوله : عند ارتفاع النهار ، في الصباح : انتفع النهار ، أي : علا . (ع)

(٢) قوله : عوامل على الفعل ، له : عمل الفعل . (ع)

وبكر خالداً؛ فترفع بالواو وتنصب لقيامها مقام ضرب الذي هو عاملهما . جعلت وما ، مصدرية في قوله (وما بناها) (وما طحاها) (وما سواها) وليس بالوجه لقوله (فألهما) وما يؤدي إليه من فساد النظم . والوجه أن تكون موصولة . وإنما أو ثرت على من لإرادة معنى الوصفية ، كأنه قيل : والسماء ، والقادر العظيم الذي بناها ، ونفس ، والحكيم الباهر الحكمة الذي سواها ، وفي كلامهم : سبحان ما سحر كن لنا . فإن قلت : لم تنكرت النفس ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن يريد نفساً خاصة من بين النفوس وهي نفس آدم ، كأنه قال : وواحدة من النفوس . والثاني : أن يريد كل نفس وينكر للتكثير على الطريقة المذكورة في قوله (علست نفس) . ومعنى إلهام الفجور والتقوى : إلهامهما وإعقاليهما ، وأن أحدهما حسن والآخر قبيح ، وتمسكته من اختيار ما شاء منهما^(١) بدليل قوله (قد أفلح من زكاها) وقد خاب من دساها (فجعله فاعل التزكية^(٢))

(١) قال محمود : ، معنى إلهام الفجور والتقوى إلهامهما وإعقاليهما ؛ وأن أحدهما حسن والآخر قبيح ، وتمسكته ... الخ ، قال أحمد : بين في هذا الكلام نوعين من الباطل ، أحدهما في قوله : معنى إلهام الفجور والتقوى إلهامهما وإعقاليهما ؛ وأن أحدهما حسن والآخر قبيح ، والذي يكنه في هذه الكلمات اعتقاد أن الحسن والقيح مدركان بالعقل . ألا ترى إلى قوله : إعقاليهما ، أى خلق العقل الموصل إلى معرفة حسن الحسن وقبح القبيح ، وإنما اغتيم في هذا فرصة إشعار الإلهام بذلك ، فانه ربما يظن أن إطلاقه على العلم المستفاد من السمع بعيد ، والذي يقطع دابر هذه النزعة أنا وإن قلنا إن الحسن والقبح لا يدركان إلا بالسمع لأنهما راجعان إلى الأحكام الشرعية التي ليست عندنا بصفات الأفعال ؛ فإنا لا نلغي حظ العقل من إدراك الأحكام الشرعية ، بل لا بد في علم كل حكم شرعي من المقدمات : عقلية ، وهي الموصلة إلى العقيدة . وسمعية مفرقة دلها ، وهي الدالة على خصوص الحكم . على أن تملقه بظاهر لو سلم ظهوره في قاعدة قطعية بمنزل من الصواب . النزعة الثانية : وهي التي كشف التناقض في إرازها أن التزكية وتسميتها ليس مغلوطين لله تعالى ، بل لشركائه المعزلة ، وإنما نعارضه في الظاهر من لحوى الآية ؛ على أنه لم يذكر وجهاً في الرد على من قال : إن الضمير لله تعالى ، وإنما اقتصر على الدعوى مقرونة بسفاهته على أهل السنة ، فنقول : لا مرأى في احتيال عود الضمير إلى الله تعالى وإلى ذى النفس ، لكن عوده إلى الله تعالى أولى لوجهين ، أحدهما : أن الجهل سبقت سياقة واحدة من قوله (والسماء وما بناها) ولم جراً ؛ والضمائر فيما تقدم هذين الفعلين عائدة إلى الله تعالى بالاتفاق ، ولم يحجر لغير الله تعالى ذكر . وإن قيل يعود الضمير إلى غيره : فإنا يتمحل لجوازه بدلالة الكلام ضمناً واستلزاماً ، لا ذكراً ونطقاً ، وما جرى ذكره أولى أن يعود الضمير عليه . الثاني : أن الفعل المستعمل في الآية التي استدل بها في قوله (قد أفلح من تزكى) « تفعل » ، ولا شك أن « تفعل » معارضة « فعل » فهذا بأن يدل لنا ، أولى من أن يدل له ؛ لأن الكلام عندنا نحن : قد أفلح من زكاه الله تزكى ؛ وعندنا للفاعل في الاثنين واحد ، أضاف إليه الفعلين المختلفين ، ويحتاج في تصحيح الكلام إلى تعديد اعتبار وجهه ، ونحن عنه في غيبة ؛ على أننا لا نأبى أن تضاف التزكية والتسمية إلى العبد ، على طريقة أنه تفاعل ، كما يضاف إليه الصلاة والصيام وغير ذلك من أعمال الطاعات ، لأن له عندنا اختياراً وقدرة مقارنة ، وإن معنا البرهان العقل الدال على وحدانية الله تعالى ونفى الشريك أن نجعل قدرة العبد مؤثرة خالقة ، فهذا جوابنا على الآية نزلاً ؛ وإلا فلم يذكر وجهاً من الرد ، فيلزمنا الجواب عنه . وأما جوابنا عن سفاهته على أهل السنة ، فالكسوت ؛ والله الموفق .

(٢) قوله « فجعله فاعل التزكية » مبنى على مذهب المعزلة : من أن العبد هو الفاعل لأنما له الاختيارية . وذهب أهل السنة إلى أن الفاعل لها في الحقيقة هو الله تعالى ، كما تقر في علم التوحيد . (ح)

والتدسية ومتوليها والتزكية : الإنماء والإعلاء بالتقوى . والتدسية : النقص والإخفاء بالفجور . وأصل دسى : دسس ، كما قيل في تقضض : تقضى . وسئل ابن عباس عنه فقال : أتقرأ (قد أفلح من تركي) ، (وقد خاب من حمل ظلم) . وأما قول من زعم أن الضمير في زكى ودسى لله تعالى ، وأن تأنيث الراجع إلى من ؛ لأنه في معنى النفس : فن تعكيس القدرية الذين يوزكون^(١) على الله قدرأ هو برى منه ومتعال عنه ، ويحيون لياليهم في تحمل فاحشة ينسبونها إليه . فإن قلت : فأين جواب القسم ؟ قلت : هو محذوف تقديره : ليدمدن الله عليهم . أى : على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما دمدن على ثمود لأنهم كذبوا صالحاً . وأما (قد أفلح من زكاها) فكلام تابع لقوله (فألهما فجورها وتقواها) على سبيل الاستطراد ، وليس من جواب القسم في شيء .

كَذَبْتَ نُمُودُ بَطَفُوهَا ۝ ١١ ۝ إِذْ أَنْبَأْتُ أَشْقَاهَا ۝ ١٢ ۝ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ۝ ١٣ ۝ فَكَذَّبُوهُ فَمَقَرُّوْهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ۝ ١٤ ۝ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ۝ ١٥ ۝

الباء في (بطفوها) مثلها في : كتبت بالقلم . والطفوى من الطغيان : ضلوا بين الاسم والصفة في فعل من بنات الياء ، بأن قلبوا الياء وأوآ في الاسم ، وتركوا القلب في الصفة ، فقالوا : امرأة خزبي وصدي ، يعنى : فعلت التكذيب بطغيانها ، كما تقول : ظلمنى بجرته على الله . وقيل : كذبت بما أوعدت به من عذابها ذى الطغوى كقوله : (فأهلكوا بالطاعة) ، وقرأ الحسن : بطفوها ، بضم الطاء كالحسن والرجعى في المصادر (إذ أنبئت) منصوب بكذبت . أو بالطغوى . و (أشقاهها) قدار بن سالف . ويجوز أن يكونوا جماعة ، والتوحيد لتسويتك في أقمل التفضيل إذا أضفته بين الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ، وكان يجوز أن يقال : أشقوها ، كما تقول : أفاضلهم . والضمير في (لهم) يجوز أن يكون للأشقيين والتفضيل في الشقاوة ، لأن من تولى الفقر وبأشره كانت شقاوته أظهر وأبلغ . و (ناقة الله) نصب على التحذير ، كقولك الاسد الاسد ، والصبي الصبي ، يا ضئار : ذروا أو احذروا عقربا (وسقياها) فلا تزوها عنها ، ولا

(١) قوله « الذين يوزكون على الله قدرأ » في الصحاح : ورك فلان ذنبه على غيره ، إذا قرفه به أم ، أى : اتهمه . ومراده بالقدرية : أهل السنة ، حيث قالوا : كل ما وقع في الكون هو بقضائه تعالى وقدره غيرأ كان أو شرأ ، وبخلقته تعالى وإرادته ، قبيحاً كان أو حسناً ، من أعمال البهائم أو من غيرها ، كما نفرو في التوحيد . (ع)

تستأثروا بها عليها (فكذبوه) فيما حذرهم منه من نزول العذاب إن فعلوا (قدمدم عليهم) فأطلق عليهم العذاب ، وهو من تكرير قولهم : ناقة مدمومة : إذا ألبسها الشجم (بذنبهم) بسبب ذنبهم . وفيه إنذار عظيم بعاقبة الذنب ، فعلى كل مذنّب أن يعتبر ويحذر (فسواها) الضمير للدمدمة ، أى : فسواها بينهم لم يفلت منها صغيرهم ولا كبيرهم (ولا يخاف عقباها) أى عاقبتها وتبعتها ، كما يخاف كل معاقب من الملوكة فيبقى بعض الإبقاء . ويجوز أن يكون الضمير لثود على معنى : فسواها بالارض . أو فى الهلاك ، ولا يخاف عقبي هلاكها . وفى مصاحف أهل المدينة والشام : فلا يخاف . وفى قراءة النبي صلى الله عليه وآله وسلم : ولم يخف .
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة الشمس ، فكأنما تصدق بكل شيء طلعت عليه الشمس والقمر » (١) .

سورة الليل

مكية ، وآياتها ٢١ (نزلت بعد الأعلى)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ① وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ② وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ ③ وَالْأُنثَىٰ ④ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ⑤

المغشى : إما الشمس من قوله (والليل إذا يغشاها) وإما النهار من قوله (يغشى الليل النهار) وإما كل شيء يواريه بظلامه من قوله (إذا وقب) . (تجلى) ظهر بزوال ظلمة الليل . أو تبين وتكشف بطولع الشمس (وما خلق) والقادر العظيم القدرة الذى قدر على خلق الذكر والأنثى من ماء واحد . وقبل : هما آدم عليه السلام وحواء . وفى قراءة النبي صلى الله عليه وسلم : والذكر والأنثى . وقرأ ابن مسعود : والذى خلق الذكر والأنثى .

(١) أخرجه الهلبلى والواحدى وابن مردويه بالسند إلى أبى بن كعب .

وعن الكسائي : وما خلق الذكر والأنثى بالجر على أنه بدل من محل (ماخلق) بمعنى : وما خلقه الله ، أى : وما خلق الله الذكر والأنثى . وجاز إضمار اسم الله لأنه معلوم لا نفراد بالخلق . إذ لا خالق سواه . وقيل : إن الله لم يخلق خلقا من ذوى الأرواح ليس بذكر ولا أنثى . والحشى ، وإن أشكل أمره عندنا فهو عند الله غير مشكل . معلوم بالذكر أو الأنوثة : فلو حلف بالطلاق أنه لم يلق يومه فذكر أو لا أنثى ، ولقد لقي خنثى مشكلا : كان حائشا ؛ لأنه فى الحقيقة إما ذكرا أو أنثى ، وإن كان مشكلا عندنا (خنثى) جمع شتيت ، أى : إن مساعيكم أشتات مختلفة ، وبيان اختلافها فيما فصل على أثره .

فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ⑤ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ⑥ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ⑦

(أعطى) يعنى حقوق ماله (واتقى) الله فلم يعصه (وصدق بالحسنى) بالخصلة الحسنى : وهى الإيمان . أو بالملة الحسنى : وهى ملة الإسلام ، أو بالمتوبة الحسنى : وهى الجنة (فسنيسره لليسرى) فسهيؤه لما من يسر الفرس للركوب إذا أسرجها وأجهها . ومنه قوله عليه السلام : وكل ميسر لما خلق ^(١) له ، والمعنى : فسنتطف به ونوفقه حتى تكون الطاعة أيسر الأمور عليه وأهونها ^(٢) ، من قوله (فن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) .

وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ⑧ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ⑨ فَسَنُيَسِّرُهُ

لِلْيُسْرَىٰ ⑩ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ⑪

(واستغنى) وزهد فيما عند الله كأنه مستغن عنه فلم يتقه . أو استغنى بشهوات الدنيا عن نعم الجنة ، لأنه فى مقابلة (واتقى) . (فسنيسره لليسرى) فسنتخذله ونمنعه الألفاف ، حتى تكون الطاعة أيسر شيء عليه وأشدّه ، من قوله (يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء) أوسى طريقة الخير باليسرى ، لأن عاقبتها اليسر ؛ وطريقة الشر اليسرى ، لأن عاقبتها العسر . أو أراد بهما طريق الجنة والنار ، أى : فسنديهما فى الآخرة للطريقين . وقيل : نزلنا فى أبى بكر رضى الله عنه ، وفى أبى سفيان بن حرب (وما يغنى عنه) استفهام فى معنى الإنكار . أو تبنى (تردى) تفعل من الردى وهو الهلاك ، يريد : الموت . أو تردى فى الحفرة إذا قبر . أو تردى فى قعر جهنم .

(١) متفق عليه من حديث عمران بن حصين ، ومن حديث على رضى الله عنه .

(٢) قال محمود : والتيسير لليسرى خلق الألفاف ... الخ . قال أحمد : لا يبطل لسانه هنا على أهل السنة ولكن قصره الحق فقرأ الكلام بل يعطاله ، لأنه يجعله مالا يحتمله ، وعلى كلامه فى أمثاله روعة السارق الخائف

إِنْ عَلَيْنَا لَاهْدًى ⑫ وَإِنْ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى ⑬

(إِنْ عَلَيْنَا لَاهْدًى) إِنْ الْإِرْشَادَ إِلَى الْحَقِّ وَاجِبَ عَلَيْنَا بِنَصْبِ الدَّلَائِلِ ⑬ وَبَيَانِ الشَّرَائِعِ (وَإِنْ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى) أَى ثَوَابِ الدَّارَيْنِ لِلْمُهْتَدَى ، كَقَوْلِهِ (وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) .

فَأَنْذَرْنَاهُمْ نَارًا تَلَدَّى ⑭ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ⑮ الَّذِي كَذَّبَ
وَتَوَلَّى ⑯ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ⑰ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ⑱
وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ⑲ إِلَّا أَتَيْتَ بِضَا' وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ⑳
وَلَسَوْفَ يَرْضَى ㉑

وقرأ أبو الزبير : تَلَدَّى . فَإِنْ قُلْتَ : كَيْفَ قَالَ (لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ... وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى) وقد علم أن كل شئ يَصْلَاهَا ⑱ ، وكل شئ يَجَنَّبُهَا ، لَا يَخْتَصُّ بِالصِّلَى أَشْقَى الْأَشْقِيَاءِ ، وَلَا بِالنَّجَاةِ

(١) قوله ⑫ واجب علينا بنصب الدلائل ، وجوب شئ على الله تعالى : مذهب المعتزلة . ولا يجب عليه شئ عند أهل السنة ، ولكن شأن التكريم تأكيد الوعد . (ع)

(٢) قال محمود : «فإن قلت : كيف قال لا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ، وقد علم أن كل شئ يَصْلَاهَا ... الخ» قال أحد : لا شك أن السائل بنى سؤاله على التسكع بمفهوم الآية لورودها بصيغة التخصيص ، فحاصل جواب الوجودى أن التخصيص هنا لفائدة أخرى غير التي عما عدا المخصص ، وذلك لفائدة المقابلة ؛ وحيث تمحض لك السؤال والجواب ، فهو يلاحظ نظر القاضى رحمه الله في قوله تعالى (قل لا أجد فيها أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه) فإنه لم يقل بمفهوم حصرا ، وحلها على أن المحصر لفائدة المقابلة بالرد لأحكام الجاهلية ، لا اتنى ما عدا المحصور . على أن الوجودى إنما ضيق عليه الخناق في هذه الآية حتى ألزم ورود السؤال المذكور ، التفاته إلى قاعدته الفاسدة وحذره أن تنقص ، ويأبى الله إلا تقضها ورفضها ، وإذا نزلت الآية هل قواعد أهل السنة وضع لك ما قلته ، فنقول : المصلى في اللغة أن يحفروا حفيرا فيجمعوا فيه جرا كثيرا ، ثم يمددوا إلى شاة فبدسوها وسطه بين أطباقه ؛ فأما ما يشهد فوق الجمر أو على المقل أو على الثور فليس بمصل ، وهذا التفسير بعينه نص عليه الوجودى ونظمه عن أهل اللغة في سورة الناشئة أيضا ، وأنا وقفت عليه في كتبهم ؛ فإذا عرفت معنى التصلية لغة وأنها أشد أنواع الإحراق بالنار ، وفي ذلك أن الناس عند أهل السنة ثلاثة أصناف : مؤمن صالح قائر ، ومؤمن عاص ، وكافر ، وأن المؤمن القائر يمر على النار فيطبخ . نوره لها ولا يؤلم بسبب البتة ، وإنما يرد ما تحته القسم ، والعاصى إن شاء الله تعذيبه ومجازاته فأما يهذب على وجه النار في الطبقة الأولى باتفاق ، حتى أن منهم من تبلغ النار إلى كعبه ؛ وأشداهم من تبلغ النار إلى موضع مجوده فيحسه ؛ ولا يهذب أحد من المؤمنين بين أطباقها ألثة بوعد الله تعالى ، والكافر هو المذهب بين أطباقها ؛ بين لك أن النار لا يَصْلَاهَا أَى يهذب بين أطباقها - كما عرفت تفسيره في اللغة - إلا الكافر ؛ وهو الأشقى ؛ لأن المؤمن العاصى لا يبلغ مبلغه في الشقاء ، وأن المؤمن القائر وهو الاتقى بالنسبة إلى المؤمن العاصى =

أتقِ الاتقياء، وإن زعمت أنه نكر النار فأراد نارا بعينها مخصوصة بالآشق، فما تصنع بقوله (وسيجنبها الاتقي) فقد علم أن أفسق المسلمين ^(١) يجنب تلك النار المخصوصة، لا الاتقي منهم خاصة؟ قلت: الآية واردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين، فأريد أن يبالغ في صفتيهما المتناقضتين فقيل: الآشق، وجعل مختصا بالصلى، كأن النار لم تخلق إلا له. وقيل: الاتقي، وجعل مختصا بالنجاة، كأن الجنة لم تخلق إلا له. وقيل: هما أبو جهل وأمية بن خلف، وأبو بكر رضى الله عنه (يتزكى) من الزكاة. أى: يطلب أن يكون عند أمة زاكيا، لا يريد به رياء ولا سمعة. أو يتفعل من الزكاة. فإن قلت: ما محل يتزكى؟ قلت: هو على وجهين: إن جعلته بدلا من (يؤتى) فلا محل له؛ لأنه داخل في حكم الصلة، والصلوات لا محل لها وإن جعلته حالا من الضمير (يؤتى) فحله النصب (ابتغاء وجه ربه) مستثنى من غير جنسه وهو النعمة أى: ما لا أحد عنده نعمة إلا ابتغاء وجه ربه، كقولك: مافى الدار أحد إلا حمارا وقرأ يحيى بن وثاب: إلا ابتغاء وجه ربه بالرفع: على لغة من يقول: مافى الدار أحد إلا حمارا وأنشد في اللتين قول بشر بن أبي حازم:

أَضَحَتْ خَلَاءَ قَفَارًا لَا أُنَيْسَ بِهَا إِلَّا الْجَادِرُ وَالظَّلْمَانُ تَخْتَلِفُ ^(٢)

وقول القائل:

وَبَلَدٌ لَيْسَ بِهَا أُنَيْسٌ إِلَّا الْيَعْفِيرُ وَالْأَعْيِسُ ^(٣)

== يجنب النار بالكلية، لأن وروده تحلة القسم لا يصل إليه منها ولا الهما، وأن المؤمن العاصى الذى ليس بالاتقى ولا بالآشق لا يصلح ولا يجنبها بالكلية؛ لأن وروده تحلة القسم بل يذب فيها لا بالصلى؛ فهذا أحسن ما حملت الآية عليه، لكن إنما يؤول على جادة السنة. وأما الوجهين فيتحرف عنها، فلا جرم أنه في عهدة الجواب يفكر ويقدّر. والله أعلم.

(١) قوله «فقد علم أن أفسق المسلمين» لعله: وقد.

(٢) أضحت خلایا قفاراً لا أنيس بها إلا الجادر والظلمان تختلف

رقت فيها قلوبى كى تجاوبنى أو يخبر الرسم عنهم أية انصرفوا

ليشربن أبى حازم. وغلایا: جمع غلية أى غالية، والجادر والظلمان: استثناء منقطع، لأنها لا تدخل في الأنيس. ورويا بالنصب على الاستثناء، وبالرفع على الإبدال من الضمير المستكن في الخبر، كما هو لغة عند تميم. والجادر: أولاد بكر الوحش. وروى: الجوازى، روى الطباة التى اجتزأت بأكل الربيع عن شرب الماء. والظلمان: أولاد النعام. أو النعام نفسه. وللقول: الفتية من الأبل المكنزة اللحم، والضمير فيها عائدة للديار. وضمير «تجاوبنى» لها أيضاً. والرسم: آثار الديار. وأية: اسم استفهام منصوب بما بعده على الظرفية، لقطعه عن الإضافة، أى: صرفهم عنهم ونيهم. وشبه الرسم بما قبل على طريق المكنية فأسند له الأخبار تفضيلا، وكذلك الدار ومجاوبتها.

(٣) قد ندع المثل يا لميس يعيش فيه الصبح الجروس

وبلدة ليس بها أنيس إلا اليعافير وإلا العيس

ويجوز أن يكون (ابتغاء وجه ربه) مفعولاً له على المعنى ، لأن معنى الكلام : لا يؤتى ماله إلا ابتغاء وجه ربه ، لا المكافأة نعمة (ولسوف يرضى) موعد بالشواب الذى يرضيه ويقر عينه .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من قرأ سورة والليل ، أعطاه الله حتى يرضى ، وعافاه من العسر ويسر له اليسر» (١) .

سورة الضحى

مكية ، وآياتها ١١ (نزلت بعد الفجر)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَىٰ ① وَالْأَيْلِ إِذَا سَجَىٰ ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③

المراد بالضحى : وقت الضحى ، وهو صدر النهار حتى ترتفع الشمس وتلقى شعاعها . وقيل : إنما خص وقت الضحى بالقسم ، لأنها الساعة التى كلم فيها موسى عليه السلام ، وألقى فيها السحرة سجداً ، لقوله (وأن يحشر الناس ضحى) وقيل : أريد بالضحى : النهار ، بيانه قوله (أن يأتهم بأسنا ضحى) فى مقابلة (بيانا) . (سجى) سكن وركد ظلامه . وقيل : ليلة ساجية ساكنة الرج . وقيل معناه : سكون الناس والأصوات فيه . وسجا البحر : سكنت أمواجه . وطرف ساج : ساكن فافر (ماودعك) جواب القسم . ومعناه : ما قطعك قطع المودع . وقرى بالتخفيف ، معنى : ما تركك . قال :

== لعامر بن الحرث المشهور بجران العود . وليس : امرأة . والجروس : كثير الصوت ، وبلدة - بالجر برب المقفرة بعد الوار ، أى : قد نترك المنزل غالباً من أهل بقتلنا إياهم ، أو لارتحالتنا عنهم . واليعافير - بالرفع - : بدل من أنيس على لغة تميم فى الاستثناء المنقطع بعد النفي ، وإلا الثانية تؤكد للأولى . واليعافير - جمع يعفور - : دابة قدر السخلة على لون الرماد . وقيل : غزال كذلك . وقيل : ولد البقرة الوحشية . والعيس : البيض من الظباء أو الأبل : جمع أعيس أو عيساء . والعيساء أيضاً : أئى الجراد ، يخاطب بياضها شقرة . (١) أخرجه الثعلبى والواحدي وابن مردويه بالسند إلى أبى بن كعب .

وَنَمَّ وَدَعْنَا آلَ عَمْرٍو وَعَامِرٍ فَرَأَيْتَ أَطْرَافِ الْمُتَقَنَّةِ السَّمْرِ ^(١)

والتوديع : مبالغة في الودع ؛ لأن من ودعك مفارقة فقد بالغ في تركك . روى أن الوحي قد تأخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أياما . فقال المشركون : إن محمدا ودعه ربه وقلاه ^(٢) . وقيل : إن أم جميل امرأة أبي لهب قالت له : يا محمد ، ما أرى شيطانك إلا قد تركك ^(٣) ، فزلت . حذف الضمير من (قل) كحذفه من (الذاكرات) في قوله (والذاكرين الله كثيرا والذاكرات) يريد : والذاكراته ونحوه : (فآوى ... فهدى ... فأغنى) وهو اختصار لفظي لظهور المحذوف .

وَلَا آخِرَةَ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ^(٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ^(٥)

فإن قلت : كيف اتصل قوله (وللآخرة خير لك من الأولى) بما قبله ؟ قلت : لما كان في ضمن نفي التوديع والقلبي : أن الله مواسلك بالوحي إليك ^(٦) ، وأنت حبيب الله ولا ترى كرامة أعظم من ذلك ولا نعمة أجل منه : أخبره أن حاله في الآخرة أعظم من ذلك وأجل ، وهو السبق والتقدم على جميع أنبياء الله ورسله ، وشهادة أمته على سائر الأمم ، ورفع درجات المؤمنين وإعلاء مراتبهم بشفاعته ، وغير ذلك من الكرامات السنية (ولسوف يعطيك ربك فترضى) موعدا شاملا لما أعطاه في الدنيا من الفلج والظفر ^(٧) بأعدائه يوم بدر ويوم فتح

(١) ثم إشارة لمكان الحرب أو زمانها ، واختلاف في «دع» بمعنى اترك ، هل ينصرف بآتي منه الماضي والمصدر ، واسم للفاعل والمفعول . قال الجوهرى : أميت ماضيه وغيره ، وربما جا . في الضرورة اه ، وهو المشهور ؛ ولكن حيث جاء في القرآن (ما ودعك) بالتخفيف . وفي الحديث « لينتهين قوم عن ودعهم الجاعات » أى تركهم . وجاء اسم المفعول وغيره في الشعر ، فيجوز القول بقلة الاستعمال لا بالامانة ، كما قاله بعض المتقدمين . والفرائس : مفعول ثان ، وهو جمع فرسة ؛ وهى صيد الأسد المفترس . والمتقنة : المقومة بالغف ، وهو آلة تقويم الرماح . والصرة : لون بين البياض والأدمة . وشبه الرماح بالأسود على طريق المسكنية ، والفرائس تخميل ؛ والأقرب تشبيه آل عمر وآل عامر بالفرائس تشبيها بلبنا لذكر الأطراف ؛ إلا أن يقال : إنها تهمر للمسكنية ؛ لأنها تلائم الرماح .

(٢) أخرجه ابن مردويه عن رواية العوفي عن ابن عباس في قوله (ما ودعك ربك وما قل) قال أبطأ عليه جبريل - الحديث .

(٣) متفق عليه من حديث جندب بن عبد الله البجلي بلفظ « لجأت امرأة فقالت يا محمد انى لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك . فأنزل الله (والضحي) وفي المستدرک من حديث زيد بن أرقم « أن النبي صلى الله عليه وسلم مكث أياما لا ينزل عليه . فأتته امرأة أبى لهب فقالت : يا محمد - فذكره نحوه .

(٤) قال محمود : « إن قلت : كيف اتصل بما قبله ؟ وأجاب بأنه لما كان في ضمن التوديع واقل أن الله مواسلك بالوحي إليك ... الخ » قال أحد : وإخراج أهل الكباثر من النار بشفاعته مضاف إلى ذلك .

(٥) قوله « من الفلج والظفر » الفلج : أى الظهور والفوز والقهر ، كما يفيد الصراح . (ح)

مكة ، ودخول الناس في الدين أفواجا ، والعلبة على قريظة والنضير وإجلالهم ، وبث عساكره وسراياه في بلاد العرب ، وما فتح على خلفائه الراشدين في أقطار الأرض من المدائن وهدم بأيديهم من ممالك الجبابرة وأنهبهم من كنوز الأكاسرة ، وما قذف في قلوب أهل الشرق والغرب من الرعب وتهيب الإسلام ^(١) ، وفشرو الدعوة واستيلاء المسلمين ، ولما أذخره من الثواب الذي لا يعلم كنهه إلا الله . قال ابن عباس رضى الله عنهما : له في الجنة ألف قصر من لؤلؤ أبيض ترابه المسك . فإن قلت : ما هذه اللام الداخلة على سوف ؟ قلت : هي لام الابتداء المؤكدة لمضمون الجملة ، والمبتدأ محذوف . تقديره : ولأنت سوف يعطيك ، كما ذكرنا في : لا أقسم ، أن المعنى : لأننا أقسم ؛ وذلك أنها لا تخلو من أن تكون لام قسم أو ابتداء ، فلام القسم لا تدخل على المضارع إلا مع نون التأكيد ، فبقى أن تكون لام ابتداء ، ولام الابتداء لا تدخل إلا على الجملة من المبتدأ والخبر ، فلا بد من تقدير مبدل وخبر ، وأن يكون أصله : ولأنت سوف يعطيك . فإن قلت : ما معنى الجمع بين حرفي التوكيد والتأخير ؟ قلت : معناه أن العطاء كائن لا محالة وإن تأخر ، لما في التأخير من المصلحة .

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۖ (٧) وَوَجَدَكَ

عَائِلًا فَأَعْنَىٰ ۖ (٨)

عَدَد عليه نعمه وأياديه ، وأنه لم يخله منها من أول تربيته وابتداء نشته ، ترشيعاً لما أراد به ، لبقيس المترقب من فضل الله على ما سلف منه ، أثلاً يتوقع إلا الحسنى وزيادة الخير والكرامة ؛ ولا يضيق صدره ولا يقل صبره . و (أَلَمْ يَجِدْكَ) من الوجود الذى بمعنى العلم ؛ والمنصوبان مفعولان وجد . والمعنى : أَلَمْ تَكُنْ يَتِيمًا ، وذلك أَنَّ أَبَاهُ مَاتَ وَهُوَ جُنَيْنٌ قَدْ أَتَتْ عَلَيْهِ سِتَّةُ أَشْهُرٍ وَمَاتَتْ أُمُّهُ ، وَهُوَ ابْنُ ثَمَانٍ سَنِينَ ، فَكَفَلَهُ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ ، وَعَظَّمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَأَحْسَنَ تَرْبِيَتَهُ ^(٢) . وَمِنْ بَدْعِ التَّفَاسِيرِ : أَنَّهُ مِنْ قَوْلِهِمْ دُرَّةٌ يَتِيمَةٌ ، وَأَنَّ الْمَعْنَى : أَلَمْ يَجِدْكَ وَاحِدًا فِي قَرِيشٍ هَدِيمٍ

(١) قوله « وتهيب الإسلام » أى : تخوف ، كما فى الصحاح ، أى : تخوف الناس من أهل الإسلام . (ع)
(٢) لم أجد هذا . وقال السهيلي فى الروض : أكثر العلماء على أنه عليه الصلاة والسلام توفى أبوه وهو فى المهد ، كما ذكره الدولابى وغيره . وقال ابن سعد : لا يثبت أنه مات أبوه وهو حمل . ورواه الحاكم من طريق ابن إسحاق : حدثنى مطلب بن عبد الله بن قيس بن عزيمة عن أبيه عن جده أنه ذكر ولادة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال « توفى أبوه وأمه حلى به » وبذلك جزم ابن إسحاق . وأما سنة عند ما ماتت أمه . فجزم ابن إسحاق أنها ماتت وهو ابن ست سنين . وقال ابن حبيب : وهو ابن ثمان سنين . وأما كفالة عمه له فذكرها ابن إسحاق وغيره .

النظير فآواك. وقرئ: فأوى، وهو على معنيين: إمامن آواه بمعنى آواه. سمع بعض الرعاة يقول: أين آوى هذه الموقسة^(١) وإما من آوى له: إذا راحه (ضالاً) معناه الضلال عن علم الشرائع وما طريقه السمع، كقوله (ما كنت تدري ما الكتاب). وقيل: ضل في صباه في بعض شعاب مكة، فردّه أبو جهل إلى عبد المطلب. وقيل: أضلته حليلة عند باب مكة حين فطمته وجاءت به لترده على عبد المطلب. وقيل: ضل في طريق الشام حين خرج به أبو طالب، فهداك: فعرفك القرآن والشرائع. أو فأزال ضلالك عن جدك وعمك. ومن قال: كان على أمر قومه أربعين سنة، فإن أراد أنه كان على خلوهم عن العلوم السعمية، فنعم؛ وإن أراد أنه كان على دينهم وكفرهم، فعاذ الله؛ والأنبياء يجب أن يسكنوا معصومين قبل النبوة وبعدها من الكبار والصغار الشائنة، فما بال الكفر والجهل بالصانع (ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء) وكفى بالنبي نقيصة عند الكفار أن يسبق له كفر (عائلاً) فقيراً. وقرئ: عيلاً، كما قرئ: سيحاح. وعديماً (فأغنى) فأغناك بمال خديجة. أو بما آفاه عليك من الغنائم. قال عليه السلام: «جعل رزقي تحت ظل رمحي»^(٢)، وقيل: قنعتك وأغنى قلبك.

فَأَمَّا الْوَيْسِمُ فَلَا تَقْهَرْ ⑨ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ⑩ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ

رَبِّكَ فَحَدِّثْ ⑪

(فلا تقهر) فلا تغلبه على ماله وحقه لضمعه. وفي قراءة ابن مسعود: فلا تكهر: وهو أن يعبس في وجهه. وفلان ذو كهرورة: عابس الوجه. ومنه الحديث: فبأي وأمي هو، ما كهرني^(٣). النهر، والنهم: الزجر. عن النبي صلى الله عليه وسلم^(٤)، «إذا رددت السائل ثلاثاً فلم يرجع،

(١) قوله «يقول أين آوى هذه الموقسة»: الموقسة: الإبل الجربى، من الوقس: وهو ابتداء الجرب اه من هامش، والذي في الصحاح: يقال وقسه وقسا، أى: قرفه، وإن بالميم لوقسا: إذا قارقه شيء من الجرب، فهو موقوس. (ع)

(٢) هذا طرف من حديثه. وأخرجه البخارى تعليقا وأحمد وأبو داود وابن أبي شيبة وعبد بن حميد. وأبو يعلى والطبرانى والبيهقى في الشعب من حديث عبد الله بن عمر. وفي النسائي عن أبي هريرة أخرجه البزار من رواية صدقة ابن عبد الله عن الأزواعى عن يحيى عن أبي سلية عن أبي هريرة. وقال: لم يتابع صدقة على هذا. وغيره يرويه عن الأزواعى مراسلاً. وله طريق أخرى في ترجمة أحمد بن محمد في تاريخ أصبهان لأبي نعيم بسنده إلى أنس. وإسناده ساقط.

(٣) أخرجه مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلى في أثناء حديثه.

(٤) أخرجه الدارقطنى في الأفراد من رواية الوليد بن الفضل عن عبد الله بن أبي حسين عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس به لكن قال «تبره» بدل «وتنهر» والوليد اتهمه ابن حبان بالوضع لكن تابعه طائفة ابن عمرو عن عطاء أخرجه الثعلبى من طريق عقبة بن مجاهد عن حبان بن علي عن طلحة وهذا إسناد ضعيف.

فلا عليك أن تزبره ، ^(١) وقيل : أما إنه ليس بالسائل المستجدي ، ولكن طالب العلم : إذا جاء فلا تنهره . التحديث بنعمة الله : شكرها وإشاعتها . يريد : ما ذكره من نعمة الإيواء والهداية والإغناء وما عدا ذلك . وعن مجاهد : بالقرآن ، لحدث : أقرئه ، وبلغ ما أرسلت به . وعن عبد الله بن غالب أنه كان إذا أصبح يقول : رزقني الله البارحة خيرا : قرأت كذا وصليت كذا ، فإذا قيل له : يا أبا فراس مثلك يقول مثل هذا ؟ قال : يقول الله تعالى (وأما بنعمة ربك لحدث) وأنتم تقولون : لا تحدث بنعمة الله . وإنما يجوز مثل هذا إذا قصد به اللطف ، وأن يقتدى به غيره ، وأمن على نفسه الفتنة . والستر أفضل . ولو لم يكن فيه إلا التشبه بأهل الرياء والسمعة : فكفى به . وفي قراءة على رضى الله عنه : غفر . والمعنى : أنك كنت يتيما ، وضالاً ، وعائلاً ، فأواك الله ، وهداك : وأغناك ؛ فهما يكن من شيء وعلى ما خيلت فلا تنس نعمة الله عليك في هذه الثلاث . واقتد بالله ، فتعطف على اليتيم وآوه ، فقد ذقت اليتيم وهوانه ، ورأيت كيف فعل الله بك ؛ وترحم على السائل وتفقدته بمعرفك ولا تزجره عن بابك ، كما رحمك ربك فأغناك بعد الفقر ؛ وحدث بنعمة الله كلها ، ويدخل تحته هدايته الضلال ، وتعليمه الشرائع والقرآن ، مقتدياً بالله في أن هداه من الضلال .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة الضحى جعله الله فيمن يرضى محمد أن يشفع له وعشر حسنات يكتبها الله له بعدد كل يتيم وسائل » ^(٢) .

== وأخرجه ابن مردويه من رواية أحمد بن أبي طيبة عن حيان فقال : عن أبي هريرة - بدل ابن عباس - وله طريق أخرى . أخرجه عبد القى بن سعيد في إيضاح الأشكال من رواية وهب بن زغبة عن وهب بن أبي البختري القاضي . وهو كذاب .

(١) قوله « فلا عليك أن تزبره » تزبره : أى تزجره وتعلمه . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بالسند إلى أبي بن كعب .

سورة الشرح

مكية ، وآياتها ٨ (نزلت بعد الضحى)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ① وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ② الَّذِي أَنقَضَ

ظَهْرَكَ ③ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ④

استفهم عن انتهاء الشرح على وجه الإنكار ، فأقاد إثبات الشرح وإيجابه ، فكأنه قيل : شرحنا لك صدرك ؛ ولذلك عطف عليه : وضعنا : اعتبارا للمعنى . ومعنى : شرحنا صدرك : فسحناه حتى وسع عموم النبوة ودعوة النفلين جميعا . أوحى احتمال المكاره التى يتعرض ^(١) لك بها كفار قومك وغيرهم : أوفسحناه بما أودعناه من العلوم والحكم ، وأزلنا عنه الضيق والخرج الذى يكون مع العمى والجهل . وعن الحسن : ملئ حكمة وعلما . وعن أبى جعفر المنصور أنه قرأ : أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ ، بفتح الحاء . وقالوا : له . له بين الحاء وأشبعها فى نحر جها ، فظن السامع أنه فتحها ، والوزر الذى أنقض ظهره - أى حمله على التقيض وهو صوت الانتفاض والانفكاك لثقله - مثل لما كان يشغل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويغمره من فرطاته قبل النبوة . أو من جهله بالأحكام والشرائع . أو من تهالكه على إسلام أولى العناد من قومه وتلهفه . ووضع عنه : أن غفر له ، أو علم الشرائع ، أو مهد عذره بعد ما بلغ وبلغ . وقرأ أنس : وحللنا ، وحططنا . وقرأ ابن مسعود : وحللنا عنك وقررك . ورفع ذكره : أن قرن بذكر الله فى كلمة الشهادة والأذان والإقامة والتشهد والخطب ، وفى غير موضع من القرآن (والله ورسوله أحق أن يرضوه) ، (ومن يطع الله ورسوله) ، (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول) وفى تسميته رسول الله ونهى الله : ومنه ذكره فى كتب الأولين ، والاخذ على الأنبياء وأمرهم أن يؤمنوا به . فإن قلت : أى فائدة فى زيادة لك ، والمعنى مستقل بدونه ^(٢) ؟ قلت : فى زيادة لك ما فى طريقة

(١) قوله « المكاره التى يتعرض لك » له تعرض بصيغة الماضى . (ع)

(٢) قال محمود : « إن قلت ما فائدة لك مع أن الإضافة تنفى عنها ... الخ » ؟ قال أحمد : وقد تقدم عند

الكلام على نظيره فى قوله : « وقال رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمري » . فرب من هذا المعنى ، والله أعلم .

الإيهام والإيضاح ، كأنه قيل : ألم نشرح لك ، ففهم أن ثم مشروحا ، ثم قيل : صدرك ، فأوضح ما علم بهما ، وكذلك (لك ذكرك) و (عنك وزرك) .

فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾

فإن قلت : كيف تعاق قوله (فإن مع العسر يسرا) بما قبله ؟ قلت : كان المشركون يعيرون رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالفقر والضيقة ، حتى سبق إلى وهمه أنهم رغبوا عن الإسلام لافتقار أهله واحتقارهم ، فذكره ما أنعم به عليه من جلائل النعم ثم قال : (فإن مع العسر يسرا) كأنه قال : خولناك ما خولناك فلا تيأس من فضل الله ، فإن مع العسر الذى أنتم فيه يسرا . فإن قلت : (إن مع) للصحبة ، فما معنى اصطحاب اليسر والعسر ؟ قلت : أراد أن الله يصيبهم بيسر بعد العسر الذى كانوا فيه بزمان قريب ، فقرب اليسر المقرب حتى جعله كالمتقارب للعسر ، زيادة فى التسايسة وتقوية القلوب . فإن قلت : ما معنى قول ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهما : لن يغلب عسر يسرين^(١) وقد روى مرفوعا أنه خرج صلى الله عليه وسلم ذات يوم وهو يضحك ويقول : لن يغلب عسر يسرين^(٢) ؟ قلت : هذا عمل على الظاهر ، وبناء على قوة الرجاء ، وأن وعد الله لا يعمل إلا على أوفى ما يحتمله اللفظ وأبلغه ، والقول فى أنه يحتمل أن تكون الجملة الثانية تذكيرا الأولى كما كرر قوله (ويل يومئذ للمكذبين) لتقرير معناها فى النفوس وتمكينها فى القلوب ، وكما يكرر المفرد فى قولك : جاءنى زيد زيد ، وأن تكون الأولى عدة بأن العسر مردوف بيسر لاحالة ، والثانية عدة مستأنفة بأن العسر متبوع بيسر ، فهما يسرا^(٣) على تقدير الاستئناف ، وإنما كان العسر واحدا لأنه لا يخلو ، إيمان أن يكون تعريفه للعهد وهو العسر الذى كانوا فيه ، فهو هو : لأن حكمه حكم زيد فى قولك : إن مع زيد مالا ، إن مع زيد مالا . وإيمان أن يكون للجنس الذى يعلمه كل أحد فهو هو أيضا . وأما اليسر فنشكر متناول لبعض الجنس ، فإذا كان الكلام الثانى مستأنفا غير مكرر فقد تناول بعضا غير البعض الأول بغير إشكال . فإن قلت : فما المراد باليسرين ؟ قلت : يجوز أن يراد بهما

(١) حديث ابن عباس : لم أجده . قلت : ذكره الفراء عن الكلبي عن ابن صالح عنه .

(٢) أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن الحسن بن مسرلة . ومن طريقه أخرجه الحاكم والبيهقي فى الذهب . ورواه الطبري من طريق أبي ثور عن معمر . وله طريق أخرى أخرجه ابن مردويه من رواية عطية بن جابر موصولا . وإسناده ضعيف . وفى الباب عن عمر رضى الله عنه ذكره مالك فى الموطأ عن زيد بن أسلم عن أبيه وأن عمر بن الخطاب بلغه أن أبا عبيدة حضر بالقام فذكر القصة . وقال فى الكتاب إلى : ولن يغلب عسر يسرين . ومن طريقه رواه الحاكم . وهذا أصح طرقه .

ما تيسر لهم من الفتوح في أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وما تيسر لهم في أيام الخلفاء ^(١) ، وأن يراد يسر الدنيا ويسر الآخرة ، كقوله تعالى (قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين) وهما حسنى الظفر وحسنى الثواب. فإن قلت : فما معنى هذا التشكيك ؟ قلت : التفتيح ، كأنه قيل إن مع العسر يسرا عظيما وأي يسر ، وهو في مصحف ابن مسعود مرة واحدة . فإن قلت : فإذا ثبت في قراءته غير مكرر ، فلم قال : والذي نفسى بيده ، لو كان العسر في جمر لطلبه اليسر حتى يدخل عليه ، إنه إن يغلب عسر يسرين ^(٢) ؟ قلت : كأنه قصد باليسرين : ما في قوله (يسرا) من معنى التفتيح ، فتأوله يسر الدارين ، وذلك يسران في الحقيقة .

فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۖ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ۝ ٨

فإن قلت : فكيف تعلق قوله (فإذا فرغت فانصب) بما قبله ؟ قلت : لما عدد عليه نعمه السالفة ووعدته الآتية ، بعثه على الشكر والاجتهاد في العبادة والنصب فيها ، وأن يواصل بين بعضها وبعض ، ويتابع ويحرص على أن لا يخلو وقتا من أوقاته منها . فإذا فرغ من عبادة ذنبا بأخرى . وعن ابن عباس : فإذا فرغت من صلاتك فاجتهد في الدعاء . وعن الحسن : فإذا فرغت من الغزو فاجتهد في العبادة . وعن مجاهد : فإذا فرغت من دنياك فانصب في صلاتك . وعن الشعبي : أنه رأى رجلا يشيل حجرا فقال : ليس بهذا أمر الفارغ ، وقعود الرجل فارغا من غير شغل أو اشتغاله بما لا يمتنيه في دينه أو دنياه : من سغه الرأي وبخافة العقل واستيلاء الغفلة ، ولقد قال عمر رضي الله عنه : إني لأكره أن أرى أحدا فارغا سهيلا لا في عمل دنيا ولا في عمل آخرة ^(٣) . وقرأ أبو السمال : فرغت - بكسر الراء - وليست بفصيحة . ومن البدع : ما روى عن بعض الرافضة أنه قرأ فانصب بكسر الصاد ، أي فانصب عليا للإمامة ؛ ولو صح هذا للرافضة لاصح للناصبي أن يقرأ هكذا ، ويجعله أمرا بالنصب ^(٤) الذي هو بغض على وعداوته (وإلى ربك فارغب) واجمل رغبته إليه خصوصا ، ولا تسأل إلا الفضله متوكلا عليه . وقرئ : فرغب أي : رغب الناس إلى طلب ما عنده .

عن النبي صلى الله عليه وسلم : ومن قرأ ألم نشرح ، فكأنما جادني وأنا مقم ففرج عني ^(٥) .

(١) قوله «وما تيسر لهم في أيام الخلفاء» لعله : وما يتيسر ، بصيغة المضارع . (ع)

(٢) حديث ابن مسعود : أخرجه عبد الرزاق عن جعفر بن سليمان عن ميمون بن مخرمة عن إبراهيم عن ابن مسعود قال : «لو كان العسر في جمر طيب لنبهه اليسر حتى يستخرجه» : إن يغلب عسر يسرين .

(٣) لم أجده ، وقد روى أحمد وابن المبارك والبيهقي كلهم في الزهد وابن أبي شيبة عن طريق المسيب بن رافع قال قال عبادة بن مسعود (إني لأماقت الرجل أراه فارغا ليس في شيء من عمل دنيا ولا آخرة) .

(٤) قوله «بالنصب» في الصحاح : نصبت لفلان نصبا : إذا عادته . (ع)

(٥) أخرجه الترمذي والواحدى وابن مردويه بأسانيدهم إلى أبي بن كعب . ورواه سليم الأهرى في البر عنه مرصلا .

سورة التين

مكية ، وآياتها ٨ [نزلت بعد البروج]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ① وَطُورِ سِينِينَ ② وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ③
 لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ④ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ⑤
 إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ⑥ قَدْ بُكَذِّبَكَ
 بَعْدُ بِالذِّينِ ⑦ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ⑧

أقسم بهما لأنهما عجيبان من بين أصناف الأشجار المثمرة ، وروى أنه أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم طبق من تين فأكل منه وقال لأصحابه : «كلوا ، فلو قلت إن فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه ، لأن فاكهة الجنة بلا عجم ، فكلوها . فإنها تقطع البواسير وتنفع من النقرس ،^(١) ومرّ معاذ بن جبل يشجرة الزيتون فأخذ منها قضيباً واستاك به وقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : نعم السواك الزيتون من الشجرة المباركة يطيب الفم ويذهب بالحفرة^(٢) ، وسمعت يقول : هي سواك وسواك الأنبياء قبل ، وعن ابن عباس رضى الله عنه : هو تينكم هذا وزيتونكم . وقيل : جبلان من الأرض المقدسة يقال لهما بالسريانية : طور تينا وطور زيتا ، لأنهما منبتا التين والزيتون . وقيل : التين ، جبال ما بين حلوان وميدان . و«الزيتون ، جبال الشام ، لأنها منابتها ، كأنه قيل : ومنابت التين والزيتون . وأضيف الطور : وهو الجبل ، إلى سينين : وهي البقعة . ونحو سينون : يبرون ، في جواز الإعراب بالوار والياء ، والإقرار على الياء ، وتحريك النون بحركات الإعراب . وللبلد : مكة حماها الله . والأمين : من أمن الرجل أمانه فهو أمين . وقيل : أمان ، كما قيل : كرام في كريم . وأمانته : أن يحفظ من دخله كما يحفظ الأمين ما يؤتمن عليه . ويجوز أن يكون فعلاً بمعنى مفعول ، من أمنته لأنه مأمون الفوائت ،

(١) أخرجه أبو نعيم في الطب . والشملي من حديث أبي ذر . وفي إسناده من لا يعرف .

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط والشملي من حديث معاذ بن جبل ، وإسناده واه .

كما وصف بالآمن في قوله تعالى (حرماً آمناً) بمعنى: ذى أمن . ومعنى القسم بهذه الأشياء .
 الإبانة عن شرف البقاع المباركة وما ظهر فيها من الخير والبركة بسكنى الأنبياء والصالحين :
 فنبت التين والزيتون مهاجر إبراهيم ومولد عيسى ومنشؤه . والطور : المكان الذى نودى منه
 موسى . ومكة : مكان البيت الذى هو هدى للعالمين ، ومولد رسول الله صلى الله عليه وسلم
 ومبعثه (فى أحسن تقويم) فى أحسن تصديق لشكله وصورته وتسوية لأعضائه . ثم
 كان عاقبة أمره حين لم يشكر نعمة تلك الخلقة الحسنة القويمة السوية : أن رددناه
 أسفل من سفلى خلقاً وتركيباً ، يعنى : أقبح من قبح صورة وأشوهه خلقه ، وهم أصحاب النار
 أو أسفل من سفلى من أهل الدرجات . أو ثم رددناه بعد ذلك التقويم والتحسين أسفل من
 سفلى فى حسن الصورة والشكل : حيث نكسناه فى خلقه ، فقوس ظهره بعد اعتداله ، وابيض
 شعره بعد سواده ، وتشنن^(١) جلده وكان بضاً ، وكل سمعه وبصره وكانا حديدين ، وتغير كل
 شيء منه : فتنشيه دليف^(٢) ، وصوته خفات ، وقوته ضعف ، وشهامته خرف^(٣) وقرأ عبدالله :
 أسفل السافلين . فإن قلت : فكيف الاستثناء على المذهبين ؟ قلت : هو على الأول متصل بظاهر
 الاتصال ، وعلى الثانى منقطع . يعنى : ولكن الذين كانوا صالحين من الهوى فلم يثابروا دائماً
 غير منقطع على طاعتهم وصبرهم على ابتلاء الله بالشيخوخة والهرم ، وعلى مقاضاة المشاق والقيام
 بالعبادة على تخاذل نهوضهم . فإن قلت : (فما يكذبك) من المخاطب به ؟ قلت : هو خطاب
 للإنسان على طريقة الالتفات ، أى : فما يجعلك كاذباً بسبب الدين وإنكاره بعد هذا الدليل ،
 يعنى أنك تكذب إذا كذبت بالجزاء ، لأن كل مكذب بالحق فهو كاذب ، فأى شيء يضطرك
 إلى أن تكون كاذباً بسبب تكذيب الجزاء . والباء مثلها فى قوله تعالى (الذين يتولونه
 والذين هم به مشركون) والمعنى : أن خلق الإنسان من نطفة ، وتقويمه بشراً سوياً وتدريبه فى
 مراتب الزيادة إلى أن يكمل ويستوى ، ثم تنكيسه إلى أن يبلغ أرذل العمر : لا ترى دليلاً
 أوضح منه على قدرة الخالق ، وأن من قدر من الإنسان على هذا كله : لم يجز عن إعادته ،
 فما سبب تكذيبك أيها الإنسان بالجزاء بعد هذا الدليل القاطع . وقيل : الخطاب لرسول الله
 صلى الله عليه وسلم (أليس الله بأحكم الحاكمين) وعيد للكفار ، وأنه يحكم عليهم بمقام

(١) قوله «وتشنن جلده» فى الصحاح التشنن : التذهيب والبس فى جلد الإنسان ، والبضاضة : رقة الجلد

وربوصته . (ع)

(٢) قوله «فهبه دليف» أى مثى وريد متقارب المظهر . (ع)

(٣) قوله «وشهامته خرف» له : خرف . (ع)

أهله . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه كان إذا قرأها قال : دلي وأنا على ذلك من الشاهدين ، ^(١) .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة والتين أعطاه الله خصلتين : العافية واليقين مادام في دار الدنيا ، وإذا مات أعطاه الله من الاجر بعدد من قرأ هذه السورة » ^(٢) .

سورة العلق

مكية ، وآياتها ١٩ [وهي أول ما نزل من القرآن]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ^(١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ^(٢)
أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ^(٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ^(٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ^(٥)

عن ابن عباس ومجاهد : هي أول سورة نزلت ، وأكثر المفسرين على أن الفاتحة أول ما نزل ثم سورة القلم . محل (باسم ربك) النصب على الحال ، أى : اقرأ مفتتحاً باسم ربك قل بسم الله ، ثم اقرأ . فإن قلت : كيف قال (خلق) فلم يذكر له مفعولاً ، ثم قال (خلق الإنسان) ؟ قلت : هو على وجهين : إما أن لا يقدر له مفعول وأن يراد أنه الذى حصل منه الخلق واستأثر به لا خالق سواه . وإما أن يقدر ويراد خلق كل شيء ، فيتناول كل مخلوق ، لأنه مطلق ، فليس بعض المخلوقات أولى بتقديره من بعض . وقوله : (خلق الإنسان) تخصيص للإنسان بالذكر من بين ما يتناوله الخلق ؛ لأن التنزيل إليه وهو أشرف ما على الأرض . ويجوز أن يراد : الذى خلق الإنسان ، كما قال (الرحمن علم القرآن خلق الإنسان) فقيل : (الذى خلق) مبهما ، ثم فسره بقوله (خلق الإنسان) تفخيماً لخلق الإنسان . ودلالة على عجيب فطرته . فإن قلت : لم قال (من علق) على الجمع ، وإنما خلق من علقه ، كقوله (من نطفة ثم من علقه) ؟ قلت : لأن

(١) أخرجه الحاكم عن أبي هريرة بالاسناد المتقدم فى القيامة ورواه الطبري من رواية سميد عن قتادة قال : ذكر لنا - فذكره .

(٢) أخرجه الترمذي والواحدي وابن مردويه بأسانيدهم إلى أبي بن كعب .

الإنسان في معنى الجمع ، كقوله (إن الإنسان لفي خسر) . (الأكرم) الذي له الكمال في زيادة كرمه على كل كرم ، ينعم على عباده النعم التي لا تحصى ، ويعلم عنهم فلا يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وجحودهم لنعمه وركوبهم المناهي وإطراحهم الأوامر ، ويقبل توبتهم ويتجاوز عنهم . بعد إقتراف العظائم ، فما لكرمه غاية ولا أمد ، وكأنه ليس وراء التكرم بإفادة القوائد العلمية تكرم ، حيث قال : الأكرم (الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) فدل على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا ، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، ونبه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو ، ومادونات العلوم ولا قيدت الحكم ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة ؛ ولولا هي لما استقامت أمور الدين والدنيا ؛ ولو لم يكن على دقيق حكمة الله ولطيف تدبيره ودليل إلا أمر القلم والخط ، لكتفى به . ولبعضهم في صفة القلم :

وَرَوَاقِمِ رُقَشٍ كَمِثْلِ أَرَاقِمِ قُطُفِ الْخُطَا نَوَالَةٍ أَفْصَى الْمَدَى
سُودِ الْقَوَائِمِ مَا يَجِدُ مَسِيرَهَا إِلَّا إِذَا لَعِبَتْ بِهَا بَيْضُ الْمَدَى ^(١)

(١) للزخشرى رحمه الله تعالى في صفة الأفلام ، وكان حقه أن يذكر في حرف الدال ؛ لأن حروف الاطلاق وهي الألف والواو والياء الساكنات غير معترة في هذه الأبواب ؛ وإنما أخرناه ليكون جوازا للأفلام على عملها كما أن الأجير يوفى أجره بعد تمام عمله . والرواقم : جمع راقفة صفة للأفلام ، وهو مجرور برب المقدرة . وخبره قوله : كمثل أراقم . أو قطف الخطى ؛ والأظهر أن الخبر قوله : ما يجد مسيرها . وإستناد الرقم إليها مجاز عقلي ، لأنها آتية . والرقش : جمع أرقش . أو رقشاء : الحية المنقوشة الظهر . والأراقم - جمع أراقم الثعبان الذي فيه سواد وبياض . والقطف : جمع أقطف ، وهو الذي يقارب بين خطاه . والخطى : جمع خطوة بالنعم . والمدى ، بالفتح : يطلق على المسافة وعلى غائبتها . والسود : جمع أسود أو سوداء . والقوائم : الأرجل . والجذ بمعنى الاجتهاد أو ضد الهزل . والبيض : جمع يبيض . والمدى : بالنعم : جمع مدية ، وهي الشفرة ، ثم إنه شبه انتقاش الأفلام بانتقاش الحيات ، فاستعار له الرقش على سبيل الاستعارة التصريرية ؛ وشبهها بالأراقم بجامع اللون والاعتداد بمينا وشملا وانتفاق لسان كل شبعين وإلقائه اللعاب ؛ فالجامع مركب حسي . وقيل : إنه من قبيل تضييه المركب المحسوس بالمركب المحسوس بجامع الهيئات التي تقع عليها الحركة . وكرر أداة التشبيه للتوكيد ، ثم شبهها بالدواب السائرة على طريق الممكنية ، بجامع اللون والتردد ، والذهاب والاياب ، والتوصل بكل إلى المراد ، وإثبات القطف والخطو والقوائم : تخييل . وقيل : يجوز أن هذا من قبيل تضييه المركب بالمركب أيضا ، وهي وإن كان سيرها قليلا : تبلغ صاحبها مراده ، وإن كان بعيدا فنسبة التيل إليها مجاز عقلي ؛ لأنها آتية . وشبه المراد المعقول بالمقصد المحسوس ، وهو آخر المسافة بجامع الاحتياج في إدراك كل إلى أسباب : فأقصى المدى : استعارة تصرية ؛ وهي ترشيح تلك الممكنية ؛ وقوائم الأفلام : ما دق وطال من أطرافها ، وهي سود دائما ؛ وإثبات الجذ للسير بمبالغة بكذ جهده . وشبه المدى بما يصح منه اللعب على سبيل الممكنية ، وإثبات القلب تخييل هذا بيانه . وفيه من البديع بين الرواقم والأراقم شبه الاشتقاق ، وبين «قطف الخطى» و«غاية أقصى المدى» شبه التضاد ؛ وبين السود والبيض ، وبين الجذ واللعب ؛ وطباق التضاد ؛ وبين المحسر ولعب المدى : شبه التضاد بحسب الظاهر ؛ لأن المدى =

وقرأ ابن الزبير : علم الخط بالقلم .

كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَلْبٌ ۝ (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ۝ (٧) إِنَّ رَبَّكَ الرَّجْمَى ۝ (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ۝ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى ۝ (١٠) أَرَأَيْتَ
 إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ۝ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ۝ (١٢) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۝ (١٣)
 أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ۝ (١٤) كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۝ (١٥)
 نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝ (١٦) فَلَوْ دُعُ نَادِيَهُ ۝ (١٧) سَدَّعُ الزَّبَانِيَةِ ۝ (١٨) كَلَّا
 لَا يُطِئُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ۝ (١٩)

(كلا) ردع لمن كفر بنعمة الله عليه بطغيانه ، وإن لم يذكر لدلالة الكلام عليه (أن رآه) أن رأى نفسه . يقال في أفعال القلوب : رأيتني وعلمتني ، وذلك بعض خصائصها . ومعنى الرؤية : العلم ؛ ولو كانت بمعنى الإبصار لا متنع في فعلها الجمع بين الضميرين . و (استغنى) هو المفعول الثاني (إن إلى ربك الرجعى) واقع على طريقة الالتفات إلى الإنسان ، تهديداً له وتحذيراً من عاقبة الطغيان . والرجعى : مصدر كالشرى بمعنى الرجوع . وقيل : نزلت في أبي جهل ، وكذلك (أرأيت الذى ينهى) وروى أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أتزعم أن من استغنى طغى ، فأجعل لنا جبال مكة فضة وذها ، لعلنا نأخذ منها فنعطى فندع ديننا وتتبع دينك ، فنزل جبريل فقال : إن شئت فعلنا ذلك ، ثم إن لم يؤمنوا فعلنا بهم ما فعلنا بأصحاب المائدة ، فكف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدعاء بإبقاء عليهم ^(١) . وروى عنه لعنه الله أنه قال : هل يعز محمد وجهه بين أظهركم ؟ قالوا : نعم . قال : فوالذى يحلف به ، لئن رأيته توطأت عنقه ، فجاءه ثم نسكص على عقيه ، فقالوا له : مالك يا أبا الحكم ، فقال : إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة ، فنزلت (أرأيت الذى ينهى) ومعناه : أخبرنى عن من ينهى بعض عباد الله عن صلاته إن كان ذلك الناهى على طريقة سديدة فيما ينهى عنه من عبادة الله . أو كان آمراً بالمعروف والنهي عن المنكر فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما همته ، وكذلك إن كان على التكذيب للحق والتولى عن الدين الصحيح ، كما نقول نحن (الم يعلم بأن الله يرى)

== تبطل سير الحيوان إذا لعبت بقوائمه ، لكنه مناسب للأقلام . وبين المدي والمدى : الجنس المحرق ؛ وهذا ما يدل على أن المصنف رحمه الله وعنه برضاء : كان من مقلتي صخرة البيان ، الحائزين قصبات السبق في هذا الميدان . (١) لم أجده . قلت : وآخره تقدم في الاسراء بغير هذا السياق .

ويطلع على أحواله من هداه وضلاله ، فيجازيه على حسب ذلك . وهذا وعيد . فإن قلت : ما متعلق رأيت ؟ قلت : الذى ينهى مع الجملة الشرطية ، وهما فى موضع المفعولين . فإن قلت : فأين جواب الشرط ؟ قلت : هو محذوف ، تقديره : إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى ، ألم يعلم بأن الله يرى . وإنما حذف لدلالة ذكره فى جواب الشرط الثانى . فإن قلت : فكيف صح أن يكون (ألم يعلم) جواباً للشرط ؟ قلت : كما صح فى قولك : إن أكرمك أتكرمى ؟ وإن أحسن إليك زيد هل تحسن إليه ؟ فإن قلت : فما رأيت الثانية وتوسطها بين مفعول رأيت ؟ قلت : هى زائدة مكررة للتوكيد . وعن الحسن أنه أمية بن خلف كان ينهى سلبان عن الصلاة (كلا) ردع لآبى جهل وخسوه له عن نهيه عن عبادة الله تعالى وأمره بعبادة اللات ، ثم قال (لئن لم ينته) عما هو فيه (لنسفعا بالناسية) لناخذن بناصيته ونسحبته بها إلى النار . والسفع : القبض على الشيء وجذبه بشدة . قال عمرو بن معد يكرب :

قَوْمٌ إِذَا بَقَعَ الصَّرِيحُ رَأَيْتَهُمْ مِنْ لَيْنٍ مُلْجِمٍ مُهْرِهِ أَوْ سَافِعٍ ^(١)

وقرى : لنسفن ، بالنون المشددة . وقرأ ابن مسعود : لاسفعا . وكتبته فى المصحف بالالف على حكم الوقف ، ولما علم أنها ناصية المذكور : اكتفى بلام العهد عن الإضافة (ناصية) بدل من الناصية ؛ وجاز بدلها عن المعرفة ، وهى نكرة ؛ لأنها وصفت فاستقلت بغائدة . وقرئ : ناصية ، على : هى ناصية . وناصية بالنصب . وكلاهما على التثنية . ووصفها بالكذب والخطأ على الإسناد المجازى . وهما فى الحقيقة لصاحبها . وفيه من الحسن والجزالة ما ليس فى قولك : ناصية كاذب خاطئ . والنادى : المجلس الذى ينتدى فيه القوم . أى يجتمعون . والمراد : أهل الندى . كما قال جرير :

* لَهْمُ مَجْلِسِ صُهْبِ السَّبَالِ أَذْلَةٌ * ^(٢)

(١) لحيد من ثور الهلالى الصحابى ، أى : هم قوم إذا نفع الصريح ، أى : ارتفع الصباح للحرب أسرعوا إليها فتراهم دائرين بين ملجم مهرة وسافع ، أى : قابض بناصية مهرة ، ويجذبه إليه بسرعة . ومن زائدة ؛ ولو كانت فى الإثبات . وأر بمعنى الواو . ويروى : إذا يقع بالياء ، أى : يحصل . ويروى : إذا هتف ، أى : صاح ، فيكون كجد جده . ويجوز أن الصريح بمعنى الصارخ . ويروى : إذا سمعوا الصريح فهو مفعول . ويروى : ما بين ملجم . وهذا مما يؤيد أن « من » فى تلك الرواية زائدة .

(٢) لم مجلس صهب السبال أذلة على من يعادهم أشداء قاعلم يقول : لم مجلس يجتمعون فيه . أولهم قوم يجتمعون جالسون ، ولا ترى ذلك إلا فى الرؤساء الأشراف . وصهب السبال : صفة لمرجع الضمير فى لم على الأول ، وصفة لمجلس على الثانى ؛ لأنه بمعنى المجالسين . والصهبة : حرة ترهق السواد . والصهبة : جمع أصهب . والسبال : طرف الشارب جانب الفم ، وظل الصهبة من خواص الروم ،

وقال زهير :

* وَفِيمَ مَقَامَاتٍ حَسَنٍ وَجُوهُهُمْ *

والمقامة : المجلس . روى أن أبا جهل مر برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي فقال : ألم أنك ؟ فأعاط له رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال : أتدنى وأنا أكثر أهل الوادي ناديا ^(١) ، فزلت . وقرأ ابن أبي عملة : سيدعي الزبانية ، على البقاء للمفعول ، والزبانية في كلام العرب : الشرط ، الواحد : زبنية ، كعفرية ، من الزين : وهو الدفع . وقيل : زبني ، وكأنه نسب إلى الزين ، ثم غير للنسب ، كقولهم أمسي : وأصله : زباني ، فقيل : زبانية على التعويض ؛ والمراد : ملائكة العذاب . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : لو دعا ناديه لأخذته الزبانية عيانا ^(٢) ، (كلا) ردع لآبي جهل (لا تعلم) أي أثبت على ما أنت عليه من عصيانه ، كقوله (فلا تطع المكذبين) . (وأبجد) ودم على سجودك ، يريد : الصلاة (واقرب) وتقرب إلى ربك . وفي الحديث : « أقرب ما يكون العبد إلى ربه إذا سجد » ^(٣) .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، « من قرأ سورة العلق أعطى من الاجر كأنما قرأ المفصل كله » ^(٤) ،

== وهو كناية عن الغلظة والحدة ، وأذلة : أي فنيا بينهم أشدها على من يعاديهم . وقدم المعمول للصدر . فاعلم ذلك وتيقنه فهو حق . ويروي بدل الشطر الثاني : « سواسية أحرارها وعبيدها » . وسواسية كطواعية جمع سواء على غير قياس . وقيل : اسم جمع بمعنى مستوين . بمعنى : أنهم مستوون في الشرف وكمال الأخلاق ، ولولا مقام المدح لكان من قبيل التوجيه ، لاحتماله لوجه الذم أيضا . وأما إن قرئ بالكسر والتشديد ، فهو منسوب للسواس وهو القرن على حسن السير ، يعني أنت جميعهم رؤساء ، ولكن الأول أوجه . ومنه الحديث : « الناس سواسية لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » كما في ترجمة هرج الناموس .

(١) أخرجه الطبري وابن مردويه بهذا وأتم منه . وهو عند الترمذي والنسائي والحاكم وأبو شيبة والبخاري كلهم من رواية أبي عاصم الأحمري عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما . قلت : وأصله في صحيح البخاري .

(٢) أخرجه البخاري والنسائي من رواية معمر بن عبد الكريم الحريري عن عكرمة عن ابن عباس به . وهو الذي قبله من قول ابن عباس رضي الله عنهما .

(٣) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ « وهو ساجد » .

(٤) أخرجه الترمذي والواحد وابن مردويه بأسانيدهم إلى أبي بن كعب .

سورة القدر

مكية ، وقيل مدنية ، وآياتها ٥ [نزلت بعد عبس]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ① وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ② لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ③ فَتَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ④ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ⑤

عظم القرآن من ثلاثة أوجه : أحدها : أن أسند إنزاله إليه وجعله مختصا به دون غيره : والثاني . أنه جاء بضميره دون اسمه الظاهر شهادة له بالنباهة والاستثناء عن التنبيه عليه : والثالث : الرفع من مقدار الوقت الذي أنزل فيه . روى أنه أنزل جملة واحدة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا . وأمله جبريل على السفرة ، ثم كان ينزله على رسول الله صلى الله عليه وسلم نجوما في ثلاث وعشرين سنة . وعن الشعبي : المعنى إنا ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر واختلفوا في وقتها فأكثرهم على أنها في شهر رمضان في العشر الأواخر في أوتارها ، وأكثر القول أنها السابعة منها ؛ ولعل الداعي إلى إخفائها أن يحيي من يريد بها الليالي الكثيرة : طلبا لموافقتها ، فتكثر عبادته ويتضاعف ثوابه ، وأن لا يتكل الناس عند إظهارها على إصابة الفضل فيها فيفرطوا في غيرها . ومعنى ليلة القدر : ليلة تقدير الأمور وقضائها ، من قوله تعالى (فيها يفرق كل أمر حكيم) وقيل سميت بذلك لحظها وشرفها على سائر الليالي (وما أدراك ما ليلة القدر) يعنى : ولم تبلغ درايتك غاية فضلها ومنتهى علو قدرها ، ثم بين ذلك بأنها خير من ألف شهر ، وسبب ارتقاء فضلها إلى هذه الغاية ما يوجد فيها من المصالح الدينية التي ذكرها : من تنزل الملائكة والروح ، وفصل كل أمر حكيم ، وذكر في تخصيص هذه المدة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر رجلا من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر . فعجب المؤمنون من ذلك ، وتقاصرت إليهم أعمالهم ، فأعطوا ليلة هي خير من مدة ذلك الغازي ^(١) . وقيل : إن الرجل فيما مضى ما كان يقال له عابد حتى يعبد الله ألف شهر ، فأعطوا

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وغيره من طريق ابن خالد عن ابن أبي نعيم عن مجاهد به مرسل دون قوله « وتقاصرت إليهم أعمالهم » .

ليسلة إن أحيوها كانوا أحق بأن يسموا عابدين من أولئك العباد (تنزل) إلى السماء الدنيا ، وقيل : إلى الأرض (والروح) جبريل . وقيل : خلق من الملائكة لاتراهم الملائكة إلا تلك الليلة (من كل أمر) أى تنزل من أجل كل أمر قضاء الله لتلك السنة إلى قابل . وقرئ : من كل امرئ ، أى : من أجل كل إنسان . قيل : لا يلقون مؤمناً ولا مؤمنة إلا سلوا عليه في تلك الليلة (سلام هى) ما هى الإسلام ، أى : لا يقدر الله فيها إلا السلامة والخير ، ويقضى في غيرها بلاء وسلامة . أو : ما هى الإسلام لكثرة ما يسلبون على المؤمنين . وقرئ : مطلع ، بفتح اللام وكسرهما .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة القدر أعطى من الأجر كن صام رمضان وأحيا ليلة القدر^(١) » .

سورة البينة

مكية ، وقيل : مدنية ، وآياتها ٨ [نزلت بعد الطلاق]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ① رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ② فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ③ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ ④ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ⑤ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ⑥ إِنَّ الَّذِينَ

(١) أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بسندهم إلى أبي بن كعب .

ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ
جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا
عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾

كان الكفار من الفريقين أهل الكتاب وعبداء الأصنام يقولون قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم : لا تنفك مما نحن عليه من ديننا ولا نتركه حتى يبعث النبي الموعود الذي هو مكتوب في التوراة والإنجيل ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، فحكى الله تعالى ما كانوا يقولونه ثم قال ﴿وماتفرق الذين أوتوا الكتاب﴾ يعني أنهم كانوا يعدون اجتماع الكلمة والاتفاق على الحق : إذا جاهد الرسول ، ثم ما فرقهم عن الحق ولا أقرهم على الكفر إلا بحجى الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ ونظيره في الكلام أن يقول الفقير الفاسق لمن يعظه : لست بمنفك بما أنا فيه حتى يرزقني الله الغنى ، فيرزقه الله الغنى فيزداد فسقاً ، فيقول واعظه : لم تكن بمنفك عن الفسق حتى توسر ، وما غمست رأسك في الفسق إلا بعد اليسار : يذكره ما كان يقوله توبيخاً وإلزاماً . وانفكك الشيء من الشيء . أن يزيله بعد التحامه به ، كالعظم إذا انفك من مفصله ؛ والمعنى : أنهم متشبثون بدينهم لا يتركونه إلا عند بحجى البينة . و﴿البينة﴾ الحجة الواضحة ^(١) . و﴿رسول﴾ بدل من البينة . وفي قراءة عبدالله : رسولا ، حالا من البينة ﴿صحفاً﴾ قرطيس ﴿مطهرة﴾ من الباطل ﴿فيها كتب﴾ مكتوبات ﴿قيمة﴾ مستقيمة ناطقة بالحق والعدل ؛ والمراد بتفرقهم : تفرقهم عن الحق وانقشاعهم عنه . أو تفرقهم فرقا ؛ فمنهم من آمن ، ومنهم من أنكر وقال : ليس به ؛ ومنهم من عرف وعاند . فإن قلت : لم جمع بين أهل الكتاب والمشركون أو لا ثم أفرد أهل الكتاب في قوله ﴿وماتفرق الذين أوتوا الكتاب﴾ ؟ قلت : لأنهم كانوا على علم به لوجوده في كتبهم ، فإذا وصفوا بالتفرق عنه كان من لا كتاب له أدخل في هذا الوصف ﴿وما أمروا﴾ يعني في التوراة والإنجيل إلا بالدين الحنيفي ، ولكنهم حرفوا وبدلوا ﴿وذلك دين القيمة﴾ أى دين الملة القيمة . وقرئ : وذلك الدين القيمة ، على تأويل الدين بالملة . فإن قلت : ما وجه قوله ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله﴾ ؟ قلت : معناه : وما أمروا بما في الكتابين إلا لاجل أن يعبدوا الله على هذه الصفة . وقرأ ابن مسعود : إلا أن يعبدوا ، بمعنى : بأن يعبدوا . قرأ نافع : البرية

(١) قوله «والبينة الحجة الواضحة» في نسخة بدل «والبينة» : القرآن ، وأول تأنيهم بينة مافي الصحف الأولى ورسول من الله : جبريل صلوات الله عليه ، وهو التالى للصحف المطهرة المتأخضة من اللوح الذى فكرت في سورة هيس ، ولا بد من مضاف محذوف وهو الوحى . ويجوز أن يراد النبي صلى الله عليه وسلم . فإن قلت : كيف نسبة تلاوة للصحف المطهرة إليه وهو أى ؟ قلت : إذا تلا مثل المذكور فيها كان تألياً لها ... (ع)

بالهمز؛ والقراء على التخفيف . والنبي ، والبرية : بما استمر الاستعمال على تخفيفه ورفض الأصل وقرئ : خيار البرية : جمع خير ، كجناد وطياب : في جمع جيد وطيب .
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : ومن قرأ لم يكن كان يوم القيامة مع خير البرية مساء ومقبلاً^(١) .

سورة الزلزلة

مدنية وقيل مكية ، وآياتها ٨ [نزلت بعد النساء]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ① وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَنْقَالَهَا ②
وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ③ يَوْمَئِذٍ تُخَدِّثُ أَخْبَارَهَا ④ بِأَنَّ رَبَّكَ
أَوْحَىٰ لَهَا ⑤ يَوْمَئِذٍ يُصْدِرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لَّيُرَوُا أَعْمَلَهُمْ ⑥ فَمَنْ يَعْمَلْ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ⑦ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ⑧

(زلزالها) قرئ بكسر الزاي وفتحها : فالمكسور مصدر ، والمفتوح : اسم ؛ وليس في الآية فعلا بالفتح إلا في المضاعف . فإن قلت : ما معنى زلزالها بالإضافة ؟ قلت : معناه زلزالها الذي تستوجه في الحكمة ومشية الله ، وهو الزلزال الشديد الذي ليس بعده . ونحوه قولك : أكرم التقي إكرامه ، وأهن الفاسق إهانته ، تريد : ما يستوجبانه من الإكرام والإهانة أو زلزالها كله وجميع ما هو ممكن منه . الانتقال : جمع^(٢) نقل . وهو متاع البيت ، وتحمل أنقالكم جعل ما في جوفها من الدفائن أنقالا لها (وقال الإنسان ما لها) نزلت هذه الزلزلة الشديدة ولفظت ما في بطنها ؛ وذلك عند النفخة الثانية حين تزلزل وتلفظ أمواتها أحياء ، فيقولون ذلك

(١) أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بسندهم إلى أبي بن كعب .

(٢) قوله « جمع نقل وهو متاع » في الصحاح « الثقل » : واحد الانتقال ، مثل حمل وأحمال . والثقل - بالتحريك

متاع المسافر وحشمه . (ع)

لما يهرم من الأمر الفطيع ، كما يقولون : (من بعثنا من مرقدنا) . وقيل : هذا قول الكافر ؛ لأنه كان لا يؤمن بالبعث ؛ فأما المؤمن فيقول : هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون . فإن قلت : ما معنى تحديث الأرض والإحياء لها ؟ قلت : هو مجاز عن إحداث الله تعالى فيها من الأحوال ما يقوم مقام التحديث بالنسيان ، حتى ينظر من يقول ما لها إلى تلك الأحوال ، فيعلم لم زلزلت ولم لفظت الأموات ؟ وأن هذا ما كانت الأنبياء ينذرونه ويحذرون منه . وقيل : ينطقها الله على الحقيقة . وتخبر بما عمل عليها من خير وشر . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تشهد على كل أحد بما عمل على ظهرها ^(١) . فإن قلت : (إذا ، ويومئذ) : ما ناصبهما ؟ قلت : (يومئذ) : بدل من (إذا) ، وناصبهما (تحدث) . ويجوز أن ينتصب (إذا) بمضمر ، و(يومئذ) بتحدث . فإن قلت : أين مفعولا (تحدث) ؟ قلت : قد حذف أولها ، والثاني أخبارها ، وأصله تحدث الخلق أخبارها ؛ إلا أن المقصود ذكر تحديثها الأخبار لا ذكر الخلق تعظيما لليوم . فإن قلت : هم تعلقت الباء في قوله (بأن ربك) ؟ قلت : بتحدث ، معناه : تحدث أخبارها بسبب إحياء ربك لها ، وأمره إياها بالتحديث . ويجوز أن يكون المعنى : يومئذ تحدث بتحديث أن ربك أوحى لها أخبارها ، على أن تحديثها بأن ربك أوحى لها : تحديث بأخبارها ، كما تقول : نصحتني كل نصيحة ، بأن نصحتني في الدين . ويجوز أن يكون (بأن ربك) بدلا من (أخبارها) كأنه قيل : يومئذ تحدث بأخبارها بأن ربك أوحى لها ؛ لأنك تقول : حدثته كذا وحدثته بكذا . و (أوحى لها) بمعنى أوحى إليها ، وهو مجاز كقوله (أن تقول له كن فيكون) قال :

• أَوْحَى لَهَا الْقَرَارَ فَاسْتَقَرَّتْ • ^(٢)

وقرأ ابن مسعود : تنبئ أخبارها ، وسعيد بن جبير : تنبئ ، بالتخفيف . يصدر عن غار جهنم من القيور إلى الموقف (أشتاتا) بيض الوجوه آمنين ؛ وسود الوجوه فزعين . أو يصدر عن الموقف أشتاتا ينفق بهم طريقا الجنة والنار ، ليروا جزاء أعمالهم . وفي قراءة النبي صلى الله عليه وسلم : ليروا بالفتح . وقرأ ابن عباس وزيد بن علي : يره ، بالضم . ويحكى أن أعرايا آخر (خير آية) فقيل له ، قدمت وأخرت : فقال :

(١) أخرجه الترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم من رواية ابن أبيوب عن يحيى عن أبي سليمان المنقري عن أبي هريرة . وسعيد ثقة . وخالفه رشدين بن سعد وهو ضعيف فقال : عن يحيى بن أبي سليمان عن أبي حارم بالسندين المذكورين عن أنس بن مالك . وأخرجه ابن مردويه .

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثالث صفحة ٧٥ فراجع إن شئت اه مصححه .

خُذَا بَطْنَ هَرَشَى أَوْقَمَاهَا فَإِنَّهُ كَلَّا جَانِبِي هَرَشَى لَهْنٌ طَرِيقُ (١)

والذرة : الخلة الصغيرة ، وقيل والذرة ما يرى في شعاع الشمس من الهباء . فإن قلت حسنات الكافر محبطة بالكفر ، وسينات المؤمن معفوة باجتنايب الكبائر ، فما معنى الجزاء بمثاقيل الذر من الخير والشر (٢) ؟ قلت : المعنى فمن يعمل مثقال ذرة خيراً : من فريق السعداء . ومن يعمل مثقال ذرة شراً : من فريق الأشقياء ؛ لأنه جاء بعد قوله (يصدر الناس أشتاتاً) ،

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن قرأ سورة إذا زلزلت أربع مرات كان كمن قرأ القرآن كله ، (٣) .

(١) روى أن أعرابياً أخر قوله تعالى (خيراً يره) عما بعده ، فقيل : قدمت وأخرت ، فغضب ذلك البيت مثلاً . وهرشى - ككبرى : ثنية في طريق مكة عند الجحفة ، أى : اسلكا أمام تلك الثنية أو خلفها ، فانه أى : الحال والهدان كل من جانبيها طريق اللابل الى تطالباما ، وتكرير لفظ «هرشى» لتقريرها في ذهن السامع خوف غفلته عنها ، والمقام كان مقام هداية ، لحسن فيه ذلك .

(٢) قال محمود : «إن قلت حسنات الكافر محبطة بالكفر .. الخ» قال أحد : السؤال مبنى على قاعدتين : إحداهما : أن حسنات الكافر محبطة بالكفر ، وهذه فيها نظر ؛ فإن حسنات الكافر محبطة ، أى : لا يثاب عليها ولا ينعم . وأما تخفيف العذاب بسببها ، فغير منكر ؛ فقد وردت به الأحاديث الصحيحة . وقد ورد أن حاتمًا يخفف الله عنه لكرمه ومعروفه ، وورد ذلك في حق غيره كآبى طالب أيضا ، لحفظ حسنات الكافر أثر ما في تخفيف العذاب ، فيمكن أن يكون المرئى هو ذلك الأثر ، والله أعلم . وأما القاعدة الثانية : وهى القول بأن اجتنايب الكبائر بوجوب تميم الصنائع وبكفرها عن المؤمن ، فردود عند أهل السنة : فالتصانف عندهم حكما في التكفير في حكم الكبائر : تكفر بأحد أمرين : إما بالثبوت النصوح المقبولة ، وإما بالمشقة لاغير ذلك . وأما اجتنايب الكبيرة عندهم فلا بوجوب التكفير للصغيرة ، فالسؤال المذكور إذا ساقط عن أهل السنة ، ولكن العشرى التزم الجواب عنه للزومه على قاعدته الفاسدة ؛ والله الموفق .

(٣) أخرجه القليل من حديث على باسعاد أهل البيت ، لكنه من رواية أبى الفاسم الطائى . وهو ساقط وشاهده عند ابن أبي شيبة والبخارى من رواية سلمة بن ذروان عن أنس مرفوعا : إذا زلزلت تعدل ربع القرآن . وأخرجه ابن مردويه والواحدى بإسناديهما إل أبى بن كعب باللفظ «من قرأ إذا زلزلت أعطى من الاجر كمن قرأ القرآن .

سورة العاديات

مكية ، وقيل مدنية ، وآياتها ١١ [نزلت بعد العصر]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْعًا ① فَالْمُورِيَّاتِ قَدْحًا ② فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ③ فَأَنْزَلَ بِهِ قُمْحًا ④ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمًّا ⑤ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ⑥ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ⑦ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ⑧ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ⑨ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ⑩ إِنَّ رَبَّهُم بِمَا يُمْرُونَ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ⑪

أقسم بحبل الغزاة تعدو فتضج . والضج : صوت أنفاسها إذا عدون . وعن ابن عباس أنه حكاه فقال : أح . قال عنتره :

وَالْخَيْلُ تَمْكُدُ حِينَ تَضْبَعُ فِي حِيَاضِ اللَّوْتِ صُبْحًا ⑪

وانتصاب ضبعا على : يضبحن ضبعا ، أو بالعاديات ، كأنه قيل : والضابحات ؛ لأن الضج يكون مع العدو ⑫ . أو على الجمال ، أى : ضابحات (فالموريات) تورى نار الجباب ⑬

(١) المكح : الجد في العدو ، والضج : إخراج النفس بصوت غير الصهيل والهمهمة . وحكاه ابن عباس في التفسير فقال : أح : وشبه الموت بالسيل على طريق المكتبة ، والحياض تحييل لذلك .

(٢) قال محمود : وأقسم بحبل الغزاة تعدو فتضج والضج صوت أنفاسها ... الخ . قال أحمد : ولم يذكر حكمة الاتيان بالفعل معطوفا على الاسم ، فنقول : إنما عطف (أثرن) على الاسم الذي هو (العاديات) وما بعده لأنها أسماء فاعلين ، تعطى معنى الفعل . وحكمة مجيء هذا المصطلف فعلا عن اسم فاعل : تصوير هذه الأفعال في النفس ؛ لأن التصوير يحصل بإيراد الفعل بعد الاسم ، لما بينهما من التخالف : وهو أبان من التصوير بالأسماء المتناسقة ، وكذلك التصوير بالمضارع بعد الماضي ؛ وقد تقدمت له شواهد أخرى قول ابن معد يكرب :

بأنى لقيت القول تورى بسبب كالصديقة محمدجان

فأخرجها بلا دهن ظفرت صرهما بالدين والجران

(٣) قوله « تورى نار الجباب » الجباب : اسم رجل بخيل كان لا يوقد إلا نارا ضعيفة مخافة الضيفان . فظنوا به المثل حتى قال : نار الجباب : لما تقدمه الخيل بموافرها . اه من الصحاح . (ع)

وهي ما ينقذ من حوافرها (قدحا) قاذحات صاكات بجوافرها الحجارة . والقدح . الصك . والإبراء . إخراج النار . تقول . قدح فأورى ، وقدح فأصلد ^(١) ، وانتصب قدحا بما انتصب به ضبجا (فالمغيرات) تغير على العدو (صبجا) في وقت الصبح (فأثرن به نفعاً) فهيجن بذلك الوقت غباراً (فوسطن به) بذلك الوقت ، أو بالنقع ، أى وسطن النقع الجمع . أو فوسطن ملتبسات به (جمعا) من جموع الأعداء . ووسطه بمعنى توسطه . وقيل : الضمير لمكان الغارة . وقيل : للعدو الذى دل عليه (والعاديات) ويجوز أن يراد بالنقع : الصباح ، من قوله عليه السلام « ما لم يكن نقع ولا لقلقة » ^(٢) ، وقول لبيد :

• قَسِيَّ يَنْقَعُ صُرَاخُ صَادِقٍ • ^(٣)

أى : فهيجن في المخار عليهم صياحا وجلبة ^(٤) . وقرأ أبو حيوه : فأثرن بالتشديد ، بمعنى : فأظهروا به غباراً ؛ لأن التأثير فيه معنى الإظهار . أو قلب ثورن إلى وثرن ، وقلب الواو همزة . وقرئ : فوسطن بالتشديد للتعدية . والباء مزيدة للتوكيد ، كقوله (وأثوابه) وهى مبالغة في وسطن . وعن ابن عباس : كنت جالساً فى الحجر فجاء رجل فسألنى عن (العاديات ضبجا) ففسرتها بالخيال ، فذهب إلى على وهو تحت سقاية زمزم فسأله وذكر له ما قلت ، فقال : ادعه لى ، فلما وقفت على رأسه قال : تفق الناس بما لا علم لك به ، والله إن كانت لأول غزوة فى الإسلام بدر ،

(١) قوله « فأصلد » فى الصحاح : صد الزند ، إذا صوت ولم يخرج ناراً ؛ وأصلد الرجل : أص صله زنده اه . (ع)

(٢) لم أجده مرغوما . وإنما ذكره البخارى فى الجنائز تعليقاً عن عمر . قال « دعهن يكنين على أبى سليمان ما لم يكن نقع أو لقلقة » قال : ولدفع التراب على الرأس والقلقة الصوت . ورواه عبد الرزاق والحاكم وابن سعد وأبو عبيد والحري فى التريب كلهم من طريق الأعمش عن أبى واثل قال « وقيل لعمر : إن نسوة من بنى النضير قد اجتمعن فى دار خالد بن الوليد يكنين عليه . وإنما نكره أن يؤذيك . فلو نهيتهن فقال : ما عليهن أن يهرقن من دموعهن على أبى سليمان - جلأ أو سجلين ما لم يكن نقع أو لقلقة » وفى رواية ابن سعد قال : وكيع : النقع الشق . والقلقة الصوت . وقال بعضهم : رفع التراب على الرأس وشق الجيوب . وأما اللقلقة فهى شدة الصوت . ولم أسمع فيه خلافاً . وقال الحري عن الأصمى . لنقع الصباح . وعن أبى سلة هو وضع التراب على الرأس .

(٣) ففى ينقع صراخ صادق جلبوه ذات جرس وزجل

لبيد بن ربيعة . وجلب على فرسه وأجلب : إذا صاح به وحفه على السبق . وجلب بالتهديد :- صوت . والجلب الصوت الخفى . والزجل : صوت كدوى النحل . يقول : ففى يرتفع صراخ للحرب صادق صرخوه ذات جرس ، أى : كناية ذات جرس ، وهو يدل من فاعل جلبوه . أو جاء على لغة أكرانى البراغيف . والمضى : أن الصوت المنخفض ملازم لها ، بخلاف المرتفع . ويجوز أن « جلبوه » جواب الشرط . ويجوز أنه صفة صراخ ، وجواب الشرط فيما بعده ، وهو أقرب من الأول .

(٤) قوله « صياحا وجلبة » فى الصحاح : الجلب والجلبة : الأصوات . (ع)

وما كان معنا إلا فرسان : فرس للزير وفرس للقداد (العاديات ضبحا) الإبل من عرفة إلى المزدلفة، ومن المزدلفة إلى منى ^(١) : فإن صححت الرواية فقد استعير الضبح للابل، كما استعير المشافر والحافر للانسان، والثفتان للهر، والثفر للثورة ^(٢) وما أشبه ذلك. وقيل الضبح لا يكون إلا للفرس والكلب والثعلب. وقيل : الضبح بمعنى الضبيع، يقال : ضبحت الإبل وضبحت : إذا مدت أضياعها في السير، وليس بثبت. وجمع : هو المزدلفة. فإن قلت : علام عطف (فأثرن) ؟ قلت : على الفعل الذي وضع اسم الفاعل موضعه : لأن المعنى : واللاتي عدون فأوربن، فأغررن فأثرن. الكنود : الكفور. وكند النعمة كنودا. ومنه سمي : كندة، لأنه كند أباه فقارقه. وعن الكلبي : الكنود بلسان كندة : العاصي، ولسان بني مالك : البخيل، ولسان مضر وريصة : الكفور، يعنى : أنه لنعمة ربه خصوصا لشديد الكفران : لأن تفريطه في شكر نعمة غير الله تفريط قريب لمقاربة النعمة، لأن أجل ما أنعم به على الانسان من مثله نعمة أبيه، ثم إن عطاها في جنب أدنى نعمة الله قليلة ضئيلة (وإنه) وإن الانسان (على ذلك) على كنوده (لشديد) يشهد على نفسه ولا يقدر أن يحجده لظهور أمره. وقيل : وإن الله على كنوده لشاهد على سبيل الوعيد (الخير) المال من قوله تعالى (إن ترك خيرا) والشديد : البخيل المسك. يقال : فلان شديد ومتشدد. قال طرفة :

أَرَى الْمَوْتَ يَحْتَامُ الْكِرَامَ وَيَبْصُطُنِي عَقِيْلَةً مَالِ الْفَاحِشِ الْمُتَشَدِّدِ ^(٣)

يعنى : وإنه لأجل حب المال وأن إنفاقه يثقل عليه : لبخيل مسك. أو أراد بالشديد : القوى، وأنه لحب المال وإثارة الدنيا وطلبها قوى مطيق، وهو لحب عبادة الله وشكر نعمته ضعيف متعاس. تقول : هو شديد لهذا الأمر، وقوى له : إذا كان مطيقاً له ضابطاً. أو أراد : أنه لحب الخيرات غير هش متبسط، ولكنه شديد منقبض (بعثر) بعث. وقرئ : بحثر، وبحث. وبحثر، وحصل : على بناءهما للفاعل. وحصل : بالتخفيف. ومعنى (حصل) جمع في

(١) أخرجه الطبري والحاكم من رواية أبي صخر عن أبي معاوية الجلي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وأخرجه القلمي وابن مردويه من هذا الوجه.

(٢) قوله «الهر والثفر للثورة» الثفر للسباع كالحيا، للثافة، وربما استعير بغيرها. والثورة : تأنيث الثور. قال الأختل :

جزى الله عنا الأعورين ملاحه وغفوة ثفر الثور المتضاح

وغفوة : اسم رجل. والمتضاح : المعوج الفم اه من هاشم. (ع)

(٣) لطرفة بن العبد في معلقته، واعتام ينام اعتياما : اختار اختيارا. والمعلقة من كل شيء : أكرمه. يقول : أرى الموت يبتار الكرام فيأخذها، ويصطلي أعز مال البخيل الهديد الامساك فيبقيه. وقيل : فيأخذها أيضا.

الصحف ، أى : أظور محصلاً مجموعاً . وقيل : ميز بين خيره وشره . ومنه قيل للنخل : المحصل . ومعنى عليه بهم يوم القيامة : مجازاته لهم على مقادير أعمالهم ؛ لأن ذلك أثر خيره بهم . وقرأ أبو السمال : لأن ربهم بهم يومئذ خير .
عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ومن قرأ سورة والعاديات أعطى من الاجر عشر حسنات بعدد من بات بالمزدلفة وشهد جمعاً ،^(١)

سورة القارعة

مكية ، وآياتها ١١ [نزلت بعد قريش]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القَارِعَةُ ① مَا الْقَارِعَةُ ② وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ③ يَوْمَ يَكُونُ
النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ④ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ⑤
فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ⑥ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ⑦ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ
مَوَازِينُهُ ⑧ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ⑨ وَمَا أَذْرَاكَ مَا هِيَتْ ⑩ نَارٌ حَامِيَةٌ ⑪
الظرف نصب بمضمرة دلت عليه القارعة ، أى : تفرع (يوم يكون الناس كالفرش
المبثوث) شبههم بالفرش في الكثرة والانتشار والضعف والهذلة ، والتطير إلى الداعي من
كل جانب ، كما يتطير الفراش إلى النار . قال جرير :

إِنَّ الْفَرَزْدَقَ مَا عَلِمْتُ وَقَوْمَهُ مِثْلُ الْفَرَاشِ غَشِيَنَ نَارَ الْمُصْطَلِ^(٢)

(١) أخرجه لأبي والواحدى وابن مردويه يستند إلى أبي بن كعب .

(٢) لجرير . وما علب : أى مدة على ، أو فى على . وهذا من الانصاف في المحاوراة . والفرش : ما يتطير
إلى السراج ؛ وربما ما فيه لحقه . والمصطل : المندق بالنار : شبههم به في الدل والجهل والتطير على النار ، كما
يفنى الفراش رأس المصطل ويحوم حولها . وربما أتى بنفسه إلى النار ، مهم مثله .

وفي أمثالهم : أضعف من فراشة وأذل وأجهل . وسعى فراشا : لتفترشه وانتشاره . وشبه الجبال بالعن وهو الصوف المصبغ ألوانا ؛ لأنها ألوان ، وبالمنفوش منه ؛ لتفرق أجزائها . وقرأ ابن مسعود : كالصوف . الموازين : جمع موزون وهو العمل الذي له وزن وخطر عند الله . أو جمع ميزان . وثقلها : رجحانها . ومنه حديث أبي بكر لعمر رضى الله عنهما في وصيته له : « وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق وثقلها في الدنيا ، وحق لميزان لا توضع فيه إلا الحسنات أن يثقل ، وإنما خفت موازين من خفت موازينه لاتباعهم الباطل وخفتها في الدنيا ، وحق لميزان لا توضع فيه إلا السيئات أن يخف »^(١) ، (فأتمه هاوية) من قولهم إذا دعوا على الرجل بالهلكة^(٢) : هوت أمه ؛ لأنه إذا هوى أى سقط وهلك ، فقد هوت أمه ثكلا وحزنا قال :

هَوَتْ أُمُّهُ مَا يَبْعَثُ الصَّبِيحُ غَادِيَا وَمَاذَا يَرُدُّ اللَّيْلُ حِينَ يَتُوبُ^(٣)

فكانه قيل . وأما من خفت موازينه فقد هلك . وقيل (هاوية) من أسماء النار ، وكأنها النار العميقة لهوى أهل النار فيها مهوى بعيداً ، كما روى «يهوى فيها سبعين خريفاً»^(٤) ، أى فأواه النار . وقيل للهاوى : أم ، على التشبيه ؛ لأن الأتم مأوى الولد ومفرغه . وعن قتادة : فأتمه هاوية ، أى فأم رأسه هاوية في قعر جهنم ، لأنه يطرح فيها منكوساً (هيه) ضمير الداهية التى

(١) وهذا منقطع مع ضعف ليد . وهو ابن أبى سلم . وأخرجه ابن أبى شيبة وأبو نعيم في الحلية في ترجمة أبى بكر من رواية إسماعيل بن أبى خاله عن زيد بن الحارث «أن أباً بكر لما حضرته الموت أوصى إلى عمر . فلما أتى قال له : إني موصيك بوصية ، إن لله حقاً في الليل لا يقبله في النهار وحقاً بالنهار لا يقبله في الليل . وإنه ليس لأحدنا نافلة حتى يؤدى القرصة . إنه إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم . وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يثقل - الحديث » .

(٢) قال محمود : «إذا دعوا على الرجل بالهلكة قالوا : هوت أمه ... الخ» قال أحمد : والأول أظهر ؛ لأنه مثل معروف كقولهم : لأمه الهبل .

(٣) لكعب في مرثية أخيه . وهوت أمه دماء لا يراد به الوقوع بل التعجب . وما مبتداً ، وما بعده خبر . والمعنى : أى شئ يبعثه الصبح منه ، وأى شئ يرد الليل ، كما روى : وماذا يرد الليل ؛ يعنى : أنه شئ عظيم . ومنه تيمريد مقدّر فيه ، يعنى : أنه كان يندو في طلب النار ويرجع في الليل ظافراً . ومافى الموضعين من الاستفهام ، معناه التعجب والاستعظام . وإسناد الفعل للصبح والليل مجاز .

(٤) هذا طرف من حديث أخرجه الترمذى في صفة جهنم من رواية الحسن عن عتبة بن غزوان «أن أبى صلى الله عليه وسلم قال . إن الصخرة العظيمة لثاق من شفير جهنم فتوى فيها سبعين عاماً مانتضى إلى قعرها» وقال غريب لا نعرف الحسن سماعاً . من عتبة وهذا منقطع . وقد رواه مسلم من حديث عتبة بلفظ «وذكر لنا» وهو في حكم المرفوع «وروى الحاكم من طريق عيسى بن طلحة عن أبى هريرة مرفوعاً ، إن الرجل ليحكلم بالكلمة لا يرى بها بأساً يهوى بها في النار سبعين خريفاً» وأصله في البخارى من رواية أبى صالح عن أبى هريرة بلفظ «يهوى بها في جهنم» حسب . وروى للبخارى من طريق مجاهد عن الشعبي عن مبرور عن ابن مسعود نحوه ، يؤنى بالفاضى يوم القيامة فيوقف على شفير جهنم فان أمر به فندفع فهو فيها سبعين خريفاً .

دلّ عليها قوله (فأتمه هاوية) في التفسير الأول . أو ضمير هاوية والهاء السكت ، وإذا وصل القارئ حذفها . وقيل : حقه أن لا يدرج لثلا يسقطها الإدراج ، لأنها ثابتة في المصحف . وقد أجزئ إثباتها مع الوصل .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة الفارعة فقل الله بها ميزانه يوم القيامة » (١)

سورة التكاثر

مكية ، وآياتها ٨ (نزلت بعد الكوثر)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَنْتُمْ التَّكَاثُرُ ① حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ② كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ③
ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ④ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ⑤ لَتَرَوُنَّ
الْجَحِيمَ ⑥ ثُمَّ لَتَرَوْنها عَيْنَ الْيَقِينِ ⑦ ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ⑧

الهاء عن كذا وأقهاه : إذا شغله (١) . و (التكاثر) التبارى في الكثرة والتباهى بها ، وأن يقول هؤلاء : نحن أكثر ، وهؤلاء : نحن أكثر . روى أن بنى عبد مناف وبنى سهم تفاخروا بهم أكثر عددا ، فكثرتهم بنو عبد مناف فقالت بنو سهم : إن البغى أهلكتنا في الجاهلية فعادونا بالآحياء والاموات ، فكثرتهم بنو سهم . والمعنى : أنكم تكاثرتهم بالآحياء حتى إذا استوعبتم عددهم صرتم إلى المقابر فتكاثرتهم بالاموات : عبر عن بلوغهم ذكر الموتى بزيادة المقابر تمكيا بهم : وقيل كانوا يزورون المقابر فيقولون : هذا قبر فلان وهذا قبر فلان عند تفاخرهم . والمعنى : ألكم ذلك - وهو مما لا يعينكم ولا يمدى عليكم في دنياكم وآخرتكم - عما يعينكم من أمر الدين الذي هو أهم وأعنى من كل مهم . أو أراد ألكم التكاثر بالأموال والأولاد إلى أن

(١) أخرجه الترمذي والواحدي وابن مردويه يستندون إلى أبي بن كعب .

(٢) قوله « وأقهاه إذا شغله » مضروب عليه بخط المصنف في نسخة أم من هامش . وفي الصحاح : أنهى

الرجل عن الطعام إذا اجتراه . والقهوة : الخمر . يقال : سميت بذلك لأنها تعشى ، أى تذهب بشهوة الطعام . (ع)

متم وقبرتم، منفقين أعماركم في طلب الدنيا والاستباق إليها والتهالك عليها، إلى أن أتاكم الموت
لا تم لكم غيرها، عما هو أول بكم من السعي لعاقبتكم والعمل لآخرتكم. وزيارة القبور:
عبارة عن الموت. قال:

لَنْ يُخْلَصَ الْعَامَ حَلِيلٌ عِشْرًا ذَاقَ الضَّمَادَ أَوْ يَزُورَ الْقَبْرَا (١)

وقال: زَارَ الْقُبُورَ أَبُو مَالِكٍ فَأَصْبَحَ الْأُمُّ زُورًا (٢)

وقرأ ابن عباس: أألهاكم؟ على الاستفهام الذي معناه التقرير (كلا) ردع وتنبية على أنه
لا ينبغي للناس لنفسه أن تكون الدنيا جميع همه ولا يتم بدينه (سوف تعلمون) إنذار ليخافوا
فيقتنوا عن غفلتهم. والتكرير: تأكيد للردع والإنذار عليهم. و(ثم) دلالة على أن الإنذار
الثاني أبلغ من الأول وأشد، كما تقول للمنصوح: أقول لك ثم أقول لك: لا تفعل. والمعنى:
سوف تعلمون الخطأ فيما أنتم عليه إذا عاينتم ما قد اقمتم من هول لقاء الله. وإن هذا التنبيه
نصيحة لكم ورحمة عليكم. ثم كثر التنبيه أيضاً وقال (لو تعلمون) محذوف الجواب، يعنى:
لو تعلمون ما بين أيديكم علم الأمر اليقين، أى: كعلمكم ما تستيقنون من الأمور التي وكلتم
بعلها مملكم: أفعلمت مالا يوصف ولا يكتبه؛ ولكنكم ضلال جهلة؛ ثم قال (لترؤن الجحيم)
فبين لهم ما أنذرهم منه وأوعدهم به؛ وقد مر ما في إيضاح الشيء بعد إبهامه من تفخيذه
وتعظيمه، وهو جواب قسم محذوف، والقسم لتوكيد الوعيد، وأن ما أوعدوا به مالا مدخل
فيه للريب؛ وكرره معطوفاً بـ ثم تغليظاً في التهديد وزيادة في التهويل. وقرئ: لترؤن بالهمز،
وهي مستكرهة. فإن قلت: لم استكرهت والواو المضمومة قبلها همزة قياس مطرد؟ قلت:
ذاك في الواو التي ضمها لازمة، وهذه عارضة لالتقاء الساكنين. وقرئ: لترؤن، ولترؤنها: على البناء
للفعل (عين اليقين) أى الرؤية التي هي نفس اليقين وخالصته. ويجوز أن يراد بالرؤية:

(١) إلى رأيت الضماد هيئاً نكراً لن يخلص العام حليل عشرًا

ذاق الضماد أو يزور القبور

للاخطأ. وضد رأسه: عصبه. وضد جرحه: الصق عليه الدواء. والضمد والضاد: الحقد، لكنته في القلب
والزوج لعن المرأة إلى الرجل. والمنكر: المنكر، ولن يخلص: بيان لوجه إنكار الضمد أى الزوج. والعام:
نصب على الظرفية. ويروى: حلال بالمهلة وبالمعجمة. وعشرًا - بالكسر: أى معاشره، وبفتحها: أى عشر
ليال. وذاق الضماد: صفة حليل، فصلت عنه بالمفعول. وشبه الضماد بالمطعم المأكروه بحسب ما رأى على طريق
الكناية، والنزوق تعجيل. وزيارة القبر: كناية عن الموت، أى: لن يخلص إلى أن يموت، ولا يتأنيه التعجيل
بالعام لا مكان الموت فيه، ولعله كان جدبا.

(٢) زار القبور، أى: طاف. وفيه نوع تهكم به حيث كنى عن الموت المأكروه عادة بالإيافة المحبوبة،
والأم: أفضل تفضل من التزم، أى: الحقة. والوار: جمع زائر، أى: كان الأم الأحياء، فأصبح الأم الأموات.

العلم والإبصار (عن النعيم) عن اللهو والتنعيم الذي شغلكم الالتذاذ به عن الدين وتكاليفه .
 فإن قلت : ما النعيم الذي يسئل عنه الانسان ويعاتب عليه ؟ فإما من أحد إلا وله نعيم ؟ قلت :
 هو نعيم من عكف همته على استيفاء اللذات ، ولم يعيش إلا ليأكل الطيب ويلبس اللين ،
 ويقطع أوقانه باللهو والطرب ، لا يعبأ بالعلم والعمل ، ولا يحمل نفسه مشاقهما ؛ فأما من
 تمتع بنعمة الله وأرزاقه التي لم يخلفها إلا لعباده ، وتقوى بها على دراسة العلم والقيام بالعمل ،
 وكان ناهضاً بالشكر : فهو من ذاك بمنزل ؛ وإليه أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما
 يروى : أنه أكل هو وأصحابه تمرأ وشربوا عليه ماء فقال : الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا
 وجعلنا مسلمين ، ^(١) .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرأ أهاكم التكاثر لم يحاسبه الله بالنعيم الذي
 أنعم به عليه في دار الدنيا ، وأعطى من الأجر كأنما قرأ ألف آية ، ^(٢) .

سورة العصر

مكية ، وآياتها ٣ (نزلت بعد الشرح)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ③

أقسم بصلاة العصر لفصلها ، بدليل قوله تعالى : (والصلاة الوسطى صلاة العصر ، في مصحف

(١) لم أجده هكذا . وفيه تخليط لهله من الناسخ . وهو يخرج من حديثين : أحدهما أخرجه النسائي وابن حبان والطبري وابن مردويه من حديث جابر قال : أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم وطبا وشربوا ماء . فقال : هذا من النعيم الذي تسألون عنه ، وروى أبو داود والترمذي في الثمائل والنسائي من حديث أبي سعيد الخدري قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أكل طعاما قال : الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين .

(٢) أخرجه الثعلبي والواحدى وابن مردويه بإسنادهم إلى أبي بن كعب .

حفصة . وقوله عليه الصلاة والسلام : من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله ، ^(١) ولأن التكليف في أدائها أشق لنهافت الناس في تجارتهم ومكاسبهم آخر النهار ، واشتغالهم بمعايشهم . أو أقسم بالضحى لما فيهما جميعا من دلائل القدرة . أو أقسم بالزمان لما في مروره من أصناف العجائب . والانسان : للجنس . والخسر : الخسران ، كما قيل : الكفر في الكفران . والمعنى : أن الناس في خسران من تجارتهم إلا الصالحين وحدهم ، لأنهم اشتروا الآخرة بالدنيا ، فربحوا وسعدوا ، ومن عداهم تبحروا خلاف تجارتهم ، فوقعوا في الخسارة والشقاوة (وتواصوا بالحق) بالامر الثابت الذي لا يسوغ إنكاره ، وهو الخير كله : من توحيد الله وطاعته ، واتباع كتبه ورسله ، والزهد في الدنيا ، والرغبة في الآخرة (وتواصوا بالصبر) عن المعاصي وعلى الطاعات ، وعلى ما يبلو الله به عباده .
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرأ سورة والعصر غفر الله له وكان من تواصى بالحق وتواصى بالصبر ، ^(٢) .

سورة الهمة

مكية ، وآياتها ٩ [نزلت بعد القيامة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَبِئْسَ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لُّمَزَةٌ ① ② ③ ④ ⑤ ⑥ ⑦ ⑧ ⑨ ⑩ ⑪ ⑫ ⑬ ⑭ ⑮ ⑯ ⑰ ⑱ ⑲ ⑳ ㉑ ㉒ ㉓ ㉔ ㉕ ㉖ ㉗ ㉘ ㉙ ㉚ ㉛ ㉜ ㉝ ㉞ ㉟ ㊱ ㊲ ㊳ ㊴ ㊵ ㊶ ㊷ ㊸ ㊹ ㊺ ㊻ ㊼ ㊽ ㊾ ㊿ ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ١٠ ١١ ١٢ ١٣ ١٤ ١٥ ١٦ ١٧ ١٨ ١٩ ٢٠ ٢١ ٢٢ ٢٣ ٢٤ ٢٥ ٢٦ ٢٧ ٢٨ ٢٩ ٣٠ ٣١ ٣٢ ٣٣ ٣٤ ٣٥ ٣٦ ٣٧ ٣٨ ٣٩ ٤٠ ٤١ ٤٢ ٤٣ ٤٤ ٤٥ ٤٦ ٤٧ ٤٨ ٤٩ ٥٠ ٥١ ٥٢ ٥٣ ٥٤ ٥٥ ٥٦ ٥٧ ٥٨ ٥٩ ٦٠ ٦١ ٦٢ ٦٣ ٦٤ ٦٥ ٦٦ ٦٧ ٦٨ ٦٩ ٧٠ ٧١ ٧٢ ٧٣ ٧٤ ٧٥ ٧٦ ٧٧ ٧٨ ٧٩ ٨٠ ٨١ ٨٢ ٨٣ ٨٤ ٨٥ ٨٦ ٨٧ ٨٨ ٨٩ ٩٠ ٩١ ٩٢ ٩٣ ٩٤ ٩٥ ٩٦ ٩٧ ٩٨ ٩٩ ١٠٠ ١٠١ ١٠٢ ١٠٣ ١٠٤ ١٠٥ ١٠٦ ١٠٧ ١٠٨ ١٠٩ ١١٠ ١١١ ١١٢ ١١٣ ١١٤ ١١٥ ١١٦ ١١٧ ١١٨ ١١٩ ١٢٠ ١٢١ ١٢٢ ١٢٣ ١٢٤ ١٢٥ ١٢٦ ١٢٧ ١٢٨ ١٢٩ ١٣٠ ١٣١ ١٣٢ ١٣٣ ١٣٤ ١٣٥ ١٣٦ ١٣٧ ١٣٨ ١٣٩ ١٤٠ ١٤١ ١٤٢ ١٤٣ ١٤٤ ١٤٥ ١٤٦ ١٤٧ ١٤٨ ١٤٩ ١٥٠ ١٥١ ١٥٢ ١٥٣ ١٥٤ ١٥٥ ١٥٦ ١٥٧ ١٥٨ ١٥٩ ١٦٠ ١٦١ ١٦٢ ١٦٣ ١٦٤ ١٦٥ ١٦٦ ١٦٧ ١٦٨ ١٦٩ ١٧٠ ١٧١ ١٧٢ ١٧٣ ١٧٤ ١٧٥ ١٧٦ ١٧٧ ١٧٨ ١٧٩ ١٨٠ ١٨١ ١٨٢ ١٨٣ ١٨٤ ١٨٥ ١٨٦ ١٨٧ ١٨٨ ١٨٩ ١٩٠ ١٩١ ١٩٢ ١٩٣ ١٩٤ ١٩٥ ١٩٦ ١٩٧ ١٩٨ ١٩٩ ٢٠٠ ٢٠١ ٢٠٢ ٢٠٣ ٢٠٤ ٢٠٥ ٢٠٦ ٢٠٧ ٢٠٨ ٢٠٩ ٢١٠ ٢١١ ٢١٢ ٢١٣ ٢١٤ ٢١٥ ٢١٦ ٢١٧ ٢١٨ ٢١٩ ٢٢٠ ٢٢١ ٢٢٢ ٢٢٣ ٢٢٤ ٢٢٥ ٢٢٦ ٢٢٧ ٢٢٨ ٢٢٩ ٢٣٠ ٢٣١ ٢٣٢ ٢٣٣ ٢٣٤ ٢٣٥ ٢٣٦ ٢٣٧ ٢٣٨ ٢٣٩ ٢٤٠ ٢٤١ ٢٤٢ ٢٤٣ ٢٤٤ ٢٤٥ ٢٤٦ ٢٤٧ ٢٤٨ ٢٤٩ ٢٥٠ ٢٥١ ٢٥٢ ٢٥٣ ٢٥٤ ٢٥٥ ٢٥٦ ٢٥٧ ٢٥٨ ٢٥٩ ٢٦٠ ٢٦١ ٢٦٢ ٢٦٣ ٢٦٤ ٢٦٥ ٢٦٦ ٢٦٧ ٢٦٨ ٢٦٩ ٢٧٠ ٢٧١ ٢٧٢ ٢٧٣ ٢٧٤ ٢٧٥ ٢٧٦ ٢٧٧ ٢٧٨ ٢٧٩ ٢٨٠ ٢٨١ ٢٨٢ ٢٨٣ ٢٨٤ ٢٨٥ ٢٨٦ ٢٨٧ ٢٨٨ ٢٨٩ ٢٩٠ ٢٩١ ٢٩٢ ٢٩٣ ٢٩٤ ٢٩٥ ٢٩٦ ٢٩٧ ٢٩٨ ٢٩٩ ٣٠٠ ٣٠١ ٣٠٢ ٣٠٣ ٣٠٤ ٣٠٥ ٣٠٦ ٣٠٧ ٣٠٨ ٣٠٩ ٣١٠ ٣١١ ٣١٢ ٣١٣ ٣١٤ ٣١٥ ٣١٦ ٣١٧ ٣١٨ ٣١٩ ٣٢٠ ٣٢١ ٣٢٢ ٣٢٣ ٣٢٤ ٣٢٥ ٣٢٦ ٣٢٧ ٣٢٨ ٣٢٩ ٣٣٠ ٣٣١ ٣٣٢ ٣٣٣ ٣٣٤ ٣٣٥ ٣٣٦ ٣٣٧ ٣٣٨ ٣٣٩ ٣٤٠ ٣٤١ ٣٤٢ ٣٤٣ ٣٤٤ ٣٤٥ ٣٤٦ ٣٤٧ ٣٤٨ ٣٤٩ ٣٥٠ ٣٥١ ٣٥٢ ٣٥٣ ٣٥٤ ٣٥٥ ٣٥٦ ٣٥٧ ٣٥٨ ٣٥٩ ٣٦٠ ٣٦١ ٣٦٢ ٣٦٣ ٣٦٤ ٣٦٥ ٣٦٦ ٣٦٧ ٣٦٨ ٣٦٩ ٣٧٠ ٣٧١ ٣٧٢ ٣٧٣ ٣٧٤ ٣٧٥ ٣٧٦ ٣٧٧ ٣٧٨ ٣٧٩ ٣٨٠ ٣٨١ ٣٨٢ ٣٨٣ ٣٨٤ ٣٨٥ ٣٨٦ ٣٨٧ ٣٨٨ ٣٨٩ ٣٩٠ ٣٩١ ٣٩٢ ٣٩٣ ٣٩٤ ٣٩٥ ٣٩٦ ٣٩٧ ٣٩٨ ٣٩٩ ٤٠٠ ٤٠١ ٤٠٢ ٤٠٣ ٤٠٤ ٤٠٥ ٤٠٦ ٤٠٧ ٤٠٨ ٤٠٩ ٤١٠ ٤١١ ٤١٢ ٤١٣ ٤١٤ ٤١٥ ٤١٦ ٤١٧ ٤١٨ ٤١٩ ٤٢٠ ٤٢١ ٤٢٢ ٤٢٣ ٤٢٤ ٤٢٥ ٤٢٦ ٤٢٧ ٤٢٨ ٤٢٩ ٤٣٠ ٤٣١ ٤٣٢ ٤٣٣ ٤٣٤ ٤٣٥ ٤٣٦ ٤٣٧ ٤٣٨ ٤٣٩ ٤٤٠ ٤٤١ ٤٤٢ ٤٤٣ ٤٤٤ ٤٤٥ ٤٤٦ ٤٤٧ ٤٤٨ ٤٤٩ ٤٥٠ ٤٥١ ٤٥٢ ٤٥٣ ٤٥٤ ٤٥٥ ٤٥٦ ٤٥٧ ٤٥٨ ٤٥٩ ٤٦٠ ٤٦١ ٤٦٢ ٤٦٣ ٤٦٤ ٤٦٥ ٤٦٦ ٤٦٧ ٤٦٨ ٤٦٩ ٤٧٠ ٤٧١ ٤٧٢ ٤٧٣ ٤٧٤ ٤٧٥ ٤٧٦ ٤٧٧ ٤٧٨ ٤٧٩ ٤٨٠ ٤٨١ ٤٨٢ ٤٨٣ ٤٨٤ ٤٨٥ ٤٨٦ ٤٨٧ ٤٨٨ ٤٨٩ ٤٩٠ ٤٩١ ٤٩٢ ٤٩٣ ٤٩٤ ٤٩٥ ٤٩٦ ٤٩٧ ٤٩٨ ٤٩٩ ٥٠٠ ٥٠١ ٥٠٢ ٥٠٣ ٥٠٤ ٥٠٥ ٥٠٦ ٥٠٧ ٥٠٨ ٥٠٩ ٥١٠ ٥١١ ٥١٢ ٥١٣ ٥١٤ ٥١٥ ٥١٦ ٥١٧ ٥١٨ ٥١٩ ٥٢٠ ٥٢١ ٥٢٢ ٥٢٣ ٥٢٤ ٥٢٥ ٥٢٦ ٥٢٧ ٥٢٨ ٥٢٩ ٥٣٠ ٥٣١ ٥٣٢ ٥٣٣ ٥٣٤ ٥٣٥ ٥٣٦ ٥٣٧ ٥٣٨ ٥٣٩ ٥٤٠ ٥٤١ ٥٤٢ ٥٤٣ ٥٤٤ ٥٤٥ ٥٤٦ ٥٤٧ ٥٤٨ ٥٤٩ ٥٥٠ ٥٥١ ٥٥٢ ٥٥٣ ٥٥٤ ٥٥٥ ٥٥٦ ٥٥٧ ٥٥٨ ٥٥٩ ٥٦٠ ٥٦١ ٥٦٢ ٥٦٣ ٥٦٤ ٥٦٥ ٥٦٦ ٥٦٧ ٥٦٨ ٥٦٩ ٥٧٠ ٥٧١ ٥٧٢ ٥٧٣ ٥٧٤ ٥٧٥ ٥٧٦ ٥٧٧ ٥٧٨ ٥٧٩ ٥٨٠ ٥٨١ ٥٨٢ ٥٨٣ ٥٨٤ ٥٨٥ ٥٨٦ ٥٨٧ ٥٨٨ ٥٨٩ ٥٩٠ ٥٩١ ٥٩٢ ٥٩٣ ٥٩٤ ٥٩٥ ٥٩٦ ٥٩٧ ٥٩٨ ٥٩٩ ٦٠٠ ٦٠١ ٦٠٢ ٦٠٣ ٦٠٤ ٦٠٥ ٦٠٦ ٦٠٧ ٦٠٨ ٦٠٩ ٦١٠ ٦١١ ٦١٢ ٦١٣ ٦١٤ ٦١٥ ٦١٦ ٦١٧ ٦١٨ ٦١٩ ٦٢٠ ٦٢١ ٦٢٢ ٦٢٣ ٦٢٤ ٦٢٥ ٦٢٦ ٦٢٧ ٦٢٨ ٦٢٩ ٦٣٠ ٦٣١ ٦٣٢ ٦٣٣ ٦٣٤ ٦٣٥ ٦٣٦ ٦٣٧ ٦٣٨ ٦٣٩ ٦٤٠ ٦٤١ ٦٤٢ ٦٤٣ ٦٤٤ ٦٤٥ ٦٤٦ ٦٤٧ ٦٤٨ ٦٤٩ ٦٥٠ ٦٥١ ٦٥٢ ٦٥٣ ٦٥٤ ٦٥٥ ٦٥٦ ٦٥٧ ٦٥٨ ٦٥٩ ٦٦٠ ٦٦١ ٦٦٢ ٦٦٣ ٦٦٤ ٦٦٥ ٦٦٦ ٦٦٧ ٦٦٨ ٦٦٩ ٦٧٠ ٦٧١ ٦٧٢ ٦٧٣ ٦٧٤ ٦٧٥ ٦٧٦ ٦٧٧ ٦٧٨ ٦٧٩ ٦٨٠ ٦٨١ ٦٨٢ ٦٨٣ ٦٨٤ ٦٨٥ ٦٨٦ ٦٨٧ ٦٨٨ ٦٨٩ ٦٩٠ ٦٩١ ٦٩٢ ٦٩٣ ٦٩٤ ٦٩٥ ٦٩٦ ٦٩٧ ٦٩٨ ٦٩٩ ٧٠٠ ٧٠١ ٧٠٢ ٧٠٣ ٧٠٤ ٧٠٥ ٧٠٦ ٧٠٧ ٧٠٨ ٧٠٩ ٧١٠ ٧١١ ٧١٢ ٧١٣ ٧١٤ ٧١٥ ٧١٦ ٧١٧ ٧١٨ ٧١٩ ٧٢٠ ٧٢١ ٧٢٢ ٧٢٣ ٧٢٤ ٧٢٥ ٧٢٦ ٧٢٧ ٧٢٨ ٧٢٩ ٧٣٠ ٧٣١ ٧٣٢ ٧٣٣ ٧٣٤ ٧٣٥ ٧٣٦ ٧٣٧ ٧٣٨ ٧٣٩ ٧٤٠ ٧٤١ ٧٤٢ ٧٤٣ ٧٤٤ ٧٤٥ ٧٤٦ ٧٤٧ ٧٤٨ ٧٤٩ ٧٥٠ ٧٥١ ٧٥٢ ٧٥٣ ٧٥٤ ٧٥٥ ٧٥٦ ٧٥٧ ٧٥٨ ٧٥٩ ٧٦٠ ٧٦١ ٧٦٢ ٧٦٣ ٧٦٤ ٧٦٥ ٧٦٦ ٧٦٧ ٧٦٨ ٧٦٩ ٧٧٠ ٧٧١ ٧٧٢ ٧٧٣ ٧٧٤ ٧٧٥ ٧٧٦ ٧٧٧ ٧٧٨ ٧٧٩ ٧٨٠ ٧٨١ ٧٨٢ ٧٨٣ ٧٨٤ ٧٨٥ ٧٨٦ ٧٨٧ ٧٨٨ ٧٨٩ ٧٩٠ ٧٩١ ٧٩٢ ٧٩٣ ٧٩٤ ٧٩٥ ٧٩٦ ٧٩٧ ٧٩٨ ٧٩٩ ٨٠٠ ٨٠١ ٨٠٢ ٨٠٣ ٨٠٤ ٨٠٥ ٨٠٦ ٨٠٧ ٨٠٨ ٨٠٩ ٨١٠ ٨١١ ٨١٢ ٨١٣ ٨١٤ ٨١٥ ٨١٦ ٨١٧ ٨١٨ ٨١٩ ٨٢٠ ٨٢١ ٨٢٢ ٨٢٣ ٨٢٤ ٨٢٥ ٨٢٦ ٨٢٧ ٨٢٨ ٨٢٩ ٨٣٠ ٨٣١ ٨٣٢ ٨٣٣ ٨٣٤ ٨٣٥ ٨٣٦ ٨٣٧ ٨٣٨ ٨٣٩ ٨٤٠ ٨٤١ ٨٤٢ ٨٤٣ ٨٤٤ ٨٤٥ ٨٤٦ ٨٤٧ ٨٤٨ ٨٤٩ ٨٥٠ ٨٥١ ٨٥٢ ٨٥٣ ٨٥٤ ٨٥٥ ٨٥٦ ٨٥٧ ٨٥٨ ٨٥٩ ٨٦٠ ٨٦١ ٨٦٢ ٨٦٣ ٨٦٤ ٨٦٥ ٨٦٦ ٨٦٧ ٨٦٨ ٨٦٩ ٨٧٠ ٨٧١ ٨٧٢ ٨٧٣ ٨٧٤ ٨٧٥ ٨٧٦ ٨٧٧ ٨٧٨ ٨٧٩ ٨٨٠ ٨٨١ ٨٨٢ ٨٨٣ ٨٨٤ ٨٨٥ ٨٨٦ ٨٨٧ ٨٨٨ ٨٨٩ ٨٩٠ ٨٩١ ٨٩٢ ٨٩٣ ٨٩٤ ٨٩٥ ٨٩٦ ٨٩٧ ٨٩٨ ٨٩٩ ٩٠٠ ٩٠١ ٩٠٢ ٩٠٣ ٩٠٤ ٩٠٥ ٩٠٦ ٩٠٧ ٩٠٨ ٩٠٩ ٩١٠ ٩١١ ٩١٢ ٩١٣ ٩١٤ ٩١٥ ٩١٦ ٩١٧ ٩١٨ ٩١٩ ٩٢٠ ٩٢١ ٩٢٢ ٩٢٣ ٩٢٤ ٩٢٥ ٩٢٦ ٩٢٧ ٩٢٨ ٩٢٩ ٩٣٠ ٩٣١ ٩٣٢ ٩٣٣ ٩٣٤ ٩٣٥ ٩٣٦ ٩٣٧ ٩٣٨ ٩٣٩ ٩٤٠ ٩٤١ ٩٤٢ ٩٤٣ ٩٤٤ ٩٤٥ ٩٤٦ ٩٤٧ ٩٤٨ ٩٤٩ ٩٥٠ ٩٥١ ٩٥٢ ٩٥٣ ٩٥٤ ٩٥٥ ٩٥٦ ٩٥٧ ٩٥٨ ٩٥٩ ٩٦٠ ٩٦١ ٩٦٢ ٩٦٣ ٩٦٤ ٩٦٥ ٩٦٦ ٩٦٧ ٩٦٨ ٩٦٩ ٩٧٠ ٩٧١ ٩٧٢ ٩٧٣ ٩٧٤ ٩٧٥ ٩٧٦ ٩٧٧ ٩٧٨ ٩٧٩ ٩٨٠ ٩٨١ ٩٨٢ ٩٨٣ ٩٨٤ ٩٨٥ ٩٨٦ ٩٨٧ ٩٨٨ ٩٨٩ ٩٩٠ ٩٩١ ٩٩٢ ٩٩٣ ٩٩٤ ٩٩٥ ٩٩٦ ٩٩٧ ٩٩٨ ٩٩٩ ١٠٠٠ ١٠٠١ ١٠٠٢ ١٠٠٣ ١٠٠٤ ١٠٠٥ ١٠٠٦ ١٠٠٧ ١٠٠٨ ١٠٠٩ ١٠١٠ ١٠١١ ١٠١٢ ١٠١٣ ١٠١٤ ١٠١٥ ١٠١٦ ١٠١٧ ١٠١٨ ١٠١٩ ١٠٢٠ ١٠٢١ ١٠٢٢ ١٠٢٣ ١٠٢٤ ١٠٢٥ ١٠٢٦ ١٠٢٧ ١٠٢٨ ١٠٢٩ ١٠٣٠ ١٠٣١ ١٠٣٢ ١٠٣٣ ١٠٣٤ ١٠٣٥ ١٠٣٦ ١٠٣٧ ١٠٣٨ ١٠٣٩ ١٠٤٠ ١٠٤١ ١٠٤٢ ١٠٤٣ ١٠٤٤ ١٠٤٥ ١٠٤٦ ١٠٤٧ ١٠٤٨ ١٠٤٩ ١٠٥٠ ١٠٥١ ١٠٥٢ ١٠٥٣ ١٠٥٤ ١٠٥٥ ١٠٥٦ ١٠٥٧ ١٠٥٨ ١٠٥٩ ١٠٦٠ ١٠٦١ ١٠٦٢ ١٠٦٣ ١٠٦٤ ١٠٦٥ ١٠٦٦ ١٠٦٧ ١٠٦٨ ١٠٦٩ ١٠٧٠ ١٠٧١ ١٠٧٢ ١٠٧٣ ١٠٧٤ ١٠٧٥ ١٠٧٦ ١٠٧٧ ١٠٧٨ ١٠٧٩ ١٠٨٠ ١٠٨١ ١٠٨٢ ١٠٨٣ ١٠٨٤ ١٠٨٥ ١٠٨٦ ١٠٨٧ ١٠٨٨ ١٠٨٩ ١٠٩٠ ١٠٩١ ١٠٩٢ ١٠٩٣ ١٠٩٤ ١٠٩٥ ١٠٩٦ ١٠٩٧ ١٠٩٨ ١٠٩٩ ١١٠٠ ١١٠١ ١١٠٢ ١١٠٣ ١١٠٤ ١١٠٥ ١١٠٦ ١١٠٧ ١١٠٨ ١١٠٩ ١١١٠ ١١١١ ١١١٢ ١١١٣ ١١١٤ ١١١٥ ١١١٦ ١١١٧ ١١١٨ ١١١٩ ١١٢٠ ١١٢١ ١١٢٢ ١١٢٣ ١١٢٤ ١١٢٥ ١١٢٦ ١١٢٧ ١١٢٨ ١١٢٩ ١١٣٠ ١١٣١ ١١٣٢ ١١٣٣ ١١٣٤ ١١٣٥ ١١٣٦ ١١٣٧ ١١٣٨ ١١٣٩ ١١٤٠ ١١٤١ ١١٤٢ ١١٤٣ ١١٤٤ ١١٤٥ ١١٤٦ ١١٤٧ ١١٤٨ ١١٤٩ ١١٥٠ ١١٥١ ١١٥٢ ١١٥٣ ١١٥٤ ١١٥٥ ١١٥٦ ١١٥٧ ١١٥٨ ١١٥٩ ١١٦٠ ١١٦١ ١١٦٢ ١١٦٣ ١١٦٤ ١١٦٥ ١١٦٦ ١١٦٧ ١١٦٨ ١١٦٩ ١١٧٠ ١١٧١ ١١٧٢ ١١٧٣ ١١٧٤ ١١٧٥ ١١٧٦ ١١٧٧ ١١٧٨ ١١٧٩ ١١٨٠ ١١٨١ ١١٨٢ ١١٨٣ ١١٨٤ ١١٨٥ ١١٨٦ ١١٨٧ ١١٨٨ ١١٨٩ ١١٩٠ ١١٩١ ١١٩٢ ١١٩٣ ١١٩٤ ١١٩٥ ١١٩٦ ١١٩٧ ١١٩٨ ١١٩٩ ١٢٠٠ ١٢٠١ ١٢٠٢ ١٢٠٣ ١٢٠٤ ١٢٠٥ ١٢٠٦ ١٢٠٧ ١٢٠٨ ١٢٠٩ ١٢١٠ ١٢١١ ١٢١٢ ١٢١٣ ١٢١٤ ١٢١٥ ١٢١٦ ١٢١٧ ١٢١٨ ١٢١٩ ١٢٢٠ ١٢٢١ ١٢٢٢ ١٢٢٣ ١٢٢٤ ١٢٢٥ ١٢٢٦ ١٢٢٧ ١٢٢٨ ١٢٢٩ ١٢٣٠ ١٢٣١ ١٢٣٢ ١٢٣٣ ١٢٣٤ ١٢٣٥ ١٢٣٦ ١٢٣٧ ١٢٣٨ ١٢٣٩ ١٢٤٠ ١٢٤١ ١٢٤٢ ١٢٤٣ ١٢٤٤ ١٢٤٥ ١٢٤٦ ١٢٤٧ ١٢٤٨ ١٢٤٩ ١٢٥٠ ١٢٥١ ١٢٥٢ ١٢٥٣ ١٢٥٤ ١٢٥٥ ١٢٥٦ ١٢٥٧ ١٢٥٨ ١٢٥٩ ١٢٦٠ ١٢٦١ ١٢٦٢ ١٢٦٣ ١٢٦٤ ١٢٦٥ ١٢٦٦ ١٢٦٧ ١٢٦٨ ١٢٦٩ ١٢٧٠ ١٢٧١ ١٢٧٢ ١٢٧٣ ١٢٧٤ ١٢٧٥ ١٢٧٦ ١٢٧٧ ١٢٧٨ ١٢٧٩ ١٢٨٠ ١٢٨١ ١٢٨٢ ١٢٨٣ ١٢٨٤ ١٢٨٥ ١٢٨٦ ١٢٨٧ ١٢٨٨ ١٢٨٩ ١٢٩٠ ١٢٩١ ١٢٩٢ ١٢٩٣ ١٢٩٤ ١٢٩٥ ١٢٩٦ ١٢٩٧ ١٢٩٨ ١٢٩٩ ١٣٠٠ ١٣٠١ ١٣٠٢ ١٣٠٣ ١٣٠٤ ١٣٠٥ ١٣٠٦ ١٣٠٧ ١٣٠٨ ١٣٠٩ ١٣١٠ ١٣١١ ١٣١٢ ١٣١٣ ١٣١٤ ١٣١٥ ١٣١٦ ١٣١٧ ١٣١٨ ١٣١٩ ١٣٢٠ ١٣٢١ ١٣٢٢ ١٣٢٣ ١٣٢٤ ١٣٢٥ ١٣٢٦ ١٣٢٧ ١٣٢٨ ١٣٢٩ ١٣٣٠ ١٣٣١ ١٣٣٢ ١٣٣٣ ١٣٣٤ ١٣٣٥ ١٣٣٦ ١٣٣٧ ١٣٣٨ ١٣٣٩ ١٣٤٠ ١٣٤١ ١٣٤٢ ١٣٤٣ ١٣٤٤ ١٣٤٥ ١٣٤٦ ١٣٤٧ ١٣٤٨ ١٣٤٩ ١٣٥٠ ١٣٥١ ١٣٥٢ ١٣٥٣ ١٣٥٤ ١٣٥٥ ١٣٥٦ ١٣٥٧ ١٣٥٨ ١٣٥٩ ١٣٦٠ ١٣٦١ ١٣٦٢ ١٣٦٣ ١٣٦٤ ١٣٦٥ ١٣٦٦ ١٣٦٧ ١٣٦٨ ١٣٦٩ ١٣٧٠ ١٣٧١ ١٣٧٢ ١٣٧٣ ١٣٧٤ ١٣٧٥ ١٣٧٦ ١٣٧٧ ١٣٧٨ ١٣٧٩ ١٣٨٠ ١٣٨١ ١٣٨٢ ١٣٨٣ ١٣٨٤ ١٣٨٥ ١٣٨٦ ١٣٨٧ ١٣٨٨ ١٣٨٩ ١٣٩٠ ١٣٩١ ١٣٩٢ ١٣٩٣ ١٣٩٤ ١٣٩٥ ١٣٩٦ ١٣٩٧ ١٣٩٨ ١٣٩٩ ١٤٠٠ ١٤٠١ ١٤٠٢ ١٤٠٣ ١٤٠٤ ١٤٠٥ ١٤٠٦ ١٤٠٧ ١٤٠٨ ١٤٠٩ ١٤١٠ ١٤١١ ١٤١٢ ١٤١٣ ١٤١٤ ١٤١٥ ١٤١٦ ١٤١٧ ١٤١٨ ١٤١٩ ١٤٢٠ ١٤٢١ ١٤٢٢ ١٤٢٣ ١٤٢٤ ١٤٢٥ ١٤٢٦ ١٤٢٧ ١٤٢٨ ١٤٢٩ ١٤٣٠ ١٤٣١ ١٤٣٢ ١٤٣٣ ١٤٣٤ ١٤٣٥ ١٤٣٦ ١٤٣٧ ١٤٣٨ ١٤٣٩ ١٤٤٠ ١٤٤١ ١٤٤٢ ١٤٤٣ ١٤٤٤ ١٤٤٥ ١٤٤٦ ١٤٤٧ ١٤٤٨ ١٤٤٩ ١٤٥٠ ١٤٥١ ١٤٥٢ ١٤٥٣ ١٤٥٤ ١٤٥٥ ١٤٥٦ ١٤٥٧ ١٤٥٨ ١٤٥٩ ١٤٦٠ ١٤٦١ ١٤٦٢ ١٤٦٣ ١٤٦٤ ١٤٦٥ ١٤٦٦ ١٤٦٧ ١٤٦٨ ١٤٦٩ ١٤٧٠ ١٤٧١ ١٤٧٢ ١٤٧٣ ١٤٧٤ ١٤٧٥ ١٤٧٦ ١٤٧٧ ١٤٧٨ ١٤٧٩ ١٤٨٠ ١٤٨١ ١٤٨٢ ١٤٨٣ ١٤٨٤ ١٤٨٥ ١٤٨٦ ١٤٨٧ ١٤٨٨ ١٤٨٩ ١٤٩٠ ١٤٩١ ١٤٩٢ ١٤٩٣ ١٤٩٤ ١٤٩٥ ١٤٩٦ ١٤٩٧ ١٤٩٨ ١٤٩٩ ١٥٠٠ ١٥٠١ ١٥٠٢ ١٥٠٣ ١٥٠٤ ١٥٠٥ ١٥٠٦ ١٥٠٧ ١٥٠٨ ١٥٠٩ ١٥١٠ ١٥١١ ١٥١٢ ١٥١٣ ١٥١٤ ١٥١٥ ١٥١٦ ١٥١٧ ١٥١٨ ١٥١٩ ١٥٢٠ ١٥٢١ ١٥٢٢ ١٥٢٣ ١٥٢٤ ١٥٢٥ ١٥٢٦ ١٥٢٧ ١٥٢٨ ١٥٢٩ ١٥٣٠ ١٥٣١ ١٥٣٢ ١٥٣٣ ١٥٣٤

أعراض الناس والغنى^(١) منهم ، واغتيالهم ؛ والطمع فيهم^(٢) وبنا . فقلة ، يدل على أن ذلك عادة منه قد ضرى بها . ونحوهما : اللعنة والضحكة . قال :

* وَإِنْ أَغْيَبَ فَأَنْتَ الْمَاسِرُ الْهَمَزَةُ *^(٣)

وقرئ : ويل للهمة الهمة . وقرئ : ويل لكل همزة لمزة ، بسكون الميم : وهو المسخرة الذى يأتي بالأوايد^(٤) والاضاحيك فيضحك منه ويشتم . وقيل : نزلت في الأخنس بن شريق وكانت عادته الغيبة والوقيعة . وقيل : في أمية بن خلف . وقيل : في الوليد بن المغيرة واغتيابه لرسول الله صلى الله عليه وسلم وغضه منه . ويجوز أن يكون السبب خاصا والوعيد عاما ، ليتناول كل من باشر ذلك القبيح ، وليكون جاريا مجرى التعريض بالوارد فيه ، فإن ذلك أضر له وأنكى فيه (الذى) يدل من كل . أو نصب على الذم . وقرئ : جمع بالتشديد ، وهو مطابق لعدده . وقيل (عدده) جعله عدة لحوادث الدهر . وقرئ : وعدده أى جمع المال وضبط عدده وأحصاه . أو جمع ماله وقومه الذين ينصرونه ، من قولك : فلان ذو عدد وعدد : إذا كان له عدد وافر من الانصاف وما يصلحهم . وقيل (وعده) معناه : وعده على فك الادغام ، نحو : ضنونا (أخلده) وخلده بمعنى ، أى طوّل المال أمه ، ومنه الاماني البعيدة ، حتى أصبح لفرط غفلته وطول أمه يحسب أن المال تركه خالدا في الدنيا لا يموت . أو يعمل من تشييد البنيان الموثق بالصخر والآجر وغرس الأشجار وعمارة الأرض : عمل من يظن أن ماله أبقاء حيا . أو هو تعريض بالعمل الصالح . وأنه هو الذى أخلد صاحبه في النعيم ؛ فأما المال فما أخلد أحدا فيه . وروى أنه كان للأخنس أربعة آلاف دينار . وقيل : عشرة آلاف . وعن الحسن : أنه عاد موسرا

- (١) قوله «أعراض للناس والغنى منهم» في الصحاح : غنى منه ؛ إذا وضعه ونقص من قدره . (ج)
(٢) قال مجاهد : «قال المراد بالهمة المكثر من الطمع على الناس والقدر فيهم ... الخ» قال أحمد : وما أحسن مقابلة الهمة اللزعة بالخطمة ، فانه لما رسم هذه السمة بصيغة أرشدت إلى أنها راحة فيه ومنتهكة منه أتبع المبالغة بوعيده بالنار التي سماها بالخطمة لما يلقى فيها ، وذلك في تعيينها صيغة مبالغة على وزن الصيغة التي ضمنها الذنب ، حتى يحصل التعادل بين الذنب والجواز ، فهذا الذى ضرى بالذنب جزاؤه هذه الخطمة التي هي ضاربة بجمل كل ما يلقى إليها .

(٣) إذا لقيتك عن شطط تكاشرتي وإن تغيبت كنت الهامر اللزعة

- لزياد الأجم . والشطط - بالفتح - البعد . وكثير من أسنانه : أبداها في الضحك وغيره ، لكن اشتهر في لسان العرب في الأول . والهمز : الكسر . والذر : الطعن . روى أن أعرابيا سئل : أنتهم القارة ؟ فقال : نعم تهزما الهمة ، أى : نأكلها ؛ والهامر هنا : المختاب الغياب ، الذى يمازى فيه بما يحرم عرض غيره . والهمة : من اعتاد ذلك . وللألم : الرأى لنوره بالسبة . واللزعة : من اعتاد ذلك . يقول : إذا لقيتك على بعد المسافة يفتنا تضاحكتي ، وإذا غبت ضحك كنت المختاب المكثر من الطمع في عرضي . وروى : وإن أغيب فأنت الهامر ، على البناء للجھول .
(٤) قوله «الذى يأتي بالأوايد» في الصحاح : جاء فلان بأبنة ، أى : بداهية يبق ذكرهما على الأبد . (ج)

فقال : ما تقول في ألوف لم أفتدبها من لثيم ، ولا تفضلت على كريم ؟ قال : ولكن لما ذا ؟ قال : لنسوة الزمان ، وجفوة السلطان ، ونواب الدهر ، ومخافة الفقر . قال : إذن تدعه لمن لا يحمذك ، وترد على من لا يعذرك (كلام) ردع له عن حسبانته . وقرئ : لينبذان ، أى : هو وماله . ولينبذن ، بضم الذال ، أى : هو وأنصاره . ولينبذنه (في الحطمة) في النار التي من شأنها أن تحطم كل ما يلقى فيها . ويقال للرجل الأكول : إنه لحطمة . وقرئ : الحاطمة ، يعنى أنها تدخل في أجوافهم حتى تصل إلى صدورهم وتطلع على أفئدتهم ، وهى أوساط القلوب ، ولا شيء في بدن الإنسان ألطف من الفؤاد ، ولا أشد تألما منه بأذى يمسّه ، فكيف إذا اطلعت عليه نار جهنم واستولت عليه . ويجوز أن يخص الأفئدة لأنها مواطن الكفر والعقائد الفاسدة والنيات الخبيثة . ومعنى اطلاع النار عليها : أنها تعلوها وتغلبها وتشتمل عليها . أو تطلع على سبيل المجاز معادن موجبها (مؤصدة) مطبقا . قال :

قَحْنٌ إِلَىٰ أَجْبَالٍ مَّسْكَةٌ فَاقَتْنِي وَمِنْ دُونِهَا أَبْوَابٌ مَّصْمَاءٌ مُّوَصَّدَةٌ (١)

وقرئ : في عمد ، بضمعين . وعمد ، بسكون الميم . وعمد . بفتحعين . والمعنى : أنه يؤكد بأسهم من الخروج ويقيضهم بحبس الأبد ، فتؤصد عليهم الأبواب وتمدد على الأبواب العمدة ، استيثاقا في استيثاق . ويجوز أن يكون المعنى : أنها عليهم مؤصدة ، موثقين في عمد بمدة مثل المقاطر (٢) التي تقطر فيها اللصوص . اللهم أجزنا من النار ياخير مستجار .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : ومن قرأ سورة الحمزة أعطاه الله عشر حسنات بعدد من استهزا بمحمد وأصحابه (٣) .

(١) يقول : نحن فاقق شوقا إلى أجبال مكة ، جمع جبل ، كـأبواب وجب ، لأنها وطنها ، والحال أن أبواب مصماء مدهلة من الجن ، مؤصدة : أى مغلقة أمامها ، والمراد : تحزنه وتفوقه إلى وطنه ، ونسبه للناقة مبالغة .

(٢) قوله : مثل المقاطر التي تقطر فيها ، في الصحاح : المنطرة ، : الفلق ، وهى خفية فيها خروق تدخل فيها أرجل المجرمين . (ع)

(٣) أخرجه الترمذي والرازي وابن مردويه بالسنن إلى أبي بن كعب .

سورة الفيل

مكية ، وآياتها ٥ (نزلت بعد الكافرون)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ① أَلَمْ يَجْعَلْ كَعَصَدِهِمْ
 فِي تَضَلُّيلٍ ② وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ③ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ④
 فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ⑤

روى أن أبرهة بن الصباح الأشجعي ملك اليمن من قبل أصحمة النجاشي بنى كنيسة بصنعاء
 وسماها القليس ^(١) ، وأراد أن يصرف إليها الحاج ، فخرج رجل من كنانة فقعدها فيها ليلاً ^(٢) ،
 فأغضبه ذلك . وقيل : أجبت رفقة من العرب فأراحمها الرج فأحرقها ، خلف ليهذهن السكبة
 فخرج بالحبشة ومعه فيل له اسمه محمود ، وكان قويا عظيما ، واثناعشر فيلا غيره . وقيل : ثمانية .
 وقيل : كان معه ألف فيل ، وكان وحده ؛ فلما بلغ المغرب خرج إليه عبد المطلب وعرض عليه
 تلك أموال تهامة ليرجع ، فأبى وعبا جيشه وقدم الفيل ، فكانوا كلما وجهوه إلى الحرم برك ولم
 يبرح ، وإذا وجهوه إلى اليمن أو إلى غيره من الجهات هروا ؛ فأرسل الله طيرا أسودا . وقيل خضرا
 وقيل : بيضا . مع كل طائر حجر في منقاره ، وحجران في رجله أكبر من العدة وأصغر من
 الحصاة . وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه رأى منها عند أم هانئ نحو قفيز مخططة بحمرة
 كالجزع الظفاري ، فكان الحجر يقع على رأس الرجل فيخرج من دبره ، وعلى كل حجر اسم
 من يقع عليه ، ففروا فلما كوا في كل طريق ومنهل ؛ ودوى أبرهة ^(٣) فتساقطت أنامله وآرابه ،
 ومامات حتى انصدع صدره عن قلبه . وانفلت وزيره أبويكسوم وطائره يحلق فوقه ، حتى بلغ
 النجاشي فقص عليه القصة ، فلما أتمها وقع عليه الحجر فخر ميتا بين يديه . وقيل : كان أبرهة جده

(١) قوله «وسماها القليس» ، بالتدويد ، مثل القبيط : بيعة كانت بصنعاء . للحبشة : بناها أبرهة ، وهدمها حمير ،
 كذا في الصحاح . (ع)

(٢) قوله «فقعده فيها ليلا» كناية عن التوقف . وفي الحازن فتوقف فيها ولطخ قبلتها بالعدوة . (ع)

(٣) قوله «ودوى أبرهة» ، أى مرض . وآرابه ، أى : أعضائه . (ع)

النجاشي الذي كان في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربعين سنة، وقيل: بثلاث وعشرين سنة^(١). وعن عائشة رضي الله عنها: رأيت قائد الفيل وسائسه أعميين مقعدين يستطمان. وفيه أن أبرهة أخذ لعبد المطلب مائتي بعير، ففرج إليه فيها، فجهره^(٢) وكان رجلا جسيما وسيما. وقيل: هذا سيد قريش وصاحب عير مكة الذي يطعم الناس في السهل والوحوش في رؤوس الجبال، فلما ذكر حاجته قال: سقطت من عيني، جئت لأهدم البيت الذي هو دينك ودين آبائك وعصمتكم وشرفكم في قديم الدهر، فأهلك عنه ذود أخذ لك؛ فقال أنارب الإبل، وللبيت رب سيمنعه، ثم رجع وأتى باب البيت فأخذ بحلقته وهو يقول:

لَاكُمُ إِنِّ الْمَرَّةَ بِمَنْعِ أَهْلِهِ فَأَمْنَعُ حِلَالَكُ
لَا يَغْلِبُنَّ صَلَيبُهُمْ وَمُحَالُّهُمْ عَذْوًا مُحَالَكُ
إِنْ كُنْتَ تَارِكُهُمْ وَكَفَّ بَعْتَنَا فَأَمْرٌ مَا يَدَاكَ^(٣)

(١) قوله: بأربعين سنة، وقيل: بثلاث وعشرين، لأنه كان قبله بأربعين سنة. وفي الحازن: اختلفوا في عام الفيل، فقيل: كان قبل مولد النبي صلى الله عليه وسلم بأربعين سنة أم. (ع)
(٢) قوله: فجهره، في القاموس: جهر الرجل،: عظم في هبته وراعه جماله، كأجهره انتهى. (ع)

(٣) لاكم إن المرة بمنع أهله فأمنع حلالك
وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك
لا يغلبن صليبهم ومحالهم عذوا محالك
جروا جميع بلادهم ولغفل كي يسبوا عيالك
معدوا حماك بكيدهم جهلا وما رقبوا جلالك
إن كنت تاركهم وكم بقا فأمر ما يدالك

لعبد المطلب حين أراد أبرهة بن الصباح هدم الكعبة وأغار على مائتي بعير له، ففرج إليه عبد المطلب في طالب الإبل، وقد قيل لأبرهة: إنه سيد قريش، يطعم الناس في السهل، والوحوش في رؤوس الجبال؛ فلما طلب الإبل قال له: سقطت من عيني، جئت لأهدم ما شرفكم فأهلك عنه طلب المال؛ فقال: أنا رب الإبل، وللبيت رب يحميه، ثم رجع وأخذ بحلقة الباب وقال ذلك. ولازم: أسله اللهم، لحظف. إن المرة بمنع، أي: يحفظ أهله، وأنت الله فاحفظ حلالك. أي: سكان حرمك الذين حلوا فيه. يقال: حتى حلال، أي: نزول، وفيهم كثرة. أو الذين هم في حل منك. ويجوز على بعد أنه أطلق الحلال على البيت، أو أهله على سبيل الهاكمة التقديرية للأهل؛ على أن معنى الزوجة. وروى: إن المرة بمنع حله فأمنع حلالك. والحل والحلال: ما يحل التصرف فيه. وروى: إن العبد بمنع حله فأمنع محالك، وهو يؤيد الأول. والآل لا يضاف إلا الذي شرف؛ فاضافته للصليب ليشاكل ما بعده. أو على زعمهم أنه ذو شرف. وعابديه: جمع مضاف للضمير إضافة الوصف لمفعوله. واليوم: ظرف للنصر. والمحال: مصدر ماحله إذا كايده بمكره. والعدو: العدوان والقلم؛ وهو نصب على التمييز. أو على المفعول المطلق. وروى: غدرا، أي: في الغد، فهو ظرف. وروى: أبدا. وروى: جموع، بدل جمع، وكان معهم اثنا عشر فيلا فيها فيل جسم عظيم اسمه محمود؛ فراه بالفيل: الجنس، أو المهور. والعيال: مفردة =

يَا رَبِّ لَا أَرْجُو لَهُمْ سِوَاكَ يَا رَبِّ فَاَمْنَعُ مِنْهُمْ حِمَاكَ ^(١)

فالتفت وهو يدعو فإذا هو بطير من نحو النين فقال : والله إنها لطير غريبة ماهى ببحرية ولا نهامية ^(٢) . وفيه : أن أهل مكة قد احتوا على أموالهم ، وجمع عبد المطلب من جواهرهم وذهبهم الجور ^(٣) ، وكان سبب يساره . وعن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه أنه سئل عن الطير فقال : حمام مكة منها . وقيل جاءت عشية ثم صبحتهم . وعن عكرمة : من أصابته جذرته وهو أول جذري ظهر . وقرئ : ألم تر ، بسكون الراء للجد في إظهار أثر الجازم : والمعنى : أنك رأيت آثار فعل الله بالحبشة ، وسمعت الاخبار به متواترة ، فقامت لك مقام المشاهدة . و (كيف) في موضع نصب بفعل ربك ، لا بألم تر ؛ لمافي (كيف) من معنى الاستفهام (في تضليل) في تضليل وإبطال . يقال : ضلل كبد ، إذا جعله ضالاً ضائعاً . ومنه قوله تعالى (وما كيد الكافرين إلا في ضلال) وقيل لامرئ القيس : الملك الضليل ؛ لأنه ضلل ملك أبيه ، أى . ضيعه ، يعنى : أنهم كادوا البيت أولاً ببناء القليس ، وأرادوا أن ينسخوا أمره بصرف وجوه الحاج إليه ، فضلل كيدهم بإيقاع الحريق فيه ؛ وكادوه ثانياً بإرادة هدمه ، فضلل بإرسال الطير عليهم (أبابيل) حزائق ، الواحدة : إبالة . وفي أمثالهم : ضفت على إبالة ، وهى : الحزمة الكبيرة ، شبت الحزمة من الطير في تضاعفها بالإبالة . وقيل : أبابيل مثل عباديد ، وشماطيط لا واحد لها . وقرأ أبو حنيفة رحمه الله : يرميهم ، أى الله تعالى أو الطير ، لأنه اسم جمع مذكر ؛ وإنما يؤنث على المعنى . وسجيل : كأنه علم للديوان الذى كتب فيه عذاب الكفار ، كما أن سجيناً علم للديوان أعمالهم ، كأنه قيل : بحجارة من جملة العذاب المكتوب المدون ، واشتقاقه من الإسجال وهو الإرسال ؛ لأن العذاب موصوف بذلك ، وأرسل عليهم طيراً ، فأرسلنا عليهم

عيل ، وجمعه عيائل ، كجند وجناد وجياند ، من قوله وتعهده شأنه . عمدوا : قصدوا ، حاك ، أى : حرمك الذى حيتته لجهلهم . أو جاهلين وما خافوا عظمتك ، إن كنت تاركهم مع كبريتنا يفعلون بها ما شاؤوا فأمر عظيم ظهر لك منا الآن من معاصيتنا . أو أمر تملكه أنت ولا نملكه من الحكمة والمصلحة . وفيه تفويض إلى الله وتسليم إليه .

(١) يا رب لا أرجو لهم سواك يا رب فامنع منهم حماك
إن عدو البيت من طاداك امنهم أن يخربوا فذاك

لعبد المطلب أيضاً ، أى : لا أرجو لمنع الأعداء عنا غيرك ، وألف القروا للإطلاق ، وتكرير العداة للاسقاطاف . والعدو : يطلق على الواحد والمتعدد ، أى : من كان عدواً لأهل بيتك فهو المهادى لك البالغ فى العداوة . والقضاء : رحمة البيت . وروى بدله « قراكا » جمع قرية ؛ وبدء المصراع للثاني بألف الوصل جائز ، لأنه عمل ابتداء فى الجملة ، كما به عليه الخليل .

(٢) قوله « ماهى ببحرية ولا نهامية » ببحرية : فى أبى السعود : بنجدية . (ج)
(٣) قوله « وذهبهم الجور » لغة الجرب : جمع جراب ، مثل : كتب ، جمع كتاب . (ج)

الطوفان . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : من طين مطبوخ كايطيخ الآجر . وقيل : هو معرب من ششكل . وقيل : من شديد عذابه ؛ ورووا بيت ابن مقبل :

* ضَرْبًا تَوَاصَتْ بِهِ الْأَبْطَالُ سِجِيلاً * (١)

وإنما هو سجيننا ، والقصيدة نونية مشهورة في ديوانه ؛ وشبهوا بورق الزرع إذا أكل ، أى : وقع فيه الإكال : وهو أن يأكله الدود . أو يتبن أكلته الدواب ورائته ، ولكنه جاء على ما عليه آداب القرآن ، كقوله (كانا يأكلان الطعام) أو أريد : أكل حبه فبقى صفراً منه .
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرأ سورة الفيل أعفاه الله أيام حياته من الخسف والمسخ (٢) .

سورة قريش

مكية ، وآياتها ٤ (نزلت بعد التين)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا يَلْفُ قُرَيْشٌ ① إِلَّا بِأَلْفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ② فَلْيَعْبُدُوا

رَبَّهُ هَذَا ③ النَّبِيُّ ④ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ⑤

(لإيلاف قريش) متعلق بقوله (فليعبدوا) أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين فإن قلت : فلم دخلت الغاء ؟ قلت : لما في الكلام من معنى الشرط لأن المعنى : إما لا فليعبدوه لإيلافهم ،

(١) ورجلة يضربون البيض عن عرج . ضرباً تَوَاصَتْ بِهِ الْأَبْطَالُ سِجِيلاً

لأبن مقبل . والرجلة : جماعة الرجال . والبيض : بالكسر - : كناية عن الصيف ، أى : يعضربون بها ؛ وإن قرئ : بالفتح فهي المنافر على رؤس الفرس . والفرج : الميل والإعوجاج . وروى : عن عرض ؛ ولعله تحريف . والمراد : اختلاف أحوال العرب . والبطل : لشجاع . والحجيل : شديد . ولكن الرواية بالنون ؛ لأن القصيدة نونية . وسذكر بعضها في أواخر حرف النون .

(٢) أخرجه ابن مردويه والتملي والواحدى بالسند إلى أبي بن كعب .

على معنى : أن نعم الله عليهم لا تحصى ، فإن لم يعبدوه لساثر نعمه ، فليعبدوه لهذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة . وقيل المعنى : عجبوا لإيلاف قريش . وقيل : هو متعلق بما قبله ، أى : جعلهم كمصف ما كول لإيلاف قريش ، وهذا بمنزلة التضمين في الشعر : وهو أن يتعلق معنى البيت بالذي قبله تعلقاً لا يصح إلا به ، وهما في مصحف أبي سورة واحدة بلا فصل . وعن عمر : أنه قراها في الثانية من صلاة المغرب ، وقرأ في الأولى : والتين ^(١) . والمعنى أنه أهلك الحبشة الذين قصدوم لتسامع الناس بذلك ، فيتهبوم زيادة تهيب ، ويحترموم فضل احترام ، حتى ينتظم لهم الأمن في رحلتهم ، فلا يجترئ أحد عليهم . وكانت لقريش رحلتان : يرحلون في الشتاء إلى اليمن ، وفي الصيف إلى الشام ، فيمتارون ويتجرون ، وكانوا في رحلتهم آمنين لأنهم أهل حرم الله وولادة بيته ، فلا يتعرض لهم ، والنفاس غيرهم يتخطفون ويغار عليهم . والإيلاف : من قولك : آلفت المكان أولفه إيلافاً : إذا ألفت ، فأنا مؤلف . قال :

• مِنَ الْمُؤَلَّفَاتِ الرَّهْوِ غَيْرِ الْأَوَارِكِ * ^(٢)

وقرئ : لتلاف قريش ، أى : لمؤالفة قريش . وقيل : يقال ألفته إلفاً وإلافاً . وقرأ أبو جعفر : لإلف قريش ، وقد جمعهما من قال :

زَعَمْتُمْ أَنَّ إِخْوَتَكُمْ قُرَيْشٌ لَّهُمْ إِلْفٌ وَلَيْسَ لَكُمْ إِلَافٌ ^(٣)

(١) هكذا وقع في التعليل . وقال عمرو بن ميمون : صليت خلف عمر المغرب . فذكر الحديث . وكذا وصله عبد الرزاق وابن أبي شيبة من رواية أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون قال : صلى بنا عمر المغرب . فقرأ في الأولى : والتين . وفي الثانية ألم تر ولايلاف قريش .

(٢) شددت إليك الرحل فوق شمة من المؤلفات الرهو غير الأوارك .
(٣) الحملة بالمتشديد . والشمال والشميل : الخفيفة السريعة السير ، أى : شددت الرحل فوق ناقة سريعة السير ذاهبا إليك ، وتلك الناقة من النوق المؤلفات المعتادات الرهو ، أى : السهل السهل المستقيم . ويروى : الرهو ، بالواو وهو سيرها بعد ورودها الماء . والأوارك : جمع أرك : المقبات موضع الأراك ، زمام . أو ترعى نبات يقال له الحنص ، أى : ليس كذلك بل معلوفة ومكرمة للسفر .

(٣) زعمتم أن إخوانكم قريش لهم إلف وليس لكم إلاف
أولئك أومنوا جوعاً وخوفاً وقد جاءت بنو أسد وخافوا

لساور بن هند بن قيس يحاطب بن أسد . وقريش خبر . وقولهم «لهم إلف» استئناف لبيان كذبهم . وإلاف وإلالاف : مصدر ألفه ، إذا أحبه واعتاده ولم ينفّر منه . وآلف إيلافاً بينهما : جعل بينهما إلفاً . وقد جمعت قريش بين رحلة الشتاء والصيف ؛ فتارة ترحل هذه وتارة هذه بلاخوف ولافرع «أولئك» إشارة لقريش وأومئوا معنى للجهول ، أى آمنهم من الجوع والخوف ، وقد جاءت بنو أسد : التفت إلى الغيبة دلالة على الإعراض عنهم ، وتنجيب غيرهم من شأنهم .

وقرأ عكومة : ليألف قريش لفهم رحلة الشتاء والصيف . وقريش : ولد النضر بن كنانة سموا بتصغير القرش : وهو دابة عظيمة في البحر تعيث بالسفن ، ولا تطاق إلا بالنار . وعن معاوية أنه سأل ابن عباس رضى الله عنهما : بم سميت قريش ؟ قال : بدابة في البحر تأكل ولا تؤكل ، وتعلو ولا تعلو . وأنشد :

وَقُرَيْشٌ هِيَ الَّتِي تَسْكُنُ الْبَحْرَ بِهَا مُمَيَّتٌ قُرَيْشٌ قُرَيْشًا ^(١)

والتصغير للتعظيم . وقيل : من القرش وهو الكسب : لأنهم كانوا كسابين بتجاراتهم وضربهم في البلاد . أطلق الإبلان ثم أبدل عنه المقيد بالرحلتين ، تفخيماً لأمر الإبلان ، وتذكيراً بعظيم النعمة فيه ؛ ونصب الرحلة بإيلافهم مفعولاً به ، كما نصب (يتيا) بإطعام ، وأراد رحلتى الشتاء والصيف ، فأفرد لآمن الإلباس ، كقوله .

• كَلُوا فِي بَعْضِ بَطْنِكُمْ ... • ^(٢)

وقريش هي التي تسكن البحر	بها سميت قريش قريشاً
تأكل الثمن والسمن ولا تترك	يوماً لذى جناحين ريشاً
هكذا في الكتاب نالت قريش	ياكلون البلاد أكلاً كشيهاً
ولم آخر الزمان في	يكثرون القتل فيهم والخوشا
بملا الأرض خيلة ورجالا	يحشرون المطر حشراً كشيهاً

لتبع . وقريش : تصغير قرش . قال ابن عباس : اسم دابة في البحر تأكل ولا تؤكل أه فصغر وسمي به للتصغير كنانة ، ثم سمي به أولاده . والمحدثون على أنه اسم لفهر بن مالك بن النضر ، وقال الزواجر : هو اسم لقصى بن كلاب ؛ وتوصلوا بذلك إلى نفي إمامة أبي بكر وعمر لكونهما ليسا قرشيين ، لأنهما يجتمعان معه صلى الله عليه وسلم بعد نهي ، والإمامة من قريش ، وقريش مبتدأ ، والجملة بعدها مستأنفة مبنية لها ، وبها سميت خبر ، أي : بسببها ، سميت هذه القبيلة قريشاً تأكل ، أي قريش البحرية . ويؤيده ما روى قبل هذا البيت وهو :

سلطت بالعلو في لجة البحر — ر على سائر البحور جيوشاً ... تأكل

ويحتمل أنها الضيلة . والثمن الخبيث . والسمن ، الطيب وصاحب الجناحين ، كناية عن الطير . أو اسمعارة لقصى ، وبالغ في أنها لا تبقى ولا تفر شيئاً عما تظفر به بقوله : إنها لا تترك ريش ذى الجناحين . وروى « فيه » بدل يوماً وهو معنى قريش البحرية . وهكذا : إشارة لحال دابة البحر ، أو لما قاله هو . والكقاب : الثوراة أو الانجيل . أو كتب التاريخ . وقريش هنا : القبيلة ، وروى :

هكذا في البلاد حتى قريش يأكلون البلاد ... • • •

أي : يأخذون أموالها . والكشيش في الأصل : الصوت الخفى ، أي : أكلاً بسرورة ، بلا إهاب ولا إنساب ، فهو مجاز ، واللي محمد صلى الله عليه وسلم . وخشخشا : خديشه . والخوش : الخدوش . والحبة : الصبح البعيد . والحيل : الحيلة . والرجال : المشاة على أرجلهم . ويحشرون : صفة لرجال ، ويمد رجوعه لقريش ، والكشيش : المريح . والمنظم : القاطع ، أي : يجمعونها بسرعة ، لكن المراد بالخوش هنا : الجروح .

(٢) قوله « كَلُوا فِي بَعْضِ بَطْنِكُمْ » بقيته : « أعفوا » وقد تقدم شرح هذا المعنى بالجزء الأول صفحة ٧٩ ، فراجع

إن شئت أه مصححه . (ع)

وقرى: رحلة، بالضم: وهى الجهة التى يرحل إليها: والتنكير فى (جوع) و (خوف) لشديتهما، يعنى: أطلعهم بالرحلتين من جوع شديد كانوا فيه قبلهما، وآمنهم من خوف عظيم وهو خوف أصحاب الفيل، أو خوف التخطف فى بلدهم ومسايرهم. وقيل: كانوا قد أصابهم شدة حتى أكلوا الجيف والعظام المحرقة، وآمنهم من خوف الجذام فلا يصيبهم بيلدم. وقيل ذلك كله بدعاء إبراهيم صلوات الله عليه. ومن بدع التفاسير: وآمنهم من خوف، من أن تكون الخلافة فى غيرهم. وقرى: من خوف، بإخفاء النون.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ سورة لإيلاف قریش اعطاه الله عشر حسنات بعدد من طاف بالكعبة واعتكف بها»^(١).

سورة الماعون

مكية ثلاث آيات الأول، مدنية البقية؛ وآياتها ٧ (نزلت بعد التكاثر)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَرَدَتْ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّنِّ ① فَذَلِكَ الَّذِي بَدُعَ الْيَنبِغَ ②
وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ③ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ④ الَّذِينَ هُمْ عَنْ
صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ⑤ الَّذِينَ هُمْ بُرْءُونَ ⑥ وَيَمْنَعُونَ الْمَأْهُونَ ⑦

قرى: أريت، بحذف الهزة، وليس بالاختيار؛ لأن حذفها مختص بالمضارع، ولم يصح عن العرب: ريت، ولكن الذى سهل من أمرها وقوع حرف الاستفهام فى أول الكلام. ونحوه:

صَاحَ هَلْ رَبَّتْ أَوْ مِمَّتْ بِرَاعٍ رَدَّ فِي الصُّرْعِ مَا قَرَى فِي الْحِلَابِ ②

(١) أخرجه الطلي والواحدى وابن مردويه بالسند إلى أبى بن كعب.

(٢) لاسماعيل بن بشر؛ وفى حياة الحيوان ما هو صريح فى أنه لافيلة بن عبد المدان بن خرشم بن عبد البليل بن جرهم بن قحطان ابن هود عليه السلام وصاح مرخم؛ فان كان أصله بإصاحي، فترخمه شاذ من وجهين، لأن فيه حذف المضاف إليه

وقرأ ابن مسعود : أ رأيتك ، بزيادة حرف الخطاب ، كقوله (أ رأيتك هذا الذى كزمت على) والمعنى : هل عرفت الذى يكذب بالجزاء من هو ؟ إن لم تعرفه (فذلك الذى) يكذب بالجزاء ، هو الذى (يدع اليتيم) أى : يدفعه دفعاً عنيفاً بجفوة وأذى ، و برذه رداً قبيحاً بجزر وخشونة . و قرئ : بدع ، أى : يترك ويحفو (ولا يحض) ولا يبعث أهله على بذل طعام المسكين ، جعل علم التكذيب بالجزاء منع المعروف والإقدام على إيذاء الضعيف ، يعنى : أنه لو آمن بالجزاء وأيقن بالوعيد ، لحشى الله تعالى وعقابه ولم يقدم على ذلك ، خين أقدم عليه : علم أنه مكذب ، فما أشده من كلام ، وما أخوفه من مقام ، وما أبلغه في التحذير من المعصية وأنها جدية بأن يستدل بها على ضعف الإيمان ورخاوة عقد اليقين ، ثم وصل به قوله (فويل للصلين) كأنه قال : فإذا كان الأمر كذلك ، فويل للصلين الذين يسهون عن الصلاة قلّة بمبالاة بها ، حتى تفوتهم أو يخرج وقتها ، أو لا يصلونها كما صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم والسلف ولكن ينقرونها نقرأ من غير خشوع وإخبات ، ولا اجتناب لما يكره فيها : من العبث باللحية والثياب وكثرة التثاؤب والالتفات ، لا يدري الواحد منهم عن كم انصرف ، ولأما قرأ من السور ، كما ترى صلاة أكثر من ترى الذين عادتهم الرياء بأعمالهم ومنع حقوق أموالهم . والمعنى : أن هؤلاء أحق بأن يكون سهوم عن الصلاة - التى هى عماد الدين ، والفارق بين الإيمان والكفر والرياء الذى هو شعبة من الشرك ، ومنع الزكاة التى هى شقيقة الصلاة وقطرة الإسلام - علماً على أنهم مكذبون بالدين . وكم ترى من المتسمين بالإسلام ، بل من العلماء منهم من هو على هذه الصفة ، فيامصيتهاه . وطريقة أخرى : أن يكون (فذلك) عطفاً على (الذى يكذب) إما عطف ذات على ذات ، وصفة على صفة ، ويكون جواب (أ رأيت) محذوفاً للدلالة ما بعده عليه ، كأنه قيل : أخبرنى ، وما تقول فيمن يكذب بالجزاء ؟ وفيمن يؤذى اليتيم ولا يطعم المسكين ؟ أنعم ما يصنع ؟ ثم قال (فويل للصلين) أى إذا علم أنه مسيء ، فويل للصلين ، على معنى : فويل لهم ، إلا أنه وضع صفتهم موضع ضميرهم ؛ لأنهم كانوا مع التكذيب وما أضيف

== وحذف بعض المضاف وكلاهما شاذ وإن كان أصله يا صاحب بلا إضافة . فهو شاذ من جهة أنه ليس علماً ولا مؤثلاً بالهاء . وقيل : ترخيم للنكرة المقصودة جائز ، وريت : أصله رأيت ؛ تخفيف بحذف الهمزة للضرورة ، وكان قياس تخفيفها جعلها بين بين . لعدم سكون ما قبلها . وقرئ يقرئ قرياً : جمع جماع . ويروى : ثوى ، أى تمكن واستقر . والحلاب : إناء الحلب ، وروى : الحلاب ، جمع علبه ، وهى علب من جلد . يقول : يا صاحبى هل رأيت أو سمعت أن راهباً رجح في الضرع ما جمع في الحلب من اللبن . وعدى لفعلين ، أو بأحدهما بالباء ، لتضمن معنى الملم ويحوز أن الباء زائدة . وحسن حذف همزة رأيت أن «هل» بمعنى «قد» في الأصل وهمزة الاستفهام منوطة قبله وورده ذكرها قبلها قليلاً ، بل قيل إنها مقدرة أيضاً قبل أسماء الاستفهام كلها ، ولبيت من باب التثنية ، والمعنى : أن الماضى لا يعود ، والواقع لا يرتفع .

إليهم ساهين عن الصلاة مرايين ، غير مزكين أموالهم . فإن قلت : كيف جعلت المصلين قائما مقام ضمير الذى يكذب ، وهو واحد ؟ قلت : معناه الجمع ، لأن المراد به الجنس . فإن قلت : أى فرق بين قوله (عن صلاتهم) وبين قولك (في صلاتهم) ؟ قلت : معنى (عن) : أنهم ساهون عنها سهو ترك لها وقلة التفات إليها ؛ وذلك فعل المتأففين أو الفسقة الشطار من المسلمين . ومعنى (في) : أن السهو يعتريهم فيها بوسوسة شيطان أو حديث نفس ، وذلك لا يكاد يخلو منه مسلم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقع له السهو في صلاته فضلا عن غيره ^(١) ؛ ومن ثم أثبت الفقهاء باب سجود السهو في كتبهم . وعن أنس رضى الله عنه : الحمد لله على أن لم يقل في صلاتهم . وقرأ ابن مسعود : لاهون . فإن قلت : ما معنى المراءاة ؟ قلت : هى مفاعلة من الإراءة ، لأن المرائى يرى الناس عمله ، وهم يروونه الثناء عليه والإعجاب به ، ولا يكون الرجل مرائيا باظهار العمل الصالح إن كان فريضة ، فن حق الفرائض الإعلان بها وتشهيرها ، لقوله عليه الصلاة والسلام ولا غمة في فرائض ^(٢) الله ، لأنها أعلام الإسلام وشعائر الدين ؛ ولأن تاركها يستحق الذم والمقت ، فوجب إماطة التهمة بالإظهار ؛ وإن كان تطوعا ، لحقه أن يخفى ، لأنه بما لا يلام بتركه ولا تهمته فيه ؛ فإن أظهره قاصدا للاقتداء به كان جميلا ، وإنما الرياء أن يقصد بالإظهار أن تراه الأعين ، فينتى عليه بالصلاح . وعن بعضهم : أنه رأى رجلا في المسجد قد سجد سجدة الشكر وأطالها ، فقال : ما أحسن هذا لو كان في بيتك ؛ وإنما قال هذا لأنه توسم فيه الرياء والسمعة ؛ على أن اجتناب الرياء صعب إلا على المرئاضين بالإخلاص . ومن ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الرياء أخفى من ديب النملة السوداء في الليلة المظلمة على المسح الأسود ^(٣) ، (الماعون) الزكاة ، قال الراعى :

قَوْمٌ عَلَى الْإِسْلَامِ لَمْ يَمْنَعُوا مَاعُونَهُمْ وَيُضْمِعُوا التَّهْلِيلَ ^(٤)

(١) قال المخرج : ورده في ذلك خمسة أحاديث (الأول) قصة ذى الدين . متفق عليها من حديث أبى هريرة من طرق عنه ، وعنده أنه صلى ركعتين في الظهر أو العصر ثم سلم سهوا (الثاني) حديث عبد الله بن بريدة ، متفق عليه أيضا في قيامه بغير نية أول وجهه لسهو قبل السلام . وفيه عن سعد بن أبي بزة (الثالث) حديث ابن مسعود متفق عليه أيضا أنه صلى الله عليه وسلم صلى الظهر خسا . فقيل له في ذلك . فسجد سجدتين بعد ما سلم (الرابع) حديث عمران بن حصين وأنه صلى الله عليه وسلم صلى العصر ثلاث ركعات فقام رجل يقال له الخرقاء - الحديث (الخامس) حديث معاذ بن خديج قال وصليت مع النبي صلى الله عليه وسلم المغرب . فسأفها . فلم في ركعتين ثم انصرف . الحديث أخرجه ابن خزيمة وأبو داود وابن حبان وجزم بأن هذه الفضة مغايرة لفضة عمران . وإنما مغايرتان لفضة أبى هريرة : قلت وقد بسط العلائق القول فيه في جزء مفرد .

(٢) هو في الحديث المتقدم في سورة يونس .

(٣) لم أجده .

(٤) يقول : هم قوم ثابثون على الإسلام ، أو مع إسلامهم وزيادة عليه ، لم يمنعوا الزكاة ولا غيرها من =

وعن ابن مسعود : ما يتعاون في العادة من الفأس والقدر والدلو والمقدحة ونحوها . وعن عائشة الماء والنار والملح ؛ وقد يكون منع هذه الأشياء محظوراً في الشريعة إذا استعيرت عن اضطرار ، وقبيحاً في المروءة في غير حال الضرورة .
عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « من قرأ سورة أرايت غفر الله له إن كان للزكاة مؤبداً »^(١) ،

سورة الكوثر

مكية ، وآياتها ٣ (نزلت بعد العاديات)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْعَمْنَاكَ الْكَوْثَرَ ① فَصَلِّ رَبِّكَ وَأَنْحَرْ ② إِنَّ شَانِئَكَ ③
هُوَ الْأَبْتَرُ ④

في قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا أنعمناك ، بالنون^(١) . وفي حديثه صلى الله عليه وسلم^(٢) : « وأعطوا الشجعة »^(٣) ، والكوثر : فوعل من الكثرة وهو المفرط الكثرة . قيل لأعرابية رجع ابنها من السفر : بم أب ابنك ؟ قالت : أب بكوثر . وقال :

وَأَنْتَ كَثِيرٌ يَا ابْنَ مَرْوَانَ طَلِبٌ وَكَانَ أَبُوكَ ابْنَ الْعَقَائِلِ كَوْتَرًا^(٤)

== الخيرات ، فلما لا استغراق للنفي في الماضي ، وإما ترقب حصول المنق بها فهو غالب وليس مراداً هنا ، ولم يضرعوا التمهلاً : أي الصلاة ، لاشتغالها على لا إله إلا الله .

(١) أخرجه ابن مردويه والعلبي والواحدى باستنادهم إلى أبي بن كعب .

(٢) أخرجه الطبراني والدارقطني في الموطأ والحاكم وابن مردويه والبيهقي من رواية عمرو بن عبدة عن الحسن بن أمه عن أم سلمة وعمرو بن عبدة وأبي الحديث .

(٣) هو في الحديث المتقدم في سورة يونس .

(٤) قوله « وأعطوا الشجعة » في القاموس « الشجعة » حركة : المتوسطة بين الخيار والذال اه . (ع)

(٥) لكثير : وأنت كثير : أي كثير الخير والبر . ويروي بده : كوثر . وفي الهداء تنويه باسمه وتعظيمه ==

وقيل (الكوثر) نهر في الجنة . وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأها حين أنزلت عليه فقال :
 « أتدرون ما الكوثر ؟ إنه نهر في الجنة وعدنيه ربي ، فيه خير كثير »^(١) ، وروى في صفته :
 أحلى من العسل ، وأشدّ بياضاً من اللبن ، وأبرد من الثلج ، وألين من الزبد ، حافته الزبرجد ،
 وأوانيه من فضة عدد نجوم السماء^(٢) . وروى : لا يظما من شرب منه أبداً : أول وارديه :
 فقراء المهاجرين : الدنس والثياب ، الشعث الرأس ، الذين لا يزوجون المنعمات ، ولا تفتح لهم
 أبواب السدد ، يموت أحدهم وحاجته تتلجلج في صدره ، لو أقسم على الله لأبزه .^(٣) وعن ابن عباس
 أنه فسر الكوثر بالخير الكثير ، فقال له سعيد بن جبير : إن ناساً يقولون : هو نهر في الجنة !
 فقال : هو من الخير الكثير . والنحر : نحر البدن ؛ وعن عطية : هي صلاة الفجر بجمع ، والنحر
 بمنى . وقيل : صلاة العيد والمنحضة . وقيل . هي جنس الصلاة . والنحر : وضع اليدين على
 الشمال ، والمعنى : أعطيت ما لا غاية لكثرة من خير الدارين الذي لم يعطه أحد غيرك ، ومعطى
 ذلك كله أنا إله العالمين ، فاجتمعت لك الغبطتان السئيتان^(٤) : إصانة أشرف عطاء وأوفره ،
 من أكرم معط وأعظم منعم ؛ فاعبد ربك الذي أعزك بإعطائه ، وشرفك وصانك من من
 الخلق ، مراغماً لقومك الذين يعبدون غير الله ، وانحر لوجهه وباسمه إذا نحرت ، مخالفاً لهم
 في النحر للأوثان (إن) من أبفضك من قومك لمخالفتك لهم (هو الأبر) لا أنت ؛ لأن كل
 من يولد إلى يوم القيامة من المؤمنين فهم أولادك وأعطاك ، وذكرك مرفوع على المنابر
 والمنابر ، وعلى لسان كل عالم وذاكر إلى آخر الدهر ، يبدأ بذكر الله ويثنى بذكرك ، ولك في
 الآخرة ما لا يدخل تحت الوصف ، فذلك لا يقال له أبر : وإنما الأبر هو شانتك المنسى في

== لقدره . واستعار الطيب لحسن السمرة . ويجوز أنه ضد الخبيث . والعقال : خيار النساء ؛ والمراد جنسهن أو
 ما يشمل الجدات . والكوثر : بلوغ النهاية في الخير .

(١) أخرجه مسلم من رواية المختار بن قلفل عن أنس في أثناء حديث ذكره في أوائل الصلاة .

(٢) أخرجه الحاكم من حديث أبي برزة رفته « حوض ما بين أية إلى صماء » : عرضه كطولها . فيه ميزابان
 يصبان من الجنان أحلى من العسل ، وأبرد من الثلج وأشدّ بياضاً من اللبن ، وألين من الزبد فيه أباريق عدد نجوم
 السماء . الحديث . وفي ابن مردويه من حديث ابن عباس في قصة الاسراء - فذكر حديثاً طويلاً جداً . وفيه ذكر
 الكوثر وحافته من زبرجد .

(٣) أخرجه ابن ماجه وأحمد والطبراني من حديث ثوبان . وفيه « وأن حوض ما بين عدن إلى أية . أشد
 بياضاً من اللبن وأحلى من العسل ، أكوابه عدد نجوم السماء من شرب منه شربة لا يظما بعدها أبداً وأول من يرم
 عليه فقراء المهاجرين الدنس ثياباً للهمم رهوسا الذين لا ينسكون المنعمات ولا يفتح لهم السدد »

(٤) قال محمود : « أى جمعاً لك الغبطتين السئيتين أحدهما إصانة أشرف عطاء وهو الكوثر ... الخ » قال
 أجد ، جعل الزمخشرى توسط الضمير بين الجزئين مفيد للاختصاص لأن إفادته هنا لذلك هيئة يكهفوفة .

الدنيا والآخرة ، وإن ذكر ذكر باللعن . وكانوا يقولون : إن محمداً صنيعور^(١) : إذا مات مات ذكره . وقيل : نزلت في العاص بن وائل ، وقد سماه الأبر ، والأبر : الذي لا عقب له . ومنه : الحمار الأبر الذي لا ذنب له .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة الكوثر سقاه الله من كل نهر في الجنة ويكتب له عشر حسنات بعدد كل قربان يقربه العباد في يوم النحر أو يقربونه^(٢) » .

سورة الكافرون

مكية ، وهي ست آيات (نزلت بعد الماعون)

ويقال لها : لسورة الإخلاص : المقتضتان ، أى البرئتان من النفاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ① لَا أُعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ
مَا أُعْبُدُ ③ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ④ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أُعْبُدُ ⑤
لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ⑥

المخاطبون كفرة مخصوصون قد علم الله منهم أنهم لا يؤمنون . روى أن رجلاً من قريش قالوا : يا محمد ، هلم فاتبع ديننا وتبع دينك : تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، فقال معاذ الله أن أشرك بالله غيره : فقالوا : فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلهك ، فنزلت : فعدا إلى المسجد الحرام وفيه الملاء من قريش فقام على رؤوسهم فقرأها عليهم ، فأيسوا . (لا أعبد) أريدت به العبادة فيما يستقبل ، لأن د لا ، لا تدخل إلا على مضارع في معنى الاستقبال ، كما أن د ما ، لا تدخل إلا على مضارع في معنى الحال ، ألا ترى أن د لن ، تأكيد فيما تنفيه د لا ،

(١) قوله د إن محمداً صنيعور ، ذكر في القاموس معانيه : الرجل للفرد الطيب الذي لا أمل وعقب وناصر له . (ج)

(٢) أخرجه الثعلبي وابن جرير بنحوه يستندهم إلى أبي بن كعب .

وقال الخليل في «لن» : أن أصله «لا أن» والمعنى : لا أفعل في المستقبل ما تطلبونه منى من عبادة آلهتكم ، ولا أنتم فاعلون فيه ما أطلب منكم من عبادة إلهي (ولا أنا عابد ما عبدتم) أى : وما كنت قط عابداً فيما سلف ما عبدتم^(١) فيه ، يعنى لم تعهد منى عبادة صنم في الجاهلية ، فكيف ترجى منى في الاسلام (ولا أنتم عابدون ما أعبد) أى : وما عبدتم في وقت ما أنا على عبادته . فإن قلت : فهلا قيل : ما عبدت ، كما قيل : ما عبدتم ؟ قلت : لأنهم كانوا يعبدون الاصنام قبل المبعث ، وهو لم يكن يعبد الله تعالى في ذلك الوقت . فإن قلت : فلم جاء على «ما» دون «من» ؟ قلت : لأن المراد الصفة ، كأنه قال : لا أعبد الباطل ، ولا تعبدون الحق . وقيل : إن «ما» مصدرية ، أى : لا أعبد عبادتكم ، ولا تعبدون عبادتي (لكم دينكم ولى دين) لكم شرككم ، ولى توحيدى . والمعنى : أنى نبي مبعوث إليكم لادعوكم إلى الحق والنجاة ، فإذا لم تقبلوا منى ولم تتبعونى ، فدعونى كفافاً ولا تدعونى إلى الشرك .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من قرأ سورة الكافرين فسكأنما قرأ أربع القرآن وتباعدت منه مردة الشياطين ، وبرئ من الشرك ويعافى من الفروع الاكبر» .^(٢)

(١) قال مجمره : «معناه في المستقبل ، لأن «لا» تنفي المستقبل ، ولا أنتم عابدون ما أعبد : كذلك ، ولا أنا عابد ما عبدتم : أى فيما سلف ... الخ» قال أحد : هذا الذى قاله خطأ على الأصل والفرع جميعاً : أما على أصله القدرى ، فإنه وإن كان مقتضاه أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن قبل المبعث على دين نبي قبله ، لاعتقاده القدورية أن ذلك غريزة في منصبه ، ومنفر من اتباعه ، فيستحيل وقوعه للفسدة ؛ إلا أنهم يعتقدون أن الناس كلهم متعبدون بمقتضى العقل بوجوب النظر في آيات الله تعالى وأدلة توحيد ومعرفة ، وأن وجوب النظر بالعقل لا بالسمع . فذلك عبادة قبل المبعث يلزمهم ألا يظفروا به صلى الله عليه وسلم الاخلال بها ، حينئذ يقتضى أصلهم أنه كان قبل المبعث يعبد الله تعالى ؛ فالخبر شري حافظ على الوفاء بأصله في عدم اتباعه لنبي سابق ، فأخل بالتفريع على أصله الآخر في وجوب العبادة بالعقل . والحق أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعبد قبل الوحى ويتحدث في غار حراء ، فإن كان مجرى قوله أعبد - لأن الماضى لم يحصل فيه هذه العبادة المرادة في الآية - فيحمل الأمر فيها والله أعلم على مجروح العبادات الخاصة التى لم تعلم إلا بالوحى ، لا على مجرد توحيد الله تعالى ومعرفة ؛ فإن ذلك لم يزل ثابتاً له صلى الله عليه وسلم قبل المبعث ، والله أعلم . أو يكون مجيئه مضارعا لقصد تصوير عبادته في نفس السامع وتمكينها من فهمه ، كقوله (لم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة) والأصل : فأصبحت ؛ وإنما عدل عنه للمعنى المذكور ؛ وهو وجه حسن ، فتأمل ، والله أعلم .

(٢) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بسندهم إلى أبي بن كعب . قلت : وصدره رواه الترمذي . حديثه أنس بن مالك عنه .

سورة النصر

نزلت بمضى في حجة الوداع ، فتعد مدينة ، وهي آخر ما نزل من السور
وآياتها ٣ (نزلت بعد التوبة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ① وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ
أَفْوَاجًا ② فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ③

{إذا جاء} منصوب بسبح ، وهو لما يستقبل . والاعلام بذلك قبل كونه من اعلام النبوة . روى أنها نزلت في أيام التشريق بمضى في حجة الوداع . فإن قلت : ما الفرق بين النصر والفتح حتى عطف عليه ؟ قلت : النصر الاغاثة والاطهار على العدو . ومنه : نصر الله الأرض غاشيا . والفتح : فتح البلاد . والمعنى : نصر رسول الله صلى الله عليه وسلم على العرب . أو على قريش وفتح مكة . وقيل : جنس نصر الله للمؤمنين وفتح بلاد الشرك عليهم ، وكان فتح مكة لعشر مضين من شهر رمضان سنة ثمان ، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة آلاف من المهاجرين والانصار وطوائف العرب ، وأقام بها خمس عشرة ليلة ، ثم خرج إلى هوازن ، وحين دخلها وقف على باب الكعبة ، ثم قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ثم قال : يا أهل مكة ، ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء . فأعتقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) ، وقد كان الله تعالى أمكنه من رقابهم عنوة ، وكانوا له فينا ، فلذلك سمي أهل مكة الطلقاء ، ثم بايعوه على الاسلام {في دين الله} في ملة الاسلام التي لادين له يضاف إليه غيرها (ومن يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه) . {أفواجا} جماعات كثيفة كانت تدخل في القبيلة بأسرها

(١) أخرجه ابن إسحاق في السيرة . وروى البخاري عن ابن عباس وأبو ثني صلى الله عليه وسلم خرج من مكة في رمضان . الحديث ، قال : فصحبها ثلاث عشرة خلت من رمضان . وفي الدلائل من طريق ابن إسحاق عن الوهري وغيره قال : فتبعه لعشر بقين .

بعد ما كانوا يدخلون فيه واحدا واحدا واثنين اثنين . وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه أنه بكى ذات يوم ، فقيل له ^(١) . فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « دخل الناس في دين الله أفواجا وسيخرجون منه أفواجا » ^(٢) ، وقيل : أراد بالناس أهل الدين . قال أبو هريرة : لما نزلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الله أكبر جاء نصر الله والفتح ، وجاء أهل الدين : قوم رقيقة قلوبهم . الإيمان يمان ، والفقه يمان ، والحكمة يمانية » ^(٣) ، وقال أجد نفير ربكم من قبل الدين ، ^(٤) وعن الحسن : لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة أقبلت العرب بعضها على بعض ، فقالوا : أما إذ ظفر بأهل الحرم فليس به يدان ، وقد كان الله أجارهم من أصحاب القليل وعن كل من أرادهم ، فكانوا يدخلون في الإسلام أفواجا من غير قتال . وقرأ ابن عباس : فتح الله والنصر : وقرئ : يدخلون ، على البناء للفعول . فإن قلت : ما محل يدخلون ؟ قلت : النصب إما على الحال ، على أن رأيت بمعنى أبصرت أو عرفت . أو هو مفعول ثان على أنه بمعنى علمت (فسبح بحمد ربك) فقل سبحان الله : حامداً له ، أى : فتعجب لتيسير الله ما لم يحظر ببالك وبال أحد من أن يغلب أحد على أهل الحرم ، واحمده على صنعه . أو : فاذكره مسبحاً حامداً ، زيادة في عبادته والثناء عليه ، لزيادة إنعامه عليك . أو فصل له . روت أم هانئ : أنه لما فتح باب الكعبة صلى صلاة الضحى ثمانى ركعات ^(٥) وعن عائشة : كان عليه الصلاة والسلام يكثّر قبل موته أن يقول : « سبحانك اللهم وبحمدك ، أستغفرك وأتوب إليك » ^(٦) ، والامر بالاستغفار مع التيسير تكميل للأمر بما هو قوام أمر الدين : من الجمع بين الطاعة والاحتراس

(١) قوله وقيل له ، لعله : فقيل له في ذلك . (ج)

(٢) أخرجه أحمد وإسحاق وابن مردويه والعلاني من روايه الأوزاعي : حدثني أبو عمار حدثني جابر ابن عبد الله قال : قدمت من سفر لجاني جابر بن عبد الله فسلم عليّ فجعلت أحدثه عن افراق الناس وما أحدثوا . فجعل يبكي . ثم قال : سمعت - فذكره - وله شاهد عن أبي هريرة في العين من المستعرك .

(٣) أخرجه ابن مردويه من طريق عبدالرازق أخبرنا هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عنه . وأصله في مسلم دون ما في أوله . وله شاهد في ابن حبان والنسائي من حديث ابن عباس رضى الله عنهما .

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط ومسنند الشاميين من طريق جرير بن عثمان عن شبيب بن ووح عن أبي هريرة به في حديث أوله « الإيمان يمان ، ولا بأس باستناده . وله شاهد من حديث سلمة بن نفيل السكوني في مسند البزار والطبراني الكبير والبيهقي في الأسماء . وفي إسناده إبراهيم بن سليمان الأفلح . قال البزار : إنه غير مشهور .

(٥) لم أجد هكذا : فإن ظاهره يوم أنه صلاها داخل الكعبة وفي الصحيحين من حديث أم هانئ « أن النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة اغتسل في بيئها وصل ثمان ركعات » ورواه أبو داود بلفظ « أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى سبعة الضحى ثمانى ركعات - سلم في كل ركعتين ، إسناده صحيح ، وأخرجه أحمد وابن أبي شيبة والطبراني وابن حبان وأبو يعلى والبيهقي والحاكم والطبري من طرق كثيرة تزيد على ثلاثين رجلاً ، لم يذكر أحد منهم هذه الزيادة .

(٦) متفق عليه واللفظ لمسلم .

من المعصية ، وليكون أمره بذلك مع عصمته لطفاً لامته ، ولأن الاستغفار من التواضع لله وهضم النفس ، فهو عبادة في نفسه . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : « إني لأستغفر في اليوم والليلة مائة مرة ^(١) » ، وروى أنه لما قرأها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أصحابه استبشروا وبكى العباس ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما يبكيك يا عم ؟ » قال : نعت إليك نفسك . قال : « إنها لك تقول » ^(٢) ، فمأش بعدها سنتين لم يرفهما ضاحكاً مستبشراً . وقيل : إن ابن عباس هو الذي قال ذلك ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد أوتى هذا الغلام علماً كثيراً » ^(٣) ، وروى أنها لما نزلت خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إن عبداً خيره الله بين الدنيا وبين لِقائه ، فاختار لقاء الله ، فعلم أبو بكر رضى الله عنه ، فقال : فدينك بأنفسنا وأموالنا وآبائنا وأولادنا » ^(٤) . وعن ابن عباس أن عمر رضى الله عنهما كان يذنيه ويأذن له مع أهل بدر ، فقال عبد الرحمن : أتأذن لهذا القتي معنا وفي أبنائنا من هو مثله ؟ فقال إنه عن قد علمت ^(٥) ، قال ابن عباس : فأذن لهم ذات يوم ، وأذن لي معهم ، فسألهم عن قول الله تعالى (إذا جاء نصر الله) ولا أراه سألهم إلا من أجلى ؛ فقال بعضهم : أمر الله نبيه إذا فتح عليه أن يستغفره ويتوب إليه ؛ فقلت : ليس كذلك ، ولكن نعت إليه نفسه ؛ فقال عمر : ما أعلم منها إلا مثل ما تعلم ، ثم قال : كيف تلومونني عليه بعدما ترون ؟ وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه دعا فاطمة رضى الله عنها فقال : « يا بنتاه إنه نعت إلى نفسي ، فبكيت ، فقال : لا تبكي ، فإنك أول أهلى لحوقاً » ^(٦) ، وعن ابن مسعود أن هذه السورة تسمى سورة التوديع (كان تواباً) أى كان في الأزمنة الماضية منذ خلق المكلفين تواباً عليهم إذا استغفروا ، فعلى كل مستغفر ، أن يتوقع مثل ذلك .

(١) أخرجه مسلم من حديث الأعمش المزني .

(٢) ذكره الثعلبي عن مقاتل وسنده إليه دون الكتاب .

(٣) لم أجده .

(٤) متفق عليه أصله من حديث أبي سعيد الخدري دون أوله من كونه كان عند نزول السورة . نعم فيه ما يفسر بأن ذلك كان في أواخر عمره ونزولاً كان في أواخر عمره بلا نزاع .

(٥) أخرجه البخاري من حديث ابن عباس . منه . وليس فيه تعيين عبد الرحمن بن عوف . واستدركه الحاكم فوهم . وأخرجه البرار وآخر لفظه موافق لآخر لفظ المصنف .

(٦) أخرجه البيهقي في أواخر الدلائل وابن مردويه من رواية هلال بن خباب عن فكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما نزلت إذا جاء نصر الله والفتح دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة فقال لها إنه قد نعت إلى نفسي فبكيت فقال لها : اصبري فإنك أول أهلى لحوقاً . فقال لها بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم . الحديث وشاهده في الصحيحين من حديث عائشة رضى الله عنها من رواية مبرق عنها مطولاً .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة إذا جاء نصر الله أعطى من الاجر كمن شهد مع محمد يوم فتح مكة » (١).

سورة المسد

مكية ، وآياتها ٥ [نزلت بعد الفاتحة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢)
سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَأَمْرَأَتُهُ خَمَّالَةٌ خَطَّابٍ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ
مِّن مَّسَدٍ (٥)

الكتاب : الهلاك . ومنه قولهم : أشابه أم تابة ، أى : هالكة من الهرم والتعجز . والمعنى : هلكت يده ، لأنه فيما يروى : أخذ حجراً ليرمى به رسول الله صلى الله عليه وسلم (وتب) وهلك كله . أو جعلت يده هالكيتين . والمراد : هلاك جملته ، كقوله تعالى (بما قدمت يداك) ومعنى (وتب) : وكان ذلك وحصل ، كقوله :

جَزَانِي جَزَاءَهُ أَفْ شَرُّ جَزَائِهِ جَزَاءَ الْكَلَابِ الْعَاوِيَاتِ وَقَدْ فَعَلْتُ (٢)

(١) أخرجه التلبي والواحدى وابن مردويه بالسند إلى أبي بن كعب .

(٢) كأن قد فعل به خيراً لجزاء شراً ، فدعا عليه بقوله : جزاء الله شر جزائه . جزاء الكلاب : بدل من « شر جزائه » وضمير « جزائه » لله . أو الرجل المدعو عليه . وجزاء الكلاب العاويات : وجهها . وروى العاديات ، بالبدال ، بدل الوار . وقد فعل : أى فعل الله ذلك الجزاء فى الواقع ، حيث أوقعه . وفيه من أنواع البديع : الرجوع ، وهو الدود إلى الكلام السابق بالنقض للكنة ، لأن مقتضى الدعاء أن المدعو به لم يحصل ، فنقضه بقوله « وقد فعل » . وروى بدل الشطر الأول : جزى ربه عنى عدى بن حاتم . وضمير « ربه » الحاتم ، وإن تأخر لفظاً ورتبة للضرورة ؛ وأجازه الأخفش وابن جنى وابن مالك فى السعة ؛ لأن المفعول به كان مقدماً لهذه اقتضاء الفعل إيابه . وقبل عائد للجزاء المعلوم من جزى . وروى بدل الشطر الأول أيضاً : جزى الله عبداً عبس =

ويدل عليه قراءة ابن مسعود: وقد تب، وروى أنه لما نزل (وأندر عشيرتك الأقربين) رقى الصفا وقال: يا صباحاه. فاستجمع إليه الناس من كل أوب. فقال: يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، إن أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل خيلاً أكنتم مصدقاً؟ قالوا: نعم؛ قال: فإني نذير لكم بين يدي الساعة؛ فقال أبو لهب: تبالك، ألهذا دعوتنا^(١)؟ فنزلت. فإن قلت: لم كناه، والتكنية تكريمة؟ قلت: فيه ثلاثة أوجه، أحدها: أن يكون مشتهراً بالكنية دون الاسم، فقد يكون الرجل معروفاً بأحدهما، ولذلك تجرى الكنية على الاسم، أو الاسم على الكنية عطف بيان، فلما أريد تشهيره بدعوة السوء، وأن تبقى سمة له، ذكر الأشهر من عليه ويؤيد ذلك قراءة من قرأ: يدا أبو لهب^(٢)، كما قيل: علي بن أبو طالب. ومعارية بن أبو سفيان؛ لثلاثا يغير منه شيء فيشكل على السامع، ولعلية بن قاسم أمير مكة ابنان، أحدهما: عبد الله - بالجزء، والآخر عبد الله - بالنصب. كان بمكة رجل يقال له: عبد الله - بحجة الدال، لا يعرف إلا هكذا. والثاني: أنه كان اسمه عبد العزى، فعدل عنه إلى كنيته. والثالث: أنه لما كان من أهل النار وماله إلى نار ذات لهب، وافقت حاله كنيته؛ فكان جديراً بأن يذكر بها. ويقال: أبو لهب، كما يقال: أبو الشر للشرير. وأبو الخير للخير، وكما كنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا المهلّب: أبا صفرة، بصفرة في وجهه. وقيل كنى بذلك لتلهب وجنتيه وإشراقهما، فيجوز أن يذكر بذلك تهكم به، وبإفخاره بذلك. وقرئ أبي لهب، بالسكون. وهو من تغيير الأعلام، كقولهم: شمس بن مالك بالضم (ما أغنى) استفهام في معنى الإنكار، وعمله النصب أو نفي (وما كسب) مرفوع. وما موصولة أو مصدرية بمعنى: ومكسوبة. أو: وكسبه. والمعنى: لم ينفعه ماله وما كسب بماله، يعني: رأس المال والأرباح. أو ماشيته وما كسب من نسلها ومنافعها، وكان ذا ساياها^(٣). أو ماله الذي ورثه

== آل بنيعض. وهي قبيلة معروفة، ولعل لها عدة متعدد، وما حكاها بعض شراح شواهد الجاهلي من أن عدى بن حاتم وجل روى بني قصراً للثمان بن امرئ القيس بظهر الكوفة، فأعجبه فسأله: هل بنيت مثله فقال: لا، وبنيت على حجر لوسط سقط القصر، فألقاه من أهله نحر ميتاً؛ فهو خطأ. والصواب أن هذه الحكاية إنما وقعت لسنار المذكور في قوله:

جزى بنوه أبا الفيلان عن كبر وحسن فعل كما يهزى سنار
لأن عدى بن حاتم صحابي من لب العرب، ويصغير «بنوه»: لأبي الفيلان بالكسر. وسنار بكسر النون تنهيد. و«عن» متعلقة بهزى، أي: جزاء ناشئاً عن كبر؛ وفيه معنى التكم. ويجوز أنها بمعنى الليل، والأوجه أنها بمعنى بعد. وقيل: إنها بمعنى في، وليس بشيء؛ وعبر بالمضارع بدل الماضي استحضاراً لما مضى، لأنه عجيب.

(١) متفق عليه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) قال محمود: «ويؤيد ذلك قراءة من قرأ يدا أبو لهب» قال أحمد: وفي هذا دليل لأن الرفع أسبق وجوه الأعراب وأولها. الاتزام إنما حافظوا على صيغته التي بها اشتهر الاسم، وكانت أول أحواله.

(٣) قوله «وكان ذا ساياها» ذكر في القاموس من مائها: المال الكثير والنتاج، والأبل للنتاج والنعم التي كثر نسلها. والثالث، القديم. والطارق. المستحدث (ع)

من أبيه والذي كسبه بنفسه . أو ماله الثالث والطارف . وعن ابن عباس : ما كسب ولده . وحكى أن بنى أبي لب حب احتكموا إليه ، فاقتلوا ، فقام يحجز بينهم ، فدفعه بعضهم فوق ، فغضب ، فقال : أخرجوا عني الكسب الحثيث : ومنه قوله عليه السلام وإن أطيّب ما يأكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه ، وعن الضحاك : ما ينفعه ماله وعمله الحثيث ، يعنى كيده فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن قتادة : عمله الذى ظن أنه منه على شيء ، كقوله (وقد منّا إلى ما عملوا من عمل) وروى أنه كان يقول : إن كان ما يقول ابن أخى حقاً فأنا أفتدى منه نفسى بمالى وولدى (سيصلى) قرئ بفتح الياء وبضمها : مخففاً ومشدداً ، والسين للوعيد ، أى : هو كائن لا محالة وإن تراخى وقته (وامرأته) هى أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان ، وكانت تحمل حزمة من الشوك والحسك^(١) والسعدان فتثراها بالليل فى طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : كانت تمشى بالنخيلة : ويقال للشاة بالنائم المفسد بين الناس : يحمل الحطب بينهم ، أى : يوقد بينهم النائرة ويورث الشر . قال :

مِنَ الْبَيْضِ لَمْ تَصْطَلْ عَلَى ظَهْرِ لَأْمَةٍ وَلَمْ تَمْشِ بَيْنَ الْحَيِّ بِالْحَطَبِ الرَّطْبِ^(٢)

جعله رطباً ليدل على التدخين الذى هو زيادة فى الشر ، ورفعت عطفاً على الضمير فى (سيصلى) أى : سيصلى هو وامرأته . و (فى جيدها) فى موضع الحال . أو على الابتداء ، وفى جيدها : الخبر . وقرئ : حالة الحطب ، بالنصب على الشتم ؛ وأنا أستحب هذه القراءة ، وقد توسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بجميل : من أحب شتم أم جميل . وقرئ : حالة الحطب . وحالة للحطب : بالتثوين ، والرفع والنصب . وقرئ : ومريته بالتصغير . المسد : الذى قتل من الجبال فتلاً شديداً ، من ليف كان أو جلد ، أو غيرهما . قال :

(١) قوله « من الشوك والحسك » فى الصحاح ، الحسك ، : حسك السعدان . وفيه « السعدان » : نبت شوك ، ولهذا النبت شوك يقال : حسك السعدان . (ع)

(٢) أنه قد يعقوب . والبياض : مجاز عن الخلو من أسياى الغم . وتصطلى من الصيد ، أى : الوجدان والادراك ، وزنه يفتل : فليت تاه الافتتال طاء على القياس . ورواه بعضهم بضد . وبعضهم : يضطد ، بالضاد المسجمة فيها ، على أنه من الضد ، وينظر وجه الثانى ؛ لأن الدال فيه حقا التهديد ، فلمه خفها بالضرورة . واللام : اللوم وسبه : شبهها بالمطية التى اعتاد صاحبها ركوبها على طريق المكينة ، فأثبت لها الظاهر تحيلاً لذلك . وروى : بالحط ، بدل الحطب : وهو الحطب ، والحطاب الذى يحظر به ؛ والمراد النخيلة : استعير لها ذلك بجامع ثوران المكروه من كل ، لأن الحطب الرطب إذا أوقدت فيه النار كثر دخانه . وروى : لم يضد ، ولم يمش بالياء على أنها صفة لمذكر .

* وَمَعَدٍ أَمْرٍ مِنْ آيَاتِنِ * (١)

ورجل ممسود الخلق مجدوله . والمعنى : في جيدها جبل مما مسد من الجبال ، وأنها تحمل تلك الحزمة من الصوك وتربطها في جيدها كما يفعل الخطابون : تخصيماً لحالها ، وتحقيراً لها ، وتصويراً لها بصورة بعض الخطابات من المواهرن ، لتمتعن^(٢) من ذلك ويتمتعن بعلمها ؛ وهما في بيت العز والشرف . وفي منصب الثروة والجدة . ولقد عير بعض الناس الفضل بن العباس ابن عتبة ابن أبي لهب بحمالة الخطب ، فقال :

مَاذَا أَرَدْتَ إِلَى شَتْمِي وَمَنْقَصِي أَمْ مَا تَعْبُرُ مِنْ حَالَةِ الْخَطْبِ
غَرَاءَ شَادِحَةٍ فِي الْمَجْدِ غُرْمَهَا كَأَنَّ سَلِيلَةَ شَيْخٍ نَاقِبِ الْحَسَبِ^(٣)

(٤) إن سرك الأرواء غير سائق فاعجل بفرب مثل غرب طارق
ومسد أمر من آياتن ليس بأنياب ولا حقائق

ولا ضماف مخهن زاهق

لعمارة بن طارق . يقول : إن سرك الاستدعاء حال كونك غير سائق للابل التي يسقى عليها ، فأسرع إلى ماء بربد لو عظيمة مثل دلو طارق أبي . ويجعل أمر : بالبناء للجهول . أي : قتل فلا شديداً . من آياتن ، أي : من أوبارها ، أو من جلودها . والآياتن : جمع آيتن . والآيتن : جمع نوق والنوق : جمع ناقة ، ليس ذلك الجبل أنياباً ، أي : نوقاً مسنة ، ولا حقائق : أي فتيات ، ولا ضمافاً : أي ليس من هذه الأنواع التي تساق بمشقة في هذا التنويع تنغير عنها . وروى : لسن ، أي : النوق التي يقتل منها . والأشبه بأن حق الرواية مع آياتن ، أي : أعجل بجبل مفتول من الليف الأبيض . ونوق شداد : لاحتجاج إلى الموق . ومخهن زاهق : قال الفراء : هو مرفوع ، والفهر مكفا . يقول : بل مخهن مكتنز سمين على الابتداء ، وهذا مما يؤيد رواية : لسن بالنوق . وقال غيره : الزاهق هنا المذهب ، وهو مجرور بالعطف ، أي : ولا ضماف مخهن . وزاهق بالجر رداعلى ضماف ، فكأنه رفع مخهن بضماف .

(٥) قوله . من المواهرن لتمتعن ، جمع ما هن وهي الخادم . والامتعاظ : الغضب . أداة الصراح . (ع)

(٦) هو تعبير للفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب . وحالة الخطب : زوجة أبي لهب ؛ فهي جدته . والفراء البيضاء . والفاذخة : المتسمة ؛ وذلك مجاز عن الظهور وارتفاع المقدار . والسليلة من سل من غيره ، والمراد بالشيخ : أبوما حرب ، لأنها أم جبل أخذ أبي سفيان بن حرب ، كانت عوراء ، وماتت مخنوقة بجبلها الذي كانت تحمل فيه الخطب . وقيل : حمل الخطب مجاز عن إثارة الفتنة ، لأنها كانت نامة . وإلى شتني : متعلق بمحذوف أو بأردت على طريق التضمنين ، أي : أي شيء أردته ما تلا أنت إلى شتني ، أو منفضاً هو إلى شتني . أو ما الذي أردته من شتني أو مع شتني ؟ هل أردت أنك شريف لأعيب فيك . ويحوز أن إلى بمعنى من كما قال النخاعة ، واشتبهوا عليه بقوله : . تقول وقد عاليت بالكور فوقها . لسن فلا يروى إلى ابن أحرأ .

ويمكن أنها للصاحبة ، كما قالوه أيضاً في قوله تعالى (ولا تأكلوا أموالكم إلى أموالكم) ونعيم : أصله تنعيم ، لحذف منه إحدى التائين . أما تنعيم من جدتك النامة لا ينفى عدم ذلك . وروى : ناقب الحسب . والمعنى : أن حسبه أصل ، فكأنه داخل في أجداد السابقين . وأوسأو بين الناس ؛ وهذا الآن مع رفعة شأنها فيما كان : أشد في الامتنان .

وبحتمل أن يكون المعنى : أن حالها تكون في نار جهنم على الصورة التي كانت عليها حين كانت تحمل حزمة الشوك ؛ فلا تزال على ظهرها حزمة من حطب النار من شجرة الزقوم أو من الضريع ، وفي جديدها حبل من ما مسد من سلاسل النار : كما يعذب كل مجرم بما يجانس حاله في جرمه .
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرأ سورة تبت رجوت أن لا يجمع الله بينه وبين أبي لُهب في دار واحدة (١) .

سورة الإخلاص

مكية ، وقيل مدنية ، وآياتها ٤ (نزلت بعد الناس)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① اللَّهُ الصَّمَدُ ② لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ③ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ④

(هو) ضمير الشأن ، و (الله أحد) هو الشأن ، كقولك : هو زيد منطلق ، كأنه قيل : الشأن هذا ، وهو أن الله واحد لا ثاني له . فإن قلت : ما محل هو ؟ قلت : الرفع على الابتداء والخبر الجملة . فإن قلت : فالجملة الواقعة خبراً لا بد فيها من راجع إلى المبتدأ ، فأين الراجع ؟ قلت : حكم هذه الجملة حكم المفرد في قولك : زيد غلامك ، في أنه هو المبتدأ في المعنى ، وذلك أن قوله (الله أحد) هو الشأن الذي هو عبارة عنه ، وليس كذلك زيد أبوه منطلق ، فإن زيدا والجملة يدلان على معنيين مختلفين ، فلا بد مما يصل بينهما . وعن ابن عباس : قالت قريش : يا محمد ، صف لنا ربك الذي تدعونا إليه ، فزلت : يعنى : الذى سألتونى وصفه هو الله ، وأحد : بدل من قوله ، الله . أو على : هو أحد ، وهو بمعنى واحد ، وأصله واحد . وقرأ عبد الله وأبى : هو الله أحد ، بنغير (قل) وفى قراءة النبي صلى الله عليه وسلم : الله أحد ، بنغير (قل هو) وقال من

(١) أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه من حديث أبى بن كعب .

قرأ : الله أحد ، كان بعدل القرآن . وقرأ الأعمش : قل هو الله الواحد . وقرأ : أحد الله ، بغير تنوين : أسقط لملاقاته لام التعريف . ونحوه

• وَلَا ذَاكَ إِلَّا قَلِيلًا • (١)

والجديد هو التنوين ، وكسره لانثناء الساكنين . و(الصمد) فعل بمعنى مفعول ، من صمد إليه إذا قصده ، وهو السيد المصمود إليه في الحوائج . والمعنى : هو الله الذي تعرفونه وتقرّون بأنه خالق السموات والأرض وخالقكم ، وهو واحد متوحد بالإلهية لا يشارك فيها ، وهو الذي يصمد إليه كل مخلوق لا يستغنون عنه ، وهو الغنى عنهم (لم يلد) لأنه لا يجانس ، حتى تكون له من جنسه صاحبة فيتوالدا . وقد دل على هذا المعنى بقوله (أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة) . (لم يولد) لأن كل مولود محدث وجسم ، وهو قديم لا أول لوجوده وليس يحسم ولم يسكاته أحد ، أى : لم يمثله ولم يشاكله . ويجوز أن يكون من الكفاة في الشكاح ، نفيًا للصاحبة : سألوه أن يصفه لهم ، فأوحى إليه ما يحتوى على صفاته . فقوله (هو الله) إشارة لهم إلى من هو خالق الأشياء وفاطرها ، وفي طي ذلك وصفه بأنه قادر عالم ؛ لأن الخلق يستدعى القدرة والعلم ، لكونه واقعا على غاية إحكام واتساق وانتظام . وفي ذلك وصفه بأنه حى سميع بصير . وقوله (أحد) وصف بالوحدانية ونفى الشركاء . وقوله (الصمد) وصف بأنه ليس إلا محتاجا إليه ، وإذا لم يكن إلا محتاجا إليه : فهو غنى . وفي كونه غنيا مع كونه عالما : أنه عدل غير فاعل للقبائح ^(٢) ، لعلمه بقبح القبيح وعلمه بغناه عنه . وقوله (لم يولد) وصف بالقدم والأولية . وقوله (لم يلد) نفي للشبه والجنانسة . وقوله (ولم يكن له كفوا أحد) تهرير لذلك وببالحكم به : فإن قلت : الكلام العربى الفصيح أن يؤخر الظرف الذى هو لغو غير مستقر ولا يقدم ، وقد نص سيبويه على ذلك فى كتابه ^(٣) ، فما باله مقدما فى أفصح كلام وأعربه ؟ قلت هذا الكلام إنما سبق لثنى المكافأة عن ذات البارى سبحانه ؛ وهذا المعنى مصبه ومركزه هو هذا

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٤٤٨ فراجع إن شئت اه مصححه .

(٢) قوله «إنه عدل غير فاعل للقبائح» هذا مذهب المعتزلة ، وذهب أهل السنة إلى أنه تعالى هو الخالق لجميع الأشياء غيرها وشرها قبيحها وحسبها . قال تعالى : (الله خالق كل شئ) . وعلمه بقبح القبيح لا يمنعه من خلقه ، لأنه الحكمة وإن لم يعلمها غيره . (ع)

(٣) قال محمود : «إن قلت الكلام العربى الفصيح أن يؤخر الظرف وقد نص سيبويه على ذلك» قال أحد : نقل سيبويه أنه سمع بعض الجفاة من العرب يقرأ : ولم يكن أحدا كفوا له ، وجرى هذا الجلف على عادته فجفا طبعه عن لطف المعنى الذى لا حله اقتضى تقديم الظرف مع الخبر على الاسم ، وذلك أن القرض الذى سبقته له الآية نفي المكافأة والمساواة عن ذات الله تعالى ، فكان تقديم المكافأة المقصود بأن يسلب عنه أولى ، ثم لما قدمتم تسلب ذكر معها الظرف ليبين الذات المقدسة بسلب المكافأة ، والله أعلم .

الظرف ، فكان لذلك أم شيء وأعناؤه ، وأحقه بالتقدم وأجراه . وقرئ : كفؤا ، بضم الكاف والفاء . وبضم السكاف وكسرهما مع سكون الفاء : فإن قلت . لم كانت هذه السورة عدل القرآن كله على قصر منها وتقارب طرفيها ؟ قلت : لأمر ما يسود من يسود ، وما ذاك إلا لاحتوائها على صفات الله تعالى وعدله وتوحيده ، وكفى دليلا من اعترف بفضلها وصدق بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها : إن علم التوحيد من الله تعالى بمكان ، وكيف لا يكون كذلك والعلم تابع للعلوم : يشرف بشرفه ، ويتضع بضعه ؛ ومعلوم هذا العلم هو الله تعالى وصفاته ، وما يجوز عليه وما لا يجوز ، فما ظنك بشرف منزلته وجلالة محله ، وإنافته على كل علم ، واستيلائه على قصب السبق دونه ؛ ومن ازدراه فلضعف عليه بمعلومه ، وقلة تعظيمه له ، وخلوه من خشيته ، وبعده من النظر لعاقبته . اللهم احشرنا في زمرة العالمين بك العاملين لك ، القائلين بعدلك وتوحيديك ، الخائفين من وعيدك . وتسمى سورة الأساس لاشتغالها على أصول الدين . وروى أبي أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أسست السموات السبع والأرضون السبع على قل هو الله أحد »^(١) . يعني ما خلقت إلا لتكون دلائل على توحيد الله ومعرفة صفاته التي نطقت بها هذه السورة . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سمع رجلا يقرأ قل هو الله أحد فقال : « وجبت » . قيل : يا رسول الله وما وجبت ؟ قال : « وجبت له الجنة »^(٢)

(١) لم أجده مرفوعا ، وأخرجه ابن أبي شيبة في فضائل القرآن من رواية عبد الله بن غيلان الثقفي عن كعب الأحبار موقوفا .

(٢) أخرجه الترمذي والنسائي والحاكم من حديث عبيد بن حنين عن أبي هريرة . وله شاهد في الطبراني الكبير من حديث أبي أمامة .

سورة الفلق

مكية ، وقيل مدنية ، وآياتها ٥ (نزلت بعد الفيل)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ① مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ② وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ④ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ⑤

الفلق والفرق : الصبح ، لأن الليل يفلق عنه ويفرق : فعل بمعنى مفعول . يقال في المثل : هو أبيض من فلق الصبح ، ومن فرق الصبح . ومنه قولهم : سطع الفرقان ، إذا طلع الفجر . وقيل : هو كل ما يفلقه الله ، كالارض عن النبات ، والجبال عن العيون ، والسحاب عن المطر ، والأرحام عن الأولاد ، والحب والنوى وغير ذلك . وقيل : هو واد في جهنم أوجب فيها من قولهم لما اطمأن من الأرض : الفلق . واجمع : فلقان . وعن بعض الصحابة أنه قدم الشام فرأى دور أهل الذمة وماهم فيه من خفض العيش وماوسع عليهم من دنياهم ، فقال : لا أبالي ، أليس من ورائهم الفلق ؟ فقيل : وما الفلق ؟ قال : بيت في جهنم إذا فتح صاح جميع أهل النار من شدة حره (من شر ما خلق) من شر خلقه . وشرهم ④ : ما يفعله المكلفون ⑤ من الحيوان من المعاصي والمآثم ، ومضاربة بعضهم بعضاً من ظلم وبغى وقتل وضرب وشم وغير ذلك ، وما يفعله غير المكلفين منه من الأكل والنهس واللدغ والعض كالسباع والحشرات ، وما وضعه الله في الموات من أنواع الضرر كالإحراق في النار والقتل في السم . والغاسق : الليل

(١) قوله «من شر خلقه وشرهم» لعله وشره ، أي : شر خلقه حيواناً أو مواتاً . (ع)

(٢) قال محمود : «معناه من شر خلقه ، أي من شر ما يفعله المكلفون .. الخ» قال أحمد : لا يصح على قاعدته الفاسدة التي هي من جملة ما يدخل تحت هذه الاستعاذة إلا صرف الشر إلى ما يعتقد خالقاً لأفعاله ، أولاً هو غير فاعل له البتة كالموات : وأما صرف الاستعاذة إلى ما يفعله الله تعالى بعباده من أنواع النعم والبلاء وغير ذلك ، فلا ؛ لأنه يعتقد أن الله لا يخلق أعمال الحيوانات ، وإنما هم يخلقونها لأنها شر ، والله تعالى لا يخلق له قبيح : كل ذلك تفريع على قاعدة الصلاح والأصلح التي وضع فسادها ، حتى حرف بعض القدرية الآية ، فقرأ : من شر ما خلق بتكوين شر وجعل ما نافيه .

إذا اعتسك زلامه من قوله تعالى (إلى غسق الليل) ومنه : غسقت العين امتلأت دمعاً ، وغسقت الجراحة امتلأت دماً . ووقوبه : دخول زلامه في كل شيء . ويقال : وقبت الشمس إذا غابت . وفي الحديث : لما رأى الشمس قد وقبت قال : هذا حين حلها ، يعنى صلاة المغرب^(١) . وقيل : هو القمر إذا امتلأ ، وعن عائشة رضى الله عنها : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فأشار إلى القمر فقال : تعوذى بالله من شر هذا ، فإنه الغاسق إذا وقب^(٢) . ووقوبه : دخوله في الكسوف واسوداده . ويجوز أن يراد بالغاسق : الأسود من الحيات : ووقبه : ضربه وبقبه . والوقب : القب . ومنه : وقبة الثريد ؛ والتعوذ من شر الليل لأن انبثائه فيه أكثر ، والتحرز منه أصعب . ومنه قولهم : الليل أخفى للويل . وقولهم : أغدر الليل ؛ لأنه إذا أظلم كثر فيه الغدر وأسند الشر إليه ملابسته له من حدوثه فيه (التفانيات) النساء ، أو النفوس ، أو الجماعات السواحر اللاتي يعقدن عقداً في خيوط وينفثن عليها^(٣) ويرقن : والنفث النفخ من ريق ، ولاتأثير لذلك^(٤) ، اللهم إلا إذا كان ثم إعطام شيء ضار ، أو سقيه ، أو إشمامه . أو مباشرة المسحور به على بعض الوجوه ؛ ولكن الله عز وجل قد يفعل عند ذلك فعلاً على سبيل الامتحان الذي يتميز به الثابت على الحق من الخشوية والجهلة من العوام ، فينسب الخشو والرعاع^(٥) إليهن وإلى نفثهن ، والنابتون بالقول الثابت لا يلتفتون إلى ذلك ولا يعيرون به . فإن قلت : فما معنى الاستعاذة من شرهن^(٦) ؟ قلت : فيها ثلاثة أوجه ، أحدها : أن يستعاذ من عملهن الذي هو صنعة السحر ومن إثمهن في ذلك . والثاني : أن يستعاذ من فتنتهن الناس بسحرهن وما يخدعنهم به من باطلهن . والثالث : أن يستعاذ مما يصيب الله به من الشر عند نفثهن ، ويجوز أن يراد

(١) أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث من طريق عبيد الله بن هبة مرسلًا .

(٢) أخرجه الترمذي والنسائي والحاكم وأحمد وإسحاق وابن أبي شيبة وأبو يعلى كلهم من طريق ابن أبي ذئب عن خالد الحرث بن عبد الرحمن عن أبي سلة عنها ،

(٣) قال محمود : «هن السواحر اللاتي يعقدن الخيوط وينفثن عليها ... الخ» قال أحد : وقد تقدم أن قاعدة القدرية إنكار حقيقة السحر ، على أن الكتاب والسنة قد وردا بوقوعه والأمر بالتعوذ منه . وقد صرح صلى الله عليه وسلم في مشط ومشاطة في جف طلعة ذكر . والحديث مشهور ؛ وإنما الزمخشري استغزاه الهوى حتى أنكر ما عرف ، وما به إلا أن يتبع اعتزاله ويفطى بكفه وجه النزلة ،

(٤) قوله «ولا تأثير لذلك» مبنى على مذهب الممتزلة من أنه لا حقيقة للسحر ولا تأثير له . وذهب أهل السنة إلى إثباته وإثبات تأثيره لظواهر الكتاب والسنة . (ج)

(٥) قوله «فينسب الخشوية والرعاع» في الصراح «الرعاع» : الأحداث الطغام . ربه «الطغام» : أرواد الناس وفيه «الوعد» : الرجل الذي يخدم بطعام بطنه . (ج)

(٦) قال محمود : «فإن قلت : ما معنى الاستعاذة من شرهن ، وأجاب ... الخ» قال أحد : وهذا من الطراز الأول فقد عته جانيبا ، ولو فسر غيره التفانيات في العقد بالمتشبهات من النساء ولعن ساحرات حتى يتم إنكار وجود السحر : لعد من يدع التفسير .

بين النساء الكيادات ، من قوله (إن كيدكن عظيم) تشبيهاً لكيدهن بالسحر والنفث في العقد . أو اللاتي يفتن الرجال بتعرضهن لهم وعرضهن محاسنهن ، كأنهن يسحرنهم بذلك (إذا حسد) إذا ظهر حسده وعمل بمقتضاه : من بغى الغوائل للمحسود ، لأنه إذا لم يظهر أثر ما أضمره فلا ضرر يعود منه على من حسده ، بل هو الصائر لنفسه لا عتامة بسرور غيره . وعن عمر بن عبد العزيز : لم أر ظالمًا أشبه بالمظلوم من حاسد . ويجوز أن يراد بشر الحاسد : إثمه وسماجة حاله في وقت حسده ، وإظهاره أثره . فإن قلت : قوله (من شر ما خلق) تعميم في كل ما يستعاذ منه ، فما معنى الاستعاذة بعده من الغاسق والنفاثات والحاسد ؟ قلت : قد خص شر هؤلاء من كل شر لحفاء أمره ، وأنه يلحق الإنسان من حيث لا يعلم ، كأنما يغتال به . وقالوا : شر العداة المداجي الذي يكيدك من حيث لا تشعر . فإن قلت : فلم عرف بعض المستعاذ منه ونكر بعضه ؟ قلت : عرفت النفاثات ، لأن كل نفاثة شريرة ، ونكر غاسق ، لأن كل غاسق لا يكون فيه الشر ، إنما يكون في بعض دون بعض ، وكذلك كل حاسد لا يضر . ورب حسد محمود ، وهو الحسد في الخيرات . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : « لا حسد إلا في اثنتين »^(١) ، وقال أبو تمام :

• وَمَا حَاسِدٌ فِي الْمَكْرُمَاتِ بِحَاسِدٍ •^(٢)

وقال :

• إِنَّ الْعُلَا حَسَنٌ فِي مِثْلِهَا الْحَسَدُ •^(٣)

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ المعوذتين فكأنما قرأ الكتب التي أنزلها الله تعالى كلها »^(٤) .

(١) متفق عليه من حديث ابن مسعود ، ومن حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، والبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) وفي المحسود وأهقر حاسدي وما حاسدي في المكرمات بحاسد .
أي تمام . يقول : إن جامع للخصال الحيدة ، فالحسد كناية عن ذلك . وأهقر يهقر كضرب يضرب ، أي : أن حاسدي معذور لحسن صفاتي وعظموا ، وليس الحاسد في الخصال الحيدة بحاسد مدموم ، بل مقتبط مدموح .

(٣) فأغر فاما من سماء للعلا ارتفعت إلا وأفمالك الحسنى لها عهد

وأهقر حسودك فيأقد خصصت به إن أعلا حسن في مثلها الحسد

أي تمام . وشبه القدر المرتفع بالسماء ، واستعار ما له على طريق التصريح ، والارتفاع ترشيح ، لأنه خاص بالمحسوسات وشبه الأعمال الجبلية بأعمدة السماء تقريبا ، لأن بها الارتفاع المعنوي .

(٤) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدى بأسانيدهم إلى أبي بن كعب ؛ وقد مضى غير مرة أنها واحدة ، وأن الحديث المرفوع في ذلك موضوع ، والله أعلم .

سورة الناس

مكية ، وقيل مدنية ، وآياتها ٦ [نزلت بعد الفلق]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ①
مَلِكِ النَّاسِ ② إِلَهِ النَّاسِ ③ مِنْ شَرِّ
الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ④ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ⑤ مِنَ الْغِيَةِ
وَالنَّاسِ ⑥

قري : قل أعوذ ، بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى اللام ، ونحوه . فخذ أربعة . فإن قلت : لم قيل « (رب الناس) » مضافا إليهم خاصة ؟ قلت : لأن الاستعاذة وقعت من شر الموسوس في صدور الناس . فكأنه قيل ؛ أعوذ من شر الموسوس إلى الناس بربهم الذي يملك عليهم أمورهم ، وهو إلههم ومعبودهم ، كما يستغيث بعض الموالى إذا اعتراهم خطب بسيدهم ويخدوهمهم ووالى أمرهم . فإن قلت : « (ملك الناس إله الناس) » ما هما من رب الناس ؟ قلت : هما عطف بيان ، كقولك : سيرة أبي حفص عمر الفاروق . بين بملك الناس ، ثم زيد بيانا بإله الناس ، لأنه قد يقال لغيره : رب الناس ، كقوله (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) وقد يقال : ملك الناس . وأما (إله الناس) فخاص لا شركة فيه ، فجعل غاية للبيان . فإن قلت : فهلا اكتفى بإظهار المضاف إليه الذي هو الناس مرة واحدة ؟ قلت : لأن عطف البيان للبيان ، فكان مظنة للإظهار دون الإضمار (الوسواس) اسم بمعنى الوسوسة ، كالزلال بمعنى الزلزلة . وأما المصدر فوسواس بالكسر كزلال . والمراد به الشيطان ، سمي بالمصدر كأنه وسوسة في نفسه ، لأنها صنعت وشغله الذي هو عاكف عليه . أو أريد ذو الوسواس . والوسوسة : الصوت الخفى . ومنه : وسواس الحلى .

(١) قال محمود : « إن قلت : لم أضاف اسمه تعالى إليهم خاصة وهو رب كل شيء ... الخ » قال أحمد : وفي التخصيص جرى على عادة الاستعطاف ، فانه معه أتم . عاد كلامه قال : والله الناس عطف بيان لملك الناس . أو كلاما عطف بيان للأول ، والثاني أبين : لأن ملك الناس قد يطلق لغير الله تعالى ، وأما إله الناس فلا يضاف إلا له عز وجل ، فجعل غاية للبيان ، وزيد البيان بشكر أو ظاهر غير مضمهر ؛ والله سبحانه وتعالى أعلم . هذا ما يسر الله من القول ، ولاني أبرأ إلى الله تعالى من القوة والحوال ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

و(الخناس) الذى عادته أن يخنس، منسوب إلى الخنوس وهو التأخر كالعواج والبتات^(١) لما روى عن سعيد بن جبير: إذا ذكر الإنسان ربه خنس الشيطان وولى، فإذا غفل وسوس إليه (الذى يوسوس) يجوز في محله الحركات الثلاث، فالجر على الصفة، والرفع والنصب على الشتم، ويحسن أن يقف القارئ على (الخناس) ويبتدىء (الذى يوسوس) على أحد هذين الوجهين (من الجنة والناس) بيان للذى يوسوس، على أن الشيطان ضربان: جنى وإنسى، كما قال شياطين الإنس والجن. وعن أبي ذر رضى الله عنه قال لرجل: هل تعوذت بالله من شيطان الإنس؟ ويجوز أن يكون (من) متعلقاً بـيوسوس، ومعناه: ابتداء الناية، أى: يوسوس في صدورهم من جهة الجن ومن جهة الناس، وقيل: من الجنة والناس بيان للناس، وأن اسم الناس ينطلق على الجنة، واستدلوا بنهر ورجال: في سورة الجن. وما^(٢) أحقه؛ لأن الجن سموا دجناً، لاجتماعهم، والناس دئاساً، لظهورهم، من الإيناس وهو الإبصار، كما سموا بشراً؛ ولو كان يقع الناس على القبيلىين، وصح ذلك وثبت: لم يكن مناسباً لفصاحة القرآن وبعده من التصنع. وأجود منه أن يراد بالناس: الناسى، كقوله (يوم يدع الداع) كما قرئ^(٣) (من حيث أفاض الناس) ثم يبين بالجنة والناس؛ لأن الثقلين هما النوعان الموصوفان بنسيان حق الله عز وجل.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد أنزلت على سورتان ما أنزل مثلهما، وإنك لمن تقرأ سورتين أحب ولا أرضى عند الله منهما^(٤)، يعنى المعوذتين. ويقال للمعوذتين: المتهششتان.

(١) قوله «كالعواج والبتات» بائع العاج، وبائع البتوت: وهى منرب من الثياب. (ع)
 (٢) قوله «وما أحقه» فى الصحاح: حقت الأمر: واحتقته: إذا تحققت وصرت منه على يقين. (ع)
 (٣) لم أجده بهذا اللفظ. وأوله فى مسلم بمعناه من حديث عقبة بن عامر رضى الله عنه «أن الذى صلى الله عليه وسلم قال له: ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم ير مثلهن قط (قل أعوذ برب الفلق) و(قل أعوذ برب الناس) وآخره فى ابن حبان من حديث عقبة بمعناه. وأيضاً قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لأن يقرأ سورة أحب إلى الله ولا أبلغ من قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس، فإن استطعت أن لا تدعهما فى صلاة فافعل».

قال عبد الله الفقير إليه : وأنا أعوذ بهما وبجميع كلمات الله الكاملة الثابتة ، وألوذ بكشف رحمته الشاملة العامة ، من كل ما يكلم الدين ، ويثلم اليقين ، أو يعود في العاقبة بالندم ، أو يقدح في الإيمان المسوط باللحم والدم ^(١) ، وأسأله بخضوع العنق وخشوع البصر ، ووضع الخد لجلاله الأعظم الأكبر ، مستشفعا إليه بنوره الذي هو الشيبة في الإسلام ، متوسلا بالتوبة المحصنة للآثام ، وبما عنيت به من مهاجر قى إليه ومجاور قى ، ومرابط قى بمكة ومصابرقى ، على تواكل من القوى ، وتخاذل من الخطأ ، ثم أسأله بحق صراطه المستقيم ، وقرآنه المجيد الكريم ، وبما لقيت من كدح اليمين وعرق الجبين ، في عمل الكشف عن حقائقه ، المخلص عن مضايقه ، المطلع على غوامضه ، المثبت في مداخضه . المخلص لشكته ولطاقفه نظمه ، المنقر عن فقره وجواهر علمه ، المكتنز بالفوائد المفصلة التي لا توجد إلا فيه . المحيط بما لا يكتنه من بدع ألفاظه ^(٢) ومعانيه ، مع الإيجاز الحاذق للفضول ، وتجنب المستكره المملول ؛ ولولم يكن في مضمونه إلا إيراد كل شيء على قانونه ، لكنني به ضالة بنشدها محققة الأحبار ، وجوهرة يتمنى العثور عليها خاصة البحار ، وبما شرقى به ومجدنى ، واختصنى بكرامته وتوحدنى : من ارتفاعه على يدى فى مهبط بشاراته ونذره ، ومتنزل آياته وسوره ، من البلد الأمين بين ظهرائى الحرم ، وبين يدى البيت المحرم ، حتى وقع التأويل ، حيث وجد التنزيل : أن يهب لى خاتمة الخير ، ويقينى مصارع السوء ، ويتجاوز عن فرطائق يوم الشناد ، ولا يفرضنى بها على رؤس الأشهاد ؛ ويحلنى دار المقامة من فضله ، بوسع طوله وسابغ نوله ، إنه الجواد الكريم ، الرؤف الرحيم .

(فى نسخة مانصه) :

فى أصل المصنف بخطه رحمه الله تعالى : وهذه النسخة هى نسخة الأصل الأولى التى نقلت من السواد ، وهى أم الكشف الحرمية المباركة المتمسح بها ، المحقوقة أن تستنزل بها بركات السماء ويستمطر بها فى السنة الشهباء ، فرغت منها يد المصنف تجاه الكعبة فى جناح داره السلیمانية ، التى على باب أجياد الموسومة بمدرسة العلامة : ضحوة يوم الاثنين لثالث والعشرين من ربيع الآخر فى عام ثمانية وعشرين وخمسمائة ، وهو حامد لله على باهر كرمه ، ومصل على عبده ورسوله ، وعلى آله وأصحابه أجمعين .

(١) قوله « المسوط باللحم والدم » أى : المخلوط . أعاده الصحاح .

(٢) قوله « من بدع ألفاظه » فى الصحاح « شئ بدع » بالكسر :

« لا بدع فى هذا الأمر » أى :

« بدع » (ج)

فهرس الجزء الرابع من تفسير الكشاف

صفحة	صفحة	صفحة
سورة البلد ٧٥٣	سورة المنافقون ٥٣٨	سورة يس ٣
الشمس ٧٥٨	التغابن ٥٤٥	الصافات ٣٣
والليل ٧٦١	الطلاق ٥٥١	ص ٧٠
والضحى ٧٦٥	التحريم ٥٦٢	الزمر ١١٠
الشرح ٧٧٠	الملك ٥٧٤	غافر ١٤٨
والزین ٧٧٣	٢ ٥٨٤	فصلت ١٨٤
العلق ٧٧٥	الحاقة ٥٩٨	الشورى ٢٠٨
القدر ٧٨٠	المعارج ٦٠٨	الزخرف ٢٣٥
البيئة ٧٨١	نوح ٦١٥	الدخان ٢٦٩
الزلزلة ٧٨٣	الجن ٦٢٢	الجاثية ٢٨٤
والعاديات ٧٨٦	المزمل ٦٣٤	الاحقاف ٢٩٤
القارعة ٧٨٩	المدثر ٦٤٤	محمد ٣١٤
التكاثر ٧٩١	القيامة ٦٥٧	الفتح ٣٣١
والعصر ٧٩٣	الإنسان ٦٦٥	الحجرات ٣٤٩
الهمزة ٧٩٤	المرسلات ٦٧٢	ق ٣٧٩
القبيل ٧٩٧	النبا ٦٨٣	والذاريات ٣٩٤
قريش ٨٠٠	والنازعات ٦٩٢	والطور ٤٠٨
الماعون ٨٠٣	عبس ٧٠٠	والنجم ٤١٦
الكوثر ٨٠٦	التكوير ٧١٨	القمر ٤٣٠
الكافرون ٨٠٨	الانفطار ٧١٤	الرحمن ٤٤٢
النصر ٨١٠	المطففين ٧١٨	الواقعة ٤٥٥
المسد ٨١٣	الانشقاق ٧٢٥	الحديد ٤٧١
الإخلاص ٨١٨	البروج ٧٢٩	المجادلة ٤٨٤
الفلق ٨٢٠	الطارق ٧٣٤	الحشر ٤٩٨
الناس ٨٢٣	الاعلى ٧٣٧	المنتحة ٥١٠
	الغاشية ٧٤١	الصف (و) ٥٢٢
	والفجر ٧٤٠	الجمعة ٥٢٩

[استدراك]

سقط أثناء طبع هذا الكتاب شرح شاهدين من شواهدهم . وهما :

الأول : بالجزء الثالث صفحة ٢٨٧ في سورة الفرقان عند قوله تعالى (وهذا ملح أجاج) ... قوله «وَصَيَّامًا تَٰرِدًا» وقد أورد الشيخ محمد عليان في شرحه للشواهد هذا الشاهد هكذا .

أصبح قلبي صردا لا يشتهي أن يردا إلا عرارا عردا

وصلينا بردا وعنكنا ملتبدا

أنشده أبو الهيثم . وصردا صردا . وتعب تعباً : إذا برد ، فهو صرد ، كحذر : أي بارد . وللعرار : ورد ناعم أصفر طيب الرائحة . ينبت مفترشاً بلا ساق . والعارد والورد - كحذر : الصلب الغليظ الملتف من النبات . والصيلان : نوع من الثبات . وكذلك العنكث : والبرد : أصله البارد . والملتبد : المجتمع المنضم بعضه إلى بعض . قال أبو الهيثم : زعمت العرب أن الصفدع كان له ذنب ، والضب لا ذنب له : فتخاصما يوما : أيهما أصبر على الظمأ ، فخرجا في نبات البر فمطش للصفدع . فنادى : يا ضب وردا وردا . فقال الضب : أصبح قلبي وفعلنا في اليوم الثاني كذلك ، فلما كان الثالث نادى الصفدع فلم يجبه الضب ، فبادر إلى الماء خفية ، فتبعه الضب فاقتلع ذنبه ووضع نفسه . وقيل : إن ذلك كان بين السمكة والضب .

الثاني : بالجزء الثالث صفحة ٦٠٩ في سورة فاطر عند قوله تعالى (ومن الجبال جدد) ...

قوله « أَوْ مَذْهَبٌ جُدَدٌ عَلَى الْوَاحِيهِ » وهو :

فكان معروف الديار بقادم - فبراق غول فالرجام وشوم - أو مذهب جدد على الواحه الناطق المبروز والمختوم - دمن تلاعبت الرياح برسمها - حتى تشكر توثيها المهدوم للبيد بن ربيعة يصف آثار الديار ومعروفها ، أي المعروف منها وقادم ، وبراق غول ، والرجام : أسماء مواضع . والشوم : جمع وشم ، شبهها بالوشم ثم قال : أذاك تشبه الدار أو مذهب ، أي كتاب مطلى بالذهب . على الواحه جدد ، أي : طرائق تخالف بقية لونه . ومنه : جدة الحمار للخط الأسود على ظهره والناطق بقطع الهمة : لأن أول المصراع محل ابتداء ، وإن لم يقف قبله . وناطق الكتاب : مجاز عن دلالاته على المعاني . وقال الجوهري : المبروز المنشور وهكذا ورد في شعر آخر للبيد . وإن أنكرها أبو حامد وقال : لعلمها المزبور . أي المكتوب ووسط الواو لتوكيد ربط الصفة بالمرصوف . والمختوم : الواجب العمل بما فيه ، ولعل الناطق خبر محذوف لعدم صحة وصف النكرة بالمعرفة ، ثم قال : هي دمن ، أي : قامات متلبدة تلاعبت . أي : جرت الرياح مختلفة على رسمها ، أي بقية آثارها حتى تشكر ، أي تغير توثيها : وهو ما يحفر حول الحياء بمنقته من الماء كالسيل .

تم — بعون الله تعالى — الجزء الرابع من تفسير الكشاف
وبه تم الكتاب

وكان الفراغ من طبعه في ربيع الأول من سنة ١٣٦٦ هجرية
الموافق فبراير سنة ١٩٤٧ ميلادية

